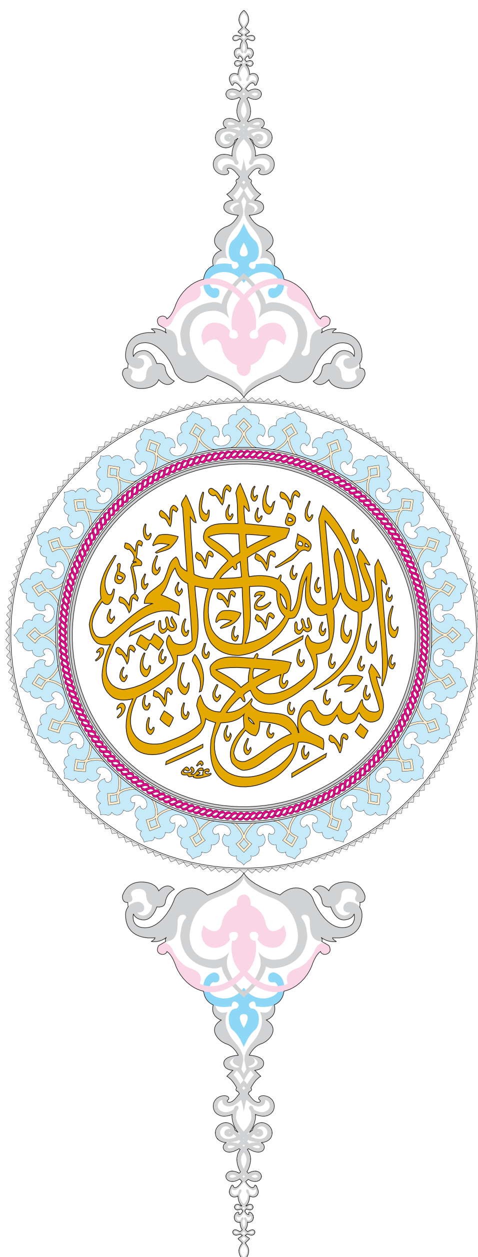
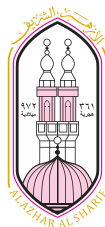




٢٠


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

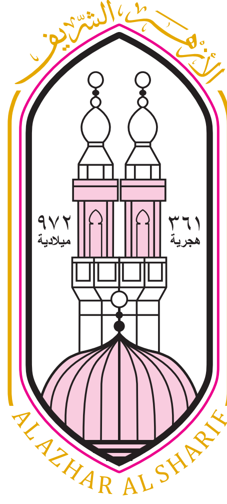
٢٠

المجلد العشرون

السنة ١٣٦٨هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان - ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

المحرم سنة ١٣٦٨ | المجلد العشرون



مجلة الأزهر



تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

مجلة الأزهر

المجلد العشرون

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمد فريد وجدى بك

الاشتراك السنوى	٤٠	لمصر والسودان
	٥٠	لخارج القطر المصرى

ثمن العدد ٤٠ مليما

الإدارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر
١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة العشرون لمجلة الأزهر

الحمد لله على تواتر آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، محمد وعلى آله وصحبه وأوليائه .

أما بعد ، فإننا نفتتح بهـذا الجزء من مجلة الأزهر سنتها العشرين ، منافحة عن الإسلام ، مقومة للأخلاق ، داحضة للشبهات ، ناصرة للسنة ، مميتة للبدعة ؛ وما نجده من إقبال القراء عليها ، وإعجاب أولى البصر بها ، يشجعنا على المضى بها قـُدُما على السمت الذى توخيناه .

وقد جرينا أخيرا على طريقة عادت على قرائها بالفوائد الجزيلة، وهى الاستكثار من كتابة العلماء الأزهريين ، كل فى الفرع من العلم الذى يقوم بتدريسه ، أو ما يمت إليه بسبب ؛ فأصبحت مجلة الأزهر تمثل الجامعة الأزهرية بكل معانى هذه الـكلمة . وليس هذا بقليل ؛ فإن العالم الاسلامى كله يتطلع الى ما يدرس فى الأزهر ، ويتوق لأن يقرأ لأهله ما ينفعهم فى عقائدهم وعاداتهم وسيرتهم ؛ فيجد فى مجلة الأزهر طَلِـبته ، وكانت أعز عليه من كل مأمول .

لا جـرم أن مجلة الأزهر لسان الأزهر الناطق ، وعقله المـدبر ، وصوته الرنان ، يصل إلى سمع كل مسلم فى أقصى الأرض ؛ فإن كان لا يفهمها إلا من درس العربية ، فزبدتها تترجم لهم بلسانهم ، يقوم بذلك رجال منهم أسعدهم الحظ بالشخوص إلى مصر ، والالتحاق بالأزهر ، وأخذ العلم عن شيوخه الموقرين .

وليست مجلة الأزهر مقطوعة الصلة بأية ناحية من نواحى العالم ، وما يدور فيه مما يختص بالدين على وجه عام ، وبالإسلام على وجه خاص ؛ فإن من موظفيها

من حذقوا اللغات الأجنبية ، فهم متصلون بالعالم الأجنبى وينقلون عن مجلاته وجرائده ما يجدّ فيها من البحوث القيمة ، أو ما يستحدث من الشبهات العلمية والفلسفية فيدحضونها . وهذا من أمسّ الأعمال بحاجة النشء فى هذا العصر الذى اشتدت فيه مناهضة الماديين للدين .

هذا موقف يُشكر لله على ما هدى القائمين على الدين إلى إيجاده ، وقد تتابع على الأزهر شيوخ أجلاء فى هذه العشرين السنة الأخيرة ، فحظيت منهم جميعا بالتأييد التام ، نخص بالذكر منهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر الحالى ؛ فهو عظيم العناية بها ، شديد الرغبة فى ترقيتها .

وإذا ذكرت مجلة الأزهر ، وجب رفع واجب الشكر والإخلاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ؛ فهو حفظه الله يحبوها برعايته السامية ، ويخصها بعنايته العالية ، لا زال ملكه وطيد الأركان ، ودولته سامقة البنيان ، بفضل الله وكرمه ؟

محمد فريد وجدى

الجامع الازهر

يحتفل بأول السنة الهجرية

احتشد جم غفير من علية القوم يتقدمهم معالى رئيس الديوان الملكى وجمهرة من علماء أعلام، ووجهاء وكبار الموظفين، وطلبة أزهريين، فلما أدوا صلاة العصر نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر، فألقى خطابة جامعة ألمّ فيها بنبذ من تاريخ ظهور الإسلام، وما أوجده فى العالم من نظام ووئام، وما أثمرته تعاليمه من مدنية فاضلة، وعمران عالمى، لا تزال آثاره قائمة الى اليوم؛ وألمّ بما لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول فى جمع كلمة العرب، وطلب الى الله أن يديم هذه النهضة المباركة، لتؤتى ثمراتها فى العالم. كل ذلك ببيان شائق، وعبارات بايخة، تقبلها السامعون بالإعجاب والإكبار. وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله الذى افتتح بالهجرة الشريفة النبوية أولى صفحات إعزاز دينه القويم، ونصر بها نبيه إمام المجاهدين، وقدوة المهتدين. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه.

إخوانى وأبنائى المسلمين :

تسعد الأيام بما تتمخض عنه من أحداث عظام؛ وإنه ليوم مبارك الطلعة، خليق أن يتخذه المسلمين عيدا؛ ذلك اليوم الذى هاجر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة، الى المدينة المنوّرة، فيتذكرون فيه من صفات الرسول صدقَ الإيمان، وقوة العزيمة، ونفاذ البصيرة، وكمال الشجاعة، وغاية الإيثار.

لقد أجمع خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم أمرهم على أن يتخلصوا منه،

وزَيَّن لهم شيطانهم أن فى ذلك إطفاء لنور الله ، الذى آن له أن يشرق على الكون فيضيئه ، وبيّتوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فى ليلة معينة ، بطريقة معينة ، يتفرق بها دمه الطاهر فى القبائل ، فتحار قبيلته فى الثأر له ، لأنها لا تقوى على معاداة القبائل كلها ، إن هى شنّت الحرب عليها جميعا ، ولا هى تعرف أى قبيلة قتلت الرسول فتثأر له منها ؛ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أحيط بما اعتزمه المتآمرون ، إذ أطلعه الله على مكرهم ، وعلى الليلة التى حددوها لتنفيذ جرمهم ، فقابل الرسول ذلك الفضل من الله بشكر عميق ، وإيمان كامل ، وقلب سليم ، لا ينفذ اليه فَرَق ولا جزع ، ونفس مطمئنة مهيأة لأبلغ رسالة ، حتى إذا التف المتآمرون بدار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وراحوا يتباهون بما انتووه ، ويتفاخرون بما عسى أن تضفيه عليهم قبائلهم من المدح والثناء ، لقاء شنيع صنعهم ، إذ بالرسول صلى الله عليه وسلم يخرج من داره ، فيغشيهم الله ، فلا يبصرون .

ويمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكانا قد تواعدا على اللقاء به ، بعد أن أذن الله لرسوله بالهجرة الى يثرب ؛ فرافقه الصديق فى يوم أبلج أغر ، ويصبح المتآمرون ويدخلون دار الرسول يبغون تنفيذ ما بيتوا النية عليه ، فلا يجدون فى مضجعه إلا عليا كرم الله وجهه ، متشحا رداءه ، معرضا حياته فى سبيل صاحب الدعوة ، وحامل الرسالة ، فيقيه الله مكر الماكرين ، ويحفظ حياته وحياة الرسول الأمين ، ليتم نعمته على العالمين .

وما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يخرج ليلا من مكة مع الصديق رضى الله عنه ، ميممين شطر الغار ، حتى أحاط الصديق بالرسول ، فيسبقه مرة ، ويمشى خلفه مرة ، ويسير عن يمينه تارة ، وعن يساره أخرى ؛ فلما استوضحه الرسول جلية الأمر ، أجابه : أذكرُ الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . فلما بلغا الغار تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان من أمر المشركين أن تابعوا الرسول والصديق ، فلم يفوزوا بما أرادوا ، بل رجعوا على أعقابهم خاسئين ، وانقلبوا الى أهلهم خاسرين ، وأتم الله نعمته

على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصل هو وصاحبه الى المدينة المنورة ، فخف المسلمون لاستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبّروا فرحا بقدومه ، وحيوه تحية النبوة . قال البراء : ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة . وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

هذا هو صدق إيمان الرسول ، ومضاء عزمه ، وقوة احتماله فى سبيل الدعوة الى الحق ؛ وهذا هو وفاء صحبه ، وتفانيهم فى نصره . فاذا أحيينا نحن المسلمين ذكرى الهجرة المحمدية ، فإنما نتمثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى قوة إيمانه ، ونفاذ بصيرته ، ومبلغ وفائه فى سبيل نشر الدعوة لدين الله ، فقد مكن الله للمسلمين بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهجرتهم من مكة الى المدينة ؛ فألّف بين قلوبهم ، فكانوا وحدة قوية متماسكة ، وجبهة متراصة ، أرعبت المشركين فى مكة ، وطوحت بأطماع اليهود فى يثرب ، ودخلت قبيلتا الأوس والخزرج فى دين الله ، فتآخوا ، واتحدت كلمتهم ، وزال ما كان بينهم من عداء سابق دام عشرات السنين ، وساهموا فى إعلاء الإسلام ، ونشر لوائه ؛ ثم قضى المسلمون على الدس والغدر والفساد والكيد والخبث والنفاق ، وحاربوا اليهود وغلبوهم على أمرهم ، وأجلوهم من المدينة وما جاورها من القرى ، وتتابع الوحى الإلهى على الرسول الكريم صلوات الله عليه ، حتى شمل جميع مظاهر الحياة : من العبادات والمعاملات ، ومحاسن الأخلاق والآداب ، ونظام الأسرة والقضاء والمواريث ، والحروب والمعاهدات ، وغير ذلك من كل ما يكفل للمسلمين ـ إذا هم عملوا به ـ حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة .

هذه خوالج تخطر فى النفس ، كلما جاءت الهجرة أو ذكرت ؛ ولكنها اليوم تستدعى تأملا أعمق ؛ فقد جاء عيد الهجرة والمؤمنون فى شرف الجهاد ضد الذين يريدون أن يخرجوهم من ديارهم ، ولكن الله منّ على المؤمنين فوحّد قلوبهم ، وجمع كلمتهم على مقاومة هذا العدوان ، وسيكتب لهم بإذنه تعالى النصر المؤزّر ، والفوز المبين ، بفضل تآخيهم وتماسكهم ؛ ومهما طالت المحنة فإن الله ناصر دينه ، معز لعباده المؤمنين ؛ وليكن لنا أسوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد صبر حتى ظفر ، وجاهد حتى انتصر .

إخوانى وأبنائى المسلمين :

إن دينكم حق كله ، وخير كله ، فاستمسكوا بعروته ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تفرقوا ، فإن يد الله مع الجماعة ؛ وإن خير ما أوصيكم به فى هذه الذكرى المباركة أن تتقوا الله ، وتصلحوا ذات بينكم ، وتتبعوا كتابه ، وتعملوا بهديه ؛ فإن الأمة الإسلامية عاشت عزيزة مهيبة ما تمسكت بكتاب الله ، وعملت بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولم يصبها الانحلال والضعف إلا حين تنكبت طريق الهداية ، وأعرضت عن سبيل الحق . هدانا الله وإياكم سواء السبيل .

اللهم فاطر السموات والأرض : تولنا بلطفك ، وامنحنا رضاك ، ووفقنا للاهتداء بهدى نبيك الكريم ، وأصلح أمرنا . اللهم انصر عبادك المجاهدين فى سبيلك ، وأمدهم بعونك ، وأيدهم بجندك ؛ واشمل بحمايتك ورعايتك ، صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروقا الأول . اللهم اشرح صدره ، ويسر أمره ، وآته سؤله ، وأنله ما يبتغيه للإسلام والعروبة من خير وعز وكرامة . اللهم أحيه حياة طيبه مباركة تعم بنفعها البلاد والعباد .

وإنى وإخوانى وأبنائى الأزهريين ، نرفع إلى مقام جلالته أسمى آيات الولاء والإخلاص والتهنئة ، والشكر ؛ ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا العيد السعيد على جلالته باليمن والفتح المبين ، وأن يوفق رجال الحكومة إلى ما فيه الخير العميم . كما نبعث بتهنئتنا الخالصة إلى إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بالعام الهجرى الجديد ، ضارعين إليه تعالى أن يعيده على المسلمين والعرب ، وقد ثبّت الله أقدامهم ، وحقق آمالهم ، وظفروا بالنصر المبين .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان : أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاى الملك العظيم ، صاحب الجلالة الملك فؤادا الأول . اللهم أجعله فى أعلى عليين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بين معترك الفلسفات والانقلابات

لم تتوزع عقول البشر بين الفلسفات المختلفة ، والمذاهب المتعاكسة كما هى الحال فى هذا العصر . ومما يزيد الأمر خطرا أن هذا التوزع لم يقتصر على الجماعات المختلفة فتجتمع كل منها حول كلمة جامعة ، ولكنها تناولت الأفراد أيضا فأصبح بين طوائف الأمة الواحدة من الإحن والحزازات مثل ما بين الجماعات ، فترى فى الأمة الواحدة حروبا تشب نيرانها بين تلك الطوائف ، تدوم حينا ثم تهدأ لتعود الى تأججها تارة أخرى أشد ضراوة مما كانت .

لقد قام الاجتماع منذ أن خلق الله العالم الانسانى الى عهد غير بعيد ، على الربُط الجامعة التى يقدسها أفراد كل هيئة ، كرابطة الدين ، ورابطة الوطنية ، ورابطة الجنس ، ورابطة اللغة ، ورابطة التقاليد والعادات ، ورابطة الغايات والمُثل العليا الخ ، فمنيت كل هذه الربُط فى العهد الأخير بالوهن ؛ فعدَت الفلسفة على رابطة الدين فحلت محلها المادية المحضة ، وسطت المنازعات الاقتصادية على رابطة الوطنية فأوهنتها ، حتى إنك لتجد المتمذهبين بمذاهب اقتصادية متطرفة يعطفون على من هم على شاكلتهم من أبناء الأمم المختلفة ، ضاربين صفحا عما بين تلك الأمم من خلافات سياسية ، ومنازعات اجتماعية . أما رُبُط التقاليد والعادات والمُثل العليا فقد ضعفت حتى لم يبق لها تأثير فى قلوب الأمم ، وحلت محلها اندفاعات هوائية لا ترتكز على شىء مما كانت تعبأ به الجماعات وتحرص عليه . فإذا تأملت فى مجموع الأمم من هذه الزاوية ، أيقنت أن الوحدات الاجتماعية فى حالة تحلل مستمر ، وألفيت رُبُطها فى دور تراخٍ تدريجىّ . ولكنك لو تأملت لتجد الكلمة الجامعة التى يجب أن تنضوى هذه الجماعات تحت علمها ، لما اهتديت الى خيال منها . فهل سينتهى العالم على هذا النحو الى الفوضى المطلقة من كل مثل أعلى يرضى الجانب الروحى الذى لا تتجرد منه نفس بشرية ؟

يقول الغلاة من أهل السذاجة : نعم ، ويقول المفكرون الراسخون فى العلم : لا .

وحجة الأولين أن هذه المنازعات القائمة بين طوائف الأمم ستنتهى بشيوع الإلحاد المطلق ، وبتداعى سلطان جميع الأصول الاجتماعية العتيقة ، وحلول أصول أخرى محلها تكوّنها المصالح الوقتية ، بعيدةً عن كل تأثير من عقيدة دينية أو نزعة حزبية .

وحجة الآخرين أن هذه المصادمات الواقعة بين طوائف الأمم ستفضى الى إضعافها واختلال نظمها ، وستريها رأى العين أن الحياة البشرية لا تقوم إلا على أسس من التقاليد المحترمة ، والنظم المقررة ، لا على النفسيات الثائرة ، والاندفاعات الجارفة ، والمذاهب المتطرفة . ولا تتهذب تلك التقاليد والنظم إلا على سنة الترقى التدريجى ، قائمةً على الارتقاء الأدبى ، والسمو الخلقى ، على النحو الذى نشأ عليه ما نحن فيه من رقى صورى ومعنوى ، حصلناه تدريجيا فى أجيال كثيرة متعاقبة ، لا ما فيه بعض الأمم اليوم من التناحر بين طوائفها ، والتنازع بين عناصرها ، جريا وراء تحسين أجور ، أو وصول الى ولاية حكم ، أو قلب نظام مجتمع رأسا على عقب ، فى العهد الذى فيه تتربص الأمم ببعض دوائر السوء ! مثلهم فى هذا كمثل أهل دار اشتد بينهم التنافس على توزيع الحجرات وتأثيثها ، وهى مهددة بالانهيار عليهم ، وهم يصطرعون فى داخلها !

نعم إن ارتقاء أدوات الحكم فى حياة الأمم كثيرا ما جرّت إلى ثورات عنيفة ، وإراقة دماء غزيرة ، ولكن هذه القلاقل كانت بعيدة عن حوافظ الاجتماع ، ومعاقد الأخلاق ، وأصول الآداب المتفق عليها بين الناس كافة ؛ وأما التى تشب فى هذه الأيام بين طوائف الأمم ، والتى لا تزال فى دور الاختمار ، فتتوجه إلى إسقاط الأصول الأولية للمعتقدات ، وإلى القواعد الأساسية للاجتماع ، وإلى الوطائد الفطرية للآداب ! وقد وجدت الدعايات القوية لدعاة هذه المذاهب مكانا فسيحا من أفئدة العامة ، وانضاف اليها بعض المتعلمين ، فتجد فى صميم كل أمة أوزاعا منهم ينتقدون كل ما تقع عليه أعينهم من القيود ، وينقمون على كل توجيه يصدر إليهم من المهيمنين على النظم الاجتماعية ، ويتمنون لو حان الوقت ، وسنحت لهم الفرص لتحطيم كل هذه التقاليد الإنسانية العامة ، ليتأدوا منها إلى الوجود السعيد ! وأى شىء هو الوجود السعيد ؟ هو أن يتّملسوا من جميع التقاليد ، ويتحرروا من كل

القيود ، زاعمين أنها تقاليد وقيود قررتها البشرية فى عهد جاهليتها من دين وأخلاق وآداب لم تملها عليها الحاجات الجسدية ، ولا الضرورات الاجتماعية ، ولكن الخيالات الذهنية ، والخزعبلات الوهمية !

فلو انحلت أمة تحت تأثير هذه الدعايات والقلاقل ، استحال عليها أن تأتلف على أصل جامع غير ما يؤلف بين جماعات البهائم العجم ، وهى دون ما تتطلبه الحياة البشرية ، لأن لها فوق ما نشعر به من الحاجة الى المأكل والمأوى مطالب روحية وأدبية ، إن حبست عنها حطمت جميع ما تحاط به من الحواجز ، وبرزت ثائرة منافحة لا تستطيع أن تقفها أكبر قوة فى الأرض . وما ذلك إلا لأنها تستمد قوتها من صميم الروح البشرية ، وكل ما كان مصدره الروح فلا بد من تغلبه على جميع الحوائل المادية . فالدين والأخلاق والآداب ، وكل ما اشتق من هذه الينابيع الثلاثة ، مقومات طبيعية للحياة الإنسانية ، بدليل أنه لم تشاهد إنسانية مجردة منها .

نعم إن هذه المصادر العلوية قد يختلط فى ثمرتها ـ بسبب شوائب الطبيعة الجثمانية ـ الحق بالباطل ، والصالح بالفاسد ، ولكنها تتجرد من باطلها وفاسدها بتأثير ناموس الترقى على مدى الزمان ، كما هو مشاهد فى تاريخ الحياة البشرية فى أجيالها المتعاقبة . فما يحاوله مثيرو القلاقل من المعاصرين باسم الشؤون الاقتصادية ، والنظم الحكومية ، والطبقات الاجتماعية ، من حذف الدين وكل ما يقوم حائلا دون المرامى الأدبية والغايات المثالية للإنسانية ، مما بنوه على ضلالات الفلسفة المادية ، لا يعود على جماعاتهم إلا بالوبال . لا سيما وقد فاتهم أن الحكمة الدينية ، والمبادىء الأدبية ، والدوافع المثالية ذات التأثير الكبير فى النفوس ، هى العوامل التى تبعد بالإنسانية عن مستوى الحيوانية ، وترتفع بها الى أعلى ما تتجه اليه ميولها العلوية ، وأن تعطيل هذه العوامل يفضى بالإنسان الى ما هو أسفل من الحالة البهيمية ؛ لأن الحياة الحيوانية مقودة بما طبعها الله عليه من الميول والمحاولات ، لا تستطيع عنها حولا ، خلافا للإنسان فإنه موكول الى إرادته واختياره ، فإن لم يحكم إرادته عقل ناضج ، وتتسلط على ميوله الشهوانية شكيمة أدبية قوية ، وتتحكم فى نزعاته عقيدة راسخة ، اندفع تحت تأثير رغباته وميوله اندفاعا جنونيا ينزله الى أسفل دركات البهيمية ، ولا يغنيه العلم ولا الفلسفة المادية فى هذا التدهور شيئاً . وهذا دليل محسوس على أن الميول

الفطرية للتدين ، وللتعلق بعالم ما فوق الطبيعة والبحث فيه ، ولإحياء الغرائز الأدبية العليا فى النفوس ، هى ميول إلهية بثها الحق سبحانه وتعالى فى النفوس البشرية لترفعها عن حضيض الحيوانية إلى أرقى مراتب الحياة الإنسانية . وأمامنا صورة واضحة للفرق البعيد بين الأمم التى تأخذ بالدين والعلم معا ، وبين التى تصدف عن الدين وتأخذ بالعلم والفلسفة المادية . الأولى تمثل الأمة الإسلامية فى إبان نشأتها واشتغالها بنشر رسالتها ، والثانية تمثل الأمم الأوروبية فى حروبها الحديثة . كانت الأولى لاتقتل غير المحاربين ، وتحسن معامله المأسورين ، وتحترم حياة النساء والولدان والهرمى ورجال الدين وخدم المقاتلين ، ولاتهدم دورا ولا معابد ، ولا تحرق أشجارا ولا مزارع ؛ وهؤلاء كانوا لا يفرقون بين المحاربين وغيرهم ، فكانوا يرسلون بطائراتهم تهدم الدور على رءوس أهلها الوادعين ، ويحرقون المدن التى يسكنها الملايين ، غير رامين إلا إلى تعجيز أعدائهم بكل الوسائل التى تخطر ببال الإخصائيين .

فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد فقد آذنت المدنية بالزوال ، وإذا اعتبرت القنابل الذرية من الأسلحة المشروعة فعلى العالم كله السلام ! .

أليس يبدو جليا من هذه المقارنة أن الدين وما يتصل به من فتوحات واكتشافات تؤيده وتحببه الى النفوس ، هو العامل الوحيد الذى يهذب الإنسانية ، ويرقى بها الى الأوج الأعلى من الكمال ؛ وأن العلم الطبيعى والفلسفة المادية وإن أوصلا الإنسانية الى أرقى ما يتصوره العقل من الرقى المادى ، والإبداع الصورى ، فلا يوصلانه إلى كماله الأدبى ، ولا إلى سموه المعنوى ، فهو بحاجة ماسة إلى شكيمة تصده عن الاسترسال فى سوء استعمال سلطانه على العالم الأرضى .

فإذا بقيت الحال على ما هى عليه من ترقى العلم فى استكشاف الأسلحة الفتاكة ، وبقيت النفوس مجردة من العقائد الروحية الملطفة للوحشية البشرية ، فإن الحياة الانسانية تصبح مهددة بالفناء على أشنع حال ؛ ولكن قيم الوجود سبحانه وتعالى قد أعد لهذا الأمر عدته ، فلن تمضى بضع عشرات من السنين حتى يدين العلم للدين الحق ، على شرط العلم نفسه ، أى بالدليل المحسوس .

محمد فريد وجدى

البعوث فى الاسلام

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه الساكت
مبعوث الأزهر إلى مكة المكرمة

عن أبى موسى رضى الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال: «بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا».

وعن سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذا إلى اليمن فقال: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

قلنا فى المقال الماضى: إن هذين الحديثين احتويا على ثلاث خصال بنى عليهن أمر الدين كله، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر أمته بهن، ولا سيما بعوثه، ومن كان فى موضع القدوة من الأمة. وتكلمنا على الخصلة الأولى منهن وهى التيسير والتسهيل على الناس فى العلم والعمل، والإرشاد والدعوة، فى غير إفراط ولا تفريط. ولا نغلو إذا قلنا إن هذه الخصلة هى الأساس الأول للخصلتين الأخريين، ولذا أشاعها النبى صلى الله عليه وسلم فى كل شأن، وأكد طلبها فى كل أمر، وقال لأصحابه وهم خيرة أمته حينما ثاروا على الأعرابى الذى بال فى المسجد: «فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1].

أما الخصلة الثانية فهى التبشير — ضد التنفير — وهو: تسكين الناس[2] وإخبارهم بالأخبار السارة التى يظهر أثرها على البشرة. والتبشير من أعظم الوسائل الى ترويح النفوس وإزالة همومها، والحيلولة بينها وبين القنوط واليأس. ولن تجد أعون للداعى بعد توفيق الله تعالى، من بشارة طيبة، يفتح بها آذانا صماً وأعينا عميا وقلوبا غلفا. وكم من نفوس كانت مستعدة للهدى والخير لولا أن ابتليت بأناس منفرين، يقنِّطون الناس من رحمة الله، ويبعدونهم من فضله ورضاه: أولئك الذين يجسمون الصغائر، ويكفرون بالكبائر، ويشتدون فى الأمر والنهى، كأنهم حراس على أبواب الجنة، لا يدخلها أحد إلا أن يفتحوا له، أو كأن مفاتيح الرحمة بأيديهم فلا تنال أحدا إلا أن يرضوا عنه؛ وكأنهم نسُوا أو تناسَوا أن رحمة الله غلبت

---

(١) وتقدمت قصته فى المقال السابق.

(٢) فى احدى الروايات المتفق عليها «سكنوا» بدل «بشروا» فلذا فسرنا التبشير بالتسكين.

غضبه ، وأنها وسعت كل شيء ، وأن من أسرف على نفسه حتى ملأ الأرض خطايا ثم لقى الله تائبا لا يشرك به شيئا ، لقيه الله بالمغفرة ؛ ومهما يكن من أمر المسرفين فإن عفو الله أعظم من جرمهم ، ورحمته أوسع من ذنبهم ، ولا ييأس عبد من روح الله وفى قلبه ذرة من إيمان «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وليس المراد أن يقتصر الداعى على التبشير، دون أن يقرنه بالإنذار إذا دعت الحاجة إليه ؛ بل لا بد منهما جميعا ، وإن كان لكل مقام ما يناسبه ؛ وقد بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . ولولا البشارة لأهلك الناس اليأس والقنوط ؛ ولولا النذارة لأهلكهم الغى والغرور ؛ فكلاهما سلاح لا غنى عنه ، وطب لا بد منه ؛ ومن أجل ذلك لم ينه النبى صلى الله عليه وسلم عن الإنذار وإن كان كذلك خلاف التبشير . على أنه من اليسير على من دعا الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ألا يكون فى إنذاره غليظا مفظعا ، اللهم إلا إن دعت الى ذلك ضرورة لا محيص عنها ؛ وآخر الدواء الكىّ !

وهنا أمر يجدر بنا أن ننبه عليه ؛ وهو أن كثيرا ممن يتصدون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، يبالغون فى التبشير والإنذار ، فيسوون النوافل بالفرائض ، والصغائر بالكبائر ، ويذكرون لأقل الأعمال أعظم الجزاء ، معتمدين فى شططهم هذا على أكاذيب مسطورة ، وأحاديث موضوعة لا سند لها من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وحق على الولاة أن يأخذوا على أيدى هؤلاء ، ويحولوا بينهم وبين الدعوة ، فإنهم يفسدون أكثر مما يصلحون ، إلا أن يتوبوا إلى الله سبحانه ويتعلموا شرائط الدعوة ومنهجها ، ويقتدوا بالأئمة والسلف ، وتكون لهم بصيرة نيرة تهديهم سواء السبيل . وفى كتاب الله عز وجل وما صح عن رسوله صلوات الله عليه غنى وكفاية . على أن فى هذا الصحيح ما تعجز النفوس الضعيفة عن حمله وفهمه [1] ؛ فليكن الحديث فيه بمقدار ، مع إحاطته بالإيضاح والحكمة ، والتمهيد له بالإعداد والإيقاظ . وفى مثل هذا يقول سيدنا على رضى الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ؛أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله » ! وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت محدثاً قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ! .

---

(١) كغرائب الأحاديث ، وأحاديث الصفات ونحوها .

وأما الخصلة الثالثة فهى التطاوع والتوافق ، ضد التخالف والتنازع . وفى التوافق قوة وألفة ، وفى التخالف والتنازع ضعف ونفرة . وقد كان المسلمون سادة العالم وملوك الدنيا وخلفاء الله فى الأرض، إلى أن دب فيهم دبيب الخلاف والتفرق ، فبُدلوا من بعد أمنهم خوفا ، ومن بعد قوتهم ضعفاً ، ومن بعد عزهم ذلا ، ولولا أن الدين عند الله هو الإسلام لما كان لسلطانهم فى الوجود ظل ، ولا لشأنهم فى الأمم ذكر .

كان العرب فى الجاهلية أمما متفرقة ، وأحزابا متقطعة ، وأقواما متناحرين متنافرين ، لا كلمة تجمعهم ، ولا رابطة تربطهم ؛ حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فجمعهم تحت لواء التوحيد وراية الإسلام ، وألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ! . . . ولم يزالوا متمتعين بنعمة الوحدة والأخوة ، حتى فرقتهم الأهواء والمطامع ، وعضوا بنان الندم ، ولات ساعة مندم !.

على أن فيما شرع الله لهم من هذه الفرائض حوافز عملية تناديهم بالوحدة وتدعوهم إلى الوفاق والألفة ، وتهيب بهم فى كل فرصة أن ارجعوا إلى دينكم واستاروا بسيرة الصالحين من أسلافكم ، تعزوا وتسعدوا ، وتظفروا وتفلحوا ، وتكونوا كما كنتم من قبل خلفاء الله فى الأرض .

تلك هى الخصال الثلاث التى كان يوصى بها النبى صلى الله عليه وسلم بعوثه ، وهى كما ترى سبيل السعادة لمن استمسك بها ، واهتدى بهديها .

هذا ، وقد كان بعثه صلوات الله وسلامه عليه معاذا وأبا موسى إلى اليمن سنة عشر قبل حجة الوداع ؛ وقيل سنة تسع عند منصرفه من تبوك ؛ وقيل سنة ثمان عام الفتح . وأياما كان الأمر فقد بعثا بعد أن علا شأن الإسلام ، وبدد نوره سحب الظلام ، وكانت اليمن إذ ذاك مخلافين [1] فكان معاذ والياً على النجود وما تعالى من البلاد ، وكان أبو موسى والياً على التهائم وما انخفض منها . ومع بعد الشقة بينهما فكانا يتزاوران ويتعاونان ، ويسأل كل منهما صاحبه عن عمله وعبادته ليتنافسا فى الخير ويتسابقا إليه ؛ وكانا يتناصحان ويتشاوران ، فإذا تنازعا فى شىء ردوه إلى الله ورسوله ؛ فيتوافقان ويتطاوعان . وجملة القول أنهما كانا قدوة صالحة لمن دعا إلى الله على بصيرة وهدى ؟

(١) المخلاف والكورة والاقليم : واحد .

تحويل القبلة

من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس فى كلية أصول الدين

قال الله تعالى « قد نرى تقلُّبَ وجهِك فى السماء ، فلنولينّك قبلةً ، ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجدِ الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ؛ وإن الذين أوتوا الكتاب ليَعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » .

من الفيوضات الإلهية ما جمّل الله به الإنسان من جمال الصورة ، وما ركز فيه من المواهب السامية ، لا سيما هبة العقل .

أكرمه بذلك من بين خلقه ، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

إنها وأيمْ الحق هبات جليلة ، لا تكون إلا من صنع مدبر حكيم ، ومن نسج عليم خبير ، يجب بإزائها أن يخرّ بنو آدم إلى الأذقان سجدا ، وأن يؤدوا واجب الطاعة مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد طرفهم عن التوجه إلى جنابه الأقدس ، اعترافا بفضل مسديها ، وإذعانا لأمر مهديها . لذلك كان تكاليف الصلاة أمراً لازماً فى دين جميع الأنبياء ؛ قال الله تعالى « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكياً » :

ولما كانت فطر المكلفين المعتمدين استحالة الجهة على الله تعالى تقتضى عدم التوجه إلى جهة مخصوصة فى الصلاة ، أمرهم على خلاف ماتقتضيه فطرهم ، اختباراً

لهم وابتلاء ، ليتميز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصى ؛ كما ابتلى الملائكة بالسجود لآدم حيث جعله قبلة لسجودهم .

وإنك لتعلم أن المقصد الأسمى من الصلاة حضور القلب وكمال الخشوع ، واستحضار عظمة الله ، حتى كأنه يراه فيمتلىء قلبه هيبة من جلاله ، ويفنى ظله أمام تجلياته ، ويذهب شبح الدنيا ومغرياتها بمشاهدة أنواره ؛ وإن ذلك لمقام الخائفين، ووسام المحسنين . فالصلاة صلة بين العبد وربه ، تنهاه عن الفحشاء والمنكر متى أداها على وجه الإحسان الذى يتوّجه بأحد التاجين : تاج المشاهدة والمراقبة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ومن هنا يخلق بك أن تلمس بيدك السر فى أن بعض المصلين لم تنههم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، وقد قال الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وذلك لأنها صلاة عارية من الروح المطلوبة ، ومن الحكمة التى من أجلها شرعت .

وإن ألطف ذريعة وأقوى وسيلة ليذل القلب ويخضع ، ويلاحظ جلال الله وعظمته ، هو استقبال جهة معينة فى الصلاة . واذا ما اختصت جهة بمزيد شرف كانت أولى ، وإن أشرف بقعة بين أديم الأرض ، وأطهر مكان يكون قبلة يتوجه اليها فى الصلاة : هى الكعبة ؛ قال الله تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا » . وليس هناك من بيت يشترك فيه جميع الناس إلا اذا كان موضوعا للطاعات والعبادات ، لأن سائر البيوت كل واحد منها مختص بواحد .

شرّف الله هذا البيت بتخطيط الملائكة له ، ووضع رسمه ، وأوحى الى أبى البشر آدم ببنائه ، فوضع أساسه على أبعد عمق من الأرض ، ومن أعظم الصخور حجما وصلابة ، فتفنى الأجيال ولا يفنى ، وتنهار الراسيات ويبقى . وكان آدم يحج اليه وأولاده جيلا بعد جيل الى أن كان طوفان نوح عليه السلام . وبعد أن غاض ماء الطوفان صار ربوة يعرف حرمتها ومزيد شرفها المصطفون الأخيار تطوف حولها الملائكة ، وتعبد الله عندها .

استمر الحال على ذلك ، والعام يتلو العام ، والقرون تمر ، حتى جاء عصر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وبعثه الله تعالى وأمره بعمارة هذا البيت ؛ قال الله تعالى : « وإذ بوأنا لإبراهيمَ مكان البيت » « وعهدنا الى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » . ولذلك قيل ليس فى العالم بناء أشرف من الكعبة . فالآمر هو الملك الجليل ، والمهندس جبريل ، والبانى هو الخليل .

وإن بيتا حفّته عناية الله فتقال فيه العثرات ، وتجاب فيه الدعوات ، ونوه الله بشأنه فى محكم كتابه بقوله « ومن يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . لجدير بأن يكون الإنسان عند استقباله فى صلاته أشد تعظيما وخشوعا ، وأكثر استحضارا وأعلى مقاما . لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون الكعبة قبلة المسلمين ، بعدأن حازوا شرف التوجه إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا ، ليكونوا من أهل القبلتين ، وليتميزوا عن المشركين قبل الهجرة ، وعن اليهود بعدها . فتطلع الرسول صلوات الله عليه وهو بالمدينة بعد الهجرة ، واشتد تشوقا وكلفا إلى نزول الوحى عليه بالتوجه إلى بيت الله الحرام ، وقد كان يتوقع ذلك من ربه ، لأن الكعبة أقدم القبلتين ، ولأنها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، ومفخرة العرب ، حيث كانت مثابة للناس وأمنا ؛ ومزارا ومطافا ، وذلك أدعى إلى دخول العرب فى الإسلام . فنزل قول الله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » الآية . وذلك بعد سبعة عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة ، وقبل وقعة بدر بشهرين .

والآن نعرض لتفسير هذه الآية ، فنقول :

هذه الآية الكريمة وإن تأخرت فى ترتيب التلاوة ، ولكنها متقدمة معنى ، على ما حكاه بعض العلماء أنها متقدمة فى النزول على قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » لأنها رأس القصة .

يقول الله تعالى : قد شاهدنا وعلمنا تردد وجهك ، وتسريح نظرك الى جهة السماء ، تطلعا الى نزول الوحى عليك ، وتوقعا لما ألقى فى روعك من تحويل القبلة الى الكعبة ، سعيا منك وراء استمالة العرب الى دخولهم فى أحضان الإسلام

وكنفه ، ومخالفة لليهود الذين كانوا يقولون إنه يخالفنا فى ديننا ثم إنه يتبع قبلتنا ، حتى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل « وددت أن الله صرفنى عن قبلة اليهود الى غيرها » فقال له جبريل : « أنا عبد مثلك ، وأنت كريم على ربك ، فادع ربك وسله » .

ثم ارتفع جبريل ، وجعل الرسول يديم النظر الى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذى سأل ربه .

أقسم الله ليكونن عند ما سأل ، وليجيبنه الى ماطلب ، فوعده بقوله « فلنولينك قبلة ترضاها » أى لنعطينك ما اشرأب اليه عنقك وأشرب حبه فى قلبك ، من استقبالك الكعبة . أو فلنجعلنك تلى سمتها . والأول من قولك وليته كذا إذا صيرته واليا له ، والثانى من قولك أوليته إياه أدنيته منه . وما قصد الرسول ذلك وأحبه عن سخط فى التولى الى بيت المقدس ومجرد هوى النفس ، والشهوة الطبيعية فى التولى الى الكعبة ؛ وإنما ذلك كان منه عليه السلام لمقاصد دينية ، وأغراض سامية ، وافقت مشيئة الله تعالى ، فأروى غلته ، وأدخل عليه السرور والابتهاج بهذا الوعد . ألا وإن وعد الله محتوم الوفاء ؛ لذلك تجد الإنجاز بما وعد جاء مرتبا عليه ومفرعا فأمر بالتولية الى الكعبة بقوله « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

الشطر له محامل ؛ والمراد به هنا الناحية والجهة . والمتبادر من لفظ المسجد الحرام : المسجد الذى فيه الكعبة . والحرام : المحرم فيه القتال ، أو الممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له .

يأمر الله تعالى نبيه عليه السلام ، وأمره أمر له ولأمته أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه ببدنه الى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه ، سواء أكانت فرضا أم نفلا ، وسواء أكان المصلى بالمدينة أو بمكة أو بأى مكان وجد فيه . وفى التعبير بالوجه ما يشير الى أنه المعيار والأصل فى التوجه . وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ما يؤذن بكفاية مراعاة جهة الكعبة . وإن ذلك لمبلغ اللطف بعباده والتيسير عليهم ، لأن البعيد عن مكة يتعذر عليه إصابة عين الكعبة « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » و « إن الدين يسر لا عسر » ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق ، وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ، ومن غاب عنها عليه أن يستقبل جهتها ، فإن خفيت عليه فيستدل على جهتها بكل وسيلة تهديه إليها .

« يتبع »

دعائم الاستقرار
فى التشريع القرآنى

تتمة البحث

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

وأما مجيء التكاليف فى حدود الاستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه أهل الشرع « بنفى الحرج » فهو أصل من الأصول المقطوع بها ، ولا خلاف عليه بين علماء الشريعة ، ويدل عليه فى القرآن الكريم آيات ؛ منها قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

وقد علمنا الله جل علاه أن ندعوه بقوله « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به » .

وقد سرى هذا المبدأ من الكتاب الكريم إلى السنة المطهرة ، وطبع الله عليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ فهو يقول « بعثت بالحنيفية السمحة » ويروى الرواة فى شمائله عليه الصلاة والسلام أنه ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما » ، وقد سئل عن الحج : أفى كل عام ؟ فقال : « لو قلت نعم لوجبت . ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم

واختلافهم على أنبيائهم » . وروى عنه أنه قال « أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سئل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم من أجل مسألته » وأنه قال : « إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

الى غير ذلك مما يدل على أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، قد تأثر أعظم التأثر بمنهج التشريع القرآنى فيما أمر به أو بينه أو ركن إليه ، وفى بيان هذا الأصل وغيره يقول ابن القيم « إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن الحكمة الى العبث ؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه [1] » .

ويقول أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه الموافقات [2] « إن وضع هذه الشريعة المباركة حنيفة سمحة سهلة ، حفظ فيها على الخلق قلوبهم ، وحببها لهم بذلك ، فلو عوملوا على خلاف السماح والسهولة ، لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم ؛ ألا ترى الى قوله تعالى: « واعلموا أن فيكم رسولَ الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » .

فقد أخبرت الآية أن الله حبب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله ، وزينه فى قلوبنا بذلك ، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه ، وفى الحديث « عليكم من الأعمال ما تطيقون ؛ فإن الله لا يمل حتى تملّوا » .

والأمثلة الدالة على رعاية هذا الأصل فى التشريع القرآنى كثيرة مشهورة .

منها : أن الله شرع الصيام ورخّص فى الفطر للمسافرين والمرضى : « ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

[١] إعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٧ . [٢] جـ ٢ ص ١٣٦

ومنها: أنه كلفنا بالوضوء والغسل من الجنابة، وشرع التيمم عند فقد الماء أو عدم القدرة عليه «... فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون».

ومنها: أنه أمر الأزواج بأن يمتّعوا زوجاتهم «على الموسع قدَره، وعلى المقتر قدره، متاعا بالمعروف» ورسم فى شئون الوالدات نهجا لا ضرر فيه ولا ضرار «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لا تكلف نفس إلا وسعها، لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده».

ومنها: أنه حرم أشياء فى حال السعة، وأباحها فى حال الضرورة «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم»، «ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك».

ومنها: أنه يعطى الطبائع حقها، ولا يلزم بما ينافرها، فالطيبات مباحة، وزينة الله التى أخرج لعباده مباحة، والرهبانية ممنوعة، واعتزال النساء فى المحيض واجب، والرفث إلى النساء ليلة الصيام حلال، والرجال قوامون على النساء، وللذكر مثل حظ الأنثيين، ومواعدة المطلقة بالزواج أثناء العدة محرمة، والجمع بين الأختين ممنوع، وحرام على الرجال التزوج من الأم أو الأخت أو العمة أو الخالة أو البنت أو أية قريبة بالنسب أو الرضاع فى الزواج منها امتهان لها، وحرام على الرجال زواج الإماء إلا فى حال الضرورة، والرهن مشروع، والمعسر منظر، وهكذا...

وقد انبنى على هذا الأصل الذى جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة كثير من الفروع الفقهية، «فالسلطان أحق بالإمامة، وصاحب البيت أحق بالإمامة، والذى ينكح امرأة جديدة يجعل لها سبعا أو ثلاثا ثم يقسم بين أزواجه، وإمامة العبد والأعرابى ومجهول النسب مكروهة. والتغنى بالقرآن مستحب، وحسن الصوت بالأذان مستحب، وتطييب المساجد وتنظيفها سنة، والاغتسال يوم الجمعة والتطييب فيه سنة» [1] ... الخ.

[١] حجة الله البالغة جـ ١ ص ٤١١.

وقد ينقلب الواجب الحتم حراما ويمنع الناس منه إذا ترتب على فعله حرج أو أذى أو فتنة ؛ ومن ذلك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان ، ولكن إذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر ، وفتنة إلى آخر الدهر . وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : لا ، ما أقاموا الصلاة ، وقال : من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته . ومن تأمل ما جرى على الإسلام فى الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته ، فتولد منه ما هو أكبر منه ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام ، عزم على تغيير البيت ورده إلى قواعد إبراهيم ، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه وعدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام ، وكونهم حديثى عهد بكفر ؛ ولهذا لم يأذن فى الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه .

فإنكار المنكر أربع درجات : (الأولى) أن يزول ويخلفه ضده . (الثانية) أن يقل وإن لم يزل بجملته . (الثالثة) أن يخلفه ما هو مثله . (الرابعة) أن يخلفه ما هو شر منه . فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة . فاذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه الى ما هو أحب إلى الله ورسوله ، كرمى النشاب ، وسباق الخيل ونحو ذلك . وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مُكاء وتصدية ، فإن نقلتهم عنه الى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فكان ماهم فيه شاغلا لهم عن ذلك . وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها ، وخفت من نقله عنها انتقاله الى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى . وروى عن ابن تيمية أنه قال : « مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن

التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم ، فقلت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال فدعهم » (١)

من هذا يتبين أن التكاليف كما روعيت فيها طاقة الفرد فى الواجبات العينية وأمثالها ، لوحظت فيها أيضا طاقة المجتمع فى الواجبات الكفائية وأمثالها ؛ فلو كان الأمر بإزالة المنكر باقيا فى الحالات التى تقدم ذكرها ، لوقع المجتمع منه فى شر عظيم ، ولاحتمل منه ما لا طاقة له باحتماله ؛ ولكن الشرع لم يكتف حينئذ بإسقاط الواجب رحمة بالعباد ، وتخفيفا عنهم ، وإنما منعهم من القيام به كراهية أن يقعوا فى حرج أشد ، فهى رحمة مما هو محتمل الوقوع من الحرج ولو ظنا .

وينبغى أن يعلم أن الشارع لم يقصد الى إلغاء كل نوع من أنواع المشاق ، فإن المشقة إذا لم تكن خارجة عن المعتاد ، وإنما وقعت على ما تقع المشقة فى مثلها من الأعمال العادية ، فإن الشارع لا يقصد رفعها ، وفى ذلك يقول القرافى فى كتابه الفروق « إن المشاق قسمان : أحدهما لا تنفك عنه العبادة كالوضوء والغسل فى البرد ، والصوم فى النهار الطويل ، والمخاطرة بالنفس فى الجهاد ونحو ذلك ، فهذا القسم لا يوجب تخفيفا فى العبادة لأنه قرر معها ؛ وثانيهما : المشاق التى تنفك عنها العبادة ، وهى ثلاثة أنواع : نوع فى الرتبة العليا كالخوف على النفوس والأعضاء والمنافع فيوجب التخفيف ، لأن حفظ هذه الأمور هو سبب فى مصالح الدنيا والآخرة ؛ فلو حصلنا هذه العبادة لثوابها لذهب أمثال هذه العبادة . ونوع فى المرتبة الدنيا كأدنى وجع فى إصبع ، فتحصيل هذه العبادة أولى من درء هذه المشقة لشرف العبادة وخفة المشقة . والنوع الثالث : مشقة بين هذين النوعين ، فما قرب من العليا أوجب التخفيف ، وما قرب من الدنيا لم يوجبه ، وما توسط يختلف فيه لتجاذب الطرفين له » (٢) .

ومن هذا يتبين معنى قولهم « إذا ضاق الأمر اتسع » و « المشقة توجب التيسير » و « الضرورات تبيح المحظورات » . ونفهم لماذا تسقط النذور إذا

---

(١) إعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٨ (٢) الفروق ج ١ ص ١١٨ .

صادمت أمرا ضرورياً أو حاجيا فى الدين ، كمن نذر المشى الى مكة فلم يستطع ، أو نذر ألا يتزوج ، أو لا يأكل الطعام ، أو نحو ذلك .

ولقد يعيب بعض المتشدقين أنواعا من العقوبات جاءت بها الشريعة كالحدود والقصاص ، ويقولون إنها تكاليف شاقة ، فإن قطع يد السارق ، ورجم الزانى أو جلده ، والقصاص من سن بسن ، ومن عين بعين ، ومن نفس بنفس ، أحكام شاقة على العباد تتنافى مع الرحمة ، وتشبه أحكام الأمم المتأخرة المتوحشة ، ولا تليق بأمة متمدينة .

وقد غاب عن هؤلاء أن هذا هو الطريق العملى الوحيد الذى به يبرأ المجتمع من أمثال هذه الجرائم ؛ فمثله كمثل الدواء المر البشع الذى يتوقف عليه شفاء المريض من مرضه ، فليست الرحمة فى أن تترك المريض بدائه حتى يقضى عليه ، رفقا به من أن يتجرع الدواء ؛ ولكن الرحمة هى أن تجرعه هذا الدواء ليحيا ويبقى فى سلامة وعافية ؛ وكما لا يقال إن الطبيب بوضعه الدواء قد أساء الى المريض ، لا يقال إن الشارع بوضعه هذه العقوبات قد أساء الى المجتمع أو شق عليه ؛ فإن الشارع هو الطبيب الأعظم ، فهو يصف الدواء عالما بما فيه من مرارة ، ولكنه يعلم الى جانب ذلك ما فيه من فائدة ، ويوازن بين الألم الوقتى والراحة الطويلة ، فيختار أنفعهما لمن يحبه . وشبيه بهذا ما روى فى الحديث القدسى « ما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له من الموت » .

قال الشاطبى « لأن الموت لما كان حتما على المؤمن ، وطريقا الى وصوله الى ربه ، وتمتعه بقربه فى دار القرار ، صار فى القصد اليه معتبرا » .

بهذا كله يتبين أن التشريع القرآنى الذى انبنى عليه التشريع الإسلامى ، قائم على الدعائم الضرورية التى لا يستقر تشريع إلا عليها ، وأنه مناسب للطبيعة البشرية غير منافر لها « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

شعراء الأزهر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ابراهيم محمد السيد نجا

ولد في بلدة دمنهور البحيرة ، في ١١ من فبراير سنة ١٩١٨ ، وتخرج في كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ؛ واشتغل بالتدريس في مدارس وزارة المعارف ؛ فهو — حرس الله شبابه وأمتع به - في غرة ربيع حياته .

عرفته - لأول مرة - في الفرقة النهائية في الكلية ، ولفتني إليه هدوء وحياء بالغان ، ونظرات نوافذ يسددها حينا بعد حين ، فتقرطس الهدف ، وتستوقف النظر ؛ وقدّمه إليّ إخوانه فقالوا : شاعر ؛ قلت : وإن مخايله لمخايل الشاعر ، وإن لم يكنه اليوم فسيكونه غدا ؛ ثم استنشدته ، فاستحيا ، واعتذر ، ووعد ثم مطل ؛ وفجأته يوما ، وقد أطرق وأطال الإطراق : فيم تفكر أيها الشاعر ؟ لعل طيف فلانة - وذكرت اسما - شاقك ، فحاولت النوم لتصيّده ؛ فذعر ، واحمر ، وقال : « والنبي أنت تعرفها ياسى الشيخ ؟ ! » وكانت عاصفة من الضحك لم أتيقن بعدها : أكان الضحك منه لأنى خدعته ، في فترة ذهول خياليّ لم يتحقق معه ما قلته ؛ أم كان الضحك منى أنا لأنه « قفش لى » قفشة شاعر ؟ ! .

* * *

وشعرُ هذا الشاب ، مِزاجٌ من نسمات الفجر ، و نفَحات الزّهر ، ونشوات الخمر ، ونفثات السِّحْر ! وهل لهؤلاء جميعا من الأثر ، ما يفعل بالألباب مثلُ قوله [١] :

---

(١) مجلة الكاتب المصرى ، عدد مارس سنة ١٩٤٧

أنا طيفٌ يقطع الأيام حيرانَ شقيّا
أسْتُر الحُزْنَ وأخفى دمعَ عيني بيديّا
وشعاعُ الشّمس يُؤذيني ويُغشى مُقلتيّا
ليتنى ما كنت طيفا ، ليتنى ما كنت حيّا !

* * *

أنا قيثارةُ أنغامٍ فمالى لا أغنّى ! ؟
عبثَ اليأسُ بأوتارى وأنغامى وفنّى
أيّها اليأسُ ، ألا تذهبُ بالأحزانِ عنّى ؟
إنّنى ألقيْتُ آمالى ، فخذها . . . ثمّ دعْنى !

* * *

لا ، لا ـ يا بنى ـ لا تيئس ، فإنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ؛ وغنِّ ورجِّعْ ، ثم غنِّ ورجع ، فأنك بلبلٌ غرِد أظلته بواكير الربيع ! وإن الذى لا يشجيه غرَدُك يأبرهيم — لأصم ؛ وإنك حين تناجى اليأس ، وتعرض عليه أحزانك ، وآمالك ، ليأخذهما معا ، ويدعك وحدك ، غير جاد ؛ ومن أنت ، وما أنت إذا مضت عنك الآمال والآلام ؟ لا شىء ! ولو أنك ـ يابنى ـ حدَدْتَ من طمعك الأشعبى ، الذى أنطقك بقولك :

أنا رُوح هائمُ بَيْنَ عُيُونٍ وَنهُودِ
حالمٌ بالنشوة الكبرى من الحب الفريد
إنّها إشْرَاقة العمر وإشْعاعُ الوجــود
ليتها تحرق روحى ، ثم أحْيَا مِنْ جديد !

أجل : لولا هيامك بين العيون والنهود ، مفتشاً ـ ياخبيث ـ عن حبيب فريد ، كأنك فى سوق الرقيق ، تنشد جارية تصطفيها على عينك ، لاستبدلت الطرب بالحزن ، والرجاء باليأس ، ولوقعت أنغامك على قيثار المنى والشباب والأمل الباسم ، لا على قيثار اليأس ، وزفرات الأنين ؛ والحب ـ يابنى ـ لا يفتش عنه ،

ولكنه يأتى مصادفة واتفاقا، فأنت لست يائسا، ولكنك جوعان العاطفة؛ أشبع الله قلبك، وأقر جوانحك!...

* * *

وشاعرنا الشاب، يلتقى بالشاعر الكبير، الأستاذ محمود حسن إسماعيل، ويجرى معه فى عِنان، ويُلز معه فى قران. ولا ريب أن الذى يقرأ قوله فى هذه القصيدة:

أَنَا لَحْنٌ وَآلهُ الْأَنَّاتِ مَشْبُوبُ البُكَاء
جاء مِنْ قِيثَارَةِ الله إلى هذا الفضاء
هو فى الفجر حَنِينٌ، وأنِينٌ فى المساء
ليتنى عدت لقيثارك يارب السماء!

أقول: إنّ الذى يقرأ هذا غُفْلا من نسبته الى صاحبه، يتبادر الى ذهنه أنه للأستاذ محمود اسماعيل؛ وهو خيال غير شرقىّ، وغير مقبول.

وأقل غرابة من هذا: «عناق الظل والنور» فى قوله [1]:

حياتى كلها حلم بأفق غير منظور
تُذِيع طيورُه سَحَرا عناق الظل والنور
نعيش به كما نَهْوَى مع الأملاك والحور
يَزُفُّ الحبُّ ساحرةً إلى أحضان مسحور!

ومن خياله الرائع المألوف فى هذه القصيدة، قوله:

أنا المحروم لكنى أغذّى بالخيال دمى
ظمئت ولم أجد ماءً فهام إلى السراب فمى
وغنَّيْتُ الجمال، فلم أجد إلا صَدَى نغمى
فغنّى اليأسُ فى قلبى على قيثارة الألم

* * *

(١) من قصيدة «الرسالة الأولى» نشرت فى مجلة الرسالة عدد ٧٣٤.

أنا الحيران في الدنيا كطير ضل عن فننهْ
يهيّجُ الفجرُ صبوتَه ويذكى الليل من شجنه
يهيّجه تشوّقه الحاني تردّيه إلى وطنه
ويكفيك الذى لاقى من الحرمان فى زمنه

ومثله قوله من قصيدة أخرى [1] :

مَنْ لباك ليس يَرْقا دمعُهُ وحبيبٌ ضيّعَ العمرَ انتظارا
طالما حنَّ الى الماضى الذى غاب خلف الأفق عنه وتوارى
آه - يا قلبي - كفانا حيرةً وكفانا - أيها القلب - عثارا
طوىَ الماضى ، فيا قلب اتّئدْ عبثا تطلبُ للماضى انتشارا
لم يَعُدْ ماضيك إلا ذِكَراً فاحْيَ فى الماضى حنينا وادكارا

وهى قصيدة تذكرنا بأنفاس مهيار الديلمى .

بيد أن شاعرنا أسجح أسلوبا ، وأطبع خيالا ، من شاعر الخيال البكر الأستاذ محمود اسماعيل ، فى الأعم الأغلب ، وإن جمعتهما مشابهُ كثيرة فى المذهب الشعرى . والعيب الذى آخذه على « نجا » شاعرنا ، أنه يكثر من نظم القصائد ذوات القوافى المتعددة ، وهو عندى ضعف ، أو - بالحرى - سمة من سمات عجز الشاعر ، عن نظم القصائد ذوات وحدة القوافى ، مهما قام له من المعاذير ؛ وتعويد للنفس أن ترضى بأيسر الحظين ، وهو ليس من طِباع الفحول .

وقد عالج شاعرنا الموشح ؛ وأجاد فى موشحة « الرسالة الرابعة » التى منها [2] :

لا تسأليني إذ نكون معا هنالك فى خميلهْ
فتريننى مستغرقا فى الفكر آونة طويلهْ :
« ماسرّ هذا الفكر ، ما تلك الخيالات الجميلهْ ؟ »
إنىّ - وحُبِّك - لست أدرك سرّه حتى أقوله
إنىّ على رغمى أفكر ، ليس لى فى الفكر حيلهْ

---

(١) من قصيدة « إلها . . . » نشرت فى مجلة الرسالة عدد ٧٢٥ .

(٢) مجلة الرسالة عدد ٧٦٥ .

أنا زورق فى لجة الأفكار لا يدرى سبيله
حَيْرانَ يَبْحث دُونَ ما جَدْوَى عن الشَّطِّ الأمينِ
فبحق ما بينى وبينك من هوًى ، لا تسألينى

* * *

لا تسألينى : « هل تُراك تقول هذا الشعر عنى ؟
أتُرَاكَ ترفعه إلىَّ ، وتستمدّ الوحىَ منى ؟ » .
إنّى من الغيد الملاح الفاتنات أخذتُ فنّى
من كلّ فارعة القوام ، وكل بارعة التثنّى
إن حدثت ، فحديثها فى الروح لحن أىُّ لحن !
وإذا بدت ، فكأنها ، فجر الربيع بدا يغنّى !
يا منيتى أنا بلبل يشدو على كل الغصونِ
فبحق ما بينى وبينك من هوى لا تسألينى

* * *

ومنها :

لا تحرجينى بالسؤال ، فقد يحيّرنى الجوابُ
ما كل شىء فى الضمير يُبين مَعْناه الخطاب
ومن الأمانِى ما يبينه ، الحياء والاضطراب
وأرى العيون لها حديث ليس يخطئه الصواب
تبدى السرائر مثلما يبدو من الكأس الشراب
فتعرّفى بالروح روحى ، وافهمى لغة العيونِ
وبحق ما بينى وبينك من هوى لا تسألينى

* * *

وقد عثر ، بعد طول المطاف ، بهواه المنشود ، فأخذ يتغنى به فى قصيدته : « من هى . . . ؟ » [1] .

---

[1] مجلة الرسالة ٧٦٧ .

كنت مِنْ قبل هواها حائرًا بين الغواني
لا أرى الروح الذي أبحث عنه في زماني
ذلك الروح الذي يدعوه روحي وكياني
والتقَيْنا فتعارفنا ، كأنا توءَمان
ونشأنا في ربا الحبّ ، وفي ظلّ التداني
وشربنا الصفو خمرا في كئوس من حنان

* * *

سألتني ذاتَ يومٍ وعراها ما عراها :
من تراها ألهمتك الشعر سحراً ، من تراها ؟
قلت : يا أحلامَ أيّامي ، ويا سرّ مناها
أنت أغنيّة حب وأنا شعرى صداها
أنت في صحراء عمري روضةٌ طاب شذاها
وأنا البلبل يحيا شاديا فوق رباها

* * *

كل حرف في قصيدي مهجة تهفو إليكِ
كل لحن في نشيدي لهفة تحنو عليكِ
إن أفراح شبابي نَبْعها السامي لديك
وصبابات فؤادي سِرّها في ناظريك
وأزاهير غرامي عطرها في وجنتيك
وحياتي — يا حياتي — كلها ملك يديك

* * *

أما بعد ، فإنه يلذلي أن أباهي بهذا الشاعر الشاب ، الذي أتنظّر له مستقبلا شعريا ممتازا ؛ ولكني أتّهم عليه عواطفي ، وأختان رأيي ؛ بيد أن ديوان أشعاره مجلتنا : الكاتب المصري ، والرسالة ؛ أكبر المجلات العربية في الشرق ؛ ولا يكاد يخلو عدد من أولاهما ، من قصيدة له ؛ فليتتبع هذا « الديوان » كما تتبعته ، كلٌّ من خامره في رأيي ما خامرني ، حتى يحكم بعد امتحان وعيان .

فأمّا أنا ، فقد تكلمت . . . ؟

فلسفة القرآن
والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

يجزم الأستاذ العقاد فى مقاله : الحياة الآخرى ، من كتابه « الفلسفة القرآنية » بأن العذاب فى الحياة الثانية للآثمين جميعا ، تطهير وتكفير ، ثم ينتهى الأمر بهم جميعاً ، بعد ما قطعوا مراحل التطهير والتكفير ، إلى حظيرة الرضوان .

قال الأستاذ فى آخر مقاله : « إن العذاب تطهير وتكفير ، وإن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان » .

يجزم الأستاذ بأن ذلك شريعة القرآن الكريم ، ثم استشهد على هذا التلاقى وتلك النهاية الرضوانية ، كما قضت به شريعة القرآن الكريم ، بما يكاد يكون إجماعا من مفسرى الكتاب المبين ، بأن عذاب الآخرة ينتهى إلى الغفران ، وأن الخلود والأبد فى الآيات الكريمة ، يراد بهما الزمان الطويل .

قال الأستاذ فى مقاله : « فهذا المعنى ملحوظ فى تقدير العذاب الذى يبتلى به المذنبون بعد الموت ، كما قضت به شريعة القرآن الكريم ؛ فإن المفسرين كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة على الغفران ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء » .

ونحن ننكر على الأستاذ كلا الأمرين جميعا ؛ فليس فى القرآن الكريم ما زعمه من الغفران لجميع الآثمين ، وليس فى كلام المفسرين شهادة بهذا الشمول وذلك العموم . وإنه ليأخذك العجب البعيد إذ ترى جمهور المفسرين على العكس مما زعمه الأستاذ العقاد ؛ فلقد يكاد ينعقد إجماعهم ، بل حكى بعضهم الإجماع ، على أن خلود الجحيم الذى كتبه الله سبحانه على المكذبين بآياته ، إنما هو خلود الأبدية الذى لا ينقطع ، وأنه الامتداد الذى لا ينتهى .

وإنى أستعرض آيات الخلود وما عول عليه المفسرون فى بيانها وتفسيرها ، لترى مبلغ تجنى الأستاذ العقاد على التفسير والمفسرين .

فى القرآن الكريم إحدى وثلاثون آية فى خلود الكافرين فى دار الجحيم .

أول آية منها فى سورة البقرة ، قوله تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

تلك أول آية فى كتاب الله تعالى تحدثت عن الكافرين والمكذبين بآياته وعما أعد لهم من الجزاء ، فقضت بأنهم من أصحاب النار وأنهم فيها خالدون . ولقد عنى المفسرون هنا فيما عنوا بمسألة الخلود فى الآية الكريمة ، وأن المراد منه ماذا حتى يتقرر مبدأ تحمل عليه جميع آيات الخلود : أهو الأبدية اللانهائية ، أم المكث الطويل وإن لم يعقبه غفران وتلاق فى حظيرة الرضوان ، كما يتمنى الأستاذ العقاد ؟

١ — قال الطبرى فى تفسيره جامع البيان فى تفسير القرآن الجزء الأول صفحة ١٩٦ : « أولئك أصحاب النار » يعنى أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم المخلدون فيها أبداً إلى غير أمد ولا نهاية ، كما حدثنا سعيد بن يزيد ، وحدثنا به عقبة بن سنان البصرى ، قال حدثنا حسان بن مضر ، قال حدثنا سعيد بن يزيد ، وحدثنا سوار بن عبد الملك العنبرى ، قال حدثنا بشر بن المفضل ، قال حدثنا أبو مسلمة سعيد بن زيد ، وحدثنى يعقوب بن ابراهيم وأبو بكر بن عون ، قالا : حدثنا إسماعيل بن علية عن سعيد بن يزيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقواما أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة » .

٢ — وقال أبو السعود فى تفسيره إرشاد العقل السليم الجزء الأول صفحة ١١٥ فى تفسير الآية : « والخلود فى الأصل المكث الطويل ، وقد انعقد الإجماع على أن المراد به الدوام » .

٣ — وقال القاضى البيضاوى فى تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل الجزء الأول صفحة ١٤٦ : « إن عذاب النار دائم ، وإن الكافر فيه مخلد ، وإن غيره لا يخلد فيه ، بمفهوم قوله تعالى « هم فيها خالدون » .

٤ — وقال الألوسى فى تفسيره روح المعانى الجزء الأول صفحة ٢٠١ : « والخلود هنا الدوام على ما انعقد عليه الإجماع » .

٥ — وقال الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب الجزء الأول صفحة ٣١٥ « لما وعد الله تعالى متبع الهدى بالأمن من العذاب والحزن ، عقبه بذكر من أعد له العذاب الدائم فقال « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » سواء كانوا من الإنس أو من الجن فهم أصحاب العذاب الدائم » .

٦ — وقال المحلى فى تفسيره الجلالين الجزء الأول صفحة ٤٥ « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » : ماكثون فيها أبدا لا يفنون ولا يخرجون » .

٧ — وقال ابن كثير فى تفسيره الجزء الأول ١٨٤ فى معنى الخلود فى الآية « هم فيها خالدون » : أى مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص » وساق شاهدا على ذلك حديث الطبرى السابق ، ثم أسنده لمسلم من حديث شعبة عن أبى مسلمة .

٨ — وقال البغوى فى تفسيره معالم التنزيل صفحة ١٤٨ « هم فيها خالدون » لا يخرجون عنها ولا يموتون » .

٩ — وقال الخطيب فى تفسيره السراج المنير الجزء الأول صفحة ٥٠ « هم فيها خالدون » : ماكثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها » .

١٠ — وقال النيسابورى ، فى تفسيره ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان الجزء الأول صفحة ٢٥٩ على هامش الطبرى : « والذين كفروا » لجحدهم مولاهم « وكذبوا بآياتنا » لإثباتهم حكما لهم بحسب مشتهاهم وهواهم « أولئك أصحاب النار » ملازموها دائماً سرمداً ، سواء كانوا من الإنس أو من الجن ، أعاذنا الله تعالى منها بعميم فضله ، وجسيم طَوْله » اهـ .

هناك مفسرون سكتوا عن تفسير الخلود فى تلك الآية اكتفاء وإحالة على تفسيره فى آية قبلها هى قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

١١ — قال الزمخشرى فى كشافه الجزء الأول صفحة ٤٤ « الخلد : الثبات الدائم والبقاء اللازم الذى لا ينقطع ، قال الله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » .

١٢ — وقال القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول صفحة ٣٣٠ بعد أن شرح الآية وقد وصل الى آخرها « وهم فيها خالدون » وباقى ألفاظ الآية تقدم معناها والحمد لله تعالى - يريد أن شرح الخلود قد سبق فى آية قبلُ هى قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » قال ههنا صفحة ٢٤١ : « والخلود البقاء ومنه جنة الخلد ، وقد تستعمل مجازا فيما يطول ، ومنه قولهم فى الدعاء : خلد الله تعالى ملكه أى طوّله » .

« وقال زهير :

ألا لا ترى على الحوادث باقيا ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وأما الذى فى الآية فهو أبدى حقيقة » .

١٣ — وقال فى تفسير المنار الجزء الأول صفحة ٢٨٨ « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » قال : تقدم تفسير الخلود فى آخر الآية (٢٥) ثم قال : « أولئك الكافرون المكذبون البعداء هم دون متبعى هداى ، أصحاب النار وأهلها ، هم فيها خالدون لا يظعنون عنها » .

وقال فى تفسير الآية (٢٥) : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » قال : « والخلود فى اللغة طول المكث ، ومن كلامهم : خلد فى السجن . كما فى الأساس . وفى الشرع : الدوام الأبدى ، أى لا يخرجون منها ولا هى تفنى فيزولون بزوالها ، وإنما هى حياة أبدية لا نهاية لها » .

هذه آراء جمهرة من أعلام المفسرين تمثل عصورا مختلفة ، بل حكى بعضها الإجماع على أن الخلود الذى تحدثت به آيات الوعيد فى شأن الكافرين بالله تعالى المكذبين بآياته إنما هو خلود الأبدية التى لا تنتهى والامتداد الذى لا ينقطع ، وهذا ما اعتمده المتكلمون وعلماء العقائد الإسلامية فى مقرراتهم العلمية كما وعيته فى مقالنا السابق » .

نعم هناك آيات من الكتاب المبين حمل بعض المفسرين فيها الخلود على المكث الطويل لاعتبارات فى موضوع هذه الآيات ، لكن ليس فى هذا ما يسعف الأستاذ ، بل فيه الحجة التى تهدم ما زعمه . وسيكون ذلك موضوع مقالنا التالى ؟

الاعتراف بالجميل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

الاعتراف بالجميل خلق نبيل ، يجمع شتات كثير من خصال البر ، كالوفاء والمروءة ، والإحسان، والشجاعة ، والصبر . فهو الصورة الناطقة بما كمن فى نفوس الناس من شيم حسان ، وهو صدى ما يتردد بين جوانحهم من كريم السجايا .

ثم هو بعد ذلك وسيلة قريبة للنبوغ ، بما فيه من حسن تقدير وتشجيع ، وسبيل معبّد للإجادة والإحسان فيما يباشره الناس من أعمال .

أما المعترف بالجميل فلست أدرى من أى ناحية أعجم عوده وقناته لا تلين لغامز، ولا من أى جهة أسبر غوره وقد جمع أمهات الفضائل، ولم جوانب الأحاسيس النبيلة . فهو حامل لواء التعاون ، وهو زعيم أهل الوفاء . هذا ما دام حيا ، حتى إذا انحدر الى بطن التاريخ كان أحدوثه عذبة النغمات ، وسجلا ناصع السطور والصفحات

ولم لا يكون كذلك وهو يعترف بالجميل لأنه جميل ، ويقوم بشكر الصنيعة لأنها صنيعة ، لا يبغى من وراء ذلك مغنما ، ولا يترقب شهرة وجاها ، طابت سريرته ؛ وحسنت نواياه ، فلا يداجى فى تقديره ، ولا يدارى ولا يخالف مخبرُه مظهَره .

أما الذين يقدرون صنائعك لتكون همزة الوصل لإدرار الخير عليهم، ويحمدون المعروف ليسلس قياده لديهم ، ويخضعون عند الحاجة ويتيهون عند الاستغناء ، فهم تجار جشعون ، يبيعونك اليوم ما يقبضون ثمنه غدا ، وهم فى المجتمع حشرات خطيرة يسرى دائها سريان السم فى الأجسام ، وجراثيم وبيلة تفتك بالأخلاق فتك معضلات الأدواء .

هذا إذا لم يكبح جماحهم ولم يؤخذ على أيديهم . قال رجل من أهل البصرة للحسن البصرى « لم يأت الدهر بمثلك ، ولا أظن أنه يجود بمثلك الى يوم الدين » . فقال الحسن البصرى : « أمنافق أنت ! وهل تدرى علام أغلق بابى »!.

وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على ان طريق الاعتراف بالجميل وعر على كل من لم يكن ذاخلق كريم، وأن سبيله شائك إلا على من راض نفسه على المكارم؛ ذلك لأنه كما قلنا عنوان الشجاعة والصبر والصراحة فى القول والإحسان فى العمل والمروءة وحسن الذوق.

وبعض الناس لهم عقول ولكنهم لايهتدون بها الى حقائق الأشياء، ولا يعرفون ما يرجع بالخير على نفوسهم، ولهم عيون ينظرون بها ولكن بمنظار مصغر لا يكشف عن الأمور كما هى، ولهم ألسنة قوالة فى غير حق جوالة فى كل باطل، ولكنهم جبناء فى مواطن الجد، عييون فى مواطن الحق، خرس فى مظان الكلام.

وإذا كان الله تقدست ذاته وسمت صفاته، قد طلب منا أن نرد التحية بأحسن منها أو بمثلها حيث يقول: « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها». أفليس ذلك تقريرا لمبدأ العرفان بالجميل؟ أو ليس ذلك أدبا إلهيا أدب به عز وجل عباده الصالحين، ليسود المجتمع الحب والسلام والتعاون؟.

وإنى لأعجب لذلك الشخص الذى يكدح فى الحياة ويتحمل متاعبها ولا يتبرم بمشقاتها وآلامها ثم تضعف نفسه عن شكر على صنيعة يمليه الذوق، واعتراف بجميل تحتمه المروءة.

ولست أدرى حوافزه فى ذلك ولا دوافعه. فإن كان الترفع بالنفس والاعتداد بها عن طريق الكبرياء، فما عرف حق نفسه ولا أحسن إليها. وإن ترفعا يدفع الخير ويمنع الود، ويزدرى بالمروءة، لجدير به أن يكون وليد الحسد وخبث النفس، ككبرياء إبليس حرمه الجنة، وجعله من المطرودين. ولاعجب فالحسد داء وبيل، وشر مستطير، وعنوان الفساد والبغى وهو أول ذنب عصى الله به فى السماء، وأول ذنب عصى به فى الأرض؛ فأما فى السماء فحسد إبليس لآدم؛ وأما فى الأرض فحسد قابيل لأخيه هابيل. ولذا يقول بعض المفسرين فى قوله تعالى حكاية عن أهل النار « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »: إن المراد بالجن إبليس وبالإنس قابيل.

وإن كان الدافع لعدم الاعتراف بالجميل، استصغار الصنيعة، فقد أخطأ المرمى وجاوز الهدف؛ فليس ثمة صنيعة مهما قلّت ولا معروف مهما دق وصغر، بأضعف من أن يقابل بكلمة شكر أو عبارة ثناء.

وإنه ليؤلمني حقا أن أرى فى هـذه الحياة أشخاصا يعيشون على حساب الغير ولـكنهم مع الأسف الشديد لا يعترفون لهم بحق، ولا يقرون لهم بمعروف، يعتقدون أن كل ما يقدم لهم من خير، وما يسدَى إليهم من صنائع البر، حتم لازم على من قدمه، وفريضة محكمة على مسديه، كأن الناس جميعـا مسخرون فى خدمتهم، أو أرقاء يعملون بإشارتهم. وما دام هذا الضعف موجودا بين بنى الإنسان فسيلقون منه عنتا، ويصيبون منه حرجا.

وبعـد؛ فإن عرفان الجميـل خلق النفس الـكبيرة، رضى هـؤلاء أم أبوا، وصفة الأقوياء فى الإيمـان، اعترف هؤلاء أم أنكروا.

يقول بعض العرب: والله لقد سمعت تغريد الأطيار على غصون الأشجـار، وسمعت خفق العيـدان وأصوات القيان، فمـا طربت من صوت قط طربى من ثنـاء حسن بلسان حسن على رجـل أحسن، ومن شكر حـر لمنعم حـر، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر.

وكانت الفرس تقول: الشكر أفضل من النعمة، لأنه يبقى وتلك تفنى.

وضرب الحجاج أعناق أسارى أتى بهم، فقال رجل ممن قدم للقتل: والله لئن كنا أسأنا فى الصنيعة، فما أحسنت فى المكافأة! فقال الحجاج: أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن مثل هـذا! وكف عن القتل.

ومن أروع الصور فى عرفان الجميل ما فعلته نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان ابن عفان رضى الله عنه رعاية للوفاء وحفظا للعشرة: طلبها معاوية بعد موت عثمان فردته، ثم قالت: ما يعجب الناس منى؟ قالوا: ثناياك. فكسرت ثناياها، وبعثت بها الى معاوية.

وقريب من هذا ما فعله بعض أبنـاء الملوك من غسان مع البرامكة بعـد نكبتهم؛ فقد كان يذهب الى خربات دورهم فى ظلام الليل وقد نامت العيون فيبكيهم ويرثيهم بالأبيات الشعرية النوابغ، فوشى به الى المـأمون، فلما مثل بين يديه قال له المـأمون: «ما الذى فعله معك البرامكة حتى استوجبوا منـك كل هذا؟» فقال: «يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندى أيادى خضرة، إن شئت حدثتك ببعضها، فلمـا قص عليه قصته أمر بإخلاء سبيله وإرجاع ما صودر له

من ضياع مع إعفائها من الخراج . فبكى الغسانى ، فقال المأمون : ما يبكيك وقد أحسنا إليك ؟ فقال : أبكى البرامكة لأنهم يحسنون الى أحياء وأمواتا !. فقال المأمون : وكيف ذلك ؟ قال : لو لم أذهب الى دورهم من كان يعلم أمير المؤمنين بى ؟ فقال المأمون : اذهب فابكهم ونحن معك .

أما صلة الاعتراف بالجميل بمبادىء الإسلام ، فهى الصلة التى لا تجارى . فقد أكثر القرآن الكريم من الحث عليه ، وبالغ فى طلبه فى صور شتى وأساليب متنوعة ، تارة تصريحا ومرة تلويحا .

استمع إليه وهو يقول : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

ويقول : « وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ويقول «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الى غير ذلك مما لا يحصيه العد ، ولا يأتى عليه الاستقصاء .

وكان الرسول الكريم يقول لعائشة : هيه أبياتك! فتنشده قول زهير بن جناب

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فيقول نعم يا عائشة : لا شكر الله من لا يشكر الناس ؛ يقول الله عز وجل : عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة على يديه .

وقد نعى القرآن الكريم على من كفر بالنعمة وغمط الحقوق ، وصوره لنا فى صور ممقوته وألوان مزدراة ، حيث يقول « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين» . ويقول «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر فذودعاء عريض » ، ويقول « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية؛ جنتان عن يمين وشمال؛ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . ويقول « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به

موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا،وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم،قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى حديثه عن النساء « أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء،فقيل:ولم يا رسول الله ؟ قال: يكفرن،قيل:أيكفرن بالله ؟ قال:لا ، يكفرن العشير،لو أحسنت الى إحداهن الدهر ثم رأت منك بادرة قالت ما رأيت منك خيرا قط » .

وبعد ، فإن نعم الله علينا مترادفة لا تزول ، وآلاءه علينا لا تحصى ولا تعد : وَهبنا السمع والبصر والفؤاد ، والمال والبنين والجاه والسلطان ، وسخر لنا ما فى الكون من حيوان وجماد ؛ فهل قمنا بشكر هذه النعم ، أو قدرنا هذه الآلاء ؟ ! .

وبين أيدينا ملوك وأمراء وقواد وزعماء أسدوا الى أممهم كل خير ، ورفعوا رأسها عاليا ، وقدموا لها كل ما يقع تحت قدرة البشر من وسائل العزة وأسباب السعادة ، فهل رأينا من يقدر ذاك مخلصا ، أو يقوم بواجب الشكر احتسابا ؟!

ولولا صفحات فى التاريخ يشع سناها للقدوة والتأسى ، لذهب خبر تلك الآثار ، وانطوى مع الليل والنهار .

ونحن فى العصور الحديثة حدث بين ظهرانينا صناعات نافعة ومشروعات مفيدة ، ضحى أصحابها بكثير من راحتهم فى سبيل إسعاد أمتهم ، فهل رأينا تشجيعاً ملموسا ، أو تقديرا لهذه الأمور محسوسا ؛ تقديرا إيجابيا ، وتشجيعا عمليا ، يدفعها الى الأمام ، ويتعهد أطوار تقدمها بالجاه والمال واليد واللسان ، فهل رأينا من يفعل ذلك قياما بواجب الوطن ، واعترافا بمجهود المواطنين ؟ ! يعقل الخجل لسانى حين أقول : لا ! .

فاللهم اهد قومى الى الصراط المستقيم ، وهيىء لهم من أمرهم رشدا ؟

أبو ذر الغفارى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

عَلَم من علماء الإسلام ، وشخصية من أبرز شخصياته ، وصحابى من جملة صحابة رسول الله ، يتردد اسمه كثيرا على ألسنة المحدثين ، وفى كتب الحديث ، لكثرة ما رَوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجمعت له كل العناصر التى يجب توافرها فى العظيم ، فكان عظيما . وهو أحد أولئك الرجال الذين حفلت بمناقبهم ومحامدهم كتب السيرة والتاريخ ، فكانوا شهداء على فضل الإسلام فى خلق الشخصيات وتكوين الرجال .

واسمه على المشهور : جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد الغفارى ؛ ينتهى نسبه الى نزار ؛ وغفار قبيلة من كنانة .

يشترك العظماء فى كثير من الفضائل التى تكوّن شخصياتهم ، ويمتاز كل منهم بقدر منها يكون فى صورته الألوان البراقة التى تلفت الأنظار وتبهر الأبصار . وكذلك كان أبو ذر ؛ فقد امتاز بقدر من الفضائل جعله كما قال النبى صلى الله عليه وسلم وحيدا ؛ فقد روى أن النبى عليه السلام قال : « يرحم الله أبا ذر ! يعيش وحيدا ، ويموت وحيدا ، ويحشر وحيدا » ! .

ويضيق مجال القول عن إحصاء فضائله ، ورسم صورة كاملة تلم بنواحى عظمته ، وتجمع أطراف المجد من سيرته . وحسبنا أن نشير الى ما امتاز به أبو ذر من المحامد ليكون ذلك بمثابة الألوان البراقة ، ليبرز صورته واضحة قوية ، كما كان فى حياته واضحا قويا .

يمتاز أبو ذر فى نظرنا بخصال ، أهمها : الفطرة ، وصفاء الطبيعة ؛ والصبر على احتمال الأذى فى سبيل العقيدة ؛ وحبه للمعرفة والبحث عن الحقيقة ؛ وزهده فى الدنيا ، وانصرافه عن مغرياتها .

وتتجلى فطرته فى انصرافه عن عبادة الأوثان ، وإقباله على عبادة الله قبل الإسلام ؛ روى عبد الله بن الصامت قال : قال لى أبو ذر رضى الله عنه : يابن أخى صليتُ قبل الإسلام بأربع سنين . قلت له : من كنت تعبد ؟ قال : إله السماء . قلت : فأين كانت قبلتك ؟ قال : حيث وجهنى الله عز وجل . ويتجلى ذلك أيضا فى مبادرته الى الإسلام ، فقد كان رابع أربعة أسلموا قبله .

ويكشف لنا عن قوة عقيدته وتحمل الأذى فى سبيل ما يؤمن به ، ما جاء فى قصة إسلامه ؛ فقد روى عنه أنه قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فعلمنى الإسلام وقرأت من القرآن شيئا ، فقلت : يا رسول الله إنى أريد أن أظهر دينى ؛ فقال رسول الله : إنى أخاف عليك أن تقتل ، قلت : لابد منه وإن قتلت ! قال : فسكت عنى ، فجئت وقريش حلق يتحدثون فى المسجد ، فقلت : أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فانتفضت الحلق فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر - يعنى أنهم أسالوا دمه فاحمرت ثيابه - وكانوا يرون أنهم قتلونى ، فأفقت فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى ما بى من الحال ، فقال لى : ألم أنهك ؟! فقلت : يا رسول الله كانت حاجة فى نفسى فقضيتها . فأقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الحقْ بقومك فإذا بلغك ظهورى فائتنى .

وروى عن أبى ذر أنه قال : بينا أنا واقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : يا أبا ذر : أنت رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى . قلت : فى الله ؟ قال : فى الله . قلت : مرحبا بأمر الله ! .

وحبه للمعرفة والبحث عنها والتقصى فيها ، عالما ومتعلما ، يبدو لنا فى حرصه على صحبة النبى صلى الله عليه وسلم وكثرة مساءلته ووفرة ماروى عنه من الحديث ؛ فقد روى عن أبى ذر واحد وثمانون ومائتا حديث . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى أبا ذر إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب .

ومن أمثلة حبه للمعرفة وتقصيه عنها، ما روى عنه أنه قال: دخلت المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده، فجلست إليه، فقال: يا أبا ذر إن للمسجد تحية، وإن تحيته ركعتان فقم فاركعهما. قال: فقمت فركعتهما ثم عدت فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله إنك أمرتنى بالصلاة فما الصلاة؟ قال: خير موضوع، استكثر أو استقل. قلت: يا رسول الله فأى الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله عز وجل، وجهاد فى سبيله. قال: قلت: يارسول الله فأى المؤمنين أكملهم إيمانا؟ قال: أحسنهم خلقا. قال: قلت: يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم؟ قال: من سلم الناس من لسانه ويده. قال: قلت: يا رسول الله فأى الهجرة أفضل؟ قال: من هجر السيئات. قال: قلت: يا رسول الله فأى الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت. قال: قلت: يا رسول الله فما الصيام؟ قال: فرض مجزى وعند الله أضعاف كثيرة. قال: قلت: يا رسول الله فأى الجهاد أفضل؟ قال: من عقر جواده وأهريق دمه. قال: قلت: فأى الصدقة أفضل؟ قال: جهد من مقل يصير إلى فقير.

وكما كان حريصا أن يعرف ويتعلم، كذلك كان حريصا أن يعرف ويعلّم جريئا فى تعليمه وفتواه.

روى عنه أن رجلا أتاه فقال: إن مصدّقى عثمان ازدادوا علينا — أى المحصلين للصدقة — أنغيب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا؟ قال: قف مالك وقل: ما كان لكم من حق فخذوه، وما كان من باطل فذروه، فما تعدوا عليك جعل فى ميزانك يوم القيامة؛ وعلى رأسه فتى من قريش؛ فقال: أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فقال: أرقيب أنت على؟ فوالذى نفسى بيده لو وضعتم السيف ههنا ثم ظننت أنى منفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تحتزوا رأسى - أى تقطعوا - لأنفذتها! وكان كما قال صاحب الحلية: أول من تكلم فى علم البقاء والفناء.

أما انصرافه عن الدنيا وإقباله على الآخرة، فقد بلغ فيه الذروة، وأوفى على الغاية، وكان له فى ذلك مذهب عرف به وروى عنه وهو «أنه يحرم على الإنسان أن يدخر من المال مازاد عن حاجته». وقد شبه لذلك بعيسى عليه السلام. وقد ذهب بعض الكاتبين الى أن هذا المذهب يتفق وبعض المذاهب الاجتماعية الحديثة، ولكنه

لا يتفق وروح الشريعة الإسلامية التى تبيح ادخار المال مهما كان بشرط أداء حق الله وحق الفقير فيه ، كما تبيح التمتع بطيبات ما أحل الله . وقد يكون هذا من أبى ذر مبالغة فى الزهادة .

وقد دعا أبو ذر الى مذهبه هذا بالفعل والقول ، ولم يكن ممن قال الله فيهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . وكان التخشن فى كل شىء أسلوبه فى الحياة .

روى عبد الله بن خراش قال : رأيت أبا ذر بالربذة فى حلة له سوداء وتحته امرأة سحماء ، وهو جالس على قطعة جوالق ، فقيل له : إنك امرؤ مايبقى لك ولد ، فقال : الحمد لله الذى يأخذهم فى دار الفناء ويدخرهم فى دار البقاء ! . قالوا : يا أبا ذر لو اتخذت امرأة غير هذه ؟ قال : لأن أتزوج امرأة تضعنى أحب الى من امرأة ترفعنى . فقالوا له : لو اتخذت بساطا ألين من هذا ؟ قال : اللهم غفرا خذ مما خولت ما بدا لك .

بعث إليه أمير الشام بثلاثمائة دينار وقال له : استعن بها على حاجتك ، فقال أبو ذر للرسول : ارجع بها إليه ، أما وجد أحدا أهون على الله منا ؟ ما لنا إلا ظل نتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، وخادم لنا تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إنى لأتخوف الفضل .

ومما روى عنه فى الدعوة إلى مذهبه : أنه وقف مرة عند الكعبة فقال : هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق !! فاجتمع عليه الناس ، فقال : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد مايصلحه ويبلغه؟ قالوا : بلى، قال : فسفر يوم القيامة أبعد ما ترون ، فخذوا له ما يصلحكم ، قالوا وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم ، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها .

اجعل الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الآخرة ، ومجلسا فى طلب الحلال ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده . اجعل المال درهمين : درهما تنفقه على عيالك من حله ،

ودرهما تقدمه لآخرتك ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده . ثم نادى بأعلى صوته : يأيها الناس ! قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا !!.

ومن كلامه فى ذلك أيضا : فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم . فان استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن .

وقد ظل أبو ذر على أسلوبه هذا طول حياته ، لم تتعلق نفسه بشىء من مفاتن الدنيا . وقال : إنى لأقربكم مجلسا من رسول الله يوم القيامة ، وذلك أنى سمعته يقول : إن أقربكم منى مجلسا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها ، وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشىء منها غيرى !.

ولقد كان فى وفاته غريبا ، كما كان فى حياته غريبا ؛ فقد خرج مع أمه إلى فلاة فحضرته منيته ، فبكت أمه ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أبكى أنه لا يد لى بتكفينك ، وليس لى ثوب من ثيابى يسعك كفنا ، وليس لك ثوب يسعك كفنا ... ! قال : لا تبكى فإنى سمعت رسول الله يقول لنفر أنا منهم : ليموتن منكم رجل بفلاة فتشهده عصابة من المؤمنين . فما لبث أن مرت به عصابة من المؤمنين فقال : أنشدكم الله والإسلام أن يكفننى رجل منكم ما كان أميرا ولا نقيبا ولا عريفاً ولا بريدا ، فلم يوجد منهم كما شرط إلا فتى من الأنصار قال : يا عم أنا أكفنك ، لم أصب مما ذكرت شيئا ، وفى ردائى هذا وفى ثوبين فى عيبتى معى من غزل أمى حاكتهما لى . قال : أنت فكفنى ، فكفنه الأنصارى .

وصدق فى أبى ذر ما قاله رسول الله : يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويحشره وحده .

ودفن بالربذة سنة إحدى وثلاثين من الهجرة .

هذه صورة جد موجزة لأبى ذر ، رسمتها بأبرز ما ذكر فى سيرته من المناقب . رحم الله أبا ذر ، ورضى الله عنه وأرضاه ، ووفقنا لترسم خطاه ؟

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

وإذا قام الطبيب بعمل لا صلة له بمقتضيات العلاج ، وكان ذلك عمدا ، فإن مسئوليته تكون عمدية ، ويقتص منه إن كان القصاص ممكنا .

والشريعة الغراء تبيح للأطباء الاجتهاد فى علاج الأمراض ، فلا يسأل الطبيب لو خالف بعض آراء زملائه متى كان رأيه يقوم على أساس سليم ؛ وهذا الحكم واضح من الحالة التى سبق ذكرها ، حيث قيل بعدم ضمان الجراح لو قام بجراحة لفتاة سقطت من السطح رغم قول بعض الجراحين بأن إجراء الجراحة يسبب موتها ، وقد قيد عدم الضمان فى هذه الحالة بأن يكون الشق معتادا غير فاحش وخارج الرسم ؛ وبمعنى آخر : اشترط لجواز إجراء الجراحة أن يكون لها أساس علمى .

ونلاحظ فى مذهب أبى حنيفة أن القاعدة هى أن الطبيب لا يسأل متى لم يتجاوز الموضع المعتاد ، ويعللون ذلك بأن الهلاك ليس بمقارن للعمل ، وإنما هو بالسراية بعد تسلم العمل ، والتحرز عنها غير ممكن ؛ لأن السراية تبنى على قوة الطباع وضعفها فى تحمل الألم ، وما هو كذلك مجهول ، والاحتراز عن المجهول غير متصور ، فلم يمكن التقييد بالمصلح من العمل لئلا يتقاعد الناس عنه مع مساس الحاجة [1] .

وظاهر من هذا التعليل أنهم يرجعون عدم المسئولية الى جهل الأطباء لقدرة الجسم على احتمال العلاج ، وما دام من غير المتيسر على الأطباء معرفة هذه القدرة

---

(١) الهداية والعناية جـ ٧ ص ٢٠٦

فمن غير المقبول أن يسألوا عن أشياء يستحيل عليهم تعرفها . وهذا التعليل كان من الممكن قبوله وقت أن وضع هذا الحكم ؛ أما اليوم وقد تقدمت العلوم الطبية تقدما باهراً ، فأصبح من المتيسر الى حد كبير معرفة الى أى مدى يستطيع الجسم تحمل علاج معين ، أو إجراء جراحة معينة . وقد ساعد على ذلك الى حد كبير تقدم علوم التحليلات الكيمائية والكشف بالأشعة عن الأجزاء الداخلية للجسم .

ويترتب على هذا التقدم فى العلوم الطبية ، أن مسئولية الأطباء واجبة متى أجروا جراحة ، أو وضعوا علاجا لا يحتمله جسم المريض ، أو حالته الصحية .

ثالثا : يشترط أن يكون تدخل الطبيب بناء على رضاء المريض أو إذن وليه إن كان قاصرا أو من فى حكمه . فليس من حق الأطباء أن يتولوا علاج الناس بغير رضاهم ؛ فلو أراد شخص أن يبقى مريضا بغير علاج ، فلا يمكن إرغامه على أن يعالج نفسه (١) ؛ هذا فضلا عن أن من حق المريض أن يختار الطبيب الذى يعالجه ؛ فالثقة بين الطبيب والمريض عامل من أهم العوامل التى تساعد على الشفاء .

ويترتب على ذلك أنه لو أجرى طبيب عملية جراحية بغير رضاء المريض فإنه يسأل عن فعله . ولكن ما نوع هذه المسئولية ؟ هل يسأل مسئولية عمدية أم غير عمدية ؟ .

ذهب بعض الفقهاء الى أن الطبيب فى هذه الحالة يستوى بأى فرد عادى ، فيسأل عن فعله مسئولية عمدية ، فلم يكن من الجائز له أن يجرى هذه الجراحة ما دام لم يطلب منه ذلك ، وحكمه فى ذلك حكم أى شخص عادى أجرى جراحة لآخر ، أى يسأل عن فعله مسئولية عمدية ، فيعاقب بعقوبة الجرح العمد .

وذهب آخرون إلى أن المسئولية فى هذه الحالة تعتبر غير عمدية ، ويعتبر الطبيب مخطئاً ، لأنه لم يحصل على رضاء المريض بإجراء العملية الجراحية .

وهناك رأى ثالث يقرر أن الطبيب لا يصح سؤاله فى هذه الحالة إلا إذا ارتكب خطأ فاحشاً فى عمله . ومعنى هذا الرأى أن الشرط الأخير من شروط

---

(١) يستثنى من ذلك بعض حالات الأمراض المعدية حيث تحتم القوانين إبلاغ الصحة عنها لتتولى علاج المرضى وعزلهم عن مخالطيهم ، ولا يوجد فى قواعد الشريعة ما يمنع من هذا الاجراء .

عدم المسئولية غير لازم ، بمعنى أن من حق الطبيب أن يعالج الناس ، وأن يجرى لهم الجراحات بغير رضاهم .

وفى الشريعة الإسلامية لا بد من الحصول على رضاء المريض أو وليه إن كان قاصرا أو من فى حكمه ، وهذا الشرط واضح من أن الصلة بين الطبيب والمريض تحكمها أحكام عقد الإيجار ، ومعلوم أن قيام العقد يستلزم توافق إرادتين : إرادة الطبيب وإرادة المريض أو وليه . ورغم وضوح ضرورة هذا الشرط من القواعد العامة فإن فقهاء الشريعة يشترطون ذلك صراحة لنفى المسئولية عن الطبيب (١)

وقد نص فى مذهب الشافعى على أنه إذا كان على رأس بالغ عاقل سلعة لم يجز قطعها بغير إذنه ؛ فإن قطعها بغير إذنه فمات وجب عليه القصاص ، لأنه تعدى بالقطع . وإن كانت على رأس صبى أو مجنون لم يجز قطعها ، لأنه جرح لا يؤمن معه الهلاك ؛ فإن قطعت فمات ، نظرت : فإن كان القاطع لا ولاية له عليه وجب عليه القود لأنها جناية تعدى بها ؛ وإن كان أبا أو جدا وجبت عليه الدية ؛ وإن كان ولياً غيرهما ففيه قولان : أحدهما أنه يجب عليه القود لأنه قطع منه مالايجوز قطعه ؛ والثانى : أنه لا يجب القود لأنه لم يقصد القتل ، وإنما قصد المصلحة ؛ فعلى هذا يجب عليه دية مغلظة لأنه عمد الخطأ (٢) .

وواضح مما تقدم أن مسئولية الطبيب إذا باشر العلاج بغير إذن ، تكون مسئولية عمدية ، فيقتص منه متى كان القصاص ممكنا . ولم نجد فى غير مذهب الشافعى تحديداً واضحاً لمعنى الضمان الواجب على الطبيب إذا أجرى جراحة بغير رضاء المريض أو وليه ، وهل المقصود من الضمان القصاص أم الدية ؟ ومع ذلك فإننا نعتقد أن المقصود بالضمان القصاص ؛ لأن فعل الطبيب فى هذه الحالات عمدى ، ولا يوجد ما يسوغه ، أو ما يسقط القصاص عنه .

ويستثنى فقهاء القوانين الحديثة من ضرورة الحصول على إذن المريض أو وليه ، الحالات التى تستوجب الإسعاف العاجل ، والتى لا يمكن فيها انتظار

---

[١] المغنى حـ ٦ ص ١٢١ ، الشرح الكبير حـ ٦ ص ١٢٤ ، المهذب حـ ٢ ص ٣٠٦ ، الهداية والعناية حـ ٧ ص ٢٠٦ .

[٢] المهذب حـ ٢ ص ٣٠٦

الحصول على هذا الرضاء ، لما فى ذلك من خطر بليغ يعود على المريض . فلو نقل شخص إلى إحدى المستشفيات مغمى عليه لمرض أو نتيجة إصابة جنائية ، فإن الأطباء يقومون بالواجب عليهم نحو علاجه ، رغم أنه لم يوافق على أن يقوموا بعلاجه ، بل ولم يؤخذ رأيه فى ذلك . والواقع أنه فى هذه الحالات قد لا يفيق المريض إلا بعد أن يبدأ فى علاج سبب الإغماء ، وقد لا يشعر أحد من أهله بما حدث له ؛ فكيف يمكن اشتراط ضرورة الحصول على رضاه أو الإذن من وليه .

والحجة التى يستند اليها فقهاء القوانين الحديثة فى إعفاء الأطباء من المسئولية فى مثل هذه الحالات ، هى أن الطبيب حين يقوم بعلاج شخص هذه حاله ، إنما يدفع خطراً عن شخص عاجز عن تعرّف مصلحته . فالإعفاء يقوم على أساس نظرية تسمى نظرية الضرورة ، وهى تعفى من العقاب الشخص الذى يقوم بفعل معاقب عليه حماية لنفسه أو لنفس غيره من ضرر محقق .

ولم نجد فيما رجعنا اليه من كتب الفقه الإسلامى مَن تعرض لهذه الحالة ، وبيّن حكمها ؛ ومع ذلك فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المسئولية من أعمالهم التى يؤدونها فى الحالة التى يستحيل فيها على المريض أن يبدى رأيه فى العلاج ، فإذا كان من الواجب ضرورة الحصول على إذن المريض ، فإن ذلك يجب تقييده بحالة ما إذا كان ذلك ممكنا . هذا فضلا عن أن الشريعة توجب على الناس التعاون والتعاضد ، ويجب على كل مسلم وجد آخر فى خطر أن يعينه وأن يساعده على النجاة ، ولا توجد مساعدة ألزم من معالجة الطبيب لشخص تستوجب حاله عاجل العلاج . ونذكر أخيرا أنه مما يساعد على القول بالإعفاء من المسئولية ، القاعدة الشرعية التى تقرر أن الضرورات تبيح المحظورات .

حول «مسئولية الأطباء»

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس فى كلية العربية

كتب الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم القاضى بمحكمة المنيا الوطنية فى مجلة الأزهر[1] مقالا ممتعا فى «مسئولية الأطباء» عرض فيه للمسئولية ومرجعها فى القوانين الوضعية وفى الشريعة الإسلامية. والمقال ينم عن اطلاع واسع، وألمعية وزكانة تتقاضى القارئ الإعجاب والثناء.

وقد بدا لى فى المقال تعقيبات أنشرها فيما يلى:

١ — يذكر الأستاذ فى ص ٨١٧ أن كتب الفقه الإسلامى لم تعرض بصورة واضحة للفرق فى المسئولية بين من حصل على شهادة دراسية لممارسة أعمال الطب ومن لم يحصل على هذه الشهادة. وهو يذكر بعد ذلك أن الفقهاء نصوا على أنه يحجر على المتطبب الجاهل ولا يمكّن من معالجة الناس. وأقول: ألا يكفى هذا فى إيضاح الفرق بين الصنفين: العالم بالطب، والجاهل به؟ ولا محالة أن مقياس العلم بالطب يختلف باختلاف العصور. وقد كان المقياس فى العصور الغابرة استفاضة إصابة الطبيب، أو أن يشهد طبيبان من أهل الصناعة وذوى البصر بالطب لامرئ بأنه أهل لممارسة أعمال الطب. وأزيد هنا أن الأصل فى هذا التفريق قوله[2] صلى الله عليه وسلم: «من تطبب ولم يعرف الطب فهو ضامن».

٢ — ويذكر الأستاذ أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية فى الدول الإسلامية المختلفة. ويبدو أن هذا الحكم ليس على إطلاقه؛ فإنا نرى فى كتاب «[3] إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطى أن الخليفة العباسى المقتدر أمر طبيبه سنان بن ثابت بن قرة الحرّانى أن يمتحن

---

(١) جزء ذى القعدة ١٣٦٧ (٢) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه. وانظر حاشية الرملى على شرح الروض فى فروع الشافعية ج ٤ ص ١٦٦ (٣) ص ١٣٠ طبعة الخانجى.

أطباء بغـداد فى وقته ، وأن يمنح من يرضاه فى علمه وعمله إجازة لمـا يصلح أن يتصرف فيه من الطب (وترى من هذا أنه كان فى هذا العهد أطباء اختصاصيون). وقد كان هـذا الأمر من المقتدر على أثر غلط طبيب فى العلاج أفضى الى مهلك المريض . ومما يذكر أن المقتدر أمر محتسبه أن يراعى ذلك فـلا يأذن فى العلاج إلا لمن يحمل إجازة من سنان . وكانت وفاة سنان سنة ٣٣١ هـ

٣ — ويذكر الأستاذ أن عـدم مسئولية الأطباء عن أعمالهم ليست محل خلاف من أحد . وهو يريد العالمين بالطب ،أو الذين يحرزون الشهادات الدراسية فى اصطلاح العصر الحديث . وهذا صحيح فى الفقه الإسلامى إذا أريد المسئولية الجنائية ؛ فأما المسئولية المـالية أو استحقاق الدية أو الأرش فليس الأمر هكذا على إطلاقه . فعند الفقهاء أن الطبيب العالم إذا أخطأ فى العلاج ـ بأن عالج بغير ما يقرره الطب ـ فإن الدية أو الأرش يقضى به ، وتعتبر هذه الجناية جناية خطأ؛ فالدية فيها مخففة على العاقلة . وهـذا إذا كان العلاج بإذن المريض كما هو فرض المسألة . ولا بد أن يكون الآذن أهلا للإذن ؛ بأن يكون حرا بالغاً عاقلا . وهو يأذن لنفسه ولمن له الولاية عليه كالصبى والعبد . نعم هناك حالة تسقط فيها المسئولية المـالية أيضاً مع الخطأ ؛ وذلك إذا أذن المريض فى علاج معين ؛ كأن يقول له : أعطنى هذا الدواء ، أو شق لى هـذا العضو . ومما يذكر هنا أن خطأ الطبيب يكون باعترافه ، أو بشهادة رجلين من ذوى البصر بالطب .

وأسوق إليك كلام الفقهاء فى هذه المسألة ، وهم يمثلون لمـا نحن فيه بالفصد والحجامة الختان . والنصوص الآتية من كتب الفروع فى فقه الشافعية :

ا — فى المنهاج وشرحه للجـلال المحلى : « ومن حجم أو فصد بإذن من يعتبر إذنه فأفضى الى تلف لم يضـمن ؛ وإلا لم يفعله أحد » . وكتب القليوبى عليه : « (قوله لم يضمن) إن كان عالمـا ولم يخطىء ؛ أو قال المريض له : داونى بهـذا الدواء مثلا ؛ فإن أخطأ أو كان غير عالم بالطب ضمن مطلقاً » .

ب — وقال الشهاب الرملى فى كتابته على شرح الروض : « ولو أخطأ الطبيب فى المعالجة وحصل منه التلف ، وجبت الدية على عاقلته » .

ج — وقال الشافعي رضى الله عنه في الأم ج ٦ ص ١٦٦ : « وإذا أمر الرجل أن يحجمه أو يختن غلامه أو يبيطر دابته ، فتلفوا من فعله ؛ فإن كان فعل ما يفعل مثله مما فيه الصلاح للمفعول به عند أهل العلم بتلك الصناعة فلا ضمان عليه ، وإن كان فعل ما لا يفعل مثله من أراد الصلاح وكان عالما به فهو ضامن » .

د — وقال الشافعي في الأم أيضا ج ٦ ص ١٦٨ : « والوجه الثاني الذى يسقط فيه العقل - يريد الدية - أن يأمر الرجلُ به الداءُ الطبيبَ أن يبط[1] جرحه أو الأكلة[2] أن يقطع عضوا يخاف مشيها اليه ، أو يفجر له عرقا ، أو الحجَّام أن يحجمه ، أو الكاوى أن يكويه ؛ أو يأمر أبو الصبىِّ وسيد المملوك الحجَّام أن يختنه ، فيموت شيء من هذا ، فلا عقل ولا مأخوذيَّة[3] إن حسنت نيَّته إن شاء الله تعالى. وذلك أن الطبيب والحجَّام إنما فعلاه للصلاح بأمر المفعول به» .

٤ — وفى ص ٨٢٠ يتحدث الأستاذ عن أساس انعدام المسئولية عند الفقهاء، فيذكر أن الأساس عندهم هو رضاء المجنى عليه؛ إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر : اقتلنى أو اجرحنى ، ففعل ، لا يقتص منه لرضاء المجنى عليه . والأستاذ لا يرضى هذا أساسا لعدم المسئولية ، وأن الأخذ به يستدعى عدم التفريق بين الطبيب العالم والجاهل المدعى لهذا العلم . والواقع فى الفقه أن إذن المريض فى العلاج ينشعب الى حالتين :

ا — الحالة الأولى: أن يكل المريض الأمر الى الطبيب يعالجه بما يراه، وهذا هو المألوف فيمن يعرض نفسه على الطبيب ؛ وهذا الإذن إنما يسمح به المريض لمن يراه أهلا للعلاج قمينا أن يسلم إليه نفسه ، فكأن الإذن مشروط بعلم الطبيب وحسن درايته؛ فأما الجاهل الذى يدلّس على المريض ، فإن إذن المريض له كلا إذن ، ورضاؤه لم يقع الموقع فلا عبرة به ، فتقع المسئولية إذن لانعدام الرضا الحقيق الذى هو أساس انعدام المسئولية .

وعلى هذا فالأخذ بهذا الأساس يقتضى التفريق بين الطبيب العالم وغيره من متعاطى الطب والمدعين له . وليس الأمر كما يذكر الكاتب الفاضل .

---

(١) أى يشق . (٢) أى الحكة .

(٣) هذه الكلمة يقابلها فى الاصطلاح الحديث المسئولية ، وهى أليق بالمعنى المراد من المسئولية فان سؤال المرء قد يكون فيما لا تبعة فيه ، فأما المأخذوية فانما تكون فيما فيه مؤاخذة وتبعة .

ب — والحالة الثانية : أن يؤمّ المرء بعض الأطباء ، فيطلب اليه أن يفعل فعلا معينا من أعمال الطب ، فهذا لا مسئولية فيه ؛ لأنه إنما فعل فعلا مأذونا فيه ممن يملك الإذن ، فكأن الفعل منسوب الى المجنىّ عليه ، فينجو الجانى من المأخوذية .

٥ — وترى صاحب المقال يعرض للفقهاء فى حكم ذكروه ، فيقول : « ونحن لا نسلم ما يقول جمهور الفقهاء : من أن الرضاء بالقتل أو الجرح يسقط القصاص » . وكان عليه قبل هذه المخالفة أن يتعرف ما دفع جمهور الفقهاء الى هذا الحكم الذى لا يرضاه . والفقهاء دُفعوا الى هذا بأشياء جاءت فى الشريعة ؛ ذلك أن القصاص أو الدية حق للورثة كما هو معروف . وقد عرض لهم هذا السؤال : هل هذا الحق للوارث ابتداء وبالأصالة ؟ أو هذا الحق فى الأصل للمجنى عليه ، ثم انتقل الى ورثته لما لم يمكنه استيفاؤه ، كما ينتقل الى الوارث مال المورث وتركته ؟ ورأى الفقهاء فى أحكام الشريعة أن ديون الهالك بالجناية ووصاياه تقضى من الدية قبل توزيعها على الورثة ، فاستنبطوا من هذا أن الدية يملكها المجنى عليه أوّلا كالأموال التى يملكها بكسب يده سواء ، ثم تنتقل الى ورثته ؛ ولو أن الدية كانت ملكا للوارث ابتداء ما قضى منها ديون الميت ؛ وإذا ثبت هذا الحكم فى الدية ثبت فى نظيرها وهو القصاص ؛ وإذا ثبت أن هذا الحق يثبت للمجنى عليه ابتداء ، فمن البين أنه إذا أذن فى الجناية عليه الموجبة لهذا الحق ، لم يكن له شىء . ونرى الفقهاء لا يقفون عند القول بعدم المسئولية القضائية ، فتراهم يحذرون من الإقدام على الجناية مع الإذن بها ، ويذكرون أنه إثم يفسِّق صاحبه . وبحسب المؤمن هذا رادعا له وزاجرا .

وكان يحسن بالكاتب أن يذكر أن فى الفقه رأيا آخر فى مسألة الإذن التى نتكلم فيها يرى المأخوذية القضائية ؛ لأن الإذن وقع على شىء محرم ، فكان على المأذون أن يرتدع عنه ولا ينساق مع الآذن ؛ ويمثل لذلك بما إذا أذنت الأمة فى الزنى بها مثلا ؛ ويجيب الآخذون بالرأى الأول وهم الجمهور بأن مسألة الزنى يدخل فيها حق الله تعالى ولا يملك الآذن النزول عنه ، بخلاف ما هنا فإن الدية أو القصاص من حق العبد ، فأما حق الله فوراء ذلك يستوفى من العبد بالعذاب إن لم يتناوله عفو الله .

وإنى اختم كلمتى بالثناء على الكاتب الفاضل والإعجاب بمقاله الجليل .

مطالعات فى الجبرتى (٣)

العلماء سفراء وقادة

فضيلة الأستاذ محمود الشرقاوى

رأينا فى الفصلين السابقين كيف كان علماء الأزهر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين - حيث أرخ الجبرتى لمصر تاريخه الفريد [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] - هم السفراء والقادة، فى وقت لا يستطيع أحد فيه أن يظهر بأى معارضة أو مخالفة لرغبة المماليك أو « الباشا » الذى كان يلى حكم مصر بالاسم تارة، وبالفعل تارة، من قبل الدولة العلية.

سفراء عند قوم يشك كل إنسان منهم فى كل إنسان، ويتهم كل جار جاره، ويوقع أهل كل بيت منهم بين بعضهم وبعض، ويتوجس كل أخ من أخيه.

وقادة بين قوم يقتل منهم الواحد والعشرة فى أقل سبب وبلا سبب، وتنهب أموالهم وتسبى نساؤهم وأولادهم، ثم يجد الناهب والقاتل والسالب كثيرين يقولون له : أحسنت، أنت سيدنا ونحن ملك يمينك [1] !.

* * *

واليوم نرى فيما كتبه الجبرتى صورا أخرى من هذه السفارة والقيادة، فيها من الدلالة وفيها من العبرة ما يشرف الأزهر، ويرفع قدر ذلك النفر من رجاله الذين كانوا وحدهم رجالا، بل أبطالا بين رجال ذلك الزمان.

ولم يكن علماء الأزهر هؤلاء يصبرون على ضيم ينال أمتهم مهما يكن مصدره. فهم يعارضون المماليك لا يخشون لهم بأساً، وهم يعارضون رجال الدولة لا يخشون لهم ولا لدولتهم بأساً، وهم يعارضون نابليون ورجاله رغم غلبتهم على مصر ودخولها بالفتح ؛ تلك المعارضة القوية الدائبة المشرّفة التى كان لها أكبر الأثر فى النهاية

(١) انظر عددى ربيع الأول وربيع الثانى لسنة ١٣٦٧ من « مجلة الأزهر ».

العاجلة التى انتهى إليها عهد الحملة الفرنسية على مصر ، كما كان لها أكبر الأثر فيما لقيه نابليون وقواده فى مصر من العناء والجهد والمشقة . ولعلنا فى فصل قادم نلخص عن الجبرتى أيضا مقتل كليبر بيد سليمان الحلبى الأزهرى ، ومحاكمة هذا الشاب على يد الفرنسيين .

أما اليوم ، فحديثنا عن الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وعن الشيخ شمس الدين أبى الأنوار .

* * *

عند ما دخل نابليون مصر بعد هزيمة المماليك ، أخذ يسعى لتخفيف المقاومة الشعبية التى يلقاها من المصريين ، فكان مما فعله إنشاء « الديوان » ليكون كمجلس نيابى يمثّل أهل الرأى فى مصر ؛ ويتعرف منه نابليون رغبات أهل مصر ؛ وجعل الديوان فى آخر مراحله مكونا من أربعة عشر عضواً ، منهم خمسة من المشايخ ، هم : الشيخ الشرقاوى ، والمهدى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ؛ واثنين من التجار المسلمين هما : المحروقى ، وأحمد محرم . والأعضاء السبعة الباقون من نصارى القبط والشوام ، و (ميخائيل كحيل ، ورواحة الإنجليزى ، وبودنى ، وموسى كافر الفرنساوى ، ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيس) .

وكان هذا المجلس يسمى المجلس المخصوص ، أو الديوان « الديمومى » ، لأنه دائم الاجتماع .

وهناك مجلس آخر يجتمع عند الاقتضاء ، وهو مجلس شعبى ، لأن أعضاءه كان أكثرهم « مشايخ حرف » [1] .

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للمجلس المخصوص بأمر من نابليون .

كان الشيخ الشرقاوى فى رياسته للمجلس المخصوص ، وفى علاقاته بنابليون وكبار رجاله ، يجد حرجا أىّ حرج .

وكذلك كان كبار المشايخ ورجال الأزهر ؛ فهم يكرهون نابليون والفرنسيين ، مافى ذلك شك ؛ ويعلمون أن المصريين يكرهونه ويكرهونهم أيضا . ولذلك كثيرا ما كانت تقوم الثورات من سكان القاهرة ضد نابليون ، وخاصة

---

(١) ص ٣٨ جزء ثالث من الجبرتى فى حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣

من سكان الحسينية والأزهر. وكان المشايخ على الدوام يُتهمون من الفرنسيين بأنهم يشجّعون الفتنة إن لم يكونوا محرضين عليها. وكان الشيخ الشرقاوى يرى أن يدفع عن مصر ما يستطيع دفعه من شر نابليون ورجاله؛ ولذلك قبل رياسة المجلس المخصوص، وظل زمنا طويلا متصلا بالفرنسيين، ليدفع من أذاهم بقدر ما يستطيع. وقد أمر الشرقاوى بأن يقفل الجامع الأزهر وتسمّرَ أبوابه بعد مقتل كليبر، لأن الفرنسيين كانوا يفتشون فى داخله عن الأسلحة، ويتهمون الأزهريين بالعمل على الثورة، وإيواء العناصر الخطرة على الفرنسيين. وأقفل الجامع الأزهر فعلا، وسمرت أبوابه، بأمر شيخه الشيخ الشرقاوى، حرصا على حياة أهله وسلامتهم [1].

وقد أراد نابليون أن يضع الشرقاوى فى وضع يُظهره بمظهر الرضا عن حكم الفرنسيين لمصر، ومظهر الصداقة لهم، بأن يظهر له صداقته وتقديره بالإنعام عليه. وأراد - إن هو استطاع توريط الشرقاوى - أن يورط بقية المشايخ، حيث لا يستطيعون أن يرفضوا ما قبله شيخهم. وجعل نابليون هذا التكريم الخطر للشيخ الشرقاوى علنيا، حتى يحرجه ويشهر به، ويظهره بمظهر الصديق أو التابع فى وقت واحد؛ ولكن الشيخ لم يمكن القائد الفاتح من مكره وكيده؛ بل رده اليه، ولم يقبل خلعة نابليون، حتى استشاط غضبه؛ ولم يستطع أن يقدم الى بقية المشايخ ما كان قد أعد لهم من الخلع.

يقول الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الأول من سنة ١٢١٣ ما يلى: «وفيه - أى فى اليوم العشرين من هذا الشهر - طلب صارى عسكر بونابارته المشايخ، فلما استقروا عنده نهض بونابارته من المجلس، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى، فرمى به الى الأرض وامتعض وتغير مزاجه، وانتقع واحتد طبعه، فقال الترجمان: يا مشايخ أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة فى قلوبهم. فقالوا له: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند

(١) ص ١٤١ من الجزء الثالث من الجبرتى

إخواننا من المسلمين ! . فاغتاظ لذلك ـ يعنى نابليون ـ وتعكم بلسانه، وبلّغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى : إنه لا يصلح للرياسة » [١]

* * *

وفى ترجمة الوفيات التى ذكرها الجبرتى فى سنة ١٢٢٨ يترجم لرجل اسمه الشيخ « شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين » [٢] ثم يقول فى ترجمته: إن حسن باشا الجزايرلى عند ما قدم إلى مصر على رأس القرن «وخرج الأمراء المصريون[٣] إلى الجهة القبلية ، واستباح أموالهم، وقبض على نسائهم وأولادهم ، وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعما أنهم أرقاء لبيت المال، وفعل ذلك، فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه ، فكان المخاطب له المترجم ، قائلا له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال ، فقال : هذا لا يجوز ولم يقل به أحد . فاغتاظ غيظا شديدا وطلب كاتب ديوانه وقال له : اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره ، فقال له السيد محمود البنوفرى : اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا . ! فأفحم وانكف عن إتمام قصده » .

« وكان ابراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة ، وكذلك مراد بك أودع عند محمد أفندى البكرى وديعته ، وعلم ذلك حسن باشا ، فأرسل عسكرا إلى السيد البكرى ، فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده ، وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة ابراهيم بك فامتنع من دفعها قائلا : إن صاحبها لم يمت وقد كتبت على نفسى وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها فى قيد الحياة . فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به ، لحماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، فكان يقول : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى » [٤]

---

(١) ص ١٧ جزء ثالث من الجبرتى .

(٢) عين محمد على هذا الرجل نقيباً للأشراف بدل السيد عمر مكرم .

(٣) الأمراء المصريون هم المماليك .

(٤) ص ٢٠١ من الجزء الرابع من الجبرتى .

الارادة الانسانية

قوتها والحاجة إليها

بقلم الدكتور محمد والى خان — تعريب الأستاذ عمر طلعت زهران

يمكننا أن نقرر عموما أن بعض الناس أقوياء الإرادة جدا ، ولكن معظم الناس ليسوا كذلك . والشخص القوى الإرادة يعتقد أنه إذا صمم رأيه على تحقيق غرض ما ، فإن عليه حتما أن ينجح فى تحقيقه . ويميل مثل هذا الشخص الى احتقار غيره ممن تنقصهم هذه القوة ، إذ أنه لا يفهم تماما هذا الضعف الذى ينتاب الكثيرين .

فإذا ما ارتبط هذا العزم بالدِّين ، فإن الشخص القوى الإرادة يميل غالبا الى الاعتقاد بأن ما يريده هو ، إنما يريده الله ، وإن وجدت مواطن ضعف فى أخلاقه فإنه زعيم بأن يتغلب عليها بعزم أقوى . وإنه ليدعو الضعيف والخائف الى التماسك ، غير منتبه إلى أن ذلك إنما يدعو الى ضعف أكثر وخوف أشد ، وإلى شعور أكثر بالإثم .

وقليل من الناس يحظون بهذا الثبات ، فهم يعرفون جيدا مواطن الضعف فيهم ، ويعرفون قوة عاداتهم واتجاهاتهم ، وحتى لو حاولوا اتباع ما يظنونه حقا ، فإن دوافعهم تسير بهم فى اتجاهات جد مختلفة . وهم لا يستطيعون التصميم على رغباتهم ، أو أن يتغلبوا بقوتهم الخاصة على خوفهم الهستيرى ، أو أن يحطموا قوة العادات التى أنشئت فيهم . وقد امتلأت ذاكرات معظم الناس بذكريات الحلول التى توصلوا إليها، ولم يوفقوا الى تحقيقها .

إن الإرادة الإنسانية هى ذلك الجزء من الشخصية التام التنظيم ، والذى يدفع المرء دائما لتحقيق الأغراض التى تتمناها نفسه . وفى كثير من المسائل الصغيرة من أمور الحياة اليومية نجد أن الإرادة الإنسانية ذات أثر ، ولكن فى أعماق الشخصية الإنسانية توجد غرائز ودوافع لم تدخل بعد فى مجال النشاط المنظم للفرد ، وقد تكون هذه الغرائز والدوافع فى نزاع مع الإرادة ، ويبدو كأنما يوجد مركزان فى الشخص الواحد ، يتمنى كل تحقيق رغبات مختلفة .

ومثل هـذا النضال يجب أن يبت فيه : فإما أن تصـير الإرادة هى آلة الدوافع المختفية ، فتسمو بالغرور وحب السيطرة ؛ وإما أن تصير آلة للروح ولقوة الله ، تعمل فى إنسان قد وهب شخصيته لله فى الحب والعمل .

والإسلام ، يعتقد فى القوة الطبيعية للإرادة الإنسانية لتحقيق الأغراض الصحيحة للنفس . وهو لا يؤمن أن الإنسان يستطيع — بمجرد أن يصمم رأيه — أن يصبح كما ينبغى أن يكون . والإسـلام دين تفاؤل فيما يختص بقـدرة الناس على الاستجابة لأى نداء يوجـه خاصـة الى الإرادة ؛ بل إنه يؤمن أن الإنسان يحتاج الى الخلاص والمساعدة ، وأن الله قد أمده بالمصادر الضرورية لحاجاته . ويجب ، قبل أن تتحرك الإرادة ، أن يكبح الخيال ، وأن تثار المحبة .

والإسلام إنمـا يخاطب قلوب الناس وولاءهم ، أكثر ممـا يخاطب عزائمهم ؛ فالإسلام كلما كان أكثر تأثرا ، كان أقوى عزما .

إن المسلم ليدعو الله ، بخضوع وخشوع ، خمس مرات فى كل ليل ونهـار ، أن يُنهض عزائم المؤمنين ، فالإسلام لا يفترض أنهم سينهضون عزائمهم بأنفسهم أو يكوّنوا حلولا جديدة بقوتهم الخاصة .

وهو الله ، الذى يستدعى حبـُّه حبَّ الناس ، فحين يعرف هؤلاء فضل الله ورحمته ، يستسلمون لجلاله : يقودهم ويحكم قلوبهم ، فإن إراداتهم تستطيع أن تبين فى الحياة عن نفس قد كمل تنظيمها : انسجاما ، وثباتا ، وتكاملا ؟

خـفى حنين

مـدح ربيعة الراقى يزيد بن حاتم الأزدى وهو والى مصر فاستبطأه ربيعة ، فشخص إليه من مصر وقال :

أرانى ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأرسل فى طلبه ، فلما دخل عليه لامه على ما قاله فيه ، وسأله هل قال غير ذلك البيت ؟ فقال ربيعة : لا والله ! فقال الأمير : لترجعن بخفى حنين مملوءة مالا . وأمره أن يخلع نعليه ، وملئت له مالا .

المعاملات فى الشريعة الاسلامية
والقوانين الوضعية

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

نبدأ الآن بحثا جديدا موضوعه الالتزامات والعقود فى الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية .

هذا الموضوع له أهمية كبرى ، حيث إن مصر سنّت لها قانونا مدنيا حديثا استمدت أحكامه من القوانين الأجنبية معتقدة أن تلك القوانين الأجنبية كافية فى تحقيق ما تقتضيه ظروف البلاد من اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وغير ذلك . وزعم واضعو هذا القانون أنهم استمدوا بعض الأحكام من الشريعة الإسلامية ، ومعنى هذا عدم كفاية الشريعة الإسلامية لما تقتضيه ظروف الزمان والمكان ، مع أن الأمر عكس ما ذهبوا اليه . ولذا قام جماعة من كبار رجال القانون وألّفوا لجنة منهم ومن بعض علماء الأزهر لدراسة هذا الموضوع (كفاية الشريعة الإسلامية) ، فعملت نموذجا لمشروع قانون مدنى حديث استمدت جميع أحكامه من الشريعة الإسلامية ، فجاء متمشيا مع ما تقتضيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية الحديثة ، وقد كان هذا النموذج فى كتاب العقد ، لأن نظرية العقد هى الأساس لجميع المعاملات المدنية ، وإليها ترجع أحكام العقود الخاصة .

وقد [1] صادف اللجنة فى طريقها صعوبات ومشاق ، لأن كتب الفقه

---

(١) ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوه بإيجاز بما قامت به اللجنة من عمل ، وبيان ما قام به كل عضو منها ، لينال كل ذى حق حقه :

كانت تجتمع اللجنة أولا لتناقش الموضوع لتعرّف الفكرة القانونية ، وذلك بإشراف سعادة الدكتور صادق بك فهمى المستشار بمحكمة النقض والإبرام =

الإسلامى لم تضع نظرية عامة كاملة للالتزامات والعقود (كما فى القـوانين الوضعية وكتبها) ؛ لذلك كانت ترجع اللجنة الى جميع أبواب الفقـه وتستخلص القواعد العامة التى تنتظم جميع أنواع العقود الخـاصة ، وذلك بعد بحث وتنقيب وتحليل علمى دقيق ، فجـاء النموذج كاملا وافيا بالغرض ، ومصيبا للهدف ، وحاز رضاء كثير من رجال القانون والعلم .

= الوطنية ، ثم يقوم كل عضو بالبحث فى كتب فقه مذهبه عن الأحكام والنصوص الخاصة بالموضوع ، ثم تجتمع اللجنة ثانية للبحث والنقاش فى تلك النصوص والأحكام على ضوء الفكرة القانونية ؛ وبعد الاتفاق والانتهاء الى رأى ، تحال الفكرة لصياغتها صياغة قانونية الى فضـيلة الشيخ يس سويلم ، ثم تراجع معه ومع باقى الأعضـاء بإشراف سعادة صادق بك فهمى . وقد اسـتمر عمل اللجنة هكذا نحو المـائتين والخمسين جلسـة كانت كل جلسة تسـتغرق أكثر من أربع أو خمس سـاعات متواليات . ولمّا أن تم النموذج أعيدت مراجعته بنفس الطريقة حتى أخذ وضعه النهائى . وكانت اللجنة مكوّنة من جميع مذاهب الفقه الإسلامى ، فكان عن المالـكية فضيلة الشيخ يس سويلم الذى كان له القسط الأوفر فى هذا العمل ، وعاونه فى كثير من الأحيان بالبحث عن النصوص كل من فضيلتى الشـيخ عبـد القادر خليف والشيخ أحمد على . وكان عن الشافعية فضيلة الشيخ على البولاقى ، وشاركه فضـيلة الشيخ إمام حسين وفضيلة الشيخ ابراهيم النجار . واقتصر عمل الشافعية على نحو النصف من هذا النموذج .

وكان عن الحنابلة فضيلة الشيخ على عبد المجيد ، وقد أبلى بلاء حسنا فى كثير من المسائل المعقدة التى برهنت على غزارة علمه . وكان قد قام فضيلة الشيخ عبد اللطيف السـبكى بجزء كبير فى هذا العمل عند الابتداء فى عمل هذا النموذج . وكان يمثّل الحنفية فضيلة الشيخ الطيب النجار الذى برهن بعمله هذا على غزارة مادته العلمية وحسن استنتاجه وبراعته فى البحث والنقاش ، وكنتُ أشاركه فى عمله (باعتبارى حنفى المذهب) بجانب ما كنت أقـوم به من تحضير للمواد وتدوين للنصوص وترجمة الى اللغة العربية لما يحتاج اليه من أبحاث قانونية حيث كنت أتولى أيضا عمل السكرتارية الفنية العلمية . =

وقد طبع هذا النموذج طبعتين : إحداهما قامت بها نقابة المحامين الوطنيين ، والأخرى قامت بها جماعة اتحاد الهيئات الإسلامية ، ووزع ، ونفدت جميع نسخه . ونحن فى أبحاثنا هذه سنجعل هذا النموذج أساسا لنا فى مقالاتنا ، ونبيّن مصادر نصوصه ، مع مقارنة ذلك بالقوانين الوضعية ، خصوصا قانون مصر الحديث الذى سيبدأ فى تنفيذه فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٩ عند انتهاء أجل المحاكم المختلطة . وستكون مقالاتنا هذه موجزة ، لأن المقام لا يتسع للتفصيل .

= وكان سعادة الدكتور صادق بك فهمى روح اللجنة ، فباشتراكه وإشرافه ونقاشه وشرحه للأبحاث القانونية ونصحه وإرشاده ، تمكنت اللجنة من تحقيق ما ترمى إليه ، فكان هو العامل الأساسى لظهور هذا العمل الجليل الى الوجود . كما أنه هو الذى قام بعمل التمهيد لهذا النموذج الذى بيّن فيه الأسس العلمية والفنية لعلم القانون المقارن ، وما يجب اتخاذه لعمل تشريع جديد لمصر ولبلاد المسلمين كافة ، كما أبان بجلاء ووضوح تفوّق الشريعة الإسلامية على التشريعات الأخرى .

وقد كانت اللجنة على اتصال ببعض أعضاء الهيئة المدنية لمحكمة النقض والإبرام الوطنية عن طريق الدكتور صادق بك فهمى للاستنارة بعلمهم وأفكارهم ، ولا ننسى أن نذكر ما قام به سعادة مختار بك بخيت رئيس استئناف أسيوط سابقا من مساعدة قيمة وفضل ونصح وإرشاد لاشتراكه فى بعض المواد ، كما نذكر بالشكر الجزيل فضيلة الشيخ العتريس من هيئة كبار علماء الأزهر لما أبداه من اشتراك ومعاونة قيمة .

وكان يسود أعضاء اللجنة روح الإخلاص والمحبة والتفانى فى العمل حيث كان جل هدفهم هو إثبات كفاية الشريعة الإسلامية ، ووجوب العمل بها ، غير ناظرين إلى أىّ اعتبار آخر .

ونذكر بمزيد الشكر ما قام به فضيلة الشيخ حمودة غرابة من تصحيح التجارب ، ومراقبة الطبع والتوزيع بالاشتراك مع الدكتور صادق بك فهمى .

ولما أن تم طبع هذا النموذج جاء صورة رائعة لأحدث تشريع يتمشى مع ضرورات الزمان والمكان ، مضاهيا أحدث التشريعات إن لم يفقها صياغة وعلما وفنا . ويعتبر هذا النموذج هو المؤسس الأول لنظرية كاملة للعقد فى الفقه الإسلامى . وقد نفدت جميع نسخه ، إذ تهافت عليه الكثير من رجال العلم والقانون .

والآن نبدأ بتعريف الالتزام :

لم تتعرض كتب الفقه الإسلامى لتعريف حقيقة الالتزام وماهيته ، وإنما ذكرت له أحكاما ، كما أن مؤلفات القوانين الوضعية لم تضع له تعريفاً خاصاً وصحيحا مبنيا على أسس ، لأنك إذا نظرت إلى تعريفات هذه المؤلفات ، خصوصاً فيما هو مدون باللغة العربية وجدت اضطرابا وعدم انضباط ، إذ تجد عباراتها مائعة غير منطقية ، وليست متمشية ومبنية على أسس علمية ، وذلك لعدم معرفة مؤلفى هذه المؤلفات للقواعد العلمية للتعريفات (القول الشارح) ، فاضطررنا إزاء ذلك أن نحاول بقدر طاقتنا وضع تعريف للالتزام يصح اعتباره مؤقتاً حتى يقوم البحث العلمى الصحيح لوضع تعريف علمى صحيح له .

الالتزام : الالتزام فى اللغة : مشتق من لزم الشيء يلزم لزوماً بمعنى ثبت ودام ، ومنه ألزمته أى أثبته وأدمته ، ولزمه المال وجب عليه ، ولزمه الطلاق وجب حكمه وهو قطع الزوجية ، وألزمته المال والعمل وغيره فالتزمه ، ولازمت الغريم ملازمة ، ولزمته ألزمه أيضاً : تعلقت به (انتهى من المصباح المنير) .

وبذلك يتضح أن الالتزام يفيد وجوب الشيء ، كما يفيد وجود علاقة ورابطة بين الملتزم والملتزم له . وإذن يمكننا تعريف الالتزام بأنه « وجوب الوفاء بأمر » . ثم إن سبب الوجوب قد يكون قولا أو فعلا أو كفا وامتناعا . والمراد بالفعل معناه الأعم ، فيشمل الكتابة والإشارة وغير ذلك من ظروف وأحوال تحف بها القرائن . وحكم الالتزام : وجوب الوفاء بما التزم به ، فإن امتنع الملتزم عن الوفاء نشأ للملتزم له حق إكراه وإجبار الملتزم على الوفاء بما التزم به . ووسيلة الإكراه هى القوة والسلطان اللتان يخشاهما الملتزم الناكل . وقد يستوفى الملتزم له حقه بنفسه . وكان قديما يتولى الملتزم له بنفسه إجبار الناكل ، ولكن الأمور تطورت وأصبحت توجد الآن طرق رسمها القانون لإجبار الملتزم الناكل على تنفيذ ما التزم به .

وسائل الإكراه قديما وحديثا : قديما كانت السلطة التى يتمتع بها الدائن (الملتزَم له) ضد مدينه (الملتزِم) عبارة عن سلطان مطلق على شخص المدين ، فكان للدائن الذى يمتنع مدينه عن الوفاء بما التزم به أن يستولى على هذا المدين ويحتفظ به سجينا عنده ، أو يتصرف فيه رقيقا ، ببيع أو غيره ، أو يستخدمه لديه .

بل قد ذهب حقه إلى أكثر من ذلك ، فكان له حق قتله كما يشاء ، ولو كان للمدين غرماء متعددون جاز لهم قتله وتقطيع جثته وتوزيعها بينهم كل على حسب نصيبه . ثم تلطفت ونقصت هـذه السلطة فألغى القتل ثم السجن ، وأصبح للدائن حق استخدام مدينه لمدة يستوفى بها الدائن حقه . ثم تطورت الأمور شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح حق الدائن فى القانون الفرنسى القـديم قاصرا على طلب حبس المدين الذى لا يفى بدينه ، والحبس كان بسجون الحكومة . وهذا ما يسمى « بالإكراه البدنى » . وقـد ألغى الإكراه البدنى فى فرنسا بالنسبة للديون المدنية والتجارية بقانون صدر فى أوائل منتصف القرن التاسع عشر . ولكن لا يزال هذا الإكراه قائما فى تحصيل الغرامات الناتجة من الجرائم الجنائية . والحال كذلك فى مصر . فالإكراه البدنى لا يكون إلا بالنسبة للغرامات الجنائية ، وكذلك بالنسبة للنفقات التى يحكم بها من المحاكم الشرعية . وفيما عدا هـذا النطاق الضيق الذى يجوز فيه التنفيذ بالإكراه البدنى ضد المدين أصبحت سلطة الدائن قاصرة فى الوقت الحاضر على حق التنفيذ على أموال المدين دون التعرض لشخصه .

الإكراه البدنى فى الشريعة الإسلامية : أجازت الشريعة الغراء هـذا النوع لضرورته ، ولكونه وسيلة ناجحة لإجبار المدين الناكل على الوفاء بما التزم به ، ولكن بشروط معينة ، هى أن يكون المدين ذا يسار وقدرة على الوفاء بما التزم به ، وأن يكون مماطلا ، وأن تقوم البينة على هذين الشرطين ، وأن يصدر أمر الحبس من القاضى ، وأن يكون الحبس فى سجون الحكومة .

ويلاحظ أن الحبس لا يعتبر إيفاء للدين ، وإنما هـو وسيلة لإجبار المدين الناكل وإرغامه على الوفاء بما التزم به .

وقد انتقد بعض كبار رجال القانون بفرنسا إلغاء الإكراه البدنى فى الديون المدنية والتجارية نظرا لكثرة تحايل المـدينين الناكلين على تهريب أموالهم بشتى الطرق والوسائل حتى لا يصل الدائن إلى حقه ، وتمنى الأخـذ بقاعـدة الشريعة الإسلامية . وإن الظروف ستجبر الناس يوما ما على الأخـذ والعمل بالقاعدة الشرعية ، وإن غدا لناظره قريب ؟

باب الأسئلة والفتاوى

التطوع للجهاد فى سبيل فلسطين

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ الكبير مفتى الديار المصرية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ما حكم الإسلام فى التطوع بالنفس والمال للجهاد فى سبيل فلسطين العربية ؟ وهل يعتبر المتطوع بنفسه مجاهدا ؟ وإذا قتل فى المعارك التى تدور هناك يعتبر شهيدا شرعا أم لا ؟ وما حكم من يحول دون ذلك أو يفتى بحرمة هذا العمل بحجة أن العرب باعوا أرضهم لليهود ولا يستحقون المساعدة ؟

أحمد محمد على الشراقى
من بلدة حوض نجيح شرقية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

والجواب : أن الجهاد بالنفس أو المال لإنقاذ فلسطين واجب شرعا على القادرين من أهلها وأهل الدول الإسلامية التى تحاول الصهيونية اليهودية بقوة السلاح إقامة دولة يهودية بقطر من أعز أقطارها الإسلامية العربية ، وهو فلسطين ، لا لتملكها فحسب ، بل للسيطرة على دول الإسلام كافة والقضاء على عروبتها وحضارتها الإسلامية . ومن نكص عن القيام بهذا الواجب مع الاستطاعة ، أو خذل عنه ، كان آثما . غير أنه يجب الآن فى الجهاد بالنفس ، وقد تنوعت أساليب الحرب ، أن يخضع المجاهد للنظم التى تضعها دول الجامعة العربية للجهاد حتى يحقق النصر المأمول . والله المستعان .

مفتى الديار المصرية
حسنين محمد مخلوف

تشابه مقاصد القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

قال الله تعالى فى الآية ٢٣ من سورة الزمر: « اللهُ نزَّلَ أحسن الحديث كتاباً متشابِهاً مثانِىَ تقشعرُّ منهُ جلودُ الذينَ يخشونَ ربَّهمْ » فوصف القرآن بأنه كتاب متشابه ، وجعل هذا صفة مدح له ؛ وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد والقصص والمواعظ ، وما إلى هذا من الأنواع التى يشتمل عليها ، وتتكرر فى كل سورة من سوره ، وكلها أنواع متشابهة المقاصد ، متقاربة الأغراض ، لا تخرج عن الوظيفة الدينية للقرآن ، ولا تحيد عن الغاية الدينية التى نزل من أجلها ، لأنه نزل لتشريع العقائد والأحكام ، فيجب أن يقف عند حدودها ، وأن يكون كل ما فيه من أوامر ونواهٍ ، ووعد ووعيد ، وقصص ومواعظ ، وغيرها ، متصلا بها ، فلا يقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب أو غيرهما من العلوم ، لأنه لم ينزل لغرض من هذه الأغراض ، وإنما نزل للأغراض السابقة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحى ؛ أما هذه الأغراض العلمية فإنها تعرف بالعقل ، ولا تتوقف معرفتها على الوحى ، فلا يصح أن يخلط بينها وبين الأغراض السابقة فى كتاب دينى كالقرآن أو غيره .

وقد حددت الوظيفة الدينية للقرآن فى فاتحته ، وهى أول سورة منه ، فقال تعالى فيها « بِسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ ، الرحمٰنِ الرحيمِ ، مالِكِ يومِ الدِّينِ ، إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ، اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ ، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهمْ غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضَّالِّينَ » .

وهو فى هذا يبين أنه يراد من القرآن الهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الدين الذى بعث به النبى صلى الله عليه وسلم . والكتاب يقرأ من فاتحته ، فهى التى تحدد المقصود منه ، وتبين الغرض الذى يريد تحقيقه . وقد توالت سور القرآن بعد هذه الفاتحة ، فسارت فى هذا الغرض الذى حُدّد فيها ، ولم تحد سورة منها عنه ؛ وبهذا تشابهت سوره فى أغراضها ومقاصدها ، كما تشابهت أوامره ونواهيه وما إليها مما اشتمل عليه .

فلم تُعْنَ سورة من سور القرآن بتدوين تاريخ الخلق مثلا ، أو تاريخ شعب من الشعوب ، أو تاريخ رسول من الرسل ، فتستنّ فى هذا أسلوباً تاريخياً يقصد منه الاطلاع ، ومعرفة الأخبار ، ويراد منه الكشف عما يجهله الناس منها ؛ لأن هذا ليس فى شىء من وظيفة الكتب السماوية ، ولا يتوقف أمره على تنزيل سماوى ، حتى ينزل به وحى من عند الله تعالى ، وإنما هو أمر فى متناول البشر ، يصلون اليه بعقولهم ، ويعرفونه باجتهادهم وبحثهم .

وقد يقال إن القرآن قد جاء فيه كثير من أخبار الماضين ، وقد نزلت فيه سور تكاد تكون مقصورة على أخبار رسول من الرسل ، ومن هذا سورة يوسف وسورة طه ، فالأولى مقصورة على أخبار يوسف عليه السلام ، والثانية تكاد تكون مقصورة على أخبار موسى عليه السلام .

والجواب أن القرآن لا يقص علينا أخبار الماضين كما يقصها المؤرخون ، لا يريدون منها إلا إفادة العلم بها ، وكشف المجهول منها ، وإنما يقصها ليستخلص منها العظة الدينية التى تدخل فى وظيفته ، وليكون منها تذكرة نافعة لنا فى دنيانا وأخرانا ، فلا يقص منها إلا الاخبار التى يمكن أن يستخلص هذا منها ، فيختارها اختيارا دون غيرها من الأخبار التى لا يقصد منها إلا الفائدة الإخبارية التاريخية . وهنا تختلف وظيفة الكتاب المنزل عن الكتاب التاريخى ، فالكتاب المنزل إذا ذكر أخبار قوم من الماضين يذكرها نتفا من هنا ونتفا من هناك ، فيختارها اختيارا يوافق غايته الدينية ، أما الكتاب التاريخى فيذكرها كاملة غير منقوصة ، ويرتبها ترتيبا يوافق ترتيبها فى حوادث الزمن .

ويندر أن يقع فى القرآن قصة ترتب حوادثها ذلك الترتيب الزمنى ، ولا يكاد هـذا يجاوز عـدد أصابع اليد من السور ، ومن هذا قصة يوسف عليه السلام ، فإنها مرتبة ترتيبا زمنيا يبتدىء من صغره الى أن وصل أمره فى مصر إلى ماوصل إليه ، ولـكنها لا يذكر فيها مع هـذا إلا مايدخل فى باب الْعِـظة والْعِـبرة ، فيحذف فيها ما عداه مما يدخل فى باب التاريخ المحض ، ولا يقصد منه إلا المعرفة والاطلاع ، لتوسيع الثقافة التاريخية ، وزيادة الثروة العلمية .

ولهذا كله امتاز القـرآن من بين الـكتب بأنه الـكتاب الذى يقرأ ويتلى ، وتـكرر تلاوته وقراءته ، فلا يمل ذلك قارئه وتاليه ، لأنه يتلوه للعظة والتذكرة ، والإنسان كثيرا ما يعتريه النسيان ، وتَعْتَـوِرُه الغفلة ، فيحتاج الى تـكرير ما يعظه ويذكّره ، لتستمر له أسباب العظة والتذكير ، وتتهيأ له وسائل السعادة فى دنياه وأخراه ، لأنه يكرر ذكر خالقـه وما له عليه من حقوق ، وهى حقوق ترجع الى تهيئة وسائل تلك السعادة له ، ليعيش فى الدنيا رغيد العيش ، محبا لـكل من تربطه به صلة قرابة أو دين أو وطن أو إنسانية أو حيوانية ، وبهذا ينـال السعادة فى أخراه كما نالها فى دنياه ، لأن الدنيا قنطرة الآخرة .

ولهذا كله امتاز القرآن بهذا الاسم من بين الـكتب ، لأن القرآن مصدر قرأ يقرأ قرءا وقراءة وقرآنا ، فتعرف حقيقته من عنوانه ، وتدرك وظيفته من اسمه . وقديما قالوا : إن الـكتاب يقرأ من عنوانه .

فإذا أردنا أن نوازن فيما امتاز القرآن به من ذلك كله وبين التوراة الموجودة الآن ، وجدنا أن التوراة تشتمل على خمسة أسفار :

١ — سفر التـكوين ، وهو يشتمل على التاريخ القـديم ، من بدء الخلق الى موت يوسف عليه السلام .

٢ — سفر الخروج ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر ، كما يشتمل على كثير من المسائل التشريعية والطقوس الدينية .

٣ — سفر اللاويين ، وهـو يشتمل على الطقوس الدينية الخـاصة بتقديم القرابين ، وعلى طقوس الـكهان من أبناء هارون .

٤ — سفر العدد ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من سيناء الى شرق الأردن ، وعلى بعض الرسوم الخاصة بالطقوس والعبادات .

٥ — سفر التثنية ، ويراد منه تثنية الشريعة أى إعادتها مرة ثانية لتطهير طقوسها .

وإذا تركنا التوراة الى الأناجيل الأربعة الموجودة الآن ، نجدها تمضى فى أسلوب التوراة ، وهى : إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ؛ والأربعة لا يقصد منها إلا تدوين تاريخ المسيح عليه السلام ، فتذكر فيها سيرته الى نهايتها ، وتدون فيها أفعاله وأقواله .

ولا شك أن التوراة والأناجيل تجمع فى هذا بين وظيفة المشرع والمؤرخ ، وهما وظيفتان لا تتشابهان بل تتباينان ، لأن الوظيفة الأولى إلهية ، والوظيفة الثانية بشرية ، ولها وسائلها التى تعتمد عليها من المشاهدة والرواية ، بخلاف وظيفة التشريع ، فإنها تعتمد على الوحى من الله تعالى ؟

المماطلة

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

وقال عمر بن الحارث : كانوا يفعلون ولا يقولون ، ثم صاروا يقولون ويفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون .

وقال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان فى مواعد وعدها إياه فمطله بها : نحن الى الفعل أحوج منا الى القول ، وأنت بالإنجاز أولى منك من المطل ، واعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد ، واستتمامك المعروف .

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشى لخالد بن ديسم والى الرى :

أخالد إن الرى قد أجحفت بنا … وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد أطمعتنا منك يوما سحابة … أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فييئس طامعا … ولا ماؤها يأتى فيروى عطاشها

وقال حكيم : خلف الوعد ألأم من البخل ، لأن من لم يفعل المعروف لزمه ذم اللؤم وحده ، ومن وعد وأخلف لزم ثلاث مذمات : مذمة اللؤم ، ومذمة الخلف ، ومذمة الكذب .

الرضا بالقضاء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على رفاعى
المفتش بادارة الوعظ

ينبغى أن يعلم أن الرضا عن الله فى كل ما يفعله بالعبد ليس معناه ترك العبد للأسباب الموصلة الى ما يريده؛ بل الأخذ فى الأسباب من جملة الرضا عن الله. فإنه سبحانه هو الذى أمر بالعمل وبمزاولة الأسباب، مع الجد والنشاط وأخذ الحيطة والحذر؛ فإن وصل المرء الى مطلوبه فذلك من توفيق الله وإعانته، وإن لم يصل فليسلم بالقضاء، وليعلم أن الخيرة فيما اختار له من هو أعلم بمصالحه من نفسه التى بين جنبيه، وهو العليم الخبير. وقد يظن العبد الخير فى شىء وهو شر محض فى الواقع ونفس الأمر، كما يظن الشر فى شىء وفيه كل الخير «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لاتعلمون». ولذلك كان المؤمن القوى، وهو العامل بأوامر دينه الواثق من أن ربه لا يفعل إلا مافيه مصلحته، خيرا وأحب الى الله من المؤمن الضعيف الذى يجزع من الحوادث تنزل بساحته فتهتز أركان عقيدته.

فترى المؤمن القوى إذا نزل به مهم أخذ فى مدافعته مستعينا بحول الله وقوته، فإن عجز عن دفعه ولم يستطع له ردا، لم يجلس جلسة الحزين الذى يقول: لو أنى فعلت كذا لنجوت، ولو فعلت كذا لم يحصل كذا؛ ولكنه ينسى مافات، ويرجع الى إيمانه وثقته بالله، فيقول: قدر الله وما شاء فعل.

وقد جرت عادة الله فى خلقه أن جعل منهم سعداء وأشقياء. ترى ذلك فى الجمادات والنباتات والحيوان والإنسان؛ فهذا حجر يضرب بالفأس ليكسر، وآخر يتمنى الملوك أن يزينوا به أيديهم؛ وهذا نبات تشتاق النفس لتشتم عبيقه، وهذا آخر يتحاشى المرء ريحه؛ وهذا حصان ينفق على خدمته مئات الدنانير،

ويوضع عليه من باهى الحلل ما يكون زينة للناظرين ، وترى حصانا آخر يجر عربة محملة بالأثقال ينوء به حملها ، فوق ما يناله من أذى سائقه ؛ بل إن فى الكلاب ما يأكل مع العظماء ، ويتحلى بسلاسل الذهب ، ويقبّل فى فيه ، ومنها ما يضرب بالحجارة ويهلك جوعا .

وإذا انتقلت الى من كرمه الله على عموم مخلوقاته وهو الإنسان ، رأيت الغنى والفقير ، والصحيح والسقيم ، والمبتلى والمعافى ، والعقيم ومن له أولاد ، ومن ينعم بوالديه ومن فقد أحدهما أو كليهما ؛ بل رأيت الذكى الفطن وقد ضرب الفقر قبته عليه ، والغبى الجاهل والغنى يسير بين يديه .

فعلى تاهت العقول فيه ، وتحيرت منه الألباب . ولو تأمل المرء فى هذا كله لعلم أن لله فى ذلك حكما وشئونا ، مرجعها نظام الكون وحسن التدبير للعباد .

فلو خلقوا جميعا أغنياء لما وجد التعاون ، وقد شاء الله أن يجعل بعضهم لبعض سخريا ، ليقوم الفقير بمعاونة الغنى فى تجارته وزراعته ، ويقوم الغنى للفقير بما يسد خلته ويدفع عنه ألم الفاقة .

ولو وجد الناس جميعا أصحاء لما عرفوا مقدار نعمة الصحة . ومن الحكم الطبية فى هذا « الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » . وقل مثل ذلك فى كل الفروق الموجودة بين بنى الإنسان . ولو كشف الغطاء عن المرء ، لعلم أن ما هو فيه خير له مما يتطلع اليه ويتمنى حصوله لنفسه ؛ إذ الذى حاطه برعايته وهو فى بطن أمه ، ورباه طفلا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وهو أعلم بما فيه خيره ومصلحته ، هو الذى وضعه هذا الوضع .

فيجب التسليم له والرضا عنه فى كل ما يفعله به ؛ والرضا فوق الصبر ، فقد تكره الشيء ينزل بك ولكنك تعتصم بالصبر فتنال أجر الصابرين .

ولكن الرضا أن ترى كل ما يفعله بك جميلا ؛ وأن من أحبه مولاه ابتلاه ليظهر للناس مكنون سره ، وهل هو من المؤمنين الراضين عن الله، أو من المؤمنين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . وليثبت ذلك فى نفسك ويقر فى قلبك . استمع معى الى قول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه » يزيدك بيانا أن الشكوى للمخلوقين

من الخالق سبحانه وتعالى ، وإظهار السخط وعدم الرضا عن فعل الله بالعبد ، يخرج بالعبد من حظيرة المؤمنين الصادقين . ترى ذلك واضحا فى قول الله تعالى فى الحديث القدسى « إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى فليطلب ربا سواى » .

والصبر على البلاء والرضا بالقضاء هو ثمرة الإيمان ونتيجته ، إذ من وقر فى نفسه أن له ربا كريما عليما بما ينفعه وما يضره ، وأنه أرحم به من الوالدة بولدها ، أيقن أن ما هو فيه خير له مما يتشوف اليه ، وأن من الخرق والجهالة أن يظهر السخط ويشكو الخالق سبحانه لعبيده . بل عليه أن يلجأ الى ربه فى كل ما ينزل به ، كما فعل يعقوب النبى عليه السلام حين فقد ولديه ؛ فقد قال كما يحدثنا القرآن الكريم : « إنما أشكو بَثِّى وحزنى الى الله » .

ويعجبنى فى هذا المقام أن أذكر لك ما قرأته فى بعض الكتب ، من أن الله سبحانه وتعالى قال : يا يعقوب أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا يا رب ، فقال : لأنك قلت لإخوته « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى له ؟ ولم خفت من غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى ورعايتى له ؟ أتدرى يا يعقوب لم رددت عليك ولدك ؟ قال : لا يا رب ، قال : لأنك قلت « عسى الله أن يأتينى بهم جميعا » .

فانظر أيها المؤمن بنور قلبك إلى هذه المحاورة الطريفة ، تر أن ربك الغنى يحب أن تلجأ اليه فى كل شأنك ، وتكل اليه جميع أمرك .

ولله در من أنشد عن الله سبحانه « سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منك » .

وقد أسلفت لك أيها القارىء الكريم أن الرضا عن الله فى كل ما ينزل بك هو ثمرة الإيمان ، بل هو الإيمان على التحقيق .

وأحب أن تستمع إلى السؤال الآتى وجوابه لتزداد إيمانا وإشراقا ونورا ، حتى ينشرح صدرك وتستريح نفسك ، ويطمئن قلبك لكل ما يفعل الله بك :

سأل النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقال « ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نصبر عند البلاء ، ونشكر عند الرخاء ،

ونرضى بمواقع القضاء . فقال صلى الله عليه وسلم : « مؤمنون ورب الكعبة » . وفى رواية أخرى قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » .

ويأخذ بمجامع القلوب ما يروى فى بعض الأحاديث القدسية من قول الله تعالى « إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى ، فليطلب ربا سواى » .

قد يقع أمام نظرك أمر أنت تنكره ، ولكنه لو كشف عنك الغطاء لرأيت جميل فعل الله فيما أنكرت .

فقد جرى الإنسان على أن يقيس حسن الأشياء وقبحها على عقله المحدود ، وفكره المكدود . وأين عقلك ممن لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ وسع كل شىء علما ، وهو السميع البصير . ولتدرك ذلك وتفهمه ، أقص عليك من كتاب الأربعين (للإمام الغزالى) القصة الآتية ، وهى فيما أحسب تنير أمامك طريق الرضا والتسليم لله رب العالمين :

روى أن نبيا كان يتعبد فى جبل ، وكان بالقرب منه عين ماء ، فاجتاز بها فارس وشرب ، ونسى عندها صرة فيها ألف دينار ، وجاء آخر فأخذ الصرة ، ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب ، فشرب واستلقى ليستريح ، فرجع الفارس فى طلب الصرة فلم يرها ، فأخذ الفقير فطالبه وعذّبه فلم يجد عنده ، فقتله . فقال النبى : إلهى ما هذا ؟ أخذ الصرة ظالم آخر ، وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله ! . فأوحى الله إليه اشتغل بعبادتك ، فليس معرفة أسرار الملك من شأنك . إن هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص ، وإن أبا الفارس قد كان أخذ ألف دينارمن مال آخذ الصرة فرددته إليه من تركته .

وبعد ، فعقيدة القضاء والقدر ،تدعو الى الشجاعة والتضحية والاستبسال فى الدفاع عن الدين والوطن . ويرحم الله القائل : وكل شىء بقضاء وقدر ، وكل مقدور فما منه مفر .؟

العصر العظيم فى تاريخ العالم

« كُنفشيوس ـ جوتاموبوذا ـ زَرْدَشت ـ فيثاغوراس » من وجهة نظرٍ تأليفية

تأليف : ف . ستانكا . تعريب : الأستاذ عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسى ألقيت فى جامعة هامبورج فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة باستخدام الحديد والاستقلال السياسى كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص » .

— ٤ —

إن كلمة « شعور » حين تنسب الى كنفشيوس ، تبدو غريبة غير عادية ، ولكن هذه الكلمة فى أنق وأسمى معانيها إنما تأخذ مكانها الحق إذا طبقت على تعاليم جوتامو بوذا ، التى تمتلىء من بدايتها الى نهايتها بأعمق المشاعر الإنسانية النبيلة . وقد ولد جوتامو فى الإقليم الجنوبى لسفوح الهملايا ، وكما أن جبال الهملايا تتضاءل بجانبها أعلى جبال العالم ، فكذلك تعاليم بوذا تتضاءل بجانب جمالها وعظمتها وعمقها كل نظم التفكير الإنسانى الأخرى ، وهى ليست فوق البشرية وإن كانت بشرية ، وبشرية جدا ، ولكنها على أية حال تسمو على المثل الأعلى للتفكير الأوربى .

وكانت العائلة عند كنفشيوس هى نقطة البدء لنظريته الأخلاقية والسياسية ، وعلى العكس نجد أن جوتامو يبدأ حياته بهجره لعائلته . وهناك أسطورة معروفة شائعة هى أن أميرا أقلقه منظر المرض والشيخوخة والموت ، فقرر أن يبحث عن الخلاص من ألم الحياة ، فترك فى ظلام إحدى الليالى قصره الملكى الباذخ وعائلته الحبيبة ليبدأ حياته جوّاب آفاق، فقيراً يحيا حياة راهب سائل؛ وهى أسطورة تعد من أروع ما كتب فى الأدب العالمى ، وضعت بصورة بسيطة سهلة لها أثر

لا ينسى ، تبدو كأنها قصة خيالية للأطفال ، تظهر فيها أعمق المعانى ، وتتناول مباشرة وبصراحة مأساة حياتنا . وما هو معنى الحياة إذا كانت الشيخوخة والموت المحتوم فى انتظارنا !. ويعتقد بوذيّو الشمال أن هذه الأسطورة جزء من حياة جوتامو نفسه . أما أهل الجنوب فيعتقدون انها من رواية جوتامو عن أحد البوذوات الأربع والعشرين الذين عاشوا قبله . وعلى أية حال فإن هذه الأسطورة تبين لنا الدوافع الحقيقية لأبحاث وتعاليم جوتامو ، إن لم يكن عن طريق ترجمة حياته ، فعن الطريق البسيكولوجى .

ونجد فى محاولة البحث عن الخلاص من الألم والموت ، نقطة الخلاف الثانية مع كنفشيوس ، الذى كان يرفض حتى الكلام عن الموت .

وتقص علينا الأساطير أن جوتامولم يعرض المشكلة للبحث فحسب ، ولكنه استطاع أن يجد لها حلا نهائيا . ونعرف من سيرته أنه اتبع طريقين للبحث عن الحقيقة : طريق مخطىء ، وطريق صحيح ؛ وحاول جوتامو أول الأمر أن يتبع سبل العقيدة المتوارثة والزهد كما كانت العادة فى الهند آنذاك . وأمضى جوتامو ست سنين طوالاً يروض نفسه على أقسى أنواع الزهد والتقشف ، المصحوب بأحر العبادات ، مما كاد يودى بحياته جوعا . وتحول جسمه الى كومة من العظام والجلد الناشف حتى شارف الموت ، ومع ذلك فإن هذه الرياضة الجسمانية لم تجعل روحه يصل الى الحقيقة .

ومن هنا عرف جوتامو أن هذا الطريق خداع كاذب ، فأقلع عن صومه المخيف ، واختار لنفسه طريقاً آخر : هو طريق التأمل العميق والتفكير النفسى . وكان ترك هذه العقائد المتوارثة لا يقل أهمية عن هجره عائلته وبيت آبائه وأجداده ، لأن ذلك كان يعنى نقض الدين القديم ومعاداة « براهما » وغيره من الآلهة القدماء . ولا يوجد عند البوذية — مثلها فى ذلك مثل الكنفشيوسية — تفكير نظرى عن كائنات فوق الطبيعة ، لا بالآلهة ولا الإله . فهم جوتامو أن مشكلة الحياة تتمثل فى الروح الانسانى ، فهو وحده الذى يستطيع أن يشفى غليلنا . ويروى لنا قانون الشمال أنه فى هذا اليوم الجديد ووسط عاصفة تزأر ، فى ليلة حالكة الظلام ، كان جوتامو يجلس تحت الشجرة المقدسة غارقا فى تأملاته

إذ مر بمراحل « الحكمة الأربعة » كلها ، ووصل أعلى وآخر المعارف ، وهكذا صار « المستيقظ » أو « العارف » أو « البوذا » . ولكن قانون الجنوب يقص هذه القصة نفسها مع شيء من التغيير يجعلها أقرب إلى الحقيقة : كانت التأملات بين الحقول النضيرة والأشجار المزهرة ، ولم يكن وصوله للحقيقة فى مثل هذا الوقت القصير ، بل لقد استمر شهوراً أو سنين .

ويعتقد أن جوتامو قد وجد طريق الخلاص من كل آلام الحياة ، من الشيخوخة ومن الموت . ولكن ما هو هذا الطريق ؟ . إن نحن قرأنا كتب البوذية يدهشنا أننا لا نجد حلا واحداً فقط ، بل نجد حلين على الأقل : أحدهما تراه البوذية النظرية المتوارثة هو الحل الصحيح ، وهو أن الألم والحياة توأمان ، وعلى ذلك فان منبع الألم إنما يوجد فى تعلقنا بالحياة ، وفى الظمأ اللاشعورى المظلم غير العقلى أى الرغبة فى الوجود ، فيكون التخلص من الألم هو بالتغلب على هذا الظمأ وتحطيم القيود التى تربطنا بالحياة ووأد الرغبة فى الوجود . ويمتنع الموت فى حالة واحدة هى ألا نولد من جديد . فالنعيم الأكبر هو : انحلال إلى لا شيء ، الاختفاء الأبدى ، حالة النرفانا ، دون ولادة جديدة ، ومن ثم دون موت آخر .

وهذا النظام من نظم التفكير الذى يبدو فى « الحقائق الأربعة السامية » يمثل أبعد أنواع التشاؤم فى فهم الحياة البشرية ، ويمثل ذروة اليأس وخيبة الأمل الإنسانى . وعلينا أن نلاحظ أن البوذية تفوق الفلسفة الأوربية فى هذا المضمار . ويكفى أن نقرأ النصوص التى تبين نكران الحياة ، لنتحقق قوتها الغلابة التى لا تقاوم . وإن الإنسان ليقف حائرا مبهور الأنفاس أمام اليأس الكلى المدمر الذى يشيع فى تلك النصوص ، يقف حائرا إن هو لم يجد فيها ترياقا لهذا السم الروحانى القتال : ففى نصوص أخرى لجوتامو بل فى النص الواحد يتبين الفرد خطوطا من النور تنحسر عن فهم آخر للعالم ، ليس هو النكران ، بل هو تأكيد الحياة ، تقدير أعلى وعناية أكبر بالحياة ، ليست هى الحياة الإنسانية فحسب ، بل وحياة الكائنات الاخرى أيضا . ويفسر لنا هذا الفهم « المتعارض » ، « الأشياء الثمانية فى الطريق القويم » و « النظريات الأخلاقية العشر »[1] .

---

(١) من خطب جوتامو

وقد يسأل الفرد مندهشاً : أيّ هذين الفهمين للحياة هو الأصح ؟ ولن نجد جوابا شافيا لهذا السؤال فى النصوص نفسها. فالذى فى هذه النصوص هو التحذير من الفهم الخاطىء . وفى أحد هذه الخطب الجميلة مثَّل جوتامو تعاليمه بثعبان، فإذا ما قابل صياد الثعبان وأمسك به من جسمه أو من ذنبه ، فإن الثعبان سيقف ويلدغ صائده فيموت أو يقاسى أشد الألم ، « ولماذا ؟ لأنه أمسك بالثعبان بطريقة مخطئة » . وقد يقابل الثعبان صائد آخر فيمسكه بعصا خاصة تضغط على رأسه وتجبره على البقاء على الأرض ، فلا يستطيع الثعبان أن يلدغ صائده ، فليس يخاف الموت أو الألم « ولماذا ؟ لأنه أمسك بالثعبان بطريقة صحيحة » . وهنا يعترضنا سؤال من أهم الأسئلة فى التاريخ الإنسانى : هل أخذت البوذية النظريةُ المتوارثةُ نظريةَ جوتامو أخذاً صحيحا ؟ إن فتور البوذية الحالية المظلم الذى حل محل عظمة ذيوعها السابقة ، يضطرنا الى الشك الجدى فيها . ولندع هذا السؤال الى حين .

كما نحن

الرأى العصرى

الجلال الحر والحسب أين والاحسان يُغتصب !!!
نحن فى عصر شمائله جُل ما تلهو به الشغب
الهدى فى حبه خفَر والحجا فى طوعه صخَب
عزت الرحمى فلا أنَف يعطف المولى ولا أدب
عزة السامى برقته حين ساد العود لا الحطب

* * *

هذه الآراء لينة دون رأى الحر تُنتخب
شر ما فى الرأى من ترف أنه كالحسن يُستلب
حسب خطّاء على شره أمل فتانه عجب
ضل رأى ظل يعكسه عَسجد الشارين والرتب
ويلتا للحق ساحرة كعيون الغيد يَنتقب

« السيد »

دراسة جديدة فى البلاغة العربية :

أسرار الفصل والوصل

بين المفردات والجمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد سلمو
المدرس بالأزهر

أحكام المفردات

(ا) الاتحاد فى المفردات :

١ — الفاعل : مثل قام محمد : الصلة مستفادة من لفظ قام ، ولفظ محمد جاء لبيان فاعل ذلك القيام ؛ فالصلة فى اللفظين واحدة : اللفظ الأول يفهمها ، والثانى يفهم فاعلها والمتصف بها .

وما قيل فى ذلك يقال فى المفعول والظرف .

٢ — المبتدأ والخبر : مثل محمد قائم : قائم تفيد الصلة ، ومحمد هو الموصوف بتلك الصلة ؛ فالمسألة هنا كما تقدم .

نعت الخبر أو الخبر المتعدد :

إذا قيل : محمد شارب ماش فليس معنا فى : شارب ماش ، إلا صلة واحدة هى الإخبار بمجموع هذه الصفات ، أو بعبارة أخرى : الخبر هو الكلمة الأولى وكل كلمة بعدها صفة لما قبلها . وكان المراد اتصاف المبتدأ بهذه الأوصاف دفعة واحدة . ولا يشكل علينا أن ننطق مرة أخرى ، فنقول : محمد شارب وماش فإنا فى هذه المرة لم نراع أن ماش صفة لشارب ، وإنما راعينا أن نخبر مرة

بشارب ، ثم نخبر بخبر آخر وهو ماش . وكان المراد تكرر الصلة وهى الإخبار ، وصح حينئذ أن يكون وقت شربه غير وقت مشيه .

يدلنا على هذا قولهم ، « الرمان حلو حامض » ، فلا يصح ذكر الواو ، لأنه لا يصح اعتبار تفرقهما . فالمراد أن الطعمين ممتزجان ؛ فأنتج ذلك طعما جديدا وهو المزوزة ، فلا بد من اعتبار حامض صفة لحلو حتى تمتزج الصفتان .

وجاءت الواو فى قوله تعالى : « هـو الأول والآخر والظاهر والباطن » لأنه تعالى راعى أن مظهر أوّليته ليس هـو مظهر آخريته ، ومظهر كونه ظاهرا ليس هو مظهر كونه باطنا ، فلو لم يعطف لكان الآخر صفة للأول ، والباطن صفة للظاهر ، فينشأ عن ذلك اتحاد المظهر ، وليس هو المراد .

ومثل هـذا وإن كان الاتحاد والتكرار فى النعت لا الخبر ، قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » . فانظر كيف راعى سبحانه وتعالى الدقة التامة فى تعبيره ، فحذف حرف العطف فى الألفاظ الواقعة على ذات واحدة للدلالة على اتحاد الوصف بمدلولها ، وأن الزوجات المسلمات ليست غير الزوجات المؤمنات ، وهكذا الى آخر الصفات ، وأن المراد الوصف بها كلها دفعة واحدة ، كما أخبرنا بحلو وحامض دفعة واحدة ؛ فحَذْفُ حرف العطف يدل على اتحاد الوصف .

وجاء بالواو بين الصفتين اللتين لا يمكن اجتماعهما فى ذات واحـدة للدلالة على تعدد الوصف ؛ فإن الثيب لا يمكن أن تكون بكرا ؛ ولذلك جاء بالواو لئلا تكون أبكار صفة لثيبات ، فينشأ عن ذلك الاتحاد كما فى الألفاظ المتقدمة ، فكأنه قال : أزواجا ثيبات وأزواجا آخرى أبكارا . فتعددالوصف وتكراره مرة بثيبات وأخرى بأبكار هو التكرار المقصود .

وإذا تتبعت بقية المتحدات لا تجدها إلا كذلك : الصلة واحـدة لم تتكرر ، وهذه الألفاظ اللاحقة لم تجىء إلا لبيان احدث أو الذات .

٣ — بيان الحدث :

المفعـول المطلق : مثل ضربت محمدا ضرباً . فعند ما تقول : ضربت ، احتمل ذلك الحقيقة والمجاز ، فتجيء ضرباً لتبين أنه حقيقة وليس فيه تجوز ، فلم يفد اللفظ الثانى ضرباً جـديداً ، وإنما جاء ليشرح ويوضح المراد من اللفظ الأول ؛ وكما يقال فى هذا يقال فى ضربته مرتين ، الى آخر أنواع المفعول المطلق .

المفعول لأجله : مثل : قمت إجلالا لك : الصلة هنا هى القيام ، تفهم من اللفظ الأول بمنطوقه ، ومن الثانى بطريق التلازم من باب ذكر السبب وإرادة المسبب . وسنعود الى مثل ذلك فى « وما أبرىء نفسى » الخ .

٤ — بيان الذات :

يكون ببيان النوع ، وذلك فى التمييز .

وهكذا تجد فى كل التـوابع تتمة لمتبوعاتهـا ، ولا تفيد تـكرر الصـلة ، والحال كالنعت .

(ب) التكرار فى المفردات :

تقدم تعريف التكرار والتمثيل له ، غير أنى أنبه هنا الى أن واو المفعول معه كواو العطف تدل على تـكرار الحـكم ؛ فإن قلت : سرت والنيل ، فالمعنى : سرت مصاحبا النيل ؛ فهنا تعدد الحكم على معنى المفاعلة ، فتحققت من جانبك بالتزامه حين سيرك ومن جانبه بامتداده .

أحكام الجمل

العبرة بالصلة حذفاً للواو وذكراً لهـا ، ولا عبرة كما ذكرنا أولا بالخـبرية أو الإنشائية ؛ فإذا كانت الصلة واحدة حذفنا حرف العطف ولو اتحدا خـبراً وإنشاء ؛ وإذا كانت متكررة عطفنا ولو اختلفا خبراً وإنشاء .

وانظر كيف أجاز النحويون عطف الخبر على الإنشاء ومنعه البلاغيون ، وأرى أن من العبث أن يوجد رأى لأهل اللغة يستند على الوارد ، ورأى آخر يخالفه لأهل

البلاغة لا يستند إلا على مجرد قواعد كان يجب أن تخضع للوارد ، لا أن يخالف الوارد من أجلها . وهل يرد كلام فى القرآن وفى فصيح القول ثم تحكم البلاغة بخلافه ؟ إذن فأى بلاغة هذه ؟ ! .

فقد ورد : حسبى الله ونعم الوكيل ، وقوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وجوز سيبويه : هذا زيد ومَن عمرو ؟ ، وإذا قلت : اسمع يا فلان ، ذهب على ، وأحضرْ الكتاب ، فقد عطفت الإنشاء على الخبر ، لأنهما اشتركا فى طلب السمع والالتفات اليهما . ولا يعترض بأن المسموع هو اللفظ ، واللفظ من حيث هو لا يحمل معنى الإنشائية والخبرية ، إذ لا يعقل أن يراد اللفظ وحده خاليا من معناه ، بل إن اللفظ لم يؤت به إلا لما يحمله من معنى ، فهما جملتان اشتركتا فى أن المتكلم يوجههما إلى المخاطب فتتلقاهما الأذن صوتا ، والذهن معنى .

الاتحاد فى الجمل :

ما يقال فى المفرد من تعداد الأنواع فيه ، يقال فى الجملة التى تحل محل المفرد كالجملة الخبرية الخ .

ثم علينا أن نأتى بأمثلة لجميع الأنواع من كمال الانقطاع الخ ونشرح اندراجها فى القاعدة الجديدة ، وقبل أن نشرع فى ذلك نشير إلى أن السبب لعدم تنبههم إلى قاعدتنا هو أنهم لم يراعوا الدقة التامة فى الفروق بين التعبيرات وما يترتب على حذف حرف أو ذكره من اختلاف فى المعنى كما سيأتى فى شرح « وما أبرىء نفسى » الخ ، ولم يتنبهوا إلى أن الجملتين المتجاورتين فيما ظنوه مختلفاً من هذه الأمثلة الآتية ترميان إلى هدف ومعنى واحد ، إحداهما بطريق الصراحة والأخرى بطريق التأويل ، ولكنهم اكتفوا بظاهر اللفظ ووجدوه مختلفاً خبراً وإنشاء ، فذهبوا إلى ما ذهبوا إليه مما حاد بهم عن الصواب . والحقيقة أن فى كلا المتجاورين معنى واحدا يفيده اللفظ الأول فى شىء من العموم ، ويفيده الثانى مخصصاً ببعض الأوصاف ، وإن كان ذلك كما ذكرنا بطريق التأويل والحذف ؟

« يتبع »

أبو طالب بن عبد المطلب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

رجل من أكرم الرجال، وأقواهم عزيمة، وأصلبهم شكيمة، وأنفذهم مضاء، وأشدهم ذكاء، وأبعدهم همة، وألمعهم حكمة.

آزر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بدء دعوته، ووقف الى جانبه إبان محنته، لم تلن قناته، ولم يتزلزل ثباته، ولم يُضعف من نصرته إجماع العرب على حربه وإطباقهم على مقاطعته.

كان أبوه عبد المطلب راجح العقل، سديد الفكر، ناضج الرأى، شديد المهابة، تخشاه قريش وتعظمه، وكان يفرش له حول الكعبة، فيجلس ويجتمع إليه رؤساء قريش، ولا يستطيع أحد أن يجلس على فراشه أو يطأه بقدمه.

وفد مع قومه على سيف بن ذى يزن، فكان المقدم فيهم، الناطق بلسانهم، وخطب بين يديه خطبة بليغة فأعجب به حين تكلم، وقال له: أيهم أنت؟ قال عبد المطلب بن هاشم. قال ابن أختنا (١)؟ قال: نعم، فأدناه وقربه وأقبل عليه وعلى القوم وقال « مرحبا وأهلا، وناقة ورحلا، وملكا ربحلا، يعطى عطاء جزلا؛ قد سمعنا مقالتكم، وعرفنا قرابتكم، فلكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا رجعتم». ثم وهب لهم ولعبد المطلب هبات جزلة.

وكان عبد المطلب كذلك شديد الإيمان بالله، عظيم الثقة به، عادلا منصفا، يكره الظلم والجور، ويمقت الطغيان والعدوان، ويأمر أولاده بالعدل وترك البغى، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة، الى أن هلك رجل من أهل الشام تسامع الناس بظلمه وبغيه ولم يروا مظهرا من مظاهر الانتقام لحقه فى دنياه، فقيل

---

(١) كانت أم عبد المطلب يمانية.

فى ذلك لعبد المطلب ، ففكر وقال : والله إن وراء هـذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .

ولما قدم أبرهة الحبشى بجيشه وفيلته لهدم الكعبة ، تخوف الناس واضطرب الجميع ، وملكهم الوجل والهلع . ولكن عبد المطلب ظل ساكن النفس رابط الجأش ، يتمثل صدق إيمانه وشدة ثقته بربه فى قوله وقد أمسك بباب الكعبة :

لا هُمّ إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا مِحالك
جروا جموع عيالهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وقبْـ ـلتنا فأمر ما بدالك

وقد قابل أبرهة بعد ذلك وتقدم لديه بعظمة الرؤساء وشهامة الرجال فما سأله عن طلبته ؛ قال له : ليس لى ولقومى طلب لديك إلا أن تردوا إلينا ما أخذتم من الإبل . فدهش أبرهة وقال له جئت تكلمنى فى شأن البيت أو فى شأن الإبل ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه ! .

ورث أبو طالب عن أبيه سماحة النفس ، ورحمة القلب ، ومهابة الرؤساء ، وقوة الإيمان ، فكان أحد الذين سادوا فى الجاهلية مع الإقلال . فقد شهر عنه أنه كان قليل المال ، الأمر الذى اضطره إلى ترك السقاية لأخيه العباس ، والذى جعل أباه عبد المطلب يشفق لحاله حين عهد إليه بالقيام على محمد بن عبد الله بعده ، ويود أن يشرك معه فى ذلك أحد إخوته وهو الزبير ، لولا إباؤه وترفعه . وقل أن تجتمع القلة والسيادة إلا لمثل أبى طالب ، ومن هم فى سمو روحه ونبل خلاله .

وإن الدارس لخلال هذا الرجل ليأخذه العجب الشديد حين تطالعه من سجاياه تلك الحصانة النفسية التى أبعدته عن الدنايا ، وصرفته صرفا شديدا عن الصغائر ، وأكسبته على قلة ماله ورقة حاله سيادة ورياسة وتقدما فى قومه وعشيرته ؛ فقد حرم على نفسه الخمر كأبيه ، إيمانا منه بجرمها على العقل ، وامتهانها لكرامة الرجال .

وهو أول من سن القسامة فى الجاهلية فى دم عمر بن علقمة ، ثم جاء الإسلام فأقرها . وكان أغر ميمون النقيبة ، يبعث فى النفوس دائما الثقة وحسن الفأل .

شهد بعض أيام الفجار، وكان يحضرها معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ غلام؛ فإذا حضر أبو طالب هزمت قيس، وإذا لم يحضر دارت الدائرة على كنانة. ولما رأت ذلك كنانة رغبت الى أبى طالب ألا يغيب عنهم، ففعل.

واشتغل بالتجارة فى الجاهلية، فكان مثال الصدق وحسن المعاملة وشدة القناعة. وقد صحبه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أسفاره، وقد شاهده أحد الكهان معه فى بعض رحلاته، فقال: إن هذا الغلام سيكون له شأن فى تاريخ العالم، وأخبر أبا طالب أنه يخشى عليه عدوان اليهود وكيدهم، فخاف عليه ورجع به.

ولما مات أبوه ورث عنه السقاية والرفادة [1] كما نهض مكانه فى كفالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فبذل له من ذات نفسه وشدة عطفه وبره ما يدل على طبع أصيل فى الخير عريق فى البر والرحمة. كان يخصه بأحسن الطعام ولا يأكل إلا معه ولا ينام إلا إذا كان الى جانبه، ولا يسافر لتجارة إلا كان فى صحبته.

ولا شك أن هذه الرعاية العظيمة كان منشؤها ما تجيش به نفسه من خوالج الرحمة ويخالط قلبه من عواطف البر والحنان. وإن كل مسلم ليحس فى قرارة نفسه الحب والإكبار لهذا الرجل الذى وقف كالصخرة العاتية لا ينفذ منها عدوان على رسول الله ولا صد لدعوته ولا تعويق عن أداء رسالته، وطالما حاولوا أن يصدوه عن حماية محمد ومنعه، تارة بالإقناع والملاينة، وطورا بالوعيد والتهديد والمقاطعة، فما أجدت معه حيلة، ولا نفعت لديه وسيلة.

ويشاء الله مع هذا الحب العظيم لمحمد، ومع تلك الرعاية والحياطة، ومع ما لاح له من الآيات واتضح من العلامات، ألا يدخل فى هذا الدين؛ وذلك من أعاجيب القدر. ولقد أثر عنه أنه كان يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

---

(١) السقاية: سقيا الحجيج أيام الموسم حتى يتفرقوا. وكانوا يصنعون حياضا من أدم توضع بفناء الكعبة وينقل اليها الماء العذب من الآبار وربما قذف فيها التمر والزبيب. والرفادة: طعام الحجاج أيام الموسم

ورأى ولده عليا ذات يوم يصلى فسأله ماذا يصنع ، فلما نبأه قال له : أما إن محمدا لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه . وافتقد الرسول ذات ليلة فلم يجده ، وكان يخشى أن تغتاله قريش ، فخرج ومعه ابنه جعفر يبحثان عنه حتى وجداه فى بعض شعاب مكه يصلى وعلى عن يمينه ، فلما رآهما على هذه الحالة غلبه التأثر فبكى وقال لولده جعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك . فأسلم جعفر فى الحال . وكان إذا رأى النبى صلى الله عليه وسلم أحيانا يغلبه البكاء ويقول : إننى إذا رأيته ذكرت أخى . وكثيراً ما كان يخاف عليه إذا عرف مضجعه ، فكان يقيمه ليلا من منامه ، ويضع ابنه عليا فى مكانه .

ومع هذا كله فلقد دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدين ، وكان شديد الحرص على إسلامه تواقا الى أن يسمع منه كلمة يشهد له بها عند الله ، ولكنه امتنع وقال : يا بن أخى إننى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شىء تكرهه ما بقيت ! .

وظل كذلك على رأيه وموقفه حتى عند موته ، إذ طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول كلمة يلقى بها ربه فامتنع وقال : لولا أن تقول العرب إن أبا طالب جزع عند الموت لأقررت بها عينك .

ولعل موقفه هذا وتمسكه بدين الأشياخ هو الذى جعل لنصرته لمحمد قيمتها وعظم من شأنها ، وجعل لها خطرها وجلالها بين القوم . فقد كان إعزازه للنبى وحفاظه عليه ووقوفه الى جانبه باسم العصبية لا باسم الدين ، وبحافز من القرابة لا من المشاركة فى العقيدة . وهذه ناحية لعلها توحى الى البعض أن يشاركه فيها أو حتى على الأقل يغضى عنه تقديرا لها فى نفسه . ولله فى خلقه شئون .

وطالما فزع إليه رؤساء قريش قائلين : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آراءنا ، فإما أن تكفه عنا أو تخلى بيننا وبينه . ولكنه كان يصرفهم بالقول اللين ، الى أن استفحل شرهم ، وعظم طغيانهم ، واشتد غيظهم ، فطلبوا من أبى طالب إما أن يكفه أو ينازلونه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين .

هنا يقف أبو طالب فى موقف محيّر مجهد : هؤلاء قومه قد توعدوه بالإجماع على حربه وعداوته ولا طاقة له بذلك ، وهـذا ابن أخيه الذى يعلم أنه يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم فى حاجة إلى النصرة والمساعدة ، وهو لهذا لا يستطيع خذلانه ، ولا تطيب نفسه بإسلامه .

وأخيرا وبعـد لحظات تراكمت فيها همومه وتزاحمت آلامه ، بعث إلى محمد وقال له : يا ابن أخى إن قومك جاءونى وتكلموا فى شأنك ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن الرسول أن عمه ملّ من نصرته وضجر من حمايته وضعف عن القيام دونه ، فأطرق هنيهة ثم قال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه . . . ! ثم غلبه التأثر فاستعبر باكيا وقام من لدنه . هنا تغلب على أبى طالب بواعث الرحمة وعواطف البر والحنان فيناديه ثانية فيقبل ، فيقول له : يا ابن أخى اذهب فقل ما أحببت ، فو الله لن يصيبك منهم أذى ما حييت ! .

وكان هذا موقفا جديرا بأن يُحفظ عليه رجال قريش ويثير ثائرة أئمة الكفر ، ولكنهم عرضوا عليه أمرا علهم يستبقون مودته ويحفظون صلته ؛ جاءوا إليه بعمارة بن الوليد وكان أنهد فتى وأجمل شاب فيهم ، وقالوا له : خذ عمارة هذا فهو لك وأسلم إلينا محمداً لنقتله فإنما هـو رجل برجل . ولكنه يلتفت إليهم هازئا ساخرا مستخفا بهذا التفكير السقيم والرأى العليل ، ويقول : يا معشر قريش والله ما أنصفتمونى : تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هـذا والله ما لا يكون أبدا . فقال له صديقه المطعم بن عدى : يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئا . لعمرى لقـد جهـدوا فى التخلص مما تكره ، وأراك لا تنصفهم . فنظر إليه أبو طالب عاتبا وقال : والله ما أنصفونى ولا أنصفتنى ، ولكنك قد أجمعت على خذلانى ومظاهرة القوم علىّ ؛ فاصنع ما بدا لك . وهنا يدخل أبو طالب فى صراع عنيف وجهاد مرير مع قومه ، يصاولهم بإيمانه ويقينه ، ويقارعهم بلسانه وبيانه ، ويحمل منهم ما تنوء به العصبة أولو القوة ، لا يضعف ولا يتردد ولا يتخاذل . وسنفصل ذلك إن شاء الله فى المقال التالى ؟

مدرسة النقد الادبى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

مقاييس النقد الأدبى :

نشأت مدرسة النقد الأدبى كما أسلفنا فى العصر الجاهلى ؛ وكان عمادها الأول الذوق الأدبى الخالص ، ثم اتسعت أرجاؤها بتوالى الأيام وتعاقب الحقب .

وطبعى أن تتعددفيها الآراء إلى حد التضارب،لأن الأذواق متباينة ، والعوامل المختلفة من سياسية ودينية واجتماعية تؤدى عملها فى صمت وسكون ؛ ولهذا كان من الصعب وضع مقياس أدبى واحد على وجه الدقة ، يرجع إليه فى الحكم على الآثار الأدبية ، وإن وجد هذا المقياس جدلا فمن المستحيل إمكان الموازنة بين آلاف الشعراء وآلاف الآلاف من الأبيات الشعرية ، حتى نعرف من أشعر الشعراء ؟ وما أمدح أو أهجى أو أغزل بيت قالته العرب ؟ الخ ، كما يحلو لكثير من العلماء والنقاد أن يفعلوا .

وإذا كان من المتعذر - كما يقول الآمدى (ص ١٧٨ موازنة) - أن نحكم بين عشرة آلاف جارية مختلفة الأجناس والألوان والجواهر ، فأشد إحالة أن نحكم بين مثلها فى العدد ، أو أكثر منها ، من الأبيات الشعرية ، أو الشعراء .

فمهمة الناقد من أشق المهام ، خصوصاً إذا تحرى الإنصاف والعدالة ؛ وقليل ما هم أولئك المنصفون . وقد اتجه النقاد اتجاهات مختلفة ؛ وتأثروا بعوامل كثيرة خارجة عن ميزان النقد الأدبى ، ووقفوا تحت مؤثرات نفسية وسياسية ودينية ، وجهتهم توجيها بعيدا عن الحق والصواب .

والباحث المنصف يلتمس لبعضهم عذرا إذا أغضى - فى نقده - عن بعض المآخذ ؛ فللشعراء ألسنة حداد تمزق إهاب أى ناقد يتعرض لهم بسوء وقدذكرنا فيما سبق كيف جابه حسان النابغة بقارص الكلم لأنه فضل عليه الأعشى ؛ فما بالك بالأمر فى العصور التوالى ، حيث اشتد النقد ، وولغ الشعراء فى أعراض الناقدين .

وقد فطن عمر لهذه الناحية ؛ فلم يتول حكما بين الشعراء ووكل ذلك إلى حسان كما تقدم . وهجا جرير كثيرا من الناس لأنهم فضلوا عليه الفرزدق . وحادثة بشار

مع الأخفش حين نقده معروفة مشهورة ، [٣ ص ٢٠٩ أغانى دار الكتب] ، وكذلك هجاؤه لسيبويه حين لم يستشهد بشعره [ص ١٤٠ رسالة الغفران] . وقد سئل أبو عبيدة : أى الرجلين أشعر : أبو نواس أم ابن أبى عيينة ؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ؛ فقيل له : سبحان الله : كأن هذا ما تبين لك ! فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا ! [ص ٦٠ عمدة] .

وقال المتوكل لحمدويه النديم : أيهما أشعر ؟ يعنى مروان بن أبى حفصة ، وعلى ابن الجهم ـ وكان مروان أثيراً عند المتوكل ـ فقال : يا أمير المؤمنين طرحتنى بين لحيى أسدين . قال : لتقولن ! قال : أعرَفهما بالشعر أشعرهما ، فقال المتوكل : ياعلى قد حكم عليك ، قال : علم رأيك فيه فساعدك . [ص ٩٧ جمع الجواهر] .

وكلام المتوكل هذا يدلنا على تأثير العلاقات الخاصة فى النقد . ومن الشاق على ناقد متدين أن ينصف شاعرا ماجنا خليعا ولو كان شعره فى أعلى الطبقات ، وصعب على البشر تجريد أنفسهم عن الأهواء الشخصية والنزعات السياسية والدينية ؛ فالبشر هم البشر ، وسيظلون كذلك الى يوم المآب .

ويعجبنى فى هذا الموطن قول السيوطى : فأما الاختيار الذى يراه الناس للناس فشهوات ؛ كل يستحسن شيئا . [٢ ص ٢٩٢ مزهر] وقوله فى مكان آخر بعد أن سرد آراء كثير من النقاد فيمن هو أشعر الناس : وهذا يدل على اختلاف الأهواء وقلة الاتفاق [٢ ص ٢٩٩ مزهر نقلا عن ابن رشيق ١ ص ٨٠ عمدة] .

ومن آثار ذلك تناقض النقاد فى حكمهم على الأثر الأدبى الواحد ؛ سأل المهدى المفضل الضبى عن أمدح بيت قالته العرب ، فقال : قول الخنساء :

أغر أبلج تأتم الهداة به　　كأنه عَلَم فى رأسه نار

فاستحسن ذلك منها . ثم جاء ابن الرومى فاستهجن هذا المعنى بقوله :

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه　　من نسل شيبان بين الضال والسلم
كأنه الشمس فى البرج المنيف به　　على البرية لا نار على علم

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئته متهللا　　كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وعابه بعضهم بأن فرح الممدوح بعرض ينيله ليس شأن كبير الهمة [١ ص ٢٩ ديوان المعانى] . والمثل فى ذلك كثيرة .

ومن آثار ذلك أيضا جرأة النقاد على تغيير بعض الكلمات لنقدات تلوح لهم؛ قال الأصمعى : قرأت على خلف الأحمر بعض شعر جرير ، فلما وصلت إلى قوله :

فيالك يوم خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر باطله

قال : ويحه ! ما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ فقلت : هكذا قرأته على أبى عمرو ابن العلاء . قال صدقت ، وكذا قال جرير، وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان أبو عمرو ليقرئك كما سمع . ثم قال : الأجود أن يكون « خيره دون شره » فاروه كذلك ، وقد كانت الرواة قديما تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : والله لا أرويه إلا كذلك [١ ص ٣٥١ ديوان المعانى ، ص ١٢٥ موشح] .

وقد خطأه ابن رشيد فى هذا الإصلاح [٢ ص ٢٣٦ عمدة] وقال : إن الشاعر أراد أنه كان ليله فى وصال ثم فارق حبيبه نهارا ، وخلف جعله لم يفارق فغيّر عليه المعنى .

ولعل أعجب من هذا أن يناقض الناقد نفسه ، فيصدر حكما ثم ينقضه بعد ذلك اتباعا لشهوته ؛ أنشد جحظة أمام الأصمعى قوله :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصدى ويشفى الغليل

إن ما قلّ منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدنى ؟ قال : لبعض الأعراب ، فقال والله هذا هو الديباج الخسروانى ! قال إنهما لليلتهما ؛ فقال : لا جرم والله إن أثر الصنعة باد عليهما ! [ص ١٠ موازنة] .

أما اختلاف النقاد فى أشعر بيت أو أشعر شاعر ، فذلك بحر لا ساحل له ، وليس له مقياس إلا الأذواق المختلفة والاعتبارات المتباينة ؛ قال ابن رشيق : « والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عددا ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، ولكل واحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقلما يجتمع على واحد . [١ ص ٧٦ عمدة] وقال ابن عبد ربه : « وهذا مما لا يدرك غايته ولا يوقف على حد منه » . والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتى منه بديع إلا أتى ما هو أبدع منه ، ولله در القائل : « أشعر الناس من أبدع فى شعره . [٦ ص ١٢٣ العقد الفريد] .

تقرير
عن كتاب الفرقان
مرفوع الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر

أصدر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر قرارا بتأليف لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة : الشيخ محمد محمد المدنى المفتش بالأزهر ، والشيخ محمد على النجار المدرس بكلية اللغة العربية ، والشيخ عبد الفتاح القاضى المدرس بمعهد القراءات — لبحث كتاب « الفرقان لابن الخطيب » الذى ألفه محمد محمد عبد اللطيف أفندى ، وإبداء الرأى فيه .

وقد وضعت اللجنة هذا التقرير ورفعته الى فضيلة الأستاذ الأكبر .

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد : فقد قمنا - تنفيذاً لأمر فضيلتكم - ببحث كتاب « الفرقان لابن الخطيب » الذى ألفه محمد محمد عبد اللطيف أفندى ، ومراجعة تقرير شيخ المقارىء عنه ؛ وقد عقدنا لذلك عدة جلسات ، وانتهينا إلى التقرير الآتى :

مقدمة

فى مثل هذه الأيام من العام الماضى تسامع الناس أن ناشئاً فى إحدى البيئات العلمية المدنية ، رمى القرآن بقول باطل ، واجترأ عليه بما لم يجترىء به أحد من قبل ، فزعم أن ما به من القصص ما هو إلا تمثيل وخيال لا حقيقة له ؛

ولم يقف فى ذلك عند قصة أو قصص بعينها ، ولكنه طرد هذا الشأن فى كل ما قصه القرآن الكريم ، سواء فى ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والأمم ، وما جاء عن غيرهم ؛ ثم لم يقف عند القصص القرآنى ، بل طرد هذا الحكم — الحكم بالتخييل والتمثيل — على غيره مما جاء فى الكتاب الكريم من أوصاف ونسب ، ماضية كانت أو مستقبلة ، زاعماً أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلى أو لا تلتئم ، وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق ، وإنما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة ، أو مشايعة للواقع النفسى الذى كان سائداً عند المعاصرين استغلالا لمعلوماتهم وإن لم تكن صحيحة فى سبيل الدعوة التى جاء بها .

اجترأ هذا الناشىء على القول بهذه الفرية ، وأن يرمى بها أقدس ما يقدسه المسلمون ، وهو كتاب الله ، بما يزلزل عقيدة الناس فيه ، ويشككهم فى معانيه ومراميه . وقد أثار هذا العمل الجرىء ثائرة المؤمنين ، واستنكره كل ذى عقل وتبصر ، وتكاتف أهل الدين والدولة على درء شره وإطفاء فتنته .

واليوم — يا صاحب الفضيلة — ينبت نابت آخر ، فيجترىء على زعم باطل وفرية منكرة ، وهدفه الذى يرمى إليه هو هدف صاحبه من قبله : كتاب الله .

غير أنه لا يتحدث عن معانيه ومراميه ، ولكن عن رسمه وألفاظه وتلاوته ؛ فيشكك المسلمين فى ذلك كله ، ويوهمهم أن كتاب الله لم يكن موضع تحقيق ودقة فى كتابته وأدائه وروايته ، وأن ماتوارثوه من ذلك إن هو إلا خطأ وضلال مبين .

ومن العجيب أن صاحب الفرية الجديدة ، لم ينبت كسابقه فى محيط علمى ، ولم يعرف له أثر يدل على التفكير والبحث والرغبة فى معرفة الحق ؛ ومع ذلك تعرض لشأن من أدق الشئون المتصلة بكتاب الله ، فألف ما سماه « الفرقان لابن الخطيب » . وفى هذه النسبة إيهام للقراء بأن هذا الكتاب لعالم قديم من علماء المسلمين يعرفه الناس بالدقة والبحث وشدة العارضة وقوة التفكير . وقد اغتر بذلك فعلا كثير من القراء ، فاشتروا الكتاب على هذا الظن ، ثم تبين لهم أنه ليس لابن الخطيب ، وإنما هو لمحمد محمد عبد اللطيف افندى .

وإذا كان الكتاب كما يقولون : يقرأ من عنوانه ، فإن نسبة هذا الكتاب إلى جانب عنوانه ، أمارة على ما تنطوى عليه نفس كاتبه من رغبة فى الإيهام والتضليل .

* * *

وأول ما يجب أن نسجله عن هذا الكتاب ، أنه ليس بحثاً علمياً على الطريقة الاستدلالية التى تعتمد الدرس والموازنة ، والاستنتاج الصحيح ، وإنما هو كتاب تضمن مجموعة من الآراء المردودة ، والأقوال الباطلة فى روايتها أو معناها ، والمذاهب البائدة التى لم يعدْ أحد من المسلمين يركن إليها أو يعبأ بها ، والتى ليس لها أن تنهض فى وجه ما يبطلها مستنداً الى التواتر وإجماع المسلمين .

رأى المؤلف هذه الآراء المردودة مذكورة فى كتب العلماء الذين تعودوا تسجيل كل شىء يصل اليهم ، احتفاظا بناحية من نواحى التاريخ العلمى ، فحشدها فى كتابه مستدلا بها على ما يستحسنه فى رسم المصحف أو تلاوته ، دون أن يأتى بجديد من عنده ، اللهم إلا التهجم على مقام الأصحاب رضى الله عنهم ، وعلى القراء الذين نقلوا الى المسلمين كتابهم نقلا متواتراً بهيئاته وقراءاته فى ضبط وتحر ودقة هى مضرب الأمثال ؛ وكأنما لم يكفه ذلك ، فصوّر المصحف المتواتر فى الأمة جيلا بعد جيل ، مزيجاً من الأخطاء الفاحشة ، والمتناقضات المتباينة فى الهجاء والرسم ، تلك الأخطاء التى جاءت بها كتْبته الأولى سقيمة الوضع غير محكمة الصنع (ص ٥٧) . كما تخيل للقراء أن القراءات السبع المتواترة إنما جاءت من اختلاف رسم المصحف والتباس هذا الرسم على القراء (ص ١٢٢) الى غير ذلك .

تحدث المؤلف فى كتابه عن عدة موضوعات ، ونحن نتكلم عن أهمها ، مبينين ما فى حديثه عنها من خطأ وزيف .

أولا — رسم المصحف

تناول المؤلف موضوع رسم المصحف بكثير من التخليط ، وقرر أنه يجب كتابته حسب القواعد الإملائية الحديثة ، وارتكب فى سبيل تبرير ذلك عدة أوزار ما كان ينبغى له أن يجترىء على ارتكابها :

(١) منها أنه رمى الصحابة الذين كتبوا المصحف بالعجز والخطأ والضعف فى الرسم ، وصوّرهم للناس كتبة ضعفاء غير خبيرين بما يفعلون ، رسمو المصحف كما تأتّى لهم على غير هدى ، حتى وقعوا فى كثير من الأخطاء المتناقضة .

(٢) ومنها أنه عقد فصلا بعنوان : لحن الكتّاب فى المصحف ، زعم فيه أن بالمصحف لحنا ومخالفة للقواعد العربية ، ومثّل لذلك بقوله تعالى « إن هذان لساحران » « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » « فأصدق وأكن من الصالحين » .

وقد ساق المؤلف فى ذلك روايات عن عائشة وسعيد بن جبير وأبان بن عثمان ، وكلها روايات مردودة أو ضعيفة ، ليس لذى رأى أن يعارض بها ما ثبت بالتواتر جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا : وقد بين العلماء الأوجه الإعرابية لهذه الألفاظ وأمثالها ، كما بينوا المعانى البلاغية المستفادة منها .

وجاء فى هذا الفصل أيضا أن بالمصحف تغييرا فى الكلمات ، نتيجة تحريف الهجاء ؛ فمن ذلك « والذين يُؤتون ما آتوا » بدل « والذين يأتون ما أتوا » وقد علق المؤلف على ذلك بأن الأولى هى القراءة المشهورة ، وأن أحدا من القراء لم يورد القراءة الثانية مع وثوق روايتها عن عائشة ، وهى مَن هى فى قربها . وقد جهل أو تجاهل أن القراء الذين أجمعوا على قراءة « يؤتون ما آتوا » قد استندوا الى تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بالتواتر ، وأن رواية عائشة هذه إن صحت فهى رواية آحاد لا يثبت بمثلها القرآن .

ومن ذلك « حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » بدل « حتى تستأذنوا » و « أفلم ييأس الذين آمنوا » بدل « أفلم يتبين الذين آمنوا » و « وقضى ربك » بدل « ووصى ربك » وروى عن ابن عباس أنه قال فى « حتى تستأنسوا » : إنما هى خطأ من الكاتب ، وفى « أفلم ييأس » : أظن أن الكاتب قد كتبها وهو ناعس . وفى « وقضى ربك » أن الواو قد التزقت بالصاد ، كما روى فى الأخيرة عن الضحاك : إنما هى « ووصى ربك » ، وكذلك كانت تقرأ وتكتب ، فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مدادا كثيرا ، فالتزقت الواو بالصاد .

وروى عن ابن عباس أيضا أن الواو فى قوله تعالى « ولقد آتينا موسى

وهرون الفرقان وضياء » زائدة ، ومكانها قوله تعالى « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » يريد بذلك أن تقرأ : والذين قال لهم الناس .

وروى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : مثل نور المؤمن كمشكاة ، بدل « مثل نوره كمشكاة » . ولا شك أن مثل هذه الروايات لا يعبأ بها ، وليس لها قيمة أمام تواتر المصحف ، وأنه لم يكن المعول عليه فى رواية كلام الله هو الكتابة ، وإنما المعول عليه هو التلقى بالمشافهة .

وقد قال أبو حيان : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك ـ أى تستأذنوا بدل تستأنسوا ـ فهو طاعن فى الإسلام ملحد فى الدين ، وابن عباس برىء من هذا القول .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، أنه فسّر تستأنسوا ، فقال : أى تستأذنوا ممن يملك الإذن من أصحابها . يعنى أصحاب البيوت .

وإذن فهذا تفسير لا قراءة .

ويقول أبو حيان أيضا فى شأن ما روى عن ابن عباس من قراءة « أفلم يتبين » بدل « أفلم ييأس » : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزمخشرى « ونحن ممن لا يصدق هذا فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى الإمام (أى المصحف الإمام) ، وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام المحتاطين لدين الله المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أقيم عليها البناء . هذا والله فرية ما فيها مرية » ! .

وقد استفاضت الروايات عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وقضى ربك » . وفى هذا دليل على أن الرواية المنسوبة إليه من التصاق الواو بالصاد ، رواية ملفقة لا أصل لها . قال أبو حيان فى البحر : والمتواتر هو « وقضى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وصى » .

هذا والقاعدة العامة فى مثل ذلك ، أن يقال بأن هذه الروايات مهما كان سندها صحيحا فإنها مخالفة للمتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود .

ولا ينبغى لمسلم يحترم القرآن ويؤمن به ولا يداخله الريب فيه ، أن يسوق مثل هذه الأقوال المردودة ؛ فإن هذا من عمل أعداء الإسلام قديما ، وقد استغله أعداء الإسلام حديثا من المستشرقين والمارقين ، طعنا فى أساس الدين ، وتوهينا لثقة المؤمنين بكتاب ربهم ؛ ودون ذلك خرط القتاد ، لو كانوا يعلمون .

ولا ندرى ماذا يريد المؤلف بسرد هذه الروايات وأمثالها فى كتابه : أيريد أن يطلب الى المسلمين إصلاح كتابهم وتقويم لحنه ، فيكتبوا « والصابئين » « والمقيمين » « فأصدق وأكون » و « تستأذنوا وتسلموا » و « ووصى ربك » و « يأتون ما أتوا » وأمثال ذلك على مقتضى الروايات التى ساقها ، أم يريد منهم أن يستمروا على ما فى المصحف مما تحكم عليه هذه الروايات بأنه خطأ من الكاتب أو لحن فى القواعد ؟ وكيف إذن يطمئن المؤمن الى كتاب ربه وقد داخله الشك فى نقله وروايته ؟ ثم ما علاقة هذا كله بوجوب كتابة القرآن بالرسم الحديث ، والفرض أن الإملاء الحديث ، والإملاء القديم ، فى مثل هذه الكلمات الملحونة أو المبدلة سواء ؟ !

لقد أساء المؤلف أيما إساءة فى هذا الفصل الى المسلمين فى أقدس ما يقدسونه ؛ ولم تفده هذه الإساءة فيما أراد إثباته أية فائدة علمية فى بحثه الذى هو بصدده من وجوب كتابة المصحف بالإملاء الحديث .

ولو كان المؤلف فى إيراده أمثال هذه الروايات حسن النية منصفا للعلم والبحث ، لعلق عليها بما يفيد أنها روايات مردودة ، أو ذكر كلام العلماء عنها ؛ ولكنه يرويها ويعلق عليها فى هوامش كتابه بما يفيد رضاه عنها ، وميله إليها ، فى الوقت الذى يتنكر فيه لما تلقاه المسلمون بإجماع وتواتر وقبول . فيا لله للعلم والدرس والبحث !

(٣) وقد عقد المؤلف فصلا آخر بعنوان « ما غـيّره الحجاج فى المصحف » يخرج منه القارىء بأن الحجّاج قد جاء الى مصحف عثمان فوجد فيـه أخطاء فى مواضع عدتها اثنا عشر موضعا ، هى :

١ — لم يتسنه	وكانت فى المصحف	« لم يتسن »	
٢ — شرعة ومنهاجا	» »	« شريعة ومنهاجا »	
٣ — يسيركم فى البر والبحر	» »	« ينشركم »	
٤ — أنا أنبئكم بتأويله	» »	« آتيكم بتأويله »	
٥ — سيقولون الله	» »	« سيقولون لله »	سورة المؤمنون ٨٧ ، ٨٩
٦ — سيقولون الله	» »	« سيقولون لله »	
٧ — من المخرجين	» »	« من المرجومين »	سورة الشعراء ١١٦ ، ١٦٧
٨ — من المرجومين	» »	« من المخرجين »	
٩ — معيشتهم	» »	« معايشهم »	
١٠ — غير آسن	» »	« غير ياسن »	
١١ — فالذين آمنوا منكم وأنفقوا	» »	« فالذين آمنوا منكم واتقوا »	
١٢ — وما هو على الغيب بضنين	» »	« وما هو على الغيب بظنين »	

ويلاحظ أن فى هـذه المواضع التى يزعم أن الحجاج غـيرها مواضع تقرأ بالقراءتين ، ومواضع لم يقرأ أحد من القراء بها .

والقارىء يفهم من هذا أن مصحف عثمان ظل بهذه الأخطاء والمسلمون عنها ساكتون إلى زمن الحجاج ، وهو زعم لا دليل عليه ، ولم يسنده المؤلف إلى أحد من القدماء أو المحدثين ، وإنمـا اكتفى بأن يسوقه هكذا بقوله « قد غير الحجاج فى المصحف الذى كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه إثنا عشر موضعاً [1] ثم سردها كأن الأمر فى ذلك حقيقة مسلمة مشهورة لا يحتاج إلى إسناد . « يتبع »

(١) هكذا كتبها [إثنا عشر] .

بسم الله الرحمن الرحيم

معهد دينى جديد بالمنصورة

تبرع آل الشناوى الكرام بالمنصورة ، بقطعة أرض كبيرة ليقام عليها معهد دينى جديد لمديرية الدقهلية والأقاليم المجاورة لها ، واكتتب لتشييده معهم أعيان الدقهلية ووجهاؤها .

وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة ١٣٦٨ ، الموافق الثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، احتفل آل الشناوى ووجهاء المنصورة بتوقيع عقد الهبة ، ودُعى إليه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، وسعادة مدير الدقهلية ، وافتتح الاحتفال بترتيل آيات من القرآن العظيم ، ثم نهض فضيلة الأستاذ الأكبر فألقى كلمة قيمة ذكر فيها ترابط الإسلام والعلم ، وقيمة العلم فى الإسلام ، وشكر لأهل المنصورة أريحيتهم الدينية وتبرعهم السخى لإقامة المعهد الجديد ، ودعا لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بالنصر والتأييد ، ونوه بتشجيعه القائمين بالمشروعات الجديدة وخاصة الدينية والثقافية منها ، فكان لهذه الكلمة البليغة الوجيزة أجمل وقع فى قلوب المستمعين . ونحن ننشر هذه الكلمة فى مجلة الأزهر حفظا لها ، ونزولا على رغبة القارئين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أبدع هذا العالم وأحكمه صنعا ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى . سبحانه لا نحصى ثناء عليه ، عظمت آلاؤه ، وجلت نعماؤه . والصلاة والسلام على الرسول الأعظم ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه الذين اعتصموا بحبل الله المتين ، وصراطه المستقيم ، والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .

أهلى وعشيرتى :

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فإن خير ما أتوجَّه به اليكم فى هذا الاجتماع المبارك ، الذى دعت اليه حفاوتكم بالعلم ورغبتكم الصادقة فى نشره ، أن أهيب بكم جميعا أن تستمسكوا بهذه العروة الوثقى ، التى جعلها الله رائد نبيه ، وأس دينه : ألا وهى العلم .

وفضل العلم على الأمم والشعوب، فضل غير منكور ؛ فهو أس الحضارة والعمران، وأول مقومات المدنية، ومناط الحياة الاجتماعية ؛ ما تمسكت به أمة إلا رقت، وما أقبل عليه فرد إلا عز وبلغ الأوج. وقد فضل الله العلم وأشاد بذكره، ورفع من قدر أهله ؛ قال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ». وقال عز شأنه « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ». وقال صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ». وقال صلى الله عليه وسلم : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهّل الله له طريقا الى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ». وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم ». ولا شك أن العلم حياة الإسلام، وعماد الدين.

اللهم اشرح صدور المؤمنين للعلم، وأعنهم على نشره، وقوّ به دعائم هذه الأمة.

أهلى وعشيرتى :

حين تلقيت دعوتكم الكريمة لحضور هذا الاجتماع الرائع الذى أردتم به تحية العلم فى شخصى، وحرصتم على أن يكون ميدانا تستبقون فيه إلى الخير، وتتنافسون فيه على الجود للعلم، تنازعتنى عاطفتان : أولاهما عاطفة الفخار بأهلى لإقبالهم على التبرع لهذا المشروع الجليل : مشروع إنشاء معهد دينى إسلامى كبير يليق بهذا الإقليم الزاهر، وهذا البلد الأمين، ذى التاريخ المجيد. أما الثانية فعاطفة التقدير لهذا الإقليم الطيب الذى أنبت رجالا عاملين مصلحين، باذلين أموالهم وأنفسهم فى سبيل الخير، وإعلاء كلمة الدين.

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور ».

إخـوانى وأبنـائى :

إن هذه الروح الطيبة المباركة ، وتلك الأريحية المشكورة ، ستبقى لكم فى ثبت الأيام ، ذكرى عاطرة خالدة يتجدد بها ماضى هذه المدينة العظيمة التى كانت دائما مهبط العلم ومثابة الخير .

وفى صفحات التاريخ القريب ، الذى قد لايذكره أكثركم ، أن مساجد المنصورة منذ حوالى خمس وأربعين سنة ، كانت عامرة بحلقات الدروس ، تسير فيها على منهاج الأزهر المعمور ، وتتبع خطواته ؛ ففى مسجد سيدى الموافى وسيدى ريحان ، كان الطلاب يجتمعون حلقات حلقات يتلقون العلم على علماء الدين بالمنصورة ، وكلهم من الصفوة علما وخلقا ، وكان على رأسهم فى مسجد سيدى الموافى المرحوم المبرور الشيخ الخيارى ، وفى مسجد سيدى ريحان ، المغفور له الشيخ السمنودى .

وكانت هذه الدروس تُعِدّ الطلاب للالتحاق بالجامع الأزهر ، إذا ما نضجوا وتفتحت أذهانهم ، ومن هـذه الحلقات التى كانت تزدحم بها مساجد المنصورة تخرج كثير من العلماء وأهل الرأى فى مصر .

ولم تكن دراسة العلم مقصورة على هذين المسجدين ، بل كان هناك أيضا فى مسجد سيدى يس معهد صغير أنشأه المرحوم على بك القريعى لصغار الطلاب ، وما يزال موجوداً حتى اليوم ، وقد جعل له فى وقفه أرزاقا للمدرسين والطلاب تساعدهم على طلب العـلم ، ثم جاء المغفور له محمد الشناوى باشا ، فأنشأ مسجده ومعهده ، وجعل لهما فى وقفه أرزاقا للمدرسين والطلاب تعينهم على أداء مهمتهم .

واليوم تبرع خلفاؤه الأجلاء المحترمون بأرض مساحتها سـبعة آلاف متر ليبنى عليها معهد دينى إسلامى كبير يتسع لطلاب مديرية الدقهلية ومراكز سمنود وطلخا وشربين وبلقاس وبيلا . أسأل الله لهم ولمن يسهمون فى بناء هـذا المعهد حسن الثواب .

ولا يفوتنى أن أنوه بمـا بذله ويبذله سعادة الأستاذ حسين بك رأفت مـدير الدقهلية من مجهود فى هذا السبيل . ولا غرو ، فقد تعود فى كل جهة يتولى أمرها أن يجعل نصب عينيه السعى فى إنشاء معهد دينى إسلامى فيها ، وهذه سنة حميدة وتوفيق من الله عظيم . نسأله سبحانه أن يثيبه ، ويجزيه خير الجزاء .

تلك صفحة التاريخ القريب مشرقة بنور العلم ، وهذه صفحتكم تريدون بها وصل ما خطه آباؤكم ، ووضع لبنته أسلافكم .

وفقكم الله إلى ما أنتم بسبيله ، وأعانكم على نشر العلم وتوسيع مداه ، وشرح صدوركم للجود والسخاء فى هذا المضمار ، لتستحقوا رضاء الله ورضوانه . ألا إن السخاء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة .

إخوانى وأبنائى :

إننا اليوم فى عالم وظروف تستدعى من كل فرد أن يبذل ما فى وسعه لنصرة العلم والدين ، حتى تكمل للبلاد قوتها وعزتها ؛ وإن الدول اليوم لتتسابق فى حلبة العلم ، فما أحرانا وديننا دين العلم والنظر فى ملكوت السموات والأرض أن نلبى داعى الإيمان موفقين بتوفيق الله .

أهلى وعشيرتى :

إن كل السبل أمامكم ميسرة لتعملوا على نشر العلم ؛ فالأزهر المعمور على أتم الاستعداد لمدكم بالعلماء المدرسين والكتب النافعة ، إذا ما خطوتم الخطوة الأخيرة فى سبيل إتمام ما بدأتم ، فأقمتم بناء المعهد وأكملتم أثاثه . ولتعلموا وليعلم سائر أبناء الوطن أنى لا أخص المنصورة وحدها بهذا الوعد ، بل عند الأزهر الشريف بفضل الله مزيد من العون لكل جماعة فى أى إقليم من أقاليم وطننا العزيز ، تعقد العزم على رفع منار العلم ، فتقيم له مكانا مؤثثا يتسع لطلبته ويليق بمكانة العلم .

ولست فى هذا إلا مترسما توجيه وعناية مولانا حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فاروق الأول ، الذى يحرص على العلم وتشجيع العاملين . أعزه الله وحفظه وشرح صدره ، ويسر أمره ، وأعلى ذكره ، وآتاه سؤله ، وأبقاه ذخرا للإسلام والمسلمين ، والعلم والدين . آمين .

ونبتهل الى الله بقلوبنا وبصدق نياتنا أن ينصر عباده المجاهدين ، ويظهرهم على أعدائه الطاغين الباغين ، ويمدهم بمعونته ، ويؤيدهم بجنده ، ويثبت أقدامهم ، ويحقق آمالنا وآمالهم ، ويمنحهم نصره الذى وعد به من يجاهد فى سبيله ، فهو خير الناصرين .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

المســـلمون
فى هـــذا المعترك العالمى

صورنا فى الجزء السابق من هـذه المجلة حالة العالم الغربى فى معترك الحياة فى هذا العصر، وبينا طبيعة العوامل التى تورطهم فيها ، ونظراً لأننا مرتبطون بهم اقتصاديا وعلميـا ، فإنه يهمنا من أمرهم ما يهم المترابطين ؛ فأما من الناحية الاقتصادية فإن تأثيرها ينحصر فى قلة الواردات وغلاء البضائع الأجنبيـة ، وتذبذب أثمـان محصولاتنا ، وليس كل هذا بالأمر السهل ، ولـكنه ممـا يسهل احتماله ، ويؤمل زواله . أما ما يجب أن يكترث له أشـد اكتراث ، وتراقب آثاره مراقبة دقيقة ، فهو التطور العلمى الذى تحدثه الأعصاب المتهيجـة هناك من وضع المبادىء المتطرفة ، وبناء الأصول الشاذة ، وسريانهـا الينا من طريق ما نقرأه من جرائدهم ومجلاتهم ، وما يترجم فى جرائدنا من أفعالهم وأقوالهم ، فتتأثر بهـا النابتة الإسلامية وتشب متشبعة بهـا أيمـا تشبـع ، ظنا أنها مقررات علمية ، وتجديدات اجتماعية ، فتعمل على أن تجرى على سنتها لتلحق بالقافلة الانسانية فى سعيها الحثيث نحو المـُثـُل العليا .

والذى على مراقبى الحالات الاجتماعية ، والتقلبات التصورية فى العالم من المسلمين أن يبينوا لأقوامهم أن هذه الحالات والتطورات الدافعة إلى الانقسامات والمصادمات بين طوائف العالم الغربى ، ليست ثمرات العلم ولا الحـكمة التى يجب أن يحرص على الأخذ بها الناس والجماعات ، وإنمـا هى ثمرات مذاهب إلحادية تأدوا تحت تأثيرها إلى فوضى نفسية وخلقية ، نزعت السلام والطمأنينة من النفوس ، ودفعتها الى فوضى وانحلال يضران بالنظام العام الذى يجب أن يسود الجماعات ، ليتفرغ كل عامل إلى عمله ، ويحقق أقصى ما يمـكن من الخير لنفسـه ووطنه ، من حيث يجب أن يلتمس من قبَـله .

نعم إن هذه الانقلابات التى نشاهد عليها الحياة فى أوروبا ليست بثمرة العلم، وكفى أن تكون كذلك لتؤدى إلى شر ما ينتظر منها، وليس شىء أكبر من الحروب الطاحنة التى تشنها هذه الأمم على نفسها، وتجر اليها خلافات يتكفل المنطق البدائى بحلها، لا القنابل الهادمة والحارقة، ولا الوسائل المحطمة والخانقة. ويلى هذا الشر المستطير فيها ما عليه أكثر أممها من الانقسامات والتحزبات والإضرابات عن الأعمال، والاضطرابات الداخلية. والذى هو شديد الوقع على النفوس أن هذه الأحوال المرتبكة لا توجد لها حلول تثلج الصدور عليها، وترتاح النفوس كافة اليها، فلا الاشتراكية المتطرفة والمعتدلة، ولا أحزاب اليمين واليسار مما يفيد فى الحد من هذه الشرور شيئا.

وما دامت هذه القلاقل ليست بثمرة للعلم فهى إذن ثمرة الخلال الحيوانية التى شرعت الأديان لانتزاعها من الشخصية الانسانية، فيكون الدين والعلم حربا على هذه الخلال، ومتى اجتمعا فى أمر فلا يعقل أن تقف دونه عقبة، إلا أن هذا الانتقال الخلقى لا بد له من زمان يتطور فيه.

فلو كانت أوروبا تعنى بالأصول الخلقية التى تدرسها فى جامعاتها، وتقف عند حدودها أيا كان مرماها، لدفعت عن الفلسفة المادية التى تقدسها شبهة قوية، ولكنها لا تستطيع أن تقف عند حدودها، حتى فى هذا العصر الذى بلغ العلم فيه أشده، فأقامت بذلك أروع الحجج على أن الانسانية فى حاجة ماسة إلى الدين، ولا نستطيع أن نستبدل به الفلسفة؛ لأن الأمر يتعلق بتربية شعور نفسانى، وتنمية حس وجدانى، يكون من القوة بحيث يتغلب على الطبيعة الحيوانية فى الجبلة الانسانية. وقد عجز العلم عن أداء هذه المهمة إلى هذا العهد، رغماً عن وصوله إلى مدى بعيد من الألمعية، بل يشاهد أنه كلما ازداد سريانا فى سرائر الطبيعة، واكتشف أسراراً جديدة، زاد قسوة وغشمرية، وامتلأ صلفاً وجبرية، حتى قرر الذين بيدهم استخدام هذه المخترعات المهلكة للبشرية أن حربا أو حربين أخريين تأتيان على العمران العالمى، وتجعله كأن لم يغن بالأمس.

كان هذا الاعتبار من العوامل النفسية التى دفعتنا الى دراسة المسألة الدينية من الناحية الاعتقادية، واستكثارنا على صحة الدين من الأدلة العلمية، وسيكون هذا دأب الذين يغارون على كرامة الانسانية من الأجيال المقبلة.

وفى نظرنا أنه يجب على المشتغلين بالدين أن يجعلوا هذا الاعتبار من أهم مايدفعهم الى المثابرة والدؤوب على ماهم عليه من الاشتغال به، وخاصة من ناحيته العقيدية، واثقين أن أدلته العلمية أصبحت مواتية لهم لبناء صرحه الفخم على أصول تولد اليقين فى أعتى النفوس البشرية، وتوجب القبول لدى أعصى العقول القوية .

لقد مضى الزمان الذى كان ينظر فيه الى المشتغلين بالدين من هذه الناحية بأنهم يجهدون أنفسهم لبلوغ غاية وهمية، وبأنهم يفنون أيامهم لإيجاد حركة رجعية، بعد أن سادت الفلسفة المادية على العقول سيادة مطلقة . وهم فى الواقع بهذا الاعتبار يحافظون على الانسانية من التلاشى بإيتاء النفوس بمكملاتها الأدبية، ويدفعون شرة الذين يعملون على حرمانها من عواملها الروحية .

ومما يؤيد هؤلاء العاملين أنهم فى جهادهم هذا لا يدفعون كلاما بكلام، وإنما هم يدحضون نظريات إلحادية بأدلة علمية، مرتكزة على البحوث النفسية التى ملأ نورها الخافقين، ولم يعد أمرها خافيا على أحد . ولست أقصد بذلك ما يشتغل به الألوف من أهل العلم اليوم لإثبات عالم الأرواح والاتصال بهم، ومخاطبتهم، ولكنى أقصد ما قررته العلوم التجريبية نفسها من وجود العقل الباطن فى الانسان، ومن تدهور أكبر النظريات الفلسفية التى بنوها على تعلق العقل بالمخ، والحياة بالدم، والذاكرة بالصور الذهنية؛ وما أسسوه من الآراء على أصل الكون، والجوهر الفرد، ونشوء الأحياء وتطورها الخ الخ مما أصبح لدى الذين تابعوا التطور العلمى أشبه بأقاصيص العجائز .

لم يتوصل من وصل من العلماء الى درجة اليقين فى الدين من دراسة خاصة فيه، أو مما كتبه بعض ممثليه، ولكن من أدلة ذاتية لهم منتزعة من الفروع العلمية التى كانت من نصيبهم . نضرب لك مثلا يعطيك فكرة على ما نقصده مما نقول . قيل يوما للفلكى الأشهر (نيوتن) الانجليزى : هل تستطيع أن تقيم دليلا حسيا على وجود الله ؟ فقال : نعم : «من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس، أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها» . هذا صحيح لأننا نعلم أن الكواكب

كلها معلقة في الفراغ وهي لا تتقارب حتى تكون كتلة واحدة ، لأنها تتجاذب من جميع جهاتها . فإذا انجذب كوكب الى آخر منعه من ملامسته جذب كواكب أخرى له من كل النواحي . هذا معقول ، ولكن هذه الكواكب مع انجذاب بعضها لبعض تتحرك في مدارات مقدرة لا تتعداها . فما الذى يعطيها هذه الحركة الدائرية المنتظمة لبعضها حول بعض إن لم تكن يد الله تفعل ذلك ؟

أما وقد ثبت كل هذا وأصبح حقيقة محسوسة لكل ذى بصيرة ، فعلى المسلمين أن يعتصموا بحكمة كتابهم ، وسنة رسولهم ، وسيرة سلفهم ، ويعملوا على توحيد كلمتهم ، والجرى على تقاليدهم ، ليكونوا بمنجاة من العلل الاجتماعية ، والأدواء الخلقية ، والفتن السياسية ، لا سيما وهم يرون بأعينهم أن أعرق الأمم في المدنية ، وأرقاها في الثقافة العلمية ، تعجز من تفرق الكلمة في مجتمعاتها وتنازع الأحزاب في بلادها ، عن تأليف حكومة لتصريف الشئون الداخلية والخارجية .

وإذا نصحنا بالاعتصام بحكمة كتابنا ، وسنة رسولنا ، وسيرة أوائلنا ، فاننا إنما ندعو للأخذ بأرقى النظم الاجتماعية . ألم تك نتيجة ما قاموا عليه من تلك النظم أن أصبحوا كالجسم الواحد من الترابط والتماسك ، آتاهم الظفر على أعدائهم والسعة في ممتلكاتهم ، والنظام في حكوماتهم ، والتفوق في معلوماتهم ، حتى استحقوا أن يكونوا خلفاء الأرض بعد الفارسيين والرومانيين ، ومن سبقهم من الصينيين والهنديين والبابليين واليونانيين الخ ؟ .

العقبة الكأداء أمام المسلمين في هذه الناحية هي أنهم يأخذون فيما يأخذونه من النظم الاوربية وجوب فصل الديانة عن الحكومة ، وهي عقبة كأداء شديدة التعلق بالعقلية العصرية لايطيق أحد أن يعيرها سمعا . ونحن لا نود بما نكتبه في هذا الصدد أن يكون الأمر على مايتخيله المعترضون ، فيعتبروا مانكتبه ترشحاً من عقلية رجعية ، فلا بد هنا من بيان وجيز لهذا الأمر سنأتى عليه في العدد المقبل .

محمد فريد وجدى

الاخلاص

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

الإخلاص : هو العروة الوثقى المأمورُ بها على ألسنة الأنبياء والمرسلين . وهو الوسيلة لصحة الإيمان والأعمال جميعا ، بل هو السر العظيم الذى استودعه الله قلوب أوليائه المقربين ، أولئك الذين تغلبوا على نفوسهم الأمارة ، وملكوا زمام شهواتهم الجامحة ، فلم يكن لها عليهم من سلطان .

والإخلاص : تصفية الأفعال والنوايا من الشوائب والمكدرات ؛ يقول الله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . ويقول « ألا لله الدين الخالص » أى الذى خلا من الشوائب وتنزه عن النقائص .

وسميت سورة « قل هو الله أحد » بسورة الإخلاص ، لأنها خالصة فى ذكر صفات الله وحده فلم تتعرض لذكر جنة ولا نار ، ولا أمر ولا نهى ، ولا وعد ولا وعيد ، فكانت بحق سورة التوحيد .

أما المخلصون فيقول الله فى وصفهم « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما » . فالتوبة أول مقام من مقامات التقرب الى الله ، والإخلاص آخر تلك المقامات . ويقول الرسول الكريم ، « ثلاث لا يَغِل عليهن قلب : رجل أخلص العمل لله ، والنصيحة لولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

وقد ثبت بالآثار أن الإخلاص وسيلة لإجابة الدعاء ونيل الرغائب ؛ فقد قال الرسول الكريم لخاله سعد بن أبى وقاص ، حينما أظهر دالة ، واعتقد أن له فضلا على من دونه من صحابة رسول الله « إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم » . ولسمو مكانة الإخلاص وعزة شأنه يحدثنا الرسول عنه

فيقول : يقول الله تعالى « الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى » . ويقول على رضى الله عنه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول ، فإن النبى قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يجزك منه القليل » .

ولأن الإخلاص خلق عسير على النفوس البشرية ، لأن للشياطين مداخل كثيرة يصلون منها إلى إفساد الضمائر ، وزجها فى مهاوى الرياء والنفاق ، كتب عمر الى أبى موسى الأشعرى يقول : « من خلصت نيته كفاه الله مابينه وبين الناس » . وقال بعض الصالحين « طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لايريد بها إلا وجه الله » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة : رجلٌ آتاه الله العلم ، فيقول الله له : ماصنعت فيما علمت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك ؛ ورجل آتاه الله مالا ، فيقول الله له : لقد أنعمت عليك فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أنه يقال فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك ؛ والثالث رجل جاهد فى سبيل الله فقتل ، فيقول الله له : لقد جاهدت ليقال فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك ، ثم قال الرسول لأبى هريرة : يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعّر بهم جهنم يوم القيامة » ! ولما سمع معاوية هذا الحديث بكى بكاء شديدا ، وقال : صدق الله تعالى إذ يقول « من كان يريد الحياة وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » .

وإذا علمنا أن الإخلاص يتصل بالنوايا والقلوب ، وأنها كثيرا ما تخالطها الشوائب وتفسدها المكدرات ، فقد يشتبه التكلف بالإخلاص ، وتأديبُ النفس بالعلم بالتزين به للناس ، وقد يلتبس الاختيارُ بالاختبارِ ، وقد يضيع المرء بنفل يؤديه فرضا يفقده فيرديه ، كما تشير إليه الآية الكريمة « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

إذا علمنا هـــذا فلا غرابة إذا رأينا كثيرا من الناس لا يفهمون معنى الإخلاص على حقيقته ، فيرون أن من شاب عمله بعض البواعث الأخرى

من حظوظ النفس ومتعها يسمى مخلصا حقا، وليس كما يفهمون؛ فمثلا : ذلك الذى يصوم بقصد التقرب الى الله، وبقصد إصلاح المعدة بالحمية : أو يحج لقصد العبادة وليصح جسمه، أو ليهرب من عدوه؛ أو يطلب العلم لله وللحصول على العيش بواسطته؛ أو يجاهد لله وليمرن على أعمال الحرب؛ كل أولئك لم يصلوا الى كمال الإخلاص. ولذا قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لله فقد نجا. وما ذاك إلا لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب والشواغل، فلا يصل إلى كمال الإخلاص إلا من وفقه الله.

أما الذين يغفلون عن هذه الدقائق ويظنون أنهم قد أعدوا للآخرة ما ينجيهم من أهوالها، ناسين مالا بد منه فى الأعمال من إخلاص النية وسلامة الطوية، فأولئك يرون فى الآخرة بعض حسناتهم سيئات، وهم المرادون بقول الله عز وجل « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ».

ولكن من لطف الله ولسماحة الشريعة الإسلامية لم يحرموا الثواب، وإن لم يصلوا الى منزلة المخلصين الكاملين؛ لأن الله يقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره »، ويقول « إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها » فلا يمكن أن يحرم هؤلاء ثواب قصد الخير مهما قل أو ضعف.

وأما الآيات والآثار التى تدل بظاهرها على حرمان هؤلاء من الثواب، وأن شوب العمل بغيره محبط للعمل، فيجب تأويلها على وجه يتفق مع قواعد العدل التى رسمها القرآن، ودعمت أسسها السنة الكريمة.

فمثل قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ». وما ورد فى الحديث القدسى « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشركة ». فمثل هذه الآثار لا تناقض ما قلناه، لأن المراد بها من لم يقصد إلا حظوظ الدنيا، أو كان الغالب على نواياه ذلك، فإن غير هذا لا يتفق مع سماحة الدين ودفع الحرج عنهم.

على أن تلك الشواغل التابعة لا ينفك عنها الانسان، فينبغى قصر تأثيرها على

نقصان الثواب ، وهذا لا يمنع أن ننصح لمن يبتلى بمثل هذه الشواغل أن يكون على حذر ، ليصل الى درجة المخلصين الكاملين .

وبعد ، فينبغى لمن وقف على مكانة الإخلاص ، وعرف سمو منزلته ، أن يسعى فى تحصيل مقوماته ، ويجدّ فى الحصول على أسبابه : من العقيدة القوية ، والاستقامة التامة ، التى هى جماع كل خير ، ومصدر كل سعادة ، وملتقى جميع الفضائل ، فيكون صادقا فى القول ، فلا يخبر بغير الواقع ، وإذا أراد كمال الصدق فليترك المعاريض .

فمن اضطر الى المعاريض فطريق صدقه أن يكون نطقه لله ، وأن تكون معاريضه وفق ما يأمر به الدين ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه حينما سئل عن النبى فى بعض أحياء العرب وقت أن كان النبى يعرض نفسه على القبائل لينشر دعوته ويكثر أنصارها ، قال أبو بكر عن النبى « إنه رجل يهدينى السبيل » ففهم السائل أنه دليل يعرف مسالك الطرق ، ويعلم نجودها وسهولها ، وما أراد أبو بكر إلا أنه يرشدنى الى طريق الخير ، ويهدينى الى سبيل الرشاد .

وبالجملة يصدق فى كل المواطن : فى الخوف والرجاء والصبر ، وسائر نواحى السلوك . ومن وسائل الإخلاص أيضا حسن الخلق ، ويقظة الضمير ، ومراقبة النفس ومحاسبتها على أعمالها ، فيشعرها المرء بما أعد الله فى دار الجزاء من حساب وعقاب ، ويذكرها بقوله تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » لتوقن النفس بمراقبة الله لها فى حركاتها وسكناتها ، وأن الله للناس بالمرصاد ، بعلمه المحيط ، وملائكته الكرام الكاتبين ، يناقشهم الحساب ويطالبهم بمثقال الذرة من النوايا والطويات . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، خف فى القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن قصر فى المحاسبة وترك الحبل على الغارب للنفس الأمارة ، دامت حسراته ، وطالت فى القيامة وقفاته .

فليحافظ على سلامته من الدغل ، ويحفظ جوارحه من التمرد والكسل ، حتى لا يأتى يوم الضراعة ، قليل البضاعة . فلتكن جوارحه خدما مطيعة مسخرة فى طاعة الله والبر بعباد الله ، وما دام يراقب ربه ويخشاه ، ولا يعول فى الوجود على سواه ،

لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يأبه لكلام الناس ، ما دام على هذا السنن فهو بخير ، وفى طريق السداد يسير ؛ فالله وحده هـو العليم بخفايا الحنايا ، والخبير بهواجس النفوس .

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

قال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب نريد مكة فنزلنا ليلا فى بعض الطريق طلبا للراحة ، فانحدر عليه راع من الجبل ، فقال عمر : أيها الراعى بعنى شاة ، فقال الراعى: إنها لسيدى وأنا مملوك . فقال عمر: فقل لسيدك أكلها الذئب . فقال الراعى : وأين الله ؟! فبكى عمر، وفى الغد ذهب فاشترى الراعى من سيده وأعتقه ، وقال له : لقد أعتقتك هذه الكلمة فى الدنيا ، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

هكذا كان حال المسلمين فى العصور الأولى ، عصور الخير والنور ؛ يفهمون معنى الإخلاص ، ويعملون للإخلاص ؛ ولذلك غيروا مجرى التاريخ ، وحولوا سيرة الوجود . ومن يوم أن ترك الناس فضيلة الإخلاص ، وعاشوا فى ظل الرياء والنفاق ، واستمرءوا سياسة الملق ، ضعف فيهم حب التضحية ، وفقدوا الصراحة فى القول والعمل ، وسدت أمامهم أبواب العزة والمجد ، وحرموا نيل الرغائب والأمانى ، وخاصة الأمانى الروحية ، والرغائب المعنوية : من راحة البال ، واطمئنان الضمير ، وسكون النفوس .

وبعد ، فإن الإخلاص دستور عام لكل الناس ، لو ساروا على نهجه وترسموا خطاه ، لصلح حال الأمة ، وساد بنوها ، وعاشوا عيشة الهناءة والرغد ، لا تزعجهم الشدائد ، ولا تقض مضاجعهم الأزمات والنوائب .

فالجندى لو أخلص النية وعلم أنه إذا حرص على الموت توهب له الحياة ، كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أو تذكر سورة الأحزاب ، وعلم ما كان عليه المسلمون الأول من الصبر والثبات فى مواقف الشدة والحرج ، حتى أشاد القرآن بذكرهم ونطقت به الآيات حيث يقول « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » أقول : لو علم الجندى كل ذلك لدافع عن الحرمات فتجنى الأمة من حسن بلائه أطيب الثمرات .

والتاجر القنوع لو أخلص لبلاده ، ورحم بنى وطنه فى وقت شدتهم ، لرضى

بالربح القليل ، ولم يعمد الى احتكار الأقوات وإخفاء الأرزاق ، فيلاقى الناس ما يلاقون من ضيق وعنت .

والعامل والصانع لو أخلصا ، لكثر الإنتاج ، وعم الخير والإسعاد .

ولو أخلص الرؤساء لسارت البلاد فى طريق الإصلاح ، وسعد بنوها بالفلاح والنجاح ؛ ولو أخلصت بطانتهم لكان للمجدّ ما يستحق من تقدير ، فكم كفايات حرمت حقوقها بسبب البطانات ، وكم عطلت مشاريع لأنها لا توافق مزاج هؤلاء المتزلفين . والتاريخ مملوء بجنايات هؤلاء الوسطاء إذا صاحبتهم غفلة الراعى ، ولم تكبح جماحهم يقظة الرئيس .

دخل أحد العلماء على سليمان بن عبد الملك فقال له سليمان : ما حال القدوم على الله ؟ فقال العالم : أما المحسن فيلقى جزاء إحسانه ، وأما المسيء فيود لو تسوى به الأرض . ! فقال سليمان : إذا كان الأمر على ما وصفت فما بالنا نكره الموت ونحب البقاء فى هذه الحياة ؟ فقال العالم : اعفنى ياأمير المؤمنين من الجواب . فقال سليمان : لا ، قل وأنت آمن ، فقال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فتكرهون أن تنقلوا من العمار الى الخراب !. فقال بعض من بالمجلس من بطانة سليمان : ياهذا لقد نغصت على أمير المؤمنين مجلسه . ! فقال سليمان : دعه فإنه رآنا فى غفلة فأراد أن ينبهنا . . ! فمن لنا بحكمة سليمان بن عبد الملك ليرد عنا كيد المنافقين ويحول عنا ملق المرائين . !

ولو أخلصت المرأة الى رب الأسرة لامتلأ جو البيت سعادة وأنساً ، ولعاشت الأسرة عيشة الرخاء والأمن .

ولو أخلص الأغنياء فى هذه الأيام العصيبة لما رأيناهم على ماهم عليه من الشح ، وعن كثب منهم إخوانهم فى الوطن يرزحون تحت آلام الفقر والمرض . فكم من صدور ملأتها المآسى ، وكم من أحشاء عز عليها الآسى ، فضاقت الدنيا بهم على رحبها ، ولمسوا بؤس الحياة وبين ظهرانيهم أثرياء لا يسعفون منهم ملهوفا ، ولا يبلون غصة بائس محروم .

اللهم أنت وحدك مقلب القلوب : أذقهم حلاوة العطف والرحمة ، وهيىء لهم من أمرهم رشداً ؟

تحويل القبلة
من بيت المقدس الي الـكعبة

لفضيلة الأستاذ الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس فى كلية أصول الدين

بعد أن أمر الله تعالى باستقبال البيت الحرام حال الصلاة بقوله « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » كما وضحنا ذلك فى المقال السابق ، بيّن أن فريق اليهود والنصارى يعلمون أن أمر التحويل إلى الكعبة هو الحق لا غير ، لمشاهدتهم ما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلى إلى القبلتين ، وليس ذلك ابتداعا من تلقاء نفس محمد : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » وما كان منهم لم يكن قائما على أصل ينبغى لعاقل أن يرتكز عليه ، وإنما هو العناد والمكابرة وعمى البصيرة : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » قال السدّى : « وأنزل فيهم « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب » الآية ، وقوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » الآيتين ، قال : أى يعرفون أن قبلة النبى الذى يبعث من ولد اسماعيل قِبَل الكعبة ، كذلك هو مكتوب عندهم فى التوراة ، وهم يعرفونه بذلك كما يعرفون أبناءهم ، وهم يكتمون ذلك وهم يعلمون أنه الحق » انتهى .

ثم قرر الله سبحانه وتعالى الأمر بالتولية إلى الكعبة حيث قال «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وإنه للحق من ربك ، وما الله بغافل عما تعملون » مرتباً عليه أنه تعالى يشهد أن ذلك حق ، وشهادة الله تتضاءل أمامها كل شهادة ، وأنه مجاز كُلا على عمله .

ثم كرر الأمر بالتولية ثلاثة بقوله « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة ،

لتنقطع بذلك حجتهم، ويذهب ما تعلقوا به من شبهة تقحموها وخاضوا غمارها. فأنت ترى حسن هذا التكرار وجماله، وما أفاده كل أمر بما علق عليه. ونظير هذا فى القرآن كثير؛ من ذلك قول الله تعالى «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون» وقول الله تعالى «فبأى آلاء ربكما تكذبان». وكأن الله تعالى يقول.

أولا: الزم هذه القبلة فإنها القبلة التى كنت ترضاها وترغب فيها.

وثانيا: الزم هذه القبلة لأنها قبلة الحق لا قبلة الهوى.

وثالثا: الزم هذه القبلة فإن لزومك إياها يقطع حجة اليهود، ويذهب بها أدراج الرياح.

وأنت خبير بأن ذلك يفيد تأكيد أمر القبلة فضل تأكيد، فضلا عما تفيده الآية الأولى من الأمر بالدوام عليها فى جميع الأمكنة، والثانية من الدوام عليها فى جميع الأزمنة والأمكنة، والثالثة فى جميع الأزمنة مع الإشعار بأن هذا لا يصير منسوخا بعد.

ولقد كان فى ذلك قطع حجة المناوئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، واستئصال لشأفتها، لاحتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحوّل الى الكعبة، واحتجاج النصارى بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته. ولكنهم مع ذلك أصروا على ماهم عليه، واستكبروا عن الرجوع الى الحق بعد ما ظهرت لهم مخايله، استكبارا وعنادا، كما حكى الله ذلك عنهم بقوله «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض».

وأما الذين ظلموا من أهل مكة الذين يقولون: رجع محمد إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم، فهم قوم معاندون لا حجة لهم فيما يأفكون «قتل الخرّاصون الذين هم فى غمرة ساهون». وبقدر ما كان لهذا الأمر بتلك الطوائف من صاعقة الخزى وتناثر آمالهم بين طيات العواصف، بقدر ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووليجته من الابتهاج وتفيؤ ظلال النعماء. تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم

أمر التوجه إلى الكعبة بخير ما يتلق به الرجل فلذة كبده بعد طول الغيبة وبُعد الشقة، فأفاض عليه ما يملأ العين مهابة وجلالا، والقلب بهجة وحبورا: وأنزل بجماعة الكفر هزة عنيفة قضت عليهم مضاجعهم، وردعت نفوسهم، فأرغوا وأزبدوا، وصالوا وجالو، وأفاضوا فى منكر الحديث.

فقال المسلمون: سمعنا وأطعنا وآمنا به، كل من عند ربنا. وهؤلاء هم الذين هدى الله ولم يكن كبيرة عليهم. وقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها. وقال المشركون: تحير محمد فى دينه ويوشك أن يرجع الى ديننا كما رجع الى قبلتنا، وما رجع اليها إلا أنه الحق. وقالت اليهود: خالف محمد قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبيا لكان يصلى الى قبلة الأنبياء. وقال قوم: مرة ها هنا، ومرة ها هنا، لو كان محمد على يقين من أمره لما تغير رأيه ... وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا، ويحتملون بهتانا وإثما مبينا.

فجهلهم الله سبحانه وتعالى وسفه من أحلامهم بقوله «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم».

قال خفاف العقول الذين يعدلون عما ينفعهم ويرفع منزلتهم، الى ما يضرهم ويهوى بهم الى مكان سحيق: أى شىء صرف محمدا ومن معه عن قبلتهم التى كانوا يستقبلونها فى صلاتهم وهى بيت المقدس؟ قل لهم يا محمد: الأمكنة كلها لله ملكا وتصرفا، فيأمر بالتوجه الى الجهة التى اقتضتها مشيئته، وما على المخلوق إلا أن يطيع خالقه، دون ما أوحاه اليه ضميره، وما سولته له نفسه وهواه.

فاليهود أطاعوا هوى أنفسهم واتخذوا جهة المغرب قبلة لهم، زاعمين أن موسى كان فى جانب المغرب فأكرمه الله بوحيه وكلامه، كما قال الله تعالى «وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر».

والنصارى اتخذوا جهة الشرق قبلة لهم اتباعا لهواهم، زاعمين أن مريم مالت الى جانب الشرق، كما حكى الله ذلك بقوله «واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا».

والمؤمنون اتخذوا الكعبة قبلة لهم امتثالا لأمر ربهم، لا ترجيحا لبعض

الجهات على البعض . يهدى الله من يشاء هدايته الى السبيل الحق ، فيوجههم الى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك ، ثم الى الكعبة حيث يعلم المصلحة فى ذلك . وكان من الخير لهم لو عندهم أثارة من عقل أن يستنيروا بهدى الله ، فيؤمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، ويتجنبوا الخوض فى حديث القبلة . ولكنها البصيرة قد عميت « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فزعمت كل طائفة أن البر هو التوجه الى قبلتها ، فرد الله عليهم بأنه ليس البر ما أنتم عليه لأنه منسوخ ، ولكن البر ما بينه الله واتبعه المؤمنون حيث قال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » الآية . ولكنهم سدلوا دونه ثوبا ، وطووا عنه كشحا ، وأخذوا يصولون بيد جذاء ، ويرفعون عقيرتهم بما يطوح بهم فى طخية عمياء ، مع أن ما أنزل الله تعالى أجدى عليهم وأنفع ، ومعين ماؤه لا ينضب : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » .

ثم قال الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

بشّر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه كما جعل أمته تنتهج الطريق الحق بهدايته فتتوجه الى البيت المحرم ، جعلها أمة وسطا بين طرفى الغلو والتقصير ؛ لم تغل غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » الآية ؛ ولم تقصر تقصير اليهود حيث وصفوا مريم وعيسى بما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق له الأرض وتخر له الجبال هدا « قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فَرِياً . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » .

فهى أمة خيّرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل ، اختصها الله بتلك الصفاة الحميدة لتشهد على الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوا الرسالة إليهم طبقا لما علموه ، ويكون الرسول شهيداً عليها ، فيزكيها ويشهد بعدالتها .

روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام ، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون ، فتقول الأمم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق . فيؤتى عند ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بعد التهم . . .

ثم بين الله سبحانه وتعالى الحكمة فى تحويل القبلة إلى الكعبة بقوله « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .

قضى الله وحكم أن تكون قبلة المسلمين صخرة بيت المقدس بعد الهجرة استجلابا لمودة اليهود وترغيبا لهم فى أن يدخلوا فى دين الله ، وتأليفاً للأنصار الذين يعتمد الرسول عليهم فى نصرته . وما مضى على هجرته صلى الله عليه وسلم سبعة عشر شهراً حتى انتشرت الدعوة الإسلامية فى تلك البقاع ، ورفرف علم الإسلام ، وقامت شواهد صدق الرسول ، وحلّت أعلام نبوته فى قلوب من صفت نفوسهم ، فقويت شوكة الإسلام واعتز جانبه ، وعاذ به من خافوا صولته وتهيبوا بطشه ، فقضى الإسلام لبانته ، وجنى شهى الثمرات ، وتمت له الحكمة المنشودة من التوجه إلى بيت المقدس . فأمر بالتوجه إلى الكعبة ، ليتميز المؤمنون الذين أشربوا حب الإيمان فملك عليهم قلوبهم وقادهم إلى امتثال أوامره ، من الذين لم يعد الإسلام حناجرهم ، ولم يجد الإيمان له محلا فى قلوبهم ، ليكون الرسول على بينة من أمرهم ؛ يعرف من يكون موضع ثقته فيتخذه عونا صالحا لإعلاء كلمة الله ، ومعولا هادما وسلاحا ما ضيا لتمزيق أعداء الدين ، ويأخذ الحيطة ممن لبث ثوب الإسلام على سبيل الاستعارة ، فيأمن غوائله ، ويرد كيده فى نحره . وإلى هذا يشير الله بقوله « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .

يرى بعض العلماء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلى بمكة إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تأليفاً لليهود ، ثم حول إلى الكعبة . وعلى هذا فمعنى الآية : وما جعلنا القبلة التى تحب أن تستقبلها ، الجهةَ التى كنت عليها أولا بمكة وهى الكعبة ؛أى ما رددناك الى التوجه للكعبة فى حال الصلاة إلا امتحانا للناس وابتلاء لهم ، ليتميز المخلص فى الإيمان ممن هو على شفا جرف

المسئولية الأدبية

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

فرقنا فى مقال سابق بين المسئولية القانونية والمسئولية الأدبية ، بأن الإلزام فى الأولى آت من سلطة خارجة عن ذات الشخص ؛ تلك هى سلطة القانون الذى يحرّم ، والدولة التى تعاقب ؛ وفى الثانية آت من سلطة داخلية فى ذات الشخص ؛ تلك هى سلطة الضمير الذى يحرم ويعاقب ؛ وعرفنا أن الإنسان مسئول أدبيا عن أعماله جميعها من ألفها الى يائها ، أمام الله ، وضميره ، وبنى جنسه ؛ وليس الأمر كذلك فى دائرة القانون الوضعى ، ما دام أنه لا يشمل إلا المسائل العمومية التى

هار ، ينكص على عقبيه فيرتد عن الإسلام عند تحويل القبلة . وعلى هذا تكون الآية الكريمة سيقت لبيان الحكمة فى جعل الكعبة قبلة .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية قد سيقت لبيان الحكمة فى جعل بيت المقدس قبلة . والمعنى عليه : وما جعلنا القبلة التى كنت عليها قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن والمختبر ، ونميز للرسول من يتبعه ممن لا يتبعه وينفر منه . وهذا هو المروى عن ابن عباس حيث قال : كانت قبلة الرسول بمكة بيت المقدس ، إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس . . .

ولقد حكى الله سبحانه وتعالى ما كان منهم إزاء تحويل القبلة ، بأن الأمر كان عظيما عليهم وشاقا على نفوسهم ، بقوله « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » أى والحال والشأن كان تحويل القبلة شديد الوقع على نفوسهم ، ذهب بآمالهم الى مهب الرياح ، وطوح بمآربهم فى أعماق الثرى ، فأظلم الجو أمامهم ، واكفهرت وجوههم ، إلا من خلق الله الهداية فى قلوبهم ، وامتزج الإيمان بنفوسهم فهداهم الى حكمة الأحكام وإن لم يهتدوا الى خصوصية تلك الحكمة بعينها ، فتيقنوا بذلك أن السعيد الفائز من أطاع ربه الحكيم ، وأن الشقى الخاسر من عصى ربه العليم .

يتبع

تنظم أعمال الإنسان من جهة علاقاته بغيره من الناس ، وتمنع أن يؤذى الناس بعضهم بعضا ؛ واقترحنا التوسع فى القانون بفرض عقوبة على من يخالف بعض القوانين الأخلاقية المتعلقة بالإحسان إذا امتنع القادر عن مساعدة المحتاج وتسبب عن هذا الامتناع ضرر ؛ ودعونا الى تقوية الروح الدينى فى نفوس الأفراد ؛ فقد سد الدين الفراغ الذى لم يستطع القانون أن يسده ، وأمر بأشياء لم يستطع القانون أن يأمر بها . فهو للجماعات والدول حاجة وأكثر من حاجة .

واليوم نعود الى هذا الموضوع من نواح أخر بسطا له وإيضاحا . ولما كانت الصلة بين الإرادة الإنسانية وما يصدر عنها من الأفعال ، وبين القانون الملزم الذى يسأل الإنسان عن مخالفته ، لما كان ذلك هو المحور الأساسى الذى تدور حوله المسئولية ، لزم الكلام أولاً على هاتين المسألتين : القانون الأخلاقى ، والإرادة الإنسانية ، بما ينير لنا الموضوع فى شىء من الإجمال .

القانون الأخلاقى ، والإرادة الحرة ، هما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه . غير أن القانون الأخلاقى الذى يلزمنا ، والذى هو فى ضميرنا ، والذى هو يناجى عقولنا ؛ هذا القانون نحن نحمله ، ولكنه ليس إيانا ، ما دام أنه قانون يُلزمنا .

أما الإرادة الإنسانية فهى على ضد ذلك : هى نحن نحن ، وهى شخصنا ، وهى التى تقوّم ماهيتنا ، وهى على الجملة الإنسان بما له وما عليه ، حتى إن بعض الذين تكلموا فى الرق الطبيعى قال : « إن الرقيق شخص ضعيف الإرادة يكون فى كنف شخص قويّها يدبر أمره ويرعى شأنه » ، وعلى أى اعتبار ننقل قول « بارتلمى سانتهلير » عن القانون الأخلاقى والإرادة الحرة ، من مقدمة كتاب الأخلاق الى نيقوماخوس أرسطوطاليس ، قال :

« حينما يريد الإنسان أن يختبر نفسه ويدخل فى أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذى يكتشفه فيها : عند الفكرة فى بعض الأفعال التى فعلها ، بل التى ينوى فعلها ، يسمع فى أعماق عقله صوتا يمدحه تارة ويلومه أخرى . ومن المستحيل عليه أن لا يلقى اليه سمعا . ونظرا الى أنه يحمل فى نفسه هذا الصوت فلا يستطيع أن ينكره ، ولا أن يلزمه الصمت . متى ائتمر بأمره يشعر بأنه عمل صالحا ، ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئا . وإنما فى هذا الترديد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل

حياته الأخلاقية فاضلة فى حال ، ورذلة فى الحال الأخرى . ولأن يسلم الإنسان نفسه الى خدمة هذه الأوامر الداخلية ، ويخلص لتنفيذها فى جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجة ، وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحى لها بكل الضحايا التى تقتضيها : ذلك هو القانون الأعلى الذى يشعر الإنسان بالخضوع له ، ولو أنه لا يعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التحرج أحكامه الصارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذى لا ينال ، والذى تتطلع اليه أنظار نفس الإنسان . وإن كان يحيد عنه فى الغالب إلا أن مرجعه اليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذى هو بسيط وجليل معا ، والذى يكون الأخلاقية كلها » .

وقد يكون من الخير هنا أن نقول : إن قانون الضمير هذا أو قانون الأخلاق الذى وصفه «بارتلمى سانتهلير» بهذه الكلمة قال عنه النبى صلوات الله عليه ما يأتى : روى الحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [1] : أن أبا ثعلبة الخشنى قال : قلت : يا رسول الله أخبرنى ما يحل لى وما يحرم على ، فصعد النبى صلى الله عليه وسلم وصوب ، فقال : «البر ما سكنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والإثم ما لم تسكن اليه النفس ، ولم يطمئن اليه القلب ، وإن أفتاك المفتون » .

وقال « بارتلمى » عن الإرادة : « إن الانسان حيال هذا القانون الذى يناجى ضميره مناجاة علو وقدرة فى بعض الأحيان ، يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته ، فعبثا يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل فى فعله ، وعبثا يزكى العقل هذه الوصية ، فالإنسان قادر على أن يرفض تحت مسئوليته هذه النصائح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما ، لأنها تستطيع دائما — متى شاءت — أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هى الإرادة التى لا تخضع لشىء إلا لنفسها . وعرف الإرادة بأنها القدرة التى يستعملها الانسان للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقدر شىء فى الدنيا على إكراهها ما دامت لا تقبل هى نفسها ذلك الإكراه » انتهى قول بارتلمى .

فبناء على ذلك ، وحيث إن الارادة الحرة هى التى تنفذ هذا القانون أو تخالفه . فأساس المسئولية والدعامة التى عليها تتركز ، هى الحرية . وما الحرية إلا المكنة

---

(١) جـ ٢ ص ٣٠ طبعة مطبعة السعادة .

الطبيعية التى بها يستطيع الإنسان عمل ما يريد ، ما لم يمنعه مانع من قوة جبرية أو من قانون . إذن ليس الفرد مسئولا إلا عن الأفعال التى أرادها بملء حريته ، أو التى لم يردها ولكن كان من الممكن الاحتياط لها حين كان فى انتباهه واختياره . ولهذا السبب لا يسأل الإنسان عن جماله أو بشاعته ولا عن ذكائه أو غباوته ، كما لا يسأل عن مولد ليس له فيه اختيار .

ومن هنا جاءت الشرائع والقوانين تشترط فى الفعل الذى يقع التكليف به أن يكون ممكنا ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » روى الشوكانى فى كتابه « إرشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول » أنه ثبت فى الصحيح أن الله سبحانه قال عند هذه الدعوات المذكورة فى القرآن « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » : قد فعلت . وقال : إن هذه الآيات ونحوها إنما تدل على عدم الوقوع لا على عدم الجواز . على أن الخلاف فى مجرد الجواز لا يترتب عليه فائدة أصلا . وهناك شرط ثان للمسئولية ، وهذا الشرط يتعلق بالمحكوم عليه ، وهو المكلف ؛ ذلك هو التمييز بين الخير والشر ، إذ بدونه تنعدم المسئولية . فلا مسئولية إذاً على الحيوان ، ولا على النبات والجماد ، لعدم الفهم ، ولا مسئولية على المجنون الذى فقد حرية الإرادة بفقد الإدراك ، ولا على الصبى الذى لم يميز .

وتختلف المسئولية بحسب درجة تلك الحرية وذاك التمييز تبعاً للأسباب الموجبة لها . مثلا القانون المدنى يلزم الوطنيين بمجرد نشره ، ولا يقبل عذر أحد مدعيا جهله . أما القانون الأخلاقى فهو يلزم فقط من يعلم به . ومن ذلك ترى أن المسئولية الأدبية تزداد كلما ازاد علم الإنسان ومعرفته ، فكلما ازدادت معارفه ، عظمت مسئوليته ، وكلما ترقى الانسان فى المدنية وتقدم فى العمران ، تعاظمت مسئوليته وربا ما يتعلق بها من ثواب أو عقاب .

وللمسئولية الأدبية مظهران : مظهر الفضل ، ومظهر النقص . ولما كان عمل ما لا يعد خيرا فى نظر الأخلاق إلا بالنية ، أوحى الله إلى نبينا وإلى جميع الأنبياء عليهم السلام أن الأعمال بالنيات ؛ قال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إلا لِيعْبُدُوا اللهَ

مُخلِصِينَ له الدينَ » ، والإخلاص : النية . وقال صلوات الله عليه : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

روى البدر العينى فى كتابه عمدة القارى شرح صحيح البخارى [1] أن أبا بكر ابن داسه قال : « سمعت أبا داود يقول : كتبت عن النبى عليه الصلاة والسلام خمسمائة ألف حديث انتخبت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث فى الأحكام ، فأما أحاديث الزهد والفضائل فلم أخرجها . ويكفى الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث : « الأعمال بالنيات » ، و « الحلال بين والحرام بين » و « من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه » ، و « لا يكون المرء مؤمنا حتى يرضى لأخيه مايرضى لنفسه » . وقد نظم طاهر بن مفوز الأحاديث الأربعة فى بيتين لا بأس من ذكرهما هنا قال :

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البريه :
اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنيه

وحيث إن الفضل والنقص يتعلقان بالناحية الباطنة للإنسان ، وهذه الناحية الباطنة خافية على نظرنا الضعيف ـ جل الله الذى تفرد بأسرار القلوب ـ ، وليس من المحال أن عملا عليه كل ظواهر الفضيلة يكون غاية فى الشر بماله من الأسباب القوية الخفية التى اقتضته ، فإنى أكرر الدعوة وألح فى وجوب تقوية الروح الدينى فى نفوس الأفراد ليشعروا بالمسئولية الأدبية الملقاة عليهم ؛ تلك المسئولية الخطيرة التى تتطلب منا فى هذا العصر المعقد أن نساهم فى بناء جيل جديد يشعر أفراده بالتراحم الأخوى بينهم ، عاملين على تقوية أنفسهم بتكاليف الفضيلة الشاقة ، وبالمثابرة على جهود طويلة مخلصة .

---

[1] ج ١ ص ٢٢ .

المقياس الادبى للشاعر

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد عونى
المدرس فى كلية اللغة العربية

للشاعر مبدأ يتجسم فيه ، وتتجلى عنده شخصيته وعظمته ، وعليه تتوقف كرامته ومعزّته : ذلك هو ما تأتيه شاعريته من عبقرية فى عالم التصوير والتعبير هذا المبدأ هو مقياسه الصحيح ، وإن هالك منه مبدأ ساقط فى خُلقه أو عقيدته .

خذ المتنبى من شعراء العرب مثلا ، واعرض أمامك شعره ، ثم ارجع الى نفسك ، وتأمل مشهد الجمال الرائع فيه ، ومكان العبقرية الساحرة من كلامه ؛ فإنك ترى قد نسيت غلوه فى مديحه ، وقذعه فى هجائه ، وتماديه فى كبريائه ، وتفننه فى أوصافه ، وتجسم لك منه جمال خفىّ ، هو شخصيته الأدبية الممثّلة فى بيانه الساحر ، وشاعريته الخلاّبة .

فليس المتنبى الذي نكرمه ، ونجل شعره ، مداحة سيف الدولة أوكافور ؛ ولا هو ذلك الروح الطمّاح الفخور ، ولا هو ذلك الهجّاء المقذع ، ولا هو ذا الأنف المحشو صلفاً وكبراً ؛ بل هو تلك الشرارة المنبعثة من توقد ذهنه واقتداح فكره ؛ هو شاعر الحياة فى عصره ، ومصدر روعة الجمال بحكَمه وأمثاله لأبناء دهره .

وخذ المعرى مثالا ، وادرس شعره ، ثم قف وتأمل مدى تأثيره ، وسل نفسك بعد ذلك : لماذا يُجلّ الأدباء أبا العلاء ؟ ولأى شىء يقدسونه ؟ وما هى القوة الدافعة إلى الإعجاب به ؟ وعلام ذاع صيته بين أدباء عصره وغير عصره ؟ لامراء أنك إذ تنظر اليه جملة ، تتغاضى عن تكلفه ولزومه ، وتتناسى مرارته فى تشاؤمه وانتقاده ، و تغضى الطرف عن تطرفه وتغاليه فى اعتقاده ، ويتلقاك منه ما يملؤك روعة وجلالا ، وينفث فيك سحرا حلالا .

فمبدؤه فى الحياة والوجود ، واعتقاده فى الإنسان والعُمران — إن صح

ما يقولون — مبدأ يهولنا أمره ، وقد يهيج بنا شعور الكراهية له ، والزراية به ، ولكننا مع ذلك لا يسعنا أن ننكر على الشاعر عبقريته ، ولا يثنينا عن أن نتقدم اليه بالتجلة والإكبار ، ونرفع أبصارنا اليه كما نرفعها الى علم فى رأسه نار .

فما المعرى الذى نتيه به وبشعره هو ذلك الزائغ العقيدة ، المنحرف عن الجادة ، المتناقض فى رأيه ، ولا هو ذلك الملحد القائل :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

بل هو ذلك البعيد الغور ، المتوهج الذكاء ، المتّقد الخاطر ، الشديد التعمق فى المعانى ، والتصورات الفلسفية : هو ذلك المفكر البعيد المرمى ، الذى يحاول بديع تصوراته ، وروائع خيالاته ومبتدعاته ، أن يخترق الحجب إلى ما لا تدركه العقول ، وحسبك هذا سببا لإكرام الشاعر ، وتقديسه وإكباره .

بهذا المقياس الأدبى نقيس شخصية شاعرنا الكبير « شوقى » فى كل جيل ، وفى كل زمان . فها هو ذا فى مظاهر ديوانه : مدّاحة ، منادم ، وطنى ، محب ، حكيم ، كما هو شأن الكثير من شعراء عصره ؛ ولكن المتأمل فى شعره يرى فيه إبداعا فى المعنى ، وبراعةً فى التصوير ، هما حقيقته التى تميزه عن الكثيرين ، ومقياسه الذى نقيسه به .

فليس هناك ميزان نزنه به سوى النزعة الأدبية السامية ، التى ضرب الشاعر على أوتارها ، فهزّت الشرق العربى من أقصاه إلى أقصاه .

فما شوقى فى تاريخ الأدب ذلك اللعوب اللاهى تحت كرمة ابن هانىء [1] ، ولا ذلك المدّاحة المنادم فى بلاط عباس الثانى ، بل هو ذلك الروح الشرقى ، مُهيبا بالشرقيين إلى تسنم ذِروة الإبداع والابتداع فى عالم الأدب والشعر العربى ، دافعا بهم الى الأمام .

ولو التفتنا الى وقتنا الحاضر ، وأردنا أن نرسم صورة أحد من أفذاذ شعرائه ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، دون أن نحاول الوصول الى المجرى الفكرى منه ، أو الروح الأدبى فيه ، من غير نظر الى ما وراء ذلك ؟

---

(١) اسم أطلقه على منزله ، وكثيرا ما كان ينسج على منوال ابن هانىء الشاعر الأندلسى .

علماء البلاغة :

السيد الجرجانى

٧٤٠ — ٨١٦ ﻫ

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمى بأم درمان

لا يكاد يذكر اسم سعد الدين التفتازانى حتى يطوف بالخاطر اسم السيد الشريف ، وقد أصبح من العبارات المألوفة عند دارسى علوم البلاغة والكلام ، أن يقولوا « السعد والسيد » ؛ فمن هو السيد الجرجانى ؟ .

نشأته : هو على بن محمد بن زيد الداعى ، بينه وبينه ثلاثة عشر أبا ، ولد فى قرية قريبة من (سر اباذ) بين همدان وبغداد ، وتلمذ لسعد الدين ، وأخذ شرح المفتاح للقطب عن ابن مؤلفه مخلص الدين ، وقدم القاهرة ، ودرس بها ، ثم خرج الى بلاد الروم ، وقدمه السعد للشاه ، فظهر نبوغه واشتهر علمه ، فعيّن أستاذا فى شيراز ، حتى افتتح تيمورلنك شيراز ، فأرسله الى سمرقند ، فبقى بها مدة حياة تيمور ، ثم عاد الى شيراز . ومع ما كان له من عظيم المكانة فى بلاط تيمور فقد لقى من عنت الأيام ، ومن قسوة الدهر أحداثا ، جعلته يجهر بالشكوى ، ويتبرم بعيشه ، فلا ينسى أن يتحدث عما لقى « من صروف الزمان ، وخطوب الحدثان » ، ولا يرى بدا من أن يذكر أنه ابتلى فى آخر عمره بالرحلة الى ما وراء النهر .

مؤلفاته : ألف فى كثير من العلوم ، باللغتين العربية والفارسية ؛ ألف فى الفقه والنحو والتفسير والكلام والفلسفة والفلك ، وألف فى علوم البلاغة : (١) شرح المفتاح . (٢) علم المعانى والبيان ، وهو شرح للقسم الثالث من مفتاح العلوم ، وهو مخطوط منه نسخ بالمكتبة الأزهرية . (٣) حاشية على المطول لسعد الدين ، وهى مشهورة ؛ وكثير من مؤلفاته شروح وحواش على بعض الكتب ، وبعضها كتب موضوعة ، وقد انتفع الناس بمؤلفاته ، واعتبروه حجة فى كل هذه الفنون ؛ ومؤلفاته مشهورة فى كل فن ، يحتج بها أكابر العلماء ، وينقلون

منها ، ويوردون ويصدرون عنها ، وهى كثيرة المعانى ، واضحة الألفاظ ، قليلة التكلف والتعقيد الذى يوقع فيه عجمة اللسان ، كما يقع فى مصنفات كثير من العجم. والسيد يميل الى التحقيق الدقيق ، ويعنى بنقد العبارة . ولعل ولعه بالتعمق فى البحث وتصفية الأسلوب هو الذى دعاه الى كتابة كثير من الحواشى ، والتعليقات على المؤلفات .

منزلته العلمية : من علماء الشرق الأفذاذ فى عصره ، وقد كان إماما فى جميع العلوم العقلية ، وكثير غيرها ، متبحرا فى دقيقها وجليلها ، وسار ذكره ، وطار صيته فى الآفاق ، وقد كان العلماء فى عصره يفتخرون بالأخذ عنه ، والانتساب إليه ، ثم صار من بعدهم يفتخرون بالأخذ عن تلامذته . وقد قدمنا فى ترجمة السعد أن علماء العجم كانوا يعدون من مفاخر كبار علمائهم أن يكون رأيه مع السيد أو مع السعد .

ونستطيع أن نتبين المنحى الأصيل للسيد الشريف فى البلاغة إذا نظرنا نظرة فاحصة فى كتبه ، ولكنا نجد من كلامه هو شاهدا نكتفى به الآن . فإننا نتبين منهجه فى التأليف والتحقيق من هذا الذى ذكر . ونحب أن نقول قبل أن نذكر هذه العبارات : إن هذه المدرسة (مدرسة السعد والسيد) ، والمدرسة التى كانت قبلها الى عهد السكاكى ، والمدارس التى جاءت بعد ذلك ، كانت كلها مطبوعة بطابع واحد لا يشذ عن ذلك إلا أفراد ؛ ذلك الطابع هو الذى يصوره السيد فى العبارات التى سننقلها ، وهى فِقَر من مقدمته للحاشية التى كتبها على المطول . على أننا ذكرنا آنفا هذه الطريقة عند ما نقلنا قول العلامة ابن خلدون فيها . قال السيد : « وعساك إذا تأملت فيها متمسكا بذيل الإنصاف ، ومتجنبا عن مسلك الاعتساف ، ظفرت بما تستعين به على تحقيق أصول من البلاغة فى مواضع شتى ، وتتسلق الى فروعها كما تحب وترضى ، وانكشفت لك مطالب جليلة من عبارات القوم قد زل عنها أذهان أقوام تاهوا فيها ، خصوصا فى مباحث التعريفات ، وتحقيق أقسام الوضع ، ومعنى الحرف ، وأنواع الدلالات ، وفى الكشف عن زبدة التعريض ، وحقائق الاستعارات » فهذه كلها مباحث منطقية ينظر إليها السيد وجميع علماء البلاغة فى عصره وفيما بعد عصره ، نظرا خاصا . ولا غرو فإمامهم أبو يعقوب السكاكى يُعد علم المنطق مكملا لعلوم البلاغة .

لكنه فى مقدمة كتابه (المعانى والبيان) نجده ينهج نهجا نظنه بعيدا عن طريقة هؤلاء ؛ فهو يقول بعد الحديث عن أصحابه الذين طلبوا إليه أن يشرح القسم الثالث من المفتاح « نملى عليهم ما ينجيهم من الضلال ، ويحظيهم بأجزل نوال ، فى عبارات موضحة بلا إملال ، وإشارات موفقة بلا إخلال ، نشيد فيه قواعد الفوائد ، ونمهد فيه موائد العوائد ، معرضين عما لا طائل فى رده ، ولا حاصل فى نقده ، ومقتصرين على تلخيص الصواب ، وتمييز القشر من اللباب » . وهى وعود ــ وربى ــ حلوة جميلة ، ولكننا لا نجده يخرج فى تلك العبارات ، وهذه الإشارات ، عن التحقيقات اللفظية ، والمباحث المنطقية .

على أنى لاحظت على هؤلاء الأعلام ، أنه ما من مؤلف إلا يبتدىء تأليفه بالثناء على نفسه ، والامتداح لها ، وبيان ما حصّله من العلم ، وما وقف عليه من التحقيق ؛ وهذه صفة لا تزال من لوازم العلماء ، وهى نقص كبير ؛ غير أن ما وقع فيه السيد الشريف كان أبعد عن جادة الاعتدال ، فقد رأيته يتنقص من سبقوه إلى شرح المفتاح ، وهو ــ بطبيعة الحال ــ يعنى شيخه السعد ، وشيخ السعد القطب ؛ فقد ألف السعد شرح القسم الثالث من المفتاح فى مدينة سرخس سنة ٧٨٦ هـ وبعده بتسع سنوات ألف السيد شرحه لهذا القسم ؛ وقد ذكرنا أن السيد قرأ شرح المفتاح للقطب فى بدء دراسته . ثم تراه يقول فى مقدمة هذا الشرح : « حتى ابتليت فى آخر العمر ، بالارتحال إلى ما وراء النهر ، فوجدت هناك أقواما عطشى الأكباد ، يحومون حول الكتاب ولا يهتدون إلى موارده سبيلا ، وآخرين منحرفين عن السداد قد خاضوا الى لجحه بلا إرشاد ، فلم يجدوا عن فرائده دليلا ، وكانوا فى حل تراكيبه ، والكشف عن نكت أساليبه ، متكئين على شروح أكثرها جروح ، وأمثلها مدخول ومجروح ، لاترى فيها لغليل شفاء ، ولا لعليل دواء ، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، قد اتخذوها مسارح أنظارهم ، ومطارح أفكارهم ، فقلنا يأهل الكتاب لستم على شىء تنفخون بلا ضرام ، وتتسمنون بلا أورام ، تضيعون الأعمار ، ولا تستضيئون الأنوار ، وتحسبون أنكم تحسنون صنعا ؛ فلعمرى ما أنتم إلا كباسط كفيه الى الماء أو كنازح من البئر بلا رشاء ، بل كطالب للترقى إلى السماء » . فهذا التجريح الأليم ، والهجوم العنيف على أساتذته لا يرضينا حتى فى هذا العصر الذى أصبح من فضائل العالم فيه

أن يتنقص غيره من العلماء . ثم إذا تابعناه وجدناه بعد ذلك يطيل فى الثناء على نفسه ، ويسمو بها إلى مكان رفيع مما نعده تنقصا فى العلماء ، فيقول عن أصحابه : « فآتيناهم من آياتنا الكبرى ، فظلت أعناقهم لها خاضعين ، فقالوا آمنا بما جاءنا من الحق المبين ، فزدنا من لدنك علماء ، وهيء لنا من أمرنا رشدا » ، ولو لا أن أكون عيابا ، ثم للعلماء خاصة — كما يقول الجاحظ — لوصفت هذا الكلام بما هو أهل له ، ولكن يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى !

مناظرته مع أستاذه : لعل مناظرته مع السعد من أشهر المناظرات العلمية ، وقد كان لهذه المناظرة صدى عال فى عصرهما ، ودوى مرتفع ، واختلاف فى شأنها بين العلماء ، وبقى لها هذا الشأن زمنا طويلا بعد عصرهما ، حتى ألفت فيها الكتب ووضعت الرسائل لترجيح رأى أحدهما ؛ ويغلب على ظنى أنه جرت بينهما أكثر من مناظرة ، ولكن رويت لنا مناظرتان حدثتا فى مجلس تيمور ، كان موضوع الأولى (كون إرادة الانتقام سببا فى الغضب ، أو الغضب سببا فى الانتقام) ، وكان موضوع الثانية (اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية فى كلام صاحب الكشاف فى قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم) . وقال الشوكانى فى كتابه (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) ما يأتى : « وجرت بينهما المناظرة المشهورة فى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . ومن هنا رجحت أنه جرت بينهما مناظرات لا مناظرتان فقط .

وفى المناظرة الأخيرة تجمعت أسباب ، وتظاهرت فى جانب السيد ، فاستطاع أن يصرع خصمه ؛ من هذه الأسباب ما هو سياسى ، ومنها ما هو علمى . ونجملها فنقول : كان السيد فى هذا الوقت فى سن الخمسين ، بينما كان السعد فى حدود السبعين ، وقد حلت به العلل والأمراض ، وذهب عنه الإخوان والأنصار ، يحدثنا هو بهذه الحال الأليمة حين شرع يشرح القسم الثالث من المفتاح ، وكان ذلك منذ خمس سنوات ، فيقول : « لكن لم أجد فى نفسى حركة نشيطة ، بل حردة مستنشيطة ، لما رأيتنى قد أخذت السن من قواى ، وذهب مع الركب هواى ومناى ، وقد آذن الكفيل بالرحيل ، ولم يبق منى إلا القليل ، مع ما منيت به من انقراض من كنت أراجعه من الفضلاء الذين تفسحت فى هذا الباب خطاهم ، والأذكياء الذين تنفست فى ميادينه مداهم ، ومن مفارقه الإخوان الذين كان الواحد منهم يسمع منى

الكلمة فيضعها على رأسه ، ويعض عليها بأضراسه » . ومن الخطأ البين أن يغفل الباحث فى مثل هذه المناظرات عامل السن ، وضعف القوى ، والحالة النفسية ؛ فإن هذه المناظرات تحتاج إلى سعة الحيلة ، وقوة العارضة ، وإجادة (التهريج) أكثر مما تحتاج إلى رزانة العالم ، وعبقرية النابغة . وعندى أن البديع الهمذانى كان يعتمد فى مناظرته مع أستاذه الخوارزمى على أمور أهمها هذا الفارق فى السن . يضاف إلى ذلك أن مكانة السيد السياسية كانت أقوى من مكانة السعد ، ويقال إن وزيرا من وزراء تيموركانت ضلعه مع السيد ، بل يقال ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن هوى المحكمين فى المناظرة كان مع السيد ، ولا ننسى مطلقا هذا الفارق الذى أشرنا إليه آنفا ، من أن السيد كان فصيح اللسان ، ناصع المقالة ، طيب الحديث ، فى حين كانت فى السعد لكنة فى اللسان ، وعجمة فى الأسلوب .

كل هذه كانت مقدمات طبيعية لانتصار السيد . على أننا نشك فى كثير مما لابس هذه المناظرات ، فإن من مصادرها ذات الأهمية كتب السيد نفسه ، ونحن لم ننس ما كتبه السيد فى امتداح نفسه ، والإشادة بنبوغه حتى استخدم الآيات القرآنية فى هذا السبيل ، استخداما لا نحمده له ، فلا يبعد عندى أن يكون انساق فى تأريخ هذه المناظرات وراء عاطفة حب الثناء التى ظهرت أماراتها فيما كتب عن نفسه .

ومهما يكن من شىء فإن هذه المناظرات لم تعدُ على العلم بفائدة ؛ فقد دارت حول مما حكات لفظية ، لا طائل تحتها ، وهى الى الجدل أقرب منها الى لباب العلم . على أن الحقد الذى كان بين المتناظرين حملهما على كثير من التحامل ، فلم يبد على هذه المناظرات حب الحقيقة أو خدمة العلم ، فى حين أنها عادت على السعد بخسران عظيم ، فيما حدث المؤرخون ، فقد قالوا : إنه لما غلب كمد ومات فى العام التالى .

وقد كتبت فى هذه المناظرات مجموعة من البحوث ، ألف الشوكانى رسالة خاصة سماها (الطود المنيف ، فى الانتصار للسعد على الشريف) . وفى دار الكتب المصرية رسالتان مخطوطتان فى هذا الموضوع ، الأولى (مسالك الخلاص فى مهالك الخواص) لطا شكبرى زاده ، والأخرى فى تحقيق الاستعارة التمثيلية ، ونقل ما جرى فيها من البحث بين السعد التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى .

وهناك رواية تقول : إن الجرجانى سأل سعد الدين سؤالا محرجا فى جمع من العلماء والأمراء فلم يعرف جوابه فمات لساعته ، وكان له حفيد عالم هو شيخ الإسلام أحمد بن يحي بن محمد عرف فيما بعد سبب موت جده ، فصمم على الأخذ بثأره بنفس الطريقة ، فانتهز فرصة وجود الجرجانى فى حفل كبير ، وألقى عليه سؤالا عويصا كانت نتيجته أن خر الجرجانى صريعا . وقد تأكد عندى أن هذه خرافة ، لأن الحفيد توفى سنة ٩٠٦ هـ فمهما طال عمره فلن يدرك السيد إلا طفلا ، اللهم إلا إذا كانت جرت هذه القصة مع حفيد آخر من أحفاد السعد غير هذا المشهور ، وسواء أكانت أسطورة أو كان لها ظل من الحقيقة ، فإنها تدل على ما كان يشغل أذهان الناس من أمر هذه المناظرات والمنافسات بين العالمين الكبيرين .

مقارنة : تكاد تتشابه حياة هذين العالمين فى كثير من فصولها ، ويكاد يكون وصفهما لحالهما ولأهل زمانهما ، ولاندراس العلم فى عصرهما ، يكاد يكون هذا الوصف صورة واحدة ، وإن كنا نرجح أن السيد قلد السعد فى هذا ، كما أنه أخذ كثيرا من تعبيراته .

شكا السعد دهره ، وذم أيامه ولياليه ، فى عبارات لطيفة ، فى مقدمة كتابه (الإصباح) المشهور بالمطول ، فقال : « وحين فرغت من تسويد هذه الصحائف ، بتلك اللطائف :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسَّرت النصال على النصال

وذلك من توارد الأخبار بتفاقم المصائب فى العشائر والإخوان ، عند تلاطم الفتن فى بلاد خراسان ، لا سيما :

ديار بها حل الشباب تمائمى وأول أرض مسّ جلدى ترابها

فلقد جرد الدهر على أهليها سيف العدوان ، وأباد من كان فيها من السكان ، فلم يدع من أوطانها إلا دمنة لم تتكلم من أم أوفى ، ولم يبق من حزبها إلا قوم بيلدح عجفى.

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

والى الله المشتكى من دهر إذا أساء أصر على إساءته ، وإن أحسن ندم عليه من ساعته ، ثم ألجأنى فرط الملال ، وضيق البال ، الى أن تلفظنى أرض الى أرض ، وتجرنى من رفع الى خفض » .

وهكذا نجده يردد أمثال هذه الشكايات ؛ كما نجد السيد يتحدث عن نفسه شاكيا أيضا ، وإن كان فى ذلك أخفض صوتا ، وأهدأ نفسا ، وأخف شكاية.

وكلاهما يذم الناس فى عصره ، ويضيق بجهلهم وحسدهم ذرعا ، وفى ذلك يقول السيد بعد أن مهد لشرح القسم الثالث من المفتاح « هدية منى إلى كل ذكى جبل على الإنصاف طبعه ، وعصم على الاعتصام نفسه ، وقليل ماهم ، وإن أكثرهم — كما ترى — إما على قلوبهم أكنة فلا يكادون يفقهون حديثا ، أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، أو يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فإذا جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وأرادوا تلبيسا وتدليسا ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . ويقول السعد فى وصف أخلاق الناس : « وإلى الله أتضرع فى أن ينفع به المحصلين الذين هم للحق طالبون ، وعن طريق العناد ناكبون ، وغرضهم تحصيل الحق المبين ، لا تصوير الباطل بصورة اليقين ، وهذا — لعمرى — موصوف عزيز المرام ، قليل الوجود فى هذه الأيام ، فلقد غلب على الطباع اللدد والعناد ، وفشا الجدال والحسد بين العباد ، ولئن فاتنى من الناس الثناء الجميل فى العاجل ، فحسبى ما أرجو من الثواب الجزيل فى الآجل ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

ويتصل بهذا نظرتهما الى من سبقهما من المؤلفين والعلماء فى عصرهما ؛ فالسعد يتعرض لهؤلاء ، ولكن فى رفق وأدب ، يتحدث عن المفتاح فيقول : « ترى بعض متعاطيه قد اكتفوا بما فهموه من ظاهر المقال ، من غير أن يكون لهم اطلاع على حقيقة الحال ، وبعضهم قد تصدوا لسلوك طرائقه من غير دليل ، فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » . أما السيد فانه يعرض لهؤلاء ، ولكن فى عنف وقسوة وسخرية لاذعة ، وحسبك مانقلناه عنه آنفا فى هذا الشأن .

وقد عرفت دون شك من ترجمة الرجلين ما جهرا به من اندراس العلم فى زمانهما ، أما الأسلوب فانا نجد السيد أنصع أسلوبا ، وأصفى ديباجة ، وأبعد عن الأصباغ اللفظية ، حتى السجع نفسه لا يكاد يلتزمه ، والمجازات البعيدة ، والاستعارات المرذولة ، كلامه يتنأى عن ذلك كله ، مع سلاسة ويسر ، ولين ، وسهولة ، وهو — كما رأينا — مغرم بالاقتباس من القرآن الكريم ؟

عود الى حديث الفطرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

فى عدد من أعداد مجلة الأزهر الغراء كتبت بحثاً مختصراً عنوانه « فطرة الله » بيّنت فيه أن الاعتراف بالخالق والإيمان بوحدانيته هو الأصل والفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأن مظهر ذلك هو العقل الإنسانى الذى لا يسعه حين يتدبر الدلائل ، ويرى هذا الكون البديع ، إلا أن يعترف ويؤمن بصانعه القدير[1].

ولو أن الفطرة الإنسانية ظلت كما هى ، وظل الناس جميعاً معترفين بربهم ، مؤمنين به إيماناً صحيحاً على أنه الإله الواحد القادر العادل الذى لا سلطان لأحد مع سلطانه ، ولا فرق فى عدله ورحمته وألوهيته بين إنسان وإنسان — لأجْدت هذه الفطرة السليمة على العالم كله خيرات وبركات ، ولما تولد كثير من ألوان الشرور والفساد التى عرفها البشر ، فحملوا منها أعباء ثقالا ، وذاقوا بها آلاماً مريرة ؛ ذلك بأن عقيدة التوحيد هى أرسخ العقائد التى تنبنى عليها كرامة الإنسان ، وتجعله يشعر فى نفسه دائما أنه كائن حى سام ، ليس كغيره من هذه الكائنات التى تسام الخسف ، وتسخر للأقوياء والمسلطين ، وأن له فى الحياة رسالة كريمة اختاره الله لأدائها : هى عمارة هذا الكون ، والانتفاع بما خلق الله فيه من شىء .

ولكن هذه الفطرة الصافية لم تلبث على صفائها ، ولم يزل بها أهل الأهواء والشهوات من الرؤساء والكهنة وأمثالهم حتى كدروها وأفسدوها ؛ فكل من قرأ تاريخ الأمم ، وتابع أطوار العقائد فيها ، يبدو له فى وضوح وجلاء أن هذين الصنفين من الخاصة قد تآمروا على العامة فى كل شعب ، فأضلوهم سواء السبيل ، ليتخذوهم عبيدا لهم ، وآلات مسخرة ، تتحرك متى يشاءون ، وتقف متى يشاءون ، وتعمل ما يرسمون ، وتترك مالا يريدون ، دون أن تعرف لنفسها حقا ، أو تدرك لماذا سخرت هذا التسخير .

---

(١) المجلد التاسع عشر من مجلة الأزهر ، جزء ربيع الأول سنة ١٣٦٧.

تآمر هذان الصنفان من الخاصة على الشعوب ؛ فأما الرؤساء فقد اصطفوا الكهنة وأمثالهم يغدقون عليهم العطاء ، ويمنحونهم كثيرا من ألوان السلطان والنفوذ ، ليقودوا لهم العامة ، ويسلسوا لهم هذا القياد . اصطنعوا الكهنة وأمثالهم ممن زعموا أن لهم اتصالا بعالم الغيب ، ونسبة خاصة الى القوة القاهرة المدبرة للكون ، وتظاهروا أمام الناس بأنهم خاضعون لهم ، منفذون لما يشيرون به ، قائمون فى ذلك بما يمليه الآلهة المقدسون بوساطتهم ؛ وهكذا تظاهروا أمام الشعوب بأنهم حماة العقيدة ، وصدقتهم هذه الشعوب ، ففعلوا باسم هذه الحماية ما أرادوا ، واستغلوا بها ما استغلوا ، والناس عنهم غافلون !

وأما الكهنة وأمثالهم ، فقد لذّت لهم هذه السلطة الغيبية التى زعموها لأنفسهم ، والتى دان لها الناس من حكام ومحكومين ، إما عن تصنع وخبث ودهاء ، وإما عن عقيدة وثقة واطمئنان ؛ لذت لهم هذه السلطة التى جعلت لهم مكانا رفيعا ، ونفوذا مطاعا ، وجلبت لهم من المنافع الخاصة مالم يكونوا ليدركوه لولاها ، فاستمرءوا ذلك ، وحافظوا عليه ، وأمعنوا فى تضليل الناس ، ولفتهم عن مقتضى الفطرة ، وبذلك اقتسموا مع الرؤساء السيطرة والمنافع ، وتحالف الجميع على أن يظل لكل منهم نصيبه ، لا يحاول الآخر أن ينقصه أو يمسه من قريب أو من بعيد .

ومضت على ذلك حقب ودهور ، تخلع الناس على الأوهام والخرافات صفة المعتقدات الحقة ، وتوارثوها كأنها حقائق مسلمة لا تقبل الجدال ولا المراء ، وخفت كل صوت من أصوات المعارضة لها ، والنقد لما فيها ، والتنبيه إلى فسادها ، خوفا من غضب هؤلاء المتآمرين ، وتجنبا لانتقامهم السريع الفظيع ؛ فانحط بذلك شأن الإنسان ، وفقد كرامته ، واستنام إلى المتآمرين عليه ، لا يقاومهم ، ولا يسائلهم ، ولا يشك فيهم ، ولا يعتقد أن وراء ما يقولون قولا ، أو غير ما يحكمون حكما ، وكان من آثار ذلك أمران خطيران :

أولهما : أن السبل تشعبت بالناس ، فتفرقوا فى العقائد ، وانحرفوا عن إدراك الواقع الصحيح فيها ، فصار منهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد الأحجار ، ومنهم من يعبد الأشجار ، ومنهم من يعبد أنواع الحيوان ، وبهذا أصبح الجنس الواحد أجناسا مختلفة ، تقطعت بينهم الأسباب ، وافترقت السبل ، وانحلت عرى التعاون والتواثق .

الأمر الثانى : أن التواء الإنسان عن مقتضى الفطرة ، وارتطامه فى ظلمات الشرك والوثنية ، جر عليه ألوانا من الفساد والشر ، فكان فريسة الجهل والظلم ، وأصبحت القوة هى القانون المطاع ، كما هو الشأن بين وحوش الغاب ، وليس للأخلاق موازين ، ولا للفضائل مقاييس ، ولا للشرف قيمة ، ولا للحياة الطيبة مُثُل تحتذَى أو تراد ؛ وما لهذا خلق الإنسان ، ولا بهذا استحق خلافة الله فى الأرض ، ولا لهذا استحق بنو آدم التكريم على سائر ما خلق الله .

فلم يكن بد من « هداية الله » تكفله وتهذبه وتقرب له السبيل ، وترسم له الصراط المستقيم ، وتبصّره بقيمته وكرامته ، وتخرجه من الظلمات إلى النور . وبذلك كانت الرسالات الإلهية ، فأوحى الله ما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده ، حتى ختمت الرسالات بأشرف رسالة وأكملها ، وأبقاها على الأيام : رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

ترى هل طال الأمد على الناس ، فنسوا ما ذُكروا به ، وقست قلوبهم ، فهم يعودون إلى لون آخر من ألوان الانحلال ، وفقد الكرامة الإنسانية ، والتخاصم والتقاطع ، لاختلاف الأفكار ، وتعدد المنازع والعقائد ؟

لقد انبثق نور الاسلام من الجزيرة العربية فى عهد محمد وخلفائه ، فلم تبق عين فى العالم إلا شهدت هذا النور ، وانتفعت أو تهيأت للانتفاع به ، ولو ظل المسلمون على ما كانوا عليه فى ذلك العهد مؤمنين بكتاب ربهم ، وسنة رسولهم ، حاملين لواء هذه الدعوة الكبرى الى العالم شرقيه وغربيه ، لكان للناس اليوم شأن غير هذا الشأن المضطرب ، ولما كانت المذاهب الطائشة ، والأفكار المتنازعة ، والنظم التى تعيش حينا ثم تموت ، ويضطرب بها العالم حين تعيش وحين تموت ، بل لتحقق الحلم الانسانى الجميل فى حكومة واحدة تدبر شأن العالم كله ، وتقتسم فى عدل ويسر ما أودعه الله كل قطر من أقطار الأرض كما هو شأن الأمة الواحدة ؛ فما كان الإسلام إلا خلاصة رسالات الله وصفوتها ، وما كان الإسلام إلا دينا عاما للبشرية فى مشارق الأرض ومغاربها ، يوم أرسل به الرسول العربى ، ويوم دق به على أبواب العالم فى شخص دولتى الفرس والروم ؛ وإنه لكذلك حتى يقوم الناس لرب العالمين .

ولكن المسلمين وقفوا به ، وكانوا عن دعوته ، وصار حظهم منه الانتساب اليه ، فلم يعد العالم يبصر هذا النور الساطع ، ولم يعد يسمع عنه إلا الدعاوات السيئة التى يذيعها عنه خصومه ، والطامعون فى بلاده .

إن المسلمين لمسئولون عن هذا التراث العظيم : لم ناموا عنه ، ولم وقفوا به ، ولم نكصوا عن الدعوة اليه حتى يعم الأرض ، ويكون كما أراده الله دين البشر عامة ؟ ! إنهم مسئولون عن ذلك ، ومسئولون عن السبب الذى أفضى بهم اليه ، ولم يزل عقلاؤهم وكبار مفكريهم يلخصون هذا السبب فى كلمة واحدة هى : التفرق ؛ كل شعب من شعوب المسلمين عاكف على نفسه ، مشغول بما عنده ، وكل طائفة من طوائف هذه الأمة الواحدة تنظر الى الطائفة الأخرى كما ينظر الغريب الى الغريب ، أو كما ينظر العدو الى العدو ، فهؤلاء شيعة ، وهؤلاء أهل سنة ، والشيعة تفترق الى كذا وكذا ، والسنة تفترق الى كذا وكذا ؛ تقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون .

ومن المحال أن يوجهوا الى العالم دعوة إلى دين الله الحق ، وهم عنه متخاذلون ، وفيه مختلفون . وماذا يقولون لو قال لهم الناس : أى دين تدعوننا إليه ؟ أدين أهل إيران ؟ أم دين أهل مصر ؟ أم دين أهل العراق ؟ أم دين أهل الحجاز ونجد ؟ أم دين أهل اليمن ؟ بل ماذا يقولون لهم إذا قالوا : أصلحوا أنتم بهذا الدين أنفسكم أولا ، ثم ادعوا إليه غيركم ؟ .

سيظل العالم بعيدا عن هَدْى الله ماظل حملة هذا الهَدْى عنه غافلين ، وفيه مفرطين ؛ وسيظل أهل الإسلام ضعفاء عن حمل لوائه ، عاجزين عن تجلية نوره ما داموا فى خلافاتهم متورطين ، وفى ظلمات عصبياتهم متخبطين .

وإذا كانت الرسالات الإلهية قد أنقذت البشرية فى أطوارها الأولى من العنصرين المفسدين اللذين تآمرا عليها ، فإن للعالم لأملا فى فئة من المصلحين تتمخض عنهم بلاد الإسلام ، فيصلحون ما أفسد الدهر ، ويرأبون ما أثأت يد الغفلات ! فقد تأذن الله ليبعثن فى هذه الأمة بعد حين من يجدد أمر دينها ، ويعيد إلى هذه الدعوة شبابها . وصدق الله العظيم : « فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا ؛ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

الركن الشرعى للجريمة
فى الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا

لا جريمة ولا عقوبة بغير نص :

من المبادىء الأساسية اليوم فى كل التشريعات الجنائية ، مبدأ يقضى بانه لا جريمة ولا عقوبة بغير نص . ويقصد بذلك أن الشخص لا يعاقب عن فعل أتاه إذا لم يكن معاقباً عليه فى ذلك الوقت ، كما أنه لا يعاقب عليه بعقوبة أشد من العقوبة التى كان يمكن أن يعاقب بها وقت ارتكاب الفعل . فإذا لم يكن الفعل الذى قام به معاقبا عليه ثم صدر قانون يحرمه بعد ذلك ، فلا تجوز محاكمته بعد صدور القانون الجديد . وكذلك إذا كان الفعل معاقبا عليه بعقوبة ما ثم صدر قانون لاحق يشدد العقوبة ، فلا يمكن معاقبة الجانى إلا بالعقوبة التى كان معمولا بها وقت ارتكاب الجريمة .

هذا المبدأ هو ما جعله علماء القانون ركناً من أركان الجريمة ، وأطلقوا عليه اسم : الركن الشرعى للجريمة . وقد نص الدستور المصرى على هذا المبدأ فى المادة السادسة منه ، فهى تقضى بأنه لاجريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون ، ولا عقاب إلا على الأفعال اللاحقة لصدور القانون الذى ينص عليها . وكذلك تنص المادة الخامسة من قانون العقوبات على أنه يعاقب على الجرائم بمقتضى القانون المعمول به وقت ارتكابها .

ولم يعمل بمبدأ شرعية الجرائم والعقوبات إلا منذ الثورة الفرنسية حين قررت حقوق الإنسان ؛ أما قبل ذلك فكان سلطان القاضى واسعاً . كان من

حقه أن يعاقب على الأفعال التى يرى العقاب عليها ، وأن يقدر العقوبة التى يراها هو مناسبة للجريمة .

والحكمة من تقرير هذا المبدأ هى أن يكون الأفراد على بينة من الجرائم التى يعاقب عليها القانون ؛ فإذا ارتكب شخص بعد ذلك جريمة من هذه الجرائم فقد وجب عليه أن يتحمل نتيجة ما جنت يداه . هذا فضلا عن أن علم الناس بالجرائم وعقوباتها يكون رادعاً لهم عن ارتكابها . ويضاف الى ما تقدم أن هذا المبدأ يمنع تعسف القضاء وباقى سلطات الدولة ، فلا يمكن أن يعاقب شخص على ما يباح لسواه ، كما لا يمكن أن يعاقب بعقوبة تختلف عن العقوبة التى يعاقب بها غيره .

ويؤخذ على هذا المبدأ أن المشرع لا يمكنه أن يحدد كل الأفعال التى يجب اعتبارها جرائم ؛ ولذلك كثيرا ما يستطيع المجرمون أن يتحايلوا على نصوص القانون ويأتوا أفعالا فى منتهى الخطورة ، ومع ذلك تقف الدولة عاجزة إزاءهم لأن نصوص القانون لا تتسع لعقاب هذه الأفعال . ولهذا السبب صدر فى ألمانيا سنة ١٩٣٥ قانون يعطى القاضى إذا رفع إليه فعل ارتكب ، وفيه مساس بالمجتمع الألمانى دون أن ينطبق عليه نص جنائى ـ سلطة اعتباره جريمة وتوقيع العقاب على فاعله . وقد بدأ علماء القانون الجنائى يعيدون النظر فى هذا المبدأ ، وقد كان محل بحثهم فى بعض مؤتمراتهم الدولية لمعرفة مبلغ حاجة المجتمع إليه ، ووجه عجزه عن حماية مصالحه .

وقبل أن ننتقل إلى بحث ما إذا كان هذا المبدأ معمولا به فى فقه الشريعة الغراء أم لا ، يجب أن نذكر أن الشريعة الإسلامية هى آخر الشرائع ، وواجب العمل بأحكامها فى كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد وضع الأحكام التى لاصلاح المجتمع إلا بها ، والتى لا يجوز أن يكون هناك خلاف على تحريمها ، وترك ما عدا ذلك لينظمه المشرع فى كل دولة حسب حاجاتها . ولقد قدرت آيات الأحكام فى القرآن الكريم بحوالى مائتى آية من مجموع آياته التى تبلغ حوالى ستة آلاف آية .

قد يقال لأول وهلة : إن الشريعة الإسلامية لا تعرف مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات ، لأنها تعطى القاضى سلطة التعزير فى الجرائم التى ليس فيها حد مقدر ، ولم تحدد له هذه الجرائم ولا عقوباتها ، بل تركت ذلك لاجتهاده وتقديره .

ويجاب عن هذا بما سبق ذكره من أن الشريعة الإسلامية لابد من أن تساير الزمن فى تطوره ، وأن تلاحق المجرمين مهما تفننوا فى محاولة الهرب من نصوص القانون ؛ كما أن القاضى مقيد بالأصول العامة للشريعة لا يستطيع أن يحيد عنها ، فلا يجوز له أن يستحسن القبيح ، ولا أن يحرم المباح . هذا فضلا عن أن هذا المبدأ قد صار محل بحث العلماء ، ولو أن الشريعة نصت على هذا المبدأ وجعلته لازما ، لاستحال الرجوع عنه فيما لو أثبت الزمن عدم إمكان تطبيقه على وجه مطلق .

وإذا كانت الشريعة لم تضع هذا المبدأ أو تنص عليه ، إلا أنه ليس فى أحكامها ما يتنافى معه . وفى هذا المعنى قال الأستاذ الشيخ المراغى رحمه الله فى كلمة افتتاح أعمال اللجنة التى عهد إليها وضع قانون جديد للأحوال الشخصية : « نعم إنه وإن كان تخير الأحكام حسنا وعمل به من قبل ، إلا أن ترك الحرية للقضاة يختارون ، يعدو فى الحقيقة قوانين الدولة الواحدة والأمة الواحدة ، ويجعل الناس حيارى لا يدرون على التحديد أو التقريب القانون الذى يطبق على أقضيتهم عند التنازع . وقد شعر الناس قديما بضرر ذلك ، وبوجوب اتباع قانون واحد يسرى على المملكة الواحدة ، فمن الواجب أن يتخير القانون ، وأن يحمل القضاة على اتباعه . الخ »[1]

وقد تعرض أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد بك إبراهيم لهذا الموضوع فقال : « قدمنا أن التعزير ليس فيه تقدير ، بل هو مفوض إلى رأى القاضى ، وكذا نوعه . وقد أوردنا ما قيل فى تحديده بالنسبة لطبقات الناس ، على رأى بعض الفقهاء .

---

(١) القضاة فى الاسلام للأستاذ مشرفه ص ٧٩ .

« بعض الملاحظات : والآن أقول : إن القاضى بهذه السلطة الواسعة يحل محل الشارع فى اختيار نوع العقوبة وتقديرها ثم يقضى بما يراه . وبهذا تكون العقوبة التى يقضى بها أقرب إلى العدل ، إن لم تكنه ، إذا كان القاضى حسن التقدير موفقا عالما بمعزل عن الهوى أما لو وضعت قواعد لمقادير العقوبات وأنواعها ووزعت على الجرائم على حسب اختلافها ، وقيد المشرع القضاء بما يشرعه له من ذلك ، لكان فى هذا نبوة عن الدقة فى تقدير العقوبة ، لأن حادثتين من نوع واحد ، كاعتداء بضرب أو شتم من شخص على آخر ، محال أو يندر جدا أن تتشابها من جميع الوجوه ، فكيف يكون الجزاء فى كل منهما واحدا ؟ قد يقال إن قواعد العقوبات لها طرفان حاشا عقوبة الأعدام ؛ فباجتهاد القاضى وبما يقتنع به ، وبما ترتاح إليه نفسه ويرضى ضميره ، يقدر العقوبة داخل حدود قاعدتها ؛ وبهذا يقل الاضطراب ولا تتسع مسافة الخلف بين عقوبات الجرائم التى من نوع واحد وفوارقها قليلة . ويجاب عن هذا بأن الطريق الأول هو الأعدل إذا سير فيه السير القويم ، ولكن هيهات ! فى رأيى أن التقيد بالقواعد هو الطريق الأسلم ، كما لا يخفى . فإن قيل : إذا كان الأمر كذلك فلم لم يضع الشارع الإسلامى قواعد لضبط العقوبات التعزيرية ؟ أقول : إن ترك الشارع وضع قواعد لذلك من حيث النوع والمقدار والتوزيع ، لهو عين الحكمة والصواب ، ودليل على أنه عليم حكيم يريد ما هو الصالح والأصلح لعباده فى شئونهم الدنيوية فى كل زمان ومكان ؛ فلو وضع لذلك قواعد لوجب العمل بها على جميع من يدين بالإسلام حتى يوم القيامة . ومعلوم أن المجتمع الإنسانى لا يستقر على حال من التغييرات تحت تأثير العوامل المختلفة من داخله ومن خارجه ، فكان من مقتضى الحكمة والرحمة بالناس أن يراعى هذا فى التشريع بالنسبة لأحكام الشئون الدنيوية ، فيترك لأهل كل عصر مايرونه الأصلح لهم ، مع الاحتفاظ بقواعد الدين الأساسية التى هى خير أساس لبناء الأحكام الصالحة فى جميع الأزمنة والأمكنة . أمر بالعدل والإحسان ، ونهى عن أن يظلم الناس بعضهم بعضا ، وأن يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل ، إلى غير ذلك من القواعد التى يجب الاعتماد عليها على الدوام »[1].

---

(١) أحكام المرأة فى الاسلام ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ بحث منشور بالسنة السادسة من مجلة القانون والاقتصاد

من هدى الاسلام :

من أين لك هذا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر
المدرس بمعهد القاهرة

أشرت فى كلمتى السابقة تحت هذا العنوان إلى الأصل الذى لا يمكن أن نبنى عليه التشريع الحكيم لمحاسبة الموظفين عن مصدر أملاكهم ومن أين جاءت لهم، وهذا الأصل هو مصادرة الرسول هدية أعطيت لبعض عماله وضمها للأموال العامة . ومعنى هذا أن الرسول قد اعتبر كل مال اكتسب بسلطان الوظيفة زيادة عن المقرر لها من الدولة ، إنما هو من الأموال العامة التى لا يحل للفرد امتلاكها . وفى هذا يقول الرسول عليه السلام صراحة « من استعملناه على عمل ورزقناه رزقا ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » (خيانة) . والأخذ طبعا هنا من الشعب بسلطان الوظيفة ، كما تشير الحادثة التى قيل بشأنها هذا الحديث .

وأريد فى هذه الكلمة التى وعدت بها ، أن أسرد بعض الحوادث والأحكام التى بناها الخلفاء على هذا الهدى النبوى الكريم . وإننا نجد فى تاريخ عمر رضى الله عنه مكانا خصبا للاستشهاد بما يكفينا ويقنعنا بأن هذا المبدأ مبدأ إسلامى . ولقد قيض الله للمسلمين عندما اتسعت رقعة بلادهم وفتحت عليهم الأمصار ومدت لهم الدنيا أذرعتها ، قبض لهم الله عمر صاحب العقلية التشريعية الفريدة التى استطاع بها أن يواجه الحوادث الجديدة بتشريعات حكيمة ، لا تزال للآن موضع فخر التشريع الإسلامى ، ومبعث دهش كبار المشرعين فى العالم كله . ولقد وقف عمر رضى الله عنه بين المسلمين وبين الانحدار للدنيا ، فكان من هذه الوقفات المشهودة وقفته لعماله الكثيرين يحاسبهم ويكشف من أحوالهم ما يجعلهم دائما تحت سمعه

وبصره ، ويأخذهم بالحزم والعدل حتى يكونوا مثلا لغيرهم ورسل رحمة وإرشاد ، فلا يزهون بسلطان الولاية على المسلمين ، ولا يستغلونهم ليملؤا خزائنهم .

والهدايا دائما هى الباب الذى ينفذ منه المغرض ليصل الى غرضه عند الحاكم ، وهى اللفظ الخداع الذى يموه به على العقول فتقرب الغاية لصاحبها ، ويتهرب الحاكم وراء لفظها الشفاف ، ويتستر ويخادع نفسه ليقبل الجريمة ! . وهى فى حد ذاتها مباحة ، ولكنها فقط بين الأحباب والأقارب والأصدقاء ، تمكينا للروابط القديمة ، وتعزيزا للصداقة ، وتوكيدا للود ، وقد يندب الشرع لها ويحث على تبادلها لهذه المعانى الكريمة الفاضلة . أما إذا تجاوزت هذه المعانى وقصد بها تحقيق مأرب خاص فإنها تكون قد خرجت عن المعنى الذى أبيحت من أجله وتكيفت بتكييف خاص بها ، ودخلت فى باب الرشوة المحرمة . وأعتقد أن من السهل على الانسان فى الغالب التمييز بين هذا وذاك بحسه وفطرته .

ولتلك المعانى الكريمة قَبِل الرسول عليه السلام وخلفاوه بعض الهدايا حتى حدث لعمر رضى الله عنه حادثة حملته على أن ينبه على عماله ويكتب اليهم مشدِّدا فى وجوب رد الهدايا وفى عدم قبولها من أفراد الشعب : فقد أهدى رجل لعمر رضى الله عنه فخذ جزور ، فقبلها ، ثم ساقته ظروفه الى أن يخاصم رجلا أمام أمير المؤمنين ، فقال لعمر رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلا كما يفصل الرِّجْلُ من سائر الجزور . وأمير المؤمنين كيس فطن ، فتنبه إلى ما يريد الرجل من هذا الكلام ، وعرف منه أنه يريد أن يراعى فى حكمه تلك الهدية التى أهداها اليه قبل ذلك ، والتى أشار اليها إشارة خفية على غير أمير المؤمنين ، فيحكم له مراعيا دلال المُهدِى على المهدَى اليه ، ويحيد عن الحق تحت تأثير الهدية التى مال بها الرجل عن المعنى الشريف منها . وهنا يحس أمير المؤمنين الخطر الذى يستهدف له الحق والعدل من الهدايا فيصدر حكمه أولا فى هذه القضية على الرجل صاحب الهدية ، لأنه لم يكن صاحب الحق ، وإلا لما لجأ لتأثير هديته يستجدى من أجلها ، لا من أجل العدالة ، الحكم له . وبعد أن أصدر الحكم كتب الى عماله ونوابه فى الأمصار يحذرهم وينبههم ويضع الهدية من أفراد

الشعب الى حكامه موضعها ، ويكشف لهم عما يقصده الناس منها ، ويبين لهم على هذا الأساس حكمها ، فيقول لهم فى كتابه : « إياكم والهدايا فإنها من الرشا » ، ولكن كيف يقبل عمر رضى الله عنه الهدية بعد الذى حدث من الرسول مع العامل الذى قبلها ؟ !

لقد قلت فيما سبق : إن الهدية فى ذاتها مباحة ، بل قد يحث الشرع على تبادلها لتمكين الروابط بين الأصدقاء وذوى القربى ، فلعل قبول عمر لهدية الرجل لصلة له به من الود والصداقة ، وإن كان الرجل قد مال بها عن غرضها الشريف ، وكشف نفسه أمام أمير المؤمنين ، فكان ما كان .

وقد أخذت منا الهدايا وقتا كثيرا ، ولا بأس ، فهى الخطر الناعم الملمس الذى يقضى على الحق والعدل ، وإن كان هناك أبواب أخرى غيرها تمتلىء منها جيوب الحكام .

فلنعرض بعد ذلك الدستور الاسلامى الذى أخذ به عمر عماله على الأمصار ، فاستقام العدل فى الدولة ، وتوفر للفرد البسيط الأمن والاطمئنان ، وإذا كان رضى الله عنه قد أخذ نفسه بالزهد والتقشف فإنه كان يؤثر ذلك أيضا فى عماله ، ويختار - فى الغالب - من الأكفاء أكثرهم زهدا وورعا وتقشفا ، ثم لا يدعهم مع ذلك - لما ظهر منهم وعرف عنهم ، بل اتخذ بينه وبينهم دستورا ونظاما ، فكان يحصى أموالهم قبل أن يتسلموا أعمالهم فى ولاياتهم ويعرفها ، ثم يرصد أحوالهم ويعرف ما زاد من ثرواتهم بوساطة مفتش ماليته « محمد بن مسلمة » ، ويشاطرهم هذه الزيادة التى طرأت على ثرواتهم بعد أن تولوا الحكم ، ولعله لم يعمد الى مصادرة الزيادة كلها أخذا بالأحوط ؛ لما كان يدعيه بعض الولاة بل كلهم من أن الزيادة نتجت عن تشغيل أموالهم ، أو أنها نتاج أفراسهم ومواشيهم ، فكان يقسم الزائد مناصفة بين الوالى وبين بيت المال .

وقد حدث ذلك لكثير من ولاته ، نذكر منهم عمرو بن العاص والى مصر ، وأبا هريرة عامله على البحرين ، وسعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد .

فقد علم أن عمرو بن العاص والى مصر قد تغيرت حاله وثروته بعد أن ولى الحكم ، فأكثر من المتاع والرقيق والآنية ، واقتنى كثيرا من الحيوانات ، فلما خوطب فى شأن هذا من أين له ؟ دافع عن نفسه بأن أرض مصر أرض خصبة يحسن فيها الزرع وتنمو بها التجارة ، كما أن هذه الزيادة أثمان خيل تناتجت وسهام اجتمعت ، وأنه كان يبقى من مخصصاته ما ساعده أيضا على إيجاد هذه الثروة الطارئة ، ومع كل هذه الأعذار لم يسلم عمرو بن العاص من حساب عمر ، فقد أرسل له مفتش ماليته « محمد بن مسلمة » فأحصى أمواله وعرف الزائد عما كان له حين ولى الحكم وقاسمه فيه .

أما أبو هريرة عامله على البحرين فقد اجتمع له مال كثير ادعى أنه تجمع له من نتاج خيله وربح تجارته . فقال له عمر رضى الله عنه : انظر رأس مالك ورزقك فخذه ، واجعل الباقى فى بيت المال . واشتد على أبى هريرة حتى تحاشا بعد ذلك أن يلى عملا له ، وقال ردا على هذه المبررات التى اتخذوها : إنما بعثنا كم ولاة ولم نبعثكم تجارا . ومرّ رضى الله عنه ببناء يبنى بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فذكروا له عاملا على البحرين . فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . . . ! وشاطره ماله .

كانت هذه سياسة عمر مع جميع عمّاله لم يفلت منهم أحد مهما كانت سابقته ومهما بلغ بلاؤه وجهاده فى سبيل الإسلام ؛ فسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، وهم قواد الدولة الإسلامية الجديدة ، حاسبهم عمر وشاطرهم أموالهم ، ولم يشفع لهم أنهم أسسوا للإسلام هذه لامبراطورية الواسعة التى تدفقت منها الأموال على المدينة ، وأقاموا على كواهلهم بناءها الشامخ .

وعمر فى هذا كله يرمى إلى غرض واحد وسياسة حكيمة ، هى أن يحول بين المسلمين ، وفى مقدمتهم الولاة ، وبين الإغراق فى النعيم الذى أقبل عليهم من كل جانب بعد أن كانوا محرومين منه ، وأن يحجزهم من الوقوع فيما خافه الرسول عليهم من بعده ، أن تفتح عليهم الدنيا خزائنها فيتسابقوا إلى الاغتراف منها والوقوع فى محارمها .

ولعل هذا الغرض هو الذى كشف عنه عمر نفسه حين بلغته شكوى أعلام قريش من حجزهم فى المدينة فقال « ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ؛ إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وَحُجَزِهَا أن يتهافتوا فى النار » .

وبعد ، فهذا هو مبدأ محاسبة المالك من أين ملك ، أو مبدأ المصادرة كما يطيب لبعض المؤرخين والمشرعين تسميته ، وضع الرسول أساسه ؛ وتوسع فيه ونظمه عمر ، أبو التشريع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طبقه على الولاة خوفا على رعيته من الظلم والاستغلال ، وحفظا لكيان الدولة الاسلامية من الانهيار والانحلال ، فبقيت الدولة حتى آخر عهده سليمة قوية البنيان .

ونستطيع نحن إذا أردنا لأمرنا صلاحا ، ولدولتنا نهوضاً ، ولأمراضنا الاجتماعية دواء ؛ أن نقتبس هذا التشريع الاسلامى لنعالج به أخطر داء نشكو منه ونئن ، ونطبقه على جميع موظفى الدولة صغارهم وكبارهم ، لنقضى على الفوضى التى تسيطر على جميع مرافق الدولة من هذه الناحية ، ونقتل فى النفوس روح الجشع والاستغلال ، ونربى فيها روح العفة والنزاهة والعمل والكد ، أداءً للواجب ، وإرضاءً لله .

ونستطيع كذلك أن نتوسع فى هذا التشريع بما لا يخرج عن الهدف الذى جعل من أجله ، وهو إشاعة العدل والاطمئنان فى النفوس ، فنجعله تشريعاً عاما يحاسب فيه الأفراد كالموظفين عن مصدر ثرواتهم ، فنوقف بذلك جشع الأوصياء ونحارب به أولئك الذين يكونون ثرواتهم من طرق لا يقرها دين ولا يرضاها ضمير ، ثم يتطاولون على الشرفاء ، ويقتلون معانى الجد والرجولة والوفاء فى نفوس المجدين الأوفياء .

بهذا ننهض ، ونعيدها عمرية فى أمنها ، وطمأنينتها وعدالتها !

فهل من مدكر ؟ ! . نرجو . . . والله ولى التوفيق .

المصلح الاجتماعى

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

قيمة المصلح الاجتماعى فى الأمة لايدرك سموخطرها ، وعظم شأنها ، وضرورة الحاجة اليها ، إلا من يعرف معنى الإصلاح ، ويفهم لزومه للنهوض . وعلى قدر الإحساس بذلك كله يضع المصلح نصب عينه رسالته التى يجب أن يؤديها ، وأهدافه التى يرمى اليها ، فلا ينحرف قيد شعرة ، ولا يميل مثقال حبة من خردل . ولأن هؤلاء الذين يوكل اليهم القيام بهذه المهمة لا يكونون من الرجال المألوفين ، أو الأفراد المعهودين ، بل من أولئك الذين يندر مثالهم ، ويقل ـ عادة ـ وجود من على شاكلتهم ـ كان حسابهم عسيرا ، ومؤاخذتهم شديدة ، والنظر الى سلوكهم من الأشياء التى يحسب لها ألف حساب . ولا تزال الأجيال المتعاقبة ، والجماعات المختلفه ، فى العصور القديمة والحديثة ، تعَوِّل على الداعية المرشد ، والقائد المتزعم ، بما لاتعول به على غيره من سواد الشعب ، ودهماء الناس. ذلك لأنه فى نظرها القدوة التى تتبع ، والمثال الذى يحتذى ، والمصباح الذى عنه يكون الإشعاع الهادى « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىّ عن بينة » . والذى عرف عن العرب ـ مع جاهليتها الجهلاء ـ أنها كانت تنتقى سفراءها ، وتختار زعماءها ، وتصطفى من تعهد اليهم أمر التحكيم فى الخصومة ، أو الفصل فى النزاع القائم ، بحيث لا يكون فيهم جنف ، ولا يوصفون بفهاهة أو عى ، وهم مع ذلك كله أصحاب سيرة حميدة ، وماض مجيد .

وقد رأينا القرآن الكريم يتصدى لذلك فى موضعين اثنين هما فى الواقع أهم ما يتميز به المصلح ، وتقوم عليه دعامته كقائد يأخذ بيد شعبه إلى الصراط المستقيم : الموضع الأول : ما تسميه الأساليب الجديدة للتربية « بالقدوة » ويشير إلى هذا فى آيتين « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » والأخرى « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . والموضع الثانى يتعلق بالاستعداد الشخصى ونعرفه من خبر موسى عليه السلام إذ أرسله ربه إلى بنى إسرائيل ، فلم ير أن يكون

ذلك دون أن يُعزِّزه بمن يتحمل عنه مؤنة البراعة فى المنطق، واللدد فى الخصومة، والإفحام فى الحجة «وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون »، ولا شك فى أن هاتين صفتان من الصفات التى تقوم فى المصلح الاجتماعى مقام النخاع الشوكى للإنسان، وهما وإن كانا ليسا كل شىء إلا أنهما أهم الأشياء التى لا بد من توفرها ولا غنى عن وجودها .

وهما من الصفات التى يكمل إحداها غيرها حتى يتعسر الانفصال ، ويتعذر الانفراد، فلا حسن الأسوة وحده يكفى لأن يكون المصلح مطمح الأنظار، ومحل الاعتبار ومناط التقدير، ولا فصاحة المنطق ـ كذلك ـ تكون الدعامة التى يقوم عليها الاحترام . وفى كثير من الأحوال نرى الفقر من إحدى تلك الصفتين مزريا معيبا، حتى لينفر الناس من الداعية، وينفضوا من حول المصلح؛ ثم ينسبون له الفشل، ويصفونه بالإخفاق، ولكن براعة اللسان وفصاحة البيان وقوة الحجة، واستقامة المنطق، أشبه بالسلاح ذى الحدين يستعمله صاحبه فى الخير والشر على السواء؛ ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استعمال ذلك فى تمويه الحقائق، وقلب الأوضاع، إذ يقول «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وفى حديث آخر للرجل الذى يعول على اللحن فى حجته دون أن يكون الحق فى جانبه ليكسب القضية «فإنما هى قطعة من النار».

وما أظن أساليب الدعوة إلى الإصلاح بلغت فى عهد من عهود التاريخ ما بلغته فى عصرنا الذى نعيش فيه؛ لأنه إذا كان معوَّل القدماء فى الهداية والإرشاد على الخطابة فى المنتديات والمحافل، فإننا الآن نكتب فى الصحف والمجلات، ونتحدث فى المذياع، ونستخدم الوعاظ فى المدن والأرياف، ومع هذا كله نشعر بالنقص الفاضح فى سلوكنا الأدبى، أو نشاطنا الاجتماعى؛ ذلك لأننا نحتاج إلى الإيمان العميق الصحيح فيما ندعو إليه.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن قادة الفكر ، وحملة المشاعل ، هم علة العلل فى هذا النقص، لأنهم لا يجعلون الدعوة أكثر من « وظيفة » يرزقون منها، وآلة يتكسبون بها، وترى الإيمان بصوابها ، والاعتقاد فى أحقيتها، وما شابه ذلك كله . حديث خرافة ؛ ولهذا فإن العلاج إذا ابتدأ من هذه الناحية يبتدىء من الرءوس لا من الأرجل، ويصيب الأهداف الصحيحة . . . ولكنى أعتقد أننا لا نصل الى ذلك فى يوم من الأيام مادمنا غير قادرين على مجابهة الحقائق، ومواجهة أصل الأمراض . هدانا الله ووفقنا الى الصراط السوى، إنه تعالى سميع مجيب ؟

باب الأسئلة والفتاوى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

١ — قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » كيف صلى الله على نبيه وهو عبد له ؟

٢ — قال الله تعالى : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » ما معنى الاستواء ؟ أرجو الإفادة .

محمد على قشير

الجواب

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة :

عن السؤال الأول : بأن أحسن ما قيل فى معنى صلاة الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أنها الثناء عليه ، وتعظيمه ، والإشادة بذكره . فمعنى قوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبى » أنه تعالى وملائكته يثنون عليه ويعظمونه ، ويشيدون بذكره ويكرمونه ، وهذا المعنى لا يتنافى مع عبودية النبى صلى الله عليه وسلم لله عز وجل كما هو واضح .

وأما الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم التى أمر بها المؤمنون فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » فمعناها أن يسألوا الله سبحانه وتعالى دوام الثناء عليه ، وإظهار فضله وشرفه .

أما عن السؤال الثانى : فقد أجاب عنه حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى حينما كان مفتيا للديار المصرية بجواب تختاره اللجنة ، وها هو ذا نص السؤال الذى عرض على فضيلته والجواب عنه :

سأل محمد عبد الرازق عوض بالآتى :

ما قول علماء الإسلام وحماة الشريعة المحمدية أدام الله مجدهم وأعلى كلمته بهم فيمن اعتقد فى صفات الله وأفعاله ؛ كاستوائه على عرشه ، وفوقيته ، وغير ذلك مما ذكر فى القرآن أو السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظاهر الآيات والأحاديث ، وأن تفسيرها هو ظاهرها ، مع اعتقاد التنزيه ونفى المماثلة والتشبيه للحوادث ؛ هل هو مصيب فى اعتقاده هذا ، أو مخطىء ؟ وإذا كان مصيبا فما حكم من قال له : إن امرأتك طلقت من أجل اعتقادك هذا ؟ .

أجاب

اطلعنا على هذا السؤال ، ونفيد بأنه متى آمن الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى منزه عن كل ما يوجب نقصا أو حدوثا ، وحمل ما جاء فى الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » على ظواهرها ، بمعنى أن المراد بها ما يليق به سبحانه وتعالى ويناسبه ، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عما تستلزمه إذا نسبت الى الحوادث من الجسمية والتحيز والمماسة وغير ذلك - فليس عليه شىء ، بل هو قد اتبع سبيل السلف الذين يحملون هذه الآيات وما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث على ما يليق به سبحانه وتعالى ، مع تنزيهه عن كل ما يوجب نقصا ، أو يقتضى حدوثا . قال الكمال بن الهمام فى المسايرة : الأصل الثانى : أنه تعالى استوى على العرش مع الحكم بأنه ليس كاستواء الأجسام على الأجسام ، من التمكن فى المماسة ، والمحاذاة ؛ بل بمعنى يليق به هو سبحانه أعلم به . وحاصله وجوب الإيمان بأنه استوى على العرش مع نفى التشبيه . فأما كون المراد أنه استيلاؤه على العرش ، فأمر جائز الإرادة ، إذ لا دليل على إرادته عينا ؛ فالواجب عينا ما ذكرنا . . . إلى أن قال : وعلى نحو ما ذكرنا كل ما ورد

مما ظاهره الحسية فى المشاهد ، كالأصبع والقدم واليد . فإن اليد ، وكذا الأصبع وغيره ، صفة له تعالى ، لا بمعنى الجارحة ، بل على وجه يليق به ، وهو سبحانه أعلم به ا هـ .

وقال الحافظ ابن حجر فى شرحه على البخارى ما نصه :

وقال البيهقى : منهم من قال : العين صفة ذات كما تقدم فى الوجه ، ومنهم من قال : المراد بالعين الرؤية ، فعلى هذا فقوله « ولتصنع على عينى » أى تكون بمرأى منى ، وكذا قوله « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » : أى بمرأى منا ، والنون للتعظيم . ومال إلى ترجيح الأول ، لأنه مذهب السلف . إلى أن قال نقلا عن ابن المنير : ولأهل الكلام فى هذه الصفات ، كالعين والوجه واليد ، ثلاثة أقوال : أحدها : أنها صفات ذات أثبتها السمع ولا يهتدى إليها العقل . والثانى : أن العين كناية عن صفة البصر ، واليد كناية عن صفة القدرة ، والوجه كناية عن صفة الوجود . والثالث : إمرارها على ماجاءت مفوضا معناها إلى الله تعالى . ثم قال : وقال الشيخ شهاب الدين السهروردى فى كتاب العقيدة له : أخبر الله فى كتابه ، وثبت عن رسوله : الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى . قال الطيبى : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح .

وقال غيره : لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شىء من ذلك ولا المنع من ذلك ، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه « اليوم أكملت لكم دينكم » ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله « ليبلغ الشاهدُ الغائبَ » حتى نقلوا أفعاله وأقواله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته ، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذى أراده الله منها ، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى « ليس كمثله شىء » . فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم . وبالله التوفيق . انتهت عبارة الحافظ ، رحمه الله ، والحمد لله .

وأما الاختلاف فى كون حمل هذه الآيات وما ثبت وروده عن رسول الله على ما يليق به سبحانه وتعالى ، مع تنزيهه سبحانه تعالى عن كل نقص ، من قبيل حمل اللفظ على خلاف ظاهره ، أو على ظاهره ، فخلاف لفظى ؛ إذ من قال : إنه على خلاف ظاهره ، نظر إلى أن الظاهر ما هو المعهود فى الشاهد . ومن قال : إنه حمل للفظ على ظاهره ، نظر الى أنه إذا نسب إلى الله ، كان المراد به ما يليق به سبحانه وتعالى ، كالعلم ؛ فإنه إذا نسب إلى الحادث كان الظاهر منه عَرَضاً يقوم بالنفس ينقسم إلى ضرورى ونظرى ؛ وإذا نسب الى الله سبحانه وتعالى كان الظاهر منه صفة كمال هى مبدأ الانكشاف لا مماثلة بينها وبين علم الحوادث ، وغير ذلك من الصفات ؛ فكذا يقال فى الاستواء والوجه واليد والأصبع والنزول والفوقية وغير ذلك ؛ فإنه يراد بها ما يليق به سبحانه وتعالى ويناسبه مما لا يقتضى نقصا أو يستلزم حدوثا .

ومن هذا يتبين أن من اعتقد فى صفات الله تعالى وأفعاله كاستوائه على عرشه ظاهر الآيات والأحاديث بالمعنى الذى قلناه ، مع اعتقاد التنزيه ونفى المماثلة والتشبيه للحوادث ، مصيب فى اعتقاده . ومن قال : إن امرأته طالق من أجل اعتقاده فهو مخطىء جاهل بمذهب أهل الحق . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى
عبد المجيد سليم

القائد الحكيم

قال العتبى : جاشت الروم وغزت المسلمين برا وبحرا ، فاستعمل معاوية على الصائفة (هى الغزوة فى الصيف) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . فلما كتب له عهده ، قال له : ما أنت صانع بعهدى ؟ قال : اتخذه إماما لا أعصيه . قال : اردد علىّ عهدى . ثم بعث الى سفيان بن عوف العامرى فكتب له عهده ، ثم قال له : ما أنت صانع بعهدى ؟ قال : أتخذه إماما أمام الحزم ، فإن خالفه خالفته . فقال معاوية : هذا الذى لا يُكفكف عن عجلة (أى لا يُرد) ، ولا يُدفع فى ظهره من خوَر ، ولا يَضرب على الأمور ضرب الجمل الثّفال (أى البطىء الحركة) .

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
مبعوث الأزهر لتدريس علوم الدين
بكلية المقاصد الإسلامية
فى صيدا ـ لبنان

الألفاظ أوعية المعانى ، ولكل معنى لفظ يدل عليه ، ويعبُر عن طريقه الى الذهن ، والألفاظ بما تحمل من المعانى ثروة بين الجميع على سواء ، لا يعنّ لمتكلم معنى يريد التعبير عنه إلا وفى ألفاظ اللغة ما يسعفه ويكفى لطلبته .

وقد كان ذلك مدعاة أن لا يفضُل كلام كلاما ، أن لو كان الأمر على ذلك فى الألفاظ المجتمعة كمثله فى الألفاظ المفردة ، لكن لما كان اجتماع الألفاظ مجالا لخصائص وزيادات تحدث فى أصول المعانى ، كان تفاضل الكلام بحسب تفاوته فى اشتماله على هذه الخصائص والزيادات ، فلا يزال الكلام يترقى بها الى أن يبلغ حد الإعجاز أو ما يقرب منه ، ولا يزال يسفل بفقدها الى أن يلتحق عند البلغاء بأصوات العجماوات وإن كان صحيح الإعراب .

ولم يقتصر القرآن الكريم فى طلاوته وبلوغه حد الإعجاز على أدائه المعانى بعبارات مشتملة على أعلى هذه الوجوه والخصائص المعروفة التى بها يطابق الكلام مقتضى الحال مع فصاحته ، بل إنه أتى فى هذا الباب بشىء عجيب طريف لا يتأتى فى غيره إلا متابعة له أو اقتباسا منه ؛ ذلك هو تمكين المعنى بوضع الجملة وحس الكلمة ، وهيئة التراكيب وأجراسها الصوتية ، وفواصل الآيات ومقاطعها ، حتى ليتناسب التعبير مع المعبر عنه ، وتساعد الجمل والكلمات بوضعها وكيفياتها على تصوير المعانى وتجسيمها .

انظر مثلا الى قوله تعالى فى سورة الرحمن « أن لا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان » . الطغيان فى الميزان : الزيادة فيه ، والإخسار له : النقص منه ، وبين الزيادة فيه والنقص منه طريقة وسطى هى إقامته بالقسط . الجملة الأولى نهى عن الطغيان ، والجملة الأخيرة نهى عن الإخسار ، والجملة الوسطى أمر بالقسط ؛ وفى مجيئها وسطى فى الوضع مع أمرها بالطريقة الوسطى موافقة الوضع للمعنى ، ومحاذاة فى صورة التعبير لصورة المعبر عنه .

وقريب منه مافى سورة هود من قول شعيب لقومه « ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم » حيث وقعت جملة الأمر بالقسط فى المكيال والميزان وسطى بين جملتى النهى عن النقص منه .

وانظر مثلا آخر : قول الله سبحانه فى سورة الشورى « يخلق ما يشاء ؛ يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما » كيف جاء لفظ الإناث والذكور على التنكير فى سائر الألفاظ إلا فى موضع واحد وقع فيه تعريف الذكور « بأل » . قد يقال : إنها الفاصلة . نعم ووراء الفاصلة سر آخر : حجر الأساس ، وجيب الزاوية فى هذا الوجود ، هم الذكور : الرسالات ، العلم ، الملك ، قيادة القافلة الإنسانية ـ يدور الأمر فى ذلك كله على كاهل الذكور . خلق الله آدم قبل حواء ، الرجال قوامون على النساء ، للذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين ؛ لابدع بعد ذلك أن يكون الذكور أعرف من الإناث ، وأن يكون التعريف فى هذا اللفظ خاصة للإشارة الى ما ذكر من متعلقات مدلوله .

وانظر مثلا آخر : قول الله فى سورة الأنعام الآية (٩٩) : « والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » ، والآية (١٤١) من السورة نفسها : « والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه » لم يخرج العبارتين فى الآيتين ـ وهما لمعنى واحد ـ على ألفاظ واحدة هى هى ، ولكنه أخرجها على ألفاظ متشابهة كأنها هى . فالألفاظ واحدة إلا ما كان فى التركيب الأول من الاشتباه بدل التشابه ، والاشتباه غير التشابه فى التلفظ ونظام الحروف ، لكنه عينه فى الأصل والمعنى بدليل المقابلة بينهما .

وهذه المغايرة اللفظية أوجدت شبها بين اللفظين فى تركيب واحد، وشبها آخر بين التركيبين فى الآيتين؛ فكانت الكلمات الدالة على تشابه الزيتون والرمان نفسها متشابهة؛ فكان ذلك من تصوير التعبير بصورة المعبر عنه، ومحاذاة فى الصورة اللفظية للصورة المعنوية.

وانظر مثلا آخر: إلى الكلمات الأربع «اثاقلتم» فى قوله تعالى فى سورة التوبة «يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض». و«أنلزمكموها» فى قوله تعالى فى سورة هود «قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُـمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون». و«يصطرخون» فى قوله تعالى فى سورة فاطر فى أهل النار «وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل» و«مصيطر» فى قوله تعالى فى سورة الغاشية «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر» - كيف أن الكلمة الأولى بما فيها من إبدال وإدغام واجتلاب همز الوصل توصلا للنطق بالساكن وثقلها فى النطق، بعد ذلك كله كانت أبرع وأبدع تصوير لهذا الثقل المراد تصويره، ثقل البطىء الذى عليه مثل الجبال من الكسل، فلا يخف لما يؤمر به. هذا التصوير الذى لم يكن ليكون لو كان التعبير على الأصل بقوله «تثاقلتم».

وكيف أن الكلمة الثانية بكثرة حركة الضمة فيها [1] وتكرر بعض حروفها، كانت خير تصوير لما يكون من الثقل على الملزم بشىء هوله كاره؛ هذا التصوير الذى لم يكن ليكون لو كان التعبير بقوله «أنلزمكم إياها [2]».

وكيف أن الكلمة الثالثة بغلظ جرسها وقوة منطقها وحروفها، كانت خير تصوير لقوة الصراخ المنبعث عن شدة الهول والفزع من أهل جهنم؛ هذا التصوير الذى لم يكن ليكون لو كان التعبير بقوله تعالى «يصرخون فيها».

وكيف أن الكلمة الرابعة كسابقتها تصور بقوة جرسها وغلظ حروفها هيمنة المسيطر على المسيطر عليه؛ هذا التصوير الذى أعان عليه إبدال السين صاداً

(١) الضمة أثقل الحركات.

(٢) ظاهر كلام النحاة أن الفصل والوصل فى هذا الضمير جائزان على سواء.

كما أبدلت تاء الافتعال فى سابقتها طاءً ، والطاء فيها من القوة والغلظ ما ليس فى السين والتاء ..

وانظر مثلا آخر : قوله سبحانه وتعالى : فى سورة النجم « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى » فإن الكلمة الأخيرة فى أصلها وحشية عسيرة ثقيلة لى اللسان ، لكن مجيئها هذا المجىء جعل لها من الروعة والرونق ، ما جعل الرافعى [1] يقول فيها « كانت غرابة اللفظ أشبه الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرت ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى والتهكم فى الثانية ، وكان هذا التصوير أبلغ البلاغة ، وخاصة فى اللفظة العربية التى تمكنت فى موضعها من الفاصلة ، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى أسفل وإلى أعلى ، وجمعت الى ذلك كله غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية »

وقريب منه قوله تعالى : فى سورة آل عمران « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضّوا من حولك » « فإن النحاة يقولون إن « ما » زائدة أى فى الأعراب ، فيظن من لا بصر له أنها كذلك فى النظم ، ويقيس عليه ، مع أن فى هذه الزيادة لونا من التصوير لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ؛ فإن المراد بالآية تصوير لين النبى لقومه وأن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد فى « ما » وضعا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه ، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها فى بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ « رحمة » مما يلفت النظر الى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة ، وذلك كله طبيعى فى بلاغة الآية كما ترى [2] » .

وانظر مثلا آخر إلى القرآن كله نظرة إجمالية تتفحص فيها مدنيه تارة ومكيه أخرى ، فإنك واجد أن لكل قبيل فى أغلب أمره مسحةً تغلب عليه وظاهرة تنتظمه . فالمدنى طويل السور طويل الآيات ، هادىء الأسلوب رقيق العبارات ، لين الفواصل والمقاطع ، وذلك أنسب شىء بما يتضمنه من الأحكام الشرعية والقوانين الفقهية

---

(١) إعجاز القرآن . (٢) المرجع نفسه .

والمطارحات العلمية ، مع أهل الكتاب . والمكى قصير السور ، قصير الآيات ، عنيف الأسلوب ، قوى الفواصل والمقاطع ، ألفاظه شديدة الجرس ، سجعه قوى صاخب كأنه موج يهدر ؛ وذلك أنسب شيء بما تضمنه من النذر القارعة ، والزواجر الرادعة ، والمواعظ الجامعة ، التى يقتضيها حال أهل مكة ، أهل العناد والجحود ، وقساوة القلب وجفاف الطبع . ومن عجب أن اللفظ يكون واحدا فى معنى واحد فى قصة واحدة ، فيرد فى سورة البقرة المدنية على جهة التخفيف ، ويرد فى سورة « طه » المكية على جهة التشديد ؛ فيقول تعالى فى السورة الأولى قصة آدم « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، ويقول تعالى فى السورة الثانية قصة آدم أيضا « فمن اتَّبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

وانظر مثلا آخر : هذه الفواصل [1] القرآنية التى تنوعت فيها ، واختلف فيها الصنيع بين السورة والأخرى ، وبين آيات السورة الواحدة . أما السورة الواحدة ذات الفاصلة الواحدة ، فإنك تجدها وفاصلتها بمقطعها وجرسها الصوتى ، أنسب شيء بمعناها ، وأسرع خطورا بالبال إذا ذكرت السورة ، أو ذكر بعض آياتها ، حتى لتنعقد فى قرارة النفس الحافظة عملية من التداعى والارتباط بين السورة وفواصلها ، بل بين سائر الآيات والفواصل فيها . هذه سورة الناس تقرؤها فتكاد تصور لك بجرسها وفاصلتها وتكرر حرف السين فيها ، هذه الوسوسة التى سيقت السورة لتصويرها : وسوسة الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس [2] » . وهذه سورة القمر تقرؤها فتعطيك بجرسها وفواصلها والتزام حرف الراء الساكنة فيها ، ما تعطيك بمعانيها من تهديد أهل مكة وإنذارهم وقرع العصا لهم مرات ومرات [3] .

أما السورة الواحدة ذات الفواصل المتنوعة فى آياتها ، فغالبا ما يكون هذا التنوع عند تنوع المعانى وانتقال الكلام من غرض إلى غرض ، ومن طريقة

---

(١) الفاصلة : كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع .

(٢) راجع كتاب التصوير الفنى فى القرآن للأديب سيد قطب .

(٣) راجع السور ذات الفاصلة الواحدة كالكوثر والاخلاص والفيل والشمس والقدر والفتح والمرسلات والجن .

إلى أخرى ، كأنما يرمز بتغير الفاصلة الى تغير ذلك . . فهناك سور بدئت بقسم مقسم به ومقسم عليه ، ولا يخفى مابين الأخيرين من تنوع ، غالبا ماتكون الفاصلة فى المقسم به غيرها فى المقسم عليه ، لاسيما إذا كان فى القسم طول والسورة أيضا طويلة ، كما كان عليه الحال فى السور : الذاريات ، الطور ، الصافات ، المرسلات ، النازعات ، العاديات . أما إذا كان فى القسم قصر أو كانت السورة قصيرة ، فغالبا ماتكون الفاصلة فى المقسم به وعليه واحدة ، كما كان عليه الحال فى السور : النجم ، الضحى ، الشمس ، التين ، العصر ، البلد .

وهذه سورة « ص » تستمر فيها الفاصلة على وتيرة متشابهة حتى الآية ٦٧ ، فتتغير فيها الفاصلة إلى وتيرة أخرى حتى ختام السورة ، وفى هذا القدر الأخير يتمحض الحديث عن قصة آدم ، وشيء قليل من التنبيه الى ما فى القرآن من حق وعظمة .

وهذه سورة « غافر » ترى فيها الفاصلة على وتيرة واحدة من الآية ٢٤ إلى الآية ٥٥ ، وترى هذه الآيات خاصة بالحديث عن رسالة موسى إلى فرعون وهامان وقارون ، وما أجابوا به وما آل إليه أمرهم ، وما قبل هذه الآيات وما بعدها من السوة غير متخصص لا فى موضوعه ولا فى فاصلته .

وهذه سورة نوح وإن كانت كلها فى قصة نوح ، إلا أنها من الآية الخامسة فيها الى نهايتها خلص الكلام لحكاية رفع نوح الأمر الى ربه ، يشكو إليه قومه واستكبارهم ، ويستنزل عليهم السخط والغضب ، ويدعوه أن لايذر على الأرض منهم ديارا ، وإلا أضلوا عباده ولم يلدوا إلا فاجراً كفارا ، فكان كله ذا فاصلة واحدة ، فيها قوة وشدة جرس مناسبة لحال غضبه على قومه .

وهذه سورة النازعات من الآية ٥ الى الآية ٢٦ فاصلة تكاد تكون واحدة متميزة عما قبلها وبعدها فى نفس السورة ، كتميز الآيات نفسها بتخصيصها للحديث عن موسى وفرعون .

وهناك سور أخرى كثيرة ، فيما ذكرته هنا مثال لها يحتذى ، ومنوال ينسج عليه ، وكفى ؟

نواحي الاعجاز
فى أخلاق الرسول
– ٣ –

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

سئلت عائشة رضى الله عنها عن أخلاق الرسول فقالت : « كان خلقه القرآن » . ومن قبلها قالت خديجة أم المؤمنين يوم نزل عليه الوحى أول مرة بحراء فجاءها وعليه رجفان من الروع وقص عليها حديثه ، ثم قال « لقد خشيت على نفسى » قالت خديجة « كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث » . فأما مقالة خديجة هذه فإنها تدلنا على ثقتها الراسخة بزوجها العظيم ، ورعاية الله له بما أوتى من سمو النفس ، ومكارم الأخلاق ، وطهارة الفطرة . وقد نوهت فى قولها بما تفرد به من دون قومه من خلال : كالإيثار ، والمواساة ، والرفق بالضعفاء والمساكين ، والسخاء ، بلا رياء ولا سمعة .

هاته وما إليها من الخلال الزكية ، قد فطره الله عليها ، وامتاز بها على أقرانه منذ نعومة أظفاره واشتهر بها فى قومه ؛ لأنها ستكون فيما بعد من أبرز القيم ، والمبادىء فى شريعته الخلقية الخالدة ، ومن ثم لا يجد الباحث فى السيرة النبوية تناقضا ما بين سلوكه عليه السلام قبل البعثة وسلوكه بعدها ، وهكذا النبيون جميعاً قد فطرهم الله على خلال الخير ، وكمالات النفس قبل أن ينهضوا بالدعوة إليها .

وإن دراستنا لحياة الرسول قبل البعثة وتحليلها فى ضوء العلم المجرد ، تحملنا على ترجيح القول بأن عصمة الأنبياء ليست خاصة بما بعد البعثة . كما ذهب اليه العلامة الرازى ، بل هى عصمة مصاحبة لهم منذ تنسموا نسيم الحياة . بل وقبل أن يخرجوا إلى

الحياة؛ لأن العوامل والظروف المكيفة للشخصية الإنسانية تسبق زمن الميلاد بكثير، وتتسلسل مع السلالات بفعل الوراثة؛ فحياطة الإنسان المختار لأمانة النبوة من عوامل السوء ومؤثرات الفساد، متحققة فى السلالة التى ينحدر منها قبل وجوده بمراحل. وهذا هو مغزى الآية الكريمة «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» وقوله «إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ... الخ»، وقد أسلفنا فى بحثنا الأول سند هذا الرأى من التاريخ ودليله من العلم. وناهيك بذلك رداً مخجلا على أمثال الطالب المخدوع الذى لقنه شيخه فى الجامعة أن يقول فى رسالته (الفن القصصى فى القرآن): «الأنبياء أبطال ولدوا فى البيئة وتأدبوا بآدابها، وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم فى كل مايقال ويفعل، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقائد وعوائد، وعبدوا ما تعبدوا من إله الخ».

وأما عائشة أم المؤمنين، أما تلك الصديقة الفقيهة، فقد أوجزت وأعجزت، وصورت الجانب الخلقى من حياة الرسول الأعظم تصويراً محكماً باهراً فى كلمة وجيزة. ولن ترى كهاته الكلمة تفسيراً جلياً محكما لقوله تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم». ولو أن عائشة قالت: كان مثلا أعلى فى السخاء والوفاء، والحياء، والعفة. وأنه بلغ من النبل أقصاه، وأوفى من الحلم على منتهاه، وأنه بلغ القمة فى كيت وكيت من المكارم، وانتهى إلى الغاية فى كذا وكذا من الفضائل؛ ثم ذهبت تعدد وتصف، مابلغت بالإسهاب والإطناب وأسلوب التفصيل والاستيعاب، مابلغته بهاته الكلمة البليغة الخالدة. ذلك بأن القرآن الكريم وهو الدستور السماوى الجامع قد احتوى من القيم والمثل والمبادىء السامية. وخلال الخير، مالا يمكن إحصاؤه أو استقراؤه، ولكنه قد ظهر على حقيقته وتجلى بأسمى معانيه لعين أم المؤمنين فى أخلاق زوجها الكريم.

وهنا تكشف لنا عائشة عن ناحيتين اثنتين رائعتين من نواحى الإعجاز فى أخلاق خاتم النبيين: أولاهما المطابقة التامة بين أخلاقه وسلوكه، وبين كافة ما جاء به من الآداب والتعاليم الخلقية ومبادىء السلوك الفاضل؛ وهذه المعجزة الخلقية مما يمتاز به النبى على العبقرى المصلح؛ إذ عهدنا بكل عبقرى صاحب مذهب مثالى أو دعوة إصلاحية أن يؤمن بمذهبه ويخلص له

إلى حد التفانى فى سبيله أو الفناء، ولكنه لا يستطيع التزام حدوده فى سلوكه الخاص والعام بصفة دائمة وبدون تكلف. وكأىّ من زعيم سعى فى الناس بدعوة حق فلما انتهى إلى غايته من السلطان وأصاب ضالته من المجد، تنكر لها، فكانت وسيلة لا غاية.

وخذ لذلك مثلا « نابليون بونابرت » فقد انبعث فى الآفاق وشعاره مبادىء الثورة الفرنسية الثلاث « الحرية، والإخاء، والمساواة » فلما ساد فى قومه وظهر على الممالك من حوله، آثر الاستبداد، ولم يتحرج عن أساليب الظلم والاستعباد.

وهذا الفيلسوف الروسى الاشتراكى « ليون تولستوى » فقد تفانى فى سبيل دعوته حتى نزل عما ملك من الضياع الشاسعة، والأموال الطائلة، وفرقها فيمن حوله من الفلاحين الفقراء بالتساوى، ثم نزل يعمل فى الحقول ليكسب القوت مثلهم بعمل اليدين وعرق الجبين؛ ولكن أثر عن « تولستوى » بعد، أنه كان يتجهم وتأخذه علائم الغيظ الكظيم والثورة المكبوتة حينما يحمل فأسه ويقبل على العمل. ولا ريب أن هذه الظاهرة إنما هى أثر معركة عنيفة فى قرارة نفسه بين مبادئه وعواطفه وشهواته.

وهذا ما يتنزه عنه صاحب الوحى، لأن مبادئه جزء من ذات نفسه، وصفات فطرية فى طبيعته، لا يضيق بها حيناً ولا يتكلفها أبدا. ومن هنا افترق النبى عن العبقرى بنقاء صفحته من الهفوات والمآخذ، ومن ثم كان سلوكه أحد مصادر شريعته وتعاليمه.

وثانية النواحى الخلقية: المعجزة التى أظهرتها عائشة رضى الله عنها، هى تمام فضائل الرسول وبلوغه حد الكمال فى كل الفضائل. وبهاته المعجزة الباهرة استدل بعض قادة الفكر الإسلامى من السلف على صحة دعوة خاتم النبيين، فى تصانيفهم القيمة.

قال الأيجى فى المواقف عند الكلام على النبوات: « المسلك الثانى وهو الاستدلال بأحواله قبل النبوة وحال الدعوة وبعد تمامها، وأخلاقه العظيمة، وأحكامه الحكيمة، وإقدامه حيث يحجم الأبطال. ولولا ثقته بعصمة الله إياه من الناس لامتنع ذلك عادة، وأنه لم يتلوّن حاله وقد تلونت به الأحوال من أمور من

تتبعها علم أن كل واحد منها ، وإن كان لا يدل على نبوته ، لكن مجموعها مما لا يحصل إلا للأنبياء ، فلا يرد ما يحكى عن أفاضل الحكماء من الأخلاق العجيبة التى جعلها الناس قدوة لأحوالهم فى الدنيا والآخرة ، اه .

وقد احتج الشريف الجرجانى على هذا الكمال الخلقى المعجز بحجة من التاريخ ؛ فذهب الى أن خصومه الذين ناصبوه العداء لو وجدوا فى خلقه مغمزا لشهروا به وهجوه بألسنة حداد ، لكنهم لم يفعلوا ، بل اتهموه بالسحر والشعر والتعلق بالأوهام .

قلت : والعلم اليوم يؤيد الأيجى فيما ذهب اليه ؛ لأنه قد بين لنا أن الفضائل والملكات لا تعرض للنفس الانسانية إلا على تفاوت بحيث لا ينبغ الانسان أو يشارف الغاية إلا فى فضيلة بعينها أو ملكة وحدها . واستعرض من شئت من أبطال التاريخ ، تجد أنهم إنما برزوا فى ناحية ، وتفوقوا فى فضيلة واحدة أو فضائل محدودة على تفاوت بينها ، حتى ذهب بعض الباحثين فى علم النفس الى أن نبوغ الإنسان المفرط فى ناحية إنما يجىء من نقصه فى ناحية أخرى . فإذا صح هذا فهل تكون عظمة محمد التاريخية وكماله الانسانى من قبيل العبقريات كما يرى بعض المحدثين ، أو هى من نوع المعجزات كما نعتقد نحن ؟ سوف نرى ؟

دالة الشعراء

مدح جرير الحجاج بن يوسف بقصائد قال فى بعضها :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا

فقال له الحجاج : إن الطاقة تعجز عن المكافأة ، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فسرْ إليه بكتابى هذا ، فسار إليه ، ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن له ، فأنشده قصيدة قال منها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فكان الأمير متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت ! وأمر له بمائة ناقة كلها سود الحدق ، وبثمانية من الرعاء . وكان بين يديه صحاف من الفضة . فقال له جرير : والمحلب يا أمير المؤمنين ! وأشار إلى صفحة منها . فنبذها إليه بقضيب كان فى يده وقال له مداعبا : خذها لانفعتك !.

كافحوا الفقر

لفضيلة الأستاذ الشيخ فهيم سالم المليجى
المدرس بمعهد القاهرة

لهج الناس حكومة وشعباً بمكافحة الأعداء الثلاثة التى هى « الفقر والجهل والمرض » فحدانى ذلك على أن أدلى برأيى فى هذا الموضوع. ولكنى أرى أن العدو الوحيد والخصم اللدود، هو شىء واحد، وهو « الفقر ». فإن الفقير إذا مرض لا يجد دواء، وإذا أراد التعلم لا يجد ما يكافىء به معلمه. فالعدو الأصلى هو الفقر، ولو أنهم عالجوا الفقر وحده لكفاهم الخصمين الآخرين، فإن الفاقة أعدى أعداء الإنسانية، وهى التى تبطش بالآساد فتذلها، وتسطو على الكمى فتبدل شجاعته جبنا، وعزته ذلا، وصلابته ليناً، وتصير الخلق الكريم ذميما، وتبعث من العدل ظلماً، ومن الإحسان جرماً. فليت النفوس تتجه إلى علاج الفقر؛ فإن ذلك أبقى على الإنسانية، وأنفع للمجتمع.

وعلم الله ذلك قبل علمنا فشرع فى دينه علاجا لو اتخذناه نبراساً لاهتدينا إلى الصراط السوى المستقيم؛ ذلك العلاج « هو مشروع الزكاة » فلو أخرج الناس الفضل من مالهم وزرعهم ما تضاغى أحد جوعاً، ولوجد الفقير بغيته، والمسكين حاجته، وفتحت لهم فى الحياة سبل قيمة، واطمأنت نفوسهم. وليت الحكومات ترحم الشعب فتجبى الزكاة من أغنيائه وتوزعها على فقرائه بالقسطاس المستقيم؛ فتعطى كل فقير حاجته لتربط بين قلوب الأغنياء والفقراء برباط متين هو رباط الإحسان والرأفة والرحمة، فليس شىء أحب إلى القلوب من الإحسان؛ يغرس الحب فى شغافها ويستعبدها، وهو نوع من التعاون على البر والتقوى الذى أمرنا الله به، فقال « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ».

فإخراج الزكاة إحسان إلى الأغنياء، والفقراء. أما الغنى فإنه يحصن ماله بإخراجها، ويطهر قلبه، ويزكى نفسه، وينجو من عذاب أليم « خذ من أموالهم

صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وهى ركن من أركان الإسلام يقوم عليه ، ويتم به . فمن أدى الزكاة فقد قوم دينه ، وكمل إسلامه .

ولقد توعد الله مانعى الزكاة بقوله : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . فإذا أخذت الزكاة من الأغنياء صلح حالهم ، واستفادت أمورهم ، ونمى مالهم وزرعهم ، واستمر يسارهم ، ووقاه الله شر الآفات ، فما هلك مال فى بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة . فالزكاة شكر لله على ما أعطى من النعم وأخرج من الأرض . يقول الله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون » وشكر النعمة يؤذن بازديادها ، كما أن كفر النعمة يؤذن بزوالها ، وإذ فرض الله الزكاة سن أقوم السبل فى سعادة الأمة ، وازدهارها ، ومكن لها دينها الذى ارتضى لها ، وبدل ذلها عزاً ، وخوفها أمناً ، وشقاءها سعادة .

أيها المشرعون !

خذوا بسبيل الزكاة تفلحوا ، فإنه سبيل الاعتدال : طهر من رجس المذاهب المتطرفة ، وبرىء من جشع الرأسمالية ، وخلص من إفراطها ، يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . التشريع الإسلامى يفتح أبواب الرجاء للفقراء ، ويضىء السبيل للأغنياء . فقد يصبح الفقير من خيرة الأثرياء سنة الله التى قد خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

فإلى ملوك الأمم ورؤسائها ، وإلى الشعوب وقوادها ، أوجه مشروع الزكاة ، ففيه سعادتها وبقاؤها ، وعزها وثراؤها ، يرحمكم من فى السماء . إنكم مسئولون عن هذا الشعب بين يدى الله . ارحموا دين الإسلام فإن الشيوعية معناها (اللادينية) . ارفعوا هذا الكابوس عن البلاد والعباد ، تنجوا وأممكم من عذاب أليم . استغنوا عن المصالح التجارية . انقضوا ما بينكم وبينهم من العهود فذلك أجدى على الأمة من فوائد تجنيها ، ولذات تجتليها . « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » .

ونسأل الله التوفيق للأمة الإسلامية والحكومة المصرية حتى تتخذ سبيل الله ودينه نبراسا مضيئا فى ظلمات الحياة ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو المستعان فى وضع

نظام للزكاة أستخلصُـه من روح الشريعة الاسلامية ، وأقدمه للحكومة المصرية رجاء أن يوفقها الله إلى الأخذ به ، والسير على منهاجه . فأقول وبالله التوفيق :

الباب الأول فى كيفية إخراج الزكاة :

المـادة الأولى : شرط الزكاة : الاسلام ، ملك النصاب ملكا تاما ، والحرية ، ومضى الحول فى العين والماشية ، والخلو من الدين فى العين ، واستواء الزرع .

المـادة الثانية : تجبى الزكاة من الأغنياء جبرا عليهم وتصرف للفقراء .

المـادة الثالثة : تؤخذ الزكاة وهى ربع العشر أى ٢½ ./. ممن يملك نصابا من الذهب وقدره أحد عشر جنيها مصريا وسبعة أثمان الجنيه المصرى وهو (اثنا عشر جنيها انجليزيا وثمن) أى (١١٨٧٫٥ قرش) ألف ومائة وسبعة وثمانون قرشا ونصف قرش ، إذا حال عليها الحول فى حيازته ، ولا دين عليه .

المـادة الرابعة : يؤخذ ممن ملك نصابا من الفضة وقدره (مائتى درهم) ربع العشر ٢½ ./. وهى تساوى بالقروش المصرية (٥٢٩¾ قرش) بالشروط المتقدمة .

المـادة الخامسة : يلاحظ أن وثائق الذهب كالذهب ، ووثائق الفضة كالفضة ، يسرى الحكم عليها كالأوراق المالية .

المـادة السادسة : تعتبر قيمة الذهب فى غيرها من العملة الجارية كالقروش المعدنية أو النحاسية ، رعاية لحق الفقير .

المـادة السابعة : تقوّم عروض التجارة على التاجر بالثمن الحاضر عند الحول وتخرج الزكاة منها أو أثمانها بحسب الثمن الحاضر .

المـادة الثامنة : تشمل عروض التجارة : الحيوان ، والطعام ولو لم يزك كالفاكهة والأسلحة والمعادن وكل ما يتجر به .

المـادة التاسعة : يضم ربح التجارة على التاجر من أصل المـال ، وحوله حول أصله .

المـادة العاشرة : إذا كان على المـالك دين ينقص المـال به عن مائتى درهم من الفضة أو عشرين دينارا من الذهب ، سقطت عنه الزكاة .

المادة الحادية عشر : إذا وجد أحد ركازا من دفين الجاهلية ذهبا أو فضة عملة أو غيرها ففيه الخمس ويصرف فى المصالح :

١ — العامة (إذا احتاج استخراج الركاز إلى نفقة كثيرة كان فيه ربع العشر وهو كالزكاة مصرفا) .

٢ — (إذا لم يعلم أنه من دفين الجاهلية ألحق به) .

٣ — (إذا علم أنه من دفين المسلمين فيه ربع العشر ورد الباقى إلى مالكه أو وارثه إن علم) .

٤ — (وإن لم يعلم مالكه فهو كاللقطة يعرّف عاما ثم يكون لواجده) .

المادة الثانية عشرة : إذا حاز الرجل حليا أو سبائك من الذهب أو الفضة أعدها لعاقبة الدهر ، يؤخذ منها الزكاة بالشروط السابقة ، إلا السن والأنف ومقبض السيف وحلية المصحف .

المادة الثالثة عشرة : إذا حازت المرأة سبائك من الذهب أو الفضة بلغت نصابا ، أخرج عنها الزكاة . أما حلى المرأة للزينة لا زكاة فيه (عند مالك) .

المادة الرابعة عشرة : تؤخذ الزكاة من مال الصبى إذا أحرز النصاب ومضى عليه الحول ويطالب بها وليه .

المادة الخامسة عشرة : تؤخذ الزكاة من مال المجنون والسفيه بالشروط السابقة ويدفعها القيم عليه .

المادة السادسة عشرة : ما استخرج من مناجم الذهب والفضة يؤخذ منه ربع العشر فى الحال إن وجد بملكه أو بأرض ليست مملوكة وكان مسلما ، وإلا قدر بالاجتهاد .

المادة السابعة عشرة : مناجم النحاس والمعادن التى تطبع بالنار ، فيها الخمس ، ومصرفها مصرف الغنيمة والباقى للمستخرج إن كان بأرضه أو أرض غير مملوكة . فإن أعدت للتجارة كانت كعروض التجارة .

المادة الثامنة عشرة : لا يصح استثناء مسلم من إخراج الزكاة مهما عظم ؛ لأنه قانون شرعى .

المادة التاسعة عشرة : ومن ملك آنية من فضة أو ذهب سواء كان ذكرا أو أنثى أخرج زكاتها متى بلغت نصابا ، والعبرة بالميزان . « يتبع »

من أسرار القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى
المدرس بمعهد القاهرة

القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ، والكتاب المبين ، والنور الهادى إلى صراط العزيز الحميد ؛ هو هدية السماء إلى الأرض ، ومائدة تنزلت من الملأ الأعلى لتغذية العقول والقلوب والأرواح ، وشرعة العليم الحكيم للعباد فى كل زمان ومكان ، ودستور أحكمت آياته فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسبيل لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ونبراس يهدى إلى الرشد ، ويفضى إلى الحق والخير والبر ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم .

وكتاب إلهى ربانى هذه بعض صفاته ، وتلك طائفة من سماته ، لا بد أن يكون له من الأسرار ما لا يتناهى ، ومن العجائب واللطائف ما لا يحصى ، ومن الحكم والرموز مالا يستقصى ؛ وأى عبد عاجز يستطيع أن يحصى أسرار خالقٍ بعض صفاته أنه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ؛ ويقال فى شأن كلماته : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » ؛ ويقال فيها : « ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » .
ولكننا إذا عجزنا عن الإحصاء والاستقصاء فلا أقل من أن نسعد قلوبنا ، ونتسامى بنفوسنا ، ونعلو بأرواحنا ، ونجلب الخير كل الخير لديننا ودنيانا ، بأن نحاول الوصول إلى ما يدخل فى نطاق الطاقة البشرية من أسرار هذا الكتاب اللدنى القدسى الذى تحيا به الأجسام والأفهام ، وتستضىء بنوره الخواطر والنواظر ، ويخر من هيبته وخشيته العباد والجماد : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

« ولو أن قرآنا سُـيّرت به الجبال أو قُـطّـعت به الأرض أو كلم به الموتى » ؟ . قال بعض المفسرين : إن الجواب هو : لـكان هذا القرآن .

أول أسرار هذا الـكتاب المجيد وأعظمها ، وأشـدها فى النفوس تأثيراً ، وعلى القلوب سيطرة ، أنه كتاب عربى مبين ، لا تعاويذ فيه ولا تمـائم ، ولم يتـكون من ألغاز ورموز خفية ، بل تكـوّن من نفس الحروف التى بها يتكلمون ، ومن نفس الألفاظ التى يرددون ، والذين أنزل عليهم هـذا الـكتاب هم فرسان البلاغة وأساطين الـكلام ، ودهاقين القول وأمراء البيان ، يقرءونه أو يسمعونه فتنجذب اليه نفوسهم ، وتخفق له أفئدتهم ، وترتجف من وقعه أبدانهم ، والـكثير منهم لم يؤمن به بعد ، وينظرون إلى أجزائه فإذا هى سهلة ميسورة ، وإلى معانيه فإذا هى ساطعة سطوع شمسهم الضاحية ، ويخيل اليهم من شدة ضيائهـا وانتشار أنوارها واحتشاد أشعتها ، أنهـا على مدى اليد منهم ، يستطيعونها إذ يحاولونهـا ، ولـكنهم يفرغون جهدهم ، ويستقصون وسائلهم ، ويجمعون جموعهم ، يرومون اليهـا وصولا فلا يستطيعون ، ويطلبون منهـا دنوا فلا يقدرون :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعزِّ الفؤاد عزاءً جميـــلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا ! !

وهكذا صدقت كلمة الله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . . بل لا يستطيعون ما دون ذلك : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صـادقين » . . بل لا يستطيعون أقل صور المعارضة : « وإن كنتم فى ريب ممـا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

ومن أسرار القرآن الـكريم أنه يستعمل الـكلمة الجامعـة الحاوية لـكثير من المعانى ، الصالحة لعديد من التفسيرات ، مما لا يناقض بعضه بعضا ، بل مما ترتضيه العقول وتطمئن به القلوب ، وتصلح به أحوال الذين أنزل إليهم فى مختلف العصور والدهـور ، والبيئات والمجتمعات ، وأنت حين تتابع هـذا الطريق ، وتستحضر فى نفسك طائفة من هـذه الـكلمات الجامعة الشاملة المحيطة التى تفتح

أمام قارئها أو سامعها آفاقا عريضة وسيعة ، ستعجب عجبا لاينتهى . وتستطيع أن تأخذ على سبيل المثال كلمات : « العصر ، والصلاة الوسطى ، والكوثر ، والنازعات ومن شر غاسق إذا وقب » لتعرف حين تدرس معانيها كيف ينفسح أمامك المجال ، وتتدفق بين يديك مناهل العلم وينابيع المعرفة ، مما يسهل الشديد ، وييسر العسير ، ويكثر السبل !! .

ومن أسرار القرآن الكريم الإيجاز ، وحذف ما ليس برئيسى ضرورى فى الموضوع ، والاكتفاء برءوس الحوادث وأمهات العبارات ، ولست أدرى ماذا كان يكون حجم المصحف الشريف لو أن الحق تبارك وتعالى اتبع فيه سبيل الإتيان بالمألوف والمعروف ، إذن لكان المصحف المجيد فى عشرات من كبار المجلدات والأسفار ، وإذن لشق على الأمة حفظه والإحاطة به وجمع أطرافه فى صدورهم ؛ ولكن الله وهو الذى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، منح الأمة هذا الدستور فى هذا القدر الوجيز ، ومع ذلك لم يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، وصدق الحق إذ يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . ولك أن تأخذ هنا على سبيل المثال قوله تعالى : « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ... » فبين كلمتى : « فأرسلون ، ويوسف » كلام طويل مقدر ، تفهمه العقول اللبيبة والقلوب الواعية ، ولذلك ستر ولم يذكر . وأن تأخذ أيضاً قوله تعالى : « فقل هل لك الى أن تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى » فبين كلمتى : « فتخشى » ، و « فأراه » كلام كثير لايلزم ذكره . وإن كانت النفس تلمحه ، إذ الأصل : « فقل هل لك الى أن تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى فذهب موسى ، ومعه أخوه هارون ، وقالا لفرعون قولا ليناً ، ودعواه الى عبادة الله ، فاستنكر فرعون واستكبر ، وطالب بالدليل والبرهان ، أو لج فى العناد والجدال ، فأراد موسى أن يقنعه عن طريق المعجزة ، فأراه الآية الكبرى ، وهى انقلاب العصا الى حية تسعى » !! .

ومن أسرار القرآن الكريم أن الله عز وجل لم يجعله أبوابا مستقلة ، ولم يفصل بين أجزائه بفواصل مملة ، بل جعله مثانى تقشعر منه جلود الذين آمنوا ، وصاغه كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . ولعل بعض الغافلين يعجب حين

يرى الأسلوب القرآنى فى السورة الواحدة وهو ينتقل من العبادات الى المعاملات الى الأخلاق الى العقائد الى القصص ، وهكذا ، ويخيل له أن ذلك لا يلائم كمال التقسيم - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ولكن الواقع أن الله سبحانه وتعالى بذلك الأسلوب قد أراد أن يلفت المسلمين الى أن القرآن كل لا يتجزأ ، وأحكامه مجموعة لا يتبعض ، وأوله كآخره ، وأدناه كأقصاه ، ومن أراد أن يأخذ منه شيئا فليأخذه كله ، فكله دواء وشفاء ، وكله نور وضياء !! . . وهذا بطبيعة الحال سيجعل المسلمين يعنون بسائر أجزاء القرآن حينما يطلبون منه جزءا خاصا ، لأنهم لا بد لهم من المرور بسائر الأجزاء لكى يصلوا الى ما يريدون . . .

ومن أسرار القرآن الكريم : أنه يعرض قصص الأنبياء والمرسلين فى صور مختلفة ، وبأساليب متعددة ، فتارة يعرضها مختصرة موجزة ، وتارة يعرضها فى مساواة وتوسط ، وتارة يسهب فى مواقفها ووقائعها ويفيض . وقد أراد القرآن من ذلك الوصول الى الغاية فى التذكير والتبصير ، والتبشير والتحذير ، والوعد والوعيد ؛ وأراد أيضا أن تجد كل طائفة ما يناسبها ، وأن يجد الداعية لكل ظرف ما يلائمه ، ولو وقف المرشد مثلا بين قوم أميين خالين ، أو ظلمة جبارين ، أو عامين جاهلين ، وأراد أن يقص عليه قصة موسى عليه السلام مثلا ، لكان واجبا عليه أن يأتى من القصة الطويلة العريضة بما ورد فى الأعراف ، وطه ، والقصص ، وأشباهها ؛ ولكنه حين يتكلم مع قوم مثقفين متعلمين ، ستكفيه القصة موجزة مختصرة مركزة فى مثل قول الحق عز من قائل : « وهل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى ، اذهب الى فرعون إنه طغى فقل هل لك الى أن تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » ومن هنا تعرف السر فى تكرير القرآن الكريم لعرض القصص النبوية فى صور مختلفة .

وأخيراً إن أسرار القرآن كما قلت فيض لا يغيض ، ومدد لا ينتهى ، وسبيل لا تدرك غايتها ، وقد ذكرت لك منها ما يصلح أساسا للسير ، أو مفتاحا للباب ، ولله نفحات يتعرض لها المخلصون فيصلون منها الى ما يشاؤه الحق لهم كفاء إخلاصهم ، فألق دلوك فى الدلاء ، ولا تنسنى من صالح الدعاء !! . . .

من أقباس النبوة :

ياجارة الغـار ...!!

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان
المدرس بمعهد القاهرة

[روت بعض السِّير قصة الحمامة فى الهجرة . ومنطق الإعجاز لا ترتفع إليه العقول . وفى الإيمان به ما يطمئن القلوب . . .
وتلك انتفاضة العاطفة فى موكب الذكرى الباقية] :

ياجارة الغـار :

أسعدينى بالهديل فهـذا موكب الذكرى . . . وطرِّبى عنى فإن اليراعة غرقى فى خضم النور ، وشراعى عصفت به معجزات يـكل الطرف فى إشراقها ، ويرتد القلب مثقلا بالحنين ، والشوق .

ياجارة الغـار :

بى شوق الى أغرودة مسكوبة من شرفات الخـلود ، يرنحنى سحرها المو قع على أوتار واهن من فرط الصبوات . . .

إنى ظـامىء إلى رنين مقبوس من حفيف أجنحة الملائـكة ، ووسوسات حلى الحور .

ياجارة الغـار :

صمتك الوادع ، وأمنك الهاجع ، واطمئنانك الغافى ، وعشك الممهد ، والطلحة الحانية بأكف ضارعة ؛ والصحراء . . . الصحراء من ورائك ، والغار من أمامك ، وعين الله يقظى . . . إنها ترعى . . . . وكفى . . .

كل هذا (ياحمامة) يحملنى على قوادم الأحلام ، وخوافى الإعجاب . . .

ياجارة الغـار :

بالله إلاّ حدثتنى عن ترفيف الملائـكة وكيف حفـَّت بالغار . . . ؟ وإلا كشفت عن ريشك المنسوج بأنامل القدرة التى طيرتك إلى وكر النبوة ، تبنين عشا ، وتهدمين مكرا ، وتهزئين بالقافلة المختالة الضالة ، وتعصفين بالزوبعة الفتاكة . . .

فإذا الذى يشوى الحقد كبده يسلم ساقيه لرمال الصحراء، وينكفىء ناكصا على عقبيه، تاركا جوارك الآنس ... ياحمامة .

يا جارة الغار :

كيف سمعت النبى وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ... وبماذا أجبت العطشى الى الدم البرىء وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ... ؟

وكيف التف حولك الجمع ؟ ثم دارت أقدامهم على باب الغار . ولو أراد الله لجعل من خيوط العنكبوت لهم أغلالا فما اسطاعوا مضيا ولا يرجعون .

يا جارة الغار :

بماذا ناجيت الليل ، وأى تحية تنفست بها الصباح ؟ وهل شجاك سكون الدجا ، وشغلتك دَرَارى السماء ؟ أم غفوت فى لجج الأحلام التى ترقصك على أعواد الجنة الموعودة .

يا جارة الغار :

كنت « حمامة السلام » وما نطقت حرفا ، ولا خططت عهدا ، ولا صدعت برأى ، ولا افتر ثغرك عن بسمة ، ولكنك أغمدت سيوفاً مشرعة ، وحقنت دما لو سالت منه قطرة لانفطرت الأرض وخرت الجبال هدّا .

يا جارة الغار :

بين (مكة والمدينة) رفعتك القدرة معلما يفرق بين النار والنور ، وبين الباطل والحق ، وبين الضلال والهدى ، وعلى مد جناحيك اثنان كان الله ثالثهما .

وبذلك لقيت أكرم منزل ، وهبت عليك نفحات الجنات ، على حين يرى الجاهلون جوارك حفرة مهجورة : تعالى (الغار) عما يصفون ! .

يا جارة الغار :

شاهدت مصرع الباطل ، وشهدت انتصار الحق ، وسبرت ضحولة الطغيان وتزايل سرابه ... وضربت للناس الأمثال ... وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .

يا جارة الغار :

فى جوارك ولد الإسلام ، وفى ظل مدرجك كتبت صفحة سطرتها رعاية الله . وتمت نعمة أنعمها على عباده الذين ورثوا الأرض ، ونعم أجر الجاهدين .

العدالة فى الاسلام

من عدالة أمير المؤمنين أبى عبد الله المهدى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد على منصور
من علماء الأزهر الشريف

هو أبو عبد الله المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ؛ ولد سنة ست وعشرين ومائة ، ورباه المنصور تربية حسنة ؛ ولما شب وتأدب ، وجالس العلماء ، وبلغ مبلغ الكمال ، روضه والده على الخلافة ، فأمره على طبرستان وما والاها ، فباشر أعمالها بحزم برهن على أهليته ، وعزم نطق بجدارته . ولما أحس أبوه بدنو أجله أوصى المهدى عند وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء ؛ وكأنه بذلك كان ينعَى نفسه ، فلم يدع فى وصيته شيئا من الخير يمكن الإحاطة به إلا تقدم إليه فيه ، وزوده بأمور جمله بها ، واستخلف الله عليه ؛ ثم عهد اليه بعد ذلك بالخلافة ، فكان العهد اليه عن خبرة ، وحقيقة نظر فى مصالح الأمة . وكأن أبا جعفر بترويضه المهدى وولى عهده على أمور الخلافة وأعمالها ، كان ينظر لمصالح هذه الأمة فى مماته نظره لها فى حياته ، مما سيذكر له بكل ثناء وتقدير حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

تولى أبو عبد الله المهدى الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة ، بعهد من أبيه المنصور بعد موته ببئر ميمون ؛ فاستأنس بوصية والده ، بعد أن دربه على الخلافة ، وجعله خليقا بالإمارة بما ولاه قبلها من الأعمال .

ولقد كان أمير المؤمنين المهدى عادلا منصفا ، تقيا زاهدا ، سياسيا حازما ، جوادا ممدوحا ، محببا إلى الرعية ، حسن الاعتقاد ، مثالا للسماحة ، وقدوة فى مكارم الأخلاق ، وكان عصره عصر خير وبركة على الإسلام والمسلمين .

وحسبنا أن نذكر فى هـذا المقام شيئا من عدالته وإنصافه؛ وأما ما حباه الله به من الصفات الحميدة الأخرى ، فقد تعطرت بأريجها كتب التراجم ، وزينت بها صفحات أسفار التاريخ .

لمـا حمل البريد إلى المهدى نبأ وفاة والده أبى جعفر ببئر ميمون ، ووصيته له بالخلافة ، كان وقتذاك ببغداد ، فخطب الناس وقال : إن أمير المؤمنين عبد دُعى فأجاب ، وأمر فأطاع — وهنا اغرورقت عيناه بالدموع — ثم قال : قد بكى رسـول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ؛ ولقد فارقت عظيما ، وقلدت جسيما ؛ فعند الله أحتسب أمير المؤمنين ، وأستعين به على خلافة المسلمين .

أيها الناس : أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية ، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم ، وطوى الإصر عنكم ، وأهال السلامة عليكم ، من حيث رآه الله مقدما ذلك . والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم ، والإحسان عليكم . !!

ما أجمل البر بالوالدين ! ! وما أعظم الإحسان إليهما ! ! لقد جمعت أول خطبة لأمير المؤمنين المهدى شيئا كثيرا من التنويه بالعـدل والإنصاف ، وبالمنافع والمقاصد الخيرية . فاستهلها بإظهار تأثره بالفجيعة ، وأبان أن ضلاله ضلال حنو وانعطاف ، وأن سلطان الخلافة لم ينسه حق الأبوة .

ونقـّب المهدى عن أحسن ما توصف به الرعية ، وطلب تحقيقه ، فقـال : « أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية ؛ لأن الأمة أقبح ما تـكون وفى صدرها دخل ، سواء أكانت تسره للأفراد أم لأولياء أمورها والقائمين بشؤونها ». ثم طلب منهم خفض الجناح ، وقرنه إلى نشر العدالة فيهم ، وطى الإصر عنهم . وما أجل ذلك فى معانى الحكم بالعدل ، والملك بالحق ورفع لواء الإنصاف ! ! ولقد روى العلامة ابن سابق قال :

ركب المهدى ذات يوم ، وسار فى موكب يطوف أهم شوارع بغداد ، وبينما هو على هذه الحال ، صاح به رجل من أفراد الرعية ، وقال :

قــل للخليفة: حاتم لك خائن   نخف الإله وأعفنا من حاتم
إن العفيف إذا استعان بخائن   كان العفيف شريكه فى المـأثم

فاهتم أمير المؤمنين بهذا الأمر، وأمر أن يؤتىَ إليه بكل عامل يسمى حاتما، وأدخلوا عليه واحداً واحداً، بعـد أن استوقفهم، وشرع يناقش كلا منهم على انفراد، حتى اهتدى الى صاحب الخيانة، وعرف له، فتقاضاه وأنصف المظلومين منه؛ ثم أمر بعزله وحبسه جزاء خيانته.

ولقـــد بلغ من عدالة أمير المؤمنين أبى عبد الله المهدى أنه جعـل له أياما مخصوصـة، يجلس فيها لوضع العـدل فى نصابه، وإنصاف المظلوم من الظالم. وكان إذا جلس هـذه المجالس يقول: «أدخـلوا على القضاة؛ فـلو لم يكن ردى للظالم إلا للحياء منهم لـكفى . !!»

ولقد رأى القضاة العدل مجسما فى أمير المؤمنين، فذهبوا مذهبه، ولم يحيدوا عن الإنصاف قيد شعرة؛ لأن الناس على دين ملوكهم، حتى لقد أنصفوا أفراد الرعية من أولياء العهد، والمرشحين للخلافة.

قال العتبى: تنازع إبراهيم بن المهدى، وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أحمد ابن أبى دؤاد [١]، فى عقار بناحية السواد [٢]؛ فأربى [٣] عليه إبراهيم، وأغلظ له، فأحفظ [٤] ذلك ابن أبى دؤاد فقال:

«يا إبراهيم: إذا نازعت فى مجلس الحـكم امرأ، فلا أعلمن أنك رفعت عليـه

---

(١) أحمد بن أبى دؤاد قاض من قضاة العباسيين، وكان غزير الأدب، جم المروءة، بذولا للمعروف، معوانا للملهوف. وكان مؤالفا لأهـل الأدب من أى بلد كانوا؛ وكان قـد ضم منهم جماعة يعـولهم ويمونهم. فلما مات حضروا ببابه، ولمـا طلع سريره تقـدموا إليه وأبنوه بأبلغ العبارات التى حوتها كتب الأدب. ومنزلة ابن أبى دؤاد من المعتصم والواثق مكينة، بحيث كان يزاحم الوزراء وربمـا تقدم عليهم — توفى سنة ٢٤٠ هـ.

(٢) سواد المدينة: قراها.

(٣) أربى عليه: زاد عليه.

(٤) أحفظه: أغضبه؛ والحفيظة: الحمية والغضب.

صوتا ، ولا أشرت بيـد . وليـكن قصدك أَمماً [١] وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلا . ووف مجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقـير ، والاستكانة والتوجه الى الواجب ؛ فإن ذلك أشبه بك ، وأشكل بمذهبك فى محتِـدك [٢] وعظيم خطرك . ولا تعجلن فـرب عجلة تهب ريثا [٣] والله يعصمك من خَـطَل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم . »

فقال إبراهيم : « أصلحك الله ، لقد أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ؛ ولست عائدا لما يثلم [٤] مروءتى عندك ، ويسقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار » .

« فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه ، معترف بجـرمه . ولا يزال الغضب يستفزنى [٥] ببوادره ، فـيردنى مثلك بحلمه ؛ وتلك عادة الله عندك ، عندنا منك . وقد جعلت حقى فى هذا العقار لابن بختيشوع . فليت ذلك يـكون وافياً بأرش [٦] الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل » !!

فأى عدل وراء هذا العدل ؟ وأى دين أو ملة أعظم من هذا الدين الإسلامى الحنيف ، الذى رفع الأثقال عن بنى الإنسان ، وأحسن إليهم المعاملة ، حتى ترامت عليه أهل الملل الأخرى ، يبتغون فضلا من أهله ؛ فوجدوا فيه العدل والإنصاف ، والمساواة والإخاء ، حتى فى التقاضى مع المسلمين بل وأولياء العهد والمرشحين للإمارة بين يدى قضاة المسلمين ؟!

---

(١) الأمم من الأمر : الوسط

(٢) المحتد : الأصل .

(٣) الريث : الابطاء والمقدار .

(٤) ثلم الاناء : كسره من حرفه .

(٥) استفزه : استخفه وأزعجه

(٦) الأرش : الدية ، وما يعطى تعويضا .

الشعر فى العهد الايوبى

من شعراء الأسرة الأيوبية

لفضيلة الأستاذ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

سبق فى حديثنا عن تشجيع الأيوبيين للشعر والشعراء أن أشرنا إلى أنه كان من بين الأسرة الأيوبية شعراء عالجوا صناعة الشعر وكان لهم منها نصيب، وسنحاول فى هذا المقال أن نترجم لبعض هؤلاء الشعراء ذاكرين لهم شيئاً من شعرهم ندل به على مبلغ شاعريتهم، ومدى ضعفها أو قوتها، فنقول:

(١) شرف الدين [١] عيسى ابن الملك العادل سلطان الشام الحنفى الفقيه الأديب، ولد فى القاهرة سنة ٥٧٨ ﻫ، [٢] وحفظ القرآن وبرع فى الفقه، وشرح الجامع الكبير فى عدة مجلدات باعانة غيره، وله شعر كثير، وكان عديم الالتفات إلى النواميس وأبهة الملك؛ يركب وحده ثم يتلاحق به مماليكه. مدحه جماعة من الشعراء المجيدين. ويشكك ابن خلكان فيما نسب إليه من شعر، فلم يثبت منه شيئاً. توفى سنة ٦٢٤ ﻫ، بدمشق. ومما نسب إليه قوله وقد مرض بالحمى:

زارت ممحصة الذنوب وودعت ... تبًا لها من زائر ومودع
باتت تعانقنى كأنى حِبها ... ومبيتها ومقيلها فى أضلعى
قالت وقد عزمت على ترحالها: ... ماذا تريد؟ فقلت: ألا ترجعى

وهذه الأبيات تذكرنا بأبيات المتنبي فى الحمى لما انتابته فى مصر وهى التى يقول فيها:

وزائرتى كأن بها حياء ... فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت فى عظامى

ولشاعرنا يتحدث عن استعداده لملاقاة الشتاء، وما جمع له من عدة وعتاد:

هجم الشتاء ونحن بالبيداء ... فدفعت شرته بصوت غناء

---

(١) ترجم له شذرات الذهب، وعقد الجمان، ووفيات الأعيان. (٢) فى مرآة الزمان سنة ٥٧٦ ﻫ

... ...

... ...

وذكر أنه كان نازلا بنابلس وفى معسكره بهاء الدين بن القيسرانى ، فأرسل إلى ابن القيسرانى شيئا من ثمار قيسارية ، فكتب إليه ابن القيسرانى :

يأيها الملك المعظم والذى أضحت له الدنيا تزف عروسا
أوليتنى نعماً إذا أظهرتها للناس أظهر حاسدوها بوسا
فليهنك اليوم الذى قد أطلعت فيه الكئوس كواكباً وشموسا

فكتب إليه المعظم :

يا من تفرد بالفضائل دائبا أبدا يؤسس مجده تأسيسا
لا زلت فى درج المكارم راقيا تعلو وربعك بالثنا مأنوسا

فكتب إليه البهاء مجيباً :

مدح بمدح يستطاب ولا أرى ما بين ذين دراهماً وفلوسا

فأمر له المعظم بقماش وذهب قيمته ألف دينار . وفى شعر البهاء ما يفيد مشاركة المعظم الأيوبى له فى صناعة الشعر وقيامه له فى المساجلة والمماتنة .

(٢) الأشرف موسى(١) : أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب من ملوك الأيوبيين ، مدحه أعيان شعراء عصره ، وخلدوا مدائحه فى دواوينهم ، منهم شرف الدين بن عنين ، والبهاء السنجارى ، وراجح الحلى ، والكمال بن النبيه . توفى سنة ٦٢٨ هـ . ومولده سنة ٥٧٧ هـ .

كتب يعزى عن الأمير على ولد الخليفة الناصر لدين الله :

خليفة الله اصطبر واحتسب فما وهى البيت وأنت العماد
أنت سماء طلعت زهرها لا ينقص الأفول(٢) منها عداد
ولا يضر البحر يوما إذا ما سال من أنحاء(٣) واديه واد

ودخلت الشمس من بعض « شبابيك » القصر ، فوقعت على غلام له كان قائما فى خدمته ، ولم يستطع أن ينحاز الى الظل ، فلما رآه أنشد :

---

(١) ترجم له نثر الجمان . (٢) فى الأصل : الأقل . (٣) فى الأصل : نحو .

وغصن بانٍ قلوب الناس فى خطر من فعل مقلته إن مال أو خطرا
راعته شمسٌ بدا من حرها لهب فى صحن وجنته فانحاز مستترا
فقلت حسبك لا تخش اجتماعهما فالشمس لاينبغى أن تدرك القمرا

ولهذا الشاعر نزوات شعرية فى معان لا تلتقى مع منهج مجلة الأزهر الغراء فآثرنا الإغضاء عنها برغم ما حوت من شعر قوى وأدب رصين.

(٣) الأمجد مجد الدين [١] الأيوبى بن فرخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك؛ كان أديبا شاعرا، وله ديوان شعر؛ قتل سنة ٦٢٨ هـ ومن شعره:

حىّ عنى الحمى وحىّ المصلى وزماناً بالرقمتين تولىَّ
كان أعلى الأوقات فى النفس قدرا فتلاشى زمانه واضمحلا
بت والبرق لا أملّ دموعى عند إيماضه ولا البرق ملا
مستهاما ألقى الغرام بجسم منذ أبلاه هجركم ما أملا
ذا غليل من حرقة البين والهجـ ـر بغير اقترابكم لن يبلا
أيها الناظمون ذا قريض دق فى صنعة القريض وجلا
يتمشى على السماك افتخارا ثم يضحى منه عليكم مطلا
وبغيض إلىّ من ليس يدرى صنعة الشعر أن يكون مدلا
بقريض إذا كسا الشعر عزا قائليه كساه هونا وذلا

وتراه يفخر بشعره وقوته، وينعى على من ليس يحسن صناعة الشعر، أن يدل ويتبجح بشعر لا تشرفه نسبته إليه،لضعفه وعدم غنائه. وحق له أن يفخر إذ كانت جملة شعره التى تحت أيدينا ـــ وفى الفوات منها كثير ـــ من الشعر القوى: أسلوبا ومعنى، وإن كان أكثرها فى معانى الصبابات والمعابثات، لأنه يمثل عصره وما فيه من مجون ولهو.

(٤) تاج الملوك مجد الدين أخو صلاح الدين؛ كان أديبا شاعرا، روى له صاحب مرآة الزمان كثيرا من شعره، ومنه فى نيل مصر وأيامه فيها:

شربت من الفرات ونيل مصر أحب إلى من شط الفرات
ولى فى مصر من أصبو إليه ومن فى قربه أبداً حياتى

---

(١) ترجم له عقد الجمان وفوات الوفيات.

فقلت وقد ذكرت زمان وصل   تمادى بعده روح الحياة :
أرى ما أشتهيه يفر منى   ومن لا أشتهيه إلىّ ياتى

قال صاحب شذرات الذهب : وله ديوان صغير ، توفى سنة ٥٧٩ ه

(٥) الكامل ناصر الدين [١] بن محمد الأيوبى ، وله :

ترى تسمح الدنيا بما أنا طالب   فلى عزمات دونهن الكواكب
وإن يكن الناعى بموتى معرضا   فأى كريم مانعته النوادب
ومن كان ذكر الموت فى كل ساعة   قرينا له هانت عليه المصائب
وما عجبى إلا تأسف ساعة   على ذاهب من قالة وهو ذاهب

وتراه نحا منحى الجد والوعظ فى شعره وذلك غريب منه ، لأن سمة العصر كانت الى اللهو أميل وبالمجون أشبه .

(٦) قرخشاه بن [٢] شاهنشاه بن أيوب أبو سعد عز الدين والد مجد الدين السابق ، توفى سنة ٥٧٨ ه ومن شعره فى دمشق :

دمشق سقاك الله صوب غمامة   فما غائب عنها لدى رشيد
عسى مسعدا أنى أبيت بأرضها   بلى إننى — لو صح لى — لسعيد

وله فى الحكمة والموعظة :

إذا شئت أن تعطى الأمور حقوقها   وتوقع حكم العدل أحسن موقعه
فلا تصنع المعروف فى غير أهله   فظلمك وضع الشىء فى غير موضعه

وقرخشاه هـــذا هو الذى امتدحه ابن سعدان بعدة قصائد .

وحسبك أن ابن سعدان سلكه مع الفرزدق فى قرن ، وإن كان ذلك صنيع الشعراء الغالين .

وبعد ، فتلك لمحات دوال على شاعرية الأسرة الأيوبية ، وأن كرديتها لم تكن لتحول بينها وبين صناعة العربى الصميم الذى يمتضغ الشـــيح والقيصوم . وسنتكلم فى عدد آت — إن شاء الله — عن شاعر بنى أيوب وناثرهم غير مدافع ، فإلى لقاء قريب ؟

---

(١) ترجم له نزهة الأنام . (٢) ترجم له شذرات الذهب ومرآة الزمان والنجوم الزاهرة .

الحياة الانسانية
والعـدل الإلهى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

العدل الإلهى أمر بدهي تجزم به الفلسفات الدينية عن يقين وإيمـان لا يجد الشكُّ إليهما سبيلا ؛ وهو مع ذلك من الضروريات فى عالم التفكير الفلسفىّ الحديث ، أو من الأبجديات فى قاموس العقل البشرى المنظم ، ولا يستسيغ مفكر أن يتصور مصير الحياة الانسانية وحاضرها ، وحياة البشر ونظامهم فى عالم مقفر من عدالة السماء ، بل لا تستطيع أن تفهم كيف كانت تقوم الحياة البشرية ويستقيم نظام الوجـود كله بدون هذا العدل السماوىِّ الشامل . ونحن لا نؤمن بأن الله عادل فحسب ، بل بعد له ورحمته جميعا ؛ فبالعدل يسير العـالم الإنسانى لأهـدافه العظيمة المنشودة ، وتستمر نواميس الوجود تؤدى عملها كاملا فى سبيل خـدمة البشر وسعادتهم ؛ وبالرحمة ـ التى لا تتنافى مع قوانين العدل الإلهى العظيم ـ تسعد الإنسانية ، وتحيا حياة كريمة متجددة فيها الأمل والرجاء .

والذين يثيرون مشكلة الشقاء الإنسانى يجب عليهم ألا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن العـدل الإلهى ؛ لأن هـذا العدل هو الآن وقبله فوق مثار الشكوك والأوهام ، وخاصـة بعد أن نضج العقل البشرى هـذا النضوج الباهر فى عصر الـكهرباء والذرة . أمَّا هـؤلاء المفـكرون الذين تثير مظـاهر الشقاء فى الحياة الإنسانية شكوكهم فى رحمة الله ، فيجب عليهم أن يفرقوا بين نوعين من الرحمـة : رحمة تتنافى مع هذه النواميس المنتظمة المسيطرة على الـكون والحياة والتى فرضتها عدالة الخالق العظيم ، وهـذا النوع لا يصح أن يقال له على الحقيقة رحمة بل هو ظلم جائر يسير بالحياة الى التخبط والظلام ، لا إلى السعادة والرفاهية المنشودتين ؛ والنوع الثـانى من الرحمة هو مالا يتنافى مع هذه القوانين التى تحتمها العدالة ، وهو

فى قانون المدنية الحديثة أول واجب على الانسان المهذب ، وأكرم صفات الانسانية الكاملة فى الرجل الذى يتسم بسمات المدنية والخلق الكريم ، فما بالك به إذا فى جانب المسيطر الأعظم على الوجود والحياة ؟ وكيف يمكن أن يقال إنه من صفات الكمال فى البشر دون الله ؟

وإذا كانت عدالة السماء قد وهبت للإنسان حريته فى الحياة ، وأمدته بجميع العناصر الأدبية اللازمة لتكوين شخصيته الإنسانية ، ولمساعدته على الكفاح فى الوجود ، وعلى الانتصار فى معركة الوجود الطاحنة ؛ بعد أن أمدته بجميع الوسائل التى تساعده على فهم الحياة فهما كاملا ، وعلى أنجح السبل الموصلة إلى السعادة فيها . أفنقول إن ما يصيب الانسان — بسبب نفسه أو بسبب المجتمع الذى يعيش فيه — من شقاء وآلام ، نتيجة لهذه الحرية الموهوبة ، هو ظلم وجور من الله ، لأنه حد من قوته ، ولم يعمل بمقتضى قدرته العظيمة القادرة على إسعاد الحياة والناس ؟ كلا فذلك منطق لا يستقيم ولا يمكن أن يقوله إنسان يحب أن يصل الى الحقيقة الأبدية وحدها .

يمكننا أن نحدد الشقاء تحديداً تاما ، وأن نفهم أسبابه ، وأن نرى إلى أى حد نستطيع التوفيق بين عدل الله ورحمته ، ووجود الشقاء الكثير فى هذه الحياة .

أما الشقاء فقد عرض له المفكرون والفلاسفة من قديم بالبحث والتحديد ، ونحن لن نتوسع فى التعريف ، ولن نذهب إلى ما يصح أن نذهب إليه من أنه كل ما يعرض حياة الفرد أو الجماعة الإنسانية أو نظام الوجود الإلهى الذى فطر الكون عليه للخطر والآلام ، ولن نذهب إلى إنكار الشقاء الذى يحيط بالأفراد والجماعات مدعين بأنه تضحية يستوجبها العمل فى سبيل حفظ وبقاء الحياة الإنسانية نفسها ؛ بل سنتواضع جداً فى مدلول هـذا الشقاء ، ونسير على ما سار عليه الأستاذ على أدهم — صاحب مقالة « مشكلة الشقاء » التى نشرتها الثقافة[1] — فنرى أنه الكوارث والآلام التى تحل بالناس .

---

(١) العدد ٤٥٥

وإذا حلَّلنا أسباب هذا الشقاء الإنسانى الذى نرى مظاهره الفادحة كل ساعة ويوم بأعيننا وبصرنا، يمكننا أن نرجعها إلى ثلاثة أشياء :

الأول : ما كان السبب فيه الناس أنفسهم، كالمقامر الذى عرض نفسه للفقر بلعبه القمار، وكالعاكف على تعاطى المخدرات الذى يجلب على نفسه شقاء المرض بعكوفه على المخدرات، وكالذى يلقى بنفسه فى النهر لينتحر من هموم الحياة، أليس هؤلاء جميعاً ومن شابههم يستحقون هذا الشقاء الذى جروه على أنفسهم بأيديهم ؟ وكيف يمكننا أن نقول إن هذا الشقاء يتنافى مع عدل الله ورحمته ؟

ومن حسن الحظ أن صاحب مقالة « مشكلة الشقاء » لا يعارض فى هذا ، ولا يرى بينه وبين عدالة السماء ورحمتها منافاة .

الثانى : ما يكون السبب فيه المجتمع نفسه ؛ فالفقر شقاء ، ولكن إذا كان هذا الفقر ناشئا عن سوء الأوضاع الاقتصادية عند جماعة أو أمة ، أو سببه عدم استغلال هذه الجماعة أو الأمة لمرافقها الاقتصادية استغلالا صحيحا ، أفلا يكون هذا الشقاء الذى نزل بهم عدلا من السماء ، بل رحمة من الله بالناس ، لأنه أراهم ما يترتب على مخالفة الدين أو حكم العقل والتفكير من أضرار وشقاء ؟

والحياة البشرية وحدة تامة ، ومن ضروريات العدالة أن توزن بموازين عادلة سليمة ، وإلا فكيف يستقيم نظام الحياة ؛ فإذا لاقت جماعة أو أمة نتائج إهمالها أو جهلها أفيكون ما يحيق بها من أثر ذلك من الشقاء ظلماً وجوراً من الله ؟

وكذلك الحرب ؛ أليست جناية ما يترتب عليه من شقاء هى من عمل المجتمع نفسه الذى لم يحكم القوانين ونظام الله العادل فى العلاقات بين جماعاته وأممه ، فترك شريعة العدالة الانسانية الى نظام الغابة وشريعتها . وكذلك الشقاء الذى ينزل بالناس نتيجة للأمراض التى يصابون بها . أليس سره أن هؤلاء الناس أو الحكومة المسئولة عنهم قد أهملت فى العمل على محاربة المرض وعلاجه والوقاية منه ؟ ومثل ذلك الآلام التى تصيب الأطفال من فقر ومرض وسواهما ؛ أليس مرجعها الى إهمال الآباء وجهلهم وتعريضهم فى حقوق الأبناء ؛ ولنفرض أن رجلا توفى وترك طفلا صغيرا ، ولم يترك له شيئا من مقومات الحياة ، أليس الأب مسئولا

عن إهماله الذى كان منه فى حق طفله حين لم ينظم حياته تنظيما اقتصاديا كافيا يبعث على الطمأنينة والثقة بأنه أدى واجبه نحو ابنه ؟ ولنفرض أيضا أن رجلا سار فى الطريق فأخطأ سائق سيارة فقضى على حياته ، أليس هذا الشقاء مبعثه خطأ رجل من المجتمع وعدم حذره فى سبيل المحافظة على حياة الناس وفى سبيل أداء واجبه كاملا ؟ وقوانين الوراثة تعلل لنا تعليلا واضحا كيف تنتقل الأخلاق والأمراض وغيرهما من الآباء الى الأبناء على مر العصور .

وإهمال المجتمع أوخطؤه لايستلزم أن يكون كل إنسان فى المجتمع قدصدر منه الاهمال أوالخطأ ، ولا أن يكون مسئولا عنهما ، بل يكفى أن يحيد فرد عن السبيل فيحيق الشقاء بكثير من أفراد المجتمع أو بالمجتمع جميعا ، لأن الحياة قائمة على التعاون والعمل المشترك لخدمة الانسانية والجماعة البشرية والسير بها قدما فى سبيل الخير والأمن والسلام والرفاهية ، فما يصدر عن فرد قد تشقى به أمة .

الثالث : مالا يمكن معرفة السبب فيه ، كسفينة هبت عليها أعاصير عاتية فغرقت بركابها ؛ وكبركان ثار فدمّر مدينة ، وكصاعقة نزلت من السماء فقضت على جماعة ، وغير ذلك من مظاهر الشقاء الذى لا تفهم الحكمة فيه ولا أسبابه المحيطة به .

ومن البدهى أن عقولنا أقصر فى هذه الحالات عن إدراك كنه إرادة الله وحكمته ورحمته وعدالته ، فقد يكون السبب فى بعضها حكمة بعيدة لا يعلمها إلا الله كما ترمز اليه قصة الخضر مع سيدنا موسى ، وقد يكون السبب فى بعضها الآخر حفظ الكون نفسه والعمل على بقاء الحياة ، فتضحى عدالة الله بفرد فى سبيل مجتمع ، أو بالجماعة فى سبيل الوجود نفسه ، فقد تدمر المواد الملتهبة المتصاعدة من فوهة البركان قرية ولكنها ربما لو لم ينفجر البركان لوقعت نكبة أرضية تقع ضحية لها قارة بأسرها ؛ والحياة نفسها مجموعة من التضحيات ، فنحن نموت ليحيا جيل جديد ، وبعض الكواكب الكونية تتلاشى ليبقى نظام الوجود سليما . وكرات الدم فى حرب شعواء يفنى بعضها فيها فى سبيل بقاء البعض الآخر القادر على تزويد الجسم بالحياة ، وهكذا تضحى إرادة الله بالضعيف ليبقى القوى فيعمر الكون ويكون خليفة الله فى أرضه ، وتزدهر حياة البشر ، ويصبحوا أهلا لأن يعيشوا فى الحياة .

وفلسفة الدين تقوم على بعث الرضاء الروحى والطمأنينة النفسية فى قلوب المؤمنين ، وعلى أن يفوّض الناس أمورهم فى مثل هذه الأحوال لله ، وعلى الإيمان الكامل بعدالته ورحمته وبالحياة الآخرة التى يجازى فيها على ما عملوا من حسنات أو سيئات . وفى مثل هذا يطيب للمفكرين أن يقروا بعجز عقولهم عن فهم حكم الله العظيمة فى الحياة ، وإلا كانوا كالطفل الذى يحكم على أعمال الفيلسوف .

لنؤمن بعقولنا وقلوبنا جميعا ، فالعقل وحده قد يبعث على الشقاء الروحى ، وقد لا يوصل الأنسان إلى الهدف المنشود ، كالرجل الذى يعتمد على رجليه وحدهما فى السير على سطح الماء ، والقلب وحده قد يكون مثار الطمأنينة والغبطة واليقين ، ولكن أليس مما لا يليق بكرامة الإنسان الأدبية وهو خليفة الله فى أرضه ، أن يلغى عقله وفكره ، وأن يفهم الحياة ونواميس العدالة الإلهية العظيمة ، فهماً آليًّا محدودا لا يتعدّى نظرات الحيوانات السائمة إلى الكون العظيم .

لقد عرض الأستاذ « أدهم » « مشكلة الشقاء » عرضا فكريا ولكن عرضه لا يخلو من طفرة وإهمال للدقة فى البحث فيما أثاره من مشكلات ، وترك للواجب المقدس فيما كان يجب أنْ يحافظ عليه من أدب مع الله فى بحثه عن عدالته ورحمته .

وكيف نفهم الحياة ، وشخصيتنا فيها ، والرسالة العظيمة التى خلقنا لأدائها كاملة فى سبيل السير بالحياة قدما إلى المثل العليا والأهداف العظيمة المرتجاة ، إذ لم نفهمها على أنها وحدة تامة أو جسم واحد يتحرك فى تعاون وإنسجام ودقة نظام لغاية مشتركة ، وللتجديد المستمرّ فى سبيل الأنسانية وحضارتها وتقدمها وسعادتها ؟ ؛ وهل يمكن أن نقول : المرأة قد شقيت حين خلقت امرأة ولم تخلق رجلا ، وأن مجارى البول فى الأنسان تشقى وكان الأولى بالله أن يسعدها بأن تكون مكانا طاهرا يجرى فيه دم الحياة كالقلب تماما ؟ كلا إن شقاءها سعادة للجماعة التى تعيش فيها ، وإن تفسيرنا المحدود لبعض مظاهر الشقاء فى الحياة الأنسانية قد يكون صوابا لو أعطينا قوات أخرى تساعدنا على فهم ما خفى وراء عقولنا من مظاهر الوجود ؟

الاسباب الداعية

إلى جمع طرق كل حديث من أحاديث صحيح البخارى

١ — منزلة صحيح البخارى من كتب الدين :

قال الإمام الشوكانى : « اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم أن السُّنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن فى تحليل الحلال وتحريم الحرام ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » أى أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنة التى لم ينطق بها القرآن »[١] .

قال أئمة الفن « الصحيح ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله وسلم من شذوذ وعلة »[٢] .

قال النووى رحمه الله تعالى « والصحيح أقسام : « أعلاها ما اتفق عليه البخارى ومسلم ، ثم ما انفرد به البخارى ، ثم ما انفرد به مسلم » .

وأول من اعتنى بجمع الصحيح أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، وتلاه صاحبه وتلميذه أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى ، فهما أصح كتب الحديث[٣].

والبخارى أرجح ، لأنه اشترط فى إخراجه الحديث فى كتابه هذا أن يكون الراوى قد عاصر شيخه وثبت عنده سماعه منه ، ولم يشترط مسلم الثانى ، بل اكتفى بمجرد المعاصرة ، ومن هنا ينفصل لك النزاع فى ترجيح صحيح البخارى على مسلم كما هو قول الجمهور[٤]

فهو أول كتاب ألف فى الصحيح المجرد . اتفق جمهور العلماء على أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم[٥] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عدة ما فيه من الأحاديث بالمكرر ٧٣٩٧[٦] .

---

(١) إرشاد الفحول ص ١٣ (٢) قواعد التحديث ص ٥٦ (٣) المصدر السابق

(٤) اختصار علوم الحديث ص ٨ (٥) مفتاح السنة ص ٣٩ (٦) مقدمة فتح البارى ص ٤٦٨

وبغير المكرر من المتون الموصولة ٢٦٠٢ حديثا ، ومن المتون المعلقة المرفوعة ١٥٩ فجميع ذلك ٢٧٦١ (١) .

٢ — طريقة البخارى فى تأليف الجامع الصحيح :

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى فيما رويناه عنه فى جزء سماه : « جواب المتعنت » : اعلم أن البخارى رحمه الله كان يذكر الحديث فى كتابه فى مواضع ، ويستدل به فى كل باب باسناد آخر ، ويستخرج منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه ، معنى يقتضيه الباب الذى أخرجه فيه ، وقلما يورد حديثا فى موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد ، وإنما يورده من طريق أخرى لمعان نذكرها ، والله أعلم بمراده منها : فمنها أنه يخرج الحديث عن صحابى ثم يورده عن صحابى آخر والمقصود منه أن يخرج الحديث عن حد الغرابة . وكذلك يفعل فى أهل الطبقة الثانية والثالثة وهلم جرا الى مشايخه . فيعتقد من يرى ذلك من غير أهل الصنعة أنه تكرار ، وليس كذلك ، لاشتماله على فائدة زائدة . ومنها أنه صحح أحاديث على هذه القاعدة يشتمل كل حديث منها على معان متغايرة ، فيورده فى كل باب من طريق غير الطريق الأولى ، ومنها أحاديث يرويها بعض الرواة تامة ويرويها بعضهم مختصرة ، فيوردها كما جاءت ليزيل الشبهة عن ناقليها . ومنها أن الرواة ربما اختلفت عباراتهم فحدث راو بحديث فيه كلمة تحتمل معنى ، وحدث به آخر فعبر عن تلك الكلمة بعينها بعبارة أخرى تحتمل معنى آخر ، فيورده بطرقه إذا صحت على شرطه ، ويفرد لكل لفظة بابا مفرداً . ومنها أحاديث زاد فيها بعض الرواة رجلا فى الإسناد ونقصه بعضهم ، فيوردها على الوجهين حيث يصح عنده أن الراوى سمعه من شيخ حدثه به عن آخر ثم لقى الآخر فحدثه به فكان يرويه على الوجهين . فهذا جميعه فيما يتعلق بإعادة المتن الواحد فى موضع آخر أو أكثر .

وأما تقطيعه للحديث فى الأبواب تارة ، واقتصاره منه على بعض أخرى ، فذلك لأنه إن كان المتن قصيراً أو مرتبطاً بعضه ببعض وقد اشتمل على حكمين فصاعداً ، فإنه يعيده بحسب ذلك مراعيا مع ذلك عدم إخلائه من فائدة حديثية

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧٨

وهى إيراده له عن شيخ سوى الشيخ الذى أخرجه عنه قبل ذلك كما تقدم تفصيله ، فنستفيد بذلك تكثير الطرق لذلك الحديث . وربما ضاق عليه مخرج الحديث حيث لا يكون له إلا طريق واحدة ، فيتصرف حينئذ فيه ، فيورده فى موضع موصولا وفى موضع معلقا ، ويورده تارة تاما وتارة مقتصراً على طرفه الذى يحتاج اليه فى ذلك الباب . فان كان المتن مشتملا على جمل متعددة لا تعلق لإحداها بالأخرى فإنه يخرج كل جملة منها فى باب مستقل ، فراراً من التطويل ، وربما نشط فساقه بتمامه . فهذا كله فى التقطيع [1] .

وأراد أيضاً أن يفرغ جهده فى الاستنباط من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جداً . وهذا أمر لم يسبقه اليه غيره . غير أنه استحسن أن يفرق الأحاديث فى الأبواب ، ويودع فى تراجم الأبواب سر الاستنباط [2] .

٣ — آفات هذه الطريقة والصعوبات التى فيها :

وقال مسلم بن قاسم القرطبى ، وهو من أقران الدارقطنى ، فى تاريخه عند ذكر مسلم : « لم يضع أحد مثله » وهذا محمول على حسن الوضع وجودة الترتيب وسهولة التناول ، فإنه جعل لكل حديث موضعاً واحدا يليق به جمع فيه طرقه التى ارتضاها واختار ذكرها وأورد فيه ألفاظه المختلفة ، بخلاف البخارى فإنه يذكر الطرق فى أبواب متفرقة ، ويورد كثيراً من الأحاديث فى غير الأبواب التى يتبادر إلى الذهن أنها تذكر فيه . وقد وقع بسبب ذلك لناس من العلماء أنهم نفوا رواية البخارى لأحاديث هى موجودة فيه حيث لم يجدوها فى مظانها السابقة إلى الفهم .

وقال الإمام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار : على أن المراجعة فى صحيح البخارى فى مكان عن الصعوبة لا يعرفه إلا من عالجه ، فإن الحديث الواحد قد يوجد فى عدة أبواب منه بألفاظ مختلفة ، فمن وجد غلطا فى حديث منهما كان عليه أن يراجع جميع رواياته فيها ليمكنه الجزم بالصواب . ومن لم يدقق النظر فى اختلاف الروايات والرواة والألفاظ فربما جعل الصواب

---

(١) مقدمة فتح البارى ص ١٢ ، ١٣ (٢) شرح تراجم صحيح البخارى للدهلوى ص ٢ ، ٣

(٣) توجيه النظر ص ١٢٣

خطأ . وضرب لذلك مثلا ، ثم قال : فلمثل هذا الاختلاف فى الروايات لا يجزم المصحح بأن كل ما رآه خفىّ المعنى محرف فيراجعه ، ولا بأن كل ما رآه جلىّ المعنى هو الصحيح من الروايتين أو الروايات ، بل لا بد من النقل واستقصاء الروايات عند المراجعة ، وذلك من العسر بمكان .

فنحن نرى الحفاظ وكبار المحدثين وشراح دواوين السنة ينسون بعض الروايات أحيانا ، أو يغفلون ذكرها فى مواضعها . فهذا الحافظ ابن حجر — وناهيك بسعة حفظه — قد ذكر فى شرحه لحديث أبى قلابة الخ ما قال .

٤ — الحاجة إلى ضم أطراف كل حديث وجمع طرقه ورواياته المختلفة :

قال الحافظ فى الفتح : « إن بعض الرواة يختصر الحديث ، وإن المتعين على من يتكلم على الأحاديث أن يجمع طرقها ثم يجمع ألفاظ المتون اذا صحت الطرق يشرحها على أنه حديث واحد ، فان الحديث أدنى ما فسر بالحديث . وأوضح منه ما قال السندى رحمه الله تعالى :

« وفى هذا تنبيه على أنه لا بد للمستدل بالحديث من تتبع رواياته ، فيستدل بملاحظة جميع الروايات ، فان أمكن الترجيح أو التوفيق فذلك ، وإلا فيطرح خصوصية الروايات ويستدل بالقدر المشترك بينها ، ضرورة أن تعدد الروايات إنما يكون من تعبير الرواة ونقلهم الحديث بالمعنى وإلا فمعلوم أن تمام الروايات المختلفة ليست من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث واحد ، فالاستدلال بكل رواية على حدة عند الاختلاف فى حديث واحد مشكل .

وقال مولانا شاه ولى الله الدهلوى : وقد تختلف صيغ حديث لاختلاف الطرق ، وذلك من جهة نقل الحديث بالمعنى . فاذا جاء حديث ولم يختلف الثقات فى لفظه كان ذلك لفظه صلى الله عليه وسلم ظاهرا ، وأمكن الاستدلال بالتقديم والتأخير والواو والفاء ونحو ذلك من المعانى الزائدة على أصل المراد .

وإن اختلفوا اختلافا محتملا ، وهم متقاربون فى الفقه والحفظ والكثرة ، سقط الظهور ، فلا يمكن الاستدلال بذلك إلا على المعنى الذى جاءوا به جميعا .

وجمهور الرواة كانوا يعتنون برءوس المعانى لا بحواشيها .

(١) مقدمة مجموعة الأحاديث النجدية ص ٦ ، ٧ (٢) نبراس السارى فى أطراف البخارى ص٣

(٣) حجة الله البالغة ج ١ ص ١١١

العصر العظيم فى تاريخ العالم

« كنفشيوس ـ جوتاموبوذا ـ زَرْدشت ـ فيثاغوراس ، من وجهة نظر تأليفية

تأليف : ف . ستانكا .   تعريب : الأستاذ عمر طلعت زهران

« محاضر خارج المنهج الدراسى ألقيت فى جامعة هامبورج فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة باستخدام الحديد والاستقلال السياسى كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص . . »

— ٥ —

بحث جوتامو فى المعرفة عن طريق الخلاص من الألم . أما زردشت فكان أكثر قوة ، فقد أراد أن يتغلب على الألم وعلى كل ماهو شر فى العالم ، وأن يحطم ويفنى منابعه ، وإذا كان كنفشيوش هو تجسد « العقلية » وجوتامو هو تجسد « الشعور الإنسانى » ، فان زردشت كان تجسد « الإرادة الإنسانية » ، فلم يحتضن العائلة ، ولم يحتج الى أن يغوص فى التأمل العميق ، وكل ما كان يريد هو أن يعمل . فإن العمل هو المحور الذى يدور حوله العالم . لم يكن زردشت مفكرا ولا بحاثا ولا طالب معرفة ؛ كان يمتلك قوتى التخيل والتعبير كان « معلما » . لم يكن بحاجة الى مثابرة ودراسة ، فله ينطق الوحى الشعرى والرؤيات السماوية والإلهام الإلهى ، وكان يعرف أن العالم قد خلق بقوة مبدأين هما الخير والشر . أما المبدأ الأول فكان يدعى «أورمُزد» ، أو بدقة أكثر : «أهورا مازدا»[١] ، «أى السيد» الأبيض ، وأما الآخر فاسمه «أهريمان» ، أو بدقة أكثر : «أنجرا مانيو[٢]» أى الروح «الشرير» .

والمبدأ الأول يصدر عنه النور والحياة وكل ما هو جميل مشرق ، حى نافع ، صادق مخلص ، داع للسلام . وأما الآخر فيخلق الظلام والموت ، والمرض

---

(١) Ormuzd, Ahura Mazda.
(٢) Ahriman, Angra Maniu.

والألم ، وكل ما هو كئيب شرير ، مؤذ خداع ، قبيح خاطىء . وكلتا القوتين فى نضال دائم إحداهما ضد الأخرى فى سبيل حكم العالم ، وأن عمل الإنسان وشعوره فى حياته هو أن يشترك فى هذا النضال ضد الشر . ولم يكن هذا النضال حربا دموية مخربة ، لا ، فإن زردشت كان ضد الحروب ، كان داعية للسلام . فإن تجسد الخير « أهورا مازدا » كان يدعو إلى إلقاء الحسام وترك السلاح ، واضطر أتباعه أن يقسموا : « لا نعلن حربا ، ولا ننهب القرى » . لقد كان النضال من جانب أخلاقى ، وطريق هذا النضال يقودنا الى « الفكر الطيب والكلم الطيب والعمل الطيب » كما تقول الزردشتية . وأول ميادين هذا النضال كان العمل الخالق المنتج الذى يمد البشر بالثروة والخير والرخاء . وليس لدين من الأديان مثل هذه النصوص التى تختص بعمل الإنسان ، ممجدة للعمل باعتباره مصدر النعمة والسرور .

وعلى الرغم من هذه الثنائية الأساسية فى النظر إلى العالم ، كان زردشت ، بالنظر الى طبيعته النشيطة ، متفائلا . وهو ، فى رغبته الدافقة للعمل ، وفى نشاطه كان يملؤه الأمل والاعتقاد بأن يوم النصر الأخير لابد آت ، حيث ينمحى الشر ، ويبقى الخير يحكم العالم بمفرده ، وإذ ذاك يصل الانسان الى الكمال ، ويحيا العالم فى عصره الذهبى حين تنشأ « المملكة الفاضلة » ، « المملكة المرغوبة » ، « مملكة الرغبة » ، و« حيث لن توجد رياح صرصرعاتية ، ولا أمراض ولا موت ، وحيث تملأ الأرض بالناس والحيوانات الأليفة ، وحيث تنتشر فى كل مكان نيران السرور ، فلا يوجد بين الناس حكام ولا سائلون ، ولا أعداء ، ولا مخادعون يحاولون السير بهم فى طريق الشر » . وهنا يشرق شعور النشاط الحماسى ، والبطولة الحقة ، محاولا تحقيق الأعمال السامية العالمية Universal والدنيوية Cosmic .

وقد رأينا فيما تقدم من عرض للنظريات أن كل واحد من الحكماء الثلاثة له شعار خاص ، هو « العائلة » عند كنفشيوس ، و « الخلاص من الألم » عند جوتامو ، و « العمل » عند زردشت . ومن السهل أن نجد شعارا مماثلا عند فيثاغوراس ، هو بلا ريب « التوافق » Harmony .

(يتبع)

تقرير عن كتاب الفرقان

- ٢ -

ونعود فنسأل : ماالذى يريده المؤلف من هذا كله ؟ إنه فى غير موضوعه الذى يدعو اليه من كتابة المصحف بالرسم الحديث ، وفيه ما فيه من محاولة تشكيك المسلمين ! . وقديما أرجف بعض أهل الإلحاد بمثل ما أرجف به ، وحاولوا تشكيك المسلمين فى كتاب ربهم ، ولكنهم باءوا بالفشل ، واستحقوا غضب الله ،

حكى الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى ، قال : لم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين ، وتحريف الزائغين ، حتى نبغ فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة ، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لايزال الله يؤيدها ، ويثبّت أسّها ، وينمّى فرعها ، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور ، ومكايد أهل العداوة والكفر ؛ فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن ، وأن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، وأن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة ، وقال : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء فقرأ « إن هذين » و « فأصدق وأكون » الخ . ثم قال : وفى قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ليدخلوا فى القرآن ما يحلون به عرا الإسلام ، وينسبونه الى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالأباطيل عليهم ، وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام ، وبثباته تقام الصلوات ، وتؤدى الزكوات ، وتتحرى المتعبَّدات ... الخ » . انظر تفسير القرطبى ج ١ ص ٨١ وما بعدها .

وبهذا يتبين أن للمؤلف فيما يزعمه ويردده سلفا ، ولكنه سلف غير صالح !

(٤) ومما يؤخذ على المؤلف أيضا : أنه بعد أن حكم على رسم المصحف العثمانى بأنه كان عن خطأ من كاتبه وقصور ، زعم أن العلماء الذين عللوا لرسم المصحف قد أتوا بتعليلات شاذة عقيمة ، وترهات كثيرة ، وتمحلات غير مقبولة ، وأنهم ـ مع هذا ـ وقفوا أمام بعض المتناقضات فى رسم المصحف حائرين مشدوهين لم يستطيعوا أن ينتحلوا لها عذرا ، أو يحيروا عنها جوابا (ص ٥٨) ، وأن كل ما قيل فى الدفاع عن الرسم القديم والجدال حول صحته لا يخرج عن كونه لغوا وعبثا يجب أن تصان أفعال العقلاء وأقوالهم عنه (ص ٦٥) .

(٥) وقد عقد المؤلف فصلا بعنوان « التناقض الموجود فى رسم المصحف » ذكر فيه أن المصحف به كلمات من نوع واحد ولكنها كتبت على صور مختلفة مثل « لأاْذبحنه » و « لأعذبنه » كتبت الأولى بألف بعد لأ ، وكتبت الثانية بدون هذه الألف ؛ ومثل « وعتو » بدون ألف ، و « أتوا » ، و « دعوا » بالألف ؛ ومثل « من نبأى المرسلين » حيث كتبت بزيادة ياء بعد همزة « نبأ » فى حين أنها كتبت فى موضع آخر بدون هذه الياء ، وهو قوله تعالى « من نبأ موسى » . ومن ذلك أيضا « قال » تكتب أحيانا بألف ، وأحيانا دون ألف ؛ ومثل ذلك « إحسانا » و « إصلاحا » الخ .

والمعروف أن علماء الرسم تتبعوا أمثال هذه المواضع وعللوا لها بما يعرف منه أن هذا مرجعه الى مافى الكلمة من قراءات يحتملها الرسم ، أو ما فيها من قراءة واحدة تستدعى أن تكتب بصورتها التى لا تحتمل ما سواها ؛ وقد نقل المؤلف نفسه بعض ذلك فى مثل « قال » حيث كتب فى بعض المواضع بالألف وهى المواضع التى قرئت فيها قال فقط ، مثل « وإذ قال ابرهيم » . « وإذ قال موسى لفتيه » أما المواضع التى يقرأ فيها قال أو قل فقد كتبت فيها بدون ألف ثم وضعت المدة تنبيها على قراءة الألف كما فى قوله تعالى « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » و « قال رب احكم بالحق » . ومع نقله لهذا فإنه يتعقبه بما يزعم أنه يبطله ، والله يعلم إنه لمن المبطلين .

وقد سار المؤلف على طريقته ، فاختار من الأقوال ما يؤيد رأيه فى ذلك ، ولم

يعبأ بما رد به العلماء على تلك الأقوال ؛ شأن المتعصب لفكرة لا يريد أن يفتح عينيه إلا على ما يؤيدها ويروجها ، وليس هذا شأن المنصفين من الباحثين .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نورد فتوى ذات شأن من علماء أجلاء ، هم أعضاء لجنة الفتوى بالأزهر فى موضوع رسم المصحف ، وبها يتبين القول الفصل فى هذا الباب :

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الشريف اقتراح خاص بطبع المصحف الكريم على كيفية خاصة ، أساسها أن يكون بالرسم الكتابى العادى المتبع الآن بالأزهر الشريف وفروعه وجميع المعاهد العلمية بمصر والبلاد العربية إسلامية وغير إسلامية .

وقد أجابت اللجنة فى هذا الموضوع بما نصه :

« وأما طبع المصحف الكريم على قواعد الرسم الكتابى العادى المتبع الآن ، فاللجنة ترى لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه ؛ وذلك لأن القرآن الكريم كتب به وقت نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل ، وقد كتبت به مصاحف عثمان ، ووزعت على الأمصار لتكون إماما للمسلمين ، وأقر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عمل عثمان رضى الله عنه ، ولم يخالفه أحد فيما فعل ، واستمر المصحف مكتوبا بهذا الرسم فى عهد بقية الصحابة والتابعين وتابعى التابعين والأئمة المجتهدين فى عصورهم المختلفة ، ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعا أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولا الى تلك القواعد التى حدثت فى عهد ازدهار التأليف والتدوين فى البصرة والكوفة ، بل ظل مصطلح القرآن قائما مستقلا بنفسه ، بعيدا عن التأثر بتلك القواعد .

« ولا ريب أنه وجد فى تلك العصور المختلفة أناس يقرءون القرآن ولا يحفظونه وهم فى الوقت نفسه لا يعرفون من الرسم إلا ما وضعت قواعده فى عصر التأليف والتدوين ، وشاع استعمالها بين الناس فى كتابة غير القرآن ، ولم يكن وجود هؤلاء مما يبعث الأئمة على تغيير رسم المصحف بما تقضى به تلك القواعد .

« قال العلامة نظام الدين النيسابورى فى كتابه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ما نصه : « وقال جماعة من الأئمة : إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه » .

« وجاء فى الإتقان للإمام السيوطى ما نصه :

« وقال أشهب : سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى . رواه الدانى فى المقنع ، ثم قال : ولا مخالف له من علماء الأمة . وقال فى موضع آخر : سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف : أترى أن يغيّر من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا ، قال أبو عمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ ، نحو « أولوا » .

وقال الإمام أحمد « يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك »..

وقال البيهقى فى شعب الإيمان « من يكتب مصحفا ينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم ، ولا يغير مما كتبوه شيئا ؛ فإنهم كانوا أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم » اهـ .

« وقد جاء فى فقه الحنابلة ما يؤيد نقل السيوطى فى الإتقان عن الإمام أحمد بن حنبل .

« وجاء فى حواشى المنهج فى فقه الشافعية : إن كلمة « الربا » تكتب بالواو والألف ، كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة .

« وجاء فى المحيط البرهانى فى فقه الحنفية : إنه ينبغى ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثمانى .

« على أن قواعد الإملاء التى حدثت فى عهد التأليف والتدوين لم يتفق عليها واضعوها ، بل اختلفوا فى رسم كثير من الكلمات ، كما هو مدوّن فى مواضعه ؛

وهى بعد ذلك عرضة للتغيير والتبديل ، وقد صارت اليوم موضع شكوى وتفكير نظراً لما فيها من كتابة أحرف لا وجود لها فى النطق ، وترك أحرف منطوق بها ؛ فلا ينبغى والحالة هذه أن يخضع القرآن فى رسمه لهذه القواعد المختلف فيها ، والتى هى عرضة للتغيير والتبديل .

« وأما ما يراه أبو بكر الباقلانى من أن الرسم العثمانى لا يلزم أن يتبع فى كتابة المصحف ، فهو رأى ضعيف ، لأن الأئمة فى جميع العصور المختلفة درجوا على التزامه فى كتابة المصاحف ، ولأن سد ذرائع الفساد مهما كانت بعيدة ، أصل من أصول الشريعة الإسلامية التى تبنى الأحكام عليها ؛ وما كان موقف الأئمة من الرسم العثمانى إلا بدافع هذا الأصل العظيم ، مبالغة فى حفظ القرآن وصونه .

« أما ما ذكره صاحب الاقتراح من أن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن ولا يحسنون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى ، فاللجنة ترى - تسهيلا للقراءة على هؤلاء - أن ينبه فى ذيل كل صفحة على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف .

« على أن الأمر أهون مما يتصوره المقترحون للتغيير ؛ لأن رسم المصحف العثمانى لا يخالف قواعد الإملاء المعروفة إلا فى كلمات قليلة معدودة ، ومع ذلك فليست هذه المخالفة مما تحدث شيئاً من اللبس على القارىء المتأمل ، لأنها إما بحذف حرف ، كحذف الألف فى « بسم الله الرحمن الرحيم » أو زيادة حرف ، كزيادة الواو والألف فى « أولوا » أو إبدال حرف من حرف كرسم « الصلوة » بالواو بدلا من الألف ، أو وصل ما حقه الفصل ، مثل وصل « إن » بما الموصولة كما فى قوله تعالى : « إنما توعدون لآت » ، أو فصل ما حقه الوصل كفصل « فى » الجارة من « ما » الموصولة ، مثل « فى ما فعلن فى أنفسهن » . وواضح أن مثل هذا لا يشتبه على أحد أن ينطق به صحيحاً .

« وإن من يطلع على التعريف بالمصحف الذى أشير إليه فيما سبق ، يستطيع أن يتعرف تلك الكلمات بسهولة ، والله أعلم » .

٥ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — رئيس لجنة الفتوى

١٦ من فبراير سنة ١٩٣٧ — محمد عبد اللطيف الفحام

بسم الله الرحمن الرحيم

من الرجل العالمى منهما ؟

قام فى الولايات المتحدة الامريكية رجل دعا إلى وجوب قيام حكومة واحدة للعالم أجمع ، مادام غرض الناس واحدا ، وغايتهم من الحياة واحدة ، وهى العيش بسلام مطمئنين على أموالهم وأولادهم ، لا يتحيفهم ظالم ، ولا يتهضمهم متحكم ، أحرارا فى عقائدهم وآرائهم وطريقة حفظ الأمن فى ربوعهم ، فلا داعى لأن تتعدد حكوماتهم الرئيسية ، فإن بتعددها تتولد الحزازات ، وتنشأ المنافسات ، ويجر ذلك الى المعاكسات والمماحكات ؛ ذلك الرجل هو (جارى ديفز) وقد لقب بالرجل العالمى.

وقبل نحو ألف وثلاثمائة سنة ، ظهر فى صميم بلاد العرب رجل صاح بالعالم كله : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » وعمل على شاكلته فأخذ يدعو الناس سرا إلى عقيدته ، ويستهويهم إلى حقيقته ، حتى تبعه رجال يستطيعون أن يدافعوا عن وجودهم ، ولكنه لم يقبل أن يعرضهم للفناء المحقق ، حكمة باهرة ! فأمرهم بالصبر ، فلما عز عليهم ، أمرهم بالهجرة ولم يعرضهم للتلاشى ، وهم أركان الدولة المستقبلة ، وأعلام الكلمة الجامعة .

استمر محمد على هذه الحال حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع ، فاتفق مع أهل المدينة على الهجرة إليهم ، ولكنه اتخذ من التحوطات حتى لا يفشو هذا السر ما أمكنته الحيلة ، ثم أزمع الهجرة فى جنح الليل المظلم حتى لا يدركه أعداؤه فيبطلوا تدبيره ، ولم يستصحب من أصحابه إلا رجلا واحداً يثق به كما يثق بنفسه ، فلما أدركه نور الإصباح لجأ الى غار يدعى حراء ، قيل كان من الوحشة ، وصعوبة المدخل ، بحيث يعز على أجرأ الناس أن يقتحمه . وانتهى دليل أعدائه الى ذلك الغار وأشار إليه ، فلم تسمح نفس أعدى أعدائه بأن يزج بنفسه فيه . فلبثوا مليا ينظرون إليه ، ثم ينظر بعضهم الى بعض حتى سئموا ، فرجعوا أدراجهم خائبين . ولما اطمأن محمد وصاحبه على نفسيهما خرجا يذرعان الصحراء ذرعا ، قاصدين المدينة ، حتى بلغاها بعد لأى ونصب . فقابلهم أهلها باحتفال رهيب .

بلغ محمد مأمنه بين ظهرانى قوم حالفوه على أن يحموه من أعدائه ، ويحموا دينه الذى جاء به ، فأخذ يدبر أمر الدعوة العالمية التى أرسل بها الى الناس كافة ، نعم الى الناس كافة، وبنص القرآن : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، بشيرا للذين يقبلون الدين العالمى ، ونذيرا للذين يرفضونه .

كان أول ما شرع فيه محمد من السير فى هذا العمل المدهش أن أعد كتبا وأرسلها للبراطرة والقياصرة والزعماء المعروفين فى زمنه ، كأمبراطور الرومان ، وشاهنشاه العجم ، وملوك اليمن والعراق وغيرهم. ولكن أهؤلاء كانوا هم العالم كله ؟ إن مال بعضهم للوجه السلبى ، قلنا له : إن الرومانيين كانوا على اتصال وثيق بالجماعات الأوروبية باعتبار أن أمبراطوريتها كانت فى وسطها . وكان الفرس فى مكان من آسيا يشرفون على التركستان والهند المتصلتين بالصين ، وعلى الأناضول وجميع من يعاملهم من صنوف الأمم .

أما أفريقا فكانت خيرة ممالكها جزأ من الأمبراطورية الرومانية كمصر وشمال أفريقا كله ، إلا ما انحط من جماعات السودان فكانوا إذ ذاك لهم شأن يغنيهم عن الدعوات العالمية .

عمَل مرتب ، قائم على أصول اجتماعية مقررة ، وملاحظ فيه ناموس التطور ، حتى انتهى فى عصرنا الحاضر إلى غايته القصوى ، وأصبح فى درجة البدهيات العقلية .

فأما أنه مرتب فقد بدأ بالدعوة السرية فى أمة لم تعرف ملاحرية الرأى ، ثم ترقى فأبلغ إلى عشيرة الداعى ، ومنها إلى سواد الأمة ، ثم تعداها إلى الخارج ، فترك فيها أثراً لا يكاد يدرك . فماذا حدث بعد هذا العمل الأولى ؟

دأب محمد على الدعوة العالمية ، مخاطبا الناس كافة ، لا العرب خاصة . فقرر للناس أن الدين واحد لا يتعدد ، أنزل على أول النبيين كما أنزل على خاتمهم ، وأن الذين آمنوا ببعض الأديان وكفروا بالبعض الآخر هم ضالون مضللون ، فالدين واحد كوحدة الإنسانية فى صفات أفرادها الطبيعية والنفسية ، وفطرهم الأدبية والخلقية ، وأغراضهم المادية والمعنوية ، ومراميهم الجسدية والمثالية . ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن لا تكون للبشرية إلا ملة واحدة ، فيحدث بينها من التعاطف والترافد ما بين الإخوة الأقربين ، فلا يثور بعضهم على بعض ،

ولا يجنى بعضهم على بعض ، بل يعيشوا إخوانا مترافدين ، وهو أقل ما يجب للإنسانية الكريمة من التعاطف والتساعد ، لبلوغ الغايات القصوى التى ادخرها الله للإنسانية فى أدوارها الراقية .

لم يقف جهد محمد عند هذا الحد ، ولكنه تعداه إلى ما هو أبعد مدى ، وأعظم تأثيرا فى النفس (١) وذلك بأنه قرر أن الدين الذى أتى به ليس بدين جديد ولكنه الدين الأول الذى أنزله الله على الأنبياء كافة ، ليكون نورا وهدى للناس كافة :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع (أى فلوحدة الدين فادع) واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، اللهُ ربّنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

وفى آية أخرى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم » .

وفى آية أخرى :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم فى شىء » .

وفى آية أخرى :

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته

---

(١) اقتضى الطراز الأدبى الذى اخترنا أن نكتب به مقالنا فى هذا الشهر أن نغفل الصلاة والتسليم على النبى كلما ذكر خلافا لعادتنا ، وأن ننسب إليه أصولا كلف أن يفرضها على الناس ، وليس هو الذى فرضها من تلقاء نفسه ، فنرجو القارىء أن يلاحظ ذلك ويتلمس لنا عذرا .

وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

ومما يجب لفت النظر إليه أن الإيمان الذى يعتد به محمد هو الإيمان برسل الله أجمعين ، وبما أنزل إليهم من الكتب جمعاء لا الإيمان ببعضهم وبعضها والكفر بالبعض الآخر .

ومما هو أدعى إلى الإكبار ، وأدل على الغرض السامى الذى قصده الإسلام أن من شروط هذا الدين الأولية أن من أبى أن يؤمن برسالة رسول أو نبى من الرسل والأنبياء الذين أرسلوا للأمم السالفة لا يعتبر مسلما مهما كانت درجة إيمانه بمحمد ، ويخلد فى النار مع الكافرين : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

فالدين الذى أرسل به محمد هو دين الإنسانية أجمع ، لا دين أمة من أممها ، وشرط الدخول فيه أن يؤمن بأنبياء الله ورسله كافة ، لا يفرق بين أحد منهم ، فكما أن الإنسانية وحدة لا تتجزأ تترابط أجزاؤها مع مرور الأزمان ، وتقوى صلاتها تبعاً لزيادة التبادل بينها ، كذلك دياناتها وحدة روحية لا يجوز التخالف فيها ؛ فالمسلم أخو المسلم وشريكه فى الحياة ، وإن كان بين وطنيهما بُعد المشرقين ، وبين لغتيهما تناقض الضدين . فإن كان قد كتب للبشر أن تكون لهم حكومة واحدة . فلا سبيل اليها إلا هذا السبيل ، وإلا فإن كل ما يبذل فى سبيل إيجادها من بحوث لا يعدو أن يكون كلاما فى كلام ، لايلبث أن تسأمه النفوس ، وتنبو عنه الأسماع لظهور استحالته للعيان . نقول هذا ونحن نعلم أن خضوع العالم كله لحكومة واحدة ، وهو على ما هو عليه من عوامل التفرق ، من المحالات العقلية ، ولكننا كتبنا ما رأيت لندلل على أن الإسلام دين عالمى فى كل ما يرمى اليه .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الذى يجب أن يدعى بحق « الرجل العالمى » أمحمد رسول الله أم المستر (جارى ديفز) ؟

محمد فريد وجدى

محمد رسول الله

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » .

هذه الآية الكريمة ترتبط بقوله تعالى فى الآية السابقة « وكفى بالله شهيدا » . فهى قضية مستقلة مستأنفة لبيان المشهود به ؛ فقد بينت أن المشهود به هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولم يشأ الله تعالى أن يؤكد هذه النسبة الشريفة بأى نوع من أنواع التأكيد ، بل ساقها مساق المسلّمات مع أنها من أخطر القضايا النظرية لمساسها بصميم الإيمان والعقيدة ، ضرورة أن الإيمان لا يكون إلا بالاعتراف بها واعتقادها ، والإذعان والتسليم بها مع الإيمان بوحدانية الله — إيذانا بأنه ينبغى أن تكون هذه النسبة الكريمة فوق مستوى الشبهات والشكوك والريب ، فضلا عن الإنكار ؛ لكثرة ما قام عليها من البراهين القاطعة ، والحجج الساطعة ، والمعجزات الباهرة ، التى تجعلها بعد النظر فيها فى مقام البدهيات والمسلّمات . ولولا أن سبيلى فى هذا المقام هو تفسير الآية الكريمة لذكرت للقارىء هذه الأدلة القاطعة على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو شيئا منها ، وهل من سبيل الى الشك والارتياب بعد هذه المعجزة الخالدة : معجزة القرآن الكريم ؟

ويجوز أن تكون مرتبطة بقوله تعالى فى الآية السابقة « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . فكأن سائلا يقول : من هو هذا الرسول العظيم الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ؟ فقال تعالى : هو « محمد رسول الله » ، فلا تكون الجملة الكريمة مستقلة ، بل يكون الاسم الشريف خبرا لمبتدأ محذوف ، ورسول الله نعتاً ، أو بدلا ، أو عطف بيان ؛ وفصلت الجملة ولم تعطف على ما قبلها لوقوعها منها موقع الجواب من السؤال . وإضافة « رسول »

الى « الله » فيها من التشريف له صلى الله عليه وسلم ، والتنويه برفعة شأنه مالا يخفى على ذى ذوق سليم ؛ إذ رسول الملك يعتز ويزهو بهذه الإضافة فى محاسن العادات ، فما بالك و « محمد رسول الله » ؟ وإيثار التعبير بلفظ الجلالة هنا ، وهو العَلم الدال على الذات الأقدس ، دون التعبير بالرحمن أو الرحيم مثلا أو غيرهما من الصفات الكريمة ، لقصد إيقاع الرعب والمهابة فى قلوب المخاطبين ، ليسارعوا الى اعتقاد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة .

وإن تعجب فعجب حال هؤلاء الذين أعمت العصبية بصائرهم ، وأشربوا فى قلوبهم حب الدنيا ومناصب الرياسة ، فلم ينظروا فى المعجزات وخوارق العادات ، ولم يصدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وخصوصا أهل الكتاب (التوراة والإنجيل) الذين قرأوا ما جاء فيهما بخصوص رسالته صلى الله عليه وسلم ولم يؤمنوا به .

أيظن هؤلاء أنهم بكفرهم بمحمد لم يكفروا بكتابيهما ، وقد أنكروا آيات منهما ؟ أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ يأهل الكتاب ما كان محمد بدعا من الرسل ، وما جاء إلا بما هو مصدق لما معكم . ولكن ما الحيلة فيمن ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ولما بين الله تعالى أن رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وشهد بذلك وكفى بالله شهيدا ، ثنّى بذكر أصحابه ، وأشاد بصفاتهم العجيبة التى ذهبت مذهب الأمثال ، لرفعة شأنها ، وسموها ، وغرابتها ، والتى ذكرها فى التوراة والإنجيل فقال :

« والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

ما أروع التعبير بالموصول هنا ، وما أعظم الشرف والفضل المفهومان من قوله « معه » ! أتريد أن يكون لأصحاب محمد من الفضل والرفعة والسمو والنبل أكثر من أن يكونوا هم أصحاب محمد وهم معه .

وروعة الموصول فى هذا المقام لأنه يشعرك ابتداء ومن أول الأمر بأن صفات أصحاب محمد الآتية بعد ذلك ، والتى وقعت خبراً عن هذا الموصول ، من أجلّ الصفات خطراً وأعظمها أثراً ، استأهلت أن تذهب مذهب الأمثال

فى التوراة والإنجيل . وإن شئت تعبيراً اصطلاحيا بلاغياً فالموصول هنا للإيماء إلى وجه بناء الخبر ؛ نظير ذلك للتقريب ـ ولله المثل الأعلى ـ قول الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

فقد قالوا إن الموصول وصلته فى البيت يشعران بأن الخبر من جنس الرفعة ، ولكن الموصول فى الآية « والذين معه » لا يشعرك بجلال شأن الخبر فحسب ، بل هو أعظم أثراً وأبعد غوراً ، لذهاب الخبر فى الآية الكريمة مذهب الأمثال فى الكتابين .

ويرى ابن عباس رضى الله عنهما ، أن المراد بالذين معه أصحابه الذين حضروا معه غزوة حنين فقط ، بقرينة أنها نزلت عند انصرافه صلى الله عليه وسلم من حنين . ويرى الجمهور أنهم جميع أصحابه لا فرق بين من حضر منهم حنينا ومن لم يحضر .

و « أشداء » جمع شديد ، و « رحماء » جمع رحيم .

والمعنى : أن فيهم غلاظة وشدة على أعداء الدين ، ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين ، ونحوه قوله تعالى فى آية أخرى « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » .

قال الحسن رضى الله عنه : بلغ من تشدد الصحابة رضى الله عنهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تقترب من ثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ؛ وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه .

ولم يكن ذكر هذين الوصفين (الشدة والرحمة) وكذلك الصفات الآتية لمجرد الإعلام والإخبار بأنها صفات الصحابة رضوان الله عليهم الدالة على فضلهم ورفعة شأنهم فحسب ، ولكن لأجل أن يتأسَّى المسلمون بعدهم بهم على اختلاف طبقاتهم وعصورهم ، ولذلك عنى العلماء والأئمة بذكر الأحاديث والآثار الواردة فى معنى التراحم فى هذه الآية الكريمة ، فلم يختلفوا فى أن المصافحة من التراحم . واختلفوا فى المعانقة ، فكرهها أبو حنيفة إلا عند القدوم من سفر ، ورخص فيها أبو يوسف وغيره .

واستدل أبو حنيفة بما أخرجه الترمذى عن أنس قال : سمعت رجلا يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله : الرجل منا يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : لا ، قال : أفيلتزمه ويقبِّله ؟ قال : لا ، قال : أيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم . وزاد رزين فى حديث أنس هذا بعد قوله « ويقبله » قال : لا ، إلا أن يأتى من سفره .

وجواز المعانقة عند القدوم من السفر مأخوذ أيضا من حديث عائشة رضى

الله عنها فيما أخرجه الترمذى وحسنه قالت : قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة ورسول الله فى بيتى ، فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرّ ثوبه فاعتنقه وقبّله . ولا أريد أن أطيل فى ذكر الروايات ، فهى كثيرة لا يتسع لها المقام ، وإنما أردت أن أبين عناية الأئمة فيما يبين معنى التراحم .

فإن قال قائل : إن الاتصاف بالشدة والرحمة أمر عادى فى الناس لا غرابة فيه ، فكيف كان مضرب المثل فى التوراة والإنجيل ؟

قلت : إن الغرابة ليست فى الشدة والرحمة لذاتهما ، ولكن فى بلوغهما الحد الأقصى فى الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فهم قد بلغوا أقصى حد الشدة على الكفار ، وأعلى درجات الرقة والرحمة على المؤمنين ، وهو أمر يخالف العادة إلى حدّ ما ؛ ذلك لأن الرجل إذا غلبت عليه الشدة لا يكون رحيما إلا فى أحوال نادرة لا حكم لها لتغلب طبع الشدة عليه ؛ وكذلك إذا عرف بالرقة والرحمة قلّ أن يكون شديدا ؛ أما إذا كان شديدا جدا فى بعض الأحوال ، ورحيما جدا فى بعضها ، كان غريبا حقا فيما جرت به عادة الناس ، وهذا هو وجه الغرابة فى الوصفين . والشأن فى ذلك الشأن فى الصلاة ، وهو الوصف الثالث المذكور فى قوله تعالى :

« تراهم ركعا سجدا » . سواء ؛ إذ معنى هذا الوصف : تراهم مصلين ؛ فأنت ترى الصلاة أمرا عاديا فى المؤمنين ، ليست من الغرابة بحيث يضرب بها المثل ، لكن إذا التفتنا إلى التعبير بالمضارع « تراهم » الدال على التجدد المستمر ، وإلى الإطلاق وترك تحديد الوقت فى « ركعا سجدا » الدال على أنهم كثيرو الصلاة جدا فى جميع الأوقات حتى عرفوا بذلك واشتهروا به ، فلم يتركوا نافلة ، راتبة أو مطلقة ، فضلا عن الفريضة ؛ ولم يتركوا ليلة بدون تهجد وصلاة ليل ، فهم يصلون بالليل وبالنهار ، وفى الحضر والسفر ، وفى الصحة والمرض .

أقول : إذا تنبهنا لكل ذلك ، وهو مفهوم من الآية ، علمنا وجه الغرابة فى صلاتهم التى استأهلت أن تكون مضرب المثل . ويرشح لذلك ويؤيده قوله تعالى : « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » الدال على غاية الإخلاص فى هذه العبادات الكثيرة ، التى لم تكن رياء ولا نفاقا - حاشاهم - بل رجاء فضل الله ورضوانه ؛ فإن العادة جرت بأن الرجل إذا أكثر من العبادة كثرة خارجة عن المألوف

فى العادة، كان فى موضع الشبهة واتهامه بالغاية، فبرأهم الله من ذلك بقوله: «يبتغون». فغايتهم منها أشرف الغايات وأرفعها شأنا، وهى ابتغاء فضل الله ورضوانه. ويقرب هذا المعنى ويعززه فصل الجملة من سابقتها لوقوعها منها موقع الجواب من السؤال، فكأن سائلا قال: ما هى غايتهم من هذه الصلاة الكثيرة الخارجة عن حد المألوف؟ فكان الجواب «يبتغون فضلا من الله ورضوانا».

وما أجمل وأبدع التعبير بقوله فى هذا المقام «فضلا»! فإنه يرهف وجدان السامع، ويشعره بمعنى من أرفع المعانى شأنا، وهو أنهم لا يرجون من عبادتهم الغريبة هذه أجرا، بل يعبدون الله لأنه الله، ولأنه يستحق العبادة لذاته؛ فإن منحهم الرضوان فذلك فضله؛ وهى أرقى أنواع العبادات على الإطلاق فى الإسلام، لا يقدر عليها إلا خواص خواص المؤمنين، وهم طبقة الصحابة رضوان الله عليهم؛ فعباداتهم غريبة خارجة عن المألوف، وغايتهم منها كذلك. ألا تكفيك هذه الغرابة فى مضرب المثل؟

«سيماهم فى وجوههم من أثر السجود»:

أى علامتهم فى جباههم من أثر السجود. وللعلماء فى هذه العلامة أقوال، أشهرها: أنها نور يظهر على وجوههم فى الدنيا والآخرة، إلا أنه فى الآخرة يكون أكثر وضوحا.

ودليله ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: سيماهم فى وجوههم من أثر السجود: النور يوم القيامة.

«ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل»:

آثر التعبير باسم الإشارة الدال على البعد إيذانا بعلو شأن المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل. و «مثلهم» أى وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى المثل. وفى «التوراة» حال من مثلهم، والعامل فيه معنى اسم الإشارة، وأعاد كلمة «ومثلهم» لتأكيد الغرابة وزيادة تقريرها. وفقنا الله للاقتداء بهديهم، والتأسّى بهم. إنه سميع مجيب.

الاسلام

دين العـــلم والعمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بادارة المعاهد الدينية

أودع الله كل فرد من أفراد النوع الإنسانى قوتين ، هما أساس جدارته بالخلافة عن الله فى الأرض ، وعمارة هذا الكون ، وعليهما قام كل دين سماوى كلف الله به الإنسان ، بل كل نظام عرفته الأرض له صلة بهذا المخلوق الممتاز على سائر ما خلق الله :

هاتان القوتان هما : القوة العالمة ، والقوة العاملة . وكلتاهما فطرية مركوزة فى الطباع ، مقترنة بالحياة ، تولدان مع الوليد ، وتموتان مع الميت ، وليس للمرء فيهما حيلة ولا اختيار .

فأما القوة العالمة فأعنى بها استعداد الإنسان لأن يفقه الأشياء بفهمه ، ويدركها بعقله ، سواء أكانت إدراكات تصورية ، أو إدراكات تصديقية ، كما يقول أهل المنطق ؛ لا تجد إنساناً حياً إلا وعنده هذا الاستعداد ؛ فالمرء يدرك منذ يولد ، ويصاحبه هـذا الإدراك فى جميع مراحل حياته ، ولا يتخلى عنه يقظاً أو نائماً ، صحيحاً أو مريضاً ، كاملا فى عقله أو ناقصاً أو مجنونا ؛ غير أن الإدراك يختلف صحة وفساداً ، وقوة وضعفاً ، وثباتاً واضطراباً .

وأما القـوة العاملة فهى القدرة على استخدام الجوارح والأعضاء البدنية فى توجيه شىء ما ، على نحو من الإيجاب أو السلب ؛ فتأثير الفاعل فى شىء من الأشياء إيجاباً فعلٌ ، وامتناعه عن التأثير مع قدرته على محاولته فعل ؛ ولا يوجد حى من الأحياء إلا وفى قدرته عمل شىء ما ، والامتناع عن شىء ما ؛ ولو فقد الإنسان هـذه القدرة فقداً تاماً ، ولم يكن مستطيعاً « الفعل » على صورة من الصور لما كان إلا ميتاً على الحقيقة لا على التمثيل .

وللمرء لذة فى علمه ، كما له لذة فى عمله ؛ فأية ناحية لا يجد فيها هاتين اللذتين ينصرف عنها ، وينفر بطبعه منها ؛ فلو تصورنا مذهباً من المذاهب لاهمّ له إلا أن يوجه أصحابه إلى النظر الدائم ، والتفكير المتواصل ، والتغلغل فى آفاق البحث عن الحقيقة ، أو مذهباً على العكس من ذلك يوجه إلى العمل الآلى ارتجالا على غير هدى ، وبلا ضابط من تفكير أو تدبير ؛ لكان كلا المذهبين باطلا ، لمنافاته الطبيعة ، وخروجه عن الفطرة .

ولكن بجانب اللذة فى العلم والعمل ، كمالاً فيهما ؛ فعلم الأباطيل ، وتصور الاوهام ، وامتلاء الذهن بما لاينفع ولا يغنى ، تضييع للقوة العالمة وإفساد لها ؛ إذ ينتهى الأمر بها إلى أن يصير الإنسان كالحيوان الأعجم ، لا يميز الصحيح من الفاسد ، ولا الجميل من القبيح . وقل مثل ذلك فى الأعمال ، فإن فعل الشرور وارتكاب الآثام ، وتوجيه القوى الى الهدم والفساد ، من شأنه أن يجعل الإنسان نوعا من الحيوانات الضارية التى تتق ويحتاط من شرورها .

لذلك لم يكن بد من تزويد هاتين القوتين فى الإنسان بزادهما ، وتوجيه كل منهما الوجهة الصالحة التى تتحقق بها الغاية المقصودة من استخلاف الإنسان ، وتسليطه على هذا الكون ، وتمكينه من الانتفاع بما فيه من قوى ، والاعتبار بما يرشد إليه من عظمة خالقه وكماله ، مع ضمان حصوله على أكبر قسط من اللذة النفسية ، والسعادة الروحية والعملية ، التى يتطلبها بطبعه .

والإسلام هو أكمل وأسمى ما عرفته الجماعة البشرية من الأديان والنظم ، فى تلبية هذه الفطرة ، والقيام على صلاحها والإصلاح بها .

لقد انحطت القوة العالمة قبل الإسلام إلى درجة وضيعة ، فكان العقل البشرى ينكر الإله ، ويعبد الأصنام ، ويؤمن بالخرافات ، ويقر الخزعبلات ؛ فهذا شيطان يلهم الشعر ، وتلك هامة تنادى ليلها ونهارها أن اسقونى ، وهذه كعب أرنب تق العين ، وتحمى من الجن ، وهذا عراف يخبر بالغيب ، ويستخير النجوم والكواكب ، وتلك دماء بشرية تشفى من الكلب ، وهذا سانح أو بارح يتحكم فى الغادين والرائحين ، ويقرر مصير المسافرين أو المقيمين ... وهكذا .

كما انحطت القوى العاملة ، فانتهكت الحرمات ، واضطرمت نيران الحروب ، واعتدى الأقوياء على الضعفاء ، وامتلأت الأرض بالشر والفساد ، ولم تبق للأموال حرمة ، ولا للدماء حرمة ، ولا للأعراض حرمة .

فلما جاء الإسلام جاهد هذا الفساد فى الناحيتين جهادا عظيما ، وانتصر فى جهاده انتصارا لم يظفر به دين ولا نظام من قبله : كان أكبر همه يوم جاء أن يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الحق والعلم ، فيصلح فى الإنسان الملكة العالمة : دعا إلى الإيمان بإله واحد قادر متصرف لا سلطان لأحد مع سلطانه ، متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقصان ، يقضى فضله وإحسانه بإرسال الرسالات إلى الناس هداية وإصلاحا ، وتقضى حكمته وعدله بأن يبعث الناس بعد الموت الى دار أخرى يلاقون فيها جزاء ما قدموا من خير أو شر « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ودعا إلى اطراح الأوهام ، ورفض الخرافات ، والتحلل من سلطان أهل الدجل والشعبذة ، والتماس الأسباب الصحيحة للحياة الراضية الطيبة ؛ فلما آمن الناس بذلك ، ودانت له عليه العقول ، وخضعت القلوب ، وذاق الناس لذة الحقيقة ، وأعرضوا عن الأباطيل والترهات ، جاء دور الإصلاح العملى ، فسن لهم هذه الشريعة الواضحة السمحة التى تكفل لهم الأمن والسلامة ، وتوفر لهم أسباب السعادة ، وتستل من بينهم عوامل الشر ، وتقيم فيهم وبهم عالما فاضلا راقيا ، وتلبى فطرهم ، وتعترف بحاجاتهم وعلاقاتهم .

وبهذا جمع الإسلام بين إصلاح القوة العالمة ، والقوة العاملة فى الإنسان ، ورسم لهما سياسة توجيهية صالحة لكل زمان ومكان .

* * *

لم يحجر الإسلام على العقول ، ولم يحل بينها وبين الدراسات والتأملات ؛ ولكنه طلب من الناس أن يفرقوا بين ما هو « عقيدة » يجب الإيمان بها ، والتسليم لله فى شأنها ، وبين ما هو « نظريات » ترجع الى اجتهاد المجتهدين ، وبحث الباحثين ؛ فبينما هو يُحكم الآيات ، ويقطع بالبينات فى أمر الألوهية والرسالات واليوم الآخر وما يتصل بذلك من حقائق ، ولا يقبل فيها ريبا ، ولا تزلزلا ، ولا يسمح فيها بخلاف ، نراه يترك ما عدا ذلك من « المعلومات النظرية » فلا يوجه فى شأنها الى نواح معينة ؛ وإذا تناول أو مس شيئا منها تناوله ، أو مسه بعبارات صالحة للتدبر وإعمال الفكر ، لتكون مجالا لذوى النظر ، ونطاقا لأرباب العقول ، يصلون فيها بجهودهم الى ما يترجح عندهم ، دون أن يلزمهم برأى معين . فكل علم أو نظر لم يتعلق به من الشارع قول محكم مقطوع به ، ولا يصادم أصلا

من أصول الإيمـان ، فالأمر فيه أمر اجتهاد وبحث ، ولا يُلزم الإسلام بالسير فيـه ، ولا بالانصراف عنه ؛ فمن رأى أن يوجه فكره وقلبه ودراسته وتأملاته الى شيء من ذلك ليرضى شغفه العلمى ، ويصل الى معرفة الحقيقة فى أمر من الأمور ، فله ذلك ؛ ومن رأى أن ذهنـه عن أمثال هذه الدراسات والتأملات فى كلال فانصرف عنها ، واكتفى بمـا لابد من علمه واعتقاده بتكليف الله ، فله ذلك ؛ ومن أداه اجتهاده ، وأفضى به نظره إلى حكم معين لا يصادم عقيدة مقطوعا بها ، فله أن يطمئن به قلباً ، وله أن يدعو إليه غيره بالحجة والبرهان ، ولغيره أن يوافقه على مارأى ، أو يخالفه فيه ، دون أن يقذف أحدهما الآخر بكلمة الـكفر أو الفسوق أو الزندقة ، أو ما إلى ذلك من ألفاظ التفريق بين المؤمنين .

هـذه الحرية الفكرية الواسعة ، يكفلها الإسـلام لمعتنقيه ، ويفتح بها أمام العقول أوسع مجال للنظر والبحث والتعمق ، ويرضى بها النزعـة الإنسانية إلى العلم والمعرفة ؛ ولـكن أقواما يغفلون عن منهج الإسلام فيخلطون بين « العقائد » و « المعارف » فتراهم يجمعون بين الأمور القطعية التى يجب على كل مؤمن بالله أن يعتقدها ويصدقها ، والأمور الاجتهادية التى لم يرد بها نص قاطع يكون التزامه إيمـانا ، ورفضه كفرا ؛ يجمعون بين هـذا وذاك فى الحكم ، ويسوون بينهما فى النتائج ، وقد أفضى ذلك بالمسلمين الى التفرق بالمذاهب ، والاختلاف بالعصبيات ، مع أنهم أمة واحـدة ، دينها واحد ، وكتابها واحـد ، ورسولها واحد . وصرنا نرى جماعة من المسلمين ينتحون ناحية ، ويتخذون لهم شعارا خاصا ، ومساجـد خاصة ، ويعتنقون أفـكارا معينة يرونها هى الحق ، ويرون الإيمـان بها واجبا ، ويرون كل مخالفيهم فى أمرها كافرين أو مشركين .

وهـذا لعمرى هو أصل الداء ، وأساس البلاء ! وهو السبب فى انقسام المسلمين منذ عهد بعيـد إلى معتزلة وسنية ، وجبرية وقدرية ، وشيعة ورافضة ، وهو السبب أيضا فى انقسامنا الحاضر إلى سبكية ووهابية ، وطوائف تقـدس الأولياء ، وأخرى تعتبر تقديسهم شركا وخروجا على الله ! .

إن حالة المسلمين الحاضرة تدعو إلى الـكف عن مثل هذه الخلافات النظرية التى فرقتهم ، والى إثارة القوة العاملة فيهم ، فإنه لاخير فى علم بلا عمل . وإن علما يؤدى إلى الشتات ، ويثير الضغائن والنزاع ، ويقطع الأواصر بين المسلمين ، لهو علم خير منه الجهل ، لو كانوا يعلمون ؟

مسئولية الاطباء

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز المراغي
الإمام الخاص للحضرة الملكية

تتبعت باهتمام تلك المقالات التى يكتبها الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم القاضى بمحكمة المنيا الوطنية ، ورجوت المزيد من هذه الأبحاث فى هذا الموضوع وفى غيره على النهج الذى نهجه الفاضل الباحث ، فذلك — فى نظرى — الطريق الوحيد لعرض الأبحاث الشرعية على المعنيين بدراستها من رجال القانون الوضعى الذين لا يعنون أنفسهم بالجرى وراء تلك الأبحاث فى مظانها من كتب الفقه ؛ ورجوت أيضاً أن يعنى القوامون على الفقه الإسلامى من رجال الأزهر بقراءة هذه الأبحاث ومناقشتها ، فالمساجلة والأخذ والرد فيها تكفل لنا نوعا من الحياة ، والبعث للآراء الفقهية التى لا ينكر أحد ما فيها من غناء ، وما بها من ثروة .

نعم تتبعت باهتمام تلك المقالات ، وكنت على أن أكتب فيها معلقاً على مايقوله الدكتور المحترم ، ولكن ظروف الحياة ليست فى ملك اليمين ، حتى قرأت تعليقاً للأستاذ المحترم الشيخ محمد على النجار حول المقال الأول من مقالات القاضى الفاضل : فنبه ذلك منى ما كنت على عزم عليه .

وإنى أطمئن السيدين الفاضلين على أن ما رجواه موجود فى كتب الفقه ؛ وشىء من البحث يدل السيدين على ما يرغبان .

أثار الدكتور الفاضل فى عدد ذى القعدة سنة ١٣٦٧ مسألة التطبيب فى النظام الحديث وفى الفقه الإسلامى ، وقال ما نصه : « وهذه التفرقة بين من حصل على شهادة تخول له ممارسة الأعمال الطبية وبين من لم يحصل عليها ، لا يجدها واضحة فى كتب الفقه الإسلامى . ومرد ذلك — فيما نعتقد — أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية فى الدول الإسلامية المختلفة » . وعلق الأستاذ النجار على هذه العبارة بأن الفقهاء نصوا على أنه يحجر على المتطبب الجاهل ، ولا يمكّن من معالجة الناس ؛ وذلك كاف فى الفرق

بين الصفتين . ثم ذكر الأصل فى التفريق بالحديث الذى رواه ، وبعبارة نقلها عن كتاب أخبار العلماء للقفطى أخ ما ذكره الأستاذ النجار فى عدد المحرم سنة ١٣٦٨ .

ومن الخير أن نذكر أن عبارة الدكتور الفاضل فى عدد ذى الحجة والمحرم ناطقة بالفرق الذى يريده الأستاذ المحترم ، كما سنعرض لذلك فيما بعد ؛ أما أن الفقهاء لم يعرضوا لهذه التفرقة فقد عرض لها كل من كتب من علماء الفقه الإسلامى على تعدى الأجير وزيادته على ما طُلب منه ؛ ولكن قبل أن نعرض لعبارات الفقهاء ننقل للأخ المحترم العبارات الصريحة فى الفرق بين من يحمل شهادة ومن لا يحمل :

قال العلامة محمد بن محمد بن أحمد القرشى المعروف بابن الأُخوَّة الشافعى ، فى كتابه معالم القربة فى أحكام الحسبة ، المطبوع فى مطبعة دار الفنون فى كمبردج سنة ١٩٣٧ (الباب الخامس والأربعون فى الحسبة على الأطباء والكحالين والجراحين والمَجبِّرين) بعد كلام طويل فى الطب ولزومه ، والأسى على قلة القائمين به من المسلمين ـ : « والطبيب هو العارف بتركيب البدن ومزاج الأعضاء والأمراض الحادثة فيها ، وأسبابها وأعراضها وعلاماتها ، والأدوية النافعة فيها والاعتياض عما لم يوجد منها ، والوجه فى استخراجها وطريق مداواتها بالتساوى بين الأمراض والأدوية فى كمياتها ، ويخالف بينها وبين كيفياتها ؛ فمن لم يكن كذلك فلا يحل له مداواة المرضى ، ولا يجوز له الإقدام على علاج يخاطر فيه ، ولا يتعرض لما لا علم له فيه . وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطبب ولم يُعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن » . وينبغى أن يكون لهم مقدم من أهل صناعتهم ؛ فقد حكى أن ملوك اليونان كانوا يجعلون فى كل مدينة حكيما مشهورا بالحكمة ثم يعرضون عليه بقية أطباء البلد فيمتحنهم فمن وجده مقصرا فى علمه أمره بالاشتغال وقراءة العلم ، ونهاه عن المداواة . وينبغى إذا دخل الطبيب على المريض سأله عن سبب مرضه وعما يجد من الألم ، ثم يرتب له قانونا من الأشربة وغيره من العقاقير ، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض

بشهادة من حضر معه عند المريض ؛ وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ونظر إلى قارورته (١) وسأل المريض : هل تناقص به المرض أم لا ؟ ثم يرتب له ما ينبغى على حسب مقتضى الحال ، ويكتب له نسخة ويسلمها لأهله ؛ وفى اليوم الثالث كذلك وفى اليوم الرابع وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت ،فإن برئ من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته ،وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التى كتبها لهم الطبيب ، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب قال : هذا قضى بفروغ أجله ؛ وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم : خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذى قتله بسوء صناعته وتفريطه . فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد ، حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله ، ولا يتهاون الطبيب فى شىء منه . وينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط الذى أخذه على سائر الأطباء ؛ يحلفهم أن لا يعطوا أحدا دواء مضرا ، ولا يركبوا له سما ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة ، ولا للرجال الذى يقطع النسل ، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى ، ولا يفشوا الأسرار ، ولا يهتكوا الأستار ، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم . وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، . . . الخ .

ثم بدأ يذكر ما يمتحن فيه الكحال والجراح والمجبر والفصاد والحجام ، وما يجب على المحتسب نحوهم من التأديب والمنع الخ ما ذكره من الأشياء التى تعتبر مقياسا للطبيب إن عداه عُدّ جاهلا يحرم من مزاولة فنه ، ويؤدب على النحو الذى نص عليه فى سلطة المحتسب .

فلعل الأخ الفاضل ـ بعد هذه العبارة الطويلة ـ يطمئن إلى أن الفقهاء قد عرفوا بالتحديد الفرق بين الطبيب العالم والطبيب الجاهل . فتلك العبارة التى نقلناها لابن الأخوة عبارة فقيه شافعى يحدد ما يقوم به المحتسب نحو الأطباء من جعل كبير أو نقيب لهم يكون المرجع فيما يتعلق بشأنهم ، ومن أخذ المواثيق عليهم

(١) لعل المراد القارورة التى يكون بها البول ليتعرف سير المرض من لونه، أو لعلها قارورة الدواء .

بقراءة عهد أبقراط الذى لا يزال قسما يأتلى به الأطباء حتى اليوم عند خروجهم من حياتهم العلمية إلى حياتهم العملية ، ومن مواد الامتحان ، ومن أسرار المهنة ، إلى غير ذلك من التفاصيل الموجودة فى هذا الكتاب ، والتى لا أريد أن أمل القارىء بذكرها .

وقريب من ذلك ما نص عليه فى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للإمام عبد الرحمن بن نصر الدين عبد الله الشيرازى فى (الباب السابع) وصاحب صبح الأعشى وغيرهم . وقد نقل المرحوم الدكتور أحمد عيسى بك فى كتابه (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) صورتين لإجازتين فى الطب منحت إحداهما لفصَّاد ومنحت الأخرى لجراح .

أما الإجازة الأولى — : هذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ومنهاج الألباء الشيخ شهاب الدين بن الصايغ الحنفى رئيس الأطباء بالديار المصرية ، إجازة للشاب المحصل محمد عزام أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد ... ثم ذكر الإجازة ووظيفة المُجاز ، وأنه كان مساعدا لشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصورى الخ ما ذكر فى الكتاب المشار إليه .

أما الثانية : فهى إجازة صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفاء المنصورى للشيخ شمس الدين محمد القيم الجراح وفى آخرها — : فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التى تبرأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرايين ، وأن يقلع من الأسنان الفاسدة المسوسين الخ ، بتاريخ صفر الخير سنة إحدى عشرة وألف (سنة ١٦٠٢ م) .

والناظر فى الإجازتين يعلم أن الإجازة كانت إما على أساس رسالة لطالب الإجازة قدمها ونوقش فيها ، أو على التعليق على رسالة لمن سبقه حققها وعلق عليها تعليقا يفيد العلم إفادة محققة (على حسب التعبير الحديث) . وذلك هو نوع رسائل الدكتوراه فى أيامنا الحاضرة ؛ ومن الظريف أن مانح الإجازة الأولى هو أحمد ابن سراج الدين الملقب شهاب الدين المعروف بابن الصايغ الحنفى ، كان رئيس

الحنفية بمصر ، ومدرسهم بالبرقوقية ؛ وكان مع ذلك رئيس الأطباء ، وكانت له بنت واحدة تولت مشيخة الطب مكانه عند وفاته.

ولعل الدكتور الفاضل يسأل : ماهى النتائج التى تترتب على مخالفة الطبيب لهذه الأشياء التى نص على وجوب تحلى الطبيب بها ؟ والجواب : أن النتائج إن كانت جنائية فقد نص الفقهاء عليها ، وإن كانت غير ذلك فهى داخلة فى نطاق الأشياء التى يملكها المحتسب ، ويملك العقوبة بها من الناحية التأديبية . والأخ الفاضل يعلم اتساع نطاق السلطة التى يملكها المحتسب كحاكم إدارى وسياسى وراء سلطة القاضى . ويرجع فى ذلك إلى المنشور الذى ولى به المحتسب ، فهو يملك ما تملكه أية هيئة إدارية اليوم ، أو ما تملكه نقابة الأطباء بلوائحها ورسومها .

أوَ لا يكفى هذا المقدار فى بيان حدود المسئولية للطبيب ، والفرق بين العالم والجاهل ؟ وهل النظم التى سنت اليوم للأطباء تعدو هذه الخطوط التى ذكرها صاحب كتاب معالم القربة فى الحسبة ؟

لا نظن ذلك . والقاضى الفاضل يستطيع أن يقارن تلك الخطوط العامة بما سُن للأطباء اليوم من نظم . وقد قال القاضى برهان الدين إبراهيم بن فرحون المالكى فى كتابه تبصرة الحكام فى أصول الأقضية ومناهج الأحكام ، عند الكلام على ضمان الصناع والأطباء : « وإن كان الخاتن غير معروف بالختن والإصابة فيه وعرض نفسه ، فهو ضامن لجميع ما وصفنا فى ماله ، ولا تحمل العاقلة من ذلك شيئا ، وعليه من الإمام العدل العقوبة الموجعة ؛ بضرب ظهره ، وإطالة سجنه . والطبيب والحجام والبيطار فيما أتى على أيديهم بسبيل ما وصفنا فى الخاتنة ا هـ .

أليس ذلك النوع من العقوبة كافيا لمنع الطبيب الجاهل من ممارسة المهنة ، وكافيا فى التنظيم للمهن الطبية فوق ما ذكره ابن الأخوة ؟ وبذلك يكون الفقه الإسلامى كالقوانين الوضعية ، نـظّم كيفية ممارسة مهنة الطب ، وقصرها على الأشخاص الحاصلين على مؤهلات يجوزون بها امتحان زعيمهم ونقيبهم كما يقول ابن الأخوة ، ويكون ذلك نصا لا استنتاجا من قواعد الشريعة العامة كما يريد الأخ الفاضل أن يأخذها .

وقد ذكر العلامة الخزاعى فى كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ،

فصولا فى الطب والتطبب والمارستان فى عهده صلى الله عليه وسلم ، ثم عقد فصلا ترجم له : (باب كون من لا يعرف بالطب لم يكن يباح له أن يعالج الناس) ثم روى الحديث الذى ساقه الأستاذ النجار ، ثم ذكر رواية فيه لأبى نعيم « من تطبب ولم يكن بالطب معروفا فأصاب نفسا فما دونها فهو ضامن » . قال ابن طرخان : هذا الحديث فيه احتياط وتحرز على الناس وحكم سياسى ، مع ما فيه من الحكم الشرعى .

ولعل هذا المقدار يرضى القاضى الفاضل كسند لمعرفة الفقهاء السابقين لتنظيم المهنة الطبية .

ثم انتقل الأستاذ الجليل لنقطة مهمة (هى أساس عدم المسئولية) ، وبعد أن أفاض فى مناقشتها قال : « إن أساس انعدام المسئولية هو رضاء المجنى عليه ، إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر : اقتلنى ، أو اجرحنى ، ففعل فلا يقتص منه لرضاء المجنى عليه بالفعل ، وحكم الطب فى عدم المسئولية هو حكم الشخص العادى فيها ، لأن الطبيب لا يقوم بعمله إلا بناء على رضاء من المريض ... » الخ .

وقد أثار الأستاذ بعبارته هذه عدة نقط جديرة بالبحث :

١ — هل قصر الفقهاء عدم المسئولية على الرضا فحسب ؟

٢ — ما معنى عدم المؤاخذة فى عبارة الفقهاء التى نقلها ؟

٣ — ما مقدار وجاهة اعتراضه على رأى الفقهاء وأخذه بالنظرية الحديثة ؟

ثم ننتقل للشروط التى ذكرها لإباحة أعمال الطب :

لم يقصر الفقهاء عدم المسئولية على الرضا فحسب ، بل نصوا على أن تكون الأعمال التى قام بها الطبيب على وفق الرسم ، أى موافقة للقواعد الطبية التى تتبع فى كل حادثة على حدتها . ذكر العبدرى فى كتابه التاج والإكليل لمختصر خليل ما نصه « قال ابن رشد : يضمن الصناع كل ما أتى على أيديهم من خرق أو كسر أو قطع إذا عملوه فى حوانيتهم وإن كان صاحبه قاعداً معه إلا ما كان فيه تغرير من الأعمال ، مثل ثقب اللؤلؤ ونقش الفصوص وتقويم السيوف واحتراق الخبز عند الفران والثوب فى قدر الصباغ وما أشبه ذلك ، فإنه لا ضمان عليهم فيما أتى على

أيديهم فيه ، إلا أن يعلم أنه تعدى فيها أو أخذها على غير وجه مأخذها ، فيضمن حينئذ ، ومثل ذلك البيطار يطرح الدابة فتموت من ذلك ، أو الخاتن يختن الصبي فيموت من ختانه ، أو الطبيب يسقى المريض فيموت من سقيه ، أو يكويه فيموت من كيه ، أو يقطع منه شيئا فيموت من قطعه ، أو الحجام يقلع ضرس الرجل فيموت المقلوعة ضرسه ، فلا ضمان على واحد من هؤلاء فى ماله ولا على عاقلته فى جميع هذا ، لأنه مما فيه التغرير على ذلك الشيء فكأن صاحبه هو الذى عرضه لما أصابه . هذا إذا لم يخطىء فى فعله ، وأما إذا أخطأ مثل أن يسقى الطبيب المريض ما لا يوافق مرضه أو تزل يد الخاتن أو القاطع فيتجاوز فى القطع ، أو الكاوى فيتجاوز فى الكى ، أو يد الحجام فيقطع غير الضرس التى أمر بها ، فإن كان من أهل المعرفة ولم يغر من نفسه فذلك خطأ يكون على العاقلة ، إلا أن يكون أقل من الثلث فيكون فى ماله ، وإن كان مما لا يحسن وغر من نفسه فعليه العقوبة . ا هـ

وقال فى الدر المختار وشرحه « ولا ضمان على حجام وبزاغ ، أى بيطار ، وفصاد لم يجاوز الموضع المعتاد ، فإن جاوز المعتاد ضمن الزيادة كلها إذا لم يهلك المجنى عليه ، وإن هلك ضمن نصف دية النفس » . وقال محشيه تعليقا على قوله « لم يجاوز الموضع المعتاد » ما نصه : أى وكان بالإذن ؛ قال فى الكافى : عبارة المختصر ناطقة بعدم التجاوز وساكتة عن الإذن ، وعبارة الجامع الصغير ناطقة بالإذن ساكتة عن التجاوز ، فصار ما نطق به هذا بيانا لما سكت عنه الآخر ، ويستفاد من مجموع الروايتين اشتراط عدم التجاوز والإذن لعدم الضمان ، حتى إذا عدم أحدهما أو كلاهما يجب الضمان ا هـ . وفى العمادية « ولو شرط على الحجام ونحوه العمل على وجه لا يسرى لا يصح ، لأنه ليس فى وسعه ، إلا إذا فعل غير المعتاد فيضمن » .

وسئل عمن فصد نائما وتركه حتى مات من السيلان ، قال : يجب القصاص لأنه قتله بمحدد ، أى وهو قاصد لقتله ، فكان عمدا . وسئل الحلوانى عن صبية سقطت من السطح فانتفخ رأسها ، فقال كثير من الجراحين : إن شققتم رأسها تموت ، وقال واحد منهم : إن لم تشقوه اليوم تموت وأنا أشقه وأبرئها ، فشقه ثم ماتت بعد يوم أو يومين : هل يضمن ؟ فتأمل مليا ثم قال : لا يضمن إن كان الشق

بإذن ، وكان معتاداً ولم يكن فاحشا خارج الرسم ؛ فقيل له : إنما أذنوا بناء على أنه علاج مثلها ؟ فقال : ذلك لايوقف عليه ؛ فاعتبر نفس الإذن . قيل له : فلو كان قال هذا الجراح : إن ماتت من هذا الجرح فأنا ضامن هل يضمن ؟ قال : لا .

فمن هذه العبارات جميعها نستنتج أن عدم المسئولية منوط بالإذن إذا كان العمل معتادا ولم يجاوز الرسم المتبع فى أمثال هذه العمليات . والقاضى الفاضل نفسه تقل عبارات فى عدد ذى الحجة كلها نصوص فى الموضوع ، فكان من الخير أن يقول : إن عدم المسئولية مشروط بالإذن إذا وافق عمله المعتاد فى أمثاله . ونظن ذلك فى غاية الوضوح . وبهذا يظهر الجواب عن السؤال الثانى فى معنى عدم المؤاخذة عند الفقهاء . ويبقى من هذا السؤال الكلام على النقطة التى أثارها الباحث المحترم فيمن قال لآخر : اقتلنى فقتله . نفى الفقهاء القصاص فى هذه المسألة ، لأن القصاص ينتفى بالشبهة ، والإذن شبهة من جهة نظر الشريعة ؛ ولهذا وجبت الدية فى ماله ، لأن الإباحة لاتجرى فى النفس ، ولولا شبهة الإذن لوجب القصاص ، فالمسئولية موجودة لم يعدمها الرضا ، وإنما غيّر وصف المسئولية للمعنى الذى ذكرناه . وقياس الطبيب على هذه المسألة نحسبه قياسا مع الفارق للسبب الذى أسلفناه ؛ وبهذا يظهر أن رأى الدكتور الفاضل فى سبب الإعفاء فى النظرية الحديثة السائدة الآن هو رأى الفقهاء أو قريب منه . فالنظرية السائدة تجعل سبب الإعفاء رغبة المشرع فى إباحة بعض الأفعال للأطباء ما دام القيام بواجب المعالجة يستدعيها الخ . وذلك أن من السهل تطبيقه على النظرية الفقهية ؛ فالفقهاء أباحوا للأطباء العمل ورفعوا المسئولية إذا كان العمل معتادا داخل الرسم ، وخاصة إذا استدعته حالة المريض ، وكان بقصد العلاج الذى لابد منه : ففى شرح الطحاوى « قال لآخر : اقطع يدى ؛ فإن كان لعلاج كما إذا وقعت فى يده أكلة فلا بأس به ، وإن من غير علاج لايحل . ولو قطع فى الحالين فسرى الى النفس لايضمن » . اهـ .

إذن فأساس المسئولية وارتفاعها فى نظر الفقهاء ، يكاد يكون منطبقا على النظريات القانونية جميعها التى ساقها الدكتور الفاضل ، ورأيه مشتق منها كما أسلفنا . وبذلك نرى أن اعتراضه على الفقهاء ليس قويا ، ونرى أن عبارات الفقهاء فيها الرضا كل الرضا لكل ما ساق من نظريات .

كما نرى من هذه العبارات ، وخاصة الأخيرة منها ، أن الشروط التى ذكرها لإباحة أعمال الطب لا تصطدم مع رأى الفقهاء ؛ فالشرط الأول وهو أن يكون تدخل الطبيب لعلاج المريض ، مأخوذ بالنص من العبارة التى أسلفناها عن شرح الطحاوى قريبا ، وكل ما ساقه الدكتور الفاضل ممنوع منه الطبيب بنص العبارات التى سبق إيرادها عن معالم القربة عند بيان الأشياء التى يمنع منها الطبيب . ولعل القارىء لم يبعد به العهد بها . وبقيـة العبارات التى ساقها الدكتور لا تتفق مع رأينا الذى نقلنا مايؤيده من نص عبارات الفقهاء ؛ فليس أساس انعدام المسئولية هو الرضا فحسب ، بل الرضا مع بقيـة الأشياء التى ذكرناها ، وإن كانت الصلة بين المريض والطبيب صلة عقدية ، لكن العقود كما تعلم يا سيدى يحكمها أعراف المتعاقدين ، ومن العرف هنا أن يكون التطبيب على وفق المعتاد والرسم بعد وجود الإذن والحاجة الى العلاج ؛ وللطبيب الحرية ، ولكن فى داخل نطاق العقد على ضوء ما اعتاده الناس فى أمثال هذا المرض ، وإلا عـد تجاوزه تجاوزا فاحشا لا يغتفر . ونظن أن الشريعة أوسع مدى من هـذه الناحية من القانون . ففى الشريعة سلطان القاضى والمحتسب ، وإن نجا من نص القـانون فلن ينجو من السياسة الشرعية والتعزير . كل هـذه أمور مسلمة فى كتب الفقـه والأحكام السلطانية . وكما يكفل الرأى الذى قال به العقابَ فى الحالات التى ارتـكبها خارج العقد ، يكفل الفقه بصورة أوسع العقابَ حتى على أشياء أضيق من هذه التى رآها . وما على الطالب لهذه النصوص إلا أن يرجع لـكتب الفقه فى شتى مذاهبها ، وكتب الحسبة ، ليجد الغناء والـكفاية .

وموعدنا الحديث المقبل ، لنسير مع القاضى الفاضل فى آرائه التى أوردها ، ولعله يسير فى أبحاثه الطلية لنستفيد ، ويستنير القراء من مقارنة الفقه والقانون . فالى اللقاء ؟

تحقيقات علمية :

جمع الاربعينيات فى الحديث

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى يس
مدير إدارة البحوث المساعد بالأزهر

وردت أحاديث كثيرة تفيد النهى عن كتابة السنة ؛ فنى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تكتبوا عنى غير القرآن » . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس « أنه لما اشتدّ بالنبى صلى الله عليه وسلم الوجع ، قال : « ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده » قال عمر : إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا » .

وقد وردت إلى جانب هذا أحاديث أخر ، تدل على أنه قد كتب بعض السنن فى عهده صلى الله عليه وسلم ، مثل ما فى البخارى من أنه لما خطب صلى الله عليه وسلم عام الفتح فى قتيل خزاعة ، وقال : « إن الله حبس عن مكة القتل » الخ ، جاءه رجل من أهل اليمن ، وطلب منه أن يكتب له الخطبة التى سمعها منه ، فقال : « اكتبوا لأبى فلان » . وما فى النسائى من أنه كان مكتوبا فى الصحيفة التى صح أنها كانت عند على بن أبى طالب : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ألا لا يقتل مسلم بكافر ، ولاذو عهد فى عهده ، من أحدث حدثا فعلى نفسه ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . وما فى مسند أحمد من أن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر ، يتكلم فى الغضب والرضا ؛ فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اكتب ، فو الذى نفسى بيده ما خرج منى إلا حق » .

والظاهر من مجموع هذه النصوص أن هناك تضاربا بين الأحاديث بشأن تدوين السنة وجَمْعها ؛ ولكن التحقيق أن النهى عن كتابة الحديث إنما كان متجها

الى كتابته فى وقت نزول القرآن ، والى وضعه مكتوبا فى بيت النبوة مع القرآن ، وذلك خشية الاختلاط والالتباس به ؛ أما كتابة اليسير من الأحاديث المتفرقة ، وكتابة الإنسان لنفسه بقصد الحفظ والمراجعة ، لا بقصد التدوين العلمى ، فهذا مالم يتجه اليه النهى فى تلك الأحاديث السابقة .

على أن الذى يعنينا إثباته من كل هذا التمهيد ، هو أن الحديث على عهده صلى الله عليه وسلم لم تكن له صفة التدوين الفنية التى كانت للقرآن ، ولم يكن له نظام معين ملتزم فى جمعه وكتابته ، وإنما كانوا يتكلون فيه على حفظهم ، وسيلان أذهانهم ، ومضاء قرائحهم ، لأن معظمهم كان أميا ، والأمىّ فى الأغلب أقدر على الحفظ من الكاتب ، إذ ليس له من الوسائل ما يعتمد عليه سوى ذاكرته .

ثم مضى عصر النبوة ، وجاء عصر الخلفاء ، فعرضت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فكرة كتابة الحديث ، ولكنه ظل يراجع نفسه فيها مدة ، ثم عدل عنها ؛ رُوِى عن الزهرى ، قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب ، أراد أن يكتب السنن ، واستشار فيه أصحاب رسول الله ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهرا يستخير الله فى ذلك شاكا فيه ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال : إنى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم ، قد كتبوا مع كتاب الله كتبا ، فأكبّوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء .

وعلى رأس المائة الأولى من الهجرة ، عرضت نفس الفكرة لعمر ابن عبد العزيز ، فكتب إلى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى : أن انظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سنته فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ؛ وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر .

وذكر أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز : أنه كتب إلى أهل الآفاق : انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجمعوه .

ويقول بعض الباحثين : إنه لم تصل أية مجموعة فى الحديث تدل على القيام بأية محاولة فى هذا الشأن ، أو تشير إلى أن أبا بكر بن محمد قد قام بعمل

جوهرى فيما كلف به ، ويستظهرون أن وفاة عمر بن عبد العزيز بعد أمره بسنة ، قد تكون حالت بين أبى بكر بن محمد وبين إتمام ما كلف به ، أو أن الوفاة وقعت قبل أن يبعث إليه بما كتب من الكتب .

ولما انتصف القرن الثانى ، أقبل العلماء على جمع الحديث ، وأخذت حركة كتابته تمتد ، ووجد فى كثير من الأمصار الإسلامية علماء يقومون بهذه المهمة ، فوجد فى مكة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وفى المدينة محمد بن إسحاق ، ومالك بن أنس ، وفى البصرة الربيع بن صبيح ، وسعيد بن عروبة ، وحماد ابن سلمة ؛ وفى الكوفة سفيان الثورى ، وفى واسط هشيم بن بشير ، وفى الرى جرير بن عبد الحميد ، وفى الشام عبد الرحمن الأوزاعى ، وفى اليمن معمر بن راشد ، وفى خراسان عبد الله بن المبارك ، وفى مصر الليث بن سعد .

وقد اشتهر من بين هذه المجموعات موطأ مالك ، وكان له شأن كبير عند بعض الخلفاء العباسيين ، روى ابن سعد فى الطبقات عن مالك بن أنس ، قال : ولما حج المنصور ، قال لى : قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم .

وجاء فى كتاب الحلية عنه أيضا ، قال : شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكلٌّ مصيب .

وكانت طريقة هؤلاء فى جمع الحديث طريقة التأليف على الأبواب ، أى مراعاة الأبواب الفقهية مع مزج حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقوال الصحابة ، وفتاوى التابعين ، كأن يقول : كتاب الطهارة ، ثم يذكر الأحاديث الواردة فيها ، وهلم جرا .

وقد جرى على هذه الطريقة مالك فى الموطأ ، وأصحاب الكتب الستة فى كتبهم ، وهم : البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، وابن ماجه ، وأبو داود ، والنسائى فى سننهم ، والترمذى فى جامعه .

وعلى رأس المائتين ، وُجدت طريقة تأليف المسانيد ، وهى أن ترتب الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة ، فيجمع صاحب المسند فى ترجمة كل صحابى ما عنده من حديثه صحيحاً كان أم حسناً أم ضعيفاً ؛ قال ابن حجر فى شرحه على البخارى : « رأى بعض الأئمة أن يفرد حديث النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، فصنف عبد الله بن موسى العبسى الكوفى مسندا ، وصنف مُسَدَّد ابن مُسَرْهد البصرى مسندا ، وصنف أسد بن موسى الأموى مسندا ، وصنف نعيم بن حماد الخزاعى نزيل مصر مسندا ، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم ، فقلَّ إمام من الحفاظ إلا وصنف أحاديثه على المسانيد » . وقد اتبع هذه الطريقة الإمام أحمد فى مسنده الذى سماه الجامع .

ولما كان القرن الثالث ، زادت حركة جمع الحديث ، وألف فيه أهم الكتب ، وكانت أصناف المصنفات فيه : الجوامع والمسانيد ، والمعاجيم ، والأجزاء وغيرها .

والظاهر من أقوال العلماء أن طريقة جمع الأربعينيات ، قد بدأت مع الحركة الأولى لجمع الحديث ، أى حوالى منتصف القرن الثانى ، أو بعده بقليل ؛ فإنهم ذكروا أن أول من عرف بالتصنيف فى جمع الأربعين عبد الله بن المبارك ، وهو من تابع التابعين ، وقد ولد سنة تسع عشرة ومائة ؛ وقيل : سنة ثمان ؛ وتوفى منصرفا من الجهاد سنة إحدى وثمانين ومائة ، وله ثلاث وستون سنة ؛ وهو من العلماء السابق ذكرهم عند الكلام على بدء حركة الجمع فى الأمصار المختلفة ، وكان أحد الأئمة الأعلام ؛ قال ابن مهدى : الأئمة أربعة : سفيان ، ومالك ، وحماد ، وابن المبارك . وقال أحمد : لم يكن فى زمن ابن المبارك أطلب منه للعلم ، وكان صاحب حديث حافظا . وقال ابن معين : ما رأيت من يحدث لله إلا ستة ، منهم ابن المبارك ، وكان ثقة عالما مستثبتا صحيح الحديث ، وكانت كتبه التى حدث فيها عشرين ألفاً . ثم ذكروا أيضاً فى طليعة المصنفين فى هذا الباب عدا ابن المبارك — جماعة كثيرة ، منهم : الطوسى ، والنسائى ، والآجرى ،

والأصفهانى، والدارقطنى، والحاكم، والسلمى، والمالينى، والصابونى، والأنصارى والبيهقى، وغيرهم، ولكنهم جميعاً تثبت تواريخ ولادتهم، ووفاتهم، واشتغالهم بالحديث أنهم كانوا بعد ابن المبارك، وأنه كان أسبق منهم. فدل هذا على أرجحية ما أشرنا إليه من أن طريقة جمع الأربعينيات وجدت فى حدود ذلك التاريخ المتقدم.

وكانت الأربعينيات تجمع فى موضوعات معينة، كالإلهيات والنبوات، والحشر والنشر، والمسائل الفقهية، وفى فضل الجهاد والزهد، وفى الأخلاق والآداب، وفى التصوف، وفى فضائل السور والأعمال والقبائل، وفى الخطب التى كان يخطب بها النبى صلى الله عليه وسلم فى نحو جمعة وعيد، واستسقاء وكسوف، وبعرفة، وعند نزول الأمور المهمة، وقدوم الوفود عليه، ونحو ذلك. ومن أهم الموضوعات، التى جمعت فيها جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، فقد جمع العلماء فيها جموعا كثيرة من حكمه البالغة؛ فصنف فيها الحافظ أبو بكر بن السنى، والقاضى أبو عبد الله القضاعى، ونسج على منوالهما قوم آخرون، وزادوا زيادات كثيرة، وأملى الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح مجلسا سماه «الأحاديث الكلية» جمع فيه الأحاديث الجوامع التى يقال: إن مدار الدين عليها، وما كان فى معناها من الكلمات الجامعة الوجيزة، وقد اشتمل هذا المجلس على ستة وعشرين حديثا. ثم جاء الفقيه الزاهد الإمام أبو زكريا يحيى النووى، فأخذ هذه الأحاديث التى أملاها ابن الصلاح، وزاد عليها تمام اثنين وأربعين حديثاً، وسمى كتابه «الأربعين»، وقد اشتهرت هذه الأربعون التى جمعها، وكثر حفظها، ونفع الله بها، ببركة نية جامعها، وحسن قصده.

وكان بعض من شرح هذه الأربعين قد عقب على جامعها بأنه ترك حديث: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض، فلأولى رجل ذكر» لأنه الجامع لقواعد الفرائض التى هى نصف العلم، ولأن المؤلف قال فى مقدمة أربعينه: «وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهى أربعون حديثا مشتملة على جميع ذلك» أى على جميع أصول الشريعة وفروعها وأخلاقها وآدابها، ومقاصدها ووسائلها، فكان ترك هذا الحديث مما لا ينبغى. ثم جاء الامام ابن رجب الحنبلى، فاستدرك هذا فى كتابه «جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع

الكلم ، ورأى أن يضم حديث « ألحقوا الفرائض » إلى أحاديث الأربعين التى جمعها النووى ، وأن يضم إلى ذلك كله أحاديث أخر من جوامع الكلم الجامعة ، حتى تكمل عدة الأحاديث كلها خمسين حديثا ، فيكون ما زاده ابن رجب على النووى ثمانية أحاديث .

ومما استدرك على بعض جامعى الأربعين أنهم قد يزيدون على هذا العدد الحديث الواحد أو الأكثر ، ومع هذه الزيادة يسمون ما جمعوه بالأربعين ؛ وذلك كما فعل النووى فى أربعينه ، فإنه قد بلغ بها الاثنين والأربعين حديثاً ، ولم يمنعه هذا من تسميتها « الأربعين » ، وقد أجابوا عن ذلك بأن مفهوم العدد لا يفيد حصراً على الصحيح ، كما قال به جمع من الأصوليين ، أو أن ذكر القليل ، لاينفى الكثير ، كما قيل به فى رواية : صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بخمس وعشرين مع رواية سبع وعشرين ؛ وأجابوا عن النووى بالذات بأن عزمه كان الاقتصار على الأربعين ، فعند فراغها عنّ له أن يزيد الحديثين الآخرين ، لما فيهما من المناسبة ، لأن أحدهما فيه الوعظ بمخالفة الهوى ، ومتابعة الشرع ، ففيه حث على العمل بجميع الأحاديث السابقة ، فكان فى تعقيبها به تمام المناسبة ؛ وثانيهما من باب الرجاء والدعاء والاستغفار ، والإطماع فى رحمة الله ؛ ففيه تأنيس النفس وعدم نفرتها من التشديدات الواقعة خلال تلك الأحاديث السابقة ، بل والحث على الإقبال عليها ، رجاء أن يكون ذلك مكفرا لما فرط منه ، فكان ختم الكتاب به مناسبا أيضاً .

أما أن أصحاب الأربعينيات ، قد آثروا هذا العدد على غيره ، فقد قالوا فى وجهه : إن هذا يرجع الى ما أشار إليه بشر الحافى بقوله : يا أهل الحديث ، اعملوا من كل أربعين حديثاً بحديث ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أدوا ربع عشر أموالكم من كل أربعين درهما درهم » أى بشرط بلوغ الدراهم مائة درهم ، إذ لا وجوب فى أقل من ذلك . فالأربعون أقل عدد له ربع عشر صحيح ؛ فكما دل حديث الزكاة على تطهير ربع العشر للباقى ، كذلك العمل بربع عشر الأربعين حديثا ، يخرج باقيها عن أن يكون غير معمول به ، فإيثار هذا العدد على غيره إشارة منهم الى ذلك ؛ وقد جاء فى الحديث الحسن : إنكم فى زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا ؟

تحويل القبلة

من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الأستاذ الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

بعد أن حكى الله تعالى آثار الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة فى نفوس كلا الفريقين : فريق الكافرين ، وفريق المؤمنين بقوله « وإن كانت لكبيرة إلا على لذين هدى الله » ـ بشّر المؤمنين بأن من مات منهم قبل أن تحول القبلة ، وكانوا يصلون إلى بيت المقدس ، سيثيبهم الله على صلاتهم بقوله « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

فكان ذلك جوابا لما جاش فى الصدور ، وتبلبلت له الأفكار ؛ اجتث كل شبهة من جذورها ، ورد سهم اليهود فى نحورهم . ذلك هو أن حى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس ، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه ، وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة . فقال المسلمون : إنما الهدى فيما أمر الله ، والضلالة فيما نهى الله عنه . قالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا ؟ وقد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة أسعد بن زرارة من بنى النجار ، والبراء بن معرور من بنى سلمة ، ورجال آخرون ، فانطلق عشائرهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله كيف باء إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى « وما كان الله ليضيع إيمانكم » يعنى صلاتكم الى بيت المقدس ، فلن يفوّت عليكم ثواب صلاتكم التى أديتموها الى بيت المقدس . وكيف يضيع

عليكم أجر ما أديتم على الوجـه الذى شرعه لـكم وهو رءوف بكم يجزل الثواب لمن أحسن عملا ، رحيم بكم لا يدع ما فيه سعادتـكم ، وما فيه الخير لـكم .

وبمـا تقدم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان متشوفا الى التوجه الى الـكعبة ، ومتطلعا الى نزول الوحى عليه بذلك ، طمعا فى استمالة العرب الى دخولهم فى كنف الإسلام ، ومخالفةً لليهود الذين يقولون إنه يخالفنا فى ديننا ويتبع قبلتنا ؛ وقد أعطاه الله ما تطلع إليـه ، وأشرب حبه فى قلبه ، كما ذكر الله ذلك بقوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ؛ فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معـه من جماعة المؤمنين أمر التوجه الى الـكعبة بالبشر والحبور ، وتلقتـه الطوائف المخالفة بكل لوعة وأسى ، وأخذوا يفيضون فى منكر الحديث ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

يتبين لك وجهة نظر القائلين إن آية : « سيقول السفهاء من النـاس » نزلت بعد الأمر بتحويل القبلة ، فيـكون لفظ : « سيقول السفهاء » بمعنى قال السفهاء . وهـذا كما إذا عملت عملا فطعن فيه أعداؤك ، فتقول : أنا أعلم أنهم سيطعنون . يؤيد هـذا ما رواه البخارى عن البراء بن عازب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقـدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه نحو الـكعبة ، فأنزل الله تعـالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » . فقال السفهاء وهم اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وفى رواية أبى حاتم عنه : زيادة : فأنزل الله « سيقول السفهاء ... » .

ويرى بعض العلماء أن الآيات التى تحدثت عن أمر القبلة هى فى نزولها كما هى فى ترتيب التلاوة ، فليست آية « سيقول السفهاء » متقـدمة تلاوة متأخرة نزولا عن آية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » .

وكأنهم يرون أن أمر النسخ ليس من الأمور الهينة التى تتقبلهـا النفوس وتستسيغها العقول إذا فوجئت بها وألقيت عليها بدون إعدادها لذلك ، لأن الخروج

عن المألوف إن لم يكن مبنيا على أساس التوطئة له والتدرج فى مراقيه ، يشرد بالنفوس فى مهامه التيه ، ويذهب بالعقول الى وعر السبيل ؛ فاقتضت حكمة الله السامية ، ورحمته البالغة ، أن يهىء النفوس لذلك ، ويعدها إعدادا صالحا لقبول هذا الأمر العظيم .

لذلك أتى أولاً بأنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها فى كثرة الثواب للعامل بها ، أو مثلها ؛ لأن القادر على كل شىء ، المالك للسموات والأرض تصرفا وتدبيرا ، أعلم بما يتعبد به عباده ، وما فيه الخير لهم .

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن له المشرق والمغرب . ففى أى مكان توجه المصلى فثم وجه الله .

ثم نبه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لن ترضى عنه اليهود ولا النصارى ، إلماعا إلى أن المصلحة فى التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت ، وأن الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصطبغ بهداية الله وتوفيقه « قل إن الهدى هدى الله » . . . وإنه ليستولى عليك ، ويملك جميع مشاعرك ، جميل ما انتقل إليه من التنويه بشأن سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وما احتف به البيت الحرام من الجلال والمهابة والفضل والشرف . وهذا القدر واف لإعطائك صورة أن بيتا له هذه القداسة لأحق أن يكون قبلة .

ولقد كان فيما تقدم العلاج الكافى والوسائل المنتجة لتهيئة النفوس المخصبة ، والقلوب العامرة ، لما سيلقى عليها ، فتتلقف الأمر بالتولية إلى البيت المحرم بِدارا ، وتضطلع بما يوجبه الأمر سراعا .

وما ترى من إعراض ذوى النفوس الجامحة والقلوب الجاحدة ، فإنما هو سفه وطغيان وخروج عن مستوى العقلاء . وكيف يتصور من جانب هذا الفريق أن تجديه الوسيلة نفعا ، وأن تصل به المبادىء إلى مقصد :

وما عيب الضياء وقد تجلى   إذا عمى المكابر أو تعامى

لم يكن ذلك لأنهم فقدوا الطريق وأعوزهم الدليل ؛ فالآيات ناطقة والدلائل ظاهرة ، وإنما هو العناد والمكابرة ، وكلاهما يعمى ويصم ؛ فلا غرابة أن نطقو

كفرا ، ولا كت ألسنتهم قبحا وسفها « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » . لذلك أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما سيكون من أمرهم حينما يوجه إليه الأمر بالتوجه الى البيت المحرم بقوله : « سيقول السفهاء من الناس » الآية . فتقلد الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك سلاح الإخبار بأمر مغيب ، وإن ذا لإحدى المعجزات التى تؤيد رسالته ، وتنطق بأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، فضلا عما فيه من توطن النفس على الأمر قبل وقوعه ، لأن مفاجأة المكروه أشد على النفس وأشق ، وأن إعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم .

وإنه لمما يثلج الصدر ويبهج الخاطر ، ما أخبر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » : جعل الله طائفة المؤمنين خير الأمم ، كما جعل قبلتهم خير القبل ؛ نبيهم خير الأنبياء ، وشرعهم خير الشرائع ، وكتابهم خير الكتب ، وهم شهداء على الناس يوم القيامة ؛ والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ثم كشف الله الغطاء عن الحكمة فى أن كانت القبلة بيت المقدس بعد الهجرة بقوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » الآيات .

ثم أجاب الرسولَ صلى الله عليه وسلم الى ما تطلع إليه ، وكثيرا ما تشوقه ، من نزول الأمر بالتوجه الى البيت المحرم ، فأنزل عليه : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام » الآيات .

فأنت ترى على هذا الرأى كيف كونت الآيات الكريمة سلسلة متصلة الحلقات نزولا وترتيبا ، قد أخذت كل حبة من حبات جمانها بحجزة الأخرى ، لا ترى جوهرة نبتْ عن أختها أو تخطت مكانها ، بل ترى كمال اتصال ، وجمال انسجام ، ومزيد حكمة ، وسحر بيان ، وبراعة تملك على النفس زمامها ، وتأخذ بالألباب .

وأنت بعد ما أوضحنا لك سبيل كلا الرأيين السالفين فأى المنهجين منهما

سلكت أو كليهما ارتضيت فلا عليك من بأس ، وإنهما ولا محالة يصلان بك الى قمة الشرف ، وأسمى مقصد ، وهو وجوب التوجه فى الصلاة إلى بيت الله المحرم .

وبهذا الأمر انتهت مدة حكم التوجه إلى بيت المقدس بانتهاء الحكمة التى من أجلها شرع ، وما كان لعارض فإنه يزول بزواله ، وحل محله حكم جديد استقبله الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن معه ، ممن غرس الله فى قلوبهم الهداية وسلك بهم مسلك الخير والسعادة ، وفى نفوسهم له إجلال وإكبار ، وفى قلوبهم له محل ومكان ، يؤمنون بما سيكون له من جميل الأثر ، وما سيتبعه من الفتح المبين . نزل به الروح الأمين على الرسول الكريم ، فكان حدا فاصلا بين مبدأ أفول نجم الشيطان فى سماء تلبدت بالغيوم وأنذرت بالويل والثبور ، وبين انبثاق كوكب الإسلام فى سماء صافية الأديم ، هاديا الى خير طريق وأقوم سبيل .

نزل الروح الأمين على الرسول صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فكان ناسخا لما قبله ، موقفا له عند حده ، معلنا حلوله محله ، ما بقى على وجه الأرض من يعبد الله . بهذا يتضح جليا أن أمر التوجه الى الكعبة فى الصلاة هو الناسخ لحكم التوجه إلى بيت المقدس . وهذا هو رأى جمهور العلماء .

ويرى البعض أن التوجه إلى بيت المقدس قد انتهى بقوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » لأنه يقتضى كون المصلى مخيرا فى التوجه الى أى جهة شاء ، فيكون ناسخا لحكم التوجه الى جهة معينة ، ثم انتهى هذا بقوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » مستندا فى ذلك بما روى عن ابن عباس أن أمر القبلة أول ما نسخ من القرآن ، والأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور فى القرآن ، بل المذكور قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » فوجب أن يكون قوله تعالى : « فوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام » ناسخا لحكم التخيير . يتبع

ابن حـــــزم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغى

مدير المساجـــد

— ٣ —

بينّا فى المقالين السابقين كيف حلق ابن حزم فى سماء المجد حتى بلغ من المناصب ماغبطه عليه أحبابه وحسده عليه خصومه ، وكيف عمل على أن ينال مركزاً ممتازا لم ينله كثير من أترابه ولداته ، وكيف هوِى الرفعة والسيادة فوصل ، وكيف هَوَى نجمه فنزل ، وكيف كان فقيها شافعيا ثم مجتهداً ظاهريا ، يؤيد قوله بالحجة ، لا يتحرج فى سبيلها أن يرمى مخالفيه بأفن الرأى وسخف الدليل وغير ذلك من الألفاظ المقذعة ، فبادله خصومه بمثل ذلك ، بل أمطروه تهما ومثالب إن لم يصبه منها وابل فطل .

وقد يستدل بعض الناس على عظمة ابن حزم بكثرة حساده وخصومه ، واستفاضة مادحيه وناقديه . وقد يستدل أيضا على عظمته بكثرة المؤلفات التى تعرضت لترجمته وتواليفه وآرائه ؛ فقد كتب عنه ياقوت فى إرشاد الأريب، كما كتب ابن القفطى فى تاريخ الحكماء ، والضبي فى بغية الملتمس، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ، وابن خلكان فى وفيات الأعيان ، وابن خاقان فى المطمح ، والذهبي فى تذكرة الحفاظ ، وابن خلدون فى مقدمته ، كما كتب عنه بعض المستشرقين .

وعندنا أن مقدرة الباحث العلمية تتجلى فى المسائل الشائكة التى تزل فيها الأقلام والأقدام . واستمع اليه يتكلم عما أجازه بعض الأصحاب من ورود حديث صحيح يكون الإجماع على خلافه ؛ قال عفا الله عنه :

« وقد أجاز بعض أصحابنا أن يرد حديث صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ويكون الإجماع على خلافه . وهذا عندنا خطأ فاحش متيقن لوجهين برهانيين ضروريين :

« أحدهما أن ورود حديث صحيح يكون الإجماع على خلافه ، معدوم ،

لم يكن قط، ولا هو فى العالم، فمن ادعى أنه موجود فليذكره لنا، ولا سبيل له — والله — إلى وجوده أبدا .

« والثانى : أن الله تعالى قد قال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فمضمونٌ عند كل من يؤمن بالله واليوم الآخر أن ما تكفل الله عز وجل بحفظه فهو غير ضائع أبدا، لا يشك فى ذلك مسلم، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم كله وحى لقوله تعالى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » . والوحى ذِكر بإجماع الأمة كلها، والذكر محفوظ بالنص ، فكلامه عليه السلام محفوظ بحفظ الله عز وجل ضرورة، ، موكول كله إلينا لا بد من ذلك ، فلو كان هذا الحديث الذى أدعى هذا القائل أنه مجمع على تركه وأنه منسوخ كما ذكر، لكان ناسخه الذى اتفقوا عليه قد ضاع ولم يحفظ ، وهذا تكذيب لله عز وجل فى أنه حافظ للذكر كله ، ولو كان ذلك لسقط كثير مما بلغ عليه السلام عن ربه ، وقد أبطل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله فى حجة الوداع : « ألا هل بلغت » .

والفاحص لهذه العبارات بميزان البحث الدقيق، ومنظار النقد البرىء، يجد فيها براعة فى التعبير، ودقة فى سوق المقدمات، كما يرى فيها بعض المآخذ التى تطيل على الناقد البحث وتخرجه عما هو بصدده من الترجمة إلى طرق أبواب المنطق والسنة والأصول. وكأن ابن حزم أحس بأن فى كلامه هنات فقفّى على كلامه السابق بدفوع لما عساه يتوجه من نقض لبعض مقدماته أو نقد لبعض نتائجه، قال :

« ولسنا ننكر أن يكون حديث صحيح وآية صحيحة التلاوة منسوخين إما بحديث آخر صحيح، وإما بآية متلوة، ويكون الاتفاق على النسخ المذكور قد ثبت بل هو موجود عندنا، إلا أننا نقول : لا بد أن يكون الناسخ لهما موجودا أيضا عندنا، منقولا الينا، محفوظا عندنا، مبلغا بلفظه نحونا، قائم النص لدينا، لا بد من ذلك. وإنما الذى مَنَـعْنَا منه، فهو أن يكون المنسوخ محفوظا منقولا مبلغا الينا، ويكون الناسخ له قد سقط ولم ينقل الينا لفظه ، فهذا باطل عندنا لا سبيل الى وجوده فى العالم أبد الآبد، لأنه معدوم البتة، فقد دخل — لأنه غير كائن — فى باب المحال والممتنع عندنا » .

وفى كلامه تسليم بمبدأ النسخ فى القرآن والحديث، ولكنه شرط لذلك

شروطا بينها فى كلامه آنفا . ومن الناس من ينازع فى مبدأ النسخ ، ومنهم من يرى أن القرآن إنما ينسخ بقرآن مثله ، ومنهم من يخالف ابن حزم فى بعض شروطه . ولسنا بصدد إبداء الرأى فى صواب بعض هذه الأقوال وخطئها ، أو نصر بعض الآراء على بعض ، وإنما نبين منهج رجل عنينا بالكلام على حياته واتجاهاته ، وحرَصنا ألا نحيد عن الإنصاف والأمانة فى نقل آرائه ، وألا نتحيز له أو عليه ؛ فإنه يجدر بالمتصدرين للتراجم أن يكونوا بمعزل عن تهمة التعصب والتحيز ؛ فقد يبدو للباحث أنه يقول حقا وينقل صدقا ، ويرى غيره غير هذا الرأى ويرميه بما هو براء منه فلا يتذوق لبحثه طعما .

وماذا عسى أن ينتهجه الكاتب فى بحث موضوع آخر تعرض له ابن حزم ، وهو موضوع إن لم يزد فى خطورته عن الموضوع السابق فهو لا يقل عنه ، وقد ساقه ابن حزم فى إسهاب لا يتسع له بحث التراجم . ونكتفى بتلخيصه فيما يلى :

قال غفر الله له : « ذكر قوم لا يتقون الله عز وجل أحاديث فى بعضها إبطال شرائع الإسلام ، وفى بعضها نسبة الكذب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإباحة الكذب عليه ، وهو ما حدثنا المهلب بن أبى صفرة قال : حدثنا ابن مناس قال حدثنا محمد بن مسرور القيروانى ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب ، قال أخبرنى شمر بن نمير عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سيأتى ناس يحدثون عنى حديثا ، فمن حدثكم حديثا يضارع القرآن فأنا قلته ، ومن حدثكم بحديث لا يضارع القرآن فلم أقله فإنما هو حُسوة من النار » .

وقفى على ذلك ابن حزم بأن الحسين بن عبد الله ساقط متهم بالزندقة .

وساق حديثا آخر عن ابن وهب قال : أخبرنى عمرو بن الحارث عن الأصبغ ابن محمد بن أبى منصور أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الحديث عنى على ثلاث ، فأيما حديث بلغكم عنى تعرفونه بكتاب الله تعالى فاقبلوه ، وأيما حديث بلغكم عنى لا تجدون فى القرآن ما تنكرونه به ولا تعرفون موضعه فيه فاقبلوه ، وأيما حديث بلغكم عنى تقشعر منه جلودكم وتشمئز منه قلوبكم وتجدون فى القرآن خلافه فردوه » . قال ابن حزم : هذا حديث مرسل ، والأصبغ مجهول .

ثم ساق أحاديث أخرى بعضها مرسل إلا أن معناها صحيح ولا مطعن فى سندها ، وبعضها مطعون فى رجال سنده ، وشدد النكير على حديث رواه المهلب بن أبى صفرة عن ابن مناس عن محمد بن مسرور عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن الحارث بن نبهان عن محمد بن عبد الله العرزمى عن عبد الله بن أبى سعيد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما بلغكم عنى من قول حسن لم أقله فأنا قلته » .

قال ابن حزم « الحارث ضعيف ، والعرزمى ضعيف ، وعبد الله بن سعيد كذاب مشهور ؛ وهذا هو نسبة الكذب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه حكى عنه أنه قال « لم أقله فأنا قلته » فكيف يقول ما لم يقل ؟ ولا يستجيز هذا إلا كذاب زنديق كافر أحمق . ثم ناقش من رووا هذا الحديث مناقشة لم تخل من الإقذاع ، وأورد أمثلة من أصول الفقه وفروعه . وناقش طائفة أخرى تقول بالاكتفاء بالقرآن الكريم مأخذاً للأحكام ، وحكم بكفر هذه الطائفة إجماعا ، وخلص من الكلام على الكتاب والسنة وما بينهما من توافق أو تناسخ الى الإجماع قائلا : « إن الإجماع إنما هو على مسائل يسيرة ، وقد جمعناها كلها فى كتاب واحد ، وهو الموسوم بكتاب المراتب » .

وحمادى القول : أن ابن حزم نهج منهج الظاهرية فى بحوثه الفقهية ، وأنه كان يميل الى الاجتهاد ، وقد بذل ما فى وسعه من بيان لدعم دعاويه وأقواله ، ولم يتعفف عن ذرابة اللسان حين يشتط أو يشتد فى تأييد كلامه وتقوية حجته ؛ وهو مسلك نأخذه عليه ، ويأخذه عليه المنصفون ؛ وقد كان سببا فى حقد كثير من الناس عليه ، والتنفير منه ، والبعد عنه ، فنظر الناس الى آرائه بمنظار أسود ، وقلّ من نظر اليه بمنظار سليم فأخذ الصحيح وترك الزائف . وحسبنا ما كتبناه عنه ؛ ولعلنا أنصفناه فلم نكن فى جانب الإفراط أو التفريط ، وهو ما أخذنا أنفسنا به فى كل ما نكتب من تراجم . هدانا الله سبيل الرشاد ؟

نظرية السببية

بين الغزالى والفلاســـــفة

لفضيلة الأستاذ الشيخ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

عرضت فى مقالى السابق « نظرية المعرفة بين الغزالى والفلاسفة » لوجهة النظر التى انتهى إليها الدكتور « جميل صليبا » فى بحثه الذى نشرته له « مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق » حول هذا الموضوع ، وناقشتها بما هو معروف للقراء .

واليوم أعرض لنظرية أخرى هى « نظرية السببية » ، وقد انتهى الدكتور جميل فيها الى أن « الغزالى ينكر الضرورة العقلية فى مبدأ السببية ، ويعلن بجرأة أننا لا نعرف فعل الأشياء الطبيعية بعضها فى بعض » . وإلى أن « الغزالى يرى أنه لا يوجد إلا فعل واحد ، وهو فعل الموجود المريد » .

وساق الدكتور جميل شاهدا على إنكار الغزالى للضرورة العقلية قوله فى التهافت « إن الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ، ليس ضروريا عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفى الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل : الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والشفاء وشرب الدواء ؛ وهلم جرا ، إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف ؛ وأن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه ، لخلقها على التساوق ، لا لكونها ضرورية فى نفسها » .

وساق الدكتور جميل أيضا ، شاهدا على توهين الغزالى لوجهة نظر الفلاسفة

قوله فى التهافت « وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار . والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولاتدل على الحصول به ، وأنه لا علة سواه » .

وبين الدكتور جميل السبب الحامل للغزالى على اقتحام هذه المخاطرة التى تكاد ترفع الثقة بالعلوم والمعارف ، وتكاد تخلق حول العقل جواً كله إمكانات وتجويزات ، لا سبيل معه لقطع أو يقين ، قال « أنكر السببية ليترك باب المعجزة مفتوحا ، فعلق الأسباب والأفعال كلها بإرادة الله » .

* * *

لعل ترك باب المعجزة مفتوحا هو بعض الأسباب التى حدت بالغزالى إلى تقرير هذه النظرية ، لا كلها ؛ إذ أن الأشاعرة — الذين يناصرهم الغزالى بتأليف كتاب التهافت ، والذين عرفوا هذه النظرية قبل أن يعرفها الغزالى ، وسموها « نظرية خلق الأفعال » وخاصموا بها المعتزلة والفلاسفة ، وكان أساسها عندهم قوله تعالى « خالق كل شىء » - يقررون فيما يروى الشهرستانى عنهم فى كتابه الملل والنحل ، أنه « على أصل أبى الحسن الأشعرى لا تأثير للقدرة الحادثة فى الإحداث ، لأن جهة الحدوث قضية واحدة ، لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر والعرض ، فلو أثرت - يعنى القدرة الحادثة - فى قضية الحدوث ، لأثرت فى قضية حدوث كل محدث ، حتى تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح ، وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام ، فيؤدى إلى تجويز وقوع السماء على الأرض بالقدرة الحادثة . غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة أو تحتها ومعها ، الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له ، فيكون خلقاً من الله تعالى ، إبداعا وإحداثا ؛ وكسبا من العبد مجعولا تحت قدرته » .

ففى هذا النص تجد روح النظرية التى قال بها الغزالى ولبابها ، وتجد فضلا عن ذلك تعليلا آخر غير ترك باب المعجزة مفتوحا ؛ ولكن الذى لا ريب فيه أن عناية الغزالى بنظرية السببية فى كتابه التهافت ، متجهة أولا وبالذات ، الى جعل باب المعجزة مفتوحا ، والى الرد على الفلاسفة الذين أقفلوه ، أو على الأقل قصروه على دائرة ضيقة لا يقنع بها الغزالى ؛ قال فى التهافت :

« وإنما نخالفهم من جملة هذه العلوم — يعنى الطبيعية — فى أربعة مسائل :

« الأولى : قولهم بأن هذا الاقتران المشاهد فى الوجود بين الأسباب

والمسببات ، اقتران تلازم بالضرورة ، فليس فى المقدور ولا فى الإمكان ، إيجاد السبب دون المسبب ، ولا وجود المسبب دون السبب .

« الثانية : قولهم : إن النفوس الإنسانية جواهر قائمة بأنفسها . . . الخ

« وإنما يلزم النزاع فى الأولى من حيث إنه ينبنى عليه إثبات المعجزات الخارقة للعادة : من قلب العصا ثعبانا ، وإحياء الموتى ، وشق القمر . ومَن جعل مجارى العادات لازمة لزوما ضروريا ، أحالوا جميع ذلك وأولوا مافى القرآن . . .

« ولم يثبت الفلاسفة من المعجزات الخارقة للعادات إلا ثلاثة أمور :

« أحدها : فى القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقويت ، ولم تستغرقها الحواس بالاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ ، فانطبعت فيها صور الجزئيات الكائنة فى المستقبل . . .

« الثانى : فى القوة النظرية العقلية ، وهو راجع الى قوة الحدس ، وسرعة الانتقال من معلوم الى معلوم ، فرب ذكى إذا ذكر له المدلول تنبه للدليل ، وإذا ذكر له الدليل تنبه للمدلول من نفسه .

« ويختلف ذلك فى جميع المطالب أو بعضها ، وفى الكيفية ، حتى يتفاوت فى القرب والبعد ؛ فرب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها فى جميع المعقولات ، وفى أسرع الأوقات ، فهو النبى الذى له معجزة ، من القوة النظرية ، فلا يحتاج فى المعقولات الى معلم ، بل كأنه يتعلم من نفسه ، وهو الذى وصف بأنه « يكاد زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار » .

« الثالث : فى القوة النفسية العملية ؛ فقد تنتهى إلى حد تتأثر بها الطبيعيات ، وتتسخر ؛ ومثاله أن النفس منا متى توهمت شيئا ، خدمتها الأعضاء ، والقوى التى فيها ، فتحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة ، حتى إذا توهمت شيئا طيب المذاق تحلبت أشداقه ، وانتهضت القوى اللاعبة فياضة باللعاب من معادنه .

« وذلك لأن الأجسام والقوى الجسمانية ، خلقت خادمة مسخرة للنفس ، ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس الى حد تخدمها القوى الطبيعية فى غير بدنه . . . فتتطلع نفسه الى هبوب ريح ، أو نزول مطر ، أو هجوم صاعقة ، أو تزلزل أرض لتخسف بهم ، وذلك موقوف

حصوله على حدوث برودة أو سخونة أو حركة فى الهواء ؛ فيحدث من نفسه تلك السخونة والبرودة ، ويتولد منها هذه الأمور من غير حضور سبب طبيعى ظاهر ، ويكون ذلك معجزة للنبى عليه السلام » .

* * *

تلك هى نظرية السببية عند الغزالى ، وهذى بواعثها عنده ؛ وذلك هو رأى خصومه فيها وفى لوازمها وآثارها ، كما يصور كل ذلك كتاب التهافت ، وقد اقتصر الدكتور جميل ، وهو يحلل هذه النظرية ويشرحها من وجهة نظر الغزالى ، على هذا الكتاب ، ولم يرجع الى غيره من كتب الغزالى الأخرى ، التى عرضت لهذه النظرية .

وإنى أضع أمام نظره هذه النصوص ، ليرى رأيه فيها :

قال الغزالى فى معارج القدس ص ٦٨ « فالواحد الحق هو الله سبحانه وتعالى ، فلا جرم ليس له شىء منتظر ، لا ذاته ولا صفاته ، ويكون التركيب منفيا عنه من كل وجه ، قولا وعقلا وقدرا ، وما سواه فلا يخلو عن تركيب ما ، وإن كان من حيث العقل ، لا تركيبا جسمانيا أو متوهما ؛ حتى إن العقل الذى هو المبدَع الأول لا يكون واحدا صرفا ، بل فيه اعتباران ، ولهذا صدر منه أكثر من الواحد » .

فتبرير الغزالى صدور الكثرة من الواحد ، بأن فى هذا الواحد اعتبارين ، مع جزمه بأن الواجب ليس فيه كثرة بوجه من الوجوه ، يفيد أنه يرى أن الواجب لا يصدر منه أكثر من الواحد .

وقال فى نفس المصدر ص ٢٠٣ « والذى يقال من أن العقل صدر عنه بالإبداع شىء ، ليس ادعاء بأنه المبدِع ، بل نعنى به تنزيل الحق الأول أن يفعل بالمباشرة » .

وقال فى نفس المصدر ص ١٩٨ « اعلم أن مبدأ فعل الآدمى إرادة يظهر أثرها أولا فى القلب ، فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب ، إلى الدماغ ، ثم يسرى منه أثر إلى الأعصاب الخارجة من

الدماغ ، ومن الأعصاب إلى الرباطات والأوتار المتعلقة بالعضل ، فينجذب به الأوتار فيتحرك به الإصبع ، فيتحرك بالأصابع القلم ، وبالقلم المداد مثلا ، ويحدث منه صورة ما يريد كتابته على وجه القرطاس ، على الوجه المتصور فى خزانة التخيل ...

« ومن استقرأ أفعال الله تعالى ، وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السموات والكواكب ، وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السموات ، علم أن تصرف الآدمى فى عالمه - أعنى بدنه - يشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر ؛ وانكشف له أن نسبة شكل القلب الى تصرفه ، نسبة العرش ، ونسبة القلب الى الدماغ نسبة العرش الى الكرسى ، وأن الحواس له كالملائكة الذين يطيعون طبعا ولا يستطيعون لأمره خلافا ، والأعصاب كالسموات ، والقدرة فى الأصبع كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الأجسام ، والمواد كالعناصر التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتفريق ، والتركيب والتمزيج ، وخزانة التخيل كاللوح المحفوظ . فمهما اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة ، عرف كيفية ترتيب أفعال الله تعالى فى الملك والملكوت .

وقال فى نفس المصدر ص ١٩٩ « ... فكذلك فافهم أن جميع أفعال الله تعالى تنقسم إلى هذه الأقسام : متأثر لا يؤثر ، ومؤثر لا يتأثر . فالمتأثر الذى لا يؤثر هو أجسام العالم ، والمتأثر الذى يؤثر هى النفوس ، فيتأثر من العقول ، ويؤثر فى أجسام السموات بالتحريك ، وبواسطة تحريك السموات فى عالم العناصر - يعنى أن النفوس تؤثر فى عالم العناصر بواسطة تحريك السموات - والعقول تؤثر ولا تتأثر ، بل كمالاتها حاضرة معها ليس لها استكمال . فالطبيعة فى عالم الأجسام مسخرة للنفس تفعل فعلا ، سواء علمت ما تفعل أو لم تعلم ، كما أن النفس مدبرة للعقل تعلما ، سواء طلبت العلوم أو لم تطلب ، فانتهجت الطبيعة بالتسخير منهاج مافوقها بالتدبير ، وعبر التنزيل عن ذلك بقوله : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . فالنفوس بواسطة الأفلاك معطية ، والعناصر قابلة ، وبين المعطى والقابل نتائج ومواليد : من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، وبين العقل والنفس

ازدواج ،كما بين القلم واللوح ازدواج ، ومواليدهما الروحانيات ، من العقول والنفوس » .

وقال فى نفس المصدر ص ٢٠٢ : « هذا التركيب المشاهد يدل على وجود الحركة المستقيمة ، وتدل الحركة من حيث مسافتها على ثبوت جهتين محدودتين ، مختلفتين بالطبع ، ويدل اختلاف الجهتين على وجود جسم محيط كالسماء ، وتدل الحركة من حيث حدوثها على أن لها سببا ، ولسببها سببا الى غير نهاية ، ولا يمكن ذلك إلا بحركة السماء حركة دورية ، والحركة الدورية لا تكون إلا إرادية ، والإرادة الجزئية لا تكون إلا مستمدة من إرادة كلية ، والإرادة الجزئية تكون للنفس ، والإرادة الكلية تكون للعقل . فقد ثبت بهذا وجود العناصر القابلة للتركيب ، ووجود السموات المتحركة المحركة للعناصر ، والسموات تدل على محركات هى نفوس سماوية ، والنفوس مستمدة من العقول ، والكل مستند الى الله تعالى ، إبداعا وإنشاء واختراعا وخلقا وإحداثا وتكوينا وإيجادا وإبداء وإعادة وبعثا » .

وقال فى نفس المصدر ص ١٥١ : « فيظهر من تسليم هذه أن الحركات السماوية ، يحرك كلّ واحد منها جوهر نفسانى ، يتعقل الجزئيات . . . ويلزم من ذلك أن يتصور الأمور التى تحدث فى المستقبل ، وذلك أنها أمور يلزم وجودها عن النسبة التى بين الحركات المتعلقة عنها بالشخصية ، والنسب التى بين الأمور التى ههنا ، والنسب التى بين هذه الأمور وتلك الحركات ، فلا يخرج شىء ألبتة من أن يكون حدوثه فى المستقبل لازما لوجود هذه على ماهى عليه فى الحال ، فإن تلك الأمور إما أن تكون بالطبع ، وإما أن تكون بالاختيار ، وإما أن تكون بالاتفاق . والتى تكون عن الطبع ، إما أن تكون عن اللزوم بالطبع ، إما طبع حاصل ههنا أوليا ، أو طبع حادث ههنا عن طبع ههنا ، أو طبع حادث ههنا عن طبع سماوى .

« وأما الاختيارات فإنها تلزم الاختيار ، والاختيار حادث ، وكل حادث بعد

ما لم يكن ، فله علة ، وحدوثه بلزومه ، وعلته إما شيء كائن ههنا على إحدى الجهات أو شيء سماوى ، أو شيء مشترك بينهما .

«وأما الاتفاقيات ، فهي احتكاكات و مصادمات ، بين هذه الأمور الطبيعية ، والاختيارية بعضها مع بعض فى مجاريها .

« فيكون إذن الأشياء الممكنة ، ما لم تجب لم توجد ، وإنما تجب لا بذاتها بل بالقياس الى عللها ، والى الاجتماعات التى لعلل شتى » .

* * *

هذه النصوص ـ إن صح ما أفهمه منها ـ تعطى القول بنظرية السببية ، فكان على الدكتور جميل وهو يؤرخ لنظرية السببية ، ويحللها ويشرحها من وجهة نظر الغزالى ، أن يرجع الى كل ما له حولها من نصوص فى الكتب المختلفة . ولست أدرى ما عساه يكون فاعلا ، لو أنه اطلع على هذه النصوص وأدرك معارضتها الواضحة لنصوص كتاب التهافت .

وليت الأمر وقف من الغزالى عند هذا الحد ! .

لعلك تذكر أيها القارىء ما رواه لنا الغزالى فى صدر هـذا المقال من أن الفلاسفة لما أقاموا نظرية الأسباب والمسببات على أساس من الضرورة العقلية ، لم يثبتوا للأنبياء من المعجزات إلا ما يتآخى مع هذه النظرية ولا يصطدم معها ؛ ولذلك قصروا هذه المعجزات على الأنواع الثلاثة التى مرت .

ولما كان الغزالى فى كتابه معارج القدس ، قد أخذ فى نظرية السببية ، بوجهة النظر الفلسفية ، لم يكن له بد من أن يسير فى الطريق الى نهايته ، فقرر أن معجزات الأنبياء هى نفس تلك الأنواع الثلاثة التى قال بها الفلاسفة .

قال فى معارج القدس ص ١٥٠ : « بيان خواص النبوة ، ولها خواص ثلاث :

« إحداها تابعة لقوة التخيل والعقل العملى ، والثانية تابعة لقوة العقل النظرى ، والثالثة تابعة لقوة النفس » .

أما عن الخاصية الأولى ، فقد شرحها بما يتفق تماما مع ما رواه هو نفسه فى كتابه : « التهافت عن الفلاسفة » شرحاً وافياً طويلا ، خلص منه الى قوله :

« فللنفوس البشرية أن تنتقش من ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال المانع ، وتكون كالمرآة المقابلة للنفس الفلكى ، حتى يقع فيها جميع ما فى النفس الفلكى ، فإلى هذا الحد عظموا أمر الخيال » .

وأما عن الخاصية الثانية ، فقد أفاض فى شرحها كذلك ، وخلص منه الى قوله : « فيمكن إذن أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وكمال الاتصال بالمبادىء العقلية ، إلى أن يشتعل حدسا فى كل شىء فيرتسم فيه الصورة التى فى العقل الفعال ، إما دفعة وإما قريبا من دفعة ، ارتساما لا تقليديا بل يقينيا مع الحدود الوسطى والبراهين اللائحة والدلائل الواضحة » .

وأما عن الخاصية الثالثة ، فقد خلص بعد الشرح الطويل الى قوله : « ولا ننكر أن يكون من القوى النفسانية ما هو أقوى فعلا وتأثيرا من أنفسنا نحن ، حتى لا يقتصر فعلها على المادة التى رسم لها وهو بدنها ، بل إذا شاءت أحدثت فى مادة العالم ما تتصوره فى نفسها ، فيتبع ذلك أن يحدث سحب هائلة ، ورياح وصواعق وزلازل ، ويتبعه مياه وعيون جارية ، وما أشبه ذلك فى العالم ، بإرادة هذا الإنسان » .

***

أرأيت الى هذه النصوص وما تعطيه من المشابهة التى تكاد تكون تامة بين ما يقول الغزالى ، وما يقول الفلاسفة ، فى نظرية السببية ، وما يتبعها من لوازم رغم ما يعطيه كتاب التهافت من المعارضة الصريحة لما يقول به الفلاسفة فى هذه النظرية ! ! .

لعل هذا التعارض بين كتب الغزالى المختلفة ، يسوغ لى أن أقول : إنه من الضرورى الرجوع الى الكتب المختلفة التى عرضت للموضوع الواحد الذى يراد دراسته لمعرفة رأى الغزالى فيه ، وإن الاقتصار فى دراسة الغزالى على لون واحد من كتبه المختلفة ، ليس من العمل العلمى الصحيح .

ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله نعرض فيها للنظرية الثالثة التى عرض لها الدكتور جميل فى مقاله ، وندل فى ختامها على المنهج العلمى الصحيح الذى يجب أن يدرس الغزالى فى ضوئه ، لكى تفهم هذه الشخصية المعقدة ، التى حيرت الباحثين وأتعبتهم ، فهما صحيحا ؟

فلسفة القرآن
والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

ذكرنا فى مقالنا السابق أن الخلود فى الجحيم الذى كتبه الله تعالى عقوبة للكافرين به المكذبين بآياته ، إنما هو خلود الأبدية الذى لا ينقطع ، وأنه الامتداد الذى لا ينتهى ، وأن ذلك هو ما اعتمده المتكلمون وعلماء العقائد الإسلامية فى مقرراتهم العلمية ، بل ذلك ما نطق به الكتاب المبين فى إحدى وثلاثين آية اتفقت الجمهرة من أعلام المفسرين على أن الخلود فيها إنما هو خلود الأبدية .

جزم بذلك الإمام الطبرى ، والرازى ، والزمخشرى ، والقرطبى ، والبيضاوى ، والنيسابورى ؛ بل حكى الإجماع على ذلك المحقق أبو السعود فى تفسيره إرشاد العقل السليم .

ذكرنا ذلك فى المقال السابق دحضا لما زعمه الأستاذ العقاد فى كتابه « الفلسفة القرآنية فى فصل الحياة الأخرى » من أن العذاب فى الحياة الثانية تطهير وتكفير ، وأن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان ، كما زعم أن ذلك شريعة القرآن الكريم مستشهدا على ذلك بآراء المفسرين ، وأنهم كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة الى الغفران ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء . فقد استبان لك أن المفسرين كادوا أن يجمعوا على عكس ما يزعم الأستاذ ، بل حكى بعضهم الإجماع على أن الخلود فى وعيد الكافرين معناه الأبد والسرمد اللذان لا يلحقهما فناء ولا زوال .

نعم هناك آيات من الكتاب المبين ذكر فيها الخلود فى عقوبة بعض الآثام ، وقد حمله أهل السنة فى احتمال من الاحتمالات لاعتبار خاص فى موضوع هذه

الآيات على المكث الطويل . ولعل الأستاذ العقاد حين استشهد على أن مآل الآثمين جميعا هو الغفران والتلاقى فى حظيرة الرضوان إنما يعنى هذه الآيات وذلك الخلود الذى تضمنته تلك الآيات . أقول : وليس فى هذه الآيات أيضا ما يسعف الأستاذ فى دعواه ، بل سترى فيما نبسطه من الحوار والجدل بين جماعة السنة وأصحاب الاعتزال فى هذه الموضوع وتلك الآيات ، ما يشهد فى وضوح ببطلان ما ذهب إليه الأستاذ العقاد .

أقول : بعد اتفاق فريقى أهل السنة وجماعة الاعتزال ، بل ذلك إجماع المسلمين على خلود المؤمنين فى الجنة وخلود الكافرين فى النار ، اختلفا فى عقوبة الآثم إثما كبيرا ليس بكفر ولا تكذيب ، كالقاتل والزانى ، أهى عقوبة الأبد والخلود أم جزاء موقوت ينتهى الى غاية ؟ جزم الاعتزال بأن عقوبة هذه الكبيرة هو الخلود والتأبيد ، وذهب أصحاب السنة الى توقيتها وتحديدها بأمد ينتهى عنده صاحبها الى النجاة .

اتجه هؤلاء المتخالفون صوب الكتاب المبين يحتكمون إلى نصوصه ، فتمسك الاعتزل فيما تمسك بآيات من الكتاب :

الأولى : فى سورة البقرة قوله تعالى « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون » .

والثانية : فى سورة النساء قوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

والثالثة : فى سورة الجن قوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله فإن له نارجهنم خالدين فيها أبدا » .

والرابعة فى سورة النساء قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » .

ففى كل آية من هذه الآيات الأربع قرنت عقوبة النار بالخلود ؛ والخلود حقيقة فى الدوام؛ يشهد بهذا قوله تعالى « وما جعلنا لبشرمن قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » فإن الخلد ههنا يتعين أن يكون الدوام والسرمد لا المكث الطويل

وإلا جانبت الآية الكريمة الصدق والصواب ، فإن كثيرا ممن قبله عليه الصلاة والسلام قد أطال الله تعالى فى أعمارهم ومكثوا مكثا طويلا ، فألبتة يكون الخلد هو الدوام والأبد حتى تصدق الآية الكريمة . هذا ما كان من جانب الاعتزال .

أما أهل السنة والجماعة فحاولوا الإجابة عن هذه الآيات فى ألوان مختلفة ؛ فأجابوا أولا :

بأن موضوع الآيات ليس هو الآثم بالكبيرة التى ليست بكفر ولا تكذيب كما هو موضوع نزاعنا ؛ بل هو الكافر المكذب ، ولا خلاف بيننا وبينكم فى خلوده ؛ فإن النار الخالدة فى الآية الأولى إنما كانت جزاء لمن كسب سيئة وأحاطت به الخطيئة ، وما ذاك إلا الكافر ، فإن المؤمن مهما أثم بالمعاصى لم تحط به خطيئته لإيمانه . ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع من أن السيئة والخطيئة ههنا هى خصوص الكفر لا مطلق الفاحشة . وهذا هو رأى كثير من السلف ؛ وهو رأى سليم ينادى به سياق الآيات ، فإن الكلام فى شأن الكافرين ؛ قال تعالى « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب ... » الخ

ترى فى غير جهد أن الآيات الكريمة حديث عن المكذبين الذين بلغوا فى الجحود والكذب على الله ابتغاء الثمن التافه شوطاً بعيداً انقطع معه الرجاء فى عودتهم إلى حظيرة الحق والإيمان ، وينبغى للمؤمنين أن لا يطمعوا فى إيمانهم بعد ذلك .

وكذلك النار المؤبدة فى الآية الثانية إنما تقررت عقوبة لمن تعدى جميع

حدود الله تعالى ، وما ذاك إلا الكافر . ويؤيده ما ذهب اليه الكلبي وابن جريج وحكى عن ابن جبير من أن المراد بمن يعص الخ من لم يؤمن بما فصل فى آيات المواريث ، وهذا كافر قطعا .

وكذلك النار السرمدية فى الآية الثالثة إنما كتبها الله تعالى على من عصاه فى الأمر بالتوحيد لا فى مطلق العصيان ، فإن سياق الآيات إنما كان فى أمر التوحيد ؛ ألا تقرأ قوله سبحانه « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً ، قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل إنى لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ... » الخ .

وكذلك جهنم الخالدة فى الآية الرابعة إنما كتبت عقوبة لمن قتل مؤمنا ، قيل : لأنه مؤمن ، وإلا فما معنى التعرض لوصف الإيمان وذا لا يكون إلا كافرا ؟ .

وقيل : الآية جاءت فى أسلوب المبالغة فتخرج مخرج التغليظ فى الزجر والتهويل فى الوعيد .

فالآيات الثلاث وكذا الرابعة فى الاحتمال الأول إنما تتحدث عن الكافر وعقوبته ، وليس هذا موضع خصومة بيننا وبينكم ، بل استقر إجماع المسلمين جميعا على أن جزاء الكافرين بالله تعالى المكذبين بآياته إنما هو العذاب الدائم والنار المؤبدة . أما هؤلاء المؤمنون الذين اقترفوا كبيرة لم يتوبوا عنها فلم تتعرض الآيات لجزائهم .

وأجاب أهل السنة ثانيا بأنا نفترض أن موضوع الآيات يتناول الآثم بكبيرة أى كبيرة وإن لم تكن كفرا وتكذيبا ، فلا يتعين أن يكون الخلود فيها بمعنى الدوام والأبد فحسب بل هو المكث الطويل سواء أكان سرمدا أم لا ، فإن موارد اللغة تعطى هذا الإطلاق سواء أكان معه الأبد كقوله تعالى « أفإن مت فهم الخالدون » أم لا كقولهم « حبس مخلد ، وخلد الله تعالى ملكه » .

وأهل السنة إذ يتشبثون بتجريد الخلود عن الدوام والأبدية فى وعيد الآثام التى ليست من الكفر والتكذيب فى شىء ، إنما يحرصون على تجاوب آيات الكتاب

الى هدف واحد لا يتنافر بعضها مع بعض ؛ فقد نطقت الآية المحكمة « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وأمثالها بأن الآثام التى دون الكفر والتكذيب موضع العفو والغفران . .

ترى فى حديث القوم فى هذه الآيات الكريمة وجدالهم حول ما يفيده الخلود فيها من معنى الدوام أو المكث الطويل مهما تكن نتيجة الخصومة بين الاعتزال وأصحاب السنة — ترى فى هذا الحديث وذلك الجدل ما يكشف فى وضوح بأن ليس فيها ما يشهد لما زعم الأستاذ العقاد ؛ فإن الأمر فى الآيات يدور حول موضوعها ومن يستحق العقوبة : أهو الكافر فالخلود فيها هو الأبد والسرمد بلا نزاع بين سنى ومعتزلى بل بين المسلمين جميعا ، ولا شاهد للأستاذ حينئذ فيها بل هى الحجة البالغة على بطلان ما زعم ؛ أم موضوعها عام يتناول كل آثم إثما كبيرا وإن لم يكن كفرا وتكذيبا ، وعندئذ يتخالف الاعتزال وأهل السنة ؛ فالاعتزال ما يزال يتشبث بأن الخلود فى الآيات هو الدوام والأبد فحسب ، حتى إن عقوبة الزانى هى الخلود لما سمعت قبلُ من التوجيه لذلك ، وليس فى هذا الرأى أيضا ما يسعف الأستاذ العقاد ، بل فيه الدليل القويم على فساد ما زعمه .

وأهل السنة حملوا الخلود عندئذ فيها على المكث الطويل ، سواء كان فيه أبدية أم لا ، وليس فى هذا ما يفيد الأستاذ أى فائدة ؛ فإن أهل السنة إذ يحملون الخلود على المكث الطويل قد عمموا فى هذا الإطلاق حتى وسع التأبيد والتوقيت ، فمن كان إثمه الكفر والتكذيب ، كان كفله من الخلود التأبيد ، ومن كان إثمه دون ذلك كان نصيبه من الخلود التوقيت . وأين هذا من دعوى الأستاذ العقاد « إن مآل الآثمين جميعا الغفران والتلاقى فى حظيرة الرضوان وإن الخلود والأبد فى (جميع) آيات الوعيد يكاد يكون إجماع المفسرين على أن المراد به الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء » ! ؟

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

مصادر النصوص الجنائية :

سبق أن أوضحنا أن التشريعات الحديثة تحدد مقدما الجرائم وعقوباتها . ومصدر النصوص الجنائية فى هذه التشريعات هو القانون أو اللائحة حسب الأحوال . والمشرع حين يبين الجريمة ويقدر عقوبتها يفعل ما أدى اجتهاده الى أنه مضر بالمجتمع ومخل بسلامته وبالأمن الواجب أن يوفره لأفراده .

ولو فرضنا أن أحكام الشريعة قُننت على النحو الحديث ، فسيكون مصدر النصوص الجنائية هو القوانين واللوائح التى يصدرها المشرع . ولكن هذا المصدر هو المصدر الظاهر أو القريب ، وإنما المصادر الحقيقية هى تلك التى سيستمد القانون أصوله منها ، وهى الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . ونذكر الآن كلمة موجزة عن كل مصدر من هذه المصادر :

القرآن :

القرآن هو كتاب الله الذى نزل به الروح الأمين على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وللتعبد بتلاوته وإعجاز البشر أن يأتوا بمثله . وهو المدون بين دفتى المصحف المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس ، الذى نقل بالتواتر كتابة ومشافهة جيلا عن جيل محفوظا من كل تحريف وتبديل . ولا خلاف بين المسلمين فى أن

القرآن حجة على كل مسلم ومسلمة ، وأن ما جاء به من الأحكام قانون ملزم واجب أن يطاع ، وأن تمضى أحكامه [١] .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تناولت بيان بعض الجرائم وتحديد عقوباتها ، كما وردت آيات أخرى ذكرت بعض الجرائم دون أن تحدد عقوباتها ، وهناك آيات وضعت بعض المبادىء العامة دون أن تتعرض لأى تفصيل . ونذكر فيما يلى بعض هذه الآيات :

الآيات التى تحدد الجرائم والعقوبات :

١ — فى الاعتداء على النفس :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » .

٢ — فى السرقة :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ، فمن تاب بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم » .

---

(١) أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١٨ و ١٩ .

٣ — فى قطع الطريق :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفَوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » .

٤ — فى الزنا :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

٥ — فى القذف :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

آيات ذكرت بعض الجرائم ولم تحدد عقوباتها :

« يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرَّقَ بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

« ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

آيات تضع أحكاما عامة :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

« من يعمل سوءاً يجز به ولا يجدْ له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

« ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » .

السنة :

السنة : هى ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير . فالسنة القولية : هى أحاديثه صلى الله عليه وسلم التى قالها فى مختلف الاغراض والمناسبات .

والسنة الفعلية : هى أفعاله صلى الله عليه وسلم .

والسنة التقريرية : هى ما صدر من بعض أصحابه من أقوال وأفعال وأقرها صلى الله عليه وسلم بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه، فيعتبر بهذا الإقرار والموافقة صادرا عن الرسول نفسه .

وقد أجمع المسلمون على أن ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير وكان مقصوداً به التشريع والاقتداء ونقل إلينا بسند صحيح يفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه ، يكون حجة دينية ومصدرا تشريعياً يستنبط

منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأحكام المكلفين، وعلى أن الأحكام الواردة في هذه السنة تكون مع الأحكام الواردة في القرآن قانونا واجب الاتباع [١] .

ومن الأحاديث التي وضعت أحكاما جنائية خاصة : ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : أتى رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إني زنيت . فأعرض عنه، فتنحى تلقاء وجهه فقال له : يا رسول الله إني زنيت ! فأعرض عنه، حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبك جنون ؟ قال : لا، قال : فهل أحصنت ؟ قال نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا به فارجموه .

ومن ذلك أيضا ما روته السيدة عائشة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقطع السارق في ربع دينار فصاعدا .

ومنه أيضا ما رواه مسلم عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين . وروى أيضا عنه أنه عليه الصلاة والسلام جلد في الخمر بالجريد والنعال .

وقوله صلى الله عليه وسلم : من غشنا ليس منا .

ومن الأحاديث التي تضع مبادىء عامة قوله صلى الله عليه وسلم : لا ضرر ولا ضرار . وقوله : رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق . ومنه قوله : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وقوله : من قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد .

---

(١) أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ٢٥ ، ٢٦

تفسير الكشاف للزمخشري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد فؤاد الأول بأسيوط

نستطيع أن نقسم كتب التفسير القديمة قسمين : نقلى وصناعى . ونعنى بالنقلى : الأثرى الذى يعتمد على ما روى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو التابعين لهم بإحسان ، من أمثال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدى : وهؤلاء كانوا يبنون أقوالهم على ما سمع من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى ما يحيط بالتنزيل من أسباب وزمان ومكان ، وما الى ذلك مما يلقى ضوءا واضحا على معانى آيات الذكر الحكيم فى أولئك الذين هم أهل اللسان والبيان ، وأحق الناس بأساليب القرآن دراية وبصرا . فالتفسير النقلى أو الأثرى أو السلفى يتخذ من أقوال أولئك الأئمة عمدته وإمامه وبرهانه على ماقاله ، ولكنه مع ذلك لا يغفل التوجيه الى الاستعمال فى لسان العرب وما يقصد به ، وما ورد فى أشعارهم ، وبيان القراءات التى هى أساس التفسير .

وتفسير الإمام المحدّث أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أبدع ما رأيناه من بين هذه التفاسير ، وأجلها قدرا ، وأدق مسلكا وأعذب منطقا وأهدى الى صواب ؛ فلعمر الحق لقد شرح الكتاب الكريم شرحا قربه كل القرب من كل نفس ، فأبرأ ذمته من عهدة التبيين ، ورضى العقل بما رضى بين خلافات السلف من المفسرين ، وصحح النقل فيما اعتمد عليه من أقوال الصحابة والتابعين وكلام العرب الأولين .

وهو الذى يقول فيه السيوطى : إنه أجل التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين . اهـ .

وقال النووى : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى .

واليك مثلا من أسلوبه فى التفسير :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » : يقول تعالى ذكره : إن هذا القرآن الذى أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يرشد ويسدد من اهتدى به للتى هى أقوم ، يقول : للسبيل التى هى أقوم من غيرها من السبل ، وذلك دين الله الذى بعث به أنبياءه وهو الإسلام ، يقول جل ثناؤه : فهذا القرآن يهدى عباد الله المهتدين به الى قصد السبيل التى ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به كما حدثنى ـ قال ابن زيد فى قوله : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم قال : للتى هى أصوب هو الصواب وهو الحق ، وقرأ : ولم نجعل له عوجا قيما ، يقول مستقيما ، وقوله ويبشر المؤمنين ، يقول ويبشر أيضا من هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ويعملون فى دنياهم بما أمرهم الله ، وينتهون عما نهاهم عنه ، بأن لهم أجرا من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات كبيرا ، يعنى ثوابا عظيما وجزاء جزيلا ، وذلك هو الجنة التى أعدها الله تعالى لمن رضى عمله كما حدثنا ، عن ابن جريج أن لهم أجرا كبيرا قال : الجنة وكل شىء فى القرآن : أجر كبير ، أجر كريم ، ورزق كريم فهو الجنة ، وأن فى قوله أن لهم أجرا كبيرا نصب لوقوع البشارة عليها ، وان الثانية معطوفة عليها وهكذا ... فهو يورد الآية ثم يشرحها إجمالا ويبين مأخذه من كلام السلف . وعبارته فى الشرح سلسلة عذبة مطبوعة بطابع الفطرة الصادقة كأنما يترجم القرآن لكل ناشد وطالب. وفى نهجه هذا الواحدى وابن كثير وغيرهما مع اختلاف يتبع الزمن والتجريد ومبلغ الثقافة ، وما نظن أحدا بلغ مبلغه ولا أتى مأتاه دقة ومجهودا وسعة ذرع .

ولعلنا نعرض لهذا البحث فى حديث .

وأما التفسير الصناعى فهو الذى يعول على الحرية فى الرأى والأخذ بالقياس ، معتمدا على ما عرف من أسلوب العرب فى مخاطبتها ومسلكها فى ألفاظها وجملها ، وسنتها فى حقيقها ومجازها غير متوقف على رواية أو نقل ما لم يصادم مسلكه فى ذلك مأثورا عن النبى صلوات الله عليه أو أحد أصحابه من طريق صحيح ، ولاسيما

ما احتمل وجوها من الشرح ولم يجد مرجحا من العقل ، فإنه يحمل تلك الوجوه ويرجح ما ذهب إليه صحابى أو تابعى . وفى الكتاب الكريم كثير جدا مما يحتمل وجوها كثيرة ، وفيه المحكم والمتشابه ، وفى ذلك التشابه وجوه من الرأى : أقوال فى تصوير مفهومه ومعناه ، وأقوال فيما يصدق عليه أنه متشابه من آى الكتاب الكريم .

وليس هذا مجال التفصيل ، ولكننا بصدد طريقة المفسرين بالصناعة ، وبيان أنهم يعولون فى فهم الكتاب على العقل بعد أن يكون المعنى مطابقا لما عهد من أساليب العرب فى التخاطب ، وبعد ألا يكون مصادما لنقل صحيح ولا خارجا على قاعدة دينية ومبدأ متعارف فى الاسلام .

وكما أن تفسير الطبرى هو العمدة فى المأثور فإن تفسير الزمخشرى هو العمدة فى باب الصناعة والمفتاح لما بعده من التفاسير الواسعة على علوم البلاغة ، فتق أكمام تلك الأزهار ، وفسح المجال للنظار ، وسهل السبل ، وعبد المشارع لاستدرار خصوبة الكتاب الكريم ، والاتجاه به صوب الإعجاز العظيم ، فهو خير من يعبر عن سمو الأسلوب وعبقريته فى القرآن وكيف أنه ساير العرب فى متعارف خطابها ، ولكنه أوفى على الغاية من بلاغتها ، وفرع السماك فى رعاية دقائقها وحكمة وضع كل كلمة من جارتها ، مما جعل أعناقهم بفصاحته ساجدين ، وبكتهم فانخذلوا راكضين ، مما يشرح حق الشرح هذا الإعجاز الصارخ « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

رحم الله أبا القاسم ! لقد غل أعناق المفسرين ووجههم وجهة فتحت أعينهم على نواحى إعجاز الكتاب ، فصار تحقيقا واستقلالا ، بعد أن كان تسليما وتقليدا . على أن سنة التدرج كانت تقضى أن تتزايد تلك النواحى بعد ما عبّدت سبلها ، ولكن التجديد فيها لم يكن بالشىء ذى الخطر .

على أن أسلوب البيان من بعده لم يصل الى مدى شأوه ولا قارب ؛ فلا الفخر الرازى ولا البيضاوى ولا أبو السعود ولا غيرهم ممن سلكوا مسلك التعليل

بلغوا مبلغ جار الله فى البيان العربى الذى ينفذ إلى النفوس نفوذ الشمس فى منافذ الكوى ، ولا حاول أن يصل إلى ذلك المدى .

ولقد بلغ من مجهوده العظيم فى كتابه أن وضع تلك القواعد المحكمة فى علوم البلاغة ، وأعلى منارها للسالكين ، حتى كان له قصب السبق بعد الإمام عبد القاهر فى ذلك المضمار . كان الزمخشرى فيما نقله أول من سلك بالقرآن فى هذه المسالك فذلل عصيّها ، واستقاد أبيّها ، ولم يكن ذلك فحسب ، بل لقد حقق به كثيرا من أصول النحو فى أسلوبه العذب الحلو ، ومن مفردات اللغة ينحو بها منحى فلسفة فقه اللغة وأصول الاشتقاق ، ورد بعض الكلمات الى أصول وجذور تتفرع منها . فالصلاة : ما أصلها ، وكيف تكون فى تصرفها مما ترجع به الى أصل واحد ؟ والإنفاق ما فعله ؟ وكيف تقلب فى معان تغترف من قليب واحد ؟ والريب ما معناه وكيف اتجاهه ؟ والرب ما أول استعماله ، وكيف وصل الى ما هو معهود فيه ؟ والعبادة ما نشأتها ؟ وكيف صارت الى ماصارت إليه ؟ وهكذا . . . على أنه قد جعل الكتاب الكريم مادة لمسائل التوحيد والفقه والتهذيب والسلوك . وهذا الكتاب العظيم محك العلوم ، ومعترك الفهوم ، ومظهر الثقافة فى علوم اللغة والدين . وبقدر اتساع المادة فى تلك النواحى يكون التبريز فيه . ولقد قام الدليل من بحوث الرجل على أنه إمام موفق ، وباحث محقق ، ومبين ذو منطق وذو دين معرق . وما أحوج دارس الكتاب الكريم الى كل ناحية من تلك النواحى ، والى عون ومدد من الحكيم الخبير . ذلك سر تألق نجم الكتاب بين كتب التفسير واحتفاظه بمنزلته العليا ، مهما تعددت الكتب فيه ، فلو أن الأمر لم يكن إلا كما قيل :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

لكان ذلك فضلا لأبى القاسم جللا ، ولكن الأمر فوق ذلك بكثير ، فليس فضل الزمخشرى بتقدمه فحسب ، ولكنها الفيوضات والثروة التى لم يزاحم فى مجموعها ، وهى الروح المشرقة الصافية نضحت عليه ذلك الطابع الذى يعد به نسيج وحده . وفى مقال آخر سنشرح بعض نواحيه ، فى بحوثه وكيف سلك بها فى تلك النواحى ذات الشأن الخطير . وبالله التوفيق ، ومنه المعونة ؟

باب الأسئلة والفتاوى

الشركة فى المواشى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

ما حكم الشركة فى المواشى على الصورة الشائعة بين الفلاحين ، وهى أن يدفع الشريكان الثمن مناصفة ويقوم أحدهما وهو المسمى (القانى) بما يلزم للماشية من أكل وشرب وعناية فى نظير أخذ لبنها وسمادها ، والآخر وهو المسمى بالشريك « المرفوع » لا يدفع شيئاً فى النفقة ولا يأخذ شيئاً من لبنها وسمادها ؛ ونتاجها بينهما نصفين ؟ علماء بلدة زرقان

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال . وتفيد بأنه قد ذهب كثير من الفقهاء إلى عدم جواز المعاملة على هذا النحو ، لأنها تتضمن مبادلة اللبن وبقية المنافع ماعدا النتاج بعوض ، وهو قيام القانى برعاية الحيوان المشترك وإنفاقه عليه ؛ وهذه المبادلة لا تصح أن تكون من قبيل البيع والشراء ، ولا من قبيل الإجارة .

أما عدم صحتها بيعا فلأن فيه تمليك اللبن الذى سيحصل فى المستقبل وهو معدوم حال العقد فلا يصح تمليكه بطريق البيع ، لأنه بيع المعدوم ، وهو غير جائز شرعا إلا فيما يكون من طريق السلم ، وهذا ليس منه . وإذا كان بيع اللبن الموجود فى الضرع قبل حلبه قد نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه موجوداً فى الضرع ، كان منع بيع اللبن قبل وجوده أولى وأحرى ؛ ولأن فيه جهالة البدلين ؛ لأن اللبن غير معلوم القدر ، وكذا ما ينفقه القانى غير معلوم ، ولابد فى البيع من العلم بالبدلين .

وأما عدم صحتهـا إجارة فلأن اللبن من الأعيان فلا يصح أن يكون معقوداً عليه فى الإجارة ، لأن الإجارة هى تمليك المنافع بعوض ؛ ولهذا لايصح استئجار الطعام ليأكله ولا المـاء ليشربه ، ولجهالة العوضين أيضا ؛ ولا بد فى الإجارة من العلم بالبدلين كالبيع ، ولأن المتعاقدين لا يحددان غالبا فى هذه المبادلة مدة معينـة من شهور أو سنين .

والذى تختاره اللجنة : صحة هذه المعاملة التى جرى بها العرف والتعامل ويشق على الناس تركها ، مختارة أنها من قبيل إجارة أحد الشريكين نصيبه للآخر ، لأنه لا مانع شرعا من هذا العقد .

وبيان ذلك : أن اللبن وإن كان عينا فهو من قبيل الأعيان التى يرد عليها عقد الإجارة ، نظرا لتجددها شيئا فشيئا ، كثمرة الشجر ، ولبن الظئر ؛ واستئجار الظئر للإرضاع جائز بنص كتاب الله تعالى وبالسنة والإجماع . ولم يرد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله ولم يجمع المسلمون على أن عقـد الإجارة لا يرد إلا على المنافع دون الأعيان مطلقا ، بل ثبت عن الصحابة خلافه ، إذ صح عن عمر رضى الله أن أعطى حديقة أسيد بن خضير ثلاث سنين وأخذ الأجرة فقضى بها دينه . والحديقة هى النخل . فهذه إجارة الشجر لأخذ ثمره . وهو مذهب أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، ولا يعلم له فى الصحابة مخالف . ولذلك اختاره غير واحد من علماء الحنابلة ، منهم شيخ الاسلام ابن تيمية . فما قاله المانعون أن مورد عقـد الإجارة لا يكون إلا منفعة غـير مسلم ، ولا هو ثابت بالدليل . وقياس هـذه الإجارة على إجارة الخـبز للأكل والمـاء للشرب ظاهر أنه قياس فاسد ؛ فإن كلا من الخبز والمـاء عين تنعدم بالاستهلاك ولا يأتى مثلها ، بخلاف اللبن الذى يحصل شيئا فشيئاً ويخلف بعضه بعضا كالثمر فى الحـديقة . ألا يرى أن الثمر واللبن أجـريا مجرى المنافع والفوائد فى الوقف والعارية ونحـوهما ، فيجوز أن يقف الشجر لينتفع أهل الوقف بثمره ، كما يجوز أن يقف الأرض لينتفع أهل الوقف بغلتها ، ويجوز إعارة الشجر كما تجوز إعارة الحيوان وإعارة الدار ، ومنيحة اللبن (هى الشاة مثلا تعار لينتفع المستعير بلبنها) وهذا كله تبرع بنماء المال وفائدته . فهذه الفوائد تدخل فى عقود التبرع ، سواء أكانت ناشئة عن عين محبسة أم غـير

محبسة . وهذا يدل على أن الشارع اعتبرها من قبيل المنافع ، فتصلح أن تكونَ معقودا عليها عقـد إجارة .

يوضح ذلك أن الأعيان نوعان : نوع لا يخلف بعضه بعضا بل إذا ذهب ذهب جملة ؛ ونوع يخلف بعضه بعضا كلما ذهب منه شيء خلفه شيء مثله . والقسم الثاني وسط بين المنافع المحضة والأعيان التي لا تتجدد ، فينبغي أن ينظر في شبهه بأي النوعين فيلحق به . ويؤيد هـذا أن الأصل في العقود وجوب الوفاء بهـا إلا ما حرمه الله ورسوله ، فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطا أحـل حراما أو حرم حلالا . فلا يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرمه الله ورسوله . وليس مع المـانعين نـص بالتحريم ألبتـة ، وإنما معهم قياس قد علم أن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق . وأما القياس الذي مع من أجاز ذلك فهو قياس صحيح لمساواة الفرع لأصله في المنـاط .

والخلاصة : أن الإجارة كما تـكون على المنافع المحضة ، تـكون على الأعيان التي تستوفى شيئا فشيئا من عين أخرى مع بقاء الأصل . وإجارة الظئر وردت على اللبن لأنه من الأعيان التي هي كذلك . واجارة الشجر كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديقة أسيد بن حضير من هذا القبيل . وقد بين ذلك بأكثر ممـا قلنا شيخا الإسلام ابن تيمية في الجزء الثالث من فتاواه ، وابن القيم في كتابيه : زاد المعاد ، وإعلام الموقعين . ومن اطلع عليهما ازداد اطمئنانا الى صحة ما قلنا .

وأما جهالة البدلين من نفقة الحيوان وعلته فلا تضر ، لأن الجهالة إنمـا تفسد العقد لإفضائها إلى النزاع ، والجهالة هنا ليست كذلك . وقد أجاز أبو حنيفة إجارة الظئر بطعامها وكسوتها ، لأن الله سبحانه وتعالى قال : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » فجعل الله تعالى رزق المرضع (طعامها) وكسوتها بالمعروف أجرا على الإرضاع وهما غـير معلومين . وما هذا إلا لأن الجهالة هنـا لا تمنع من صحـة عقد الإجارة لعدم إفضائها الى النزاع ، وحينئذ فـكل جهالة في عقد من العقود لا تفضي الى المنازعة تـكون غير مانعة من صحة العقد . ومن أجل ذلك كان من قواعد الفقهاء الـكلية أن الجهالة المفضية الى النزاع هي التي تفسد العقد . وقد عللوا أيضا رأى أبي حنيفة في صحة عقد إجارة الظئر بطعامها وكسوتها بأن

الناس تعارفوا هذا العقد بهذه الصفة؛ وليس فى عينه نص يبطله؛ وفى نزعهم عن هذه العادة حرج لأنهم يعدون الظئر من أهل بيتهم؛ فالظاهر أنهم يستنكفون عن تقدير طعامها وكسوتها كما يستنكفون عن تقدير طعام الزوجات وكسوتهن الى آخر ما قاله السرخسى فى المبسوط مما لا حاجة الى استيعابه. ولا شك أن جهالة البدل فيما نحن فيه غير مفضية الى النزاع، لأنه لا يظن بالشريك الثانى أن يقصر فى الإنفاق على الحيوان المشترك مع انتفاعه بثمراته من عمل ولبن وغيرهما؛ كما لا شك أن الناس تعاملوا هذه المعاملة، وفى نزعهم عما اعتادوه حرج، كما فى استئجار الظئر بالطعام، وليس فيه بعينه نص يمنعه. وقد أجاز الإمام أحمد فى أصح الروايتين عنه دفع الشاة أو البقرة أو الناقة لمن يعمل عليها بجزء من درها ونسلها، كما نقله عنه ابن القيم فى زاد المعاد. وجاء فى شرح المنتهى من مذهب الحنابلة أنه يصح دفع الدابة أو النحل ونحوهما لمن يقوم بهما مدة معلومة بجزء منهما. وقد جاء فى البخارى فى باب أجر السمسرة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لابأس بأن يقول « بع هذا الثوب فما زاد على كذا وكذا فهو لك. وعن ابن سيرين أنه قال: إذا قال بكذا فما كان من ربح فلك أو بينى وبينك فلا بأس به. ولا شك أن مازاد على كذا وكذا أو ما كان من الربح، مجهول؛ ولكن ابن عباس وابن سيرين أجازا ذلك لما رأياه من أن الجهالة فيه غير مفضية الى النزاع.

وأما عدم تحديد المدة فلا يمنع من صحة هذه المبادلة التى فيها حاجة وجرى بها تعاملهم، لأنه إنما اشترط فى الإجارة تحديد المدة ليكون المعقود عليه معلوما، واشتراط العلم بالمعقود عليه إنما يلزم فيما تكون جهالته مفضية إلى النزاع، وما هنا ليس كذلك، لاتفاق الشريكين على بقاء هذا التبادل بينهما ما دامت الشركة قائمة، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم صح عنه أنه جعل للمرتهن أن يأخذ لبن الحيوان المرهون فى مقابلة إنفاقه عليه ولم يشترط تعيين المدة. ولا شك أن هذا نوع من المبادلة لم يعين فيه مدة بنحو شهر أو سنة، لأنه من المعلوم أن المدة محددة بدوام الرهن، وما نحن فيه من هذا القبيل. ومن أجل ذلك قال ابن القيم فى إعلام الموقعين: « وطرد هذا القياس أن المودع والشريك والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن الإنفاق عليه بالركوب والحلب جاز ذلك كالمرتهن. ويؤيد هذا ما قاله الحنفية من أن جهالة المدة فى نحو السمسار والمنادى والحمام والصكاك

غير مانعة من صحة عقد الإجارة ؛ فقد نقل ابن عابدين فى أول باب الإجارة الفاسدة فى رد المحتار عن البزازية ما نصه : « إجارة السمسار والمنادى والحمام والصكاك ، ومالا يقدر فيه الوقت ولا العمل ، تجوز ، لما كان للناس به حاجة ، ويطيب الأجر المأخوذ لو قدر أجر المثل . اهـ .

ويؤيده أيضا ما جاء فى المبسوط للسرخسى صفحة ١٦٠ من الجزء السادس عشر ، ونصه « وكذلك لو أعطاه - أى أعطى داخل الحمام الحمامى - فلسا على أن يدخل الحمام فيغتسل ، فهو فاسد فى القياس ، لجهالة مقدار مكثه ومقدار ما يصب من الماء ، ولكنه استُحسِن وجُوِّز لأنه عملُ الناس وقد استحسنوه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » (هذا الحديث الأصح وقفه على ابن مسعود) ولأن فى اشتراط إعلام مقدار ذلك حرجا ، والحرج مدفوع شرعا . اهـ .

وهذه المسألة لا نعلم فيها خلافا بين الأئمة . ويؤيده كذلك ما قاله بعض متأخرى الحنفية من أن المستأجر لأرض الوقف إذا بنى فيها أو غرس بإذن الناظر ومضت مدة الإجارة فللمستأجر أن يستبقى البناء أو الغراس بأجر المثل ما دام بناؤه أو غراسه قائما فى الأرض ، وليس لذلك مدة محدودة من نحو شهر أو سنة .

والخلاصة : أن هذه المعاملة ليس فيها مانع شرعى ، مع تعامل الناس بها وتعارفهم عليها ، وللناس فيها حاجة ، ولم يوجد نص يحظرها بعينها من كتاب أو سنة أو إجماع ، ولا يترتب عليها ما يترتب على ما حظره الشارع من التصرفات ، من التنازع والشحناء وإيقاع العداوة والبغضاء ، أو الظلم والفساد ، فتكون صحيحة .

وقد ذكر السرخسى أيضا فى مبحث وقف المنقول مقصوداً ، أن الصحيح أن ماجرى العرف بين الناس بالوقف فيه من المنقولات يجوز باعتبار العرف ، وذلك كثياب الجنازة ، ومايحتاج إليه من القدور والأوانى فى غسل الميت ، والمصاحف والكراع (الخيل) والسلاح للجهاد ، فإنه روى أنه اجتمع فى خلافة عمر رضى الله عنه ثلثمائة فرس مكتوب على أفخاذها : حبيس فى سبيل الله تعالى . وهذا الأصل معروف أن ما تعارفه الناس وليس فى عينه نص يبطله فهو جائز . وبهذا الطريق جوزنا الاستصناع فيما فيه تعامل ، لقوله عليه الصلاة والسلام : ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن . اهـ .

وقد بنى الحنفية على هذا الأصل جواز وقف المنقول إذا تعورف ولو بعرف حادث . نعم لم يعتبر بعض الحنفية العرف الخاص ، ولكن يكفينا ما قاله بعضهم من اعتباره ، كما أفتى به فى دفع القطن لمن ينسجه بجزء منه لتعامل أهل البلد ذلك .

هـذا وفى شرح المواق على خليل صفحة ٣٩٠ جزء ٥ أن ابن القاسم روى عن مالك أنه لا بأس باستئجار الخياط المخالط الذى لا يكاد يخالف مستأجره دون تسمية أجر على أن يراضيه بشىء يعطيه إياه إذا فرغ . قال ابن رشد : لأن الناس استجازوا هذا ، كما يعطى الحجام ، وكما فى مسألة الحمام ، وفى المنع منه حرج وغلو فى الدين . وفيه أيضا قال سحنون : « لو حملت أكثر إجارات الناس على القياس لبطلت » . يريد بذلك أن ما تعامله الناس وتعارفوه ولا يفضى إلى مفسدة لا مانع منه وهو جائز شرعا .

وفيه أيضا : ومن أصول مالك أنه يراعى الحاجيات كما يراعى الضروريات . وقد أورد فى هذا الموضوع فروعا ترجع إلى تحكيم العرف والعادة والاعتداد بالحاجة الحادثة وإعطائها حكما يناسبها ما دام ليس فى منعها بخصوصها نص من كتاب أو سنة أو إجماع ، وما دام لا يترتب عليها مفسدة . وجاء فى الفتاوى الهندية فى الباب الخامس عشر من كتاب الإجارة ما نصه « ولا يجوز إجارة ماء فى نهر أو قناة أو بئر . وإن استأجر النهر والقناة مع الماء لم يجز أيضا ، لأن فيه استهلاك العين أصلا . والفتوى على الجواز لعموم البلوى .

ومما ذكرنا يعلم أنه لا مانع يمنع شرعا من صحة هذه المعاملة ؛ ولذلك تفتى بجوازها اللجنة ، تيسيرا على الناس ، ودفعا لما يلزم من الحرج الذى جاء القرآن الكريم بنفيه . قال تعالى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، والحرج قد فسره ابن عباس بالضيق . وقال تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقال عز وجل « يريد الله أن يخفف عنكم » ، وفى الحديث الشريف « بعثت بالحنيفية السمحة » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثتم ميسرين لا معسرين » إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى هذا الشأن . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

بيان مشيخة الأزهر

فى جرائم الاغتيال

فى مساء الأحد ٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٨ الموافق ٢ من يناير سنة ١٩٤٩ اجتمع بالإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء جماعة كبار العلماء وكبار العلماء برياسة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر، وقرروا إصدار بيان للأمة بمناسبة ما تكرر من حوادث الاغتيال وإراقة الدماء التى عصمها الله، يذكر فيه حكم الشرع، ويوجه فيه النصح للأمة بالتزام أوامر الله والكف عن محارمه، وهذا هو البيان :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعـــد :

فقد أوجب الله علينا بيان حكم دينه الحنيف، والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم، أفرادا وجماعات، فيما يغشى الأمة من الحادثات الجسام. فندعو المصريين عامة الى امتثال محاب الله تعالى واتقاء محارمه، إذ لا فلاح فى الدين والدنيا إلا بالوقوف عند حدود الله : « ومن يَعْصِ اللهَ ورسولَه ويتعدَّ حدودَه يُدخلْه ناراً خالداً فيها، وله عذاب مُهين ».

ونهيب بهم كافة الى عرفان ما أجمعت عليه الشرائع من أن من أكبر الكبائر وأعظم المآثم قتل النفس البريئة، وانتهاك حرمة الدم المعصوم ظلما وعدوانا، لما فيه من إشاعة الفساد، واختلال نظام العمران.

وقـد جاء فى صريح القرآن والسنة من التهديد والإيعاد فى أمر هذه الجريمة النـكراء ما ينادى بعظم فظاعتها وشدة خطورتها ؛ قال تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » . وقد كتب الله على بنى إسرائيل « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » وخطب عليه السـلام المسلمين يوم النحر بمنى فى حجة الوداع فـكان مما قاله « فإن دماءكم وأموالـكم عليـكم حرام كحرمة يومكم هـذا فى شهركم هذا فى بلدكم هـذا الى يوم تلقون ربكم ؛ ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم . قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقد بلغ من تغليظ الزجر وتشديد العقاب لمن اقترف هذه الجريمة أن قال ابن عباس حـين سئل هل للقاتل توبة : ويحك ! وأنى له توبة ! سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول « يأتى المقتول يوم القيامة معلقا رأسه بإحدى يديه متلببا قاتله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقفا ، فيقول المقتول لله تعالى : رب هذا قتلنى . فيقول الله تعالى للقاتل : تعست ! ويذهب به الى النار » .

وقـد أجمع المسلمون على أن من أعان آثمـا على إثمه كان شريكا له فى هـذا الإثم . وفى القرآن الـكريم « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » .

وعن ابن عمر أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قال « من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة ، كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله » .

وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سماواته وأهـل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار » .

وروى « لو أن رجلا قُتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه » .

هذا حكم الله تعالى فيمن اقترف هذه الجريمة ، أو أعان عليها ، أو اشترك فيها ، أو رضى بها . فكيف يجترىء مسلم بعد أن وقر الإيمان فى صدره وعرف شرائع دينه ، على اغتيال أخيه وسفك دمه وهدمَ بنيته ظلما وعدوانا ، لا يبالى فى ذلك حق الأخوة الإنسانية ، ولا حق الرابطة الوطنية ، ولا حق الله تعالى ، وما جاء فى كتابه العزيز من الوعيد بالعذاب المقيم والغضب الشديد ، لمن قارف هذه الجريمة الشنعاء !.

إن هذه الجريمة لهى أخطر الجرائم على المجتمع ، تهدده فى كيانه وبقائه ، وفى حريته وتفكيره ، وفى إنشائه وتجديده ، وتنذر بالانحلال والفناء ، ولذلك كان الجزاء عليها عند الله فى الآخرة أشد الجزاء .

لا يستهين بالخلود فى النار وغضب المنتقم الجبار والطرد من رحمة الله إرضاء لنفسه وإيثارا لشهوته ، إلا من تجرد من إنسانيته ، وانقلب وحشا ضاريا فى إهاب إنسان .

أبناءنا المصريين :

اعتصموا بحبل الله المتين ، واستمسكوا بعُرى الدين ، واعملوا صالحا فى الحياة ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، وطهروا ضمائركم من لوثة الشر ، ولا تتبعوا الهوى فيضلكم عن سبيل الله ، واحذروا مضلة الإغواء ومباءة الإغراء ، واخدموا وطنكم بالعقول السليمة ، والعلوم النافعة ، والآراء السديدة ، والوحدة الجامعة ، واعلموا أن الوقت عصيب ، والموقف رهيب . « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وما الله بغافل عما تعملون .

من أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم :

بُعده عن الرِّيَب

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ والإرشاد بالأزهر

للمثل العليا فى الحياة من جلال المظهر ، ونباهة الشأن ، وقوة الإعداد ... ما يدفع الناس الى تبصر الهدى فى نواحيها ، ويحملهم على تعرف أهدافها ومراميها ، فإذا تكشفت عن سلامة المبدأ ، ورجاحة الفكرة ، وسمو الغاية ، كان لها أثرها ، وكان لها خطرها .

والمثل العليا فى القادة والمصلحين ، صحائف مسطورة للدهور والأزمان ، لها روعتها ، وفيها عبرتها ؛ كلها قواعد ناطقة بالفضيلة والفضل ، عامرة بنبالة القصد ، وأصالة الرأى ، وبراعة التصوير ، فى قوتها حجتها ، وفى وضوحها برهانها ، وفى كنهها جلالها وجمالها ...

وسيد هؤلاء القادة المصلحين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ سيد فى نواحيه كلها : فى عظمته النفسية ، وفى عقيدته الفطرية السليمة ، وفى توجيهه القوى الحكيم .

ولقد عُنى الباحثون فى سيرته العاطرة ، بإبراز هذه النواحى المشرقة ، ليَلفتوا الناس الى هذه الثروة النفسية الغنية ، فتزخر قلوبهم بما يتألق فيها من كنوز ، وتغمر نفوسهم بما يتجلى من خلق محمود ، وفضل مشهود .

وإن النفس العظيمة لتبدو مترفعة عن الدنايا ، متجنبة سفه الرأى ، وزيغ الهوى ، متعرفة للحق ، تقف به قوية الجانب ، فتية العزم ، فى وجوه الريَب

والشكوك ، تقذفها به فتدفعها ، ثم تخلص الى العزة تطلبها ، والى الكرامة تبلغها ، والى سماوات المجد فتحلق فيها ما شاء لها ترفعها الآبى ، وعنصرها الطيب ، وخلقها العظيم . وكذلكم كان المصطفى صلى الله عليه وسلم .

نشأ عليه الصلاة والسلام فى وسط غلبت فيه الجهالة والضلالة ، وبيئة تنازعتها الوثنية الحمقاء ، والطغيان الذى لا عقل له ، والتقليد الذى لا بصر فيه ؛ ولكنه صلى الله عليه وسلم صدف عن كل طيش ، وأعرض عن كل زيغ ، ونبا عن كل فتون ومجون .

لم يلغ فى قول ، ولم يجنح الى ضلالة ، ولم يحل به هوى ، ولم يعدل عن حق ؛ لكنما بادرته طهارة الشمائل ، وعاجلته فضائل الأخلاق ، وناهيكم بالفطرة السليمة ، تتخذ من المكرمات سياجا ، وبالنفس الأبية يضىء لها الحق سراجا .

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه فأين الثريا من يد المتناول

وذاع صيت محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه ، وهو شاب لم يكتمل بعد سن النبوة ، وعرف عنه ترفعه عن الرجس والدنس ، والغدر والخداع ، والخيانة والكذب . وسمعت خديجة بنت خويلد ، بإبائه ووفائه ، وأمانته وعفته ، فأرسلت تطلب إليه أن يتجر فى مالها ، وكانت سيدة فى قومها ، غنية بثروتها وحسبها ، وشاء ربك أن يكون الغُنْم فى التجارة جسيما ، والربح عظيما ، فما لبثت خديجة أن رغبت إلى شريكها فى المال أن يكون شريكها فى الحياة .

وكان قد طلبها للزواج كثير من وجوه قريش وأشرافها ، فأبت عليهم .

ولقد كان لهذا الترفع عن الدنايا ، والتباعد عن موجبات الشكوك والريب أثره وخطره ، فى إبلاغ الدعوة ، وقيام الحجة ، فلقد دعاهم وتحداهم أن يجدوا له صلى الله عليه وسلم زلة ، أو يعرفوا عنه نقيصة ، أو يأخذوا عليه سفها ، فلم يستطيعوا ، لا ، بل قد استطاعوا أن يقولوا له : ما جربنا عليك كذبا ، حين قال لهم صلى الله عليه وسلم « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقىّ » ؟ فقالوا نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة . ولقد كان ، بعد بلوغ الدعوة ، وعلو الكلمة ، ذلك التوجيه

الحكيم من الرسول الحكيم ، البعد عن الريب ومظانها ، ومجانبة الشبهات ، والتحوم حولها .

فإنك لتجد فى قوله عليه الصلاة والسلام « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » دفع الظنون ، ومخالعة التهم ، والبراءة من كل ما يعيب ويشين . وفى ذلك طهرة النفس ، ونقاوة السيرة وعفة الأخلاق ، ثم فى ذلك الظفر فى الدنيا بالطمأنينة تستريح لها المشاعر ، وبالسكينة يطيب بها القلب .. والظفر فى الآخرة بأكرم جزاء وأعدل وفاء . يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم « اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، ثم أدوا الأمانة اذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » .

وبعد ، فنى هذه الصحف النواصع البيضاء من سيرة الرسول الأكرم : فى عمله ، وفى قوله ، وفى توجيهه ، تشرق الأسوة الحسنة التى يجدر أن يجتليها الناس متعشقين نورها وجلالها ، مستفتحين برها وخيرها ، مستهدين رشادها وسدادها ، فأربأوا بأنفسكم - أيها الناس - أن تكونوا ظهورا تمتطيها ظنون السوء ، أو سطورا تخطها أيادى السوء ، أو مضغا تلوكها ألسن السوء ، وتورعوا عن الرِّيب والشبهات ؛ فلقد روى الترمذى عن عطية بن عروة السعدى الصحابى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس » . ولقد حدثت أم المؤمنين صفية بنت حُيي رضى الله عنها قالت : « كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفا ، فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ، فقام معى ليقلبنى (تعنى ليعود بى) . فمر رجلان من الأنصار رضى الله عنهما ، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلكما فإنها صفية بنت حيي . فقالا : سبحان الله يارسول الله ! فقال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا ، فأنتم ترون كيف أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر ليرفع الريبة ، ويدفع ما قد يكون من سوء الظن ، لتبرأ النفوس من الإثم ، وتطهر الألسن من الاتهام ، فتكون سلامة ، ويكون سلام ؟

خصائص الالتزام

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

ذكرنا فيما سبق أن من خصائص الالتزام إكراه الدائن مدينه على الوفاء بما التزم به هذا الأخير. ونذكر الآن أن من خصائصه أيضا أنه يُنشىء رابطة مؤقتة بين الدائن ومدينه، وأن مصير هذه الرابطة هو الزوال سواء كان ذلك بطريق الوفاء بالالتزام أو بأيّ طريق آخر، وهذا بخلاف الحقوق العينية فإنها مؤبدة.

ومن خصائص الالتزام أيضا إمكان نقله وتحويله من ذمة إلى أخرى، ويكون هذا بالتصرف فيه. وعلة ذلك أن الالتزام رابطة شخصية مالية، فيجوز حينئذ انتقال حقوق الدائن والتزامات المدين إلى ورثتهما بعد وفاتهما؛ كما يجوز للدائن أن يحوّل حقوقه إلى شخص آخر، بخلاف المدين فلا يجوز له تحويل التزاماته إلاّ برضاء الدائن وموافقته.

أنواع الالتزامات

الالتزام إمّا أن يكون بإعطاء شيء، وإما أن يكون بفعل شيء، وإما أن يكون بالامتناع عن فعل شيء. فالالتزام بإعطاء شيء هو عبارة عن نقل ملكية الشيء أو تقرير حق عيني عليه، وليس التسليم إلاّ أثراً من آثار انتقال الملكية.

ويلاحظ فى نقل الملكية للأشياء المعيّنة أنها تنتقل فوراً بمجرد نشوء الالتزام، وبالنسبة للعقارات، فكانت الملكية قبل قانون التسجيل سنة ١٩٢٣ تنتقل بمجرد العقد، ولكن هذا القانون قضى بأن نقل الملكية لا يتم إلا بتسجيل العقد. والسبب فى تقرير هذا المبدأ هو منع التزويرات التى فشت فى البلاد بشكل

مروع مما أدى إلى ضياع الأموال والحقوق . وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى .

ونقل الملكية للأشياء غير المعينة لا يتم ولا ينتقل إلا بعد تعيينها بفرز أو عد أو كيل أو قياس ، وما أشبه ذلك .

وأما الالتزام بفعل شيء فهو قيام المدين بعمل شيء فى صالح الدائن . وقد يكون هذا العمل ماديا كأن يتعهد المدين لدائنه ببناء حائط أو دار . وقد يكون عملا قانونيا كتعهد المؤجر تسليم العين المؤجرة للمستأجر .

وأما الالتزام بالامتناع عن فعل شيء فهو كالتزام المدين بأن لا يقوم بعمل كان له الحق فى عمله لولا وجود هذا الالتزام كتقرير المدين بعدم بناء حائط أو دور ثالث فوق منزله .

ونحن إذا رجعنا الى الفقه الاسلامى ، وتتبعنا أحكامه ، وجدنا نفس هذه المعانى ؛ فعقد البيع يرد على الأعيان منقولة كانت أو غير منقولة كالعقارات ، ويكون التمليك لهذه الأعيان فورا إذا لم يشترط الخيار ، وفى عقد الوديعة يكون موضوع العقد (وهو الالتزام) حفظ الوديعة ، وهو عمل ؛ وفى عقد القرض يكون الموضوع هو استهلاك المال المقترض ورد بدله ؛ وفى عقد الإجارة يكون موضوعه منافع الأعيان والالتزام بالمحافظة على العين المؤجرة ؛ وفى عقد استئجار الأشخاص يكون موضوع العقد هو عمل الأجير أو الخادم ، وهكذا .

ومن تتبع تلك الأحكام يتضح له أن الحقوق التى تنشأ للشخص من العقود تنتقل لورثته بعد وفاته إذا كانت هذه الحقوق مالية محضة غير متعلقة بشخصه ، كما أن التزاماته تنتقل الى تركته ، تخاطب بها ورثته بعد وفاته « إذ لا تركة إلا بعد سداد الديون » وواضح أن الفقه قد عقد كتابا خاصا للحوالة أى لحوالة الديون . ومعنى هذا أن الالتزامات يجوز انتقالها وتحويلها من ذمة لأخرى ، وتفصيل هذه الأحكام سيأتى فى موضعه عند الكلام على العقود .

تقسيم الالتزامات من حيث آثارها

تنقسم الالتزامات من حيث آثارها الى بسيطة ومركبة وطبيعية :

الالتزامات البسيطة :

تختلف آثارها بالنسبة لكل من الدائن والمدين ، فأما بالنسبة للمدين ، فالأصل أنه يجب عليه الوفاء بما التزم به طبقا للميعاد المتفق عليه ، فاذا لم يف المدين بالتزامه كاملا فى ميعاده اعتبر مقصرا ومسئولا عن كل ما يحدث من ضرر ، فتأخره عن الوفاء فى الموعد المتفق عليه أو كان وفاؤه غير كامل للالتزام بأن قام بتنفيذ جزء منه فإن هذا لا يعفيه من المسئولية ، ويطالب بالتعويض (الضمان) وليس على الدائن أن يثبت فى هذه الأحوال خطأ المدين إذ عدم الوفاء طبقا للاتفاق كاف فى مسئولية المدين . وعلى هذا لا تبرأ ذمة المدين إلا بوفائه للالتزام كاملا وفقا للشروط المتفق عليها ، أو أن يثبت أن عدم وفائه لما التزم به إنما نشأ من فعل الدائن نفسه ، أو نشأ عن حادث جبرى أو قوة قاهرة أو آفة سماوية ليس للمدين دخل فى هذه الأشياء .

وأما آثار الالتزام بالنسبة للدائن فليست فى الواقع إلا حقوقا يتمتع بها قبل المدين . وسنفصل هذا كله .

آثار الالتزام بالنسبة للدائن :

للدائن عند امتناع المدين عن الوفاء بما التزم به تنفيذ الالتزام جبرا على المدين فى الأحوال التى يكون فيها ذلك ممكنا . فإذا كان موضوع الالتزام نقل ملكية عقار مثلا ، وكان العقار موجودا فى حيازة المدين ولم يكن قد تقررت عليه حقوق للغير ، فإن امتنع المدين عن نقل ملكية هذا العقار فللدائن حينئذ أن يتحصل على حكم قضائى بتثبيت ملكيته لهذا العقار ثم يستولى عليه بواسطة السلطة العامة تنفيذا للحكم القضائى ، فمثلا إذا باع شخص لآخر عقارا بعقد عرفى (عقد ابتدائى) ولم يسجل هذا البيع فانه طبقا لقانون التسجيل لسنة ١٩٢٣ لم تنتقل بعد ملكية العقار إلى المشترى ، فإذا سجل المشترى عقد البيع انتقلت ملكية العقار إليه ، وإذا لم يسجل فإن البائع يستطيع بيع هذا العقار مرة أخرى ولشخص آخر ، فإذا سجل هذا الأخير عقد بيعه انتقلت ملكية العقار اليه ، وليس للمشترى الأول إلا أن يطالب البائع برد الثمن ،

والتعويض إن حصل له ضرر من فعل البائع ، ولكن إذا امتنع البائع عن القيام بما يلزم لإجراءات التسجيل مع المشترى الأول ، ولم يبع العقار شخص آخر فللمشترى الأول [الذى نشأ له بمقتضى عقد البيع حق التزام (نقل الملكية) قِبَل البائع] أن يلجأ إلى القضاء بدعوى يرفعها ضد البائع (وتسمى دعوى صحة العقد ونفاذه) يطلب فيها الحكم ضد البائع بصحة العقد وتثبيت ملكيته للعقار المباع له ونفاذ العقد ، ويقوم هذا الحكم مقام عقد البيع النهائى فيسجله مع عريضة الدعوى طبقا للشروط التى قررها القانون . وبذلك تنتقل إلى المشترى ملكية العقار ، ثم بعد ذلك يستطيع تسلم العقار بالاستيلاء عليه حتى ولو كان بواسطة العامة جبرا على البائع تنفيذا للحكم .

ويلاحظ أن التسجيل قبل قانون سنة ١٩٢٣ ما كان له أثر إلا نقل ملكية العقار بالنسبة للغير ، إذ أن الملكية قد انتقلت فورا إلى المشترى بمجرد العقد فلم يكن التسجيل إلا نوع إشهار لعقد البيع حتى يعلم به الغير . وسيأتى شرح هذه المسألة فى نظرية العقد .

والقانون الفرنسى يقرر نفس القاعدة التى كانت سائرة فى مصر قبل قانون التسجيل لسنة ١٩٢٣ أى أن العقد ناقل للملكية بالنسبة للطرفين ، وأما التسجيل فهو إشهار له حتى يعلم به الغير ، وهذا يتفق أيضا مع أحكام العقد الإسلامى التى تقرر أن الملكية للأشياء المعينة تنتقل فورا بمجرد العقد ، وعدول المشرع المصرى عما ذهب اليه كل من القانون الفرنسى ومذهب الأحناف هو لمنع المضار والمفاسد التى كثرت وانتشرت مما ترتب عليها ضياع حقوق الناس وأموالهم ، فقرر مبدأه الجديد لإجبار المشترين على تسجيل عقودهم حتى لا تضيع حقوقهم .

ويلاحظ : أيضا أن التنفيذ المباشر لا يتم ويتحقق إلا إذا كان ممكنا . فلو هلكت العين فى يد البائع أو استحقت أو تقرر عليها حق عينى لأجنبى يتعارض مع حق الدائن فإن التنفيذ المباشر فى هذه الأحوال لا يكون ممكنا ويتحول حق الدائن قبل المدين فى طلب رد ما دفعه من ثمن مثلا مع التعويض إن كان هناك ضرر وقع للبائع من المدين .

لا ينبغى أن تضيع الحياة
ابتغاء لوسائل الحياة

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

للإنسان ناحيتان : ناحية معنوية وأخرى جسمانية . فالناحية المعنوية هى صورة الإنسان الباطنة ، أو هى نفسه أو روحه بما لها من معان وأوصاف وخصائص . والناحية الجسمانية هى صورة الإنسان الظاهرة ، أو هى ذلك الجسم الطويل العريض الذى تعتريه الأمراض المختلفة فيموت ويستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام .

هذا الجسم حياته قصيرة ، أما تلك الروح فخالدة لا تموت . وعالم الطبيعة الذى يعيش فيه الجسم له خيرات ولكنها خيرات خارجية ليست من ذات الانسان فى شىء . وعالم الروح له خيرات داخلية ذاتية من ذات الانسان ، فالمال والجاه والسلطان خيرات خارجية ، والحق والحرية والعدل والكرامة والفضيلة على العموم خيرات داخلية . ولو عودل بين هذه الخيرات الداخلية التى هى فوق كل ثمن ، وبين تلك الخيرات الخارجية ، لقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك . ومع ذلك فإنا نرى فى واقع الأمر على مسرح هذه الحياة كثيراً من الناس ، بل الغالبية العظمى منهم ، يضحون بهذه الخيرات الداخلية من غير تردد ، بل ومن غير ألم فى سبيل خيرات لاقيمة لها . على أن هذه الخيرات الخارجية بل والحياة نفسها ، تلك الحياة التى لا بقاء لها ينبغى أن يضحى بها قربانا للاحتفاظ بما هو أسمى منها وهو الخيرات الداخلية ؛ فالعالم الحقيقى هو العالم الذى تعيش فيه الروح ، وهو العالم الذى ينبغى أن نضحى بكل شىء فى سبيله ؛ ففيه السكينة والنور ، وفيه الطهر والسلام ، وفيه البهجة والانشراح . ومن الخروج عن حدود المعقول الاستهانة بالخيرات الخارجية من حيث هى خيرات ، فإن منفعتها لا تخفى على أحد ، ولكنها ليست

إلا أدوات لغرض أسمى . ومهما يكن من قيمتها فى ذاتها فإنها تصبح عديمة القيمة متى وزنت بالخيرات الداخلية . وبمقدار ما يوغل الإنسان فى هذه الخيرات الداخلية يكتسب من القوة ، وتصير الأرض التى يرتكز عليها أكثر ثباتا وخصبا . ومن هذا العالم الداخلى يستمد الانسان ذلك الإحساس الشريف العجيب الذى يسمى احترام الذات ، ذلك الإحساس الذى هو كفيل المرء بأن يؤدى له أمثاله الاحترام الواجب عليهم ، والذى يؤديه هو لهم فى دوره .

وهذا الإحساس الشريف العجيب الذى يسمى احترام الذات ، لا يستمده الإنسان ، ولا يمكن أن يحصل عليه إلا إذا عرف أولا نفسه . فمعرفة النفس أول ما تنصح به الحكمة . وذلك هو المبدأ الأول لهذه الخيرات الداخلية ، بل هو المبدأ الأول لكل علم وفضيلة ، وقد لفتنا الله تعالى إليه فى كتابه الكريم حيث قال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وقد استجاب لله ولرسوله أناس جدوا فى طريق هذه المعرفة ولم يحيدوا عنها فأكرموا أنفسهم بمعرفتها . عرفوا قيمة أنفسهم فوقفوا عند حدها ، ووصلتهم هذه المعرفة إلى الإيمان بالله فسكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم ، وعاشوا فى هذه الدنيا عيشة كلها قوة وكلها أنس وإنسانية ، حتى أصبحوا ولم يخفهم فى العالم شىء بأسره ، وأصبحوا وقيمة الكرامة عندهم أغلى من قيمة الحياة .

والنفس الغنية بنفسها وبخيراتها الداخلية سماها الله سبحانه وتعالى النفس المطمئنة ، وناداها إلى حضرته تشريفا وتكريما فقال : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » وهذه الحياة التى دعا الله النفس المطمئنة إلى مائدتها وصفها حكيم بقوله :

« إن فوق عالم الطبيعة عالما روحانيا نورانيا لا يدرك العقل حسنه وبهاءه ، وإن الأنفس الزكية تشتاق إليه ، وإن كل إنسان أحسن تقويم نفسه بالتبرى من العجب والتجبر والرياء والحسد وغيرها من الشهوات فقد صار أهلا أن يلحق بالعالم الروحانى ، ويطلع على ما يشاء من جواهره من الحكمة الإلهية ، وإن

الأشياء الملذذة للنفس تأتيه حينئذ أرسالا كالألحان الموسيقية الآتية إلى حاسة السمع ، فلا يحتاج الإنسان أن يتكلف لها طلبا » .

ولنترك الآن مسألة : هل الموت بداية لهذه الحياة أولا ؟ فما لا شك فيه والأمر الواقع المسلم به ، أن الانسان أمام ضميره يشعر به منعما لطيفا إذا أطاعه ، ومنتقما جبارا إذا عصاه . والأمر الواقع المسلم به أن صوت الضمير يجعل حياة الانسان جنة إذا هو أطاعه فأخلص للحق ولم يعرف غير الحق ، ويجعل حياته جحيما إذا هو حاد عن الحق وانحرف عنه . فالحياة التى لا ينبغى أن نضيعها ابتغاء لوسائل الحياة ، هى حياة الحق ، والحياة فى سبيل الحق .

والحق الأول أو الحق المطلق هو الله « فذلكم الله ربكم الحق » . ومعنى أنه هو الحق المطلق ، أنه حق من جميع نواحيه . فقوله حق « ويوم يقول كن فيكون قوله الحق » . وفعله حق « ماخلق الله ذلك إلا بالحق » ، وأكملنا أقربنا رتبة إلى الحق الأول ، وهو الله ، والجهة التى يلزم تقدير النفس منها إنما هى جهة تذوقها للحق . فهل نحن الآن فى هذه الحياة أو أضعناها ابتغاء لوسائل الحياة ؟ أترك الجواب لحضرات القراء . ولقد حرمنا الأمن والأمانى والسكينة والاطمئنان فى هذه الحياة لسببين اثنين ، هما اثناهما مصدر ما نراه من بلبلة فى الأفكار ، وهما اثناهما مصدر ما نراه من ضعف فى جمعيتنا الإنسانية .

الأول : نومنا عن إصلاح أنفسنا ، وإنى أشبه مجتمعنا الآن بقوم يستمعون لخطيب أو لمغن من المغنين وهم فى لغط وضوضاء وجلبة تمنعهم من السماع وتمنع الخطيب أو المغنى من مواصلة خطبته أو غنائه ؛ وهذا اللغط وهذه الضوضاء والجلبة ناشئة من أن كل واحد من الموجودين يسكت غيره ، فترى هذا يأمر غيره بالإنصات ، وهذا يسخط لهذه الفوضى ، وذاك يلعن الجمعية التى بهذا الشكل ، مع العلم بأنه لو أسكت كل واحد نفسه واتبع فى ذلك قول القرآن الكريم : « لا تكلف إلا نفسك » ، وقوله صلوات الله عليه : « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت » ، لو عملوا بذلك لساد السكون وخيم الهدوء فانتفعوا ومكنوا غيرهم من عمله فخرجوا بفائدة .

الثانى : أن كل واحد فى مجتمعنا أو أغلبنا لا يحدد على الضبط هدفه فى الحياة ويخلص إليه الإخلاص كله ، ويهب له ما ملك من قوة وما يستطيع من حول ؛ فلو أن العالم تفرغ لعلمه على هذا النحو واجتهد فى أن يخرج بفكرة جديدة أو نظرية لم تكن ، غرضه فى ذلك خدمة الإنسانية والعمل على توجيهها بالخير أمام هذا التطور الذى لا غالب له ، لأفاد واستفاد .

ولو أن العابد الزاهد الذى رضى لنفسه أن يكون عابداً زاهداً ليس إلا ، وفى مكنته ذلك ، لو أنه أخلص لروحانيته فى صلاته وصيامه وتبتله ولم يأت ما يوجه الشبه إليه ، لو أنه فعل ذلك لكان قدوة صالحة للناس ، ومثلا أعلى فى الجمعية .

ولو أن السياسى أخلص لسياسته ومبادئه ، وأفنى فى سبيل ذلك حياته ولم يتلون كل يوم بلون يلصق به الشبه لسارت سفينته فى بحر السلامة ، ووصل بمن يقودهم إلى بر الأمن والنجاة .

ولو أن رجل المال والأعمال حدد عمله فى تجارته أو زراعته أو صناعته بنفع الأمة بمشروعاته ، وابتعد عن ظلم عباد الله الصغار ، لأثرى وساهم فى تخفيف ويلات الإنسانية المعذبة بما يزيد فى ثروته جزاء من الله وحباً من الناس له وإقبالا عليه .

ولو أن الطالب أخلص لدرسه وعلمه وأمته ، بحبسه نفسه فى سبيل الدرس والعلم وترك ما لا يعنيه فى مرحلته الأولى لمن يعنيه الأمر ، لخرج بعد زمن وكلُّ صفات الرجولة مكتملة فيه ، فأفاد نفسه ووطنه وأمته .

لو أننا أصلحنا أنفسنا وعرفناها حق المعرفة لآمنا بالله ، وبأنه القائم على أعمال الناس وأرزاقهم وآجالهم ، وبأن هذا العالم محكوم منه بقانون شامل عادل ليس فيه استثناء ، ووصلنا ذلك إلى حياة بعيدة عن الألم والقلق والاضطراب .

لو أننا أصلحنا أنفسنا وحددنا أهدافنا فى الحياة ، وأخلصنا لهذه الأهداف لرزقنا الله من بعد ضعف قوة ، ولوهبنا من بعد خوف أمنا وسلاما ؟

طهارة العرض

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

طهارة العرض والشرف من الكلمات التى يكمل إحداها الأخرى، ويُضفى عليه من الجلال والإشراق ما يحس الانسان معه بضرورة وجوده، حتى لكأنه معدوم أو فى حكم المعدوم إذا ما نقصه، أو لم تتح له المقادير أن يضاف إليه .. وإذا كانت الأشخاص فى عالم البشر يفتقر البعض منها الى بعضها الآخر ليتبادل وإياه المنافع، ويتعاون معه على الإسعاد والخير، وكذلك الحيوانات فى الصحراء، والطيور فى السماء ... فليس شرف المرء بالعظم الرميم، ولا بالوفر العميم، ولا بالجاه والسلطان، والتطاول فى البنيان، ما لم يحز الى جانب ذلك طهارة العرض، ونقاء الصحيفة، وحسن السمعة. وتلك سنة درج الناس عليها منذ آدم إلى يوم يبعثون، خصوصا إذا كان الرجل من هؤلاء الذين يتهيئون للعظمة، ويعدون أنفسهم للمجد؛ ولذلك لم يضم التاريخ بين جنباته اسما لامعا لبطل من الأبطال، أو فاتح من الفاتحين إلا وقد كان من أصحاب الماضى المجيد، والسلوك الحميد، والرأى السديد.

والعرب مع جاهليتها الجهلاء لم تضع زمامها فى يد ملوثة أو تكل أمرها لزنيم، أو تسلم مقادتها لزعيم كيفما اتفق، إنما تقرأ فى كتابه أولا وقبل كل شىء، فإذا رأت أن حاله فيهم، وحديثه معهم، يجعلانه من أصحاب الأعراض الناصعة، والمكانة المرموقة، فهو الآمر المطاع، والداعى المجاب، وإلا أبوا أن ينزلوا على رأيه، أو ينقادوا لسلطانه، مهما كان هيله وهيلمانه ...

وقد كان هذا رأس مال محمد بن عبد الله عندهم منذ نعومة أظفاره الى أن صار جلدا قوياً. ومن أثر هذه الثروة الفياضة إذعانهم لحكمه يوم أن اختلفوا على

حمل الحجر الأسود فى الكعبة حينما طرح الثوب ووضعه فوقه وقال : لتأخذ كل كل جماعة بطرف . . . ولاعتقاده صلى الله عليه وسلم تقديرهم للأشخاص على هذا الضوء ، لم ينس إذ بعثه الله إليهم خاصة والى الناس عامة أن يذكرهم أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وأنه كان يتنقل فى أصلاب الطاهرين من الرجال ، والطاهرات من النساء ، الى أن وصل الى أبيه وأمه . . . مع ما عرفوه عنه من الأمانة والصدق ، والعفة والنزاهة ، ومجانبته للظلم ، وكراهيته للاستبداد .

وإذا صرفنا النظر عن مناوشة كبار المشركين الذين خافوا أن يفلت الزمام من أيديهم فاذا هم وقد تخطتهم العيون ، ونبت عنهم الأنظار ، وجدنا أن الدخول فى دينه كان أشبه بانسياب الماء فى النهر ، وانبساط النور فى الظلماء ، يدفعه الشوق اللهف ، والإحساس الظامىء .

والحديث الشريف : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » يعتبر دستورا عظيما فيما يجب أن يتحلى به المسلم من الصفات العالية ، والشيم الكريمة ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه .

وكذلك كان سلوك السلف الصالح فيما يصدر عنهم من الأعمال ، ويتناقله المتناقلون من جميل الخلال ، فلم يقعد أحدهم مقعد الريبة ، أو يجعل نفسه فى مواطن اللوم ؛ وإن كان الله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن السرائر وما تخفى الصدور . والذى يصلح ما بينه وبين ربه لا يعنيه ما بينه وبين العباد ، مهما ظنوا به الظنون وكالوا له التهم ، إلا أن الورع يقضى على صاحبه أن يحيط سدته بالصون ، وسمعته بالنزاهة ، وشرفه بما هو الأولى .

وكتب الفقه فى باب « الشاهد والقاضى » لا تكتفى بالعدالة وسلامة الحواس ، بل تضيف إليهما فيما تضيفه ألا يكون مفضوح الحال ، مهتوك الستر ، مكشوف الصحيفة . والشاهد والقاضى إذا لم يكن كلاهما مستورا ترد شهادته ، ولا ترضى أحدا من الخصمين حكومته . ولا يقصد الفقهاء من وراء ذلك إلا أن يكون المؤمن طاهر الذيل ، نقى العرض ، لم يتدنس رداؤه بشبهة ، أو يتلطخ جانبه بريبة ، والقوم لا يعولون فى هذا على الصدق والكذب ، والحق والباطل ،

ولم يعد فيهم من يتعظ بقول الله جل جلاله : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . . » وتندرهم لا يخلو من الانتهاش ، وأسمارهم قلما تكون بريئة . والمربى الحازم ، والمدرس الذى يهيمن على تلاميذه ، وما شاكل هذا وهذا من كل من يصبو الى أن يكون فى موضع المشرف إذا لم يغرس فى القلوب مهابته كان جهده مضاعا ، ومحاولته فاشلة ، وجهاده فى غير عدو .

والشخصية فى الرجل — وهى كل شىء — لا تكون إلا تلك المعانى التى يهىء بها نفسه ، ويحيط صورته ، ويجعلها كالهالة حوله من الفضيلة والنبل ، والنزاهة والشرف ، والعزة والإباء .

وإذا كان الزمن حين انتكس بالعالم ، واختلت فيه المقاييس ، جعل الاعتقاد أن الفسولة والخنا عماد الرقى ، وعدة السبق ، فتلك من الابتلاء الذى هو البوتقة التى ينصهر فيها الإيمان « ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . . . وإذا استنوق الجمل ، واستنسر البغاث ، وولدت الأمة ربتها ، ووسد الأمر الى غير أهله ، فإن للدين موازين ، وللدنيا أخرى « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور . . » م ؟

غيظ الرشيد

قال يعقوب بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس : دخلت يوما على الرشيد وهو متغيظ ، فسلمت فلم يرد السلام ، فقلت فى نفسى : داهية نآد ! . ثم أومأ إلى فجلست ، فالتفت إلى وقال : لله عبد الله بن جعفر حيث يقول :

يأيها الزاجرى عن شيمتى سفها ... عمداً عصيت مقام الزاجر الناهى
أقصر فانك من قوم أرومتهم ... فى اللؤم فافخر بهم ما شئت أو باه
يزين الشعر أفواها إذا نطقت ... بالشعر يوماً وقد يزرى بأفواه
قد يرزق المرء لا من فضل حيلته ... ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهى
لقد عجبت بقوم لا أصول لهم ... أثروا وليسوا وإن أثروا بأشباه
ما نالنى من غنى يوماً ولا عدم ... إلا وقولى عليه : الحمد لله

فقلت : يا أمير المؤمنين ومن ذا الذى تحدثه نفسه أن يسامى مثلك ؟ قال : لعله من بنى أبيك وأمك ! .

في السيرة النبوية

كيف تكتب السيرة؟

لحضرة الأستاذ « السيد »

الأنبياءُ والرسل — صلوات الله عليهم كافة — عصمةُ الخلق ، يَدُ السماء على الأرض ، ثمرة الخليقة الغضّة ، وهم على هاتيك صورة العصْمة ، وَصْفُ الجلال والعظمة ، تخيَّرهم الله فى خلقه نُقاية ، وصاغهم حلية !!! .

تلك صفة الأنبياء والرسل ، تعرفتْها أممهم وشعوبهم ، فتلت حمدَهم فى السور ! ورسمتهم فى الصور ! كان ذلك بعد جدَل وجحود ، فجالدة وجنود ! ثم آمنت بهم - عن بينة - إيماناً رَسَى جبلا ، وقام دُولا .

أجل : إن الإيمان بالرسل لم يأت عفواً ، ولا نجَم عن غِرّة وطماعية ، بل نشأ عن جدل يَصدَع برهاناً ، وحجج تفهق نوراً ؛ إن جلالة الأنبياء سماء مُرفعة لا تُرَمى بطرْف الكبرياء ، وشمس وضاءة يبصرها المنكر ويكبرها المصغر ! .

كالذى طأطأ الشهاب ليطفى   وهو أدنى له من التضريم

خطْرة جائرة ، وتقدمة بين يدَىْ لمحة من النقد الحق ، أمس بها كلمة خشناء جافية ، لست أدرى كيف طفت بها يراعة مؤلف السيرة النبوية المحمدية ، صاحب كتاب : « شرح الزرقانى على المواهب اللدنية (١) » ، رمت هذه الكلمة رتبة النبوة المرفعة بالغض ، وغمزت الشرف المحض ! .

جاء فى كتاب « شرح الزرقانى على المواهب اللدنية » من حديث أزواجه صلوات الله عليه ما يأتى ، عفا الله عن صاحب المواهب ، قال :

---

(١) نقل هذا عن ص ٢٧ من كتاب « شرح الزرقانى على المواهب اللدنية » المطبوع فى المطبعة الأزهرية لسنة ١٣٢٦ الهجرية .

« السادسة :

« ضُباعة ، بضم الضَّاد المعجمة ، وتخفيف الموحدة ، وبالعين المهملة : بنت عامر ، ابن قُرط ، بضم القاف ، وسكون الراء ، وبالطاء المهملة ، ابن سلمة ، ابن كعب ، ابن ربيعة ، ابن عامر ، ابن صَعْصَعَة .

أسلمت قديماً بمكة ، وكانت من أجمل نساء العرب ، وأعظمهن خلْقا ، وإذا جلست أخذت من الأرض شيئاً كثيراً ، وتُغَطِّى جسدها مع عِظمه بِشعرها ، وأسند ابن الكلبي فى الأنساب عن ابن عباس أنها كانت تحت هوذة بن على الحنفى ، فمات عنها ، فتزوجها عبد الله بن جُدعان ، فلم يلق بخاطرها ، فسألته طلاقها ، ففعل ، بعد أن حلفها أنها إذا تزوَّجت هشام بن المغيرة المخزومى ، تنحر مائة ناقة سود الحدق !!! ، وتغزل خيطاً يَمُدُّ بيْن أخْشَبَي مكة !!! ، وتطوف بالبيت عُرْيانة !!! ، فتزوجها هِشامُ ، ونَحَرَ عَنْها المائه ناقة !!! ، وأمَرَ نِسَاء بنى المغيرة بغزْل خيط ، ومدَّه بيْن الأخشبين !!! ، وأمر قُريشا فأخلوا لها البيت !!! ، قال المطلب ابن أبى وداعة ، وكان لِدَةً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فخرجت ، أنا ومحمد ، ونحن غُلامَان ، واستصغرونا ، فلم نُمْنَع ، فنظرنا إليها ، نخلعت ثوبا ، ثوباً !!! ، وهى تقول :

اليوم يَبْدُو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ فما بَدَا منهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

حتى نزعت ثيابها !!! ، ثم نشرت شعرها على ظهرها وبطنها ، فما ظهر من جسدها شيء !!! ، وطافت بالبيت وهى تقول الشعر !!! .

وولدت له سلمة ، وكان من خيار المسلمين ، فلما مات هشام ، وأسلمت هِى وهاجرت ، « خطبها صلى الله عليه وسلم » إلى ابنها سلمة بن هشام ، ابن المغيرة المخزومى ، من السابقين استشهد بمرج الصفراء سنة أربع عشرة ، عند ابن سعد ، أو بأجنادين ، عند غيره ، وصُوب « فقال : حتى أستأمرها » فى حديث ابن عباس المذكور ، فقال سلمةُ : يا رسول الله ، ما عنك مدفع ، أفأستأمرها ؟؟؟ ، قال : نعم ، فأتاها ، فقالت : الله ، كذا !!! ، أفى رسول الله تَسْتَأمرنى ؟؟؟ ، إنى أبتغى أن أحشرَ مع أزواجه ، ارجع إليه ، فقل له : نعم ، قبل أن يبْدُو لَهُ « فقيل للنبى صلى الله

عليه وسلم : إنها قد كبرت » فى حديث ابن عباس ، وقد قيل له — وقد ولّى سَلمةُ — إن ضُبَاعة ليست كما عهدت ؛ قد كثرت غُضُون وجهها ، وسقطت أسنانها من فيها ، « فلما عاد ابنها وقد أذنت له ، وأخبره بما قالت » سكت عنها صلى الله عليه وسلم ، فلم ينكحها ، رضى الله عنها .

على أنه قد جاء فى حديث آخر عن لِدَة رسول الله ، هذا المحدث عنه ، حين همَّ الرسول بنكاح ضُبَاعة هذه فذكرها ، أنهُ قال له « يا رسول الله ، إن ضباعة ليست كعهدك بها ، لقد كبر ثَدْيَاها ، وسقطت أسنانها ، يعنى بعهده بها ، حيث كانا ـ فيما زعم ففجر ـ يتسلَّلان ، وهما غُلامان ، ويختبآن فى المطاف ، فينظران إليها حيث تدور عارية بالكعبة ! ! !

هذه كلمة السيرة النبوية الخشناء الجافية ، لا العفة ولا الكريمة ، فانظر : كيف تكتب السيرة ! ! !

آمنت بالله ، والى الله المشتكى ، كأن عصمة الأنبياء قبل النبوة وبعد النبوة ، ليست مقنعة صاحب السيرة ، غفر الله له ، بأن النبى صلوات الله عليه ، يجب أن يبرأ فيعتصم من مَعَرة التطلع أو التسلل ليشهد العقائل العارِيات يَطُفْن حول الكعبة ! ! ! ، وقد كان هذا دأب نساء العرب كافة ، لا ضباعة خاصة ؛ أو كأن العصمة ليست بحاجزته أن يلهج ـ وحاشاه ـ بالثُّدىّ النواهد ، والصدور الفوالك ، وأن تغريه البطالة والشباب ، بالثنايا العذاب ! ! !

إن للعرب فى جاهليتها ، كما لها فى إسلامها ، حياءً وتكرما ، وإن لها نزاهةً ، وعصمة نفسية خلقية ، قبل أن يكون لها دينٌ وشريعة ، أليس فى بعض هذا ما يعصم سيِّد العرب كافة ، قبل عصمة دينه ورسالته ، من فحش وتَبَذُّلٍ ، هما أبعد الخلال من أنبل الأنبياء المطهرين ، قبل الدين ! ! !

نكتب بهذا لنذكِّر ، غير الناسين ، من المسلمين كافة ، بأن نبيّهم المطهَّر كما عرفوه ، وعرفه العالم ، وآمن به ، منزه فى الخيرة الأطهار ، عن عمل الفجار ؟

في ذكرى المولد النبوى الكريم :

محمد رسول الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدته محصنة بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها من يُهْدَ للنور المبارك يهتدى

أى سيدى رسول الله :

فى مثل هذا الشهر الميمون المبارك سعد العالم بساعة رضا من مولاك أفاض فيها على الناس من بركاته ، وحباهم بالوافر من آلائه ، وحباهم بالأجل من نعمائه .

ذاك إذ شرّف الوجود بطلعتك ، وعطر الكون بمولدك ، وأضاء ما فيه نور وجهك ، وأشرقت عليه أشعة شمسك ، فمحيت بفضلك آية ليل طويل ، وشفيت بسرك أسقام دهر عليل ، ومسحت على الدنيا يد الله فأخرجتها من الظلمات الى النور .

فإذا كان على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى مولدك ، ويعدوها مصدر عزتهم ومجدهم ، ويعتبروها بعث حياتهم ومشعل نورهم ، فإن على العالم كله أن يطرب لهذه الذكرى ، ويمجد هذا التاريخ ، ويشارك المسلمين سراءهم ومباهجهم فى تلك المناسبة ؛ إذ كانت ولادتك بدء غيث مدرار هطل على الناس جميعا ، وكانت رسالتك فاتحة عهد جديد حرر الانسانية من رق العبودية ، وأطلق العقول من عقال الهمجية ، وأنقذ البشرية من حياة الذلة والضعة والهوان .

سيدى رسول الله :

لقد كنت الإنسان الاول ، والديمقراطى الأول ، والمشرع الأول ، كما كنت المثل الأعلى فى خلقك وزعامتك ، وعملك وقيادتك ، وما زال التاريخ يسجل بمداد الفخر والإعجاب عبقريتك الفذة ، وسيرتك الطاهرة ، وسياستك الحكيمة فى كل الميادين .

عرفت للإنسانية حرمتها فكرمتها ، وقدرت للمرأة حقها فأنقذتها ، وذكرت الإنسان دائما بأخيه الانسان ، ورفعت المسود الى مقام السيد ، وأوصيت بالجار وجار الجار . وارتفعت فى معاملتك فوق مستوى الخلاف فى اللغة أو الجنس أو الدين .

ولقد أريت الناس لونا من الحكم لم يعرفوه ، وأذقتهم نوعا من العدالة لم يألفوه ، فنشقوا عبير الحرية من رياضك الفيح ، ولبسوا ثياب العزة من منسجك الفسيح ، ورشفوا رحيق الحياة من نبعك الصافى الثرار ، فما وسعهم إلا أن يدخلوا فى دين الله أفواجا ، ويتقاذفوا إلى شاطئك الأمين أمواجا ، حيث عاشوا فى ظلالك إخوانا بنور الحق مهتدين .

سيدى رسول الله :

لقد ملكت أعنة القلوب بكياستك ، وجمعت الأفئدة حولك بأمانتك ، وقدت قومك بالفكر السديد والرأى الرشيد ، فاستللت من المكامن الاضغان ، وألفت بين الرجال والركبان ، وآخيت بين الأسود والأحمر ، فأصبحوا أمة لا تعرف ألقابا وأنسابا ، بعد أن كانوا شيعا متفرقين وأحزابا .

ذاك أن خلقك من نيق على الناس بعيد ، ومن جوهر فى نوعه جد فريد :

رحمة كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وحياء
كرمت نفسه فما يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء

وليس عجبا بعد هذا أن يتوجك ربك بقوله الكريم « وإنك لعلى خلق عظيم » . وهو تاج تهفو الأفئدة نحوه ، وتتطلع النفوس إليه .

ولقد كنت — مع أميتك — العالم الذى شرف بعلمه العلماء ، وارتفعت به المعرفة إلى عنان السماء ، ولهذا أبيت إلا جهادا فى سبيله ، وتكريما لأفراد قبيله ، حتى جعلت من الحقيقة المجاز ، وانتقل الأمر إلى دوائر الإعجاز :

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

سيدى رسول الله :

لقد أديت الرسالة وبلغت الأمانة ، وتركت بعدك دولة شامخة البنيان عزيزة

الجانب ، وخلفت أصحابا رفعوا من بعدك اللواء ، واستنوا طريقتك دون تخاذل أو استخذاء ، فثبت الله ملكهم ومكن لهم فى الأرض ، وأورثهم أعداءهم وديارهم وأنفسهم وأموالهم ، وأضحوا ذوى دولة لا تغيب عن الشمس عزتها ، ولا تعزب على النهار رفعتها ، وكانت لخلفائهم وقوادهم الكلمة المسموعة والإشارة المطاعة والمهابة البعيدة المدى .

ولكن خلف من بعدهم خلف أعمى بصائرهم البهرج ، وران على قلوبهم الجهل ، وغشى عيونهم لألاء المادية الزائف ، وزبرجها الخداع ، فحادوا عن سننك القويم ، وتركوا صراطك المستقيم ، واستبدلوا بشريعتك السمحة وتعاليمك السامية قوانين من وضع الغرب عرجاء ، ونظما من تأليف البشر نكراء ، فأزال الله دولتهم وأذل سريعا عزتهم ، وجعلهم بعد السيادة عبيدا ، وبعد القيادة من الرعية ، وحكم فيهم أعداء دينهم ، فأصبحوا فى بلادهم غرباء .

وعلى الرغم من هــذا ، لا زال المسلمون سادرين فى غوايتهم ، عامهين فى ضلالتهم ، متنكبين سواء الصراط .

فها نحن أولاء نرى المسلمين جميعا غارقين الى الأذقان فى الموبقات ، مجاهرين دون خجل بالمحرمات ، تاركين أوامر الله ونواهيه وراءهم ظهريا ، كأن ليس لهم بالإسلام شأن ، وكأنهم غير المسلمين .

اللهم إنا نعوذ بك من الرضا بما لا يرضيك وترك ما يرضيك ، اللهم وفق المسلمين الى العمل بكتابك وسنة نبيك ، وأذقهم حلاوة الإيمان ولذة الطاعة ، واهدهم الى صراطك المستقيم .

سيدى رسول الله :

ادع الله أن يطهر نفوسنا ، ويشرح صدورنا ، ويهدينا الى العمل بشريعته ، وادعه أن يعيد عزة الإسلام ويقوى فينا الإيمان ، ويكفينا شر الأصدقاء والأعداء ، فإنك ياسيدى « بالمؤمنين رءوف رحيم » ؟

نظر علماء الازهر الى الشعر

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

كما عرفوا أن الخلفاء ارتاحوا للشعر واهتزوا له وحضّوا على الحرص عليه وتأديب النشء به . فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « روّوا أولادكم ما سار من المثل وحسُن من الشعر » . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول : « مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب » .

ويروى أن السيدة عائشة رضى‌الله عنها كانت تحفظ شعر لبيد وتقول : « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم » . بل كانوا يجدون تعلمه ضرورياً لتفهم القرآن. وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إذا قرأتم شيئا فى كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب » .

هؤلاء العلماء عرفوا ذلك كله فيما توافد إليهم من التاريخ والأدب ، فهم يعرفون أن موقف النبى صلى الله عليه وسلم من الشعر ، وموقف الخلفاء منه ، لم يكن بغضا كله ، ولا حبا كله ؛ لم يرتاحوا للشعر فى كل حال ، ولم ينكروه وينفضوا عنه فى كل حال . بل اهتزوا لما دعا منه لنصرة الدين ومكارم الأخلاق ، وحض على المروءة والوفاء ، والنجدة والأخذ بأسباب الفضائل ؛ وارتاحوا لما كان غزلا عفيفا ، وهوى بريئا ، لا يفضح النساء ولا يكشف العورات ، ولا يتصل بالأعراض ، بل يرمى إلى نبل الغاية وبراءة الهوى وعفة القصد ، ولا يراد منه امرأة خاصة يكون الحديث عنها قذفا وإفحاشا .

اهتزوا لهذا كله ، ولكنهم لم يستمعوا للشعر المفحش ، ولم يطربوا لما تدلىّ إلى ضعة الأخلاق ودناءة الأغراض . فعلماء الأزهر الذين هم ورثة الأنبياء ، والقائمون على دين الله ، سلكوا طريق الشعر على هذا النهج ، وأباحوا منه لأنفسهم

ما أباحه الإسلام ، وحرموا منه على أنفسهم ما حرمه الدين : فنظرهم إلى الشعر فيه تقية وتورع ، ومن ثم خلا شعرهم — غالبا — مما ينافى هذه المبادىء ، ويحيد به عن الجادة .

ومن كانت رسالته بهذه المثابة ، ومكانته على هذا الوضع ، ونظرته فى هذا الأفق ، لا يسمح لنفسه أن يشبب فيفحش ، أو يهجو ، أو يمدح فيتضع ، أو يمعن فى الحديث عن المحرمات ، والمجاهرة بالدعوة إلى الخمر ، وهو العليم بأن ذلك تأثم واستهتار ، فإن استجابت نفس بعض منهم لدواعى الشعر ، وترنحت أعطافه بهوى ذلك الفن ، وانساق فى شعره مساق غيره من غير المتحرزين ، فإنما يخفى ما يقوله ويكنه عن الناس ، وما ذلك فيهم إلا أقل من القليل .

وإنى لأسائل نفسى : هل كان شعراء الأزهر من فطرة غير فطر الناس ؟ وهل خرجوا عن حظيرة البشر فكان لهم إحساس خاص ؟ هل يجمدون حيث ترق العواطف ، وينقبضون إذ ينطلق المحيا ، ويعبسون للجمال إذا ابتسم له فم الزمان ؟ هل مكنوا من الحواس والمشاعر فحرموها حسن التعبير ، وعاشوا بها دون شرح وتصوير ؟

هل حبسوا الخيال أن يطير فى مجاليه ، والقلب فلم يخفق بحب من يستهويه ؟

أنا أفهم أن فريقا من شعراء الأزهر أحنقهم بعض الناس فامتلأت نفوسهم بغضا له ، فهجوه ، وصوروا بغضهم فى شعر لاذع وهجو مرير . ومنهم من أحب من يجدر بحبه وإجلاله ، فأفاض فى شرح مكارمه وتصوير خلاله ، وخلع عليه من ألقاب الرفعة وحلل الكمال ما يشاء الشعراء . ومنهم من ترنحت عواطفه لمعانى الجمال ، وخفق فؤاده لإشراق القسمات ونور المحيا ، وحومت روحه حول الخرد الغيد والظباء الكنس ، وعبر عن ذلك بصور من شعره وألوان من فنه .

لم يكونوا جماداً ولا تماثيل ، ولم تكن لهم قلوب من الحجارة ، ولا عواطف غير عواطف الناس . هم أحبوا كما يحب كل إنسان . وهووا كما تهوى كل روح ، وائتلفوا مع بعض الخلائق كما يأتلف كل خليل مع خليله . ولكن حبهم حب فضيلة ونبل ، وهواهم هوى عفة وشرف ، وغزلهم غزل كمال محتشم ، وصبابة مخدرة ، يتخيلونه فى مطلع القصائد حينا ، ويعبرون به عن شعورهم حينا آخر .

ولقد كان العلماء والشعراء فى حيرة من أمرهم ؛ فدينهم يدفعهم إلى التوقر ، وعواطفهم تحضهم على الغزل والتشبيب ، وحياة أمثالهم « تتطلب تجاهل الحب وعدم الانسياق فيه ، وغض النظر . وكبت النفس وترك ذلك لأهل الخلاعة » . ولكن ما جريرتهم « وليس مرد العشق إلى الرأى فيملك . ولا إلى العقل فيدرك ، إنما هو كما قال الشاعر :

ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ی ولا بالقيـاس والتدبير
إنما الأمر فى الهوى خطرات محدثات الأمور بعد الأمور

لا تدرك الأبصار مداخله ، ولا تعى القلوب مسالكه ، وهو كما قال القائل إن لم يكن طرفا من الجنون فهو عصارة من السحر . فسواء أكان صاحبه فقيها أم ديناً ورعا ، أم داعرا فاجرا ، فهو إذا مس قلبه صرعه وأذله :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة إذا شئت لمساً للثريا لمستها
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت بقلبى ولو أستطيع رداً رددتها [1]

ومن ثم لم يكن لهم بد — على رغم تدينهم — من تصوير عواطفهم ، وشرح وجدانهم بالشعر . ولكن لم يظهر من شعرهم الغزلى (فى أغلب الأمر) إلا ما نقيت صفحته ، وطهر غرضه ، وشرف مغزاه . وعسى أن يكون من ذلك ما يقوله « عبد الله فكرى باشا » أحد شعراء الأزهر ، ممثلا إلى حد كبير براءة شعره الغزلى ، ومجانبة الإفحاش والإسراف ، وذلك حيث يقول :

ما أحيلى يوم اجتمعنا بروض أوردتنا ظلا ظليلا غصونه
كان فيه الرقيب غير قريب والزمان الخئون نامت عيونه
فهجرنا مر المدامة فيه بحديث مستعذب مضمونه
إن فى سكرنا من اللفظ واللحـ ـظ غناء عما تدير يمينه

(١) من مقال للاستاذ أحمد أمين بك فى مجلة الثقافة العدد ٣٦٤ بعنوان « إمامان عاشقان » هما : « محمد بن داود الظاهرى ، وعلى بن حزم » .

فقد تهيأ له لقاء الحبيب فى الروض الناضر ، وظل غصونه الظليل ، وليست عين الرقيب قريبة فترى ما عساه أن يكون بين الحبيب وحبيبه من لهو الهوى وعبث الغرام ؛ ولكنه كان فى صون وتحرز ، وهجر « مر المدامة » إلى عذب حديثه ، وآثر « السكر » من لفظه ولحظه ، على سكر الكأس تديرها يمينه .

و « عبد الله فكرى باشا » هو الذى يحدث فى شعره بأن أسباب الفتنة تواتت له ، وتيسرت له بالمحب مفاتن تغرى النفس ، ومباهج تنحل معها أواصر العفة والتصون ؛ ولكنه لم يجاف الشرف ، ولم ينأ عن التعفف ؛ وذلك حيث يقول :

فقالت وقد مال الكرى بقوامها كما مال بالنشوان صرف من الخمر
وماست ترجى ردفها فى مورد من اللاذ قد وشته بالدر والتبر (١)
وتمسح عن أجفانها النوم سحرة فيرفض عنها كل فن من السحر (٢)
وبتنا كما شاء الهوى فى صيانة وعفة ثوب لم يزر على وزر

وهذا هو « رفاعة رافع الطهطاوى » أحد علماء الأزهر وشعرائه ؛ يمثل عفة العلماء وقناعتهم فى الملذات ، ويمر مر الكرام بما يطيل الشعراء الوقوف عنده وتسريح النظر فيه ؛ وذلك حيث يقول :

قد قلت لما بدا والكأس فى يده وجوهر الخمر فيه شبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من مغانى سحر عينيه

فهو يقنع بنزاهة طرفى فى محاسن محبوبه عن التمتع بهذه المحاسن . فلا يقبل فما ، ولا يهصر عودا ، ولا يذهب مذاهب العشاق ، من الضم والعناق ، ويغنيه من حبيبه النظر الى مواطن جماله ، والنشوة بمغانى سحر عينيه عن كل ما يلتمس من لذة ومتاع .

---

(١) اللاذ جمع لاذة وهى ثوب حرير أحمر صينى . وشى الثوب نمنمه ونقشه وحسنه .

(٢) السحرة بالضم : السحر الأعلى .

تقرير عن كتاب الفرقان

- ٣ -

ثانيا - القراءات

كما طافت برأس المؤلف فكرة وجوب كتابة المصحف بالرسم الحديث فارتكب فى سبيلها كل صعب ، واقتحم كل حمى ، طافت بذهنه أيضا فكرة أخرى هى وجوب الاقتصار على قراءة واحدة ، وأن ما يتناوله القراء من القراءة بالقراءات السبع المعروفة غير جائز ، لأن فيه تضييعاً للقرآن ، وتعقيدا لمعانيه ، يتنافى مع قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

طافت بذهن المؤلف هذه الفكرة فارتكب فى سبيل تبريرها هى أيضا عدة أخطاء ما كان له أن يجترىء عليها :

١ - فمن ذلك أنه فهم من صنيع عثمان رضى الله عنه حين أمر بكتابة المصحف لجمع الناس فيه على أمر جامع ، أنه بهذا أبطل القراءات ، وأوجب على الناس أن يقرءوا بقراءة واحدة ، وقد وافقه على ذلك زهاء اثنى عشر ألفا من الصحابة . والذى جر المؤلف الى هذا الفهم ما جاء فى الروايات التى ذكرت هذا الشأن ، وخلاصتها كما أوردها المؤلف فى (ص ٣٨) : لما كانت خلافة عثمان رضى الله عنه اختلف الناس فى قراءة القرآن ، فقدم حذيفة بن اليمان على عثمان وقال له : « يا أمير المؤمنين إن الناس قد اختلفوا فى القرآن ، وإن اختلافهم ليوشك أن يكون كاختلاف اليهود والنصارى ، حتى إن الرجل ليقوم فيقول : هذه قراءة فلان ، ويقوم الآخر فيقول : هذه قراءة فلان .

وقد أخذ أهل البصرة عن أبى موسى الأشعرى ، وأهل الكوفة عن عبد الله ابن مسعود ، وأهل دمشق عن أبى بن كعب ، وأهل حمص عن المقداد بن الأسود .

وقد كان كل قطر من هذه الأقطار يدعى أنه أهدى سبيلا ، وأقوم طريقا ، فخشى عثمان رضى الله تعالى عنه هذا الاختلاف ، وجمع الناس - وكانوا يومئذ زهاء اثنى عشر ألفا - فقال عثمان : ما تقولون ؟ لقد بلغنى أن بعضهم يقول : قراءتى

خير من قراءتك ، وهذا يكاد أن يكون كفراً ؛ قالوا : فما ترى ؟ قال : أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا يكون فرقة ، ولا اختلاف ، قالوا : نعم ما رأيت .

فأرسل عثمان رضى الله تعالى عنه الى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ، فننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت اليه حفصة بالصحف ، فأرسل الى زيد ابن ثابت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الحارث بن هشام ، وأبىّ بن كعب ، فقال لهم : انسخوا هذه الصحف فى مصحف واحد ، وقال للنفر القرشيين : إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت . فاكتبوه على لسان قريش ، فإنما نزل بلسانها . ففعلوا ما أمرهم به عثمان رضى الله تعالى عنه ، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ـ وقد كانت أربعاً ـ بعث عثمان الى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف ، فوجه الى الكوفة إحداها ، والى البصرة أخرى ، والى الشام الثالثة (١) وأمسك عنده المصحف الرابع ؛ ثم أمر بما سوى ذلك أن يحرق بعد أن استأذن حفصة فى حرقها .

وقد علق على هامش الصفحة التى فيها هذا الكلام بقوله : إن أمر عثمان بحرق المصاحف التى تخالف مصحفه فى القراءة دليل قاطع على وجوب القراءة الواحدة بقراءة قريش وترك ما عداها وهذا ما نقول به .

فهم المؤلف من ذكر القراءات هنا أن المراد بها القراءات السبع المعروفة لنا الآن ، وفهم من قول عثمان للنفر القرشيين : إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء ، فاكتبوه على لسان قريش فإنما نزل بلسانها ، ومن أمره بحرق المصاحف التى تخالف مصحفه فى القراءة ـ أن عثمان أوجب القراءة الواحدة بقراءة قريش ، وترك ما عداها . وسمى المؤلف ذلك دليلا قاطعاً ؛ وكان على المؤلف قبل أن يسرع بهذا الحكم الذى استنبطه من صنيع عثمان أن يفطن الى أمور :

أولها : ما جاء فى هذه الروايات من أن أهل البصرة أخذوا القرآن عن أبى موسى الأشعرى ، وأهل الكوفة عن عبد الله بن مسعود ، وأهل دمشق عن أبى بن كعب ، وأهل حمص عن المقداد بن الأسود .

---

(١) هكذا كتب المؤلف : « أربعا » و « إحداها » و « أخرى » و « الثالثة » كأن الحديث عن مؤنث ، وإنما هو عن المصحف .

فمنشأ الخلاف إذن هو هذه القراءات التى انفرد بها بعض الصحابة ، ولم تكن مجمعا عليها ، والشأن فيما يروى آحادا أن يقع الاختلاف عليه ، وأن يقول القائلون فيه : قراءتى خير من قراءتك ، ونحو ذلك .

وقد عقد المؤلف نفسه فصلا عن القراءات التى كان بعض الأصحاب يقرأ بها (ص ١٠) فذكر قراءة عمر « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » و « الحى القيام » و « فى جنات يتساءلون يا فلان ما سلكك فى سقر » وقراءة على « آمن الرسول بما أنزل إليه وآمن المؤمنون » وقراءة أبى « فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة » وغير ذلك من قراءات أبى وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وما جاء فى مصاحف بعض الصحابة كمصحف عبد الله بن عمرو ومصحف عائشة ومصحف حفصة ومصحف أم سلمة .

عقد المؤلف نفسه هذا الفصل ؛ فكان عليه أن يتنبه إلى أن عثمان خشى تفرق الناس بهذه القراءات الآحادية ، وبهذه المصاحف المختلفة ؛ فلذلك كتب المصحف وأثبت فيه ما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم دون ما انفرد به الآحاد .

وبهذا يتبين أن عثمان بصنيعه لم يتعرض للقراءات السبع المروية عن الرسول. صلى الله عليه وسلم بطريق التواتر .

ثانيا : أن عثمان وكتّاب المصحف رضى الله عنهم قد كتبوه برسم ملاحظ فيه احتماله للقراءات المتعددة ، وقد اتخذ ذلك فيما بعد ركنا فى صحة القراءة ،حيث قال العلماء فى بيان أركان القراءة الصحيحة : إنها التى يتوافر فيها ثلاثة أركان : موافقتها وجها من أوجه النحو ، واحتمال الرسم العثمانى لها ، وصحة سندها ؛ فإن خالفت الرسم المجمع عليه فهى قراءة شاذة . ويوضح ذلك الإمام ابن الجزرى حيث يقول « ملك يوم الدين » فإنه كتب فى الجميع ، أى فى مصاحف عثمان ، بلا ألف ، وقراءة الحذف توافقه تحقيقاً ، وقراءة الألف توافقه تقديراً ، لحذفها فى الخط اختصارا . وقد يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقا نحو « تعلمون » بالتاء والياء ونحو ذلك مما يدل تجرده عن النقط والشكل فى حذفه وإثباته على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم فى علم الهجاء خاصة ، وفهم ثاقب فى تحقيق كل علم . وانظر

كيف كتبوا الصراط بالصاد المبدلة من السين وعدلوا عن السين التى هى الأصل فتكون قراءة السين - وإن خالفت الرسم من وجه - قد أتت على الأصل فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام محتملة ، ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات ذلك ، وعدت قراءة غير السين مخالفة للرسم والأصل ، ولذلك اختلف فى « بسطة » الأعراف دون « بسطة » البقرة ، لكون حرف البقرة كتب بالسين ، والأعراف بالصاد (الإتقان ص ٩٥) .

وبهذا يتبين أن كتابة المصحف العثمانى لم يقصد بها منع القراءات كما أراد المؤلف أن يزعم ، بل على العكس من ذلك جاءت محتملة لهذه القراءات ، حتى جعل العلماء موافقة القراءة للرسم العثمانى - ولو احتمالا - شرطا فى صحة القراءة .

ولكن المؤلف يضرب عن ذلك كله صفحا ، ولا يعتد إلا بما فهمه هو دون ما فهمه هؤلاء العلماء ، وأيدهم عليه الواقع العملى ، فى تلقى الأمة لهذه القراءات المختلفة بالقبول ، بعد كتابة المصحف العثمانى .

ثالثها : ما ذكره القاضى أبو بكر فى الانتصار من قوله : « لم « يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ، ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد . (الاتقان ص ٥٧) .

كل هذا يدل على أن عثمان لم يلغ القراءات المروية تواترا عن النبى صلى الله عليه وسلم - وحاشاه - ولكنه ألغى ما يجر الى الخلاف والنزاع مما هو آحادى أو شرح أو تفسير ُظن قراءة ، وُخشى التباس الأمر فيه .

ولو تنبه المؤلف إلى هذا لما وقع فيما وقع فيه .

على أنه ثبت عن عثمان أنه كتب عدة مصاحف لاحظ فى رسمها وجوه القراءات المختلفة ، مثل « تجرى تحتها الأنهار » و « من تحتها الأنهار » ونحو ذلك .

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرى ميلاد الرسول الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر

كان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم إيذانا بمطلع فجر جديد على العالم ، كان الناس يترقبون الخير مع صبحه ، والسعادة والعدالة مع إشراق شمسه .

والحق أن العالم فى هذه الآونة التى سبقت مولد الرسول وبعثته كان قد تجرد عن المعانى السامية التى دعا إليها الرسل والأنبياء قبل بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأشرب الناس حب الأثرة ، وأمعنوا فى الظلم ، واستهانوا بالحقوق ، وأسرفوا فى الملذات ، وانصرفوا الى حياة لا ترضاها العادات والطباع السليمة ، فضلا عن الشرائع والديانات .

وكانت هنالك قوتان ، أو بعبارة أخرى ، دولتان تتنازعان سيادة العالم والسيطرة عليه ؛ هما دولة الفرس ودولة الروم ، والعالم بين هاتين الدولتين مغلوب على أمره يتطلع إلى حريته ، وينشد المثل العليا ، ويتحدث باسم العدل والإنصاف ، ويرنو إلى الخلاص من ظلم أولئك وهؤلاء ، وبغى أولئك وهؤلاء ، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا ، ولا إلى الفكاك طريقا .

وبين هذه الغاشية التى كانت تغشى العالم ، وبين هذه السحب الكثيفة المتراكمة التى كانت تحجب النور عنه ، أذن الله أن ينبعث نور الحق من الجزيرة العربية، بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ، فى شهر ربيع الأول من عام الفيل ، الموافق سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح عليه السلام على أرجح الأقوال ، وبعثه بعد ذلك وهو على رأس الاربعين .

ولم ينشأ محمد صلى الله عليه وسلم كما نشأ لداته وأقرانه ، ولم يعجبه ما كان عليه قومه من عبادة للأصنام وتقديس لها ، ولم يرق له ما رآهم عليه من طباع الجاهلية ؛ ولذا آثر ألا يشارك القوم فى عباداتهم ، وألا يدنس وجهه بالسجود إلى الأصنام ، أو يشترك معهم فى تقديسها .

وكان صلى الله عليه وسلم ينقطع إلى العبادة فى غار حراء ، حتى جاءه الوحى وهو فى الغار ، إذ نزل عليه جبريل فأقرأه قول الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

وعند ما جاهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ناصبته قريش العداء ، وجعلت تنكّل بالمسلمين ، ولا تتورع عن إيذائهم .

ولقد تعرضوا للرسول صلى الله عليه وسلم بالأذى ، وكان ذلك لا يزيده إلا تمسكا بحقه ؛ ويوم أن عرضوا عليه الجاه والمال ليكفَّ عن دعوته وليرجع عن تسفيه آلهتهم ، قال « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

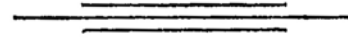
وقد ظل الرسول صلى الله عليه وسلم ينافح عن الحق ويدافع عنه ، ويتحمل الإيذاء صابرا ، وكان يقابل عدوان قريش عليه وعلى أصحابه بطلب الهداية لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

ولما اشتد إيذاء قريش للرسول وأصحابه ، هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة قضاها فى مكة داعيا إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالبعث والحساب ، والى ترك المعتقدات الزائفة التى يدين بها قومه .

وهناك فى المدينة وجدت الدعوة أعوانا وأنصارا ، وكتب الله لرسوله الغلبة والنصر على المعاندين المكابرين ، وبهر الناس ما جاء به الإسلام من تعاليم ، وما وضع لهم من نظم ، وما كفل لهم من حياة لم يكونوا يتوقعونها ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ، وآمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إيمانا امتزج بدمائهم ، وملك عليهم

حواسهم ، وأضحت الدنيا هينة رخيصة عليهم فى سبيل حماية العقيدة والدفاع عن الدين ، ورفرف لواء الإسلام عاليا على البقاع ، وآمن به من كابر ، ودخل فيه من عاند ، وتمتع بمزاياه من صد عنه أول الأمر ، وحاول تفريق الناس عنه والكيد له .

واليوم نسأل الله فى هذه الذكرى صلاة وسلاما دائمين لنبيه عليه الصلاة والسلام ، ونسأله جل شأنه أن يعز الإسلام ، وأن يعيد إليه سالف مجده ، وأن يرد عنه أعداءه ، وأن يكتب النصر والغلبة للمؤمنين ، وأن يمكن لهم فى الأرض ، وأن يحفظ كنانته من كل سوء ، وأن يكتب لجيشها الظفر والنصر ، وأن يرد عنها كيد الكائدين ، وأن يبلغها ما تصبو إليه ، فى ظل جلالة الملك فاروق الأول ، حفظه الله ورعاه ، وأن يعيد هذه الذكرى على العالم الإسلامى فى يسر ورخاء ، وأمن وسلام ، إنه سميع مجيب .



العالم كله

ينشد النهايات المطلقة اليوم
هل الحكومة العالمية تصبح علاجا لأوروبا ؟

العالم كله ينشد النهايات المطلقة اليوم ، وقد كاد يعم هذا الشعور العالى العامة أيضا بسبب ما ألانت الدعايات الفلسفية من جمودهم على موروثاتهم ، وتعصبهم لعقلية آبائهم . فلم يكن العالم فى عهد من عهوده أكثر استعدادا للتحقيق والتمحيص منه اليوم . وهذه الحالة العقلية كما هى مقدمة لكل تطور عقلى ، كذلك هى مادعا إليها الإسلام لتجريد العقل للنظر بعيدا عن المؤثرات عليه من الشوائب النظرية والوراثية .

هذه الحالة النفسية أثرت فى العالم الغربى تأثيرا شديدا حتى يكاد لا يطاق أن يقوم فيه داع لدين أو مصلح لمذهب ، ولولا ذلك لأصبحت الأمم كلها اليوم تدين بالمذهب الروحى بعد أن استنفد القائمون به كل ضروب التمحيص فى تحقيق ظواهره ، لا سيما والداعون إليه جلهم من أئمة العلماء ، أصحاب الخبرة الواسعة بكل ما يتصل بهذه البحوث من علاقات بالشخصية الإنسانية ، وبقوى النفس الكامنة ؛ فوقوف الجماعات عن الترامى على هذه البحوث على ما فيها من المغريات ، يدل على مبلغ ما تأثرت به النفوس من النفور من العقائد ، ومن كل ما يتصل بها من شئون ، وهو انقلاب شديد اقتضاه إسراف الذين كانت بيدهم مقاليد هذه الأمور فى الاستهانة بعقلية الجماهير .

ولكن هذه حالة لا تدوم ، ولا يعقل أن تدوم ، لأنها مجردة من مقومات الدوام ، فلا تزال العقول ظمئة إلى ما يثلج عليه صدور أصحابها من فهم المجاهيل التى تحتوشها من كل جانب ، والنفوس قلقة على مصيرها فى مضطرب هذه الفتن التى لم يتبين فى كل ما عولجت به الحد الذى تقف عنده ، بل الحل الذى تتصافى النفوس بعده .

وهنا لك مسائل أخرى تتعلق بالأخلاق والآداب ، وكلها مسائل شائكة

لا يعقل بعد كل ما بذل فيها من البيانات والحلول ولم تنته إلى غاية ، أن يوجد لها مدى تنتهى عنده .

كان الفلاسفة الماضون يقولون : لايضير الإنسانَ أن تكون حياته مضطربة فهو صائر إلى التكمل ، حتى ولو أفضى ذلك منه إلى الحروب المزعجة . ولكن لا يستطيع فلاسفة اليوم أن يقولوا مثل هذا بعد ما تبين أن الإنسان يتهيأ لأن يقاتل أخاه بما يلاشيه ويلاشى الممالك التى كانت تؤويه ، فالحرب المقبلة حتى ولو لم تستعمل فيها القنابل الذرية ستأتى على كل عامر فى الأرض ، فتجعله بلقعا . فإن القلاع الطائرة وما تحمله من القنابل الفتاكة كفيلة بأن تجعل أعمر المدن الأوروبية خراباً يباباً ، فى دقائق معدودة .

وإذا جرى الإنسان فى آرائه على هذا النحو ، أصبحت هذه الحالة العقلية ديدنا له فلم يقف منها عند حد ، بل ينسحب منها إلى اللا أدرية ، فيصبح أمر الجماعات محل نزاع مستمر ، وتنقسم الأحزاب على نفسها ، وتتفرق كلمتها ، فلا تعود تمثل وحدة محترمة ذات رأى له وزن فى الشئون العامة ، كما أصبح عليه الحال فى دول أوروبا الوسطى حيث أصبح الخلاف ديدن الأحزاب ، فما يرضى به جماعة تسخط عليه جماعة أخرى ، ولو نفذ على علاته كان خيراً للجماعة من عدم تنفيذه ، ولكنه يعلق وتدور حوله البحوث ، وتنعقد فى سبيله الجماعات ، وتقوم من أجله المظاهرات والمعارك .

وقد يشتد السخط لدى بعض الطوائف ، فتعمد الى تحطيم المرافق العامة ، وقطع الجسور والخطوط الحديدية على السابلة ، وتعطيل آلات التلفون والتلغراف ، حتى لايخف بعضهم الى إغاثة بعض ، معتبرين ذلك كله من الحركات المشروعة التى للشعب أن يعبر بها عن محابّه ومكارهه ، وهى وسائل كما ترى لا تدل على عقلية محترمة ، ولا على نفسية متزنة ، بل هى حالة لا يتضح منها متى يتغلب حكم العقل على هذه الحال من غلبة الأهواء ، وثورة الشهوات .

هل لهذه الحالة من التشاحّ والتلاحى بين الجماعات فى كل أمة من حد فتقف عنده ؟

إن هذه الحالة تنافى قواعد النظام فى الأحكام ، وتناقض موجبات الاستقرار

فى الأمم ، فلا تعيش الأمم فى جـوها إلا كما يعيش المريض فى جو مضطرب من حالته المرضية ، لاتوفق فيه لخير ماترجوه لنفسها من سير منتظم فى شؤونها الداخلية ، وسبيل سواء فى علاقاتها الخارجية .

إن من ينظر الى الحالة الأوروبية العامة من هذه الزاوية ، يأخذه العجب من أن يؤول أمر الجماعات المتمدنة الى هذه الحالة المضطربة ، ويعجز أن يرى كيف تعود الى حالتها الطبيعية .

إن الذى يلوح للمفكر أن هذه الحالة مقدمة لعهد جـديد للعالم ، ولعلاقات جديدة تنشأ بين الأمم ، وبين الجماعات وآحادها . وليس هذا بعجيب ؛ فقد سبقت جميعَ التطورات الاجتماعية حالاتٌ من هذا القبيل ، ظن معها أن التوازن بين أجزاء الشعوب قد بطل ، وأنه لا توجد قوة فى العـالم تعيده اليه ، على ما كان عليه . ويكون ذلك عادة عقب حدوث حروب طاحنة ، وطروء حوادث عارمة ، وانقلابات صاخبة ؛ فيحدث إذ ذاك لمجموع البشرية مثل ما يحدث للفـرد حين تحتوشه الصعوبات ، وتحيط به الكوارث ، وتساوره الجوائح من كل المظان ، فلا يجد أجدى فى التغلب عليها جميعا من الخضوع لها ، فيلبث مطأطئا الرأس لها حتى تمـر سراعا أو بطاء ، ويعود هو الى حياته العادية وقـد اكتسب تجارب نافعة ، وحصل معرفة مواتية .

يرى المتأمل أن هذا الرأى قد يكون هو الحق ، فإن التشدد البادى من جميع أصحاب المذاهب الاجتماعية لفرض تعاليمها على مجموع خصومهم دون أن يحسبوا لإمكان ذلك حسابا ؛ بالمسالمة أولا ، فإن لم تفد فبالقوة ؛ قلنا إن مثل هذا التشدد لا يقدع من كبريائه إلا الانتهاء الى النهاية التى ذكرناها .

ومما يلوح للمفكر أيضا أن ترفُّع الأحزاب عن الخضوع لحزب من الأمة ، ويكاد يشيع ذلك حتى لدى الانجليز والأمريكان ، يشعر بأن سلطان الحزب الواحد أصبح لا يكفى فى إخضاع الأحزاب الأخرى ، وأنه لا بد له من صـوت عالمى لإحداث هـذه النتيجة . إذا كان الأمر كذلك فقد آن وقت تأليف الحكومة العالمية التى رفع علمها فى أمريكا (جارى ديفز) . وليس ما يمنع من حدوثها إذا كان الإصلاح العالمى يتطلبه ، والاستقرار العام فى حاجة اليه .

ولا يقال كيف يتم ذلك ، فإن تخاذل الحكومات عن أداء مهامها ، وتعطل العالم عن أعماله فى مختلف البيئات والصناعات ، لترابط العالم بعضه ببعض فى العصر الحاضر ، كل ذلك يقوى القول بضرورة وضع إشراف عالمى على الأمم ، وعند ذلك تشعر الأعضاء الشاذة من البشرية أنها أصبحت تحت ضغط لا قِبل لها بدفعه عنها ، فتنقاد له مرغمة ، ويكون فى ذلك فتح جديد للبشرية تنعم به تحت جو من السلام والإخاء والحرية ؟

محمد فريد وجدى

استبقاء الأصدقاء

قال حكيم : معاتبة الصديق خير من فقده .

وقال أحمد بن أبان :

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ   وكنت أجازيه فأين التفاضل
ولكن أداويه فإن صح سرنى   وإن هو أعيا كان فيه تحامل

وقال عبد الله بن معاوية :

ولست ببادى صاحبى بقطيعة   ولست بمفشى سره حين يغضب
عليك بإخوان الثقات فإنهم   قليل فصلْهم دون من كنت تصحب
وما الخدن إلا من صفا لك وده   ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

وقيل لبزر جمهر : من أحب اليك : أخوك أم صديقك ؟

فقال : أخى إن كان صديقى .

وقال أكثم بن صيفى :

القرابة تحتاج الى مودة ، والمودة لا تحتاج الى قرابة .

وقال أبو تمام الطائى :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم   ووصفت ما وصفوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قاطعا   وإذا المودة أقرب الأنساب

المجاز والكناية فى القرآن

القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

يقول الله تعالى فى سورة الملك :

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .

ويقول المفسرون فى تفسير هذه الآية : إنها تحمل على أحد تأويلين :

الأول : أن لفظ « رجوما » جمع رَجْم ، وهى مصدر أريد به ذات وهو ما يرجم به . وعلى ذلك فالمعنى للآية كما يقولون : أن النجوم المجعولة زينة للسماء الدنيا يكون لها فائدة أخرى غير كونها زينة ؛ تلك الفائدة هى أن الشياطين التى تحاول التسمع الى السماء لتسرق منها — كما يقولون — أخبارا ، ترجم بتلك النجوم لتُرَدَّ بذلك عن التسمع من السماء . هذا هو أول المعنيين .

والمعنى الثانى للمفسرين : هو أن « رجوما » معناها ظنونا . وعلى هذا يكون المعنى أن النجوم المجعولة زينة ، لها فائدة أخرى هى أن النجوم جعلت لتكون مصدر ظنون للمنجمين ، فيربطون بأوضاعها من بعضها ، وظهورها واختفائها ، حوادث تقع فى مستقبل الأيام والليالى .

هذا محصل الوجهين اللذين ذكرهما المفسرون فى معنى هذه الآية الكريمة ، المنزلة من رب السماء ضمن القرآن المجيد ، المنزل على أفضل الرسل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، ليخرجهم من ظلمة الخرافات وفاسد العقائد ، الى نور الحق والرشاد .

وإنا لنربأ بكتاب الله عز وجل عن النزول الى ذلك المستوى ، فهو القرآن الحكيم ، تنزيل العزيز العليم ؛ هو الكتاب القيم غير ذى العوج ، الهادى الى سواء السبيل . إنا لنربأ بذلك الكتاب المقدس عن هذا الخطأ الآثم ، والضلال الأعمى .

واليك أيها القارىء الكريم وجه ذلك :

أما أولا : فلأن هذا المعنى واضح التنافى مع ما نعتقده ونشهده : من أن الله متقن لكل شىء خلقه ، ومحكم لجميع مصنوعاته ، وهو سبحانه العزيز فلا ينال حماه ولا ينتهك حرمه ، الحكيم الذى لا يجرى فى وهم أن يدانى صنعته خلل أو يتأتى أن يتجه إليها انتقاد ، بديع السموات والأرض ؛ فكيف إذن نسيغ لأنفسنا تصور أن الشياطين تحاول التسمع إلى ما يجرى فى السماء من تدبير وما يراد من تصرفات ، فلا يردها إلا أن تحذف بالشُّهب وترمى بالنجوم ، وفى ذلك ما فيه من تهوين لحرمه ، واستهانة بمكان تصرفه وتدبيره ، ونزول بديوانه — إن صح فى الأذهان مايصورون - عن دواوين ملوك الأرض ! . فها هى ذى مصونة محروسة لا يطمع أحد فى التسمع لما يجرى فيها من تصرفات ، وما يراد من تدبير ... إذن فكيف نبيح لأنفسنا أن تفهم هوان مكان تصرفه تعالى ، والنزول به إلى هذا الحد ، ولا يكون للسماء من إتقان خلقها ، ومحكم صنعها ، ومن جلال صانعها ، رادع للشياطين عن تلك المحاولات ! .

لا ! سبحانك اللهم ربنا ما أحكم صنعك وأتقن خلقك ! أنت بديع السموات والأرض ، العزيز الحكيم .

وأما ثانياً : فإنه مع ما ترى فى هذا المعنى من تجاف للحكمة ، وتناف للإتقان كما بينا — قد بناه المفسرون على خيال باطل ، وخطأ آثم ؛ فلقد حسبوا أن تدبير الشئون الكونية وتصرفاته فى خلقه ، مَثَلها مثل ما يجرى فى الدواوين من أخذ ورد ، ومشاورات وتبادل آراء . لا لا يأيها الناس ! إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . يحيط علمه بكل شىء ، وبعاقبة كل شىء ، وحكمة كل شىء ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأخفى ؛ فلا مشاورات ولا مداورات ، حتى يكون هناك خطاب وكلام تتسمع اليه الشياطين لتخطف من ذلك خطفة تذيعها قبل وقوعها ، لتهدم بذلك ما خطه الله بنفسه من علم الغيب . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب

مبين ». رب سبحانك، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا راد لما قضيت.

وأما ثالثا: فلأن سورة المُلك ترمى آياتها إلى غاية واحدة، هى لفت الأنظار إلى بديع آياته ومتقن مصنوعاته، وما خلق فى السموات والأرض من أدلة وبراهين على قدرته، وحجج قاطعة على وحدانيته، لتؤمن بربها، وبعظيم قدرته، وسامى حكمته، وأنه الواحد الذى لا شريك له، عن برهان قاطع، ودليل دامغ.

إن هذه هى الغاية من إنزال الكتب وإرسال الرسل؛ فإنه لا رقى للإنسانية ولا نظام للبشرية ولا اطمئنان ولا أمن يستتب فى الأرض، إلا أن يجتمع الناس على توحيد الله، والإيمان بأنه العزيز الجبار.

وأما رابعا: فإنه مما تأباه العقول ولا يُسيغه الإدراك، ومما يشعر بالعجز عن رد المعتدى: أن يفهم فاهم أن الكواكب التى جعلت فى السماء زينة، وأقيمت فى الأفق آية وبرهانا على ما لله من قدرة باهرة، وحكمة بالغة وتدبير محيط دقيق ونظام محكم متقن؛ الكواكب التى أقيمت لهداية الناس فى البر والبحر، وجعلت حجة؛ نعم: إنه مما لا يسيغه إدراكٌ أن يفهم فاهم أن النجوم التى ذلك شأنها وتلك حكمتها، يُرمَى بها المتسمعون إلى السماء لاستراق السمع. يالله! أليس هذا مما يخيل السفه ومما يجافى الحكمة، مما يؤذن بالعجز، حتى يلتجأ إلى مثل تلك الوسيلة التى هى آخر ما يلجأ إليها سفيه أو معتوه، والتى لا يبقى معها فى السماء زينة، ولا تبقى بتلك النجوم حجة، ولا يمكن بها بعد ذلك هداية فى بر أو بحر، ثم تمحى مع ذلك كله آياته التى أقامها للناس على حكمته وقدرته ووحدانيته!. وهل عجزت قدرة الله عن رد المعتدين على حرمه إلا بما تبطل به الزينات وتمحى به الآيات وتطفأ به المصابيح، وهو الذى بيده ملكوت السموات والأرض، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء!. ألا إنك لو حُدثت أن رجلا رمى لصوصا أو معتدين بما يزيّن به بيته وبما يضيئه به، لما تخيلته إلا سفيها؛ فكيف تسيغ ذلك من الحكيم العليم والخلاق العظيم!.

هذه هى أوجه البطلان للمعنى الأول، الذى ذهب اليه المفسرون.

وأما الوجه الثانى مما ذكره المفسرون ، وهو أن « رجوما » معناها : ظنونا ، أى مثار ظنون للنجمين ، فهو أيضا واضح البطلان ؛ لأنه لا يصلح أن ينتظم فى سلك المنن المعنوية ، أو فى سلك المنن المادية ؛ فلا هو لفت إلى برهان على عظمته ، ولا تذكير بنعمة ليُشكَر عليها . ويا ليته ليس هذا ولا ذاك ! لا بل هو إلى ذلك شر وباطل وضلال . وإنا لنستقبح من الناس أن يمنوا أو يفاخروا بقبيح ، فكيف بذى العظمة التى لا تعاظم ، والكبرياء التى ليس له فيها منازع ! . وإلى ذاك وهذا تكون الآية قد نظمت ذلك فى سلك آياته ومننه ، مما ينزل بالقرآن المعجز بأسلوبه الذى انقطعت دون بلاغته أساطين القول وفرسان الكلام ، وينزل بقائله عن مستوى العقلاء من الناس .

هذا هو ما قاله المفسرون ، وتلك هى وجوه بطلانه بارزة واضحة ؛ وعلى ذلك وجب أن تفسر الآية بما هى واضحة الدلالة عليه ، وفقا لسابقها ولاحقها ، ووفقا لأغراض السورة من دعوة العقول ولفتها الى ما لله من آيات على قدرته وجلاله ، وعظمته التى لا تعاظم .

اقرأ السورة من أولها ، تر أن الله تعالى بدأها بأن الملك فى قبضته لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، بل هو على كل شىء قدير ، وأنه هو وحده مانح الحياة وسالبها ، ليختبركم أيكم أذكى قلبا وأبعد نظرا وأوفر عقلا وأهدى سبيلا الى الحق ، فيؤمن بالله وكتبه ورسله ، وأنه لم يكلفكم إلا ما فى وسعكم ، وأنه حين أوجب عليكم الإيمان به وبما يجب له ويتنزه عنه ، أقام لكم على ذلك الآيات ، وأوضح لكم البراهين فى السماء والأرض . يقول « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور... » الخ الآيات ، فيوجه بذلك العقول والأنظار الى ذلك الخلق العظيم : خلق السموات التى هى على عظمها وسعتها لا ترى فيها متفاوتا ، بل تراه سطحا ليس بين أجزائه ناتىء أو متطامن ، أو شروخ أو شقوق ؛ الإتقان الذى لا يتم لصانع فى مساحة محدودة الأطراف ؛ ثم هى مع هذا باقية فى ذلك النظام والإتقان على مرور تلك الأزمنة المتطاولة التى لا يبقى معها مصنوع من الذهب أو من الفولاذ ، فضلا عن بقائها على جدتها ورونقها وجمالها وزينتها ، إذ ليس لأحداث الزمان عليها من سلطان ، كالذى لها على ما تصنعه يد الإنسان .

ثم هو بعد هذا يَلفتنا إلى آيات ونعم غير ذلك ، فيقول : « ولقد زينّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » فيشير إلى آيات ثلاث مرتبة وفق طبقات العقول ودرجات المفكرين ، مما يبهرك حين تتأمل فى دقة ذلك الأسلوب وبلاغة هذا الكلام ، ويستدعى ممن يدركون بلاغة القول انحناءً وسجوداً لبلاغة هذا الكلام .

نبّه أولاً إلى ما فى منظر النجوم البيضاء فى السماء الزرقاء من زينة فاتنة ، وجمال باهر ، كم أثار شاعرية شاعر . نعم : إنه تزيين لو تبدل فيه أحد اللونين بلون آخر ، أو أحد اللونين باللون الآخر ، فكانت السماء بيضاء والنجوم زرقاء ، لما تم ماتم من زينة فاتنة وجمال باهر ؛ وترى أن هذا الجمال مما يدركه جميع الطبقات من الناس على اختلاف إدراكهم ودرجات تفكيرهم ، من عامهم وخاصهم ، فهى نعمة على الجميع .

ثم ذكر بعد هذا نعمة أخرى عبّر عنها بكون النجوم مصابيح ، والمصابيح للإضاءة ، لتشير الآية بذلك إلى نعمة الاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ، كأنما تلك النجوم مصابيح بأيدى السارين فى البحار والصحارى ، يهتدون بها إلى مقاصدهم . ولا شك أن المنتفعين بها كمصابيح للاهتداء ، أضيق دائرة من المنتفعين بها كزينة .

ثم ترى بعد ذلك أن الآية بعد ذكرها هاتين الآيتين الحسّيتين ، والنعمتين المادتين ، ترقى بالناظرين الى ثالثة معنوية تنادى بها العقول وتخاطب بها الأفكار ، تنبيها إلى ما أقامه الله فى سمائه من آية بينة ، ودليل ساطع ، وحجة بالغة ، ينقطع بها المجادلون فى الله عن مجادلتهم ، وتردهم عن مخاصمتهم ، فيعيَون بعد الدفع بها فى صدورهم عن الخصومة والحجاج فى الله تعالى ؛ فإما إيمان واقتناع ، وإما عجز عن المقاومة وانقطاع .

أما تلك الثالثة : فهى ما ذكره تعالى بقوله : « وجعلناها رجوما للشياطين » ؛ أى إن تلك النجوم وما هو عنها من زينة وهدى ، وما هو لها فى سيرها من نظام ، وما فى شروقها وغروبها من أحكام ، لحجة بالغة واضحة على وجود الله وقدرته ، وعظمته ووحدانيته ، حجة يرجم بها الكافرون الذين بلغوا فى كفرهم حدا بعيدا ، حتى استحقوا أن يسموا شياطين .

فمعنى كون النجوم رجوما للشياطين : أنها حجج واضحة قوية على وجود الله ، وما يجب له من صفات الكمال ، وما يتنزه عنه من شوائب النقصان ؛ فإذا دفع بها فى صدور المعاندين فكأنما رجموا بصخور أعيتهم عن الكلام ، وأعجزتهم عن الخصام . وذلك مثل ما يقول العرب حين تكون حجة أحد الخصمين قوية لا يستطيع الخصم الآخر معها جدلا ـ يقولون « ألقمه حجرا » . وهنا الأمر كذلك فى الآية ؛ فهو كناية بارعة بالغة ؛ إذ أنها تكنى عن قوة الحجة وسطوع البرهان المسكت للمجادل عن الجدل ، بأنها صخور وجنادل يرمَى بها المعاندون فلا يستطيعون معها قولا ، ولا يحاولون لعجزهم جدلا .

هذا هو معنى جعلها رجوما للشياطين . ولا يصح أن يفهم القرآن الكريم ، تنزيل الحكيم العليم ، إلا على هذا الوجه .

أما أولا : فلما تقدم من بطلان المعنى الذى ذكره المفسرون ، كما بيناه آنفا بوجوه عدة .

وأما ثانيا : فلأن هذا ما تجارى به الآية سابقها ، وتكون به درة انتظمت فى سمط العقد مع أخواتها ، إذ كل ما سبقها من بدء السورة الى تلك الآية إنما هو دعوة للعقول الى النظر فى السموات وما أقيم فيها من آيات ، وإلى إتقان ذلك التكوين وما أبدع فى السماء من زينة ، وما كان عنها من هداية فى ظلمات البر والبحر ، وما كان عنها من هداية العقول إلى بارئها ، لتؤمن به عن بينة ، وتوقن بكل كمالاته وصفاته عن برهان « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حَى عن بينة » .

وأما رابعاً : فإن القرآن الكريم قد أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون بشيراً ونذيراً للناس ، فلا يكون فيه من إنذار وتحذير إلا على مخالفة وعصيان يكون فى استطاعتنا أن نقترفها ؛ أما أن يكون وعيد وتحذير على معصية ليس فى استطاعتنا أن نقترفها وهى محاولة التسمُّع إلى السماء لاستراق أنباء منها كما يقولون ، فذلك ما لا يتصور . وكذلك أن يكون وعيداً للشياطين ذلك الخلق الذى نجهل كنهه ، فهذا أيضاً مالا يفهم ، إذ ليس بسائغ أن يُذكر وعيد على معصية إنما يتأتى اقترافها من خلق آخر غير البشر ، له طباع غير طباعنا ، وحقيقة غير حقيقتنا ، ثم تقحم بين الآيات التى هى لإرشادنا وتوجيهنا إقحاماً من لوازمه أن يزرى

بما يجب أن يتوفر فى نظم القرآن الكريم من اتساق وتناسب بين جُمَله وأغراضه حتى لا يمَسّ ما يجب أن يكون عليه القرآن من بلاغة أذعن لها العرب فى عنفوان عنادهم والتهاب نار خصومتهم. ومجمل ذلك: أن القرآن إنما هو للبشر أنزل على واحد منهم، فكل ما فيه من وعد ووعيد، وإنذار وتبشير، إنما هو للناس، إنما هو لبنى آدم، ولو سُلّم على سبيل الجدل فقط أن منه ما هو موجه لخلق آخر، لأبى نظم القرآن أن يقحم إقحاما على هذا الوجه الذى يمَسُّ فى قوةٍ بلاغةً القرآن التى عَنت لها وجوه البلغاء، وخرست لها ألسنة الفصحاء.

وأما خامسا: فإن الآية التى تلى هذه الآية هى قوله تعالى: « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ». وإن ما يجب من اتساقٍ وارتباط بين آى القرآن، وأخذ بعضها بحجز بعض على تآخ بينها وتناسب فى معانيها تشم به فى كل آية رِيح أختها التى تليها ـ إنّ ما يجب من ذلك لا يتوفر إلا أن تفسر الآية بما فسرناها به؛ إذ أنّ المعنى على ذلك يكون: إن الكافرين بما نصبنا فى السماء من آيات بينات، وأقمنا أمام أعينهم من براهين نيرات، لا يسع أولى الألباب لها إلا الإيمان بالله ذى القدرة والجلال، ولا يمكن للعقول التى لم يشبها تعصب أو عناد إلا الإذعان برب السموات والأرض الواحد القهار ـ إن الكافرين الذين جحدوا تلك الآيات وكفروا بآيات ربهم، لهم عذاب جهنم وبئس المصير.

وإنه لعلى النقيض من ذلك إذا حملت الآية على ما فسرها به المفسرون: إذ ترى ألا تناسب بين الجملتين، ولا تآخى بين الآيتين، ينقطع بينهما النسب، ولا تمت إحداهما للأخرى بسبب، مما يفوت به جمال النظم، وتضيع معه بلاغة القرآن، الى ما علمت فيه من سخف وبطلان، مما يجب أن يصان عنه كتاب الله العزيز الحميد، وأن تنقى منه ساحته، ويصفو عنه أفقه: « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيِّماً لينذر بأسا شديدا من لدنه، ويُبَشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ».

وإنا نعد القارىء الكريم أنا سنعرض لكل ما جاء فى القرآن مما يتصل بهذا المعنى حتى يصفو أفقه من جهام الأضاليل، ونقع الأباطيل. نسأله تعالى المعونة والتوفيق؟

دراسات فى تاريخ الفقه الاسلامى :

منزلة الحديث فى الاسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى ياسين
مدير البحوث والثقافة المساعد بالأزهر

نريد من « الحديث » ما يرادف السنة ، وهو مجموع ما أضيف الى النبى صلى الله عليه وسلم قولا ، أو فعلا ، أو تقريرا ، أو صفة ، حتى الحركات والسكنات ، يقظة أو مناما . وزاد بعضهم : أو همًّا ، أو إيماء .

والصحيح أن الحديث يرادفه الخبر ؛ قال ابن حجر فى شرح النخبة : الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث ، فيطلقان على المرفوع ، وعلى الموقوف والمقطوع .

وقيل : الحديث : ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والخبر : ما جاء عن غيره ، ومن ثمّ قيل لمن يشتغل بالسنة : محدث ، ولمن يشتغل بالتواريخ ونحوها : إخبارىّ . وقيل : بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل حديث خبر ، ولا عكس . وقيل : لا يطلق الحديث على غير المرفوع إلا بشرط التقييد . وقد ذكر بعض العلماء أن المحدثين يسمون المرفوع والموقوف بالأثر ، وأن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر ، والمرفوع بالخبر .

وقد أجمع المسلمون سلفا وخلفا على أن الحديث متى ثبت وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة فى الدين ، ودليلا من أدلة الأحكام ، ووجب اتباعه ، والرجوع إليه ، والعمل بمقتضاه . وقد نطق القرآن الكريم بذلك فى كثير من آياته ، فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » ، وقال : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن

أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » ، وقال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » ، وقال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم » .

وقال ابن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيّرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى كتاب الله ؟ ! فقالت المرأة : لقد قرأتُ ما بين لوحى المصحف ، فما وجدته ، فقال : لئن كنت قرأتيه ، لقد وجدتيه ، قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وروى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرماً عليه ثيابه ، فنهاه ، فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى ، فقرأ عليه هذه الآية .

وروى أن طاوساً كان يصلى ركعتين بعد العصر ، فقال له ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما نُهى عنهما أن تتخذا سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدرى : أتعذب عليهما أم تؤجر ؟ لأن الله قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

وقيل لمطرّف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال : والله لا نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا » ، يقصد أن الأعلم بالقرآن ، هو العارف بالسنة ، والملم بأسرارها .

وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية ، قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . فالرسول الكريم لم يكن فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير إلا صادراً عن الوحى ؛ قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » .

واتفق الأصوليون والفقهاء على أن أدلة الأحكام هى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ؛ واختلف الأئمة بعد ذلك فى الاستحسان ، والاستصحاب ، والمصالح المرسلة ، والاستدلال ، فمنهم من اعتبرها أدلة ، ومنهم من لم يعتبرها .

وأدلة الأحكام ليست إلا أصولها ومصادرها التى تستقى منها ، وتؤخذ عنها ، فالحديث — على هذا — هو المصدر الثانى من مصادر الأحكام الشرعية العملية ؛ وهو الذى تلى رتبته فى الاعتبار رتبة القرآن الكريم . روى أبو داود والترمذى عن معاذ بن جبل ، قال : لما بعثه الرسول إلى اليمن ، قال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ، ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيى ، ولا آلو . قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب إلى شريح القاضى : انظر ما استبان لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يستبن لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد الله بن مسعود : من عرض له منكم قضاء ، فليقض بما فى كتاب الله ، فإن جاء ما ليس فى كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم .

فأنت ترى من هذا كله أن السنة هى الأصل الثانى فى إثبات الأحكام بعد القرآن الكريم .

وقد اشترطوا لقبول العمل بالحديث ، والاحتجاج به ، أن يكون متواترا ، أو صحيحا ، أو حسنا ، وألا يكون فيه قادح ، كما إذا خالف الراوى من هو أحفظ منه ، أو أتقن ، أو أكثر ، فإنه حينئذ يكون شاذا ، والشاذ لا يحتج به ، لأنه من قبيل الضعيف . واختلفوا فى العمل بخبر الواحد ، والجمهور على قبوله ، إذا رواه الضابط عن مثله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد صح عن عمر العمل بخبر الواحد كما فى حديث عبد الرحمن بن عوف فى الوباء وغيره ، وكل ما كان منه رضى الله عنه أنه كان يحب أن يتثبت فى بعض الأحيان ، ويطلب الراوى الثانى ، تبعا للسياسة التى جرى عليها كبار الصحابة فى ذلك العصر من الرغبة فى تقليل الرواية ، والتحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتضييق على الرواة ، خشية انتشار الكذب والخطأ ، ودخولهما فى حديث الرسول .

وهذا ما حدا به إلى أن يطلب من المغيرة ، وأبى موسى ، وأبىّ من يقوّيهم ، وهم ما هم فى الثقة بهم ، ولذلك كان يقول لمن شهد معه راو آخر : إنى لم أتهمك ، ولكنى أحببت أن أتثبت .

وقيل لأبى هريرة : أكنت تحدث فى زمان عمر هكذا ؟ فقال : لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم ، لضربنى بمخفقته .

وروى أن عمر حبس ثلاثة : ابن مسعود ، وأبا الدرداء ، وأبا مسعود الأنصارى ، وقال : قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان معاوية يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه السياسة نفسها هى التى جعلت أبا بكر لا يقبل من الأحاديث إلا ما شهد اثنان بأنهما سمعاه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وحملت عليًّا على أنه كان يستحلف الراوى .

* * *

للحديث — فيما عدا ما تقدم — أهمية كبرى فى فهم معانى القرآن ، والكشف عن الأحكام المنطوية فى نصوصه العامة ، وقواعده الكلية ، والإرشاد إلى الكثير منها الذى لولاه لبقى مجهولا لنا ، خافيا علينا ؛ فإن عدد آيات القرآن يبلغ نحو ستة آلاف ، يصل المتعلق منها بالأحكام نحو مائتى آية ؛ أما مجموع أحاديث الأحكام ، فيقرب من نحو أربعة آلاف حديث . قال الأوزاعى : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب .

وذلك لأنها تبيّنه إما من طريق تفصيل المجمل ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ؛ وإما من طريق النظر إلى مجال الاجتهاد فيما بين الطرفين الواضحين ، أو النظر إلى مجال القياس الدائر بين الأصول والفروع ؛ وإما من طريق التفريع على القواعد العامة المستنبطة من أدلة القرآن المختلفة .

فالقرآن أوجب الطهارة للدخول فى الصلاة ، والسنة فصلت ما فى القرآن من إجمال ، وبينت الطهارة بنوعيها : المائية والترابية ، قولا وعملا .

وشرع الصلاة ، ولكنه لم يبين صريحا أعدادها ، ولا أعداد الركعات ، ولا أعداد الركوع والسجود ، ولم يذكر أوقاتها إلا إجمالا ؛ فجاءت السنة ، وبينت كل ذلك تفصيلا ، وعملا ، فكان عليه الصلاة والسلام يصلى بالناس ، ويقول لهم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ، كما بينت السنة صلوات لم يوجبها القرآن ، واعتبرتها نوافل ، منها ما هو مع الصلوات المفروضة ، قبلها أو بعدها ، ومنها ماليس معها ، ومن ذلك الصلاة الجامعة فى يومى العيدين : الفطر ، والأضحى .

وأوجب صيام شهر رمضان ، والسنة بينت أن المراد الشهر القمرى ، وأن الصيام يكون لرؤية الهلال ، والفطر لرؤيته ، وأن الإفطار عمدا موجب للكفارة ، الى غير ذلك ، كما بينت استئنان صيام جملة أيام من السنة غير رمضان .

وأوجب الحج على من استطاع اليه سبيلا ، وأشار الى بعض أعماله ، كالإحرام ، والوقوف بعرفة ، والسعى بين الصفا والمروة ، والطواف حول البيت ؛ أما السنة فقد بينت كيفية الإحرام ومحظوراته ، وحدود عرفة ، ووقت الوقوف ، وكيفية السعى والطواف ، وعدد الأشواط ، وغيرها ؛ وقد حج النبي صلى الله عليه وسلم فى السنة العاشرة حجة الوداع ، وبيّن للناس كيفية الحج بيانا أوفى ، وقال : خذوا عنى مناسككم .

وأشار الى وجوب الزكاة فى آيات كثيرة منه ، ولكنه لم يبين بالتفصيل الأموال الواجب فيها الزكاة ، ولا المقدار الواجب دفعه ؛ فبينت السنة كل ذلك فى كتاب بعث به النبي صلى الله عليه وسلم الى عمال الصدقات .

ولما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » ، أشكل الأمر على بعض الناس ، حتى إن رجالا منهم أخذوا اللفظ على ظاهره ، وحملوه على حقيقته ، فوضع أحدهم تحت وسادته عقالا أبيض ، وعقالا أسود ، ثم نظر فلم يتبين ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك وقال : إن وسادك لعريض طويل[1] ! ثم أوضح له ما أشكل عليه ، وفسره بأن المراد بياض النهار وسواد الليل .

---

(١) يريد انه عريض القفا طويله ، وهو يدل على ضعف التفكير .

وقال القرآن : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » ، ففهم بعض الصحابة أن الظلم المراد منه العموم ، حتى قال : « أينا لم يظلم ؟ » فخصص النبي هذا العام بقوله : « ليس بذاك ، إنما هو الشرك » .

وقال : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ، و « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم » ؛ فجاءت السنة ، وقيّدت الإطلاق فى الآيتين ، باليمين فى اليد ، وبالمتابعة فى الثلاثة الأيام .

وأحلّ الطيبات ، وحرّم الخبائث ، ولما كانت هناك أمور مشتبهة تتردد بين هذين الأصلين ، يمكن إلحاقها بأحدهما ، بيّنت السنة ما اتضح به الأمر ، فألحقت بالطيبات الضبّ والحُبَارى [1] والأرنب والسمك ، وما أشبهها ؛ وألحقت بالخبائث كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، ولحوم الحمر الأهلية .

وحرّم الربا ، ولما كان التحريم منظورا فيه إلى كونه زيادة فى غير عوض ، ألحقت السنة عن طريق القياس كل ما فيه زيادة بهذا المعنى ، فقال الحديث : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح مِثلا بمثل ، سواء بسواء ، يدا بيد ، فمن زاد أو ازداد ، فقد أربى ، فإذا اختلفت هذه الأصناف ، فبيعوا كيف شئتم ، إذا كان يدا بيد » .

وحرّم الجمع بين الأختين ، وقال : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » ، ففهمت السنة من طريق القياس عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وقالت : « فإنكم إذا فعلتم ذلك ، قطعتم أرحامكم » لأن المعنى الذى من أجله ذُمّ الجمع بين الأختين موجود هنا ، والتعليل يشعر بوجه القياس .

وبيّن بعض المحرمات من الرضاعة بقوله : « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » ، فألحقت السنة من طريق القياس أيضا بهاتين سائر القرابات بالرضاعة من اللاتى كن يحرمن بالنسب ، كالعمة والخالة ، وبنت الأخ وبنت الأخت ، وقالت : « يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة » . ومثل هذا الأحاديث الدالة على أحكام سكت عنها القرآن ، مثل : جواز الرهن فى الحضر ،

---

(١) الضب : دويبة تشبه الجرذون ، وتكبره قليلا ، والحبارى : طائر للذكر والأنثى .

وميراث الجدة ، والحكم بشاهد ويمين . وصدقة الفطر ، والوتر ، ورجم الزانى المحصن ، والقسامة ، والدية على العاقلة .

وقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، و « وعاشروهن بالمعروف » و « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » ، و « لا تضاروهن لتضيقوا عليهن » ، و « لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » ؛ ففرعت السنة على القاعدة العامة التى تستنبط من هذه النصوص ، والتى تشبه المصالح المرسلة والاستحسان ، وقالت : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب من نفسه » ، و « لا ضرر ولا ضرار » ، و « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » ، و « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، فإنه مفرّع على قاعدة « سدّ الذرائع » المقرر أصلها فى نحو قوله تعالى : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » ، وقوله : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » .

وفوق هذا كله ، فإن السنة قد تنسخ حكما ثبت بالقرآن — بناء على مذهب القائلين بنسخ السنة للكتاب — وذلك كحديث : « لا وصية لوارث » ، فإنه ناسخ لآية الوصية فى سورة البقرة ، وحديث : « البكر بالبكر جلْدمائة ، وتغريب عام » ، فإنه ناسخ لآية : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » .

وهكذا كلما استوعبنا واستقصينا وجدنا أن نسبة السنة إلى الكتاب كنسبة الشرح للمشروح ، والتفسير للمفسر ، ووجدنا أنها قد هدتنا إلى أحكام كثيرة ، ما كنا لنهتدى لها بمجرد عقولنا ، لولا أن كشفتها لنا الأحاديث الشريفة ، وبينتها السنة المطهرة .

ومن هذا كله ، يظهر لنا فى وضوح وجلاء مقدار فضل « الحديث » على الشريعة الغراء ، ومدى أثره فى تكوين الفقه الإسلامى ، وإثبات أحكامه ؟

الاسلام والمسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

دين الإسلام هو دين الله على لسان كل رسول ، منذ عرفت الأرض هداية السماء ؛ عليه كان آدم ، وبه جاء نوح وابراهيم وإسماعيل وداود وسليمان ويعقوب وموسى وهرون وعيسى بن مريم ، ومن قص الله علينا ومن لم يقصص من الأنبياء والرسل ، أولئك الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم .

والدين ما هو إلا العقيدة الصحيحة ، والمعرفة الصادقة المطابقة للواقع ، فى أمر الإله الواحد القادر ، وما تفضل به على الناس من رسالات ، وما قضت به حكمته من بعث ونشور بعد الموت إلى دار الحساب والجزاء . هذا هو الدين لا يختلف لأنه واقع وحقائق ثابتة ، وإن اختلفت الشرائع وتعددت بحسب اختلاف الزمان واستعداد البشر ، لأنها سياسة المجتمع ، ووسيلة إصلاحه وتقويمه .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأصول راسخة ، ومبادىء صالحة لأن تبنى عليها أعظم الحضارات ، وأحدث المدنيات ؛ فهى تساير كل صلاح وخير تتفتق عنهما العقول ، ولا تتأبى على أى نظام من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان إلى الصراط السوى ، والسبيل القويم ، ويكفل له السعادة والطمأنينة ، ويمكنه من القيام بما ندب له من عمارة هذا الكون ، والخلافة عن الله فى هذه الأرض ؛ ولذلك كانت خاتمة الشرائع ، وكفل الله لها الخلود والبقاء بكفالتهما لكتابه الكريم الذى هو أساسها ، وعمادها ، ونورها الذى لا يخبو ، ومنبعها الذى لا يغيض ؛ وكان التكليف بها عاما لسائر أرباب العقول فى كل زمان ومكان ، ناسخا لما سواه

من التكاليف مما يتعارض معه « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .

بهذا وذاك يُعلم أن الهداية الإلهية قد تخلصت وتركزت فى الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن الرسالة المحمدية هى مظهر الإنعام الكامل من الله على سائر خلقه ، لا فرق بين عربى وعجمى ، ولا بين شرقى وغربى ، ولا بين أبيض وأحمر وأسود ، منذ عهد الرسول العربى إلى أن يقوم الناس لرب العالمين « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

ومن الواضح أن سنة الله فى خلقه لم تجر بخلود أحد من الناس ، ولو كان نبيا مرسلا ، حتى يخلد محمد بن عبد الله : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » ، ولا بأن تمتد الحياة بذى رسالة إصلاحية حتى يضرب فى القرون ، ويتنقل على الأجيال والأزمان ، ويباشر بنفسه دعوته ، ويحقق رسالته ؛ ولذلك عاش الرسول العربى العمر الذى يعيشه أوساط الناس ، ثم لحق بربه تاركا من خلفه رسالته الواضحة المعالم البينة الحدود ، الكاملة الشاملة التى رضيها الله للعالمين « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . وانتقل بذلك أمر هذه الدعوة فى حياطتها وصونها وإبلاغها الى كل ذى سمع وعقل وجَوْبِ الآفاقِ بها ، الى المؤمنين الذين اتبعوا هذا النبى ، وآمنوا بعموم رسالته ، وبأنهم ورّاثه على شريعته ، وقوّامه على أمانته ، وقد ساروا حينا من الدهر فى هذه السبيل ، يدفعهم الإيمان القوى ، وتضىء لهم تعاليم الرسول وسيرته التى لم تبرح أذهانهم ولم تغب عن عقولهم وقلوبهم ، كلَّ شِعب من شعابها ، وكلَّ أفق من آفاقها ، حتى مد الإسلام رواقه فى قريب الأرض وبعيدها ، وضرب بجرانه — أو كاد — على كل ما أظله السحاب ، أو أمطرته السماء ، وطرقت الدعوة المحمدية ، أو الدعوة الإلهية ، كل باب ، وأطرق اليها كل سمع ، وفكر فيها كل قلب ، وشغل الناس والدول والملوك بأمرها ، ولقنت العقول علمها وفقهها وروايتها ، وشهد العالم على يديها أعظم رجّة

فكرية ، بل شهد فيها أعظم موجة تبتلع الثقافات والأفكار والعلوم والمعارف والعادات والتقاليد ، ثم تهضمها وتتمثلها وتلائم بينها ، كما تصنع النحل حين تمتص من الأزهار والنباتات وتأكل من كل الثمرات ، وتسلك سبل ربها ذُللا ، ثم يجتنى منها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

كانت الأمة يومئذ أمة ملك وسيادة ، وعزة ومنعة ، وكان لها القيادة والصدارة ، وكان علمها هو العلم ، ورأيها هو الرأى ، وأمرها هو الحكم ، وكانت الأمم تفيء الى ظلها ، وتؤمن بعدلها ، وتهتدى بهديها ، وتتنافس فى إرضائها والتقرب اليها ، وتتحاشى إغضابها والتعرض لنقمتها ؛ وتلاقت فى رحابها النهضات فى العلم والصناعة والتأليف والترجمة والهندسة والفن ، وأخصبت العقول ، وزكت الثمرات ، وازدحمت صحائف التاريخ بالمفاخر وألوان المجد وأمثلة العظمة والعبقرية والنبوغ فى كل ناحية من نواحى الحياة .

تلك كانت حال المسلمين من قبل ، فما حالهم اليوم ؟ لقد أصبحوا غثاء كغثاء السيل ، عددهم كثير ، وغناؤهم قليل ، لا يؤمّنون صديقا ، ولا يرهبون عدوا ، تداعت عليهم الأمم كما تداعى الآكلة الى قصعتها ، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ، وتعلقوا بالأمم التى قهرتهم ، ونسوا كتاب ربهم ، وهجروا شريعتهم ، وغفلوا عن تاريخهم ، وأصبحوا فى كل مكان هم المضطهدين ، وركدت فى العلم والفكر ريحهم ، وعقمت عن الإنشاء والاختراع عقولهم ، وطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه من شذاذ الآفاق ، ووضعاء الأخلاق ، ودخلت عليهم الفتن من سائر الأقطار ، فهم منها فى عناء دائم وهمٍّ مقعد مقيم ، وخيّل لهم الضعف والذل أنهم قادرون على استرحام أعدائهم لأنفسهم ، فالتمسوا منهم المعدلة والإنصاف ، وشكوا إليهم الظلم والإجحاف ، شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، أو شكوى الشاة الى الذئب إذا الذئب على الشاة جثم ، وما دروا أن ذلك يضوى بهم ، ويفتح الشهية عليهم ، وأنهم حين يتوسلون الى مفترسيهم ، يثيرون فيهم كوامن اللذة الحيوانية ، وينبهون منهم غرائز الوحشية والبهيمية ، وأنهم بذلك يتنكبون سنة الله فى خلقه ، حيث طمعوا فى الإفلات من الأقوياء ، بإظهار الضعف والاستخذاء ، وينسون قول كتابهم « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب

ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » . « لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » « إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » .

ولا ينبغى أن نطيل فى هذا الحديث المؤسف المؤلم ، فحالة المسلمين ليست فى حاجة الى الكلام عنها ، والإطناب فى وصفها ؛ فلنعن بالبحث عن أسباب هذا الضعف ، وأسرار هذا التخلف .

وموعدنا بذلك العدد المقبل إن شاء الله ؟

الاجـواد

من الأجواد المعدودين يزيد بن حاتم ، قيل كان ربيعة الرقى قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم السلمى فلم يعطه شيئا ، وشغل عنه ببعض الأمر ، فخرج من مصر وهو يقول :

أرانى ولا كفران لله راجعاً   بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فلما بلغ ذلك يزيد سأل عنه فقيل قد رحل ، فأرسل فى طلبه فأتى به ، فقال له ماذا قلت ؟ فأنشده البيت . فقال له : قد شغلنا عنك ، ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجليه ؛ وملئتا مالا . وقال ارجع بهما بدلا من خفى حنين ! . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى غيره :

بكى أهل مصر بالدموع السواجم   غـداة غـدا منها الأغر ابن حاتم

ومنها قوله :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغـر ابن حاتم
فهمُّ الفتى الأزدى إتـلاف ماله   وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
فـلا يحسب التمتام أنى هجـوته   ولـكننى فضلت أهـل المكارم

الرحمـــة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم العـــدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

الرحمة : ابتسامة من نور فى ثغر الوجود ، وكوكب درى فى تاج الإنسانية ، وصفحة بيضاء فى تاريخ الجماعات ؛ وهى بشير الخير للنفوس التى عضها الدهر بنابه ، وأصابها بأوصابه . هى كلمة قليلة الحروف ، كثيرة المعانى ، يمر صداها بالآذان فتهش للصدى ، ويخترق اسمها أسجاف الأفئدة ، فتحس له طمأنينة دونها طمأنينة الغريب آب إلى وطنه ؛ وتمر بالصدور فتدع فيها انشراحا يفسح أمامها باب الرجاء . وإن قلباً يحمل بين ثناياه هذه العاطفة لقلب خصه الله بخير المزايا ، ومنحه أفضل السجايا .

والرحمة : قد تكون وضاحة الجبين باسمة الثغر ، إذا كان أثرها إيجابياً ينجب الخير ، ويلد البر ، ويسدى المعروف ، ويهب الصنيعة ؛ وقد تكون عابسة الوجه كسيرة الخاطر مقطبة الأسارير ، إذا كانت رضا بالقضاء عند المصيبة ، وصبراً فى الشدائد والملمات ؛ وهى فى هذا الوقت أعز منالا ؛ لأنها علامة سمو النفس وشجاعتها ؛ وأبلغ أثراً عند العقلاء ، لأنها تحمل بيدها الإيمان الذى لا يتزعزع ، والعقيدة التى لا تؤثر فيها حوادث الدهر ونكبات الأيام ؛ وفى طيات هذا كثير من خصال البر وخلال الإحسان ؛ الإحسان إلى النفس والإبقاء عليها كادحة فى هذا الوجود ما دامت تسبح فى عجاجه ، وما ظلت تلاطم أمواجه ؛ وإحسان الى الناس لأنها إذ ذاك توحى أن التراحم فضيلة بين الأنام ، وأن التواد صلة قوية بين أفراد الجماعات ؛ ولو تراحم النـاس كما يقول بعض الأدباء ، لما كان بينهم جائع ، ولا عريان ، ولا مغبون ، ولا مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ، واطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان

الصبح مداد الظلام. وإليك مثالا بارعا وصورة ناطقة، لتلك الرحمة الأسيفة التى تحمل الصبر، وتسوق بين يديها الجلد.

كان لأبى طلحة، وهو من صحابة الرسول، ولد مريض، وكان كلما قدم من عمله سأل أمه عنه، فتصف له حالته؛ وفى ذات يوم مات الولد وأبو طلحة فى عمله؛ فلما قدم سأل عنه كعادته، فقالت له امرأته: إنه لم يكن بحال أحسن من حاله اليوم. ثم قدمت له طعامه وشرابه فطعم، فلما أخذ قسطه من الراحة، قالت له: يا أبا طلحة ألا تعجب لجيراننا: استودع بعض الناس لديهم وديعة فلما جاءوا يطلبونها غضبوا وسخطوا! فقال: بئس ما صنعوا، الوديعة مردودة شاءوا أم أبوا. فقالت له: إن ابنك كان وديعة لدينا، وقد استردها مولى البرايا ومالك الملوك! . فما زاد على أن استرجع. ثم ذهب الى الرسول فأخبره الخبر، فأثنى على امرأته وبشره بأنه سيولد له أولاد كثيرون. وقد حقق الله بشارة الرسول لأبى طلحة رضى الله عنه، فولد له عشرة أولاد كلهم حفظ القرآن.

ولعل مثل هذا الصبر الحازم، وذلك المنطق الحكيم البارع، هو الذى يعنيه الرسول الكريم حين يقول: « إن لله فى أثناء كل محنة منحة » .

فالرحمة كما ترى شعار الروح القوى، وخلة النفس الكاملة، وعنوان الإنسانية الفاضلة، تحوطها نجوى الخير، وتسوقها نوايا الإحسان. فلا غرابة إذا أنجبت الحب الصحيح، والود الخالص، وجمال الأحدوثة، وحسن التقدير فى هذه الحياة التى لا يظفر امرؤ فيها برضا الجماعة إلا اذا خصه الله برحمته، ومنحه كمال نعمته. أما صاحب الرحمة فسيكون فى دار الجزاء مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

والرحمة قسمان:

فهى إذا أضيفت الى الله كانت منبع السعادة ومصدر الخير والبركة، وهى دائمة باقية عامة شاملة « ورحمتى وسعت كل شىء » . وقد صور المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سعة رحمة الله أبلغ تصوير حيث يقول « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء

يتراحم الخلق جميعهم حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » . وسمع النبي وهو فى صلاته أعرابيا يدعو فيقول : اللهم ارحمنى وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحدا ! . فقال له الرسول : يا أخا العرب لقد ضيقت واسعا . ورأى صلى الله عليه وسلم امرأة فى السبي تحلب ثديها وتسقى كلما سقت صبيا ألصقته ببطنها . فقال لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ فقالوا لا يارسول الله . فقال : « إن الله أرحم بعباده من هذه بولدها » فهو سبحانه رحيم بالخلائق عامة حتى العصاة يمهلهم رجاء التوبة . وفى ذلك يقول القرآن الكريم « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » .

ورحمته سبحانه وتعالى تارة تكون مادية كتسخير السموات والأرض للإنسان والحيوان ، وتيسير الرزق للخلائق ، كما تشير له الآيات الكريمة : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها » . « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته » . « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وتارة تكون رحمته معنوية ، وهى إذ ذاك أرفع شأنا من الأولى ، وأبلغ أثرا فى تكوين الإنسانية . ومن مظاهرها إنزال الكتب وإرسال الرسل رحمة بالعباد ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ويقول القرآن الكريم فى محمد صلوات الله وسلامه عليه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . ولعل الحكمة فى هذا التخصيص والتشريف أنه خاتم الأنبياء ، وأن شريعته خالدة مؤبدة تعتمد الفطرة وتساير ما يطيقه الإنسان ، وتظهر فيها آيات التخفيف واضحة جلية : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام « ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما » .

وإنك لتجد نماذج كثيرة فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم هى عنوان الرحمة والتخفيف على العباد ؛ فقد قضت الشريعة بإسقاط العبادة للأعذار كالحج إذا فقد أمن الطريق ؛ ونقصت من المفروض كقصر الصلاة فى السفر ، وأقامت التيمم بالتراب مقام الوضوء ، وما إلى ذلك من مظاهر

التخفيف ودفع الحرج عن الناس . بل إننا لو بحثنا قليلا لوجدنا أن نفس التكاليف محدودة لا إرهاق فيها ولا إعنات ؛ يقول الله سبحانه وتعالى « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » ، ويقول الرسول للأقرع بن حابس حين سأله عن الحج أواجب فى كل عام : « لو قلت نعم لوجب ، ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » .

وبعد ، فقد كان من شرائع الاسلام ما جعله الله تعرفا لما بين جوانح الناس من رحمة وسبراً لغور استعدادهم لخلال البر ؛ كالصوم فإنه ابتلاء للناس فى أمانتهم وصدقهم وشجاعتهم ، وهو فوق ذلك امتحان لهم فى مقدار ما يحملون بين جوانحهم من مظاهر الرحمة والعطف على الضعفاء والمعوزين .

أما التراحم بين الناس ، فهو خُلق كما قلنا جميل ، وعاطفة نبيلة ؛ ومن مظاهره إغاثة الملهوف ، وإعانة المنكوب ، والرفق بالضعفاء ، حتى بالحيوان الأعجم الذى يبكى بغير دموع ، ويتوجع ولا يبين ، والذى عُنى الرسول بأمر الإحسان اليه والرحمة به ، حتى عند ذبحه والانتفاع به كنعمة من نعم الله ، حيث يقول « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » . وإن الله الذى خلق الناس جميعا من طينة واحدة ، هو الذى خلق فيهم غريزة الرحمة وأسكنها بين جوانحهم ، يحسون بها ويطبعون عليها ، وتبدو آثارها فى صور شتى وأشكال متنوعة . فالرحمة هى التى تجعلك ترحم الأرملة الضعيفة التى نكبها الدهر فى عائلها ولم يترك لها غير صبية صغار ودموع غزار ، موقنا أن اليد التى تصون الدموع خير من التى تريق الدماء ، والتى تشرح الصدور أفضل من التى تقصم الظهور . والرحمة هى التى تجعلك تمسح دموع اليتيم بما يخفف عنه آلام اليتم والعوز . والرحمة هى التى تجعلك تضحى بمالك وجاهك فى سبيل تعليم أولاد الفقراء وتنشئتهم تنشئة حسنة ؛ فقد قيل .

كم طوى البؤس نفوسا لو رعت   منبتا خصبا لكانت جوهرا

والرحمة هى التى تحملك على إنقاذ الغريق مع ما فى ذلك من التعرض للخطر

الجسيم . والرحمة هى التى تسير بك سراعا لتساعد الشــيخ الفانى ، وتعين العاجز المسكين .

وقصارى القول وحماداه : أن الرحمة هى التى تحمل الشخص على التضحيات فى النافع المفيد ، والإيثار فى كل الأمور . فها هى ذى أم رءوم تضحى براحتها وتسهر ليلها بجوار طفلها المريض ، تتعهد تطورات المرض ، والنفس والهة ، والقلب خفاق . وهذه ممرضة تقوم بواجبها تخاصم الكرى ، وتحالف السهاد ، لتنقذ نفوسا مشفية على التلف ، وأرواحا برحتها الأسقام .

وبعد ، فهذه الرحمة على سمو مكانتها لها حدود لا يصح أن يتجاوزها ، ولها أفق لا يجوز أن تتعداه . فعقاب المجرم الجانى وإقامة الحد عليه رحمة حقيقة به ، ورحمة بأمته أيضا ؛ وترك الحد والعقوبة جريمة كبرى ؛ لأن الله يقول « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » ورسوله الكريم يقول « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وإن تعجب فعجب لأولئك الذين يخطئون خطأ فاحشا فى تفسير معنى الرحمة وتفهم مغزاها الحقيق ، ويسيئون تطبيقها على حوادث الأفراد ، ويضعونها فى مواضع لا ترضاها ، لشرف مكانتها وسمو منزلتها ، ويزجون باسمها الجميل فى مظان الشر والفساد ، فتراهم ينسبون لفعل من الأفعال صدوره عن الرحمة ، والرحمة منه براء .

فأولئك الذين يرون اللص وقد قبض عليه متلبسا بجريمته مساقا إلى المحاكمة ، وإذا بألسنتهم تصم آذانك منادية بإخلاء سبيله رحمة به وإبقاء على أطفاله الصغار — مخطئون فى فهم معنى الرحمة . وأى رحمة تلك التى تغرس فى الأفراد الشر وتمهد لهم سبيل الفساد ! إنها رحمة زائفة ، وإنها عاطفة شريرة ، يجب أن يقضى عليها رحمة بالمجتمع واحتفاظا بسمعة الجماعة ، لتسود الطمأنينة ويعم الأمان . وأولئك الذين يعطفون على المريض بإعطائه الطعام الذى يضره ويقرب ما بينه وبين الموت ، مع علمهم بتحذير الطبيب وإنذاره بسوء العاقبة إن أقدموا على ذلك — لا يسدون إليه عطفا ورحمة ، وإنما يسيرون به قدما الى الفناء . وأولئك الذين يغضون عن هفوات الأطفال فى نشأتهم ، ويتركون حبلهم على غاربهم بدعوى الرحمة والعطف —

هم مجرمون فى حق الأطفال ، وفى حق البلد الذى يعيشون بين جوانبه . ولله در المتنبي حيث يقول :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وعجب أيضا أمر أولئك الذين يقدمون على بعض الأمور التافهة ، فيظنون أن ذلك من الرحمة ، ولايدرون ما تلده أفعالهم من صفات الشر وخصال الفساد . فهذا راكب فى الترام يريد النزول فيعطى تذكرته لراكب آخر عطفا منه عليه ورحمة به وإبقاء على دراهمه ، ولا يشعر أنه جان أثيم حتى على نفسه ففتح لها باب الخيانة ، وجنى على صاحبه فغرس فيه الجرأة على الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل ، ومهد له طريق المران على الكذب والزور ، وحرمه الصدق والأمانة ، والكرم والجود .

ومرد كل هذا الذى سردنا من الحوادث الى ضعف الوازع الدينى ، ومرض الضمائر ، وطغيان العاطفة على سلطان العقل ، وغلبة الميول الفاسدة ، والغرائز الجامحة على نوايا الخير ، وسوء التقدير فى الموازنة بين المقدمات والنتائج .

خطب الحجاج يوما فى الناس فأطال حتى كاد يفوت على الناس صلاتهم ، فقال رجل : أيها الأمير ! إن الوقت لاينتظرك ! فأمر به فحبس ، فجاء قومه يستشفعون له وقالوا للحجاج : إنه مجنون ونطلب إخلاء سبيله رحمة به . فقال الحجاج : إن أقر بذلك أطلقت سراحه . فلما عرضوا هذا الموضوع على السجين رفضه بإباء فقال : بئست هذه الرحمة ! معاذ الله أن أقول : إن الله ابتلانى مع أنه قد عافانى ! . فعظمت مقالته عند الحجاج وخلى سبيله .

هذه كلمة عجلى عن الرحمة ومظاهرها ، وخطأ الناس فى فهمها وتطبيقها ، قصدت بها إيقاظ الضمائر وتنبيه ذوى الغفلة ، والخير أردت ، وما توفيقى إلا بالله ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

تحويل القبلة

من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الأستاذ الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

بلغ بنا المطاف فى المقال الثالث : إلى أن جمهور العلماء يرون أن أمر التوجه الى الكعبة فى الصلاة هو ناسخ لحكم التوجه الى بيت المقدس ، وأن البعض يرى أن التوجه الى بيت المقدس قد انتهى بقوله تعالى « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » المقتضى كون المصلى مخيرا فى التوجه الى أى جهة شاء ، فيكون ناسخا لحكم التوجه الى جهة معينة . ثم انتهى هذا بقوله تعالى « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .

والآن نعرض الى معالجة هذا الموضوع بمناقشة الأدلة ، وترجيح ما توفرت لديه أسباب الترجيح ودواعيه ، مع الجمع بين النصوص الواردة فى هذا الشأن ، وإزالة ما عسى يتراءى للناظر من تعارض ؛ فنقول :

بالرجوع الى الصحيحين فى باب تحويل القبلة ، نجد الأحاديث متضافرة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة كان يصلى الى بيت المقدس ، حتى نزل قول الله تعالى « فول وجهك شطر المسجد الحرام » فصلى الى الكعبة .

من ذلك ما روى فى صحيح مسلم عن البراء بن عازب ، قال « صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، حتى نزلت الآية التى فى سورة البقرة ، « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فنزلت بعد ما صلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فانطلق رجل من القوم فمر بناس من الأنصار وهم يصلون فحدثهم ، فولوا وجوههم قبل البيت » .

وما روى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى نحو بيت

المقدس فنزلت « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام » ، فمر رجل من بنى سلمة وهم ركوع فى صلاة الفجر وقد صلوا ركعة ، فنادى : ألا إن القبلة قد حولت . فمالوا كما هم نحو القبلة » . فهذان النصَّان يشهدان لما يراه الجمهور من أن الأمر بالتولية الى الكعبة ناسخ لحكم التوجه الى بيت المقدس .

وأما قول الله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثَم وجه الله » فليس مُساقا للتخيير ، كما يرى بعض العلماء ؛ لأن هذه الآية لو سيقت للتخيير وكان النبى صلى الله عليه وسلم مخيرا ، لما سأل جبريلَ أن يصرفه الله عن بيت المقدس الى الكعبة ، وكان يختار الكعبة بدون سؤال .

وإنى أسوق إليك معنى الآية ليظهر الحق فى ضاحية الشمس ، فيقتلع ما فى نفسك من شبهة ، ويجتث جذور كل لبسة : يقول الله تعالى : ولله المشرق والمغرب ، وكل الجهات ملكا وتصرفا ، لايختص به مكان دون مكان ، فإن مُنعتم الصلاة فى المسجد الحرام ففى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم نحو القبلة التى أمر بها بقوله « فوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام » فثَم وجه الله الذى تصلون إليه وتقفون بين يديه .

على أنك لو رجعت إلى سبب نزولها ، لارتفع النقاب ، وبان وجه الصواب : فعن ابن عمر أنها نزلت فى صلاة السفر والتطوع على الراحلة . وقد روى البخارى عن جابر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته حيث توجهت ، فإذا أراد الفريضة نزل فاستقبل القبلة » . وعن جابر فى سبب نزولها أنها نزلت فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى جهات تبين لهم بعد أنهم لم يصيبوا القبلة .

وأما ما احتج به البعض بما روى عن ابن عباس من أن أمر القبلة أول ما نسخ من القرآن ، والأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور فى القرآن بل المذكور قوله تعالى « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » ، فوجب أن يكون قوله تعالى « فول وجهك شطر المسجد الحرام » ناسخاً لحكم التخيير —

فيجاب عنه بأن التوجه إلى بيت المقدس كان بوحى . ويدل على ذلك قول الله تعالى « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها » أى ما حكمنا وشرعنا لك القبلة التى كنت عليها وهى بيت المقدس ، إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وما روى فى فتح البارى من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال « لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس ، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهراً ، وكان الرسول يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم ، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت » أى قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ... الآية » .

فقول ابن عباس « أمره الله » يدل دلالة بينة لا تدع لبساً ولا توهما على أن التوجه كان بأمر الله وبوحى منه إلى نبيه ، ولم يكن ذلك عن اجتهاد من الرسول عليه الصلاة والسلام .

قد يجرُّبك حب النقاش إلى أن هذا الحديث يتعارض مع ما تقدم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه ، وفى رواية : والكعبة بينه وبينه ؛ فنقول : الخطب سهل وأيسر مما توهمت ؛ إذ يمكن الجمع بينهما بأن يكون الرسول لما هاجر أمر أن يستمر على الصلاة إلى بيت المقدس . يؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير الطبرى من طريق ابن جريج قال « صلى النبى صلى الله عليه وسلم أول ما صلى إلى الكعبة ، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، فصلى ثلاث حجج ، ثم هاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً ، ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة » .

فهذا صريح فى الجمع المذكور ورفع التعارض المزعوم بين حديثى ابن عباس . وبالنظر إلى ما ههنا وما تقدم حال الكلام على قوله تعالى « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها » يتجلى لك أن الأقوال التى قيلت فى شأن الجهة التى كان يتوجه إليها الرسول فى الصلاة قبل الهجرة ــ ثلاثة :

أحدها : أنه كان يصلى إلى بيت المقدس ، إلا أنه كان يجعل الكعبة بين يديه ، وهذا هو ظاهر ما ورد عن ابن عباس .

ثانيها : أنه كان يصلى إلى بيت المقدس فقط ، وبعد الهجرة صلى إليه سبعة عشر شهراً .

ثالثها : أنه كان يصلى إلى الـكعبة ، وبعد الهجرة صلى إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، ثم أمر بالتوجه إلى الـكعبة .

ولا شك أن هـذا القول الأخير يستدعى دعوى نسخ القبلة مرتين .

والقولان الأولان لا يستعصى عليك إرجاع أحدهما إلى الآخر ، بل ذلك على طرف الثمام ، وتحت مواقع الأنظار .

هـذا ، ولقد اختلفت الرواية فى شأن المدة التى صلى فيها إلى بيت المقدس وهو بالمدينة ؛ ففى رواية أنها سبعة عشر شهراً على سبيل الجزم ، وفى رواية أنها ستة عشر شهراً على سبيل الجزم أيضاً ، وفى رواية بالشك بين ستة عشر شهراً وسبعة عشر شهراً . وطريق التوفيق بين هـذه الروايات هو أن يكون من جزم بأنها ستة عشر شهراً لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الزائد ، ومن جـزم بأنها سبعة عشر شهراً عدّهما معاً ، ومن شك تردد فى ذلك . وذلك أن القدوم كان فى شهر ربيع الأول بلا خلاف ، وكان التحويل فى نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح ، وبه جزم الجمهور . وهناك أقـوال غير ما ذكرنا تعتبر شاذة فلا داعى إلى التعرض إليها ، لذلك أسدلنـا عليها الستار ، وضربنا عنها صفحاً .

وأما الصلاة التى تحولت القبلة عندها ، والمسجد الذى صلى فيه أول صـلاة الى الـكعبة بالمدينة ، فقد اختلفت الرواية فى ذلك أيضا : فظاهر حديث البراء بن عازب من البخارى ، أن أول صلاة صلاها الرسول الى الـكعبة بعد الأمر بالتوجه إليها ، هى صلاة العصر ؛ لقوله « وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر » . وفى رواية أبى سعيد بن المعلى أنها الظهر فى مسجد بنى سلمة ، وفى رواية أنها الصبح بأهل قُـباء ، كما فى حديث ابن عمر ، على ماسيأتى :

والتوفيق بين هـذه الروايات هو ما جنح إليه الحافظ ابن حجر فى كتاب الإيمـان من البخارى ، حيث قال : والتحقيق أن أول صلاة صلاها فى بنى سلمة

لما مات بشر بن البراء بن معرور (الظهر)، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوى (العصر)، وأما الصبح فقد صلاها أهل قباء بمسجدهم كما فى حديث ابن عمر، قال: « بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة ».

وهناك روايات فى هذا الموضوع يخالف بعضها بعضا أثبت العلماء ضعفها، لذلك أسدلت الستار عليها، وتصديت لما صح فحسب.

وقد أخذ العلماء من حديث ابن عمر فوائد جليلة؛ منها:

١ — أن الناسخ لا يلزم حكمه المكلف قبل أن يبلغه وإن تقدم نزوله، فأهل قباء أدوا صلاة العصر، والمغرب، والعشاء، إلى بيت المقدس قبل أن يعلموا بتحويل القبلة، ولم يؤمروا بإعادتها بعد.

٢ — قبول خبر الواحد ووجوب العمل به، ونسخ ما تقرر بطريق العلم به؛ فقد كانت صلاتهم الى بيت المقدس بطريق القطع لمشاهدتهم صلاة الرسول إلى جهته، وقد وقع تحولهم الى الكعبة بخبر الواحد كما هو فى حديث ابن عمر. ويرى بعض العلماء أن خبر الواحد لا ينسخ ما علم بطريق القطع، والذى وقع ههنا إنما هو لما احتف به من القرائن والمقدمات التى أفادت العلم الجازم عندهم بصدق ذلك الخبر.

ويرى بعضهم أن خبر الواحد يكو ناسخا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، وكأنهم ينظرون إلى أن الرسول متى كان بين ظهرانيهم لا يتقول عليه أحد ممن تبعه لتيسر الرجوع إليه.

٣ — تعليم من ليس فى الصلاة من هو فيها، وأن استماع المصلى لكلام من ليس فى الصلاة لا يفسد صلاته.

٤ — أن استدارة هؤلاء القوم الى الكعبة وهم فى الصلاة بدون أن يستأنفوها، يدل على أن المصلى إذا تحرى جهة القبلة ثم تغير اجتهاده وهو فى الصلاة فإنه يستدير إلى الجهة التى تغير إليها اجتهاده ولا يستأنف صلاته من جديد.

وقد استبان لك من حديث القبلة أن الذين لم يتجاوز الإسلام حناجرهم نكصوا على أعقابهم ، وليس الإسلام بهم إلى حاجة « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الـكافرون » .

وأن من تغلغل الإيمان فى قرارة نفوسهم ثبتت أقدامهم ، فاستضاءوا بنور الإسلام ، وجنوا ثمرات الإيمـان ، ونشروا مطارف الحكمة ، وبنوا ما تطامن له جبين الدهر .

وأن القائم على أصل صحيح لا تزعزعه هوجاء العواصف ، وإن قل أنصاره ، والقائم على غير أصل تلعب به الرياح ، ولا يلبث أن يزول وإن كثرت أعوانه . فالحق قوى البطش لا تلين له قناة ، يصرع الباطل ويدمغه فإذا هو زاهق ، إن الباطل كان زهوقا . وغير ذلك ممـا شرف الله به رسوله وأمته ، فجعل لهم خير قبلة كما جعلهم خير أمة .

ولقـد كان من حديث القبلة ما يرشد الى مبلغ كرامة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه وعظيم شرفه ، ورفيع منزلته ، أجابه إلى ما قر بِهِ عينا ، وطاب به نفسا ، وتهلل فرحا وبشرا .

وقد ساق الله تعالى له بشارة قوة شكيمة الإسلام وعزة جانبه وإتمام النعمة وكمال الهداية بقوله عز وجل « فلا تخشوهم واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » .

والله أسأل أن يجعلنا ضمن من أتم عليهم النعمة ، وهداهم إلى سواء السبيل ؟

عيادة شاعر

دخل محمد بن عبدالله على أمير المؤمنين المتوكل العباسى فى شكاة له يعوده ، فقال :

الله يدفع عن نفس الإمام لنا ... وكلنا للمنايا دونه عرض
فليت ان الذى يعروه من مرض ... بالعائدين جميعا ، لا به المرض
فبالإمام لنـا من غيرنا عوض ... وليس فى غيره منه لنا عوض
فمـا أبالى إذا ما نفسه سلمت ... لو باد كل عباد الله وانقرضوا

بين الشريعة والقانون
نظرات فى توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بإدارة الأزهر والمعاهد الدينية

تمهيد :

راعت الشريعة الإسلامية فيما تناولته من نظم المعاملات أمرين تتمثل فيهما طبيعة الإنسان ، ولهما اتصال وثيق بالتعامل بين الناس .

أحدهما — أن المرء قد ينسى ما يجرى بينه وبين غيره من أمور تدعو المصلحة يوما ما الى تذكرها ؛ كأن تشتمل المعاملة على دَين أو شرط ، ثم يطول الزمن فيكون الدين أو الشرط عرضة للنسيان .

ثانيهما — أن المرء قد يغلب عليه الطمع فيما لديه من حق لغيره فيجحده ، أو قد ينتقل الحق الى وارث عن مورثه ، أو يتحول الدين عن ذمة المدين ويتعلق بالمال المنقول الى وارثه .

وفى كل حالة من تلك الحالات أو ما يماثلها ، قد ينشأ الخلف ، ويثور النزاع ، وتتعرض الأموال لأن تؤكل بالباطل من جانب الآخذ أو المعطى ، فلا يكون للثقة بين الناس موضع من نفوسهم ، ولا للنظام استقرار بينهم .. وما كان تنظيم المعاملات فى الإسلام إلا لقطع المنازعة ، كما هو مشهور على ألسنة الفقهاء .

راعت الشريعة هذين الأمرين ، فأتت بأنواع من عقود المعاملات لا يراد منها بالذات حصول على المال أو المنفعة بطريق من طرق التبادل ، وإنما قصد منها صيانة الأموال ، وضمان العقود التى شرعت لتحصيل تلك الأغراض أن يعتورها نكول ، أو يحيف بها تلاعب ؛ ومثالها : عقد الرهن ، والضمان ، والكفالة ، والإشهاد الكتابى ، وما الى ذلك ، على ما يأتى .. وعلى هذا تتنوع العقود إجمالا

الى عقود تعتبر أصولا كعقد البيع والإجارة والسلم ، وأخرى تعتبر فروعا أو تابعة لتلك الأصول كما مثلنا بالرهن والضمان الخ . وكما صح أن ننظر الى الغرض المقصود من العقد فنسمى عقود التمليك فى البيع ونحوه أصول العلامات ، فقد صح أن نسمى العقود التابعة لها عقود التوثيق للمعاملات ، وإن يكن اصطلاح المؤلفين من الفقهاء جرى على تسمية هذه وتلك بالمعاملات ، وجعلها فى التأليف تحت هذا العنوان الجامع ، فبين النوعين تمايز من حيث الغرض الخاص المقصود من كل نوع .

وهذا الاعتبار لا يبعد ولا يختلف عما اصطلح عليه رجال القانون ، فكذلك صنعوا ، وسموها بأسماء تشعر فى وضوح بوجه الفرق بين النوعين ؛ فهم يسمون الأصيل من هذه العقود : عقود الالتزام ، ويسمون الأخيرة : عقود التأمينات ، أو طرق إثبات الحقوق .

وإن كانت لهم تفرقة دقيقة بين تسميتها عقود التأمينات ، وتسميتها طرق إثبات الحقوق ، فهى فى جملتها للتوثيق على نحو ما أجملنا .

وسواء أراعينا الفرق بين عقد وعقد من حيث الأصالة والتبعية ، أم لم نراع ذلك ، فكل منها وسيلة الى غرض مشروع ، وكل منها قائم على شروط ضرورية لصحته وترتب الأثر عليه ، وكل منها مأمور بصيانته وتنفيذه على الوجه الذى رسم به ، وعدم الانحراف عن سمته وجادته ، حتى لا يكون ذريعة الى الكسب الخبيث ، وأكل المال بالباطل .

ويشهد لذلك عموم قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، وقول النبى عليه السلام : « المسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما » . وغير ذلك من الشواهد كثير .

والذى نتجه إليه فى بحثنا هذا من العقود : هو ما شرع لتوثيق المعاملات .

وهنا لفتة لغوية إلى ما تفيده كلمة التوثيق ؛ فصاحب لسان العرب يقول : وثق به ائتمنه ، والوثيقة فى الأمر إحكامه ، واستوثقت من فلان ، أخذت منه الوثيقة . . . وكذلك ذكر القاموس ، إلى أن قال : والعهدة بضم العين

كتاب الحلف وكتاب الشراء ... ومن هذه العبارات وما اقترنت به من تفصيل نفهم أن الاستيثاق من فلان معناه أخذ الوثيقة منه ، وأن الوثيقة هى العهدة أى هى كتاب الحلف والشراء ، وكل ما يتوثق به العقد ويكون مصونا .

وعلى ضوء ما اقتبسنا يكون « توثيق المعاملات » معناه جعلها محكمة : بأن تكون صحيحة ، مشتملة على الوثيقة التى تصونها من التلاعب ، وتكفل إنجازها على الوجه المشروع المتفق عليه .

ذلك إيضاح موجز لمعنى توثيق المعاملات يُقرِّب إلينا الموضوع الذى نحن بصدده .

والفقهاء وإن لم يلتزموا ضابطا معينا ، فالمستوعب لكلامهم يكاد يجد اصطلاحهم على هذا الضابط شاخصا أمام العين حين تعريفهم للرهن ، أو الضمان ، وحين كلامهم على الإشهاد فى البيع ، والوقف ، والوصية : ففى سياق الحديث عن كل أمر من هذه الأمور يقولون : إنه للتوثيق ، أو لضمان الحقوق ، أو لمنع التنازع ؛ وهكذا .

وفوق ما ذكر أهل اللغة ، وما يستأنس به من عبارات الفقهاء ، ففى القرآن الكريم شواهد جمة تقرر أن التوثيق معناه كذلك ، وأنه شرع لذاك .

فالله تعالى يقول « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » أى العهد الذى أخذه عليكم وثيقة منكم على الوفاء . والقرآن يحكى عن يعقوب عليه السلام قوله لبنيه « لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به » ، ويقول « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ، « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » ، وهكذا جرى سنن القرآن الكريم على الأمر بالوفاء عند ذكر العهد والميثاق ، وعلى التنديد بالذين لا يوفون بالعهد والميثاق . وكتاب الله حافل بنحو هاتيك الأمثلة .

فإذا راعينا أن العهد والميثاق كل ما يجرى بين الإنسان وربه ، أو بين الإنسان والإنسان من توثيق واتفاقات مشروعة ، تبين أن العقود فى المعاملات أيا كان نوعها ، مما يطلب الينا الوفاء به ، وعدم التحيف منه بغدر أو مخاتلة .

تاريخ التوثيق :

وتوثيق المعاملات وتنظيم هذا التوثيق ، وإن كانا مما له شأن فى سياق التشريع الإسلامى ، فقد سبقتنا اليه على أى وجه من الوجوه شرائع قديمة ، وأخذت تلك الشرائع منه بنصيب ، كما اهتدت اليه بفطرها أمم غابرة لم تكن تصدر فى أمرها عن دين سماوى .

وقد جاء فى كتاب المقارنات والمقابلات بين شريعة اليهود والشريعة الإسلامية لمؤلفه الفاضل محمد حافظ صبرى ، قوله : وقد وصل الباحثون الى معرفة استعمال الكتابة فى المعاملات فى الشرق من قبل زمن ابراهيم عليه السلام بنحو الخمسمائة سنة ، الى أن قال : ومن أقدم الأمم استعمالا للخط فى إثبات الحقوق والمعاملات المصريون اقتداء بالسريان ؛ فقد ذكروا أن بعض قدماء الفراعنة أصدر أمرا بوجوب تدوين الحقوق فى سجلات الموثقين منعاً للظلم وشهادة الزور ، الى أن قال : وكذلك اليهود من أقدم الأمم استعمالا للكتابة فى المعاملات . وقد أورد المؤلف طائفة من المواد المسطورة فى الكتب العبرية تأييدا لسبق اليهود الى الأخذ بالتوثيق عن شريعتهم .

وإذا كانت بحوث المؤرخين تكشف عن قدم التوثيق ، كما يقول المؤلف وغيره ، فإن القرآن نفسه ليدلنا فى تأكيد على أن التوثيق بين الناس كان مشروعا قبل الإسلام ، ومأخوذا به فى عصور مختلفة .

فهذه قصة يعقوب عليه السلام مع أولاده حينما رغبوا اليه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين الى مصر ، وهو يخشى عليه ماوقع لابنه يوسف ، فيتردد فى الاستجابة لهم وهم يلحون عليه حتى يلين لهم أخيرا ، ويقول : « لن أرسله معكم حتى تؤتون مَوْثِقا من الله لتأتننى به » . قال الألوسى : يريد عليه السلام أن يحلفوا له بالله تعالى ، وإنما جعل الحلف به سبحانه مَوْثقا لأنه مما تؤكد به العهود وتشدد . اه « فلما آتوه موثقهم قال : الله على مانقول وكيل » . حلفوا لأبيهم كما طلب ، فاطمأن يعقوب وأشهد الله على توثيقهم للوعد باليمين ، ثم استجاب لرغبتهم .

ويحكى لنا القرآن فى نفس القصة شاهدا آخر على أخذهم بالتوثيق ، وذلك حينما فقدوا صواع الملك ثم نادى المنادى « نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل

بعير وأنا به زعيم » . فهذه موعدة بجعل من المال لمن يأتى بالصواع المفقود ، أعلنها المنادى وضمنها والتزم الوفاء بها بقوله : وأنا به زعيم : ضامن .

وذلك توثيق فى معاملة مالية ، وهذا نص فيما نحن بسبيله .

وكذلك قصة شعيب مع موسى عليهما السلام ، إذ تشارطا على أن يعمل موسى عند شعيب ثمان سنوات أو عشرا ليكون ذلك مهر ابنته ، فيرضى موسى ويوثق العهد على نفسه وعلى صاحبه بقوله : « ذلك بينى وبينك ، أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان علىّ ، والله على مانقول وكيل » قال الألوسى : والمراد توثيق العهد وأنه لا سبيل لأحد منهما الى الخروج عنه أصلا . ا هـ .

فتلك أمثلة تدل فى غير شائبة من الخفاء على أن التوثيق بصفة عامة كان ديدنا مشروعا من أحقاب طوال : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

فاذا وصلنا الى عصر الإسلام وجدناه يقر التوثيق ويبنى بتنظيمه ، ويتوسع فيه ، ولعله أضاف الى وسائله الأولى وسائل لم تكن من قبل ، حتى لترى لوسائل التوثيق على تعددها ذكرا فى الكتاب والسنة ، وإن اختلف ذكر بعضها عن البعض طولا وقصرا ، أو تفصيلا وإجمالا ، وتأكيدا وغير تأكيد . وهذه آية الدَّين وما فيها من الأمر بالكتابة والاستشهاد على الدَّين أو الرهن به ، والإشهاد على البيع ، وآيات أخرى ، وأحاديث مستفيضة فى كتب السنة ، جاءت كلها فيما وردت فيه آية الدين ، على ما سيأتى تفصيله .

فإذا كان التوثيق فى نفسه قديما ، فهو بالنسبة إلينا مستمد من القرآن والسنة ، ومبدأ تاريخه بيننا هو عصر النبوة . وحسب المؤرخ للتوثيق فى الإسلام أن يقف عند ذلك التحديد المجمل ، كما يقف فى كثير من المسائل المتصلة بالتشريع ، دون استرسال أو تعرض لتعيين الشهر أو السنة لكل مسألة ، إذ لم يكن تدوين الوقت الذى نيطت به كل مسألة تشريعية أمرا يحفل به المؤرخون دائما أو يعنى به الأولون كثيرا ، وخاصة فى نشأة الحياة الإسلامية التى كانت مطبوعة بطابع البداوة والسذاجة ، ولم تأخذ بالنظام إلا رويداً رويدا .

ومن تمام هذا الفصل أن نذكر صوراً من التوثيق على عهد الرسول عليه السلام .

ولنعود إلى ذلك إن وفق الله سبحانه ؟

الميلاد المحمدى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

سيدى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليك : كلما انطوى عام وأقبل عام ، وهل منه هلال شهر ربيع الأول ، شهر تشريف الوجود بميلادك ، وإيذان العالم بدعوتك وإرشادك - أرهفت مشاعر المؤمنين وأقبلوا عليك ، لا ليذكروك فقد ذكرك الله وأعلى شأنك فى الخلق ، ورفع قدرك بين إخوانك الأنبياء ، ورسله الأصفياء :

أيروم مخلوق ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق

وذكرك المسلمون ويذكرونك كل يوم خمس مرات ، إذ يقولون فى تحيات الصلاة : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ ويتعبدون بذكرك فيما وراء ذلك ، ولكن يلتفتون بقلوبهم وبصائرهم نحو سيرتك الطاهرة ، وتاريخك العاطر ، يستلهمون العبر ، ويستمدون الفكر ، ويفزعون الى صداها مسترشدين ، وإلى نورها مستنيرين .

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . ويلتفت العالم كله ، وقد أعيت مذاهبه ، وعميت عليه أموره ، وأزعجته الحادثات ، وبهظته الكوارث ، إلى قانونك الإلهى ودستورك السماوى ، يستبرءون من عللهم ، ويستشفون من أدوائهم ، بعد أن عجزت قوانينهم الوضعية ، ودساتيرهم البشرية عن أن تصل بهم إلى هدى ، أو تفضى بهم إلى استقرار ، وبعد أن جعلت تلك القوانين من العالم طوائف تباينت نحلهم ، وتفرقت أهواؤهم ، واختلفت غاياتهم ، وخلوا جميعا من الفضائل الإنسانية ، فلا تراحم ولا تعاطف ولا مساواة ، ولا إخاء ولا صدق ولا وفاء ، يستبد القوى بالضعيف ، ويزدرى الغنى الفقير ... !

سيدى رسول الله :

لقد صارت البشرية إلى مثل الحال التى جئتم فيها : دين مبتدَع ، وهوى متَّبع ، وتكاثر بالأموال والأولاد والجاه ، وطبقات يفضل بعضها بعضا ، وغفلة عن الله وعن اليوم الآخر ، وتكالب على متاع الدنيا وحطامها ؛ فما أشبههم بأهل الفترة ، وما أحوجهم إلى منقذ صالح ومعالج مخلص !! وهل فى الوجود إلا علاجك وإصلاحك ، وإلا نورك وهداك ، وإلا ما جئت به من أخلاق وآداب وأحكام وعقائد ، عالجت بها أمتك ، فوحدتها بعد شتات ، وجمعتها بعد تفرق ، وجعلت لها غاية تهدف إليها ، ومثلا أعلى تسعى إليه ؛ وعالجت بها شأنها فى الدنيا والآخرة فأظلتها سحائب الأمن والاطمئنان . نعم ليس فى الوجود إلا علاجك لشفاء البشرية من أوصابها وآلامها ، وإنقاذها مما تردت فيه وهوت إليه .

وكل ما تواصى به الزعماء والقادة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم فمرده إلى شرعك ، ومرجعه الى دستورك ؛ وكل ما تمخض عنه عقل فرد أو جماعة واستحسنته الأمم والشعوب ، فقد ناديت به ودعوت إليه قبل ذلك بقرون . « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » . « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهَى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

يتصايح العقلاء والمفكرون فى الأمم بخطر القوميات على السلام العالمى ، ويَعزُون استعار الحروب إليها ، ويرون ألا سبيل إلى السلام المنشود إلا بإلغاء القوميات والجنسيات ؛ وتوجيه العالم وجهة واحدة ، تقوم عليه حكومة واحدة ، ويطبق عليه دستور واحد ؛ يخضع الجميع لواجباته ، ويتمتعون بحقوقه ... ولقد نادى محمد عليه السلام بذلك منذ أربعة عشر قرنا ، وأعلن أن العالم كله أمة واحدة لاتفاضل بين أفرادها إلا بالعمل الصالح والعلم النافع ، ولا عبرة بالأجناس والألوان ، ويقول فى هذا « المسلمون سواسية كأسنان المشط » ، ويقول « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

ولم يكتف بأن يربط بين أفراد هذه الأمة برباط السلطات والقانون ، بل ربط بين قلوبهم برباط المحبة الخالصة والمودة المتبادلة ، ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » ، وجعل أساس تلك الحكومة الشورى الصادقة والانتخاب الصحيح ، لا هذه الشورى الصورية التى يخادع بها ساسة العصر وقادته .

وتداعى الزعماء والقادة الى الاجتماع لتقرير حقوق الإنسان، وانتدبوا لذلك منظمة خاصة اجتمعت وتشاورت، ثم قررت بعض ما قررته شريعة محمد قبل ذلك بأربعة عشر قرنا . لقد قررت الشريعة الإسلامية أن للإنسان حقوقا فرضت احترامها، ومن حقوقه أن يكون آمنا مطمئنا على نفسه وعرضه وولده وماله وملكه مهما كثر إذا أدى ما فرض فيه من الحقوق. ومن حقه أن يفكر بل عليه أنه يفكر « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » . ومن حق المرأة أن تتمتع بما يتمتع به الرجل إلا فيما حرمتها منه طبيعتها ,

من حقوقه كل ذلك، ولا عبرة فيها بلون أو جنس؛ فقد ألغى الإسلام هذه الفوارق، واعتد بالإنسانية الراشدة فحسب « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه » .

هذا بعض ما قرره الإسلام، وهو عين ما تداعى له الزعماء، وعصروا فيه قرائحهم، وأسهروا لياليهم، وكلفوا له أنفسهم مجهودات مضنية، وحملوا أممهم نفقات طائلة، وكان يغنيهم - لولا العصبية العمياء والاعتداد بمدنياتهم المزيفة - أن يرجعوا إلى الإسلام فيقبسوا منه ماشاءوا مما يصلحهم ويصلح شعوبهم، ويجنبهم ويجنب شعوبهم مزالق الضلال والهلاك، ويتأدى بالعالم إلى وحدة حقيقية طهرت قلوب طوائفها وشعوبها من الضغينة والحقد .

وليس ذلك بمستعص على الشريعة الإسلامية، فقد نجحت فى مثل ذلك من قبل، وجعلت من العرب والصين وفارس والترك والبربر أمة واحدة وطنها واحد، وربها واحد، وقبلتها واحدة، وقانونها واحد، وشعار الجميع « إنما المؤمنون إخوة » ، « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » ، وفى ذلك النجاح يقول شوقى: مخاطباً محمداً صلوات الله وسلامه عليه :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة ... لكل طاغية فى الخلق محتكم
والناس يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرمم

وخير من ذلك كله قوله تعالى: « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضي بمحكمة المنيا الوطنية

الإجماع :

الإجماع فى اصطلاح الأصوليين : هو اتفاق جميع المجتهدين من الأمة الإسلامية فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى (١) .

وإذا تحققت أركان الإجماع الأربعة : بأن أحصى فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول جميع من فيه من مجتهدى المسلمين على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطوائفهم ، وعرضت عليهم واقعة لمعرفة حكمها الشرعى ، وأبدى كل مجتهد رأيه صراحة فى حكمها بالقول أو بالفعل ، مجتمعين أو منفردين ، واتفقت آراؤهم جميعا على حكم واحد فى هذه الواقعة — كان هذا الحكم المتفق عليه قانوناً شرعياً واجباً اتباعه ، ولا تجوز مخالفته ، وليس للمجتهدين فى عصر تال أن يجعلوه موضع اجتهادهم ؛ لأن الحكم الثابت بهذا الإجماع حكم قطعى لا مجال لمخالفته أو للاجتهاد فيه (٢) .

ولم ينعقد الإجماع بهذا المعنى فعلا فى أى عصر من العصور ، والذى سماه الفقهاء إجماع الصحابة لم يكن إجماعا بهذا المعنى ، وإنما كان اتفاق أكثرهم على حكم الواقعة (٣) .

ومما أجمع عليه الصحابة اتفاقهم على حد مَن قذف الرجل المحصن ، مع أن النص فى الآية لم يتعرض إلا لقاذف المحصنات . ومن ذلك أيضا إجماعهم على قتل الجماعة بالواحد .

---

(١) أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ٣٣

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٩

القياس :

القياس فى اصطلاح الأصوليين : هو إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص من الحكم الشرعى المنصوص عليه ، لاشتراكهما فى علة الحكم (١) .

ويمكن أن نذكر من الأحكام التى تقوم على القياس ، حرمان الموصَى له من الوصية إذا قتل الموصِى قياسا على حرمان القاتل من الميراث ، لأن كلا منهما تعجل الشىء قبل أوانه فعوقب بحرمانه . ومن ذلك أيضا تحريم ما أسكر ولو لم يكن من العنب ، مع أن التحريم وارد على لفظ الخمر ، وهو النبيذ المتخذ من العنب .

وهناك مصادر تشريعية أخرى ليست محل اتفاق الفقهاء ، وهى : الاستحسان ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، ومذهب الصحابى . ومحل دراسة كل ذلك علم الأصول . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن العمل بالقياس محل خلاف أيضا .

تفسير النصوص الجنائية :

يرى علماء القوانين الوضعية أن من الواجب على القاضى عند تفسيره نصوص القانون الجنائى ، ألا يتوسع فى تفسيرها ، لما قد يترتب على التوسع فى التفسير من العقاب على أفعال لا يشملها النص ، ولم يجيزوا للقاضى أن يعمل بالقياس فى ميدان القانون الجنائى ، فمهما كان وجه الشبه بين الفعل المعاقب عليه والفعل موضوع المحاكمة ، فلا يجوز توقيع العقوبة على مرتكبه ما دام النص لا يشمله .

وفى الشريعة الغراء وضع علماء الأصول القواعد التى تتبع فى تفسير النصوص ، وليس من شأننا فى هذا البحث أن نبين قواعد التفسير ، ولكن الذى ينبغى ذكره هو قوله صلى الله عليه وسلم « ادرءوا الحدود بالشبهات » . فهذا الحديث يضع قاعدة أساسية فى تفسير النصوص الجنائية ، وليس المقصود من هذا الحديث عدم العقاب فى حالة الشك فى ثبوت التهمة فحسب ، بل إنه يعنى أيضا عدم جواز التوسع فى تفسير النصوص الجنائية حتى تشمل حالات لا يتسع لها النص .

ومن الأحاديث الواجب العمل بها فى هذا الصدد ، ما رواه الترمذى عن السيدة عائشة رضى الله عنها من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الإمام

(١) المرجع السابق ص ٤٢

أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » . ويعبر علماء القانون عن معنى هذا الحديث بقولهم : إن الشك يفسَّر فى صالح المتهم .

وقد يرى البعض أن هناك خلافا كبيرا بين حكم الشريعة وحكم القوانين الوضعية فى كيفية التفسير ؛ لأن القياس من مصادر الأحكام الشرعية فى الأحكام الجنائية وغيرها ، وهو مالا تسلم به القوانين الوضعية . ويرد على ذلك بأن القاضى فى الشريعة ـ حسب القواعد التى وضعها الفقهاء ـ يجمع بين سلطتى التشريع والقضاء ، وليس هناك ما يمنع المشرع من أن يقيس حالة على أخرى عند وضع نص جنائى . وإذا صيغت الشريعة صياغة حديثة ، وفصل بين سلطة التشريع وسلطة القضاء ، فإن ذلك يستلزم حتما أنه لايجوز للقاضى أن يوقع العقوبة على فعل لم تنص السلطة التشريعية على أنه معاقب عليه مهما كانت خطورته على المجتمع . اللهم إلا إذا أخذ بما ذهب اليه المشرع الألمانى من إعطاء القاضى حق توقيع العقاب على الأفعال الخطرة على المجتمع ، والتى لم يرد نص فى القانون يعاقب عليها .

صفات النص الجنائى :

ذهب علماء القانون الى أنه من الواجب ان تتوافر فى النص الجنائى الصفات الآتية :

(١) أن يكون ساريا على زمان الجريمة .

(٢) أن يكون ساريا على مكان الجريمة .

(٣) أن يكون ساريا على الشخص الذى ارتكب الجريمة .

ونرجو الله أن يوفقنا الى بيان هذه الصفات فى بحث آخر .

كلمات

من أشبع أرضه عملا ، أشبعته خبزاً . وقالت عائشة : المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله . وقال عمر بن الخطاب : لا تنهكوا وجه الأرض فإن شحمها فى وجهها . وقال أبو بكر الصديق لغلام له كان يتجر بالثياب : إذا كان الثوب سابغا فانشره وأنت جالس . وقال عبد الملك بن مروان : من كان فى يده شيء فليصلحه ، فإنه فى زمان إن احتاج فيه ، فأول ما يبذل دينه .

تفسير سورة البينة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة . إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

لبيان ما نزلت السورة لأجله نقول : بدل أهل الكتاب شرائع أنبيائهم بعدهم ، وأدخل كل فريق منهم فى دينه ما ليس منه ، إما بسوء الفهم ، وإما لإلحام الخصم ، وإما لاستحسان العقل . وكان إلى جوارهم المشركون من العرب وغيرهم ، الذى عبدوا الأوثان ، وأصبح إخراجهم عن عبادتها من أشق الأمور على المصلحين . وكان الجدال والخصام يثور بين أهل الكتاب والمشركين فى كثير من الأحيان . وكان أهل الكتاب يذكرون للمشركين أن الله يبعث نبيا من العرب من مكة يقيم الحق وينشر العدل ، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصروه واستنصروا به عليهم . وكان المشركون يرتقبونه أيضا ، ويستشعرون مبعثه ، ويقولون لخصومهم : إذا جاء فنحن أولى به منكم .

فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قام المشركون فى وجهه وعاندوه ، وقام أهل الكتاب ينازعونه ويزعمون أن ما جاء به من الدين ليس شيئا جديدا ، بل هو معروف لهم مسطور فى كتبهم ، ولا يصح ألا يتركوا ماهم عليه ويتبعوا رجلا ما جاء بشيء أفضل منه . فكان أهل الكتاب من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وكانوا يدا عليه مع المشركين

ففى بيان هذا الحال الذى كان عليه هؤلاء المارقون ، وفى بيان الوعيد على ذلك الخلف الذى كان منهم عند مجيء البينة ، خصوصا ممن أبصر من قبل لامع الحق ، ثم أغمض عنه عينه وقت ظهوره ، واستغشى منه ثوبه حين سطوعه ـ نزلت هذه السورة الكريمة .

بيان المعنى التفصيلى :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة » .

« منفكين » : مفارقين لما كانوا عليه من الوعد باتباع الرسول عند بعثه وظهوره .

« حتى تأتيهم البينة » : متعلق بمنفكين . و « البينة » صفة بمعنى اسم الفاعل أى المبين للحق ، والمراد بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بدليل تفسيرها بقوله تعالى بعدها : « رسول من الله » إذ التقدير : هى ، أى البينة ، رسول من الله .

« يتلو صحفا مطهرة » صفة للرسول صلى الله عليه وسلم . و « الصحف » جمع صحيفة ، وهى القراطيس التى يكتب فيها ، وهى صحف القرآن الكريم . والمراد بتطهيرها تنزيهها من الخلط والباطل وحشو المدلسين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا .

ووصفه عليه الصلاة والسلام بتلاوة الصحف المذكورة مع أنه لم يكن يقرأ الكتاب ولا يكتبه ، على سبيل التجوز ، لأنه لما قرأ ما فيها فكأنه قرأها .

وقوله : « فيها كتب قيمة » صفة للصحف . و « الكتب » : المكتوبات . و « القيمة » : المستقيمة التى لاعوج فيها .

واستقامة الكتب التى فى صحف القرآن اشتمالها على الحق الذى لا يميل إلى باطل ، كما قال تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

والمراد بالكتب القيمة : إما ما صح من كتب الأولين مما حكاه الله عنهم فى كتابه ، فإنه لم يأت منها إلا بما هو قويم سليم ، وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون ، إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه ؛ ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب سبيلا الى إنكار الحق ، وإنما فضلوا عليه سواه . وإما سور القرآن ، فإن كل سورة من سوره كتاب قويم ، يحوى أقوم الأحكام ، وأصدق الأنباء .

والمعنىَ الإجمالى :

لم يكن هؤلاء الكافرون مفارقين لما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق ، والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث فى آخر الزمان ، حتى يأتيهم الرسول الذى يبين الحق ، ويتلو الصحف المطهرة من الزيف ، المشتملة على الصدق والعدل .

وقد كان ذلك الوعد مشهورا من أهل الكتاب ، حتى إنهم كثيرا ما كانوا يقولون : « اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان » . وكثيرا ما كانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : « قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلناه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

وقد كان معروفا أيضا بين المشركين بعد ما شاع من أهل الكتاب واعتقدوا صحته . ويشهد لذلك أنهم قبل بعثته عليه الصلاة والسلام سَمى غير واحد منهم ولده محمدا ، رجاء أن يكون هو النبي المنتظر .

ثم قال الله تعالى :

« وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » .

بيان وجه الربط :

سِيق هذا الكلام بعد ذكر الطائفتين من أهل الكتاب والمشركين لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصة ؛ وذلك ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك عن الرسول والتفرق عنه ، لم يكن لاشتباه فى الأمر ، بل بعد وضوح الحق ، وتبين الحال ، وانقطاع الأعذار ؛ وهو السر فى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبىء عن كمال تمكنهم من مطالعته ، والإحاطة بما فى تضاعيفه من الأحكام والأخبار التى من جملتها ما يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم وصحة بعثته .

فالاقتصار على أهل الكتاب هنا ، لأنهم أشد جرما ؛ حيث علموا الحق وأنكروه .

وقيل : إنما اقتصر عليهم ، لأنه يعلم حال غيرهم بالطريق الأولى ، وهذا أنسب .

والمعنى : وما تفرق هؤلاء الكافرون عن الرسول ، وما انفكوا عنه بالإصرار على الكفر إلا من بعد ما جاءهم وبين لهم الحق من الباطل ، والصالح من الفاسد ، وما ذلك إلا لامتلاء قلوبهم بالحسد ، واشتعال صدورهم بنار الحقد وثورة العناد ، مع أنهم كانوا قبل مجيئه عاقدين العزم على الإيمان به ، والتأييد له ، والانضمام تحت لوائه .

ولقائل أن يقول : إن كلمة « حتى » فى قوله تعالى : « حتى تأتيهم البينة » لانتهاء الغاية ، فهى تقتضى أنهم انفكوا عن الوعد باتباع الرسول الى اتباعه بالفعل عند مجيئه ، مع أن الواقع غير ذلك ؛ وأن قوله تعالى : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » يقتضى أن كفرهم قد زاد عند مجيء الرسول .

والجواب : أن الكفار من الفريقين كانوا يقولون قبل مبعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : لا ننفك عما نحن عليه من الوعد حتى يبعث النبى

الموعود به ، فحكى الله عنهم فى الآية الأولى ما كانوا يقولونه ، ثم ذكر الآية الثانية توبيخا لهم وإلزاما . يعنى أنهم كانوا يعدون باتباع الحق إذا جاءهم ، ثم مافرقهم عن الحق ، ولا أقرهم على الكفر إلا مجىء محمد عليه الصلاة والسلام . وحاصله : أن الأولى من باب الحكاية لقولهم ، والثانية من باب التوبيخ والإلزام .

ثم قال الله تعالى :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » :

بيان وجه الربط :

وجه الربط أن الآية السابقة ذكرت للتشنيع على الكافرين ، وجىء بهذه الآية لإفادة أنهم بلغوا النهاية فى قبح الأفعال ، إذ تفرقوا عن الرسول فى حال أنه لم يأمرهم إلا بما هو صالح لهم فى دينهم ودنياهم ، وبما هو جالب لسعادتهم . وفى هذا من التقريع والتوبيخ مالا يخفى .

بيان المعنى التفصيلى :

« وما أمروا » : الواو للحال ، والضمير فى « أمروا » يعود الى أهل الكتاب . والأمر : طلب الفعل طلبا جازما .

« إلا ليعبدوا » : إلا أداة استثناء ، واللام فى : « ليعبدوا » بمعنى أن المصدرية ، والباء محذوفة قبلها . والعبادة فى لسان الشرع : كل طاعة لله أديت على وجه التذلل ، والنهاية فى التعظيم .

فالمأمور به على هذا هو عبادة الله تعالى ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . ويكون معنى الجملة : وما طلب من أهل الكتاب على لسان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عبادة الله . . الخ اهـ رازى .

« مخلصين » : منصوب على الحال من ضمير « يعبدوا » . و « الإخلاص » هو

أن يأتى العبد بالفعل خالصا لداعية واحدة ، دون أن يكون لغيرها من الدواعى تأثير فى إتيانه بها .

و« الدين » : هو إذعان النفس لإلهها مع غاية الخضوع له . والمراد بإخلاص الدين لله : تنقيته من أدران الشرك .

« حنفاء » : مائلين عن جميع العقائد الزائفة الى الإسلام .

« ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » معطوف على : « يعبدوا الله » .

وإقامة الصلاة : تعديل أركانها ، من أقام العود إذا عدله ، وذلك بأن يوقعوها مستجمعة للفرائض والواجبات ، والسنن والمستحبات ، مع إحضار القلب هيبة المعبود .

بهذا الوصف كانت صلاة العارفين ، وعبادة المؤمنين الأولين ، حتى كان أحدهم إذا دخل فى الصلاة لا يشعر بما يصيب جسمه من أحداث ، ولا يحس بما يلحقه من آفات ، كل ذلك لإمعانه فى مراقبة ربه ، واشتغاله به عن غيره .

أما اليوم فقد أصبحت صلاة الكثيرين مجرد حركات لا تورث خشية الله فى القلب ، ولا تبعث هيبته فى النفس ، فهى كالجسد الفارغ من الروح ، والجسم المجرد من الحس ، والبيت الخالى من النور . وقد دلت الآثار على أن مثل هذه الصلاة لا تبرىء الذمة ، ولا تغنى عن العبد شيئا .

وإيتاء الزكاة : صرفها فى مصارفها التى عينها الله فى كتابه الكريم ، حتى يضمن المؤدى نقاء المال وطهارته ، ونماءه وزيادته ، وحتى يملأ قلب المحتاج بالعزة ، ويشعره بالمساواة ، ويسد خلته ، ويطرد من عقله فكرة الإجرام ، ونزعة العدوان ؛ وبذلك يذهب من النفس الميل الى الشيوعية ، والسير وراء مزالقها ، ويعود الى ربوع الأمة ، وأوساط المجتمع ، الهدوء والطمأنينة ، والأمن والسكينة ، ويرفرف عليها علم السلام .

« وذلك دين القيمة » :

أى المذكور من إخلاص العبادة للخالق ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، هو دن الأمة القيمة ، أى المستقيمة السائرة فى الطريق السوى الذى لا عوج فيه .

وإنما خص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من بين العبادات ، لمزيد شرفهما ، ولأنهما يحركان النفس الى الكمال بأداء بقية العبادات .

والمعنى الإجمالى :

إن أهل الكتاب قد تفرقوا عنك ، وصدفوا عن اتباعك ، والحال أنهم لم يطلب منهم على لسانك إلا عبادة الله وتعظيمه ، وإقامة الصلاة على الوجه اللائق ، وإيتاء الزكاة الى مصارفها ، لأنه هو طريق الأمة المستقيمة على نهج الحق ، وسبيل الرشد ، وطريق الفلاح . فإذا صدفوا عنك مع أن هذا شأنك ، كان صدوفهم لا عن ريبة فى أمرك ، وشك فى طريقتك ، بل عن أمراض فى النفوس ، وأهواء فى القلوب ، قوامها الحسد ، وعمادها الكبر ، وأساسها الأثرة والأنانية .

ثم قال الله تعالى :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » .

بيان وجه الربط :

لما ذكر سبحانه وتعالى فيما مضى أن أهل الكتاب والمشركين كفروا بالله ، ثم تفرقوا عن رسول الله عند مبعثه ، وبين شناعة هذا الصنيع منهم ، ووبخهم عليه أشد توبيخ ، شرع يبين بعد ذلك مقرّ هؤلاء الكافرين فى الدار الآخرة .

وقد حكم عليهم سبحانه وتعالى فى الآخرة بأمرين : كونهم فى نار جهنم خالدين فيها ، وكونهم شر البرية .

ومعنى كونهم فى نار جهنم : أنهم يصيرون إليها يوم القيامة ، ويشتركون فى جنس عذابها ، وإن اختلفوا فى نوعه ؛ لأن عذاب أهل الكتاب أشد من عذاب المشركين ، حيث كفروا بعد العلم ، وجحدوا بعد المعرفة . ولذلك بدأ بهم فى الذكر ، لأن جنايتهم أعظم جرما ، وأكثر وزرا .

ويرى بعض المفسرين أن عذاب المشركين أشد ، لأن كفرهم أشد من كفر أهل الكتاب ، لأن الشرك ظلم عظيم . ولكن الراجح الأول .

وقوله : « خالدين فيها » حال مقدرة ، أى حال كونهم مقدرا فيها خلودهم من الله تعالى . وإنما لم يذكر كلمة أبدا ، كما ذكرها فى صفة أهل الثواب ، فيما سيأتى ، للتنبيه على أن رحمته تعالى أزيد من غضبه ا هـ رازى .

وأقول : لعل عدم ذكرها هنا ، للاكتفاء بذكرها فيما سيأتى ، والحذف من الأول لدلالة الثانى عليه وارد فى كلام العرب وإن كان العكس أكثر .

و « شر البرية » معناه : شر الخليقة البشرية أعمالا . وإنما أشار إليهم بكلمة « أولئك » التى يشار بها للبعيد ، لبعد منزلتهم فى الشر .

فإن قيل : كيف يكون هؤلاء شر الخليقة البشرية مع أن فى كفار الأمم السابقة من هو شر منهم : كفرعون وعاقر الناقة وغيرهم ؟

فالجواب : من وجهين : أحدهما أن المراد بالبرية المعاصرون لهم .

وثانيهما : أن المراد أنهم شر بحسب الأعمال . ولا يبعد أن يكونوا بحسب الأعمال هم شر البرية على الإطلاق ، لما أن كفرهم مع العلم بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام ، ومشاهدة معجزاته الذاتية والخارجية ، ومع وعد الإيمان به عليه الصلاة والسلام ، ومع إدخالهم الشبه فى قلوب من يأتى بعدهم ، هى شر كفر وأقبحه . وكذا سائر أعمالهم من تحريف الكلم عن مواضعه ، وصد الناس عنه عليه الصلاة والسلام ، ومحاربتهم إياه ، هى شر الأعمال وأقبحها .

ثم قال الله تعالى :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

بعد أن بين سبحانه وتعالى مقر الأشقياء، شرع يبين جزاء السعداء على سبيل الاستطراد، ليكون أنكى للخصم، وأشد إيلاما.

بيان المعنى التفصيلي :

« آمنوا وعملوا الصالحات ».

« الإيمان » : هو التصديق الذى لا مجال للريب فيه، بكل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم، مما علم من الدين بالضرورة.

والإيمان الحق لا تنطوى حقيقته على الأعمال الصالحة، بل هى زائدة عليه، لكن مناط النجاة مع السابقين مرتبط بهما، فلا يجوز لأحد أن يظن السبق الى الجنات دون أن يؤمن ويعمل الصالحات؛ لأن الله سبحانه وتعالى يخبر بأن الجنات جزاء المؤمنين العاملين، والمراد أنها جزاء السابقين منهم.

والأعمال الصالحة كثيرة لا يتأتى عدها، ولا يمكن حصرها :

فالاتحاد مع المسلمين، والانضمام الى صفوفهم، والأخذ برأيهم - من الأعمال الصالحة التى ترفع شأن الإسلام، وتذود عنه العاديات، وتدفع عنه الملمات.

وإعانة المجاهدين : من الأعمال الصالحة التى ترفه عنهم، وتجدد عزائمهم، وتحيي فى نفوسهم ميت الآمال.

وإغاثة اللاجئين بالإيواء وإذهاب العوز : عمل جليل من الأعمال الصالحة التى تزيد فى وحدة المسلمين، وتبنى لهم على الأحقاب صرحا مجيدا.

ومحاربة المرض والجهل والفقر : من خير الأعمال الصالحة التى تعلى شأن الأمة وتغرس فيها عوامل القوة، وتنشر بينها أضواء المعرفة.

والقضاء على بذور الفتن واجتثاث عوامل الفوضى : من جلائل الأعمال الصالحة التى تؤمن سلامة الأمة، وتسير بها فى طريق الفلاح سيرا حثيثا.

فإذا عبر القرآن الكريم فى هذا الموضع بالتعبير العام، فما ذاك إلا لأنه ينطوى تحته كل أعمال الخير، ويندرج فيه كل أسباب السعادة. فسبحان من هذا كلامه !.

و « البرية » هنا الخليقة كلها . و « الجنات » مغارس الأشجار و « العدن » الإقامة الدائمة ، من عدنت بالبلد إذا توطنته . و « الأنهار » جمع نهر ، وهو جدول الماء العظيم .

ومعنى « تجرى من تحتها الأنهار » : تجرى من تحت أشجارها ، أو تجرى من مكان أسفل منها .

والمراد من الجنة ها هنا دار النعيم فى الحياة الآخرة ، وهى مما يجب علينا الاعتقاد به ، وأن النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذات الدنيا ، وأنها دار خلد من دخلها من أهلها لا يخرج منها أبدا ، وهو معنى : « خالدين فيها أبدا » . ولا يجوز لنا البحث فى حقيقتها ، ولا أين موضعها ، ولا كيفية التمتع فيها ، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله .

ومعنى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » : أنه تعالى رضى عن هؤلاء المؤمنين ، أى تفضل عليهم وأحسن إليهم ، لأنهم لم يخرجوا عن حدود الشريعة ، ولم يهملوا العمل بسنته . ورضوا عنه ، لأنهم يحمدون صنيعه فيهم ، وإحسانه إليهم بسعادة الدارين . فإنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به فى الدنيا فيرضون عنه ، ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله ما لا محل معه للسخط ، فهم راضون عن الله فى كل حال .

ومعنى « ذلك لمن خشى ربه » : أن ذلك الفوز بالنعيم الدائم ، والثواب العظيم ، يكون لمن خاف مقام ربه ، وأخلص العمل لوجهه .

وفى هذا من التحذير من خشية غير الله ، والتنفير من إشراك غيره معه فى الأعمال ما ليس يخفى ، كما أن فيه الترغيب فى تذكر الله تعالى والرهبة منه عند كل عمل من أعمال البر ، حتى يكون العمل مخلصا له من كل شائبة .

نعوذ بالله من أن نشرك معه أحدا ، ونسأله أن يطهر قلوبنا بطهارة الإيمان ، وأن يضىء بصائرنا بأنوار اليقين . والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

لغويات

الخصائص – الخصيصة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد النجار
المدرس فى كلية اللغة العربية

اشتهر هذا الجمع ، ولابن جِنّى كتاب فى فلسفة العربية يسمى الخصائص ، وهو أشهر من أن يذكر . وورد فى رسالة التربيع والتدوير للجاحظ : « وإن هذه الأمور هى خصائصك التى بها تكلف ، ومعانيك التى بها تلهج » . وفيها فى موضع آخر : « وهل بُدّ للحقيقة من خصائص أسباب ، وأعيان علل » . وهذا الجمع مع شهرته فى الاستعمال لم يرد فى معاجم اللغة .

ووقع السؤال عن مفرد هذا الجمع ، وتلمست هذا فى المعاجم اللغوية التى بين أيدينا فلم أقف على شىء ، كما أهمل الجمع نفسه كما أسلفت .

وكل ماوقفت عليه فى هذا أن الزمخشرى فى مفصّله فى مبحث الفعل قال : « ومن خصائصه دخول قد » فقال ابن يعيش فى شرحه له : « وأما خصائصه فجمع خصيصة ، وهى لوازمه المختصّة به دون غيره » . ويبدو أن خصيصة فى الأصل خصيص فى معنى مخصوص ، ثم ألحقت بها التاء علامة على النقل من الوصفية إلى الاسمية ، كالنطيحة والذبيحة والأكيلة . وصوغ فعيل فى معنى مفعول يراه بعض النحويين قياسيا إذا لم يصَغ من الفعل فعِيل فى معنى فاعل ، وهذا الشرط متحقق فى مسألتنا ، ولا يرى بعض النحويين قياسه أبداً .

ومما يذكر فى هذا المقام أن المستعمل فى معنى واحد الخصائص ، الخاصة أو الخاصّية ، وفى رسالة التربيع والتدوير « وما هذه الخاصية التى منعت من هذا المعنى » . وجمع الخاصة الخواص كما لا يخفى .

المطالب تَتْرَى علينا ولا نستطيع قضاءها

ترى هذا الاستعمال كثيرا ، وفيه يستعمل « تترى » فعلا فى معنى « تتابع » .

وفى مجلة الثقافة ص١٠ من العدد ٤٢٧ : « ولكننا وقفنا والدهشة تعقد ألسنتنا، والأسئلة التى تحمل الشك تترى على شفاهنا » . والمعروف فى اللغة أن تكون هذه الكلمة وصفا ؛ يقال : جاءت الخيل تترى أى متتابعة . وللعرب فيها وجهان ؛ فبعضهم يصرفها فينونها ، فيقال . تترًى ، كفتًى . وبعضهم يمنعها الصرف والتنوين فيقال تترَى ، والأول على أن الألف فيها للإلحاق ، والوجه الثانى على أنها للتأنيث . وقد قرىء بالوجهين قوله تعالى فى سورة المؤمنين : « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث ، فبُعداً لقوم لا يؤمنون » ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادة وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن والشافعى تترًى منونا ، وباقى السبعة بغير تنوين . وتترى أصلها وترَى ، أبدلت فيها الواو تاء كما أبدلت فى التخمة والتكلة ، وكالتولج من ولج وأصلها وَوْلج . والتولج كناس الوحش ومشابته . ومن استعمال تترى على وجهها قول البحترى :

أما ترى عود الزمان نضرا ! ترى له طلاقة وبشرا !
أتته ألطاف السحاب تترى وساقت الجَنوب عِنها بِكرا

وقد ورد فى اللغة ترَى الرجل ، يَتْرِى إذا تراخى فى العمل ، فعمل شيئا بعد شىء ، أى أن يكون بين أوقات العمل فترة . ويبدو أن هذا مقلوبُ وتَرَ . وقد بدالى تخريج الأسلوب الذى صدَّرنا به هذا البحث على هذا مع التوسع فى معنى هذه المادَّة ؛ فإن العمل إذا كان شيئا بعد شىء كان ذا أجزاء متقطعة فبان فيه التتابع ، هذا يتبع هذا ، فأما العمل المتصل فهو عمل واحد ممتد . وعلى هذا يقرأ « تترى » بكسر الراء ويكون فعلا مضارعا ، كترمى . وقد ورد فى شعر أبى تمام الطائى :

إن كان وجهك لى تترى محاسنه فإن فعلك بى تترى مساويه

ولا أعرف وجه الرواية فى هذا البيت . فإن قرىء تترى بفتح الراء فالوجه أن تكون خبرا مقدما عما بعدها فى الشطرين ، ويجوز أن تكون تترى فى الشطر الأول خبرا عن كان ، ومحاسنه مرفوع بها ، وفى البيت الثانى خبرا عن إن ، ومساويه مرفوع بتترى فيه . وإن قرىء تترى بكسر الراء فهو فعل مضارع ، كما سلف .

التسوّل

تكثر هذه الصيغة فى هذه الأيام ، فيقال : فلان يتسول أى يسأل الناس ويشحذ طالبا الإحسان والصدقة ؛ ومن قوانين الدولة المصرية قانون حظر التسول . والمعروف فى هذا المعنى السؤال وما تصرف منه ؛ فيقال : فلان يسأل ؛ وفى الكتاب العزيز : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وقال عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وقد مرّ بى فى مطالعاتى أن الشعراء الوافدين على الأمراء ابتغاء جدواهم كانوا يسمَّون السؤّال ، فغيّر بعض أمراء البرامكة هذا اللقب ، ورفعهم عن هونه وذل السؤال ، فقال : سمّوهم الزُّوار . فكان ذلك من أياديه عليهم ، فوق ما كان يحبوهم به من جوائز وألطاف . ويقال فى معنى السؤال : فلان يتكفّف الناس أى يمد إليهم كفه .

وقد بدا لى أن أرد صيغة التسول إلى أصل فى اللغة ؛ ذلك أنه يقال : سال يسال ـ بالألف اللينة ـ فى معنى سأل ، يسأل ؛ قال حسان رضى الله عنه :

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ، ولم تصب !
سالوا رسولهمُ ما ليس معطيَهم حتى الممات ، وكانوا سُبَّة العرب

قال السهيلى [1] : « وقوله : سالت ليس على تسهيل الهمزة فى سألت ، ولكنها لغة » وقرأ نافع [2] وابن عامر : سال سائل بعذاب واقع ، بالألف .

وسال يسال من باب خاف ، يخاف ، فعينه واو ، بدليل أنه يقال : الرجلان [3] يتساولان . وظاهر هذا أنه يقال عند إسناد سال إلى ضمير الرفع : سِلْت ، بكسر السين ، كما يقال : خفت ، وكذلك ورد مضبوطا بالقلم فى كتاب سيبويه [4] ؛ فقد قال : « وبلغنا أن سلت تسال لغة » . وقد جاء فى القاموس ما يستوجب الإنكار ؛ ففيه فى سول : « وسَلْت أسال بفتحها ، سؤالا بالضم والكسر ، لغة فى سألت » ، فإن المعروف فى إسناد الفعل الأجوف الى الضمير أن تضم الواو أو تكسر .

---

(١) انظر الروض الأنف ج ١ ص ١٧١ (٢) انظر البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ ص ٣٣٣
(٣) انظر القاموس واللسان فى سأل (٤) ج ٢ ص ١٧٠

وقد ذهب بعض اللغويين الى أن العين فى سال ياء ، وأنه يقال : تسايل الرجلان ؛ قال السهيلى : « وإذا كانت سال لغة فى سأل فيلزم أن يكون المضارع يسيل ، ولكن قد حكى يونس : سِلتَ ، تسال ، مثل خفت تخاف ، وهو عنده من ذوات الواو . وقال الزجاج : الرجلان يتسايلان . وقال النحاس والمبرد : يتساولان ، وهو مثل ما حكى يونس » وينكر أبو حيان يتسايلان بالياء ، ولا يرى فيها إلا الواو ؛ فقد عقب على كلام الزمخشرى وقد حكى هذه الصيغة بالياء ، فقال : « ثم جاء فى كلام الزمخشرى : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ ، وإنما هو يتساولان . فإن توافقت النسخ بالياء فيكون التحريف من الزمخشرى » . وقد علمت من سياقة كلام السهيلى أن لا تحريف فى كلام الزمخشرى ، فإنه يتبع الزجاج .

وأيًّا ما كان الأمر فالمرجح أن الصيغة من ذوات الواو ، فالتسوُّل تفعُّل منها . وقد صيغ للتكفف هذا البناء ، ليكون على وزانه ومثاله . وليس من همى أن أزعم أن هذا صحيح فى العربية ؛ فإن هذه الصيغة لم أرها فى اللغة ، والصيغ التى تنشأ بالزيادة مرجعها إلى السماع ؛ وإنما الذى يعنينى أن لها أصلا فى اللغة ؛ وهذا هو الذى حاولت إثباته فى هذا المقال .

جاء فورا

يفشو هذا الاستعمال ، فيقال : حضر فورا . والمعروف : أن يقال : جاء من فوره ، وفى الكتاب العزيز فى سورة آل عمران : « أو جاءوكم من فورهم هذا » . قال الزمخشرى : « من قولك : قفل من غزوته ، ورجع من فوره إلى غزوة أخرى ، وجاء فلان ورجع من فوره . . . وهو مصدر من فارت القِدر إذا غلت ، فاستعير للسرعة ، ثم سميت به الحالة التى لاريث فيها ولا تعريج على شىء من صاحبها ، فقيل : خرج من فوره ، كما تقول : من ساعته ، لم يلبث » . وفى حديث محلّم : نعطيكم خمسين من الإبل فى فورنا هذا .

وقد يبدو تخريج هذا الاستعمال بأن يكون الكلام على تقدير محذوف ؛ فقولهم : احضر فورا ، أى حضور فور . وقد عرفت أن ما أثر من كلام العرب ومَن على سننهم على غير هذا الوجه .

علماء البلاغة :

عضد الدين الأيجى

٧٠١ — ٧٥٥ هـ

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمى بأم درمان

« الإمام الهمام ، والحبر القمقام ، البدر الزاهر ، والبحر الزاخر ، حلال علوم الأوائل والأواخر ، المعتضد بحبل الله المتين ، مولانا عضد الملة والدين » كما يقول شارح مختصره طاشكبرى زاده .

ولد الأيجى بعد السبعمائة فى قرية (أيج) من نواحى شيراز ، وأخذ عن مشايخ عصره ، ولازم زين الدين تلميذ البيضاوى ، وأخذ عن الشيخ أحمد بن الحسن الجاربردى ، كما أخذ عنه ثلة من نجباء الطلبة كانوا — فيما بعد — من أكابر العلماء ؛ منهم سعد الدين التفتازانى ، ومحمد بن يوسف الكرمانى ، وقد تلقى على العضد أيام مقامه فى كرمان . ومن تلامذته الضياء القرمى . وفى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة فى ترجمته هذا النص « كان إماما فى المعقول ، قائما بالأصول والمعانى والبيان والعربية ، مشاركا فى جميع الفنون ، كريم النفس ، كثير المال جدا ، كثير الأفضال على الطلبة » . وهو شافعى المذهب ، أشعرى العقيدة ، من كبار رجال الصوفية ، وقد تولى قضاء المالكية فى أيام أبى سعيد ، ولذلك كان يلقب بالقاضى . وقد جرت له فى آخر حياته محنة مع صاحب كرمان فحبسه بالقلعة ، ومات مسجونا سنة ٧٥٣ ، وقيل سنة ٧٥٥ ، وقيل سنة ٧٥٦ ، ورأيت فى كتاب البدر الطالع أنه عين مدرسا فى شيراز . وهو : عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الشيرازى المشهور بالقاضى عضد الدين .

مكانته وعلمه :

هو شيخ الطريقة ، وأستاذ الجيل ، وواضع حجر الأساس فى المنهج الذى يسمونه « التوغل فى المشاحة اللفظية ، والتسلسل فى الحدّية والرسمية » . فقد أطال القاضى فى ذلك إطالة خرجت عن حد المألوف ، فعنى بالتعريفات وتحقيقاتها ، واعترض وأجاب ، وصال وجال ، ويكفى أن تنظر نظرة عابرة فى فى أحد كتبه لترى ما حشاه به من هذه (التحقيقات) . ولاشك أن هذا يدل على ذهنية ثاقبة ، وعقلية فلسفية منطقية ، وأفق واسع ؛ كما يدل على فهم دقيق للألفاظ ودلالتها وطرق استعمالها . وقد عاش العضد فى النصف الأول من القرن الثامن ؛ وهو عصر طغت فيه الشروح والحواشى ، وأصبح هم العلماء أن يرتبوا المعلومات ، وأن يقلبوا العبارات على كل وجوهها ؛ فقد أخذوا نظريات من سبقهم قضايا مسلمة ، وإنما كان أكثر همهم فى مناقشة العرب . وقد سبق العضد جماعة كانت عندهم هذه العناية مثل قطب الدين الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ والخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وعاصره جماعة مثل محمد بن مظفر الخلخالى شارح المفتاح والتلخيص وقد توفى سنة ٧٤٥ ، وتلمذ له جماعة من أمثال السعد ، وكلهم عنوا بالناحية اللفظية ، ولكن كان العضد أبرز المجلين فيه ، فنسبت الطريقة اليه ، وكان سدنتها من بعده تلاميذه .

على أن العضد ليس بالمتخلف فى ميدان العلم اللباب . وإنما له فى تحقيق المسائل الباع الأطول ؛ فقد قرأ - كما يقول - كل ما وقع تحت يده من كتب فى علم الكلام . ونحن نراه ينقل كثيرا عن الجاحظ وابن سينا والرازى والباقلانى وغيرهم من أعلام العلماء الذين سبقوه . وسننقل شيئا من قول العلماء فى بعض كتبه .

وقد كان له مع أستاذه الجاربردى مواقف مشهورة ، ومن ذلك أنه كتب اليه بسؤال فى كلام صاحب الكشاف على قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ، فأجابه أستاذه بجواب فيه بعض الخشونة ، فاعترضه الأيجى باعتراضات وتلاعب به وبكلامه ، ولم ير العلماء فى عمل الأيجى بأسا ، لأن أستاذه لم ينصفه حتى يستحق التأدب معه . قال السيوطى فى بغية الوعاة : ذكرنا فى الطبقات الكبرى ما كتبه لمستفتى أهل عصره فيما وقع فى الكشاف فى قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ،

وما كتبه الجاربردى عليه ، وما كتبه هو على جواب الجاربردى ، وأطلنا الكلام فى ذلك . ونقول نحن : ليت الطبقات الكبرى بقيت لنا حتى نرى هذه المساجلة العنيفة بين تلميذ وأستاذه ! . ويقال إن ابن الجاربردى أجاب عن اعتراضات الأيجى فى كتاب له مستقل .

ولعل مما يصح أن نلتفت اليه هنا ما نراه من انتصار الأبناء والأحفاد للآباء . وقد سبق أن ذكرنا رواية تقول إن حفيد السعد انتصف له من السيد ، وإنه أحرجه فى عدة مواقف انتقاما لجده . فهذه العصبية العلمية ـ وإن كانت ربما لجأت الى الجدل أكثر من عنايتها بنصرة الحق ـ تدلنا على ما كان يشغل أذهان العلماء فى تلك الأوقات من المنافسات العلمية ، والمناظرات الأدبية ، حتى يتوارثها الأبناء عن الآباء .

على أن هذه العصبية لم تكن عصبية النسب فحسب ، بل طالما تعصب تلميذ لأستاذه ؛ وفى تاريخ العلوم أمثلة كثيرة نكتفى هنا بواحد منها : حدثوا أن سيبويه لما انهزم فى مناظرته مع الكسائى فى مجلس خالد بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، اغتم ومضى الى فارس ، وأبى أن يرجع الى البصرة مقره ، ثم استقدم تلميذه سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ، وشكا إليه ما أصابه ، فعزم الأخفش على أن يثأر من الكسائى فقصده فى بغداد ، وسأله أمام تلاميذه ، وخطّأه فى إجابته حتى هم التلاميذ أن يفتكوا به ، لولا دهاء الكسائى وكياسته . وعلى كل فالأخفش لم ينل من الكسائى وطرا .

تأليفه ومؤلفاته : عنى عضد الدين ـــ كما أسلفنا ـــ بنهج المدرسة الكلامية فى التأليف ، فكان شيخ شيوخها ، وهو يسلك فى تأليفه مسالك التحقيق ، ويسعى جهده فى طلب التوفيق ، ولا يفوته أن يحدثنا عن طريقة تأليفه ، فهو يقول فى مقدمة كتابه المواقف : « ولم آل جهدا فى تحرير المطالب ، وتقرير المذاهب ، وتركت الحجج تتبختر اتضاحا ، والشبه تتضاءل افتضاحا ، ونبهت فى النقد والتزييف ، والهدم والترصيف ، على نكت هى ينابيع التحقيق ، ونقر تهدى الى مظان التدقيق ، وأنا انظر من الموارد الى المصادر ، وأتأمل فى المخارج قبل أن أضع قلمى فى المداخل ، ثم أرجع القهقرى أتأمل فيما قدمت هل فيه من قصور ، وأرجع البصر

كرة بعد أخرى هل أرى من فطور، حافظا للأوضاع، مشبعا فى مقام الإشباع ». ذلك - لعمرى - دستور فى التأليف كأحدث الدساتير؛ ولو أن كل مؤلف أخذ نفسه به لجاءنا علم وخير غزير، ولكن المؤلفين يكتفون باللمحة العابرة، والإشارة الفاترة، وحسبهم أنهم مؤلفون !

وقد عُنى عناية خاصة بعلم الكلام، بل كان ميدانه الذى برز فيه، وقضى أكثر دهره يدرس فيه ويجادل ويؤلف، وهو يأخذ نفسه هذا المأخذ، لأن علم الكلام أنفع العلوم وأجداها، وأحقها بعقد الهمة بها، وصرف الزمان إليها؛ لأنه علم تكفَّل بإثبات الصانع وتوحيده، وتنزيهه عن مشابهة الأجسام، وإثبات النبوة التى هى أساس الإسلام، وبه يترقى الإنسان فى الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد إلى درجة الإيقان، ومن واجب العاقل أن يشتغل بالأهم عن المهم، وأن يتطلب فى دراسته أتم فائدة. وهو يرى أن أفضل ما يشغل به الإنسان نفسه هو أن يفرغ مجهوده للحياة العقلية، لأن الإنسان لا يفضل الحيوان ولا النبات لأنه يشترك معها فى النمو والتغذى، بل يشترك مع الجماد فى شغل قدر من الفراغ؛ فلا يفضل شيئا من هذه إلا بالقوة الناطقة، فعليه أن يستغل هذه القوة فى الدراسات العقلية، وأهم هذه الدراسات دراسة علم الكلام، وله كتابان: أحدهما « العقائد العضدية » وعليه حاشية للشيخ محمد عبده، وهو يدرس الآن فى الأزهر، وعليه شرح للشيخ السمرقندى؛ والآخر « المواقف »، وهو كتاب ذو شهرة واسعة، يقول فيه الشوكانى: « يقصر عنه الوصف »، ويقول صاحبه فى وصفه: « كتبت هذا كتابا مقتصدا، لا مطولا مملا، ولا مختصرا مخلا، أودعته لب الألباب، وميزت فيه القشر من اللباب، حتى جاء كلاما لا عوج فيه ولا ارتياب، ولا لجلجة ولا اضطراب، متناسبا صدوره وروادفه، متعانقا سوابقه ولواحقه ». وقد وفى هذا الكتاب حقه من البحث والتحليل الدكتور محمد غلاب فى مجلة الأزهر، فى المجلد الثانى عشر؛ العددين الأول والثانى. وقد شرح هذا الكتاب السيد الشريف الجرجانى، وكتب عليه العلامه عبد الحكيم السيالكوتى حاشية جليلة، كما كتب عليه حسن جلبى حاشية أخرى، وهذا الشرح مع الحاشيتين مطبوع فى مصر. ومن كتبه المفيدة كتاب شرح مختصر

المنتهى ، وننقل هنا ما كتبه العلامة الشوكانى فى كتابه البدر الطالع وصفاً لهذا الكتاب ؛ قال : « وله شرح مختصر المنتهى ، وقد انتفع الناس به من بعده ، وسار فى الأقطار ، واعتمده العلماء الكبار ، وهو من أحسن شروح المختصر ، مَن تدبره عرف طول باع مؤلفه ، فإنه يأتى بالشرح على نمط سياق المشروح ، ويوضح ما فيه خفاء ، ويصلح ما عليه مناقشة من دون تصريح بالاعتراض ، كما يفعله غيره من الشراح ، وقل أن يفوته شىء مما ينبغى ذكره ، مع اختصار فى العبارة يقوم مقام التطويل » .

أما أسلوبه فهو أسلوب متكلم واسع الأفق ، وهو منظم إلى حد بعيد ، ومرتب لكتبه على أبدع مثال ، ولا ينسى فى مقدماته سُنة العلماء من امتداح طريقته ، والثناء على عمله ، والنعى على مؤلفات من سبقه ، ومراعاة حسن الافتتاح ؛ والاحتفال بالتورية والسجع عنده لازم ؛ فهذه — مثلا — عبارة له فى بعض مقدمات أحد كتبه البلاغية « الحمد لله الذى كشف عن وجوه المعانى ببديع البيان قناع الحقيقة والمجاز ، وأدرج أسرار البلاغة فى كلامه ليكون من دلائل الإعجاز » . كما لا ينسى أن يتحدث عن نظر أهل عصره إلى العلم الذى يؤلف فيه ، فيقول عن علم الكلام : « وإنه فى زماننا هذا قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريا ، لم يبق منه بين الناس إلا قليل ، ومطمح نظر من يشتغل به على الندرة قال وقيل » .

كما لاحظت أنه يلتزم بتقديم كتبه الى الوزراء والسلاطين ، حتى لقد سمى بعضها باسم بعضهم ، وهذا شىء معروف فى تلك العصور ؛ غير أن الجديد عند العضد المبالغة الممقوتة فى مدح المقدم إليه الكتاب ، فهو يقدم كتاب المواقف الى « أعظم من ملك البلاد ، وساس العباد ، من شيد قواعد الدين بعد أن كادت تنهدم ، واستبقى حشاشة الكرم حين أرادت أن تنعدم ، محرز مكارم الأكاسرة بالإرث والاستحقاق ، جمال الدنيا والدين أبى إسحاق » . وهو يطيل فى ذلك إطالة مملة ، ثم يختم كلامه بهذا الدعاء « لازالت الأفلاك متابعة لهواه ، والأقدار متحرية لرضاه » . ولكن هذا الدعاء لا يرضى السيد الجرجانى فيعقب عليه بقوله : هذا دعاء قد شاع فى عباراتهم ، لكن الاحتراز عن أمثاله أولى ، إذ فيه مبالغة غير مرضية ! .

وهذا ـ لعمرى ـ تأدب لطيف من السيد ، ولكن الحق أن هذه عبارات نابية جد النبو ، لا سيما فى مقدمة كتاب ألف فى توحيد الله وتنزيهه .

وقد تأثر تلاميذه بهذه السنة ، فنرى السعد يقدم المطول الى « ظل الله على الأنام ، مالك رقاب الامم ، خليفة الله فى العالم ، غياث الإسلام ، ومغيث المسلمين ، أبو الحسين محمد كرت » . ويقدم المختصر الى « حضرة من أنام الأنام فى ظل الأمان ، وأفاض عليهم سجال العدل والإحسان ، السلطان الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، ملاذ سلاطين العرب والعجم ، أبو المظفر السلطان محمود جانى بيك خان » . والسيد الشريف يقدم كتابه شرح المواقف الى « حضرة المولى السلطان الأعظم ، والخاقان الأعلم الأكرم ، مالك رقاب الأمم ، من طوائف العرب والعجم ، ملجأ سلاطين العالم بالاستحقاق ، ومفخر أساطين بنى آدم فى الآفاق ، السلطان المؤيد غياث الحق والدولة والدين بير محمد اسكندر » . هذه فقر قصيرة من عبارات طويلة كتبها هؤلاء الفضلاء فى تقديم كتبهم ، ومع أن إدخال التفخيم فى الألقاب ، والغلو فى الخطاب مما أدخله العجم الى العربية منذ دخلوا فيها من زمن بعيد ، إلا أنا كنا نود أن يقف هؤلاء العلماء عند حد فى المديح ، وأن يكونوا قدوة أهل زمانهم فى الاعدال فى مخاطبة السلاطين والأمراء . وما أجل الإمام الكرمانى صاحب شرح البخارى ؛ فقد ذكروا فى سيرته أنه كان غير مكترث بأهل الدنيا ، ولا يلتفت إليهم ، يأتى إليه السلاطين فى بيته ، ويسألونه الدعاء والنصيحة . ومثله من العلماء كثير ، وإنما خصصته بالذكر لأنه تلميذ من تلامذة العضد ، كما قدمت .

ولقد أعجبنى أيما إعجاب وصف الإمام العضد لبعض الكتب التى طالعها فى زمانه : وإنما اعجبنى هذا الوصف لأنه ينطبق تمام الانطباق على كثير من مؤلفات زماننا ؛ وسنضع هذا الوصف أمام المغرورين لعلهم يجدون فيه حافزا على استكمال النقص ؛ قال : « وإنى قد طالعت ما وقع لى من الكتب المصنفة فى هذا الفن ـ يريد علم الكلام ـ فلم أر ما فيه شفاء لعليل ، أو رواء لغليل ، سيما والهمم قاصرة ، والرغبات فاترة ، والدواعى قليلة ، والصوارف متكاثرة ، فمختصراتها قاصرة عن إفادة المرام ، ومطولاتها مع الإسآم ، مدهشة للأفهام .

فمنهم من كشف عن مقاصده القناع . وقنع من دلائله بالإقناع ؛ ومنهم من سلك المسلك الشديد ، لكى يلحظ المقاصد من مكان بعيد ؛ ومنهم من غرضه نقل المذاهب والأقوال ، والتصرف فى وجوه الاستدلال ، وتكثير السؤال والجواب ، ولا يبالى إلام المآل ؛ ومنهم من يلفق مغالط لترويج آرائه ، ولايدرى بأن النقاد من ورائه ؛ ومنهم من ينظر فى مقدمة مقدمة ويختار منها ما يؤدىء إليه بادىء رأيه وربما يكر بعضها على بعض بالأبطال ، ويتطرق الى المقاصد بسببه الاختلال ؛ ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ، ليظن به أنه بحر زخار ؛ ومنهم من هو كحاطب ليل ، وجالب رجل وخيل ، يجمع ما يجده من كلام القوم ، ينقله نقلا ، ولا يستعمل عقلا ، ليعرف أغث هو أم سمين ، وسخيف ما ألقاه أم متين » .

قلت : وهذا الصنف الأخير كثير عندنا ، ومنتشر فى بلادنا ؛ وبقى نوع جديد : أولئك الذين يسطون على آراء غيرهم من الباحثين ، ثم ينسبونها لأنفسهم ويتعالمون بها ، وأكثر المؤلفين من ناشئة جيلنا لا يخرجون عن هذا الفريق . !

عمله فى البلاغة :

للعضد فى البلاغة بعض المؤلفات ، ولكن إفادته للبلاغة كانت فى ميدان غير ميدان البلاغة نفسها ؛ فليس له فى هذه العلوم باع طويل ، والبلاغة قد ارتبطت علميا - منذ زمن بعيد - بعلم الكلام ؛ فإذا أفاض العضد وهو يؤلف فى هذا العلم ، أو وهو يدرس لتلاميذه ، فى تلك النواحى التى قدمنا الإشارة اليها ، فإنما يخدم بذلك علوم البلاغة من طريق أخرى ، والبلاغة والكلام علمان كانا ميدانا فسيحا للمنطق والفلسفة ، ولا سيما بلاغة العجم ؛ على أن أكثر المؤلفين فيها من زمن قديم كانوا من علماء الكلام ، وحسبنا السكاكى والزمخشرى والجاحظ .

فلا شك فى أن تلاميذ العضد قد استفادوا من بحوثه المنطقية والفلسفية فى كتبه الكلامية ، وقد درسوا البلاغة على هذا الضوء . ولست الآن بصدد بيان مدى نفع هذه الطرق أو ضررها ، فقد قلت فيها ؛ أما كتبه فى البلاغة فقليلة الفائدة ، عديمة الجدوى ، وربما كان لها فى عصره شأن ، فقد نهج منهج الاختصار ، ويبدو أن الأذهان كانت غير مستعدة للدراسة العميقة فى فنون البلاغة ، فسهل عليها الطريق ، كما كان يفعل الخطيب فى مصر والشام ، كان يعمل هو فى بلاد المشرق ،

والخطيب قد سبقه ، ولكن ظنى أنه لم يطلع على تلخيصه ولا إيضاحه . وواضح مما كتبنا أن كلا منهما اعتمد على كتب عبد القاهر ، وعلى مفتاح العلوم بالطبع .

وله فى البلاغة :

١ — الفوائد الغياثية : وهو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح ، وبمقارنته بتلخيص الخطيب نجده أخصر منه ، ويبدو اختصاره فى إهماله لكثير من المصطلحات التى تعرض لها الخطيب ، وفى اكتفائه بأمور عامة فى مباحث العلوم ؛ وقد قدم هذا المختصر إلى الوزير الكبير « غياث الدين محمد بن سلطان الوزراء رشيد الدين » ، وصرح فى خطبته بالغرض الذى حدا به إلى هذه الطريقة من التأليف فقال : « هذا مختصر فى علمى المعانى والبيان ، يتضمن مقاصد مفتاح العلوم ، سميته بالفوائد الغياثية ، تيمنا باسم من ألقى اليه الدهر قياده ، وقام بأمر الملك بأيد فما آده » ، ثم يذكر أنه أراد لهذا الوزير أن يحصل دراسة البلاغة دون كد ولا عناء ، وأن يحظى فى أقصر وقت بإدراك مسائلها ، ومعرفة قواعدها « فيقضى منها وطره فى أقصر مدة ، ولا يعرج عليها إلا إناخة راحل مشمر عن ساق الجد لتدبر لطائف كتاب الله وفوائده ، والغوص فى تيار بحار عويصاته لاستخراج فرائده » . وإن هذا الصنيع من العضد ليرجع بنا إلى القرن الرابع يوم ألف الحسن بن أحمد أبو على الفارسى كتاب (الايضاح) فى النحو ، وقدمه إلى عضد الدولة البويهى فاستقصره عضد الدولة ، وقال : مازدت على ما أعرف شيئا وإنما يصلح هذا للصبيان !! فمضى وصنف (التكملة) وحملها إليه ، فلما وقف عليها قال : غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو !! ولكن شتان بين عصرين ، وبين عاهلين . ولا غرو فعضد الدولة كان مشغفا بالعلم ، حتى لقد سأل أبا على نفسه وهو فى الميدان عن ناصب لمستثنى ، وجادله فى ذلك ، وقال أبو على : إنه جواب ميدانى ، ثم رجع عن رأيه حين رجع إلى كتبه ! .

وعلى « الفوائد الغياثية » شروح ، أشهرها شرح طاشكبرى زاده ، وهو شرح حافل ، ثم اختصر زاده هذا الشرح . وممن شرحه الكرمانى ، وسماه (تحقيق الفوائد) والفنارى ، والجرجانى السيد ، والصفوى وآخرون .

٢ ــ المدخل : وهو رسالة صغيرة الحجم ، تبلغ خمس ورقات ، اختصر فيها العلوم الثلاثة اختصارا مخلا ، وقد ذكر بعد الديباجة : هذا مختصر فى البلاغة وتوابعها ألفته كالمدخل فى الكتب المبسوطة ، وقد شرحه شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد بن فضل العدنى .

٣ ــ أرجوزة : ذكر فى أولها أنها نظم للمختصر « يعنى المدخل » ، وأنها تضمنت علم المعانى والبيان والبديع ، ولكن الذى رأيته منها نحو العشرين بيتا ، لم تتناول غير مقدمة علوم البلاغة : تعريف البلاغة ، والفصاحة ، فى الكلمة والكلام والمتكلم ؛ وذكر العلوم التى يحتاج اليها فى دراسة البلاغة : اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، كما هو معروف ؛ ووقف عند ذلك . والأرجوزة فى الصفحة ونصف الصفحة من القطع الصغير ، ومطلعها :

قال الفقير عابد الرحمن الحمد لله على البيان
وأفضل الصلاة والسلام على النبى أفضل الأنام
فهذه أرجوزة مثل الجمان ضمنتها علم المعانى والبيان
لخصت فيها ما حوى التلخيص مع ضم زيادات كأمثال اللمع
ما بين إصلاح لما قد ينتقد وذكر أشياء عليها يعتمد

ومن هذا نفهم أنها أرجوزة كبيرة ، ولكن لم يوجد منها غير ما ذكرت ، ولعل بعض القراء يعرف شيئا عن بقية هذه الأرجوزة ؛ فإنها كما يبدو من ابتداء حاوية مفيدة .

والمدخل والأرجوزة وشرح المدخل فى نسخة مخطوطة فى مجلد واحد بالمكتبة الأزهرية .

ويندر أن نجد للعضد رأيا فى شىء من المسائل البلاغية ، وربما رجح بعض الآراء كقوله فى آخر الفوائد : « فأصل الحسن فى الكل أن يتبع اللفظ المعنى ، لا المعنى اللفظ ، وإنما هو بترك التكلف » .

ولئن كان العضد لم يترك آثارا ذات بال فى البلاغة ، فقد ترك تلاميذ خدموا هذه العلوم ـ على طريقته ـ أجل الخدمات ؟

شعـــــــراء الازهر

السيد حسن القاياتى

رأى الأستاذ البشرى فيه

زَيّن العلمُ المحضُ ، والأدبُ الوَفرُ ، لفضيلة الأستاذ الأديب العالم الكبير ، الشيخ عبد الجواد رمضان ، الأستاذ بكلية اللغة العربية ، أن ينتظم الأديب الكبير الأستاذ السيد « حسناً القاياتى » فى عقد نفثاته الأدبية « شعراء الأزهر » ، فأعجب وأطاب ، وحكم فأصاب ، وإذا شاعره بهذا التنويه شاعر فَرْد ، حياته الخُلد !!!

ثم تخير الأستاذ عبد الجواد أن يجعل حديث الشاعر الفحل الأستاذ « محمود غنيم » إلى حديث السيد حسن القاياتى ، لبعض المشابِه بينهما من الجزالة والرقة ـ فيما يرى ـ فاجتلب ذكره معه اجتلابا ، ليسايره به ، ثم يباريه بأدبه ، وضرب للموازنة المثل ، فاحتفل .

أجل : لقد عقد الأستاذ الموازنة والمباراة بين الأديبين ، فقضى للشاعرين معاً بالإبداع السائد البحت ، ثم قضى كذلك بأنهما يذهبان بالجزالة والرقة معاً ، بيدأن السيد حسناً القاياتى عنده أشبه بالجزالة من « غنيم » وتلك ميزته ، وأن « غنيما » عنده أشبه بالرقة من القاياتى : تلك ميزته ؛ فإن أرسى القاياتى جبلا ، تحدر « غنيم » نهراً .

ثم عقّب على أثر الأستاذ عبد الجواد رمضان الكاتب المقتدر ، والفريد المطراب ، الأستاذ السيد العنانى ، فكانت له معه مراجعة ساحرة ، وحوار جزل ، برز فيه فانتصف ولم يتخلف ؛ بيد أنه كان من رأى الأستاذ العنانى ـ خلافاً على صاحبه ـ أن الشاعرين من واد واحد ، وطراز فى القديم متوحد ، لاتجمل الموازنة بينهما ، ولا معارضة أحدهما بصاحبه ، وإنما التعارض بمختلفين لامتفقين : هذا

إلى أن الجزالة لدى الأستاذ العنانى، هى والرقة تِرْبان، كالحسن والحب شَدّما يجتمعان، والشفاه وقُبل الخدود يلتقيان، وقضى بأن شعر القاياتى كما ذهب بالجزالة، استأثر بالرقة، كما يتفجر الصخر، عن النهر، وتبسم الصخرة، عن الزهرة.

جرى هذا الحوار الأدبى كله بين الكاتبين المحسنين على صفحات «مجلة الأزهر» العصماء، ثم وقف كاتب هذه اللمحة الجائزة، بعد آونة متباعدة، على نفثة فاتنة سحارة، للكاتب الكبير الخطير «الشيخ عبد العزيز البشرى» برَّد الله فيه لجيعة البيان والعروبة، يصف بها بيان السيد حسن القاياتى، فيغْرق فى تحلية أدبه بالجزالة، والرقة - معاً - كأنه ليس بينهما عنده وعند الحق فرق.

لقد كان إذن رأى الأستاذ البشرى يشهد لنزعة الأستاذ العنانى، وينصر رأيه القائل بأن الجزالة والرقة فرَسا رهان، فى الإحسان، وأن السيد حسناً حرىٌّ وقد ذهب بجزالة حقة، أن يذهب بالرقة.

من أجل هذا اقترح، فأرجو أن تتفضل صحيفة الدين المتين، والقول المبين، «مجلة الأزهر» العصماء، بالإذن فى نشر كلمة الأستاذ البشرى هذه، لتكون حَكما بين الكاتبين، فيْصَلاً فى الرأيين.

«الطائر المحكى»

كلمة الأستاذ البشرى عن السيد حسن القاياتى :

قال الأستاذ البشرى :

لو تهيأ للبيان أن يتمثل خَلْقاً، لما جمع بيان السيد حسن القاياتى، إلا على صورة صاحبه، وفى مثل شكله ودَلّه، سواء بسواء، ولو لم يكن قُدِّر لى أن أرى السيد حسناً، ثم رأيتُه، بعد أن نهلت من بيانه، لخُيِّل إلىَّ أن أتهدَّى وحدى الى أن هذا الإنسان، صاحبُ هذا البيان!!!

عرفت السيد من صدر أيام الطلب فى الأزهر، وسرعان ما امتد بيننا حبل المودة، فكان من يومَ منجَمه - وصل الله فى عمره - يُرسل الكلام، ويقرض الشعر، إذ شعره وإذ نثره صورة صادقة حق الصدق، لسلاسة نفسه، وجزالة طبعه، وحلاوة خُلقه؛ بل إنك لتحسُّ فى بيانه بالحياء الذى تحسه فيه نفسه!!!

بعد هذا ضَعْ بيان السيد حسن القاياتى ، حيث يحلو لتقديرك ؛ ضعه فى الدرجة الأولى أو ما فوقها ، أو تخلف به عنها ، فلكل من الناس مذهبه فى تقدير أصحاب الفنون ، ولكنك على أى حال تراك مرغما على أن تقضى بأن بيان السيد حسن إنما هو صورة تامة الصدق لما يعتلج فى نفسه ، وما يتدسى فى أطواء قلبه ، وهذا الضرب من أهل البيان كُلٌّ قليل ! ! !

وهذه المزية ، ولك أن تدعوها الموهبة ، إنما تنشأ فى أصلها بالفطرة ، وتنجم مع الطبع ، ما يُجدى فى خلقها تفكير ولا تهذيب ، على أنها تربُو وتستحصد بعد ذلك بطول التدريب والتمرين ، حتى ما يجد صاحبها فكاكا من صدق التعبير عما يحيك فى نفسه من نزعات الإحساس ، وكذلك السيد حسن القاياتى .

ولعل مما أبلغ السيد حسناً هذه المنزلة ، بعد توفُّر الأمرين له ، أنه نشأ فى بيت حسَب ، فهو يأنف من أن يرائى الناس ، ويبادلهم بما لا يراه حقا ، وأن الله تعالى بسط له فى الرزق ، فهو غنى عن ترضى الناس بالحق وبالباطل ! ! ! طلباً للمنزلة فيهم ، والتماساً للمعروف عندهم .

هذا إلى أنه رجلٌ رقيق الحسِّ ، مهذَّبُ العاطفة ، جميل منزع النفس ، ومن كان له كلُّ هذا ، فهو أجلُّ مَحَلاًّ من أن يكذب على عواطفه ، ويَفترىَ على ما يجول فى صدره من نوازع الوجدان .

يدُلُّك على هذا من بيان السيد ، إن كنت محتاجاً فيه إلى بيان ، أنك تراه يتغزل ، وأكثَرُ شعره فى الغزَل ، فيطلع عليك بأرق الكلام ، وأعذبه ، حتى ليخيَّلُ إليك أنه لا يقول شعرا ، ولكنه ينفثُ سحراً ! ! ! ومع هذا لا ترى فى نسيبه عُنفاً ولا عَرْبَدَةً ، على نحو ما يصنع متكلفو الغزَل من الشعراء ! ! ! ؛ ذلك بأنه ترجَم عَن حسِّه فحَسْبُ ، فلم يتكلف ، ولم يَتَعَمَّلْ لاصطياد المعانى النائية ، ولم يتعمد المبالغات النَّابيَة ، ليُزَيِّن بها نظم القريض ؛ وإذا كنتَ ممن يعرفون السيد القاياتى وما أوتِى من وَداعة الطبع ، وارتياح النفس ، آمنتَ من فَوْرك بصحة هذا الكلام .

لذلك ترى مقالاته فى مقامات القول المختلفة ، فلا ترى على بلاغة النَّظم

ونصاعة الديباجة ، وإشراق الكلام ، إلا قولاً وادعاً ليّناً ، لا أثر فيه للصّراع ، وخاصّة فى مقام النّقاش والخصام !!!

وإذا كان بعض كرام المتأدبين قد تقدم اليوم بجمع طائفة من مقالات السيد وطبعها ، فإنه بهذا لقد أسدى منة جليلة إلى الأدب ، وعقد الجميل فى أعناق الجيل ، والأجيال اللاحقة ، وسوّى ذخيرة تضاف إلى ذخائرنا ، وأخرج مفخرة تُضَمّ إلى مفاخرنا .

أدام الله السيد حسناً القاياتى ينبوعاً صافياً من ينابيع الأدب الصافى .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

« عبد العزيز البشرى »

ذكرى

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حج ، فلما كان بضجنان (١) قال : لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، المعطى من شاء ما شاء ؛ كنت فى هذا الوادى فى مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصّرت ، وقد أمسيت الليلة ليس بينى وبين الله أحد ؛ ثم تمثّل :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويُودى (٢) المال والولد
لم تُغنِ عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والجن والإنس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها من كل صوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوما كما وردوا

(١) ضجنان : جبل قرب مكة . (٢) يودى : يذهب

أبو طالب بن عبد المطلب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

تحفزنى رغبة شديدة ملحة إلى مواصلة الكتابة فى أبى طالب بن عبد المطلب ، واستخراج مواطن العبر وإبراز مكامن العظات من حياته . وما أكثر ما تجلى فيها من عبر ، وما أعظم ما برز منها من مواعظ .

وإنى لأشعر فى أعماق قلبى بإجلال عظيم واحترام كثير لهذا الرجل — على أنه مات ولم يستجب لدعوة الرسول ، ولم يملأ بنورها قلبه فى رأى الثقات المحققين — فقد وقف وراء الرسول صلوات الله عليه ، كالصخرة المنيعة العاتية ، يذود عنه كيد الكائدين ، ويدفع عدوان المعتدين ، ويناضل خصومه اللدّ الضالين ، دون أن يهن عزمه ، أو تتخلف شجاعته ، أو يتخاذل حرصه ، وطالما بذلوا له ألوانا من الوعود ، وتقدموا إليه بفنون من الإغراء علّه يسلم لهم محمدا ؛ ولكنه كان يقول لهم : يا معشر قريش ! والله ما أنصفتمونى : تعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ! . ولقد أثار رده هذا عليهم وموقفه منهم ثائرتهم ، وملأ نفوسهم ضغنا وحفيظة ، فتواعدوا وتعاهدوا على الإيقاع بالمسلمين ، وسومهم الخسف والهوان ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من أتباع محمد تعذبهم وتفتنهم عن دينهم ، وتحاول جاهدة حانقة أن تصرفهم بالقسوة والفظاعة عن هداية الله ونور رب العالمين .

أرادت قريش بذلك أن توغر صدر أبى طالب وتثير حفيظته ، حتى تتدافع الأحداث وتتكاثر الوقائع ، ويصبحوا أمامه وجها لوجه . وأدرك ذلك أبو طالب وهو الرجل الحصيف ، فقام يتألف إليه القلوب ، ويتكثر بالأنصار ، حتى يوقع الرعب فى قلوبهم ، ويصدهم عن وجهتهم : .

دعا بنى هاشم وبنى المطلب ليدخلوا معه فيما هو فيه من منع محمد والقيام دونه، وخاطب قلوبهم وعواطفهم، وناشد قرابتهم وعصبيتهم، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا أبا لهب؛ فقد كانت شياطين السوء التى تنبح فى صدره، والأضغان التى تعربد فى نفسه، تمنعه من الإنصات لداعى الدين، أو عاطفة القربى، أو خالجة الرحمة.

وعلى الرغم من أن أبا طالب ظل يتألف نافر وُدِّه، ويروض شامس إخائه، ويتوسل إليه بقصائده وأشعاره، فلم يؤثر عن أبى لهب خير إلا مرة واحدة كان قد غفل فيها شيطانه وهجعت شروره؛ فإن أبا مسلمة بن عبد الأسد كان قد استجار بأبى طالب لما اشتد به أذى القوم وعذابهم، وهذا الرجل تجمعه بأبى طالب رابطة القرابة؛ لأن أمه مخزومية. ولما أجاره أبو طالب مشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا: يا أبا طالب ما هذا؟ منعت عنا ابن أخيك محمداً فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجارنى، وإنه ابن أختى، وإن لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى. فأكثروا عليه. وهنا يقوم أبو لهب فيقول: يا معشر قريش! لقد أكثرتم على هذا الشيخ، وما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه؛ والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ما أقام فيه حتى يبلغ ما أراد. قالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. وكان أبو لهب وليهم وناصرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبقوا على ذلك. وقد استثار هذا الموقف العجب طمع أبى طالب وأمله فى أن يقوم معه أبو لهب فى نصرة محمد والوقوف دونه. فأرسل إليه يحرضه على ذلك بقوله:

وإن امرأً أبو عتبة عمه ... لفى معزل من أن يسام المظالما
أقول له وأين منه نصيحتى ... أبا عتبة ثبت سوادك قائما
فلا تقبلن الدهر ما عشت خطة ... تسب بها إما هبطت المواسما

ولكنها كانت هجعة غلبت على شياطين أبى لهب، ثم استيقظت بعدها أبد الدهر فلم تعد تغفو أو يمر بها الوسن. وتمر الأيام وتتابع الحوادث وأبو طالب فى موقفه من حماية الرسول كالجبل الأشم، لا تنال منه العواصف الهوج، ولا تؤثر

فيه الرياح النكباء وكلما عظم أمر محمد وكثر أتباعه وأنصاره ، أوغلت قريش في النكاية واشتطت فى العدوان . ولما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أتباعه المضطهدين وأنصاره المعذبين أن يهاجروا إلى الحبشة ، فإنها أرض صدق ، وبها ملك لا يظلم عنده أحد . وانطلق فوج من المسلمين الى الحبشة وفيهم جعفر بن أبى طالب وزوجته .

فهذا ولده وفلذة كبده ، يفارقه الى بلاد غير بلاده ، وقوم غير قومه فلا يغضب ولا يتألم ، بل يؤثر عنه أنه قال قصيدة يخاطب فيها النجاشي ويحضه على حسن جوارهم ، واستضافتهم . ولعل هذه القصيدة التى ذكرها ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة — إن صحت نسبتها الى أبى طالب — يكون المقصود بها تنبيه قريش والمهاجرين خاصة الى كرم النجاشي وسعة صدره ، حتى لا يلجوا فى الشماتة والإيذاء .

أثارت مواقف أبى طالب حفائظ قريش ، وحركت كامن أضغانها ، فاجتمع رءوس الكفر ودعائم الشرك ، وتشاوروا فيما بينهم ، وقال قائلهم : يا معشر قريش إن الاسلام قد اعتز بعمر وحمزة ، وإن أنصار محمد قد أصبحوا من القوه والكثرة بحيث يخشى شرهم ولا يؤمن بأسهم ، وهذا الشيخ يحميهم وينافح عنهم ، ويقوم دونهم فى السراء والضراء ، فتدبروا فى الحيلة ، وفكروا فى المخلص .

وأخيرا تعاهدوا واتفقوا ـ وما أكثر ما تعاهدوا واتفقوا ـ تعاهدوا على أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم شيئا ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم . فلما تم لهم ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شيعه . وفى ذلك يقول أبو طالب .

ألا أبلغا عنى ـ على ذات بينها ـ لُؤيًّا وخُصا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُط فى أول الكتب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الزبى ويصبح من لم يجن ذنباً كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حربا عوانا وربما أمر على من ذاقه حلب الحرب

فلسنا وربِّ البيت نُسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب

ومع ذلك فقد مضت قريش فى خطتها ، فأحكمت كتابة الصحيفة والقيام على تنفيذها ، فمكث بنو هاشم فى الشِّعب ثلاث سنين تكبدوا فيها من الآلام والمتاعب والجوع والحرمان ما يمضُّ القلب ويحرق الكبد ، وينهك أقوى النفوس جلداً ومصابرة . ثم شاءت إرادة الله أن تختلف قريش فيما بينها على الاستمرار فى المقاطعة ، وقام من بينهم بعض نفر يطلبون نقض الصحيفة ؛ وأوحى الله إلى رسوله أن الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » فأخبرَ بذلك عمه أبا طالب فقام إلى القوم من فوره فأخبرهم ، فنظروا فى صحيفتهم فوجدوها كما أخبر ، فانتهوا عن القطيعة ونزلوا عما فيها .

وما زال أبو طالب ثابتاً فى موقفه من حماية الرسول ، تحسب قريش حسابه ، وتخشى إغضابه ، حتى مات فى أوائل السنة الحادية عشرة للبعثة ، وكان موته فاتحة باب من العدوان للمشركين ظل مرتجاً طول حياته ، فتوالت على المسلمين بعده أحداث وخطوب ، صبر لها الرسول وتحملها ، إلى أن خرج من مكة فى جنح الليل إلى حيث تخصب الدعوة ، وتطل على العالم نوراً وهداية .

كانت لأبى طالب أشعار سائرة وقصائد مذكورة فى مدح الرسول وتأييده والدفاع عنه ، وتلك من أسرار النبوة ونفحاتها . ولقد قيل إن عتبة بن ربيعة لما قطع رجل أبى عبيدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر ، أشبل عليه على وحمزة ، فاستنقذاه منه وضربا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبها من المعركة حتى ألقياه بين يدى رسول الله وإن مخه ليسيل ، فقال : يا رسول الله لو كان أبو طالب حيا لعلم أنه قد صدق فى قوله :

كذبتم وبيت الله نخلى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وورد أن رسول الله حين فرغ من قتلى بدر وأمر بطرحهم فى القليب ، جعل يقول : يا عتبة بن ربيعه ، ياشيبة بن ربيعة ، ياأبا جهل بن هشام ، يافلان ، يافلان ، ويعد أهل القليب : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى وجدت ما وعدنى ربى

حقا : ثم أخذ يتذكر من شعر أبى طالب بيتا فلا يحضره ، فقال له أبو بكر : لعله يا رسول الله قوله :

وإنا لعمر الله إن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

فسر رسول الله وقال : إى لعمر الله لقد التبست .

ولقد جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم أعرابى فى عام جدب فقال : يا رسول الله أتيناك ولم يبق لنا صبى يرتضع ، ولا شارف يجتر ، ثم أنشده أبياتا ختمها بقوله :

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ودعا دعاء السقيا ، فما رد يده إلى نحره حتى تزينت السماء بالغمام وجادت بالمطر ، فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال لله در أبى طالب لو كان حيا لقرت عينه ! من ينشدنا قوله ؟ فقام على فقال : يارسول الله لعلك أردت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

قال : أجل ! .

هذه تحية عابرة نقدمها لذلك الرجل الذى أكرم الرسول صلى الله عليه وسلم وأعزه وحماه ونصره ، فى ذكرى ميلاد الرسول الأكرم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ؟

أسباب المكارم

إذا أنت محضت المودة صافيا ولم تُرَ عن وصل الصديق مجافيا
ووفيت بالعهد الذى خانه الورى ولم أر مخلوقا على العهد باقيا
فقد حزت أسباب المكارم كلها وجددت للعليا رسوما عوافيا

الاعلان عن السلعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس فى كلية الشريعة

أصبح الإعلان عن السلعة ضرورة من الضرورات التى يتوقف عليها رواجها، وعلى قدر النجاح فى التنويه بجودتها وتفوقها على سواها من أمثالها يكون الإقبال الشديد على طلبها؛ ولذلك صار الإعلان فناً من الفنون يدرس لتلاميذ التجارة فى البلاد المتمدينة.

وكما يتوقف رواج السلعة الى مدى بعيد أو قريب على التنويه بها، والإعلان عنها، يتوقف كذلك على حسن العرض، وطريقة التوزيع.

ويقول علماء التربية: إن المدرس الحق هو الذى يرزق من حسن عرضه للمعلومات، ومن طرق إيصالها الى أذهان طلابه، ما يحملهم على الرغبة فيه والإقبال عليه، وهم لا يقصدون من ذلك كله إلا أن يحتال الأساتذة للإفادة والتفهيم، بحيث يروون الظمأ، ويجلون الصدأ، ويشبعون النهمة المتأججة، واللهفة المتوقدة. وفى هذا من غير شك إشادة صامتة بأصحاب الكفايات الممتازة، من جادة لا التواء فيها ولا غموض.

إلا أن فى بعض الناس شعارا شنيعا الى الظهور لمناسبة أو غير مناسبة، وهو استجابة لغريزة تسمى بهذا الاسم؛ ولذلك فإنهم فى سبيل هذا الشعار يرتكبون أخش الأخطاء، وينهجون مناهج ربما كانت تزرى بهم، وتسىء إليهم. ونحن لا ننكر أن النوازع النفسية شيمة النفوس جميعا، لا يخلو منها إنسان، أو يتجرد عنها آدمى، ولكن الانقياد لها، والسير وراءها، وتلبية داعيها الى هذا الحد، لا يكون إلا فى القلوب الميتة، والضمائر الخربة. وإذا كان الدين الإسلامى يزهّد المسلم أن يتنفل فى المسجد، ويرغبه أن يتصدق فلا تدرى شماله ما تنفق يمينه، وينعى عليه أن يخشى الناس والله أحق

أن يخشاه ، وما شاكل ذلك مما لا يكون همه منه إلا أن يعلن أنه فاضل وغيره مفضول ، فإنه إنما يحارب النواحى المرذولة فى هذا النزوع . وقوانين الأخلاق ربما كانت تغتفر للإنسان العادى الانحراف فى سلوكه ، ملتمسة له المعاذير من مداركه المحدودة ، وتعليمه الناقص ، وأنه لم يكن من المنزلة بمثابة تجعله مناط تقليد ، أو موضع اقتداء ؛ والمؤاخذة دائما أبدا تكون على مقدار المكانة الاجتماعية التى يحتلها الأفراد . وما أظن أحدا يتجه اليه اللوم ، وتتعلق به المؤاخذة ويكون حسابه عسيرا ، كهؤلاء الذين يتصدون من أممهم صدارة القيادة ، ومقدمة الصفوف .

وقد حملت إلينا الثقافات الأوربية — أخيرا — ألفاظاً مستحدثة ، سماها ناقلوها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، ورحنا نعجب بها ، ثم نلوكها بعنوانات « حرية الرأى ، أو حرية النظر والفكر » ولكل جديد لذة — كما يقولون — والحرية حين لا تعتدى على الحق ، ولا تتجاوز حدود المنطق ، وأصول العقائد ، تكون مقبولة محموده ؛ ولذلك فإننا نرحب بها فى الشعر والأدب ، ونسيغها فى الدرس للتلقى والاستفادة ، ومن الناشئة والمبتدئين .

أما والحلال بين ، والحرام بين ، والدين مع هذا التاريخ الطويل العريض قرّت نظمه ، وثبتت دعائمه ، وتوطدت أركانه « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » . . فهل يكون من التجديد ، أو حرية البحث والرأى ، أن يتخبط متخبط فيطلع للقارئ بمقال يزعم فيه زعما ، أو يعلن به دعوة ، خصوصا حين يقترن بالمقال أنه من الذين يسترشد بهم الحائر ، ويهتدى الضال ، ويتعلم الجاهل ! .

لقد ألفنا الإلحاد الزائف ، والزيغ المزرى ، من أنصاف المتعلمين ، وأشباه المتفقهين ، كما ألفنا أن نقرأ لأولئك الذين رصدوا جهودهم ، ووقفوا نشاطهم ، للقضاء على الصيحات الإسلامية لأنهم أعداؤها ، أو على الأقل يتقاضون أجرا على محاربتها ، والكيد لها ، وإن كان فى المأثور عن العرب « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » .

وما ألفنا أن تكون الحيرة من أرباب الهداية ، وأن يكون الغى فى أهل الرشاد ، والطعن على الدين ممن يرتزقون به ، ويأكلون من فتات موائده . ولا أريد بهذا أن أذكر أسماء ، أو أصف مسميات ، وحسبى أن أقول : إن الشهرة « والإعلان عن السلعة » حين تنتهى إلى هذا الثمن الحقير ، خير منها الخمول . . .

على أن تلك الأساليب إذ يعرض بها الرجل بضاعته — إن صح أنها من قبيل حب الظهور — لا تروج إلا فى الجماعات الغافلة ، والأوساط الجاهلة ، ولا تنطلى إلا على ذوى العقول الصغيرة . وإذا اتسعت المدارك ، وتجاوزت الأمة طفولتها الفكرية ، نبذت ذلك نبذ الفم للنواة .

والطاعن على دين محمد صلى الله عليه وسلم ، كناطح الصخرة ؛ والذى يتحدث عنه بلسان قذر أو يكتب بقلم مجدوخ ، أو يصوره بصورة التقاليد البالية ، والنظم العتيقة ، لا يكون أول سفيه ، ولا آخر بذىء ، فكم طحنت رحاه جبابرة طغيان ، وتحطم على صخرته أساطين بهتان ، وداس فى طريقه أوشابا وزمرا ، وهو هو ؛ يظن الأحمق أنه ينال منه ، أو يعتدى عليه ، مادام فى ميسوره أن يزور على العقول ، وأن يمـوّه على الأفئدة ، وأن يكتب ببيان ، أو ينطق بلسان ، كما يخيل للصبى يرى صورة الشمس فى المرآة أنه يجعلها قطعاً متناثرة ، وأشلاء متدابرة ، وأجزاء متناكرة ، إذا ما كسر زجاجها ؛ حتى إذا ما صحا قلبه ، وعاوده صوابه ، رأى النور يلاحقه ، والضوء يسبقه ، وأنه إنما كان يحاول المستحيل ، ويجرى وراء الأباطيل .

وأحب أن أنصح لمن يعتسف هذه المهامه ، أن يمشى على هدى الإيمان ، ونور المعرفة ؛ وكفاه من الإعلان هذا المقدار . والناس اذا اقترنت الأسماء بأسماعهم الى جانب الصدق فى القول والإخلاص فى العمل ، كان ذلك أشرف وأنبل من أن تقترن بالبهرج المفضوح ، والباطل المكشوف . والجندى المجهول مع كمال الخلق ، وسمو الخلال ، خير ألف مرة من نابه الذكر إذا كانت نباهته تقوم على غير أساس ؟

مشكلة الصراع
بين الواجب والعاطفة فى القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين
من علماء الأزهر الشريف

عند ما تخلص المدركات المعنوية أو المؤثرات الخارجية الى ذهن الإنسان من مسالك الحس المتنوعة ، تعرض له دائما أحوال ثلاثة متلاحقة متلازمة : أولاها : معرفته لذات الشيء المدرك ؛ وثانيتها إحساسه فى دخيلة نفسه بلذة أو ألم من جراء هذا الإدراك ؛ وثالثتها قيامه بتصرف ما ظاهر أو باطن هو رد فعل للحالتين المتقدمتين .

هكذا تنقسم مقومات الشعور عند الكائن الحى فى عرف « السيكولوجيا » الحديثة . وقد أطلقت على الحالة الأولى : الإدراك ، وعلى الثانية : الوجدان ، وعلى الثالثة : النزوع . وهذا التقسيم جميل ومستقيم ، ومطابق للقرآن نفسه ، كما يظهر من الفقرة الأخيرة من الآية الثامنة عشرة من سورة الكهف ، وهى « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رُعبا » .

والحالة الثانية ، أى الحالة الوجدانية : إما أن تعرض للإنسان مؤقتا وسرعان ما تحول وتزول ، كما فى غضب الأم الحانية على طفلها المشاكس إذا انتهرته أو عاقبته ؛ أو مثل سخط هذا الطفل على تلك الأم ساعة العقاب مثلا ؛ وهذا هو الانفعال . وإما أن تكون شعورا دائما متأصلا فى النفس كما فى شعورنا بالمقت أو الخوف نحو المجرمين والأعداء ؛ وذلك ما يسمى فى اصطلاح « السيكولوجيا » بالعاطفة . فالعاطفة إذن شعور أليم أو سارّ ، ثابت مستقر فى أعماق النفس حول شيء معين كلما رأته العين أو سمعت به الأذن أو خطر على البال صاحبه ذلك الشعور السار أو المؤلم . على أن العواطف ليست كلها خيرا ولا صوابا فى كافة الأحوال ، ولا سيما

عند تهـوّرهـا وطغيانها ، ثم هى كما تولدها التجربة والمعارف الصحيحة والتربية المستقيمة ، تنشأ كـذلك عن التلقين الفاسد والمعرفة الخاطئة والتقاليد السقيمة ؛ لهذا كثيرا ما تتمرد العواطف على الضمير ، وتتصادم مع العقل السليم ؛ وهبك حاكما مطاعا أو قاضيا فى محكمة وسيق اليك ابن لك أو قريب عزيز عليك ، وقد ارتـكب ما يستوجب العقاب الصارم — حينئذ تراك عرضة لهاته الأزمة النفسية القاسية : أزمة الصراع العنيف فى دخيلة نفسك بين عواطف الأبوة الحانية أو العصبية للدم وحب الصديق والرهبة من القصاص ، وكلها تراغمك على تخليص الجانى من قسوة العقاب ؛ وبين ضميرك المتألم الذى يناديك بأداء واجبك المقدس ، وإدانة الجانى ، ونبذ العواطف والأهواء . هـذه أزمة قاسية ، وكل إنسان لابد متعرض لهـا فى هـذه الحياة التى هى معركة بين الخير والشر .

ومن هنا كانت مسألة هامة فى عـلم النفس ، ومشكلة معقدة عنـد الفلاسفة الأخلاقيين ، وقضية مشكلة فى عالم الفن والأدب .

فأما علماء النفس فقـد قصروا دراستهم على تحليل عناصرها وتشخيص مظاهرها ، والـكشف عن نتائجها فى السلوك ؛ وأما الفلاسفة فقد بحثوا طويلا عن أفضل الحلول لها ، كما أفاد الفن منها مادة خصبة للإبداع والتصوير وتوضيح خوالج النفس وأسرارها .

ثم كان الفلاسفة والأدباء فى استخراج الحـلول سواء ؛ فمنهم الواجبيون أنصار الفضيلة والحقائق ؛ أمثال الرواقية عند قدامى اليونان ، وفلاسفة الإسلام فى العصر الوسيط ، ومدرسة كـنت فى العصر الحديث ، ونظير طاغور وهوجو فى دنيا الأدب ؛ ومنهم كذلك النفعيون والمـاديون ، وهـؤلاء رجحوا كـفة العـواطف والشهوات تفاديا لآلام الحرمان ، أو تحصيلا للذة البدنية التى هى فى حسبانهم الغاية المثلى للسلوك ، مثل قورنائية اليونان وفلسفة مل أو هوبز ومن على شاكلتهم من الإباحية أو النفعية . .

وعجيب أن تسرى روح عاطفية من تلك الفلسفة المـادية الخاطئة الى التشريعات الأرضية ، ولا سيما فى باب الجريمة والعقاب ؛ فـما زالت القوانين الوضعية تخفض العقاب ، أو تلغيه ، إذا أطلق أحـد الزوجين أو الحبيبين النار على الآخر فأرداه

قتيلا ، ما دامت عاطفة الغيرة المجنونة ، أو عاطفة الحب العاتى لها دخل فى الباعث على الجريمة .

هكذا كانت تلك المشكلة النفسية المعقدة فى نظر العلم والفن والفلسفة والقوانين الأرضية ؛ فما عسى يكون رأى القرآن الكريم فيها ؟

إن منهج القرآن فى الدعوة إلى الله يقوم على أساسين ، رئيسيين ، وهما :

(ا) الجدل المنطق والبرهان الدقيق . (ب) الوعظ البليغ المؤثر بالوعد والوعيد ، وتفصيل أنواع الثواب والعقاب فيما وراء هذه الحياة الزائلة بأسلوب رائع بلغ حد الإعجاز فى الجمال والبلاغة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

وهذا المنهج العظيم قد يصبح فى نظر العلم الحديث من أبرز نواحى الإعجاز فى القرآن الكريم ، كما سنبين لك فى غير هذا البحث ، وإنما أردنا هنا الإشارة إلى أن هذا المنهج الحكيم كما عنى بالعقل ، اعتنى أيضا بالعواطف ، فذهب يقنع العقول السليمة بالحجة والبرهان ، وراح يهز المشاعر ويستهوى العواطف بسحر البيان ، وأساليب الترغيب والترهيب الحق .

كما أن القرآن الكريم لم يكلفك عبثا ما كلفتك به الصوفية الوعرة ، والفلسفة المتطرفة ، من الاستجابة إلى الحق لأنه الحق وكفى ، بل لذلك وما يترتب عليه من السعادة والنعيم المقيم الذى يستهوى وصفه العواطف الزكية والقلوب المشرقة .. بلى وإن القرآن ليتسامح معك أحيانا فى إرضاء عواطفك الجانحة إلى أناس ليسوا معك فى الاعتقاد والملة ، فهو يسوغ لك الزواج ممن لا تدين بدينك من أهل الكتاب إذا انعطفت إليها عواطفك ولم تصرفك عن واجبات دينك ، ويرخص لك فى معاشرة أبويك وطاعتهما ولو كانا على غير دينك ، ما دام ذلك لا يتعارض مع واجبات العقيدة المقدسة . واستمع إلى قوله تعالى فى الآية الثامنة من سورة العنكبوت « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » وإلى

قوله سبحانه فى الآية الثامنة من سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين » . أما عند ما يخشى من هذا الزواج أو تلك العشرة وهاته الصداقة خطرا على الدين، فإن القرآن يحرمه ويشدد النكير عليه . وفى ذلك يقول فى الآية التاسعة من الممتحنة « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم، أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وحين يتعرض الإنسان فى موقف ما لأزمة الصراع فى نفسه بين الواجب والعواطف المتمردة، فالقرآن يفرض عليه نسيان عواطفه وأداء واجبه كاملا غير منقوص . وهاك ما قاله فى القضاء والشهادة على النفس والأهل والأقربين : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

والقرآن الكريم حين يضرب لك الأمثال فى تقديم الواجب على العاطفة لا يأتيك بها من نسيج الخيال وتصاوير الأحلام، كما يصنع الفلاسفة وأهل الفن، بل يقص عليك من أنباء الرسل مواقف تبهر النفس، وتأخذ بمجامع القلوب .

فهذا نبى الله نوح عليه السلام ينادى ربه وقد حال الموج بينه وبين ولده الغريق فتحركت فى نفسه عواطف الأبوة والشفقة على مصير ابنه التعس « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » ويأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى يعاتبه على الالتفات إلى عواطفه وهو بسبيل القيام بواجبه، فإذا به معتذرا مستغفرا « قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم، وإلا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين » .

وذاك خليل الله إبراهيم، يقطع كل علاقة له بأبيه فى سبيل دينه « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم » . ويؤمر عليه السلام بإخراج زوجه

وولده الرضيع إلى مكان البيت العتيق فى البادية الموحشة الرهيبة، فيصدع بالأمر راضياً مرضياً، ثم يودعهما بهذا الوداع المؤثر الفياض بعواطف الشفقة والحنان والاستسلام التام لقدر الله سبحانه. وأخيرا يؤمر فى منامه بذبح ولده هذا فلا ينى ولا يتردد، بل يمضى لأداء واجبه راضيا مطمئنا « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم ». أجل سلام على إبراهيم، وسلام على إسماعيل، فإنهما المثل الأعلى لأهل الواجب، وأحرى أن يسمَّيا رسولا التضحية والفداء.

وبعد، فإن الحل القرآنى لهاته المشكلة قائم على أساس تقويم العواطف جميعها، وتعديل الغرائز، ليتحقق الانسجام دائما أو غالباً بينهما وبين الضمير الحى والعقل السليم، فلا تنشق عليهما، ولا تكون إلا حيث يجب أن تكون. وحينما يتعارض الواجب مع العاطفة فالقرآن لا يعترف إلا بالواجب وحده، ولا يلتفت فى سبيل القيام بالواجب بأبوة ولا بنوة ولا أخوة ولا عصبية للدم وما إليها من العواطف المتحكمة:

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ؟

وسيلة

تعرض رجل للحسن بن سهل، فقال له الحسن: من أنت ؟

قال: أنا الذى أحسنت إلىَّ يوم كذا وكذا.

فقال الحسن: مرحبا بمن توسل إلينا بنا. !

حقوق الدائن قبل المدين

لحضرة الأستاذ صـــالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

بيَّنا فيما سبق كيفية التنفيذ المباشر ضد المدين إذا كان موضوع الالتزام إعطاء شيء ؛ والآن نتكلم عما إذا كان موضوع الالتزام فعل شيء .

معلوم أنه لا يمكن إجبار المدين بالقوة القهرية على عمل شيء تعهد به ؛ لأن هذا مستحيل عملا وينافى حرية الشخص . وإزاء هذا إذا امتنع المدين عن القيام بما تعهد به جاز للدائن أن يقوم بإجراء العمل الذى كان يجب على المدين القيام به ، ثم يرجع الدائن على مدينه بجميع ماصرفه من المصاريف والتكاليف ، وكذلك التعويضات إن لحق الدائن ضرر من جراء تقصير المدين .

والواقع أن هذا ليس تنفيذاً مباشرا ، بل تنفيذ بمقابل ، لأن التزام المدين يتحول فى النهاية إلى التزام بدفع مبلغ من النقود . ويشترط فى هذه الطريقة أن يكون العمل من الأعمال العادية التى يصح أن يقوم بها كل فرد ، كالالتزام ببناء دار أو هدمها . ولكن إذا كان العمل الذى تعهد به المدين له صفة شخصية هى أنه لا يمكن أن يقوم به غيره كالتزام طبيب إخصائى بإجراء عملية جراحية لا يستطيع غيره أن يعملها ، فإن التنفيذ المباشر أو التنفيذ بالطريقة السابقة يكون مستحيلا ، ويتحول الالتزام ابتداء إلى تعويض مالى إذا امتنع الطبيب عن إجراء العملية الجراحية التى تعهد بإجرائها .

وإذا كان موضوع الالتزام عن فعل شيء ، فالتنفيذ المباشر لا يكون ممكناً لعدم إمكان مراقبة المدين مراقبة فعالة مستمرة ، ومنعه بالقوة القهرية كلما حاول القيام بعمل ما هو ممنوع منه . وفى هذه الحالة إذا لم يمتنع المدين وقام بالعمل ، جاز للدائن حينئذ الالتجاء إلى القضاء للحصول على حكم بإزالة ما عمله المدين ،

مع الرجوع عليه بالمصاريف والتعويضات إن نشأ عن فعله ضرر للدائن . ومثال ذلك ما إذا تعهد شخص بعدم بناء دور ثالث ولكنه قام وبناه ، فللدائن حينئذ أن يتحصل على حكم بهدم هذا البناء والرجوع على المدين بكافة المصاريف مع التعويض إن وقع للدائن ضرر .

ويلاحظ أنه لا يلجأ إلى هذه الطريقة إلا إذا كانت ممكنة ؛ فإذا كانت غير ممكنة فحق الدائن يتحول إلى تعويض مالى إذا ما قام المدين بالعمل مخالفاً بذلك تعهده بالامتناع عن هذا العمل .

التهديد أو الإكراه المالى :

ابتكر القضاء الفرنسى طريقة لإجبار المدين على الوفاء بتعهده ؛ وهى فرض غرامة مالية يأمر بها القاضى (وعادة تكون الغرامة كبيرة) عن كل يوم يتأخره المدين عن الوفاء بالتزامه . وعادة فى مثل هذه الحالة يقوم المدين بتنفيذ تعهده خشية أن تتراكم الغرامات عليه .

ويلاحظ أن قرار القاضى بهذه الغرامات ليس قرارا نهائيا ، إذ له أن يعيد النظر فيها ثانية ، فله أن يلغيها أو يعدلها أو يقرها تبعا للظروف والأحوال ، ولكن بشرط أن لا تتجاوز مقدار التعويض والضرر الذى لحق الدائن من جراء تقصير المدين .

وقد طبق القضاء المصرى هذه الطريقة خصوصا فى دعاوى الحساب والوكالة . وقد أدت هذه الطريقة من الوجهة العملية إلى نجاح كبير فى إرغام المدين على الوفاء بالتزامه .

وقد عللوا قرار القاضى بالغرامة بأنه من الأوامر التى تدخل تحت اختصاصه وسلطانه .

التنفيذ بمقابل أو نظرية التعويض :

التنفيذ بمقابل هو أحد حقوق الدائن قِبل مدينه ، وهو عبارة عن مطالبة الدائن مدينه بالتعويض إذا تأخر عن تنفيذ ما التزم به ، أو كان قد نفذ جزءا منه ولم ينفذ الباقى . فالدائن فى هذه الأحوال بالخيار ، فله أن يتخذ ضد مدينه

إجراءات التنفيذ المباشر إذا كان ممكنا ، أو أن يطالبه بالتعويض ، كما له أن يطالبه به إذا كان التنفيذ المباشر مستحيلا .

تقدير التعويض : تقدير التعويض إما أن يكون باتفاق الطرفين أو بحكم قضائى . ويشترط لاستحقاق الدائن للتعويض شروط :

(١) أن ينبه الدائن تنبيها رسميا على المدين بأن يقوم بالوفاء .

(٢) أن يكون المدين قد قصر فى الوفاء بالتزامه . ويلاحظ أن تقصير المدين يفترض أنه ثابت لا يحتاج الى دليل . وحينئذ إذا أراد المدين إبراء ذمته من الالتزام فهو الذى يتحمل عبء إثبات ذلك .

(٣) أن يلحق الدائن ضرر من تقصير المدين . وعلى الدائن إثبات حصول الضرر ، ولكن إذا كان الدين مبلغا من النقود فإن الدائن لا يحتاج الى إثبات حصول الضرر ، إذ الضرر يفترض حاصلا وثابتا بمجرد تأخير المدين عن السداد فى الميعاد المحدد . ومما لا شك فيه أن هذا التعويض هو عبارة عن فوائد الدين (دين النقود) ، وقد قدر القانون سعرا معينا لا يصح تجاوزه .

التعويض الاتفاقى :

قد يتفق طرفا العقد على مقدار التعويض الذى يدفعه المدين فى حالة تقصيره ، وهذا هو ما يسمى بالشرط الجزائى ؛ ولا يتدخل القضاء فى هذا التقدير ، بل يأخذ بما اتفق عليه المتعاقدان . ولكن لا يجوز للدائن أن يطالب بالتعويض إلا عند عدم تنفيذ المدين لالتزامه الأصلى ، أو عند استحالة هذا التنفيذ ، كما لا يجوز له أن يطالب بتنفيذ الالتزام الأصلى والشرط الجزائى معا . ولا يستحق التعويض الجزائى إلا بعد التنبيه الرسمى ، وبشرط أن يكون المدين مقصرا فى التزامه .

وقد وقع الخلاف فيما إذا كان يشترط لاستحقاق هذا التعويض حصول ضرر للدائن أم لا يشترط ذلك .

ذهب القضاء المختلط الى وجوب استحقاق التعويض الاتفاقى بدون إدخال أى تعديل فيه ، بشرط أن يلحق الدائن ضرر ، فإن لم يلحقه ضرر فإن الدائن لا يستحق التعويض .

وأما القضاء المصرى فذهب إلى ما ذهب إليه القضاء المختلط مع حق تعديل التعويض بما يناسب الضرر الذى لحق الدائن ، خصوصاً إذا تبين أن الشرط

الجزائى كان شرطا جائزاً ، وأن المقصود منه لم يكن إلا تهديدا للدائن لإرغامه على عدم التقصير فى الوفاء بتعهده . وهذا كله إذا لم يقم المدين بالوفاء بجميع التزامه ، فأما إذا قام بتنفيذ جزء منه ، فإن كلا من القضاءين الوطنى والمختلط متفقان على أن للقاضى مطلق الحرية فى تقدير التعويض بما يناسب الضرر الذى لحق الدائن بقطع النظر عن الاتفاق .

التعويض القضائى :

إذا لم يتفق العاقدان على مقدار التعويض فإن القضاء هو الذى يكون مختصاً بتقديره ، ولكن مع مراعاة القيود التى قررها القانون . ويلاحظ فى تقدير التعويض أنه يشمل الخسائر التى لحقت الدائن والمكاسب التى فاتته والتى كان متوقعا حصولها وقت إبرام العقد ، بشرط أن لا تكون هذه الخسائر وتفويت هذه المكاسب من فعل المدين وتدليسه ، فإن كانت من فعل المدين وتدليسه ، فإنه يسأل عن جميع ما فات الدائن من المكاسب . ومثال ذلك : شحن شخص حقيبة بالسكة الحديدية وفقدت هذه الحقيبة ، فإن السكة الحديدية تكون مسئولة عن قيمة هذه الحقيبة وما تحويه من أشياء عادية مما يحمله المسافر عادة ، فإذا ما وضع الشاحن فى الحقيبة سبائك ذهبية (وهذا غير معتاد ولا متوقع عقلا) وفقدت الحقيبة فإن السكة الحديدية لا تكون مسئولة عن هذه السبائك ، لأنه ليس من المتوقع عادة وعقلا أن تشحن الحقيبة التى بها سبائك ذهبية بهذا الشكل .

التعويض القانونى :

إذا كان محل الالتزام مبلغا من النقود فالتعويض لا يكون إلا عن التأخير فى السداد ، ولا يكون إلا مبلغا من النقود أيضا .

وقد اعتبر التأخير فى السداد ضررا لا يحتاج الأمر إلى إقامة الدليل عليه ، لأن فى التأخير تفويتا لمكاسب كان يتوقعها الدائن من استغلاله لماله .

ولما كان تقدير التعويض فى هذه الحالة من الصعوبة بمكان ، فقد حدد القانون مقداره وسعره ، وجعل لكل من المسائل المدنية والمسائل التجارية سعرا خاصا بنسبة مئوية لمقدار الدين ، ويلاحظ أن التعويض فى النقود هو فوائد الدين عن مدة التأخير فى السداد .

العصر العظيم فى تاريخ العالم

« كُنفشيوس ـ جوتامو بوذا ـ زَرْدَشت ـ فيثاغوراس ، من وجهة نظرٍ تأليفية »

تأليف . ف . ستانكا تعريب : الأستاذ عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسى ألقيت فى جامعة هامبورج فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة باستخدام الحديد والاستقلال السياسى كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص » .

ـ ٦ ـ

كان فيثاغوراس أول من سمى نفسه فيلسوفا فى بلاد اليونان ، وبالتالى فى العالم أجمع . والفلسفة عنده هى الكشف عن « التوافق » الداخلى الموجود فى جميع الأشياء فى العالم .

وكان أول رياضى فى أوروبا كَلِف بالأبحاث الرياضية ، وقد ارتبط اسمه بتقدم هذا العلم ، وما زالت إحدى النظريات تحمل اسمه حتى اليوم ، وأعظم ما يكتنف هذه النظرية ليس كيانها ، وإنما طريق حلها وتوضيحها الرياضى الذى كان أساس كل هندسة « اقليدس » . كما علينا أن ننظر اليها باعتبارها من أعظم اختراعات العقل البشرى . وقد أنتج نظريات أخرى من بينها جمع زوايا المثلث . ولكن الرياضة ككلٍ بأساسها وأعدادها لم تكن بأى حال عند فيثاغوراس عملا صوريا ميتا ، أو موضوعا إحصائيا جافا ، وإنما كانت ممثلة ومجسدة للتوافق الحى للعالم . وتبعا لهذا الرأى كان ينظر الى العدد باعتباره جوهر كل شىء ، ويتفق هذا الفهم للعالم مع الفلسفة الرياضية العلمية الطبيعية الحديثة .

وكان أول فلكى اتفقت آراؤه عن تكوين الأرض مع الآراء الحديثة ، فقد عرف أن الأرض هى عالم يتحرك حول محور فى الفضاء . وبحث عن توافق

داخلى فى علم نظام الكون واقتنع بأن الأجرام السماوية تتحرك بتوافق ، وينتج عن حركتها : « موسيقى الأجواء » ، التى لا نسمعها لأنها مستمرة .

وكان أول طبيعى ، أو أول طبيعى تجريبى أثبت أن اختلاف الأصوات المتوافقة لوترٍ ما ، ينبنى على العلاقات التوافقية لطوله ، وهى حقيقة ظاهرت عقيدته عن التوافق الداخلى المتحكم فى العالم .

وكان أول شخص فى اليونان علم خلود الأرواح وتناسخها ، ووجد فى هذه النظرية منبع عقيدته عن التوافق والقرابة بين الإنسان والحيوان ، فبحث عن طريق لتحسين العلاقات بين الناس ، ولهذا السبب أنشأ أخوة أتباعه ، وقد كان لها تأثير كبير على سياسة كروتونا وغيرها من مدن إيطاليا . كان عمله هو إنشاء الفضيلة التى كانت بذاتها عنده توافقا للعلاقات الإنسانية . وكان عمله النبيل هو أن نفهم التوافق العالمى ، وأن نحققه فى الحياة الإنسانية .

وإذا أكملت دراسات كنفشيوس العقلية المنهجية ، وشعور جوتامو الحاد ، وإرادة زردشت الدافقة ـ إذا أكمل كل هذا بأبحاث العلماء المحدثين العلمية وتجاريبهم ، وجدنا كل هذا ممثلا لفيثاغوراس فى وحدة جميلة فريدة . ومع شعوره للعمل فى سبيل التوافق ، كان مثلا رائعا ، ونموذجا كاملا ، للإغريق الذين لم يظهر بينهم شخص جمع بين كل هذه المعارف .

— ٣ —

وعلى الرغم من قصر هذا العرض السريع للحكماء الأربعة ، والتزامنا المنهج البحثى ؛ فإن عظمتهم تبدو واضحة ، تنتزع منا التقدير والإعجاب ، بل لو نظرنا الى كل منهم على انفراد لحازوا إعجابنا . فكل منهم له نطاقه الخاص ، له مملكته الروحية الخاصة ، حيث يحكم بجلال . ولكن هل نضطر لأن ننظر اليهم منفردين ؟ هلا يمكن أن تجمعهم وحدة عالية ، كما تتعدد الألوان فى قوس قزح ، أوكما تتعدد الأوتار فى آلة موسيقية ، أو آلات موسيقية متعددة فى « أوركسترا » واحد ؟ لقد لاحظنا أن ثلاثة منهم يمكن أن تنظر لكل واحد فيهم على أنه تجسد لناحية من نواحى النفس البشرية : التفكير ، والشعور ، والعمل ؛ وهى نواح ثلاثة لنفس

بشرية واحدة ، لكل منهم طريقة فى البحث عن الحقيقة . ولكن منطق كنفشيوس ، وتأمل جوتامو العميق النفسى ، وإلهام زردشت ، ومنهج فيثاغوراس العلمى - إنما تمثل جميعا كل الطرق الممكنة لتحصيل المعرفة ، ويمكننا — على العموم — أن ننظر اليها كوحدة لكل قوى العقل البشرى .

ونستطيع أن نتناول الموضوع من جانبه الآخر ؛ فإنه يمكننا أن نؤكد أن الفلسفة الأوربية قد مرت — فى مجرى تاريخها — بمراحل مختلفة فى نظرياتها عن العالم . ففى اليونان القديمة كانت نقطة البدء هى « مركز البحث حول الكون Cosmocentrism » وهى نظرية مبنية على الاعتقاد فى وجود القوانين الأبدية التى تحكم العالم . أما فى العصور الوسطى فقد تحول « تركز البحث حول الكون » هذا الى « تركز البحث حول الإله Theocentrism » وذلك أن الله كان ينظر اليه باعتباره المصدر الأعلى والأخير لكل الموجودات والقوانين . ثم فى عصر النهضة ، والعصر العقلى فيما بعد ، تغيرت هذه النظرية بالنظرية العقلية : « تركز البحث حول الإنسان Anthropocentrism » ، وقد عورضت هذه النظرية الضحلة عن تركز البحث حول الإنسان فى فلسفة « شوبنهاور » ، « وبرجسون » وعلى الأخص « نيتشه » ، عورضت بفهم للناحية اللاشعورية للطبيعة البشرية ، ولقواها الداخلية القائمة ومسيراتها [١] .

ومن الطريف أنه فى « العصر العظيم »[٢] نرى مجموعة عظيمة من هذه الأفكار يمكن إذاعتها بما يحدث من تغييرات ، لا فى الزمان ، وإنما فى المكان : ففى اليونان نجد أن نظرية « تركز البحث حول الكون » بلغت الكمال فى تعاليم فيثاغوراس عن التوافق الذى يتحكم فى العالم كله . وسادت فى إيران فى نفس الوقت نظرية « تركز البحث حول الإلهية » ، فى أظهر صورة لها وهى الثنائية [٣] . أما فى الصين فقد تمثلت النظرية العقلية « تركز البحث حول الانسان » الذى نادى به كنفشيوس . وأخيرا فى الهند نجد شبيها للفلسفة الحديثة الاختيارية للعقل

---

(١) كان هذا التغيير فى الرأى نتيجة لمحاضرة للاستاذ T. CELMS ألقيت بجامعة البلطيق ، بهامبورج .

(٢) القرن السادس قبل الميلاد .

(٣) يمكن أن نجد نظرية الالهية هذه فى شكلها الموحد فى هذا العصر فى الولايات اليهودية : يهوذا واسرائيل ، حيث كان يوجد المنبع الحقيقى للنظرية الالهية الأوربية فى العصر الوسيط .

الباطن ، وإن كانت فى صورة أعمق وأكمل ، تناقش مشاكلها الخاصة بالتأمل فى العالم عن طريقين . وفى هذه الحال نجد أن تعاليم هؤلاء الحكماء الأربعة القدامى تكمل بعضها البعض تكميلا مشتركا وتكون وحدة سامية . وما كانوا فى حقيقة الأمر إلا كآلات موسيقية تعزف فى فرقة كبيرة واحدة ، فيصدر عنها توافق سيمفونيا للروح البشرى .

ويتوقف توافق وانسجام النغم الذى تعزفه الفرقة على قائدها ولكن من الذى أحكم توافق نظريات هؤلاء الحكماء الأربعة القدامى ؟ من كان « القائد » الذى خلق الوحدة فى هذه « السيمفونية » الروحية العظيمة البشرية ؟ هل لنا أن ننظر إلى التوافق بينهم كمجرد صدفة عابرة ، أو كمسرحية متقلبة الأهواء من مسرحيات التاريخ ، أو كنتيجة « قانونية » عميقة اجتماعية تاريخية . ويبدو من وجهة النظر البديهية أنه لا يمكن أن نؤمن أن هذا التوافق كان نتيجة لتصادف عارض بسيط . لقد استطاع فيثاغوراس منذ ألفين ونصف من السنين قبل وجودنا ، أن يرى وأن يسمع التوافق ، حتى فى خيط ميت ، وفى حرف هندسى لا حياة فيه ، فلم إذن لا نستطيع نحن أن نستكشف قانونية التوافق فى أعظم وأعمق ما تم من أعمال الروح البشرى (١) .

ونستطيع أن نعضد هذه المحاولة الأولى الإلهامية تعضيدا قويا بجدل تاريخى : نقول عامة إن البوذية قد أنشأها «جوتامو» ، وإن الزردشتية أوجدها « زردشت» ولكن مثل هذه الأحداث العظيمة فى التاريخ ، من حيث جوهرها ، كإيجاد دين عالمى جديد ، لا يمكن إسنادها إلى شخص واحد ، مهما بلغ من عظمة ، وإنما يجب أن ننظر إليها باعتبارها عملا جمعيا لعصر بأكمله ، إن لم يكن لعصور عديدة متعاقبة . ونحن نعلم ، فى الواقع وحقيقة الأمر ، أن كنفشيوس قد سبقه فلاسفة غيره كثيرون ، كان أعظمهم شأنا « لاو — تسى Lao - Tse » الذى كان لايزال حيا فى بدء نشاط كنفشيوس . بل إن كنفشيوس نفسه قد صاحبه تلامذته خاصة فى أيام محنه . وبعد موته حمل أتباعه وتلامذته رسالته ، محافظين بعناية على كل كلمة قالها .

---

(١) وهى الأعمال التى قام بها هؤلاء الحكماء الاربعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

فى عيد الميلاد الملكى

الكلمة التى أذاعها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر
فى عيد الميلاد الملكى السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم .

نحمدك اللهم عظمت آلاؤك ، وجلت نعماؤك ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى أرسلته للناس رحمة ، وعلى آله وأصحابه هداة الأمة .

أيها السادة :

تنفرد بعض الأيام والشهور بحظ يُكسبها مهابة وجلالا ، ويخلع عليها عزا ومجدا ، ويجعلها دائما موضع الحفاوة والتكريم . ولعل أكثر هذه الأيام روعة وبهاء ، وإشراقا ورواء ، هو هذا اليوم الأغر السعيد ؛ إذ حباه الله بمولد الفاروق العظيم ، وجعله طالع يمن وسعادة ورخاء للأمة المصرية خاصة ، وللعالم الإسلامى عامة . فمذ أهلَّ نور الفاروق على البلاد ، وبزغ نجمه فى سماء مصر ، صاحبته بشائر عظيمة طالما تاقت البلاد لها ، وجاهدت فى سبيل تحقيقها ؛ فنودى باستقلالها ، وتمتع شعب مصر بحريته ، ونعم بحياة نيابية صالحة ، مما جعل النفوس تستبشر باسم جلالته ، وتتوسم الخير فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل عمل يشير به ، وعمرت قلوب الناس بمحبته ، وفاضت إخلاصا ووفاء لجلالته .

ولما تولى عرش مصر بعد المغفور له والده العظيم ، الملك فؤاد الأول ، طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، أحاطه الشعب بسياج متين من المحبة والولاء ،

وانطلقت الألسن تلهج لجلالته بالدعاء أن يسدد الله خطاه ، ويؤيده بروح من عنده ، ويتم على يدى جلالته ما تصبو اليه البلاد من مجد وعزة وسعادة .

وقد استجاب الله دعاء هذا الشعب المخلص لجلالته الوفى لعرشه ، فتحققت للبلاد أمانيها ، واستكملت استقلالها ، وهبت نشطة بفضل توجيه الفاروق العظيم ، تستعيد ماضيها المجيد فى الحضارة والعمران . ولا غرو إذ رأينا المصريين عن بكرة أبيهم يتطلعون الى هذا اليوم الأغر ، ويتفانون فى الاحتفال به وتمجيده ، ويجعلون منه عيدا وطنيا قوميا ، ولاء للملك العظيم فاروق الأول ، مجدد النهضة الحديثة ، واعترافا بفضله ومننه التى فاقت العد .

وفى الحق أن أيام الفاروق كلها أعياد ومواسم ، وكلها يفاخر بعضها البعض ، بما تم فيها من جليل الأعمال التى تعود على البلاد بالخير العظيم ، والنفع العميم . وإن لجلالته فى كل يوم مآثر عظيمة ، وتوجيهات سديدة ، وأيادى بيضاء ، متصلة الحلقات . وهو - حفظه الله وأعزه - شديد العناية بالدين ورجاله ، حريص على أن يبلغ بالأزهر المكانة السامية التى تتناسب مع رسالته العظيمة ، وهى نشر تعاليم الإسلام الحنيف ، والدعوة لدين الله ، وربط العالم الإسلامى كله برباط من المحبة والأخوة الإسلامية .

ومن أجلّ ما يُذكَر لجلالته بالعرفان والتقدير ، عنايته المشكورة بالبعوث الإسلامية الوافدة على الأزهر ، وحرصه الدائب على معونتهم ، وتيسير سُبل الدراسة لهم ، بما يحبوهم به من عطف مادى وأدبى ، مما ألهج ألسنتهم بالحمد ، ودعا الى تنافس أبناء الشعوب الإسلامية المختلفة ، وتزاحمهم على الفوز برعاية الفاروق .

وفى الأزهر بفضل هذه السياسة الحكيمة حوالى ألف ومائتى طالب من هؤلاء ، تجمعهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم محبة الفاروق والولاء لعرشه .

ولم تقف عناية جلالته بالبلاد الإسلامية عند هذا القدر ، بل رغب - حفظه الله - أن توجه البعوث من أبناء الأزهر الى جميع الأقطار العربية والإسلامية ، ليسهموا فى نشر تعاليم الدين فى تلك البلاد ، ويعملوا على توحيد منهج الثقافة الإسلامية فيها .

وللأزهر الآن بفضل هذا التوجيه السامى مبعوثون من أبنائه فى الحجاز ، ونجد ، ولبنان ، والباكستان ، والعراق ، وسوريا ، وأريتريا ، والكويت ، والسودان ؛ وهو بسبيله الى إرسال بعوث جديدة الى الفيلبين ، وسيلان ، والهند ، وشرق وجنوب أفريقيا ؛ وبذلك تتحقق أمنية جلالته فى ربط الأزهر بالعالم الإسلامى كله .

وهذه العناية بالشعوب الإسلامية يقابلها عناية سامية بنشر التعليم الدينى فى البلاد ، والتمكين للأزهر من التوسع فى معاهده وزيادتها ، لسد حاجة البلاد الى التعليم الدينى الذى يحرص جلالته أشد الحرص على نشره .

على أن التعليم العام ليس أقل حظا من عناية الفاروق المعظم ؛ فهو حفظه الله دائب الاهتمام به والرعاية لشئونه . ولم يشهد التاريخ عهدا أحفل بأعمال الإنشاء والتجديد من عهد الفاروق ؛ فقد اتسعت رقعة البلاد ، وزاد نصيبها من المشروعات النافعة فى كل النواحى الحيوية .

ووجّه جلالته مزيدا من العناية للثقافة العامة فى البلاد ، فاتسعت بفضل توجيه جلالته أعمال الوعظ والإرشاد ، حتى عمت جميع مراكز القطر ، مما كان له الأثر الظاهر فى إحياء الشعور الدينى ، وإشاعة روح المحبة بين الناس . وشمل جلالته الفقراء ببره وعطفه ؛ فأمر برعايتهم والعطف عليهم ، وتوفير أسباب التعليم لأبنائهم ، كما عنى جلالته بتنشيط الحركة العلمية بين المتعلمين ، فخصص جوائز للممتازين والأوائل ، تشجيعا على طلب العلم ، وحثا للطلاب على التنافس فيه .

أيها السادة :

إن كل ناحية من نواحى الحياة فى مصر قد سعدت بلفتة من جلالة الملك المعظم أحيتها وسارت بها أشواطا بعيدة نحو التقدم والرقى ، وكل فرد فى مصر قد ناله من غيثه ونداه ما أنعش فى صدره الآمال ، وملأ قلبه بفيض من المحبة للملك الموفق الصالح ، الذى يحرص على رفاهة شعبه ، ويعمل على النهوض به نهضة مباركة تجعله فى مصافّ الشعوب العظمى .

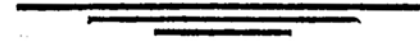
لقد عرف جلالته منذ حداثته حق ربه وحق شعبه ، فأقبل على بيوت الله عامرا قلبه بالإيمان ، مملوءة نفسه ثقة بالله وتوكلا عليه ، وضرب لشعبه خير مثل فى التمسك بدين الله ، والحرص على فرائضه وإحياء سنته .

هذه لمحة من مآثر الفاروق العظيم التى يذكرها الشعب فى كل يوم ، ويردد الثناء عليها فى كل ساعة من نهار ؛ فقد قفزت مصر فى عهده — حفظه الله — الى الطليعة من أمم العالم ، وأصبح لها بفضله مكانة دولية مؤسسة على مجد مؤثل .

وفى هذا اليوم السعيد المبارك — يوم ميلاد الملك الصالح فاروق الأول ، أعزه الله — لا يسعنا ونحن نذكر فيض إحسانه ، ونحس بجليل أعماله ، ونستمتع بخيره وبره ، إلا أن نتوجه الى الله بقلوبنا وبصدق نياتنا أن يحفظ جلالته ذخرا للوطن ، وراعيا للدين وأهله ، وأن يحييه حياة طيبة مباركا فيها .

وإننا بهذه المناسبة الكريمة نرفع لمقام جلالته أخلص آيات التهانى والولاء بهذا العيد السعيد ، ضارعين الى الله العلى القدير أن يجعله دائما مصدر الخير والبر ، وأن يعيد باليمن والبركات أمثال هذا اليوم الأغر المبارك على الأمة المصرية الوفية لعرشه ، والعالم الإسلامى المتفانى فى محبته .

والسلام عليكم ورحمة الله .



من مزايا الاستقلال

كانت السيطرة الأجنبية قد اضطرت الحكومة المصرية الى إباحة البغاء ، وحصره فى نواح من المدن المصرية ، فلما أهل عهد الاستقلال كان أول ما فكرت فيه إلغاء هذه الإباحة ، ومعاقبة من يقدم عليها ؛ ثم اضطرت مرة أخرى على مضض الى إرجاء تنفيذ هذا الإلغاء لما بعد الحرب . فلما انتهت الحرب بادرت الى تنفيذ هذا الإلغاء ، وما تمت الإجراءات الضرورية لذلك ، حتى صدر الأمر بتنفيذه ، فوافق ذلك ما كان يرجوه الناس ؛ وما أعلن ذلك الأمر حتى بادر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر الى تبشير الأمة به ، بواسطة المذياع ، وأفاض فيما سيكون لذلك من النتائج الحسنة على الآداب ، وعلى توفر كرامة المصريين وحسن سمعتهم بسببه ؛ منوّها بيمن طالع حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بوقوع ذلك الإلغاء فى عهده السعيد . وختم تلك الكلمة الطيبة بالدعاء لجلالته بدوام الإقبال ، وبتهنئة الأمة بما حصّلت من أسباب الطهر والكمال .

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم .

أحمدك اللهم على جزيل إنعامك ، وسابغ فضلك وإحسانك ، أنت الموفق للطاعات ، وبنعمتك تتم الصالحات . وأصلى وأسلم على نبيك ذى الخلق الكامل ، والتعاليم القويمة الرشيدة ؛ وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه ، فأحيا السنة ، وأمات البدعة ، وحارب المنكر والفساد ، والإثم والفجور والعصيان .

أما بعد :

فإنى أتقدم الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، أعزه الله ونصره ، برفع آيات الولاء والإخلاص ، وبالتهنئة والشكر الجزيل ، على هذا

القرار الحكيم ، الذى أثلج صدور المؤمنين ، وأقر عيون المصلحين ، ورفع شأن الفضيلة والكرامة الإنسانية ، وردّ على المروءة والأخلاق اعتبارهما فى هذا البلد الإسلامى العظيم ؛ ذلك القرار هو « إلغاء البغاء » .

إن جلالة الملك المعظم — حفظه الله ورعاه — ما زال يوجّه رجال حكومته إلى كل خير وبر ورشاد ، لتسعد الأمة وتهنأ ، وتسير فى طريق الرقى والتقدم غير وانية ولا متعثرة . ذلك شأنه — حفظه الله — فى كل ناحية من نواحى الإصلاح ؛ وذلك شأنه على وجه أخص فى كل ما يتصل بالدين والخلق الكريم .

وإن قرار اليوم لمفخرة لهذا العهد الفاروقى السعيد ، حقيق على التاريخ أن يسجلها ، وعلى الزمان أن يلهج بها ، وعلى كل لسان وقلم أن يحييها ويشكرها .

لقد خطت الحكومة الرشيدة بتوجيه جلالة الملك المعظم هذه الخطوة الحاسمة فى سبيل صيانة الآداب ، ورعاية حق الدين والشرف ، وخطت كذلك خطوة أخرى فى سبيل تحريم المسكرات ، حيث قررت منع تداول الخمور فى المعرض . وإن هذا الروح الطيب ، لجدير بأن يحمد ويشكر ؛ وإنه لكفيل بأن يصل بالأمة الى مرفأ السلامة والاستقامة، إن شاء الله تعالى .

وإذا كان جلالة الملك المعظم جديرا بالشكر والتهنئة على حسن توجيهه وسامى حكمته وإرشاده ، وكان رجال حكومته جديرين بالثناء والتحية على حسن تقبلهم وسريع استجابتهم لداعى الدين والفضيلة والخلق الكريم ، فإن هذه الأمة المصرية الكريمة لجديرة بأن أزف إليها أطيب التهنئة على ما منّ الله به عليها من تطهير وتزكية وصون للآداب والأعراض فيها ، ورعاية لأمر الدين والشرف بين أبنائها .

وإذا كان حقا على المؤمنين أن يقابلوا كل نعمة من نعم الله عليهم بما يليق بها من شكر لله ، فإن شكر هذه النعمة هو أن يتمسكوا بأهداب الفضيلة ، ويستقيموا على سنن الهدى، ويتواصوا فيما بينهم بالإقبال على الطيبات وهجر الخبائث والمنكرات، والتعفف عن الفحشاء والمنكر ، فى السر والعلن .

إن الله تعالى حرم الزنا صيانة للأعراض والأنساب، وحفظا للشرف والخلق، ووقاية للصحة أن تصاب بالأدواء والأسقام، قال الله تعالى :

« ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » .

وقال جل شأنه :

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما؛ يضاعَفْ له العذاب يوم القيامة ويَخلُدْ فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما » .

ونعى الله تعالى على أهل الجاهلية إتيانهم للفواحش، وإكراههم الفتيات على على البغاء وهن يردن التحصن، ونهى المؤمنين عن هذا وذاك بقوله :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »، « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عَرَض الحياة الدنيا » .

فالحمد لله الذى أزال هذه الوصمة عن جبين الأمة وغسل هذه الإهانة للخلق والشرف عن هذا البلد الإسلامى الذى يؤمن بالله وكلماته .

ونسأله تعالى حسن الثواب وجميل الجزاء، لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الموفق، على كريم توجيهه، وعلى هذا الروح الطيب الذى بثه فى رجال حكومته، وأشاعه فى سائر رعيته : روح الاعتزاز بالدين، والغيرة على الخلق والشرف .

زاده الله وزادهم إيمانا وتثبيتا، وهداية وتوفيقا، إنه نعم المولى ونعم النصير .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

ثبوت الروح علميا

« اجترأ العلم على الروح حتى أنكرها ،
« فعاقبه الله بأن جعله هو الذى يقيم على »
« وجودها الدليل القاطع » .
الأستاذ الألمانى [كارل دوبريل]

نشبت عقب أن نال العلم استقلاله ، منذ أربعة قرون ، معارك طاحنة بينه وبين الدين ، فبالغ الأول فى الخصومة حتى أنكر الروح ؛ ولما كان إنكارها من الصعوبة بمكان ، لاستحالة تعليل التعقل والتفكير بدونها ، سمح العلم لنفسه تحت قيادة رجال من فطاحله ، أن يتذرع بالسفسطات وبالعبارات الجوفاء ، وبمناقضة الأصول الأولية للنظر الصحيح ، فى سبيل المحافظة على موقفه العدائى من الأديان ، ذهابا من أشياعه أنه متى تقرر فى الأذهان عدم وجود الروح ، لم يبق للملل موجِب للبقاء ، لأن مهمتها تخليص الروح من سلطان المادة ، وتهيئتها للحياة الطيبة فى عالم الملأ الأعلى ، حيث السعادة المطلقة ، والنعيم المقيم .

هنا شق الدفاع عن الدين على المهيمنين عليه ، ولم يبق لهم من سلاح يدفعون به الشبهات التى يثيرها العلم الطبيعى على إنكار الروح سوى العقل ، والعقل وإن كان أداة قوية فى تمييز الحق من الباطل ، والحسن من القبيح فى الشئون الإنسانية ، والمعاملات الحيوية ، إلا أنه لا يغنى شيئا فى الشئون الطبيعية . وحجة الماديين فى هذه الناحية قوية ، فان كثيرا من تعليلات الظواهر الطبيعية التى عللها الأقدمون تعليلا عقليا ، ظهر فسادها بظهور عللها الحقيقية ، فأصبح مما لا يمكن أن يثلج صدر إنسان على علة عقلية ، لا سيما وقد قرر العلم بإجماع آراء قادته أنه لا يصح أن يلحق بالعلم إلا مايثبت وجوده ثبوتا حسيا ، وفى أحوال تجعل الانخداع بظاهره مستحيلا . فأصبحت الفلسفة العقلية بعد هذا القرار العلمى الإجماعى مما لا يصح الاستناد إليه ولا الاعتداد به . فعلام يعتمد الدين فى إثبات صحة العقائد التى تدعم عليها فلسفته إذا لم تستطع إثبات وجود

الروح الإنسانية وجودا مستقلا عن الجسد تمام الاستقلال ، وإمكانها القيام حاصلة على جميع الصفات العقلية ، والحالات النفسية بدونه ؟

هذه دعوى تحتاج ، فى رأى العلم ، إلى إثباتها بدليل محسوس ، أى أن تتجرد الروح من جسدها ، ويتمكن العلم من التحقق من وجودها تحققا حسيا ، وكيف يتسنى ذلك وهى ليست من طبيعة جثمانية ؟ أو أن تمنح شخصية صاحبها خصائص أرقى من خصائصه المعروفة ، كأن تجعله يتكلم بلغة أو لغات أجنبية ، أو أن يرى ما لا يمكن أن يراه بعينه المادية ، ويسمع ما لا يسمعه بأذنه الجسدية ، وأن يتصف بصفات تفوق صفاته الطبيعية ، ولا يستطيع ذلك بل يستحيل عليه وهو فى حالته العادية .

هذه الشروط يعجز المدافعون عن الدين ، بل يعجز أهل الأرض جميعا أن يقوموا بها ؛ وإذا كان الشأن كذلك ، فالعلم يتشدد فى موقفه ، ويصر على أن كل ما يقال عن الروح وعالمها من نسج الخيال ، وضعها رجال ليوقعوا بها العامة فى حبائلهم ، وأنهم هم أنفسهم يعتقدونها لغلبة الجهل عليهم .

هذا التشدد من العلم كان له فى العصور الأخيرة ، بسبب انتشار المدارس ، وزوال الأمية ، آثار بعيدة فى نشر الإلحاد فى العقول ، وبث سموم الأهواء فى النفوس ، فانتحلت المدنية الإنسانية كل النقائص الخلقية ، وصقلتها صقلا سطحيا ، وهذبتها تهذيبا تمويهيا ، فأكب عليها الناس إكبابا جنونيا ، فأصبح الدفاع عن الدين متعذرا ، إلا بين طوائف لم تصل إليها الشبهات العلمية ، أو وصلت إليها ولكنها تغلبت عليها تغلبا وقتيا .

هل يترك الخالق الحكيم النوع الانسانى الذى قدر له أن يصل إلى أقصى مراتب الكمال الجسدى والروحى هدفا لهذه الحيرة ، فينتشر الإلحاد جيلا بعد جيل ، ويضعف الدين وأهله ، ويصبحون بانتشار المادية قلة لا يُعبأ بها ولا يُؤبه لها ؟

إذا كنا نعتقد أن الدين حق ، وأن الانسان لابد أن يدين لخالقه ، ويتوجه اليه بقلبه ، وأن الحياة الآخرة لا ريب فيها ، وأن الانسان يؤول اليها بعد الموت فيحظى بحياة فيها من الجزاء مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر ؛ إذا كنا نعتقد أن هذا كله حق ، فلا نستطيع أن نتصور أن الخالق القدير لا يهب لحفظة دينه وسائل يسقطون بها حجج الملحدين على شروطهم التى اشترطوا توافرها فى الحقائق .

قلنا كل هذا فى مواطنها من كتاباتنا ، وقلنا إن الحق جل شأنه قد تفضل على شيعة الحقائق الدينية بأدلة عيانية مادية عند ما اشتدت حملة الملحدين على الروح والخلود منذ ثلاثة قرون ، فى التنويم المغناطيسى ، وزادها منذ قرن بالبحوث النفسية ، وأصبحت أدلة الدين اليوم حسية لا يمكن نقضها ، وأتت على جميع الشبه العلمية فدحضتها وذرتها فى ذيول السافيات .

إن هذه البحوث قد انتشرت فى أوروبا وأمريكا حتى لم تبق مدينة فيهما لم تدخلها ولم تنتشر بين ربوعها ، وكنا نتوقع أن تحل ببلادنا ، وتثمر مثل ثمراتها فى العالم كله ، وقد صدّق الله ظننا فأصبحنا أمام جمعية للبحوث الروحية فى مصر تألفت فى دار جريدة المصرى فى هذا الشهر تحت رئاسة وعضوية رجال من أهل الثقافة العالية ينتظر منها أن تكون باكورة لأمثالها من مدن بلادنا ، وأن تنتشر منها الى سائر بلاد المسلمين .

وإنى فى هذا المقام مورد بعض ما ذكروه فى نشرتهم التى وصلتنا منها نسخة ، فإن فيها ما يثبت ما نقول من اهتمام العالم الراقى اليوم فى أوروبا وأمريكا بهذه البحوث . فقد جاء فيها :

« تتجه النية فى الوقت الحاضر الى إنشاء جمعية مصرية للبحوث الروحية على غرار جمعيات البحوث الروحية الاوربية والأمريكية ؛ وذلك لكى تتيسر موارد البحث الجدى وما تستلزمه مواد هذا البحث من أجهزة وأيد عاملة ومبنى صالح مجهز خير تجهيز .

« والموضوع فى الواقع من الأهمية بمكان لأنه يعمل على إثبات تلك الحقيقة الكبرى التى نادت بها الأديان جميعها : « وهى الحياة بعد الموت » والبرهنة عليها علميا وعمليا .

« وقد أنشأت بعض الجامعات الغربية لهذا العلم دراسات وكراسى مثل

جامعات لندن وكمبردج وأكسفورد وبرلين وبون وجرونتجن وهارفارد وكلارك وغيرها (١) .

« وقد أصبحت البحوث الروحية تذاع باللاسلكى من محطة الإذاعة البريطانية ومحطات الإذاعة الأمريكية ، وكان من بين المذيعين الأستاذ (هابرلى برايس) أستاذ المنطق بجامعة أكسفورد ، والعلامة الأستاذ برود أستاذ الفلسفة بجامعة كمبردج ، والدكتور تاولس أستاذ السيكولوجيا التربوية بجامعة كمبردج ، ولورد دودنج مارشال الطيران الذى كسب معركة بريطانيا الجوية فى الحرب الأخيرة .

« بل لقد أثر تقدم البحوث الروحية فى الإخراج السينمائى فاتجه المخرجون فى أوروبا وأمريكا إلى إخراج روايات روحية ، تنشر قضايا هذا العلم الحديث ؛ وقد عرض معظمها فى مصر ، من أمثال فيلم « الطيار لا يموت » وهو يبحث فى الحياة بعد الموت ، و « شبح كنتر فيلد » ويبحث فى الأرواح المشاغبة ، و « أنشودة برناديت » ويبحث فى العلاج الروحى .

« وقد يكون تكوين هيئة مصرية للبحث الروحى نواة صالحة لإدخال هذه الدراسات فى جامعتينا ، أو يكون خطوة عملية فى إنشاء معهد للبحوث الروحية على غرار المعاهد الأوربية والأمريكية ؛ وما أجدر مصر ــ مهد الروحية من قديم الزمان ــ أن تكون سبَّاقة فى هذا المضمار » انتهى .

هذا عين ما سبق لنا تكراره كثيرا ، وقد حقق الله ظننا ، وجاء دور بلادنا من الاشتراك فى هذه البحوث التى عليها يستند الدين من الأدلة الحسية حيال الشبهات العلمية . ولم يبق إلا أن ندعو الحق جل وعلا أن يلهم القائمين بهذه البحوث العون والتوفيق للسير فى دراستها بأكمل ما هى جدير به من التحقيق والتمحيص .

محمد فريد وجدى

(١) نقول نحن إن معنى دخولها الجامعات أنها أصبحت قسما من الموضوعات التى تستحق أن تمثل بين سواها مما يهم الانسانية وأن تدرس علميا دراسة أصولية وتمحص تمحيصا دقيقا .

المجاز والكناية فى القرآن

القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

يقول الله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ » .

قد كتبنا عن تلك الآية فى مقال سبق ؛ وإنا قبل أن نسوق الآيات التى تتناسب مع آية المُلك نريد أن ننبه الى أن تلك الآية لم يتعرض فيها القرآن لاستراق سمع ، أو لخطف ، أو لمقاعد للسمع ، كما جاء فى آيات الحجر ، والصافات ، والجن ؛ بل الذى جاء فى آية الملك أنه عطف على فعل « زينا » فى قوله « ولقد زينا » فعلَ « جعلنا » فى قوله « وجعلناها رجوما للشياطين » فنظم الفعلين فى سمط واحد ؛ وإن الزينة التى زين الله بها السماء الدنيا وهى المصابيح أى النجوم لأثر لحكمة الله وآية على قدرته تصحَب السماء منذ خلقها الله . وإذا كان جعل تلك المصابيح رجوما قد نظم مع التزيين فى سمط واحد ، كان مايقتضيه العطف ونظمهما فى جملة واحدة أن يكون جعلها رجوما كذلك هو مصاحب لها منذ خلقها الله ، وأن حملها على الحجة والبرهان هو الحمل الذى يصحح نظمها مع ماعطفت عليه من التزيين ؛ إذ أن كونها حججا قاطعة وبراهين واضحة على قدرة الله وحكمته وإتقانه لمعنى يصحب السماء ما صحبها التزيين . أما أن يعطف جعلها رجوما على التزيين مع حملها على أحد المعنيين اللذين فسر بهما المفسرون الآية ، وهو أن معنى كونها رجوما هو حذف الشياطين بها حين تحاول الاستراق ، فذلك ما يأبى أن ينتظم مع سابقه فى سلك العطف ، إذ يكون الأمر على ذلك أنها قد مضى عليها تلك الأزمان المتطاولة منذ خلقها الله الى رسالة محمد

وهى غير مؤدى بها ذلك الغرض ، ثم جد عند الرسالة أن كان الشياطين يحذَفون بها حين يحاولون استراق السمع . ألا وإن كل مخلوق من مخلوقات الله فهو لحكمة ، وهو مؤديها من حين وجوده بالقوة أو بالفعل . سنة الله ولن تجد لسُنة الله تبديلا .

وعجيب أنك تقرأ قبل هذه الآية قوله تعالى : « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .

تقرأ تلك الآية فترى أنها تلفتنا إلى آية إتقانه تعالى لما خلق ، فيقول : ارجع البصر هل ترى من فطور ؟ هل ترى من شقوق حتى تكون على يقين من آيات ربك ؟ أى أن السماء خلق محكم متقن لا فطور فيه ولا شقوق حتى يطمع طامع فى نفاذ منها أو تسمُّع . ترى الآية تلفتنا إلى ذلك فى قوة ، ثم تراهم مع هذا يجيزون فى أحد معنييها اللذين ذكروهما فى تفسيرها ؛ تراهم يجيزون تسمع الشياطين إلى ما بداخل السماء مما يتنافى مع ما تشير إليه الآية من إتقان خلقه وبديع تكوينه .

ولقد كان من الخير ، والآية لم تعرض لخطف ولا استراق ، ألا يحملوها على هذا المعنى ، وأن يبقوها فى اتجاهها السامى من لفت العقول إلى آيات حكمته ودلائل صنعته ، التى كتبتها قدرته ، ورسمتها حكمته فى صحيفة الكون ؛ تلك الآيات الناطقة فى بيان بأنه الواحد الذى لا تقادر قدرته ولا تسامَى حكمته . لقد كان من الخير ألا يعرضوا لذلك المعنى فى آية سورة الملك ، ويكفى أن يعرضوا له فى مثل سورة الصافات والحجر والجن .

ألا فليسمعوا الى آية الأنبياء « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » لنسمع الى تلك الآية حتى نعلم أن مثل ذلك إنما يراد منه لفتنا الى بيِّن الآيات وواضح الدلائل على بالغ حكمته وعظيم قدرته . غير أن هذه الآية (آية الأنبياء) قد جلت المراد وأوضحت المفاد ، إذ ذيلت بقوله تعالى « وهم عن آياتها معرضون » .

وهناك فى آية الملك ذيلت الآية بقوله « وجعلناها رجوماً للشياطين » فإذا أنت تأملت ما ذيلت به آية الأنبياء وهو قوله « وهم عن آياتها معرضون » وما ذيلت به آية الملك وهو « وجعلناها رجوما للشياطين » وجدت الحديث فيهما عن شىء واحد هو آيات الله التى أقامها لعباده فى السماء حتى يعبدوه عن بينة ويقين؛ غير أنه عبر عنها فى آية الأنبياء بصريح لفظها، وكنى عنها فى سورة الملك بلوازمها؛ إذ أن وضوح الآيات وقوة الدلائل من لوازمه ردع المجادلين وإسكات المعاندين، وكأنهم إذ يواَجهون بها إنما يرَجون بها رجما .

وانظر بعد هذا كيف ذكرت الآيات بصيغة الجمع ، وكيف أضيفت إلى السماء ، مما يؤذن بأنّ جعل السماء سقفاً محفوظا فيه آيات كثيرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ففى كونها سقفاً مترامى الأطراف دون سقوط مع تطاول الأزمان ولم تستند إلى عمد أو جدران - فى ذلك آية .

وفى زينتها عن صفاء زرقتها وبياض كواكبها ، دون أن يمس متعاقب الدهور بهجتها ، أو يخف على تطاول العصور رونقها - فى ذلك آية .

وفى شمسها وقمرها آية ؛ وفى ثابت نجومها وسائرها آية ؛ وفى اختلاف المشارق والمغارب آية ؛ وفيما ينشأ عنها من ليل ونهار ، وما ينقسم به العام الى فصول وشهور - آية . الى غير ذلك من الآيات البينات التى أعرض الناس عنها بما أعماهم من عناد ، أو شغلهم من فتن هذه الدنيا .

أما المفسرون فإنهم فى هذه الآية قد ذكروا فى تفسيرها أولاً وجهين ، وبدأوا بهما استجابة منهم فى ذلك لما تنادى به الآية من تنبيه العقول الى آيات القدرة . نعم إنهم قد سايروا فيما ذكروه من الوجهين أغراض القرآن السامية ، وجاروا فيهما مراميه من الإرشاد الى برهان وحدانيته وبديع تكوينه ، إذ قالوا : إن معنى كون السماء سقفا محفوظا أنها مع هذه السعة وذاك الترامى قد حفظت من السقوط ، مع أنها لم تعتمد على عمد أو تحمل على جدران ، كما يشهد قوله « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » .

والوجه الثانى مما ذكروه أنها محفوظة من أن يعتريها خلل أو يدانيها فساد ، أو تمس زينتها كرات الدهور ، أو يعبث ببهجتها تتابع الأحداث وتتالى العصور . ولقد أصابوا فى ذلك أيما إصابة ، إذ استجابوا لعظمة القرآن وسمو أغراضه ومراميه : من تطهير النفوس من فاسد المعتقدات وأدران الخرافات ، وتحرير العقول من ربق التقليد ، ودعوتها إلى النظر ليتبينوا آيات الله ودلائل ألوهيته .

غير أنهم مع هذا لم يفتهم أن يذكروا بعد هذين الوجهين ذلك الوجه الذى اعتادوا أن يتناقلوه ، فقالوا : إن معنى كونها سقفاً محفوظاً هو حفظها عن استراق السمع منها . قالوا ذلك مع ماترى من تعبير القرآن المنادى بتجنبه ذلك المعنى ؛ تراه يعبر بقوله سقفاً ، ويصف السقف بكونه محفوظاً ؛ والتعبير بالسقف فيه تخييل ما يحمل عليه من جدران أو عمد ، ليشير بذلك الى آية قدرته من أن هذا السقف المديد الرفيع باق محفوظ من السقوط على مر الأزمان دون أن يحمل على عمد أو جدران . سبحانك ربنا ما أعظم قدرتك وأبلغ حكمتك ! سبحانك ما أحقك أن نعبدك ونقدسك مخلصين لك الدين ! .

ذكر المفسرون ذلك الوجه . وإنا نسائلهم : هل أرادوا من كونه محفوظا عن استراق السمع أن ذلك الحفظ للسماء منذ خلقها الله ، أم هو جديد منذ أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ . فإنهم إن أرادوا الأول يكونوا قد ناقضوا أنفسهم ، إذ ذكروا فى مواضع أخرى أن الحفظ طارىء ولم يكن هذا الحفظ للسماء منذ خلقها الله . وإن أرادوا الثانى وأن الحفظ طارىء فإنا نقول لهم : إن الآية قد عبرت عن الحفظ بصيغة الاسم ، ومعروف أنها للدوام والثبوت ؛ فالحفظ للسماء ليس جديدا لها ، بل هو وصفها منذ كانت عن قدرة الله سماء . وعلى العموم فإن علينا أن يكون بأيدينا حين نفسر القرآن مصابيح مغازيه ومقاصده . وإن القرآن نزل على فترة من الرسل وقد امتلأت رءوس الناس بالخرافات والأباطيل ، وانحجب عنها نور الوحى ونور الهدى ، فراجت الأباطيل وذاعت الأضاليل ؛ فلما أشرقت شمس الهداية بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم استنارت العقول وأضاءت الآفاق ، واستيقظت الأفكار وعرفت الحق عن طريق الدليل والبرهان ، فأصبح الناس فى هدى ونور ؛ اللهم إلا شراذم مغمورة بقوا فى ضلالهم يُلقون وهم يفرون من

وجه الحق فى آذان الضعفاء من الناس بعض خرافاتهم ، والحجج تلاحقهم ، والبراهين تداركهم ، ليجدوا لهم فى الأرض مهربا ، ولات حين مناص .

ولا يفوتنى قبل ختام تلك الكلمة أن أعرض عرضا إجماليا خفيفا لما يذكره المفسرون وهم بصدد معنى الخطف والاستراق من خلافات :

اختلفوا أولا فى حقيقة الجن : هل هى مخلوقات غلبت عليها النارية ، أو غلبت عليها الهوائية ، أو أرواح شريرة فارقت أبدانها . ثم اختلفوا ثانيا : هل الجن مكلفون أو غير مكلفين . ثم اختلفوا ثالثا هل النبى أسمعهم القرآن وهو يراهم ، أو هم سمعوه دون أن يراهم كما تشير آية الجن « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » الى آخر الآيات ؛ فعلم باستماعهم عن طريق الوحى . كل ذلك خلافات بينهم إنما جرهم اليها أنهم أحيانا يغفلون الميزان بمقاصد القرآن العالية ومغازيه السامية .

اللهم امنحنا هدى ورشادا الى ما أودعت كونك من حكمة ، وأقمت فيه من آية ، أنت ربنا ، عليك توكلنا ، وإليك ننيب م ؟

حاشية :

فهم بعض الناس أنى اعتبرت استراق السمع من الأساطير . ونأسف إذ ليس فى مقالنا ما يفيد ذلك ؛ إنما الذى أردته أن المفسرين إنما كان ينبغى لهم أن يعرضوا للاستراق فى سورة الحجر والصافات والجن ؛ أما سورة الملك وسورة الأنبياء فالذى ينبغى حملهما عليه هو ما حملتهما عليه . على أن آية الأنبياء قد فسرها المفسرون بغير استراق السمع .

وفهم بعض الناس أيضاً أنى منعت رسالة الرسول للجن . والذى أريده أن الرسالة بالأصالة للإنس ، والجن تبع ؛ فما من مناداة إلا وهى للناس أو الإنسان ؛ والتكاليف التى جاءت إنما تناسب طبائع البشر ، فلا يكون الجن إلا تبعا .

من هدى النبوة

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى ياسين
مدير إدارة البحوث والثقافة المساعد بالأزهر

أخرج البخارى عن المغيرة بن شعبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله حرّم عليكم عُقوقَ الأمهات ، ومَنْعاً وهات ، ووأد البنات ؛ وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

هذا الحديث قال عنه العلماء : إنه يعتبر أصلا فى معرفة حسن الخلق ، وهو تتبع الأخلاق الحميدة ، والخلال الجميلة ؛ وذلك أنه قد تضمن النهى عن جملة أشياء ، لو عُهِد فى الإنسان التحرز منها ، والتوقى لها ، لكان لذلك برهانا على حسن خلقه ، وجميل أدبه ، ودليلا على قوة استعداده النفسى ، وصلاحيته للتحلى بمختلف السجايا الكريمة ، والشيم الفاضلة .

وقد ذَكر الحديث الشريف فى معرض التحريم والنهى ستة أمور ، كل أمر منها يعد فى ذاته من الذنوب الكبيرة ، والأوزار الجسيمة ، ويعدّ الابتعاد عنها والاجتناب لها دعامة من محاسن الصفات ، ومكارم الأخلاق .

فالأمر الأول هو : « عقوق الأمهات » .

والعُقوق : مأخوذ من العق ، وهو : القطع والشق ؛ فهو شق عصا الطاعة للوالدين ، والمراد به : إيذاؤهما بأى نوع كان من أنواع الأذى ، قل أو كثر ، نهيا عنه أو لم ينهيا عنه ؛ أو مخالفتهما فيما يأمران أو ينهيان ، بشرط انتفاء المعصية فى الكل . وقد ضبط البعض ذلك بوجوب طاعتهما فى المباحات فعلا وتركا ، وباستحبابها فى المندوبات وفروض الكفاية فعلا وتركا كذلك .

والعقوق حرام مطلقاً ، سواء كان موجها إلى الأمهات ، أو موجهاً إلى الآباء ،

إلا أنه اقتصر على ذكر الأمهات هنا ، إما اكتفاء بذكرهن عن ذكر الآباء ، أو لأن عقوقهن فيه مزيد قبح ، أو لعجزهن غالبا ، ورقة حالهن ، وعظيم احتياجهن الى الملاطفة والمحاسنة ، أو لما ينفردن به عن الآباء من صعوبة الحمل ثم الوضع ، ثم الرضاع ؛ فهذه الثلاثة تنفرد الأمهات بها ، ويشقين فى معاناتها ، ثم يشتركن مع الآباء بعد ذلك فى شئون التربية ، ورعاية الأولاد . وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين » فسوّى بين الوالدين فى الوصاية ، وخص الأم بالأمور الثلاثة . وقيل : المراد : أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر ، وتُقدم فى ذلك على حق الأب عند المزاحمة . وسئل الليث فى ذلك ، فقال : أطع أمك ، فإن لها ثلثى البر . والجمهور على أن الأم تفضل فى البر على الأب . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأحمد ، وابن ماجه ، وصححه الحاكم : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » . فيكون عقوق الأمهات على هذا أقبح من عقوق الآباء ، ويكون تخصيصهن بالذكر إظهاراً لعظم شأنهن فى هذا المقام .

والأمهات جمع أمهة ، وهى لمن يعقل ، بخلاف لفظ الأم ، فإنه أعم .

والأمر الثانى ، هو : « منعا وهات » .

وقد جاء فى رواية « منْعاً » هكذا بسكون النون ، وألف التنوين ، وجاء فى رواية أخرى « مَنْع » بسكون النون ، وبدون ألف التنوين على اللغة الربيعية ، وهى على كلتا الروايتين مصدر منع يمنع . وهات : فعل أمر من الإيتاء ، وأصلها عند الخليل آت ، فقلبت الألف هاء . والمراد من النهى أن الله تعالى حرم على الإنسان أن يستأثر ويمنع عن الغير ما أمر بإعطائه ، وأن تسقط همته ، ويطلب من الناس ما لا يستحقه ، ويسألهم ما لا حاجة له فيه . ويحتمل أن يكون المراد النهى عن السؤال مطلقا ، وهو ما أشار اليه بلفظ « هات » ، ولكنه ذكره هنا مع ضده وهو المنع ، ثم أعاد ذكره وحده فيما بعد تأكيدا للنهى عنه ، وهو محتمل أن يدخل فى النهى ما يكون خطابا لاثنين ، كما ينهى الطالب عن طلب ما لا يستحقه ، وينهى المطلوب منه عن إعطاء ما لا يستحقه الطالب ، لئلا يعينه على الإثم .

والأمر الثالث ، هو : « وأد البنات » .

ووأد البنات : هو دفنهن بالحياة ، وهى عادة ممقوتة ، كان أهل الجاهلية يفعلونها ، كراهية فيهن ؛ وكانوا فى ذلك على طريقتين ؛ فمنهم من كان يأمر امرأته إذا قرب وضعها أن تطلق بجانب حفيرة ، فإذا وضعت ذكرا أبقته ، وإذا وضعت أنثى طرحتها فى الحفيرة ؛ ومنهم من كان إذا بلغت البنت السادسة طلب من أمها أن تطيبها وتزينها ، ليزور بها أقاربها ، ثم يبعد بها فى الصحراء ، حتى يأتى البئر ، فيقول لها : انظرى فيها ، ويدفعها من خلفها ، ويطمها . ويقال : إن أول من فعل الوأد قيس بن عاصم التميمى ، وكان بعض أعدائه قد أغار عليه ، فأسر ابنته ، فاتخذها لنفسه ، فلما تم الصلح بينهما ، خُيّرت البنت ، فاختارت زوجها ، فآلى قيس على نفسه ألا تولد له بنت إلا دفنها حية ، فتبعه العرب فى ذلك . وكان هناك فريق آخر يقتلون أولادهم مطلقاً ، خشية ما ينقصونه من أموالهم ، أو عجزا عن الإنفاق عليهم . وقد ذكر الله أمرهم فى القرآن فى عدة آيات . وإنما خص البنات بالذكر فى الحديث ، لأنه كان الغالب من فعلهم ، لأن الذكور مظنة القدرة على الكسب . وكان صعصعة بن ناجية التميمى جدّ الفرزدق أول من فدى الموءودة ؛ وذلك أن كان يعمد إلى من يريد أن يفعل ذلك ، فيفدى الولد بمال ينفق عليه . وإلى ذلك أشار الفرزدق بقوله :

وجدّى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد ، فلم يوأد

وقد بقى كلٌّ من قيس وصعصعة إلى أن أدركا الإسلام ، ولهما صحبة . ولما جاء الإسلام ، أبطل هذه العادة الممقوتة ، ونعى عليها فى كثير من الآيات والأحاديث ، لما يترتب عليها من انقطاع النسل الذى ينشأ عنه خراب العالم .

والأمر الرابع ، هو : « قيل وقال » .

وقع فى رواية الأكثر « قيل وقال » بغير تنوين ، ووقع فى رواية غيرهم « قيلا وقالا » بالتنوين ، والأول أشهر . وقال الجوهرى : قيل وقال اسمان ، يقال : كثير القيل والقال ، مستدلا على ذلك بدخول الألف واللام عليهما . واستدرك عليه البعض بأنهما لو كانا اسمين بمعنى واحد كالقول ، لم يكن لعطف

أحـدهما على الآخر فائدة . وقال فى التنقيح : المشهور عنـد أهـل اللغة فيهما أنهما اسمان معربان ، ويدخلهما الألف واللام . والمشهور فى هذا الحديث بناؤهما على الفتح على أنهما فعلان ماضيان ، ويكون التقدير على هذا : ونهى عن قول قيل وقال . وقـد تعددت أقوال الشراح فى المراد منهما ، فقال البعض : قيل وقال : هو ما يكون من فضول المجالس مما يتحدث به فيها ، كقيل كذا وكذا مما لا يصح ، ولا تعلم حقيقته ، وربما جر إلى غيبة أو نميمة ؛ أما من قال ما يصح ، وعرف حقيقته ، وأسنده إلى ثقة صدوق ، ولم يجر إلى منهى عنه ، فلا وجه لذمه . وقال المحب الطبرى : فى قيل وقال ثلاثة وجوه :

أحـدها : أنهما مصدران للقول ، تقول : قلت قولا وقيلا وقالاً . والمراد فى الأحاديث الإشارة إلى كراهة كثرة الـكلام ، لأنها تؤول إلى الخطأ ، وإنما كرره للمبالغة فى الزجر عنه .

ثانيها : إرادة حـكاية أقاويل الناس ، والبحث عنها ليخبر بها ، فيقول : قال فلان كذا ، وقيل كذا ؛ والنهى عنه إما للزجر عن الاستـكثار منه ، وإما لشىء مخصوص منه ، وهو ما يكرهه المحـكى عنه .

ثالثها : أن ذلك فى حكاية الاختلاف فى أمور الدين ، كقوله : قال فـلان كذا ، وقال فلان كذا ؛ ومحل كراهته أن يكثر من ذلك ، بحيث لا يؤمن مع الإكثار من الزلل ، وهو مخصوص بمن ينقل ذلك من غير تثبت ، ولـكن يقلد من سمعه ، ولا يحتاط له . ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم فى الحديث الصحيح : « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع » .

والأمر الخامس ، هو : « كثرة السؤال » .

واختلاف العلماء فى المراد بكثرة السؤال ، وهل هو السؤال عن المشكلات والمعضلات ، أو السؤال فى العـلم على سبيل الامتحان والمراء والجـدال ، أو الأعم من ذلك ؟ أو أن المراد به كثرة السؤال عن أخبار الناس ، وأحداث الزمان ؟ أو كثرة سؤال شخص بعينه عن شئون نفسه ، وتفاصيل أحواله ، فإن ذلك مما يكرهه المسئول ، ويضيق به كثيرا ؟ أو المراد تـكلف المسائل التى

يستحيل وقوعها عادة ، أو يندر جدا ، لما فيه من التنطع ، والقول بالظن ؛ ولأنه لا يخلو صاحبه من الخطأ . وأما ما قيل من أن المراد كثرة السؤال له صلى الله عليه وسلم عن المسائل التى لا حاجة اليها ، كما قال تعالى : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم » فذلك خاص بزمان نزول الوحى ؛ ويشير اليه حديث : « أعظم الناس جرما عند الله من سأل عن شىء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته » .

وقيل : المراد بكثرة السؤال سؤال المال ، فإنه قد ورد ذمه فى آثار كثيرة كحديث : « لا تزال المسألة بالعبد حتى يأتى يوم القيامة ، وليس فى وجهه مُزعة لحم » ، وحديث ابن عباس : « إذا سألت ، فاسأل الله » . واتفق العلماء على النهى عن السؤال من غير ضرورة ؛ أخرج مسلم فى صحيحه : أن المسألة لا تحل إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع ، أو غرم مفظع ، أو جائحة . واختلفوا فى سؤال القادر على الكسب على قولين : أصحهما التحريم لظاهر الأحاديث ، والثانى الجواز مع الكراهة بشروط ثلاثة : ألا يلح ، وألا يذل نفسه زيادة على ذل السؤال ، وألا يؤذى المسئول . فإن فقد شرط من هذه الشروط حرم . وهذا كله فيما إذا سأل لنفسه ؛ أما إذا سأل لغيره ، فالظاهر أيضا أنه يختلف باختلاف الأحوال .

والأمر السادس ، هو : « إضاعة المال » .

حمل أكثر العلماء إضاعة المال على الإسراف فى الإنفاق ، وقيده البعض بالإنفاق فى الحرام . والأقوى من هذين الرأيين أن إضاعة المال هى إنفاقه فى غير وجوهه المأذون فيها شرعا ، سواء كانت دينية أو دنيوية . والحكمة فى النهى عن إضاعة المال أن الله تعالى جعله قياما لمصالح العباد ، وتنظيما لشئون حياتهم ، وفى تضييعه تفويت لذلك ، إما فى حق مضيعه ، وإما فى حق غيره . فمنع العبد من التبذير ، والحيلولةُ بينه وبين تبديد الأموال ، إنما هو لتحقيق تلك الأغراض السامية التى نظر اليها الشارع الحكيم .

ويتلخص القول فى كثرة الإنفاق وحكمه فى ثلاثة وجوه :

الأول : أن يكون الإنفاق فى الوجوه المذمومة شرعا ؛ وهذا حكمه المنع .

الثانى : أن يكون الإنفاق فى الوجوه المحمودة شرعا ؛ وهذا لا شك فى أنه مطلوب .

الثالث : أن يكون الإنفاق فى المباحات بالأصالة كملاذّ النفس ، وأن يكون على وجه يليق عرفا بحال المنفق ، وبقدر ماله ، وأن يكون لدفع مفسدة ناجزة أو متوقعة ؛ وهذا قال عنه العلماء : إنه ليس بإسراف ؛ أما إذا لم يكن فيه شىء من دفع المفسدة ، فالجمهور على أنه إسراف .

وقد جرى البحث فى جواز التصدق بجميع المال ؛ فمنهم من منع استيعاب جميع المال بالصدقة ، ومنهم من جوّزه لمن عرف من نفسه الصبر على المضايقة .

ومما لا خلاف فى كراهته مجاوزة الحدّ فى الإنفاق على البناء ، والزيادة فيه على قدر الحاجة ، ولا سيما إن أضاف إلى ذلك المبالغة فى الزينة والزخرفة .

وليست إضاعة المال مقصورة على إنفاقه فى المعاصى ، وبذله فى ارتكاب الفواحش ؛ بل يدخل فيها أيضا الإهمال فى رعايته ، والتهاون فى المحافظة عليه ، وسوءُ القيام على تدبيره وصيانته حتى يهلك أو يتلف ؛ كما يدخل فيها أن يدفع المال إلى من لم يؤنس منه الرشد ، أو أن يقسم من الأموال مالا ينتفع بجزئه كالجوهرة النفيسة .

وقال بعض العلماء : الضابط فى إضاعة المال ألاّ يكون لغرض دينى ، ولا دنيوى ، فإن انتفيا ، حرم قطعا ، وإن وجد أحدهما وجودا له بال ، وكان الإنفاق لائقا بالحال ، ولا معصية فيه ، جاز قطعا ؛ وبين الرتبتين وسائط كثيرة لا تدخل تحت ضابط . فعلى المرء أن ينظر إليها بالحذر والاحتياط ، وأن يلحظ فيها الدقة ، والبعد عن كل ما فيه مظنة إثم ، وأن تكون فى حدود الهدى الإلهى الحكيم الوارد فى قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتُروا ، وكان بين ذلك قَوَاما » .

مسئولية الاطباء

– ٢ –

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى
إمام حضرة صاحب الجلالة الملك

عرضت فى مقالى الماضى للآراء التى أبداها الدكتور الفاضل أحمد ابراهيم القاضى بمحكمة المنيا الوطنية ، وبينت أن الفقهاء قد عـرَّفوا بالتحديد الفرقَ بين الطبيب البصير والطبيب الجاهل ، وأنهم عرفوا الإجازات فى شتى صورها ؛ وأوضحت مدى المسئولية التى حددها الفقهاء فى هذه النقطة .

واليوم نريد أن نتابع السير حول الآراء التى عرض لها القاضى الفاضل بعد تلك النقط التى ألمعنا إليها ، ولكن قبل أن ندخل فى صميم الموضوع أحب أن أقدم للباحث المحترم تحديدا أدق مما سلف للطبيب العالم ُذكِر فى شرح الأزهار فى فقه الزيدية ص ٢٨٣ ج ٣ عند قول المتن « ولا أرش للسراية عن المعتاد من بصير » :
« فإذا استؤجر الخاتن أو نحوه فحصل مضرة من عمله لم يضمن بشروط ثلاثة :

« الأول — أن يكون عن سراية ، فلو كان عن مباشرة نحو أن يقطعَ حشفة الصبى ، ضمن ، عمدا كان أم خطأ .

« الثانى — أن يفعل المعتاد ، فلو فعل غير المعتاد ضمن .

« الثالث — أن يكون بصيرا ، فلو كان متعاطيا ضمن .

« والمراد بالبصير من يعرف العلة ودواءها وكيفية علاجها ، ويثق بذلك من نفسه ، وأن يكون قد أجاز له مشايخه ، وفعل مرتين فأصاب ؛ فإن أخطأ فى الثالثة

فليس بمتعاط ؛ لا الأخـذ من الكـتب كما فى سائر العلوم ، ولا يجوز لهم الإيهام بأن الدواء أكثر مما هو عليه . ولو فعل المتعاطى المعتادَ مأمورا به ولم تحصل جناية فلا ضمان ، وبغير أمر يضمن ، ولو لم يفعل إلا المعتاد ؛ فإن قطع البصير المعتاد

فخبثت فهلك الصبي بمباشرة سبب ذلك المعتاد ، ففي البيان لا ضمان ، وقد وقعت في رجل قطع له طبيب فهلك بالمباشرة بالسبب المعتاد ، فأخذ كثير من العلماء بظاهر الأزهار يضمن ؛ وأفتى القاضي محمد بعدم الضمان » .

فأنت ترى من هذه النصوص جميعها أن الأمر وحده لا يكفي ، بل بشرط أن يكون العمل من بصير غير متعاط ، وأن يكون على وفق المعتاد .

وقد عرضنا للكلام حول إسقاط القود بقوله لآخر « اقتلني » فقتله . على أن الزيدية — مع هذا — لا يرون سقوط القود بالإباحة . قال في شرح الأزهار : الإباحة لا تُسقط القود عن القاتل ، فإذا قال لغيره اقتلني فقتله ، أو اقتل ابني ، أو اقطع يدي ، ففعل ، لزمه القصاص ، ولا حكم لهذا الإذن ؛ وكذا إذا قال اقتل عبدي أو بهيمتي ؛ بخلاف قوله اذبح بقرتي ، لأن ذبحها يستباح فلا يضمن إن ذبحها .

ولست أرى بعد ذلك فرقا بين رأى الفقهاء والنظريات الحديثة في موضوع مسئولية الأطباء ، بل إن القضاء في مصر وفي فرنسا جرى على ماجرى عليه الفقهاء بتعديل طفيف ؛ فقد حكمت محكمة جنايات الاسكندرية بتاريخ ١٩٤١/٥/٢٥ بذلك ، وقد جاء في الحكم « والقضاء الحديث على أنه في المسائل المختلف عليها في الطب لا مسئولية على الطبيب متى راعى أصول فنه وأجرى العلاج بإذن المريض » .

ومثل ذلك الأمر في فرنسا . راجع Henri de Bois تعليقا على حكم محكمة السين في ١٩٣٥/٥/١٦ المنشور في داللوز القسم الثاني ص ١٩٣٦/١١ .

فإن كان القاضي الفاضل يرى أن الرضا لا يعدم المسئولية بعد ما سقناه له من نصوص الفقهاء ، وبعد ما ذكره هو مما جرى عليه العمل في القضاء الانكليزي وحكم محكمة النقض المصرية ؛ إن كان يرى ذلك فله - مع وافر التقدير - رأيه ؛ وكل ما كنا بسبيل منه إنما هو بيان أن لا خلاف - في رأينا - بين الفقهاء والنظريات الحديثة إلا في حواش يسيرة تستدعيها ظروف الزمان وظروف التقنين وشكل الصياغة وأسلوب الشرح ، وإلا - بربك - أي فرق بين عبارة الزيدية التي أسلفناها وما سبق نقله عن الحنفية والمالكية ، وبين العبارة التي نقلناها عن حكم محكمة الجنايات المصرية وعبارة داللوز ، وهي في جملتها لا تخرج عن روح الحكم الذي سقناه ؟ . ولست أدري كيف رتب القاضي المحترم النتيجة التي ذكرها

بقوله « ويترتب على الأخذ بهذه النظرية أن رضاء الشخص المعالج يعدم المسئولية مهما كانت صفة المعالج ، فيستوى أن يكون طبيبا ماهـرا أو أن يكون شخصا لا دراية له بالمهنة ولم يحصل على أى دراسة فى علوم الطب الخ » ما ذكره فى عدد ذى القعدة من مجلة الأزهر، بعد أن قرأ ما قرأ من عبارات الفقهاء فى جميع المذاهب ؟ ! ولعله يعدِّل رأيه فى هذه النتيجة بعد أن قدمنا له هذه العبارات الفقهية ؛ والقانونية ، وطبعا هو بها أدرى وأخبر منا .

عرض الأستاذ المحترم بعد ذلك لموضوع جراحة التجميل ، ورأى أن جراحة التجميل مباحة، ويجب أن تكون مباحة ، لدى جمهور فقهاء الشريعة ما دام أساس الإعفاء من المسئولية هو رضاء الشخص المعالج . والفقهاء وإن لم يعرفوا جراحة التجميل بالمعنى الواسع الذى عرفه المحدثون ، فقد عرفوا بعضها ونصوا على حكمه ؛ فقد ذكر الفقهاء فى كتاب الكراهية حكم اتخاذ الأنف من الذهب، ورووا فى ذلك حديثا : « أن عرفجة بن سعد أصيب أنفه يوم الكلاب فأنتن ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب » . وقد أخرجه أبو داود فى الخاتم ، والترمذى فى اللباس ، والنسائى فى الزينة عن أبى الأشهب عن عبد الرحمن بن طرفة : « أن جده عرفجة بن سعد أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفا من ورق فأنتن عليه ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم فاتخذ أنفا من ذهب » إلى آخر الطرق التى خُرج بها الحديث . ولسنا ندرى على التحديد نوع الجراحة التى كانوا يجرونها لتثبيت هذا الأنف ، سواء أكان من الذهب أم من الفضة ؛ ولست أجزم هـل كان هـذا من نوع الجراحة أم من شىء آخر ؛ إنما الذى أجزم به من عبارات الحديث على النحو الذى ذكر أن عملية مّا كانوا يعرفونها للتجميل . وفوق هذا كانوا يعرفون نوع المعدن الذى يوافق العضو المقطوع ويستطاع عن طريقه دفع الرائحة التى كان يتأذى منها ، كما يظهر من إذن النبى صلى الله عليه وسلم له أن يتخذ الأنف من الذهب بدل الفضة ؛ لأن الذهب أدفع للعفونة ولكريه الرائحة من الفضة . والفقهاء جميعا على إجازة هذا النوع ، وإنما خلافهم فى الذهب فقط وهل يباح شد الأنف به أم لا .

ومثل اتخاذ الأنف من الذهب اتخاذ الأسنان منه ؛ وقد روى الطبرانى فى معجمه عن عبد الله بن عمر أن أباه سقطت ثنيته فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يشدها

بذهب . وقد حاولنا أن نتعرف الطريق الذى كانوا يتمون به أمثال هذه العمليات كما حاولنا معرفة عملية التجميل فى الأنف فلم نستطع .

وقد عرض الفقهاء لنوع من جراحة التجميل أيضا ، وهو قطع الأصبع الزائدة ؛ ففى الظهيرية « إذا أراد الرجل أن يقطع إصبعا زائدة أو شيئا آخر ، قال نصير رحمه الله : « إن كان الغالب على من قطع مثل ذلك الهلاك فإنه لا يفعل ، وإن كان الغالب هو النجاة فهو فى سعة من ذلك » . وفى خزانة المفتين « من له سلعة زائدة يريد قطعها إن كان الغالب الهلاك فلا يفعل وإلا فلا بأس به » .

ومن هذه العبارات يمكن القول بأن الفقهاء قد عرفوا النوع الذى عرض له القاضى الفاضل ، وأنهم تكلموا عليه من ناحية جوازه أو كراهته على أساس غلبة الهلاك أو النجاة .

والطبيب ، على أساس إباحة العمل ورضاء من يريد التجمل ، يطبق على عمله الأحكام السابقة التى بيناها عند الكلام على مسألة الختان والفصاد ، من موافقة العمل لما رسمه الأطباء وأهل الذكر فى أمثال هذه العمليات .

ولسنا بحاجة بعد هذه النصوص التى نقلناها عن الظهيرية وعن خزانة المفتين للاستنتاج من أحكام الفقهاء التى ذكروها فى باب الإمامة من حيث إباحة جراحة التجميل ، على أساس أن الفقهاء قالوا إن الخليفة يشترط فى صحة بيعته أن يكون سالما من العيوب الخلقية . فعباراتهم صريحة فى المطلوب .

ويطبق على هذه الجراحة ما يطبق على غيرها مما أذن الفقهاء فى إجرائه إذا أمر به المراد إجراء الجراحة له ، أى أن يكون على وفق الرسم ، وألا يحصل فيه تعد ، إلى آخر ما أشرنا إليه سابقا .

ثم عرض القاضى الفاضل فى عدد المحرم لمسألة قيام الطبيب بعمل لا صلة له بمقتضيات العلاج ، والنتيجة التى وصل إليها الأخ المحترم نتيجة سليمة من الناحية الفقهية ، ولكنه عند ما تكلم على مسألة الخطر الناتج عن السراية قال : وهذا التعليل كان من الممكن قبوله وقت أن وضع هذا الحكم ، أما اليوم وقد تقدمت العلوم الطبية تقدما باهرا ، وأصبح من المتيسر إلى حد كبير معرفة إلى أى مدى يستطيع الجسم تحمل علاج معين أو إجراء جراحة معينة . . .

ونحن لا نريد أن نناقش القاضى الفاضل فى هذه النقطة ، لأن المناقشة فيها جدل لا يؤدى لنتيجة إيجابية ، لأن تقدم العلوم أو تقدم فن الجراحة أو التحليل ومعرفة المقدرة الخاصة لكل جسم على تحمل الجراحة ، كل أولئك لم يغير — فى نظرنا — من صلاحية القاعدة الفقهية للتطبيق ؛ فالمهم فى نظر الفقهاء أن تكون العملية على وفق الرسم ، وأن لا يكون فيها تعد مقصود ، وذلك مسلم فى كل زمن وفى كل عملية على وجهها الخاص بها حسبما يقرره العرف الطبى ، أو حسبما يقرره نقيب الأطباء وزعيمهم عند عرض الأمر عليه كما قال العلامة ابن الأخوة الشافعى فى كتابه معالم القربة فى الحسبة الذى سبق أن أشرنا إليه . وهل يستطيع أى طبيب الآن — مع تقدم فنون الطب والجراحة — أن يقول فى أى عملية مهما أعد لها العدة من التحليل ومن كشف الأشعة وتشخيص المرض من الناحية الاكلينيكية : إن هذا المرض عدم السراية فيه مضمون قطعاً ؟ وهلا سمع الأخ المحترم بعشرات من الوقائع التى ذهب ضحيتها أناس فى ميعة شبابهم ومضاء فتوتهم — حتى من الأطباء أنفسهم — نتيجة المغالاة فى تقدير قيمة تلك المقدمات الطبية سلفاً ؟ ونحن لانريد بذلك أن نغمط الأطباء حقهم ، أوأن ننكرفضل الطب ومدى تقدمه ؛ ولكننا بصدد الكلام على قواعد شرعية يجب أن توضع على قواعد ثابتة وبمظان منضبطة ، حتى يمكن نوط الحكم بها على النحو الذى رسمه الفقهاء ؛ وما من شك فى أن النتيجة التى وصل إليها الفقهاء منطقية وسليمة من الناحية الشكلية والناحية الموضوعية ؛ وأظن الدكتور الفاضل يوافقنا على ذلك .

ثم عرض القاضى المحترم لمسألة رضاء المريض أو إذن وليه عند إجراء عملية جراحية ، إلى أن قال : لوأراد شخص أن يبقى مريضا بغير علاج فلا يمكن إرغامه على أن يعالج نفسه ، ويستثنى من ذلك بعض حالات الأمراض المعدية حيث تحتم القوانين إبلاغ الصحة عنها لتتولى علاج المرضى وعزلهم عن مخالطيهم . أما القسم الثانى وهو الأمراض المعدية فنصوص الشريعة الإسلامية واضحة فيها ، وهى — فيما نظن — أوسع مدى من القوانين الحديثة ، بل إن أساس الحجر الصحى والكورنتينات موجود فيما عمل السلف الصالح ؛ ففى الصحيحين عن عبد الرحمن ابن عوف قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا كان الوباء

بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه، وإذا سمعتم به فى أرض فلا تقدموا عليها».

وقد رجع عمر بن الخطاب بسبب هذا الحديث لما خرج إلى الشام وعلم أن الوباء قد وقع بها، وأن عمر حمد الله وانصرف. قال أبو الحسن بن طرخان الحموى فى الأحكام النبوية «وفى نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدخول للأرض التى حلها الطاعون فائدتان: إحداهما لئلا يستنشقوا الهواء الذى قد عفن وفسد فيمرضوا، والثانية لئلا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك فتتضاعف عليهم البلية، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من القرف التلف. وفسر بأنه ملابسة الداء ومداناة المرضى. وبالجملة قوله لا يقدموا عليه إثبات للحظر والنهى عن التعرض للتلف؛ وحديث أبى داود المذكور من حديث فروة بن مسيك قال: قلت يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبين (قرية الى جانب البحر من ناحية اليمن) هى أرض ريفنا (كل أرض فيها زرع ونخل) وميرتنا (الطعام المجلوب من بلد إلى بلد) وإنها وبئة (أى كثيرة الوباء)، أو قال: وباؤها شديد، فقال عليه السلام: دعها عنك فإن من القرف (ملابسة الداء ومداناة المرضى) التلف (الهلاك). قال الخطابى وابن الأثير: ليس هذا من باب الطيرة والعدوى، وإنما هذا من باب الطب، لأن استصلاح الهواء من أعون الأشياء على صحة الأبدان، وفساد الهواء من أضرها وأسرعها الى إسقام البدن عند الأطباء، وكل ذلك بإذن الله ومشيئته اهـ، وقال العلامة السيد عبد الحى الكتانى محدث مراكش فى كتابه التراتيب الإدارية «ومن العجب ما وقفت عليه فى مكتوب السلطان أبى العباس المنصور: كتب لولده أبى فارس وهو خليفته على مراكش بتاريخ ١٠١١ فى أمر وباء حدث إذ ذاك بسوس قال فيه ما نصه: «والبطاقة التى ترد عليكم من سوس من عند أعمامكم أو ولد خالكم لا تقرأ ولا تدخل دارا بل تعطى لكاتبكم وهو يتولى قراءتها ويعرفكم مضمونها، ولأجل أن كاتبكم يدخل مجلسكم ويلابس مقامكم حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تغمس فى خل ثقيف وتنشر حتى تيبس وحينئذ يقرؤها ويعرفكم مضمونها، إذ ليس يأتيكم من سوس ما يوجب الكتمان عن كاتبكم. وقد كانت — يشير إلى العزل

الصحى — وقعت المحاورة بين عالمى تونس : أبى محمد عبد الله المناعى المالكى ، والشيخ أبى عبد الله محمد بيرم الحنفى ، فى إباحتها وحظرها ، فألف الأول رسالة فى الحرمة ، وألف الثانى فى الجواز ، مستدلا على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة ، اهـ .

وأظن أن هذا القدر يكفى فى نظر الشريعة للأمراض الوبائية والمعدية ، وأن كل عمل يرى فيه المصلحة فهو مندرج تحت حديث الصحيحين ، وما شرح به ابن طرخان سبب النهى .

وأما المرض العادى فليس فيه نص فقهى يلزم الشخص بأمر الدولة بالتداوى ، وإنما الموجود الأمر بالتداوى وأن الرسول عليه السلام كان يتداوى . وفى طبقات ابن سعد ص ١١٦ ج ١ من القسم الثانى عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا مسقاما ، وكانت العرب تنعت له فيتداوى بما تنعت به العرب ، وكانت العجم تنعت له فيتداوى . وفى المواهب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعى صفات الأطعمة وطبائعها ، ويراعى استعمالها على قاعدة الطب ، فإذا كان فى أحد الطعامين ما يحتاج الى تحسين وتعديل لحرارته كسره وعدله ، وهذا أصل كبير فى المركبات والأدوية ، وإن لم يجد ذلك تناوله على حاجة وداعية من غير إسراف . هذا هو الأصل فى التداوى ، وهو واجب ديانة دفعا للهلاك عن النفس ، فإذا رأى ولى الأمر أن شخصا ماترك مداواة نفسه وعرضها للهلاك ، فلا نظن أن روح الشريعة تأبى أن يرغم ولى الأمر شخصا أو أشخاصا أو مجموعة على العلاج والمداواة إذا تحقق بذلك غرض صحيح للفرد أو الأفراد أو جماعة المسلمين . وأقل ما فى الأمر أن التداوى مباح ؛ ولو أمر به ولى الأمر على وجه صحيح ولغرض مشروع أصبح واجبا ، وعلى الشخص المأمور أن يطيع ، وأصبح أمر ولى الأمر بهذا المباح واجباً كما يعلم ذلك على التفصيل من مراجعة ما كتبه الفقهاء حول مبحث أمر ولى الأمر بالمباح . ولا نريد الإفاضة فيه فذلك مبحث من السهل الرجوع اليه ومعرفة جملته وتفصيله .

ثم عاد الأستاذ مرة أخرى لبحث مسألة رضاء المريض أو وليه بإجراء الجراحة ، ونقل عبارة عن الشافعية فى مسألة قطع السلعة من رأس عاقل بالغ ،

والنتائج التى تترتب على ذلك الفعل » إلى آخر ما ذكر فى عدد المحرم السابق ، ثم عقب على ذلك بقوله « وواضح مما تقدم أن مسئولية الطبيب إذا باشر العلاج بغير إذن تكون مسئولية عمدية فيقتص منه متى كان القصاص ممكنا .

ولم نجد فى غير مذهب الشافعى تحديدا واضحا لمعنى الضمان الواجب على الطبيب إذا أجرى جراحة بغير رضاء المريض أو وليه ، وهل المقصود من الضمان القصاص أم الدية ، ومع ذلك فإننا نعتقد أن المقصود بالضمان القصاص ؛ لأن فعل الطبيب فى هذه الحالات عمدى ، ولا يوجد ما يسوغه أو ما يسقط القصاص عنه ا هـ .

أما أن الفقهاء من غير الشافعية لم يحددوا معنى الضمان الواجب فغير مسلم ؛ فقد نص الفقهاء من غير الشافعية على حكم الضمان ؛ فقد ذكرت هذه المسألة بالتفصيل فى الزيلعى والهداية والدر المختار من كتب الحنفية . وهاك عبارة الدر : « ولا ضمان على حجام وبزاغ أو فصاد لم يجاوز الموضع المعتاد ، فإن جاوز ضمن الزيادة كلها إذا لم يهلك ، وإن هلك ضمن نصف دية النفس ، فلو قطع الختان الحشفة وبرئ المقطوع تجب عليه دية كاملة ، وإن مات فالواجب عليه نصفها » . وقد علق صاحب رد المحتار على هذه العبارة بقوله « لم يجاوز الموضع المعتاد أى وكان بالإذن ؛ قال فى الكافى : عبارة المختصر ناطقة بعدم التجاوز وساكتة عن الإذن . وعبارة الجامع الصغير ناطقة بالإذن ساكتة عن التجاوز ، فصار ما نطق به هذا بيانا لما سكت عنه الآخر ، ويستفاد من مجموع الروايتين اشتراط عدم التجاوز والإذن لعدم الضمان حتى إذا عدم أحدهما أو كلاهما يجب الضمان . ا هـ طورى .

وعليه ما يأتى عن العمادية : ويريد « بذلك » الفرع الذى ذكره شارح الدر بقوله « ولو شرط على الحجام ونحوه العمل على وجه لا يسرى لا يصح ، لأنه ليس فى وسعه ، إلا إذا فعل غير المعتاد فيضمن . عمادية . وفيها : سئل صاحب المحيط عن فصَّاد قال له غلام أو عبد : افصدنى ، ففصده فصدا معتادا فمات بسببه قال : تجب دية الحر ، وقيمة العبد على العاقلة لأنه خطأ ا هـ . قال ابن عابدين تعليقا

على قوله خطأ : أى من القتل الخطأ إذ لم يتعمد قتله ، والدليل عليه عدم مجاوزة الفعل المعتاد . اهـ .

فأنت ترى من هذه العبارات أن الضمان محدد ومعناه الدية ، وأن الضمان إنما يكون إذا تخلف أحد الشرطين لنفيه ، وهما المذكوران فى عبارة الكافى السابقة ، وهما عدم التجاوز والإذن ، وأنه إذا لم يوجد إذن أو وجد إذن غير معتبر — أى كَـلاَ إذن — كإذن الصبى والعبد وحصل موت بسبب الفصد ، فالدية فقط بشرط أن يكون على وفق الرسم لأنه خطأ فى الفعل إذ لم يقصد قتله كما تعطيه عبارة العمادية السابقة . وأوضح من هذا فى هذا المعنى ما أجاب به صاحب العمادية حين سئل عمن فصد نائما وتركه حتى مات من السيلان ، قال : يجب القصاص . قال الطهطاوى : أى لأنه قتله بمحدد أى وهو قاصد لقتله فكان عمدا .

ولعل الأخ المحترم يرى بعد ذلك أن الحنفية قد وضحوا معنى الضمان عند عدم الإذن ، وبينوا متى يكون موجبا للقصاص ومتى يكون موجبا للدية .

وبذلك ترى أنه لاخلاف بين الشافعية والحنفية ؛ لأن عبارة الشافعية إنما توجب الضمان فى السلعة لأنه جرح لايؤمن معه الهلاك ، فلذلك وجب القصاص ، وأصبح الحكم فيها كمسألة فصد النائم وتركه حتى ينزف ، التى أجاب بها صاحب العمادية . والحنابلة قد ذكروا مثل هذا أو قريبا منه ؛ فقد ذكر فى المغنى ج ٦ ص ١٢٠ عند قوله : « ولا ضمان على حجام الخ ما نصه : « وجملته أن هؤلاء إذا فعلوا ما أمروا به لم يضمنوا بشرطين : أحدهما أن يكونوا ذوى حذق فى صناعتهم ولهم بها بصارة ومعرفة ، لأنه إذا لم يكن كذلك لم يحل له مباشرة القطع ، وإذا قطع مع هذا كان فعلا محرما فيضمن سرايته كالقطع ابتداء » الى آخر ما ذكره هناك . فضمان السراية كالقطع ابتداء إنما يكون بالقصاص إذا كان العمل من جاهل بالطب يعمل على غير الرسم . وقد ذكر المواق ج ٦ فى شرحه على متن خليل فى مذهب مالك عند قول المتن « وضمن ما سرى كطبيب جهل أو قصر » ما نصه : من مات من سقى طبيب أو ختن الحاجم أو تقليعه ضرسا لم يضمنه إن لم يخطئا فى فعلهما ، إلا أن ينهاهما الحاكم عن القدوم على ذى غرر إلا بإذنه ، فمن

خالفه فى ضمن ماله. هذا ظاهر السماع ؛ وما كان بخطأ فى فعله كسقيه ما لا يوافق المرض أو تزل يد الخاتن أو يقلع غير الضرس المأمور به فإن كان من أهل المعرفة ولم يغر من نفسه فذلك خطأ تحمل عاقلته الثلث فصاعدا ، وإن غر من نفسه عوقب بالضرب والسجن. وفى كون أرش الجناية الى الخطأ أو فى ماله قولان : « أو بلا إذن معتبر » ابن الحاجب ، فإن كان جاهلا به أو لم يؤذن له فلا ضمان كالخطأ ، وإذن العبد أن يحجمه غيرُ مفيد. ولو أذن عبد فى فصد أو حجامة أو ختان قال مالك : فإن أمره عبد أن يختنه أو يحجمه أو يقطع عرقه ففعل فهو ضامن ما أصاب العبد فى ذلك ، أو فعله بغير إذن سيده ، علم أنه عبد أو لم يعلم .

وعبارة المالكية هذه كعبارة الحنفية ، ومعنى الضمان فيها واضح بمعنى الدية . ولم أجد للمالكية عبارة تشبه العبارة التى ذكرها صاحب العمادية من الحنفية وقال فيها بوجوب القصاص عند قصد القتل العمد بفصد أو نحوه .

والمهم فى كل ما ذكرنا أن الضمان معناه واضح فى كتب المذاهب التى بين أيدينا والتى عرضت لهذه المسألة ، لاخلاف بينها فيها ، حتى إن صاحب المغنى قال ـ فى آخر العبارة التى أسلفنا نقلها ـ : فيضمن سرايته كالقطع ابتداء ، وهذا مذهب الشافعى وأصحاب الرأى ، لانعلم فيه خلافا .

ثم عرض القاضى الفاضل لمسألة الحالات التى تستوجب الإسعاف العاجل والتى لا يمكن انتظار الحصول على الرضا فيها لما فى ذلك من خطر بليغ ، وعلق على ذلك بقوله : ولم نجد فيما رجعنا اليه من كتب الفقه الإسلامى من تعرض لهذه المسألة وبـيَّن حكمها ، ومع هذا فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المسئولية عن أعمالهم التى يؤدونها فى الحالة التى يستحيل فيها على المريض أن يبدى رأيه فى العلاج .

قد عرض العلامة ابن القيم لهذه المسألة فى مبحث « جريان العرف مجرى النطق » ج ٢ ص ٢٢ ، إذ قال بعد كلام طويل فيما جرى فيه العرف مجرى النطق : ومنها لو رأى شاة غيره تموت فذبحها حفظا لماليتها عليه كان ذلك أولى من تركها تذهب ضياعا ، وإن كان من جامدى الفقها من يمنع ذلك ويقول : هذا تصرف فى ملك الغير ، ولم يعلم هذا اليابس أن التصرف فى ملك الغير إنما حرمه الله لما

فيه من الإضرار به ، وترك التصرف ها هنا هو الإضرار . ومنها : لو استأجر غلاما فوقعت الآكلة فى طرفه فتيقن أنه إن لم يقطعه سرت إلى نفسه فمات ؛ جاز له قطعه ولا ضمان ... الى آخر ما ذكره من الفروع فى هذا المبحث القيم .

وأظن المسألة الأخيرة نص فى الموضوع : فالقاضى الفاضل يعلم أن إذن السيد واجب فى أى عمل يراد إجراؤه للغلام ، ومع ذلك سقط اعتباره لموضع العرف وللضرورة خوف السريان ، فمثله للشخص المريض الذى يحتم الحال أن يداوى بأى دواء أو يعمل له أى عمل وليس من الممكن الحصول على إذن من يملك الإذن ، والعرف يقضى بأن مداواة هذه الحال خير من الإهمال ؛ بل إن العرف جرى على لوم من يقصِّر لعدم الإذن ، وأخذه بالمذمة لتراخيه فى أمر كان من الواجبات ، وكان من المحتمل أن ينقذ حياة ينعم فى ظلالها من كانوا يعيشون فى كنفها .

هذه مسائل فى غاية الوضوح ، والقاضى الفاضل يعلم قيمة العرف ومقدار الأخذ به فى الشريعة الإسلامية حتى مع الأمور المنصوص عليها . ولعل هذا النص من ابن القيم يكون موضع غناء للقاضى الفاضل ، فيرى أن فقهاء الشريعة لم يجمدوا فى حالة كهذه ، بل — على النقيض — رمى ابن القيم من وقف فى أمثال هذه المسائل باليبس والجمود .

وفى الحق إنى لأشكر للقاضى المحترم أن هيأ لى فرصة التلاقى به عن طريق مجلة الأزهر ، فوق شكرى له الذى قدمته فى المقال السابق أن عنى بهذه الأبحاث الشيقة من ناحية الشريعة والقانون ، وإن كان فى مقالاته التالية ما يدعونا للقاء مرة أخرى فسأكون جد سعيد بذلك ؛ فعسى أن يسير بجهده المقدر مداه ، والمحمود أثره . وفقه الله وأعانه لخدمة الشريعة الحقة على ضوء الأبحاث القيمة .

الاسلام والمسلمون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

— ٢ —

جرت عادة الناس أن يرجعوا عظمة المسلمين حين كانوا أعزة الى عملهم بشريعتهم ، وتمسكهم بدينهم ، وأن يرجعوا ضعفهم وذلهم فى العصور الأخيرة الى انصرافهم عن هذا الدين ، وهوانِ هذه الشريعة عليهم . وإن هذا لحق ما فيه شك ؛ ولكن مثل هذا السبب عام ، أو هو يثير تساؤلا جديدا ، فيقال : وما سر انصرافهم عن الدين بعد أن كانوا به متمسكين ، وعليه حريصين ؟ وعندى أن السبب المباشر لضعف المسلمين هو تفرقهم واختلافهم بالأهواء والنزعات ، وتبادلهم سوء الظن فيما بينهم ؛ فكل طائفة قائمة فى بلادها ، عاكفة على ما عندها ، تظن أنها هى وحدها التى على الحق ، وما سواها من المسلمين على الباطل ، ويسهل عليها من جراء ذلك أن ترمى غيرها بالكفر أو الزندقة أو المروق ، أو كذا أو كذا ، مما يوسِّع الهوة ، ويزيد النار اشتعالا ؛ وما منا إلا من يذكر فى تاريخه كيف غرس فيه منذ الصغر مبادىء الكراهية والخوف من بعض الطوائف ، والحذر والاحتياط منهم ، كما يغرس فيه الخوف والحذر من أهل الكفر على سواء . بهذا كره المسلمون بعضهم بعضا ، واستولى عليهم الجهل بأحوالهم ، وقست قلوبهم عما يصابون به فرادى ؛ فكل شعب حسبه أن يتمتع هو بشىء ولو يسير من مظاهر الهناءة والسعادة ، ولا يفكر فى الشعوب الأخرى التى هى بضعة من الأمة الإسلامية ، ولو مزقها الممزقون ، وأكلها الآكلون ؛ وذلك بأن عواطف الأخوة الإسلامية قد تقطعت وحل محلها البغضاء وسوء الظن .

ولعل قائلا يقول : لقد كان هـذا الخلاف بين المسلمين قائما فى أول عهد الأمة الإسلامية ، ومع ذلك جـيّشوا الجيوش ، وفتحوا الفتوح ، وبلغوا رسالة الإسلام الى أمم الأرض ، فلماذا لم يضعفهم الخلاف ، ولمـاذا لم يسقط دولتهم ؟ والجواب على ذلك سهل يسير ؛ فإن هذا الخلاف الذى بكر على المسلمين منذ أول عهدهم هو الذى فعل فعله ، وأثر آثاره فى حالة الضعف والركود التى أصيبت بهـا الأمة الإسلامية ؛ غير أن الشعوب لا تموت فيما بين عام وعام ، أو فيما بين عشرات من السنين وعشرات ، وإنما تصاب بالمرض فتقاوم حينا من الزمن ، وتعصمها قوتها ومناعتها الى حين ، فاذا ضعفت هذه المقاومـة أو غذى المرض وقوى وسوعد ، تمـكن وعجل بآثاره السيئة ؛ وهكذا كان حال المسلمين : أصيبوا بداء الخصام والتنازع فاستسلموا له ، بل قووه وساعدوه على أنفسهم ، ومكنوا له فيما بينهم ، فظل يستشرى ويتفاقم ، وظلت الأمـة تضعف وتضعف فى شكل تدريجى لا يكاد يُحَس ، وكانت الأمم من حولهـا ضعيفة مهينة قد ذاقت قوة المسلمين وعرفت بلاءهم وكفايتهم ، فلم تحدثها نفسها بانتهاز الفرصة ، وما كانت قادرة على انتهازها ، وظل التقاطع وسوء الظن ، والأهواء والمطامع ، ظل كل هذا يفعل فعله فى مثـابرة حتى انتهى أمر الدولة الإسـلامية على أيدى رجال الدولة الإسلامية ، ثم قويت الأمم الأخرى ، وأصبحت قادرة على الانتقام من المسلمين ، فأحكمت خطتها ، وجعلت تستغل الخلافات القديمة ، وتذكى نيرانها ، وتعين كل طائفة على الأخرى باسم المحافظة على فكرتها أو عقيدتها ، أو ملـكها وسلطانها ؛ ونظر المسلمون فإذا هم يجمعون الى الضعف الشتات والفرقة ، وإذا هم صيد سهل مُواتٍ لـكل صائد ! .

فالخلاف الأول هو البذرة الأولى فى أرض الإسلام ، هـو السر فى انتهاء أمر المسلمين الى ما انتهوا اليه ؛ ولو ظل المسلمون كما تركهم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إخوانا متفاهمين متعاونين ، وعالجوا اختـلاف الرأى فيما بينهم بمثل ما كان يعالج به أبو بكر وعمـر وعثمان وعلى خلافهم ، من تغليب المصالح العليا للإسـلام والمسلمين على كل ما سواها ؛ ولم تنقلب الخلافة الإسلامية ملـكا

عضوداً ، همه توطيد السلطان ، والانفراد بالحكم ، والتمتع باللذائذ ، ونسيان الجهاد وبث رسالة الإسلام - لو ظل المسلمون كما كانوا ، ولم يصادفهم ما صادفهم ، لغزوا العالم كله ، ولأوصلوا دعوة الحق إلى كل ناحية من نواحي الأرض ، ولبلّغوا بذلك كلمة الله ، ووقوا العالم هذا الشر المستطير الذى لا يفيق منه إلا عليه ، ولا يتحرر منه إلا ليخضع له .

يجب على المسلمين أن يخلقوا من أنفسهم أمة جديدة ، وأن ينسوا خلافاتهم الماضية ، وعصبياتهم التى شتتهم وأضعفتهم ، وعطلت مواهبهم ، وأماتت فيهم نزعة العلو ، وأقعدتهم عن التمسك بأهداب المجد .

يجب على المسلمين أن يعتصموا جميعا بحبل الله ، وأن يذكروا أن الله امتنَّ على آبائهم فى عهد الرسول الكريم بأنهم كانوا أعداء فألَّف بين قلوبهم ، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها .

يجب على المصرى أن يضع يده فى يد العراقى والشامى والإيرانى والأفغانى والحجازى واليمنى والتركى والباكستانى والملايوى والألبانى وكل مسلم يؤمن بكتاب الله ويشهد أن محمدا رسول الله ، ويجب على هؤلاء جميعا أن يضعوا خلافاتهم ومطامعهم وراءهم ظهريا ، ويذكروا فقط أنهم جنود لله قد اشترى أنفسهم وأموالهم ، وحملهم رسالة هى خير رسالة وأشرفها وأجداها على الإنسانية . تلك هى الدعوة الى الخير ، والإقناع بالحق ، وعبادة إله واحد لا شريك له ، والتمسك بأهداب المنهاج القويم الذى يكفل لكل من تمسك به السعادة والأمن والطمأنينة والقرار .

إنهم إن فعلوا ذلك أنقذوا أنفسهم ، وأنقذوا العالم معهم ، وأثبتوا أنهم جديرون بميراث هذه النبوة الإصلاحية ، والرسالة الشاملة . إن الأنبياء لا يورثون دينارا ولا درهما ، ولكن يورثون مبادىء الفضيلة والخير والبر ، ويحملون أتباعهم أمانة الحق والإيمان والإصلاح .

إن العالم اليوم يغلى فى أتُّون من نار المطامع ، وترفرف عليه روح شيطانية مفتَّنة فى الشر ، مندفعة الى الفساد ، بل الى الهلاك والدمار ، ولا يصلحه إلا دين

يسوِّى بين الناس جميعا لا فرق بين أحمرهم وأسودهم ، ويجعل أخوة الإيمان بين المؤمنين هى الجنسية التى بها يكون التراحم والتعاطف والتعاون ، ويأمر برد من خرج عليها الى دائرتها عن طريق التكافل والنصرة والعدل والنصَفة ؛ وليس هذا الدين الذى تدعو اليه الآن ضرورة البشر بشدة وقوة إلا « الإسلام » .

ولا سبيل الى إقناع العالم بهذا الدين ، إلا بالمسلمين أنفسهم ، فإنهم حملة لوائه ومفاتيح كنوزه ، والقادرون على جلائه ونشر نوره ، ولن يكون ذلك إلا إذا اتحدوا حوله ، وائتلفوا عليه ، وتمسكوا فيما بينهم بأهدابه ، ونسوا هذه الخلافات الفارغة التى لا طائل تحتها ، ولم يكلفهم الله بها ، بل نهاهم عنها ، وحذرهم منها .

وعلى قادة الفكر ، وأصحاب الرأى فى العالم الإسلامى يقع العبء فى إقناع المسلمين بهذا ، وفى تربيتهم عليه ، وغرسه فى ناشئتهم ، وبثه فى أرواحهم ، حتى ينسى الأفراد فى كل طائفة أنهم على خلاف مع غيرهم من أرباب الطوائف الأخرى ، فلا يعرف الشيعى بجانب السنى إلا أنه مسلم مع أخيه المسلم ، ولا يعرف النجدى مع أخيه اليمنى إلا أنهما أبناء كتاب واحد ورسول واحد ، كما لم يعد أحد يشعر بأنه شافعى والآخر حنفى ، أو مالكى والآخر حنبلى .

على قادة الفكر وأصحاب الرأى فى العالم الإسلامى ، أن يوجهوا المسلمين وجهة أخرى عملية نافعة تنهضهم ، وتغير مافى نفوسهم ، ليغير الله مابهم ؛ فقد طالما أوغلوا فى الجدال فى تفضيل فلان على فلان ، وتخطئة فلان وتصويب فلان ، وحب فلان وبغض فلان ، ممن ذهبوا الى ربهم ، وأصبحوا فى ذمة التاريخ ، ولم يعد لهم أثر فى شئوننا الحاضرة ! .

على قادة الفكر وأصحاب الرأى فى العالم الإسلامى ، أن يتناولوا البحوث الجدلية ، والمعارف التى لا صلة لها بالعقائد فى هدوء ويسر ، ودون تعنت ولا تعصب ، وأن يعلموا أن الخطأ فيها لا ينال من الدين والايمان ، وأن الإصابة فيها ليست وقفا على فريق دون فريق ، وأن لكل إنسان أن يرى ما يرى ما دام مؤمنا بالله ورسالاته واليوم الآخر ، مصدقا لما جاء به الصادق الأمين .

بين الشريعة والقانون
نظرات فى توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

— ٢ —

من توثيقات الرسول :

وكما حدثنا القرآن الكريم فى قَصصه وفى تشريعه عن التوثيق فى المعاملة ، حدثتنا السنة وكتب السير فى غير ريبة عن توثيقات صدرت من النبى صلى الله عليه وسلم أو أقرها ، وقد عرف لبعضها تاريخ معين ، ولم يعرف لأكثرها تاريخ محدود على وجه الضبط . وقد ذكروا فيما يدل على عناية الرسول عليه السلام بالتوثيق أن الحصين بن نمير ، والمغيرة بن شعبة ، كانا يقومان للنبى عليه السلام بكتابة المداينات والمعاملات [1] .

ومن أسبق الوثائق الكتابية التى عُرف صدورها عن الرسول عليه السلام ، وثيقة تميم الدارى ؛ إذ كانت قبل الهجرة وبقى أثرها حتى اليوم ؛ وفى هذا يقول الشيخ عبد الحى الكتانى ناقلا عن ابن عساكر وغيره [2] : « آخر مكتوب حفظ التاريخ جلدة المكتوب فيه يعينه له عليه الصلاة والسلام الكتاب الذى أقطع به تميما الدارى أرضاً بالشام ، وهو مكتوب مشهور معروف فى العصور السابقة ، تكلم عليه أهل الحديث والتاريخ والفقه وغيره » . وذكر سياقا للقصة بالسند

---

(١) كتاب الأصابة ، تجارب الأمم ، السيرة الحلبية ، محاضرات ابن عربى ، جوامع السيرة .

(٢) كتاب التراتيب الادارية لعبد الحى الكتانى .

الى أبي هند الدارى نصه « قال أبو هند : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر ، وسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطعنا أرضاً من أرض الشام ، فقال رسول الله عليه السلام : حيث شئتم ، فقال تميم لقومه : أرى أن نسأله بيت المقدس وكورها ، فقال أبو هند : هذا محل ملك العجم ، وكذلك يكون فيه ملك العرب وأخاف ألا يتم لنا هذا ، فقال تميم : بيت جرين وكورها ، فقال أبو هند : هذا أكبر وأكبر ، فقال تميم : فأى شيء نسأله ؟ فقال أبو هند : أرى أن نسأله القرى التى يقع بها — تل — مع آثار ابراهيم ، فقال تميم : أصبت ووفقت . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم : أتحب أن تخبرنى بما كنتم فيه أو أخبرك ؟ فقال تميم : بل أخبرنا يا رسول الله نزدد إيمانا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أردتم أمراً فأراد هذا غيره ، ونعم الرأى . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعة جلد فكتب لنا كتابا : نسختُه « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول الله للداريين : إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون ، وجيرون ، وبيت ابراهيم بمن فيهن أبداً . شهد عباس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس ، وشرحبيل ابن حسنة وكتب » إلى أن قال : ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم « انصرفوا حتى تسمعوا بأنى قد هاجرت » قال أبو هند : انصرفنا ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدمنا عليه فسألناه أن يجدد لنا كتابا ، فكتب لنا كتابا نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا ما أعطى محمد رسول الله لتميم الدارى وأصحابه : إنى أعطيتكم عينون ، وجيرون ، والرطوبة ، وبيت ابراهيم برمته وجميع ما فيه ، عطية بت ، وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الآبد ، فمن آذاهم فيها آذاه الله . شهد أبو بكر بن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان وكتبه » .

ويروى هذا السياق من طريق أخرى عن ثور بن يزيد ، عن راشد بن سعد قال : « قدم تميم الدارى ، وهو تميم بن أوس ، رجل من لخم ، فقال : يارسول الله إن لى جيرة من الروم بفسلطين لهم قرية يقال لها جرين ، وأخرى يقال لها بيت

عينون ؛ إن فتح الله عليك الشام فهبهما لى ، فقال صلى الله عليه وسلم : هما لك . قال : فاكتب لى بذلك ، فكتب له رسول الله الكتاب السابق » .

ومن تمام الرواية الأولى عن أبى هند : فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر ، وجّه الجنود إلى الشام ، فكتب لنا كتابا نسختُه ... ثم ذكر صيغة التجديد التى صدرت من أبى بكر لأبى عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنهما .

وقد تناقل العلماء هذه الوثيقة فى كثير من الكتب ، حتى صرحوا أن قطعة الجلد كانت من خف على بن أبى طالب . وهذا مما يثبت تأكدهم من صدق القصة ، وصرحوا بأن هذه الإقطاعية بيد ذرية تميم الدارى ، وهم كثيرون هناك بأرض الخليل حتى اليوم .

فهذه وثيقة كتابية فى معاملة مالية صدرت من الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لنفر من أصحابه قبل الهجرة ، ولكن فى أى سنة ؟ لم يبينوا . ثم تجددت من النبى عليه السلام بعد الهجرة سنة تسع ، عقب غزوة تبوك ، كما ذكروا .

ووثيقة ثانية كتبها النبى عليه السلام فى غزوة الخندق ، ومعروف أنها كانت فى السنة الخامسة بعد الهجرة : كتبها لعيينة بن حصن الفزارى ، والحارث بن عوف المرِّى ، وهما من رؤساء القبائل التى تحزبت على المسلمين ؛ فحينما رأى النبى شدة الأمر وتألب الأحزاب على المسلمين ، دعا إليه هذين الرجلين ، فجاءاه خفية ، وعرض عليهما أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بأتباعهما من الأحزاب فقبلا ، وكتب الوثيقة لهما بذلك ، وقبل توقيعه عليها أحضر سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، واستشارهما فى إنفاذ الصلح على ذلك ، فتكلما مع النبى عليه السلام فيما يحمله على ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما » . فأشار سعد وسعد على الرسول ألا يفعل ، وقالا بعد كلام طيب لا أطيل بذكره : لا نعطيهم والله إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فأمر النبى عليه السلام بتمزيق الصحيفة ، وقال للرجلين « ارجعا ، بيننا وبينكم السيف ! » .

فهذه وثيقة أخرى كتبها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الخامسة ، وهمّ بتنفيذها لولا ما رأى بعد المشورة أن الخير في إهمالها .

ووثيقة ثالثة كتبها عليه السلام لمولاه أبي رافع ، يثبت بها عتقه ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم : كتاب من محمد رسول الله لفتاه أسلم - وهو أبو رافع - : إني أعتقك لله عتقا مقبولا ، الله أعتقك وله المن عليّ وعليك ؛ فأنت حر لا سبيل لأحد عليك ، إلا سبيل الإسلام وعصمة الإيمان ، شهد بذلك أبو بكر ، وشهد عثمان ، وشهد عليّ ، وكتب معاوية بن أبي سفيان » .

ووثيقة رابعة كتبها للعدّاء بن خالد في معاملة مالية ، ونصها كما ذكر الترمذي قال : عن محمد بن بشار ، عن عباد بن ليث ، عن عبد المجيد بن وهب ، قال : قال لي العدّاء بن خالد بن هوذة : ألا أقرأ لك كتابا كتبه لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت بلى ؛ فأخرج لي كتابا « هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترى منه عبدا - أو أمة - لاداء ولا غائلة ولا خبثة ، بيع المسلم للمسلم » - الغائلة : الإباق أو السرقة أو الزنا ، والخبثة : بيع من له عهد مع المسلمين .

فهذه كذلك وثيقة أثبتها الرواة ولم يذكروا لها وقتا معينا على وجه التحديد ، وإنما ذكروا أن إسلام العداء هذا كان بعد فتح مكة وبعد غزوة حنين ؛ إذ هو القائل فيما رووا عنه : قاتلْنا رسولَ الله يوم حنين فلم يظهرنا الله عليه ولم ينصرنا .

وكذلك تنص كتب السنة على أن النبي عليه السلام اشترى من يهودي طعاما - عشرين صاعا - بثمن مؤجل ، ثم رهن عند اليهودي درعه على ذلك الثمن . وفي ذلك ما روى الترمذي متصلا بابن عباس رضي الله عنهما قال « توفي النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة بعشرين صاعا من طعام أخذه لأهله » .

فهذا توثيق بالرهن كما كان بالكتابة . وكذلك روى ابن ماجه أنه عليه السلام ضمن غيره في معاملات مالية ، وحكى ما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رجلا لزم غريما له بعشرة دنانير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الغريم : ماعندي شيء أعطيكه ، فقال : والله لا أفارقك حتى تقضيني أو تأتيني بحميل

ـ ضامن ـ بجره الى النبي صلوات الله عليه، فقال له النبي عليه السلام: كم تستنظره؟ قال: شهرا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أحمل ـ أضمن ـ الخ» .

وإن تكن هذه توثيقاته من نفسه عليه السلام، فقد كانت لأصحابه توثيقات لم ينكرها عليهم؛ ومن هذا القبيل ـ وهو كثير ـ ماحكاه النعمان بن بشير من قصة أمه مع أبيه، إذ رغبت أمه الى أبيه بشير أن يخص ولدها النعمان بشيء من عقاره، فلما استجاب لرغبتها طلبت اليه توثيقها من نفسه بإشهاد الرسول على هذا التخصيص، غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل بشيرا: هل كل ولدك أعطيت؟ فقال بشير: لا، فامتنع من الشهادة على هذا التصرف لما فيه من حرمان لبقية أولاده. ولم يكن الاستيثاق فى ذاته موضع اعتراض من الرسول عليه السلام. وهذه قصة مشهورة .

فهذه صور من التوثيق فى المعاملات؛ بعضها بالكتابة، وبعضها بالرهن، وبعضها بالضمان، وبعضها بالشهادة؛ كما كانت للرسول فى كثير من الشئون توثيقات بالحلف تجاوزت ثمانين موضعا، على ماحكاه ابن قدامة الحنبلى وابن القيم؛ كقوله: والذى نفسى بيده، والذى بعثنى بالحق. وقد مر بنا قوله لسعد وسعد: والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة... الخ .

فإذا أفادتنا تلك الأمثلة ونحوها مشروعية التوثيق لحكمة أجملناها قبل، وسنفصلها بعد، فهى تفيدنا أن كل نوع منها على حدته ثابت عن الرسول عليه السلام، ولا يضيرنا عدم التحديد فى كل منها للسنة أو الشهر، وإنما يعوزنا التحديد أن لو كان هناك تعارض بين ما يثبت وينفى، وليس فى شيء مما ذكرنا تعارض، ولا فى شيء منها ريبة، ولم يكن يمنع هذا من محاولة الوصول الى معرفة الترتيب الزمنى بين هذه التوثيقات فى صدورها عن الرسول؛ غير أن الإطالة فى ذلك لا تجدى القارىء كثيرا؛ وحسبه أن يقف بعد هذا المطاف على أن كل نوع مما ذكرنا ظل تشريعا قائما لم ينسخ منه شيء، كما بقى التوثيق بالحلف والتوثيق بالبينة وبالإقرار، وبالقرائن، لم يبطل منها شيء، ولم يكن الابتداع منها فى شيء «قل هذه سبيلى أدعو الى الله، على بصيرة أنا ومن اتبعنى، وسبحان الله، وما أنا من المشركين»

ولنا عود إن وفق الله سبحانه ؟

المحتسب فى أيام الدولة الفاطمية

لحضرة الأستاذ الدكتور عطية مصطفى مشرفه

— ١ —

القضاء وإن سبق الحسبة فى الظهور ، وكان منذ ولادته عظيم الشأن موفور الكرامة متمتعاً بجلال الملك ومظهره ، لأنه بيد صاحب التاج والصولجان - إلا أن الحسبة كانت وليدة عاطفة نبيلة فى الهيئة الاجتماعية أيضا . لقد عاشا منذ ظهورهما سويا ، وتوثقت الصلات المتينة والعلاقات الشريفة بينهما ، وتكونت منهما دعامة قوية لهيكل العدالة ، تضىء الطريق وتنشر الضياء للفرد لاتّباع المُثل العليا . نعم يحتاج القضاء بطبيعته الى الأناة والتدقيق فى الحكم ، كما تحتاج الحسبة الى السرعة ؛ ولكن كل هذا لا يقلل من قيمتهما اذا اجتمعا معاً فى يد واحدة ، كما كان يحدث أحياناً .

ووظيفة الحسبة من الوظائف الدينية الهامة ؛ لأن قوامها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغرضها الإصلاح بين الناس الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين ؛ وهى مشتقة من قولك : حسبك ، بمعنى اكفف ؛ فالمحتسب يكفى الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم ، ويبعد عنهم الظلم ؛ وهى تستند الى الكتاب الكريم والسنة الشريفة ؛ فقد قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وقال عز وجل أيضا : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وقال عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وقال أيضا « لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده » .

ولما كانت الحسبة كما رأينا أمراً بمعروف ونهيا عن منكر وإصلاحا بين الناس ، وجب أن يكون المحتسب فقيها عارفا بأحكام الشريعة الغراء التى سيأمر

وينهى بتعاليمها ، عفيفا عن أموال الناس ، متصفا بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، لا يكون قوله مخالفا لفعله ؛ لأن فى اتصافه بكل هذا وبغيره من الصفات الحميدة صونا لعرضه ، وتعزيزا لهيبته ، وبعداً له عن الشبهات ؛ لذا كان المحتسب أيام الدولة الفاطمية من « وجوه المسلمين وأعيان المعدلين » ؛ فكان يراعى فى اختياره التقوى والصلاح والورع ، وحسن الإيمان بالله ، حتى يملأ وظيفته الدينية الجليلة الشأن الرفيعة المنزلة ؛ وأن يكون « مسلماً حراً بالغاً عاقلا قادراً » « وشيمته الرفق ولين القول ، وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق » وأن يكون مواظبا على سنن الرسول صلى الله عليه وسلم من « قص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب وتقصيرها ، والتعطر بالمسك » .

وكان يقرأ سجله ويخلع عليه فى المسجد الجامع على المنبر . وكان المحتسب الى أول عهد الفاطميين سُنِّياً ، فأقاله جوهر قائد المعز لدين الله على أثر الفتح وعيَّن مكانه رجلا من المغاربة فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) هو سليمان بن عشرة .

وكانت يد المحتسب مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة أداها ، يؤازره « السلطان » إذا احتاج الى المؤازرة ، ويساعده « والى المظالم » إذا أحتاج للمساعدة ، وتقوم « الشرطة » بتنفيذ أحكامه إذا لجأ اليها ، ولم يكن عمله حسبة لوجه الله ، بل كان يتقاضى ثلاثين دينارا [1] شهريا .

وكان ديوان المحتسب متصلا بديوان القاضى ، ويجلس بجامعى عمرو والأزهر .

ولما كانت الحسبة من قواعد الامور الدينية ، فقد تولاها فى العصر الفاطمى بعض الأئمة ، كالحاكم بأمر الله مثلا ، بأنفسهم « لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها » .

ولقد تولى الحسبة الوزير بنفسه ، كما تولاها يعقوب بن كِلِّس سنة ٣٦٣ مثلا ، وأسندت أعمال الحسبة أحيانا إلى « متولى الشرطة » بمصر والقاهرة ، وإلى القضاة معظم أيام الفاطميين بمصر .

وكان المحتسب يتخذ لكل أهل صنعة عريفا ممن اشتهر بالتقوى والصلاح ، خبيراً بصنائعهم ، بصيراً بغشهم وتدليسهم ، مشهوراً بالثقة والامانة ، ليخبره عن سلعهم وبضائعهم ، ومبلغ جودتها ورداءتها ، وأسعار أثمانها ، ليقف على كل صغيرة وكبيرة فيها . ولا غرو فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه « استعينوا على

(١) يساوى الدينار ٦٠ قرش تقريبا .

كل صنعة بصالح أهلها » . ومع ذلك فقد اندس بين العرفاء بعض أصحاب الذمم الخربة والرءوس الخالية من الحكمة والتدبير ؛ فيحدثنا المقريزى [١] بأن عريفاً حنق على خباز من أرباب صنعته ووكل به عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم ظلما ، فلما مر قاضى القضاة استغاث الخباز به ، فأحضر المحتسب وأنكر عليه ما فعل بهذا الخباز ، فذكر أن العادة جرت باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب البضائع وأنه يقبل قولهم فيما يذكرونه ، فأحضر قاضى القضاة عريف الخبازين المتسبب لهذا الضرر وصرفه عن العرافة بعد أن عوض المجنى عليه نقوداً .

أى أن المتظلم من المحتسب كان يلجأ إلى « قاضى القضاة » الذى كان له أن يحضر المحتسب ليحاسبه على فعله مع الرعية .

كما نستنتج كذلك من هذا النص أن العقوبة التى كانت توقع من المحتسب على المخالف ، كانت إما عيناً سواء بالنهى أو الوعظ أو الإنذار أو الردع والزجر والتعزير والتأديب بالسوط والدرة وغيرها من أنواع العقوبات ، أو نقدا بتوقيع الغرامات . وللمحتسب أيضا مصادرة وإعدام الأشياء الفاسدة والمحرمة ، وغلق الحانوت ؛ فله أن يريق اللبن المغشوش ، وأن يحرق الطعام المحتكر بالنار ، وأن يكسر أوانى الخمور ، وأن يرمى الطعام الفاسد على المزابل خارج البلد أو يعدمه .

وكان كصاحب الشرطة ينفذ العقوبة بنفسه ؛ فإذا عثَر مثلا على شارب الخمر جلده بالسوط ثمانين جلدة موزعة على كتفيه وإليته ؛ وهكذا يفعل فى حدود الله الأخرى [٢] . وقد يأمر شاهد الزور بركوب دابة وهو مقلوب مسود الوجه .

ويقيم المحتسب النواب عنه بالقاهرة ومصر وسائر الأقاليم ليقوموا نيابة عنه بكل هذه المهام ؛ فكان كالنائب العام فى زماننا يدفع بوكلائه فى الجهات المختلفة لينوبوا عنه فيما يعرض لهم من أعمال ، ويختارهم من أصحاب « العفة والصيانة والنهضة والشهامة » لأنهم عيونه الذين بهم يتمكن من معرفة الأخبار وأحوال السوق ، وكان له أن يؤدبهم إذا أخطأوا ؟ (يتبع)

---

(١) كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٩١ [٢] وعلى ذلك فقد اشترك مع صاحب الشرطة فى ذلك ، كما كان عمله أحيانا خليطا من اختصاص « القاضى » و « قاضى المظالم » ولكن حكمه لايتوقف على رفع الدعوى اليه لأنه واجب على كل مسلم قادر ولأنه لا ينظر إلا فى المسائل البسيطة الواضحة التى يظهر فيها الحق جلياً .

طرف من مقاصد القصص القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

نزل القرآن الكريم ، على قلب رسول كريم ، تتفجر منه أنهار الحكمة ، وتسيل منه أسرار الكون وينابيع الرشاد ، ينير البصائر ، ويذكى القرائح ، ويرشد السالك ، ويهدى للتى هى أقوم .

يحمل بين تضاعيفه وثناياه ما يبدد حجب الظلمات المتكاثفة ، ويشرق على النفوس فتصفو وتسمو ، وعلى العقول فيذكو جوهرها ويصقل ، ويتسع أفقها ويعظم ، ويؤيد النبى محمداً صلى الله عليه وسلم فى دعواه أنه رسول رب العالمين .

أهاب بالخلق أن يعتصموا بحبل الله المتين ، وأرشدهم إلى تجنب مواطن الزلل الذميم ، وضع للحق أعلاما لا تخفى ولا تشتبه ، وبنى له منارا لا ينثلم ولا ينهدم .

قصَّ من قصص الأنبياء والمرسلين ومن أنباء الأولين ما كشف القناع وحسر اللثام عن العبرة التى تتألق فى عقدها ، والعظة الحسنة التى تتهادى بين سطورها ، فتضفى على النفوس ألوانا من الصفاء واليمن ، والخير الذى يطارد الشر حتى يصرعه ويحتل مكانه ، وعلى القلوب أشكالا من الخصب والازدهار والمعارف التى تعصف بالجهل فتطوح به فى القفار والمهامه . ولا غرابة أن تستحيل بعد ذلك مرآة صافية تتراءى فيها الحكمة الشاردة ، والصور الطريفة .

ولما كانت القصص تحمل بين طياتها العجائب والأسرار ، وتحتوى على المواعظ والحكم والفوائد والعبر ، اشتمل القرآن الكريم على الكثير منها .

فمزاياها لا تقف عند حد ، ومقاصدها التى تهدف إليها لا يحصيها عد ؛ فكلما كرت الغداة ومر العشى ، واستبحر العمران وزخر العلم ، ظهرت فى الآفاق آيات بينات ، وأعلام شاهدة ، ومقاصد سامية ، ومصالح قيمة يدركها أولو الرأى السديد والبصيرة النافذة من ثناياها ومن بين آياتها .

وحسبها أنها تحكى أمورا كانت مجالا للأخذ والرد والقبول والصد ، وميدانا يتنافس فيه السابقون ويحجم عنه الخاسرون ؛ كانت لها نتائج وآثار وقعت بين

أناس شاهدوها وعرفوا أطوارها، وما كان لها من بالغ الأثر: ما بين طيب مستساغ، وما بين مر المذاق؛ ما بين جميل محمود وما بين قبيح مذموم؛ ما بين من كان ذا حظ عاثر ونجم آفل، وما بين من كان سعده ميمونا وفجره لائحاً.

فحكاية مثل هذا بلا شك يصوِّر المعقول فى صورة المحسوس، ويبرز خفيات الأمور، ويكشف النقاب عن الحقائق فتظهر سافرة ترشد على نفسها بنفسها لايغشاها ما يحجب جبينها الوضَّاح.

لذلك كانت القصة أخت المثل فى أنها ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى وقمع سورة الجامح الأبى؛ فهى تجعلك تعيش فى ذلك الجو وبين تلك البيئة حتى كأنك فرد من أبناء ذلك العصر الذى وقع فيه المحكى: تشاهد ما يشاهدون، وتدرك ما يدركون، وتلمس بيدك نتيجة ذلك الأمر ومغبته، وتراه تحت مواقع نظريك ماثلا بين يديك، تعرف خيره من شره، وأْريه من شريه، وطيبه من غثه، وصحيحه من مريضه، وسليمه من سقيمه. وإن فى ذلك لأثرا بالغا فى النفس، يهديها إلى رشدها، ويجنبها عثراتها، ويلهمها فجورها وتقواها.

ومن هنا يجدر بنا أن نورد طرفا من مزايا القصص وفوائده، هى قلٌّ من كُثرٍ، ويسير من كثير.

فأنت إذا ما طرق سمعك قصة آدم عليه السلام، وعلمت أطوار خلقه، وأنه خُلق من صلصال من حمأ مسنون، ثم نفخ فيه الروح فصار بشرا سويا يسمع ويبصر، ويدرك ويعلم ما عجزعنه الملائكة الروحانيون، مع ما خلع عليه من جلال ووقار وجمال للصورة — فأنت إذ تسمع تلك القصة فى ذلك القالب الساحر الذى أفرغت فيه، أخذت عليك حواسك ومشاعرك، وجعلتك تعيش بين كنفيها وفى أحضانها؛ وإذ ذاك بلا شك تدرك أن هذه الآية لا تكون نتيجة الصدفة ولا الطبيعة، وإنما هى أثر من آثار قدرة حكيم، وفيض من فيوضات مدبر عليم، لا يشاركه فى تدبيره سواه، تنزه عن الند والشبيه، وتفرد بالملك والتصريف. وكم من آيات فى القصص القرآنى نصبها الله تعالى للاستدلال على كمال قدرته وتفرده بالألوهية.

وإذا ما استقصيت القصص القرآنية للأنبياء والرسل، عليهم صلوات الله

وسلامه ، وتتبعتها ، رأيتهم قاطبة يدعون إلى توحيد الله وعبادته ، والإيمان باليوم الآخر ؛ فكل شريعة تأتى مؤيدة لما قبلها ، ومقررة ما دعت إليه من العقائد الصحيحة ، ومكارم الأخلاق وأمهات الفضائل ، قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » . وقال الرسول صلوات الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزائم من مشاهير الأنبياء عليهم السلام . وتخصيص هؤلاء بالذكر إنما هو لعلو شأنهم ، وإلا فما من نبى إلا وهو مأمور بما أمروا به من التوحيد ودين الإسلام ، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام ، كما ينبىء عنه التوصية ، لأنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به الذى بينه تعالى بقوله « أن أقيموا الدين » الذى هو توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون به الإنسان مؤمنا . وإن فى التعبير بالإقامة ما يرشد إلى وجوب تحقيق أركان الدين ودعائمه على وجه الكمال والمحافظة عليه من أن يقع فيه زيغ أو انحراف . ثم نهى عن التفرق فيه بقوله « ولا تتفرقوا فيه » أى لا تكونوا فرقا يخالف بعضكم بعضا فى الدين الذى هو عبارة عما ذكر من الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار ، كما ينطق به قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » وإن اتفاق جميع الشرائع فى الأحكام الاعتقادية مع تطاول الزمن وتبدل العصور لجدير بأن يعطيك صورة ناطقة بصدق رسل الله وأنبيائه وصحة ما دعوا إليه من التوحيد إخراجا للناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وصعودا بهم إلى مراقى المعرفة التى تنجيهم من العذاب الأليم .

وإنك لترى فى ثنايا القصص القرآنى ما قام به أنبياء الله ورسله من بذل منتهى وسعهم ، وتفانيهم فى ميدان الدعوة إلى الله وسبيله ، لا يرجون من أممهم جزاء ولا أجرا ؛ وإنما يبلغون رسالة تحملوها ، ويؤدون أمانة اختيروا لها ، يبتغون رضوان ربهم ، ويرهبون سلطانه . فمن قصة نوح عليه السلام

« ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون » .

وإن بذل الوسع والتفانى فى سبيل الحق لمن أسمى المقاصد وأنبل الخلال التى يجدر بكل ذى لب سليم أن يتحلى بها ويتشح بوشاحها .

ترى فى القصص القرآنى مبلغ احتمال الأنبياء الأذى وصنوف المكاره ، وسفاهة المعاندين ؛ وما كان ذلك يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم ويوهن من عزائمهم . فمن قصة نوح عليه الصلاة والسلام « وقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » بل كان ذلك يزيدهم ثباتاً وجلادة وتسفيها لأحلام المعاندين ، غير مبالين بما يلحقهم من ملمات وشدائد ، ويحيط بهم من تنكيل وتعذيب . يتجلى ذلك فيما يحكيه الله عن سيدنا ابراهيم عليه السلام ، قال : « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؛ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » فكان من طغيان القوم وتغاليهم فى الظلم والعسف ومن طمس البصيرة أن قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . فما أوهن ذلك من عزيمته ولا ثناه عن المضى فيما يدعو اليه ، حتى ألقوه فى نار تلظى جمعوا لها الأحطاب والوقود بكل ما أوتوا من قوة ، وأسعروها بيد أثيمة وقصد خبيث حتى امتدت ألسنتها واندلع لهيبها وتأججت جذوتها ، وأفغرت فاها تلتهم اليابس والأخضر وتأتى على كل ما يقع فى شباكها ويقف فى طريقها ، لا ترحم صغيراً ولا كبيرا ولا حجرا ولا مدرا بل يصطبغ ذلك بصبغتها وينطبع بماهيتها ، فيزيد نارها نارا وجذوتها تلظيا وتسعيرا ؛ ولكن حراسة الله وعنايته بمن له دعا إلى عبادته وتوحيده أحبطت أعمالهم ، وخيبت آمالهم ، فكانت برداً وسلاما على إبراهيم .

وإن فى ذلك لتسلية لخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضا على الثبات والتجلد فى سبيل نصرة الحق والدين ونصر الله وتأييده للمخلصين من عباده

ما داموا فى نصرة دينه ، وخذلان الطاغين وكبتهم ما داموا فى عماياتهم سادرين : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنَوْا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعِدت ثمود » .

يرشد القصص القرآنى إلى مبلغ ما كان عليه أنبياء الله ورسله من الخلق الكريم والأدب العالى ، فنتأسى بهم ، ونتبع سبيلهم ، ونترسم خطاهم . فها هو ذا هود عليه السلام قد دعا قومه إلى توحيد الله وما فيه اليُمن والخير لهم ، فقالوا له : « إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » فأجابهم بقوله « ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » . فانظر كيف قابل سفاهتهم بحلمه ، وطيشهم بكامل عقله ، وضلالهم بإسداء خالص النصح لهم . وإن هذا ليهدى الى التخلق بخلق الحلم وكظم الغيظ ، ومقابلة السوء بالفضل والإحسان ، ولا يجعل النفس تثور وتسترسل عند إغضابها ؛ ولذلك يمدح الله تعالى نبيه بقوله : « وإنك لعلى خُلُق عظيم » « فبما رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضّوا من حولك » . فمن اتصف بصفة الحلم ملك قلوب الناس وانقادوا له ، وأمن على نفسه من شرورهم ، وتيسر له الاستيلاء على مشاعرهم وتهذيب نفوسهم ، وتطهيرها من الأضغان والأحقاد .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ فطالما استعبد الإنسان إحسان

يرشدنا القصص القرآنى الى أنه لادافع لقضاء الله ، ولا مانع من قدره ، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير فلن يستطيع أحد منع ذلك ودفعه ، وأنه تعالى هو الذى يلتجأ اليه عند الابتلاء والمحن ، وأن الصبر مفتاح الفرج . يتجلى ذلك بصورة واضحة لكل ناظر فى سورة يوسف عليه السلام : طلب إخوته من أبيهم أن يرسله معهم يرتع ويلعب وهم له حافظون ، وفى الوقت نفسه قد أجمعوا أمرهم على التخلص منه ليخلو لهم حب أبيهم وإقباله ، ورغما من توجس أبيهم خيفة على يوسف أن يكيدوا له كيدا وقوله لهم « إنى ليحزننى أن تذهبوا به » فقد أسلمه اليهم ، ووقع ما كان يخافه ويحذره . ألقوه فى غيابات الجب فى غير رحمة وشفقة ،

فأطلت عليه رحمة الله تؤنسه فى جبه ، وتحميه من كل ما عسى أن يكون من بأس وضر ؛ وما إن التقطته السيارة واعتز فى بيت العزيز حتى ابتلى فى ذلك البيت بامرأة العزيز ، فشغفها حبه ، ثم توعدته قائلة « لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فلجأ الى الله وحده قائلا « ربِّ السجنُ أحب إلى مما يدعوننى اليه ، وإلا تصرفْ عنى كيدهن أَصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين » .

حبس فى السجن فأعز الله شأنه وأعلى قدره ، وتملك مصر بعد أن كانت تظنه عبدا لها ، وجعله على خزائن الأرض ، ومكن له فيها ، وآتاه الملك وعلمه تأويل الأحاديث « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين » وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بَعد طول المدة وبُعد الشُّقة « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » وإن فى ذلك لعبرة لكل ذى لب ، وحكمة سامية ، وآية صادقة على أنه تعالى مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وأن الصبر مفتاح الفرج ، وأن مع العسر يسرا « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

تقدير البيان

قال أحمد بن مطير : أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتا كنت مدحت بها بعض الولاة وهى :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيقطر يوم الجود من كفه الندى ... ويقطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس لم يثن كفه ... على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجود فرغ كفه ... لبذل الندى ما كان بالأرض معدم

فقال لى عبد الله : كم أعطاك ؟ قلت : خمسة آلاف . قال : فقبلتها ؟ قلت : نعم ، قال لى : أخطأت ، ما ثمن هذه إلا مائة ألف !.

اتق الله وتوكل عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين
المدرس بالأزهر

« يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

لما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى آخر سورة السجدة بالإعراض عن الكافرين بقوله تعالى : « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » ناسب أن يفتتح سورة الأحزاب بأمره صلى الله عليه وسلم بالتقوى ، والنهى عن إطاعة الكافرين فيما يعرضون عليه من الاقتراحات التى تتنافى مع التوحيد ومع أصل الرسالة وأساسها ، على ما سيمر بك فى سبب نزول الآية ؛ لتشابه المقطع والمطلع .

وجميع النداءات الصادرة من الله تعالى فى القرآن الكريم لنبيه صلى الله عليه وسلم جاءت مطردة على وتيرة واحدة ، فهى منصبة دائما على وصفه صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة ، ولم يصدر نداء واحد فى القرآن باسمه أصلا ، فلم يقل « يا محمد » فى موضع واحد منه ، بل قال « يأيها النبى اتق الله » « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » . . . الخ ، تعظيما له وتشريفا ، وتنويها بفضله ورفعة شأنه .

أما فى الإخبار فقد ذكره باسمه ، ليعلم الأمة بأن محمدا هو الرسول ، فى مثل قوله تعالى « محمد رسول الله » ، « وما محمد إلا رسول » ، والدليل على ذلك أن الأخبار التى لا يقصد بها التعليم لم يذكره فيها باسمه ، بل بوصفة بالنبوة والرسالة كما هو شأن النداء ، فى مثل قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » ، « وقال الرسول يا رب » « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » الخ .

فالأخبار الواردة فى القرآن قسمان : قسم يراد به تعليم الأمة أن محمدا هو رسول الله لأجل أن يدعوه بهذا الوصف تعظيما له وتأدبا فى مخاطبته ، وهذا يذكر فيه اسمه صلى الله عليه وسلم صراحة ؛ وقسم لا يراد به التعليم فحكمه حكم النداء يذكر فيه وصفه بالنبوة والرسالة . . . أما النداء كله فهو بوصفه لا باسمه كما علمت . هذا هو الشأن معه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد ناداهم الله فى القرآن بأسمائهم « يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد » « يا موسى أقبل ولا تخف » « يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس . . . » « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض » الخ ، دفعا للالتباس والإيهام : إذ لو ناداهم بأوصافهم بالنبوة والرسالة لاشتبه ذلك بنداء محمد صلى الله عليه وسلم . على أنه لا يبعد أن يكون قد ناداهم فى كتبهم بأوصافهم تعظيما لشأنهم كما فعل مع الرسول فى كتابه ، فكلهم مصطفون ، وكلهم أخيار ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكل ما أردت أن أبينه لك ، أيها القارىء الكريم ، إنما هو أسلوب القرآن فى نداء الرسل ، لتكون على بينة من أمره .

ولا يذهب بك الظن أن هذه الآيات التى جعلناها موضوعا لهذا المقال سهلة الدلالة واضحة المعنى ، فهى تدل على أن الله تعالى أمر نبيه بالتقوى ، ونهاه عن إطاعة الكافرين والمنافقين ، وأمره كذلك باتباع الوحى ، وأن يفوض أمره اليه ، لأن الأمر وإن كان يبدو كذلك وأنه سهل يسير ، إلا أنه فى الواقع جد خطير . فتعال معى لنفهم نداء البعيد فى قوله تعالى : « يأيها النبى اتق الله » .

فكلنا يعلم أن الله تعالى أقرب الى النبى والى جميع خلقه من حبل الوريد ؛ فلماذا خولف الأسلوب ، ووردت الصيغة بنداء البعيد ؟ وليس هذا خاصا بهذا المقام ، بل هو عام فى جميع نداءات القرآن ؛ إذ المنادِى فيها كلها هو الله جل شأنه ، سواء كان المنادى النبى والرسول ، أم المؤمنين أم الكافرين ، فالكل سواء من هذه الناحية . والجواب : أن مخالفة الأصل لأحد أمور أربعة ، أوْ لها كلها : (١) عظمة المنادِى وهو الله عز وجل . (٢) عظمة المنادَى وهو هنا النبى صلى الله عليه وسلم . (٣) الاهتمام بشأن المدعو له ، وهو هنا الأمر بالتقوى واتباع

الوحى والتوكل على الله والنهى عن إطاعة الكافرين والمنافقين ، أو لهذه الثلاثة جميعا ، فإن النكت البلاغية لا تتزاحم ، بل يجوز جمعها . (٤) غفلة المنادَى وعدم تنبهه ، وهو لا يصح هنا أصلا ، ولا يصح تقريره ، حاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ وإذا كنا لا نستسيغ تقريره فى نداء المؤمنين فى مثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم » لرفعة شأن المؤمنين وبعدهم عن الغفلة ، فكيف بسيد الرسل صلوات الله وسلامه عليه ؟ إنما يصح هذا فى نداء الكافرين فى مثل قوله تعالى : « يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » . وإذا علمت ذلك سهل عليك تقرير المجاز فى النداء ، فإن العلماء قد قرروا مجازيته ؛ ذلك لأن « يا » حرف موضوع لنداء البعيد ، فإذا استعمل فى نداء القريب كان مستعملا فى غير ما وضع له فهو مجاز بلا نزاع ، ويكون المعنى المراد به هو نفس ما خولف الأسلوب لأجله ، أعنى عظمة المنادَى أو المنادِى الخ ؛ فهو مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . هذا ويرى بعض العلماء أنها موضوعة بالاشتراك اللفظى لنداء البعيد والمتوسط والقريب ، وعلى هذا الرأى تكون مستعملة فى نداء القريب ، استعمال المشترك فى أحد معانيه ، فتكون حقيقة ، وتكون القرينة معينة . وقد كثر النداء فى القرآن الكريم بهذه الصيغة « يأيها » كثرة مستفيضة لما تضمنته هذه الصيغة ـ على اختصارها ـ من ضروب البلاغة والروعة والفخامة مما لا يوجد فى غيرها . فقد اشتملت على خمسة أنواع من أهم ما يقصد بلاغة :

١ ـ تكرار المنادَى ، فإن أى وإن كانت وصلة لنداء ما فيه أل لتعذر ندائه بغيرها ، فلا يقال يا النبى ، إلا أنه أعطى حكم المنادى ، فكأن المنادى ذكر مرتين .

٢ ـ الإيضاح بعد الإبهام ، فإن أى مبهمة ، والنبى أوضحها .

٣ ـ اختيار لفظ البعيد للدواعى المتقدم ذكرها آنفا .

٤ ـ تأكيد معنى البعد بحرف التنبيه ، وتعويضا عما يستحقه لفظ « أى » من المضاف اليه .

٥ ـ اجتماع التعريفين : التعريف المستفاد من حرف النداء ، والتعريف المستفاد من « أل » فى المنادى ، وكلها مما يعنى به البليغ ويقصده .

أرأيت معى أن الأمر ليس سهلا يسيراً كما تصورت . ولعلك فهمت الآن أن هذه دراسات تنفعك فى جميع مواضع النداء فى القرآن الكريم .

وأعود بك الى بيان معنى التقوى ، ومعالجة الإشكال الوارد عليها فى هذا المقام ؛ وحاصل الإشكال : أنه كيف يأمر الله تعالى نبيه بالتقوى مع أنه متصف بها فعلا فى أعلى درجاتها وأرفع منازلها ؟ فلا يصح أن يكون المعنى على إنشائها لحصولها بالفعل واتصافه بها . قال العلماء : إن المعنى : داوم عليها واستمر ولا تقطعها . والأمر بالدوام معهود فى الأساليب العربية ، بل وفى القرآن نفسه ، فقد قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل » فأنت ترى أنه وصفهم بالإيمان حيث أخبر عنهم بأنهم آمنوا ، وهو لا يتم إلا إذا كانوا آمنوا بالله ورسوله والقرآن والكتب السماوية ، ثم أمرهم بعد ذلك بالإيمان بما آمنوا به ؛ فالمعنى : داوموا واستمروا .

وعندى أن هذا لا يقلع الإشكال من أساسه ؛ لأن هذا وإن صح فى شأن المؤمنين ، لا يصح فى شأن الرسول صلى الله عليه وسلم لعصمته وعدم عصمتهم ، فهم يتصور منهم قطع الدوام فيكون أمرهم بالدوام مفيدا معنى تأسيسيا ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتصور فيه هذا أصلا لأنه معصوم ، فأمره بدوام التقوى كأمره بإنشائها سواء ، فلا يكون الأمر تأسيسيا . ولذلك حرص بعض كبار المفسرين فى هذا المقام على تفسير الأمر بالتقوى ، لا على معنى دوامها ، بل على الازدياد فيها ، والترقى فى مدارجها .

ونص عبارة الألوسى : « وقيل الازدياد منها ، فإن لها بابا واسعا ، وعرضا عريضا لا ينال مداه » اه . أما الزمخشرى فى الكشاف فقد جمع بين المعنيين فى عبارة واحدة ، ونص عبارته : « اتق الله : واظب على ما أنت عليه من التقوى ، واثبت عليه ، وازدد منه ، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره » اه .

ومعنى التقوى فى الأصل : أن يتخذ العبد لنفسه من ربه وقاية ؛ وذلك يكون بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، فتفسير العلماء لها بهذا تفسير بلازم المعنى . ولها فى الاصطلاح معان ثلاثة ، أشار القرآن الكريم لها ؛ الأول : تقوى الشرك وذلك يكون بالإيمان ، وهى التى أشار لها القرآن بقوله « وألزَمهم كلمة التقوى » .

الثانى : امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، وهذا المعنى هو المشهور والمتبادر فى الذهن عند الإطلاق ، وقد أشار القرآن الى المعنيين فى قوله تعالى فى وصف المتقين فى أول سورة البقرة : « هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

الثالث : تقوى الله حق تقاته ، وهى التى أشار لها القرآن بقوله : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » قالوا : وهو أرقى أنواعها لأنه ينصب على أن يصرف العبد جميع أعضائه الظاهرة والباطنة فيما يرضى الله . وهى تقوى خواص الخواص ، فينبغى حمل المعنى هنا على هذا ، إذ من أحق به منه صلوات الله وسلامه عليه . وإيثار لفظ الجلالة هنا « اتق الله » لتربية المهابة ليسارع المخاطب الى امتثال المأمور به .

« ولا تطع الكافرين والمنافقين » :

لما اتفقت هذه الجملة الكريمة مع سابقتها فى الإنشائية لفظا ومعنى ، ناسب عطفها عليها بالواو (الوصل للتوسط بين الكمالين) . والمعنى : لا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوه منك ، ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم فإنهم أعداء الله ورسوله ، وأعداء المؤمنين ، لا يريدون لكم خيرا بل شرا وضيرا ؛ وذلك أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة ابن أبى جهل ، وأبا الأعور السلمى من كفار مكة ، قدموا عليه صلى الله عليه وسلم فى زمان الموادعة التى كانت بينه وبينهم ، وقام معهم من منافقى المدينة عبد الله ابن أبىّ بن سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع وتشفع وندعك وربك ؛ فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، وهموا بقتلهم ، فنزلت الآية الكريمة ناهية النبى عن إطاعتهم . وهذه هى رواية الواحدى والثعلبى . وأخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة ، دعوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآية الكريمة . وقد ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية ببيان اتصافه بالعلم والحكمة بقوله :

« إن الله كان عليما حكيما » :

كالتعليل للأمر والنهى السابقين والتأكيد لوجوب امتثالهما ، فالله تعالى يعلم المصالح والمفاسد ، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ، ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ، ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة ؛ والتأكيد بإن لشرف الحكم ، إذ اتصافه تعالى بالعلم والحكمة أمر مقرر ومسلم عند المخاطب صلى الله عليه وسلم . وإذا أضيفت « كان » الى الله وصفاته كان معناها الدوام والاستمرار . و « عليما حكيما » مبالغا فى العلم والحكمة ، وما قيل فى العطف السابق يقال فى عطف قوله تعالى :

« واتبع ما يوحى إليك من ربك » .

على ماقبله ، فالجملة متفقة مع ماقبلها فى الإنشائية لفظا ومعنى ، وهو من عطف العام على الخاص ، لأن ما يوحى الى النبى أعم من الآية الآمرة بالتقوى الناهية عن إطاعة الكافرين . والمعنى : واتبع فى كل ما تأتى وما تذر من أمور الدين ما يوحى اليك من الآيات التى من جملتها آية الأمر والنهى السابقة . وإيثار التعبير هنا بلفظ « ربك » لتذكير النبى صلى الله عليه وسلم بأن الله الذى رباه على موائد كرمه وفضله تدريجيا حتى وصل إلى نهاية الكمال الممكن ، هو الذى أوحى اليه بهذه الآيات ، ففيه إنهاض لسرعة الامتثال وتأكيد له .

« إن الله كان بما تعملون خبيرا » :

إن الله الذى يوحى اليك خبير بما تعمل ، فوح اليك ما يصلح به عملك . فالخطاب له صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم . والمعنى : يجب عليك أن تتبع ما يوحى به الله اليك ففى ذلك مصلحتك .

أو الخطاب للكفار والمنافقين ، ويؤيده قراءة « يعملون » بالياء . والمعنى : إن الله خبير بما يعمل الكفرة والمنافقون ، فيرشدك بالوحى إلى مايدفع عنك كيدهم وشرهم ومكرهم ، فعليك باتباع ما يوحى اليك .

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » :

فوض جميع أمورك اليه ، وأسندها اليه جل شأنه ، وكلها لتدبيره ، وكفى به حافظا موكولا اليه كل الأمور . هذا ، والتوكل على الله باب واسع من أبواب الإيمان ، تكفل ببيانه علماء التصوف ، فمن أراد التوسع فيه فعليه بكتبهم . رزقنا الله وإياكم تقواه وحسن التوكل عليه . إنه سميع مجيب .

١ - جورج ولهلم هيجل

حياته - منهجه - مذهبه فى النظام الطبيعى - العقل

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

امتدت حياته إلى الستين ؛ إذ نشأ فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر عام ١٧٧٠ ، وتوفى عام ١٨٣١ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولد فى ستترجارت حيث تلقى التعليم الأولى ، وفى الثانية عشرة التحق بجامعة توبنجب Tubingb يطلب اللاهوت ، فنال إجازتها سنة ١٧٩٣ . وشهدت له الجامعة بالقدرة والدأب ، ولكنها وصمته بجهل الفلسفة . فى الحق لم يكن له ميل الى دراسة الدين بمقدار ما انصرف إلى الحضارة القديمة حتى أصبح حجة فى الفكر اليونانى والرومانى . وشغل منصب التدريس فى يينا سنة ١٨٠٦ حيث أنجز كتابه « ظواهر العقل » ثم فى نورمبورج ، ثم فى هيدلبرج سنة ١٨١٦ — ١٨١٨ ، وأخيرا فى برلين سنة ١٨١٨ — ١٨٣١ .

وكان متقلبا لم يثبت على مبدأ : بدأ متدينا بل صوفيا ، وانتهى حر الفكر ؛ وكان فى شبابه متحمسا لنابليون ، حتى لقد فرح لانتصاره فى موقعة يينا ، ثم انتهى إلى أن يكون من أنصار بروسيا .

ويُجمع المؤرخون على وعورة فلسفته . يقول برتراند رسل : إنه أصعب الفلاسفة فهماً . وكتب سترلينج Sterling « سر هيجل » Secret of Hegel يزعم أنه كشف الستار عن فلسفته ومذهبه ، ولكن الإجماع لا يزال منعقداً أنه لم يكشف شيئا . ولا يزال فكر هيجل لغزا من الألغاز . ويبدو أن مرجع ذلك إلى نزعته الصوفية فى الشباب ؛ تلك النزعة التى صحبته مدى الحياة ، حتى أصبحت آراؤه صياغة عقلية لما انكشف له فى صدر حياته بطريق الذوق . والدليل على ذلك أن فهمه الأخير للمسيحية متأثر بدراساته الدينية الأولى . فهو يطلب الرجوع إلى المصادر الأولى لفهم آراء المسيح . ولقد كتب « حياة المسيح » فيها

كثير من حرية التأويل لتاريخ نبي المسيحية ، مما يتعارض مع آراء رجال الدين السائدة فى عصره ؛ وأيده فى موقفه صديقه شلنج .

تعد فلسفة هيجل الذروة التى وصلت إليها المثالية الألمانية ، تلك التى بدأها كانت ثم نشته وشلنج ؛ ومع أن هيجل وجّه سهام النقد إلى كانت إلا أنه لولا ظهور كانت وفلسفته وآراؤه ما ظهر هيجل . كانتْ إذاً هو نقطة البداية فى فلسفة هيجل . فلسفة كانت قامت تناهض هيوم ، وفلسفة هيوم هى نهاية البداية فى الاتجاه الفلسفى الانجليزى منذ لوك وبركلى . فقد تغير النظر إلى معنى « الجوهر » Substance فى المدرسة الانجليزية . كان القدماء يعتقدون فى وجود حقيقة ثابتة تعد حاملا Substratum لمظاهر الكون ، حتى إذا كنا مع هيوم رأينا أنه لا سبيل لنا فى كشف هذا « الجوهر » الموجود خلف الأشياء ، ومن ثَمَّ فلا حاجة بنا إلى البحث عنه . فنهض كانت يرد على هذا الشك ويثبت فى « نقد العقل الخالص » الشروط الضرورية الموصلة إلى معرفة الحقيقة المطلقة . ثم أثبت وجود حقائق تختلف عن المظاهر ، سماها « الشيء بالذات » Chose-en soi . ولم تعجب هذه المقالة أتباعه ، فعدلوا فى فكرة « الشيء بالذات » حتى انتهى هيجل إلى القول « بالمطلق » .

جعل نشته الحقيقة فى « الخير » والأخلاق ، وجعل الكون مظهراً للإرادة ، وعدل عن الوجود . والفلسفة عنده هى الاعتقاد فى أن الموجود عدم ، وأن الواجب هو كل شيء . واعترض شلنج عليه فقال : إن الشيء بالذات هو المطلق ، وهو أصل الفكر والمعرفة والعلم ، وإن التجربة أساس النظر ، وإن النظر الفطرى a priori هو منهج الفلسفة .

ورد هيجل على شلنج فقال : إن المطلق الذى يذهب إليه كالليل المظلم الذى يُرى فيه جميع البقر أسود اللون . لقد رفض الشيء بالذات أو فكرة المطلق التى تظل خافية عنا أبداً . بل لقد رفض القول بالحقائق السامية ، وطالب بالبحث عن الحقيقة فى الحال . أى أنه أخذ بيد المطلق من عالم الظلمة الى عالم النور .

يذهب هيجل الى أن الحقيقة من عمل العقل ، وأن هناك وحدة فى الكون على الرغم من اختلاف التجارب التى نحصلها عنه . ومهمة الفلسفة بيان أن الأشياء ثابتة ومعقولة حين ندركها فى « مجموع الحقيقة » Totalité هذا المجموع أو الكل هو

الذى يسميه هيجل بالفكرة idée تارة ، وبالروح esprit تارة أخرى ، وبالمطلق absolu تارة ثالثة . ولكى نصل الى فهم الأشياء يجب أن ندرسها فى علاقتها بعضها ببعضها الآخر . ويجب أن نأخذ فى بالنا دائماً أنه لا شىء يحدث فى عزلة بل الأحداث تتسلسل على مر التاريخ وتتطور . معرفة الأحداث الماضية هى المفتاح الذى نلج به باب المعرفة الحاضرة . فالحقيقة فيض دائم متصل من التجارب ، وهذه التجارب المتصلة تخضع لنظام وقانون . أبرز حقائق الكون هى ما فيه من نظام وقانون . وهذا التنظيم الذى يمسك أجزاء الكل هو الذى يميز الحقيقة . ومهمة الفلسفة أن تلم بأطراف التاريخ المتصل التطور حتى تدرك منه النظرة الصادقة ، وتحكم على الأشياء فى صلتها بالمجموع .

وهذا يقودنا الى البحث فى أمور ثلاثة :

منطق هيجل والجدل الخاص به ، ومذهبه فى النظام الطبيعى ، ومذهبه فى النظام الاجتماعى والمطلق .

يبدو أنه يعنى بالمنطق الميتا فيزيقا ؛ والمنطق عنده يختلف عما نعرفه عن هذا العلم . ويرى أن المحمول إذا أنزلناه على أنه يصف الحقيقة كلها ، كان متناقضا . ولقد صنف كانت المحمولات فى مقولاته المشهورة ، ولكن هيجل يلغى جميع المقولات فلا يستبقى إلا مقولة واحدة إحساسية هى « الوجود » المطلق . وجميع المنطق القديم يقسم القضية الى موضوع ومحمول ، ويجعل المحمول صفة للموضوع ، وبناء على ذلك فى نظر هيجل ، لا تكون العلاقة بين الموضوع والمحمول حقيقية ، لأنها تتطلب شيئين اثنين ، وهو لا يقر إلا « بالواحد » .

ولنضرب مثلا فى الجدل : يقول « المطلق وجود محض » وهو يزعم أنه لا يحمل على المطلق أىّ وصف ، بل مجرد وجود الموضوع . ولكن الوجود المحض بغير كيف ليس إلا عدماً ، وهنا ننتقل الى القضية المعتادة anti thèse ، وهى « المطلق عدم » ونتنقل من هاتين القضيتين الى المركب منهما أى من الوجود والعدم الى « الصيرورة » فالمطلق هو الصيرورة .

كل مرحلة من مراحل الجدل تشمل إذن المراحل السابقة ، ولا تقوم إحداها بنفسها ، بل لها منزلتها فى المجموع أو الكل . ولن نبلغ الحقيقة إلا إذا نفذنا فى جميع مراحل الجدل ، نعنى القضية وما يضادها ، والمركب منهما .

والمعرفة الكلية تجرى فى هذا الثالوث . فهى تبدأ بالمدركات الحسية ؛ تلك التى لا تعرفنا إلا الموضوعات الخارجية ، ثم تصبح بالشك وتمد الحواس ذاتية محضة . وأخيراً تبلغ مرحلة المعرفة الذاتية التى لا يتميز فيها الذات عن الموضوع .

وأفضل الفكر ما كان سيالا فياضاً متدفقا متداخلا ، لا يفصل فيه فصلا حاسماً بين الحق والباطل والخطأ والصواب كما هو شائع معروف . لا شىء باطل على الإطلاق أو صحيح على الإطلاق « فنحن نعرف أن الشىء خطأ من وجه فقط » . مثال ذلك : لو قلنا : أين ولد سقراط ؟ فالجواب عن ذلك يكون صحيحاً لأنه يدل على حقيقة جزئية ، أما بالنسبة الى الفلسفة فالحقيقة هى الكل ولا تعنى بالجزء . أما الصحيح فهو المطلق وحسب .

فإذا كان الأمر كذلك ، فليس من الصحيح الاعتقاد بأن الحقيقة هى الطبيعة أو هى العقل ، بحيث تخضع أحدهما لصاحبه ، بل الطبيعة والعقل شىء واحد ، وليس أحدهما متقدما على الآخر ، فالطبيعة هى المظهر المادى للعقل ، ومن هذا الوجه لا نميز بينهما . بذلك قرب هيجل بين عالم الحقيقة ، وعالم المظاهر ، بل وحد بينهما ، ولم يعد هناك داع للتمييز بينهما .

جملة القول : أن جدل هيجل الذى يلتمس الحقيقة فى القضية وما يضادها والمركب منهما ، هو الذى طبقه على كل ظاهرة فى الحياة : فى النظام الطبيعى ، وفى النظام الاجتماعى ، وفى النظام المطلق ، مما سوف نتحدث عنه .

النظام الطبيعى :

يعبر المثال أو الفكر idée عن نفسه فى الطبيعة كأنه مادة مختلفة الأحوال ، إنها (الفكرة) عملية ديناميكية لا أول لها ولا آخر ، ولو أن الجزئيات فى عالم الطبيعة ترتبط بالزمان والمكان وتحقق وجودها فيهما . الشىء مجموع صفاته ، والمادة مجموع أحوالها ، وهذا يتلاءم مع مذهب هيجل الذى يلغى الصفات على أنها محمولات لشىء معين . فالعقل يتشخص فى عالم الحس ، وعالم الحس هو عالم العقل . وليس لنا أن نميز كذلك مبدأ محركا فاعلا يحدث الأشياء ، لأن جميع الأشياء « واحد » وهذا الواحد من عمل العقل الذى تطور خلال الأزمنة وامتد ونما لحقق ذاته الباطنة . لا شىء فى الطبيعة يموت ، ولا شىء يفنى ، ولا شىء ليست له دلالة فى مجموع الحقيقة . وإذا كان لنا أن نستبق فكرة الجوهر ، فلا بد

أن نعدل عن تصورها امتدادا حاملا للصفات . هذه الفكرة التى تسود أغلب الأديان ، والتى تفصل بين الخالق والمخلوقات ، وتجعل الله مبدعا ممسكا للكون ، ليست لها مكان فى فلسفة هيجل ، ولا يمكن كذلك أن توجد نفس مفارقة فى جوهرها وطبيعتها لسائر الأشياء : ليس فى الكون إلا الطبيعة ، والطبيعة هى الكون المتطور .

والطبيعة كلٌّ متماسك الأجزاء ليس فيه جزء منفصل ، بل كل حادثة متصلة بغيرها على الرغم من سعة السلسلة التى تربط بينها وكثرة عددها وتقادم الزمن الفاصل بينها . كل حادثة هى ماض وحاضر ومستقبل من حيث إنها تتصل بأحداث ماضية وتنبىء عن أحداث مستقبلة ؛ فالطبيعة كل حيوى دائم التغير ؛ وفى هذا الترتيب تصبح كل حادثة سببا ومسببا فى آن واحد ، بمعنى أنها مسببة عن غيرها ، وسبب لما بعدها . مثال ذلك أن الدولة تقوم على أخلاق الشعب ، ويستمد الشعب أخلاقه من الدولة ، أى أن الأسباب والمسببات متداخلة دائرة ، لا تجرى فى خط مستقيم ؛ وحيث كان الأمر كذلك ، وكانت الأسباب دائرة ، فقد خيل الى هيجل أنه يستطيع أن يهرب من الحتمية Determinism التى يخضع لها العلم والمذاهب الفلسفية التى تدين بالسببية . ليس إذاً هناك حادثة هى العلة المطلقة فى غيرها ، وليس فى الطبيعة ونظامها إلا نسبية ، لأن المطلق لا يوجد إلا فى النظام المطلق .

ويتخذ الكون شكله خلال التطور المحسوس للعقل . نستطيع أن نقول : إن الكون مظهر للمطلق فى نظام من الزمان والمكان . فكل شىء يشغل حيزاً من المكان ومدة من الزمان . فإذا برزت الأشياء الطبيعية اتخذت فى نموها ثلاثة أنماط : النمط الميكانيكى Mecanism ، والطبيعى Physique ، والعضوى Organique تتطور الفكرة idea أول كل شىء فتخرج الأجرام السماوية المركبة فى المادة والتى تخضع لمقاييس الكتلة والجاذبية والحركة ، وعلم الفلك هو الذى يختص بهذا المرحلة فى التطور ، ثم تبرز الصفات المميزة للمادة ، وهى صفات متضادة تفضى إلى الانفصال والاتصال والجذب والدفع . هذه التغييرات الباطنة والظاهرة يختص بالفحص عنها علم الطبيعة والكيمياء ، وفى هذه المرحلة لا تزال الأشياء الطبيعية تحتاج فى قوامها إلى غيرها : لأن الحياة لم تظهر بعد . ثم تفضى هذه التغييرات الكيمائية إلى المرحلة الثالثة ، وهو العالم العضوى . هذه المرحلة

تمتاز بالحياة ، والذات Subject والموضـــوع Object ، وتبلغ الحيـاة العضوية أعلى درجاتها فى الإنسان ، وقبل ذلك نجد مرحلتين حيويتين : النبات والحيوان ، أو عالم النبات وعالم الحيوان . أما الإنسان فإنه آخر ما تبلغه الطبيعة ، ويمتاز الانسان بالعقل ، والشعور بالذات ، والحرية ، ولا فرق بين العقل والشعور والحرية ، ولا بين ذات مستقلة ، وبين صفات تتصف بها هذه الذات . ليس هناك إلا أوجه من النشاط هى كل مايبدو من الذات أو عين الذات ، ويصبح الإنسان ذرة من المطلق يشعر بذاته . على الجملة : الوجود فى الإنسان هو الشعور .

فنحن نرى أن التطور فى فلسفة هيجل يذهب من الأدنى إلى الأكمل ماراً بالزمان ، وهـذا على معنيين : معنى منطقى ، ومعنى خالق ، فعلى المعنى المنطقى الكمال فى وحدة الكل بغير أجزاء منفصلة ، كجسم الانسان المتصل بالأعضاء ، أو كالعقل المفكر الذى يعد وحدة متماسكة فى تفكيره .

وحيث قد بلغنا إلى الحديث عن الإنسان ، فلننقل بعض فقرات من كتابه فى فلسفة التاريخ ؛ يقول : « كل ما تستخلصه الفلسفة من النظر إلى التاريخ هو فكرة العقل . هذا العقل هو السلطان الذى يحكم العالم . . . . العقل هو جوهر العالم .

« هذا العقل ، أو الفكرة « Idea » هى الحق ، الأزلى ، القوة المطلقة . أما أن العقل ، أو المثال هو الذى يتجلى وحده فى العالم فهذه هى القضية » .

وللعقل كذلك تاريخ ؛ ففى البدء كان خليطا من الإحساسات تشبه ما يوجد عند الأطفال ، الذين لا يميزون العالم الخارجى ويعدون كل شىء ذاتيا . ثم يعى العقل ذاته فيميز بين ذاته وبين موضوعه ، فتتجمع الإحساسات وتكوّن الإدراكات الحسية الأشياء الخارجية ، ويرتقى العقل إلى مرحلة بلوغ المبادىء العامة والكليات . وكلما ارتقى العقل اكتشف الطبيعة ، وتبين أننا أجزاء منها ، ويرى أنها تحد من نشاطه وتقف فى سبيل أغراضه . لهـذا كان من الواجب أن يدرج فى حساب هـذه الأمور الطبيعية ، وأن ينظم سلوكه طبقا لما فيها من حدود . هنا نجد العقل الكلى صراعا بين إرادات الناس ، ويتبدل هـذا العقل الكلى عند ما يكشف الناس وجود آمال ورغبات ومصالح مشتركة ، فيقف الوعى الاجتماعى جنبا إلى جنب مع الوعى الذاتى ، ويتبين الفرد أن مصلحته فى صالح المجتمع ، ويتبين الانسان أنه كائن اجتماعى لا تتحقق حريته إلا فى المجتمع ؟

« يتبع »

حياتنا

لحضرة الأستاذ « السيد »

نَجوَى الشَّكيَّاتِ لا بَردُ التحياتِ
هى الحياةُ أمانٌ بينَ لَوعاتِ

حالى كعابسة الليلاتِ باسمةً
عن النجوم دموعٌ فى ابتسامات

ما فى ليالىَّ إلا كُلُّ عابسةٍ
حتى تضىءَ بأنفاسى وأنَّاتى

أصادحُ الروضِ أم رنَّاتُ باكيةٍ
وطلعةُ الورد أم حُمرُ الجراحاتِ

فى دمع آسٍ من الشادِى مُشاكَلةٌ
ليلٌ بليلٍ ، وآهاتٌ بآهاتِ !!!

* * *

يا طائر الحسن تهديه صَباحتُه
إلى القلوب فمِن ظِلٍّ ومَحباتِ

شقيتُ بالحسن مرَّاتٍ فَوَاكبدى
ألاَّ أذوقَ الأمانى غير مُرَّاتِ !!!

ليتَ الجمالَ وكم يَبْغُونه لَعباً
لَدَى الجلال يُناغَى فى السَّمٰوات

تُسائل الشعبَ حُرَّاتٌ سَفكن به
دمَ العفاف متى كُنَّ البَغيَّاتِ

ياشمس ، يا بدرُ ، حُلاَّ كلَّ جانحة
ما أفتَنَ الحُسْنَ نِبْراساً لمشكاةِ

ما أجدرَ الحسنَ أن تَبدُو فَواتِنُه
دَلَّ المُربياتِ فى صَونِ الأبِيَّاتِ

* * *

عِشْنا نُعلَّل بالآداب آونةً
واحرَّ قلباهُ من بعضِ التَّعلاَّت

أَسْنَى مِنَ العلم يُغضِى منه حاملُه
بعضُ الجهالات بل كلُّ الجهالاتِ

النُّبْلُ والجِد قتالان دُونَهما
مِنَ التبذُّل حورٌ بيْنَ جنَّاتِ

ما للنزاهةِ فى واديكَ منزلةٌ
بِضاعةٌ تلك فيه جِدُّ مُزجاةِ

بعضُ الخِداع فما الدُّنيا سِوَى مَرَحٍ
ولا النَّبالةُ إلا فى الوَجاهاتِ !!!

مطالعات فى الجبرتى (٤)

العلماء سفراء وقادة

لفضيلة الأستاذ محمود الشرقاوى

كان العلماء فى العصر الذى أرخ له الجبرتى [١] يتميزون بميزتين : الأولى : حرصهم على كرامتهم ومكانتهم كرجال دين ، وتشددهم فى أمور دينهم ، وزهادتهم فى الدنيا وإغرائها ، وانصرافهم الى واجباتهم من إرشاد الناس وتعليمهم ، وإلقاء دروسهم على « المجاورين » فى الأزهر ، لايصرفهم عن ذلك شىء : والثانية : مكانتهم كوسطاء بين الشعب وحكامه تارة ، وبين المماليك بعضهم وبعض تارة ، وبين المماليك و « الباشا » الذى كانت ترسله تركيا والياً لها على مصر تارة ثالثة .

ولعل بين هاتين الميزتين علاقة هى السببية والمسببية ، أى أن وجود الأولى كان سبباً لوجود الثانية .

ووجود هذه الصفات قد يكون صادقا فى المجموع وليس فى الجميع ، وهذا أمر طبيعى .

وفى هذه السنوات الطويلة وما تنطوى عليه من أحداث ومن وقائع ، يندر أن نجد خلافا بين هذه السلطات التى ذكرنا ، أو أن نجد شدة أو محنة يمتحن بها هذا الشعب المصرى — وكثيرا ما كانت الشدائد والمحن فى حياة هذا الشعب فى ذلك الزمن — إلا وكان شيوخ الأزهر هم الوسطاء فى هذا الخلاف ، وهم السفراء عن هذا الشعب ، لرفع مابه من شدة أو محنة ، أو لتخفيف هذه المحن والشدائد على الأقل .

* * *

(١) من أوائل القرن الثانى عشر الهجرى الى قرب منتصف القرن الثالث عشر .

يقول الجبرتى فى ذكر حوادث سنة ١٢٠٠ : إن الدولة العلية عند ما وصلت إليها أخبار مصر ، وفيها ما كان يقع على أهلها من ظلم ابراهيم بك ومراد بك وأتباعهما من المماليك ، أمر السلطان الغازى حسن باشا بالشخوص الى مصر وتخليصها من استبداد هؤلاء المماليك ، فلما علم الأمراء المماليك بمقدم هذا الغازى وما بعث من أجله ، اتفقوا « على إرسال جماعة من العلماء والوجاقلية الى حسن باشا ، فتعين لذلك الشيخ أحمد العروسى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الحريرى ؛ ومن الوجاقلية إسماعيل افندى الخلوتى ، وابراهيم أغا الوردانى ، وذهب صحبتهم أيضا سليمان بك الشابورى ، وأرسلوا صحبتهم مائة فرق بن ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية ، وتفاصيل وعودا وعنبرا وغير ذلك ، فسافروا فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان ، على أنهم يجتمعون به ويكلمونه ويسألونه عن مراده ومقصده ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم وعدم مخالفتهم ورجوعهم عما سلف من أفاعيلهم ، ويذكرونه حال الرعية وما توجبه الفتن من الضرر والتلف » . . . « وفى ليلة الثلاثاء حضر المشايخ ومن معهم من ثغر رشيد ، فوصلوا الى بولاق بعد العشاء ، وباتوا هناك ، وذهبوا الى بيوتهم فى الصباح فأخبروا أنهم اجتمعوا على حسن باشا ثلاث مرات ، الأولى للسلام فقابلهم بالإجلال والتعظيم وأمر لهم بمكان نزلوا فيه ورتب لهم ما يكفيهم من الطعام المهيأ فى الإفطار والسحور ، ودعاهم فى ثانى يوم وكلمهم كلمات قليلة وقال له الشيخ العروسى : يا مولانا رعية مصر قوم ضعاف وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس . ... الخ » [1]

وفى هذه القصة التى نقلنا بعضاً منها بأسلوب الجبرتى نفسه ، يحسن أن نلاحظ أمرين : الأول أن أغلب وفد الوساطة بين المماليك والغازى كان من العلماء ، والثانى أن الذى تصدر للكلام عند مقابلة الوفد لحسن باشا كان هو الشيخ العروسى ، برغم وجود سليمان بك الشابورى ، وكان من كبار أتباع المماليك . وقد رأينا فيما روينا من هذه القصة أن الغازى حسن باشا أكرم وفد الوساطة هذا إكراماً كبيراً . وفى بقية القصة يروى الجبرتى أن هذا الباشا حمَّل المشايخ رسائل إلى أهل مصر ليبلغوها اليهم .

(١) ص ١١٥ — ١١٨ من الجزء الثانى من الجبرتى ، فى حوادث شهر رمضان من سنة ١٢٠٠

وفى بعض الحوادث المثيرة التى كان يقع ظلمها الصارخ على « أهل البلد » كما يقول الجبرتى ، كان بعض هؤلاء العلماء لا يستطيع أن يكون أقل ثورة من أهل هذا البلد ، ويأبى إلا أن يشاركهم هياجهم وثورتهم ، وعند ذلك كانت الجماهير التى هيجها الغضب تندفع إلى داخل الأزهر متدفقة من كل صوب ، ثم يصعدون إلى مناراته ومآذنه يصيحون ويدقون الطبول ، وكانت هـذه إشارة الخطر .

يذكر الجبرتى من حوادث تلك السنة نفسها أن أميراً من المماليك ركب فى جنده إلى الحسينية فنهب دارا لرجل يسمى أحمد سالم الجزار ، وكان متولياً رياسة دراويش الشيخ البيومى ، فثار الناس لذلك . . . « وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير فونَّسهم وساعدهم بالكلام وقال لهم : أنا معكم ، فخرجوا من نواحى الجامع وقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » [1] ثم يروى الجبرتى أن هـذا الذى قاله الشيخ الدردير عند ما بلغ إلى إبراهيم بك الوالى بعث كتخداه والمستحفظان إلى الشيخ الدردير يرجوانه أن يكتب قائمة بالمنهوبات حتى ترد إلى صاحبها من حيث تكون .

* * *

ويذكر الجبرتى من حوادث شهر ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ أن الشيخ الشرقاوى كانت له أراض فى قرية بشرقية بلبيس ، فجاء أهل هـذه القرية يشكون للشيخ أتباع محمد بك الألفى ، وأنهم ظلموهم وطلبوا منهم من الأموال مالا طاقة لهم به ، فغضب الشيخ الشرقاوى وذهب إلى الجامع الأزهر وجمع المشايخ فأقفلوا

---

[1] ص ١١٠ من الجزء الثانى ، فى حوادث شهر ربيع الأول من سنة ١٢٠٠

أبواب الجامع وأمروا الناس بغلق الحوانيت والأسواق ، وهذا ما نسميه الآن بالإضراب ، ثم ركب المشايخ فى اليوم التالى يتبعهم كثير من الناس ، فقصدوا بيت الشيخ السادات فامتلأ بهم البيت ، وكان بيت إبراهيم بك مجاورا لبيت السادات بحيث يرى تجمهر الناس فيه ، وقد عرف ما أغضبهم ، فبعث إبراهيم بك من قبله أيوب بك الدفتردار إلى المشايخ . وقد روى الجبرتى فى سياق القصة أن الشيخ الشرقاوى أرسل إلى إبراهيم بك هذا وإلى مراد بك بشكوى أهل شرقية بلبيس فلم يبديا شيئاً ، وكان هذا هو الذى دفعه إلى جمع المشايخ ودعوة الناس للإضراب .

قال الجبرتى : إن أيوب بك الدفتردار ذهب إلى المشايخ فى بيت السادات « وسلم عليهم ووقف بين يديهم ، وسألهم عن مرادهم ، فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال : لا يمكن الإجابة الى هذا كله ، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقيل له : هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ ! . فقال : حتى أبلغ ، وانصرف ، ولم يعد لهم بجواب ، وانفض المجلس ، وركب المشايخ الى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية ، وباتوا بالمسجد ، وأرسل ابراهيم بك الى المشايخ يعضدهم ، ويقول لهم أنا معكم ، وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى ، وأرسل الى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك [1] » ثم جرت بعد ذلك مفاوضات بين المشايخ وبين مراد بك حيث بعث هو إليهم يفاوضهم ، ثم أرسل يطلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم ، فذهبوا إليه ، فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح ، ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة . وفى اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل ابراهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ، وأرسلوا الى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والشيخ النقيب ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير ، وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا ابراهيم بك ، فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعى خلفهم ، ودار الكلام

(١) ص ٢٧٤ من الجزء الثانى من الجبرتى .

بينهم وطـال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم (أى المماليك !) تابوا ورجعوا والتزموا بمـا شرطه العلماء عليهم » [١] ثم يذكر الجبرتى تفاصيل هذه الشروط ، ومنها أن يرسلوا غلال الحرمين ، وأن يصرفوا غـلال الشون وأموال الرزق ، وأن يبطلوا رفع المظالم المحدثة والـكشوفات والتغاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق « وأن يكفّوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ، ويسـيروا فى الناس سـيرة حسنة » [٢] وكان القاضى حاضرا هذا الاتفاق ، فـكتب به حجـة ختم عليها ابراهيم بك ومراد بك ، وفـرْمَـنَ عليها الباشا . وانحلت الفتنة ، ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون : حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمـكوس بطـالة من مملكة الديار المصرية ! وفرح الناس » [٣] .

وبعـد أن روينا بشىء من التفصيل هذه القصة ، يحسن لنـا أن نلاحظ أربعة أمور :

الأمر الأول : هو أن هؤلاء الفلاحين من أهل شرقية بلبيس جاءوا إلى الشيخ الشرقاوى يشكون ظلما نزل بهم هم ، وقد يـكونون من العاملين فى أرض الشيخ نفسه حيث يقول الجبرتى : إنه كانت له « حصة » فى هذه القرية ، ولـكن الشيخ لم يجعل من ذلك مسألة خاصة به ولا بأهل هذه القرية ، بل رأى الفرصة مواتية للسعى فى رفع الظلم عن أهل مصر جميعا ، فسعى سعيه الذى رأيناه ووافقه المشايخ على رأيه وسعيه ، فسعوا معه لرفع الظلم وإبطال الحوادث والمغارم عن الناس كافة .

الأمر الثانى : أن المشايخ اعتمدوا فأحسنوا الاعتماد والاستفادة من شعور العامة ومن حسن رأيهم فى مشايخ الأزهر ، فالمشايخ يسعون لرفع الظلم عن الناس ، والناس يحبون المشايخ ويثقون فيهم ، فيتبعونهم وينصاعون لأمرهم ، فهم يغلقون أسواقهم ومتاجرهم إذا طلب منهم العلماء ذلك ، وهم يتبعونهم حيثما ذهبوا ، فإذا طلب العلماء منهم أن يتركوهم لمفاوضة المماليك تركوهم .

---

(١) ص ٢٧٤ من الجزء الثانى أيضا

(٢) الصفحة السابقة والتى تليها .

(٣) ص ٢٧٥ من الجزء نفسه .

والأمر الثالث : خوف المماليك ، وهم أهل البطش والجبروت ، من غضب مشايخ الأزهر ، حتى يصوّر الجبرتى مقابلة أيوب بك ، وهو واحد من كبارهم ، للمشايخ بأنه كان « يقف بين أيديهم ويسألهم عن مرادهم » وحتى يتودّد كبير من أكبر كبرائهم وهو ابراهيم بك إلى المشايخ فيرسل اليهم من يبلغهم أن هذه المظالم « ليست على مراده وخاطره » ، وحتى يبعث كبيرهم وسيدهم مراد بك إلى المشايخ فيلاطفهم « ويلتمس منهم السعى فى الصلح .

والأمر الرابع : هو سطوة الشيوخ وقوتهم واعتدادهم بأنفسهم ، حتى إنهم ليوقفون أيوب بك الدفتردار ومن ورائه أنداده وأسياده جميعا موقف التأنيب والزجر ، فيلومونهم على « الإسراف فى النفقات وشراء المماليك » ثم يوجهونهم إلى أن « الأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ » .

ثم تأمل هذه النهاية التى ينهى بها الجبرتى هذه القصة ، وهى أن المماليك ، أهل البطش والجبروت ، « تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم » !.

ونستطيع بعد ذلك أن نقدر سرور الناس واغتباطهم بسعى شيوخ الأزهر وتوفيقهم لرفع الظلم عنهم ، وعرفانهم هذا الفضل وتقديرهم لأهله ، بهذه « المظاهرة » التى ساق الناس بعضهم بعضا إليها ، وكل جماعة منهم يحيطون بشيخ من المشايخ هاتفين منادين : لقد رسم الشيوخ وأقروا أنه لا ظلم ولا خوف بعد اليوم !! .

الفرس الأدهم

قال أبو سويد : شهد أبو دلف وقعة بدر وتحته فرس أدهم وعليه نضح الدم ، فاستوقفه أحد الشعراء وأنشده :

كم قد تجرعه المنون ويسلم ... لو يستطيع شكا اليك الأدهم
فى كل منبت شعرة من جلده ... يمن يمقه الحسام المخذم
وكأنما عقد النجوم بطرفه ... وكأنه بعرى المجرة ملجم
رجعته أطراف الأسنة أشقرا ... واللون أدهم حين ضرجه الدم

قال أبو سويد : فأمر له بعشرة آلاف درهم .

اختلاف الرأى لا يبرر الجريمة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ والارشاد بالأزهر

قال الله تعالى فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

عُنيت الأديان السماوية كلها بدعوة الناس إلى التفكير والنظر ، والتبصر وموازنة الأمور ، واستخلاص العبرة ، وتمحيص الرأى . وفى ذلك تقدير لكرامة الإنسان ، وإكبار لموهبة العقل ، وإقرار لرجاحة التدبير والتفكير .

ولما كانت النظرة الى الأمور لا تتركز فى اتجاه واحد ، حتى من الرجل الواحد ، وهى من أجل ذلك تختلف تحديداً ، وترديداً ، وتختلف بعد ذلك رأياً ، وتدبراً ، وحكما - كان بدهياً أن يختلف الأكثر من الرجل الواحد ، فى الرأى الواحد ، تبعاً لتفاوت المواهب ، وتغاير النظرات .

والرجل السليم الرأى ، القوى التفكير ، الذى يقدر رأى نفسه ، ويحترم كرامة البحث والتمحيص ، هو الرجل الذى يحترم رأى الناس ويقدر لهم حريتهم ، وإرادتهم ؛ فإذا خالفوه ، أو جابهوه ، أو رموه بالسفه فى الرأى ، والطيش فى التبصرة ، وقف منهم موقف الكيس الفطن ، والحكيم المتزن ، فناقش الرأى فى إقناع أو اقتناع ، وهنالك تبرز الحجة أو تدحض ، ويسطع البرهان أو يخبو ، وتنطق آية الحق صارخة بسمو المبدأ ، وجلال الرأى وخلوص العقيدة .

فأما أن يلتجىء المخالفون فى الرأى الى التذرع بالهوى ، فيعيثوا ، ويتأثموا ، وأما أن تأخذهم النعرة البغيضة ، فيقتلوا أو يدمروا ، فذلك هو الخرق الملتبس ، والهوس الطاغى الأثيم .

وإلا فمتى يتميز الرأى من الرأى، غثه وسمينه، خاطئه وصائبه؟ ومتى يؤدى العقل عمله، ويؤتى المنطق ثماره، ويدفع البرهان زيف الهوى ونزغة الشيطان؟؟.

لا تضيقوا — أيها الناس — ذرعا بالرأى وإن كان على خلاف ما تحبون، بل محصوه، وقلبوه، وضعوه فى الموضع اللائق به، من احترام وتقدير، أو ازدراء وتسفيه.

لكن الإجرام والجريمة، لا تنهض بأمة، ولا تنضج شعبا.. اللهم لا، ولكنها تعطل منه العقل، وتقتل فيه الإرادة، وتجنبه الرشد والصواب.

انظروا الى المثل العليا فى القرآن لاحترام الرأى ولو كان واضح البطلان. فالدين لم يترك رأيا باطلا إلا زيفه، وخطأه، لكنه لم يهدر دم صاحبه، ولم يزلزل عليه بيته، ويهدم معه أسرته.

قام محمد صلى الله عليه وسلم يدعو فى وسط الجهالة العمياء، ويشرق بنور النبوة فى حالك الظلمة الصماء، يدعو الى الله، والى التوحيد؛ وقام المشركون من حوله يدعون الى الشرك، والى الأصنام؛ والعقل السليم، والحجة الدامغة، والرأى الرشيد بجانب محمد: وسفهُ القول وتفاهة التفكير، وانطماس العقل بجانب المخالفين؛ أترى أمر القرآن بتقتيلهم، أو أهدر حقهم فى الوجود، مع وضوح البطلان؟؟ لا؛ بل زيفهم، وسفههم، وتركهم لرأيهم، فى طغيانهم يعمهون.

واسمعوا أيها الناس الى قوله تعالى: «قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذَ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» لم يقل القرآن: فإن تولوا وأعرضوا فاضربوهم، أو اقتلوهم، أو حطموهم، ولكنه، كما سمعتم، يشير الى: أن ذروهم وسفههم، واتركوهم وضلالهم، وقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون.

ويقول الله تعالى: «قل يأيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولى دين»

فإنه تعالى يأمر نبيه أن يقول لهم آخر المطاف : « لكم دينكم ولى دين » . أفرأيتم كيف يعلم القرآن الناس ألا يتقاتلوا فى اختلاف رأى ، ولا يتأثموا بالإجرام ، وإن خرج المخالفون بكفرهم وعنادهم حتى على الله وعلى دين الله !.

اللهم إلا أن يكون من الكفار قتال ، أو صد عن سبيل الله ، فهنا يقول القرآن : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنةُ أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوْا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنة ، ويكونَ الدين لله ، فإن انتهوْا فلا عُدوان إلا على الظالمين » .

هذه ـ أيها الناس ـ هى قضية العقل وقضية المنطق ، يدعمها الدين بكتابه وسنته ، فيبين أن جريمة القتل ظلم صارخ ، وعدوان طاغ ، وفتنة نكراء ، لا يبررها شىء من اختلاف الرأى ، فى قليل ولا كثير .

قال تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » ، وقال تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

وروى البخارى والحاكم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دما حراماً » ، وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق » رواه ابن ماجه بإسناد حسَن ، ورواه البيهقى والأصبهانى وزادا فيه : « ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله النار » .

وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ، ويقول : « ما أطيبك وما أطيب ريحك ! ما أعظمك وما أعظم حرمتك ! والذى نفس محمد بيده لحَرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه » !.

وروى النسائى والحاكم عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج عُنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير حق ؛ فينطوى عليهم فيقذفهم فى حمراء جهنم » .

ومن الجرم البالغ أن يعتقد هؤلاء المسرفون فى الجريمة أنهم غير آثمين لأنهم يدفعون عن الوطن ، أو يذودون عن العقيدة ، أو يعملون فى حدود الدين . ولو أنهم صدقوا لربح الوطن ، أو لتمكنت العقيدة ، أو لا نتصر الدين ، فهل أفدنا من هذه الأحداث شيئا من ذلك ؟ ؟

أيها المسلمون :

لنصرة الوطن ، ولتمكين للعقيدة ، ولإعزاز الدين ، طريق مرسومة ، وضحها القرآن ، وأبرزها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وليس من هذه الطريق قاب قوسين أو أدنى من تشجيع على الجريمة ، أو استحلالها ، أو الفرح بها . . . فإنما يربح الوطن من تضامن القوى ، وتطامن النفوس ، وتكافل العزائم ، وإخلاص النية .

وإنما تتمكن العقيدة بالحجة البالغة ، وساطع البرهان ، وتجويد الرأى وتخميره .

ويعتز الدين ، قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، بتثبيت قواعده وتدعيم أركانه ، وتبيين تعاليمه الحازمة الحاسمة ؛ ففيها علاج أمراض النفوس ، وفيها تطهير نواحى المجتمع ، وبها يبلغ الناس ما يستشرفون إليه من عزة وسعادة ، ومن أمن وسلام .

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

المولد النبوى الكريم

الكلمة التى ألقاها فضيلة الشيخ محمد حسن درويش
وكيل معهد سوهاج
فى احتفال المعهد بالمولد النبوى

فى ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول لعام الفيل، والبشرية الهزيلة الشاحبة ترجع البصر الخاشع وتردد النظر الحائر، تارة إلى القمر متوسلة، وطورا إلى الآفاق متلهفة، علها تظفر بقبس من نور الأمل، أو لمعة من لمع الحق تهتك حجب الغيب عن مكنون الأسرار وخبء الأقدار؛ فى وجفة الأسير الرازح تحت أعباء السنين وجبروت الغاشمين؛ والجزيرة العربية المنهوكة الجاهدة التى اجتاحتها أمواج المحن والشدائد فسربلت وهادها ونجادها بسرابيل من الدماء، ولفحتها أعاصير العدوان والشحناء، والغارات والثارات فصهرتها صهرا وصقلتها صقلا، ومع ذلك تبقى أكرم عنصرا وأصفى جوهرا؛ وبهذا التمحيص والبلاء يعدها القدر المواتى، ويسعفها القضاء الرحيم، لأن تكون مقر الخلافة الجامعة والرسالة الخاتمة، وأن تكون يثرب قلعة القيادة الحكيمة، ومنارة الدعوة الجديدة، تزحف منها جحافل العرب لتخليص البشرية من أصفاد الفرس وأغلال الروم، وتفيض منها أنوار العلوم والمعارف لتحرير الإنسانية من أسر الأوهام وعبودية الحكام.

وها هى ذى مكة بلد الله الحرام، وفيها المثابة والأمان، تهتف بها الهواتف وتتنزل الأملاك من السماء، وتطيف بها أوراح الأنبياء تضوع بالتسبيح والحمد، وترتل للخالق آى الثناء والمجد، وكلهم يتنافس فى استقبال الوليد العظيم.

وفى شِعب بنى هاشم ودار عبد المطلب، وفى حجرة آمنة بنت وهب، وعند انبثاق الفجر — فاض نو طلعته صلى الله عليه وسلم على المشرق والمغرب، حتى أضاءت له بصرى وقصور الروم، كما أخبرت بذلك أمه وقابلته.

وفى ذلك يقول عمه العباس :

وأنت لما ولدت أشرقت الأ رض وضاء بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النـــــور وسبل الرشاد نخترق

فياله من حادث قَلَبَ أوضاع الكون ، وغيَّر وجه التاريخ ، اضطربت له التيجان ، وارتكس الإيوان ، وخنس الشيطان ، وروع الكاهن والموبذان ، وسقطت شرفات ، وغاضت بحيرات ، وخمدت نار فارس ولم تخب من ألف عام .

ويالك من ليلة خفق لها قلب الكون خفقات الأُنس والمرح ، واهتزت لها أعطاف الوجود هزات الارتياح والفرح ، احتفاء بخاتم الرسالة ، وبشرى بحامل اللواء وصاحب الشفاعة ؛ بينما إبليس وأجناده تغمرهم موجة من الهم والكآبة ، وتغشاهم سحابة من الخيبة والندامة .

نعم : فيالك من ليلة بعظائم الأحداث حافلة ، وفى تاريخ العالم فاصلة ، فصلت بين عبادة الشيطان فى بيوت الأصنام والأوثان ، وبين استئناف عبادة الرحمن وتقديس الواحد الديان .

وليدٌ لا كالولدان ، ثم غلام ليس من طراز الغلمان ، وفتى فاق جميع الفتيان ، ثم كهل اكتملت فيه كل صفات النبل والجمال لدى جميع الكهلان ، وجمع الله له ما تفرق من خلائق المجد والجلال فى جميع الأزمان .

رفع ذكره فى الدنيا ، وأعلى قدره فى الآخرة ، وأخذ له البيعة والعهد فى الأزل على جميع الأنبياء والرسل بنصره والإيمان به إن أظلتهم سماؤه واحتواهم زمانه .

دعوة أبيه ابراهيم ، وبشارة المسيح والكليم ، لهج بذكره الرهبان ، وتردد وصفه على ألسنة الكهان .

ومما لاينقضى منه العجب ، وكل أحواله صلى الله عليه وسلم عجب ، أن يخرج من بطن أمه فيسقط بوجهه على الأرض ، ثم يرفع رأسه مشيرا بسبابته شاخصا ببصره الى السماء ، كما حدثت بذلك أمه وقابلته الشفاء .

وفى ذلك يقول البوصيرى :

رافعا رأسه وفى ذلك الرفـ ع إلى كل سؤدد إيحاء
رامقا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

وكأنى بك يا رسول الله تأبى إلا أن تكون أول خطرة لك على أديم هذا الوجود ، هى سجود الشكر لربك ، والتوحيد لخالقك ، والتوجه والاعتماد على سيدك ، فتقرر للعالم بتلك الحركة السريعة البريئة أصول رسالتك ورسوم شريعتك .

بلّغ محمد الرسالة ، وأدى الأمانة ، وهو أعزل إلا من عتاد إلهى ، وسلاح فطرى ، ووثوق بدعوته ويقين بنصرة ربه ، ودرع من مواهب نفسية ، وفيض من شمائل خلقية ، لم تتوفر لأحد غيره من الناس أجمعين : شهد بها خصومه وسجلها التاريخ على صدقه آيات بينات ودررا لامعات ، وحسبه ثناء عليه ما أوجز فى وصفه القرآن الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

نازل محمد خصومه فى معسكرين : المشركين بمكة ، وقد كانوا حِراصا على إنزاله عن دعوته وإخفاقه فى رسالته ، كادوا له ماوسعهم الكيد ، ومكروا به مكرا تزول منه الجبال ؛ والمنافقين واليهود بالمدينة ، وقد حاكوا له المؤتمرات ، وعقدوا من أجله المحالفات ، لإطفاء نوره وفض نصيره ، فأحاطت بالمدينة جموعهم ، وخندقت أمامها أحزابهم ، ومع توافر العدد والامتراس فى اللدد ، ظهر عليهم فى جميع الميادين . ففى ميدان الحجاج والمقاولة روع قريشا بمعجز قرآنه ، وقاطع بيانه ؛ وفى ميدان الكفاح واللقاء أوقع بهؤلاء وهؤلاء ، وكان له الغلب ؛ وفى ميدان الحياة الاجتماعية كان لسجاياه وأخلاقه وسيرته النصر المطرد ، والفوز الدائم .

راض نفوسا طالما ولغت فى الدماء ، وعاشت على النكراء ، تحللت أخلاقها ، وفسدت طباعها ، فساس جماحها ، وألان شماسها ، وصفى جوهرها من النقائص والأرجاس ، ووجهها لقيادة الشعوب وسيادة الدنيا ، فأصلحوا الفاسد ، وقوموا المعوج ، ونقلوا العالم من غيابات الهمجية والوحشية ، الى ساحات الحضارة والمدنية .

ولهذا يعتبر محمد صلى الله عليه وسلم أول من أرسى قواعد العدل والنظام ، ووضع أساس المثل العليا فى بناء المجتمع الإنسانى ؛ وهو القائل :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

إن ذكرى ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم حق فى ذمم الأحرار الأوفياء من رجالات الفكر ، ودَين فى ضمائر الأعزة من أساتذة الديمقراطية الصادقة ، مهما تباينت نحلهم واختلفت منازعهم ، تتقاضاه منهم ليلة الثانى عشر من ربيع الأول من كل عام ، يردون الجميل لأهله ، ويذكرون الفضل لذويه . ألم تهجم جيوش محمد على معاقل الجبارين المتألهين الذين تعبدوا الناس ، وتملكوا جسومهم وعقولهم ، فدكتها ، وأراحتهم من طغيان الجهالة ، وسفاهة القوة والحماقة ؟ ! .

ألم تغز دعوة محمد معابد الوثنية والمجوسية التى أفسدت الأرواح وأوثقت الأفكار ، ومهدت للبشرية أكناف المحبة والأخوة ، فتواصلت القلوب المتباعدة ، وتعاطفت النفوس المتنافرة ، وأظلها جميعا رواق العدل ، فامتلأت الأرض أمنا وسلاما ، بعد ماملئت عسفا وإجراما ؟ ! .

عرف الإسلام للعقول والأرواح قداستها ، وحفظ للأموال والأعراض حرمتها ، فشرع الحدود والزواجر ، وأنزل النواهى والأوامر ، ونظم الأحكام والفرائض ، ونسق المعاملات الشخصية والعلاقات الاجتماعية ؛ رفع قدر المرأة فصانها من الوأد صغيرة ، وحفظها من اللهو بها كبيرة ، بعد ما كانت سلعة تورث وتوهب ، وجعلها شريكة للرجل فى الحقوق والواجبات ؛ رغب ورهب ، وحذر وأنذر ، فطمع المحسن فى زيادة حظه من الثواب ، وخشى المسىء صولة العقاب ، وبذلك ربط بين الحياتين ؛ وجمع بين السعادتين ، حمى العقائد والأديان من الاضطهاد والإرهاق ، طورا من عسف أهل الأديان ، وطورا من قساة المشركين وعباد الأصنام .

وكان من أمر بختنصر مع نبى الله دانيال ما كان ، وحادثة أصحاب الأخدود قد قصها علينا القرآن « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . قدس حرية الرأى والفكر ، ودعا الى النظر فى ملكوت السماء والأرض ، ففتح بذلك أمام العقول أبواب التفكر والتدبر ، وميادين الاستنباط والاستدلال ، فعرفت أن للعالم صانعا عظيما ، ومدبرا حكيما .

وشاد المعارج لسبحات الأرواح والأفهام ، ففتحت مغاليق الأكوان ، وكسرت أصداف الأسرار ، فكانت عجائب الإبداع وغرائب الاختراع ، وصدق الله إذ يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق » وقد كان ذلك قبل محمد على الأفكار جرما محظورا ، وإثما عند القوم كبيرا ، يستهدف صاحبه للتقتيل والتشريد والسجن والتعذيب ، وما قصة فتية الكهف ببعيد .

سوّى الإسلام بين طبقات البشر ، وأزال الفوارق بين الأجناس ، ورفع الحدود من بين الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً واحداً ، والعالم كله أسرة واحدة ، كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وثّق بينهم برباط فطرى واحد هو الدين ، وجمعهم على إمام واحد هو خليفة المسلمين ، ووجههم إلى معبود واحد هو الله رب العالمين .

فتهيأ بذلك للأفراد والجماعات على أساس ما توافر لهم من أسباب الأمن والاستقرار والتكافؤ فى الحقوق والواجبات ، أن يشيدوا عمرانهم ، ويبنوا حضارتهم ، وبدأ ركب الإنسانية يسير فى طريقه القاصد المستقيم .

هذا عرض سريع لبعض النواحى من عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، توحى بها هذه الليلة المباركة : ذكريات عبقة يفوح شذاها ، وتتأرج رياها ، ترنيمات فى فم الدنيا ، وحلى فى جيد الزمن ، ومفخرة لبنى الإسلام على جميع الأنبياء ، ومنقبة لدينه على جميع الأديان ، مجد باذخ اشتركت فى تأثيله السماء ، وخطت صفحاته بدم الأحرار من الشهداء . ضيعه المسلمون يوم أضاعوا حريتهم ، وفقدوا شخصيتهم ؛ وتراث خالد حافل بالجلائل والعظائم فقدوه يوم فقدوا الملك والسلطان ، فأنزلهم الوجود عن صدره ، وأزالهم عن مكانهم ، فجالوا فى أعنة الفتنة ، ودلفوا فى أبواب الفرقة ، وتوزعتهم الأهواء ، فركضوا فى مراغة الخمول ، وعاشوا على الذل والهون ، وقنعوا بالحقير والدون ، وراحوا يظهرون فى صور المؤمنين وأشباه المسلمين :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائهم

نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وخلعوا دينه وشرعه فخلع عنهم مهابته وعزه ،

وخالط على عقولهم ، وانعكست معايير الأمور فى أنظارهم ، فصارت الفضيلة رذيلة ، والخير شرا ، والفساد صلاحا .

استعزوا بغير قوة السماء فضاعوا على جنبات الأرض ، وتكالبوا على حطام الذاتية فأضاعوا الدنيا والآخرة ، حتى طمع فيهم شذاذ الآفاق من اليهود الذين تتطعتهم لعنة الله ، ودعوة المسيح .

نهلوا من مناهل الغرب ، وعافوا منهل الشرق العذب ، فجرفتهم تيارات الإباحية ، وتحللوا من قومياتهم وتقاليدهم ، وانماعوا فى غيرهم من الأمم ، وضربوا فى بيداء الحياة حائرين .

وما أحراهم اليوم إن أرادوا مخلصا مما صاروا إليه ، ومنجاة مما يستهدفون له ، أن يفيقوا من نومهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، فيتخذوا من دينهم علاجا ، ومن هدى نبيهم منهاجا ! .

الشجعان

إن الشجاعة التى يتضاءل إزاء ذكرها الشجعان ، ما أظهره جنودنا بالفالوجة . فسيبقى ما أظهروه من البطولة عنوانا لبسالة جيشنا على مدى الأيام . وفى هذه المناسبة نذكر بعض ما كان ينشده أوائلهم من الشجعان قال واحد منهم :

أبت لى شيمتى وأبى تلادى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى   وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت :   مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات   وأحمى بعد عن عرض صحيح

ومثله قول قطرى بن الفجاءة من أهل القرن الإسلامى الأول :

وقولى كلما جشأت لنفسى   من الأبطال : ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت حياة يوم   سوى الأجل الذى لك لم تطاعى

باب الأسئلة والفتاوى

ميراث القاتل خطأ

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

رجل قتل زوجته وهى بنت عمه الشقيق قتل خطأ بدون قصد ؛ فهل يرث أم لا ؟ وما نصيبه فى الإرث إذا كان يرث ، وأن لها أختا شقيقة وأولاد عم لأبيها ، فهل زوجها يرث أم لا ؟ وما نصيب أختها الشقيقة ، وما نصيب أولاد عم أبيها ؟

مرفق مع هذا حكم عقوبة زوجها القاتل .

محمد مصطفى عمار
كفر الشناورة مركز منيا القمح شرقية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وعلى صورة الحكم الصادر من محكمة استئناف مصر فى قضية النيابة العمومية رقم ١١٢٥ منيا القمح سنة ١٩٤٧ ورقم ٤٤٥ سنة ١٩٤٧ كلى ، وقد جاء بهذه الصورة ما نصه : « وحيث إن المتهم عبد العزيز عبد الحميد خفاجى اعترف فى محضرى البوليس والنيابة بأنه طلب من زوجته ربط الحمارة فرفضت فجذبها من يدها فشتمته وأمسكت بخصيته ، ثم أرادت أن تفتح الباب وتخرج فضربها بجازية الطنبور ، وقدم المتهم للعمدة قطعة الخشب

التي استعملها في ضرب المجنى عليها ، وهى عبارة عن قطعة سميكة طولها ١٢٥ سم من شجر السنط تستعمل للطنبور وتسمى عند الفلاحين بحازية الطنبور .

« وحيث إن الكشف الطبي الظاهرى على جثة المجنى عليها أثبت وجود تورم رمدى يشمل منطقة الجدارتين وما يجاورها من الصدغين ، ووجود جرح صغير شبه شق بطول ٥ سم بمقدم أسفل هذا التورم ، ومساحة التورم بأبعاد حوالى ١٥ سم من الجرح سطحى قاطع فقط فى البشرة وبعض النسيج الخلوى السابق ذكرها وممتد على القمة الى الجانب اليسارى بحيث اتسع مدى الاتكاب ، وظهر وجود كسر شرخى بالجدارى اليسارى بين أقرب جناح العظم الأسفينى وينعرج صاعدا بمقدم الجدارى الأيسر حتى يصل الى التدريزة التاجى ، وهناك كسر آخر ممتد بهيئة صاعدة على جناح العظم الأسفينى الأيمن من القاعدة حتى الجزء العلوى بجانب الجدارية بطول حوالى ٤ سم ، ووجد نزيف دموى على سطح المخ تحت الأم الحنونه ، وكسر الجانب اليسارى واصل الى جانب مقدمة الحفرة الوسطى اليسارية ، ونتيجة الصفة التشريحية أن إصابة المجنى عليها نبوية حسانين خفاجى بالرأس تحدث من المصادمة بأى جسم صلب راض أيا كان نوعه ، ومن الممكن أن تكون متخلفة من الضرب بحازية الطنبور كما ظهر من التحقيق ، وأن الوفاة قد حدثت من كسور الدماغ والنزيف على سطح المخ ، مع ما صحب ذلك من ارتجاج دماغى وصدمة عصبية .

« وحيث إنه من جميع ما تقدم يكون قد ثبت للمحكمة ثبوتا كافيا أن المتهم عبد العزيز عبد الحميد خفاجى فى ليلة ١٩ / ٩ / ١٩٤٧ الموافق ٣٠ رجب سنة ١٣٦٦ بكفر الشناورة مركز منيا القمح مديرية الشرقية ضرب نبوية حسانين خفاجى عمدا بالعصا على رأسها فأحدث بها الإصابات المبينة بالتقرير الطبي التشريحى ، ولم يقصد من ذلك قتلا ، ولكن الضرب أفضى الى موتها ، وعقابه ينطبق على المادة ٢٣٦ من قانون العقوبات .

« وحيث إن المحكمة ترى لظروف القضية وملابساتها معاملته بالمادة ١٧ عقوبات « وبعد الاطلاع على المادتين المذكورتين حكمت المحكمة حضوريا بمعاقبة عبد العزيز عبد الحميد خفاجى بالحبس مع الشغل لمدة سنة واحدة » .

وتفيد اللجنة بأن هذه الحادثة مما يطبق عليها قانون المواريث الجديد ، لحصولها بعد وجوب العمل بهذا القانون ، وقد نصت المادة الخامسة منه على «أن من موانع الإرث قتل المورث عمدا ، سواء أكان القاتل فاعلا أصليا أم شريكا أم كان شاهد زور أدت شهادته الى الحكم بالإعدام وتنفيذه إذا كان القتل بلا حق ولا عذر ، وكان القاتل عاقلا بالغا من العمر خمس عشرة سنة ، ويعدُّ من الأعذار تجاوز حق الدفاع الشرعى» .

فهل ما جاء فى هذه المادة يتناول هذه الحادثة ؟ قد يقال إنه لا يتناولها نظرا الى أن القاتل لم يقصد قتل المجنى عليها كما جاء فى أسباب حكم المحكمة ، لكن الذى يظهر أنَّ ما جاء بهذه المادة يتناول هذه الحادثة ، لما نص عليه الفقهاء من أن القتل العمد لا يشترط فيه قصد إزهاق الروح ، بل المناط أن يقصد القاتل ضربه بآلة يقتل بها غالبا ، وفى مجرى العادة ؛ فناطوا الحكم بمظنة قصد الإزهاق المذكور ، فيدور الحكم على هذه المظنة ، ولا ينظر الى تحقق ذلك القصد . وعلى ذلك فمعنى القتل العمد فى المادة المذكورة أن يأتى الشخص بعمل وحده أو بطريق الاشتراك مع غيره يكون من شأن هذا العمل إزهاق الروح . وبهذا يعد هذا القاتل قاتلا لمورثته عمداً بلا حق ولا عذر ، وهو عاقل بالغ من العمر أكثر من خمس عشرة سنة ، ولم يكن فى حالة دفاع عن نفسه ، لأنه على فرض أنها أمسكت بخصيتيه كما قال المتهم ، فقد تركت هذا الإمساك وأرادت الخروج وحاولت فتح الباب ، وقد علم من أسباب الحكم أن الآلة التى استعملها فى الضرب آلة قاتلة لا سيما إذا كان الضرب بها على الرأس كما حصل ، وعلى ذلك فترى اللجنة أن هذا القاتل لا يرث المجنى عليها .

وإذاً فتقسم تركتها بين أختها وأولاد عم أبيها على الوجه الآتى :

لأختها النصف فرضا ، ولأولاد عم أبيها الباقى تعصيبا بالسوية بينهم إذا كان العم المذكور أخا شقيقا لجدها أبى أبيها أو أخا من الأب ، وكان الأولاد ذكورا ؛ أما إذا كان العم أخا لجدها من الأم أو كان أولاده إناثا فلا شىء لهم ، وكان الميراث كله لأخت المتوفاة فرضا وردا ، وهذا إذا لم يكن للمتوفاة وارث آخر . والله أعلم .

صحة صلاة الجمعة بواحد مع الامام

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

فى بلادنا مدن صغيرة وقرى لا ترحل ، وهناك خلاف دائم على قدم وساق حول صحة الجمعة فى هذه البقاع ، من حيث قد ينقص العدد المشروط فى بعض الأحيان ، فمنا من يصلى الجمعة دائما ، ومن يصلى الظهر دائما ، وكلنا شافعيو المذهب . فنرجو الإفادة .

سيد احمد سيح موسى الصومالى
الطالب بالأزهر

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد ورد الى لجنة الفتوى سؤال من هذا القبيل ، وقد أجابت عنه بما يأتى :

« قد اختلف العلماء فى العدد الذى تصح به صلاة الجمعة ؛ فعند أبى حنيفة ومحمد يلزم لصحتها حضور ثلاثة رجال سوى الإمام . وعند أبى يوسف يلزم اثنان غير الإمام ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، واختارها شيخ الإسلام ابن تيمية . وعند الإمام مالك يشترط حضور اثنى عشر رجلا غير الإمام من المتوطنين فى بلد الجمعة . وعند الإمام الشافعى وأحمد فى المشهور عنه يشترط حضور أربعين رجلا .

وقد بحثت اللجنة المذاهب فى هذا الموضوع فلم تجد دليلا يصح الاستناد اليه فى اشتراط عدد مخصوص للجمعة . واللجنة قد اختارت مذهب من يقول من الفقهاء بأن الجمعة تصح بواحد مع الإمام ، سواء أكان من يحضر لها من أهل العزبة نفسها ، أم من العزب المجاورة .

هذا والجمعة فرض عين على كل رجل ليس بصاحب عذر ، فمن تخلف عنها بغير عذر فهو آثم . والله أعلم »

رئيس لجنة الفتوى
عبد المجيد سليم

حيرة العالم وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

— ٣ —

سدر كثير من الناس عقب الحرب العالمية الأولى فى غوايتهم ، وأطلقوا لشهواتهم العنان استرواحا مما عانوه فيها من ويلات وما مسهم من بأساء وضراء ، واستخفوا بالقيم الروحية وبأصول الفضائل التى تواطأت عليها الأديان ، وتغاضوا عنها فى المنازل والمدارس والمجتمعات ، فنشأ هذا الجيل وقلوبهم خاوية من الفضائل ، وأفئدتهم هواء من المثل العليا للانسانية السليمة ، وتأدت بهم تلك الحال الى ما هم فيه من فوضى فى الأخلاق ، ومن بلاء فى المعاش ، ومن حيرة فى أمرهم كله ، وعنى ذلك السادة والقادة ، فرنوا ببصائرهم فى هـذا الظلام يتحسسون الإصلاح وينشدون العلاج ، فتهدوا الى الأديان يسترشدون بهداها ، ويستضيئون بنورها ويستطبون يطبها ، عسى أن تبرأ عللهم ، وتظلهم سحائب الأمن فتطمئن نفوسهم وتسكن قلوبهم .

تهـدّى الى الأديان كعلاج لأمراض المجتمع البشرى بعضُ رجال الاجتماع والتربية والقانون والفن وغيرهم ، فارتفعت أصواتهم بدعوة الشعوب الى التماس السلام فى الأديان ، إذ أنه لا منقذ للبشرية مما هى فيه غيرها ، بعد أن فشلت فى علاج أدوائها المذاهب والقوانين الوضعية . قال البرفسور الدكتور دافيد ماس أحد رجال الاجتماع الانجليز بصدد الكلام عن مشاكل الأسرة : « إن البحث الجدى قد أثبت أن السبب فى فشل الزواج فى حياتنا الحديثة إنما يعود الى التقصير فى تعليم الدين للأطفال ، وذلك لأن التعاليم الدينية تبث فى الفرد روح التمييز بين الخطأ والصواب ، وتشعره بضرورة الشرف واحترام العهود ، وتعوده

على الإيمان بما للفرد من حقوق نحو غيره » . وقال أيضا : «إن التقصير فى تعليم الدين ينشر الأنانية فى النفوس ، ويشجع الفتيات على إغراء الرجال المتزوجين وهجر زوجاتهم بدعوى الحب . ويرى أن تقرر الحكومات دراسة الدين كمادة أساسية فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية .

ومن قبل ذلك دعا بعض رجال القانون بأمريكا الى الرجوع الى القوانين السماوية ، ليستمد منها بعض المواد التى تعالج الجرائم فتقضى عليها أو تقلل منها ، بعد أن فشلت التجارب فى علاجها بالقوانين الوضعية . وأخيرا قام المواطن العالمى الأمريكى جارى ديفيز - وقد هاله الدمار والخراب فى الحرب العالمية الأخيرة - يدعو الى الوحدة العالمية ، أعنى أن يكون العالم كله وطنا واحدا له حكومة واحدة تسوسه وتوجهه ، لتزول الفوارق الجنسية والقومية التى كانت على الدوام من أقوى الدوافع الى إثارة الحروب ، لأن الحروب إن هانت واحتملتها البشرية فيما مضى ، فلن تهون ولن تحتملها البشرية الآن ، بعد أن اخترع ما اخترع من مهلكات ذرية وغيرها ، مما تحرص الدول المتنافسة المتحضرة على الاحتفاظ بسريتها حتى يحين وقتها ، وتدعو الضرورة الى استعمالها .

قام ذلك الأمريكى الفنان ذو الفكر الحر بدعوته هذه فى مقر هيئة الأمم ، وحاول فى جرأة المؤمن بفكرته أن يلفت نظر الهيئة الى قلة الجدوى فى عملها ما دامت تعالج مشاكل الأمم بالروح التى تسودها الآن ، وأن الطريق الصحيح الى ضمان السلام العالمى أن تلغى الفوارق التى أشرنا اليها حتى لا تتسامى أمة على أمة ، ولا تطمع أمة فى أمة ، بل يكون العالم كله أمة واحدة .

وقد لقيت هذه الدعوة ترحيباً صادقاً قوياً ، وبخاصة فى الأمم التى كانت أشد تعرضا لأخطار الحرب وأهوالها ، وأخذت تنمو وتزداد . وعندى أنها ستنمو وتشتد وتمتد ، وسيعتنقها كثيرون ؛ فما من شخص عاصر هذه الحرب وشاهد أهوالها إلا ويتمنى بجدع الأنف أن تنجح هذه الدعوة ، وأن تقر عينه بسلام لا تهدده أطماع الساسة والزعماء . وليس يعنينى من هذا الحديث أن تنجح أو تخفق ، وإنما الذى يعنينى منه ، والعبرة التى أستمدها من سياقه ، أن هذه الدعوة تتفق وأهم تعاليم الإسلام من ضرورة إلغاء الفوارق الجنسية والقومية التى

تعتد بها شعوب العصر . فالعالم فى نظر الإسلام أمة واحدة ليس فيها شرقى ولا غربى ، ولا عجمى ولا عربى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . « وإن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وللعالم فى نظر الإسلام حكومة واحدة تقوم على الشورى الصادقة ، ويتساوى أمام قوانينها جميع الرعايا ، وينعمون فى ظلالها بالحرية والإخاء والمساواة . ذلك إحساس العلماء على اختلاف ألوانهم وأجناسهم بحاجة العالم الى الأديان بعد أن أرهقته المادية من أمره عسرا ، وهو اعتراف بعجز السياسة والساسة عن علاج شئونه وتوفير أسباب أمنه واطمئنانه . وإنها لفرصة على رجال الأديان أن يهتبلوها بعد أن تهيأت لها وسائل النجاح ، وقربت الشدائد من الله ومن دين الله ، وبعد أن آمنت القلوب القاسية بأن لا ملجأ من الله إلا اليه . وليعلم هؤلاء أن الحديث باسم الدين سيكون عذبا مألوفا بعد أن كان مستثقلا نابيا .

نعم : على رجال الأديان أن ينتهزوا هذه الفرصة ، فيأخذوا مكان القيادة من هذه الشعوب الحائرة ، عسى أن تحول حالها ويهدأ بالها ويهنأ عيشها ، وعلى رجال السياسة أن يتخلوا عن مكان القيادة ، أو يفسحوا فيه لرجال الأديان ، وإن أبوا أنفة واستكبارا فستدفعهم الشعوب عنه دفعا ، انتقاما لسلامهم المسلوب ، وسعادتهم الضائعة . وسينغض قوم رءوسهم استخفافا بهذا الحديث ، واتهاما لصاحبه بالتعصب والطمع والغرور ؛ ولكن حسبنا قوة إيماننا به ، وحسن نيتنا فيه ، وحسبنا ما ستثبته الأيام والحوادث من صوابه وتصديقه .

حجاب الحكام

قال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله ، فحُجبت فكتبت إليه :

إنى أتيتك للتسليم أمس فلم ... تأذن عليك لى الأستار والحجب
وقد علمت بأنى لم أرَدّ ولا ... والله ما رُدّ إلا العلم والأدب

فأجابنى أبو جعفر بقوله :

لو كنت كافيت بالحسنى لقلت كما ... قال ابن أوس وفيما قاله أدب
ليس الحجاب صدوداً عنك يا أملى ... إن السماء ترجى حين تحتجب

الالتزامات وأنواعها

فى الفقه الإسلامى

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

ونرجع الى الفقه الإسلامى ونستعرض أحكامه لنرى ما إذا كانت هذه المعانى موجودة به أم لا .

الالتزام بإعطاء شىء : وردت أحكام كثيرة فى هذا المعنى ، نذكر بعضا منها على سبيل المثال : ففى البيوع على مذهب الأحناف « لو قال البائع : بعتك هذه السلعة ، وأشار الى سلعة موجودة فى المجلس ، وقبل المشترى ، لزم على البائع تسليم تلك السلعة بعينها ، وليس له أن يعطى سلعة غيرها من جنسها » .

وكذلك ورد « إذا بيّن وصف الثمن وقت البيع ، لزم على المشترى أن يؤدى الثمن من نوع النقود التى وصفها » .

وأيضا « لو اشترى رجل من السوق شيئاً بدون أن يذكر تعجيل الثمن ولا تأجيله ، لزم عليه أداء الثمن فى الحال » .

وورد « القبض ليس بشرط فى البيع ، إلا أن العقد متى تم ، كان على المشترى أن يسلم الثمن أولا ، ثم يسلم البائع المبيع اليه » .

وأيضا « إذا أحال البائع إنسانا بثمن المبيع ، وقبل المشترى الحوالة ، فقد أسقط حق حبسه . وفى هذه الصورة يلزم على البائع أن يبادر بتسليم المبيع للمشترى » .

وأيضا « فى بيع النسيئة : ليس للبائع حق حبس المبيع بل عليه أن يسلم المبيع للمشترى على أن يقبض الثمن وقت حلول الأجل » .

وكذلك « إذا باع حالا أى معجلا ثم أجل البائع الثمن ، سقط حق حبسه للمبيع وعليه حينئذ أن يسلم المبيع للمشترى على أن يقبض الثمن وقت حلول الأجل » .

ومن ذلك « إذا بيع مال على أن يسلم فى محل كذا لزم تسليمه فى المحل المذكور » .

الالتزام بفعل شيء : وكذلك الالتزام بفعل شيء وردت فيه أحكام كثيرة : من ذلك فى مذهب الأحناف : ففى الإجارة على العمل « يلزم الآجر أولاً تسليم المأجور ، وعلى الأجير إيفاء العمل فى الإجارة المطلقة التى عقدت من دون شرط التعجيل والتأجيل على كل حال ، يعنى إن كان عقد الإجارة على منافع الأعيان أو على العمل » .

ومن ذلك « من آجر داره أو حانوته وكانت فيه أمتعته وأشياؤه تصح الإجارة ويكون مجبورا على تخليته من أمتعته وأشيائه وتسليمه » ، وأيضا فى إجارة الدار « إعمال الأشياء التى تخل بالمنفعة المقصودة العائدة الى الآجر مثل تطهير الرحى على صاحبها ، كذلك تعمير الدار وطرق الماء وإصلاح منافذه ، وإنشاء الأشياء التى تخل بالسكنى وسائر الأمور التى تتعلق بالبناء ، كلها لازمة على صاحب الدار ، وإذا امتنع صاحبها عن أعمال هؤلاء فللمستأجر أن يخرج منها الخ » .

وأيضا « إزالة التراب والزبل الذى يتراكم فى مدة الإجارة والتطهير عنهما على المستأجر » .

وفى إجارة الدابة « لو اشترط إيصال حمل معين إلى محل معين وتعبت الدابة فى الطريق فالمكارى مجبور على تحميله على دابة أخرى وإيصاله الى ذلك المحل » .

الالتزام بالامتناع عن فعل شيء : أيضا وردت فيه نصوص كثيرة ؛ منها من مذهب الأحناف : ففى بيع الوفاء « إذا مات البائع فليس لسائر الغرماء التعرض للمبيع وفاء مالم يستوف المشترى دينه » .

ومن ذلك فى إجارة الدار « ليس لمن استأجر داراً أن يفعل ما يورث الضرر والوهن للبناء إلا باذن صاحبها » .

ومن ذلك « من استأجر ثيابا على أن يلبسها لنفسه فليس له أن يلبسها غيره » .

وأيضا « لو استكريت دابة الى محل معين فليس للمستأجر أن يذهب بتلك الدابة إلى محل آخر » .

وأيضا « من استكرى دابة إلى محل معين فليس له تجاوز ذلك المحل بدون إذن صاحبها » الى آخر ذلك من النصوص .

ومن سرد هذه النصوص يتبين بكل جلاء أن الفقه الاسلامى متفق مع ما ذهب اليه التشريع الوضعى لأنواع الالتزامات .

المدن الفاضلة

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

أمل تعلقت به بعض النفوس التى أحبت المجتمع وفكرت فى خيره ، وخيال سبحت فيه عقول الفلاسفة وهم الذين مجدوا العقل واستوحوا المنطق فى تفكيرهم ، وحلم تمنى الذين عاشوا فيه حينا أن يروه حقيقة واقعة متحققة بين أفراد البشر ؛ وأعتقد أن كل من قرأوا عنه تمنوه كذلك .

ومن ذا الذى لا يتمنى أن يتطهر عالمه من الأدران والشوائب المادية والروحية ، وأن تصفو نفوس أفراده وتطهر قلوبهم ، ويشيع الحب بينهم ، ويتحقق التعاون ، ويعرف كل واجبه ، ويدرك مركزه ووظيفته التى تؤهلها له قواه الطبيعية فى المجتمع ؟ من ذا الذى لا يتمنى عالما خلا من البائس والمحروم ، والعاطل والمريض ، والكاذب والسفيه ، وغير ذلك من النقائص والرذائل ؟ وأخيرا من ذا الذى لا يتمنى عالما يقرب من جنة الله التى وعد بها المتقين .

ولكن ، هل كل ما يتمنى المرء يدركه ؟ سؤال نترك الإجابة عنه الى حين ، بعد أن نستعرض باختصار آراء الفلاسفة الذين رسموا حدودا لهذه المدينة ، وحددوا منهاجا لأفرادها ؛ ونقف قليلا عند من قال بها من المسلمين ، وهو الفيلسوف أبو نصر الفارابى ، الملقب بالعلم الثانى .

حاول كثير من الفلاسفة تحقيق هـــذه المدينة ؛ فلاسفة اختلفت بيئاتهم وعصورهم ؛ فدعا إليها أفلاطون ، والفارابى ، وتوماس مور فى انجلترا ، وكامبانيلا فى إيطاليا وغيرهم ؛ وهم وإن اختلفت فلسفاتهم وتباينت الأشكال التى وضعها كل منهم لمدينته ، إلا أنهم يتفقون جميعا فى نشدان السعادة الكاملة لأبناء المدينة .

كان أفلاطون أول فيلسوف إغريقى وضع مذهبا فلسفيا متناسق الأجزاء متكامل الأطراف ، وأراد أن يتوج مذهبه هـذا بالقول بمدينة فاضلة يتحقق

فيها الخير ، وكان طبيعيا أن يلجأ الى مذهبه الفلسفى يستفتيه ويقيم على أساسه مدينته ، فرأى أنه عند كلامه عن النفس قد قسم القوى التى توجد فى الإنسان الى ثلاث : الشهوانية ، ومركزها البطن ، وفضيلتها العفة ؛ والغضبية ، ومركزها الصدر ، وفضيلتها الشجاعة ؛ والفكرية ، ومركزها الرأس ، وفضيلتها الحكمة أو التأمل ؛ وكما أن الفرد لا ينصلح حاله إلا إذا تغلبت القوة الفكرية على القوتين الأوليين ، فكذلك الدولة أو المجتمع لا تستقيم أحواله إلا إذا تغلبت الطبقة الثالثة ، أى طبقة الفلاسفة ، على الطبقتين الأخريين ؛ فهم الذين اختصهم الله بحاسة سادسة ، فوق الحواس الخمس العادية ، وهى القدرة على إدراك الحقائق العامة ، وتفهم المعقولات الصرفة بطريق الإشراق ، أى من غير جهد ولا عناء. فالأرواح فى رأيه كانت تعيش فى عالم آخر غير عالم الحس هذا ، ولما هبطت إلى الأرض نسيت ما كانت فيه ؛ وهذا ينطبق على جميع الناس إلا الفلاسفة ، فإن أرواحهم قد تتذكر هذه المعقولات إذا مر عليها ما يذكرها بها فى العالم الحسى .

ولكن كيف يتسنى لنا تمييز أفراد كل نوع من أفراد بنى البشر ، لتعرف الفيلسوف ونصبه حاكما على المدينة ؟ يضع أفلاطون نظاما دقيقا يتدرج صاعدا من الطفولة إلى الكهولة ؛ فالطفل يربى فى منزل أبويه إلى سن السادسة ، وتشرف الحكومة على المرضع التى تتولى تربيته ، ثم يلحق الأطفال جميعهم بالمدارس الابتدائية ، وهى عنده على نوعين : مدارس موسيقى وآداب ، ومدارس مصارعة ؛ وبعد ذلك تأتى المدارس الثانوية ، وهى كلها مدارس ألعاب رياضية ، ويظل بها الشاب حتى سن الثامنة عشرة ، ثم يعمل اختبار عام ؛ فمن دل على أنه وصل إلى درجة رقى عقلى وخلقى لا يستطيع أن يصل إلى أكثر منها ، يقف تعليمه فى هذه السن ؛ ويتكون من هؤلاء الطبقة الأولى من طبقات المجتمع ، وهى طبقة العمال والصناع والزراع . أما الباقون فيلتحقون بالمدارس العسكرية لمدة سنتين كذلك ، ثم يجرى بينهم امتحان : فمن دل على أنه وصل الى درجة رقى عقلى وخلقى لايستطيع أن يصل إلى أكثر منها ، يقف تعليمه عند هذا الحد ؛ ويتكون من هؤلاء طبقة الجنود ؛ ومن يتبقى بعد ذلك يلتحقون بمدارس العلوم الرياضية لمدة عشر سنوات كاملة يتعلمون فيها الرياضة بطريقة نظرية صرفة لا بطريقة عملية ؛ وذلك

لمساعدتهم على الخوض فى المعقولات الصرفة ، ثم يجرى امتحان بينهم أيضا ؛ فمن تقف مداركه عند هذا الحد يقف تعليمه ؛ ويتكون من هؤلاء طبقة صغار الفلاسفة ؛ ومن يتبقى بعد ذلك يلتحق بالمدارس الفلسفية ، ومدة دراستها خمس سنوات ، يدرس خلالها الفلسفة والمنطق وما إليهما ، وفى هذه المرة لا يجرى امتحان ، فلا حاجة له عند هؤلاء ، فهم الذين سيكون فى يدهم الحكم والسيطرة على الدولة حتى سن الخمسين ، وعليهم بعد ذلك أن يعتزلوا الحكم الى دراسة الفلسفة مستعينين بالتجربة فى مدة حكمهم .

هذا هو نظام أفلاطون إذا أردنا أن ننشىء مدينة فاضلة ، قبل أن نقول رأينا فيه ؛ نعرض نموذجا آخر من التفكير الإسلامى فى هذا الموضوع ؛ فنرى الفارابى قد تأثر برأى فيلسوف الإغريق الى حد كبير ، مكيفا إياه بالشريعة الإسلامية ، ومتمشيا مع مذهبه الخاص فى الفلسفة : فنحن نعرف أن المعلم الثانى قد قسم مراتب الوجود الى اثنتى عشرة مرتبة ، منها ست مادية ، ومنها ست روحية ؛ والمادية هى الأجرام السماوية ، والعناصر الأربعة ، والمعادن ، والنبات ، والأجسام الحيوانية ، والأجسام الإنسانية ؛ والروحية هى علة العلل ، أو الكائن الأول ، أو الله ، والعقول التسعة المشرفة على الأجرام السماوية ، والعقل فى الإنسان ، والنفس الإنسانية ، والهيولى ، والصورة ؛ وهذه الثلاثة الأخيرة ليست روحية محضة ، لأنها متعلقة بالأجسام . والمهم هنا أن الفارابى يرى أن الكل ما عدا الله تعالى يجب أن ينبثق من الكائن الأول أو من علة العلل ، ويستمد حياته منه ، ويرجع إليه ويحتذيه ؛ كذلك فيما يتعلق برئيس المدينة ، لا تكتمل سعادة الأفراد إلا إذا احتذوا حذوه وكانوا صورة منه .

يشترط الفارابى فى رئيس مدينته شروطا تقربه من الأنبياء ، فبعد أن يقرر أن الإنسان مدنى بطبعه لأنه ليس فقط عضوا فى قبيلة ، بل عضوا فى المدينة والإنسانية جمعاء يشعر بعاطفة الأخوة نحو جميع أفراد البشر — ينتقل الى الرئيس الذى يود أن يجعله قائدا لهذا المجتمع الإنسانى كى ترفرف عليه راية العدل والمساواة ، هو رئيس تجتمع فيه جميع الخصال الحميدة ، قوى الشخصية ، تام الأعضاء ، ذكى ، لبق ، قانع فى المأكل والمشرب والنكاح ، غيرى ، لا محب

لذاته ، صادق لا يكذب ، كبير النفس ، كريم ، عادل ، مبغض للجور والظلم ، قوى العزيمة ، شجاع لا يخاف ؛ وبالجملة فهو نبى تنقصه الرسالة ؛ فمهمة الرئيس ليست سياسية فحسب ، ولكنها خلقية أيضا ؛ فمن الناحية السياسية هو الرئيس الأعلى لكل المدينة ، ووزراؤه ومساعدوه ليسوا إلا منفذين لأوامره ؛ ومن الناحية الخلقية هو النموذج الذى يقلده المدنيون ، والمثال الذى يحتذونه ؛ ويصل الرئيس إلى مركزه هذا بالرياضات والمجاهدات والتأمل والنظر ، وعلى جميع الأفراد أن يحذوا حذوه ، ويترسموا خطواته ، فهو النموذج الأعلى للإنسان الكامل ، وعليه أن يحاول ما استطاع أن يصبغ جميع الأفراد بطبيعته هو .

هذا هو رئيس المدينة عند الفارابى ، وهذه هى الناحية السياسية التى تلتمس عند المعلم الثانى قد ركزها جميعها فى الكلام عن الرئيس ، فلم يعتن فيلسوف العرب بوضع نظام عام للحكومة توزع فيه الاختصاصات على وظائف مختلفة ، بل ركز جُل اهتمامه فى الرأس معتقدا بأنها إذا صلحت صلحت بقية أعضاء البدن ، فاشترط فى رئيس مدينته أن يكون كاملا من جميع الوجوه ، وما دام كذلك فإنه لا بد أن يبغى الإصلاح وينشر العدالة والمساواة ؛ وإذا قلده الأفراد وساروا على نهجه فإن الخير لا بد أن يعم المدينة ، وينتشر فوق ربوعها لواء الحق والطمأنينة .

ولقد أراد الفارابى أن يدعو الى مجتمع إنسانى يعم فيه العدل والمساواة والإخاء ، آخذا هذه الفكرة من تعاليم الدين الإسلامى لا من أستاذه الروحى أفلاطون ، ولكنه عند ما رأى صعوبة تحقيق هذه الفكرة عدل عنها وقصر كلامه على مدينة محدودة ؛ ففصل فيها القول ودعا الى التآخى والتآزر ليتكون منها جسم واحد تسرى فيه روح واحدة . وقد تكلم فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » فى فصل « القول فى الصناعات والسعادات » عن تقسيم العمل ، فوزع الأعمال بالنسبة الى الطبائع ، ودعا الى إعطاء كل شخص العمل الذى يتفق مع طبيعته لتستقيم الأمور . ومن الواضح أن لتقسيم العمل أثره من الناحية الاقتصادية ، فما دام كل شخص سيوجه الى العمل الذى يتفق مع طبيعته وميوله فإنه لا بد أن يعود ذلك بالإنتاج الوافر العميم على الوطن .

هـذا هو ملخص رأى الفارابى فى المدينة الفاضلة . ولقـد حاول الفيلسوف كامبانيلا الإيطالى فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادى أن يرسم خططا لمدينة فاضـلة فى كتابه « مدينة الشمس » مقتبسا بعض نظمه من أفلاطون ، كما حاول نفس المحاولة توماس مور فى انجلترا عند ما أراد أن ينشىء مدينته التى سماها « بالإيثوبيا » ، ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا أن نبسط آراءهم .

هذه آراء بعض الفلاسفة فى المدينة الفاضلة ، آراء فيها للخيال نصيب كبير . ومن عجب أنها صـدرت عن قوم قدسوا العقل ووقفوا خشعا عند محرابه ، وأغلب الظن أن الذى أملى عليهم هذه الآراء إنما هو حب المجتمع والرغبة فى أن يعيش أفراده معيشة مثالية من جميع الوجوه ، فجلس كل منهم فى برجه العاجى ، وأمسك بقلمه ليسطر به فوق قرطاسه أسسا لمدينة فاضلة دون دراسة للمجتمع ، ودون تعرف لرغباته ، أو الوقوف على ما يناسبه من إصلاح ، وما يسير به رويدا رويدا نحو الـكمال .

ولـكن من الإنصاف أن نقول : إن أفلاطون بعد أن أثبت كلامه هذا فى كتابه « الجمهورية » عاد فعدله فى كتابه « القوانين » عند ما صدمه الواقع المحسوس فى تجربته ، وأن الفارابى بعـد أن قال بفـكرة المجتمع الإنسانى الذى أخذها من الدين الإسلامى ، عاد فعدل أقواله ، وتـكلم عن مجتمع المـدينة الذى ترتبط فيه العناصر بعضها ببعض ارتباطا دقيقا ، إذ توزع فيها الأعمال بحيث يعمل كل فرد العمل الذى يتناسب مع طبيعته ويتلاءم مع ميوله ؛ وبذلك تصبح المدينة كجسم الإنسان يؤدى كل عضو عمله فى هدوء ؛ وبذلك أيضا يتحقق التضامن الجمعى . والفارابى فى قوله بتقسيم العمل إنما سبق العلامة دوركهيم زعيم المدرسة الفرنسية الاجتماعية فى هذه الفـكرة .

وعلى كل حال فالمدينة الفاضلة حلم يصعب تحقيقه ، وستظل كذلك مالم تخفف شيئا من غلوائها ، وينظر القائلون بها الى الواقع بعين مبصرة ، ويبنوا إصلاحهم بمقدار ما تسمح به ظروف المجتمع . ولقد صدق توماس مور حين سمى مدينته باسم « أتوبيا » وترجمتها الحرفية « التى لا توجد فى أى مكان » ؟

الجامع الأزهر

هذا كتاب قيم لا يتعدى عدد صحفه المائة والخمسين صفحة، ولكنه جمع كل مايحب مريد الإلمام بتاريخ الأزهر والإحاطة به، فهو يذكر عهد تأسيسه والغرض منه، والمواد التى كانت تدرس به إذ ذاك، ويتمشى مع القارىء شارحا مبينا، حتى يصل إلى عهده إبان الاحتلال الفرنسى، وما يليه من عهد المغفور له مؤسس الأسرة المالكة، ويذكر أسماء شيوخه إذ ذاك ويريك صورهم. ثم يعرج بك على ما كان يدرس به قبل نظامه الحديث، ويتطرق من ذلك إلى عهده الحديث، فيأتيك بالقانون الذى سن له فى عام ١٩٣٠ ثم قانون سنة ١٩٣٦، ويريك مراحل التعليم فى تلك الأثناء. ويضيف إلى ذلك ذكر المعاهد الدينية التابعة له، ويختم ذلك بالكلام على الشهادات التى كانت تعطى للمتخرجين فيه .

هنا يحب القارىء أن يعلم ماهية إدارة الأزهر، وشروط الالتحاق به وأجناس الطلبة، وعددهم وعدد معلميهم. ويلم ببعوثه الى الخارج، وبدور كتبه، وبقسم الوعظ والإرشاد، ومجلة الأزهر، ولجنة الفتوى، ووحدته الطبية، ومكتب البحوث والثقافة فيه، فيجد كل ذلك موضحاً على أكمل وجه.

ويأتى بعد ذلك ذكر نفقات الأزهر وميزانيته، وما وقف عليه الحاكم بأمر الله. ولم يسع المؤلف بعد ذلك أن يغفل ذكر الملكين العظيمين اللذين أوصلا الأزهر إلى الأوج الذى هو عليه الآن، وهما المغفور له الملك فؤاد الأول، وحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول. وختم الكلام بالإفضاء بآمال الأزهر.

هذا عمل لا يستطيع أن يقدره قدره إلا من يطلع عليه، فإنه يغنيه فى هذا الباب عن المطولات، فى عبارة طلية جذابة، وبيان أنيق أخاذ، ولا غرو فواضعه حضرة صاحب الفضيله الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر، وقد أعده وطبع منه آلافا من النسخ ليطلع عليه المهتمون بالأزهر من رواد المعرض.

العقل والدين

للأستاذ الكبير وليم جيمس، أشهر أعلام البسيكولوجيا فى أمريكا بل فى العالم كله، كتاب دعاه: إرادة الاعتقاد، وضعه بلغته الإنجليزية، وقرأنا نحن ترجمته الفرنسية. وقد ترجم الجزء الأول منه حضرة الأستاذ النابغة الدكتور محمود حب الله وهو واحد من العلماء الذين أرسلوا الى أوروبا لتكميل ثقافتهم الفلسفية، وقد حصل منها على شهادة الدكتوراه، وقد ترجم حضرته الجزء الثانى منه، وهو الذى أمامنا الساعة لننظر فيه ونكتب رأينا عنه.

الكتاب يقع فى نحو مائتى صفحة بالقطع المعتدل، ومطبوع طبعا أنيقا على ورق جيد. أما مادته فمن أرفع المواد الفلسفية قيمة، وهى العوامل الاختيارية والوجدانية، وجهودنا العقلية التى تكون لأنفسنا العقائد التى نحيا بها حياة إنسانية، وما يعتور ذلك من أحوال تساعد أو تعوق أو تعدل تلك العقائد.

مضى الأستاذ وليم جيمس وراء ما تؤديه إليه النفس من فعل الطبائع الوجدانية وما ينضاف إليه من أثر الاختيار وأحكام العقل، فانفتحت أمامه مجالات للنظر والتفكير والبحث، لا يعرف قوة تفاعلها فى النفس إلا الذين عانوا ما تؤدى إليه إرادة الاعتقاد من ضروب الاستشكالات والحلول، فيجدون بمطالعة هذا الكتاب دليلا رشيدا يتنقل معهم فى مآزقها، ويؤتيهم بما يشبع نهمهم منها. فهذا الكتاب يعتبر معوان المفكر فى العقائد، والمشتغل بالوقوف منها على قرار يرضى به العلم وتوافق عليه الفلسفة فى أرقى حالاتها.

وإنى إذا أردت أن أسرد ما تعرض الأستاذ وليم جيمس له من المجالات احتجت الى صحف كثيرة، فحسبى ما ذكرته، وحسبى أن أذكر أن مترجم هذا الكتاب هو الدكتور الألمعى محمود حب الله، فانه ابن بجدتها وفارس حلبتها. وقد حلى هذه البحوث الطريفة بعباراته الطلية، وحاطها بألمعيته القوية، أكثر الله لدينا من أمثاله.

* * *

لدينا كتب تعتبر غاية فى القيمة العلمية أرجأنا تقريظها للعدد المقبل، لتأخذ حقها من التقدير والإعجاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث الاستاذ الاكبر
مع السفراء والمفوضين السياسيين

لما تولى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى مشيخة الجامع الأزهر، زاره حضرات أصحاب السعادة سفراء الدول ومفوضوها السياسيون مهنئين، راجين للأزهر التقدم والازدهار على يديه، وقد حدثت بينهم أحاديث تتعلق بالصلات الحسنة، والعلاقات الطيبة، تخللها ذكر العلم والتعليم، والأزهر والطلبة الأجانب؛ فرأينا أن نأتى على ملخصات تلك الأحاديث إفادة للقراء بما دار فيها من بيانات أو بحوث علمية. وهانحن نبدأ بها على ترتيب أوقات حدوثها.

مع سعادة سفير الهند:

زار المرحوم السيد حسين سفير الهند حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر عقب تقلده منصب مشيخة الأزهر، مهنئاً، ومقدماً تحياته وتحيات المسلمين فى الهند؛ وقد رحب به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، وشكر له تمنياته الطيبة، وقال السيد حسين: إنه زار مصر منذ عشر سنوات، وسره أن يجد الأزهر يأخذ نصيباً كبيراً من التجديد مع احتفاظه بتقاليده الدينية، ووَدَّ أن يكون الأزهر فى عهد شيخه الجديد أكثر تجددا. وقال الأستاذ الأكبر:

« إن الأزهر يسير على البرنامج الذى وضع له منذ ذلك الحين، وقد قطعنا شوطاً كبيرا فى وصل الأزهر بالحياة العامة، وأصبح للأزهر الحديث كتبه ورسائله التى

تساير تقدم الزمن والحضارة ، والأزهر جد حريص على أن يبقى له طابعه المميز ، وهو أنه كعبة المسلمين ومحط آمالهم ، يفدون إليه من كل فج عميق . لينهلوا من معارفه ويعودوا الى بلادهم رسل سلام وحضارة وعلم .

« وإن بالأزهر ألفا وسبعمائة طالب من كافة البلاد الإسلامية : كالهند ، وسيلان ، وجاوه ، والصين ، وجنوب أفريقيا ، وإندونيسيا ، وغيرها من البلاد الاسلامية . وليس من الفخر فى شىء إن قال : إنه لولا الأزهر لما تقدمت اللغة العربية ، ولما بقيت العلوم الدينية وانتشرت » .

فقال السيد حسين : إن المسلمين فى الهند ، بل الهند كلها تنظر للأزهر على أنه معقل الدين والعلم والثقافة ؛ وعلى أنه أقدم جامعة إسلامية يجد فيها الشرقيون عامة مصدراً للإلهام ومنبعاً للثقافة ، ولذلك يحرص الهنود على إيفاد البعثات اليه ليتموا تعليمهم ، وإنه يود أن تعاود حكومة الهند بعد أن استقلت بأمر نفسها إرسال البعوث إلى الجامعة الأزهرية ، كما يأمل فى الوقت نفسه أن ترسل الجامعة الأزهرية بعوثا الى الهند ، ليتحقق بذلك التعارف بين أهل الشرق جميعا ، وليكون هؤلاء المبعوثون رسل توحيد ومحبة وسلام .

فقال الأستاذ الأكبر : « إنه يسعده أن تقوى الصلات بين مصر والهند ، وأن تقوم أواصر المحبة بين الشرقيين جميعا ؛ وإن الأزهر ليرحب بأبناء المسلمين من الهنود ، وسيجدون عند وفودهم كل عون ومساعدة على تحقيق أهدافهم ، وإن من حسن حظ الأزهر أنه فى تاريخه الطويل كان متمتعا برعاية وعطف الأسرة العلوية الكريمة ، فسهل له ذلك كثيرا من الصعاب التى تعترض سبيله ؛ ويكفى أن يذكر ما لجلالة المغفور له الملك فؤاد ـ طيب الله ثراه ـ من أياد على الأزهر ، ورعاية لأبناء المسلمين الوافدين إليه ؛ وما لجلالة الملك فاروق الأول من عطف سابغ على أبناء الأمم الشرقية ، وتخصيصه لهم مايستعينون به على طلب العلم من جيبه الخاص » .

فقال السيد حسين : إنه يشكر لجلالة الملك فاروق هذا العطف السامى ، وليس هذا غريبا على جلالته ، فقد تشرفت بمقابلة جلالته ، ووجدت من جلالته كل عطف ورعاية .

وسأل الأستاذ الأكبر السيد حسين عن المؤسسات الإسلامية فى الهند بعد التقسيم : أما زالت على ماعرف عنها من نشاط فى نشر تعاليم الدين وطبع المؤلفات النادرة فى الفقه والتفسير والحديث ؟

فقال السيد حسين : إن تقسيم الهند قد فرق المسلمين الى فئتين ، فئة يبلغ تعدادها ٦٠ مليونا يؤلفون حكومة الباكستان ، وفئة تبلغ الأربعين مليونا هى التى تعيش فى ظل حكومة الهند الحالية ؛ ومعظم المؤسسات الإسلامية والجامعات المشهورة كجامعة عليكره كلها تقع فى الهندستان ، وهى والحمد لله تقوم بنشاطها المعروف وأزيد ، والمسلمون فى الهندستان يتمتعون بكل حقوقهم كمواطنين . ويكفى أن أذكر لفضيلتكم أن وزير المعارف فى حكومة الهند هو مولانا أبوالكلام أزاد ، العالِم الإسلامى ، والزعيم المسلم الكبير .

وسأل الأستاذ الأكبر عما إذا كان يسمح لمسلمى الباكستان بالالتحاق بالجامعات والمعاهد الاسلامية فى الهند ، فقال سعادة السفير : إن حق الالتحاق ميسور لكل مسلم وهندى ؛ لأن الجميع إخوة فى الدين والوطن ، وإن فرقهم مؤقتا التقسيم . وإن أول واجب للشعوب الشرقية أن تعمل على التكتل والوحدة لتقف صفا واحدا أمام التيارات المختلفة التى تأتى من الغرب ، وليستعيد الشرق فى حاضره ماضيه المجيد ، حيث كانت له السيطرة والتقدم والازدهار العلمى .

فقال الأستاذ الأكبر : « إن خير ما يسره أن يجد العالم الاسلامى كله كتلة واحدة ، بل أكثر من ذلك أن ينتظم الشرق كله روحُ محبة ووئام ، وديننا يدعونا الى حسن معاملة إخواننا فى الوطن من غير المسلمين » .

وهنا استأذن السفير من الأستاذ الأكبر مودعا ، راجيا أن يعود مرة أخرى الى التحدث فى الشئون الثقافية والدينية التى تهم مصر والهند ؟

نحن فى دور انتقال علمى خطير

ستكون له آثار حاسمة فى تأييد الدين

نحن فى دور انتقال خطير جداً فى الناحية العلمية من مقررات حاسمة فى العلوم الطبيعية ،كان التشكك فيها يعتبر قصوراً فى الفهم ، ونقصاً فى العقل ، وشذوذاً فى الطبع ؛ بنى أشياعها عليها صرحاً من الفلسفة لايحاول التفلت من أحكامها الصارمة إلا من استهدف لأن يُعد من بقايا الجماعات البدائية ، أو ضحايا الأوهام الرجعية .

كان قد استولى على ممثلى العلوم الرسمية الغرور ، حتى خيل لهم أن الكون على لا نهايته ليس فيه أكثر مما تخيلوه فيه من النواميس والقوى الطبيعية ، وأن كل ما هو كائن أو سيكون يمكن تعليله بتلك النواميس أو نواميس من جنسها آلية ، حتى سهل عليهم أن ينكروا الخالق وما عسى أن يكون فى الكون من كائنات علوية . ولو كانوا وقفوا عند حد ما اكتشفوه ، وقالوا لا علم لنا بما وراء ذلك ، وأعدوا أنفسهم لقبول كل ما يجدُّ من المكتشفات التى تخضع لأساليبهم فى البحث والتمحيص ، لكانوا منطقيين فى تصرفهم ؛ ولكنهم قطعوا وجزموا بأن ليس ما وراء ما وصلوا إليه مرمى ، وحاطوا مزاعمهم هذه بأسوار من شبه وتشكيكات ، وأحيانا من سخريات لذاعة ، أصبحت اليوم أضاحيك لدى من يرجع اليها فى كتاباتهم .

إن العلم الطبيعى الذى كانوا يقدسونه ، ويدّعون أنه قد تَخلّص من أدق ضروب النقد ، وأنه قد صارت أصوله بَدائه ومسلمات ، أصبح اليوم فى نظر العقل الجديد الذى صقلته المكتشفات الحديثة ، عرضة لضروب من النقد تهدد كيانه ، وتجعله فى حاجة للتعديل والتنقيح ، لا فى الاتجاه الذى رسموه له ، ولكن فى اتجاه مضاد ليس بينهما لحمة من قرابة .

قد يشك بعض الذين تقمصوا الروح العلمية الحديثة من قرائنا فيما نقول ، ويرموننا بمعاداة العلم لصرامته فى مهاجمة الاعتقاديين ، ولكننا نؤكد أننا من أشد أنصاره ، وأنه المعول الوحيد للإنسانية فيما يتعلق بتقدمها وسعادتها ، بل وبديانتها

الحقة المنزهة عن الشبهات ، وأن من سلك طريقا غير طريقه ضل سواء السبيل . ويحسن بى هنا ، وقد تعرضت لهذا الموضوع ، أن أبيِّن لك ماذا كان عليه العلم ، وكيف انخدع العلماء به ، والى أى حال آل فى عهده الأخير ، وهو العهد الذى يعتبر فى نظر العلماء أرقى ما يُتخيل من العهود .

ونحن لأجل إثبات ما قدمناه نعرض على القراء ما انتهى اليه أمر أعلام أشياعه ، وما حدث من الاكتشافات التى أدت بهم الى أن يقفوا منه موقفهم الذى نذكره ، لنثبت لقرائنا أننا فى دور انتقال علمى لم يحدث فى جميع أدوار التاريخ له نظير . وقد ادخره الحق جل وعز للإنسانية حتى تبلغ أشدها ، وتستطيع تحمل تبعاته .

فإلى القراء بيان ماأجملته هنا منقولا عن قطب من أقطاب العلم الرسمى نفسه ، وهو مشهور شهرة عالمية ، فضلا عن أنه من الأفراد الذين تردد أسماؤهم كثيرا فى المؤلفات العربية ، هو العلامة الاجتماعى الفرنسى (جوستاف لوبون) . قال فى كتابه (تحول المادة) :

« كان إذا اتفق أن فيلسوفا من المنصرفين الى درس الموضوعات ذات الحدود المبهمة ، والنتائج غير المحققة ، كعلم النفس والسياسة والتاريخ ، قرأ منذ عدة سنين كتابا خاصا بالعلم الطبيعى ، كان يدهش من وضوح التحديدات فيه ، وصحة البراهين ، وضبط التجارب ؛ إذ كان يرى كل ما فى ذلك الكتاب متسلسلا بعضه يشرح بعضه الآخر بدقة ؛ وكان يرى أن بجانب كل ظاهرة طبيعية مهما بلغت من التركب تفسيرا يبين غامضها .

« فإذا حمل حب الاطلاع هذا الفيلسوف نفسه على أن يبحث عن الأصول العامة لهذه العلوم المضبوطة إلى هذا الحد ، لا يتمالك نفسه من بساطتها المدهشة ، ومن عظمتها المهيبة . فيجد فى قاعدة علم الكيمياء نظرية (الجوهر الفرد) الذى لا يقبل الانقسام ، ويجد فى قاعدة علم الطبيعة (القوة) التى لا تتلاشى . ويرى معادلات علمية ولدتها التجربة أو العقل المحض ، تشمل فى نظريات صارمة ، العناصر الأساسية الأربعة للأشياء : وهى الزمان والفضاء والمادة والقوة . ويعرف أن جميع الجواهر الوجودية من الكوكب العظيم الدائر فى الفضاء دوراته اللولبية

الأبدية ، الى ذرة الغبار الحقيرة التى يظهر أن الرياح تذروها اتفاقا ، تخضع كلها لنواميس سائدة عليها . . .

« فكان الفيلسوف المتقدم ذكره لايسعه إلا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة معترفاً بأنه إن عدم اليقين فى البيئة الفلسفية التى هو فيها ، فمن الممكن الحصول على هذا اليقين فى مجال العلم الطبيعى المحض .

« كيف يعقل أن يشك فى ذلك ؟ أما كان يرى أن أكثر العلماء كانوا من الوثوق ببراهينهم بحيث لاتتطرق أخف الشكوك اليهم ؟ وأنهم بتسلطهم على التيار المتحول للأشياء ، وعلى فوضى الآراء المتغيرة والمتناقضة ، يسكنون هذا الجو الصافى من الإطلاق الذى تتلاشى فيه جميع الشكوك ، وتشرق فيه أنوار الحقيقة النقية الآخذة بالأبصار ؟ . .

« دامت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة (مكتشفات غير منتظرة) ، قضت على الفكر العلمى أن يكابد من الشكوك ، ما يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الآبدين . فان الصرح العلمى (تأمل) الذى كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت المتناقضات والمحالات التى فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون عما إذا كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضاً واهية ، تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبَر له غور . .

« تلك المكتشفات التى نوهت بها آنفاً قد كشفت اللثام عن الظنيات التى بدأت تفضحها الكتب الحديثة . وبذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كانوا يظنون أنه قد سلم منه الى الأبد ، وأصبحنا نرى أصولا كان يظن أنها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع نزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها . .

« ومن حسن الحظ أنه لا شىء أكثر ملاءمة للترقى العلمى من هذه الفوضى .

فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة ، انتهى .

هذا الانقلاب الضخم فى العالم العلمى يستتبع انقلابا يماثله فى كل ما كان يشايعه العلم أو يجافيه . فكان العلم يشايع المذهب المادى ويمده بالأدلة والاستشكالات ، وكان يجافى الدين ويصاوله بالشبهات والتشكيكات ، فإفاقته اليوم من الغرور الذى كان عليه ، وتطلبه المخرج مما كان فيه ، سيفتح عينيه لكل ما كان يقدم اليه من الآراء المناقضة فلا يعيرها نظرة ، جزما منه بأن كل ما خرج على مقرراته خارج على الحقائق البدهية ، فكان لا يكفيه أن يصدف عنها ، ولكن كان يرمى أنصار الدين بالانحطاط العقلى ، وبالاشتغال بالأوهام والخزعبلات .

هذا الموقف الأخير من العلم سيكون له من الأثر فى كبت المتغطرسين ، وقمع المنكرين ، والتغلب على عناد المتصلبين ، ممن يدعون إدراك أسرار الوجود ، والإحاطة بكل ما فيه ، ما لا كان يمكن الوصول اليه بغير هذه الصدمة القاصمة .

ونحن إن كنا سررنا لحدوث هذه الصدمة ، فقد كان ذلك منا لأمرين خطيرين : أولهما تيسير وصول العلم الى الحقائق الوجودية دون أن يغشيها من عوارض الكبرياء ما يقلل من إشراقها ، ويحد من جمالها ؛ وثانيهما تخلق أهله بأدب العلم الصحيح ، وإيمانهم بأن الوجود أجل من أن يحيط بقواه الكامنة فيه عقل بشرى ، أو يلم بما سيفتح على الناس من آيات مبدعه خيال شعرى .

أجل إن العلماء فى الدور الذى ظهر ضعفه الآن ما كانوا ينكرون حدوث اكتشافات علمية جديدة ، نعم ولكنهم كانوا يقصرونها على الماديات ، وكانوا يجزمون بأن ليس وراءها شىء ، وكانت تعليلاتهم لوجودها لا تتعدى الدائرة التى حصروا فيها عقولهم ؛ ولكن موقفهم اليوم يدع طريقا مهيعا الى تبين ما عسى أن يكون وراءها ، وهذا كسب لطلاب الحقائق لا يستهان بتأثيره فى تجليتها .

وسنتابع الكلام فى هذه الناحية من التطور العلمى الذى ننوه به ، لنرى ما الذى أوجبه من الاكتشافات ، وما سيؤدى اليه من الفتوحات .

محمد فريد وجدى

المجاز والكناية فى كتاب الله

القرآن والمفسرون

موازين الفهم فى النصوص الشرعية

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

النصوص الشرعية من حيث الثبوت والدلالة وفق ما بينه علماء الأصول تنقسم إلى أربعة أقسام . وقد أردت أن أبين تلك الأقسام ليكون الناس على بينة إذا أرادوا نظراً وتفهما للنصوص الشرعية ، وأن تلك الموازين قد حررها أسلافنا استنباطا من التشريع الإسلامى عن طريق الكتاب والسنة . وقد أردت من إيرادها أن يعلم الناس إذا أرادوا نقداً أن يلتزموا تلك الحدود فيما ينقدون . وإليك أقسام النصوص :

النص الشرعى من حيث الثبوت قطعى وظنى . فمن النصوص ما ثبت عن الشارع قطعا ، ومنها ما ثبت عنه ظنا ؛ والثابت بطريق القطع منه ما هو قطعى الدلالة على معناه وهو ما لا يحتمل سوى معنى واحد ، ومنه ما هو ظنى الدلالة وهو ما يحتمل أكثر من معنى . فالنص الثابت قطعا هو القرآن الكريم من بائه إلى سينه ، ومنه الحديث المتواتر ، فإذا كانت الآية أو الحديث المتواتر لا يحتمل إلا معنى واحدا فذلك هو قطعى الثبوت والدلالة ؛ وهذا القسم من القرآن هو ما عبر عنه القرآن بالآيات المحكمات ، وهو ما سماه كذلك أم الكتاب . وإن هذا القسم لم يسم بأم الكتاب إلا لأنه حدد مبادىء الدين الاعتقادية والعملية تحديداً لا يتطرق إليه احتمال ؛ فكانت بذلك هى الأم والمرجع ، وهى المآل فى بيان معانى النصوص المحتملة أكثر من معنى . ومعنى هذا أنه يجب ألا يحمل النص المحتمل على أحد ما احتمله من معان إلا إذا كان فى داخل الدائرة التى يتكون محيطها من تلك الأصول والأمهات ؛ فكل معنى تتجاوز به ذلك المحيط

يكون غير صحيح . وبهذا تعلم أن تأويل النص المحتمل بحمله على معنى من المعانى ، ليس فيه من ضير ما دمت لم تتجاوز به الأصول والأمهات .

وإن آية المُلك التى طرأت إليها احتمالا ثالثا ، هو فى الحقيقة أنسب الاحتمالات بجلال الله وعظمة القرآن ، وأنسب منهما بسمو القرآن عن أن يؤول فى مثل هذه الآية بأن « رجوما » معناها ظنونا ، أى مصدر ظنون للنجمين .

وإنى لأشدُّ التزاما فيه للأمهات مما لو حمل على هذين المعنيين ؛ بل التفاوت بالغ بينها تفاوتا بين صحة وبطلان .

أما القسمان الآخران من أقسام النصوص فإنما يكونان فى السنة غير المتواترة من صحيح وحسن ، إلى غير ذلك من ألقاب علماء الاصطلاح .

هذا وهناك موضع آخر لم أكن منه بسبيل حين كتبت فى آية المُلك ، ولكن سداً لخواطر غير صحيحة فسأعرض له ليكون القارىء على بينة مما نكتب فى هذا الموضوع .

يقول الله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس » مما هو مفيد استقصاء رسالته للناس من لدن أرسل إلى آخر هذه الحياة ؛ فإن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل والأنبياء . وإذا أنت قرأت المقاولة التى دارت بين الله عز وجل وبين ملائكته المكرمين فى شأن الخلافة فى الأرض حين قال « إنى جاعل فى الأرض خليفة » فهمت صريحا أن ما وجه الله به إيثار آدم وذريته على الملائكة المطهرين هو أن آدم وذريته قد فطرهم الله على فطرة خاصة : يجوعون فيزرعون ، ويعرون فينسجون ، ويلحفهم الحر والبرد فيبنون ، ويتنافسون فيرفعون البناء ويشيدون ، ويشتهون الثمار فيغرسون ، وهكذا مما به عمارة الأرض ، ومما هو مناف لطبائع الملائكة ؛ فكانوا بذلك غير صالحين للخلافة فى الأرض ، وإن سفك بنو آدم الدماء ، وإن قدس الملائكة وسبحوا ؛ إن الله يعلم ما لا يعلمون .

وإذا أنت قرأت أول آية نزلت على الرسول بغار حراء ، وجدت الآية لم يذكر فيها إلا الإنسان : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى » إلى آخره . وهكذا وهكذا : « إن الإنسان لفى خسر ،

إلا الذين آمنوا ... » ، « إن الإنسان لربه لكنود » ، « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه » ، « يأيها الإنسان إنك كادح » ، « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » . ثم « أيحسب الإنسان أن لن يقدر عليه أحد » ، « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه » ، « إن الإنسان خلق هلوعا » ، « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

ثم تقرأ بعد ذلك فى القرآن بعنوان الناس : « يأيها الناس اعبدوا ربكم » ، « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ، « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم » ، « اقترب للناس حسابهم » ، « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » ، « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » . إلى غير ذلك من نداء الناس ، وإناطة الأوامر والنواهى بهذا العنوان .

ثم تقرأ : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان » ، « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم » ، مما هو واضح فى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إنما هى للبشر أصالة .

ولقد من الله على البشر بأن كان الرسول منهم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . وهكذا وهكذا من كل ما يؤيد أن المقصد الأول بالرسالة هم بنو الإنسان ، وأن غيرهم ممن لا يصلحون لعمارة الأرض ، فإنما هم فى إيمانهم تبع لبنى الإنسان .

وإنى سأعرض لهذا الموضوع فى تفصيل أوفى من ذلك .

هذا وإن ما قد قررته فى سورة « المُلك » من أن الكواكب نفسها لا يرجم بها ، قد فطن له أوائلنا وحاولوا التخلص منه .

فهذا الإمام الرازى يقول : « فإن قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضى بقاءها واستمرارها ، وجعلها رجوما للشياطين ورميهم بها يقتضى زوالها ، والجمع بينها متناقض . قلنا : ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها ، وتلك الشعل هى الشهب ، وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار باقية » .

وفى هذا القول من الإمام الرازى محاولة البعد عن القول بأن الكواكب

نفسها هى التى يرمى بها الشياطين ، إذ ذلك لا يتصور وهى زينة وهدى وآيات كما قررنا فى آية الملك .

وهذا الإمام البيضاوى يقول : « وما قيل إنه - أى الشهاب - بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين إن صح لم يناف ذلك ، إذ ليس فيه ما يدل على أنه ينقضّ من الفلك ، ولا فى قوله « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » ؛ فإن كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه ، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر فى بعض الأوقات رجما لشياطين تتصعد إلى قرب الفلك للتسمّع » .

من هذا ترى أن الإمام البيضاوى يجيز أن يكون الشهاب التهابات أثيرية ؛ يحاول بذلك البعد عن الرمى بنفس الكواكب ، ويثبت أن الشياطين حين تحاول تسمُّعاً إنما تقترب من السماء فتحيطها الالتهابات الأثيرية . كل ذلك منهم دفع لأن تكون الكواكب نفسها مرميا بها ، لما فيه من إبطال الزينات ، وإطفاء المصابيح ، ومحو الآيات .

ثم تقرأ فى تفسير الإمام الألوسى فى آية الحجر ما يثبت فيه حين وردت إشكالات من قوله تعالى « هل ترى من فطور » أنهم لا يلتزمون أن الكواكب نفسها هى التى يُرَمى بها ، وإنما هى شعل تهبُّ فى منطقة الأثير : خلْق الله المحكم ، وحفظه الدائم ؛ وبذلك تبقى الكواكب كما جعلها الله ؛ وبذلك تحفظ السماء من تلك المحاولات . وإذا كان العلم قد قال إن الكتلة الهوائية محدودة لا تصل إلى السماء ، بل إن ارتفاعها محدود قريب ، كانت المنطقة التى بين الهواء والفلك هى الحصن الحصين ، والحرس المكين : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون » .

وإنى لا أستلهم غير الله رشادا إلى الحق والمعونة ، حتى أعرض إن شاء الله للكتابة فى آيات التسمع والخطف الثلاث ، والله الموفق ، والهادى إلى سواء السبيل ؟

تعقيب على مقال

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد البحيرى
المدرس فى كلية اللغة العربية

قرأت فى عدد ربيع الثانى سنة ١٣٦٨ هـ من مجلة الأزهر مقالا للأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن عضو جماعة كبار العلماء تحت عنوان (المجاز والكناية فى القرآن — القرآن والمفسرون) .

والشيخ يشرح قول الله تعالى فى سورة « المُلك » :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » .

ويبدأ مقاله بذكر رأى المفسرين فى الآية ، ثم يسفِّههم ويضللهم ، ويبين أنهم ارتكبوا خطأ آثما وجرما لا يغتفر ، حيث قالوا : من فوائد النجوم أن ترجم بها الشياطين التى تحاول استراق أخبار من السماء . ويقول فى هذا المقام : « إن المفسرين بنوا ذلك على خيال باطل وخطأ آثم ، فليس هناك مشاورات ولا مداورات حتى يكون خطاب وكلام تتسمع إليه الشياطين لتخطف من ذلك خطفة تذيعها قبل وقوعها لتهدم بذلك ماخطه الله بنفسه من علم الغيب ، لأن ذلك يؤدى إلى السفه والعجز بالنسبة لله تعالى ، ويجافى الحكمة فى خلق النجوم وإطفائها وزوالها وبطلان زينتها ؛ والمعنى الصحيح الذى تحمل عليه الآية : أن النجوم آيات ودلائل ترجم المعاندين من كفرة الإنس الممارين فى قدرة الله تعالى وعظمته ... » . ثم ذكر فى آخر المقال : أن القرآن إنما هو للبشر أنزل على واحد منهم ، فكل ما فيه إنما هو للناس ؛ إنما هو لبنى آدم ؛ ولو سلم على سبيل الجدل فقط أن منه ماهو موجه لخلق آخر لأبى نظم القرآن أن يقحم إقحاما على هذا الوجه ... » الخ .

وأنا والله يسرنى ويسر كل غيور على كتاب الله أن يكون من كبار علماء الأزهر من يستطيع بعلمه وسعة اطلاعه ونهوض حجته وقوة عارضته أن يعرف من آراء السابقين وينكر ، ويقبل ويدحض ، ويجدد ويبتكر ، ويمكنه بذكائه وألمعيته ،

وفطنته ونور بصيرته، وحسن أدبه وبلاغته، أن يصل الى مالم يصل اليه السالفون من وجوه التأويل، واستجلاء المعانى واللطائف التى لا تقف عند حد فى آيات الكتاب العزيز. ولا شك أن المفسرين فى كل عصر تناولوا كتاب الله بالشرح والبيان على قدر وسعهم، وبحسب ثقافتهم وبيئتهم وعصرهم؛ فهم ليسوا معصومين؛ وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه فى أدب واحترام وتقدير، ما دام القائل لا يناهض متن القرآن، ولا يعتسف بما يوقعه فى حرج، بإنكار نص من نصوصه، أو تأويل له بما يجافيه أو ينافيه.

وإننى لا أعترض على الأستاذ الكبير فيما ذهب اليه من تأويل الآية على النحو السابق، سواء أكان التأويل قريبا أم بعيدا، بل إننى أسأله عن نقطتين خطيرتين فى مقاله، وما عداهما مما فى ثناياه فلا أناقشه لأنه هين محتمل.

أولا: كيف ينكر تسمع الشياطين لتخطف الخطفة من أخبار السماء ورمى الله إياهم بالشهب مع أن النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وردت بذلك صريحة؟ قال تعالى فى سورة الحجر: «ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين».

وقال تعالى فى سورة الصافات: «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد، لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب، دحوراً ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب».

وقال فى سورة فصلت: «وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا».

وقال فى سورة الجن، حكاية عنهم: «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا». وروى الإمام البخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الملائكة تنزل فى العنان فتذكر الأمر قد قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون مع الكلمة مائة كذبة من عند أنفسهم».

وروى الإمام الطبرى فى تفسير قوله تعالى : « وجعلناها رجوماً للشياطين » : حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الآية : إن الله جل ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء الدنيا ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن يتأول منها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف مالا علم له به . هذا ما روى عن قتادة رضى الله عنه .

ونحب هنا أن نطمئن الأستاذ الكبير على عدم فناء النجوم ، فالعلم الحديث لا يمنع أن ينفصل شهاب محرق من نجم دون أن ينطفىء النجم أو يزول من مكانه ، فلا يخشى من نفاد النجوم أو إبطال زينتها .

فماذا يصنع الأستاذ الكبير فى هذه النصوص ؟ ألم يكن الأجدر قبل ركوب هذا المركب أن تلاحظ هذه النصوص أو تحمل على وجه صحيح على الأقل ؟ وإنكار النص شىء ، وتأويله على وجه صحيح شىء آخر .

نعم قد أورد الإمام الرازى فى تفسيره آراء لبعض الفلاسفة تنكر هذا التسمع على هذا الغرار ، ولكنه فندها ورد عليها هو وغيره من المفسرين ، ولكن أيقوم إنكار بعض الناس لذلك من غير تأويل صحيح أمام هذه النصوص ؟ أملنا فى فضيلة الأستاذ الكبير أن يبين هذا للناس بيانا شافيا قبل أن يلغطوا ويقولوا : إن الأزهر لا خير فيه لأنه لا يؤمن بنصوص القرآن ! .

ثانيا : كيف يقال : إن القرآن الكريم لم ينزل إلا للبشر فقط ولبنى آدم فقط ولم يخاطب به خلق آخر ولم يوجه إليهم به خطاب ؟ كيف هذا مع قول الله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » .

وقوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار

السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان » .
أليس هـذا خطابا موجها إلى الإنس والجن ؟

وكما تحدى الإنس بالقرآن تحدى الجن معهم فى قوله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ويقول الله تعالى فى سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

وكيف يصنع الأستاذ الكبير بسورة الجن : « قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » . وقال حكاية عنهم : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قِدداً » . وقال : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » . وهل هذا كله تمثيل ؟ وما الممثل ؟ وإذا فتحنا باب التمثيل على هذا النحو فلا نكاد نظفر بحقيقة ولا واقع فى القرآن ؛ فالجنة تمثيل ، والنار تمثيل ، وكل من يحدثنا به القرآن من المغيبات تمثيل ، وهكذا . وما الداعى إلى التمثيل فى مثل ذلك ؟ وهل الحمل على الحقيقة فى ذلك مما يحيله العقل ويلح فى إنكاره ؟ وإذا كان الأستاذ الكبير يعترف فى مقاله بأن الجن خلق مغيب عنا ولا نعرف عنه شيئا ، فكيف يسوغ أن ينكر ما نسب إليهم لمجرد الاستبعاد الخيالى ؟ أنا لا أشك أن أستاذنا الكبير أضفى على مقاله ثوبا فضفاضا من خياله الرائع ، ولكن الخيال شىء ، والواقع شىء آخر .

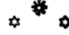
نريد فى القريب العاجل بيانا وافياً للناس عن هذه النصوص قبل أن تطول ألسنتهم على العلماء ، ويتهموا الأزهر بأشنع التهم التى تأتى على بنيانه وتهدم أركانه ، وإنا لمنتظرون ؟

من روائع الحكم النبوية :

ان من البيان لسحرا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر أنه قدم رجلان من المشرق ، فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » أو « إن بعض البيان لسحر » .



فى شهر المحرم من السنة التاسعة للهجرة ، بعث النبى صلى الله عليه وسلم عيينة ابن حصن الفزارى على رأس سرية فى خمسين فارسا ، ليس فيهم مهاجرى ، ولا أنصارى ، إلى بنى تميم ، ليغزوهم ، فتوجه إليهم ، وكان يسير ليلا ، ويكمن نهارا ، حتى وصل إليهم ، وهجم عليهم ، وقد سرحوا مواشيهم ؛ فلما رأوا الجمع ، ولوا أمامهم ، فأخذ منهم عيينة أحد عشر رجلا ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبيا ، ثم ساقهم الى المدينة ، فأنزلوا فى دار رملة بنت الحارث ، فلم يكن من بنى تميم إلا أنهم تبادلوا الرأى فيما بينهم ، فقر قرارهم على إرسال وفد فيه عدة من رؤسائهم الى المدينة ، وكان قوام هذا الوفد : عطارد بن حاجب ، والزبرقان ابن بدر ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث ، ونعيم ابن سعد ، وعمرو بن الأهيم ، ورباح بن الحارث ، فلما قدموا المدينة ورأوا نساءهم وذراريهم ، بكوا إليهم ، وجاءوا الى باب النبى صلى الله عليه وسلم ، فنادوا : يا محمد اخرج إلينا ؛ فخرج إليهم ، وتعلقوا به يكلمونه ، ثم جلس معهم فى صحن المسجد . ويقول ابن إسحاق : إنهم قالوا له : إننا جئنا لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ،

قال : نعم ، قد أذنت لخطيبكم ، فليقم ؛ فقام عطارد بن حاجب ، فخطب ثم جلس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس : قم فأجبه ، فقام فأجابه بخطبة بليغة ؛ ثم قام الزبرقان شاعر بنى تميم ، وأنشد شعرا مفاخرا ، جاء فى مطلعه :

نحن الكرام ، فلاحى يعادلنا   منا الملوك ، وفينا تنصب البيع

فقام شاعر الإسلام حسان بن ثابت ، فأجابه على البديهة بقصيدة طويلة ، يقول فى أولها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سُنة للناس تتبع

ولما فرغ حسان ، قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا ، ورد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الأسرى والسبي ، وأجازهم فأحسن جوائزهم ، وهم الذين أنزل الله فيهم : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » .

وأخرج البيهقى وغيره عن ابن عباس أنه لما جلس صلى الله عليه وسلم فى المسجد مع وفد بنى تميم ، جلس إليه الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهيم ، وقيس بن عاصم ، ففخر الزبرقان ، فقال : يا رسول الله : أنا سيد بنى تميم ، والمطاع فيهم والمجاب ، أمنعهم من الظلم ، وآخذ منهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك — وأشار الى عمرو ابن الأهيم — فقال عمرو : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع فى أدنيه ؛ فقال الزبرقان : والله يا رسول الله ، لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه من أن يتكلم إلا الحسد ! . فقال عمرو : أنا أحسدك ؟ ! والله يا رسول الله ، إنه لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الوالد ، مضيع فى العشيرة ! والله يا رسول الله ، لقد صدقت فى الأولى ، وما كذبت فى الثانية ، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ! . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

وإذا كان هذا هو القدر الذى وقع من الزبرقان وعمرو ، وكان المتكلم إنما هو عمرو وحده فى مراجعته الزبرقان ، فإنه لا يصح نسبة الخطبة إليهما — كما جاء فى الحديث — إلا على طريق التجوز .

وجاء فى جامع عبد الرزاق من مسند مجاهد أنه صلى الله عليه وسلم خطب خطبة فى بعض الأمر ، ثم قام أبو بكر ، فخطب خطبة دونها ، ثم قام عمر ، فخطب خطبة دون خطبة أبى بكر ، ثم قام شاب ، فاستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطبة ، فأذن له ، فطول الخطبة ، فلم يزل يخطب حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم : هنية ! ثم قال : إن الله لم يبعث نبيا إلا مبلغا ، وإن تشقيق الكلام من الشياطين ، وإن من البيان لسحرا ، أو من البيان سحر . قال الحافظ أبو الخير السخاوى : هذه خلاف القصة الأخرى جزما .

والرجلان اللذان أشار ابن عمر فى سياق الحديث الى أنهما قدما من المشرق ، قال عنهما معظم الشراح : إنهما الزبرقان وعمرو . والزبرقان : اسم من أسماء القمر ، لقب به لحسنه ، واسمه الحصين بن بدر بن امرىء القيس بن خلف ، ويجتمع مع عمرو بن الأهيم فى كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، فهما تميميان ، قدما فى وفد بنى تميم على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة ، وكان من أمرهما ما سلف ذكره . والمراد من المشرق : جهة المشرق ، وكانت سكنى بنى تميم من جهة العراق ، وهى فى شرقى المدينة .

والبيان يأتى على ضربين : أحدهما ما تقع به الإبانة عن المراد بأى وجه كان ، والآخر ما دخلته الصنعة ، بحيث يروق للسامعين ، ويستميل قلوبهم ، وهو الذى يشبه بالسحر إذا خلب القلب ، وغلب على النفس ، حتى يحول الشىء عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فيلوح للناظرين فى معرض غيره ، وهذا إذا صرف الى الحق يمدح ، وإذا صرف الى الباطل يذم .

والسحر فى الأصل : مصدر سحر يسحر : إذا أبدى ما يدق ويخفى ؛ ويستعمل لغة فى كل ما لطف مأخذه ، وخفى سببه ؛ ويراد به : الأمر الغريب الذى يشبه الخارق ، وليس به ؛ وهو يقال على معان كثيرة : فيطلق على الخداع والتخييلات التى لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده ، وما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة ، وعلى صيرورة الخلاء ملاء تارة أخرى ، وبمعونه الأدوية كالنارنجيات ، وما يفعله النمام من قلب الصديق عدوا والعدو صديقا ، بقول مزخرف عائق للأسماع . ويطلق

على ما قالوه من الاستعانة فى تحصيله باستجلاب معاونة الشيطان ، والتقرب اليه بارتكاب القبائح : قـولا ، كالرقى التى فيها ألفاظ الشرك ، ومدح الشياطين واستخدامهم ؛ وعملا ، كعبادة الكواكب ، والتزام الجنابة ، وسائر الفسوق ؛ واعتقادا ، كاستحسان ما يوجب التقرب اليهم ، ومحبتهم إياه . ويطلق على مايزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع ، كالطير فى الهواء ، والمشى على الماء ، وقتل النفس ، وقلب الانسان حمارا . ويطلق على الفصاحة فى الكلام ، واللسانة فيه ، وحسن التوسل الى المطلوب ، والتدليل على المقصود باللفظ الرائق العذب ، لما فيه من الاستمالة والتأثير ، ويسمى السحر الحلال ، ومنه : إن من البيان لسحرا .

والجمهور من العلماء على أن السحر له حقيقة ، وأن الله يخلق عنده ما شاء . ويرى المعتزلة وجماعة من أهل السنة أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل ، وإيهام لكون الشىء على ما هو به ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى فى سحرة فرعون : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » ، وقال : « سحروا أعين النـاس » . وعلى ذلك ما يدعيه البعض من حديث الجن والشياطين ، والتأثير عليهم بالرقى والعزائم ، وما كان عليه أمر الكهان عند العرب فى الجاهلية ، وما عليه حال بعض الناس من أنهم يكلفون أشخاصا بمعرفة أخبار النـاس وأسرارهم ، ويبلغونها إليهم ، ليخبروا بها أصحابها ، حتى يعتقدوا فيهم أنهم يعلمون الغيب ، أو أن الشياطين تخبرهم بالمغيبات .

أما ابن خلدون ، فإنه يعرّف السحر فى مقدمته بأنه : علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على التأثير فى عالم العناصر بغير معين ، ويقول عنه : إنه من العلوم المهجورة عند الشرائع ، لما فيه من الضرر ، وإن كتبه كالمفقودة بين الناس إلا ما وجد فى كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام ، مثل النبط والكلدانيين ، وإنه من العلوم المعروفة فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين ، وفى أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيه التآليف والآثار ، ولم يترجم لنا من كتبهم إلا القليل ؛ ولما ظهر بالمشرق جابر بن حيان ، تصفح كتب القوم ، واستخرج الصناعة ، وغاص على زبدتها ، واستخرجها ، ووضع فيها غيرها من التآليف ؛ ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس

فى التعاليم والسحريات ، فلخص جميع تلك الكتب ، وهذبها ، وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه « غاية الحكيم » ، ولم يكتب أحد فى هذه العلوم بعده . وقد جعل ابن خلدون النفوس الساحرة على ثلاث مراتب : أولاها : المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهو ما يسمونه السحر . والثانية : المؤثرة بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر ، أو خواص الأعداد ، وهو ما يسمونه الطِّلِّسْمات . والثالثة : المؤثرة فى القوى المتخيلة ، وهو ما يسمونه الشعوذة ، أو الشعبذة . ثم عرض للخلاف فى حقيقة السحر فقال : ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لهما حقيقة فى الخارج ، والمرتبة الأخيرة الثالثة ، لا حقيقة لها ، اختلف العلماء فى السحر ، هل هو حقيقة ، أو إنما هو تخييل ؟ فالقائلون بأن له حقيقة ، نظروا الى المرتبتين الأوليين ، والقائلون بأن لاحقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الأخيرة ، فليس بينهم اختلاف فى نفس الأمر ، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب .

وفى حكم السحر ، وحكم تعليمه وتعلمه ، وفى عقوبة الساحر ، خلاف كبير بين الفقهاء ، يطول ذكره لو تعرضنا له ، وليس هنا موضعه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » ، أو « إن بعض البيان لسحر » ، فإنه شك من الراوى فى أى العبارتين صدرت عنه صلى الله عليه وسلم .

واختلف فى المراد منه ، فحمله قوم على مدح البيان ، والحث على تحسين الكلام ، وتحبير الألفاظ ؛ روى عن عمر بن عبد العزيز أن رجلا طلب اليه حاجة كان يتعذر عليه إسعافه بها ، فاستمال قلبه بالكلام حتى أنجزها له ، ثم قال : هذا هو السحر الحلال .

وذهب آخرون الى أن المراد منه الذم ، لأنه ذم الكلام فى التصنع ، والتكلف فى تحسينه ليروق للسامعين ، وليستميل به قلوبهم ، كما يفعل السحر ، حيث يحول الشىء عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فيلوح للناظرين فى غير موضعه ، فكذلك المتكلم قد يحيل الشىء عن ظاهره ببيانه ، ويزيله عن موضعه بلسانه إرادة التلبيس على السامع ؛ أو لأن من البيان ما يكسب صاحبه من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره ؛ أو لأن الرجل يكون عليه الحق ، وهو ألحن بالحجة من

صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق، وهو عليه؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذه»، وقوله: «إن أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون [1]»، وإنما تحمد البلاغة والفصاحة ما لم تخرج الى حدّ الإسهاب والإطناب، وتصوير الباطل فى صورة الحق.

وقال الخطابى: إن هذا الحديث ليس ذما للبيان كله، ولا مدحاً له، لقوله: من البيان، فأتى بلفظة من التى للتبعيض؛ وكيف يذم البيان، وقد امتن الله به على عباده، حيث قال: «خلق الإنسان، علمه البيان»؟ وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعانى الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدح الإطناب فى الخطابة بحسب المقام؛ والإفراط فى كل شيء مذموم، وخير الأمور الوسط.

وقال فى شرح المشكاة: والحق أن الكلام إذا كان ذا وجهين، فإنه يختلف بحسب المغزى والمقصد، ومورد المثل على ما روى عنه عليه السلام فى قصة الزبرقان وعمرو، كان استحسانا.

فعلى هذا يكون قوله: إن من البيان لسحرا، خرج مخرج المدح للبلاغة، والتفضيل للبيان ؟

(١) الثرثرة: كثرة الكلام وترديده، والتفيهق: التوسع فيه والتنطع.

أصلح الولاة

لما قدم رجال الكوفة إلى عمر بن الخطاب يشكون سعد بن أبى وقاص، قال: من يعذرنى من أهل الكوفة؟ إن وليتهم التقى ضعفوه، وإن وليتهم القوى فجروه. فقال له المغيرة: يا أمير المؤمنين إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه، والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره. قال: صدقت فاخرج اليهم. فلم يزل عليهم أيام عمر، وصدرا من أيام عثمان، وأيام معاوية، حتى مات المغيرة.

بعض الخوف حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

فى الأخبار التى ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم ، عن موسى الكليم صلوات الله وسلامه على نبينا محمد وعليه ، تتردد كلمة « الخوف » أو ما فى معناها ترددا يلفت النظر ، ويثير بعض الأسئلة :

١ — فمن ذلك ما أنبأنا الله تعالى به من أنه حين آنس من جانب الطور نارا ، وسمع كلام الله ، وأمره بإلقاء عصاه ، أدركه الخوف ، واضطربت نفسه اضطرابا شديدا ، حتى ولى مدبرا عن هذا المقام الكريم ولم يعقب ، فناداه الله وطمأنه وأذهب عنه الروع : جاء فى ذلك فى سورة طه حيث يقول جل شأنه « قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » ، وفى سورة النمل حيث يقول عز وجل « وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى . لا تخف إنى لايخاف لدىَّ المرسلون » ،وفى سورة القصص حيث يقول الله تعالى ذكره « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » .

٢ — ومن ذلك أنه حينما كلف الرسالة إلى فرعون وقومه أحسَّ منهما فرقا وخوفا ، وطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه هرون ، وأبدى له جل شأنه ما يشعر به فى نفسه من خوف ووجل ، فطمأنه الله وثبته ، وبيَّن له نعمه عليه فى تاريخ حياته ، وأنه معه ومع أخيه ، ومن كان الله معه فلا يخافَ شيئاً : جاء ذلك فى سورة طه حيث يقول الله عز وجل « اذهب الى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى ، هرون أخى اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، وحيث يقول :

« اذهبا الى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينـا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » ، وفى سورة الشعراء حيث يقول : « وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ، ألا يتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هرون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون » وفى سورة القصص حيث يقول جل جلاله « قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيـك ونجعل لـكما سلطانا فلا يصلون اليكما ، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

٣ — ومن ذلك أنه حينما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فى الجمع يوم الزينة أدركه الخوف ، ولعبت به الوساوس والأخيـلة حتى احتاج الى أن يطمئنه الله ويسـكن جأشه ، ويبين له أنه هو الغالب ، وأن آيته من الله فلن يضيره شىء : جاء ذلك عنه فى جملة الناس من شهود هذا اليوم ، إذ يقول الله عز وجل فى سورة الأعراف « قال ألقـوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفـكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » ، وجاء صريحا فى سورة طه حيث يقول الله عز وجل حكاية عنه : « قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينـك تلقف ما صنعوا ، إنمـا صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » .

٤ — ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنبأنا أنه طمأن موسى حينما أمره أن يشق البحر ويضرب لقومه طريقا فيه ، وأعلمه أنه عاصمه من أعدائه ، وحائل بينهم وبينه : جاء ذلك فى سورة طه حيث يقول الله عز وجل : « ولقـد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخشى ، ولولا ذلك لأدركه من الخوف ما أدرك أصحابه ، كما حدث الله عنهم فى سورة الشعراء إذ يقول : « فأتبعوهم مشرقين . فلمـا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين » .

٥ — ومن ذلك ما أنبأنا الله به من أن موسى حينما ذهب بوفد قومه لميقات ربه وأخذتهم الرجفة، خاف وخشى أن يكون ذلك سبباً فى تكذيب الناس وفتنتهم؛ وفى ذلك يقول عز شأنه فى سورة الأعراف « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ».

٦ — ومن ذلك ما كان من أمره قبل الرسالة ، وهو فى المدينة بين شيعته وعدوه ، وحين خرج منها بعد أن نصحه ناصحه ، وحين ورد مدين فرارا من تعقب الظالمين : وقد وصف الله ذلك فى سورة القصص إذ يقول : « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين »

وقد قص الله علينا حديثه عن نفسه بهذا الخوف فيما جاء فى سورة الشعراء من قوله : « ففرت منكم لما خفتكم ».

* * *

لماذا عنى القرآن الكريم بإبراز هذا المعنى ، وتصوير هذا الشعور الذى كان يشعر به موسى عليه السلام ، وهل فى ذلك ما يقدح فى قوة هذا الرسول الكريم ، ويطعن فى شجاعته وثبات جنانه ؟

للجواب على هذين السؤالين لا بد لنا أن نتبين الحالة التى كانت سائدة فى زمان موسى عليه السلام من الظلم والطغيان ، والعسف والجبروت ؛ وأن نبين المعنى النفسى الذى تغرسه مثل هذه الحالة فى نفس المصلح الحريص على نجاحه فى دعوته ، وعلى إنقاذ قومه مما يتخبطون فيه ؛ وقد بين لنا القرآن الكريم حالة القوم الذين أرسل اليهم موسى فى كثير من المواضع ، فاذا هى حالة من أشد الحالات سوءا.

١ — فمن ذلك ما جاء فى أول سورة القصص من قوله تعالى :

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفه منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونُرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

فهذه الآيات الكريمة تبين لنا أن فرعون قد استبد بقومه أيما استبداد ، وعلا فيهم عن أن يكون ملكا يرعاهم ويعرف لهم حقوقهم ، ويعمل ما فيه صلاحهم ، حتى زعم أنه إله يجب أن يطاع ، وأن يدان له بالخضوع وقال « أنا ربكم الأعلى » و « إنا فوقهم قاهرون » ، « وقومهما لنا عابدون » ، و « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » ، و « يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين » .

وتدلنا الآيات أيضا على أن فرعون قد فرق بين الرعية ، وشتت شملها ، وهذا أمر طبيعى فى الشعوب التى تملك وتحكم بالطغاة المستكبرين ، لأنهم يتخذون بطانة تزين لهم ما هم فيه ، وتقرب منهم من يقرهم عليه ، وتبعد وتضطهد كل من حدثته نفسه بالتشكك فيه أو التساؤل عنه ، فيتقاطع الناس ، ويتحاسدون ويتباغضون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويحذر بعضهم بعضا ، وتكثر الدسائس والفتن ، والمظالم والظلمات .

وتدلنا الآيات أيضا على أن فرعون قد بلغ به الجبروت والطغيان حد التذبيح والتقتيل لأقوى عنصرى الأمة دون ذنب لضحاياه ، والتسخير والاستخدام للعنصر الآخر ، وذلك هو تذبيح الأبناء ، واستحياء النساء ؛ فقد كان يستبقيهن لاستخدامهن فى أعماله ولهوه وعبثه ؛ وحسبنا أن الله يعنفه فى هذه الآيات بقوله « إنه كان من المفسدين » وفى غير هذا الموضع بقوله « إنه كان عاليا من المسرفين » ، « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » .

وتحدثنا الآيات أيضا عما مضت به كلمة الله من إحداث انقلاب فى تلك الأمة ، يُزلزَلُ فيه على الطاغين ، ويمكّن للمستضعفين ، ويُقضى على القوم

الظالمين ، ولا شك أن انقلابا كهذا لا بد أن يحدث فى تطوراته وبين يدى نتائجه هزات عنيفة ، وألوان من الفاسد والمتاعب والمظالم.

٢ — ومن ذلك أن قوم موسى أنفسهم ، الذين هم رعية فرعون كانوا أيضا ذوى طبيعة متمردة عاتية ، لا يذكرون النعمة ، ولا يوفون بالعهد ، ولا يؤمنون بالحق ، وقد حدثنا القرآن بأنهم عبدوا العجل ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم ، وطلبوا رؤية الله جهرة ، وعثوا فى الأرض مفسدين ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وكانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويعدون فى السبت الذى جعله الله عليهم ، وأن قلوبهم قاسية فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، ونحن أبناء الله وأحباؤه ، ويد الله مغلولة ، وعزير ابن الله ، وأنهم أحرص الناس على حياة ، وأشد الناس عداوة للذين آمنوا ، « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » ، « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » .

فأمة هذا شأنها ، وتلك طبيعة أفرادها وجماعاتها ، وقد حكمها هذا الصنف من الطغاة المستكبرين ، ماذا يكون شعور المصلح الذى يكلف فى شأنها برسالة تحولها من طريق الشر الذى اندفعت فيه الى طريق الخير والصلاح ؟ ماذا يكون إحساسه وهو مكلف بأن يقلب وحوشاً ضارية الى أناسىّ يأخذون أنفسهم بالفضيلة ، ويعرفون للحق قيمته ، ويؤمنون بالله وحده ؟ .

لقد كان كل ما يحيط بموسى عليه السلام شذوذا وفسادا ، وشرا وسوءا ، حتى لقد صحبه ذلك منذ أول نشأته وهو طفل رضيع مهدد بالقتل كما كان يقتل لداته ، وأوحى الله الى أمه فى شأنه بأمر عظيم خطير فوق القوى العادية للبشر ، وفوق الاحتمال العادى لأم مثلها وفى مثل ظروفها ؛ وفى ذلك يقول الله عز وجل « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون

من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وهكذا عاش نبى الله فى كنف عدو الله ليقضى الله أمرا كان مفعولا . فمن الواضح أن هذا الخوف الذى كان بارزا فى حياة موسى ليس هو خوف الجبن والفرق ، فما أرسل الله نبيا جبانا ولا رعديدا ؛ ولكنه خوف الحذر والحرص على نجاح الدعوة وبقاء علمها مرفوعا خفاقا ، وليس من الحزم أن يستقبل المرء كبار الأمور باستهانة وعدم مبالاة ، فيؤخذ على غرة ، ويقطع عن سبيله قطع الفجاءة ، ولكن الحزم اتخاذ الحيطة وتقدير الأمور بقدرها ، وحساب كل العوامل التى تحيط بالعامل وبالعمل ، حتى يكون التصرف على أساس سليم ، وقديما قيل : من خاف سلم . وإذا كانت حياة المصلحين ليست ملكا لهم فيجب عليهم أن يكونوا أحرص الناس عليها ، وأضنهم بها ، فإن ذلك وفاء لا لأشخاصهم ولكن لأقوامهم وأممهم ، ورسالاتهم التى بها يؤمنون .

إسلام الهرمزان

لما أتى بالهرمزان أسيرا الى عمر بن الخطاب ، قيل له : يا أمير المؤمنين إنما هذا زعيم العجم وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نصحا لك فى عاجلك وآجلك . قال : يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب فى الإسلام . فدعا له عمر بالسيف . فلما هم بقتله قال : يا أمير المؤمنين شربة ماء . فأمر له بشربة من ماء . فلما أخذها قال أنا آمن حتى أشربها ؟ فقال له أمير المؤمنين : نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج ! . قال صدقت ، لك التوقف عنك ، وأنظر فى أمرك . قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقال له عمر : ما أخرك ؟ قال : كرهت أن تظن بى أنى أسلمت جزعا من السيف ! .

بين الشريعة والقانون

نظرات فى توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

حكمة مشروعية التوثيق :

قلت إجمالا : إن التعامل بين الناس ، ضرورة جبرية ، نشأت بنشوء المجتمع ، وتطورت بتطوره ؛ وإن الإسلام نظر الى المعاملة على أنها كذلك ، ولأنها فوق ذلك قوام الحياة الدنيا ، ووسيلة التأهب للحياة الآخرة ؛ عُنى بها الدين الإسلامى عناية لم يسبق إليها ، حتى لم يدع فيها ثغرة لتشريع دخيل ؛ ولكن بعض أناس ، أو كثيرا من الناس ، مع ما يرون من دواعى التوثيق فيها ، ومع ما أوردنا من توثيقات الرسول عليه صلوات الله وسلامه ، فى كثير من معاملاته — لا يزالون فى أفق ضيق ، من تقدير وجهة الشريعة ، فيما رمت إليه من الدعوة الى الاستيثاق والتوثيق .

فلنقف مع هؤلاء يسيرا ، حتى إذا تبينوا الحكمة ، أكثر من قبل ، تهيأ لهم أن يسايرونا بعد ، فى متابعة الحديث :

(١) نظر الإسلام الى أن المال محبب الى النفس ، وأن المرء ضنين بما فى يده ؛ فهو يجمع فى حوزته ما يستطيع جمعه ، محاولا أن يشبع رغبته ، ولا يتخلى عن شىء من ماله إلا ابتغاء منفعة أرجح وألزم لمصلحته ؛ ومن أجل ذلك وُسم بالطمع ، وعرف بالحرص ، ووصف بالشح ، وأنه يأكل التراث أكلا لمًّا ، ويحب المال حبا جما ، الى آخر ما وصف به على لسان الشريعة ، من تكالب ونَهم ، حتى احتيج فى توجيهه للخير الى الترغيب ، والترهيب ، والتنديد عليه ،

بأنه يتغاضى عن أخراه وهى خير وأبقى ، وينصرف الى دنياه ومتاعها زائل لا يبقى . والإسلام الذى صور الإنسان بهذه الصورة الحقة ، يدعوه الى التعاون ، والبذل فى سبيل الخير ، وبسط يده فى تفريخ الكرب ، والى سهولة البيع والشراء ، والى الإحسان فى قضاء الدين والاقتضاء .

« رحم الله رجلا سمحا ، إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى » ، « تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : كنت أنظر الموسر ، وأتجاوز عن المعسر »[1] فإذا كان التعامل مدعاة لا نتقال المال المضنون به ، من يد صاحبه ، قرضا ، أو معارضة ، فالخوف بمقتضى طبعه غالب عليه ، ألا يعود إليه ماله ؛ والشك يساوره أن يسلم له القرض ؛ والحرص كامن فى نفسه ، كلما جدت له حاجة ؛ والحذر مستول عليه إذا احتيج منه إلى معونة .

فما السبيل إلى الجمع بين طبع ضنين ، وشح مكين ؛ وبين تنفيذ الدعوة الى تيسير فى المعاملة ، ولين فى العطاء ، وترويج للمنافع ، وتعاون على الخير ؟ ذلك سؤال نستوحيه من شأن صاحب المال ، ولنتمهل فى الجواب عنه قليلا .

وإذا كان الجشع والطمع فى حق الغير ، آفة لازمة ، ونزعة متحكمة ؛ وإذا كان النسيان من طبيعة الإنسان ، والأموال عند الغير عرضة لأن تضيع ، بسبب من هذه الأسباب ، ومن وراء ضياعها تنازع يقضى على الروابط ، وفساد فى نظام المجتمع — فما السبيل الى صيانة الأموال من المطامع ، والإبقاء على روح التعاون والمودة ؟ . وذلك سؤال آخر نستوحيه من شأن الآخذ لمال الغير .

وجواب السؤالين : أن سبيل هذا وذاك أن تكون بين الناس وثائق تدفع خوف صاحب المال المدفوع له مداينة أو معاوضة ، وتكف من طمع المدين ، والمستأمن على المال ، أو تذكره عند النسيان .

ففى التوثيق : تيسير على المضطر ، أن يصل الى معونة من الموسر ، فيقضى لبانته ، ويدفع ضرورته ، ويتخلص من شدة إلى رخاء .

---

(١) ص ٢٦ ج ٤ صحيح البخارى .

وفى التوثيق : طمأنة للموسر على ماله أن يجحد أو يماطل به ؛ فذاك واصل الى بغيته ، ونزعات الشر مأمونة من جانبه ؛ وهذا مطمئن على ماله ، والأمر بالتعاون نافذ من جانبه ، ورفاهية العيش وارفة على المدين والدائن ، والآخذ المعطى ؛ وكل ذلك بفضل التوثيق فى المعاملات .

(ب) قد يرغب البعض منا أحيانا عن الأخذ بالتوثيق إيثارا للمجاملات ، وخشية أن يكون الاحتياط بالتوثيق منافيا للمودة ، أو اطمئنانا الى وفاء صاحبه ، فيقرضه أو يبيعه بثمن مؤجل كله أو بعضه ، ولا يرى حاجة الى الاستيثاق . وهذه اعتبارات لها قيمتها فى العرف الأدبى ؛ ولكن الزمن حُوَّل قلّب ، والليالى حبالى بالعجائب ، وقد يحدث على الأيام ما يغير الوضع بين المرء وصاحبه ، فتكون الخصومة أو الطمع مدعاة للتجاحد ، ويكون التجاحد مذكيا للضغينة ، وقاضيا على الأمل فى رأب الصدع ؛ وإذن تكون الرغبة الأولى فى المجاملة جاءت بنتيجة عكسية لما قصد منها .

وصدقُ النظر ، وحسن التقدير للعواقب ، يلهمان المرء الحصيف أن يصون المودة مما يشوبها ، ويباعد بينها وبين ما يزعزها ، ويدرأ عنها ما تتعرض له من جراء المعاملات . ووسيلة ذلك أن نأخذ بما نصحتنا به الشريعة فيما أمرت به . أليس يقول النبى عليه السلام : « احترسوا من الناس بسوء الظن » [1] ويقول فى حديثه المشهور : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » ؟ .

وقد نعلم أن كثيرا من أهل اليسار ، أعسروا وتغيرت حالهم بسبب إهمال التوثيق فى معاملاتهم . وإذا كنا نرى من أهل عصرنا من يحاول - مع الأخذ بالتوثيق - أن يتفلت من أداء الحقوق ، فينكر الوثائق أو يطعن عليها بالتزوير ، ويجمع من أرباب الفسوق شهودا يزيف لهم من باطل القول ما يسهل عليهم أن يواطئوه على إنكار الحق ، وقد يتمادى فيحاول الوصول إلى القضاء بوسائل غير مشروعة طامعا أن يصل الى ضياع الحق على مستحقه ... أفلا يكون التوثيق إزاء هذه المحاولات ، ألزم وأولى بالرعاية ، من قصد المجاملات ابتداء ؟ .

---

(١) بلوغ المرام .

وقد سلف القول : بأن بعض الشرائع الأولى ، أخذت بالتوثيق ، فيما أخذت به ، وكان ذلك تأييدا لما أدركته فطر الناس قديما ، من شأن التوثيق حتى جعلوه عمادا فى المعاملات ، ونظموا له قواعده . ونحن نرى قضاتنا ، وعلماءنا ، يذكرون فى بحوثهم ، فى باب التوثيق ، تشريعات وضعية ، وينقلون عنها ، وأنت تقرأ هذه النقول ، فى كتب السنهورى باشا ، وكامل مرسى باشا ، وسواهما . وفى ذلك مقنع بأن التوثيق فى المعاملات ، ليس من الكماليات ، ولا من مخترعات المشرعين ، وإنما هو احتياط أوحت به الفطرة ، وأخذت به الشرائع ، وقد عززه ونظمه ودعا اليه دين الفطرة ـ الإسلام .

(ج) وعلى النقيض من أولئك الذين يستهترون بالاستيثاق ، فريق آخر يشتد به الحرص والجشع ، فيأخذ بالتوثيق فى غير هوادة ، ويتخذون الوثائق ، سبيلا إلى الكسب ، فهم لا يقصدون منه الاطمئنان على المال ، ولا يتحوطون به من طغيان المطامع ، وإنما يشقون بها طريقا إلى المنافع ، ولو كانت محظورة ، أو تقطعت بها الروابط ؛ فهم لذلك لا يترفقون بالمدين فى الاقتضاء ، ولا يُنظرون المعسر إلى ميسرة ؛ وليست الوثائق عندهم إلا غلا فى العنق ، يسحب به المدين الى حيث لا يريد ، ولا ينبغى أن يراد به .

من أمثلة ذلك : أن تشجعنى إحدى المؤسسات المالية على بناء بيت ، فتقدم لى من النقد ، ما أحتاجه . وتفترض لهذا النقد ربحاً ربويا ، يضاف الى الأصل على أنه دين كله ، ثم يجعل الدين رهنا على العقار ، مقسطا على نجوم متوالية ، على أنى إذا تخلفت عن الوفاء فى موعد منها ، أصبح البيت كله ، مملوكا للمؤسسة التى أقرضتنى ، وضاع ما أنفقته ، ولو كنت قاربت الوفاء بالدين كله ! . ولقد تسرب هذا النوع من التعامل حتى أخذ به أفراد ، ومؤسسات ، ينتمون الى الإسلام ؛ كما فشا هذا النوع حتى تغلغل فى صفقات أهل الريف حين ابتياعهم للأرض الزراعية ، وتغلغل كذلك بين كثير من التجار ، وأصحاب المصانع ، مما يسمونه تأمينا ، وما هو إلا ضرب من المقامرة الجائرة ، يحببه إليهم طموحهم إلى التوسع فى الكسب ، ثم تكون هذه التأمينات التى اصطنعوها هُوة تبتلع ما بأيديهم ، فلا تبقى من حلاله ، أو حرامه .

فأين توثيقٌ شرع لصيانة الأموال ، وحفظ العلاقات ، من توثيق وضع لاستغلال الضرورات ، والتهام الثروات ، ولو أدى الى تفاقم البغضاء ، وإهدار الدماء ؟ !

قد يقول قائل : كثيرا ما تنجح المعاملة من غير توثيق ، فالاستهتار به ليس دائما بضار ، وكثيرا ما تنجح المعاملة مع التوثيق الجاف ، فالتشدد فى الاستيثاق ليس دائما بمعجز ولا ضار ، فأمر التوثيق وعدمه لا يستحق كل هذا التقدير .

وجوابنا على ذلك : أن المعاملة المالية حينما تكون عارية عن الوثيقة ، تكون محفوفة بالخوف والقلق ، وقد تنتهى الى لقمة سائغة يستلذها الآخذ ، ويغص بالحسرة عليها المعطى .

وحينما تكون المعاملة موثقة فى جفوة وضغط ، تكون محفوفة بالكراهية والضغينة ، ونجاحها قليل بالإضافة الى ما تجراليه من نزاع وضياع ؛ وفى ساحات القضاء صور من المآسى تمثل هذا كله ، وتقرب الى الذهن ما يقع بعيدا عن العين فى مجال الحياة .

ذلك تصوير مجمل لما يقع بين الناس ، ولعل فيه من الضوء ما يكشف عن حكمة التوثيق فى نظر الشريعة ، وعلى نحو ما رسمت الشريعة .

وهو تصوير يتفق فى حقيقته وحكمته ، مع وجهة القانون الوضعى فى تحديده للغاية من التوثيقات . ومن شواهد ذلك ما يقوله العلامة الجليل كامل مرسى باشا فى كتابه ـ التأمينات ـ وعبارته : « جعل القانون للدائن تأمينات تضمن تنفيذ الالتزام الذى هو دائن فيه ؛ وهى وسائل بها يتقى الدائن خطر الإعسار المحتمل للمدين ؛ وبها يضمن المدين وجود الثقة التى بها يستطيع الحصول على الدين الذى يحتاج إليه » . وكفى . . . ولنا عود إنْ وفق الله سبحانه ؟

تفسير سورة الليل

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم :

« والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى ، فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .

بيان مكان نزولها وآياتها :

هى سورة مكية ، وآياتها إحدى وعشرون .

بيان حكمة إنزالها :

حكمة الإنزال تنحصر فى شيئين : (أولهما) الترغيب فى البذل والإنفاق ، ووعد من فعل ذلك واتقى وآمن ، بتيسير أعمال الخير ، وتذليل أسباب البر .

و (ثانيهما) التنفير من البخل والإمساك ، ووعيد من فعل ذلك واستغنى بماله وكذب ، بتيسير أعمال الشر ، وتهيئة وسائل الغى .

وإنما جاءت السورة بكل هذا لما يترتب على البذل ـ خصوصا فى الملمات ـ من الأخذ بيد الضعيف ، وتخفيف كربة البائس ، والنهوض بالأمة ، ورفعة شأنها ، وإعزاز جانبها ، ولما ينجم عن البخل ـ لا سيما فى النائبات ـ من شيوع البؤس بين الأفراد والجماعات ، وإضعاف شأن الأمة ، والسير بها فى طريق الفناء .

بيان سبب النزول :

قال القفال : نزلت هذه السورة فى أبى بكر الصديق ، وإنفاقه على المسلمين ،

وفى أمية بن خلف وبخله وكفره بربه ، إلا أنها وإن كانت كذلك فإن معانيها عامة للناس ، بدليل أنه تعالى قال فيها : « إن سعيكم لشتى » وقال : « فأنذرتكم نارا تلظى » بصيغة الجمع ؛ وبدليل ما روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فقعد وقعدنا حوله ، فقال : « مامنكم من نفس منفوسة إلا وقد علم الله مكانها من الجنة والنار » ، فقلنا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأما من أعطى واتقى الخ » فبان بهذا الحديث عموم هذه السورة .

بيان المعنى التفصيلى

« والليل إذا يغشى » :

« الليل » مقسم به . « إذا » ظرف بمعنى حين . « يغشى » يغطى بظلمته . ولم يذكر ما يغشاه الليل ويغطيه ، إما للعلم به ، وإما لإرادة التعميم . ولذلك قيل : إن الله تعالى يقسم بالليل حين يغطى الشمس ، والدليل قوله تعالى : « والليل إذا يغشاها » . وقيل : « إنه يقسم به حين يغشى النهار » ، والدليل عليه قوله تعالى : « يغشى الليل النهار » . وقيل : إنه يقسم به حين يغطى كل مايؤويه ، والدليل عليه قوله تعالى : « ومن شر غاسق إذا وقب » أى ومن شر الليل إذا نشر ظلامه . وهذا الأخير أنسبها . ويشهد له حذف المعمول المؤذن بالعموم .

« والنهار إذا تجلى » :

« النهار » مقسم به . « إذا » ظرف بمعنى حين . « تجلى » ظهر وانكشف بطلوع الشمس ، أو ظهر بزوال ظلمة الليل .

بيان الحكمة فى القسم بالليل والنهار :

لبيان الحكمة فى القسم بالليل والنهار نقول :

افتتح الله هذه السورة الكريمة بالقسم ببعض مخلوقاته على أن مساعى الناس مختلفة صفة ونوعا ، وأن جزاءهم عليها مختلف يسرا وعسرا . وكذلك جاء فى مفتتح كثير من سور القرآن ضروب من القسم بأشياء من مخلوقاته ، على نهج ما جرت به عادة العرب الذين نزل الكتاب بلغتهم من توكيد الأخبار الغريبة على السامعين

بالأيمان . وما كان الله جل شأنه ليحتاج فى تأكيد أخباره إلى القسم بما هو صنع قدرته ، فليس لشيء فى الوجود قدر إذا نسب إلى قدره ، بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده .

ولهذا قد يسأل السائل عن السر فى القسم بهذه المخلوقات ، وعن الحكمة فى القسم بها .

والجواب : أننا لو تتبعنا ما ورد من هذه الأقسام فى كتاب الله فإننا نجده يرجع إلى أحد سببين :

(أولها) : أن تكون هذه الأشياء المحلوف بها قد عظمت عند بعض الطوائف حتى خضعوا لها وعبدوها من دون الله ؛ فيقسم الله بها ، ويذكر بجانب القسم بها بعض صفاتها التى تدل على تغيرها ، وأنها بصدد الفناء والزوال ، لينبه العقول إلى أن الحقيق بالألوهية لا يعتريه التغير ، ولا يحل به التبدل ، ولا يلحقه الأفول .

مثال ذلك : القسم بالشمس فى قوله تعالى : « والشمس وضحاها » الخ . فإن الشمس قد وجدت غفله من عقول بعض الناس حتى عبدوها ، فأقسم الله بها ، وذكر بعد القسم بها ما يطرأ عليها من التغيير والأفول مما لا يتفق مع شأن الإله المستحق للعبادة والتعظيم .

و (ثانيهما) : أن يكون المحلوف به أمرا جليلا ، يدل على قدرة الصانع وعظمته ، ولكن بعض الناس غفل عن فائدته ، وعمى عن حكمته فى خلقه ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه ؛ فيقسم الله به ليلفت العقول إلى مظاهر قدرته التى غفل المخاطبون عن تدبرها ، والاستدلال بها على عظمة الخالق الكبير .

مثال ذلك : القسم بالليل والنهار فى قوله تعالى : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى » فأقسم الله بالليل حين يغشى الخلائق بظلمته ، لأنه يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه ، ويسكن فيه الخلق عن التحرك ، ويغشاهم النوم الذى جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم . وأقسم بالنهار إذا ظهر وانكشف ، لأنه الوقت الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وتتحرك فيه الطيور من أوكارها والهوام من مكامنها .

وفى كل هذا آيات الله واضحات تدل على قدرته وعظمته ، ومنن له سابغات تذكر بجليل نعمته ، وتطلق الألسنة بحمده وشكر بره ؛ كما قال تعالى : « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » . وقال أيضا : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولكم تشكرون » .

ثم قال تعالى : « وما خلق الذكر والأنثى » .

ونقول فى بيان معناه : « ما » موصولة بمعنى الذى . والدليل على كونها موصولة قراءة ابن مسعود : « والذى خلق الذكر والأنثى » . والمراد بالذكر والأنثى ، كل ذكر وكل أنثى ، فيشمل جميع ما فيه روح . والذى خلق الذكر والأنثى هو الله سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا ، يقسم بذاته العلية الخالقة للذكر والأنثى ، على أن مساعى الناس وأعمالهم مختلفة ، على ما سيأتى .

وعبر عن ذاته العلية بلفظ : « ما » ، التى هى لغير أولى العلم ، دون لفظ « من » التى هى لأولى العلم ، لإرادة الصفة ، فكأنه قيل : والقادر العظيم القدرة الذى خلق كل ذكر وكل أنثى .

هذا ، والقسم بهذا العنوان : « وما خلق الذكر والأنثى » يشعر باتصافه جل وعلا ، بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، لأن التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان ، لا يعقل أن يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ، كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية إلى كون الذكر أو كون الأنثى ، فتكوين الولد من عناصر واحدة ، تارة ذكرا ، وتارة أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، حكيم فيما يضع ويصنع .

« إن سعيكم لشتى » :

هذا هو جواب القسم ، أى المقسم عليه ، و « السعى » : العمل ، وهو مفرد مضاف فيعم ؛ فالمراد منه الأعمال . و « شتى » : جمع شتيت بمعنى متفرق ومختلف ؛ أى إن أعمالكم مختلفة . فالله سبحانه وتعالى أكد بالأقسام الثلاثة المتقدمة ، ما تضمنه هذا الخبر من أن أعمال الناس مختلفة ، ومساعيهم متفرقة ؛ وهذا الاختلاف فى أمرين : اختلاف فى نوع العمل وصفته ، كالإعطاء ، والمنع ، والتقوى ، والفجور ، والتصديق بالحسنى ، والتكذيب بها ؛ واختلاف فى العاقبة ،

والجزاء ؛ فمنه ما يسعد به الساعى ، ومنه ما يشقى به ، ومنه ما يكون ثوابه الجنة ، ومنه ما يكون عقابه النار .

والمعنى الإجمالى :

وحق الليل حين يغطى الخلائق بظلمته ، ويغشى الموجودات بحالكته ؛ والنهار إذا ظهر ضوءه وانكشف نوره ؛ وقدرتى الخالقة لصنفى الذكر والأنثى ، المبدعة لهما على غير مثال وشبيه ـ إن أعمالكم لمختلفة ، وإن مساعيكم لمتباعدة مفترقة ، بعضها هدى يوجب الجنان ، وبعضها ضلال يوجب النيران .

ثم فصل سبحانه وتعالى ذلك الاختلاف فى نوع العمل وعاقبته فقال : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

وقبل التكلم على هذا التفصيل نذكر هنا سؤالا وجوابه ، فنقول :

السؤال : كيف يقسم سبحانه وتعالى بالأقسام الثلاثة المتقدمة على أن أعمال الناس مختلفة ، ومساعيهم متفرقة ، مع أن ذلك أمر بديهى لا يحتاج إلى تأكيد بالقسم ، لأن كل من يتصف بالفهم ويدرك معنى الخطاب ، يعلم أن أعمال الناس متنوعة الى تلك الأنواع التى ذكرناها ؟ .

والجواب : أن المقسم عليه هو الإجمال والتفصيل معا . ولا شك فى أن الوعد على الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى بالتيسير لليسرى ، والوعيد على البخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى بالتيسير للعسرى ، يحتاج الى تأكيد ، فيكون التأكيد لمجموع الأخبار لا للأول فقط . ثم نشرع فى بيان التفصيل فنقول : قوله : « أعطى » معناه : أعطى المال لسد حاجة المسكين حتى يقيم أوده ، ويسد عوزه ويبعث أمله ، أو بذله لإغاثة المعدم الكريم حتى يطرد سغبه ، ويقضى أربه ، ويحقق طلبه ، أو أنفقه للإعانة على النفع العميم حتى يضع فى بناء الوطن لبنة ، ويقيم فى تشييده دعامة ، ويرفع له فى الخافقين راية .

وقوله : « واتقى » معناه اتقى محارم الله وكره الفواحش ماظهر منها وما بطن ، فوقى نفسه من ارتكاب شىء منها . وقيل : معناه : اتقى البخل ، بالبذل ، والإعطاء الكريم ، والسخاء .

وقوله : « وصدق بالحسنى » معناه : صدق بالتوحيد ، والنبوة ، لأنه لا ينفع مع الكفر إعطاء مال ، ولا اتقاء محارم . كما قال تعالى : « وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » ، فالحسنى صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : وصدق بالكلمة الحسنى ، وهى كلمة الشهادة .

ومعنى « فسنيسره لليسرى » : فسنهيئه لفعل الأسباب اليسرى ، أى السهلة ؛ وهى أسباب الخير والرشاد ، والنجح والسداد ؛ وذلك بإقباله على الطاعات ، وإعراضه عن المنكرات ، وعكوفه على الصالحات ، وكفه عن السيئات .

وقوله تعالى : « وأما من بخل واستغنى » الخ : معناه ، ما يأتى : « بخل » : أمسك ماله ، فلم يبذله ، فى سبيل الخير . « استغنى » : أى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ، أو عد نفسه غنياً عن الناس بما لديه من المال ، فلا يرى له حاجة إليهم ، فلذلك لا يجد المرحمة فى قلبه لضعفائهم ، فيبذل ماله لدفع ضروراتهم ، ولا يحس بأنه عضو من جماعتهم ، فينفق من ماله فيما يعود بالمنفعة عليهم . « وكذب بالحسنى » : أى كذب بالكلمة الحسنى ، وهى كلمة التوحيد . « فسنيسره للعسرى » : أى نهيئه لفعل الأسباب العسرى ، أى الشاقة ، وهى أسباب الشر والخسار ، والضياع والبوار . وذلك بإقباله على المفاسد والمساوىء ، والرذائل ، والمناكر ، والفواحش ، والخسائس .

والدليل على إرادة هذا المعنى من الآيتين ، قوله صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل الشقاوة ، ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى » الآيتين .

ثم قال الله سبحانه وتعالى :

« وما يغنى عنه ماله إذا تردى » : ومعناه ما يأتى : « ما » نافية ، أو استفهامية . « تردى » هلك ، أو سقط . وتقدير الآية : إنا إذا يسرناه للعسرى ، ومات أو سقط فى جهنم ، لا يغنى عنه ماله شيئاً . أو فماذا يغنى عنه ماله الذى بخل به وتركه لوارثه ، ولم يصحبه منه شىء إلى الآخرة ، التى هى موضع فقره وحاجته ، كما قال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

الدين والدولة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن تاج
شيخ القسم العام للأزهر

نشرت صحيفة المصرى الغراء بعدد الأربعاء ٢ مارس سنة ١٩٤٩ مقالا للكاتب المصرى المسلم الدكتور محمد صلاح الدين عنوانه « ملاحظتان على مشروع ضريبة الزكاة » .

وقد ذكر الكاتب فى صدر مقاله أنه يلوح له أن نصوص هذا المشروع فى جملتها وفى الكثير من تفصيلاتها مستمدة من الشريعة الإسلامية . وأضاف إلى ذلك أن الأنباء روت أن صاحب المعالى وزير الشئون الاجتماعية قابل أخيرا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأنهما تباحثا فى أمر هذا المشروع .

أورد هذا وذاك حضرة الدكتور ليقرر أن المشروع دينى ، وأن معالى الوزير يرجع به الى رجال الدين . وهذا هو ما يبدى صاحب المقال خوفه منه كل الخوف ، ويخشى نتائجه أشد الخشية ، ومن أجله يوجه النقد الى المشروع أو إلى معالى الوزير الذى يعمل بجد على استصدار قانون للزكاة .

غير أنه قدم لهذا النقد بمقدمة ذكية ألمعية ، وإن كانت قد أصبحت متداولة يصطنعها اليوم الكتاب والخطباء حين يريدون النقد بالكتابة أو القول

أثنى فى هذه المقدمة الثناء الجميل على معالى الوزير ، وأبدى شديد إعجابه بهمته وعظيم نشاطه ، وما يبذله من جهود فى تصريف شئون وزارته ، على رغم أنها وزارة ناشئة ضعيفة ينقصها ـ على مايرى حضرة الكاتب ـ ضبط الاختصاص ، ولم تتوافر للوزير فيها أسباب النشاط وعوامل تيسير الإنتاج : من الموظفين والعمال ، والاعتمادات المالية الكافية .

أما الملاحظتان اللتان يوجههما حضرة الكاتب إلى المشروع أو إلى أصحابه فأولاهما : أن مسائل الضرائب هى من الأمور الفنيـة التى يجب أن تترك لجهة وهى وزارة المالية ، وأنه كان على وزير الشؤون الاجتماعية أن يحيل فكرة مشروع الزكاة بجملتها وتفصيلها إلى وزارة الاختصاص .

وهذا نقد ليس علينا أن نبدى فيه أو نعيد ، بل نترك أمره لوزير الشؤون نفسه ؛ فإن شاء أقره واعترف بأنه قد تخطى بالمشروع جملتِـه وتفصيلِـه جهة الاختصاص ، وتجاوز حدود ما هو من شؤون وزارته ، على ما قرر ذلك ورسمه صاحب الملاحظتين ؛ وإن شاء دفع هذا النقد بمـا يدفعه به كل منتصف منصف .

غير أنه ليس مفهوماً أن يقال بتحويل فكرة المشروع فى جملتها وتفصيلهـا إلى وزارة المـالية .

فهل يريد الكاتب أنه ليس لوزارة الشؤون الاجتماعية من هـذا الأمر إلا أن تُفضى برغبتها فى إنشاء ضريبة تسمى ضريبة الزكاة إلى وزارة المـالية ، ثم تترك لهذه الوزارة القيام بكل ما يلزم فى الجملة والتفصيـل لاستصدار قانون بفرض هذه الضريبة ، وأنه ليس لها أن تقول كلمة واحـدة ، لا فى الجملة ولا فى التفصيل تقرر بهـا الدوافع على التفكير فى إنشاء هذه الضريبة ، أو توضح بهـا مواردها ، أو الوجوه التى تصرف فيها ، أو الشروط التى يلزم توافرها لإثبـات القدرة على أدائهـا ، وأن هذا كله يجب أن يترك لوزارة المـالية وزارة الاختصاص ؟

نظن أنه لا يوافق الكاتبَ على هذا أحد ؛ فإن صاحب الفكرة يتعين عليـه أن يوضحها ويسندها بمـا يثبت وجاهتها ، ويفصِّـل أبوابهـا إن كانت ذات أبواب تحتاج إلى التفصيل ، وأن يبين الدوافع على التفكير فيها ، والغرض الذى من أجله يراد تنفيذها ، ثم يسير بهـا فى الطريق الذى يوصل إلى هذا التنفيذ .

ونحسب أن وزارة الشؤون الاجتماعية لم تصنع غير ذلك ؛ فقـد وضعت الفكرة فى قالب مشروع يطرح على بساط البحث والدرس كغيره من المشروعات ، ويعرض على رجال التشريع فى المجلس النيابى ، فيمحصونه بالنقاش وتداول الآراء ، وهناك يكون للجنة المـالية الضرورة رأيهـا فيه .

وإذاً لا يكون على وزير الشؤون عيب ، ولا يوجه إليه لوم ، ولا يكون متجاوزاً الحدود ، ولا متخطياً جهات الاختصاص حين يضع مشروعا يوضح به فكرته ، والأغراض التى أوحت بها ، ثم يرجع به إلى أهل الاختصاص من وزارة المالية وغير وزارة المالية .

إننا نلمح من مقال صاحب « الملاحظتين » فى جملته وتفصيله ، أنه غير راض عن إنشاء ضريبة تسمى فريضة الزكاة ولو كانت خفيفة ، على رغم أنه ينفى كراهيته للضرائب مهما كانت ثقيلة ، وأنه يقصد بملاحظته إلى العمل على تطويح الفكرة من وزارة إلى وزارة ، والتنقل بها من لجنة إلى لجنة ، على نحو ما كان يصنع فى عهود سابقة بالشىء غير المرغوب فيه ، فتتبخر الفكرة وتذهب مع الهباء .

ويعنينا من مقال الكاتب ملاحظته الثانية التى يقول إنها أخطر من سابقتها ، من حيث إنها تتعلق بالموضوع وأساس التشريع .

نعم هى خطيرة وجد خطيرة ؛ وقد تكون أشد خطرا مما يتوهم الكاتب نفسه ؛ والقول فيها إما أن يكون إيمانا وتسليما وإذعانا لأحكام الدين الإسلامى وحكمة تشريعه ، وإما أن يكون معاداة لهذا الدين ومحاولة للتحلل من قوانينه وأحكام شريعته .

يقرر الكاتب المصرى المسلم أن مشروع الزكاة « كما يظهر من اسمه ومن التفصيلات التى نشرت عنه والظروف المحيطة باستصداره يستمد حكمته وأحكامه من الدين الاسلامى الحنيف » ثم يتبع ذلك بقوله : « وهنا يواجهنا بحث جد دقيق وخطير هو علاقة الدولة بالدين ، وعلاقة الدين بالسياسة ، ولا يخفى أننا فى مصر نجرى فى حكمة واعتدال على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة ، وأن الحركة الوطنية أورثتنا مبدأ جليلا ينبغى أن نعض عليه بالنواجذ ، وهو يقضى بأن الدين لله ، والوطن لجميع المواطنين » . ثم يقول : « ولقد حاول البعض أخيرا خلط الدين بالسياسة ودعا الى جعل القرآن الكريم أساساً للتشريع فما جنينا من هذه التجربة غير الشر المستطير الذى نعانى بأسه حتى الآن »

هذه عبارات الكاتب بنصها وحروفها .

ونحن لا نريد هنا أن نعرض للمشروع ذاته ، ولا أن نتكلم عن مبلغ موافقته للشريعة الاسلامية أو مخالفته لأحكامها ، فأمر ذلك أهون مما نحن بصدده ؛ ومن السهل إصلاح ما قد يكون فى المشروع من خطأ ، وتدارك ما قد يكون فيه من نقص حين يبحث فى جهات الاختصاص .

إنما نحن الآن بصدد أمر خطير ، وجدير أن تتحرك له الأقلام وتهتاج الخواطر ، ويضطرب له قلب كل مؤمن غيور على دينه غيرة حقيقية أصيلة غير كاذبة ولا مصطنعة ، فخور بأحكام هذا الدين لا كفخر من يطعنه ويحاربه ويؤذى أهله ! .

ذلك هو ما يقرره الكاتب : من أنه ما دام المشروع مستمدا حكمته وأحكامه من الدين الإسلامى فلا بد من الاصطدام بالعقبة والوقوع فى المشكلة ، وهى علاقة الدين بالسياسة وبالدولة . فهو يرى أن صلة الدين بسياسة الرعية وشؤون الدولة عقبة صعبة ومشكلة بغيضة يجب تفاديها والحذر منها ، وينادى بلزوم فصل الدين عن شؤون السياسة والحكم ، ويدّعى أن الأمة الاسلامية فى مصر تجرى فى حكمة واعتدال على هذا الفصل .

لكن الذى نعرفه ويعرفه الناس فى مصر وفى غير مصر ، أن دين الدولة المصرية هو الإسلام ، وأن دستور الأمة المصرية قرر ذلك فى صدر أحكامه ومبادئه .

والذى يعرفه الناس فى مصر ، ولا يخفى على أحد من أهل العلم ، أن قانون المحاكم الوطنية الجديد قد استمد فى كثير من مواده من أحكام الشريعة الإسلامية ، وأن أصحاب مشروعه اقتنعوا بكمال الحكمة والاعتدال فيما اقتبسوه من هذه الأحكام . ولو كانوا من أهل الاختصاص فى دراسة الشريعة الإسلامية وتفاصيلها أو استعانوا فى بدء تكوين المشروع بأهل هذه الدراسة ، لعثروا على ما يريدون وأكثر ما يريدون ، ولوقفوا من آراء فقهاء الإسلام وأفكارهم وحسن بنائهم على الأسس الصالحة ، وقواعد الإسلام المكينة ، ما يفخر به حقا أهل الحكمة والاعتدال ، وما تطمئن به العدالة ويستقر به الأمن والسلام .

والذى يعرفه الناس فى مصر ، ولا يخفى على أحد منهم ، أن الدولة المصرية قررت أخير إلغاء البغاء ، وقررت أيضا تحريم الخمر وإن كان ذلك مقصورا على بعض المواطن ، لكنه على كل حال خطوة طيبة فى سبيل الأخذ بتعاليم الاسلام .

والذى يعرفه الناس ، ولا ينكره إلا مكابر ، أن الأمة المصرية - على رغم عواصف الفساد والشر والفتنة التى تهب عليها من محيطات أجنبية عنها - لا تزال مستمسكة بدينها ، فخورة به ، فى تقديس وعرفان ينزعان بها دائما إلى تعرف أحكامه والاحتكام الى قوانينه ، وأن حاضرها فى ذلك يبشر باستقامة مستقبلها على قواعد الشرع الإسلامى الحكيم .

ويعرف كثير من أهل العلم أن بعض الجامعات الأوروبية قد التفتت أخيرا فى دراسات القوانين إلى الشريعة الإسلامية ، وأنه قد أدخلت هذه الشريعة فى منهج الدراسات المقارنة بين القوانين فى المعهد الخاص الملحق بكلية الحقوق فى باريس .

فهل يريد حضرة الكاتب أن يزعم أن الأمة المصرية المسلمة تتنكب طريق الإسلام وتتنكر لشريعته ، على حين أن الأمم الأخرى تحب أن تتقبل من حكمه وأحكامه ؟

لم يجرؤ أحد فى مصر قبل هذا الكاتب على المناداة بفصل الدين عن شؤون السياسة والحكم ؛ وما نظن أن أحدا يصدقه فى دعوى أن الأمة المصرية تجرى منذ زمن على هذا الفصل ، فهى دعوى شر ، ودعاء إلى فتنة ، والفتنة نائمة ، فلعنة الله على من أيقظها .

شريعة الإسلام ليست إلا قوانين حكيمة سنها الله لإصلاح المجموع الإنسانى وإقامة شؤونه على قواعد النظام والتعاون ، ورعاية الحقوق ، وعدم التفريط فى الواجبات ؛ نظمت علاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض أفراداً وجماعات ، ليس فيها شر يحذر ، ولا فى الاحتكام إليها عقبة تتقى ؛ وإنما هى نظام وقانون أسمى ما عرفته الإنسانية من النظم والقوانين .

والشر المستطير الذى يشير إليه حضرة الكاتب مما لا تزال البلاد تقاسى آلامه حتى الآن - كما يقول - لم يكن نتيجة لتحكيم قوانين الإسلام ، ولا للدعوة

إلى هذا التحكيم : إنما هو نتيجة الغرارة والجهالة والحمق ؛ وأثر من آثار التهور وعدم التبصر . وهذا هو الذى يكرهه الإسلام ويحذِّر منه ويمقت أهله ؛ فإنه لا يمقت الإسلام جريمة مثل ما يمقت القتل والبغى والعدوان ، كما لا يكره رذيلة مثل ما يكره الكذب والبهتان ؛ فكيف يفترى عليه بأن الشر المستطير كان أثرا من آثار الدعوة اليه ؟!

ألا إنه لو دعى الناس إلى تعاليم الاسلام بحكمة وتعقل ؛ وبصروا بحكمه وأحكامه فى لين ورفق ، لما كان شر ، ولا كانت فتنة ، ولنجت الأمة حقا من الآلام التى تعانيها حتى الآن .

ثم لا ندرى ما ذا يريد الكاتب من كلمة « الدين لله والوطن للجميع » ! تلك الكلمة التى يتشبث بها ويوردها فى مقاله أكثر من مرة ، ويقول إنها مبدأ جليل ينبغى أن يعض عليه بالنواجذ ! هل يريد أن ينزلها على أساس الاختصاص الذى رسمه لوزارة المالية ووزارة الشؤون ، فلا يجعل لله حكما فى غير العقائد والعبادات وما يتصل بها من المواعظ والنصائح والإرشادات ، ولا يثبت لله أمرا ولا نهيا فى شأن من شؤون الحياة مما يرجع إلى المعاملات وضبط علاقات الأفراد والجماعات وما الى ذلك مما يتعلق بنظام الدولة وسياسة الأمة ؟

أغلب الظن أن صاحب المقال لا يريد منها غير ذلك . لا ، بل إن مقاله ناطق به ، صريح فيه ؛ فإنه لم يجعل للإسلام مجالا للعمل إلا فيما يرجع إلى « تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتحريك الهمم وبعث روح الوطنية » فأما ما يرجع إلى السياسة والحكم وتنظيم المعاملات والفصل فى الخصومات وما إلى ذلك من شئون الدولة والأمة « فالوطن المصرى ليس لأهله المسلمين وحدهم والدول المتمدينة كلها تحرص فى هذا العصر الحديث على فصل السياسة عن الدين » .

هذا هو الذى يعنيه الكاتب من كلمة « الدين لله ، والوطن للجميع » .

أما نحن فلم نفهم منها إلا ما يفهمه جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين : أن أهل الملل المختلفة فى مصر لهم عقائدهم وعباداتهم وطقوس دياناتهم ؛ وأنهم إذا كانوا مختلفين فى هذه العقائد والعبادات فهم فى الوطنية وحقوقها وواجبها سواء ؛ يجتمعون عليها أمة واحدة ، وكلمة واحدة ، ويتعاونون فى الدفاع عن الوطن

والذود عن كرامته أهل الهلال وأهل الصليب ؛ لا يفرق بينهم فى ذلك اختلاف العقائد والمذاهب ، ولا يميل أحد منهم بسبب عقيدته ودينه مع المعتدى على وطنه ولو كان من أهل ملته .

ونظن أن صاحب المقال لا يجهل الظروف التى ورد فيها ذلك المبدأ الجليل الذى يريد العض عليه بالنواجذ ، ولا يجهل أنه ورد فى تلك الظروف كثير من الكلمات الحماسية ، وتجلى فيها كثير من المظاهر الرائعة الوطنية ، يوم كان يدعى الشيوخ مطارنة ، ويسمى المطارنة بالشيوخ ؛ ويوم كان يختلف هؤلاء وأولئك الى المساجد والكنائس ، تلتهب قلوبهم بالغيرة الوطنية ، وتدفعهم الحمية القومية لتخليص البلاد من العدو الذى يجهد فى تمزيق شملها وتفريق أهلها بدعوى حماية الأقلية المسيحية وحفظها من طغيان الأكثرية المسلمة .

هذا هو الذى نفهمه ويفهمه الناس من تلك الكلمة ؛ ولذا نأسف أشد الأسف لأن الكاتب قد أخطأ بها موطنها ، وأوردها فى غير موردها ، وجعل منها عقبة فى سبيل الإصلاح ، وإنشاء قوانين لقتل الفقر والجهل ، والقضاء على الأمراض والعلل .

إذا كان قانون ضريبة الزكاة صالحا نافعا فماذا يضير الوطن أن تكون أحكامه مستقاة من تعاليم الإسلام ؟

وهل يليق بانسان أن يبلغ به التعصب على الإسلام مبلغا ينفره من قانون تستقى أحكامه من شريعة هذا الدين ولو كان قانونا صالحا ونافعا للأمة ؟ !

لقد مضى على المحاكم الأهلية فى مصر ردح طويل من الزمن كانت تحكم فيه بقانون اشتقت أحكامه من قوانين دول أوروبية ، ولم يمقت أحد ما كان صالحا من هذه الأحكام ، ولم ينفر منها من أجل أنها استقيت من قوانين دول مسيحية ؛ وكل ما كان يجول بالخواطر من اعتراض أو نقد هو أنه لم تكن هناك ضرورة تدعو — فى تكوين قانون مصرى — إلى التخطى إلى تلك القوانين الأجنبية ما دام قانون الاسلام فيه الصلاحية الكاملة والكفاية الممتازة .

أما إذا كان الدكتور صاحب الملاحظتين إنما يغضب من مجرد تسمية هذه الضريبة زكاة ؟ فأهل الإسلام يسمونها الزكاة ، وليسمها غيرهم كيف يشاء !.

المحتسب
أيام الدولة الفاطمية

لحضرة الأستاذ الدكتور عطية مصطفى مشرفه

وكانت أعمال المحتسب متعددة مختلفة ، فكان ينظر فى الدولة الفاطمية فى الأسواق ، فإذا عثر على نقص المكيال أو بخس الميزان أو غش البضاعة بأى نوع من أنواع الغش ، وعظه وأنذره بالعقوبة والتعزير ؛ فإن عاد إلى فعلته مرة أخرى عزره بحسب مقدار جرمه .. لذلك كان على المحتسب أن يكون عالماً بوزن القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم ، خبيرا بكميتها ومعرفتها المعرفة الجيدة حتى يؤدى عمله على أكمل وجه ؛ يتفقد عيار الصنج على حين غفله من أصحابها فى الأسواق والدروب ، ويراقب صحة الموازين والمكاييل من وقت لآخر ؛ إذا وجد الموازين قذرة فعليه أن يأمر طاحبها بمسحها وتنظيفها من الأوساخ والأدهان خوفا من أن يجمد فيها شىء فيضر بالميزان .

وكانت للموازين والمكاييل دار خاصة بها ، هى دار العيار ، تعاير فيها الموازين والصنج والمكاييل ، وقد ظلت هذه الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبية ، وكان ينفق عليها من بيت المال فيما تحتاج إليه من الأصناف ، كالنحاس ، والحديد والخشب ، والزجاج ، وغير ذلك من المواد ، وأجر الصناع ، والمشارفين ونحوهم ، فكان يحضر المحتسب أو نائبه الى « دار العيار » هذه ليعير المعمول فيها بحضوره ، فإن كان مضبوطا أجازه وإلا أمر بإعادة صنعه حتى يصبح مضبوطا ، ولا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بهذه الدار .

ومن منكرات الأسواق التى نيط بالمحتسب تعهدها ، أن « يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ المجتمعة وغير ذلك مما يضر الناس » ، وأن يمنع

« إرسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط ، الى الطرق الضيقة ، فإن ذلك ينجس الثياب ويضيق الطرق » وأن يمنع « ترك مياه المطر والأوحال فى الطرق من غير كسح » أو « رش الماء فى الطرق بحيث يخشى من التزلق والسقوط » . وغير ذلك من المنكرات .

وكان المحتسب أيام الدولة الفاطمية ، هو المحافظ على الآداب العامة ، فيمنع كل من تطلع من الجيران من السطوحات والمنافذ ؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ، ففقىء عينه ، فلا دية له ولا قصاص » ، كما كان يمنع أن يجلس الرجال على أبواب بيوتهم ، فى طرقات النساء من غير حاجة ؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إياكم والجلوس فى الطرقات » قالوا : يارسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حقه ؟ قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » .

وكذا يمنع المحتسب النساء من جلوسهن على أبواب بيوتهن ، فى طرقات الرجال ، أو أن يخلو رجل بامرأة غير جائز له شرعا الخلوة بها .

وكان عليه أن يتفقد الحمامات فى كل يوم ، ويعزر كل من رآه من المستحمين بلا مئزر .

وكان عليه أن يتفقد المواعظ ، فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء ، بل يجعل بينهم ستارة ، فاذا انقضى المجلس ، خرج الرجال من طريق ، والنساء من طريق آخر (١) . فاذا وقف أحد من الشبان فى طريقهن عزره .

ونحن فى حاجة قوية اليوم إلى محتسب يعزر كل رجل لا هم له إلا الجلوس فى القهوة على قارعة الطريق ، ليغازل النساء أثناء سيرهن فى الشوارع ،

---

(١) هذا النظام متبع الآن فى الحجاز ، فلهن فى وقت الصلاة مكان منعزل فى الحرمين ، وتقول المادة ١٦ من قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالحجاز « ممنوع خروج النساء مزينات معطرات . وكذلك مزاحمتهن للرجال وخروجهن ليلا إلا لضرورة مع محرم » . وتنص المادة ١٨ منه على مايأتى : « يمنع النساء من زيارة القبور ما عدا الحجرات النبوية الشريفة على أن لا يمكثن عندها » .

وإشباع نظره من كل ما يثير الشهوة فى نفسه؛ وكل امرأة لاعمل لها إلا معاكسة الرجال، والتبرج بالزينة، لتلفت اليها الأنظار. وبذلك يغلق باب الشهوات، فلا تنطلق منه الغرائز البشرية.

وكان من واجب المحتسب أيضا: إنذار معلمى السباحة، وقد كانوا مصدر أضرار خلقية، بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس، فمن فعل من ذلك كله شيئا عزره.

وعهد الى المحتسب إيقاف مضايقة الجمهور، كاحتشاد الحمالين بأثقالهم، أو تجمع النوتية بقواربهم، فكان يزيل كل ما يعوق المرور، كبروز المصاطب والحوانيت بالأسواق، وإلزام أصحاب المنازل المتداعية الى السقوط بإزالتها، لما قد يتوقع من ضررها على السابلة.

وكان يناط بالمحتسب أيضا أيام الدولة الفاطمية، أن يمنع الناس من احتكار الطعام؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بئس العبد المحتكر! إن أرخص الله الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح». وقال أيضا: «الجالب مرزوق والمحتكر محروم»، و «من احتكر على المسلمين طعاما ضربه الله تعالى بالإفلاس والجذام». وقال أيضا: «ما من جالب يجلب طعاماً الى بلد من بلاد المسلمين، فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد»، وقال أيضا «من احتكر طعاما على أمتى أربعين يوما وتصـــدق به لم يقبل منه»، وقال أيضا «لا يحتكر إلا خاطىء»، والخاطىء المذنب العاصى. وقال أيضا: «من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظيم من النار يوم القيامة».

والاحتكار هو: احتباس الشىء انتظارا لغلائه. وقد رأينا أن النصوص الشرعية تحرمه. فكان المحتسب إذا وجد شخصا اشترى وقت الرخاء طعاماً من سائر الأقوات يريد احتكاره لتربص الغلاء به وزيادة ثمنه، ألزمه بيعه؛ لأن الاحتكار للأقوات حرام، والمنع من فعل الحرام من أخص صفاته؛ فقد لعن النبى عليه الصلاة والسلام المحتكر؛ فكان يلزم المحتسب التجار ببيع بضاعتهم بأثمان محددة.

وكان على المحتسب أن ينفذ أحكام الدين وأوامر السلطان الخاصة بالصحة العامة والمعاملات التجارية والصناعية تنفيذا دقيقا. فمن كان يغش الناس فى المطاعم والمشارب والملابس وغيرها، يركبه جملا ويضع فى يده جرسا يدقه ويطوف به البلد، ويجعله يصيح بأعلى صوته «لقد كذبت، وها أنا ذا ألقى جزاء كذبى!».

لغـــــويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

هذا الأمر مرتبط بذاك

ترى هذا الاستعمال كثيرا ، وتجد فيه « ارتبط » فعلا لازما فى معنى تعلق بالشىء واتصل به . والمعروف فى اللغة استعمال هذه الصيغة واقعة متعدية فى معنى ربط ؛ تقول : ارتبط فلان فرسا . وفى أمثالهم : « استكرمت فارتبط » ، وهو على حذف المفعول ، وقد نبه على هذا الخطأ منذ دهر ابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ فى رسالة له صغيرة ، سماها « التنبيه ، على غلط الجاهل والنبيه » نشرها الأستاذ عبد القادر المغربى فى مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٤ ؛ وهاك ما قاله فى هذا الحرف : « قول الناس : فلان مرتبط بكذا ، على البناء للفاعل خطأ ، والصحيح مرتَبَط بكذا على بناء المجهول ؛ لأن ارتبط متعد ، كربط ، كما اتفقت عليه أئمة اللغة » .

ومما يروع القارىء إطباق الناس من قديم على هذا الخطأ فى رأى ابن كمال باشا . وقد قدَّرت فى نفسى حين اطلاعى على كلامه أنه قد يكون لهذا الاستعمال وجه من الصحة وسند فى اللغة وضرب من التخريج . وقد صدق حدسى ؛ فقد رأيت فى لسان العرب النص الآتى » : وارتبط فى الحبل : نشب ، عن اللحيانى » ونرى فيه ارتبط مضبوطا بالقلم بفتح الباء على بناء الفاعل ، واحتمال الخطأ فى الضبط بعيد جدا ، ومما يؤيد صحة هذا الضبط ، تفسير الفعل بنشب اللازم المبنى للفاعل . والقارىء يخرج من هذا بصحة هذا الأسلوب الذى درج عليه الناس والمؤلفون . وقد يقول قائل : إن الاستعمال العربى تعدية الارتباط بالحرف « فى » كما فى عبارة اللسان ، وهى فى مألوف الاستعمال تتعدى بالباء ، فيقال : إن الخطب فى هذا

سهل ، فالحروف تتبادل كثيرا ، لا سيما إذا روعى وجه من التضمين ، وقد ضمن الارتباط معنى الاتصال ، فهذا وجه التعدية بالباء .

هذا ونرى فى مستدرك التاج النص الآتى : « والارتباط : الاعتلاق ، نقله الطيبي عن الزجاج وأبى عبيدة » . وأغلب الظن أنه يريد بالاعتلاق اللازم فى معنى الاتصال ، فهو يريد إثبات الارتباط لازما ، فيكون فيه رد على ابن كمال باشا ، وإن كان الاعتلاق نفسه متعديا ؛ يقال : اعتلق المرأة : أحبها . ومثل هذا كلام الشيخ نصر الهورينى فيما كتبه على هامش القاموس فى طبعة بولاق ؛ إذ يقول : « ورد الارتباط فى كلامهم بمعنى الاعتلاق كما فى الطيبى ، نقلا عن الزجاج ، فلا عبرة بمن أنكره اعتمادا على أن المصنف لم يذكره » .

أيضا

تجرى هذه الكلمة فى الحديث والكلام فى معرض الإبانة عن تكرير الفعل ؛ تقول : زرتك أمس ، وسأزورك غدا أيضا ؛ ولا يكاد المتكلّم يلحظ صلة هذه الكلمة بفعل ، وكأنما هى لفظة مرتجلة لهذا المعنى الذى تستعمل هى فيه . غير أن اللغويين يردّونها الى فعل هو آض ، يئيض ، فى معنى عاد ورجع ؛ تقول : آض فلان الى أهله . وجاء فى حديث الكسوف : إن الشمس اسودّت حتى آضَتْ كأنها تَنّومة [١] ، وقال كعب يذكر أرضا قطعها :

قطعت إذا ما الآل [٢] آض كأنه سيوف تَنَحَّى مرَّة ثم تلتقى

وقال فُرْعان بن الأعرف التميميّ فى ابنه [٣] منازل :

لربَّيته حتى إذا ما تركته أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه
وبالمحض حتى آض جعدا عنطنطا [٤] إذا قام ساوى غاربَ الفحل غاربُه

(١) التنومة : نوع من نبات الأرض فيها وفى ثمرها سواد قليل .

(٢) الآل : السراب .

(٣) ضبط فى اللسان بالقلم بضم الميم . وفى التاج « هو بفتح الميم ، كما يقتضيه إطلاقه . ومنهم من ضبطه بضمها » .

(٤) العنطنط : الطويل والجعد .

ورَجْع المعنى الذى تستعمل فيه أيضا الى معنى الرجوع والعود غير عسير ولا متأبٍّ على من يريد. ففى المثـال السابق حين تقول: زرتك أمس، أخبرت بزيارته أمس، فإذا قلت: وسأزورك غدا فقـد رجعت الى الإخبار بالزيارة، ولـكن هذه الزيارة قدرتها فى الغد. ولأنها تفيد معنى العود والتكوار لا تقول: زرتك أمس وحج محمد أيضا، كما أنها لا تستعمل فى الأمر الواحد. وقـد أدرك العلماء من مواقعها فى الـكلام حد استعمالها، ومنهج استخدامها؛ فيقول أبو البقاء فى كلياته (١): «أيضا مصـــدر آض؛ ولا تستعمل إلا مع شيئين بينهما توافق، ويمكن استغناء كل منهما عن الآخـر، فخرج نحو جاءنى زيد أيضا، وجاء فـلان ومات أيضا، واختصم زيد وعمرو أيضا، فلا يقال شىء من ذلك». ووجه فساد المثال الأخير أن اختصام زيد وعمرو خبر واحد إذ الاختصام لا يكون من واحد، فكان ملتحقا بالمثال الأول. وقال الأمير فى كتابته على المغنى فى ديباجة الـكتاب: «وأيضا: مصدر آض إذا رجع، حذف عامله وجوبا سماعا، كما ذكره بعضهم؛ والمعنى: أرجع رجوعا الى الإخبار... وإنما تستعمل بين شيئين متناسبين، لا فى شىء واحد، ولا نحو مات زيد وتزوج عمرو أيضا وكل منهما مستقل عن الآخر، فلا يقال: اختصم زيد وعمرو أيضاً». ويقول العطار فى كتابته على الأزهرية فى أواخرها عند الـكلام على الجمل التى لها محل من الإعراب: «قال الشمنى فى شرح ديباجة المغنى: وكلمة أيضا لا تستعمل إلاّ مع شيئين بينهما توافق، ويمكن استغناء أحدهما عن الآخر».

واستعمال أيضا فى المعنى المألوف لها لم أقف عليه فى المأثور من قديم الـكلام. وفى فهرست ابن النديم فى مقالة الفلاسفة (٢) (الجـزء السابع) أن أبا صالح بن عبد الرحمن كلفه الحجاج أن ينقل الديوان ـ يراد به حساب الخراج ـ من الفارسية إلى العربية، فقال له مردانشاه بن زاذان فروخ: فـكيف تصنع بدهويه وششويه؟ قال: أكتب عشرا ونصف عشر. قال: فـكيف تصنع بويد؟ قال: أكتب: أيضا. قال: والويد: النيف والزيادة تزاد. هـكذا يقول محمـد بن إسحق صاحب الفهرست فى تبيان هـذه الـكلمة الفارسية. على أنى رجعت إلى من يحسن النظر

(١) ص ٩١ (٢) ص ٣٣٨.

فى معجم الفارسية فأخبرنى بأن معنى «ويد» قليل. وكأن المراد بويد القليل ينضاف إلى العقد من العدد، وهو لهذا زيادة ونيف. ورجوع هذا إلى معنى المادة «آض» أنك إذا أضفت شيئا على ماقدمت فقد عدت إليه ورجعت؛ وكأن الليث ينظر إلى هذا المعنى الذى ابتدعه أبو صالح إذ يقول - على ما رواه صاحب اللسان: «وتفسير أيضا زيادة» وترى أن هذا المعنى ليس هو مايستعمل فيه أيضا فى مألوف أمرها.

على أن هذا الكلمة وردت فى استعمالها المعروف فى شعر رقيق هو هذا:

رب ورقاء[1] هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فَنَن
ذكرت إلفا ودهراً صالحا[2] وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى
أتُراها بالبكا مولعة أم سقاها البين ما جرعنى[3]

وقد حرصت على أن أقف على قائل هذا الشعر فلم أظفر بما يثلج الفؤاد، فنرى هذه الأبيات فى كتاب الإحياء لحجة الإسلام الغزالى فى كتاب السماع والوجد، وهو الكتاب الثامن من رُبع العادات؛ يقول حجة الاسلام: روى أن أبا الحسين النورى كان مع جماعة فى دعوة، فجرى بينهم مسألة فى العلم، وأبو الحسين ساكت، فرفع رأسه، وأنشدهم: رب ورقاء، وساق الأبيات السابقة ما عدا البيت الأخير، ثم قال الغزالى: فما بقى أحد من القوم إلا قام وتواجد، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذى خاضوا فيه، وإن كان العلم جِدا وحقا. وظاهر أن أبا الحسين النورى تمثل بهذا الشعر وليس هو صاحبه. ونرى فى «مواسم الأدب» ص ٧٢ من الجزء الثانى نسبة هذا الشعر الى الشبلى،

(١) يريد حمامة لونها الورقة وهو لون الرماد.

(٢) فى رواية اللوعة: ماضيا.

(٣) هذا البيت انفردت به اللوعة للصلاح الصفدى.

والشبلي هو الصـوفي المشهور أبو بكر دُلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ ، وأغلب الظن أن الشبلي كان له منـه حظ التمثل والإنشاد . ونجدها في « لوعة الشاكي ، ودمعة الباكي » لخليل بن إيبك الصفَدي المتوفى سنة ٧٦٤ ، وهي رسالة صغيرة مطبوعة ، ونقلها الدميري صاحب حياة الحيوان في ترجمة « ورقاء » . وفي كتاب « البلاغة الواضحة » للأستاذ على الجارم بك عليه رحمة الله : « وقديماً كره الأدباء كلمة : « أيضاً » وعدوها من ألفاظ العلماء ، فلم تجر بها أقلامهم في شعر أو نثر ، حتى ظهر بينهم من قال : رب ورقاء ، وساق الأبيات ، ثم قال : فوضع « أيضاً » في مكان لايتطلب سواها ولا يقبل غيرها ، وكان لها من الروعة والحسن في نفس الأديب ما يعجز عنه البيان » وعسى أن يعثرنا الله في مستقبل العُمُر على الجلية في نسب هذه الأبيات .

ما هو الضوء ؟

نرى هـذا الاستعمال تجرى به ألسنة النـاس وأقلامهم في مقام الاستفهام والسؤال . وتشيع هـذه العبارة في أسئلة الامتحان التي توضع لاختبار الطلاب في المدارس والمعاهد ؛ فيقال : ما هو الضوء ؟ وما هو الفاعل ؟ وما هي العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية ؟ وقد أُنكر هذا الأسلوب وعيب من يستعمله ، ووجه تخطئته أن أداة الاستفهام « ما » فيجب أن تدخل على المسئول عنه دون توسط ضمير ، فيقال : ما الضوء ؟ وما العوامل . . . ؟ ودرجت كلية اللغة العربية على مراعاة هذا التصويب ، وتجنب الخطأ ؛ وليس هذا ببدع منها ؛ فهي الحفيظة على سلامة اللغة ونقاوة العبارة .

وكأن مبعث هذا الخطأ أن القوم حين يتكلمون على الاستفهام وأدواته يذكرون « ما هو » في السؤال عن حقيقة الشيء ، فيُظن أن « ما هو » بكمالها أداة استفهام ، ولا يريد القوم هذا ؛ فإنما الأداة «ما» وحدها ، وذكرهم «هو» لتصويرهم جملة السؤال ، وقد كنوا عن المسئول عنه بالضمير ، والضمير يعبر عنه الكوفيون بالكناية ، والقوم حين يمثلون يقولون : ما العنقاء ؛ وما الإنسان ؟ ولا يقولون : ما هي العنقاء ، وما هو الإنسان ؟

على أن الباحث لا يعدم وجها فى العربية لتصحيح هذا الأسلوب . وذلك أن يكون « هو » خبر « ما » والاسم الظاهر بعدها بدل منها ، وإبدال الظاهر من ضمير الغيبة سائغ كثير ـحل بِل".

وجاء فى شعر للمعرّى فى إلغاز له بالفعل « كاد » :

أنحوى هذا العصر ما هى لفظة جرت فى لسانى جرهم وثمود ؟

حول مقال « كيف تكتب السيرة »

نشرت مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول ١٣٦٨) مقالا بهذا العنوان لحضرة الأستاذ « السيد » أورد فيه الكاتب الجليل قصة ضُباعة بنت عامر بن قُرْط ، ورغبة الرسول عليه الصلاة والسلام فى نكاحها ؛ لما عهده فيها من قبل حين كان صغيرا : من جمال وحسن بارع ، ثم إعراضه عنها حين أخبر أنها ليست كما عهد من قبل . وقد تضمنت هذه القصة أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى فى صغره هذه المرأة عارية حين كانت تطوف بالبيت لأمر اقتضى ذلك .

ولقد أحسن الأستاذ كاتب المقال نقد كتابة السيرة على هذا النحو المزرى بمقام النبوة ، وما لها من جلال ، وأبلغ فى تنزيه الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا السفساف الشائن والعمل البغيض . ولم يكن من أورد هذه القصة على هذا الوجه بمصيب وجه الحق فيما أتاه وخطته يده فى هذا الحديث .

وإن هذا من الكاتب الجليل عمل مشكور جدير أن يثيبه الله عليه أحسن الثواب ، كفاء غيرته على مقام الرسالة ، وذبّه عن حياض النبوة .

وإنى أود أن يسمح لى الأستاذ بالاشتراك فى هذا البحث ، وأن يتقبل كلمة فيه عسى أن اكتب ممن ينضح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقامه المنيف .

وقد دفعنى النظر فى هذه القصة إلى تعرّف مصدرها ونقدها من جهة الرواية بعد أن نقدها الكاتب من جهة الدراية ، إذ كان ما فيها لا يتفق مع ما عرف للأنبياء من عصمة وبعد عن السفاسف .

ومصدر هذه الرواية هو ابن الكلبى . وابن الكلبى هشام بن محمد بن السائب

ليس صاحب حديث ، وإنمـا هو صاحب سمر وخبر وتعمد لطرائف الروايات ، فلا عبرة بروايته فى الحديث . وقد قال فيه أحمد بن حنبل [١] : هشام بن محمد بن السائب الـكلبي من يحدث عنه ! إنما هو صاحب نسب وسمر . ويقول فيه ابن السمعانى [٢] : إنه يروى الغرائب والعجائب والأخبار التى لا أصول لهـا .

ويقول أحمد زكى باشا عليه رحمة الله فى تصديره لـكتاب الأصنام لابن الـكلبى : « على أن هناك فريقا من العلماء ـ وهم أهل الحديث الشريف ـ لا يرضون عن ابن الـكلبى ، ولا عمن نحا نحوه من التاريخيين والإخباريين ، لا لشىء سوى أنهم تعرضوا لرواية الآثار دون أن تتوافر فيهم الشروط اللازمة فيمن يتصدر لإملاء الحديث . فلا عجب إذا رأينا هذا الفريق من العلماء يجرحون أولئك العلماء ويحطون من أقدارهم ، لأنهم أقدموا على تدوين الآثار ممزوجة ببعض الأساطير والقصص » .

وأورد ابن هشام صاحب السيرة البيت لامرأة قالته وهى تطوف عارية :

اليـــوم يبدو بعضه أوكله وما بدا منه فـــلا أحله

فقال السهيلى فى الروض الأنف : « ويذكر أن هذه المرأة هى ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، ثم من بنى سلمة بن قشير . وذكر محمد بن حبيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها ، فذكرت له عنها كَـبْرة ، فتركها ، فقيل إنها ماتت كمدا وحزنا على ذلك . قال المؤلف : إن كان صح هذا فمـا أخرها عن أن تـكون أما للمؤمنين وزوجا لرسول رب العالمين إلا قولها : اليوم يبدو بعضه أو كله ، تـكرمة من الله لنبيه ، وعلما منه بغيرته ، والله أغير منه ، ومحمد بن حبيب كابن الـكلبي ، صاحب نسب وخبر ، ولـكنه لم ينسق مع حب الغريب من الأخبار الى ما وقع فيه ابن الـكلبى .

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٤٦

(٢) أنظر تذكرة الحفاظ للذهبى

حيرة العالم وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

بينا فى كلماتنا السابقة ، تحت هذا العنوان ، مايزدحم به العالم من مشاكل تهدده فى أمنه ، وتنغص عليه فى حياته ، وترهقه العسر من أمره ، وكيف أزعجت هذه الحال ساسته وقادته ، فأتعبوا نهارهم ، وأسهروا ليلهم ، وكدوا قرائحهم ، وأجهدوا عقولهم ، عسى أن تهديهم الى مسالك من الفرج تخفف عن الناس ما يثقلهم ويبهظهم ، وكيف فشلت مجهودات هؤلاء ، فرادى وجماعات ، فى شفاء العالم من علله وأدوائه . بل إنها زادت على العلاج سوءا ، واشتدت على المحاولة استعصاء . وأشرنا إلى أن هناك حركة فى بعض الشعوب تهدف الى العودة بالعالم إلى تعاليم الدين ، تستمد منه العلاج ، وتنشد فيه الشفاء ، لينهض من كبوته ، ويأمن العثار دون غايته ، ويستروح نسيم السلام ، بعد أن أخذت بمنافسه ريح القلق والحيرة ؛ وأن قادة هذه الحركة ، من رجال الدين ، والفكر والاجتماع ، ممن حنكتهم التجارب ، وصقلتهم الحوادث . وقلنا إن هذا الاتجاه قد لقى قبولا ، وصادف ارتياحا ، وتحمست له بعض الشعوب .

وكان الظن أن يسير هذا الاتجاه فى طريقه قُدُماً ، حتى يبلغ الغاية ويصيب الهدف .

ولكننا لم نلبث أن رأينا فى الجو سحبا من المعارضة تنذر بشر قد يتفاقم خطره بين أنصار الاتجاه ومعارضيه ممن يتحمسون لمذاهب خاصة ، ويعملون جادين على التبشير بها والدعاية لها . بل قد أخذت هذه المعارضة تبدو فى صورة من الصراع العنيف بين الفريقين فى بعض الجهات ، وكان طبيعياً أن يكون هناك صراع ، وأن يطول ذلك الصراع ويشتد . فقد وجدت الدعاية المتطرفة هوى فى نفوس كثيرين

من الناس فى أمم كثيرة ، وآمنوا بها إيماناً قوياً ، بما وعدت به من آمال ، وبما توسلت به من مغريات تتصل اتصالا شديداً بعواطفهم وقلوبهم ، وما أسرع ما تستجيب العواطف وتميل القلوب ؛ وبما عليه العالم من حالات العوز والبؤس التى تمخضت عنها الحرب العالمية الأخيرة ، وكان الصراع أشد عنفاً فى بعض الشعوب التى لا يزال للدين سلطان على نفوسها .

وبالأمس القريب قدم للمحاكمة فى هنغاريا ، بعض رجال الدين ، بتهمة التآمر على سلامة الأمة ، وخيانة الوطن ؛ وهى اتهامات لفقت لهؤلاء للتخلص منهم ، وبالتالى للتخلص من سلطانهم الدينى الذى يمثلونه ، وقضت محاكم هنغاريا فى شأنهم قضاء قاسيا ، أثار ثائرة الشعوب المسيحية ، ولكن دون أن يكون لهذه الثورة أثر إيجابى فى إلغاء الحكم أو تخفيفه . ومن قبل ذلك مثلت هذه المسرحية القضائية فى يوغسلافيا ، وستمثل فى غيرها ، وما كان ذلك ، ولن يكون ، إلا مظهراً من مظاهر الصراع بين دعاة الإصلاح الدينى ودعاة المذاهب الاشتراكية المتطرفة .

وقد روت الصحف قريباً أن البابا عقد اتفاقاً سرياً يرمى إلى قيام رجال الدين للكاثوليك بحملة هائلة ضد النظم الشيوعية فى جميع أنحاء العالم ، وبصفة خاصة فى النمسا والمجر ، ومنطقة الاحتلال الروسى فى ألمانيا . وعقد مثل هذا الاتفاق مع رجال الدين الارثوذكس ، وقد قام هؤلاء فى المدة الأخيرة بدعاية واسعة النطاق ضد هذه النظم فى بلغاريا ، ورومانيا ، ويوغسلافيا .

ومن حسن حظ هذا الاتجاه الذى كررنا الحديث عنه أن تجاوبت الصيحات فى أنحاء العالم للعمل على إنجاحه تحت تأثير الهزات الاجتماعية العنيفة التى أحدثتها الدعوات المتطرفة ، وبدت بوادر نجاحه فى بعض الجهات . فهناك فى تركيا وفى مجلسها الوطنى ثار جدل عنيف حول بعض الشئون الدينية الهامة التى تشغل بال الشعب التركى ، رأينا فى أثنائه وفى نتائجه تيقظ الوعى الدينى فى الشعب التركى ، وفى بعض رجال مجلسه الوطنى ، وقدرنا أن ذلك الوعى لا بد أن ينتهى بذلك الشعب إلى الغاية التى تتمناها له الشعوب الإسلامية ، والتى تعيد له سابق مجده فى المحافظة على الدين ورعاية علومه وفنونه .

وهنا فى مصر قطعت الفكرة فى طريق النجاح شوطا كبيراً بفضل ما أبداه الشعب من وعى دينى غرسه وقام على رعايته علماء الأزهر قديما وحديثاً، وبفضل ماأشاعه جلالة الملك فاروق من روح دينى فى نفوس الشبيبة المصرية، وبفضل تلك اليقظة التى أبداها كبار رجال الدين فى مصر، وعلى رأسهم فضيلتا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، والأستاذ الكبير مفتى الديار المصرية؛ يضاف إلى ذلك كله ما أبداه دولة رئيس الحكومة من غيرة دينية مهدت لهذا الاتجاه سبيل النجاح.

وإنه ليطيب لنا أن نقتبس هنا من تلك المذكرة الخطيرة التى تقدم بها فضيلتا الشيخين إلى دولة رئيس الحكومة فى بيان ضرورة الأمة وبخاصة ناشئتها إلى الدين، وأنه الوقاية الناجعة من خطر الأمراض الوافدة فى بعض المذاهب الاشتراكية الحديثة.

قال الشيخان «إن فى أهمال حفظ القرآن والتعليم الدينى فى المدارس وعدم جعله مادة أساسية يترتب عليها النجاح، خطرا عظيما على الناشئة، وإطفاء لذلك النور الذى أضاء فيما بين المشارق والمغارب فى عهد الحضارة الإسلامية، وتجريداً لأبناء المسلمين من ذلك السلاح القوى الذى يقيهم شرور المبادىء المتطرفة والمذاهب الهدامة اللادينية، وهو وحده التقية منها، والعصمة من أخطارها، وهو وحده الذى يغرس فى النفوس حب الخير والفضيلة، والخضوع للنظام، والطاعة لله، والبراءة من الشرور والآثام».

ومن مظاهر هذا النجاح ما قررته الحكومة من إلغاء البغاء الرسمى فى المملكة المصرية، وما قررته أو ما هو بسبيل أن تقرره من جعل الدين مادة أساسية فى المدارس الابتدائية والثانوية، والعناية بدراسته دراسة تكشف للناشئة عن أسرار ما جاء به من الفضائل والأخلاق التى تحدد علاقتهم بأسرهم، وعلاقاتهم بالناس عامة، وتكشف لهم عن وجوب احترام حقوق الناس فى أموالهم وأعراضهم وحرياتهم، وما الى ذلك مما هو سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة.

وهنا أحب أن ألفت نظر من عسى أن يكون هناك من معارض لهذا الاتجاه الجديد - أعنى الاتجاه الى الإصلاح من طريق الدين - بأن كل تعويق يقام فى سبيل هذا الاتجاه فهو شديد الخطر عميق الأثر فى كيان الأمة ومستقبلها، وأن كل معوق

فهو مجرم فى حق نفسه وفى حق أسرته وأمته ، فنحن إزاء فتنة إذا شبت نارها فلن تخمد حتى يعم خطرها ، ولن تميز بين فريق وفريق ، ولن يكون وقودها متاعا أو مالا ، ولكن سيكون وقودها العقائد الصحيحة والنظم الصحيحة، والعناصر الصالحة لمقومات الحضارة الصحيحة ، ولا يقينا خطر تلك الفتنة إلا تعاليم الدين ومبادئه . كما أحب أن ألفت نظر من عسى أن تكون قد أثرت فيهم الدعايات المتطرفة وخطفت أبصارهم ألوانها البراقة واغتروا بزخرف مبادئها ، الى أن كل ما سمعوه أو قرءوه فهو ظاهر لا حقيقة له ، وأنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وأن تلك الدعايات ما هى إلا أدوية تحمل اسم الدواء وهى فى واقعها سم زعاف تحلل بنيان الأمم ، وتقوض كيانها ، وتجعلها أوزاعاً متنافرة لا يربط بينها رباط من مصلحة أو خلق ، وتعود بالعالم الى حياة من الفوضى فى جميع النواحى ، وبخاصة ناحية العلاقات الشخصية التى قضت الطبائع والشرائع باحترامها ورعايتها ، وأن الخير الذى تبشر به وتدعو اليه ليس له من سمات الخير إلا اسمه ، وأن الخير المحض فيما جاء به الدين وكفلته الشريعة . ولله شوقى إذ يقول مخاطباً سيد الكون عليه الصلاة والسلام ، ومشيداً بقدر الشريعة وفضلها :

فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا ظفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة ... لا منة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله ... حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراء

شعراء الأزهر

شرح وإيضاح

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

لما كتبت عن الشاعر الفحل ، السيد الأستاذ حسن القاياتى ، فى «مجلة الأزهر» ما كتبت ، تعقبنى الكاتب الكبير الأستاذ السيد عنانى ، فى عدد ذى الحجة ، فعدَّ علىَّ أخطاء ، وأخذ على مآخذ ، كنت على أن أنفضها عن نفسى وقتئذ ؛ لولا صارف قاهر لوى يدى وعقلى ، عن العمل والتفكير فى سواه ، وحال بينى وبين مجلة الأزهر شهورا ثلاثة ، حتى لقيت بالأمس صديقا فى يده عدد ربيع الثانى ، فتناولته منه على شوق ، وقرأت فيه لفخر كتاب الأزهر ، فى عصر النهضة ، المرحوم الأستاد عبد العزيز البشرى ، كلمة فى شعر الأستاذ السيد حسن القاياتى ، قدم لها بمقدمة ، عدتها حجة نصرت بها الأستاذ عنانى علىَّ ، نصرا مؤزَّرا ؛ فذكرنى ذلك ما كنت قد نسيت ؛ ونبه منى ما كان غافيا ، وجعل معاودتى للكلام فى هذا الموضوع ضربة لازب .

وإلى القارئ الكريم ، ما أخذه علىَّ الأستاذ الناقد ، محدَّدا ، مردودا :

١ — زعم الأستاذ أنى ناقضت ، إذ قلت : « إن شاعرنا القاياتى مضى بجزالة الأسلوب الشعرى وفخامته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال ، وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد ، لا من الأحياء ولا من الأموات . . . » ثم عقدت مقارنة بينه وبين الأستاذ الشاعر غنيم .

وشدّ ما ظلمنى الأستاذ ، وقوَّلنى ما لم أقل ؛ فإن المقارنة والموازنة بين الشعراء ، ليست فى منطقة ما حملنى على الكتابة فى موضوع « شعراء الأزهر » مطلقا ، فأنا لم أوازن بين السيد والأستاذ ، ولا فاضلت ؛ لأن المفاضلة تعتمد

النقد المفصل ، على حين أنني إنما عرضت عرضا ، لا تفصيل فيه ولا نقد إلا بمعنى عام . وما ذكرت الشاعر غنيم إلا لأنه تلاقى والسيد فى رثاء المغفور له شيخ الأزهر السابق ؛ فالتمثيل به أقوى إيضاحا ، ولولا ذلك لذكرت البهاء زهير ، و إسماعيل صبرى .

وقد جرى الأستاذ فى الخطأ هنا إلى غايته ، فزعمنى ناقضت أيضا ، إذ قلت : « إن السيد حسن يشيد من شعره هيكلا من الصخر » بعد أن قلت : « مضى بجزالة ، الأسلوب وفخامته » قال « وأن يكون المفن المتأنق عند مايقيم أنموذجا من نماذج الفن الرفيع ، يقف المشاهد عنده مأخوذا مشدوها ، لا ذلك البناء الريفى الذى « يشيد من شعره هيكلا من الصخر ؛ فإن من مضى بجزالة الأسلوب وفخامته بين الشعراء » أضن بخرائد الشعر ، أن تستحيل بين يديه إلى صخور » ! !

على هذا الوجه العامى ، فهم الأستاذ الناقد عبارتى « يشيد من شعره هيكلا من الصخر » ولو وفق الأستاذ فعلم أن أحد قدامى النقاد قال فى جرير والفرزدق : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر » وفسرت بأن الفرزدق يمضى بالجزالة والفخامة والروعة التى يمثلها قوله :

فادفع بكفك — إن أردت بناءنا — ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل ؟!

وأن جريرا مضى بالسهولة والرقة التى تتمثل فى قوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

ولو وفق الأستاذ أيضا فعلم أنْ البنَّاء الريفى لا يشيد من شعره هيكلا من الصخر ، وإنما شاد الهيا كلَ خالدة ماثلة ، بُنَاة المجد من فراعين مصر .

أقول : لو وفق الأستاذ الى علم مالم يعلم ، لكان له فى كلمتى رأى آخر ، فإننى إنما قصدت بها أن شعر السيد « سيد الشعر ، وأنه هَرَمٌ بجانب الهرم ، له ما له من « هندسة » ومن قوة ، ومن جلال ، ومن خلود على وجه الزمان ! فأين أنت منى يا أستاذ ؟ ! أمَا لو فهم فهمَك طالبٌ من طلبتى لأسقطته فى الامتحان ؛ ولمـّا كانت يدى لا تنالك ، فاغفر لى من فضلك ، ما أشتفى به منك ، من لغو الكلام !

وإلا ، فكيف أحتمل : « أن البناء الريفي يشيد من شعره هيكلا من الصخر » وأن الشاعرين لا يوازن بينهما إلا إذ اختلفا مدرسة ؟ ! !

٢ — وزعم الأستاذ أنني تأثرت في حكمي على شعر السيد حسن ، بشنشنة الجماهير ، وحكمها الفطير ؛ قال : « فإني آمل ألا يؤاخذني الأستاذ في أن أخالفه فيما انتهى إليه من حكم ، يبدو أنه تأثر فيه بشنشنة الجماهير وحكمها الفطير ، فلا ريب في أنه مؤمن معي أن الجماهير لا تستطيع التغلغل في دقائق الفنون الرفيعة عامة في أي عصر من العصور ، ولا في أي أمة من الأمم الخ » .

وبعد شوط طويل في شجون الحديث ، قال : « والآن وقد وصلنا إلى هذا المدى من البيان ، لا نغالي إذا قلنا : إن السيد بحق ، رائد جيله ، وطليعة مجدديه ، وشاعر البيان الأصيل ، وواصف الجمال الرائع ؛ وإن من الجناية على الذوق الفني لأبناء هذا الجيل أن يقال : إنه شاعر الخاصة » ! وخلاصة هذه الغلطة « غلطتي أنا » أنني تأثرت بالجماهير فحكمت على السيد بأنه شاعر الخاصة . وأنا أقول للناقد الكريم : إنني لو تأثرت بالجماهير ، لحكمت بأن السيد ليس بشاعر ؛ فالتأثر بالجماهير لا ينتج الحكم بأنه شاعر الخاصة ؛ هذه واحدة ! . وأخرى ، وهي أن الفهم الذي جعل الريفي عندك يبني هيكلا ، فبناء شعر السيد لهيكل من الصخر ، قدح في شعر السيد ؛ هو بعينه الفهم الذي جعلك تفهم أن الحكم على السيد بأنه شاعر الخاصة ، جناية على الذوق الفني لأبناء هذا الجيل ! فالذنب — إذاً — ليس ذنبي أنا ، ولا ذنبك أنت ؛ ولكنه ذنب الفهم ..

إنك يا مولاي — تسلم معي ، بل تقرر صادقا ، أن الجماهير لا تستطيع التغلغل إلى دقائق الفنون الرفيعة عامة في أي عصر الخ ، والسيد شاعر الفن الرفيع ، فهل يسوغ المنطق أن نستنتج من هذا القياس : أن السيد شاعر العامة ؟

على أن وصف الشاعر بأنه « شاعر الخاصة » كما وُصف الفرزدق ، يصعد به إلى الثريا ، فكيف ساغ لك — يا مولاي — أن تهبط بالسيد من حيث أريد أن أنطح به السماء ؟ !

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت ذنوبا ، فقل لي : كيف أعتذر ؟ !

٣ — أخذ على الأستاذ الناقد ، أننى قلت إن الشاعر غنيم يمثل الرقة التى تستهوى الجماهير ، وإن السيد يمثل الجزالة التى ترضى الخاصة الخ ؛ وانتقل عن ذلك الى قوله : « وفى هذه المناسبة نحب أن نسأل الأستاذ عن الفرق بين الجزالة والرقة ؟ » وبعد ترديد واستنتاج ، قال : « فإذا وافقنى الأستاذ على هذه القضية ، وهى أنه ليس ثمة مانع من أن تجتمع الجزالة والرقة فى واحد ، وأن كل جزل رقيق ، وبالعكس ، فإننا نكون قد وصلنا الى أن السيد قد جمع بين الغايتين ، وتفرد بالحسنيين ، بين شعراء النهضة الخ » .

فأما أن شعر السيد يمثل الجزالة فهى قضية لايخامرها عندى ريب ، والحس أصدق دليل ؛ وأما جواب سؤاله عن الفرق بين الجزالة والرقة ، فإننى أنقله بالنص الحرفى من كتاب « المثل السائر » لابن الأثير ؛ قال : « والألفاظ تنقسم فى الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ؛ فالجزل منها يستعمل فى مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها ، فإنه يستعمل فى وصف الأشواق ، وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك . ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا ، عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى بالجزل ، أن يكون متينا على عذوبته فى الفم ، ولذاذته فى السمع . وكذلك لست أعنى بالرقيق ، أن يكون ركيكا سفسفا ؛ وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس ، كقول أبى تمام :

ناعمات الأطراف ، لو أنها تُلْـبَس ، أغنت عن الملاء الرقاق

وبهذا يعرف : (١) أن قدامى النقاد قرروا فرقا بين الرقة والجزالة . (٢) وأن الجزالة والرقة لا تجتمعان على موضع واحد . (٣) وأن قضية : « كل جزل رقيق وبالعكس » قضية كاذبة . (٤) وأن العذوبة التى نلمسها ونعترف بها فى غزل السيد لاتنافى الجزالة ، بل هى شرط فيها ؛ ولو سلمنا أنها رقة ، فهى من وضع الأشياء فى مواضعها . (٥) وأن وصف الشاعر بأنه رقيق الشعر كله ليس فخرا — فقد عيب الأندلسيون بأن رقة أشعارهم جعلتهم يقصرون فى المواقف التى تتطلب الجزالة والفخامة كوصف الحروب وما إليها ؛ وذلك أشهر من أن نطيل فيه .

أنا لا أخالف أبدا فى عذوبة غزل السيد ولذاذته ، ولكن هذه العذوبة ، كالعذوبة التى تجدها فى قول البدوى :

شَبَّهتُ مِشيَتَها بِمِشيَةِ ظافرٍ يختال بين أسنة وسُيُوفِ
صلف ، تناهت نفسه فى نفسه لما انثنى بسنانه المرعوف !!!

وفى قول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

مما تحس فرقا بينه وبين مثل قول الآخر :

قطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه

ومثل :

ألا أيها النوّام ويحكمو هبوا أناشدكم هل يقتل الرجل الحب ؟!

فرقا فى الألفاظ ، وفى تلاحم النسج ، وقوة الأسر .

وعلى الجملة ، إن الأحكام دائما ، وعلى وجه أخص فى الأدب ، إنما تتبع الأعم الأغلب ، والجزالة تسود أكثر قصائد السيد حسن .

فليمض الشاعر الفحل السيد حسن القاياتى بجزالة الأسلوب ! وليكن شاعر الخاصة ، وإن أبى الأستاذ العنانى ، وظاهره الجن والإنس .

بقى بعد ذلك المقال الأخير ، وأهم ما يستوجب التعقيب منه مقدمته ؛ فقد تضمنت :

١ — أننى تخيرت الشاعر الفحل « غنيم » واجتلبته اجتلابا ، للموازنة بينه وبين السيد .

قال منشؤها : « ثم تخير الأستاذ عبد الجواد أن يجعل حديث الشاعر الفحل الأستاذ محمود غنيم الى حديث السيد حسن القاياتى ، لبعض المشابه بينهما من الجزالة والرقة — فيما يرى — فاجتلب ذكره معه اجتلابا ، ليسايره به ، ثم يباريه بأدبه ، وضرب للموازنة المثل فاحتفل . أجل ، لقد عقد الأستاذ الموازنة والمباراة بين الأديبين الخ » .

وأنا لم أتخير غنيم ، ولم أجتلبه اجتلابا ، وإنما تقاضانى ذكرَه بالذات ، ما أسلفت من تلاقيهما فى رثاء المغفور له شيخ الأزهر السابق ، مع اختلاف مذهبيهما ، حتى يكون المثال أتم انطباقا على القاعدة ، على حد التعبير الفقهى الأزهرى . كما أننى لم أوازن مطلقا ، بل إننى قلت : « وكنت أود أن يتفق الشاعران مذهبا شعريا ، وأن تتحد قصيدتاهما قافية ووزنا ، حتى أوازن بينهما . . . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه » ومايزال مقالى على حبل الذراع ، فليراجعه من شاء ، وعند جهينة الخبر اليقين .

٢ — قال منشؤها : « لقد كان إذن رأى الأستاذ البشرى يشهد لنزعة الأستاذ العنانى وينصر رأيه القائل بأن الجزالة والرقة فرسا رهان فى الإحسان ، وأن السيد حسنا حرىٌ وقد ذهب بجزالة حقة ، أن يذهب بالرقة » .

ورأىُ العلامة البشرى رحمة الله عليه ، لم يعرض للجزالة والرقة على هذا الوجه ، وإنما قال — بعد أن قرر أن أدب السيد حسن صورة نفسه — : « يدلك على هذا من بيان السيد ، إن كنت محتاجا فيه إلى بيان ، أنك تراه يتغزل ، وأكثر شعره فى الغزل ، فيطلع عليك بأرق الكلام وأعذبه ، حتى ليخيل اليك أنه لا يقول شعرا ، ولكنه ينفث سحرا !!! » .

وهذا موضع اتفاق ، ولا فكاك لشاعر عنه ؛ ولكن رقة الغزل وحده كما قال البشرى ، لا تدفع غلبة الجزالة على غيره من الأغراض . والسلام ؟

النميمة

قال حكيم : حسبك من شر سماعه .

وقال الشاعر :

لعمرك ما سب الأمير عدوه ‏ ‏ ‏ ولكنما سب الأمير المبلغ

وقال آخر :

لا تقبلن نميمة بلغتها ‏ ‏ ‏ وتحفظن من الذى انباكها
لا تنقشن برجل غيرك شوكة ‏ ‏ ‏ فتقى برجلك رجل من قد شاكها
إن الذى أنباك عنه نميمة ‏ ‏ ‏ سيذب عنك بمثلها قد حاكها

مثل من علماء القرن الثانى عشر

مؤلف تاج العروس شرح القاموس

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

عاش من العمر ستين سنة : اثنان وعشرون ما بين الهند مسقط رأسه وبين البلدان الإسلامية الأخرى ، وثمان وثلاثون قضاها فى القاهرة مقيما بخان الصاغة تارة ، وبعطفة الغسال أخرى ، ثم بمنزل بسويقة اللالا تجاه جامع محرم بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفى . كناه السيد أبو الأنوار السادات بأبى الفيض . ذلك هو السيد محمد الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى . أصله من السادة الواسطية من قصبة بلجرام على خمسة فراسخ من قنوج وراء نهر جنج بالهند ؛ وقد ولد بها فى سنة ١١٤٥ ، وورد إلى مصر فى سنة ١١٦٧ ، وتوفى بها فى سنة ١٢٠٥ ، فدفن بقبر أعده لنفسه بجوار زوجته زبيدة عند المشهد المعروف بمشهد السيدة رقية بيشكر من مصر . ولقد حزن على زوجته هذه حزنا شديدا ، فأعد على قبرها مقاما ومقصورة وستورا ، وفرشا وقناديل ، ولازم قبرها أياما كثيرة تجتمع فيها عنده الناس ، والقراء والمنشدون ، فيقدم لهم الأطعمة والثريد ، والقهوة ، ويشترى مكانا بجوار قبرها يعمره بيتاً صغيراً ويفرشه ويسكن به أمها ويبيت به أحيانا ، فيقصده الشعراء بالمراثى فيقبلها منهم ، ويجيزهم عليها ، ويرتبها معهم على طريقة مجنون ليلى ، فيقول :

أعاذلَ مَن يرز أ كرُزئى لا يزل	كئيبا ويزهد بعده فى العواقب
أصابت يد البين المشت شمائلى	وحاقت نظامى عاديات النوائب
وكنت إذا ما زرت زبدا سحيرة	أعود إلى رحلى بطين الحقائب
أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها	من الخفرات البيض غر الكواعب
فتاة الندى والجود والحلم والحيا	ولا يكشف الأخلاق غير التجارب
فديت لها ما يستذم رداؤها	عميدة قوم من كرام أطايب

عليها سـلام الله فى كل حالة ويصحبه الرضوان فوق المراتب
مدى الدهر ما ناحت حمامة أيكة بشجو يثير الحزن من كل نادب

ثم يتزوج بأخرى يموت عنها ، فيدفن بجوار زبيدة : فتاة الندى والحلم والجود والحيا .

اشتغل بطلب العلم أولاً بالهند ، ومن أساتذته فيها الأستاذ المحقق الشيخ أحمد الدهلوى صاحب كتاب حجة الله البالغة فى أسرار الدين والشريعة . وذهب الى اليمن وأقام بزبيد مدة طويلة حتى قيل له الزبيدى واشتهر بذلك ، ثم إلى مكة فأخذ عن مشايخ كثيرين منهم السيد عبد الرحمن العيدروسى ، قرأ عليه مختصر السعد ، ولازمه ملازمة كلية ، وألبسه الخرقة ، وأجازه بمروياته ومسموعاته ، وقرأ عليه طرفا من الإحياء ، وهو الذى شوقه إلى مصر بما وصف له من علمائها وأمرائها وأدبائها ، وبما فيها من المشاهد .

ورد مصر فكان أول من عاشره وأخذ عنه من علمائها السيد على المقدسى الحنفى ، وحضر دروس أشياخ الوقت كالشيخ الجوهرى ، والملوى ، والحفنى ، والبليدى ، والصعيدى ، والمدابغى ، وغيرهم . تلقى عنهم وأجازوه حتى أصبح مجازا من مشايخ المذاهب الأربعة الذين شهدوا له بعلمه وفضله وجودة حفظه ، وكانت الإجازة فى ذلك الوقت تساوى الشهادة عندنا الآن ، واعتنى بشأنه اسماعيل كتخدا عزبان ، ووالاه بره حتى راج أمره ، وحسن حاله ، واشتهر ذكره عند الخاص والعام ، ولبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، وكانت سويقة اللالا مسكنه بعد عطفة العسال وخان الصاغة فى ذلك الوقت عامرة بالسكان الأكابر والأعيان ، فأحدقوا به ، وتحبب إليهم ، واستأنسوا به ، وواسوه وهادوه ، وهو يظهر لهم الغنى والتعفف ، ويعظمهم ويفيدهم ، وقد يرجعون من عنده بفوائد ورقى وتمائم ، ويجيزهم بقراءة أوراد وأحزاب ، فيقبلون عليه من كل جهة ، ويأتون إلى زيارته من كل ناحية ، وبلغ من أمر المغاربة حين ينزلون مصر وهم فى طريقهم الى الحج أنهم كانوا يذهبون إليه ويزدحمون على بابه من الصباح الى الغروب ، وكانوا يعتقدون أن من ظفر منهم بتميمة من الشيخ يرى أنه قد قبل حجه ، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة ، وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده .

شرع فى شرح القاموس وهو بمصر، وسماه تاج العروس، ومكث منقطعا لهذا العمل الجليل أربعة عشر عاما وشهرين ، حتى أتمه فى عشرة مجلدات كوامل ؛ وعند إتمامه أولم وليمة حافلة جمع فيها طلبة العلم وأشياخ الوقت وأطلعهم عليه ، فشهدوا بفضله وسعة اطلاعه ورسوخه فى علم اللغة التى كان يعرف بجوارها التركية والفارسية ، وكتبوا عليه تقاريظهم نثرا ونظما ، وممن قرظه شيخ الكل فى عصره - كما يحدثنا الجبرتى - الشيخ على الصعيدى ، والشيخ أحمد الدردير ، والسيدعبدالرحمن العيدروسى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ أحمد البيلى ، والشيخ عطيه الأجهورى ، والشيخ محمد عباده العدوى ، والشيخ أبو الأنوار السادات ، والشيخ عيسى البراوى ، والشيخ محمد الزيات ، والشيخ عبد الرحمن مفتى جرجا ، وغيرهم من الأفاضل . ولما أنشأ أمير اللواء محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر وأنشأ به مكتبة ، طلب هذا الشرح فأخذه وعوضه عنه ١٠٠٠٠٠ درهم مائة ألف . وتقول بعض المصادر : إن ملك الروم استكتب منه نسخة ، وسلطان دارفور نسخة ، وملك القرب نسخة . وإذا كان الفيروزابادى يقول عن كتابه - القاموس المحيط - إنه ألفه محذوف الشواهد ، فإن الزبيدى شارح هذا القاموس قد أتى بكثير من الشواهد ، واستدرك على المتن بزيادات بلغت عشرين ألفا — كما يقول السيد على جودت ملتزم الطبع — زيادة على مواد المتن الأصلية البالغة ستين ألفا ، حتى استفرق مافى اللسان ، والمحكم ، والمخصص ، والتهذيب ، والعباب . وبهذه المناسبة أقول : إن بعض علماء اللغات أحصى عدد الكلمات فى بعض اللغات المعروفة فذكروا أن كلمات اللغة الانكليزية لا تقل فى عهدها الحديث عن (٢٥٠) ألف كلمة ، وتليها الألمانية (٨٠) ألف كلمة ، فالإيطالية (٤٥) ألف كلمة ، فالفرنسية (٣٠) ألف كلمة ، ثم الأسبنيولية (٢٠) ألف كلمة .

أما اللغات الشرقية فأوسعها العربية ، وهى تتألف من (٨٠) ألف كلمة ، ثم الصينية ويستعمل فيها عشرة آلاف علامة يتألف منها (٤٩) ألف كلمة مركبة ، ثم التركية ، وهى تحتوى على (٢٣) ألف كلمة .

وكانت قد اهتمت بطبع هذا الشرح جمعية اسمها جمعية المعارف بالقاهرة المعزية ، فطبعت منه الخمسة الأجزاء الأول ، ولم يساعدها الزمان بإتمامه ، حتى وفق الله تعالى له الغازى أحمد مختار باشا ، فاستصوب طبعه من أوله ليكون على

نسق واحد ، فتم طبعه فى سنة ١٣٠٧ فجزاه الله خير الجزاء. غير أنه يؤخذ على الطبعة أنها لم تكن مشكولة كما هو الشأن فى كتب القواميس ، وأقصى ما أرجوه فى هذا الشأن أن يقيض الله للعربية من يطبع هذا الكتاب النفيس طبعة مشكولة . ولعل الأزهر وهو القائم على حفظ اللغة أن يكون له أثر فى هذه الناحية . وفى رأيى أن الأزهر ينبغى أن يعمل على إنشاء دار للنشر والترجمة ، تنشر بعض الكتب النادرة أو بعض المخطوطات النادرة ، والمكتبة العربية أو الأزهر فقير إلى مصادر تترجم فى تاريخ الأديان والمقارنة بينها ، والأزهر الآن والحمد لله غنى بنواة تستطيع أن تقوم بهذا العبء من رجاله الذين درسوا فى أوربا . ولو أن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى يعمل على ذلك ، لكلل عهده بفخار يسطره له التاريخ ، والاحتفال بالعيد الألفى للأزهر خير مناسبة لافتتاح هذه الدار .

وللسيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى تآليف غير هذا الشرح ، قال عنها بعض المؤرخين : إنها تزيد على مائة كتاب ذكرها فى برنامجه ، منها شرح كتاب الإحياء للغزالى ، وألفية السند فى ألف وخمسمائة بيت ، وشرحها فى عشر كراريس .

ويحدثنا الجبرتى وهو رجل معاصر للشيخ ، وكان يحضر غالب مجالسه ، قال : ذهب إليه بعض علماء الأزهر وطلبوا منه إجازة ، فقال لهم : لا بد من قراءة أوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع بجامع شيخون بالصليبة : الاثنين والخميس ، تباعدا عن الناس ، فشرعوا فى صحيح البخارى بقراءة السيد حسين الشيخونى ، واجتمع عليهم بعض أهل الخطة والشيخ موسى الشيخونى إمام المسجد وخازن الكتب ، وهو رجل كبير معتبر عند أهل الخطة وغيرها ، وتناقل فى الناس سعى علماء الأزهر مثل الشيخ أحمد السجاعى ، والشيخ مصطفى الطائى ، والشيخ سليمان الاكراشى وغيرهم للأخذ عنه ، فازداد شأنه ، وعظم قدره ، واجتمع عليه أهل تلك النواحى وغيرها من العامة والأكابر والأعيان ، والتمسوا منه تبيين المعانى ، فانتقل من الرواية الى الدراية وصار درساً عظيما ، فعند ذلك انقطع عن حضوره أكثر الأزهرية ، وقد استغنى عنهم هو أيضا ، وصار يملى على الجماعة بعد قراءة شىء من الصحيح حديثاً من المسلسلات أو فضائل الأعمال ، ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه ، ويتبعه بأبيات من الشعر كذلك ، فيتعجبون من ذلك لكونهم لم يعهدوه فيما سبق فى المدرسين المصريين . وافتتح درساً آخر فى مسجد

الحنفى ، وقرأ الشمائل فى غير الأيام المعهودة بعد العصر ، فازدادت شهرته وأقبل الناس من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته لكونه على غير هيئة المصريين وشكلهم . ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم ، وعملوا من أجله ولائم فاخرة ، فيذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرىء والمستملى وكاتب الأسماء ، فيقرأ لهم شيئا من الأجزاء الحديثية كثلاثيات البخارى أو الدارمى أو بعض المسلسلات بحضور الجماعة وصاحب المنزل وأصحابه وأحبابه وأولاده ، وبناته ونسائه من خلف الستائر ، وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة ، ثم يختمون ذلك بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم على النسق المعتاد ، ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات واليوم والتاريخ ، ويكتب الشيخ تحت ذلك « صحيح ذلك » ، وكانت هذه طريقة المحدثين فى الزمن السابق . ويقول الجبرتى بعد ذلك : كنت مشاهدا وحاضرا فى غالب هذه المجالس والدروس ومجالس أخر خاصة بمنزله وبسكنه القديم بخان الصاغة وبمنزلنا بالصنادقية . . . الخ .

ولى هنا ملحوظتان اثنتان : الأولى : أن سلسلة الحديث انقطعت بين رجال الأزهر ، فهل لنا من ينظمها ثانيا على طريقة السلف ؟ ولعل الأزهر يعنى بهذه الناحية فى تخصص المادة قسم الحديث عند افتتاحه . الثانية : أن كتابة أسماء الحاضرين فى الدرس للتشريف ، فهل يعتبر بذلك أبنائى الطلبة ؟ وأقترح أن يعمل سجل للمواظبين على الحضور يعتمده الأستاذ آخر العام ، ويكون له شأن فى حياة الطالب العملية بعد ذلك .

ولما بلغ مالا مزيد عليه من الشهرة وبعد الصيت وعظم القدر والجاه عند الخاص والعام ، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار ، وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها من كل ناحية ـ لزم داره واحتجب عن أصحابه الذى كان يلم بهم قبل ذلك ، إلا فى النادر لغرض من الأغراض ، وترك الدروس واعتكف فى بيته ، ورد الهدايا التى تأتيه .

أرسل اليه مرة أيوب بك الدفتردار مع نجله خمسين إردبا من البر وأحمالا من الأرز والسمن والعسل والزيت وخمسمائة ريال نقود وبقج كساوى ، فردها . وفعل مثل ذلك مرة مع سلطان المغرب ، فأرسل اليه السلطان بخطاب يلومه . ويقول الجبرتى : إنه قرأ هذا الخطاب وفيه يلومه أيضا على شرحه كتاب الإحياء ، ويقول له : كان ينبغى أن تشغل وقتك بشىء نافع غير ذلك فسبحان مقسم الحظوظ !

أساليب الوعظ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

قبل أن نتحدث عن أساليب الوعظ ، يجدر بنا أن نتحدث عن الهدف الذى الذى يهدف إليه ، والغاية التى يقصدها . ومن البديهى أن الهدف من الوعظ ليس سوى إثارة الشعور ، وتحريك العاطفة ، وتهيئة الأحاسيس ، لقبول ما يدعو به الداعية ، أو يعلنه إلى الناس الواعظ ، ثم تكون الغاية ـ بعد ذلك ـ الأخذ بالتى هى أقوم ، من اجتناب المنهيات ، وفعل المأمورات .

وقد تتبعنا الأسلوب البيانى فى الكتاب والسنة والأدب العربى ، شعرا كان أو نثرا ، فوجدناه يتسم بسمة خاصة ، ويتلون بلون يمتاز به عن غيره من أساليب التعبير ؛ ذلك هو التهويل المخيف ، والطنين المدوى ، والخيال الرائع ، والتصوير الدقيق ، والصناعة التى هى أشبه بالفن منها بأى شىء آخر . والذى يتصدى لهذه المهنة لا يحتاج إلى العلم بقدر ما يحتاج إلى اللباقة والذوق ، والفصاحة فى الأداء ، والمهارة فى الزخرف الذى يجمل به الثوب الذى يضفيه على الكلام .

وهذا هو القرآن الكريم لا يكتفى فى وصف خيبة مسعى الكافرين ، وضياع ما كانوا يصطنعونه فى الدنيا من معروف ، أو يحصلونه من مكارم ؛ لأنهم لم يؤسسوا ذلك على الإيمان ، ولم يقيموا دعائمه على تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، وقد نسخ دينه الأديان ، وطمست رسالته معالم الرسالات السابقة : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » . . . . ونراه حين يعرض لهذا الوصف لم يكتف بالخبر المجرد حتى يحيطه بما يقيم قيامة الفكر ، ويثير عجاجة الخيال ، بما يصاحب ذلك من صور شعرية جميلة . وانظر

اليه إذ يقول « أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » ثم ارسم بريشة الفنان الصنع رجلا لفحته حرارة الشمس ، وأضناه طول المسير ، من كثرة تخبطه فى صحراء مترامية الأطراف ، مشتبهة المسالك ، موحشة المرامى ، مقفرة السبل ، لا يأوى إليها طير ، ولا ينبت فيها شجر ، ولا يبدو فى هذه المظاهر كلها إلا لمعان على مدى الطرف يظنه المكدود ماء ، فهو يُغذّ السير ، ويواصل الخطو ، رجاء أن يلاحقه ، ولكنه لا يكاد يدنو منه إلا تبين له أنها الأوهام ، أو كاذبات الأحلام ، ثم لا يرزق بعد ذلك غاراً يأوى اليه ، أو جبلا يحنو ظهره عليه . والفارق بين هذا المعتسف للصحراء وراء الماء ، وبين الكافر الآمل ، أن الكافر يلبّب به الجزاء ، وتلح عليه الخاتمة الممقوتة « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

وإليك مثلا من السنة المطهرة فى الحديث : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ؛ فهل نرى إلا أن الظالم حين تعوزه الحجة ، وتخونه مسارب المحجة ، وتوصد دونه الأبواب ، ويعييه الجواب ، من فصل الخطاب ، قد أحاطت به الظلمات من كل ناحية ، وتكنّفته الحيرة من جميع جهاته ، والحق أبلج ، والباطل لجلج ، وهو أشبه بالآية « لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ؛ وكل هذا فى مقابل وصف المؤمنين الذى كملت هدايتهم ، ولانت للدعوة مقادتهم ، فاستقاموا على الطريقة بكونهم : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .

وكذلك كان الوعظ يعتمد الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، لترتدع النفوس ، وترجع عن غيها الأفئدة ، وتتوب الى رشدها القلوب ، فلا تسير إلا وراء العقل ، ولا تخطو خطوة دون أن تقدر العاقبة ، وترتب عليها ما ينجم منها من الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، وربما عولوا فى هذا على القصة المصنوعة ، والخبر المنسوج .

حكى عن إبراهيم بن أدهم أن رجلا لقيه ، فقال : ياأبا إسحق ! أنا رجل مسرف على نفسى ، وقد أحببت أن تحدثنى بشىء من الزهد لعل الله يلين قلبى وينوره .

قال ابراهيم : إن قبلت منى ست خصال أوصيك بها فلا يضرك ما عملت

بعـدها . قال : وما هى ؟ فقال ابراهيم : إن أردت أن تعصيه فلا تأكل رزقه . قال : فاذا كان كل شىء من رزقه فمن أين آكل ؟ فقال إبراهيم : يا هذا أفيحسن بك أن تعصيه وأنت تأكل من رزقه !. قال : لا والله !. فقال إبراهيم : إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن فى بلده . قال : فاذا كان السهل والجبل ، والأرض والسماء، كلها ملكه ؟ فقال ابراهيم : إذا أردت أن تعصيه فلا تجعله يراك . قال : فإذا كان يرانى ولا يخفى عليه مكانى !. فقال ابراهيم : إذا جاءك ملك الموت فاستمهله حتى تتوب . قال : فاذا كان لا يملك شيئا من تقـديم أو تأخـير !. فقال ابراهيم : إذا كان الغد وذهبت بك الزبانية إلى النار فقل لا أذهب اليها !. وكان ابن أدهم فى كل واحدة بعد أن يقطع عليه الطريق ، ويلزمه بالحجة يقول له : يا هذا أفيحسن بك أن تعصيه ! وكان الرجل لا يسعه إلا أن يقول : لا .. وفى النهاية دمعت عينه وقال له : يا ابراهيم حسبى حسبى . . . !!

وفى كتاب « محاضرة الأبرار ، ومسامرة الأخيار » لمحى الدين بن العربى : أن ملك الموت حينما يرى جزع أهـل الميت ، ويستمع إلى ولولتهم ، وينزعج من صياحهم ، تأخـذه الدهشة مما يفعلون ، والعجب لما يصنعون ، فيقول : والله لم أجىء إليه إلا مأمورا ، ولم أفعل به ذلك إلا مقهورا ، ولم أقبض روحه قبل نهاية الأجل ، والدنيا محدوده ، أيامها معدوده ، وأنفاسها غير مردوده ، وهى كلما طالت استحالت ، ومالت ثم غالت ، فعـلام يبكى القـوم ، فى ذلك اليوم . . . !!

وربما كان السر فى أن تكون أساليب الوعظ بهـذا النمط ، وعلى هـذه الشاكلة من البيان ، لأنها لغة العـاطفة ؛ ولذلك يكون تأثير الواعظ على قـدر ما يكون إخـلاصه ، واحتسابه على الله ما يؤدى من واجب الدعوة الى سبيل الله بالحـكمة والموعظة الحسنة ، وما صدر عن القلوب ، يستقر فى القلوب ، أما ما يجرى على اللسان ، فانه لا يتجاوز الآذان !!.

العلوم الاسلامية التقليدية

وحاجة الباكستان إليها

لحضرة الأستاذ حسين بن الشيخ فيض الله الهمدانى اليعبرى

[فيما يلى نص الكلمة التى ألقاها الدكتور حسين فيض الله الهمدانى الملحق الصحفى بسفارة الباكستان بالقاهرة فى يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٨ فى الاجتماع الذى دعا إليه قسم الصحافة بمعهد الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . وقد رأس الدكتور بطرس عبد الملك أستاذ اللغات السامية الاجتماع الذى شهده لفيف من رجال الدين والمتعلمين والمتأدبين]

لو قدر لى أن ألقى كلمتى هذه على بعض من المستمعين الغربيين لكان لزاما على قبل أن أبدأ ، أن أشرح المعنى المقصود من لفظة « التقاليد » لأنها كلمة ماعتمت أن اختفت اليوم من التفكير الأوروبى بعد أن جرفها أمامه تيار المدنية ، وبعد أن أصبحت عبارة يطلقونها فى مجال الذم والقدح .

ولكن عندما أتحدث إلى قوم شرقيين يعرفون ما للتقاليد من معنى ، أرانى لست فى حاجة إلى تبيان معنى هذه اللفظة ، أو المرمى الذى ترمى إليه ؛ ولو أن شيئا مبهما غامضا يحوم حول هذا اللفظ ويجعل من الصعب بمكان أن نعطيها تعبيرا محدودا صادقا . وعلى العموم فالمسألة مسألة تفكير ، ومسألة مستوى للقيم ، وأخيرا مسألة معيار أو مقياس للحكم والتقدير .

وكل مدنية لها طابعها الخاص وتقاليدها الموروثة التى تصبغ فنونها ، وتسبغ على آدابها ألوانا غير تلك التى تتميز بها بقية الآداب ، والتى تظهر بوضوح فى كل معالمها .

والتقاليد هي التي تميز أي شعب متمدن عن أي شعب آخر ، والتي تعطيه صفة يتحلى بها تبقى عالقة به ما بقي التاريخ ؛ وهي التي تشيع في تفكيره ومراميه ؛ ذلك النوع الذي يغاير ويخالف غيره من التيارات الفكرية . ونحن إذ نسوق الكلام في هذا الصدد لا نعني بكلامنا الأمم في حد ذاتها ، وإنما نعني به المدنيات ؛ لأنها أوسع مجالا وأحسن تعبيرا . فالمدنيات إذن هي الباقية ؛ أما الأمم فمتغيرة ؛ وهي تأتي في المقام الأول ؛ لأنها ليست إلا عبارة عن تشكيلات صغيرة ، وجماعات سياسية مؤقتة هي في الأعم الأغلب تحت سيطرة مدنية أو أكثر من مدنية . والأمة قد تتغير ، وقد تختفي في أحيان كثيرة ، وقد تنمحي بسرعة ، بينما لا ينطبق هذا على المدنيات لأنها مظهر دائم وحياة دافقة ، إن لم تكن متجددة ، فهي ليست ميتة ، وهي في أغلب الأوقات (شيء) لا يمكن استبداله أو إحلاله محل آخر .

وعلى هذا يكون لكل مدنية تقاليدها الخاصة ؛ وغالبا ما يكون لها كتاب يعتبر أساسا لها ، وهو لا يعد ابتداء لهذه المدنية ولا مقدمة لها ، ولكنه يعتبر المركز الذي تتبلور فيه قواعد هذه المدنية ، والذي تشاهد وتحدد فيه بوضوح . وتطبيقا لهذا كان للمسيحيين إنجيلهم ، وللمسلمين قرآنهم ، ذلك الكتاب القيم الذي أوحى به الله عز وجل لنبيه محمد صلوات الله عليه .

وقد يوجد الى جانب هذا الكتاب مجموعة من الكتب كتبها الرعيل الأول من العلماء والفقهاء ، والتي أصبحت على مر الزمن مراجع مقدسة يعترف بها رجال الدين ويؤمن بها جمهرة الناس . فإلى جانب الإنجيل توجد كتابات رجال الكنيسة ، والى جانب القرآن توجد السنة ، وهي عبارة عن أقوال النبي وصحابته التي جمعت وتواترت حتى أصبحت ذخيرة للأجيال المقبلة ، وللخلف بعد السلف ، وعلى هذا أسست تقاليد الاسلام ، على القرآن والسنة ، ومنهما انبثقت علوم الاسلام وظهرت ، وكما كانا أساسا لهذا فانهما سيظلان كذلك طالما ظل نور الله يشرق على الانسانية رحمة وهداية .

ونحن لانعني بذكرنا « العلوم التقليدية » الاصطلاح العلمي الحديث المتداول بين الناس ، ولكننا نعني بها المعنى العام القديم المتوارث لمجموعة المعارف ذات الدلالات الخاصة .

وعلوم الاسلام التقليدية خمسة ، هى : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والكلام ، والتصوف .

فالتفسير هو العلم الذى يعالج كلام الله ، ويقتضى من المشتغل به علما بدخائل اللغة وتمكنه من جميع أبوابها ؛ فهو مطالب بأن يعرف معانى الكلمات واشتقاقاتها وإعرابها ، وكيفية تركيب الجمل ، الى غير ذلك . وإن الباحث فى هذه العلوم ليجد لذة فى دراسة اللغة العربية ؛ لأنها فضلا عن كونها لغة واسعة ، فان المتعمق فيها يجد مجالا كبيرا لدراساته ، وهى تتيح له كذلك فرصة لتوسيع مداركه وتشغيل عقله وفكره ، لكثرة ما فيها من مباحث وفصول . وقد أدت دراسة القرآن الكريم الى إنشاء علوم ؛ منها علم المعانى الذى يتمشى الى جانب تقاليد الإسلام ، ولو أن هناك علوما أخرى لها علاقة شديدة بكل هذه الأبحاث ، مثل علم القراءات وعلم الكتابة ، إلا أننا لسنا فى حاجة الآن الى ذكرهما لبعدهما عن أغراضنا .

ولتفسير كتاب الله ينبغى على من ينبرى له أن يكون ملما علاوة على تعمقه فى علوم اللغة بشروح الأقدمين ، دارسا للمسائل التى أقدم عليها المجتهدون الأولون خاصة ؛ تلك الجماعة القديرة التى كانت تتجمع وتلتف حول النبى ، والتى كانت تحفظ كلامه وأحكامه ، والتى كانت تنقل كذلك عن صحابته وعترته . ومن هنا ظهر علم الحديث الذى يتضمن دراسة كلامه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أفعاله هو وأنصاره وصحابته . ثم جمعها وتبويبها ، واستخراج المعانى السامية من مدلولاتها ومراميها .

والاسلام فى هذا يسهم بقسط وافر فى الاستقراء والبحث العلمى والتاريخى ، وقد سار التاريخ قبل الاسلام الى جانب الخرافة ، واندمج الواحد فى الآخر فى شكل إن ظهر للباحث جميلا وسهلا إلا أنه كان أمرا ليس الى غيره سبيل ، وقد خرَّج المسلمون من كل تلك العلوم والابحاث مادة جديدة وعلما آخر بنى على دعائم قوية من حرية البحث والاجتهاد فى التأويل هو علم «النقد الخارجى» الذى راحوا بواسطته يتقصون عن مصدر الحديث وعمن نقله وعن طريق من حدث هذا النقل حتى يصلوا فى آخر الأمر الى الحقيقة فتطمئن قلوبهم . وكما أننا ندرس اليوم ونعالج العلم الذى نطلق عليه اسم علم « النقد الداخلى » فإن المسلمين

منـذ قديم الزمن عرفوا قواعده وأصـوله فعالجوه معالجـة دقيقة ، وأسموه « الناسخ والمنسوخ » .

ومن هذا يتبين أن علوم الإسلام ماهى إلا علوم نشأت بطبيعتها ، وفى شكلها الموزون المتناسق من الـكتاب الـكريم ، وقد بنيت على نصوصـه وأحكامه التى لا تقبل جدلا ولا مناقشة ، وعلى هـذا تـكون كل هذه العـلوم المختلفة مستنبطة من القرآن الـكريم ، وكلها تجرى حسب طريق خاص تعمل وتسـاعد الإنسان على شق طريقه فى الحياة وتوجيه أعماله وتصرفاته فى سهولة ويسر ، وفى طمأنينة وسلام .

ومع هذا التناسق والتوازن فى العلوم الإسلامية المستنبطة من القرآن الـكريم والسنة الشريفة ، فهى لم تغلق الباب أمام المسلمين ، ولم تؤد بهم الى مسلك واحد ولا إلى نظرية واحدة غير متغيرة ، ولا إلى تفـكير على نسق منتظم ، بل تركت باب الاجتهاد مفتوحا للتأويل والتخريج ، كما نرى فى علمى الكلام والتصوف .

ويقارن علم الـكلام بـ Scholasticism لأن علم الكلام يطبق العقل على العقيدة ويقرب بينهما ، أما التصوف فهو العلم الذى يبحث عن الحقيقة فى علاقة الفرد بربه ، وعن تلك الأسرار الغامضة التى ظلت مغلقة دون العقل البشرى ، والتى يحاول هـذا العلم الوصول إليها عن طريق التجرد ، وكلا العلمين يقوم على نظريتين مختلفتين من حيث النظر إليهما عن طريق عـلم ما وراء المـادة ، هما : نظرية الذرة Atomisn ونظرية الوحدة Monism .

فنظرية الذرة فلسفة تقول بأن العالم مـكون من ذرات صغيرة غـير قابلة للتجزئة (الجزء الذى لا يتجزأ) ولا يقصر القائلون بهذه النظرية فرضهم على الفضاء ، بل يتعدون بنظريتهم الى الزمن فيقولون بأنه جزء لا يتجزأ ، وعلى هذا تنفى هذه النظرية نظرية الاستمرار والبقاء ، لأن العالم كله مكون من ذرات من الفضاء تبقى لوحدة معينة من الزمن . وقد اتخذ علم الـكلام هذه الفلسفة موضوعا لقاعدته . وكثير من المشتغلين بهـذه العلوم لا يزال يعتقد بوجودها إن لم يكن عملياً فعن طريق الفرض والتخمين . وتطبيقاً لهـا تنتفى نظرية السببية ، وتفسـح للنظرية الأخرى القائلة « بالخالق فى كل وقت » مكانا آخر .

أما النظرية الأخرى فتقول بالوحدة الكاملة ، وتنص على أن العالم كله وحدة فى نفسه ، وهذا ما يعالجه علم التصوف وما يتخذه له فكرة إن بعدت عن التحقيق المادى إلا أنها تقرب كثيرا من الفرض النظرى ، وتهتم هذه النظرية بنظرية السببية . ودراسة التغيير والتبديل أمر أساسى بينما لا يعترف بهما علم الكلام .

وهنا لا يسع الباحث إلا أن يلمس التناقض الفلسفى البين الذى يتضمنه دين واحد . والحديث فى هذا الصدد يجرنا الى التحدث الى شبيبة الإسلام ، خاصة الى هذا الجيل الذى يريد أن يتحرر من ربقة التقاليد الموروثة والمعرفة القديمة ، محاولا التنصل منها واعتناق مايطلقون عليه اسم « الحرية الفكرية والتقدم الفنى » .

وقد تشعبت الآراء فى الحكم على تاريخ أوروبا منذ عصر النهضة ، ولكن الحقائق تدل على أن فصل الكنيسة عن الاهتمام بالشئون الدنيوية والتحلل من عبودية التقاليد كل هذا غيّر من نظرة الناس الى حقائق الحياة . وعند ما تحررت العلوم من رقابة الكنيسة وترك للباحثين حرية الدرس وإبداء الفكرة ، طفرت هذه العلوم الى أعلى ، وانفسح أمامها طريق النقد والجدل والنقاش . وإذا أضفنا الى هذا ظهور الوعى القومى ونهوض الفرد من السبات العميق والهوة الساحقة التى دفع اليها دفعا ، عرفنا مدى النجاح الذى أصابته المعرفة ، ومدى التقدم الذى وصل اليه العلم . وقد أدت كل هذه المعارف الى نشوء فكرة « الأمة » و « القومية » وراحت الدول ينافس بعضها البعض الآخر ، وحينئذ تحللت العرى التى تربط هذه الأمم بتقاليدها السابقة ، وراحت ترى فيها شبحا مخيفا يغل يديها ويضع القيود فى قدميها ، وعند ما بدأت هذه الأمم الأوروبية فى ابتعادها عن تقاليدها وبالتالى عن تتبعها أحكام دينها ، ابتدأت مدنيتها المسيحية فى الزوال ، لأن المدنية تقوم على أسس ثابتة من الدين .

ولما بدأت الأفكار الأوربية هذه تتحول شيئا فشيئا الى عالم الدنيوية ، وأتيح لمجال الفكر والثقافة فى تلك القارة أن يتسع تدريجا ، وأن يتخذ وجهات متعددة مختلفة ، أصبح صعبا على الرجال ذوى الطوايا الطيبة أن يحتفظوا بذلك المستوى الاجتماعى الرفيع الذى كان يكفله تمسكهم بأهداب الدين ، ومن ثم

بالمدنية ، كما ذهبت مساعيهم فى سبيل ذلك وفى سبيل استقرار النظام والأمن العالمى أدراج الرياح .

ونتيجة لهذه الاتجاهات الحديثة استطاع الأوروبيون أن يخلقوا هيئات سياسية ، وهياكل قانونية ، لكنها كانت هيئات ينقصها الروح ، وتنقصها العقيدة ، فهى كالجسم بلا روح .

ويخيل الينا أن الإسلام قد خطا خطوة نحو هذا السبيل ، ولكن الإسلام منذ بدئه لم يضطهد العلماء ولم يضع القيود والعراقيل أمام البحوث العلمية ، كما أنه لم يكن هناك كنائس تقف عثرة فى وجه التقدم العلمى وفى إعمال الفكر وإبداء الرأى ، بل على العكس من ذلك كان باب الاجتهاد مفتوحا أمام العلماء ، ولكن ران على أعين المسلمين سبات عميق بعد أن مر عليهم أجيال عدة زاهرة زاخرة بشتى الفنون ومتنوع الحضارات ، وراحوا فى غفلتهم يحلمون بتراث الماضى وبالمجد الغابر ، بعد أن أوصدوا دون ذلك باب الاجتهاد والفكر ، وأصبح عملهم منصبا فقط على شرح الكتب القديمة أو إضافة شرح الى شرح . والكتب فى هذا الباب كثيرة جدا تحاول أن تفسر وتعرف بالدين الإسلامى الحنيف ؛ ولكنها — وهو أمر يؤسف له — ما كتبت إلا لتوضع على الرفوف ، وأصبحت بعيدة التداول إلا عمن تخصص بها وأصبحت شغله الشاغل ، وأصبحت أكثر من ذلك كتبا عتيقة لا تتمشى مع مقتضيات العصر ، ولا تتوافق مع الاتجاهات الاجتماعية أو الاقتصادية التى ظهرت فى القرن العشرين .

منتهى الجود

قال بكر بن الفطاح :

أقول لمرتاد الندى عند مالك ... تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه ... فأسدى بها المعروف قبل عداته
فلو خذلت أمواله جود كفه ... لقاسم من يرجوه شطر حياته
وإن لم يجز فى العمر قسم لمالك ... وجاز له أعطاه من حسناته
وجاء بها من غير كفر بربه ... وأشركه فى صومه وصلاته

الجنة للمرأة الصالحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل عجلان
المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .

من أنعم الله علينا أن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها ، وتطيب بها حياتنا ، ويهدأ بالنا ، وتقر أعيننا بالراحة إن تعبنا ، وبالاطمئنان إن اضطربنا ، وبالرضا إن ضقنا ، وبإشاعة البشر إن خيمت الآلام ، وبالتعاون على إقامة الأسرة ، وتكوين البيت ، وتنشئة الأبناء .

بذلك جرت سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولقد عُنى الرسول صلوات الله عليه بتوجيه الناس كافة ، وأمته خاصة ، إلى دعم حياة الزوجية ، وإقامتها على أواصر الأخلاق وروابط المودة ، وآيات الإخلاص ، وتبادل المحبة الصادقة الخالية من شوائب الأثرة الماحقة والاستغلال المرهق .

ومن يتتبع توجيهات الرسول يجدها مثلا عاليا ، وهديا يرشد الأزواج الى هناءتهم ، ما دامت سنة السكون فى أنفسنا .

وإذا كانت حياة الأسرة أسست من أول يوم على (الزوجة) و (الزوج) ، والله جلت حكمته جعل تلك الرابطة من شعائر دين كرَّه إلينا العدول عن تبعات الزواج والإنجاب وحفظ النوع . . . فإن الرسول وجه الزوجة إلى أدب الزوجية ، وأرشدها إلى رعاية حقوق الزوج ، لأنها أداة النعمة التى تتم على من يسره الله للخير وعرفان حق (الزوجة) ، فرزقه امرأة صالحة نافعة .

روى عن رسول الله أنه قال : « خير ما يكنز الرجل المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى عرضها وماله » .

وفى حديث آخر « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » . وبذلك كان على الزوجة أن ترعى الله فى نفسها وزوجها ، وأن تبذل جهدها فى أن تظل برداً وسلاماً ، وروحا وريحانا ، وأن تؤدى حق الله وحق زوجها ، فلا تثقل عليه فى مطالبها ، ولا ترد له رغبة ماوسعتها إجابته ، ولا تجهم له ولا تفشى سره ، ولا تظهر حاجته ، ولا تهمل أمره ، ولا تجعل منه مورد مال تنفقه على رغباتها الكمالية وتسد به دواعى ميلها إلى مظاهر البذخ والإسراف فى الزينة الخارجة والمضرة بحفاظ الأنوثة .

والمرأة التى تبذل طاقتها فى توفير الراحة لزوجها ، وإدخال السرور عليه ، وتخفيف أعباء الحياة ، ودفع المآزم عن نفسه ، ولا تكلفه مالا طاقة له به من مال أو جاه أو مظهر ، ولا تعصى له أمرا ما دام لا يجنح الى معصية أو تبذير — هى خير الزوجات ، وهى التى عناها النبى حين سئل : أى النساء خير ؟ فقال : « التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها » .

فمن واجب الزوجة أن تؤمن بأن أول الناس وأولاهم بالطاعة هو الزوج ، وأن حقه أعظم الحقوق .

سألت السيدة عائشة رضوان الله عليها رسول الله « أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ فقال : زوجها » . . . .

فليس للزوجة أن تنسى ما جعل الله للرجل من قوامة ، وما مكن له من تصريف الأمر فى شئونه وشئونها ، وشئون الأسرة والأولاد .

ولا تنافى طاعة الزوجة لزوجها مالها من رأى فى أمر حياتهما الزوجية ، فأمر البيت شورى ما تعلق العمل بالمرأة ، وما كان الخير معقوداً بأناملها الصناع ، وما دامت تبث الرحمة وتجرى على الرفق والدراية والعناية بحالها وحال زوجها ومن لها عليهم الرعاية المنزلية .

وقد تعلو مسئولية الزوجة فى بيتها على مسئولية الرجل فى جوانب لا يحسنها الزوج ، وهى التى إن شاءت جعلت المنزل جنة طيبة ، وإن تمردت ردت تلك الجنة

جاحما يفر المرء منه إن خلعت عنها رداء الشكر والرضا بما قسم الله وما وهب من حظ .

والله هو المعطى ، وهو الذى قسم معيشة الأزواج والزوجات ، فمنهم الغنى ، ومنهم الفقير ، ومنهم القوى ، ومنهم الضعيف ، ومنهم الجميل ، ومنهم القبيح .

وما على الزوجة إلا أن تكون مع زوجها راضية على الحالات جميعها . فان الرضا يرد الفقر غنى ، والضيق سعة ، والشدة رخاء ؛ وتلك آيات المودة ودلائل الإخلاص ، ومعانى الزوجية الصالحة التى أسسها الله على رعاية الحقوق ، والقيام بالواجبات .

أما الزوجة المتمردة على الواقع ؛ والتى لا ترضى بحظها وحظ زوجها ، وتشغل البيت بالآراء المخالفة ، والرغبات النزقة ، والميول المثيرة ، فهى الزوجة التى لا ينظر اليها الله تعالى ؛ لأنها لم تقدر نعمة أنعمها المولى من رحمته ، ومن تهيئة الاستقرار لها فى ظل بيت ، وتحت راية علاقة تريحها من نظرات الناس اليها وهى عاطل من الزوج ، أو قعيدة فى بيت أهلها . أو عالة على ذويها ، أو كادحة عاملة ناصبة تشقى بتحصيل قوتها ، آبقة من مستقرها الجميل ، وعشها الهادىء ، وتكوين البيت وتنشئة الأبناء .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغنى عنه » .

ليس معنى طلب الطاعة من المرأة لزوجها أن تنساق وراء رغبات الزوج أيا كانت من الجموح ! فإنه « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » بل على الزوجة الطاعة فيما أحل الله . فإذا جنح عن الاعتدال كان على الزوجة أن تقومه ما استطاعت حتى تجنى من وراء ذلك سعادة الدارين : الدنيا ، والآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم . وبهذا العمل يكتب لها دخول الجنة متى أدت حقوق الله ، وكان حقاً على « الغفور الرحيم » أن تدخل من أى أبواب الجنة شاءت .

قال عليه الصلاة والسلام : « أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة » .

العصر العظيم
فى تاريخ العالم

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

وحدث نفس الأمر مع جوتامو ، الذى كان تبشيره قد مهد له التقدم الروحى السابق مبتدئاً « بالعصر الفيدى Vedic Age » (١) ومنتهياً بملل متعددة متباينة حملته على ترك منزله ، وقد تزايد عدد تلامذته منذ ألقى خطبته الأولى فى بنارس ، وكان يحيط به خلق كثير من المؤمنين به كلما حل فى مكان أثناء ترحاله من مكان إلى آخر ، كانوا يتركون دورهم وأهلهم ليتبعوه ، ولم يقتصروا على سماعه فحسب ، وإنما غدوا من أكبر معاونيه فى بناء الدين الجديد .

ورحب زردشت بحماية الملك له ، وإن انتشار النظرية الجديدة فى إيران لخير مثل يضرب للنشاط الناشىء عن اشتراك عدد كبير من الناس فيه .

أما فى اليونان فإن فيثاغوراس لم يكن معروفا معرفة الفيثاغوريين ، فكثير من المؤلفين تحدثوا عن المدرسة لا عن رئيسها ، لسبب واضح بسيط هو : صعوبة التحدث والتمييز بين ما عمله المؤسس وما قام به التلاميذ .

وعلى ذلك فعلينا ألا ننظر الى كل من هذه النظريات العظيمة على أنها عمل فردى قام به فرد عظيم فحسب ، بل لعل من الأفضل أن ننظر إليها على أنها عمل

---

(١) نسبة الى كلمة Vedas . وهى كتب الهندوس الأربعة المقدسة ، مكتوبة باللغة السنسكريتية عن وحى براهما . وهى ا ـ ريجفيدا Rigveda أى كتاب الأناشيد والشكر ، ب ـ ساما فيدا Samaveda أى كتاب الأغانى والألحان ، ج ـ ياجورفيدا Yajurveda أى كتاب الصلاة ، د ـ أثارفيدا Atharaveda أى كتاب التعاويذ السحرية . ووضعت لها شروح أشهرها بوراناس Les Bouranas وسوتراس Les Soutras . والاسم من فيدا : فيدانتا أى نظام الفلسفة الهندوسية المبنى على الفيداز . والكلمة سنسكريتية : فيدا : معرفة وفيد : يعرف . [المعرب] .

لعصر عظيم. وعلى ذلك تصير المسألة التى تطلب حلا ، ليست عن تعاصر الحكماء الأربعة العظام ، وإنما هى عن تعاصر أربعة عصور عظيمة كانت توجد معا فى القرن السادس قبل الميلاد . فهل من الممكن أن نقبل أن مثل هذا الوجود فى نفس الوقت — لهذه العصور العظيمة - يمكن تفسيره بأنه كان مجرد تصادف ، دون ترابط داخلى ؟ يجد المؤرخ نفسه — إذا اتبع وجهة النظر هذه — مضطرا إلى النظر إلى الأحداث الأربعة المحلية المنفصلة من وجهة نظر عامة باعتبار أنها : نواح أربع لوحدة أعظم ، لحادث عالمى واحد عظيم .

وليس بُعد الحوادث المنفصلة الواحد عن الآخر - بأى حال - أمرا حاسما . فثمة أمثلة كثيرة من علم الآثار أو التاريخ [حفرية وتاريخية] تدل على وحدة الحوادث فى أغلب أماكن الأرض البعيدة بعضها عن البعض . فالعصر الحجرى الأخير فى الشرق الأقصى لم يكن له نفس السمات ، فحسب ، التى كانت لنفس العصر فى أوربا ، ولكنه كان ، فوق ذلك ينتمى الى نفس الوقت . ودخلت الزراعة ورعى الأغنام ، معا وعمليا ، فى بلاد الصين وفى المغرب الأقصى من العالم القديم . كما أن الزراعة انتشرت فى الصين فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وطبقت تطبيقا عمليا فى إيران . وظهر البرونز فى وقت واحد فى أبعد أماكن الأرض بعضها عن البعض . بل إن المبانى الحجرية الضخمة (1) بنيت على شواطىء الإطلنطيق ، والباسفيكى فى نفس الوقت تماما ، فى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد . أما الأسلحة والآلات الحديدية فقد ظهرت فى أوربا وفى الصين فى نفس العصر ، فى نهاية الألف الثانى ، أو بداية الألف الثالث قبل الميلاد . ومن الواضح أنه كانت توجد رابطة ما ، ربطت بين الناس فى العالم القديم قبل عصر السكك الحديدية والتلغراف .

وعلى ضوء هذه الحقائق نجد أن تعاصر مسارح التقدم الروحى ليس محض اتفاق غريب ، ولكنه نتيجة طبيعية لتعاصر وقوع الحوادث ، ذلك التعاصر الذى ساد تاريخ الثقافة البشرية .

---

(1) Mehrins, dolmens, megathletic constructions.

وإذا افترضنا سببا عاما لأجل تعاصر النظريات الإنسانية الكبرى ، فإنه يمكن استكشافه فى مجرى الحوادث التى حدثت معها . وأول حادثة كان لها أهمية عميقة عظيمة هى : استخدام الحديد ، وكم تبدو عظمة هذه الحادثة من الناحية المادية رائعة . ويجب أن نفترض أنه لم يكن ثمة شىء آخر كالحديد كان قائد « سيمفونية » هذه النظريات الكبرى . فإن انتشار الحديد قد سبب ثورة - ولا ريب - فى الحياة القديمة . فانه إن كان البرونز - الذى سبق اكتشافه اكتشاف الحديد - نادرا ، وإن كانت الآلات الحجرية استعملت فى كل مكان خلال عصر البرونز ، فإن الحديد الذى انتشر بسرعة ، والذى كان يسهل الحصول عليه ، قد حل مكان الحجر والبرونز معا ، وصار الدعامة الحقة لحياة البشر المادية . وخلقت الأدوات الكثيرة الجميلة السهلة الموافقة لكل نواحى الحياة ، خلقت عصرا جديدا ، بحق ، فى الثقافة المادية ، مؤثرة على كل أوجه العمل : الزراعة ، وقطع الأحجار ، والبناء ، والسفن ، والحرب . بل إن العمل بالآلات الحديدية قد زاد الانتاج وأثمر كثرة ورخاء ، وهى أمور لم تكن كلها معروفة من قبل . ونتج عن المحافظة على الخامات ، تنافس بين القوى المبتكرة فى الروح البشرى . وعلى ذلك كان تماثل الثقافة المادية فى العالم كله فى العصر الذى تلا استعمال الحديد ، هو السبب الأول العام لتماثل الحياة الروحية .

من الغنى

قال رجل لابراهيم بن أدهم يا أبا إسحق كنت أريد أن تقبل منى هذه الجبة كسوة . فقال له ابراهيم : إن كنت غنياً قبلتها منك ، وإن كنت فقيراً لم أقبلها منك .

قال الرجل : فإنى غنى .

قال ابراهيم بن أدهم : وكم مالك ؟ .

قال الرجل : ألفا دينار .

قال ابراهيم : فأنت تود أنها أربعة آلاف .

قال الرجل : نعم .

فقال ابراهيم : فأنت تود أنها أربعة آلاف ؟ قال : نعم .

فقال ابن أدهم : فأنت فقير ! لا أقبلها منك !.

كافحوا الفقر

زكاة الزرع (*)

لفضيلة الشيخ فهيم سـالم المليجى
المدرس بمعهد القاهرة

المادة العشرون : إذا نتج للزارع من زرعه نصاب وهو ألف وستمائة رطل ، أوخمسون كيلة بالكيل المصرى ، وجبت عليه الزكاة .

المادة الحادية والعشرون : يشترط أن يكون الناتج طعاما يقتات ويدخر .

المادة الثانية والعشرون : ذكر الفقهاء من الأطعمة التى تجب فيها الزكاة الأصناف الآتية : القمح ، الذرة ، الشعير ، السُّلْت ، الدخن ، الأرز ، العلس ، الفول ، البسيلة ، اللوبيا ، الحمص ، الترمس ، العدس ، الجلبان ، الزبيب ، التمر ، الزيتون ، السمسم ، القرطم ، حب الفجل الأحمر ، اللوز ، الجوز ، الفستق .

المادة الثالثة والعشرون : إذا نتج من قمح وشعير وسلت القدر المتقدم ، من أحدها أو جميعها ، وجبت فيه الزكاة .

المادة الرابعة والعشرون : جميع أنواع الذرة جنس واحد يضم بعضها لبعض إذا بلغ من جميعها أو أحدها نصاب ، وجبت فيه الزكاة .

المادة الخامسة والعشرون : تضم القطانى السبع بعضها إلى بعض ، فإذا بلغت جميعها نصاباً وجب فيه الزكاة ، وهى : الفول ، البسيلة ، اللوبيا ، الحمص ، الترمس ، العدس ، الجلبان .

المادة السادسة والعشرون : كل من الدخن والأرز والعلس والذرة والزبيب والتمر إذا بلغ من كل على حدته نصاب وجبت فيه الزكاة وإلا فلا .

المادة السابعة والعشرون : فى السمسم والقرطم والزيتون وحب الفجل الأحمر الزكاة إذا بلغ من أحدها أو من جميعها نصاب .

(*) بقية المقال المنشور فى عدد صفر من هذا العام .

المادة الثامنة والعشرون : أهمل الفقهاء بذر الكتان والقطن والخس فلم ينصوا على الزكاة فيه . وأستحسن وجوبها ، فإن العلة التى هى الاقتيات والادخار منطبقة عليها وهى مصلحة الفقير .

المادة التاسعة والعشرون : كل من التين والمشمش الحموى والهندى والقراصية فيه الزكاة إذا تم النصاب ؛ لأنه يقتات ويدخر ، استحسانا ، لمصلحة الفقير .

المادة الثلاثون : ما بيع قبل جفافه كالعنب والتين البرشومى والفول الأخضر والبلح تخرج الزكاة من ثمنه نقودا .

المادة الحادية والثلاثون : تخرج الزكاة من زيت ذوى الزيوت أو منها إذا بيعت قبل العصر إن بلغ حبها نصابا ولو لم يبلغها زيتها .

المادة الثانية والثلاثون : ليس فى الفواكه والخضروات زكاة لأنها لا تقوم بها البنية ولا تدخر ، كالبرتقال والتفاح والرمان والقثاء والبطيخ ، إلا أن تكون عروض تجارة .

المادة الثالثة والثلاثون : فى الجوز واللوز والبندق والصنوبر والفستق زكاة لأنها تقتات وتدخر كما قال الإمام (أحمد) .

المادة الرابعة والثلاثون : الزكاة التى تخرج من هذه الأصناف (العشر) أى عشرة فى المائة إذا سقيت بالسيح بلا آلات . (ونصف العشر) إن سقيت بالآلات . وإذا سقيت عدة مرات بالآلات وعدة مرات بالسيح فالحكم للأغلب . وإن تساويا كان الواجب إخراج ٧½ ٪ .

المادة الخامسة والثلاثون : إذا غرس الزرع مع وجود زرع آخر متقدم عليه للمالك فى الأرض ضم الناتج المتأخر الى المتقدم وأخرج من الجميع الزكاة إذا تمت نصابا واتحدا نوعا .

المادة السادسة والثلاثون : لا يسقط الدين زكاة زرع وماشية عن المدين إن ملك نصابا ولو أنه كراء الأرض المزروعة .

المادة السابعة والثلاثون : يشترط فى إخراج زكاة الزرع حصاده وجفاف التمر والزبيب والتين والمشمش إلا إذا بيع أخضر كما تقدم .

فصل فى زكاة الأنعام

المادة الثامنة والثلاثون : تجب الزكاة فى الأنعام التى هى الإبل والبقر الضأن والمعز . ولا تجب فى غيرها من الدواجن كالطيور والأرانب ، ولا فى الدواب كالخيل والحمير والبغال عند (مالك) .

المادة التاسعة والثلاثون : فى كل خمس من الإبل (شاة) حتى تبلغ عشرين ففيها (أربع شياه) ، وفى خمس وعشرين (بنت مخاض) وهى التى طعنت فى السنة الثانية ، وفى ست وثلاثين (بنت لبون) وهى التى طعنت فى السنة الثالثة ، وفى ست وأربعين (حقة) وهى التى طعنت فى الرابعة ، وفى ستين (جذعة) وهى التى طعنت فى الخامسة .

المادة الأربعون : إذا حاز المالك ثلاثين من البقر والجاموس أو منهما معا فعليه (تبيع) ، وهو ما أوفى سنة واحدة . فإذا حاز أربعين فعليه (ثنية) ، وهى ما تمت سنتين وطعنت فى الثالثة ، وفى كل ثلاثين تبيع أو تبيعة ، وفى كل أربعين ثني أو ثنية .

المادة الحادية والأربعون : إذا حاز المالك أربعين من الضأن أو المعز أو منهما فزكاتها (شاة) بلغت عاما وطعنت فى الثانية سالمة من العيوب . فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ، ففيها (شاتان) وتؤخذ من الغالب منهما . فإن تساويا يعتبر غالب غنم البلد ، وإن تعدد الواجب أخذ من كل بحسبه .

المادة الثانية والأربعون : يشترط فى زكاة الماشية تمام الحول كزكاة الذهب والفضة .

الباب الثانى فى مصرف الزكاة

المادة الثالثة والأربعون : تؤخذ الزكاة ممن ملك نصابا بالشروط السابقة . وتصرف كما يأتى :

أولا : الفقير : الذى لا يملك قوة عام ، ويحسب مافى حيازته من مواش وعقارات إذا بيعت لا تفى بنفقته عاما واحدا .

ثانيا : المسكين : الذى لا يملك قوة يوم .

ثالثا : العاملون عليها : وهم الجباة الذين يجمعون الزكاة من الأغنياء والكتاب والحمالون والكيالون .

رابعا : المؤلفة قلوبهم : وهم الذين أسلموا حديثا وإن كانوا أغنياء إذا خيف ارتدادهم عن الإسلام .

خامسا : فى الرقاب : أى يخصص قدر من مال الزكاة يشترى به عبيد ويعتقون ، ويعان منه المكاتبون للوصول الى الحرية .

سادسا : الغارمون : وهم الذين فى ذمتهم دين يعسر أداؤه .

سابعا : المجاهدون فى سبيل الله : وينبغى أن يقيد بما إذا لم يكن له رصيد فى بيت المال .

ثامنا : ابن السبيل : وهو المسافر الذى لايجد ما لايوصله إلى وطنه ، ولو كان غنيا يعطى ما يوصله إلى وطنه من مال أو راحلة .

المادة الرابعة والأربعون : يبدأ فى صرف الزكاة بالفقراء والمساكين من كل بلد فيها أغنياء أخذ منهم الزكاة فإذا فاض عن فقراء البلد ينقل إلى ما يقاربها .

المادة الخامسة والأربعون : يشترط فى آخذ الزكاة أن يكون حرا مسلما ، غير هاشمى ، لا تجب نفقته على غنى .

المادة السادسة والأربعون : إذا كان مخرج الزكاة لا يكفيه مابقى من ماله قوت عامه ، جاز له أن يأخذ من الزكاة كفايته بعد أن يخرج ماعليه من الزكاة ، ولا يجوز له إحرازها بحجة الفقر .

المادة السابعة والأربعون : لا تعطى الزكاة لمن تجب عليه نفقته كزوجة أو ابن صغير أو عاجز عن الكسب ، ولا تعطى الزوجة لزوجها زكاتها .

المادة الثامنة والأربعون : ينبغى أن تشكل فى كل بلد لجنة من أهلها الصالحين المعروفين بالتقوى وقول الحق يرأسهم مندوب من موظفى الحكومة يشترط أن يكون عالما ، وتكون مهمة تلك اللجنة أخذ الزكاة من أغنيائها وأدائها إلى فقرائها .

المادة التاسعة والأربعون : تشكل لجنة فى كل حارة من حارات المدن على غرار اللجنة البلدية السابقة الذكر .

المادة الخمسون : تشكل لجنة على غرار اللجنتين السابقتين فى كل قبيلة أو فرقة من العرب سكان البدو .

المادة الحادية والخمسون : ينبغى أن يكون فى كل بلد أو حارة أو قبيلة مصرف يخزن فيه ما زاد عن حاجة أهله للطوارىء التى تطرؤ على الفقراء .

المادة الثانية والخمسون : لا بأس بالإنفاق على الملاجىء ودور العجزة التى تشرف عليها وزارة الشئون الاجتماعية من مال الزكاة إذا فضل عن الفقراء المتوطنين فى أوطانهم ، وإلا فيكتفى بالانفاق عليها من اعتمادات الحكومة لها فى بيت المال .

المادة الثالثة والخمسون : لا تجبى الزكاة الى بيت المال العام ثم يوزع على الفقراء منها ؛ لأن ذلك عسير ويعسر معه إيصال الحقوق الى أربابها ، بل توزع فى أماكنها ، كما تقدم .

المادة الرابعة والخمسون : تنفق الزكاة من الأموال المجباة من الأغنياء للفقراء على حالها ، فلا يتصرف فيها ببيع أو استبدال بحجة أنه أنفع للفقراء ، لئلا تمتد إليها يد الفساد .

المادة الخامسة والخمسون : تضع الحكومة نظاما يعرف به مقدار ما يستخرجه الزارع من زرعه وما يملكه من مال أو مواش .

المادة السادسة والخمسون : تساعد الحكومة كل بلد لم تكف زكاة أغنيائها فقراءها بأمداد من المال حتى يستطيع الفقراء أن تشق سبيلها فى الحياة .

المادة السابعة والخمسون : تجمع الحكومة أموال أغنياء الشعب جميعها فى مصرف واحد لتتمكن من إخراج زكاتها و تقرض المحتاجين منها قرضا حسنا بلا فائدة .

المادة الثامنة والخمسون : يفتح فى كل بلد مصنع أو عدة مصانع من مال الأغنياء ليشتغل بها الفقراء العاطلون ويعطون أجرا ، والربح للأغنياء ، وتضمن الحكومة هذه الأموال ونتائجها لأربابها .

« وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم » .

الحضارة البشرية

مصيرها وأهدافها وأثر الحضارة الاسلامية فيها

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى

الأستاذ بكلية اللغة العربية

بدأ الانسان حياته غريبا على الأرض ، حائرا فى فهمها وكيف يعيش فيها ، مسخرا للأوهام وما هو أقوى منه من حيوان وإنسان ، وأخذ يتنقل من مرحلة الى مرحلة ، ويرقى بحياته وبنفسه خطوة خطوة ؛ وبعث الله اليه المرسلين والأنبياء يرشدونه ويهذبونه ، ويجعلونه أهلا لأن يكون خليفة الله فى أرضه ؛ وختمت الرسالات برسالة محمد صلوات الله عليه ، وهى الرسالة التى كان لها أثرها العميق فى الحياة والحضارة والرقى البشرى العام .

على أن المفكرين كانوا يتجهون بعقولهم الى هدف مشترك هو التمكين للإنسانية والحضارة فى الأرض .

وهكذا أظل العالم حضارات متعددة خلال الأجيال القديمة ، فمن حضارة صينية الى حضارة هندية وفارسية وفرعونية ، إلى الحضارة الأغريقية ، والرومانية ، ثم كانت الحضارة الاسلامية ، التى قامت على أساسها الحضارة الاوروبية الحديثة .

ولكل حضارة من هذه الحضارات ميزاتها وخصائصها . وإن كان الطابع البارز للحضارة الاسلامية هو تقديس حرية الفكر ، وإعزاز حرية الإنسان وكرامته ، وتشجيع المعرفة والنظام ، والمساواة بين الناس جميعا فى ظلال إخاء شامل وعدل تام ، وروحانية جميلة ، واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

ولقد استمدت الحضارة الأوربية الحديثة من الحضارة الاسلامية أصولها الفكرية والعلمية العامة ؛ وسارت على ضوئها فى ميدان الفنون والآداب والعلوم، ثم بذتها فى ميدان الابتكار والاختراع وكشف أسرار الكون وما أودعه الله فيه من قوى وخصائص، مما شمل أثره العالم جميعه، وأدى الى اكتشاف البخار والكهرباء والذرة وسواها من معجزات العقل البشرى التى غيرت مجرى الحياة والحضارة . . .

ومع هذا التقدم الإنسانى العظيم فقد تنكرت الحضارة الحديثة للمبادىء والأخلاق والدين والفضائل الإنسانية والمثل الرفيعة، واعتزت بماديتها الطاغية وحاربت الأمن والسلام، وجعلت بعض الناس أعداء لبعض، وقوت نزعات الطمع والاستبداد والاستعمار فى نفوس الناس والأمم ؛ حتى أصبح الغرب موطن الماديات بألوانها وعنفها كما كان الشرق موطن الروحانيات بسحرها وجلالها حين كان منبع الحضارة العالمية، ومهبط الإنسانية الأولى .

قضت الحضارة الأوربية على التعاون الإنسانى، ومزقت الناس طوائف وأحزابا وجماعات، وجعلت بعضهم حربا لبعض، واستباحت فى سبيل التنافس على الاستعمار أن تبيد بعض دولها البعض الآخر فى حروب منظمة بالغة من الفظاعة والعنف والقسوة مالا يتصوره إنسان، واستخدمت العلم سلاحا جباراً للفتك والتدمير .

وهكذا رأينا فى الحربين العالميتين الماضيتين أن الانسان يدمر آثار الحضارة بيده، ويحيل المدن والمصانع والمتاجر والقصور ودور الثقافة ونواديها أطلالا بالية، ويحرق بقنابله دور الكتب والآثار والمخطوطات والمتاحف ؛ ويزهق بيده أرواح الملايين من شبان الجامعات وخريجيها، ومن المفكرين والباحثين وأقطاب النهضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية ؛ ويحتكم هذا الإنسان خلال الحرب إلى شرائع ونظم ومبادىء، أقرب إلى نظام الغابة وشريعتها ؛ وأصبح التراث الإنسانى العالمى للأمم والحضارة مهددا بالدمار والفناء، بعد أن ساهمت فى تشييده وبنائه جميع العناصر والشعوب خلال الأجيال الطويلة ؛ ووقفت الحضارة بين مذهبين مختلفين .

الأول : مذهب متفائل يمجد هذه الحضارة الراهنة ، ويرى أنها ثابتة قوية ، تسير فى طريقها لأداء رسالتها من إسعاد البشر والحياة .

والثانى : مذهب متشائم ، مشفق من مصير الحضارة راث لها ولمستقبلها . وبين التفاؤل والتشاؤم ، تقف الحضارة نفسها حيرى ترتقب المستقبل فى خوف وجزع وإشفاق ، فإما تقدم يرضى المتفائلين والممجدين ، وإما تقهقر يصدق قول المتشائمين الذين يرون أن الحضارة قد تغرق فى موج لجى فى المستقبل القريب خلال عاصفة هوجاء من الحرب الذرية المدمرة .

ولست من المتشائمين المشفقين على مستقبل الحضارة ، فسيعيش العالم ، وسينعم بالعيش فى ظلال حضارة مشرقة زاهية ، وستكون هذه الآثار الدامية التى شهدتها الحياة نتيجة لإسراف الحضارة الحديثة فى ماديتها وعنفها وطغيانها وتجردها من كل مقومات الحياة الروحية والأدبية ، سيكون ذلك كله باعثا للمفكرين على أن يحولوا سير الحضارة ، وأن يتجهوا بها وجهة جديدة ، لتؤدى رسالتها العظيمة فى خدمة الحياة وإسعاد الإنسانية .

فالحضارة باقية ، ولكنها ستتحول وتظل فى تبدل مستمر ، حتى تصل إلى أسمى غاية ينشدها المفكرون والمصلحون .

وهذه الرجات الشديدة التى امتحنت بها الحضارة الحديثة ، هى نذير للناس كافة بأن يتجهوا وجهة سامية نبيلة فى حياتهم وتفكيرهم وعيشتهم وألوان اجتماعهم ، وهى مذكرة لهم بخطئهم الذى استعصى إصلاحه والنجاة منه ، والذى جعل الحياة جحيما لا تطاق ، فحرم قتل فرد وأباح قتل أمة ، وحرم سرقة جنيه ، وأباح نهب الملايين من أموال الشعوب المتأخرة بطرق غير مباشرة ؛ ونادى بالمساواة ، ثم قسم الناس إلى ألوان وأجناس وشعوب متقدمة وأخرى متأخرة ؛ وأحاط حرية الانسان بهالة من التقديس ، ولكنه أنكرها على الأمم ، بل على الأفراد حين يهب شعب بطالب بحريته .

بل إن هذه المحن الشديدة التى تكبت بها الإنسانية على يد الحضارة الحديثة هى التى أبانت أفضل إبانة عن قيمة الحضارة الإسلامية ومنزلتها فى تاريخ العالم وأثر مبادئها الحية فى قيادة الإنسانية وتوجيه الحياة وإسعاد الناس والشعوب .

وبعد ، فلا بد من بقاء الحضارة ، والإنسان مصمم على بقائها . ولكن مع ذلك لا بد لها من أن تتحول إلى أهداف أسمى ، وتعمل لمبادئ أعظم ، وتؤمن بغايات أشرف من هذه الغايات التى سارت عليها خلال القرون الماضية والحاضرة ، والحضارة من غير شك فى تحول مستمر ، وتقدم مطرد .

وإذا أردنا أن نتصور بعض الأهداف التى ستدركها الحضارة البشرية خلال المستقبل القريب ، كان لنا أن نقول إن العالم سيتحرر من كل ما قيَّد حريته وحد نشاطه ، وسيتلافى أخطاءه الماضية ، وسيكمل النقص الذى شعر به وأحس بأثره وضرره عليه وعلى الناس :

(ا) فسيصبح بعد حين السلام العالمى حقيقة واضحة لا يجرؤ إنسان أو زعيم أو أمة على أن تشن حربا أو تعلن العدوان ؛ وسيخفت صوت القوة والسلاح ، ويحتكم الناس الى مبادىء العدالة والحق والمساواة والحرية . وهذا أول هدف سعى إليه الإسلام ومحمد رسوله الكريم .

(ب) وستتلاشى الروح القومية لتحل محلها العالمية والإنسانية ، ويعيش الناس فى ظلال تعاون وتعارف كاملين ، ويتحقق أحد الأهداف العظيمة للإسلام ديننا الخالد ، وهو إلغاء العصبيات والفوارق بين الأجناس والطبقات والعناصر ، والإيمان بزمالة إنسانية عامة ، وبالأخوة البشرية الكاملة .

وليس ذلك بعجيب بعد ما سمعنا عن فكرة « الحكومة العالمية » التى يدعو إليها بعض المفكرين .

(ح) وستتحول المبادىء الاقتصادية المتنافسة المتحاربة إلى تعاون اقتصادى عام شامل ينتظم جميع أمم العالم وشعوبه ، وذلك لخير الناس ومصلحة الشعوب ، ولرفع مستوى الحياة فى الأمم المتأخرة ؛ وذلك ما يحقق أهداف القرآن الحكيم ويطابق روحه واشتراكيته العادلة .

(د) وستثب النهضة العلمية فى جميع أمم العالم وثبة عظيمة ، وتشترك فيها جميع العقول والأفكار متساندة متآخية متحابة ، هدفها الحقيقة والبحث

والكشف والابتكار والتجديد فى بناء الحضارة وعناصرها وتنظيمها والسمو بها؛ وذلك أحد المقاصد السامية التى سارت إليها الحضارة الإسلامية .

(هـ) وستبنى الحضارة المقبلة على القيم الروحية والمثل العليا الحقة والفضائل الإنسانية الكريمة قريباً ، مما جاء به الإسلام ، ووفق ما شرعه من مبادىء ومثل وفضائل ، لا تزال موضع اعتزاز الانسانية وفخرها وكبريائها.

(و) وستصبح حرية الإنسان والأمم وحرية الفكر أمورا مقدسة ، لا يمكن أن يفرط فيها إنسان أو يجترىء على العبث بها أحد ، وهذا هو أحد النواميس العظيمة التى جاء بها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد ، فسيجد العالم نفسه فى المستقبل القريب يعيش فى ظلال ألوان من التفكير والمبادىء هى بعينها ما شرعه الله وأرسل به محمدا رسوله الى الناس كافة . ولا يمكن لعقل أن يدرك مدى ما سيطرأ على حياة الناس من تغيير ، تبعا لتغير ألوان الحضارة وأسسها وأهدافها ، ولسيرها بأقصى سرعتها فى سبيل خدمة البشرية كافة . فذلك كله سيكون من المعجزات فى تاريخ الحضارة والانسانية . وما توفيقى إلا بالله .

كلمات حكيمة

الناس مطبوعون على الخطأ ، ولكن الأغبياء مطبوعون على التمسك به .

من القبيح أن نمتنع من لذيذ الطعام لتصح أبداننا ، ولا نمتنع عن القبائح لتصفو نفوسنا .

أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله .

تقرير عن كتاب الفرقان

٢ - ومن ذلك أن المؤلف يعزو اختلاف القراء إلى اختلاف رسم المصحف ، وزعم أنه قد التبس على بعضهم رسم بعض الكلمات بالياء مكان الألف كقوله تعالى « مجريها » و « موسى » و « يحيى » و « الضحى » و « سجى » و « قلى » و « يغشى » و « تجلى » و « الأشقى » و « الكبرى » و « ضحيها » و « تليهما » وأمثال ذلك ، فأراد أن يتوسط بين الألف والياء فأمال (ص ١٢٢) .

وهو يوهم بهذا أن قراءة الإمالة فى هذه الكلمات ليس لها سند من تلق وسماع ومشافهة ، وليست لغة معروفة ، وإنما سندها الرسم فقط ، أى وهو غير حجة فى ذاته ، لأن الصحابة قد تخبطوا فيه ، على زعمه .

٣ — ومن ذلك أنه أورد ما رواه بعض العلماء فى معنى حديث إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقال (فى ص ١٣١) :

« وقد زعم بعض القراء أن معنى حديث : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » هو القراءات السبع . وهذا القول إن دل على شىء فلا يدل إلا على سعة جهل قائليه ، وقلة تبصرهم . قال أبو شامة : ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل . وقال مكى : من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم وأمثالهم هى الأحرف السبعة التى فى الحديث ، فقد غلط غلطا عظيما » .

وهو بهذا يوهم أن القراءات لم ينزل بها القرآن ، وأنها شىء غير الأحرف السبعة التى أنزل الله عليها كتابه ، مع أن الإتقان — وهو فى أغلب الظن كل ما لدى المؤلف من مراجع — يذكر هذه الرواية عن مكى ، ثم يتبعها بقوله ، أى قول مكى نفسه : « ويلزم من هذا أيضا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم ، ووافق خط المصحف ، ألا يكون قرآنا ، وهذا غلط عظيم » (الإتقان ص ١٠١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث الأستاذ الأكبر

مع السفراء والمفوضين السياسيين

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بمكتبه بالإدارة العامة قبل ظهر يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ سعادة سفير فرنسا المفوض ، وبعد أن تبادلا التحية ، قال سعادة السفير : إن علاقة فرنسا الثقافية بمصر ترجع إلى عهد بعيد ، ويود أن تظل هذه الصلات العلمية قوية متينة ، ولاسيما مع الجامعة الأزهرية ، أقدم الجامعات ، ومركز الثقافة الإسلامية .

فقال الأستاذ الأكبر : إن حضارة فرنسا العلمية وأثرها فى التقدم الثقافى أمر معروف ومشهور ، وإنه ليسره أن تتوطد الصلات الثقافية التى بدأت منذ عهد مؤسس الأسرة العلوية الكريمة بين مصر وفرنسا ، كما يسره على وجه خاص أن تقوى الروابط العلمية بين الثقافة الإسلامية وغيرها من ثقافات الغرب ؛ لأنه شديد الإيمان بالأثر الطيب الذى يحدثه تزاوج الثقافات ، وتبادل المعارف العلمية والأدبية .

فقال سعادة السفير : إن فرنسا ندوة علمية معنية بالدراسات الإسلامية ، تقوم على جماعة من المستشرقين ، وعلى رأسهم مسيو ماسينيون عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وهى شديدة الاتصال بالحركة العلمية والثقافية فى مصر . ومسيو ماسينيون معنى على الخصوص ببعثات الأزهر العلمية ، ويوده أن يزيد الأزهر منها .

فقال الأستاذ الأكبر : إن الأزهر جد حريص على أن يتصل بالحياة العلمية فى خارج مصر ، وأن يهيء لطلابه الاطلاع على أحدث الأساليب فى الكتابة والتأليف والبحث العلمى ، وقد وفق الأزهر بفضل توجيه المغفور له الملك فؤاد الى إرسال بعوث من أبنائه إلى فرنسا وغيرها من الدول ، وقد أتم هؤلاء الأبناء دروسهم فى الجامعات الفرنسية ، وحصلوا على أرقى الشهادات ، وعادوا إلى مصر ، والأزهر يستفيد بهم فى كلياته ، وما زال لنا فى فرنسا مبعوثان لم يتما أبحاثهما بعد ، والأمل كبير بفضل رعاية جلالة الملك فاروق ـ حفظه الله ـ أن نواصل إرسال البعوث إلى فرنسا ، وأن نرسل عددا آخر من أبنائنا فى العام القادم ليتحقق ما نرجوه من دوام التبادل الثقافى بين فرنسا ومصر .

فقال سعادة السفير : إنه مسرور بهذه الأنباء ، ويرجو لمصلحة العلم أن تظل هذه الصلات الثقافية قائمة ، وأن يعمل الأزهر على نشر رسائل مبعوثيه باللغتين الفرنسية والعربية ، وأن يتبادلها مع الجامعات ، لتتحقق الفائدة المرجوة منها .

فقال الأستاذ الأكبر : إن تحت يده رسائل قيمة حصل بها مبعوثو الأزهر على درجة الدكتوراه ، وهو بسبيله إن شاء الله الى نشرها وتبادلها مع الجامعات العلمية ؛ وأكد لسعادة السفير أنه حريص على الصلة العلمية ، لما يجنيه العلم من ورائها من عظيم الفائدة .

وسأل سعادة السفير عما قرأه فى الصحف أخيرا من توجيه الأزهر بعوثه إلى البلاد الاسلامية والعربية لنشر العلم والدين : أهو مشروع جديد قيد التنفيذ أم أن الأزهر بدأ فيه فعلا ؟ .

فقال الأستاذ الأكبر : إن اتصال الأزهر بالبلاد العربية والإسلامية اتصالا مباشرا عن طريق مبعوثيه لنشر العلم والثقافة الدينية ، توجيه كريم من توجيهات الملك الصالح فاروق ، الذى يحرص على أن تشمل البلاد العربية والإسلامية وحدة ثقافية وفكرية . وقد قام الأزهر فعلا على تنفيذ هذه الرغبة الكريمة ، وأصبح لنا فى عواصم البلاد العربية من الحجاز إلى الشام والعراق وفلسطين ولبنان بعثات تعليمية مهمتها التعليم ونشر الثقافة ، ولم يقف بنا الأمر عند هذا الحد ، بل أرسلنا

بعثات أخرى إلى أريتريا والصومال وجنوب إفريقية ، ونرجو أن نزيد إن شاء الله عدد هذه البعوث حتى تشمل رقعة العالم الإسلامى كله ، لتتحقق بذلك الغاية التى نهدف اليها ، وهى ربط العالم الإسلامى برباط الأخوة والثقافة .

وسأل سعادة السفير عما إذا كانت بلاد شمال إفريقية والمغرب تدخل ضمن هذا المشروع .

فقال الأستاذ الأكبر : إننا لم نبعث بعد بهيئات تعليمية إلى بلاد المغرب لصلتنا الوثيقة بهم تعليميا منذ زمن بعيد ؛ فإن كثيرا من أبنائهم قد تعلموا فى الأزهر وحصلوا على شهاداته ، ورجعوا الى بلادهم ليؤدوا فيها رسالة الأزهر العلمية والدينية ؛ وفى الأزهر أساتذة من أبناء هذه البلاد ، فضلا عن أن جامع الزيتونة قد قام بدور علمى كبير فى التعليم الدينى . على أننا مع ذلك حريصون على الاتصال بهم وتبادل المناهج العلمية معهم ، ونرجو أن تزداد هذه الصلات توطدا بيننا وبينهم .

وقال سعادة السفير : إن فى المغرب علماء مبرزين ، وإن الحركة الثقافية الدينية الإسلامية كانت وما زالت نشيطة ومزدهرة فى شمال إفريقيا .

فقال الأستاذ الأكبر : إن أنباء الازدهار العلمى تسره دائما ؛ فإن الأزهر ـ وهو معقل الدين الحنيف والدراسات الإسلامية ـ يحرص على أن يتمتع المسلمون فى كل مكان بحرياتهم الدينية والثقافية .

وقال سعادة السفير : إنه يشكر للأستاذ الأكبر هذه المعلومات القيمة ، ويرجو أن تدوم بينهما الزيارات . ثم استأذن فى الانصراف ، فودعه الأستاذ الأكبر شاكرا .

المـاديون وتعليل الموجودات

يعيب الماديون خصومهم الاعتقاديين بتهافتهم على الأخذ بالخيالات ، ويتفننون ما شاء لهم الهوى فى نبزهم بالألقاب ؛ ولو رجعوا لأنفسهم وتناولوا ما هم بسبيله من التعليلات التى يعللون بها الوجود ، لوجدوا أنفسهم أبعد من خصومهم تغلغلا فى متاته الخيالات ؛ وقد اتضح ذلك جليا فى هذا العهد الأخير باعتراف قادتهم الأعلين .

لما كبر على الماديين الاعتراف بوجود حكمة أزلية أبدية تدبر الكون ، ورموا إلى بناء مذهب يمكن به تعليل الوجود وظواهره بالقوى الميكانيكية تحت قيادة النواميس الطبيعية ، بدون اللجأ إلى أى مدبر آخر ، عولوا كل التعويل على النظريات الميكانيكية ، متخيلين أن هذه النظريات حقائق مطلقة لا تقبل النقض . قال زعيم ملحدى القرن التاسع عشر (بوخنر) فى كتابه القوة والمادة : « إن الذين يقولون بوجود قوة خالقة خارجة عن المادة وفوق الطبيعة خلقت العالم من ذاتها أو من العدم ، يناقضون الأصول الأساسية للعلم الطبيعى المؤسس على التجربة والواقع » .

فإن قلت للماديين : بأى وسيلة تعللون الظواهر الطبيعية التى لا تحصى ، وحدوث الكائنات الحية من المواد الميتة ؟ .

أجابوك من فورهم : « نعللها بواسطة النواميس الطبيعية ، الجارية على أصول ميكانيكية لا تتخلف » .

فإن قلت لهم : فهل يعقل حدوث الإبداع مما لا يدرى ما هو الإبداع ، وتولد الحياة والعقل من الجماد الميت ؟ إذا وصلت بالماديين إلى هذا المجال شعروا بالحرج الشديد ، وبدا عليهم ذلك من لحن كلامهم ، ومما يلجئون إليه من الفروض التى لا يصح أن تصدر جزافا من رجال على جانب عظيم من العلم ، فأجابوك بما أجاب به شيخ الماديين وإمامهم (بوخنر) فى كتابه الذى مر ذكره فقد قال فيه :

« إن إدراك هذا السر يقتضى أن تعرف أن قوى طبيعية بل وعقلية (تأمل) تلازم جوهر المادة . هذه القوى العقلية تظهر فى جميع الأحوال التى تجتمع فيها شروط ضرورية فى المخ ، أو فى المجموع العصبى حيث تكون عناصر المادة مؤلفة على شكل خاص ، ومتأثرة بحركة خاصة ، فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر ، كما تنتج منها فى أحوال أخرى ظواهر الجذب والدفع . ولقد قال شوبنهوير : « إذا كانت المادة تستطيع أن تسقط فهى تستطيع أن تفكر » . نعم هى فى شكل حجر تستطيع أن تسقط إلى الأرض ، وفى شكل عضلات تنقبض ، وفى شكل مادة عصبية حية توجد فيها خاصتا الشعور والفكر ، وتصير مدركة لذاتها » .

نقول نحن يصعب علينا جدا أن نعتبر هذا الكلام علميا ، لأنه عدوان صارخ على العلم ، وخروج معيب على تقاليده وأصوله . ولا أظن أن أشد العقول سذاجة يستطيع أن يعير مثل هذا القول أقل اعتبار . هل يغيب عن مثل (بوخنر) أن من الحشرات الأرضية أنواعا ليس لها مخ ، وهى تأتى للحصول على غذائها ، ولتخير الأماكن الصالحة لوضع بيضها ، والمواضع المناسبة لتمضية حياتها ، من التدبير والحكمة ما تقف العقول أمامه حائرة لا تدرى كيف تعلل حدوث ذلك من حشرة ليس لها مخ ولا حواس ، ولا حظ من الحياة غير أيام معدودة ؟ .

وإذا كان (بوخنر) وإخوانه الماديون يسمحون لأنفسهم أن يكونوا من تعليلاتهم على هذه الشاكلة من التخيل والتظنن ، فقد وضعوها فى منزلة من السذاجة لا تتفق وما نحلوه لعقولهم من السمو والتنزه عن الأوهام .

ثم إنهم يرون أن كل موجود فى هذا الكون خلق بتدبير وإحكام ، وأودع خواص وصفات تجعله صالحا لأن يكون جزأ متمما للإبداع الطبيعى العام ، فما هو العقل الذى أوجده على هذا النحو ؟ هل هى النواميس الطبيعية والحركات الميكانيكية ، وهى ليس لها مخ فلا يكون لها عقل ، أم خلقت اتفاقا ؟ يخيل الى أن الماديين لو بسطوا هذه المسألة على هذا الوجه لقالوا كما قال العلامة الكيماوى السير (وليم كروكس) ، وهو من كبار متتبعى حركات النواميس ، ومن رؤساء المجمع العلمى الملكى البريطانى . قال فى خطبة له بذلك المجمع :

« من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذللت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادى الراسخ بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا إلى إهمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم ، لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وهمى محض » . منقول من مجموعة خطبه صفحة ٨ .

وقال فى معرض آخر من تلك الخطبة :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد هذه النتائج أو النواميس محصورة فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم ؟ أما أنا فإن تركى لرأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حداً بعيدا . فقد تقبض عندى هذا النسيج العنكبوتى للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، إلى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك .

« ولست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الانسانية ، بل إنى أعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سواى أهلا لأن يعين مقدما ما ليس بموجود فى الكون . ولا أستطيع أنا ولا أحد غيرى يستطيع أن يقول بأن شيئاً بعينه لا يحصل حولنا فى كل يوم من أيام حياتنا . هذه العقيدة تدع لى أملا مقويا بأن اكتشافا رئيسياً جديدا يمكن أن يحدث فى مجال من المجالات ، فى أقل الأوقات تفكراً فيه » .

وقال فى خطبة أخرى صفحة ٣٦ من مجموعة خطبه :

« الكون كله على ما ندركه ، نتيجة الحركة الذرية . وهذه الحركات الذرية تنطبق كل الانطباق على قانون حفظ القوة ؛ ولكن ما نسميه ناموساً طبيعيا ، هو فى الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع أن نعلل الحركات الذرية كما نعلل حركات الأجرام الجسمية ، ونستطيع أن نكشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكننا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه إلى حل أهم مسألة وهى : أى نوع من أنواع الإرادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية ، يجبرين لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وما هى العلة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر

(وفى الأصل من وراء ستار المسرح) ؟ وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجا عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟ » . انتهى

نقول : تأمل كيف انتهى القرن التاسع عشر بغلبة رأى الماديين ، وسيادته على المتعلمين ؛ وكيف ابتدأ القرن العشرون باعتراف العلم بعجز نظرياته عن تعليل حدوث أصغر ظاهرة طبيعية فى الوجود . الفرق ظاهر بين الحالين ، فأين تلك الجرأة الطائشة على التعليل ، من هذا الاعتراف بالعجز ، والاقرار بالنقص ، والتسليم بالقصور حتى عن الفهم ، بعد ما بلغ العلم هذا المدى البعيد من الاكتشافات ؟ إن هذه الاكتشافات نفسها هى التى أوجبت عليهم هذا الأدب العالى ، وكلما ازدادوا علما سيزدادون تواضعاً .

فما أجدر الذين يلقنون الطلاب علم الطبيعة أن يشفعوا دروسهم بتلقينهم هذا الأدب الجميل . وهو ليس بجميل فحسب ، بل هو واجب ، لأن الطالب يخيل إليه بعد دروس معدودة أنه فهم ماهية المادة وماهية القوة ، ومعنى النواميس ، فيخيل إليه أنه سينتهى أمره بفهم كنه الوجود . وهو وهم قد يؤدى إلى أوخم العواقب ، فقد دفع بالكثيرين إلى تهور الإلحاد ، وهو شر جميع الشرور .

نعم هو شر الشرور ؛ لأن الإنسان متى تشبع عقله بأنه كائن لا غدَ له إلا أن يكون جثة هامدة تدفن فى الأرض وتستحيل الى تراب ، تسكيف طبيعته على هذا المبدأ فيصبح لا يرى إلا وجودا مجردا من كل معنى ، كان الأولى به أن لا يكون ؛ فيصرف حياته وهو فى حداثته فى اللهو واللعب ؛ فإن خامره الهم أزاله بالشغل عنه أو بشىء من المواد المخدرة . فإذا أسنَّ ورأى أن موته أصبح منه على قاب قوس ، ركبه من الغم ما يجعله كالمحكوم عليه بالإعدام ، فيمضى شيخوخة مزعجة يزيدها كربا بتعاطى المخدرات أو بالخنوع لهم تنوء بحمله الجبال .

يقول : وما الحيلة ما دام هذا حظ الإنسان ، وما دام العلم يضن عليه بالدواء ؟ نقول : العلم لم يضن على أحد بالدواء فى أى عهد من عهوده ، وعلى قدر حظه منه ، بدليل العلماء الذين نبغوا فى كل عصر لهداية الخلق ، ولكنه هو الذى كان يؤيد الإلحاد بلا دليل ، وكان يصرف كل مايقربه من الحق إلى أسوأ الاحتمالات حتى دان للخرافات فى سبيل نصرة الإلحاد ، وأنكر البدهيات فى سبيل طمس معالم الحقائق كما سنبينه تفصيلا ، إن شاء الله .

محمد فريد وجدى

المجاز والكناية فى كتاب الله

القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

لكن ما تعرضت لإبطاله من أن الرمى بنفس النجوم قد اعترضه المفسرون ، ولكن أليس كل ماهنالك أنى أبطلت باطلا ؟ وذلك ما أنا حريص عليه كل الحرص حتى تبقى للسماء زينتها ، وللآيات الله وضوحها . ولكن ماذا نصنع فيما قد كتبه الإمام الألوسى فى تفسير سورة « الحجر » صفحة ٢٨٣ نقلا عن ابن عباس قال : « ونقل غير واحد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة عليهم السلام فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبدا ، فنهم من تقتله ، ومنهم من تحرق وجهه ، أو جنبه ، أو يده ، أو حيث يشاء الله تعالى ، ومنهم من تخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البرارى » . ألا ترى أن ابن عباس قد عبّر بالكواكب ولم يعبر بالشهاب مما يفيد أن الرمى بالكواكب أنفسها ؟ وهلا يكفى ذلك لأن أعرض لبطلان الرمى بالكواكب ! . وماذا نصنع فى تعبير قتادة إذ يقول : للنجوم ثلاث فوائد : الزينة ، ورجم الشياطين ، والاهتداء بها . فيجعل رجم الشياطين بنفس النجوم . ويقول الألوسى فى صفحة ٢٨٥ فى تفسير سورة « الحجر » أيضا : مغيِّياً عدم التزام الرمى بالكواكب : « وإن قيل إنه بنفسه أى الكوكب ينقضُّ ويرمى الشيطان ثم يعود إلى مكانه لظاهر إطلاق الرجوم على النجوم ، ولقولهم رمى بالنجم مثلا » فترى الألوسى ينسب إلى البعض القول بأن الرمى بنفس النجوم ؛ أليس ذلك كافيا فى أن أعرض لإبطال أن يكون الرمى بنفس النجوم ؟ .

هذا أمر ، وهناك أمر آخر ، وهو أن آية الملك كما قلنا ليس فيها حديث عن الخطف ، أو الاستراق ، أو التسمع ، ولكن فيها أن الضمير فى قوله « وجعلناها » عائد على المصابيح التى هى الكواكب ، فإحدى اثنتين : فإما سلوك سبيل المجاز الذى علاقته الكلية والبعضية ، ويكون المعنى: وجعلنا منها رجوما ، والمجاز خصوصا فى القرآن يجب أن يكون له أعظم الآثار البلاغية التى تعود على الأسلوب بالبهجة والتحديد ،

وليس لسلوك سبيل المجاز هنا إلا إيهام غير المراد بادىء ذى بدء ، خصوصا وقد عبر عنها بالمصابيح مما يتحامى فى جانبها تخييل الرمى بها ، وإن كانت النهاية عند التأويل ألا يكون مرميا بها بل ببعضها ؛ وإما أن يبقى الكلام على حقيقته ، وإذ ذاك فأى الأمور خير : ما أولنا به الآية من جعل الكواكب آيات على القدرة ، ودلائل على الألوهية ، وبراهين على العظمة ، أم ما حملت عليه من أنها يرجم الشياطين ببعضها ، على ماسلكوا له سبيل المجاز ؟ وأى المعنيين خير أيضا : أتكون النجوم دلائل عظمة وآيات إيمان ، ومتزود يقين ، أم تكون مثار ظنون للمنجمين على ما أوّلوا به الآية فى الوجه الثانى ؟ ! وهل كونها مثار ظنون نعمة يمتن الله بها على الناس ليشكروه ، أم آية يلفت الله إليها الناس ليوحدوه ويقدسوه ؟ إنها ليست هذا ولا ذاك ؛ فأى المعانى خير فى تلك المعانى الثلاثة ؟ اللهم إنى لا أريد إلا تعظيم شأنك ، وتقديس آياتك ، والله العليم بذات الصدور .

أليس الأولى بآية الملك ، ولم يتحدث فيها عن خطف ولا استراق ، أن تنتظم مع آية الأنبياء فى سمط واحد ؟ آية الأنبياء « وجعلنا السماء سقفاً محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ، أليس ذلك أولى من نظمها فى سلك آيات الحجر والصافات والجن ، وهى فى أسلوب غير أسلوبها ، ويبهرك من بلاغة القرآن أنه لم يعبر فى آية الحجر والصافات والجن إلا بلفظ الشهاب ، على نقيض ماذكر فى آية الملك من لفظ المصابيح التى هى الكواكب ، مما يتضح به فرق الاتجاه فى آية الملك والاتجاه فى تلك الآيات ؟ .

تقرأ القرآن فلا تكاد تظفر بسورة منه دون أن يكون فيها استرعاء للأنظار وتنبيه للعقول إلى قراءة صحيفة الكون ، ليقرءوا فيها ماسطرته القدرة ، وما كتبته الحكمة من آيات جلاله وعزته ، ودلائل وحدانيته وحكمته ؛ مرة تقرأ ذلك فى أسلوب القسم ، وأخرى فى أسلوب آخر .

اقرأ « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلّاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها » ، « والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب » .

اقرأ « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق

السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » ، « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » .

اقرأ « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخراتٌ بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

اقرأ واقرأ مما هو كثير جداً من آيات لفتنا ودعوتنا إلى النظر فيما أقامه تعالى لنا من آيات ودلائل وحجج وبراهين على ما وجب له من صفات ، وما كلفنا به من عقائد .

اقرأ كذلك ما قبل آية الملك التى فسرتها من آيات ، تجدها أيضاً من قبيل ما يدعو العقول إلى النظر فى آيات الله ؛ ألا يكون هذا كله من البواعث القوية على أن تكون آية الملك فى اتجاه تلك الكثرة من الآيات ، دون أن تكون فى اتجاه تلك الآيات الثلاث : آيات الخطف والاستراق والاستماع ؟ .

نعم : إن محمداً رسول الله قد أرسل على فترة من الرسل ، وقد أظلمت الآفاق ، وفسدت العقائد ، وامتلأت النفوس بالخرافات ، وعبد الإنسان الإنسان ، بل عبد الإنسان الأشجار والأحجار ، بل عبدوا العجول والأبقار . جاء محمد صلى الله عليه وسلم والحال تلك الحال ، فكان أول مقاصد القرآن هو تطهير العقول من خرافاتها ، وفاسد عقائدها ، وتوجيهها إلى إفراد الله بالعبادة ، وتوحيده بالتقديس « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » ، « والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » .

وكما حاول القرآن تطهير النفوس من الشرك فى العبادة والتقديس ، حاول تطهيرها من أن تشرك بالله غيره فى صفاته كعلم الغيب مما اختص به نفسه .

اقرأ قوله : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ، اقرأ ذلك وتدبر ذلك الأسلوب تجد فيه ما يدعوك إلى السجود إجلالا لما اختص به القرآن من أساليب الإعجاز فى تحديد ما يريده من إثبات معنى ، وإقصاء شوائب الشك عنه . انظر إلى تلك الآية وهو لا يقول : وعنده الغيب ، وإنما يقول « وعنده مفاتح الغيب » مما يخيل إليك أن الغيب فى خزائن قد ضربت عليها أقفالها ، وحفظت مفاتحها ، مما لا يتأتى لأسلوب آخر أن يصور حفظ الغيب تصوير ذلك

الأسلوب له . إلى غير ذلك من عقائد باطلة عالج القرآن النفوس لتطهيرها منها لتحل فيها أضواء العقائد الصحيحة التي تكوّن إنسانا صالحا لجوار الله في الآخرة، وتلقى جزاءه الحسن الذي يجزى به المتقين .

تلك سنة القرآن في تحديد المعاني ، وتخليصها من الشوائب ، في كل ما يريد أن يبنى به عقيدة ، أو يصور به صفة من صفاته .

اقرأ قوله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » اقرأ ذلك تجد أسلوبا في التحدي يجاري به ما اعتاده العرب في تحدياتهم ، وما اعتاده الناس في مثل ذلك ، إذ تراهم في تحدياتهم يقولون مثلا « لا الإنس ولا الجن ولا الدنيا كلها تقدر على ذلك » . يقول الناس ذلك في تحدياتهم وهم يعلمون أنه لا الإنس ولا الجن ولا الدنيا ستحاول ذلك ؛ ولكنه أسلوب الكناية عن العجز الواضح .

هذا أسلوب في التحدي ببلاغة القرآن .

وإليك أسلوبا آخر في التحدي بقدرته وقهره وإحاطته ، وكون كل شيء في قبضته ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه لا مهرب لشيء ولا مناص له من هيمنته عليه وإحاطته به : يقول تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان » . وهكذا من تحديات بالغة ، وذلك أسلوب غير أسلوب التكاليف والأوامر والنواهي ، « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » . وهكذا من كل ما هو برهان ساطع ، ودليل لامع على أن ذلك الكتاب تنزيل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، « فما نطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، « وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » نزل به الروح الأمين على قلب سيد الأنبياء والمرسلين « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون » .

سبحانك آيات بينات ، وفرقان بين الحق والباطل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا تنتهي عجائبه ، ولا تنفد كنوزه ، إن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ آمنا به سائلين الله تعالى أن يهدينا إلى الحكمة والسداد ، والهدى والرشاد إنه على كل شيء قدير ؟

المجاز والكناية فى القرآن الكريم

القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد البحيرى
المدرس فى كلية اللغة العربية

مناقشة المقال الثانى فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ من مجلة الأزهر ، لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن عضو جماعة كبار العلماء ، تحت عنوان : « المجاز والكناية فى القرآن — القرآن والمفسرون » .

اكتفيت فى تعقيبى السابق بذكر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقوال السلف التى تدل على تسمع الشياطين لأخبار السماء ، ورمى الله إياهم بالشهب . واكتفيت كذلك بذكر مايدل على أن القرآن فيه تبشير وإنذار ووعد وعيد للإنس والجن ، وطالبت الشيخ ببيان موقفه من هذه النصوص لتطمئن نفوس تبلبلت ، وقلوب ساورها القلق من جراء مقاله السابق ؛ وبينت له خطورته وما يحدثه من آثار سيئة فى البيئات المختلفة ، وما يجره من فتن واتهامات لاتحمد مغبتها .

والشيخ ـ والحمد لله ـ اعترف فى حاشية هذا المقال الثانى بتسمع الشياطين ورميهم بالشهب ، بعد أن ألح فى إنكار ذلك ، ورتب على جوازه محالات باطلة من نسبة العجز والسفه والعته لله تعالى ، حيث يقول : إن ذلك لا يصدر إلا من سفيه أو معتوه . ورتب عليه كذلك بطلان زينة النجوم ومحوها من السماء ، من الشبه التى أوردها الإمام الرازى فى تفسيره ودحضها وفندها كما هى عادته فى إيراد الشبه والرد عليها وإبطالها . والشيخ ينقل من هـذه الشبه ويترك الرد عليها بدعوى التجديد ، ويوسع المفسرين وهم فى أجداثهم لا يستطيعون دفاعا ، تجهيلا وما جهلوا ، وتأثيما وما أثموا ، وتضليلا وما ضلوا ، بل هم ملئوا الدنيا علما وأدبا يدل على رجاحة عقل ، وسداد رأى ، وسعة اطلاع على النصوص والتوفيق بينها وتفسير بعضها ببعض ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، والسنة مبينة له ، ومذكرة تفسيرية تشرح قوانينه ونصوصه .

واعترف كذلك برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن بعد أن كرر وأكد بطريق الحصر بأن كل مافى القرآن إنما هو للإنس ولبنى آدم فقط ولو سلمنا جدلا فقط. ولا شك أن الرجوع إلى الحق فضل، وليس عارا على الإنسان أن يخطىء، ولكن العار أن يعرف خطأه ويستمر فيه. وقد كنت أود أن أقتصر على ذلك وأطوى صحيفة النقاش لولا ماوجدته فى هذا المقال من أمور وتهم للمفسرين لايرضى التحقيق العلمى عن السكوت عليها ولا يقبل المجاملة فيها. وعسى أن يفسح الشيخ من صدره لأناقشه فى هذه الأمور، ليتبلج الحق، ويفصح الصبح لذى عينين.

(أولا) ما كنت أود أن يتشدد الشيخ كل هذا التشدد فى الاستمساك برأيه فى آية الملك: من أن الرجوم أدلة ترجم المعاندين من كفرة الإنس، ويصر فى غير رفق على تجهيل المفسرين قاطبة فيما ذهبوا اليه: من أنها شهب ترجم المسترقين من الشياطين. وعجيب جدا أن يعترف بذلك فى آية الحجر وآية الصافات وآية الجن وينكره فى آية الملك ويجعلها مع آية الأنبياء «وجعلنا السماء سقفا محفوظا» فى سلك واحد.

نعم ما كنت أحب أن يتشدد الشيخ فى ذلك، بل يذكره على أنه رأى له فى الآية، قريبا أو بعيدا، خطأ أو صوابا، تؤيده النصوص أو لاتؤيده؛ وهذا كان من الخير له؛ لأن هناك فرقا بين آية الملك وآية الأنبياء، وهو فرق ظاهر يدركه المرتاض بكتاب الله، والعارف بنصوصه.

فآية الأنبياء اقتصرت على أن الله تعالى جعل السماء سقفا محفوظا بقدرته، كما قال تعالى «ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه»، ولم ينص فيها على رجم بشهب للشياطين. وعلى هذا فآية الملك ليست من قبيلها، بل من قبيل آية الصافات وما شاكلها من آيتى الحجر والجن التى اعترف الشيخ فيها بالاستراق والرجم. فآية الصافات «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد، لايسَّمَّعون الى الملأ الأعلى ويقذَفون من كل جانب دُحورا، ولهم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب». وآية الملك «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير» فالسماء زينت فى الآيتين، وحفظت من الشياطين بالرجم بالشهب؛ وفيهما وعيد لهم «ولهم عذاب واصب»، «وأعتدنا لهم عذاب السعير».

ألا يرى الشيخ كيف اتسق نظم الآيتين على هذا النحو؟ وكيف جمع بينهما على

وجه لا اعتساف فيه ولا تكلف ؟ وما رأى الشيخ فى فحل اللغة والبلاغة والأدب غير منازع ؟ ما رأيه فى الزمخشرى ؟ فقد جعل فى كشافه آية الصافات وآية الملك من قبيل واحد حيث قال فى آية الصافات « وحفظا » : هذا مما حمل على المعنى ، لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من الشياطين كما قال تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » . فحمل آية الصافات على آية الملك فى المعنى وجعل قوله تعالى « وحفظا » مساويا لقوله تعالى « وجعلناها رجوما للشياطين » فى المعنى ، وأن من فوائد النجوم رجم الشياطين بشهبها حفظا للسماء .

وما رأيه فى ابن كثير الراوية المؤرخ الذى يفسر القرآن بالمأثور ؟ فقد جعل آية الحجر والصافات من قبيل آية الملك . وجميع المفسرين على ذلك .

وكيف يعد الشيخ رجم الشياطين وزجرهم وحفظ السماء منهم من السفه والعبث وعجز القدرة عن منعهم من غير شهب ؟ وهل هذا كلام يقال ؟ إنه كان قادرا على ألا يخلقهم ، وكان قادرا على أن يطهر الأرض منهم ، وكان قادرا على ألا يسلطهم على بنى آدم . وهل تركُ هذا يعد عجزاً بالنسبة لله تعالى ؟ ولم لا يكون ذلك من تمام الابتلاء ، ومن دلائل القدرة وعظم السلطان وبليغ الحكمة ؟ وإذا كان ذلك من دلائل القدرة ولا شك ، فكيف لا يصح عطف « وجعلناها رجوما للشياطين » على « زينا السماء الدنيا بمصابيح » ، فالمناسبة المصححة للعطف أن كلا فعل لله تعالى ومن دلائل قدرته ؛ ويالها من مناسبة يرضاها علماء البلاغة جميعا .

وعجيب جدا أن يعد الشيخ « وجعلناها رجوما للشياطين » ، « وهم عن آياتها معرضون » ، من الجمل التذييلية ، مع أن الجملة التذييلية تكون مؤكدة لمضمون جملة قبلها ، وتكون جارية مجرى المثل أو غير جارية مجراه ، كما هو معروف فى مبحث الإطناب . والآيتان ولا شك من التأسيس لا من التأكيد ، فليستا من التذييل فى شىء .

(ثانيا) يقول الشيخ : إن المعنى الذى كشفه ووصل إليه فى آية « الملك » ملازم للسماء منذ خلقها الله تعالى ، أما ما قاله المفسرون فلا ينتظم فى سلك العطف مع سابقه ، إذ يكون حذف الشياطين قد جد عند الرسالة فقط ، حين يحاولون استراق السمع ، أما قبل ذلك فلا . ويقول : إنا نسائل المفسرين هل أرادوا بكون السماء محفوظة من استراق السمع أن ذلك الحفظ منذ خلقها الله تعالى أم هو جديد منذ أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فإنهم إن أرادوا الأول يكونوا ناقضوا أنفسهم

إذ ذكروا فى مواضع أخر أن الحفظ طارىء عليها . ثم قال : وعلى العموم يجب علينا أن يكون بأيدينا حين نفسر القرآن مصابيح مغازيه .

وأنا قبل أن أناقش ماذكره فى هذا المقام أبادر وأقول : حقا يجب أن يكون بأيدينا حين نفسر القرآن مصابيح مغازيه ، ولكن مامصابيح مغازيه ومقاصده إلا الإلمام بنصوصه ونصوص السنة المبينة له وأقوال الصحابة الذين تربوا فى مهد الوحى ، وتخرجوا فى مدرسة النبوة . ولا شك أن هذا يعيننا على فهم مقاصد القرآن ومراميه ، وبغير ذلك نتعثر ونعتسف ، ونتورط فى الرأى الفطير ، ولا نعرف قبيلا من دبير .

وأعود إلى مناقشة ما ذكره الشيخ هنا فأقول : إننى أطمئن الأستاذ الكبير أشد الطمأنينة على أن المفسرين لم يقعوا فى تناقض ، ومعاذ الله أن يقعوا فيه بعد تمرسهم بكتاب الله تعالى ورياضة أنفسهم بفهمه آمادا طويلة ، بعد أن نهلوا من اللغة وارتشفوا من الأدب ، وأخذوا قسطهم موفورا من علوم اللغة وعلوم القرآن على اختلافها . وخلاصة ماقالوه فى الحفظ والرمى : أن الرمى كان قبل البعثة وبعدها ، فهو ملازم للسماء منذ خلقها الله تعالى ، غير أن الرمى اشتد وقويت حراسة السماء فى زمن النبوة المحمدية على وجه تنبه له الإنس والجن ، كما فى صحيح الأحاديث ، وكما هو مسطور فى كتب التفسير ؛ والنصوص شاهدة على ذلك .

قال الله تعالى حكاية عن الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رَصَدا » . وألفت نظر الشيخ فى هاتين الآيتين إلى قوله « ملئت ، الآن » ، وإلى قوله فى سورة الصافات « ويقذفون من كل جانب » . وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول يولد عظيم ، أو يموت عظيم . فقال صلى الله عليه وسلم : فإنها لا يرمى بها لموت عظيم ، ولا لحياته ، ولكن ربنا إذا قضى أمرا تحدثت الملائكة حتى ينتهى الخبر إلى أهل هذه السماء ويخطف الجن السمع فيرمون » . وهناك رأى غير صحيح يقول : إن الرمى حدث بعد النبوة ، ولكن المفسرين والمحدثين ردوه وأبطلوه . والقرطبى فى تفسيره جمع بينه وبين رأى الجمهور بأن معنى حدوث الرمى حدوث شدته وقوته .

ومن العجيب أن اعتراض الشيخ هذا ذكره المفسرون والمحدثون وأجابوا عنه بما تقدم ، ولكن الشيخ يذكر اعتراضهم ويترك جوابهم ليوقعهم فى تناقض هم منه برآء ، وكانت الأمانة العلمية تقضى أن يحقق الشيخ هذا المقام على النهج الذى بينته .

ومما سبق نعلم أن الشيخ بنى رأيه فى تفسير آية الملك وفى تخطئة المفسرين على أمرين :

أولا : دعوى أن ما قاله المفسرون لا يلازم السماء منذ خلقت ؛ وقد أمطنا اللثام عن ذلك بالأدلة .

ثانيا : عدم صحة عطف « وجعلناها رجوما للشياطين » على « زينا السماء الدنيا بمصابيح » ، وقد بينا أنه صحيح لوجود الجهة الجامعة المحققة للتناسب ؛ لأن كلا فعل لله تعالى ومن دلائل قدرته ، والرجم ملازم للسماء منذ خلقت . إذاً فرأى الشيخ فى تفسير آية الملك ثكل أدلته وفقد سنده ، فانهارت دعائمه وتقوض بنيانه ، ولم يبق محل لطعنه على المفسرين وتجريحهم من غير دليل ولا شبه دليل ، والأمر لله !.

(ثالثاً) : يذكر الشيخ الخلاف فى حقيقة الجن وهل هم مكلفون ؟ ولا يظفر القارىء منه بجواب صحيح ، وكان الواجب ألا يتركه هكذا يتشكك ويضطرب ، بل يذكر له رأى المؤمنين بالغيب فى هذه المسألة . وخلاصة ذلك إجمالا : أن الجن موجودون ولم ينكر وجودهم إلا الزنادقة ، وقد دلت نصوص القرآن على وجودهم ، وتواترت بذلك الأخبار ، واستفاضت الآثار ، وليس فى إثباتهم محال عقلى ، وهم مخلوقات غلب عليهم العنصر النارى كما دلت على ذلك آيات الكتاب العزيز ، وهم مكلفون كالإنس خلافا للحشوية . قال ابن عبد البر : الجن عند جماعة المسلمين مكلفون مخاطبون . وقال الإمام الرازى فى تفسيره : أطبق الكل على أن الجن مكلفون ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم . والقول بتبعيتهم فى التكليف للإنس لا دليل عليه .

وبعد ، فهذه مسائل لا يكفى فيها الحدس ، وإنما مرجعها إلى النص الصحيح ؛ فمتى أثبت النص شيئاً لا يحيله العقل وجب اعتقاده كما هى قاعدة السمعيات . قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . جعلنا الله من المؤمنين بالغيب ، ونعوذ به أن نتورط فيما لا علم لنا به ؟

الاسراء والمعراج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
مدير إدارة البحوث المساعد بالأزهر

جاء فى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أُتيت بالبُراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التى يربط به الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام : اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء ، الحديث .

هناك حوادث إسلامية هامة ، كان تعدد الروايات فيها ، وكثرة النقول حولها ، سبباً فى اختلاف الأقوال عنها ، واشتعاب الآراء بشأنها ؛ ومن ذلك حادث الإسراء والمعراج ؛ فلو أنه قد خلص من بعض ما ورد عنه من مزاعم وأخبار ، لسلم من كثير مما أثير حوله من إشكالات وشبهات ، ولاستطاع القارىء العادى أن يخرج عنه من قراءته بفكرة واضحة سريعة ، ولاستراح الباحث المحقق من كثير من الجهد والعناء الذى يبذله فى موازنة الروايات ، ومقايسة الأقوال ، ليخرج منها بالرأى الصائب ، والقول السديد .

وإننا لذاكرون هنا — بعون الله تعالى — مباحثه وفصوله مضبوطة محررة ، خالية من الاستطرادات والزيادات ، مقتصرون على ما ثبت وصح من الآثار والروايات ، مُلخِّصون أقوال العلماء وأدلتهم فى جُمل وافية قصيرة ، وعبارات شاملة يسيرة .

الإسراء كالسُّرى : سَيْر الليل خاصة ، فيكون أسرى وسرى بمعنى واحد . وقيل : أسرى : سار ليلا ، وسرى : سار نهارا . وقيل : أسرى : سار من أول الليل ، وسرى : سار من آخره . والعرب تقول : سرى فلان ليلا : إذا سار بعضه ، وسرى ليلة : إذا سار جميعها ، ولا يقال : أسرى ليلا إلا إذا أوقع سيره فى أثناء الليل ؛ وإذا وقع فى أوله يقال : أولج ، وقيل : إن أسرى ليست من لفظة سرى يسرى ، وإنما هى من السراة ، وهى الأرض الواسعة ، فأسرى نحو أَجْبَل وأَتْهمَ ، وأسرى بعبده ، أى ذهب به فى سراة من الأرض .

والمِعْراج : من عرَج يعرُج ، إذا صعد . والعُروج : ذهاب فى صعود ، يقال : عَرَج عُرُوجا وعَرَجانا : مشى مشى العارج ، أى الذاهب فى صعود . والمعراج : السّلم ، والجمع معارج ومعاريج ، كمفاتح ومفاتيح . والمعارج : المصاعد ، وسمّيت بليلة المعراج لصعود النبى صلى الله عليه وسلم فيها الى فوق سبع سماوات ، ولصعود الدعاء فيها أيضا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » .

واختلف السلف فى الإسراء والمعراج على أقوال كثيرة ، أشهرها أربعة :

القول الأول : إنهما كانا فى المنام ، ونقل ذلك عن الحسن ، وروى عن عائشة ومعاوية ، وذكر ابن إسحاق عنهما أنهما قالا : إنما كانت رؤيا حق . وعن عائشة أنها قالت : لم نفقد بدنه ، وإنما أسرى بروحه تلك الليلة ، واستدل أصحاب هذا القول بجملة أدلة :

منها : قوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » ، فلو كانت الرؤيا فى اليقظة لقال : الرؤية ، لأنه لا يسمى فى عرف اللغة رؤيا إلا ما كان فى النوم .

ومنها : حديث البخارى عن أنس بن مالك ؛ فقد جاء فيه فى رواية عن شريك : « وهو نائم » ، وفى رواية أخرى عنه : « بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان » ، وجاء فى آخره : « واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » .

القول الثانى : إن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسد النبى صلى الله عليه وسلم وروحه بعد المبعث . وهو مذهب الجمهور من السلف ،

وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين . وقد قالوا : إن عائشة كانت إذ ذاك صغيرة ، ولم تكن قد تزوجت بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ، وإن معاوية يومئذ كان كافرا ، وإن الرؤيا قد تكون بمعنى الرؤية فى اليقظة أيضاً ، وأنشدوا للراعى يصف صائدا :

وكبر للرؤيا ، وهش فؤاده وبشر قلبا ، كان جمًّا بلابله

وإنه لا حجة فى حديث البخارى ؛ إذ قد يكون النوم فى أول وصول الملك إليه ، وليس فى الحديث ما يدل على أنه كان نائماً فى القصة كلها ؛ على أن رواية شريك هذه قد أنكرها عليه العلماء ، ونبهوا على أنه قد قدم فيها وأخر ، وزاد ونقص ؛ قال الحافظ عبد الحق فى كتابه « الجمع بين الصحيحين » بعد ذكره رواية شريك : هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبى نمر عن أنس ، وقد زاد فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى حديث الإسراء عن أنس جماعة من الحفاظ المتقنين ، والأئمة المشهورين ، كابن شهاب ، وثابت البنانى ، وقتادة ، فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك ، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث .

واستدل الجمهور فوق هذا بعدة أدلة : منها أنها لو كانت رؤيا نوم ، لما تعجبت منها قريش ، ولا استحالتها ، ولما افتتن بها الناس ، حتى ارتد كثير ممن أسلم ، ولما قال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس ، ورجع الى مكة ليلته ، والعير تطرد اليها شهراً مقبلة وشهراً مدبرة ؛ وذلك لأن النائم قد يرى نفسه فى السماء ، وفى المشرق ، وفى المغرب ، ولا يستبعد أحد منه ذلك .

ومنها : شربه الماء من الإناء الذى كان مغطى عند القوم فى طريقه الى بيت المقدس ، وسؤالهم عند رجوعهم ، وإخبارهم بأنهم وضعوه مملوءا ماء ، ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء .

ومنها : إرشاده للذين ندّ بعيرهم حين أنفرهم حسُّ البُراق ، حتى دلهم عليه ، وإخبارهم بذلك حين سئلوا عند عودتهم ، فقد قالوا : صدق والله ، لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكره ، وندّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه ، ولقد قال بعضنا : هذا صوت محمد .

ومنها : وعده لقريش بقدوم العير فى يوم مخصوص ، فلما كان ذلك اليوم ، ولم يقدموا حتى قربت الشمس أن تغرب ، فدعا الله ، فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف ؛ وهذا كله لا يكون إلا يقظة .

القول الثالث : إنه كان مرتين : إحداهما فى النوم قبل المبعث تقدمة وتوطئة وتيسيرا لما تضعف عنه القوى البشرية ، والثانية فى اليقظة بروحه وبدنه بعد المبعث . وقد ارتضى هذا القول جماعة من المحققين ، ووصفوه بأنه الحق ، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث والأخبار . ويشهد له ظاهر القرآن ؛ قال الخثعمى : إن الله سبحانه يقول : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى » ثم قال : « ما كذب الفؤاد ما رأى » فهذا نحو ما وقع فى حديث أنس من قوله : فيما يراه قلبه ، وعينه نائمة . والفؤاد هو القلب ، ثم قال : « أفتمارونه على ما يرى » ولم يقل : ما قد رأى ، فدل على أن ثم رؤية أخرى بعد هذه . ثم قال : « ولقد رآه نزلة أخرى » أى فى نزلة نزلها جبريل إليه مرة ، فرآه فى صورته التى هو عليها عند سدرة المنتهى ، ثم قال : « ما زاغ البصر » ، ولم يقل : الفؤاد ، كما قال فى التى قبل هذه ، فدل على أنها رؤية عين وبصر فى النزلة الأخرى ، ثم قال : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ، وإذا كانت رؤية عين ، فهى من الآيات الكبرى ، ومن أعظم البراهين والعبر ، وصارت الرؤيا الأولى بالإضافة إلى الأخرى ليست من الكبر ، لأن ما يراه العبد فى منامه دون ما يراه فى يقظته لا محالة .

القول الرابع : إن الإسراء كان فى اليقظة ، والمعراج كان فى المنام ، واحتج أصحابه بأنه لما أخبر قريشا ، كذبوه فى الإسراء ، وشنعوا عليه فيه ، واستبعدوا وقوعه ، ولم يتعرضوا للمعراج ؛ وبأن الله سبحانه وتعالى قال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ؛ فلو وقع المعراج فى اليقظة ، لكان ذكره أبلغ ، فلما لم يذكره مع كون شأنه أعجب ، وأمره أغرب من الإسراء بكثير ، دل على أنه كان مناما .

* * *

أما المكان الذى ابتدأ منه الإسراء ، فقد وقع الاختلاف فيه تبعاً للاختلاف فى المراد من المسجد الحرام فى قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » ، فمن أراد المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه ، قال : إن الإسراء كان منه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذاك فى الحجر ؛ أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا فى الحجر ، وفى رواية : فى الحطيم ، الحديث ؛ ومن أراد به مكة كلها ، قال : إن الإسراء كان من دور مكة وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذاك فى دار فاختة أم هانىء بنت أبى طالب ؛ أخرج النسائى عن ابن عباس ، وأبو يعلى فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير من حديثها أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى بيتها بعد صلاة العشاء ، فأسرى به ، ورجع من ليلته ، وقص القصة عليها .

وكذلك اختلف فى سنة الإسراء وشهره وليلته ، فقيل : إنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ؛ وقيل : إنه كان سنة خمس أو ست من النبوة ؛ وجزم بعضهم بأنه كان فى السنة الثانية عشرة من المبعث ؛ ونقل عن ابن حزم دعوى الإجماع على ذلك . وقيل : كان قبل الهجرة بسنة وخمسة أو ثلاثة أشهر ، ووقع فى حديث شريك السابق ذكره ، أنه كان قبل أن يوحى إليه ؛ وقد خطأه غير واحد . أما شهره ، فقيل : كان فى شهر ربيع الأول ؛ وقيل : فى شهر ربيع الآخر ؛ وقيل : فى شهر رمضان ؛ وقيل : فى شوال ؛ وجزم فى الروضة بأنه كان فى شهر رجب . وأما ليلته ، فقيل : إنها ليلة السابع والعشرين من الشهر ، وكانت ليلة السبت ، وقيل : ليلة الجمعة ، وقيل : ليلة الاثنين ، وقيل : ليلة سبع عشرة من ربيع الأول ، وقيل : ليلة السابع والعشرين من ربيع الآخر .

* * *

البُراق - بضم الباء الموحدة - : اسم الدابة التى ركبها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وهى مشتقة من البرق ، لسرعته ؛ وقيل : سمى بذلك لشدة صفائه وتلألئه وبريقه ؛ وقيل : لكونه أبيض ؛ وقيل : يحتمل أنه سمى بذلك لكونه ذا لونين ؛ يقال شاة برقاء ، إذا كان فى خلال صوفها الأبيض طاقات سود .

ووصف فى الحديث بأنه أبيض ؛ وقد يكون من نوع الشاة البرقاء، لأنها معدودة فى البيض . وذكّر الوصف بالنظر للفظ البراق ، أو باعتبار كونه مركوبا . وقد جاء فى وصفه وهيئته وعظمه وكيفية سيره كلام كثير ، والله أعلم بحقيقة كل ذلك ، وحسبنا ما وصفه به الحديث ، وما ذكره عنه من أنه كان يضع رجله عند منتهى ما يرى بصرُه .

وبيت المقدس : هو المسجد الأقصى الوارد ذكره فى القرآن الكريم فى أول آية من سورة الإسراء ، ووُصفه بالأقصى ، لبعده بالنسبة الى من بالحجاز ، أو لبعده عن الأقذار والخبائث . والمقدس فيها لغتان مشهورتان إحداهما بفتح الميم ، وإسكان القاف ، وكسر الدال المخففة ؛ والثانية بضم الميم وفتح القاف والدال المشددة . أما من شدده ، فمعناه البيت المطهر ؛ وأما من خففه ، فلا يخلو إما أن يكون مصدرا ، أو مكانا ؛ فإن كان مصدرا كان كقوله تعالى : « إليه مرجعكم » ، ونحوه من المصادر ، وإن كان مكانا فمعناه بيت المكان الذى جعل فيه الطهارة ، أو بيت مكان الطهارة . وتطهيره إخلاؤه من الأصنام وإبعاده منها . وقال الزجاج ؛ البيت المقدس : المطهر ، وبيت المقدس : أى المكان الذى يطهر فيه من الذنوب ، ويقال فيه أيضا : إيلياء .

والحلقة : هى حلقة باب مسجد بيت المقدس ، وفيها لغتان : أفصحهما وأشهرهما إسكان اللام ؛ وحكى الجوهرى وغيره فتحها ، وتذكير الضمير فى قوله : يربط به ، باعتبار معنى الحلقة ، وهو الشىء ؛ وفى ربط البراق الأخذ بالاحتياط فى الأمور ، وتعاطى الأسباب ؛ وهذا لا يقدح فى التوكل إذا كان الاعتماد على الله .

وقد تعددت الروايات بشأن الصورة التى وقعت بها صلاة الركعتين ؛ ففى رواية : فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين ؛ وفى رواية : ثم دخلت المسجد ، فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أقيمت الصلاة ، فأممتهم ؛ وفى رواية : فلم ألبث إلا يسيرا ، حتى اجتمع ناس كثير ، ثم أذن مؤذن ، فأقيمت الصلاة ، فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا ، فأخذ

بيدى جبريل ، فقدمنى . فصليت بهم ؛ وفى رواية : فلما أتى النبى صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى قام يصلى ، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه .

وأما اختياره اللبن على الخمر ، فالظاهر أن اللفظ الذى وقع فى الحديث جاء هنا مختصرا ؛ فقد بين فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قيل له : اختر أى الإناءين شئت ، فألهم اختيار اللبن .

والفطرة : المراد بها الإسلام والاستقامة ، والمعنى : اخترت علامة الإسلام والاستقامة . وقد جعل اللبن علامة ، لكونه سهلا طيبا طاهرا سائغا للشاربين ، سليم العاقبة ، أما الخمر ، فإنها أم الخبائث ، وجالبة لكثير من الشر فى الحال ، وفى المآل .

قال الحديث بعد ذلك : ثم عرج بنا إلى السماء ؛ والظاهر من هذه العبارة أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء ؛ ولكن الذى جاء فى غير هذه الرواية من الأخبار أن العروج لم يكن على البراق ، وإنما كان على المعراج ، وهو السلم ، أو المرقاة ، أو المصعد ؛ وقد وقع مصرّحا به فى كثير من الأحاديث ؛ وكل ما اختلفوا فيه وصفه ونوعه . ثم ساق الحديث بعد هذا بقية القصة ، وذكر ما وقع لها فى السموات السبع ، وما كان من استقبال الأنبياء والملائكة ، ومن رَفْعه إلى سدرة المنتهى ، ومن فرض الصلوات . والحديث طويل ، يحتاج شرحه إلى عدد كبير من الصفحات ، فنقتصر على هذا القدر ، وهو كاف فى تحقيق أصل الفكرة من الكلام على حديث الإسراء والمعراج .

سياسة الحجاج

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه عن الطريقة التى يتبعها فى حكمه ، فأجابه بقوله :

إنى أدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت المجرب الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسما أعطيه حظا من لطيف عنايتى ونظرى ، وصرفت السيف إلى النصف المسىء ، والثواب إلى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

أبو الأنبيـــاء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

كنت عرضت فى بعض ما كتبته على صفحات « مجلة الأزهر » الغراء إلى ناحية بارزة فى سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وعلى سيدنا محمد ، وهى قوته فى الحجاج ، وتمكنه من ناصية المنطق السليم فى الاستدلال ، وأخذه على مُناظره كل سبيل يطمع فى أن يتخلص إليها ، أو يفر منها ؛ وضربت لذلك بعض الأمثلة من كتاب الله جل ثناؤه فيما أنبأنا به عن خليله الكريم .

واليوم أحاول أن أنظر فى ناحية أخرى من النواحى البارزة فى تلك الشخصية القوية ، وهى ناحية الاتجاه العملى ، والانبعاث المبنى على العزم المصمم الذى لا يعرف التردد ، ولا يفسده الفتور ولا الضعف .

لم يكن إبراهيم نظريا فحسب ، يعرف الحق وينطوى عليه فى نفسه ، غير آبه بما حوله ، ولا مكترث بمن يخالفه ، وإنما كان مقداما على ما يعتقد أنه الصواب ، جريئا فى إنفاذه والعمل عليه ، مهما صادفه فى سبيل ذلك من صعاب ؛ كان ذلك دأبه حين يريد الاقتناع ، وكان دأبه بعد أن يقتنع .

فأما حين يريد الاقتناع ، فإنه يعطى نفسه حرية غير محدودة فى التأمل والتطلع ، ويتصفح كل النواحى التى قد يبرز منها ظل من الضعف أو التزلزل ، لا يخاف تهمة ، ولا يتلجلج عن سؤال ، ولا يقصر فى استقصاء .

ولكى يتبين لنا ذلك نقول : إن بعض الذين ينظرون فى المسائل يستولى عليهم الخوف النفسى من طرق بعض نواحيها ، ويخيل إليهم أن هذه النواحى حرم مقدس لا يجوز القرب منه ، فضلا عن اقتحامه والخوض فيه ؛ وهم فى ذلك إما ملبثون لنقطة من نقط الضعف فى نفوسهم ، وإما خائفون من مصادمة لمعلوم آخر ، أو لشخص ، أو لبيئتهم التى فيها يعيشون ، أو نحو ذلك ؛ فترى الواحد منهم يدخل فى بحثه متزلزلا ضعيفاً يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويشيح بوجهه عما عسى أن يعترض سبيله ، ملاحظا بعض الاعتبارات التى ذكرنا ، فينتهى أمره إما إلى

اعتناق عقيدة غير صحيحة فى نفسها ، وإما إلى اعتناق عقيدة صحيحة فى ذاتها ، ولكنها متزلزلة لديه ماتزال تعاوده فيها الشكوك ، وتعتريه الهواجس ، أو غامضة عليه ما يزال منها فى ظلام وإبهام .

وكثير من الذين يؤمنون بالمسائل النظرية ، والمعارف الفكرية ، يعيشون ويموتون وفى أنفسهم من بعضها بعض الشيء ، وإن كانوا لايجهرون بذلك ، ولا يحبون أن يعرف عنهم . ولو أن كل مفكر قادر على البحث والنظر كاف نفسه خطة الوضوح والإقدام والتثبت والثقة بنفسه ، والتوثق مما يقوله القائلون ، والإخلاص للحق فحسب غير مصور بصورة معينة تفرضها البيئة : لغربلت كثير من المعارف الفكرية ، وانقلبت بعض النظريات من الإيجاب إلى السلب ، أو من السلب إلى الإيجاب ، وتبخرت بعض الموروثات التى يصل الأمر فى الاعتزاز بها عند قوم دون آخرين إلى حد المماتلة عليها ، والمحاربة فيها .

وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان قوياً فى معالجة قلبه ، لكيلا يطغى على عقله ، وكان لا يعبأ بأى اعتبار من الاعتبارات التى تصرف الضعفاء عن النظر الصحيح ، أو تلويهم عن تعرف الحق ، أو تفت فى عضدهم حتى يظلعوا إليه ظالعا كما يغمز فى مشيه البعير .

لم تزل قضية إحياء الله تعالى للموتى أمراً عجيباً حتى مع الإيمان بقدرة الله ، وسبق إنشائه لكل ما فى الوجود ومن فى الوجود ، ولم يزل أهل الشكوك ، والعابدون للطبيعة والمادة يثيرون بها على الناس شبها ، ويتوصلون بها إلى إنكار الحياة الأخرى وما فيها من جزاء على الخير بالخير ، وعلى الشر بالشر ؛ وقد أراد إبرهيم مع إيمانه بالله وثقته بقدرته أن يرى من أمرها رأى العين ، وهو يمثل فى هذا التطلب كل متطلع إلى معرفة الحق ، حريص على اجتلائه ، فطلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ؛ قال : فخذ أربعة من الطير فصُرْهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

ومن نافلة القول أن نذكر أن إبرهيم لم يكن مترددا فى الإيمان بقدرة الله إيمانا طبعه الله عليه ، ويسّره له ، وصاغه على نهجه من لدن كان فتى ينازع قومه على الأصنام حتى يحطمها ، ويدعو أباه الى التوحيد ، ويجادل المشركين على الحق المبين ؛ ولكنه طلب صورة أخرى من صور اليقين بعد الإيمان

بالقدرة ، وتطلع إلى ما يتطلع اليه المرء العادى الذى ليس نبيا ولا مؤيدا بوحى ، فسأل « كيف يحيى » ولم يسأل « هل يحيى » لأن « كيف يحيى » إذا تجلت كانت أكبر دليل على صدق « يحيى » ، وكانت لكل من يأتى بعده ومن يفكر بمثل عقله نبراسا مضيئا ، وآية واضحة ؛ فهو فيها متحدث باسم العقل ، متلق للجواب باسم العقل ، متمتع بالطمأنينة والرضى باسم العقل ، فكأنه فى ذلك نائب عن الإنسانية المفكرة كلها فى أهم قضية من قضايا العقل .

ليس كل الناس يجرؤ على هذا الطلب ، وليس كل الناس يرضى بأن يذاع عنه أنه يتطلب علما محسوسا ، وشاهدا ملموسا على قدرة الله الذى آمن به ؛ ولكن إبراهيم يطلب ويجرؤ ويدعو ربه ليصل الى « الاطمئنان » ، ويسد على كل من تحدثه نفسه بالشك منافذ الشيطان . فذلك مثل واضح من أمثلة اتجاهه العملى فى أمر ما يعتقد .

ومثل آخر يتجلى لنا فى صنيعه حين تدرج بقومه إلى إبطال رأيهم وميراثهم الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه الكواكب من شمس أو قمر أو سواهما . وفى ذلك يقول الله عز وجل : « وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ؛ فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون » .

هذا الأسلوب جدير بكل إعجاب وتقدير ، كما هو جدير بالتأمل والنظر ، وفى بعض ما يقوله الناس تفسيراً للقرآن الكريم أو بيانا لقصصه أن إبراهيم كان أول الأمر متحيرا لم يستقر له فى أمر الألوهية قرار ، وأنه تنقل من تأليه كوكب إلى تأليه آخر حتى اهتدى إلى أن هذه الكواكب كلها لا تصلح آلهة ، وأن الله هو الإله الحق ؛ ويؤيدون ذلك بأن الله قدّم بين يدى ذلك أنه يُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ؛ أى أنه تعالى يريد أن يكون إيمان خليله إيمان اليقين لا إيمان التلقين ... وليس ذلك بصحيح ؛ فما كان إبراهيم بمتحير ولا مضطرب فى أمر الألوهية ، ولكنه واثق مطمئن القلب ثابت اليقين ؛ بيد أنه لم يشأ أن يقول لقومه باللسان والشفتين : إن ما أنتم عليه هو الباطل ، ويكتفى بهذا القول ، بل حاكمهم إلى العمل وملابسة الفعل بعد أن

حاجهم وناقشهم بطريق المنطق والعقل ، ليتبين لهم عمليا ضلالهم وما هم عليه من الجهل والتخبط ، فقال : تعالوا نعبد هذه الآلهة ، فلعلى أنا المخطىء المتجنى على الحق ؛ فلفت بذلك أنظارهم ، وسد منفذا مما عسى أن يقوله المفترون من أن إيمانه تلقينى كإيمانهم بما يؤمنون ، وانتهى الأمر به الى أن زيف لهم هذه الآلهة المزعومة واحدا بعد واحد ، لأنه لفت أنظارهم الى مايلابسها مما ينافى الربوبية ، فهى تغيب وتحضر ، وتخفى وتظهر دون أن تملك لما أجريت عليه من سنة تبديلا أو تحويلا ، ودون أن تهدى متبعيها إلى الخير والرشاد . وكيف يكون إبراهيم شاكا متحيرا وهو يرمز لقومه فى أثناء تظاهره باعتقاد القمر « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » فقد تضمن هذا القول البارع قاعدة هى أن الإله الذى يعتقَد هو الذى يهدى ، وتضمن أن هناك قوما ضالين منحرفين عن جادة الحق وسواء السبيل ، وفيه تلميح إليهم ؛ وظاهره مع هذا كله يحتمل أن يكون المراد به القمر ، وأن هذا الرب لايهدى فلا يكون جديرا بالألوهية . وقد صورت لنا هذه الآيات الكريمة تلك الصورة الرائعة ، تصويرا بارعا ، فبدأت بذكر حال ابرهيم وكأنه يشد مئزره ، ويعقد خنصره ، ويتطلع إلى السماء باحثا منقبا ، بل الى الوجود كله ، حتى يعثر على هذا النجم العجيب اللامع المتلألىء ، فيراه فى عالم غير عالمه ، وعلى حالة غير حالته ، فيتوجه إليه بالإيمان والإذعان ، ويقول : هذا ربى . حتى إذا أفل وغاب بدت عليه دلائل التحسر والحيرة والفجيعة ، وعاد يبحث وينقب ، فتوجه الى القمر تارة ، وإلى الشمس تارة أخرى ، وهو فى كل مرة يُفجأ فى الظاهر بما لم يكن يعلم ، ويفاجىء فى الحقيقة بما يعلم ، ثم رفض ذلك كله ، وواجه بالحقيقة قومه قائلا : « ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجَّهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرضَ حنيفا وما أنا من المشركين » .

فهذه أيضا إحدى « عمليات » ابراهيم وهو بصدد إيصال الحقيقة الى قومه ، وتكوين معتقد سليم فى نفوسهم ؛ فهل تُرى يستطيع كثير من الناس أن يقتحموا فى سبيل الإيمان حصنا من حصون الكفر والضلال فى صورة المذعنين المؤمنين الراضخين لما يرضخ إليه أصحابه ، ليخرجوا منه بعد قليل ، وقد قوضوا بنيانه ، وصدعوا أركانه ؟ .

والى العدد القادم إن شاء الله ، فنستوفى بقية الحديث ؟

بين الشريعة والقانون

نظرات فى توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

ا ـ المعاملات التى شرع لها التوثيق :

أتيت فيما مضى على كثير من وجوه الحكمة فى مشروعية التوثيق . وأظننى الآن أصبحت آمنا من تجاهل أناس لقدر التوثيق ، أو تغافلهم عن تقديره على الوجه الصحيح .

وأصبحت كذلك مطمئناً إلى الخوض معهم فى توسع من القول ، حتى أقف بهم عند غاية محمودة من هذا المطاف .

ولعل مما يتشوف إليه القارىء أن يعرف الحكم التكليفى المتعلق بالتوثيق ، ولكن الاختيار عندى أن أرجىء الدخول فى ذلك حتى أنتهى من تحديد وصفى للمعاملات التى شرع لها التوثيق ، وأنتهى من ذكر الوسائل التى يكون بها الاستيثاق ، وحينئذ يكون الحكم بعد تصور القارىء مجارياً لقواعد المنطق ، ومسايراً للعقول .

(ا) لم يكن التوثيق فى اعتبار الشارع مطلوبا ولا سائغا فى كل ما يسمى عند الناس معاملة ؛ وإنما هو فى المعاملة التى اعترفت بها الشريعة ، وسوغتها وسيلة لتبادل الأموال والمنافع ، حتى يكون التوثيق مبنيا على أصل صحيح ؛ إذ هو تصرف مشروع فلا يمكن أن يلتحق بغير مشروع . ومن القواعد المشهورة أن المبنى على الفاسد فاسد ، أو أن الفاسد لا ينبنى عليه صحيح . وعلى ضوء ذلك تكون المعاملات الباطلة بمعزل عن رعايتها بطلب التوثيق فيها ، بل الشارع يزجر عنها ، ويدعو الى التنصل منها .

وسواء أكانت المعاملة باطلة لأنها مما لم يشرع بأصله ، أو لأنها مما لم يشرع بوصفه ، فلا تعلق لها بموضوعنا . فلو أن مسلما باع خمراً أو خنزيراً لمسلم آخر فقد تعاملا فى غير مال محترم ، وذلك غير مشروع بأصله ، ومهما بلغ الثمن حالا أو مؤجلا

فلا موضع هنا للتوثيق ، لأنها معاملة محظورة لا تكسب حقا ؛ وقس على ذلك كل معاملة فى محظور . ولو أن شخصا باع جمله الشارد غير المقدور على تسليمه ، أو باع مالا مغصوبا من سواه ، أو باع سمكا فى ماء غير محوز ولا مرئى فيه ، أو باع فى ساعة النداء للجمعة ، فتلك بيوع لم تشرع بوصفها ؛ ولولا ما فيها من مانع لصحت ، ولكنها على هذا الحال لا تكون محلا للتوثيق الذى هو أثر من آثار صحة العقد .

ولو أن إنسانا استأجر عينا أو شخصا لعمل غير مشروع ، كدار ليجعلها ماخورة ، أو استأجر رجلا أو امرأة للغناء ، أو استأجر باغيا ليرتكب جرما على حسابه ، فكذلك لا موضع للتوثيق هنا ، ولا يثبت بعمل من هذه الأعمال حق فى الأجر ، لفساد العقد فى مثلها من كل نفع محظور . . . وقد سبق لنا ذكر حديث « المسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما » وهو مما يشهد بإهدار كل معاملة مخالفة المشروع بسبب أنها شر محض ، أو بسبب أن وجه المصلحة فيها منعدم ، أو ضئيل بجانب ما فيها من مفسدة . وإذا وقع التوثيق فى شىء من قبيل ما ذكرت فلا يملك أحد المتعاقدين به ما آل إليه من ثمن أو مثمن ، بل كل شىء على ملك صاحبه ، والتوثيق فيها مهمل لا يصحح ما وقع فاسدا .

على أن فساد المعاملات قد استفاض واستشرى حتى أصبح من باطلها ما يخيل للناس أنه مشروع ومفروغ من تناوله بنقد أو تزييف . ومن أمثلة هذا بيع المجهول ، فقد يبتاع تاجر بضاعة غير حاضرة ولا معروفة برؤية ولا بوصف ضابط لما يجرى فيه بيع السلم ، بل اكتفاء ببيان كميتها وثمنها ، وبعد تقدير ربح يرضيانه ، وهو كما حدثنى تاجر ، نوع مما يعرف (بالبيع على الفاتورة) وهو وإن أجازه القانون غير صحيح فى نظر الشريعة . ويجمع كل هذه الصور وأمثالها عموم الحظر فى قوله سبحانه « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وقول النبى صلى الله عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » - باطل - وقوله عليه السلام « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » إذ المعنى ما أخذته من غير طريق مسوغة لأخذه .

هذا جانب سلبى من وصف المعاملات التى يأخذ الناس فيها بالتوثيق وليست محلا ولا صالحة للتوثيق .

أما حينما تصح المعاملات باستيفائها للشروط الفقهية ، فتكون سبيلا الى تملك

العين وثمنها فى المبيعات ، وسبيلا الى استحقاق الأجرة والمنفعة فى الإجارات ، وتكون محلا للتوثيق وتنبنى عليه آثاره . قال سعيد بن جبير رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى « وأشهدوا إذا تبايعتم » : يعنى أشهدوا على حقوقكم إذا كان فيها أجل أو لم يكن فيها أجل ، فأشهد على حقك على كل حال ا هـ .

وكلام سعيد بن جبير هذا يساعد على القول بأن الاستيثاق مشروع فى المؤجل وغير المؤجل من المبايعات وسائر المعاملات والحقوق ، سواء أكانت مشروعية إيجاب أو ندب ، على خلاف بين العلماء ، وسيأتى تفصيله . وكذا يقول الجصاص فى قوله تعالى « إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » : ينتظم سائر عقود المداينات التى يصح فيها الآجال ا هـ .

ويتلخص من هذا أن التوثيق الذى أذنت فيه الشريعة ودعت إليه يكون فى الدين المأذون فى تأجيله ، كما يكون فى البيع وفى سائر الحقوق على ما سلف من كلام سعيد بن جبير .

وقد يقال : إذا كان البيع منجزا وليس فيه تأجيل يخشى من ورائه تجاحد أو نسيان ، فما وجه توثيقه بالإشهاد أو سواه ؟ وجواب ذلك أن التوثيق لضمان العهدة ، وهو ضمان الدرك على ما يسميه الفقهاء ؛ ومعناه أن المبيع مضمون على ذمة البائع ، وأن الثمن مضمون على ذمة المشترى ، فإذا ظهر أن شيئا منهما مستحقا لغير باذله كان باذله ضامنا له بتعويض الآخر ؛ فيضمن البائع ما باعه إذا ظهر ملكا لغيره ، وكذلك المشترى إذا ظهر الثمن غير مملوك له ؛ فالتوثيق هنا لدرء ما يتوقع من الضرر . وبهذا ظهرت حكمة الله تعالى فى إطلاق الأمر من قوله سبحانه « وأشهدوا إذا تبايعتم » . وظهرت كذلك وجاهة كلام ابن جبير فى القول بالإشهاد على الحقوق على كل حال .

فى القانون :

وهذا الذى قلنا من توقف صحة التوثيق على صحة التعامل فى نظر الشريعة مما يأخذ به القانون المدنى المصرى . وفى هذا يقول سعادة كامل مرسى باشا فى كتابه التأمينات ص ٤٨ « وهذا الضمان لا يكون صحيحا إلا إذا انصبَّ على التزام صحيح ، فتكون باطلة كفالة الالتزام المستحيل ، أو المخالف للقانون أو الآداب ، والذى لا سبب له ، أو له سبب مخالف للقانون والآداب ، والالتزام الذى يقع بالإكراه » .

وكذا يوافقنا القانون فى أن الالتزام الصحيح الذى ينصب عليه التوثيق يشمل ما كان مسببا عن عقد ، أو عن إتلاف ، أو غصب .

وفى هذا يقول أيضا كامل مرسى باشا فى ص ٤٩ « وتصح كفالة جميع الالتزامات ، سواء أكانت ناتجة عن العقود ، أم عن أشباه العقود ، أم عن الجرائم المدنية ، أم عن القانون اه ». وشبه العقد مثلوا له بمن يلتزم بعمل لغيره على أن يأخذ أجرته ، فذلك شبه عقد ، وضمان هذا العمل جائز ؛ وكذا شبه الجريمة مثلوا له بمن يتعدى بغير قصد — ص ١٣ الالتزامات للسنهورى باشا .

موافقات ومفارقات :

ومع أن الشريعة والقانون توافقا فى العناية بالتوثيق ووسائله التى سنوضحها بعد ، وتوافقا على أن الغرض منه صيانة الحقوق وضبط المعاملات والبعد بها عن التأثير على الروابط ، فبينهما مفارقات أخرى تقتضيها طبيعة كل من التشريعين .

١ — منها : أن نظم التوثيق فى الإسلام وضعت كما سلف القول مخافة أن تدب الفوضى من هذا الباب الى نظام المجتمع ، فضمنت للناس فى قواعد التعامل والتوثيق ما يدفع عنهم كل حرج ، وأفسحت فى هاتيك القواعد لاحترام العرف الصحيح ومراعاة الضرورات بالقدر الذى لايهدم أصل النظام ، ولا يعود عليه بالنقض فى صورة من صوره ؛ فلم يعد فى المعاملات بعد تكييفها بما كيفتها الشريعة قصور عن مقتضيات الحياة وما يجد فيها من شئون .

وإن توقف أحيانا نظام المعاملات المشروعة عن مسايرة الجديد فذلك لإحجام الباحثين به عن التزود منه ، أو لقصور المدارك عن التطبيق ، لا لقصور فى نفس التشريع ؛ ومن ذلك نفهم مطمئنين أن التشريع الدينى مهيمن على المعاملات باطراد .

أما القانون فإنه مستمد من التجارب ، وسائر وراء الحاجة الوقتية ، ولا يتسع لتقرير كل طارىء يعرض للناس بعد ، فهو مسلم به فى الحاضر ، وقد لا يسلم به فى المستقبل ؛ ومن أجل ذلك يتأثر بالعادات ويضيق بالجديد ، ويقف من حين الى حين عن مسايرة التطور ، حتى يلجأ المشرعون إلى تغييره أو تعديله ؛ وإذن فهيمنة القانون على المعاملة هيمنة وقتية رهينة دائما بتطور الحياة الجماعية ، والحياة فى تطورها لا تسلك سبيلا واحدة ، ولا تثبت على لون واحد ؛ والقانون المدنى يستوحيها فيجيز اليوم ما كان يحظره بالأمس ، ويستقبح الآن ما قد يستحسنه غدا ، وسيظل هكذا فى ذبذبة كان يغنى عنها تشريع الإسلام لو درسوه والتزموه .

٢ — ومن المفارقات أن النظام الديني في المعاملات، وإن كان تشريعا ماديا في جوهره وأغراضه، امتاز برعايته للجانب الخلقي، فهو يعتمد على الضمير، ويربي في المرء روح الخشية، ويناديه أن يحاسب نفسه، وألا يطاوع ميوله فيستحل حق غيره بما لديه من وثائق قد يعلمها غير صادقة، ويصارحه بأن القضاء له على أخيه لا يحل له ما لا يكون حقه باطنا «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون» والنبي عليه السلام يقول «إنكم تختصمون الى ولعل بعضكم يكون ألحن حجة من بعض — أفصح وأقوى — فأقضي له بشيء من حق أخيه، فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فلا يأخذه فإنما أقتطع له قطعة من النار».

ففي تلك الآية وهذا الحديث إشعار للناس بأنه مع الوثيقة التي يطمئن اليها القاضي لا يفلت الإنسان من رقابة الدين. ومن هنا يقول الفقهاء: القضاء ملزم لا مثبت.

أما القانون فلا يتبع خفايا الناس، بل يقنع بالوسائل الظاهرة، ومهما جاز من خطأ القاضي بالنظر للواقع، فمهمة القانون واقفة عند ذلك الحد.

٣ — ومن المفارقات أن الدين لم يكفه أن عرج على الجانب الخلقي أو أيقظ الضمائر، ونفّر من الجور فحسب، بل نصب أمام أعين الناس أهدافا أخروية، وسلك بهم سبل الترغيب والترهيب، ورتب لهم أجزية من المثوبة لمن سار على هدى الشريعة، أو العقوبة لمن اشتط في المعاملة وحاد عن تعاليم الدين «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون»، والنبي عليه السلام يقول «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به».

أما القانون فعنايته بالناحية الشكلية للعاملات، فهو ينظر الى الصحيح وغير الصحيح من حيث المسئولية المدنية، وما يكون مقبولا قضاء وما لا يكون، حتى ليعترف أحيانا بما لا تراه الشريعة بحال؛ فهو يجيز بيع الخمر والخنزير، ويجيز التوثيق في تلك المعاملات وأمثالها، وفيما يترتب عليها من حقوق، ويتسع للقضاء فيها، أو ينهض لتمكين الطالب من المطلوب.

هذه مثل من وجوه الفرق بين التشريعين، وإنها لأكثر من ذلك، ولكننا نرجع عن تتبعها الى بيان الوسائل المشروعة للتوثيق، مهتدين بالكتاب العزيز والحديث الشريف، وللكلام بقية إذا شاء المولى سبحانه؟

موقف المشركين في مكة من القرآن الكريم

ورد القرآن على ما تمسكوا به من شبه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

وقف كفار مكة من محمد عليه الصلاة والسلام ومن كتابه الذى جاء به من عند الله لهداية البشر موقف المعاند المكابر، وأخذوا يتمسكون بشبه واهية وتعلات لا ثبات لها: تواطأوا على الخطأ، وتمالؤا على الكذب، ونصبوا لتقدير الأمور ميزانا من باطل التقاليد والعادات، وأقاموا من الرأى الفطير حكما أوصد على الحق بابا، وضرب على الصراط المستقيم حجابا؛ فكر محصور وطرف حسير، إنما فى وكر الحرص على مبدأ الأسلاف، والعض على الناجذ على الموروث من الآباء، حتى لترى الواحد منهم يخشى أن يفتح الله عليه بالرأى الوجيه والفكر الصائب، ويروعه أن يرى ذهنه يستنير ويذكو، وقريحته تدر وتسخو، ويعد حرية النظر جرما، وإطلاق الفكر فى حيز المعقول إثما، ويزعجه أن يرى الأمم يتبدد جهلها وينمو علمها، والأرض يكثر نورها ويزيد حبورها. وما منيت الأمم برذيلة شر من هذا، ولا ابتليت بمحنة أخطر على حياتها منها. ولقد كانوا فى كل ذلك يتمسكون بشبه واهية، وتعلات لا ثبات لها.

وقد تولى القرآن الكريم الرد على كل ما استندوا إليه من شبه، وعولوا عليه من مفتريات؛ فانماعت تلك الأباطيل وتلاشى أثرها، ولم يبق لهم إلا العناد والجحود مع وضوح الحق وزوال الشكوك والريب، فتارة كانوا يقولون عن القرآن «إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون». فيقول القرآن «فقد جاءوا ظلما وزورا»، ومرة يقولون «أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا». فيقول القرآن «قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض، إنه

كان غفورا رحيما ، وطورا يقولون « ما لهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » فيقول القرآن الكريم « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعـل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ، بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » ويقول أيضاً « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعـام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيرا » . وحينا يقولون لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » فيقول القـرآن فى الرد عليهم « لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا » . وآونة يقولون « لولا نزل هذا القـرآن على رجل من القريتين عظيم » يعنون بالقريتين مكة والطائف ، فيقول القرآن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » أى فليست مقاييس العظمة وموازين السعادة ما تعرفون من كثرة المـال ، وما اعتدتم من وفرة الثراء . وحينا آخر يقولون « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » فيقول القرآن « أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون » . وطورا يقولون « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » فيقول القرآن « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » ويقول « ولقـد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » والمراد بتوصيل القول إنزال القرآن عليهم متواصلا بعضه إثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، أو متتابع الوعد والوعيد والقصص والعبر .

أنكروا نزول القـرآن منجما على حسب الوقائع أو جـوابا لسؤال أو ردا على استفتاء ، وقالوا هلا سلك القرآن مسلك الكتب السماوية واتبع سنة التوراة فى نزولها جملة ، فإن ذلك التدرج فى النزول هو موضع ريبة ومثار شكنا وحيرتنا ؛ فبين الله الحكمة فى نزول القـرآن منجما متتابع النزول بأن فى ذلك تثبيتا لقلب الرسول ومن معه من المؤمنين ، حتى لا يهن فى دعوته ، ولا يضعف فى أداء رسالته ، وتثبيت الرسـول والمؤمنين بمثل الآيات الكريمة كآية « وإن كان كبر عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سُلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » وآية « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » وآية « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » وآية « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » وآية « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معهم متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » وآية « إنك لا تهتدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وقد أرشدهم الله سبحانه وتعالى لحكمة نزول القرآن منجما ونوعها ، فهو يبين لهم فى آية « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » حكمة هذا التوصيل والتنجيم ، وهى أن تدرج القرآن فى النزول ، ووصل بعضه ببعض فيه فائدة عظمى لهم ، هى أن تدبر الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، لا يحتاجون فى الإيمان واليقين إلى مزيد فكر أو نظر ، بل إلى مجرد التدبر . فلو أنهم سمعوا القرآن وتدبروه لما رأيت منهم إنكارا ولا عنادا .

ولقد بلغ من أحدهم وهو الوليد بن المغيرة أن يقول بمجرد سماع القرآن : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر ؛ فقالوا : صبأ الوليد ، نخشى ضياع الرياسة وهو سيد ثقيف ، فقال : أغلب الظن أنه سحر . فنزلت فيه الآيات « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر » الخ .

ومن الحكم فى نزول القرآن منجما : رحمة الله بعباده ، لأنهم كانوا قبل الإسلام فى إباحة مطلقة ؛ فلو نزل القرآ جملة واحدة لثقلت عليهم التكاليف فتنفر قلوبهم عن قبول مافيه .

ومن الحكم أيضا : أن الله قدر أن يكون فى القرآن ناسخ ومنسوخ ؛ لأنه كتاب الخلود الذى يساير الزمن ويمشى مع كل تطور ، وذلك لا يتأتى إلا فى نزوله مفرقا منجما .

ومن الحكم أيضاً : أن تنجيم القرآن أبلغ فى التحدى ، وأقوى أثرا فى الإعجاز . فالقرآن معجزة الرسول الكبرى ، وقد تحدى به العرب وهم أهل اللسن والفصاحة ، البلاغة طوع أمرهم ، والبيان ملك قيادهم ، ملكوا زمام الفصاحة ، وعالجوا كل فن من فنونها ؛ حماسة وفخرا ، وهجوا ومديحاً ورثاء ، ووصفاً ؛ وإذا بالقرآن يفجؤهم ببلاغته الرائعة ؛ فقد وجدوا أمامهم كلاما محكم النسج رصين الديباجة ، متين الأسلوب لا تنبو فيه كلمة عن موضوعها ، ولا يعترى أسلوبه تخاذل أو وهن ؛ فلو نزل القرآن جملة وتحداهم الرسول به وهو ممتد النسق بعيد المرام والغايات ، لكان لهم من العذر مايلبس الحق بالباطل ، ولقالوا إن عجزنا عن معارضته ليس لوهن فى بلاغتنا أوضعف فى بياننا ، ولكن صدفت عنه نفوسنا لطوله ... فنزل مفرقا لتزول شبهتهم وتنقضى تعلاتهم . وكان النبى يغريهم بتحدى القرآن ويثير فيهم الحماسة لمعارضته . فإحجامهم عن ذلك مع انفساح المدة وتراخى الزمن أعظم آية على عجزهم ، وبرهان على أن بلاغة القرآن ليست فى متناول قدرتهم ، وإلا فما بالهم يحجمون لو كانوا قادرين ! .

وهناك حكمة أخرى فى نزول القرآن مفرقا ، تمليها علينا ظروف المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية ، وتهدينا إليها دراسة أحوالهم فى ذلك الحين ؛ فقد كانوا أميين لا يعرفون القراءة ولا يسطرون فى قرطاس ، ونشأ الإسلام بينهم وهم قليل العدد مضطهدون مستضعفون ليس لهم من قوة السلطان ما يحميهم من صولة أعدائهم ، ولا من الأموال ما يمكنهم من تنظيم معاهد العلم والعرفان ، ولا من فراغ الوقت وهدوء البال ما يمكنهم من التوفر على حفظ ذلك الكتاب وفهمه ، بل أحاطت بهم المحن والشواغل من كل صوب ، فكانوا مضطرين الى السعى لتحصيل القوت ، وإلى مقاومة أعدائهم . وظلوا بمكة ثلاثة عشر سنة وسيف الإرهاب والظلم مصلت فوق رءوسهم ، حتى اضطروا الى الهجرة تلو الهجرة عن أوطانهم وديارهم ، للفرار بعقيدتهم ، والنجاة بدينهم ، ولم تكد تستقر بهم الحال فى المدينة حتى عصفت بهم الدسائس والفتن ، وتحزبت عليهم العرب ، فكانوا مضطرين للدفاع والذود عن الحياض ، فكانت معارك وغزوات استنفدت كثيرا من قواهم ، وكانت حياتهم طوال تلك المدة حياة مكافحة وجهاد ومقاومة وجلاد ، فلم يكن من الميسور وهذه

ظروف حياتهم أن يتفرغوا لحفظ كتاب عظيم كالقرآن لو نزل جملة واحدة ؛ فكان ضروريا أن تنزل الآيات مفرقة حتى يستطيعوا حفظها وفهمها ليكونوا أساتذة العالم فى الفقه والتشريع ، وفى كل نواحى الحياة .

وهناك حكمة أخرى يعرفها من درس طبائع الشعوب ، وتطورات الأمم فى نهضاتها : فقد كانت العرب إذ ذاك عريقة فى الوثنية ، متعصبة لها إلى أقصى حدود العصبية ، منحلة فى أخلاقها وعاداتها ، تئد البنات وتقتل الأولاد خشية الإملاق ، وتتعامل بالربا الفاحش ، وتأتى المنكرات سرا وجهرا ، وترث المرأة كما يورث المتاع ، وتكره الفتيات على البغاء ابتغاء عرض من المال ، وكانت الى جانب ذلك تفتك بها الأمراض الاجتماعية وتمزق شملها ، وتقطع المودة فيما بينها . أمة هذه حالتها ، هل من الميسور نقلها من تلك الغرائز والطباع دفعة واحدة وفى عشية أو ضحاها ، وهم يقولون إن الطفرة فى الأمم محالة ، أم الحكمة تقتضى نزول القرآن تدريجيا ليصلح من حالها ، ويشذب ما فسد من أخلاقها وعاداتها الفينة بعد الفينة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قدر لهذه الأمة الأمية التى ترعى الشاء والإبل أن تسود العالم وتملك زمام العمران فى هذا الوجود ، وأن تغير خريطة الدنيا ، فهل من الحكمة أن تصل الى هذه السيادة بدون مؤهلات واستعداد ؟ محال أن تصل الى ذلك إلا بعد أن يلقنها القرآن مبادىء الشورى ، وقواعد السلم والحرب ، ونظم المعاهدات والمحالفات ، وقوانين السياسة والاقتصاد ، ويهديها الى جميل الأخلاق ، ويرتب لها نظام الأسرة القوية ، ويمهد لها سبل التعامل فى الأمم الراقية الناهضة .

هذه هى جملة القول فى حكمة نزول القرآن منجما ، وبها يتجلى أن ما تمسك به المشركون من تلك الشبه أو هى من بيت العنكبوت ، أوهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ؟

الامانة العلمية
وموقف علماء الاسلام منها

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

عُنى الإسلام بالأمانة عناية شديدة ، لمكانها من تنظيم الأمة واستقرار شئونها وتوفير الثقة بين أفرادها وجماعاتها ؛ والثقة فى الأمم أساس نهوضها وعماد رقيها . وما اضطربت أحوال الناس وساءت علاقات الأمم إلا بانعدام الثقة بينهم ، وتوافر سوء الظن فيهم ؛ لهذا عزم القرآن على رعايتها ، وأكدت السنة احترامها ؛ قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وقال عليه الصلاة والسلام « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

وعنى الإسلام عناية خاصة بالأمانة العلمية ، لأثرها فى استقرار الأديان والعلوم وحفظ حقوق العلماء والاعتراف بسبقهم وفضلهم إذا حدث عنهم أو اقتبس منهم ، فحث القرآن وحثت السنة العلماء على التزامها ، وأخذ النفس بها ، واصطناعها فى شئونهم العلمية : حديثا ، ورواية ، وتأليفا ، وكتابة ؛ وكانت سيرة علماء المسلمين فى الميدان العلمى مفخرة من مفاخر التاريخ فى الأمانة العلمية ، يزهى بها العلم ، ويزدهى بها المنصفون من العلماء قديما وحديثا . وإنها لعمر الحق الدستور العلمى الراقى الذى يجب أن يخضع لقواعده العلماء ، لتبرأ نفوسهم وتبرأ أعمالهم من شبهات التدليس والكذب والسرقة . وإن الإنسان ليأخذه العجب من أمانة علماء المسلمين والتزامهم الدقة فيما يروون ويكتبون . وقد دفعتهم تلك الأمانة الى أن يضعوا لها البرامج ، ويؤلفوا فيها الكتب ، ويصطنعوا لها القواعد ، ليسلم لهم شرفهم العلمى ، وتسلم مؤلفاتهم من آفات الادعاء والتدليس . وقد كان العالم يدفعه شرفه العلمى وحفاظه عليه أن يرحل الأيام والأسابيع فى طلب التثبت من كلمة وقعت له ولم يكن قد سمعها من قبل ، أو حديث روى له من طريق لم يرو بها . ولئن كانت تلك الأمانة

فى أولها دينا يدين العالم به ، فقد كانت فيما بعد دنيا وشرفا علميا يشين العالم أن يعرى منه .

وأساس تلك الأمانة من القرآن قوله تعالى : « إن تتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » وقوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » وقوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيننَّه للناس ولا تكتمونه » ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد ؛ من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » الى آيات وأحاديث كثيرة توجب التزام الأمانة فى العلم رواية وتعلما وتعليما .

وقد كانت أعمال النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأعمال الخلفاء من بعد وأعمال العلماء بعد أولئك جميعا، تفصيلا وتطبيقا لهذا الدستور العلمى ؛ تطبيقا يدهش لدقته الناظر فى رياض سيرهم العاطرة . وأول تطبيق عملى ما وقع للخلفاء فى جمع القرآن ؛ فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه لما كلف زيدَ بن ثابت كتابة القرآن وجمعه قال زيد : « والله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن » . وبلغ من أمانة زيد رضى الله عنه وحيطته وحذره واستشعاره ثقل الأمانة العلمية التى وضعت على عاتقه أنه لم يقبل شيئا مما كتب من القرآن حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قرأ حكيم بن هشام آية من القرآن بقراءة لم يسمعها عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه حتى انتهى به الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأهما وقال فى قراءة كليهما : هكذا أنزلت ، وقال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

واصطنع التابعون ومن بعدهم من علماء المسلمين هذا الدستور العلمى فى الحديث وغيره من العلوم . ويطول الحديث فى استقصاء الشواهد على أمانة هؤلاء وتثبتهم ، وما كانوا يتحملون من جهود فى هذا السبيل . وأى أمانة وأى فضل نقدره لهؤلاء العلماء وقد كان أحدهم يرحل فى طلب الحديث الأيام والشهور ليستوثق من صحته حتى يبرأ من العهدة فى روايته وتعليمه .

عن مالك أن سعيد بن المسيب قال : « إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث » .

وحدثوا أن أبا أيوب رحل من المدينة إلى عقبة بن عامر بمصر ، فلما قدم أخبروا عقبة ، فخرج إليه ، قال : حدثنا ما سمعته من رسول الله فى ستر المسلم ، لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر مسلما على خزية - بالزاى المعجمة : الذنب يستحيا منه - ستره الله يوم القيامة » . فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حل رحله .

ومن التثبت العلمى والتحرز من الخطأ فيه اقتصادهم فى الفتوى حتى بما يعرفون. وعن البراء رضى الله عنه قال : « أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يُسأل أحدهم عن المسألة ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه كفاه » . وقال الإمام أحمد رضى الله عنه : « من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم ؛ إلا أنه قد تلجىء إليه الضرورة . قيل له : فأيما أفضل : الكلام أم السكوت ؟ قال : الإمساك أحب إلى . قيل له : فإذا كانت الضرورة ؟ فجعل يقول : الضرورة الضرورة ! . وقال : الإمساك أسلم . وليعلم المفتى أنه يوقع عن أمر الله ونهيه ، وأنه موقوف ومسئول عن ذلك » .

وقد حملت الأمانة العلمية أبا داود السجستانى صاحب السنن أن يقول عن ابنه أبى بكر : إنه كذاب ، كما رأى فيه .

وكان طائفة من علماء الحديث يحرقون كتبهم تورعاً عن أن يأخذ الناس عنهم ما عدوه من سيئات أنفسهم فيسندوه إليهم . وقد يكون فيه الباطل والموضوع والمنكر وما لا يعرفه إلا صاحبه . ومنهم من كان يغسل كتبه لأنها جلود . ومن أغرب ما جاء عنهم أن بعضهم أوصى أن تدفن كتبه معه ، فدفنت

وفى كيفية التثبت والاحتياط فى الأمانة العلمية وضع العلماء علم الرواية أو مصطلح الحديث ، وهو علم واسع الأطراف ضافى الذيول والحواشى ، بين فيه ما ينبغى فى الحديث ليكون مقبولا ومعتمدا به ، وما ينبغى فى الراوى ليكون ثقة يعتمد على حديثه وروايته . ولهم فى تقسيم الرواية والراوى وبيان منازلهم ووزن مراتبهم العلمية الممتع المعجب .

وهنا أبادر فأنهى عن ظن القارى أن تلك الأمانة إنما التزموها فى القرآن وفى الحديث وعلومها لمكان ذلك من الدين — وللدين وعلومه سلطان على

النفوس — بأن تلك الأمانة إنما كانت نصب أعينهم فى كل ما عالجوه من العلوم. وفى تاريخ اللغة والنحو والصرف وغيرها شواهد ناطقة بدقة علماء المسلمين وأمانتهم. وكانوا لا يروون اللغة والنحو إلا بأسانيدهما، وكانوا يرحلون الى البوادى ويطوفون بها للنقل والاستيثاق والتثبت.

وظلت الأمانة العلمية رائد علماء المسلمين إلى عهود قريبة. ولقد أدركنا من شيوخنا من كان يتحرج أن يطمس على ما يصادفه من خطأ فى الكلمات، ويؤثر أن يشير عليه بعلامة، ويكتب فى مقابلها على الهامش: لعل الصواب كذا. ذهابا منه إلى احتمال أن يكون هناك وجه من التأويل الصحيح لظاهر هذا الخطأ. وكانوا يحرصون كل الحرص على أن ينسبوا كل قول إلى صاحبه اعترافا بالفضل وتفصيا من المسئولية، ولهم اصطلاحات خاصة بذلك.

هذه إلمامة يسيرة بتاريخ الأمانة العلمية ونظر علماء المسلمين إليها، وهى من المفاخر التى سبقت بها الحضارة العلمية الإسلامية، وقد اصطنعها أخيراً العلماء الأجانب مع تعديل فى وسائلها، فظن بعض أهل العلم خطأ أنها منهج أجنبى مستحدث، ولكنها فى الواقع منهج ثقافى إسلامى قديم.

وقد اعترى الأمانة العلمية ما اعترى الناس والزمان من فساد، وصار بعض العلماء والمؤلفين لا يبالى بما ينقل، ولا يتحرى وجه الصواب فيه، ويحاول جاهدا أن يختلس من العلماء ثمرات قرائحهم، وذوب قلوبهم وعصارات أكبادهم، ناسباً ذلك إلى نفسه كذبا، وطلبا للشهرة، والتماسا للمنالة والربح الحرام، وصار لصوص العلم أشد خطرا من لصوص المال والمتاع. وطلب بعض العلماء حمايتهم من هؤلاء اللصوص، فاضطرت حكومات كثيرة لوضع قوانين تحفظ للمؤلفين حقوقهم فى مؤلفاتهم وتعاقب المعتدين عليها، وهيهات أن يقوم الوازع القانونى مقام الوازع النفسى.

وإنه للعار كل العار أن يُسلك بعض العلماء فى سلك اللصوص وقطاع الطريق، وينتظم الجميع قانون العقوبات، ولكنه سلطان المادة القاهر، وظروف الحياة القاسية، قضى على الفضائل حتى فى نفوس بعض العلماء

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تفسير سورة الليل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة

قال تعالى : « إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى » :

بيان وجه الربط :

وجه الربط : أن الله سبحانه وتعالى ، لما عرف المخاطبين ، فيما تقدم ، أن أعمالهم مختلفة ، ومساعيهم متفرقة ، وبين ما للمحسنين من التيسير لليسرى ، وما للمسيئين من التيسير للعسرى ـ أخبرهم هنا بأن عليه بمقتضى حكمته بيان الهدى من الضلال .

بيان المعنى التفصيلى :

« الهدى » هنا بمعنى الاهتداء ويقابله الضلال . وكلمة «علينا» تفيد الوجوب . والله تعالى لا يجب عليه شىء ؛ فالمراد الوجوب بمقتضى الحكمة . و « الآخرة » الدار الآخرة . و « الأولى » دار الدنيا .

والمعنى الإجمالى : إن علينا بموجب قضائنا المبنى على الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للعبادة ، أن نبين لهم طريق الاهتداء من طريق الضلال ، ليمتثل أمرنا بسلوك الأول ، ونهينا بالنكوص عن الثانى ، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه ، حيث بينا حال من سلك كلا الطريقين ترغيباً وترهيبا . وإن لنا ملك كل ما فى الدنيا والآخرة ، فلا ينفعنا اهتداؤكم ، كما لا يضرنا ضلالكم ، بل نفع ذلك وضرره عائدان عليكم . «فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها» .

وإنما قدم الآخرة فى الذكر مع أنها الآخرة فى الوجود ، ليبادر إلى تأكيدها وأنها كائنة لا محالة إذا جاء وقتها وحضر أوانها .

ثم قال تعالى : «فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذى كذب وتولى» .

هذا متفرع على كون الهدى عليه سبحانه وتعالى ، فكأنه قال : إن بيان طريق الهدى علينا ، فبيناه بالإنذار والتخويف والتحذير والتهديد . و « الإنذار » هو التخويف . والخطاب لأهل مكة الذين كذبوا وأعرضوا ، وخالفوا وعاندوا .

ومعنى « تلظى » تتوقد وتتلهب وتتوهج . وأصله تتلظى ، فحذفت منه إحدى التاءين . ومعنى « يصلاها » يدخلها أو يقاسى حرها .

والمراد بـ « الأشقى » الكافر ، فإنه أشقى من الفاسق ، ويفصح عن ذلك وصفه بقوله تعالى : « الذى كذب وتولى » .

وقد استشكل المفسرون هاهنا الحصر فى قوله تعالى : « لا يصلاها إلا الأشقى » من حيث إنه يقتضى أنه لا يدخل النار إلا الكافر ، أما المؤمن العاصى فلا يدخلها أصلا ، لأنه ليس داخلا فى عموم الأشقى الموصوف بما ذكر ، مع أن قوله تعالى بعده : « وسيجنبها الأتقى » يقتضى بمفهومه أن غير الأتقى ، أعنى التقى فى الجملة ، وهو المؤمن العاصى لا يجنبها بل يصلاها . فهو مخالف لما استفيد من الأول .

والجواب : أن معنى لا يصلاها الخ - لا يدخلها دخولا مؤبدا إلا الكافر . أما الفاسق فإما أن لا يدخلها إن عفى عنه ، وإما أن يدخلها دخولا مؤقتا .

المعـنى الإجمالى :

إن بيان طريق الاهتداء من طريق الضلال علينا ، فبينَّاه لكم حيث خوفناكم بالنار التى لا يلازمها على الدوام إلا الكافر الذى كذب محمدا ، وأعرض عن طاعة ربه ، وأمعن فى عتوه وبغيه .

ثم قال تعالى : « وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .

المعـنى :

سيبعد عن النار ويصرف عنها ، المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الذى يصرف ما له طالبا أن يكون عند الله زاكيا ناميا ، لا لرياء ولا سمعة ، ولا لمقابلة نعمة وصلت إليه يريد مكافأتها ومجازاتها ، ولكنه أنفق وأعطى ، وتصدق ، وبذل لطلب رضا ربه وقصد غفران ذنبه . وبالله لسوف يرضى ذلك الأتقى الذى أنفق وبذل ، بما يعطاه من الثواب العميم ، والأجر العظيم . فهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا .

والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه . ونستغفر الله العظيم ؟

الركن الشرعي للجريمة

فى الشريعة الاسلامية وفى القوانين الوضعية

سريان القانون على الزمان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
قاضى محكمة سمالوط

أوضحنا فيما تقدم أن التشريعات الحديثة تقضى بأنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص ، ولا يكفى للعقاب أن ينص المشرع على الجريمة وعلى عقوبتها ، بل لابد من أن يكون النص ساريا على زمان الجريمة ، أى على الوقت الذى ارتكبت فيه الجريمة ؛ فإذا ارتكب شخص فعلا ما ولم يكن المشرع يعاقب عليه وقت ارتكابه ، فلا يجوز عقاب هذا الشخص إذا صدر بعد ذلك قانون يعاقب على الفعل المذكور ؛ وذلك لأنه لم يكن معاقبا عليه وقت ارتكابه .

ونحن نرى أن الشريعة الغراء تستلزم أن يكون النص ساريا على زمان الجريمة ؛ ولا أدل على ذلك من قوله سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حُرُم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاءٌ مثلُ ما قَتَل من النَّعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ أو عَدلُ ذلك صياما ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » وقوله « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » وقوله « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » . فهذه الآيات قاطعة فى أنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذ عباده عما وقع مخالفا لأحكامها قبل نزولها والعمل بها .

وإن الراجع الى كتب الفقه الإسلامى يجد أن الفقهاء قد تعرضوا لمبدأ سريان القانون على الزمان ، وحتموا العمل به ؛ فهم يستلزمون لإمكان عقاب

الجانى ، وإقامة الحد عليه ، أن يكون عالما بالتحريم ، أى عالما أن الفعل الذى ارتكبه محرم ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا وجد نص يعاقب عليه - كما هو تعبير التشريعات الحديثة - أما إذا كان جاهلا بالتحريم فلا شىء عليه : لأنه سبحانه وتعالى يقول : « لأنذركم به ومن بلغ » فإن الحجة على من بلغته النذارة لا من لم تبلغه ، وقد قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وليس فى وسع أحد أن يعلم ما لم يبلغه لأنه علم غيب ، وإذا لم يكن فى وسعه فهو غير مكلف به . وقد ذكر الفقهاء أنه يكفى للعقاب علم الجانى بالتحريم ، ولا يشترط أن يكون عالما بالحد ، لأنه متى علم أن الفعل حرام فقد وجب عليه أن يمتنع عن ارتكابه ، فإذا أقدم عليه رغم علمه بالتحريم فقد حق عليه العقاب ، علم بالحد أو لم يعلم به . وإذا ادعى الجانى أنه لم يكن يعلم بالتحريم فإن الفقهاء أجازوا قبول دعواه إذا كان قد نشأ بعيدا عن دار الإسلام ، أو كان قريب عهد بالاسلام . وقد اختلف الفقهاء فى قبول الادعاء بجهل تحريم الزنا ، فذهب بعضهم إلى قبول هذا العذر ، ويستندون فى ذلك إلى ما رواه سعيد بن المسيب قال : ذكر الزنا بالشام ، فقال رجل : زنيت البارحة . قالوا ما تقول ؟ قال : ما علمت أن الله حرمه ؛ فكتب بها الى عمر ؛ فكتب : إن كان يعلم أن الله حرمه فحدوه ، وإن لم يكن يعلم فأعلموه وإن عاد فارجموه . ويستشهدون أيضاً بما روى من أن جارية سوداء رفعت الى عمر رضى الله عنه وقيل إنها زنت ، فخفقها بالدرة خفقات ، وقال أى لكاع ! زنيت! (اللكع اللئيم والمرأة لكاع) . فقالت من غواش بدرهمين - تخبر بصاحبها الذى زنى بها ، ومهرها الذى أعطاها - فقال عمر : ما ترون ؟ وعنده على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ؛ فقال على رضى الله عنه : أرى أن ترجمها ، وقال عبد الرحمن : أرى مثل ما رأى أخوك . فقال لعثمان : ما تقول ؟ فقال : أراها تستهل بالذى صنعت لا ترى به بأساً ، وإنما حد الله على من علم أمر الله عز وجل ، فقال : صدقت .

وقد رأى بعض آخر من الفقهاء أنه لا يقبل من الجانى قوله إنه كان يجهل حرمة الزنا ، لأن الزنا حرام فى كل ملة ودين[1] .

---

[1] المحلى ج ١١ ص ١٨٨ ، المغنى ج ١٠ ص ١٥٦ ، الشرح الكبير ج ١٠ ص ١٢٠ ، ابن عابدين ج ٣ ص ١٥٤ ، الاقناع ج ٢ ص ٢٣٠ ، اعانة الطالبين ج ٤ ص ١٤٣ ، ١٥٠ ، المهذب ج ٢ ص ٢٨٥ .

والقاعدة التى تستخلص من أقوال الفقهاء هى أنهم جعلوا إقامة الشخص بين المسلمين قرينة على أنه يعلم الحرام من الحلال فى الدين، لأنه وهو بين المسلمين يعلم بالاستفاضة ما حرم وما حل ، وقد استعاضت عن ذلك الدول الحديثة بجعل نشر القوانين فى الجريدة الرسمية قرينة على العلم بها ، وليس فى هـذا ما يخالف أحكام الدين ؛ لأن فقهاء الشريعة كثيرا ما يقرنون الحكم بعلامة ظاهرة واضحة تعميما له ومنعا من الدخول فى تفاصيل كل حالة ؛ ومن ذلك أنهم جعلوا البلوغ دليلا على كمال العقل مع أن أحوال البشر تتفاوت فى صفة كمال العقل ، فأقام الشرع اعتدال الحال بالبلوغ عن عقل ، مقام كمال العقل فى بنائه إلزام الخطاب عليه ، تيسيرا على العباد . ثم صار صفة الكمال الذى يتوهم وجوده مثل هـذا الحد ساقط الاعتبار ، وتوهم بقاء النقصان بعد هذا الحد كذلك ، لما عرف أن السبب الظاهر متى قام مقام المعنى الباطن تيسيراً ، دار الحكم معه وجوداً وعدماً [١] .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن أحد علماء الدين فى العصر الحاضر رجح أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم الحد على أصحاب حديث الإفك ، واستند فى ذلك الى أن ما حصل من أهل الإفك سابق على تشريع حد القذف ، فلا يصح أن يؤخذوا به ؛ لأنه لم يكن قائما وقت ارتكاب جرمهم ، ولعله لو كان قائما قبل هذه الحادثة لمنعهم من ارتكاب ذلك القذف ، ولم يحصل منهم ما يوجب إقامته عليهم ؛ ولا شك أن الحدود زواجر قبل أن تكون جوابر (أى كفارة لمن تقام عليه) . فإذا لم يحصل الزجر بها قبل تشريعها لم يكن من العدل أن يؤخذ بها من ارتكب شيئا قبلها ، بل لا بد من الزجر بها أولا ثم يكون العقاب بها ثانيا [٢] .

ذكرنا أن القانون الجنائى لا يسرى على الماضى ، ولكن التشريعات الحديثة تستثنى من ذلك حالة صدور قانون يبيح الفعل الذى ارتكبه الجانى أو يخفف العقاب عليه ، وذلك إذا صدر هذا القانون قبل الانتهاء من المحاكمة . والعلة فى ذلك هى أن المشرع بإباحته الفعل أو تخفيف عقوبة مرتكبه قد راعى صالح المجتمع ، ويجب أن يستفيد من ذلك الجانى الذى لم يصدر عليه حكم نهائى بعد . ونذكر

---

[١] الأهلية وعوارضها ص ٥٤٤ وقد ذكر هذا النص نقلا عن الامام حافظ الدين النسفى .

[٢] القضايا الكبرى فى الاسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ١٧ .

على سبيل المثال نص المادة الخامسة من قانون العقوبات المصرى ؛ فهى تقضى بأنه يعاقب على الجرائم بمقتضى القانون المعمول به وقت ارتكابها .

ومع هذا إذا صدر بعد وقوع الفعل وقبل الحكم فيه نهائيا قانون أصلح للمتهم ، فهو الذى يتبع دون غيره .

وإذا صدر قانون بعد حكم نهائى يجعل الفعل الذى حكم على المجرم من أجله غير معاقب عليه ، يوقف تنفيذ الحكم وتنتهى آثاره الجنائية .

غير أنه فى حالة قيام إجراءات الدعوى أو صدور حكم بالإدانة فيها ، وكان ذلك عن فعل وقع مخالفا لقانون ينهى عن ارتكابه فى فترة محددة ، فإن انتهاء هذه الفترة لا يحول دون السير فى الدعوى ، أو تنفيذ العقوبات المحكوم بها .

وقد أفاض علماء القانون فى بحث معنى القانون الأصلح للمتهم ، وفرقوا فى عدم سريان القانون على الماضى بين القوانين التى تقرر نصوصا موضوعية ، والقوانين التى تنظم إجراءات التقاضى ، واعتبروا — بصفة عامة — أن القوانين الموضوعية هى التى لا تسرى على الماضى . أما قوانين الإجراءات فتسرى على الوقائع التى ارتكبت قبل العمل بها ، وذلك على تفصيل ليس هنا مجال ذكره .

وإن الأحكام التى يذكرها علماء القانون فى هذا الخصوص ليس فيها ما ينافى أحكام الشريعة، وهى أحكام قائمة على تفسير النصوص مع مراعاة النظام القضائى للدولة، وجميعها ليس فيها ما ينافى الأصول العامة للشريعة ، ويمكن الأخذ بأصلح الآراء وتطبيقها مع النصوص الشرعية بغير تعارض بينها ، خصوصا وأن المبدأ الأصلى — وهو سريان القانون الأصلح للمتهم على الماضى — هو من أحكام الشريعة . نجد ذلك الحكم واضحا فى قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . وسبب نزول هذه الآية كما نقله القرطبى عن الطبرى « أن عمر رضى الله عنه رجع من عند النبى صلى الله عليه وسلم وقد سمر عنده ليلة ، فوجد

امرأته قد نامت ، فأرادها ، فقالت له : قد نمت ؛ فقال لها : ما نمت ، فوقع بها . وصنع كعب بن مالك مثله ، فغدا عمر على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أعتذر الى الله وإليك ، فإن نفسى زينت لى فواقعت أهلى ، فهل تجد لى من رخصة ؟ فقال : لم تكن حقيقا بذلك يا عمر . فلما بلغ بيته أرسل اليه فأنبأه بعذره فى آية من القرآن ».

واضح من الآية السابقة وسبب نزولها أن عمر بن الخطاب وكعب بن مالك ارتكبا أمرا محرما ، وهو مباشرتهما زوجتهما فى وقت غير جائز فيه ذلك ، ثم أجاز الله سبحانه بعد ذلك هذا الفعل فى مثل ذلك الوقت ، ولم يطلب ممن أتى هذا الفعل قضاء أو كفارة ، بل تاب عليهم وعفا عنهم ، لأنه سبحانه لا يؤاخذ عباده على ما صار مباحا بعد أن كان حراما ، وليس العفو فى مثل هذه الحالة إلا ما سماه علماء القانون تطبيق القانون الأصلح للمتهم .

البلاغة

كان خالد بن صفوان ، وهو من البلغاء المعدودين ، والخطباء المشهورين ، يروى عنه أنه قال : لا تكون بليغاً حتى تكلم أمتك السوداء فى الليلة الظلماء ، فى الحاجة المهمة ، بما تتكلم به فى نادى قومك . وإنما اللسان عضو إذا مرنته مرن ، وإذا تركته كان كاليد تخشنها بالممارسة ، والبدن الذى تقويه برفع الحجر وما أشبهه ، والرجل إذا عودت المشى مشت .

وقال محمد كاتب إبراهيم ، وكان شاعراً راويا وعلامة ، قال : سمعت أبا داود ، وجرى شىء من ذكر الخطب ، وتمييز الكلام ، فقال : تلخيص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق فى غير أهل البادية نقص ، والنظر فى عيوب الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

الرياسة الدينية العامة

١ — الشيخ محمد عبد الله الخرشى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب منصور
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

تنص المادة السادسة من المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ بإعادة تنظيم الجامع الأزهر بأن « شيخه هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين ، والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى أهل العلم وحملة القرآن الشريف ، سواء أكانوا منتمين الى الأزهر أم غير منتمين اليه » .

ولما لهذه الرياسة من خطر فى الشرق والغرب ، وكنا على أبواب الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، رأيت مساهمة منى فى تجلية بعض نواحى هذا المكان المقدس أقدم جامعة موجودة على ظهر الأرض ؛ رأيت مخلصا ما سجا ليل ووضح نهار وما رسا حُبْشى ، أن أكتب فى هذه الناحية ، راجيا أن يكون جهدى هذا الضئيل الذى سأقدمه لمكان له الفضل كل الفضل على ، راجيا أن يكون للخير وفى سبيل الخير . وكنت قد كتبت فى مجلة الأزهر فى العام الماضى حينما خطرت لى فكرة أن نستعد لهذا العيد الخالد إن شاء الله ، كتبت فى التاريخ العلمى للأزهر ، ولكن بدا لى بعد ذلك ما جعلنى أحتفظ بهذا الموضوع لمحاضرة أو محاضرتين فى أيام العيد ، فهذه ناحية أخرى تستحق العناية والتفكير ، وهى من جملة ما يؤهلنا للبلوغ بالعيد كماله المنشود ، وأحب أن أقدم لبحثى بقول الشاعر الحكيم : « لا ينبغى أن يخجل المرء حين يقول كنت على خطأ ، فليس قوله هذا إلا كقوله بعبارة أخرى إننى اليوم أعقل مما كنت قبل اليوم » . هذه كلمة أومن بها أو على الأقل أسوس نفسى على الإيمان بها ؛ فمن عاون على الحق فى ذلك كنت له شاكرا . لذلك سيتسع صدرى لكل نقد ، شاكرا لصاحبه أنعمه ؛ غير أنى مع ذلك أشعر أو يجب أن أشعر أنى حر الفكر ، لى أن أجارى ، ولى أن أخالف .

فبعض الأزاهر لا عطر فيه وبعض الأزاهر زاه وعاطر

وإذا تتبعنا تاريخ هذه الرياسة على هذا النحو تقريبا ، نراها تبتدىء من العصر التركى .

فأول شيخ تولى مشيخة الأزهر هو الشيخ محمد عبد الله على الخرشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ نسبه الى قرية من قرى مديرية البحيرة اسمها « أبو خراش » . وهذه القرية يقول عنها المرحوم على مبارك باشا فى خططه [١] : إنها بقسم شبراخيت واقعة فى بحرى الكوكبة بنحو ستمائة متر ، وفى قبلى « محلة نابت » بنحو ثمانمائة متر ، وأبنيتها باللبن ، وبها جامع ضريح ولى عليه قبة ، وفى مشرقيها ضريح سيدى عطية ، وبها أبعادية لمنصور باشا بن أحمد باشا يكن ، وفيها لعمدتها محمد عمر دوار ومضيفة وزراعة متسعة نحو ألف فدان ، وبها بستان نضر ، وأكثر أهلها مسلمون » .

والشيخ الخرشى هذا ترجمه الشيخ على الصعيدى العدوى فى حاشيته على شرحه الصغير لمتن خليل ، فقال : « هو العلامة الإمام ، والقدوة الهمام ، شيخ المالكية شرقا وغربا ، قدوة السالكين عجما وعربا ، مربى المريدين ، كهف السالكين ، سيدى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن على الخرشى ، ونسب عصبته بأولاد صباح الخير ، انتهت اليه الرياسة فى مصر حتى لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته وطلبة طلبته ، وكان متواضعا عفيفا ، واسع الخلق ، كثير الأدب والحياء ، كريم النفس ، جميل المعاشرة ، حلو الكلام ، كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، مهيب المنظر ، دائم الطهارة ، كثير الصمت ، كثير الصيام والقيام ، زاهدا ورعا ، متقشفا فى مأكله وملبسه ومفرشه ، ولا يصلى الصبح صيفا ولا شتاء إلا بالجامع الأزهر ، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته فى منزله . يقول من عاشره : ما ضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه ، وكان إذا دخل منزله يتعمم بشملة صوف بيضاء ، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية ، واشتهر فى أقطار الأرض ، كبلاد الغرب والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب ، مع السهولة إيثارا

---

(١) جـ ٩ ص ٢١

لوجه الله تعالى ، ولا يمل فى درسه من سؤال سائل ، لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقانى وأبى الضياء على الأجهورى . وكان أكثر قراءته بمدرسة الاقبغاوية . وكان يقسم متن خليل نصفين : نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن ، ويقرأ النصف الثانى فى اليوم الثانى ؛ وكان له فى منزله خلوة يتعبد فيها ، وكانت الهدايا والنذور تأتيه من أقصى الغرب وغيرها فلا يمسك منها شيئًا بل أقاربه ومعارفه يتصرفون فيها .

أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام كالعلامة الشيخ على الأجهورى ، وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ يوسف الفيشى والشيخ عبد المعطى البصير ، والشيخ يس الشامى ، ووالده الشيخ عبد الله الخرشى . وتخرج عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو مائة ، منهم العارف بالله الشيخ أحمد اللقانى ، والشيخ محمد الزرقانى ، والشيخ على اللقانى ، والشيخ شمس الدين اللقانى ، والشيخ داود اللقانى ، والشيخ محمد النفراوى ، وأخوه الشيخ احمد ، والشيخ الشبراخيتى ، والشيخ أحمد الفيومى ، والشيخ ابراهيم الفيومى ، والشيخ أحمد الشرفى ، والشيخ عبد الباقى القلينى ، والشيخ على المجدولى . ولما توفى فى صبيحة يوم الأحد السابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١١٠١ دفن مع والده بقرب مدفن الشيخ العارف بالله سيدى محمد البنوفرى بوسط تربة المجاورين .

يقول : وقبره مشهور ، وما رأيت فى عمرى أكثر خلقاً من جنازته إلا جنازة الشيخ سلطان المزاحى ، والشيج محمد البابلى .

وله مؤلفات ، منها شرحه الكبير على متن خليل ثمانية أجزاء ، وشرحه الصغير على خليل أيضا أربعة أجزاء ، وله جزء فى الكلام على البسملة نحو أربعين كراسة ، وغير ذلك .

هذا هو الشيخ محمد الخرشى أول شيخ من أبناء الأزهر تولى هذه الرياسة الدينية العامة . وبهذه المناسبة أقول : إن مصر أول ما عرفت من مذاهب الفقهاء عرفت مذهب مالك ؛ فلقد دخلها به عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح . توفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ ، فى أيام الليث بن سعد ، واشتهر بمصر هذا المذهب ،

ولم يزل مشتهرا حتى قدم محمد بن إدريس الشافعي في سنة ١٩٨ . أما مذهب أبي حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعي . والحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا في القرن السابع .

وكان التفاف الناس في ذلك العصر حول مذهب مالك والشافعي أكثر من التفافهم حول مذهب أبي حنيفة ، حتى إن مدرسة محمد بك أبي الذهب قبيل عصر الشيخ الخرشي بقليل لما وظف بها المدرسون وكانوا ستة عشر مدرسا ، كان منهم سبعة من شيوخ الشافعية ، وستة من شيوخ المالكية ، وثلاثة من شيوخ الحنفية .

وكان الإفتاء في ذلك الوقت لا يقتصر على مذهب بعينه ، بل كان لكل مذهب مفتى . وكان المفتون يجلسون بعد دروسهم لإفادة الناس ، فكان بجامع محمد بك ثلاثة أماكن برسم جلوس ثلاثة من المشايخ المفتين ، فقرر الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتى الحنفية ، والشيخ الكفراوي مفتى الشافعية .

وكان الأزهر يتولى شئونه أول عهده رجل يسمى مشرف . وفي عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً . منهم الأمير الطواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية ، ولى نظره في سنة ٧٨٤ هـ وهو الذي أنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضا إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعي . ومنهم الأمير سوروب القاضي حاجب الحجاب ، ولى نظره سنة ٨١٨ . أما تلك الرياسة الدينية العلمية فعرفها الأزهر في العهد التركي بلقب « شيخ الأزهر » . ولقد توالى على هذه الرياسة منذ إنشائها حتى الآن ثلاثون شيخا ، أولهم الشيخ الخرشي هذا .

ويشغل الرياسة الآن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي مد الله في عمره ، وجعله للأزهر سندا ؟

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
مبعوث الأزهر لتدريس علوم الدين بكلية المقاصد الإسلامية فى لبنان

الكتب التى تؤلفها الناس تكون عادة مقسمة الى أبواب ، كل باب يتناول طائفة من المسائل لا يتناولها الباب الآخر ، فما على طالب الحقيقة فى كتاب من هذه الكتب إلا أن ينظر أين ذكرت هذه الحقيقة ، وفى أى الأبواب ، فيعمد إليها حيث هى فيدرسها دون حاجة تحدوه نحو الأبواب الأخرى .

لكن كتاب الله المنزل وإن كان مقسما الى سور فإن السورة الواحدة غالبا لم تكن مخصصة لحقيقة واحدة ، والحقيقة الواحدة قد لا تذكر فى سورة واحدة وإنما تذكر فى عدة سور ، فعلى طالب حقيقة فى كتاب الله أن يحرب أن لا يقتصر على طلبها فى موضع واحد ، فإنها قد تكون فى هذا الموضع متحجبة بحجاب من الإجمال واحتمال التأويل ، بينما هى فى موضع آخر تسفر فتبدو واضحة لا تحتمل التأويل . وقد تتكشف فى موضع عن إحدى جهاتها ، بينما هى فى المواضع الأخرى تتكشف عن جميع جهاتها . وذلك مظهر من مظاهر تكرار المعنى الواحد فى أكثر من سورة بعبارات تختلف لاختلاف المقام إيجازا وإطنابا وتقديما وتأخيرا وذكرا وحذفا ونحو ذلك ، وهو بالتالى عامل من العوامل التى تحفز الهمم الى حفظ كتاب الله على وجه الإحاطة به ، بحيث لا يذكر بعضه وينسى بعضه ؛ فيؤمن ببعضه ويكفر ببعضه .

لنأخذ مثلا : مسألة كمسألة استراق الشياطين السمع ورجمهم بالشهب ؛ فإنها ذكرت فى أربع سور قد تكون فى سورة منها محتملة للتأويل الذى ينفى هذه الحقيقة ويستبعدها على حكمة الله ودقة نظامه فى ملكه ، بينما هى فى سورة أخرى لا يتطرق إليها شىء من الشك وقبول التأويل . فقد جاءت فى سورة الملك على هذه الصورة « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » . وجاءت فى سورة الصافات على هذه الصورة « إنا زينا السماء الدنيا بزينة

الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد، لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويُقذَفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب». وجاءت فى سورة الشعراء على هذه الصورة «وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون». ثم جاءت فى السورة نفسها على هذه الصورة «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم. يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون» وجاءت فى سورة الجن على هذه الصورة «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رَصَدا».

لست الآن بصدد شرح هذه الآيات التى تجلو هذه الحقيقة، فكتُب التفسير والحديث فيها ما يشفى ويكفى؛ لكنى الآن بصدد أن أقول: إن هذه الحقيقة قد توجه إليها استعارات[1] مجردة عن دليل مقنع، وتشكيكات معززة بأقيسة غير تامة، وقد يقوم فى طريق تصديق العقل بها بعض الصعوبات والاعتراضات؛ لكننا بعد هذا كله، وقبل هذا كله، ومع هذا كله، لا نستطيع أن ننفى حقيقة جاءت فى كتاب الله بمثل هذا الوضوح، وما هانت حقائق كتاب الله العزيز حتى يعمد الى إنكارها بمثل هذه السهولة، وليس يصح فى كتاب الله شىء إذا لم تصح فيه هذه الحقيقة.

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ثم لنأخذ مثلا آخر، ولتكن مسألة استغفار ابراهيم لأبيه؛ هذه المسألة التى وردت فى عدة سور على أنماط مختلفة، فقد حكيت العدة بها من إبراهيم لأبيه فى سورة مريم حيث يقول «سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا» وورد تنفيذ هذا الوعد وتحقيقه فى سورة الشعراء حيث يقول «رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين، واجعلنى من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبى إنه كان من الضالين» وورد بيان الحامل لإبراهيم على هذا الاستغفار فى سورة التوبة حيث يقول الله «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأوّاه حليم» وورد استثناؤه من التأسى بإبراهيم فى سورة الممتحنة حيث يقول تعالى «قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم

---

(١) راجع مجلة الأزهر عدد ربيع الثانى ١٣٦٨ مقال المجاز والكناية فى القرآن لفضيلة الشيخ حامد محيسن.

والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » .

لست الآن بصدد شرح هذه الآيات وتفسيرها ، فذلك شيء يجب الفراغ منه قبل التصدى لمثل هذه الدراسة المقارنة التى تنجم عنها إشكالات لا يكاد يتعرض لها المفسرون ، وذلك كمثل ما عسى أن يقال فى هذه المسألة بالذات : كيف حكيت العدة من إبرهيم لأبيه مؤكدة تارة فى قوله فى سورة الممتحنة « لأستغفرن لك » غير مؤكدة تارة أخرى فى قوله فى سورة مريم « سأستغفر لك ربى » مع أن الحكاية لمحكى واحد ؟ . وجواب ذلك بتجويز التعدد فى المحكى وعِدَة إبرهيم لأبيه مرتين ، إحداها مؤكدة والأخرى غير مؤكدة ، فجاءت الحكاية على نمط المحكى حذوك الشيء بالشيء ؛ وتجويز أن يكون المحكى لا تعدد فيه بل هو شيء واحد تفننت الحكاية فى إبرازه على طريقتين لاسيما أن الحكاية للمعنى لا لخصوص الألفاظ ، وحكاية المعنى يغتفر فيه من التصرف مالا يغتفر فى حكاية اللفظ ، والعبارتان على درجة كبيرة من القرب فى معنى التوكيد ، فلأن كان الوارد فى سورة الممتحنة مؤكدا باللام ونون التوكيد ، فإن الواقع فى مريم فيه التأكيد بحرف السين التى إن دخلت على وعد أو وعيد أفادت التوكيد [1] وقوله فى سورة الممتحنة « وما أملك لك من الله من شيء » فى نوع تضعيف لهذه العدة مجبور بقوة التوكيد فى قوله « لأستغفرن لك » وقوله فى سورة مريم « سأستغفرُ لك ربى » فيه نوع ضعف فى توكيد هذه العدة مجبور بقوة الرجاء فى قوله « إنه كان بى حفيا » .

وقد يقال أيضا : مابال قوله تعالى فى سورة التوبة « إن إبرهيم لأواه حليم » مع قوله تعالى فى سورة هود « إن إبرهيم لحليم أواه منيب » فقد جاء لفظ حليم فى سورة هود مقدما على لفظ أواه ، وعكس الأمر فى سورة التوبة مع زيادة لفظ منيب . والجواب عن ذلك أن الكلام فى سورة هود فى شأن جدال إبرهيم مع الملائكة الذاهبين لهلاك قوم لوط ، فكان يجادلهم رجاء إمهالهم

(١) نقل ذلك ابن هشام فى كتابه مغنى اللبيب عن العلامة الزمخشرى وأكثر له من الشرح والاستشهاد . راجع إن شئت .

لإيمانهم ونجاتهم من الهلاك ، ولم ينته عن هذه المجادلة إلا بعد أن قالت له الملائكة « يا إبرهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » فكان ذلك منه حلما وسعة صدر وكظم غيظ ، فوقع لفظ حليم مقدما وتأخر لفظ أواه . أما فى سورة التوبة فكان الكلام فى بيان الحامل لإبرهيم على الاستغفار لأبيه ، فقيل إنه لموعدة وعدها إياه ، وعزز ذلك بوصف إبرهيم بأنه أواه رقيق القلب كثير التضرع إلى الله ، فتقدم لفظ أواه وتأخر لفظ حليم . أما اختصاص سورة هود بلفظ منيب ، فالإنابة معناها الرجوع ، وكأن إبرهيم حيث كان منيبا إلى الله راجعا اليه بالطاعة ظن أن قوم لوط يفعلون مثله فيرجعون عن كفرهم فينجون من العذاب ، فكان اختصاص هذا المقام بهذا اللفظ من إصابة المحز بمكان .

وبعد ، فهذان مثالان فى كل منهما نمط لعديد الفوائد التى تحققها من وراء هذه الدراسة المقارنة لآى الكتاب الإحاطة التامة بأطراف المسألة بعد جمع آياتها ، ثم التقصى عن أسرار الإعجاز بافتراق النظم فيما يتفق فى جوهر المعنى ، مراعاة للسياق فى كل موضع .

لقد درج المفسرون الأقدمون على تفسير القرآن ملتزمين ترتيب السور والآيات ، وهذه طريقة إن كان لها بعض المزايا ، فإنها كثيرا ما أوقعت المفسرين فى آفة التكرار من غير فائدة ، وإحالة بعض المواضع الى بعض ، والتعارض أحيانا بين ما قالوه فى موضع وما قالوه فى آخر ، ثم السكوت عن إشكالات ما كان ينبغى السكوت عليها . وإذا كان ذلك كذلك فماذا علينا ـ نحن المتأخرين ـ لو جربنا ذاك النوع من الدراسة ذات الموضوع التى يعمد فيها الى المقارنة والتحليل ؟ .

لقد قدر لى أن أطلع فى مكتبة كلية أصول الدين على رسالة تقدم بها صاحبها لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ ، فإذا هى فى موضوع « تشابه النظم فى قصص القرآن الكريم » وإذا هى تضطلع بما يقرب من ربع القرآن تدرسه على هذا النحو من الدراسة المقارنة التحليلية ، كل قصة على حدة ، بل كل مرحلة فى قصة ، بل كل مفارقة فى مرحلة . حبذا لو أتم صاحبها دراسة القرآن كله على هذا النمط ، فكان منه تفسير جديد فى بابه ، طريف فى موضوعه ، جدير بالنشر والاقتناء .

سلطان القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

إن الأمور حينما تتلقاها النفوس بالدهش والغرابة ، والطرافة والجدة ، يدعوها ذلك ـ فى كثير من الأحايين ـ إلى فحصها ، وإدامة النظر فيها ، والتأمل منها ، والربط بينها وبين ماتعودته ، وألفت أن تراه ، سواء فى عالم الحس أو عالم الفعل . فإذا كانت من تلك الأشياء التى تتجاوز طوق قدرتها المعتادة ، وجهدها المألوف ، لم تلبث أن تجعلها منها فى مناط التقدير والإعجاب ، والقداسة والاحترام .

والعرب لم يكن لها من تراث تباهى به ، ولا فخر يتنافس عليه الأفراد ، وتعتز بنيله الجماعات سوى الكلام المصقول ، والمنطق الرائع ، والتفكير السديد ، فى حكمة شاردة ، أو مثل متناقل ، أو بيت نادر ، أو خطبة يفصل بها الخطيب خصومة محتدمة ، أو نزاعاً قائماً . وربما بلغ اعتزازهم بالقول ، ومكاثرتهم باللسن ، أن يقيموا الأسواق يشهدها المحكمون ، ويبوء بخزيها المفضولون . ولم يكن لهم من هم ـ فى أول عهدهم بالقرآن ـ إلا أن يتأملوا الآيات ، ويفتتنوا بالحجج البينات .

ولقد بلغ من أمرهم فى ذلك أن ترك الشعراء القريض على الرغم من أنه كان ألزم ما يكون إليهم ، يستنزلون به اللئيم ، ويهزون الكريم ، ويدفعون عن الحسب ، ويذودون عن العرض ، ويحمون الذمار ؛ واشتغل خاصتهم وعامتهم بهذا الحدث الجديد ، لا لأنه سفَّه أحلامهم ، وحقر آلهتهم ، ونعى عليهم ذلك السلوك المرذول ، والعيش المزدرى . ولكن لأنه نمط من اللغة ، ومعيار من معايير النطق ، حاروا فى تكييفه ، واضطربوا فى الحكم عليه ؛

فهو من ناحية يمتح من قليبهم ، ويستقى بدلائهم ، ويجرى فى مضمارهم ، ويمشى على سننهم ، وينهج نهجهم ، لأنه بلسان عربى مبين ؛ ومن ناحية أخرى بديع اللفظ ، محكم النسج ، حصيف المعنى ، ظاهر الروعة ، تتشابه أعجازه بهواديه ، وتتعانق كلماته بمعانيه ؛ ومع ذلك فهو على خلاف السجع الذى يحوكونه ، والمرسل الذى يلوكونه ، والسحر كله يفوح من أردانه ، ويشع من بنيانه ، ويلاحق حروفه ، ويداخل صفوفه ؛ فلا تقرأ منه آية إلا لمست أنه مثانى تقشعر منه الجلود . وأحسست أنه معانى تذوب من جمالها الكبود .

وما أنا فى هذه الكلمة بصدد أن أتحدث عن بلاغة القرآن ، ومنزلتها فى عالم البيان ؛ فإن هذا من الحديث المعاد ، واللغو الممجوج . . . إنما أحب أن يقارن الناس ـ بذلك ـ بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والرسالات السابقة ، إذ كانت تموت بموت أصحابها ، أو تقف عند الحد الذى تركوها واقفة اليه . أما الدعوة الإسلامية فإنها شرقت وغربت ، وأنجدت وأتهمت ، وعلا صوتها فوق المنارات والصوى ، والأعلام والربى ، الى جانب أن الإيمان بها ، والتعصب لها ، جرى فى القلوب مجرى الدم ، وسرى منها فى مسرى الروح . فهل هنالك سبب يصح أن يرجع اليه تعليل الفارق أو الفوارق ، والدعوة تتشابه لأنها لاتخرج عن توجيه النظر الى الخالق المدبر ، وإفراده بالعبادة ، دون مشاركة أحد معه ؟ « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » .

والمدعوون ـ كذلك ـ فى كل جيل وقبيل لا يمتازون عن كونهم أبناء آدم وبنات حواء ، يؤمنون ويكفرون ، ويذعنون ويجحدون ، ويشرح الله صدورهم ، أو يضلهم ويعمى أبصارهم .

والداعى بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . وكل ما هنالك أنه سبحانه يختاره اختيارا يجعله موضع الثقة ، وموطن الاطمئنان ، ثم يؤيده بالمعجزة تجرى على يديه لتكون بمثابة قوله : صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى » . . . . ولم يخل واحد من هؤلاء من صحيفة تؤازره ، وكتاب يتضمن تعاليمه ، إلا أنها لم يكن فى قراءتها ، والتعبد بتلاوتها ، ما يصل بها إلى « سلطان القرآن » إلى أفئدة العرب ؛ ذلك الذى حول قساوتهم إلى رحمة ، وغلظتهم إلى لين ، وطيشهم إلى حلم ،

وفرقتهم إلى جماعة ، وضلالهم إلى هدى ، وحربهم إلى سلم ، وعدوانهم إلى محبة ، ووثنيتهم إلى توحيد ، وفرديتهم المستبدة ، الى ديمقراطية عادلة ، تحارب الظلم وتضرب على أيدى الظالمين . والذى يقول : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، لم يقلها إلا وقد استولى على مشاعره ، واستقاد أحاسيسه ، ووصل من إعجابه إلى قرار مكين .

وأبو بكر رضى الله تعالى عنه يوم كان يقرأ منه ما يقرأ ، فتهيج الحفائظ فى نفوس قريش ، لأنها تخشى الفتنة على صبيانها ونسائها ، كان أدرى الناس بمبلغ ما يكيد لهم به ، جزاء ما حاولوا إخراجه من مكة ، وأرادوا إيلامه بمطاردته من بلد أقلته أرضها ، وأظلته سماؤها ...

وعمر حين ساوره الكفر الأعمى ، والعناد الظالم ، فأخذه جهله ، وقاده ضلاله ، ليؤذى أخته وزوجها كفاء ما اقترفا من صبوة عن دين الأشياخ ، وشريعة الطواغيت ، لولا تلك الرقى التى مسّته من سورة « طه » فنادى : أين محمد لأعلن على يديه الإسلام ، إنما كان يقوده من القرآن سلطان لا يدفعه عنه الدافعون ، أو يحوله عن نفسه المحولون ... وكذلك كل قارىء لايحجبه عن القرآن حجاب . . .

ولعل فى الآية « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » ما يؤيد هذه الدعوى ، فإن التدبر الذى يكون عن استجمام ذهن ، وفراغ بال ، وهدوء خاطر ، واتجاه قلب ، لا بد أن يعود الإنسان منه الغنم المنشود ، والظفر المطلوب .

ولذلك رأينا جبريل يتعهده صلى الله عليه وسلم بقراءته فى رمضان حيث يكون سمو النفس ، وصفاء الروح ، والتفرغ لعالم الملكوت . . وربما كان الحديث « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم » ينحو إلى هذا القصد ، ويعلن للقارئين هذه الهداية المستقيمة ، والقول الفصل ؟

بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم
وأثرها فى لغة العرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة الى حياة، وتبدلت أوضاع الكلام وسمات القول من مظهر الى مظهر ومن حال الى حال، وأخذت ثوبا قشيبا نفذت به من الأسماع الى القلوب، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيرا عجيبا. ذلك بما أفاضه عليها القرآن من طرائق التعبير وحسن صوغ الكلام، وبراعة القصد الى الهدف، والاحتيال الى الغرض حتى تدخل على القلوب والعقول والأحاسيس دخول المأنوس به المرغوب فيه. ثم بما كسبته من أسلوب الرسول صلوات الله عليه، وبيانه الساحر، وحِكمه البالغة، وبلاغته النيرة، وقدرته الفائقة على الاختراع والتشقيق من الألفاظ، وتصوير المعانى بأروع الصور، وابتداع الأخيلة التى لم تعرف فى كلام العرب، وظلت بعده من الحسنات التى ينسج الناس على منوالها، ويدبجون كلامهم على مثالها، دون أن يقتربوا من حدها، أو يسابقوها فى طلق.

أجل: كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش، ومحل الإعجاب من كل من سمعه، وأنصت الى ألفاظه تفيض عذوبة وتقطر رقة، وأصغى الى معانيه تطل منها أروع الحكم وتنبجس من خلالها أجمع الأمثال، حتى لقد عجب من ذلك البليغُ المنطيق الساحر البيان العذب اللسان على ابن أبى طالب، فقال: يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لانعرفه، فمن علمك؟ فقال صلوات الله عليه: أدبنى ربى فأحسن تأديبى. وقال له صفيه وصديقه أبو بكر: لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذى هو أفصح منك، فمن أدبك؟.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتز بما منحه الله من صفاء القريحة ، ونقاء الفطرة ، وخلابة المنطق ، ورجاحة الفكر ، وسجاحة الأسلوب ، فيقول : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى سعد بن بكر » .

والحكمة البالغة ، والعبرة الكريمة فى ذلك ، أن الله تعالى قد اختاره لرسالته ، واصطفاه لدعوته ، وأرسله الى الناس كافة مبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعززوه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

وسفارة بين الخالق والمخلوق لا جرم تعتمد على البيان الخلاب والمنطق الجذاب ، والقول المتخير الفاتن ، والكلام العذب الذى تملك به النفوس ، وتؤسر الألباب .

وهذا هو موسى ؛ أرسله ربه الى بنى إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويقوى ظهره ويفلج حجته ويسدد دعوته بأخيه هرون « وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » ، وتمنى على ربه وهو صفيه وكليمه أن يطلق لسانه ويفتق بيانه ويحل عقدته ويفك حبسته ، فقال : « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

وهذا نبى الله داود ؛ أفاض الله عليه الحكمة ومنحه فصل الخطاب ، وامتن عليه بذلك فقال : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

وإذا كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة ، تعنو لهم أزمة القول وتنصاع أعنة الكلام ، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيه ، ويروض شامسه ، ويستذل أبيه ؛ وإذا كان الكلام صناعتهم التى بها يفاخرون ويتباهون ، فلا بد أن يكون الرسول الذى يرسل إليهم يبلغهم عن ربهم ، ويهدم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الزائغة الزائفة ، ويغير ما ألفوا من عادات وما ورثوا من تقاليد ، لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم ، ومنطقه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثرا وأعظم قدرا وأعلى شأنا من خطابهم .

ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن، ومعجزة البيان : فلندع الآن الكلام عن الأولى حتى يجيء أوانها، إن شاء الله .

أما بيانه صلوات الله عليه فكان السحر الحلال والضياء اللامع، يشرق من طبع مهذب مصقول، وخلق فى البلاغة عريق أصيل، وفطرة قوية موهوبة، تساندت فى بنائها أقوى العوامل، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات؛ إذ نشأ وتقلب فى أفصح القبائل، وأصحها لهجة، وأخلصها منطقا، وأعذبها بيانا، وأرهفها جنانا، وأقومها سليقة .

كان مولده فى بنى هاشم، وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسماحة بيان . وأخواله من بنى زهرة، ورضاعه فى سعد بن بكر، ونشأته فى قريش، وتزوج خديجة وهى من بنى أسد؛ وكل هذه قبائل خصها الله بعرق فى فصاحة الكلام عريق، وسبب من أسباب البلاغة وثيق . وكان هذا التوافق العجيب الغريب، وهذا التماثل فى الميلاد والاسترضاع والمنشأ والمتزوج، إعدادا من الله لنبيه، وتقويما من ملكته، وتهذيبا لسليقته، وتدعيما لفطرته، حتى يفقهوا قوله، ويعقلوا دعوته .

كان صلى الله عليه وسلم، فصيح المنطق، سمح البيان، سلس الأسلوب، قوى العبارة لامع الرونق، رائع الحكمة، موفق المثل، مونق اللفظ، مشرق المعنى، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل، ويجد فيه لذة لا تعدلها لذة، إذا تكلم خفتت الأصوات وأنصتت الآذان وخشعت الجوارح، وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة .

وهذه أول خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله، يعدهم ويبشرهم، ويحذرهم وينذرهم، ويدعوهم إلى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ قال « إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم؛ ولو غررت الناس ما غررتكم؛ والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم حقا وإلى الناس كافة؛ والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا؛ وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد » .

فهذه كلمة الخبير بأسرار النفوس الذى يعرف كيف يمتلكها بحكمته، ويستولى عليها بموعظته، ويوجهها إلى الخير الذى يريده، والسعادة الأبدية التى يدعو اليها.

واستمع أيها القارىء الكريم إلى هذا الحديث الشريف، فإنك ستحس من حلاوة وقعه وجمال لفظه ودقة مبناه وروعة معناه، وصدق تصويره وحسن تحديده للمعنى، ما يملأ نفسك طربا، ويفعم قلبك نشوة:

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما الى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره؛ وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

فهذا تصوير محكم رائع لحال المنفق وحال البخيل لا تكاد النفس تنتهى منه عجبا. تصوير لقوة الطبيعة لدى السخى التى تستهين بكل عقبة، وتتغلب على كل صعوبة، وتثور ثورتها العاتية على القيود والحدود والحواجز حتى تحطمها أعنف تحطيم، ثم لا يزال صاحبها يسخو ويبذل وينفق ويتصدق حتى تسلسل الطبيعة وتنقاد وتعتاد البذل والعطاء، وتلبس صاحبها فتخفى كل ما فيه من عيب وتمحو كل ما يند عنه من سيئة «إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين».

أما البخيل فكلما أراد أن يخرج من طبيعته كزت وضاقت، وأحضرته كل أسباب الشح والكنود، فلا يستطيع أن يقدم خيرا، أو يطالع المجتمع الذى يعيش فيه بحسنة.

فهل هناك تصوير أروع وأمتع وأبدع من هذا التصوير؟.

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف حالة من حالات الناس تفشو فى مجتمعاتهم، وتشيع بينهم فى بعض الأحيان كما يشيع الوباء الفاتك والمرض القاتل: حالة الاستهتار بحدود الله، والاستهانة بآداب الدين، والخروج على الأوضاع الصحيحة، والتبجح بما يسمونه حرية، فيقول:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استسقوا من الماء

مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

فهل هناك أبلغ من هذا فى الدعوة إلى الضرب على أيدى العابثين بالحدود المنتهكين للحرمات الناهشين أعراض المحصنات الغافلات ؟ .

ولو أردنا أن نستعرض ألوانا أخرى من كلامه صلى الله عليه وسلم لما اتسعت لها هذه الصفحات ، ولكننا نكتفى بما قدمنا من أمثلة حية رائعة على بلاغته وإحاطته ورقته .

يقول المرحوم الأستاذ الرافعى « لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ؛ فالعناية فيها بالحقائق . ثم الحقائق هى تختار ألفاظها اللغوية على منازلها ، وبذلك يأتى الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف ولا يتعمل ، ولم يكتب ولم يؤلف ، ومع هذا لا تجد فى بلاغته موضعا يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان » .

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إتقانه وعلو شأنه فى اللغة - هى المنح التى يهبها خالق الانسانية لمن يختاره ويؤثره فى سفارة إلى الإنسانية ، وكما عصمه الله من لدن طفولته من الرجس والدنس ، وحفظه من شرور الجاهلية وسوآتها ، كذلك عدل لسانه وقوم بيانه وأرهف منطقه ، وأفاض عليه من لدنه قوة بيانية يستطيع بها أن يناضل عن دعوته وينافح دون رسالته . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكان فضل الله عليك عظيما .

« وفى المقال التالى إن شاء الله نتحدث عن أثره صلوات الله عليه فى لغة العرب » .

تفسير الكشاف للزمخشرى

عود على بدء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد فؤاد الأول بأسيوط

كتبت فى عدد سابق فصلا عن تفسير الكشاف أشرت فيه إلى بعض مزاياه وما سبق به المفسرين، وأنه مؤسس على علوم البلاغة، جامع لكثير من أشتات الفنون، فى حولة أسلوب، وغزارة مادة، ووجازة لفظ. وسأحاول فى هذا المقال أن أجول بالقارىء الكريم بعض الجولات بتحليل بعض بحوثه تحليلا عابرا؛ ولعل أهم ما يعنى القارىء قيمته من ناحية البحوث البلاغية التى هى ضالة كثير من طلاب التفسير للكتاب الكريم، والتى قلنا إن الزمخشرى أسس عليها تفسيره، وللزمخشرى حقا فى ذلك المضمار قصب السبق فى أسلوبه الخلوب وإيجازه المسعف وإيضاحه المونق؛ وستجد فى أم الكتاب أولى سور القرآن الكريم نتفا تنير لك السبيل، وتفتح لك الباب إلى الذوق السليم.

فهذا التقديم فى بسم الله (١) وتقدير المحذوف متأخرا، ولماذا قيل فى سورة اقرأ: «اقرأ باسم ربك» على ماسطر المتأخرون فى أحوال متعلقات الفعل، وإن خالفه السكاكى فى مسلكه مع موافقته على أصل القاعدة التى هى الاهتمام والعناية.

وهنا نشير إلى أن سيبويه هو مثير هذا البحث فيما بلغه علمنا، وقفّى على أثره الشيخ فى دلائل الإعجاز، ثم الزمخشرى فمن بعده من أئمة هذا الفن. وهنا يتكلم الزمخشرى فى تقدير المتعلق، وأنه أقرأ أو أتلو، ويبسط بعض البسط مما فسح مجال البحث للمتأخرين فى مبحث الإيجاز بالحذف، ودلالة الدليل على المحذوف.

وكذلك عرض الزمخشرى للتقديم فى إياك نعبد، وأن الغرض منه الاختصاص

---

(١) جـ ١ ص ٤ كشاف.

كما فى : أفغير الله تأمرونى أعبد ـ أغير الله أبغى ربا [1] وسبق الشيخ عبد القاهر إلى إسهاب البحث فى هذا المقام فى دلائل الإعجاز ؛ وقد بحث الزمخشرى فى قاعدة التقديم وطرق بها كثيرا من آى الذكر الحكيم ، ومن ذلك التقديمُ بعد النفى كقولك : ما أنا قلت هذا الشعر .

فيرى الزمخشرى أنه يفيد الاختصاص وإن لم يكن الخبر فعلا ، خلافا لما نص عليه الشيخ فى دلائل الإعجاز ، قال فى قوله سبحانه « وما أنت علينا بعزيز [2] » : وقد دل إيلاء الضمير حرف النفى على أن الكلام واقع فى الفاعل لا فى الفعل ، كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال فى الجواب : أرهطى أعز عليكم من الله ، ولو قيل : ما عززت علينا ، لم يصح هذا الجواب .

فالزمخشرى يقول دل إيلاء الضمير حرف النفى على الاختصاص ولا يقيد بالخبر الفعلى ، ولكن الشيخ يقول : وقد يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلى إن ولى حرف النفى ، فيخص إفادة الاختصاص بالخبر الفعلى وحده ؛ والزمخشرى أصوب نظرا ، وأقوى بصرا من الشيخ فى هذا كما ترى .

ويقول الامام الزمخشرى فى : « وما هم بمؤمنين » [3] : إن فيه من التوكيد والمبالغة ما ليس فى غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ؛ وأسهب فى المقام بما يحوم حول المبالغة والتأكيد فى إثبات المطلوب دون تعريج على ناحية الاختصاص . فهو يرى كالشيخ عبد القاهر أن التقديم قد يفيد تأكيد الحكم وتقويته . ومجال البحث فى هذا يطول ، والخلاف بين الشيخ والامام والسكاكى مبسوط فى شروح السعد وفى كتاب الإيضاح وغيره .

ولكننى أردت أن أنبه الى مادة الكشاف ، وأنها مرجع لا يستغنى عنه باحث فى البلاغة ، وتركيز يعوزه كثير من الترديد فى مطالعته . وقد تعرض الزمخشرى لهذه الناحية فى قوله تعالى : « لا ريب فيه [4] » ، وبيَّن سر المغايرة فى الأسلوب بين لا ريب فيه ، ولا فيها غول ، فى وجازة ولطف . وقد ذكر ذلك القوم فى كتبهم فى بحث تقديم المسند على المسند إليه ، وأظن الشيخ عبد القاهر لم يذكره مكتفيا

---

[1] جـ ١ ص ٨ كشاف [2] جـ ١ ص ٤٥١ [3] جـ ١ ص ٢٤
[4] جـ ١ ص ١٥

بالبحث العام والقاعدة الكلية للتقديم . وفى هذه المناسبة أقول : إن كثيرا من بحوث الزمخشرى لم يذكره عبد القاهر فى كتابيه . كما أن كثيرا من بحوث الشيخ لم يعرض له الزمخشرى ؛ فبصاحب البلاغة وممارسها حاجة ماسة إلى كل منهما لا يغنى واحد عن الآخر ، وقد يطرد بنا القول فنقول : إن أكبر الظن أن الزمخشرى لم يطلع على ما كتب الشيخ عبد القاهر ، لأن قرب العهد كأنه لم يمكن من نشر كتب الشيخ حتى يطلع عليها ذلك المفسر العظيم .

والالتفات مما عرض له الزمخشرى فى تفسير « إياك نعبد (١) » ، وبين سره ونكتته العامة ونكتته الخاصة ، وذكر أن فى أبيات امرىء القيس :

تطاول ليلك بالأثمد ... وبات الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذى العائر الارمد
وذلك من نبأ جاءنى ... وخُبرته عن بنى الأسود

ثلاثَ التفاتات فى ثلاثة أبيات .

والظاهر من بحثه أن السكاكى تابع له فى أن الالتفات أعم مما إذا كان فى الأسلوب الأول أو الثانى ؛ وأما طريقة جمهور هؤلاء القوم ، فإن الالتفات لا يكون إلا باعتبار الثانى ومخالفته للأول ، فليس « ليلك » التفاتا عند جمهورهم ، ولكنه التفات عند الزمخشرى والسكاكى ، ولعل الذى دفع بهم إلى ذلك معنى الالتفات اللغوى .

على أن الحق أن فى تعليل الزمخشرى ما يؤيد رأى الجماعة ، فقد قال إن ذلك على عادة افتنانهم ، وإن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع الخ . فللقوم عذرهم ، وهذا اصطلاح لا يحتمل المشاحة .

وقد تعرض له الزمخشرى فى غير ذلك الموضع من الكشاف كقوله فى سورة يونس ، وهو يفسر « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (١) » : إن الفائدة فى صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ويعجبهم منها ، ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح . وهى إشارات لطيفة تفتق معانى من التذوق لبدائع الأساليب والالتفات وإن لم يعن به الشيخ عبد القاهر ، مردد فى كتب المتقدمين والمتأخرين ،

(١) جـ ١ ص ٨ كشاف (٢) جـ ١ ص ٤١٩

على تنوع بحثه وتعدد اصطلاحاته ، ومع جمال موقعه من أهل اللسان .

وللزمخشرى فى كتابه هـذا كثير من بحوث البلاغة النفيسة على اختـلاف فنونها وجزئيات مُثلها فى عدة مناسبات من كتابه ، ولكننا بصدد ضرب المثل ليستدل بجزئى على كلى ، وبقليل على كثير .

وله نواح تتصل بذلك فتحت البـاب للمفسرين فى تلمس الفروق اللطيفة فى إيثار كلمة على كلمة ، والموازنة بين جملة وجملة ، فى نحو : يعلمون ويشعرون ، وفى نحو : أفلا يبصرون ، أفلا يسمعون .

كما أن له جولات فى مسائل النحو والصرف والغوص على دقائقهما .

فالله : اسم لا صفة ، وهو مشتق من أله إذا تحير [١] .

والرحمن : فعلان ، وما الفرق بينه وبين الرحيم ؟ وهو ممنوع من الصرف مع أنه ليس فعلان فعلى ، مع توجيه كل ذلك .

والحمد : منصوب بإضمار فعله كالمصادر التى تنصبها العرب شكراً وعجباً ، ولـكنه عدل عنه ، وما سبب ذلك ؟ وهنا استطرد إلى الفرق البـلاغى بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية .

والعالمين : جمع ، وليس اسما لعاقل ولا هو صفة [٢] . وإضافة اسم الفاعل فى « مالك يوم الدين » حقيقية ، ولماذا ؟ [٣] وإيا : ضمير منفصل ولواحقه حروف لا محل لها من الإعراب .

والفعل أبدا خبر لا مخبر عنه إلا فى كلام هجر فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى كما فى « أأنذرتهم » [٤] والعرب يميلون فى مواضع من كلامهم مع المعانى ميلا بينا كما فى قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، معناه لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن .

والهمزة وأم : تسلختا عن معنى الاستفهام وتجردتا لمعنى الاستـواء كما فى هذه الجملة الـكريمة . قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام ، كما جرى على حرف النداء قولهم : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة .

والصـفة لا تتقدم على موصوفها بخلاف الحال ؛ وبذلك يقع الفرق بين

---

[١] ص ١ ج ١ [٢] ص ٧ ج ١ [٣] ص ٨ ج ١ [٤] ص ٢٠ ج ١

« وجعلنا فيها فجاجا سبلا » وقوله « لتسلكوا منها سبلا فجاجا » من ناحية اللفظ . وهذا يتبعه فرق معنوى بين الحال والصفة . وهنا أيضا تشرف البلاغة على تطبيق النحو . ولعمرى لقد أساء التفريق الفاحش بين علوم اللغة العربية على طريق التدقيق الفلسفى ، ووزع الناس بين موادها توزيعا متعبا . وقد كان النحو والبلاغة معا فى كلام الأوائل يتصل الطالب بكليهما معا ، كما فى كتاب سيبويه . ولهذا عرف عبد القاهر البلاغة بأنها توخى معانى النحو فيما بين الجمل ؛ والزمخشرى يقول . إن الحال لا تتقدم على صاحبها المجرور فى تفسير قوله تعالى : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا » فخالصة مصدر مؤكد ، ولا يجوز أن تكون حالا لأن المجرور لايتقدم عليه حاله (١) .

وهكذا تتنقل من روضات أُنف تتأنق بينهن فى ذلك التفسير الموجز المفصل . فلو شئت سلكت بك فى تلك الحدائق الغناء . . . ولكن حسبى أن أنير لك سبلها ، وأوجهك الى سلوكها . وإنك لواجد متاعا وأنسا ونشاطا جما ، بين ثقافات مختلفة حتى تنتهى الى مايريد العربى للغته من صلاح وتقويم ، والمسلم لنفسه من وقوف على أحكام الكتاب الكريم وبيان مذاهب الأئمة فى الاستدلال عليها ، لم يخل من شرح أسباب نزول تعرب لك عن وجوه التأويل ، وتفصيل قراءات تختلف بها المعانى بعد اتفاقها على ما ينفع الناس ويهديهم (٢) مع شرح لأصول العقائد وأدلة الفرق المختلفة ، وقد يتحيز لمذهب الطائفة العدلية أحيانا ، لكنه قد يخرج من المعركة كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء .

وقد يكون فى ذلك ما يؤخذ على الزمخشرى ، وقد نبه الى ذلك ابن خلدون فى مقدمته ، ولكن ذلك لايمنع من الغوص على درره ، ولا يحول دون الانتفاع بمزاياه ، ولا سيما أن فيما كتب ابن المنير عليه مايحول دون الاغترار بقوة أسلوبه . على أنه كثيرا ما كان له من التقريع والتعنيف ماجاوز به الحد فى الحمل عليه ، إلا أنه كثيرا ما ينوه بعظمته ولطف مأخذه .

وبعد ، فلعلى قد وفيت الامام بعض حقه من التوجيه الى كنوز علمه وأدبه ، لأقف القلم الى حين عنه ، ثانيا عنانه الى سواه . وحسبنا الله ونعم الوكيل. م ؟

---

(١) ص ٣١٣ ح ١ (٢) نرى أن الزمخشرى أحيانا يسلك مسالك الجرأة فى القراءات وتصرفه بالقبول والرفض بمحض الرأى أحيانا .

التعويض فى الفقه الاسلامى

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

لم يتعرض الفقه الإسلامى للتعويض كنظرية عامة كما جرى ذلك فى التشريع الوضعى، وإنما ذكر الفقه الإسلامى التعويض فى كثير من الأحكام الجزئية بلفظ الضمان . ونحن نسرد بعض هذه الأحكام الواردة فى مذهب الأحناف ونحاول قدر طاقتنا أن نستخرج منها ما يمكن اعتباره قاعدة عامة للتعويض .

فمن ذلك : « لو حدث فى المبيع عيب عند المشترى ثم ظهر فيه عيب قديم فليس للمشترى أن يرده بالعيب القديم بل له المطالبة بنقصان الثمن فقط . مثلا : لو اشترى ثوب قماش ثم بعد أن قطعه وفصله برودا اطلع على عيب قديم فيه ؛ فيما أن قطعه وتفصيله عيب حادث فليس له رده على البائع بالعيب القديم ، بل يرجع عليه بنقصان الثمن فقط » .

فمن الواضح أن المطالبة بنقصان الثمن ليس فى الواقع إلا تعويضا فى مقابل العيب القديم ، ولهذا نظير فى التشريع الوضعى .

وأيضا « إنه إذا ما وجد مانع للرد فليس للبائع أن يسترد المبيع ولو رضى بالعيب الحادث ، بل يصير مجبراً على إعطاء نقصان الثمن ، حتى إنه بهذه الصورة لو باع المشترى المبيع بعد اطلاعه على عيب قديم فيه ، كان له أن يطلب نقصان الثمن من البائع ويأخذه منه . مثلا : لو أن مشترى الثوب فصل منه قميصا وخاطه ثم اطلع على عيب قديم فيه فليس للبائع أن يسترده ولو رضى بالعيب الحادث بل يجبر على إعطاء نقصان الثمن للمشترى . ولو باع المشترى هذا الثوب أيضا لايكون بيعه مانعا من طلب نقصان الثمن ، وذلك لأنه صار ضم الخيط الذى هو من مال المشترى مانعاً للرد ، وليس للبائع فى هذه الحالة استرداد المبيع مخيطا ، ولا يكون بيع المشترى حبسا وإمساكا » .

وورد فى البيع الفاسد « إن البيع الفاسد يفيد حكما عند القبض ، يعنى أن المشترى إذا قبض المبيع بإذن البائع صار مالكا له ، فإذا هلك المبيع بيعا فاسدا

عند المشترى لزمه الضمان . على معنى أن المبيع إذا كان من المثليات لزمه مثله ، وإن كان قيميا لزمته قيمته يوم قبضه » . وورد أيضا على أن « الضمان هو إعطاء مثل الشىء إن كان من المثليات ، وقيمته إن كان من القيميات » . فهذا الحكم قد حدد مقدار التعويض بأنه قيمة الشىء ، أو مثله .

وورد فى كتاب الإجارة « ليس للأجير الذى ليس لعمله أثر كالحمال والملاح أن يحبس المستأجر فيه . وبهذا الحال لو حبس الأجير المال وتلف فى يده يضمن ، وصاحب المال فى هذا مخير إن شاء ضمنه محمولا وأعطى أجرته ، وإن شاء ضمنه غير محمول ولا يعطيه أجرته » . وعلى هذا لو فرضنا أن تاجراً بالقاهرة كلف شخصاً بشحن بضاعة إلى لندن وقيمة هذه البضاعة فى القاهرة ١٠٠٠ جنيه ، وقيمتها يوم وصولها الى لندن ٢٥٠٠ جنيه ؛ فحينئذ لو حبس الشاحن هذه البضاعة بعد وصولها إلى لندن وتلفت لزمه الضمان . والتاجر فى هذه الحالة مخير بين أن يطالب بقيمتها محملة أى مشحونة وهى ٢٥٠٠ جنيه ويدفع اليه أجرة شحنه ، وإن شاء طالبه بمبلغ الـ ١٠٠٠ جنيه ولا يدفع إليه أجرته .

ومما ورد أنه « لايلزم المستأجر رد المأجور وإعادته ، ويلزم الآجر أن يأخذه عند انقضاء الإجارة . مثلا : لو انقضت إجارة دار يلزم صاحبها الذهاب إليها ويتسلمها . كذلك لو استؤجرت دابة الى المحل الفلانى يلزم صاحبها أن يوجد هناك ويتسلمها ، فإن لم يوجد هناك ولم يتسلمها وتلفت فى يد المستأجر بدون تعديه ولا تقصيره لا يضمن » . هذا الحكم يفيد أن الضمان يشترط فيه حصول تعد أو تقصير .

ومما ورد فى الوديعة « الوديعة إذا لزم ضمانها فإن كانت من المثليات تضمن بمثلها ، وإن كانت من القيميات تضمن بقيمتها يوم لزوم الضمان » . هذا الحكم يفيد كما قلنا سابقا أن مقدار الضمان هو القيمة أو المثل ، وأن التقدير يكون يوم لزوم الضمان بقطع النظر عما طرأ بعد ذلك من زيادة أو نقصان فى المال .

وورد فى الغصب « يلزم رد المال المغصوب عينا وتسليمه إلى صاحبه فى مكان الغصب إن كان موجودا . وإن صادف صاحب المال الغاصب فى بلدة أخرى وكان المال المغصوب معه فإن شاء صاحبه استرده هناك ، وإن طلب رده

فى مكان الغصب فمصاريف نقله ومؤنة رده على الغاصب ، هذا الحكم يفيد لزوم التعويض فيما إذا ترتب على فعل الشخص ما يوجب دفع مصاريف ونفقات، لأنه المتسبب فى ذلك .

وورد « كما أنه يلزم أن يكون الغاصب ضامنا إذا استهلك المال المغصوب فكذلك إذا تلف أو ضاع بتعديه أو بدون تعديه يكون ضامنا أيضا . فإن كان من القيميات يلزم الغاصب قيمته فى زمان الغصب ومكانه ، وإن كان من المثليات يلزم إعطاء مثله » هذا الحكم يفيد أن سبب الضمان هو الغصب ، وإنما لزوم الضمان يكون بتلف المال ، ولذا يسند تقديره إلى زمن السبب ومكانه بقطع النظر عما طرأ على المال بعد ذلك من زيادة أو نقصان فى قيمته . ولذا نص على أنه « إذا تناقص سعر المغصوب وقيمته بعد الغصب ، فليس لصاحبه أن لا يقبله ويطالب بقيمته التى كانت فى زمان الغصب . ولكن إذا طرأ على قيمة المغصوب نقصان بسبب استعمال الغاصب يلزم الضمان . مثلا : إذا ضعف الحيوان الذى غصب ورده الغاصب إلى صاحبه يلزم ضمان نقصان قيمته . كذلك إذا شقق أحد الثياب التى غصبها وطرأ بذلك على قيمتها نقصان فإن كان النقصان يسيرا يعنى لم يكن بالغا ربع قيمة المغصوب فعلى الغاصب ضمان نقصان قيمته . وإن كان فاحشا أعنى إن كان النقصان مساويا لربع قيمته أو أزيد فالمغصوب منه بالخيار ، إن شاء ضمنه نقصان القيمة ، وإن شاء تركه للغاصب وأخذ تمام قيمته » .

وورد أنه « إذا زلق أحد وسقط على مال آخر وأتلفه ضمن » هذا الحكم يفيد أن النية ليست شرطا فى وجوب ضمان المتلف ، يعنى أن قصد الإتلاف وتعمده ليس شرطا فى وجوب الضمان .

وورد « لو أتلف أحد مال غيره على زعمه أنه ماله يضمن » هذا الحكم يفيد أن الخطأ فى الاعتقاد ليس مانعا من وجوب الضمان .

وورد « إذا أتلف صبى مال غيره يلزم الضمان من ماله ؛ وإن لم يكن له مال ينتظر إلى حال يساره ولا يضمن وليه » هذا يفيد أن وجوب الضمان ليس متوقفا على التكليف ، بل الواجب للضمان هو الفعل المادى .

وورد فى القواعد الكلية « الضرر يزال . ورتبوا على هذا ضمان المثليات » . وأيضا « الاضطرار لا يبطل حق الغير . ويتفرع على هذا ضمان قيمة أو مثل ما أتلف ولو كان الفاعل مضطرا » .

ومن ذلك « الأجر والضمان لا يجتمعان . فإذا استأجر أحد دابة وهلكت بلا تعد لا يضمن سوى الأجرة ، وإذا غصب دابة فهلكت يضمن قيمتها ولا أجرة عليه » ، وكذلك « المباشر ضامن وإن لم يتعمد . فمن أتلف مال غيره بغير وجه شرعى يضمنه مطلقا سواء تعمد ذلك أولم يتعمد حيث كان مباشرا ذلك بنفسه » ، ومن ذلك أيضا « أن الفعل يضاف إلى الفاعل لا للآمر مالم يكن مجبرا . فلو قال إنسان لآخر أتلف مال فلان ففعل كان الضمان على المأمور مالم يكن المأمور مجبرا شرعا » . وأيضا « إذا اجتمع المباشر والمتسبب يضاف الحكم الى المباشر . وعلى هذا لو حفر رجل بئرا فى الطريق العام وألقى أحد حيوان شخص فى ذلك البئر ضمن الذى ألقى الحيوان ولا شىء على حافر البئر » .

وغير هذا كثير من الأحكام التى تضافرت على وجوب الضمان الذى هو عين التعويض فى التشريع الوضعى .

فيمكننا حينئذ مما ذكر من الأحكام السابقة أن نستخلص قاعدة التعويض فى فقه الأحناف بشكل موجز ، وهى أن الضمان أو التعويض واجب متى توافرت الشروط الآتية :

(١) أن يكون هناك فعل غير مشروع كان سببا أو ترتب عليه تلف أو هلاك أو نقصان المال .

(٢) نية التعمد أو القصد ليست شرطا فى وجوب الضمان . والخطأ فى الاعتقاد لا يرفع مسئولية الضمان .

(٣) يقدر الضمان بالقيمة أو المثل فى زمان ومكان الفعل الموجب له . وعلى هذا لا يجب الضمان فيما فات من منفعة أو فائدة كما ذهب إليه التشريع الوضعى . ويتضح بجلاء أن نظرية التعويض فى فقه الأحناف هى تطبيق للنظرية المادية .

La Théorie objective

هيجل

مذهبه فى النظام الاجتماعى والمطلق - أثره

- ٢ -

لحضرة الأستاذ أحمد فؤاد الأهوانى

فإذا أصبح الفرد واعيا بوجود المجتمع والإنسانية ، وما فيها أعمال عامة ومصالح مشتركة تبرز فى صورة المؤسسات الاجتماعية والمنظمات المختلفة ، أدرك أنه جزء من هذا الكل الأكبر ، وأدرك أنه يجب عليه أن يوحد بين نفسه وبين المجتمع ، حتى يطلب الكمال ويبدد النقص . ولكى يصبح الإنسان كائنا اجتماعيا يتلاءم مع نواميس المجتمع الذى يعيش فيه فإنه يجب أن يكون كائنا أخلاقيا وعقليا moral and rational .

وعلى الإنسان أن يفهم المؤسسات الإنسانية من حيث قد برزت فى عالم المحسوسات . ولا يكون ذلك بالتجربة بل بالجدل الذى يبين بوساطة طبيعة العقل Reason أنه لا شىء يخالف ذلك يمكن حدوثه فى التاريخ . فالنظر الى أحداث التاريخ الماضية نظر خارجى سطحى يمس الظاهر ، والواجب أن ننفذ الى باطن المؤسسات لمعرفة علة وجودها ، والضرورة التى تخضع لها .

وأول ما يظهر من تحقق العقل فى صورة خارجية هو الحق Right . ليس الحق صفة باطنة فى الطبيعة البشرية ، وليس هناك ما يسمى بالحق الطبيعى على المعنى السائد المعروف . ويذهب هيجل الى أن الحق ينشأ فى شعور الناس من الصراع بين مصالح الأفراد . فالحق هو الذى يميز النظام الاجتماعى . ذلك أن إنسانية الإنسان لا تتحقق إلا بالنسبة لأفراد آخرين . وفى المجتمع وحده يجد الإنسان الظروف التى يبرز فيها نفسه والتى فيها يحقق حريته . ويتمتع الإنسان بحريته مع

غيره من الناس فى المجتمع ، ولا يستطيع أحد أن يستمتع بالحرية والحق على الاطلاق . فإذا كل إنسان حق ، فعليه واجب ، ومن واجبه احترام حقوق الآخرين . وعندما يشعر الإنسان بنفسه ، وبحقوقه ، وواجباته ، تظهر شخصيته ويصبح شخصا Person .

ويعبر الحق عن نفسه بطريق الملكية Property . فكل إنسان يريد أن يحقق وجوده ، وأن يستمتع بحقوقه يجمع الثروة ويستغلها ويستمتع بها . ولكل إنسان الحق فى هذا الجمع والكسب كما يشاء ، وأن ينقل الملكية والثروة كما يهوى. كل ما فى الأمر يجب عليه ألا يتعارض مع حقوق الغير . ولما كانت الملكية هى طريق التعبير عن الذات ، وكانت الحرية قبل كل شىء مطلوبة وممدوحة ، فالملكية مقدسة . ويمكن نقلها بالإرادة عن طريق العقود . فالعقد أساس فى النظام الاجتماعى يسير جنبا الى جنب مع الحق والملكية .

هذا لا يعنى أن جميع الناس لهم من الحقوق ما يوازى أملاكهم ، فالاختلاف بين الناس يتطلب الاختلاف فى الملكية . وتخضع الملكية لالتزامات تصبح فى آخر الأمر القوانين التى تفرضها الحكومة .

ومع وجود الحقوق واحترامها المتبادل لا يزال يوجد صراع بين الناس على الأملاك والعقود . هناك أناس لا يحترمون كلمتهم ولا يوفون بالعهود والمواثيق ويعتدون على حقوق الغير . ومن ثم ينشأ الباطل والشر . وعقاب المعتدين ليس الغرض منه تقويم صاحب العدوان ، بل إثبات الحق فى القانون .

ولا ريب فى أن الفرد فى بدء تعقله يرى فى القانون شيئا قد فرض عليه فرضا ، وأن القانون مناف لمصالحه الخاصة . وقد يخضع بالخوف ، ولكنه يثور ثورة داخلية . والى أن يذهب عنه الخوف ويعرف معنى الخضوعٍ للقانون لن يبلغ السلوك الخلق . لن يكون الإنسان أخلاقيا إلا إذا اتفقت إرادة المجتمع مع إرادة الفرد . تبرز الأخلاق عند ما يكشف الأفراد فى المجتمع بإرادتهم أن خضوعهم للقانون هو المحقق للحرية . أى عند ما يحل ضمير الفرد محل ضمير المجتمع،أو يتحد الضمير الفردى والاجتماعى ، ويشيع الضمير الذاتى فى الموضوعى .

ذلك أن العقل لم يميز بين المجتمع والفرد ، فالعقل واحد فيهما ، وليس الفرد علة المجتمع أو المجتمع علة الفرد .

القوانين تصف البنية الخارجية للمجتمع ، والأخلاق تصف البنية الداخلية .

فالأخلاق تبرز موضوعيا فى المؤسسات الاجتماعية والأسرة والحياة الاجتماعية المدنية والدولية . ويجب على الإنسان أن يتبين موقفه وموضعه من هذه المجتمعات التى يترتب بعضها على بعض . الدولة هى المؤسسة الأخلاقية الأولى ، وهى تقوم على الأسرة . لهذا كان الزواج واجبا عقليا لكل شخص . فإذا نظرنا إليه من وجهة اجتماعية فهو أخلاق ومقدس . وإذا طلب الزواج للمتعة فقط فهو مناف للأخلاق .

الأسرة على كل حال مؤسسة ناقصة ، ولو أنها أفضل من العزلة . وأفرادها مقيدون حتما ، ومصالحهم تهدف إلى صالح الأسرة كلها . وموضعها الحقيقى أن تكون جزءاً فى مجتمع أكبر ، نقول عنه المجتمع المدنى . وكما أن الفرد ناقص بنفسه ، كذلك الأسرة ناقصة إذا ابتعدت عن المجتمع .

وفى الدولة يسمو العقل على جميع المصالح الخاصة . ويحقق الإنسان الخير الأسمى وحريته الصحيحة عند ما يوحد بين ذاته وبين خير المجتمع والإنسانية . فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك كان على الدولة أن تفرضه عليه ، فإذا لم يخضع فعليها أن تتخلص منه ، وأن تضحى به فى سبيل الصالح العام .

الدولة هى مجموع أجزائها وشىء آخر ، لأن الكل أعظم من مجرد مجموع الأجزاء . إنها تشخص المطلق ، وهى لهذا السبب مطلقة .

ولا يمكن أن تكون الدولة الصالحة جمهورية أو ديمقراطية ، لأن هذين لا يمثلان أى وحدة فى المصالح ، كما يشيع فيهما عدم النظام والاضطراب . وفيهما مكان عظيم للصالح الفردى . ويدل التاريخ على أن مثل هذه الدولة لم تكن مستقرة . أفضل الحكومات هى الملكية المقيدة . وأفضل مثال لذلك فى زمن هيجل هى حكومة انجلترا ، ولو أنه يعترض عليها بجملة اعتراضات . فتقسيم وظائفها لا يهدف إلى الوحدة والعمل المثمر ، بل يهدف هذا الانقسام إلى المراقبة التى تضبط الأمور

سلبياً . فهى حكومة غير صالحة ولو أنها فى جوهرها أفضل نظام ظهر حتى عصره . ويمكن التغلب على الصعوبات فى النظام الانجليزى إذا تركزت السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى يد رجل واحد . بذلك يلتمس العقل سبيله ، ويحقق وجوده فى الملك . وواجب الملك الأول أن يحفظ مصالح الدولة ، ويعمل على رقيها . ويجب أن يتوفر أكبر قسط من الحرية : الحرية فى الرأى والخطابة والصحافة .

لا توجد دولة أعلى من هذه الدولة الوطنية . وليس هناك من سبيل إلى منظمة عالمية من حيث لا يمكن الاحتفاظ بالأجزاء الكثيرة فى تماسك . هناك دول كثيرة ومصالح متنافرة ، وأغراض شخصية لا تيسر هذه الوحدة . يجب أن تكون كل دولة المجتمع النهائى المطلق ، ويجب أن تفهم ويحكم عليها وتنظم فى ضوء التاريخ المشترك واللغة المشتركة والتقاليد المشتركة التى كونت هذه الدولة .

والاعتداء على الدولة الأخرى ليس له ما يبرره إلا إذا كان فى ذلك تحقيق للعقل . يرى هيجل أن الدولة إذا حققت الفكر idea أفضل من غيرها من حيث الثقافة والقوة فعلى الدولة الأخرى أن تنضم إليها .

وسوف ينتصر العقل ، ويوحد بين جميع الشعوب فى مجتمع واحد . أما الدول التى تعبر عن المثال idea فإنها تفعل ذلك إلى حد ما ، ثم إن الطريق إلى أن يكون العقل موضوعيا يتحقق فى صورة الانضمام أكثر من طريق التعاون بين الدول .

وهذا يقودنا إلى فكرة هيجل عن الروح العام خلال التاريخ . هذا التطور يجرى خلال الصراع المستمر . كل عصر ، وكل دولة ، هى تعبير عن العقل فى درجة من درجاته ، وسقوط الدولة دليل على نقصها فى التعبير عن المطلق ، أو الفكرة المطلقة . وبذلك تترك الطريق لغيرها مما يحقق الفكرة . والدولة المنتصرة هى الدولة الأفضل . لا ريب إذن فى التاريخ الذى وقع هو الوحيد الممكن الوقوع والأفضل . وكلما تقدم التاريخ ، وتعاقبت الدول أصبحت الفكرة idea أوضح . وكل دولة فهى مؤقتة ، وفى الوقت المناسب تتخلى عن نفسها لغيرها . ليس التاريخ إذاً تعاقب الحوادث ، وليست كل حادثة سببا فى غيرها ، وليس لنا أن نفهم تعاقبها بالعلية المحتومة ، بل عن طريق تحقق العقل القلق الذى يريد

أن يبرز نفسه. والتاريخ معنى باطنى، وهذا المعنى الباطن هو قصة العقل الذى يبرز بطريق البشر.

ابتدأ التاريخ فى آسيا، وسوف ينتهى فى ألمانيا، وذلك فى نظر هيجل، ثم انتقل غربا من آسيا، وكلما انتقل تقدم فى الروح. بذلك كانت طفولة التاريخ فى آسيا، وبلغت الشباب فى اليونان والرومان، والنضوج فى ألمانيا. وعندئذ لن يتقدم بعد ذلك فيما يختص بالدولة، وعلى الروح أن تتحقق فى المطلق فى درجة أعلى من المرتبة الاجتماعية.

وعندئذ يجد النظام الاجتماعى نفسه مكانه الصحيح فى النظام المطلق. وهذا التوحيد الأخير يحدث فى ميادين الفن والدين والفلسفة.

النظام المطلق :

ومظاهر الروح العليا تمتد الى ما هو أبعد من النظام الاجتماعى. ومهما تسمو الدولة فإنها تظل محدودة من جميع النواحى بالأشياء الطبيعية. ولكى تبلغ الروح الحرية التامة، فإنها تلتمس التعبير عن نفسها فى عالم الفن والدين والفلسفة. وهذه كلها لا تعرف الحدود المفروضة، إنها تعبر عن نفسها فى جميع البلاد وجميع الشعوب وتسمو على الدول والعصور، وإذا كان الانسان قد وحد نفسه بالنظام الاجتماعى فهو الآن يلتمس توحيد نفسه بالروح المتحقق فى الفن والدين والفلسفة، وفى هذه الميادين يقل التضاد بين الذات والموضوع، أو ينمحى الفرق بينهما شيئا فشيئا، حتى إذا بلغت الروح أقصى حياتها انعدمت هذه الفروق، وسبيل ذلك تطور التاريخ نحو المطلق. وأخيراً حيث قد ظهرت الطبيعة والدولة يبنى العقل فوقها العوالم الثلاثة للحرية. ولم يكن ممكنا أن تظهر هذه المرتبة الثالثة بدون ظهور الطبيعة والدولة.

وإليك نص أقوال هيجل :

« كان الإنسان قبل كل شىء فرداً (عقلا شخصيا) مغلقا على نفسه فى الأثرة الفطرية. ثم خرج عن نفسه، وعرف نفسه فى غيره من الناس، وكون الجماعة والمجتمع والدولة (العقل الموضوعى). وأخيرا يعود الإنسان الى نفسه فيجد فى

أعماق نفسه مثال الفن أى الجميل ، ومثال الدين أى الله ، ومثال الفلسفة أى الحقيقة ، وفى تحقيق هذه المثل الثلاثة يضحى العقل المطلق » .

ويوازن رسل بين الدور الذى تلعبه الدول عند هيجل وبين الطبقات عند ماركس . ونحن نوافقه على هذا الرأى .

ونترك الحديث عن الفن ونضرب المثل بالدين . عندما يتعمق الفرد فى التجربة الدينية يشعر أنه بعيد عن الأشياء ، ويقطع علائقه بها ، ويصل بين نفسه وبين العالم الأرحب ، وحيث إن التعبير عن الشعور الدينى يتحرر من الماديات المفروضة على الفتى ، فان العقل البشرى يصبح قادراً على توحيد نفسه بالعقل الكلى الذى يبرز فى التجربة الدينية ، وهذا يحدث تدريجيا . فى أول الأمر كان الإنسان فى خوف من الطبيعة وانحنى أمامها ، وكان التمييز بينه وبين العالم ملحوظا . وعلى مر الزمن وثق الإنسان بنفسه ، ورأى فى الطبيعة مظاهر يجدها فى نفسه ، وأصبحت عبادته أكثر روحية ، وفى الوقت نفسه أقرب الى التشبيه والتجسيم . ثم أحس بعد ذلك أنه ليس غريبا فى هذا العالم ، وذلك كلما ارتفع عنده الوعى ، وأدى به الخيال الى الاعتقاد أنه فى مكانه اللائق فى هذا العالم ، ولا يتم ذلك إلا إذا محا الفوارق بين الواحد والكثير ، بين المحدود واللامحدود ، وبين ذاته وبين المطلق .

وقد اجتمع الإنسان حول هذه الفكرة خلال التاريخ ، وبلغها فى المسيحية . جميع الأديان غير مقنعة وناقصة ماعدا المسيحية [١] . لقد كانت الأديان ضرورية لبروز المسيحية وتحققها . كانت انحلالا للروح ، ولقد جمعت المسيحية ما فيها من قيم واحتفظت بها . ولو أن الإنسان قد وصل الى فكرة المطلق خلال التجربة الدينية ، إلا أنه فعل ذلك بطريق الشعور والخيال أكثر من العقل . أما الخطوة الأخيرة فى بلوغ المطلق فهو من عمل العقل . فبواسطة العقل نسمو على الإيمان ، ويبلغ الانسان اكتماله ونضوجه بأن يعرف أن جميع الأشياء وحدة واحدة ، محسوسة الظاهر ، روحية الباطن .

وأخيراً مات هيجل ، وظهر جدل عظيم حول آرائه ، بل بين صفوف أولئك الذين يعتقدون فى أنه إمام الفلسفة فى ألمانيا .

---

[١] يقول هذا لأنه مسيحى ويقول المسلم مثل قوله عن الاسلام والعبرة بالدليل وحكم التاريخ .

بعض هذا الجدل نشأ عن غموض فلسفته ، ونشأ البعض الآخر عن هذه المبادىء الأولية الميتافيزيقية التى يقول بها ، ولم يرض عنها أصحاب المنهج العلمى .

ولم يقبل بعض المفكرين منه تفسيره للتاريخ ، وأن تغيير الحوادث كان كله نحو الخير والأفضل .

وأدى قوله بأنه لا فرق بين الدين والفلسفة الى نزاع كبير بين المفكرين . واتخذ تلامذته من أنصار اليسار مثل ستراوس ونيرباخ وماركس وانجلز من هذا القول دليلا على أنه يتخلى عن الدين على حساب الفلسفة .

ولقد مال هذا الفريق شيئا فشيئا نحو العلم والطبيعة والمادة ، ففسروا العالم تفسيرا علميا طبيعيا ماديا .

ويعد ماركس بحق تلميذ هيجل . أخذ عنه طريقته فى الجدل ، وحذا حذوه فيها ، ولم يقبل منه أن الحقيقة هى « الروح » هذه الفكرة الروحية الباعثة لتطور التاريخ ، واستبدل بها « المادة » فهى القوة المحركة فى التاريخ .

حماسة

كان عمرو بن معد يكرب من شجعان العرب ؛ قال يصف نفسه :

أعاذل عدتى بدنى ورمحى وكل مقلص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابى إجابتى الصريخ إلى المنادى
مع الأبطال حتى سل جسمى وأقرح عاتقى حمل النجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمى ويفنى قبل زاد القوم زادى
فلو لاقيتنى للقيت ليثا هصورا ذا ظبا وشبا حداد
ولاستيقنت أن الموت حق وصرح شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

باب الأسئلة والفتاوى

مسألة ميراثية

تقدم الى لجنة الفتوى بالأزهر سؤال من فضيلة الأستاذ الشيخ أمين محمود خطاب المدرس بمعهد القاهرة تضمن أنه حصل بينه وبين أحد العلماء نزاع فى مسألة ميراثية ، وهى :

« متوفى ترك أما ، وجدا لأب ، وأختا شقيقة ، وأختا لأب » .

فهو يرى على مذهب زيد بن ثابت رضى الله عنه ، أن للأم السدس فرضا . والباقى يقسم مناصفة بين الجد والأخت الشقيقة .

أما الأستاذ الآخر فيرى أنه على مذهب زيد يكون للأم السدس ، وللأخت الشقيقة النصف ، وللجد الثلث .

وطلب من اللجنة بيان الصواب فى ذلك على مذهب زيد .

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة بأن مذهب زيد رضى الله عنه فى مسألة توريث الجد مع الإخوة الأشقاء والإخوة من الأب ، أنه لا يخلو الحال : إما أن يكون مع هؤلاء ذو فرض أولا ، فإن لم يكن معهم ذو فرض كان للجد ما هو خير له من المقاسمة وثلث جميع المال ، وأنه يعتد بالإخوة والأخوات لأب مع الإخوة والأخوات لأب وأم فى مقاسمة الجد ، فإذا أخذ الجد نصيبه رد الإخوة والأخوات لأب جميع ما أصابهم على الإخوة والأخوات لأبوين إن كان هؤلاء

ذكورا أو مختلطين ؛ فإن كن إناثا فقط أخذن من الباقى بعد الجد إلى تمام الثلثين : وإن كانت واحدة أخذت الى تمام النصف . ومعنى هذا أنه إذا كان ما خص الإخوة من بنى الأعيان والعلات النصف فأقل بالنسبة للشقيقة الواحدة ، أو الثلثين فأقل بالنسبة للشقيقتين فأكثر، استقل به بنات الأعيان واحدة أو أكثر على هذا التفصيل ؛ ولم يكن لبنى العلات أو بنات العلات شىء .

وعلى كل حال ليس للإخوة أو الأخوات لأب حظ إلا فيما يبقى بعد النصف الذى تستحقه الشقيقة الواحدة ، وذلك مما يقع ، أو بعد الثلثين اللذين تستحقهما الشقيقتان فأكثر وهو لا يقع ، كما صرح به الفقهاء .

أما إذا كان مع الجد وبنى الأعيان وبنى العلات ذو فرض فإنه يكون لصاحب الفرض فرضه ، ثم يكون للجد ما هو خير له من أمور ثلاثة : سدس جميع المال ، وثلث الباقى بعد فرض صاحب الفرض ، والمقاسمة ، ثم يدخل بنو العلات مع بنى الأعيان فى المقاسمة إضرارا بالجد ، إلى آخر ماقلناه من الأحكام فى الحالة الأولى .

ومن مذهب زيد فى الحالتين أنه يجعل الأخوات الشقيقات أو لأب عصبة بالجد إلا فى المسألة المسماة بالأكدرية ، ولا مقتضى لبيانها هنا .

وعلى ما قدمناه يكون للأم فى المسألة المستفتى عنها السدس فرضا لوجود عدد من الأخوات ، والباقى يقسم تعصيباً بين الجد والأخت الشقيقة والأخت لأب ؛ فيكون للجد نصف الباقى ، والنصف الآخر للأختين . وترد الأخت لأب ما أصابها على الأخت الشقيقة ، فيكون نصيب الأختين جميعه للأخت الشقيقة لأنه أقل من نصف التركة الذى هو مقدار فرضها ، وهذا هو ما تفيده عبارات شرح السراجية ، والترتيب ، والمبسوط للسرخسى ، والشنشورى على الرحبية مع حاشيته للباجورى .

أما ما جاء فى شرح السراجية من قوله « لكن حظ الأخت لأب وأم إذا كانت واحدة لا يزاد على نصف المال ولا ينقص عنه مع وجود بنى العلات فتأخذ مقدار فرضها كاملا » فمعناه ـ ليتفق مع سابق الكلام ولاحقه من هذا

الكتاب ، وليتفق أيضاً مع ما جاء فى الكتب السابقة — أن نصيب الأخت الشقيقة الواحدة لا ينقص عن النصف بسبب وجود بنى العلات معها ، وإن كان ينقص عن النصف بسبب آخر بأن يكون نصيب الأخت الشقيقة المنفردة أو التى معها أخت أو أكثر من الأب أقل من النصف بمقتضى مقاسمة الجد .

ويوضح ذلك ما جاء فى شرح الشنشورى من قوله « وإن لم يكن فى الأشقاء ذكر فإن كانتا شقيقتين فلهما إلى الثلثين ، ولو فضل شىء لكان للإخوة لأب . وقوله بعد ذلك : وإن كانت شقيقة واحدة فلها إلى النصف . فإن بقى بعد حصة الجد ، والفرض — إن كان — نصف المال أو أقل فهو للأخت الشقيقة ولا شىء للإخوة للأب » وقد علق الباجورى على قوله : فلهما إلى الثلثين ، فقال : أى فللأختين الشقيقتين الأخذ إلى الثلثين . وإنما قال إلى الثلثين لأنهما قد ينقصان عن الثلثين فلا يلزم أن يكمل لهما الثلثان ، بل تارة يكملان لهما ، وتارة ينقصان . ثم علق على قول الشارح فى الواحدة « فلها إلى النصف» فقال:أى فللأخت الشقيقة الأخذ إلى النصف ، ويأتى فيه نظير ما تقدم فى قوله إلى الثلثين » اهـ يريد أنه لا يلزم أن تأخذ الأخت الشقيقة النصف ، بل قد تنقص عنه كما فى مسألتنا

ومن هذا يتبين صحة ما قلنا فى فهم عبارة السيد فى شرح السراجية .

وخلاصة القول: أن مذهب زيد فى مسألتنا هو ما قلناه من أن للأم السدس فرضا لوجود عدد من الأخوات ، والباقى نصفه للجد ، ونصفه الآخر للأخت الشقيقة تعصيبا ، ولا شىء للأخت من الأب . فليس نصيب الجد فى هذه المسألة ثلث التركة ، بل نصيبه على مذهب زيد ما قلناه ، وذلك خمسة أسهم من اثنى عشر سهما تنقسم إليها التركة ، وللأخت الشقيقة خمسة أسهم ، وللأم سهمان . وبما ذكرنا يعلم ما طلب إلى اللجنة بيانه . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

مقومات العدالة الاجتماعية فى القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

الإنسان كائن اجتماعى بفطرته لا تستقيم له الحياة إلا فى جماعة من نوعه ، ليتعاون مع أفرادها على تحصيل تكاليف العيش المختلفة الكثيرة ؛ ولهذا لم يوجد نوع الإنسان فى هذا السيار الأرضى إلا فى جماعات متحدة ، وأمم مؤتلفة ، وطوائف متعاونة ، يعمل فيها الكل لمنفعة الكل ، وتجىء مصلحة الجميع من الجميع . والحاجة كانت ولا تزال أول عوامل الاجتماع الإنسانى ، وائتلاف الأفراد فى أشكال قبائل ودول وشعوب .

وإن أردت مثلا يوضح لك مدى ما بين الفرد والمجموع من الاحتياج والترابط ، فانظر إلى شىء ما من حاجات الحياة الضرورية ، وليكن ثوبك مثلا ، تر أن هذا الوقاء الذى يستر جسدك ويقيه غوائل الحر والبرد قد ساهم فى إعداده لك خلق كثير وكثير جدا : الزراع غرسوا شجرته ، والصناع أمدوا الزراع بأدوات الحرث والزراعة المتنوعة ، ثم قام العمال بجنى مادته الأولية ونقلها إلى المصانع حيث تعاون الغزالون والنساجون والقصارون وما إليهم من الأيدى العاملة على تحويل خاماته إلى أقمشة تداولتها محال التجار بالبيع والشراء ، وأخيرا قام لك الخياطون بحياكته وكذا ، لم يصلك ثوبك إلا بعد أن تعاون على إنتاجه طوائف شتى وأرباب حرف مختلفة . وكذلك الحال فى سائر الأحوال . ورغيف الخبز الذى يمسك عليك رمق الحياة مثل ثوبك الذى يسترك ، والدواء كالكساء والغذاء . وكل حاجات العيش إنما ينالها الفرد بعمل المجموع . ولقد نوه الشاعر العربى الحكيم بهاته السنة الاجتماعية الخالدة حين قال :

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

إذن ما كانت غلات المزارع، ولا منتجات المصانع، ولا ما تحفظه الخزائن والمصارف من الذهب والفضة بأثر مجهود شخصى ولا نتيجة عمل خاص، لكنها نتائج جهود جماعية، وثمرة كفاح مشترك؛ ومن ثم تعلقت بها حقوق الأيدى التى أنتجتها: كل على قدر عمله، وقضى ربك أن يؤتى كل ذى حق حقه لا يبخس منه شيئا، ولا يظلم فتيلا.

وعلى تلك السنة الراهنة تأسست الماركسية الحديثة وكل الفلسفات والمذاهب الاشتراكية والشيوعية؛ فإنها فى جملتها فكرة اقتصادية تقضى بأن يكون استهلاك كافة المنافع والسلع جماعى، لأن إنتاجها دائما جماعى، ولكنها حقيقة لم تخل من شائبة الخطأ الجائر؛ لأن الشيوعية تهدف بناء على ذلك إلى محو الفوارق الاقتصادية بين سائر الأفراد والطبقات، وتجعل المساواة المطلقة الحل الحاسم لكافة المشاكل الاجتماعية، وتحاول تحقيق ذلك الحلم بأساليب شاذة ومتكلفة كالحد من الاستقلال الشخصى، وتحديد الملك وفرض الضرائب، وتأميم المرافق والصناعات الكبرى، وأحيانا بالأساليب الدامية والانقلابات العامة، واستئصال طبقة البرجوازية بالحديد والنار. وفاتهم أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعله صوابا، وأن أرباب الأيدى العاملة ليسوا سواسية فيما يؤدون من المجهودات؛ لأنهم بالضرورة بين قوى وضعيف، وعامل وخامل، ونشيط وكسول، وأن محاولة المساواة المطلقة الدائمة محاولة فاشلة لتعديل سنن كونية محال تعديلها، وأن التفاوت بين الناس ناموس حكيم يدفع النوع دائماً إلى المنافسة والكفاح والتطور؛ وإنما العدالة الحقة ما قضى بها القرآن من تعادل الأجور مع الأعمال وتكافؤ الحقوق والواجبات فلكل فرد فى الهيئة الاجتماعية من الحقوق والمزايا مثل ما يؤدى من الأعمال. أما المعيار الضابط لهذا التعادل الواجب بين الأعمال وأجورها فمرده إلى ظروف العيش ومقتضيات الزمان والمكان الدائمة التغير، وما يراه أهل الحل والعقد من قادة الأمة الأمناء؛ فما يرونه من الأسعار والأجور كفيلا بتحقيق التعادل وكفاية العامل فهو العدل المفروض فى القرآن، لا ما يشذ به الاحتكاريون الظلمة الذين لا يفرقون بين السلع وبين الأيدى التى تنتجها، كأن الجميع بضاعة خلقت للاستهلاك، ولا ما يحاوله المتطرفون من أصحاب النزعات اليسارية والآراء الفوضوية

فهؤلاء وهؤلاء فى نظر الاسلام سواء . ولقد ناهض الإسلام فى بدايته جشع الاحتكاريين وسجل تاريخه فى أمجاد الخليفة الأول الصديق أبى بكر تلك الحرب التى شنها على مانعى الزكاة الذين بعثوا نزعة الاحتكار البغيضة بمنع الزكاة وحقوق الفقراء ، كما حمد التاريخ للخليفة الثالث عثمان بن عفان أنه حال بالحزم والعزم بين مبادىء الاسلام الاشتراكية وبين الانحراف والتطرف يوم قام الصحابى الزاهد أبو ذر الغفارى بحركته المتطرفة .

ذلك بأن القرآن قد شرع الزكاة لضمان العيش للعاجزين ومن لا يفى كسبه بحاجاته ونفقاته ، وأفسح المجال حرا ، وهيأ الفرص الطيبة للعاملين المجدين وأرباب المواهب والكفايات للإنتاج النافع والإثراء والامتلاك بالوسائل المشروعة العادلة ، وأقر التفاوت الاقتصادى والأدبى الناجم عن تفاوت العاملين فى القوى والملكات وحسن التدبير ، واعتبر ذلك من أهم عوامل الاجتماع والترابط بين أفراد المجتمع « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

ولقد رأى الأستاذ العقاد فى كتابه (الفلسفة القرآنية) أن القرآن بهذا قد اعترف صراحة بنظام الطبقات،وليس كذلك ؛ إذ لا يلزم من تسليمه بالتفاوت الاقتصادى العادل إقراره لنظام الطبقات ، وإنما يصح ذلك لو أنه ميز الفقراء على الأغنياء بخصائص أو امتيازات ، أو جعل الناس بين أشراف ورعاع كما كان الحال فى أوربا المسيحية قبل النهضة ، أو كما هو الحال اليوم فى المستعمرات الأوروبية وفى بعض دول أمريكا ، ولا سيما الولايات المتحدة التى تعد الآن الحارسة الأمينة على تقاليد الرجعية والاستعباد ، بفضل قوانينها التى فرقت بين رعاياها باختلاف ألوانهم ، فجردت السود من أبسط الحقوق الإنسانية ، فلا يؤخذ الأبيض بجريرة القتل إذا أزهق روح الأسود ، وما زالت قوانين بعض الولايات هناك تدين بالأشغال الشاقة سنوات عديدة من يتزوج الأمريكية البيضاء وهو من سلالة السود ، أو ثبت أن فى دمه نسبة معينة من العنصر الزنجى ، أو مثل ما ذهبت إليه النازية الجرمانية من تقسيم الجنس البشرى طبقات ودرجات فى مقدمتها الجنس الآرى المتفوق .

إن القرآن لا يفرق بين الأسود والأبيض ، ولا يفاضل بين الأحساب والأنساب ولا يعترف بالتفرق العنصرى ولا بنظام الطبقات ، وإنما كافة الخلق عنده سواء ، أصلهم واحد وغايتهم واحدة ، وتصرفهم فى الحياة نواميس وسنن واحدة ، ولهم إله واحد ؛ وما أوتوا من ميزات واختلفوا به من فضائل فإنما ترفعهم عند الله بمزيد الثواب ، وعند الناس بالتقدير والمحبة « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

ولقد كان مما أودعه نبى الإسلام فى ذمة التاريخ ، واستحفظ عليه قادة الأمة يوم خطب خطبة الوداع ، هاته القاعدة الاجتماعية المثلى « يأيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . . . الخ » .

وصفوة القول أن العدل القرآنى يستحق كيانه الصحيح بثلاثة أركان : (ا) تكافؤ الحقوق والواجبات (ب) المعادلة التامة بين الأعمال وأجورها (ج) المساواة المطلقة بين الأفراد فى سائر الحقوق والمزايا ؛ فإن كان ثمة عاجز أو ضعيف أو ناقص الكسب فقد وسعه الأصل الثانى من مقومات العدالة الاجتماعية القرآنية ، وذلك هو الإحسان المفروض لجبر النقص الاقتصادى عند الطبقات الفقيرة والمنكوبة .

ومن حكمة الله أنه لم يكل أمر الإحسان الى عاطفة الرحمة عند الأغنياء حتى يتعرض للنقص أو الفقدان إذا طغت المادية وسرت نزعة الجشع والاحتكار بين أصحاب الأموال ، بل جعل منه نصيبا جبريا واجب الأداء ، وناط بالحكومة الشرعية جبايته طوعا أو كرها ، وما أوفى الزكاة بضمان مستقبل الفقير وسد الفراغ !

ففيما تغل المزارع من الحاصلات والثمرات ، وفيما تدخر المصارف من الذهب والفضة ، وما يتداول التجار من السلع والبضائع ، وفيما يستخرج الحفر والتنقيب من النفائس والكنوز ، وفيما يستام بلا كلفة من النعم والماشية — فى كل أولئك حق معلوم للسائل والمحروم . وإن الرجل ليعجز عن البر بيمينه فلا يعفيه من تبعته

إلا الصدقة على الفقراء. ويظاهر الرجل من زوجه أو يعجز عن أداء صومه فلا يتحلل من عهدته إلا بإطعام المساكين؛ وصوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر ... الخ .

فانظر كيف عالج الإسلام الفقر علاجا ناجعا حكيما لا عنف فيه ولا شذوذ .

هنالك شائعة خاطئة يروج لها المتسخطون الحيارى المتلمسون الإنقاذ والعلاج عند ماركس ولينين ومشترعى الغرب : هى أن جبر النقص بتطبيق قانون الزكاة مما تتأذى به نفوس الفقراء ، كأنهم يعتبرون الزكاة لونا من المسألة والتسول ... والخطأ هنا مزدوج ؛ إذ نحن لا نطالب بتنفيذ الزكاة لجبر النقص عند العامل المظلوم أو الأجير المستعبد ؛ فما شرعت الزكاة لذلك ، ولكنها مفروضة لكفاية العجزة والناقصين والمنكوبين فحسب . ولابد لإنصاف الأجراء . والنهوض بالأيدى العاملة من تعديل نظام المعاملة بين العمال وأصحاب رءوس الأموال تعديلا إسلاميا ناجعا . ومن البديهى كذلك أن أداء حقوق الزكاة أهون على النفس من التشريعات العمالية والضرائب التصاعدية ، وما إليها من الحلول الوضعية القاصرة . وشتان بين غنى يؤدى من فضل ماله عن طيب خاطر وهو يعلم أنه لماله كالتقليم للشجرة يعود عليها بالخصب والنماء ، وأنه حصانة لماله وطهرة لنفسه ومرضاة لخالقه ، وبين من يؤديها راغما لتحكم التشريعات وغلبة بعض الطبقات والأحزاب على بعض . وهذا السر النفسانى فى الزكاة هو الذى أوجب تقديم أهل قرابة الغنى على من سواه رعاية لحرمة الدم وكرامة المحتاج . فإذا استقام نظام الحياة بين الغنى والفقير بالعدل والإحسان ، فقد أمن الفقير على مستقبله ، كما أمنه القرآن على عرضه وحرمته بتحريم الفحشاء ، وصان عقول الكافة من النزعات الخبيثة ، والنزعات الهدامة التى هى المنكر المنهى عنه ، إذ أن كل بدعة لم يصح فى العقل برهانها ، وكل خرافة ثبت فسادها وبطلانها ، فهى مما ينكره الدين القويم والعقل المستقيم ؛ ولكى لا يستغل الحكام والقادة حماية القيم والمثل العليا للمجتمع فى الحجر على الحريات وتضييق النشاط المشروع ، ختم القرآن مقومات العدالة الاجتماعية بتحريم البغى ، وما هو إلا تجاوز القسط بأفراط أو تفريط . وهذا فن من الإعجاز فى بلاغة القرآن الكريم ، وهناك فن آخر هو اجتماع كافة المقومات الأساسية

للعدالة فى آية واحدة ابتدأ فيها بالعدل والعدل أساس الملك ، وقوام المجتمعات الراقية السعيدة ، وما تلاشت روح العدل فى أمة إلا وسرت فيها تيارات الضغينة والحقد ، واستنفدت طاقتها الحيوية فى التناحر الداخلى والنزاع الطائفى والحزبى بدل استغلالها فى نواحى الانتاج والتعمير والنهضة . والنتيجة الطبيعية لذلك هى انحلال الأمة وتداعى عناصرها ، وذلك من أبرز عوامل الضعف فى المجتمعات الإسلامية اليوم . وإذا كان انعدام الرقابة الإسلامية على أساليب المعاملة بين الأغنياء والفقراء لدينا قد أمكن الأغنياء من تضخيم الثروات وتعاظم الإنتاج بتسخير الفقراء فى المصانع والمزارع بالقسوة والاحتكار ، فقد تدهورت به الكثرة الساحقة من سواد الشعب ، وأفقد الأمة مناعتها الدينية ضد الفوضى والنزعات الهدامة .

فهل آن للمصلحين من قادتنا وكبرائنا أن يلتمسوا العلاج الحاسم من ديننا وحضارتنا العظيمة ، أم يظل هؤلاء المرضى فى حيرتهم وضلالهم وبين يديهم الدواء يتداولونه ولا يتناولونه !.

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . م؟

كلمات

قيل لعبد الله بن الحسن : إن فلانا غيرته الولاية . قال من يلى ولاية يراها أكثر منه تغير لها ، ومن ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها .

ولما عزل عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة عن كتابة أبى موسى ، سأله أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه : لا عن واحدة منهما ، ولكنى أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة !.

ولقى عمر بن الخطاب أبا هريرة فقال له : ألا تعمل ؟ (يريد ألا تلى عملا من أعمال الحكومة) . فقال أبو هريرة : لا أريد العمل . فقال أمير المؤمنين : قد طلب العمل من هو خير منك : يوسف عليه الصلاة والسلام : قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم .

الاسلام والرق

مترجمة عن : The spirt of Islam:
By
Aineer Alia Syed .

روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه « أما عن الأرقاء فأطعموهم كما تطعمون أنفسكم ، واكسوهم كما تكسون أنفسكم » .

ويرى البعض أن الرق يشبه تعدد الزوجات من بعض الوجوه ؛ فقد ظهر بين جميع الأمم كما ظهر فيها تعدد الزوجات سواء بسواء ، غير أنه لم يلبث أن اندثر نتيجة حتمية لتقدم التفكير الإنسانى ، وتفهم الجنس البشرى لمعنى العدالة . وجاء الرق كما جاء تعدد الزوجات كذلك نتيجة طبيعية للهوى والكبرياء . ولكنه يختلف عن التعدد فى أنه أمر تنفر منه الفطر السليمة منذ بداءته .

وفى العصور الأولى التى لم تبلغ الإنسانية فيها درجة يمكن معها تقدير حقوق الإنسان ، ويوم أن كانت القوانين أوامر رسمية يصدرها فرد أو فئة قليلة لحساب الكثرة العظمى ، وحين كانت إرادة القوى قانون الحياة وعامل هدى للأخلاق ، فى هذه الأيام شَرَع عدم المساواة بين الناس اجتماعيا وطبيعيا وعقليا يأخذ صورة العبودية ، وبدأ فى الحياة نظام من شأنه أن يمنح الرئيس سلطة مطلقة على من دونه .

وإن الاسترقاق لأمر معروف منذ خلق الإنسان ، ولقد نمت جراثيمه حتى مع تقدم المدنية وشعور الناس بعدم الحاجة إلى بتمائه . وعرف اليهود والإغريق والرومان وقدماء الألمان الرق ، ومارسوه كما مارسه العبرانيون .

أما المسيحية - كنظام وعقيدة - فلم تُبد من جانبها نفوراً ضد الرق، ولم تعمل بأية صورة على تحريمه ولا بتخفيف أثره السيء، بل على النقيض من هـذا فرضت على العبد الخضوع المطلق لمشيئة سيده. وكان الأرقاء كالأشياء يحركها الإنسان كيفما يشاء !.

وتفشى الرق بين الرومانيين الذين كان لهم الحق فى أن يمنحوا الأرقاء الحياة أو يحرموهم منها. وعلى الرغم مما أدخل على النظم والقوانين من تعديلات بدافع من إنسانية البراطرة وحكمتهم، فكان لزاماً على العبد أن يخضع خضوعا تاما لأوامر سيده. وكان من حق كل وجيه من وجوه الإمبراطورية وعظمائها أن يمتلك آلافا من الأرقاء الذين كانوا يسامون صنوف العذاب، لأتفه الأخطاء والأسباب.

ولقد نمت العبودية فى ظل السيادة الوثنية، وحرم على الأرقاء الزواج واعتبر بينهم غير قانونى، وحرم بينهم وبين الأحرار كذلك. والويل لمن يقدم عليه منهم. ونذكر على سبيل المثال هنا أن المرأة الحرة كان جزاؤها الإعدام إن هى تزوجت من عبد، أما هو فتشعل فيه النيران حيا ويترك حتى يقضى. ونتيجة لهـذا النظام تفشت بين الوثنيين والأرقاء عادة المعاشرة الزوجية التى لا ترتبط بقوانين !.

تلك هى حال الرق فى العالم قديما. ولقد فشلت المسيحية فى إلغائه أو مناهضته، واستخدمت الكنيسة نفسها الأرقاء، ووافقت فى صراحة تامة على نظام العبودية، واهتم الأوروبيون بالرق وعملوا جاهدين على تشجيعه لكيلا يقوم مع وجوده عوز أو سلب فى البلاد، كما يزعمون !

وأخيراً جاء الإسلام غير معترف بتمييز لجنس على جنس ولا بلون على لون، فكل الناس عند الله سواء، وكان المؤذن الأول فى الإسلام والمقرب المحبوب من النبى — عليه أفضل الصلاة والسلام — عبدا أسود. وكان فى ظهور هـذا الدين العظيم القضاء المبرم على نظم العبودية. وأنذر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أتباعه كثيرا مطالبا إياهم أن يمنحوا الأرقاء حقوقهم، ذاكراً لهم أن هذا خير أعمال الإنسان قبولا عند الله.

وأوصاهم بتمكين الأرقاء من استردادهم لحريتهم نظير ما يتقاضونه من أجور منهم ، وبتركهم يسعون وراء الكسب الذى يحقق أملهم فى عتقهم على شريطة أن يكون هذا حقا هدفهم ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

وأوصى — صلى الله عليه وسلم — كذلك بتقديم الأموال للأرقاء ليشتروا بها حريتهم ، وجعل درجة الرحمة عند الجزاء ، مساوية لدرجة التواصى بالجيران وأبناء السبيل والأنسباء ، وحرم استغلال الأقوياء لنفوذهم ضد الضعفاء .

ومن تعاليم الإسلام استرداد العبد لحريته إن جاء هاربا يرجو حماه ، وأما الطفل الذى تلده امرأة من الأرقاء فله من الحقوق ما لأبيه ، وفى مكنة العبد أن يعقد بينه وبين سيده اتفاقا على تحريره من ربقة العبودية ، وليس للسادة أن يكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم ومالا يتفق والعدل ، وليس لهم كذلك أن يخاطبوهم بما تتألم منه نفوسهم . وينهى الإسلام عن أن يحال بين الأم وطفلها ، وأن يفترق الأخ عن أخيه ، والابن عن أبيه ، والزوج عن زوجته ، والقريب عن القريب ، ونال الأرقاء من الحقوق وبلغوا من المنزلة فى ظل الإسلام ما ينهض دليلا على سماحة هذا الدين العظيم ، وها هو « زيد » معتوق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعهد اليه الرسول بقيادة الجيوش ، ويعمل تحت إمرته قواد من أعرق الأسر ، دون تأفف منهم أو ضجر . وشرف أبو بكر رضى الله عنه « أسامة بن زيد » بقيادة الجيش فى الحملة التى سارت لملاقاة الإغريق . وما كان « قطب الدين » أول ملوك دلهى فى الإمبراطورية الإسلامية فى الهند إلا عبداً .

ولم يكن الرق الذى سمح به فى الإسلام شيئاً مذكوراً بالنسبة لما كان عليه فى المسيحية حتى العصور الحديثة . وليس بمستغرب أن يصبح العبد اليوم فى الإسلام وزيراً خطيراً فى غده . وله أن يتزوج من ابنة سيده ، ولا يشين هذا السيد أن يوافق على مثل هذه الزيجة . وكم حكم العبيد من ممالك ، وكم أقاموا من أسرات .

وفى الحق فلا يعرف الإسلام من أنواع الرق إلا نوعا واحداً هو « الرق الذى يأتى عن أسرى الحرب » ولم تكن عادة شراء الأرقاء بمعروفة زمن الأربعة الأوائل من الخلفاء الراشدين .

وها نحن الآن فى زمن يسمح لنا بأن نرفع فيه الصوت مدويا ضد العبودية وممارستها على أية صورة كانت وتحت ستار أية تسمية تنكرت . وجدير بنا — والحالة هذه ـ أن ننادى بالحرية والمساواة والإخاء بين كافة البشر ؟

أهل الشر

قال النبي صلى الله عليه وسلم : شر الناس من اتقاه الناس لشره . وسئل شبيب بن شبة عن خالد بن صفوان فقال : ليس له صديق فى السر ، ولا عدو فى العلانية .

وقال الأحنف بن قيس : رب رجل لاتغيب فوائده وإن غاب ، وآخر لا يسلم منه جليسه وإن احترس .

وأنشد العتبي :

لى صديق يرى حقوقى عليه ... نافلات وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولا اليه ... ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير ... واشتهى أن يزيد فى الأرض أرضا

وقال صالح بن عبد القدوس :

تجنب صديق السوء واصرم حباله ... وإن لم تجد عنه محيصا فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله ... يجده وراء البحر أو فى قراره
ولله فى عرض السموات جنة ... ولكنها محفوفة بالمكاره

الاحتفال بذكرى المغفور له

الملك فؤاد الاول

فى كلية الشريعة

احتفل الازهر حوالى الساعة الحادية عشرة ونصف من يوم الخميس ٢٨ إبريل فى فناء كلية الشريعة التابعة الجامعة الأزهرية بذكرى المغفور له الملك العظيم فؤاد الأول ملك مصر والسودان ، فكان احتفالا مهيبا اجتمع فيه ألوف من العلماء والوجهاء وكبار الموظفين والطلاب ، وما انتصفت الساعة الواحدة حتى أقبل حضرة صاحب الدوله رئيس مجلس الوزراء ابراهيم عبد الهادى باشا نائبا عن جلالة الملك المعظم ، وبعد تناول القهوة نهض حضرة صاحب الفضيلة وكيل الجامع الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن فألقى كلمة رائعة لخص فيها من تاريخ الملك فؤاد ما يجب أن يعرف له من جلائل الأعمال ، وما ينبغى أن يعرفه كل مصرى ، وفاء للبيت المالك بحقه عليه ، وقد أصغى الجمهور لهذه الكلمة معجبا ببيانها ، مرتاحا الى سماعها .

ثم تلاه ثلاثة من نجباء الثلاث الكليات انتخبوا من ستة عشر ناجحا استحقوا أن يمنحوا الجوائز التى رصدها لهم المغفور له الملك فؤاد ، فألقى كل منهم كلمة ذكر فيه من مناقبه ما وسعه الوقت فى عبارات طلية ، وفقر عذبة .

ثم شرع حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء نائب جلالة الملك فى توزيع المكافآت على ستة عشر طالبا من طلاب الجامعات الثلاث ، تفوقوا على أقرانهم فاستحقوا أن يمتازوا بهذه الجوائز تنشيطا لغيرهم ، وعاقبة خير لجهادهم .

وقد كان الحاضرون يرجون أن يروا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر حاضرا هذا الاحتفال ، ولكنه اضطر أن يعتذر عن الحضور بسبب ما يشكو من وعكة ، شفاه الله منها .

وإنا فى هذه الفرصة نبشر حضرات القراء أن فضيلته قد اجتاز أشد أدوار المرض بسلام ، ولم يبق إلا أن يلازم الدار أياما أخرى استعادة للقوة أكمل الله له نعمة الصحة .

التشريع الجنائى الاسلامى

مقارنا بالقانون الوضعى

بين يدى الساعة كتاب فخم ضخم يقع فى أكثر من ثمانمائة صفحة بالقطع الكبير ، ألفه القاضى الفاضل عبد القادر عودة ، قال فى فاتحته بعد البسملة والحمدلة :

« وبعد : فهذه دراسات فى التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقوانين الوضعية ، وفقنى الله فيها إلى إظهار محاسن الشريعة ، وتفوقها على القوانين الوضعية ، وسبقها الى تقرير كل المبادىء الإنسانية ، والنظريات العلمية والاجتماعية التى لم يعرفها العالم ، ولم يهتد اليها العلماء إلا أخيرا .

« وسيرى القارىء مصداق هذا القول بين دفتى هذا الكتاب ، وأرجو أن لا ينتهى من قراءته إلا وقد أصبح يعتقد بما أعتقده ، وهو أن الشريعة الإسلامية هى شريعة كل زمان ومكان . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

ثم شرع حضرة القاضى الفاضل فى بسط ما أجمله فى هذه الكلمة ، على موجب ترتيب يعتبر غاية فى حسن التقسيم ، وجمال التبويب . فذكر أولا مدى المقارنة بين الشريعة والقانون الوضعى . والمذاهب الشرعية المقارن بها ، وعلة الاقتصار على المذاهب الأربعة ، ولغة البحث والفقهاء والشراح . ولماذا بدأ بالقسم الجنائى ، وكيف دفع لدراسة الشريعة ، وكيف اتهمت الشريعة بعدم الصلاحية ، ووجه الخطأ فى قياس الشريعة بالقانون ، ونشأة القانون ونشأة الشريعة الخ الخ مما يأخذ بعضه بأيدى بعض من الموضوعات ليكون القارىء على بينة مما يقرأ ، و على علم بما يقارن ، ولم يدع مما تجب معرفته فى هذا الموطن حاجة فى نفس مستزيد .

والذى لمسناه فى هذا الكتاب أنه يفيد فى فهم الشريعة الإسلامية لمن يريد أن يلم بها بما لا يستطيعه من كتبها ، فإن هذه صنفت للمشتغلين بتدارسها ، والكتاب الذى بين أيدينا وضع للوصول الى بيان واضح يفهم المشتغل بالدراسة الفقهية وغير المشتغل بها ، فهو من هذه الوجهة من أنفع الكتب فى تعميم العلم بأسرار الشريعة ، وخاصة العلم بتفوقها على غيرها من الشرائع .

فنقدم لقاضينا الفاضل من الثناء ما هو جدير به ، ومن الإعجاب والتقدير ما يستأهله فضله . أكثر الله من أمثاله فى النابهين الغيورين .

مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الاصفهانى

إن أبا الفرج الأصفهانى على بن الحسين يعد من أعلام الأدب العربى فى القرن الرابع الهجرى، قد جلى فى ميدانه فبلغ الغاية مما يبلغه الموهوبون. اشتهر بكتابه المشهور بالأغانى الذى عمرت به دور الأدب فى القرون التى تلت عهد ميلاده إلى يومنا هذا؛ فلا غرو أن يبذل نابغة من نبغاء كلية اللغة بالأزهر جهداً مشكورا فى شرح وتحقيق كتاب من أشهر كتبه هو (مقاتل الطالبيين)، لأنه كما يقول ذلك النابغة وهو الأستاذ السيد أحمد صقر: «كنز من كنوز الأدب والتاريخ، ترجم فيه أبو الفرج لنيف ومائتين من شهداء الطالبيين، فأحسن الترجمة، وصور بطولتهم تصويراً أخاذا يختلب الألباب، ويمتلك المشاعر، وذكر فيه من خطبهم ورسائلهم وأشعارهم ومحاوراتهم، وما قيل فيهم وبسببهم من روائع الشعر والنثر ما لا تجده مجموعا فى كتاب سواه، إلا أن يكون منقولا عنه، أو ملخصا منه، فهو خير كتاب أخرج للناس فى تاريخ الطالبيين وأدبهم، يجد فيه العلماء طلبتهم، والأدباء ضالتهم، ويجد فيه القاصون منهم مادة خصيبة لانتاجهم الفنى. وهو من أنفس الكتب التى تغذو العقول والقلوب والأرواح جميعا» انتهى.

وقد صدق نابغتنا الأستاذ السيد أحمد صقر، فهو من أثرى الكتب الأدبية بالمواد النافعة، وأحفلها بالطرف النادرة.

هنا لا أرى مندوحة من الإعراب عن إعجابى ببيان الأستاذ فى الشرح، وبسعة صدره فى التحقيق، فقد كلف نفسه تعبا مرهقا يندر أن يتطال الى مثله شارح، أو يتكلفه محقق؛ ففضلا عن أنه لم يغض الطرف عن أية صغيرة أو كبيرة مما يستدعى البيان والتحقيق والتبسط، لم يشفق على نفسه من لزوم مالا يلزم لخدمة قرائه، ومن أدعى ذلك للإعجاب به، والثناء عليه، ماتكلفه من تعيين جميع المصادر التى فيها ذكر لمن يترجم له من الأدباء وغيرهم، فلا نشك فى أن هذا الإحصاء وحده قد أخذ من وقت الأستاذ ما لا يقدره إلا من عانى مثله، وخاصة فى المؤلفات العربية.

الخلاصة: أننا حيال كتاب جليل القدر، غزير النفع، يعتبر ثمرة يانعة من ثمرات كلية اللغة العربية الأزهرية. فنرجو لمؤلفنا النابغة حياة حافلة بالإفادة، حالية بالإجادة.

بسم الله الرحمن الرحيم

عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة

الملك المعظم (فاروق الأول)

وافق يوم الجمعة ٦ من شهر مايو لسنة ١٩٤٩ عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ، فاحتفلت به الأمة المصرية بأسرها ، وفى مقدمتها وزراؤها وقادتها وعلماؤها وكبار موظفيها وطلبة جامعاتها ومدارسها ، فكان عيدا عاما تبادل فيه الناس التهانى ، وتذاكروا فيما لجلالة الملك من الأيادى البيضاء على العلم والعلماء وعلى مرافق البلاد جمعاء ، وما أظهره جلالته فى جميع المناسبات من العواطف الكريمة ، والميول النبيلة ، والتشجيعات الجليلة ، مما يعد منها ولا تعد . وقد اتفق حدوث العيد بعد المعرض العام حيث شاهد الناس ، فى صورة مصغرة ، جميع ماتم من ضروب التقدم فى صنوف الزراعات ، ومختلف الصناعات ، فكان شاهدا محسوسا على ما جد فى سنى ملكه السعيد من الترقيات الأدبية والمادية ، مما لم يتفق مثله فى عهد من العهود . فنتقدم لجلالته بالتهنئة والإجلال ، راجين لجلالته عمرا مديدا ، وتأييدا مجيدا ، ولبلاده فى عهده رقيا مطردا ، وازدهارا متواصلا .

أحاديث الأستاذ الأكبر

مع السفراء والمفوضين السياسيين

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر سعادة القائم بأعمال المفوضية العراقية صباح يوم ١٨ مايو سنة ١٩٤٨ بمكتبه بالإدارة العامة ، وقد قدم سعادة الوزير الى فضيلة الأستاذ الأكبر تحياته قائلا : إنه كان يود منذ مدة طويلة أن يتشرف بالمقابلة ولكن ظروفه

السياسية لم تمكنه من القيام بهذا الواجب فى حينه، وإنه نهز فرصة فراغه من أعمال اللجنة السياسية للجامعة العربية وسارع الى رفع تحياته وتحيات مسلمى العراق للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، الذى يعتز العراقيون به، ويرون فيه معقل الحضارة العربية والتعاليم الإسلامية.

فشكر له الأستاذ الأكبر هذه العواطف الكريمة وقال: إنه يتتبع بسرور زائد حركة النهضة والتقدم العلمى فى العراق، وإنه معجب بالسرعة التى تتدرج فيها العراق مدارج المعرفة والثقافة.

فقال سعادة الوزير: إننا فى كل خطواتنا نستوحى ما فعله الأزهر ونترسم خطاه؛ فللأزهر مكانة ملحوظة فى نفوسنا، وتقدير كريم بيننا، ونحن نعتبره الجامعة الأولى: للمسلمين فى جميع بقاع العالم، وأنا شخصيا تربطنى بالأزهر صلتان: الأولى: أنى عربى ومسلم، والثانية: أنى ابن شيخ من علماء الدين تربى وتعلم فى الأزهر.

فقال الأستاذ الأكبر: إن العرب كلهم إخوة، وكلهم مهما تعددت أوطانهم تجمعهم العروبة ويوحدهم الدين.

فقال سعادة الوزير: إن البلاد العربية محتاجة الى توجيه الأزهر فى إذكاء الرابطة الروحية؛ لأن تذكير الشعوب العربية بالروحانيات يقضى على خلافاتهم المذهبية والطائفية والسياسية، وفى هذا كل الفائدة لهذه الشعوب، وبودى أن أقترح على فضيلتكم أن تبعثوا من وقت لآخر ببعوث من رجال الأزهر تطوف البلاد العربية والشرقية لتذكر الناس بالله وتهديهم الى سواء السبيل، فالعالم كى يسوده السلام محتاج الى القوة الروحية ليعود الى أحضان الدين بعد أن حطمته المادية.

فقال الأستاذ الأكبر: إن الأزهر يضطلع بمهمة خطيرة هى إحياء الشعور الدينى وحفظ اللغة والدين، وواجبه فى هذه الأيام التى حطمت فيها المادية قوى البشرية وتركتها نهبا للقلق والخوف، أن يعمل على أن يعيد للقلوب اطمئنانها، وللنفوس سكينتها، بدعوة الناس الى أحضان الدين، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه.

وقد أحس الملك الصالح فاروق الأول - حفظه الله - بعظم الفائدة التى يجنيها الأزهر والدين إذا وجهت إلى العالم العربى والإسلامى بعثات دينية تقوم بالهداية والإرشاد، فأمر حفظه الله بأن تعمم البعوث الدينية فى جميع البلاد العربية، لتكون أداة وصل بين ثقافة الأزهر وثقافة هذه الشعوب؛ وقد قام الأزهر فعلا

بإرسال البعثات الى العواصم العربية ، وهي تعمل هناك بنشاط وجد أرجو أن يكون لهما الأثر الطيب الذى ننشده لها .

وفضلا عن ذلك فقد أمر جلالة الملك فاروق الاول بأن تفتح أبواب الازهر لاستقبال أبناء المسلمين الذين يرغبون فى تلقى العلم فى الأزهر ، وأمر أن تكون نفقات تعليمهم وإقامتهم على الجيب الخاص ؛ وهى منة للفاروق شجعت إقبال طلاب البلاد النائية على طلب العلم فى الأزهر ، حتى بلغ تعدادهم مايقرب من ألف وسبعمائة طالب ؛ والأزهر الى جانب ذلك بفضل هذا التوجيه الحكيم معنى بالشعوب البدائية التى لم تصل اليها هداية الله بعد ؛ فهو يرسل بعوثه الى جنوب وشرق إفريقيا ، داعية الناس الى كتاب الله ، وهادية لهم الى الصراط المستقيم .

وقال سعادة الوزير : إن هذا العمل جليل سيذكره العرب والمسلمون فى أقطار الأرض بالحمد والثناء للملك الصالح ، فاروق الأول ، الذى يعمل دائما لخير الإسلام والعروبة ؛ وإن العراقيين جميعا ليحملون لجلالته كل محبة وولاء ؛ وانى لأدعو للأزهر بالتوفيق فى هذه المهمة السامية ، وأرجو الله أن يكلل عمل فضيلتكم فى خدمة العلم والدين بالنجاح والفلاح .

وسأل سعادة الوزير عن أبنية الأزهر الجديدة وأغراضها .

فقال الأستاذ الأكبر : إن هذه الابنية الجديدة هى جزء من برنامج واسع لمبانى الأزهر : كلياته ومعاهده ومكتبته وقاعة احتفالاته وإدارته ومساكن طلابه ، وهو مشروع عظيم استهدف به المغفور له الملك المعظم فؤاد الأول طيب الله ثراه أن يجعل مبانى الجامعة الأزهرية تضارع فى الفخامة والعظم أحدث الجامعات . وقد حرص على أن تظل هذه المبانى الى جانب الجامع العتيق ليربط حاضر الأزهر بماضيه ومستقبله الزاهر ، فى ظل الملك فاروق الأول ، شبل فؤاد العظيم .

وقال الأستاذ الأكبر : إن للعراق بعثات من أبنائها المجدين تتعلم فى الأزهر ، وقد تخرجت بعثة قبل ذلك ، وأظنها تعمل فى العراق اليوم على نسق تعاليم الأزهر .

فقال سعادة الوزير : إن هذه البعثة تعمل فى العراق ، والمأمول أن تظل هذه الصلة العلمية بين الأزهر والعراق ، وأن تنمو على مر الأيام .

وهنا استأذن سعادة الوزير فى الانصراف ، فودعه الأستاذ الأكبر شاكرا ؟

كلمة الازهر

فى ذكرى المغفور له الملك فؤاد الاول

ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الجامع الأزهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك

أيها السادة :

فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ، استأثرت رحمة الله بالمغفور له عاهل مصر الملك فؤاد الأول - طيب الله ثراه - بعد أن رفع شأن أمته ووطنه ، وأنقذ مصر من براثن الاستعمار ، وقاد شعبها الوفى الأمين الى موطن العزة والكرامة . وفى الحق أن تاريخ الملك فؤاد حافل بالأعمال المجيدة التى تخلد له فى صفحات المجد أعظم الذكرى وأطيب الأثر .

بعد أن أتم الأمير أحمد فؤاد علومه ، ودرس فنون الحرب ، وتنقل فى ربوع أوربة تنقلات عرف فيها أحوال شعوبها ، واتصل ببعض ملوكها وقادة الرأى فيها - عاد الى مصر ليعمل لرفعة شأن أمته ووطنه بما وهبه الله من العلم والمعرفة ، وقوة العقل وراجح الرأى ، ولم يدخر فى ذلك وسعا .

كانت الجامعة المصريه أمنية وطنية ، وفكرة قومية ، تظهر حينا ثم تخبو لما تلاقى من الصعوبات، ولكن الأمير أحمد فؤاداً جعلها حقيقة واقعة ، حيث عمل على إيجادها، وتولاها بقوة نفسه ، ورعاها حق رعايتها بما آتاه الله من قوة وصبر وجلد .

وقد تمكن بما كان له من سابق الصلة ببعض الملوك وقادة الرأى فى أوروبة من إحضار كبار العلماء للتدريس فيها ، وإرسال بعوث من الطلاب ليتعلموا فى الجامعات كى يعودوا رجالا عاملين ، وليكونوا قوة ومجدا للوطن ، وقد دعمها وقواها على السير الى الأمام بما أرصد لها من الإعانات ، وبما وقفته لها ساكنة الجنان المغفور لها الأميرة فاطمة إسماعيل ، وقد كان هذا من آثار سعيه ، وقوة عزمه .

كذلك أنشأ عدة جمعيات نافعة ذات شأن عظيم لمصر، كجمعية الاقتصاد السياسى، والإحصاء والتشريع ، ومشغل الصناعات للبنات، ودعم وتولى إدارة جمعيات أخرى كالجمعية الجغرافية التى أنشأها مؤسس عظمة مصر المغفور له ساكن الجنان

الخديوى إسماعيل ، وجمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الإسعاف ، وغير ذلك من المؤسسات العلمية والخيرية ذات الأثر النافع للمصريين ولمصر فى مظهرها بين الأمم .

وفى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ لبى الأمير أحمد فؤاد داعى الوطن ، وتولى عرش مصر باسم السلطان فؤاد الأول ، بعد أن تهيأت الظروف مرتين ليكون ملكا على شعبين آخرين ؛ ولكن الله تعالى استبقى لمصر ابنها البار الذى امتزج بها ، ودرس أحوالها ، وعرف حاجاتها وأدواءها ، وعمل لرفعتها ، ليحمل بقوة إيمانه أعباءها وهى أشد ما تكون حاجة إليه ، وليقود شعبها إلى مواطن الخير وبر السلام .

أعلنت الهدنة ، ووجدت الحركة الوطنية مخرجا إلى الظهور ، فغذاها السلطان فؤاد ، ونفخ فيها من قوة نفسه روحاً قوية نشطة أحس معها القادة أنهم وسلطانهم قوة واحدة ، ووحدة لا يمكن للغاصب أن يجد فيها منفذاً .

فكان من آثار هذه القوة : قوة الأمة التى رعاها السلطان فؤاد ودبر أمرها بالحكمة والكياسة - أن اضطرت الحكومة الانجليزية إلى تغيير سياستها إزاء مصر ، فأصدرت تصريحها المعروف فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهو الذى أعلنت فيه انتهاء الحماية على مصر ، وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ... الخ .

نجح السلطان فؤاد فيما وطن نفسه عليه منذ تولى عرش مصر من إلغاء الحماية وتخليص مصر من الاستعمار ، وجعلها دولة مستقلة ذات سيادة .

وكان يوما مشهودا ، يوم أعلن هذا الاستقلال فى ١٥ مارس بالنطق السامى الذى وجهه الى شعب مصر الكريم ، وأعلن فيه الى العالم أجمع أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ، وأنه اتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر .

وقد اعترفت الدول بهذا الاستقلال ، وصدر الدستور ، وافتتح الملك فؤاد البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ ، وشعرت مصر بشخصيتها ، وتبوأت مكانها من الدول مرفوعة الرأس ، وتولت الأمة شئون نفسها ، وسارت الحكومة مسترشدة بآراء مليكها العظيم وحسن تدبيره ، بخطى واسعة فى إصلاح أمور المملكة فى شتى مرافقها ، وكانت خطى محمودة موفقة .

وقد شمل الإصلاح أمور الصحة العامة ، والرى ، والزراعة ، والصناعة ، والتشريع والقضاء ، والتعليم . وتقدم التعليم فى عهده الزاهر تقدما عظيما فى جميع مراحله ، فارتفعت نسبة المتعلمين من ٦ ٪ الى ١٨ ٪ حسب إحصاء سنة ١٩٣٧ وهى السنة التالية لسنة وفاته - رحمه الله . أما نسبة التعليم بين الذكور فقد ارتفعت الى ٢٦ ٪ .

وكان لجلالته عناية خاصة بالتعليم الديني، وتبليغ رسالة الإسلام الى الأمم، لتعرف ما فيه من خير وصلاح؛ ولهذا عنى بإصلاح الأزهر ودعمه بالأسس الصالحة التي ترتفع بالتعليم فيه الى المستوى الذي يساير النهضة العامة، كي يقوم برسالته على خير الوجوه وأفضلها.

وكان أول مظهر من مظاهر اعتزازه بالأزهر، تلك الزيارة الكريمة التي كانت عقب توليه العرش وأغدق فيها الخير العظيم على طلاب الأزهر حيث تبرع لهم بألف جنيه. وفي ١٠ يونيه سنة ١٩١٨ صدر أمره الكريم بترتيب جوائز سنية للطالبَين الأولين اللذين يحوزان قصب السبق في امتحان العالمية، وهي الجوائز التي توزع اليوم بمناسبة هذه الذكرى على الأول والثاني من طلاب الكليات الثلاث.

وكما نال هؤلاء شرف استحقاق هذه الجوائز، سيكون للمتفوقين من إخوانهم خريجي الإجازات شرف الهدية الملكية التي تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول - أعزه الله - بإهدائها إليهم، وهي صورته الكريمة.

أصدر المغفور له الملك فؤاد عدة قوانين ومراسيم لإصلاح الأزهر في شتى النواحي، وقد خطا الأزهر خطوات موفقة ناجحة بقانوني التخصص اللذين صدرا سنة ١٩٢٣ بالتخصص في علوم الفقه والأصول والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق والوعظ والإرشاد واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والقضاء الشرعي. وقد كان لهذين القانونين أثر ظاهر في إقدام العلماء على التأليف والبحث العلمي المستقل. وفي نحو اثنتي عشرة سنة من عهده الزاهر الزاخر بالعلم والبحث والتأليف أُحصي أكثر من خمسمائة مؤلف.

وقد كان التأليف قبل هذين القانونين نادرا برغم الجوائز المغرية التي كانت مرصدة على المؤلفين من العلماء.

وفي سنة ١٩٣٠ صدر القانون الشامل للإصلاح حيث أنشئت به الكليات، ونظم به الأزهر تنظيما جامعيا، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية وبعض اللغات الشرقية، وهو تنظيم ساير فيه الأزهر روح العصر، مع الاحتفاظ بالتراث الفكري الإسلامي، والعناية بفهم ما فيه من كنوز وذخائر.

كان من آثار هذه النهضة المباركة في الأزهر، في عهد الملك فؤاد، طيب الله ثراه؛ تلك النهضة الإصلاحية التي غذاها ورباها ونماها - أن تضاعف عدد الخريجين من العلماء في هذا العهد السعيد.

وقد تخرج فى عهده أكثر من ٤٣٠٠ عالم، منهم ٢٩٧ من البعوث الإسلامية، وتخرج ٣٧٦ من العلماء المتخصصين فى العلوم والفنون المختلفة.

كذلك عنى جلالته - أكرم الله مثواه - بإرسال بعوث من العلماء الى جامعات أوربة للتزود من العلم، وإرسال بعوث أخرى الى بعض البلاد الأجنبية لنشر الثقافة الإسلامية، وإرشاد الناس الى ما فى الإسلام من هدى ونور. وقد توالت بعد ذلك البعوث، واتصل الأزهر بالجامعات، وساهم فى المؤتمرات الدينية والقانونية، وكان له فى ذلك فخر عظيم.

وفى الحق أن المغفور له الملك فؤاداً الأول كان شديد الاهتمام بأمر الأزهر اهتماما لا يقف عند حد. ولو ذهبنا نعدد مآثره فى الأزهر من إنشاء وتجديد وتخصيص مئات الألوف من الجنيهات لإنشاء مبانيه ورفع ميزانيته من واحد وسبعين ألفا الى مئات الألوف من الجنيهات وغير ذلك من الشئون، لما وسعنا هذا المقام.

وإنما يطيب فى هذا المقام أن أشير الى أن جلالته - أعز الله ذكراه - كان شغوفا بأن تكون المنشآت الدينية ومعاهد العلم على أعظم جانب من الفخامة والعظمة التى تناسب عظمة الإسلام ومجد الإسلام.

ومن مظاهر ذلك معهد فؤاد الأول بأسيوط، ومعهد الزقازيق، ومبانى الأزهر التى تشمل الكليات وقاعة المحاضرات والمكتبة والإدارة ومساكن الطلاب، ومسجد أبى العباس بالإسكندرية، والمسجد الكبير بمصر الجديدة، ومسجد الفتح، ومسجد الطباخ: فقد أمر أحسن الله مثواه بأن تكون من الطراز الأول، ومثلا أعلى فى الفخامة وفن العمارة، فكان ما أراد.

وها هوذا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول - أعزه الله - يتولى برعايته السامية إتمام ما تبقى من منشآت الأزهر، وهى تسير فى عمارتها سراعا، وستنتهى فى القريب بإذن الله.

رحم الله الملك فؤاداً الأول، وأنزل عليه سحائب الرضوان، وجعله فى أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وليحى الملك فاروق الأول ذخرا للأمة، ومجداً للوطن، وحمًى للعروبة والإسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله.

العلم والالحاد

نعود اليوم لموضوعنا بالأمس لأنه من الشؤون الأولية التى تجب العناية بها على المهيمنين على العقائد، ولأن الجماء الغفير من الذين فتنتهم النظريات المادية يعتقدون أن هذه المسألة قد فرغ منها ، وجمدوا على ما علق بعقولهم عنها ، ولم يكلفوا أنفسهم مناقشتها الحساب باعتبار أن أثر هذه العقيدة الأولية أكبر من آثار جميع المسائل الفلسفية ، لشدة فعلها فى النفسية الإنسانية . ويجهلون أنه لا يصدر كتاب حديث فى الأصول الأولية إلا ويتعرض لها إثباتاً أو نفياً ، فهى لا تزال ولن تزال جديدة ما دام للإنسان عقل يدرك ، وفكر ينفى ويثبت ، وما دام للأصول الأولية تأثير بالغ فى تكييف الشخصية الإنسانية .

لقد اشتغل به جميع كبار الفلاسفة ، وجلة العلماء ، ولا يزال أخلافهم يشتغلون به ، وإننا لو استعرضنا ما دونوه من أقوالهم لرأى من ذلك قرأونا عجباً . قال العلامة الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) الفرنسى فى مقدمة كتابه (الموت وغامضته) :

« مؤدى النظرية الميكانيكية للوجود أن مجموع الأشياء هى الثمرة المحتمة للمركبات المجردة عن الشعور ، وأن الخليقة أصلها عماية محضة فأصبحت شيئاً يذكر بالتدريج ، ثم انتهى أمرها بالتحلى بفكر وإدراك . أفيستطيع إنسان أن يتخيل تعليلا أشد استحالة من هذا التعليل ! . . . . » .

ثم مضى الأستاذ الفلكى الكبير يسرد مواطن الإبداع فى الخليقة دحضاً لنظرية العماية المطلقة والخبط فيها ، فقال فى مقدمة كتابه المذكور :

« إن الطبيعة الغامضة قد وضعت فى كل شىء قسطا من العقل . وإنها لتظهر متمتعة بحيل لا تخطر ببال على وجه عام . فما معنى غرسها حب الزينة والتبرج فى البنت ، وهى العاطفة التى تقودها لأن تصير امرأة ، وأن تتحمل أن تستبقى النوع بواسطة جسمها الرقيق ، وأن تتكبد آلام الأمومة وهى راضية مستبشرة ؟ وما هو العشق ، هذه الأحبولة المحبوبة ؟ وما هى الآلام القلبية ، وما هى العاطفة ، أليست لهجة الطبيعة الصامتة يسمعها كل من له أذنان ؟ .

« وما معنى تعاون عصفورين لبناء عش ، وتغذية الذكر لأنثاه وهى جاثمة على البيض ، وإيتائهما بالطعام لصغارهما الجياع ؟ .

« وما هى الدجاجة وفراخها ؟ أتفكرت قط فى أول خفقة للقلب حدثت فى بيضة وفى طفل ، أحللت قط تلقيح الزهور ؟ وإذا لم تر فى كل هذا نظاما عقليا ، وغرضا ، وبرنامجا ، ومقصدا عاما ، وغاية ، وتدبيرا يتسلط علينا جميعا ، وإذا لم ترد أن ترى فى (الحياة) الغاية العليا لنظام الدنياوات ، فإنك لا تريد أن ترى الشمس فى رائعة النهار ! .

« الى أية غاية تسوقنا هذه القوة الخفية ؟ إننا لا ندرى ذلك . وبينما الحياة تفرض علينا قوانينها يندفع هـذا الكوكب الذى نسكنه فى الفضاء بسرعة (١٠٧٠٠٠) كيلو مترا فى الساعة . وهو نفسه ألعوبة فى يد القُوى القائدة للمجموع الأرضى وللحركات الأربع عشرة المختلفة . فنحن ذرة مفكرة على كرة متحركة تعتبر جزءاً من مليون من حجم الشمس ، وهذه الشمس تعتبر جزءا من مليون من حجم النجم (كانوبوس) ، وهو نفسه يعتبر ذرة فى مجموعتنا الكوكبية الضخمة . وهذه المجموعة ليست إلا عالما محاطا بعوالم أخرى لا تنتهى الى حد . فما أوسع هذه اللانهاية ، وما أعجب هذه الحركات ، وما أدعى هذه الدرجات من السرعة للحيرة !

« يظهر أن القوة ملازمة للذرة المادية ، لأنه لم تصادف قط ذرة ساكنة ، وكل كائن حى ليس فيه قوة مدبرة لا يستطيع أن يعيش ، بل يسقط متحطما كبناء ترك وشأنه » .

وختم الأستاذ كاميل فلامريون موضوعه هذا بقوله :

« يظهر أن الشك لا يستند إلا على جهلنا ليس إلا . فقد كان بطليموس (الفلكى الكبير) لا يجد شيئا أسخف من القول بأن الأرض متحركة ، ولا أدعى منه للاستغراق فى الضحك !! »

ثم عاود العلامة فلامريون هذا الموضوع فى فصل آخر من كتابه المذكور ، فقال :

« توجد قوة عقلية تدبر ، وهى صامتة ومتسلطة ، إلهامات الحشرات ، ضامنة وجودها واستمرارها ؛ كما تدبر ميلاد عصفور وتطور الحيوانات العليا ، وفيها

الإنسان نفسه ، فهى هـذه الحركة التى تقود الدودة لأن تستحيل الى عجينة مائعة لا شكل لهـا داخل شرنقتها ، ثم تقلبها الى فراش . وهى هى التى تخرج من جسم الوسطاء الروحيين هيولى تستحيل الى أعضاء حية وقتية ، ولـكنها حقيقية . وهذه الحركة توجد التجسدات الوقتية من طريق التولد الذاتى .

« إننا لنؤكد بأن الوجود مجموعة حركات ، وأن فيه قوة غير مرئية مفـكرة تدير الدنياوات والذرات ، أما المـادة فعليها الطاعة والانقياد .

« إن تحليل الأشياء يدل على تأثير عقل مدبر فيها ، وهذا العقل العام فى كل شىء يدبر كل ذرة ، وكل جزىء ، وهما فى ذاتهما لا يلمسان ولا يوزنان ، ومن الصغر بحيث لا يريان ، يؤلفان بتجمعهما القائم على أصل الحركة ، الأشياء المرئية والـكائنات . وهذا العقل العام المدبر لا يقبل الفناء فهو أبدى لا يزول . ثم قال :

« المذهب المـادى ضال وناقص وغير موف بالمراد ، فليس فى وسعه أن يفسر لنا شيئا تفسيرا مقنعا . فإن عدم التسليم بوجود شىء غير المـادة المتمتعة بخصائص ، من الفروض التى لا تقاوم التحليل العلمى . والتابعون للفلسفة الحسية ضالون كذلك ، فانه توجد براهين حسية على أن الافتراض القائل بأن المـادة متسلطة على كل شىء ، ومدبرة لـكل شىء بخواصها ، بمعزل عن الحقيقة . فإنهم لم يحلموا بوجود هذه الحركة العاقلة التى تمد الـكائنات والجمادات .

« وإننا لنستطيع أن نقول مع الدكتور (جوليه) Geley بأن العوامل الرسمية تعجز عن حـل المعضلة الفلسفية العامة المتعلقة بالارتقاء ، وهى خروج الأكثر من الأقل » .

هذا ما كتبه العلامة العالمى الفلـكى الـكبير (كاميل فلامريون) فى أحدث كتاب له ، وهـذا مصداق لقولنا إن هذه المسألة تبقى جديدة ما دامت توجـد عقول تسيغ نظرية الملحدين ، وتطمئن اليها .

والذى يدفع العلماء والفلاسفة لدوام المناقشة فى هـذه المسألة هو أن للسلب والإيجاب فيها تأثيرين خطيرين على الشخصية الإنسانيـة ، كما سبق لنـا بيانه ، فإن العقل إذا ساغ له أن يعتقد بأن هذه الشخصية فانية ، انحلت فى نظره جميع الربط الأخلاقيـة ، والقيود المعنـوية ، وزال الوازع له عن الإسفاف فى المطالب

المادية ، فتحلل من جميع الالتزامات الأدبية . فأصبحت متجهة الى غرض واحد وهو أن يحصل لنفسه وذويه أكبر قسط من السعادة المادية ، فإن عزت من الطرق الشريفة ، لم يجد ما يمنعه عن الوسائل الخسيسة !

وليس هذا كل ما فى الموضوع ، فإن الشخصية الإنسانية تنكمش تحت تأثير عقيدة الفناء ، وتتضاءل ولا تبلغ المدى الذى قدر لها من الترقى العقلى والروحى ، مما لا يدور فى خلد أحد . فان الذين يظنون ، أن ما نحن فيه من العلم والوسائل إن لم يكن غاية ما تستطيعه القدرة الإنسانية فهو قريب من غايتها ، جد مخطئين . فإن هذا المحصول الذى وصلنا اليه ومنه تحليل المادة وإحالتها الى قوة ، يشعر بقرب عهد يطفر الإنسان فيه إلى مستوى أرفع مما عليه الانسانية اليوم . ولو أضفنا الى هذه الفتوحات العلمية ، الفتوحات النفسية ، لتبين لنا ن أمام الانسانية غاية بعيدة لا يمكن تحديدها من الرقى والسمو ، وربما كان منه الاتصال المباشر بالعالم الروحانى على مثل ما كان عليه علية العباد المتريضين ، وعندئذ لا تكون الانسانية كما يتخيله بعض الماديين مجموعة من لابسى المسوح ، ولكنها إنسانية تليق باسمها ، وتتفق و مُثلها العليا .

وعليه فلن يقف ضرر انتشار المذهب المادى على اسوداد قلب صاحبه ، ويأسه من الحياة مع شدة حرصه عليها ، ولكنه يتعداه الى وضع حد لما يصل اليه من الترقى المادى والروحى ، بسبب إنكاره العالم العلوى ، فلا يصل الى ما بعد غايته التى وصل اليها بشىء يذكر ، ويكون هو بضيق نظره سبب وقوفه دون الغاية التى خلقت له ، ولكن هيهات ، فإن الاكتشافات التى توالت فى عالم الروح والتى ستتوالى أيضا بقوة لا تغالب ، ستضطر جماعة الماديين للانزواء فى نظرياتهم أو لمشاركة الانسانية فى نعيمها المعجل ؛ والوجه الثانى هو الذى سيكون ، فانه لا يستطيع أحد أن يقف أمام هذه الحقائق السافرة المتواترة ، ولا الفتوحات العلمية المتوالية الباهرة ؟

محمد فريد وجدى

من ذخائر السُّنَّة :

البيّنة واليمين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

أخرج البيهقى وغيره ، وجاء بعضه فى الصحيحين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال « لو يُعطى الناس بدعواهم لا ّدعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدعى ، واليمين على مَن أنكر » .

* * *

هذا الحديث يعتبر قاعدة من قواعد الشرع ، وأصلا من أصول الأحكام ، ومرجعا من مراجع القضاء ، وفيصلا عند التنازع والخصام . ومما يشهد بفضله ، وعظيم أثره ما قاله بعض العلماء من أن « فصل الخطاب » فى قوله تعالى : « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ، هى : البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر .

ولقد صُدّر الحديث بعبارة حكيمة جامعة ، تعدّ كالتوطئة والتمهيد لما ذكر بعد الاستدراك فى آخره ، فإن الناس لو تُركوا وشأنهم ، وألقى لهم الحبل على الغارب ، ووكلوا إلى أخلاقهم ونفسيّاتهم ، وأبيح لهم أن يدّعوا ما شاءوا ، وأجيبوا إلى مايدّعونه بمجرد دعواهم بلا بينة ، لعمّت الفوضى ، وانتشر الفساد ، وضاعت مصالح العباد ، وأهدرت الحقوق ، واستبيحت الأموال ، وسفكت الدماء ، واستولى الفجار على ما يحبون ويشتهون من شئون الأخيار ؛ فكان واجبا كل الوجوب أن يؤخذ الناس بالعدل ، وأن يحكموا بالشرائع والقوانين ، وأن يساسوا بالأنظمة القضائية الدقيقة ، حتى توضع الأمور فى نصابها ، وحتى تجرى أحوال الناس فى نهجها القويم ، وطريقها المستقيم .

* * *

ترِد الدعوى لغة بمعنى الادّعاء والدعاء ، قال تعالى : « فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا » ، وقال : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » . وهى عرفا : قول

بحيث لو سُلم لأوجب لقائله حقا. ولا تسمع إلا إذا كانت ملزمة، وكان المدَعى به معلوما محققا بنحو ذكر جنسه ونوعه وقدره وصفته، فلو قال: لى عليه شىء، لم تسمع دعواه؛ وكذا لو قال: أظن أن لى عليه كذا: ولذلك كله تفصيل محله كتب الفروع.

ورجال: جمع رجل، وهم ذكور بنى آدم، أو البالغون منهم؛ فإن قوبل بهم النساء، أريد الأول: وإن قوبل بهم الصبيان أريد الثانى؛ وذكرهم لا لإخراج النساء، بل لأن الدعوى غالبا إنما تصدر منهم، أو من باب الاكتفاء بأحد القبيلين، كسرابيل تقيكم الحر. ويؤيده رواية: لادعى ناس. وأتى بصيغة الجمع، للإشارة إلى إقدام غير واحد على ذلك.

وقوم: اسم جمع، وشذ جمعه على أقوام، وقيل: هو يخص الرجال، لقوله تعالى: «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء»، فذكرهن دليل ظاهر على أن القوم لم يشملهن، وبه صرح زهير فى قوله:

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وقيل: هو يعم الفريقين، إذ هم المراد فى نحو قوله تعالى: «كذبت قوم نوح». وأما حكمة التعبير برجال، ثم قوم، فبناء على أنه يعمهما أن الغالب فى المدعى أن يكون رجلا، إذ المرأة لا يليق بها حضور مجالس الحكام، والمدعى عليه يكون رجلا أو امرأة، فراعى فى التغاير بينهما الغالب فيهما؛ وبناء على ترادفهما، تكون المغايرة للتفنن فى العبارة، أو دفعا لكراهة تكرار أحدهما.

وقُدمت الأموال على الدماء مع أن الدماء أهم، وأعظم خطرا، لأن الخصومات فى الأموال أكثر وأغلب، إذ أخذها أيسر، وامتداد الأيدى إليها أسهل، ومن ثَم ترى العصاة بالتعدى فيها أضعاف العصاة بالقتل.

وكلمة «لكن» وإن لم تأت لفظا على قانونها من وقوعها بين نفى وإثبات، نحو ما قام زيد لكن عمرو، حتى يصح معنى الاستدراك الذى هو مؤداها، إلا أنها هنا جارية عليه تقديرا؛ إذ المعنى: لا يُعطى الناس بدعواهم المجردة، لكن بالبينة وهى على المدعى.

والبينة : فعيلة ، من البينات ، وهي الدلالة الواضحة ، عقلية كانت أو محسوسة ؛ قال تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه » ، وقال : « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » ، وقال : « جاءتهم رسلهم بالبينات » . وقريب من هذا المعنى ما قيل من أن البينة : هى كل ما يبين صحة دعوى المدعى ، ويشهد بصدقه . وسمى الشاهدان بينة ، لقوله عليه السلام : البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر.

واختلف الفقهاء فى تفسير المدعى والمدعى عليه ، فقيل : المدعى : مَن يطلب أمرا خفيا ، على خلاف الأصل والظاهر ، والمدعى عليه بخلافه . وقيل : المدعى : هو مَن عريت دعواه من مرجح ، والمدعى عليه هو مَن اقترنت دعواه به . وقيل : المدعى : هو الذى يخلَّى وسكوته من الخصمين ، والمدعى عليه : هو الذى لا يخلى وسكوته منهما . وقيل غير ذلك .

واليمين : أصله الجارحة ، واستعماله فى وصف الله تعالى فى قوله : « والسموات مطويات بيمينه » على حدّ استعمال اليد فيه . واستعير اليمين للتيمن والسعادة ، وعلى ذلك قوله تعالى : « فأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين » . واليمين فى الحلف مستعار من اليد ، اعتبارا بما يفعله المعاهد والمحالف وغيرهما ، وقولهم : يمين الله بإضافته إليه ، إذا كان الحلف به ، والحالف هنا : هو كل من توجهت عليه دعوى لو أقر بمضمونها لزمته اليمين مالم تجر إلى فساد .

ومعنى قوله « البينة على المدعى » : أنه يستحق بها ما ادعى ، لأنها واجبة يؤخذ بها ، ومعنى قوله : « واليمين على من أنكر » أنه يبرأ بها ، لأنها واجبة عليه ، يؤخذ بها على كل حال .

وإنما كانت البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر ، لأن جانب المدعى ضعيف لدعواه خلاف الأصل ، وجانب المنكر قوى لموافقته الأصل فى براءة ذمته ، إذ هو المعهود ؛ والبينة حجة قوية ، لبعدها عن التهمة ، واليمين حجة ضعيفة لقربها منها ؛ فجعلت الحجة القوية ـ وهى البينة ـ فى الجانب الضعيف ، وهو جانب المدعى ، وجعلت الحجة الضعيفة ـ وهى اليمين ـ فى الجانب القوى ، وهو جانب المنكر ليتعادلا .

وقد عُبر فى جانب البينة بالمدعى ، وفى جانب اليمين بمن أنكر ، مع أنه كان يمكن أن يؤتى باسم الفاعل فيهما ، فيقال : على المدعى وعلى المنكر ، أو بمَن فيهما فيقال : على من ادعى وعلى من أنكر ، لأن المدعى يذكر أمرا خفياً ، والمدعى عليه يذكر أمرا ظاهرا ، ولا شك أن الموصول — لاشتراط كون صلته معهودة — أظهر من المعرف ، فأعطى الخفى للخفى ، والظاهر للظاهر . ويحتمل أن يقال : إن فى المدعى ضربا من التعريف المعنوى ، لظهوره وإقدامه على الدعوى ، فأتى فيه بلام التعريف المناسب له ، والمنكر فيه ضرب من الإبهام والتنكير ، لاستخفائه وتأخيره ، فأتى فيه بمن ، إذفيها إبهام شبيه بحاله .

* * *

يدل الحديث بعد هذا على كثير من أحكام القضاء ، ونظام النظر فى الخصومات ؛ ولا بأس فى أن يكون شىء منها موضع خلاف بين أصحاب المذاهب الفقهية ؛ فإن هذا يرجع الى طبيعة الاجتهاد ، والى طريقة كل مجتهد ومنحاه فى استنباط الأحكام من الأدلة ، واستخلاصها من النصوص . وإنما نسوق إليك طرفا مما يتعلق منها بالحديث الذى معنا ، ومما تشير إليه دلالاته المختلفة :

من الفقهاء مَن ذهب إلى أن البينة على المدعى أبدا ، واليمين على المدعى عليه أبدا ، وطردوا ذلك فى كل دعوى ، حتى فى القسامة ، ورأوا ألا يُقضى بشاهد ويمين ؛ واستدلوا فى المسألة الأولى بما صح عندهم من رواية سعيد بن عبيد ، وفى المسألة الثانية بحديث : شاهداك ، أو يمينه . ومنهم من رجح أقوى المتداعيين وجعل اليمين فى جانبه ، وخرّج على هذا القسامة ، والحكم بالشاهد واليمين ، ورأى أن قوله : اليمين على من أنكر ، عام مخصوص ، لاستثناء صور منه ثبتت بالنص ، يكون الحلف فيها على المدعى ، كما فى القسامة واليمين مع الشاهد ، ويمين أمين ادعى نحو تلف أو رد على من ائتمنه .

والجمهور من الفقهاء على أن مدعى الدم والمال ، لا بد له من بينة تدل على ما ادعاه ، ويدخل فى عموم هذا من ادعى على رجل أنه قتل مورثه ، وليس معه إلا قول القتيل عند موته : جرحنى فلان ، فإنه لا يكتفى بذلك ، ولا يكون بمجرده لوثا ؛ وخالف البعض فجعلوه لوثا ، يقسم معه الأولياء ، ويستحقون الدم .

واختلف الفقهاء : هل يستحلف فى جميع حقوق الآدميين ، أولا يستحلف إلا فيما يقضى فيه بالنكول ، أولا يستحلف إلا فيما يصح بذله ، أولا يستحلف إلا فى كل دعوى لا يحتاج فيها إلى شاهدين ؟ . وكذلك اختلفوا فى المؤتمن هل عليه يمين أولا ؟ ، وأما حقوق الله تعالى ، فقال جمع : لا يستحلف فيها بحال ، وقال آخرون : يستحلف إذا اتهم .

وأجمعوا على استحلاف المدعى عليه فى الأموال ، واختلفوا فى غيرها ، فذهب البعض إلى وجوبها على كل مدعى عليه فى حدّ ، أو طلاق ، أو نكاح ، أو عتق ، أخذا بظاهر عموم الحديث ؛ وقال البعض : يحلف على الطلاق والنكاح والعتق ؛ وذهب آخرون إلى أنه لا يستحلف فى الحدود والسرقة .

ومَن حلّفه القاضى أو نائبه بالله تعالى ، اعتبرت نية القاضى واعتقاده ، فلا تنفعه التورية ، ولا التأويل ، ولا تدفع عنه إثم اليمين الغموس ؛ وكذا لو وصلها باستثناء أو شرط . ولا يجوز لشافعى ادعى عليه عند حنفى بشفعة الجوار أن يحلف على نفيها اعتبارا باعتقاده ، لما أن العبرة باعتقاد القاضى ، ومن ثمّ نفذ حكمه بها عليه ظاهرا وباطنا ؛ أما مَن حلف بغير الله فتعتبر نية الحالف ، فتنفعه التورية ، والاستثناء إن نواه قبل تمام يمينه ، وليس للقاضى تحليف بطلاق أو عتق ، فإن فعل ، عزله الإمام .

وإذا حلف المنكر ، أو نكل المدعى عن اليمين المردودة ، انقطع النزاع ، فللمدعى بعد ذلك إقامة البينة ، ويحكم له بها ، وإن كان قد قال : لا بينة لى حاضرة ، ولا غائبة ، أو كل بينة لى كاذبة . وللكلام على صفة اليمين ، والنكول ، وما يتعلق بهما تفصيل طويل فى كتب الفقه ، فليرجع إليه من أراد .

وكان بعض المتقدمين يحلف الشهود إذا استراب فى شهادتهم ، وقد دَلّ القرآن الكريم على ذلك عند الارتياب فى شهادتهم فى الوصية فى السفر ؛ قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا شهادةُ بينِكم إذا حضر أحدَكم الموتُ حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ، أو آخران من غيركم » إلى قوله : « فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتمُ شهادة الله » . وهذه الآية — كما قال عنها المستدلون بها — لم ينسخ العمل بها عند جمهور السلف ، وقد عمل بها

أبو موسى، وابن مسعود، وأفتى بها على وابن عباس، وهو مذهب كثير من الأئمة المجتهدين.

وقالوا فى اللقطة إذا جاء مَن وصفها: إنها تدفع إليه بغير بينة بالاتفاق، لكن منهم مَن يقول: يجب دفعها بذكر الوصف المطلق، ومنهم مَن يقول: يجوز الدفع إذا غلب على الظن صدقه، ولا يجب.

ومما يستفاد من الحديث أيضا أنه لا يقبل قول الإنسان فيما يدعيه بمحض دعواه، وإن غلب على الظن صدقه، بل يحتاج الى بينة، أو تصديق المدعى عليه، فإن طلب يمين المدعى عليه، فله ذلك. كما يستفاد منه أن اليمين تتوجه على كل من ادعى عليه حق، سواء كان بينه وبين المدعى اختلاط أم لا، بخلاف ما ذهبت اليه طائفة أخرى من الفقهاء من أن اليمين لا تتوجه إلا إذا وجد بينهما اختلاط، لئلا يبتذل السفهاء مقام الأكابر بتحليفهم مرارا فى اليوم الواحد.

وهذا ليس ببعيد على مكايد المتقاضين وتدبيراتهم، وحيلهم وأحابيلهم؛ ولذا يجب على القضاة أن يلتفتوا الى كل ذلك، وأن يكونوا مثال اليقظة والانتباه، والدقة والحذر، والعدالة والنزاهة، وأن يضعوا أنفسهم وضعا لا يتطرق اليه أى شك، ولا تحوم حوله أية شبهة، وأن يستعينوا بذكائهم وفطنتهم وحسن تخلصهم على رد ما عساه قد يراد بهم من إيقاعهم فيما يخالف العدل، وتوريطهم فيما يباين الحق، وجرهم الى التأثير على ذممهم وضمائرهم بأى مؤثر.

ومن أطرف ما قيل فى هذا الصدد: أنه كان فى زمن بنى إسرائيل ثلاثة قضاة، فبعث الله ملكا ليمتحنهم، فوجد رجلا يسقى بقرة على ماء، وخلفها عجلة، فدعاها الملك، وهو راكب فرسا، فتبعتها العجلة، فتخاصما الى القاضى الأول، فدفع اليه الملك درة، وقال له: احكم بأن العجلة لى، فقال له: وكيف أحكم؟ فقال: أرسل الفرس والبقرة والعجلة، فإن تبعت الفرس، فهى لى، فأرسلها، فتبعت الفرس، فحكم له بها؛ ثم اختصما الى القاضى الثانى، فحكم للملك كذلك بعد أن أخذ درة أخرى؛ ولما جاء دور القاضى الثالث، وأراد الملك أن يقدم له درة كزميليه ليحكم له، قال القاضى: إنى حائض!!، فقال الملك: سبحان الله!! أيحيض الرجال؟ فقال القاضى: سبحان الله!! أتلد الفرس عجلة؟! وحكم بها لصاحبها.

مسئولية الاطباء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى
إمام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

متابعة لما سبق لى نشره تحت هذا العنوان أقول :

عند ما أثار القاضى الفاضل فى (بحث مسئولية الأطباء) مسألة الحالات التى تستوجب الإسعاف العاجل والتى لا يمكن انتظار الحصول فيها على الرضا لما فى ذلك من خطر بليغ - علق على ذلك بقوله : « ولم نجد فيما رجعنا إليه من كتب الفقه الإسلامى مَن تعرض لهذه المسألة وبين حكمها ، ومع هذا فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المسئولية عن أعمالهم التى يؤدونها. وقد علقت فى مقال مضى على هذا التعليق من الباحث المحترم أن نقلت له رأى ابن القيم الذى يمكن أن يكون فيصلا فى موضوعنا ، ذكره فى مبحث جريان العرف مجرى النطق ، قال فى آخره . . « ومنها لو استأجر غلاما فوقعت الأكلة فى طرفه فتيقن أنه إن لم يقطعه سرت إلى نفسه فمات جاز قطعه ولا ضمان . . الخ ما أسلفته فى المقال السابق . وإنى وإن كنت أرى ما ذكره الحافظ ابن القيم فيصلا فى الموضوع ، لأن إذن السيد واجب فى كل عمل يراد إجراؤه للغلام ، كما يعلم من تتبع تلك الأحكام فى الشريعة الإسلامية ، فإنى أسوق للسيد نصوصا أخرى واضحة لا لبس فيها ، مفصلة لا إجمال بها :

قال ابن حزم فى كتاب المحلى ج ١٠ ص ٤٤٤ مانصه : من قطع يدا فيها أكلة أو قلع ضرسا وجعة أو متأكلة بغير إذن صاحبها (وفى الهامش : وفى نسخة بغير إرادة) قال أبو محمد : قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وقال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، فالواجب استعمال هذين النصين من كلام الله تعالى ،

فينظر ؛ فإن قامت بينة أو علم الحاكم أن تلك اليد لا يرجى لها برء ولا توقف ، وأنها مهلكة ولا بد ، ولا دواء لها إلا القطع ، فلا شيء على القاطع . وقد أحسن ؛ لأنه دواء وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمداواة . وهكذا القول فى الضرس إذا كان شديد الألم ، قاطعا به عن صلاته ومصالح أموره ، فهذا تعاون على البر والتقوى . . . عن يحيى بن أسامة بن شريك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد . قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الهرم .

قال على : فيمن داوى أخاه المسلم كما أمره الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، فقد أحسن ، قال الله تعالى : « ما على المحسنين من سبيل » ، وأما إذا كان يرجى للآكلة برء أو توقف ، وكان الضرس يتوقف أحيانا ، ولا يقطع شغله عن صلاته ومصالح أموره فعلى القاطع والقالع القود ؛ لأنه حينئذ متعد ، وقد أمر الله تعالى بالقصاص فى القود .

هذه عبارة ابن حزم تجيب قاضينا الفاضل عما سأل عن وجوده فى الشريعة ولم يجده .

ومثل هذا أو أصرح منه عبارة ذكرها شراح مختصر خليل عند قوله : وترك مواساة وجبت بخيط ونحوه لجائفة ، يعنى إذا جرح إنسان جرحا يخشى منه الموت سواء أكان جائفة أفضت لجوفه أو غير جائفة واقتضى الحال خياطته بفتلة خيط أو حرير ، وجب على من كان معه ذلك ، إذا كان مستغنيا عنه حالا أو مآلا أو كان معه الإبرة ، وكان مواساة المجروح بذلك ، فإن ترك مواساته بما ذكر ومات فإنه يضمن ؛ ومحل الضمان مالم يكن المجروح منفوذ المقاتل ، وإلا فلا ضمان بترك المواساة ، وإنما يلزم الأدب بتركها ، ويضمن دية الخطأ إن تأول فى المنع ، وتكون على عاقلته والمانع واحد منهم ، وإلا يتأول فى المنع بل منع عمدا قاصدا قتله ، اقتص منه ، وهذه هى الطريقة المعتمدة . وقال اللخمى : لا فرق بين التأويل وعدمه ، وأن على المانع الدية فى الحالين .

هذه عبارة المالكية ، وهى تدل على المقصود الدلالة التى لا يبقى بعدها مجال لسائل فى أمثال هذه المسائل . فالطبيب بحكم مهنته قادر على المواساة ، وقادر على إنقاذ

المريض بالعملية الجراحية التى لا يحتمل المقام فيها انتظار ولى الأمر ليؤخذ منه إذن ، أو ينتظر إفاقة الجريح ليؤخذ منه الإذن ، فيجب عليه المواساة بما يقدر من جبر كسر ، أو وصل جرح بخيط أو غيره ، وله بعد ذلك كما يقول المالكية - ثمن ما واسى به من خيط وما بعده مما جرى مجراه إن وجد الثمن عند المضطر ، وإلا لم يلزمه حتى ولو أيسر بعده .

وما ذكر فى هذه العبارة من خيط الجائفة والجرح يقاس عليه كل ما يستدعى الحال عمله لإنقاذ حياة مريض يشك فى حياته لو لم تعمل له هذه العملية على النحو الذى رآه الأطباء أو قرره أهل الخبرة . ويقاس عليه على رأى ابن حزم كل ما يستدعى الموقف عمله لا لإنقاذ حياة مريض بل ولو كان لتخفيف ألمه كقلع ضرس يعوقه عن صلاته ويمنعه من القيام بواجباته . وبين نص المالكية ونص ابن حزم مجال لأن نستنبط منه كل ما يريد باحث أن يستنبطه فى هذا المقام من ناحية المسئولية وعدمها والرجوع فيها الى أهل الخبرة ومسايرة قواعد الفن ، والرجوع الى أهل البصيرة فى تقدير الأتعاب - بالتعبير الطبى - وثمن ما يستدعيه الأمر من غرفة عملية وثمن خيط ولوازم العملية من مبدئها الى نهايتها .

وأظن القاضى الفاضل يشاركنى الرأى بعد ما أسلفت من ثلاث المقالات فى هذا الموضوع ، أن الشريعة الإسلامية غنية بما يشاء ويشاء كل باحث منصف أن تسعف من رامها ليشفى غلة أو ينقع ظمأ من الناحية الفقهية والتشريعية . وثمن ذلك أمر هين يسير هو التمرس بالمتاعب فى سبيل استدرار حلبها ، والرضا بركوب الجامح من صعبها ، لتبدو معروفة غير منكرة ، وطائعة حقة غير مزورة .

وأختم هذا الحديث بما ختمت به سابقه بالرجاء الى الفاضل الأخ بأن يزيدنا بحثا ، وأن لا يضن على القراء بنتيجة ما وصل إليه من نصوص وآراء فى الشريعة المطهرة ؛ وغربلة الآراء خير سبيل لتنقيتها . ولعلى أترك القلم الى لقاء . والسلام ؟

أبو الانبياء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

وأما إقدام الخليل عليه الصلاة والسلام على ما يعتقد أنه الصواب ، وجرأته على تنفيذه والعمل عليه مهما صادفه فى ذلك من صعاب ، فقد تجلى ذلك فى حياته كلها :

لم يجامل ابراهيم فى الحق أباه ، ولم يجامل ابنه ، حتى يجامل أحداً من الناس : ذلك موقفه الرائع مع أبيه وهو يوجه إليه الدعوة إلى الإيمان حارة قوية فى أسلوب يهز القلوب ، ويحرك العواطف ، فيقول « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عَصِيًّا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا » .

وجَّه ابراهيم نداءه الى أبيه على هذا النحو ، وبدأه على عادته فى الخطاب والحجاج بدليل عقلى لم يصغه فى مقدمات علمية ترهق السامع ، وتشغل فؤاده ، ولكنه صاغه فى لفظ سهل واضح كوضوح معناه : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ إن العاقل لا يدين بالعبادة ، ولا يعرف الخضوع القلبى إلا لمن اتصف بالعلم والقدرة ، فإذا عبد ما لا يسمع ولا يبصر ، فقد عبد جاهلا ممعنا فى الجهل ، منقطعا عن أسباب العلم والإدراك ؛ وإذا عبد ما لا يغنى عنه شيئا وليس له فى أمره تصرف ، وليس له قدرة على إصابته بخير أو شر ، فقد عبد عاجزا ، وألزم نفسه سخافة تجر الى سخافات ، وضلالة تدعو إلى ضلالات ؛ ولذلك يقول ابراهيم فى موضع آخر « أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال

مبين ، ويقول لقومه « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » ! . ويوازن لهم بين الله القادر الفاعل المتصرف وبين ما يعبدون من هذه التماثيل : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين؛ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . ذلك هو الإله الحق الجدير بأن يعبد ويدعى ، لا هذه الأحجار التى ليست جديرة حتى بأن توصف بالجهل .

فلما زلزل إبراهيم على أبيه ، وجابهه بهذه الحقيقة ، طمع فى أن يكون قلبه الغافل قد تنبه ، ووعيه النائم قد استيقظ ، وأصبح فى حاجة إلى من يهديه السبيل، ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم ، فقال له : يا أبت هأنذا بين يديك « إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » ، وهى جرأة من إبراهيم وقوة قلب ، لا يدركها إلا من عرف أن الآباء يوم كانت تقاليد الخلق الكريم قائمة بين الناس ، كانوا للأبناء سادة وقادة ، وكانوا موضع الإجلال والتقديس والمهابة ، وموضع الاقتفاء والاتباع فى كل شىء ، وأن ذلك قد أفضى بأهل الجاهلية الى الكفر تقليدا واتباعا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ، فلا شك أن ابنا يُسمع أباه ما أسمعه إبراهيم لأبيه ، ويطلب منه أن يقلب ما ألف منه ، وما ألف جميع الآباء من جميع الأبناء ، فيتخذه هو قدوة وإماما ، ويتبعه لينقذه من ضلاله وتخبطه ، لا شك أن ابنا يفعل ذلك فى وجه أبيه لجرىء ذو قوة وإقدام .

ولا يكتفى إبراهيم بذلك ، ولكنه يرتب عليه فى وجه أبيه أيضا أنه إن خالف الحق بعد ما تبين فليس وراء الحق إلا الضلال ، وإن لم يعبد الرحمن فقد عبد الشيطان ، ومن عبد الشيطان فقد ابتعد معه عن سبيل الخير ، وتعرض لعذاب من الله يمسه فيرديه . بكل ذلك واجه إبراهيم أباه ، فلما لم يجد منه الى دعوة الحق استماعا ، بل وجد منه إصرارا واستكبارا ، أعلنه وقومه فى غير تردد أنه معتزلهم وما يدعون من دون الله ، داع ربه ، راج ألا يكون بهذا الدعاء شقيا ؛ وهكذا كان إبراهيم عمليا فى دعوته ، عمليا فى هجرته وعزلته .

ولم يكن هذا آخر عهده بمجاهدة الباطل ، ومجالدة الشرك حتى يقال : فتى قد يئس فخارت قواه وركن الى الفرار ، ولكنه خطا فى الله والحق خطوة عملية أخرى ما أعظمها وما أروعها ! إنه سن للأبطال خطة الإقدام وتحدى الباطل فى أمنع صروحه ، وأعز مواطنه ؛ وذلك ما يقصه الله علينا فى سورة الأنبياء إذ يقول « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ؛ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ . قال بل فعله كبيرهم هـــذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكسوا على رءوسهم لقد علمتَ ماهؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ! أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون . قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

ألا إن هذه لقصة البطولة والفداء التى لا تعرف البشرية مثلها إلا من هؤلاء الذين اجتباهم الله وهداهم وفضلهم على العالمين ؛ قصة فى كل طرف من أطرافها عبرة ، وفى كل فصل من فصولها مفخرة خالدة : فيها العلم والرشد ، فيها الجراءة والإقدام ، فيها الحجة والبرهان ، فيها إنذار الباطل الذى بغى واستكبر ، فيها ثقة المحق بنفسه وإن كان قليلا ضعيفا ، واضطراب المبطل وحيرته وإن كان كثيرا قويا ؛ فيها تحرر الفكر من سلطان الأوهام ، فيها غزو الشرك فى عقر داره ، فيها تحدى الظلمة الجهلة العتاة والتعرض لغضبهم فى سبيل الله ، فيها اتهام ، فيها تحقيق ، فيها دفاع ، فيها سخرية من المتهم بمن يحاكمونه ، فيها استخذاء الجهل أمام العلم ، والباطل أمام الحق ، ثم فيها عنجهية هذا وإصرار ذاك ، ثم فيها ثبات الداعى

وعدم تزلزله، وانتهازه كل فرصة تتاح لتوكيد دعوته، وتأييد فكرته، ثم فيها خاتمة النصر للمؤمنين برعاية الله وعنايته ولو كره الكافرون !.

فأى ثبات هذا وأى عزم ؟!

وإذا كان الله عز وجل قد قص علينا هذه القصة الرائعة التى تصور لنا جهاد ابراهيم للباطل فى صورته العملية . فقد قص علينا صورة أخرى يتمثل فيها جانب آخر من البطولة فى جهاد النفس والعاطفة لا يستطيعها إلا من ربط الله على قلوبهم، وأراهم منه ما جعلهم لا يرون سواه، وأذاقهم من لذة الصلة به ما أنساهم كل لذة وراءها .

وقد جاءت هذه القصة الثانية عقب تلك القصة الأولى فى سورة الصافات إذ يقول جل شأنه بعد ذكر إنجاء خليله من جحيم الظالمين : « فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » من ذا الذى يسمع هذا النبأ العظيم ولا يمتلىء قلبه إيمانا بهذا النبى الكريم ؟ أب بار شفيق يعتقد أنه مأمور من الله بذبح أعز الناس اليه ، وأقربهم الى قلبه : بذبح ابنه وفلذة كبده ، وهو ابن ليس كسائر الأبناء : ابن قد بلغ معه السعى ، وكمله الله بالعقل والحلم ، وزينه بالطاعة والامتثال : فلا يتردد ولا يتقاعس عن إنفاذ أمر ربه ، بل يصارح ابنه فى وجهه بما هو مأمور به ، ويطلعه على اعتزامه المضى فى تحقيقه ، فيتلقى الابن هذا الأمر الإلهى بالطاعة والخضوع والصبر ، ويقول بلسانه لأبيه « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وحينئذ يسلم الأب والابن أمرهما الى الله ويشرعان فى التنفيذ : هذا بصبره وامتثاله ، وذاك بحبله وسكينه ، فإذا الأرض والسماء يشهدان أعظم فداء وأعظم بلاء : يشهدان شيخا كبيرا يصرع للجبين غلاما صغيرا ، ويشرع على عنقه أداته صابرا محتسبا ، مؤمنا ممتثلا ؛ فإذا اهتزت الأرض والسماء لذلك فقد اهتزتا - ورب العرش — لعظيم من الأمر جلل !



هذا هو خليل الله ابراهيم فى ناحيته العملية ، وإن له لنواحى أخرى جدير بالذين يدرسون النفوس والأخلاق والعقول أن يدرسوها ، ليعلموا أى نبى هذا الذى يصفه الله فى موضع واحد — وهو خالقه وبارئه — بعشر صفات جلائل تكفى كل واحدة منهن لو انفردت بإثبات العظمة والسمو ؛ إذ يقول جل جلاله « إن إبراهيم كان أمة ، قانتا لله ، حنيفا ، ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه ، اجتباه ، وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

الرزق

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

وقال الحسن : بن آدم ! لست بسابق أجلك ، ولا ببالغ أملك ، ولا مغلوب على رزقك ، ولا بمرزوق ماليس لك ، فعلام تقتل نفسك ؟ !

قال ابن عبد ربه صاحب العقد :

لست بقاض أملى ولا بعاد أجلى
ولا بمغلوب على الرزق الذى قدر لى
ولا بمعطى رزق غيرى بالشقاء والعمل
فليت شعرى ما الذى أدخلنى فى شغلى

وقال آخر :

سيكون الذى قضى غضب المرء أم رضى

وقال محمود الوراق :

من كان ذا مال كثير ولم يقنع فذاك الموسر المعسر
وكل من كان قنوعا وإن كان مقلا فهو المكثر
الفقر فى النفس وفيها الغنى وفى غنى النفس الغنى الأكبر

طرف من مقاصد القصص القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

بيّنا فى المقال السابق بعضا من مزايا وفوائد القصص التى وردت فى القرآن الكريم . والآن نعرض لبعض آخر فنقول :

قص علينا كتاب الله الذى لا ينطق إلا بالحق ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ما كانت عليه الأمم السالفة من اتخاذهم أربابا من دون الله تضرهم ولا تنفعهم : « وقالوا لا تذرُنّ آلهتكم ولا تذرُنّ وَدًّا ولا سُواعا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونسرا » أى قال رؤساء قوم نوح لسفلتهم وفقرائهم : لا تتركوا عبادة آلهتكم على الإطلاق ، ولا تتركوا عبادة ود ولا سواع ، ولا يغوث ويعوق ونسر [1] وهى أسماء أصنام كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم . قالوا ذلك لما دعاهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله ليلا ونهارا بلا فتور ولا توان . وما كان ذلك يزيدهم إلا فرارا عن طاعة الله وعدم استجابة إلى دعائه . وكلما دعاهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم أى سدوها لئلا يسمعوا كلامه عليه السلام ، واستغشوا ثيابهم كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى دين الله ، وأصروا على كفرهم واستكبروا استكبارا .

وكم كان لسيدنا ابراهيم عليه السلام مع قومه من مواقف حيال الأصنام : كان يقيم لهم الأدلة على سوء صنيعهم وسفاهة أحلامهم فى عبادتها ، تارة فى لين وأدب عال « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى

---

(١) ود : صنم على صورة رجل . وسواع على صورة امرأة . ويغوث على صورة أسد . ويعوق على صورة فرس . ونسر على صورة نسر .

عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فا تبعنى أهدك صراطاً سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا » .

وتارة فى شدة وعنف وتبكيت « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ! إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » .

وتارة كان يقيم الدليل المادى على عجز آلهتهم حتى عن الدفاع عن أنفسها فيلقمهم الحجر .

أقسم عليه السلام ليحطمن أصنامهم بعد أن يذهبوا إلى عيدهم ، فجعلهم جذاذا وقطعا إلا كبير الأصنام علهم يرجعون اليه فيسألونه عن الذى كاد آلهتهم هذا الكيد ، وإذ ذاك يدركون أن العاجز عن النطق والحركة لا يصح فى العقل أن يكون موضع احترام وإجلال ، فضلا عن أن يعبد من دون الله . وقد حكى الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جُذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » .

ولكن النفوس الخبيثة لا يكبح جماحها ، ولا يثنيها عن غيها نصح ولا إرشاد .

ولما كانت الأصنام سبب البلاء وأساس فتنة الناس ، كان من الخير أن نتعرف أصل نشأتها ، وكيف كانت لها قداسة واعتبار فى نفوس الناس حتى تعبد من دون الله وهى من صنع أيديهم وسوء صنيعهم ، لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا حول لها ولا قوة ، ولكن القلوب قد ختم عليها بطابع من السواد فأفقدها الوعى والمشاعر ، قد تملكها الشيطان وجثم على نوافذها فأعدمها الإدراك والحس « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

يروى كتاب الأصنام لأبى المنذر أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين ماتوا فى شهر ، فجزع عليهم أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا ؟ قالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله ، حتى ذهب ذلك القرن الأول ، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء القرن الثالث

فعبدوهم، وعظم أمرهم واشتد كفرهم، فبعث الله اليهم إدريس عليه السلام نبيا فدعاهم الى الله فكذبوه، فرفعه الله اليه مكانا عايا، ولم يزل أمرهم يشتد حتى كان عهد نوح عليه السلام، فدعاهم الى الله فكذبوه، فأمره الله أن يصنع الفلك، ثم كان الطوفان فقذف بها الى أرض جُدَّة. قال ابن الكلبي: وكان لعمرو بن لحى (وهو من العرب) رئى من الجن، فقال ائت ضَفَّ جدة، تجد فيها أصناما معدة، فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادع العرب الى عبادتها تجاب. فحملها الى تهامة ودعا العرب الى عبادتها، فكان ود لكلب، وسواع لهذيل، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير؛ فكان أول من غيَّر دين اسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامى [1] عمرو بن ربيعة، وهو لحى بن حارثة. انتهى.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك فى صدد الرد والإبطال لما ابتدعوه فقال: « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب »، أى ما شرع الله ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا بتحريمهم ما حرموا يختلقون على الله الكذب فى نسبتهم هذا التحريم إليه.

وقد قاتل عمرو بن لحى جُرهماً حتى أجلاهم عن الكعبة، ونفاهم من بلاد مكة، ثم نصب التماثيل حول الكعبة، فدانت لها العرب، وعبدوها وأكثروا منها، فمنهم من اتخذ صنما، ومنهم من نصب حجرا ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب، ينحرون ويذبحون عندها ويتقربون إليها؛ فلما بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وأتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده، قالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن هذا لشيء عجاب. وكان أقدم أصنامهم مناة، ثم اللات، وكانت صخرة مربعة يلت السويق عندها يهودى، ثم العزى، وهى التى ورد ذكرها فى

---

(١) إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها، ولا تطرد عن ماء ولا عن مرعى، وكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفرى أو برأت من مرضى فناقتى سائبة، وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى وذكرا، قالوا: وصلت أخاها، فلا يذبح الذكر لآلهتهم، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

القرآن بقوله : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

فلما كان يوم فتح مكة دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام والأصنام منصوبة حول الكعبة ، فجعل يطعن بسية قوسه فى عيونها ووجوهها ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . ثم أمر بها فكفئت ، ثم أخرجت فحطمت . وفى ذلك يقول راشد السلمى :

قالت هلمَّ الى الحديث فقلت لا ... يأبى الإله عليك والإسلام
أو ما رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح حين تكسر الأصنام
لرأيت نور الله أضحى ساطعا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

ثم بعث النبى صلى الله عليه وسلم عام الفتح عليا إلى مناة فهدمها ، وبعث المغيرة ابن شعبة إلى اللات فهدمها ، وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقال « ائت بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى » فأتاها فعضدها ، فلما جاء إليه عليه السلام قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال لا ، قال فاعضد الثانية ، فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال فاعضد الثالثة ، فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها وخلفها دُبَيَّة وكان سادنها ، فلما نظر إلى خالد قال :

أعُزَّاء شُدِّى شدة لا تكذبى ... على خالد ألقى الخمار وشمِّرى
فإنك إلا تقتلى اليوم خالدا ... تبوئى بذلّ عاجلا وتنصرى
فقال خالد ياعز كفرانك لاسبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها وعضد الشجرة وقتل دبية السادن ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب ؛ أما إنها لن تعبد بعد اليوم .

وقد جاء فى مسلم ما يشهد لأصل نشأة الأصنام ؛ فعن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كنيسة رأينها بالحبشة

فيها تصاوير ، فقال الرسول عليه السلام « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور : أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

فاسم الإشارة فى قوله (أولئك) راجع الى أصلهم وصنفهم لا الى نفس القوم الذين عندهم الصور . وأصل أغراضهم فى هذا التصوير هو الائتناس بمن يصورونه بعد موته ، فلما جاء من بعدهم نسوا أغراضهم فعبدوها من دون الله . والمراد بالتصاوير فى الحديث : التماثيل . والإشارة فى قوله « أولئك شرار الخلق » لمن نحت وعبد ، فإن كانت لمن نحت فقط فيكونون شرارا بتصويرهم ، لحديث وعيد المصورين .

فأنت ترى مع تطاول الزمن كيف تنوسى الغرض الأصلى ، وتمكن الشيطان من التسلط على نفوس من جاءوا بعد الأولين فأوحت اليهم أنها آلهة تنفع وتضر وهى خليقة أن تعبد .

وإنه لمما يملأ النفس أسى ولوعة ، ويدمى القلوب ويذيب النفوس حسرات ، أن نرى فى هذا العصر ، عصر النور والمعارف ونضج العقول ، الأمم الإسلامية تجارى أمم الغرب فترمز لأبطالها وزعمائها بتماثيل تتخذها من نحاس أو برنز أو حجارة منحوتة ، وتنفق فى سبيلها الكثير من أموالها ، والعظيم من مجهودات صناعها ، ثم تقيمها فى الميادين العامة والمتنزهات ، حتى يقع عليها نظر كل غاد ورائح ؛ تهدف بذلك الى تخليد ذكرى من كان له ماض مجيد وعمل جليل ، مكافأة له على ما بذل من تضحية فى سبيل وطنه ، أو ما ظهر منه من فضل ونبوغ وإذكاء لقرائح النشء الحديث ، فيترسمون خطى قادتهم وزعمائهم السابقين . وما دروا أن التاريخ يعيد نفسه ، فيأتى ذلك اليوم الذى أتى على من قبلهم فتتناسى الأجيال المقبلة الغرض الأصلى وتتخذ هذه التماثيل أربابا من دون الله . وما أحوج الأمم الإسلامية الى تلك الأموال لتنفقها فى سبيل مشروع وعمل نافع يعود على الفرد والمجتمع بالخير تسد به عوز المعوزين ، وتدفع به غائلة الفقر الذى تنجم عنه الأمراض التى تنتاب الكثيرين وتودى بحياتهم . لو أنها استعاضت عن تلك التماثيل بمستشفيات وملاجىء ومصانع ، وأطلقت عليها أسماء من تريد تخليد أسمائهم

لكانت قد أسدت اليهم معروفا ، وأحسنت اليهم أيما إحسان ، ولكانت قد أنقذت أبناءها من الأمراض التى تنخر فى أجسامهم ، وأعدتهم إعدادا صالحا يجعلهم يضطلعون بما يسند اليهم فى حزم ومضاء عزيمة ، وينهضون بشعوبهم عن جدارة وصدق وإخلاص ، فتحيا بهم البلاد وتسعد ، وتنفتح أمامها الى اليمن والخير كل مسلك . ولكانت قد قضت على الأيدى العاطلة ، وأكثرت من الأيدى العاملة ، فتقل الجرائم ويسود الأمن والرخاء . ولكانت قد غرست فى نفوس النشء المبادىء القويمة ، وسلكت بهم سبيلا غير ذى عوج . فاذا هى فعلت ذلك وغير ذلك من كل ما له أثر محمود كانت قد انتفعت بالعظة الحسنة ، ووضعت يدها على المقصد الأسمى ، وأصابت الهدف الذى تهدف اليه ذكرى قصة التماثيل ، فتتفيأ ظلال النعمة ، ويرفرف عليها علم العز والمنعة ، فتعيد للإسلام شامخ مجده ، وتحيطه بسياج من المهابة والإجلال . « يتبع »

حياة العزلة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « استأنسوا بالوحدة عن جلساء السوء » . وقال : « خيركم الأتقياء الاصفياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا » . وقال أيضا : « لا تدعوا حظكم من العزلة فإن العزلة لكم عبادة » .

وقال ابراهيم بن أدهم : فر من الناس فرارك من الأسد .

وقال ابن محيريز: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف ، وأن تسأل ولا تسأل ، وأن تمشى ولا يُمشى اليك ، فافعل .

وقال أيوب السختيانى : ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يُشعر به .

وقيل للعتابى : من تجالس اليوم ؟ قال : من أبصق فى وجهه ولا يغضب . فقيل له : ومن هو ؟ فأجابهم : الحائط .

وقال دِعبِل :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم   الله يعلم أنى لم أقل فَنَدا
أنى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

ونقول نحن : يخيل الى أن بعض هذا كثير .

تفسير سورة الأعلى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » .

هى سورة مكية على المشهور ، وآياتها تسع عشرة آية بلا خلاف .

وحكمة إنزالها تنحصر فى شيئين :

(أولها) إنذار من أعرض عن دعوة الرسول وتجنبها ، بإصلائه النار الكبرى التى لا يموت فيها ولا يحيا .

و (ثانيهما) تبشير من تزكى بقبولها وعمل بموجبها ، بالفلاح والفوز ، والخير والنجح .

وما ذاك إلا للتنفير عن المخالفة والعناد ، والكفر والضلال ، والكبر والإعراض ؛ والترغيب فى الامتثال والاستجابة ، والإيمان والطاعة ، والإذعان والانقياد .

وقد مهدت السورة لذلك بالأمر بتسبيح اسم الرب وتنزيهه ، وتقديسه وتمجيده ، واصفة له ـ جل وعلا ـ بأنه مصدر الإيجاد والإحكام ، والإبداع والإتقان ، والتقدير والهداية ، والرزق والإنعام ؛ ليقف الناظرون على دلائل وجوده ، وآيات تفرده .

وقد مهدت له أيضا بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتذكير والتبليغ ، والنصح والإرشاد ، بما يثبته الله فى قلبه من آيات الكتاب التى وعد الله بأن يحقق له وعيها إلا ماشاء نسخه منها ؛ ليقيم الحجة ، وينفى الريب ، ويقطع المعذرة .

بيان المعنى التفصيلى

« سبح اسم ربك الأعلى » ، « التسبيح » التنزية والتقديس. و « اسم الرب » هو ما يدل على صفاته التى يعرف بها : كالعالم ، والقدير، والحكيم ، والخبير. والخطاب فى الآية الكريمة لكل من يتأتى خطابه ، ممن يتوجه اليه التكليف والإلزام .

و المعنى : نزه أيها المكلف اسم ربك عن كل ما لا يليق به ، فلا ترد به معنى لا يتناسب مع عظمة المولى وكبريائه ، ولا تذكره إلا وأنت خاشع ، ولا تذكره فى موضع لا يليق بجلاله ، ولا تطلقه على غيره زاعما أنه يشاركه أو يساويه . وإنما أمرنا بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات للإشارة الى أن منتهى ما تصل اليـــه عقولنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن تتوجه اليها عقولنا إلا بمقدار ما نلحظ من هذه الصفات التى تقوم عليها الدلائل .

و « الأعلى » صفة الرب ، والمراد بالعلو : العلو بالقهر والاقتدار ، والعظمة والجبروت ، لا العلو بالمكان ، لاستحالته عليه سبحانه وتعالى . وإنما جىء بهذا الوصف ، لأنه مشعر باستحقاقه سبحانه وتعالى للتنزيه والتسبيح المأمور به ، وكأنه قيل : سبح اسم ربك لأنه الأعلى الذى غلبت قدرته ، وقهر سلطانه ، والذى تفرد بالعزة والكبرياء .

«الذى خلق فسوى» :

جىء بهذه الآية وبما بعدها للاستدلال بما تضمنته من آثار القدرة ، على وجود الرب سبحانه وتعالى ، وهى واقعة فى جواب سؤال مقدر ، وكأن سائلا قال بعد الأمر بالتسبيح : الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد معرفة الرب والاعتقاد بوجوده ، فما الدليل على ذلك ؟ فأجيب بها .

هذا ، والاستدلال على وجود الرب سبحانه وتعالى بالخلق والهداية هو الطريق المعتمد عند أكابر الأنبياء ، كما حكى عن ابراهيم عليه السلام وقد أراد

أن يستدل على وجود الرب فقال : « الذى خلقنى فهو يهدين » ، وكما حكى أن فرعون لما قال : « فمن ربكما يا موسى » قال موسى : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . وإنما وقع الاستدلال على وجود الرب بهذه الطريقة ، لأن عجائب القدرة وغرائب آثارها فيها أكثر ، ومشاهدة الانسان لها واطلاعه عليها أتم ، فلا جرم كانت أقوى فى الدلالة . ومفعول « خلق » محذوف ، وكذلك مفعول « سوى » والتقدير : خلق الكائنات وسواها ، أى عدلها .

والمعنى : إن المأمور بتسبيح اسمه وتنزيهه ، هو الذى خلق الكائنات وسواها ، أى أوجدها على نظام كامل لا خلل فيه ولا فساد ، ولا تفاوت ولا اضطراب ، كما يرى فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

«والذى قدر فهدى» :

مفعول « قدر » و « هدى » محذوفان أيضا . والتقدير : قدر المنافع ، وهدى الإنسان .

والمعنى : والذى أوجد المنافع فى الكائنات ، ونصب الأدلة على وجوده فى المخلوقات ، وهدى الإنسان بما غرس فيه من الفهم والمعرفة ، والعلم والإدراك ، الى استخراج تلك المنافع والفوائد من الموجودات ، والى الاهتداء بما ركب فيها من الدلائل والآيات ، على وجوده وتفرده ، وعظمته وقدرته ، وجبروته وكبريائه . ورحم الله القائل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

« والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » :

« المرعى » : الكلأ الأخضر الذى ترعاه الحيوانات .

« الغثاء » : ما يبس من النبات فقذف به السيل على جانب الوادى .

« الأحوى » : المسود من القدم .

والمعنى : وهو الذى أنبت النبات غضا طريا يرف ، فجعله بعد ذلك يابسا بعد الطراوة ، أسود بعد الخضرة ، فانيا بعد الوجود . أفلا يدل هذا على وجوده وتفرده ، وقدرته وعظمته .

ثم قال الله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى » .

بعد أن أمر الله المكلف بتسبيح اسمه سبحانه وتعالى ، وأرشده الى دلائل وجوده فى الكائنات ، شرع يعد نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سيقرئه كتابا لا ينسى منه إلا المنسوخ ، فيه إرشاد المكلفين الى معرفة ربهم ، وهدايتهم الى ما يغرس التوحيد فى قلوبهم ، ويطلع شموس الحق فى نفوسهم .

بيان سبب النزول :

قال مجاهد ومقاتل : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه أثناء الإيحاء مخافة أن ينسى ، وكان جبريل عليه السلام لايكاد يفرغ من آخر الوحى حتى يتكلم هو بأوله ، فقال تعالى : « سنقرئك فلا تنسى » أى سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه . ونظير هذا قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضَى إليك وحيه » .

والمعنى : إنا سنشرح صدرك ، ونحد ذاكرتك ، حتى تحفظ بمجرد سماعك ، ثم لا تنسى بعده أبدا من قوة الحفظ والإتقان ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، مما رفع حكمه وتلاوته ؛ ليكون عدم النسيان لك آية تدل على صدقك ، مضافة الى ما فى تضاعيف الكتاب من الآيات البينات ؛ ولتكون تلك الآيات الباقية ، والأحكام الخالدة عدة لك فى دعوتك ، تنير بها الطريق ، وتهدى بها السبيل ، وترشد بنورها من ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : «إنه يعلم الجهر ومايخفى» تأكيد للوعد بالإقراء مع استثناء المنسوخ .

و « الجهر » هو ما ظهر من الأقوال . و « الخفى » هو ما استتر منها .

والمعنى : إنه تعالى يعلم جهرك بالقراءة وإسرارك بها مع جبريل عليه السلام ويعلم ما دعاك إليه من مخافة النسيان ، فلا تخف فإنه يكفيك ما تخاف .

ثم قال تعالى : « ونيسرك لليسرى » .

« التيسير » التسهيل والتذليل ، والمراد به هنا التوفيق . والخطاب فى الآية للرسول صلى الله عليه وسلم . و « اليسرى » الطريقة السهلة .

والمعنى : سنوفقك توفيقاً مستمراً للإحاطة بأحكام الشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ولا يصدف عنها إلا من سكن الحقد قرارة نفسه ، وأكل الحسد شراسيف قلبه ، وملك العناد زمام عقله .

« فذكر إن نفعت الذكرى » :

« التذكير » الوعظ والإرشاد . و « الفاء » لترتيب التذكير على التيسير لليسرى . وليس الأمر بالتذكير فى الآية الكريمة مشروطا بنفع الذكرى ، بل فى الكلام مقابل محذوف . والتقدير : فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع . والدليل على هذا المحذوف قيام الإجماع على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن الواجب عليه أن يذكر من ينتفع ومن لا ينتفع . وإنما اقتصر على ما ذكر اكتفاء به ، لدلالته على مقابله ، كما فى قوله تعالى : « سرابيل تقيكم الحر » أى والبرد .

والمعنى : فدم على وعظ الناس وإرشادهم ، وتنبيههم وتذكيرهم بعد ما استقام لك الأمر من إقرائك الوحى وإحاطتك بأحكام الشريعة السمحة ، سواء أكان من الناس إصاخة وانتفاع ، أم كان منهم شماس وإعراض .

« سيذكر من يخشى » :

لما ذكر سبحانه وتعالى الأمر بالتذكير فى قوله : « فذكر » . بين فى هذه الآية وتاليتها من ينتفع بالتذكير ومن لا ينتفع .

والمراد بهذا الصنف الذى ينتفع بالتذكير ، الصنف المتوقف فيما جاء به الرسول ، السليم من المكابرة والعناد إذا ظهر الحق ، ووضح الدليل . وذلك أنه يتأمل فيما يذكر به ، وليس له هوى يثنيه عن القبول ، ولا رغبة تدفعه إلى الجحود ، وحينئذ يظهر له وجه الصواب فيه ، ويتبين عنده أنه الحق الذى لا يجوز إلا الإقبال عليه .

والمعنى : سيتعظ وينتفع بتذكيرك عن كثب من يخشى الله فى الجملة بما يستعمله من النظر فى أمر ما تذكره به ، حتى يقف على حقيقته فيؤمن ويطيع .

« ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى » :

« يتجنبها » : يترك الذكرى ويتحاماها .

« الأشقى » : الكافر المصر على الجحود والعناد .

« النار الكبرى » أى العظمى ، هى نار الآخرة ، أما الصغرى فهى نار الدنيا .

والمعنى : إن المعاند الجاحد هو الذى لا يلتفت إلى الذكرى ولا ينتفع بها ، لأن شقاءه قد غلبه ، وإعراضه عن نور الشريعة قد حجبه ، فهو أشقى الأشقياء فى الآخرة بما يصلاه من النار العظمى التى لا يموت فيها فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه .

ثم قال الله تعالى : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » .

لما ذكر سبحانه وتعالى وعيد من أعرض عن النظر فى الدلائل ، والتأمل فى الآيات ، أتبعه بذكر الوعد لمن زكى نفسه من أدناس الكفر ، وأوضار الشرك .

بيان المعنى التفصيلى :

« أفلح » فاز ونجا . « تزكى » تطهر من الشرك .

« ذكر اسم ربه » : استحضر معرفة الله بذاته وأسمائه وصفاته .

« صلى » أدى الصلوات الخمس ، كما روى عن ابن عباس .

وعلى هذا تكون الآيتان مشيرتين إلى مراتب أعمال المكلف الثلاثة :

(١) إزالة العقائد الفاسدة عن القلب ، وهى التى أشار إليها قوله : « تزكى »

(٢) استحضار معرفة الله تعالى ، وهى التى أشار إليها قوله : « وذكر اسم ربه »

(٣) الاشتغال بخدمته تعالى ، وهى التى أشار إليها قوله : « فصلى » .

والمعنى الإجمالى : قد فاز فى الدارين ، من طهر قلبه من لوثة الشرك ، وعرف ربه ، فآمن بوجوده ، وأذعن لكبريائه ، وتفانى فى خدمته بأداء الواجبات ، والوقوف عند الحدود والأحكام .

ثم قال تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى »

وقد جىء به تقريعا وتوبيخا لمن لم ينتفع بالذكرى وتحاماها ، وأعرض عن الدعوة وجافاها .

والخطاب فى « تؤثرون » للجاحدين المعاندين ، وكلمة « بل » للإضراب عن مقدر ينساق اليه الكلام ، كأنه قيل إثر بيان ما يؤدى الى الفلاح من التزكية والذكر والصلاة : وأنتم أيها المعاندون الجاحدون لا تفعلون ذلك ولا تفكرون فيه ، بل تؤثرون الحياة الدنيا . وإيثار الحياة الدنيا ، هو الاطمئنان إليها ، والعمل لها ، والرضا بما فيها ، وجحود الآخرة ، وعدم التفكير فيها ، وترك السعى لها . وجملة « والآخرة خير وأبقى » مؤكدة للتقريع والتوبيخ .

والمعنى : أنتم أيها المعاندون الجاحدون لا تطهرون أنفسكم من دنس الشرك ، ولا تعرفون خالقكم وبارئكم ، ولا تذعنون لأوامره وتكاليفه ، بل رضيتم بالحياة الدنيا وآثرتموها ، واطمأننتم اليها وعملتم لها ، وجحدتم الآخرة وما فيها ، مع أن الآخرة خير منها ، لما فيها من السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ؛ وأبقى منها لأنها دائمة خالدة ، والدنيا زائلة فانية ، والباقى خير من الفانى .

ثم قال تعالى : « <u>إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى</u> » .

الإشارة فى « هذا » إلى ما تضمنه قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » الى قوله تعالى : « والآخرة خير وأبقى » .

وقد أراد الله بهذا أن يؤيد الحق الذى أوحاه الى نبيه بإثبات أنه هو بعينه الحق الذى ذكر فى صحف ابراهيم وموسى . وذلك أن قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » إشارة الى تطهير النفس من العقائد الفاسدة ، وقوله : « وذكر اسم ربه » إشارة الى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وقوله : « فصلى » إشارة إلى تكميل الجوارح بطاعة الله ، وقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا » إشارة الى الزجر عن التفات الانسان إليها ، وجعلها كل بغيته ؛ وقوله : « والآخرة خير وأبقى » إشارة الى الترغيب فى ثواب الله ، وابتغاء الدار الآخرة .

هذا ، وقوله : « صحف إبراهيم وموسى » لم يذكر على سبيل الاستقصاء ، وإنما ذكر على سبيل المثال ، لأن هذه الدعاء مذكورة فى صحف جميع الأنبياء التى منها صحف أبراهيم وموسى ، وإن اختلفت الصور وتعددت المظاهر . والله أعلم ؟

المجاز والكناية في كتاب الله

القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد البحيرى
المدرس بكلية اللغة العربية

هل نسى الشيخ ما كتبه فى عدد ربيع الثانى سنة ١٣٦٨ من مجلة الأزهر أو هو يتناساه ؟

يقول الأستاذ الكبير : فى عدد جمادى الآخرة إن الذى أنكره وتعرض لإبطاله هو الرمى بنفس النجوم لأنه يترتب على ذلك بطلان زينتها ومحوها من السماء ويقول فى عدد رجب : ليكن ما تعرضت لإبطاله من أن الرمى بنفس النجوم قد اعترضه المفسرون ، ولكن أليس كل ما هنالك أننى أبطلت باطلا وذلك ما أنا حريص عليه كل الحرص حتى تبقى للسماء زينتها .

وأنا أقول للشيخ : إن رمى الشياطين بنفس النجوم على المعنى الذى فهمه من زوالها وبطلان زينتها لم يقل به أحد من المفسرين ، لا من السالفين ولا من الخالفين ، وليس هذا موضع نزاع بين أحد من الناس وبينه ، ولست أدرى على من يرد الشيخ إذاً ؟ وما هو الباطل الذى يريد إبطاله ويعترض عليه المفسرون ؟ وإنما موضوع النزاع الذى أثار النقاش والرد هو إنكار ما تدل عليه نصوص من القرآن والسنة لا تقبل جدلا ولا تأويلا .

وذلك هو ما أخذته على الشيخ فى عدد ربيع الثانى فى نقطتين خطيرتين :

(١) إنكار التسمع والخطف والرمى بالشهب التى تنص عليها آيات الكتاب العزيز والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف والخلف .

(٢) إنكار أن فى القرآن تبشيرا وإنذارا ووعدا ووعيدا لغير بنى آدم مما يتضمن عدم تكليف الجن وعدم رسالة الرسول إليهم .

هاتان النقطتان الخطيرتان هما موضوع النزاع ، لا الرمى بنفس النجوم وإبطال زينتها ، وإن كان الشيخ نسى ذلك فأنا أذكره بنص ما قاله فى هاتين النقطتين فى العدد المذكور ، وأعيده على سمع القارىء وبصره ، حتى يعرف الموضوع ولا يلتبس عليه الأمر .

قال الشيخ فى صفحة ٢٩٧ من هذا العدد : « فكيف إذاً نسيغ لأنفسنا تصور أن الشياطين تحاول التسمع إلى ما يجرى فى السماء من تدبير فلا يردها إلا أن تحذف بالشهب ، وفى ذلك ما فيه من تهوين لحرمه واستهانة بمكان تصرفه ونزول بديوانه إن صح فى الأذهان ما يصورون عن دواوين ملوك الأرض ، فكيف نبيح لأنفسنا هوان مكان تصرفه والنزول به إلى هذا الحد ، ولا يكون للسماء من إتقان خلقها ومحكم صنعها وجلال صانعها رادع للشياطين عن تلك المحاولات » .

أليس هذا إنكارا للتسمع والرمى بالشهب مطلقا فى آية « الملك » وفى غيرها من الآيات ؟

ويقول فى نفس الصفحة : « وأما ثانيا فإنه مع ترى فى هذا المعنى من تجاف للحكمة وتناف للإتقان قد بناه المفسرون على خيال باطل وخطأ آثم فلا مساواة حتى يكون هناك كلام وخطاب تتسمع إليه الشياطين لتخطف من ذلك خطفة تذيعها قبل وقوعها لتهدم من ذلك ما خطه الله بنفسه من علم الغيب » .

أليس فى ذلك أيضا إنكار للتسمع والخطف مطلقا ، وإبطال له فى آية « الملك » وفى غيرها من آيات الحجر ، والصافات ، والجن ؛ لأنه يبطل التسمع من حيث هو تسمع ، والرمى بالشهب من حيث هو رمى بها ، والخطف من حيث هو خطف .

ولا شك أن هذا كله وردت به النصوص الصريحة من القرآن والأحاديث وأقوال السلف ، كما بينت ذلك فى الرد الأول على الشيخ .

وأما عن النقطة الثانية الخطيرة ، فقال فى صفحة ٣٧٢ من نفس العدد : « ومجمل ذلك أن القرآن إنما هو للبشر أنزل على واحد منهم ، فكل مافيه من وعد ووعيد ، وإنذار وتبشير ، إنما هو للناس ، إنما هو لبنى آدم ، ولو سلم على سبيل الجدل فقط أن منه ماهو موجه لخلق آخر لأبى نظم القرآن أن يقحم إقحاما على هذا الوجه الذى يمس فى قوة بلاغة القرآن » .

أليس هذا إنكارا صريحا لتكليف الجن مطلقا لأنهم غير مبشرين وغير منذرين ؟ ويلزم من ذلك نفى تكليفهم ، مع أن نصوص القرآن ونصوص السنة وإجماع السلف والخلف يدل على أنهم مكلفون ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل اليهم .

هذا هو موضع النزاع بيننا وبين الشيخ . فإن كان الشيخ نسى ذلك فها أنذا ذكرته ، وأنا مستعد لإبطال ما ذهب إليه ثانيا كما أبطلته أولا ، وأنا على استعداد لأعيد النقاش جذعا فى هذا الموضوع حتى يتبين الحق ، وما أسعدنى بذلك لأنى أبتغى وجه الله وأرجوه حسن المثوبة ؛ وإن كان الشيخ يريد أن يتناساه ويعفى عليه فما أجمل أن يصرح بذلك ويبينه لينتهى الخلاف فى هذا الموضوع ؛ وإن كان لديه تأويل مقبول لهذه النصوص ، أو حجة ناهضة يحق بها الحق فليتفضل بذلك ، وسيرانى أول من يعتنق الحق ويرحب به ويزجى الثناء موفورا على من يبينه .

هذا ، ولا يفوتنى أن أبدى ما لاحظته على مقال الشيخ فى عدد رجب سنة **١٣٦٨** ، ويتلخص فيما يأتى :

أولا : يقول الشيخ إن ابن عباس قد عبر بالكواكب ولم يعبر بالشهاب فى قوله : « فيرمون بالكواكب ، مما يفيد أن الرمى بالكواكب أنفسها ، وهلا يكفى ذلك لأن أعرض لبطلان الرمى بالكواكب » . ثم يقول : « وماذا نصنع فى تعبير قتادة إذ يقول : للنجوم ثلاث فوائد : الزينة ، ورجم الشياطين ، والاهتداء بها ، فيجعل رجم الشياطين بنفس النجوم ، أليس ذلك كافيا فى أن أعرض لإبطال أن يكون الرمى بنفس النجوم » .

إذاً فالشيخ يرد فى مقالاته من أول ما كتب الى الآن على ابن عباس وقتادة ، وانحصرت خصومته للمفسرين فى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن الذى دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ؛ وفى قتادة رضى الله عنه . وما كنت أود أن تكون خصومة بين الشيخ وبين هذين الإمامين الجليلين فى غير محل للخصومة ، وهل هما حقيقة اللذان عناهما الشيخ فى مقال ربيع الثانى من المفسرين ، فكال لهما ما كال من ألوان

التضاليل والتأثيم والخيال الباطل ، ويريد أن ينقى من أجلها أفق القرآن من جهام الأضاليل ونقع الأباطيل ؟ وهل ابن عباس وقتادة أخطأ كل منهما الصواب وضل الطريق فى فهم كتاب الله تعالى ، والشيخ يصحح أخطاءهما ، ويبطل ما افترياه على القرآن ؟ وفيم أخطأ ابن عباس ؟ أفى قوله : فيرمون بالكواكب . وهل هذه العبارة تدل من قرب أو من بعد على أن الكواكب تنهار وتزول من مكانها بالرمى فتبطل زينتها وتمحى من السماء محوا ؟ وهل ابن عباس غفل عن الآيات الأخرى التى تنص على أن الرمى بالشهب (وهو حبر الأمة) أو أن عبارته محمولة على معنى الآيات الأخرى ؟ وهل قول قتادة : للنجوم ثلاث فوائد : الزينة ورجم الشياطين والاهتداء بها ، قول باطل يستحق التفنيد ، وهو الذى حمل الشيخ على أن يكتب ما كتب ؟ وهل معنى قوله من فوائد النجوم رجم الشياطين ، أن النجوم تزول من السماء بالرجم وتبطل زينتها ؟ وبم تكون الزينة وبم يكون الاهتداء إذاً فى قول قتادة وقد أثبتهما فائدتين للنجوم ؟ وهل قتادة يتناقض هذا التناقض وينهار بمثل هذه السرعة ؟ وهل ذلك يقوله أحد أو يفهمه فاهم ؟ ولو طعن الشيخ فى الرواية عنهما لكان محتملا وغير مكشوف ، ولكن بشرط أن يجرى الطعن فى السند على قاعدة الجرح والتعديل ، والشيخ لم يبين ذلك ، فالشيخ يريد الرد على ابن عباس وقتادة ، وقد عرفنا قيمة هذا الرد من الوجهة العلمية والعقلية .

ثانيا : يفاضل الشيخ بين المجاز الذى أراده المفسرون فى قوله تعالى : « وجعلناها رجوما للشياطين » لعلاقة الجزئية ، وبين المعنى الذى أراده من أن الرجوم أدلة ، ويقول : إن المعنى الذى سلكه أولى مما سلكه المفسرون . وأنا أقول : إن الذى سلكه المفسرون فى الآية تؤيده الآيات الأخرى وتدل عليه آية الملك دلالة ظاهرة : أما معناه فبعيد عن الآية كل البعد ، وحمل لها على خلاف ظاهرها من غير ضرورة .

ويقول . إن آية الملك أولى بها أن تسلك مع آية الأنبياء فى سمط واحد ، وذلك أولى من نظمها فى سلك آيات الحجر والصافات والجن . وهذا لا دليل عليه ، وقد بينت ذلك فى مناقشة المقال الثانى للشيخ ورددت عليه بما فيه الكفاية . على أننى أقول للشيخ : سلمنا جدلا فقط أن ما سلكه فى آية الملك أولى مما سلكه

المفسرون ، وسلمنا جدلا فقط أن الأولى نظم آية الملك مع آية الأنبياء دون أخواتها من آيات الحجر والصافات والجن ؛ فهل هذه الأولوية تبرر طعن الشيخ على المفسرين على النحو السابق ؟ وهل تبرر تضليلهم وتأثيمهم واتهامهم بأنهم ألصقوا بالأفق القرآنى جهام الأضاليل ونقع الأباطيل ؟ .

ثالثا : أما ما ساقه الشيخ من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وعظمته وأن آية الملك فى اتجاهها ومن قبيلها ، لا من قبيل الآيات الثلاث : آيات الخطف والاستراق والاستماع ، فمحل نظر ، وهل هذه الآيات الثلاث لا تدل على قدرة الله تعالى وعظمته حتى لا تحمل عليها آية الملك وتكون فى اتجاهها ؟ إنها تدل ولا شك على أن مخلوقا مهما بلغ فى القوة وعظم فى الخلق والتكوين لا يستطيع أن يفلت من قدرة الله تعالى وعقابه الصارم ؛ ورجم الشياطين بالشهب من أدل الدلائل على ذلك ، ومظهر من مظاهر عظمة الله وسلطانه . وأسأل الله تعالى التوفيق لصالح العمل ، وأن يجنبنا جميعا الزلل ، إنه ولى التوفيق ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

المدار على العقل

دخل كثير الشاعر على عبد الملك بن مروان ، فقال له أمير المؤمنين : أنت كثير؟ فقال : نعم . فاقتحمه وقال : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه !.

فقال كثير : يا أمير المؤمنين كل إنسان عند محله رحب الفناء ، شامخ البناء ، عالى الثناء ، وأنشد يقول :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفى أثوابه أسد هصور
بغاث الطير أطولها رقابا ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
فما عظم الرجال بزين ... ولكن زينهم حسب وخير
ويعجبك الطرير إذا تراه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير [1]
وقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
يقوّده الصبى [2] بكل أرض ... ويصرعه على الجنب الصغير

فقال عبد الملك : قاتله الله ما أطول لسانه ، وأمد عنانه ، وأوسع جنانه ! إنى لأحسبه كما وصف نفسه .

(١) الطرير من الناس : ذو المنظر (٢) قود الدابة بمعنى قادها .

اعجاز القرآن

والتحدى به، ومعارضة العرب له

لفضيلة الأستاذ الجليل « السيد »

حديثان كريمان عن الدين ، وعن رسالة النبي الأمين : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه على محمد .

أما هذان الحديثان ، فهما حديث الإعجاز القرآنى ، وأنه آية النبوة ، وحجة الرسالة ؛ وحديث التحدى به ، وأنه دمغ العرب بإحسانه ، وأخرسهم بتبيانه ؛ وهما الحديثان الطيبان ، يصدع بهما العلم حجاب الشك عن النبوة ، وتشرق دلالة الدين حجة .

أجل : إن القرآن معجزة البيان ، آية النبوة المحمدية ، قريرة بذلك عين السحر العربى ، طيبة نفس المجتمع البيانى ، لا التمحُّلُ فيه ولا الدعوى .

بيد أن ما فى نظم الدليل ـ كما يقول علماء المنطق ـ على الإعجاز القرآنى ، وعن التحدى به ، من خطابية وشاعرية فى مسحته ، تطأطىء من قدر الرواية ، وتمد فى حياة الأمل والتشهى أن يُضفى عليه العلمُ والنقد نظرة مقوِّمة ، حتى إذا عدله الثقاف ، وأشرقت حجته ، قام فى الأفئدة برداً ، وللدين تحية .

يقول العلماء فى نظم دليل الإعجاز القرآنى : إن القرآن أبينُ الكتب ، وأفصح الإبانات ، وإن كتاباً مثله يحمله سيد نبيل عربى أمى كمحمد ، سماوى اللهجة ، ملائكى الروح ، لم يخرِّجه التثقيف العلمى ، ولا نشَّأته الجامعات ، والعلوم !!! ، يفهَق كتابه بالحكمة والسداد ، ويتدفق تشريعاً واجتماعيات ؛ إن كتاباً كهذا خليق بأن يحتسب فى بيان السماء ، وأن يُتلَقَّى لأول عهده ، وهو مبلول بريق حامله الرسول الأمين ، بالتصديق والتقبل .

هذا نظم الدليل على الإعجاز القرآنى. بيد أنه دليل يطيب لنا أن يمسح العلم عليه بيد الصقل، وأن يلبسه حلة أخرى من الوجاهة حالية ترف.

ذلك: أن كل فرسان الإبانة فى الجاهلية، وطليعة الإسلام، وكل رجالات الخطابة واللسن، أشباه سحبان وائل، وقس بن ساعدة، إنما كانوا - ولا سواء - كالنبى الكريم محمد بن عبد الله، صلوات الله عليه، لا يتلو واحد منهم كتابا، ولا يخطه بيمينه !!! ، فليست الأمية إذن بمانعة، واحدَ المفصحين، وسيد الأبيناء محمداً، أن يتفجر خاطره الخصب، أو تتنزل عارضته المبينة، بكتاب جزل معجز المقالة، يخرس القالة !!! ليس من عند الله، وحاشاه!

لقد كان عجباً، بل نكراً، أن يقال: إن صدق الرسالة، وقيام الإعجاز فى القرآن، إنما كانا لموضع الأمية فى محمدٍ صلوات الله عليه!!! وهل حَشَى عهودَ الإبانة بالإحسان، حتى سالت بسحر كسحر العيون، إلا الأميون !!!.

هذا على أن لحديث المعارضة - ولا كفران للتاريخ - فضلةً من البرهان، وسُؤراً من البيِّنة؛ ذلك أن العرب حين صدعهم التحدى بالكتاب المنزل، فأخلد بهم العجز، حميت أنوفهم، من الغضاضة، بل من الذلة، حتى نهدوا إلى الحرب والضرب !!! وسلوا السيوف والأسنة، وأغمدوا الألسنة !!! ولو ملكوا المعارضة القديرة، لأجداهم البيان، عن الطعان !!!، ورجعوا بنصره المبين، موفورين.

أجل: إنه لو صدقت الأنباء عن هذه الدعوة إلى المعارضة والتبارى، وأنهم تبلدوا كل التبلد عن المعارضة، لكان أجمل بالعرب، وأندى على كبد العروبة الجزْلة، أن يتلقوا تحدى النبى صلوات الله وسلامه عليه، بطراز من التجويد، ولو كان طرازا واضع القدر، نازل القيمة، دون هذا السفساف الصفيق من النقيق !!!.

أما حديث التحدِّى بالقرآن، وعجز العرب عن معارضته، فإن الكتاب المنزل نفسه يتحدث عن إعجازه، وأنه لا يجارَى ولا يُبارَى، حيث يقول: «وإن كنتم فى ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسُورة من مثله». ويَتَغنَّى خصُوم الرسالة اللدُّ بحمده جهد الإبداع، حتى ليقول قائلهم، «الوليد بن المغيرة»،

وهو المدْرَهُ المبين عن القرآن من مقالة تحمد سائدة : « والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وإنه يَعْلو ، ولا يُعْلى !! »

على أنه قد يذهب رأيٌ وَاهِنٌ متخلف ، إلى أن حمد الكتاب المنزْل لطرازه ، ونَعْته لبيانه بالإعجاز ، إنما هو حديث بشاشة وغبطة ، كحديث كل معْتقد بقدْره ـ غير الله ـ معتز بمقاله ، مَزْهُوٍ بتبيانه ، يتخيل ، ولا يستيقن ، ويؤكد ، ولا يستوثق ، لا يعمد الى تحدٍّ ، ولا يَنْدبُ الى جَدَلٍ وموا قفَةٍ !!! ، بل يتزيَّن ، بأنه أحسن ، تعالى الله سبحانه ، وصان قرآنه .

ذلك : إلى أنهم يقولون ، بل يتقوَّلون : إنه لم يحْتَوِ النبيَّ صلواتُ الله عليه ، ولا صحابته المطهرين ، ـ فيما أبلغ اليهم من الأنباء ـ حفلُ معارضة ، ومحتشد للمقاول السباقين ، لا من صديقه ، ولا من عدوِّه ، ولا التقى بهم ولا به ناد حاشد للتحدى بإعجاز القرآن ، يقرعهم بالحجة فيُجيبون ، ويتحداهم فيعارضون أو يتبلدون ، أو يقول لهم : تعالوا الى مساجلة بالبيان ، فإما معارضة جزلة تُسوِّى لسَنكم بالقرآن ، أو إخفاق فإيمان .

أما الذى يَـُلفُّ له العلمُ رأسه حياء من العقل والمنطق ، فذاك ما أطبقوا على دعواه من أن معارضة العرب للقرآن قد وقعت ، ولكنهم يزعمون أنها وقعت فتكشفت عن بلاهات مُرَّة ، وقالة غير حرَّة !!! .

زعموا أن مسيلمة الكذاب ، متنبى اليمامة ، قال هذه المقالة فى مضاهاة القرآن ومساماته ، ولست أعلم جدّ العلم ، أهى له أم لغيره ؟ ، قال :

« يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ، لم لا تنقين ؟ ، لا الطين تشربين ، ولا الماء تمنعين ! ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم لا ينصفون » .

زعموه قال هذا ، ومسيلمة من العرب أساطين البيان ، فرسان الحلبات ، وليس يصح فى رأى العقل أن يبدر مثل هذا السفساف الخسيس من عربى !!! ، لقد عقمت إذن العربية ، وحقت الدنية !!! .

لقد كان خليقا بالعرب ـ وقد شُدهوا بهذا البيان القرآنى المعجز ـ أن يستنصروا

بقرائحهم، ويستسقوا بيا نهم الروىّ العذب، حتى ينهل بقول ساحر، إن لم يطلع حجة وغَلبا، أشرق سحراً عجبا !!!.

هذان هما الحديثان عن إعجاز القرآن، وعن التحدى به، ومعارضة العرب له؛ فلن تقوم إذن صفة الأمية فى النبى صلوات الله عليه، دليلا على صدق النبوة؛ لأن مثله ـ زعموا ـ ليس من الأبيناء؛ ذلك أن الأمية ليست بمانعة النبى ـ فى كل البلغاء من الأميين ـ أن يُبين.

أما قومة المعارضة، وشدة العارضة البيانية، فإنه لا شىء أقرّ للعيون، ولا أطيب للنفوس، أكثر من أن ينهض حجةُ التاريخ، ويبر خبُر السيرة، بأن النبى صلوات الله عليه، ندب العرب كافة، من كل مبين مفصاح، وقريشاً خاصة، إلى مقاولة فى البيان، ومصاولة فى معتركه، فتبلد كل عربى وأكدى، ثم تردَّى.

بنا الآن، وأزهر الشرق والإسلام، أزهرُ العلم والمدنية، يعجّ خلية نحل، بالعلم والفضل، أن يصقل الأزهرُ، أو يزن حديث الإعجاز هذا بلون من الصقل، وزنة من العقل، وأن يقوّم حديث المعارضة، وشدة العارضة، ثم يلغى نقيق الضفادع، فليس بسائغ !.

تنق بلا شىء شيوخ محَارب وما خلتها كانت تريش ولا تَبْرِى

الآمل

قيل: الأمل رفيق مؤنس، إن لم يبلغك فقد ألهاك.

وقال شاعر:

مُنىً إن تكن حقا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وقال آخر:

رفعت عن الدنيا المنى غير حبها فلا أسأل الدنيا ولا أستزيدها

وقيل لأعرابى: ما أمتع لذات الدنيا؟ فقال: ممازحة المحب، ومحادثة الصديق، وأمانى تقطع بها أيامك، وأنشد:

عللينى بموعد وامطلى ما حييت به
ودعينى أفوز منـ ـك بنجوى تَطلبه

الشعر والاسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

العرب أمة سامية ، والشعر أقدم آداب الساميين ؛ ويرى بعض العلماء أن العرب أسبق الأمم الى قرض الشعر ؛ لما قيل من أن « سفر أيوب » الذى ورد فى التوراة ، نظمه عربى فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، ثم ترجم الى العبرانية ، وعُد من الأسفار المقدسة ، وضاع أصله العربى ، كما ضاعت أصول كثير من المترجمات [1] .

وأقدم الشعر ، الشعر الدينى ، المتعلق بالآلهة وأعمالهم ، كما فى إلياذة هوميروس ، ومهابارتة الهند ؛ ومن هذا القبيل بعض الأشعار العبرانية ، كسفر داود ، ونشيد الأناشيد . والمظنون أن العرب فى جاهليتهم ، نظموا الأشعار الدينية ، وخاطبوا بها أصنامهم واستعطفوها وصلّوا إليها ؛ ولكن منظوماتهم هذه ضاعت فى طوايا الأجيال لعدم تدوينها ، وما بقى على الزمن منها أغضى الرواة فى الإسلام عن حفظه لتعلقه بالأوثان ؛ فقد نهى الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه عن رواية ما يتعلق بما هو دون ذلك ؛ جاء فى الإصابة عن محمد بن سلمة أنه قال : كنا يوما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا حسان ، أنشدنى من شعر الجاهلية ؛ فأنشده قصيدة الأعشى التى هجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل ؛ فقال : يا حسان ، لا تعد تنشدنى هذه القصيدة ؛ فقال : يا رسول الله ، تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟ فقال : إن قيصر سأل أبا سفيان عنى ، فتناول منى ، وسأل علقمة ، فأحسن القول ؛ فإن أشكر الناس للناس ، أشكرهم لله تعالى ا هـ .

---

(١) يرى بعض علماء اللغات ، أن سفر أيوب أكثر الأسفار شبها بالعربية من جهة ألفاظه وملامحه الصحراوية ، ومرجع ذلك الى الجوار فى الموطن والسكن .

وقصيدة الأعشى ، هذه ، هى التى مطلعها :

علقم ، ما أنت إلى عامر   الناقص الأوتار والواتر

والتى تمثل على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبته الشقشقية المشهورة بقوله فيها :

شتان ما يومى على كورها   ويوم حيان أخى جابر

وروت كتب السيرة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية ابن أبى الصلت فى رثاء قتلى بدر من المشركين ، لما فيها ـ إلى الإشادة بذكرهم ـ من نيل لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهم . ومطلع هذه القصيدة :

ألا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فروع الأيك فى الغصن الصوادح

وكما كان العرب أسبق الأمم إلى قرض الشعر ، كانوا أقوى الأمم شاعرية ؛ فإن ما أثر من أشعارهم ، ومن عرف من شعرائهم ، فيما لا يتجاوز قرنا ونصف قرن مع ضياع الأكثر ، لا نظير له فى غيرها من الأمم . وقد أعانها على تبوّؤ هذا الشرف الأعلى ، ما طبعهم الله عليه ، من رقة الإحساس ، ورقى الشعور ؛ وما تبحبحوا فيه ، من اتساع الأفق ، وانفساح الرقعة ، وما نعموا به من صفاء الجو ، وكثرة الفراغ ، مما يساعد على إطالة التأمل ، وإمعان النظر فى الطبيعة ، وما كان فى طبيعة حياتهم من منافسات تبعث الحروب ، وتهيج المشاعر ؛ إلى ما هو معروف من أن اللغة العربية ، لغة شعرية ، لما فيها من أساليب الكناية والمجاز والمرادفات التى تعين على القافية ؛ ولذلك انتشرت الشاعرية بين كل المتكلمين بها وإن لم يكونوا عربا ، ونبغ فى الشعر العربى شعراء أصلهم من الروم والترك واليهود والزنج والهنود ، فى الشرق والغرب ، كثيرون .

والناظر فى النثر الجاهلى ، يطالعه منه :

١ ـــ أمثال منثورة بينها كثير مما تصح نسبته إلى العرب فى جاهليتهم ، وبينها كثير مما حمل عليهم حملا . والضليع الذواقة يستطيع التفرقة بين النوعين بأيسر النظر .

٢ — وقصص ، اتفق معناه أو كاد يتفق ، وافتن الرواة ، أو - بالحرى - اختلفوا فى أساليب روايته ، مقاربين مرة ، ومباعدين أخرى . وقد قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم فى مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا ، ولعل أيام العرب كانت أخصب الموضوعات القصصية . وفى سيرة ابن هشام وغيرها : أن النضر ابن الحرث اشترى كتبا أعجمية ، فكان يحدث منها ، وكان يقول لأهل مكة : « يحدثكم محمد بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحسن حديثا منه ؛ هلموا إلىّ أحدثكم بأخبار رستم وإسفنديار والأكاسرة » .

٣ — وخطابة ؛ ولعل أشهرما وصل إلينا منها ، وأجدره بالنظر ، خطبتان ، إحداهما خطبة قس بن ساعدة الايادى ، والأخرى خطبة المأمون الحارثى ؛ والخطبتان - وإن اختلفتا أسلوبا - فقد تلاقتا موضوعا ، إذ أنهما كلتيهما تبشران بميلاد نبى وإشراق دين جديد .

فأما الكتابة ، فلم يكن للجاهليين منها حظ ؛ ذلك بأن الكتابة الفنية ، تعتمد الكتابة الخطية ، وإنما دخل الخط بلاد العرب فى عهد متأخر « أيام حرب ابن أمية جد معاوية بن أبى سفيان » ومن هنا نجم قول ابن خلدون : إن اختلاف رسم المصحف الإمام عما تقتضيه قواعد الرسم ، لم يكن إلا لعدم إجادة العرب لتلك القواعد ، لأن الخط والرسم صناعة من الصناعات الحضرية ، ولا حظ للعرب فى الصناعات ؛ وكما تعتمد الكتابة الفنية على الكتابة الخطية ، كذلك تعتمد المنطق ، أى الأساليب العقلية ، وذلك لون من ألوان الحضارة .

ولم تصبح الكتابة عربية ، إلا حين أصبحت صناعة فى أواخر الدولة الأموية ، حينما عربت للدواوين على يد جبلة بن سالم ، كاتب الخليفة هشام ابن عبد الملك ومولاه .

٤ — وسجع كهّان ، وهو فن من فنون القول ، يقصد فيه إلى إحداث أبلغ الأثر فى نفوس السائلين ، بالإغراب ، والتزام السجع ، واحتمال الوجوه المتعددة من المعانى ؛ كما يفعل متعاطو ما يشبه هذه المهنة فى عصرنا الحاضر .

* * *

إذا نظرنا نظرة عامة الى فنون النثر الجاهلى ، لم نجد له من المنزلة الأدبية ، ومن الجمال الفنى ، ما يسمو به إلى منازلة القرآن الكريم فى ميدان البيان العربى ؛ فيتحدى أصحابه إليه ؛ فالأمثال ـ على فصاحتها وإيجازها ـ تكاد تكون مركوزة فى الطباع ، لا يختص بها عرب ، دون عجم ، ولا جاهل دون عالم ، ولا رجل دون امرأة ؛ وقد رويت الأمثال مفردة ، ومجتمعة فى صورة خطب ، كما فى خطب أكثم بن صيفى وغيره ؛ فلم يكن لها ذلك المقام .

والقصص ــ على ما عرفنا من نماذجه كقصة الزباء ، والغريَّين ، وأيام العرب ونحوها ــ لا يتضمن شيئا من الحوادث غير العادية ، والروايات التى مُثل على مسرح الحياة من أمثالها الكثير ، وأسلوبه يضطرب بين الضعف والقوة مما يدل على أنه قد عملت فيه الرواية ، وتعاورته الألسنة .

وسجع الكهان ــ على الاعتراف بالقصد إلى أسلوبه ــ فيه تسخير المعنى للفظ ، وجعله تابعا له ؛ وإنما جعلت الألفاظ للدلالة على المعانى ، إلى ما فيه ــ كما قلنا ــ من الإبهام والغموض ، والثقل على الأسماع ؛ ولذلك أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من قال : « أَندِى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل » ، فقال له : « أسَجاعة كسجع الكهان ؟ ! » .

فأما الخطب ، فلا ريب أنه كان لها حظ غير قليل من السمو والعناية ، وإن كان ما نقل إلينا منها ــ على الشك فى أكثره ــ لا يرتقى إلى قوة الدليل على هذا السمو ؛ بيد أن ما ورد من لجوء الأشراف إليها بعد إسفاف الشعراء إلى التكسب بالشعر ، ومن النهضة الخطابية الرائعة فى صدر الإسلام ، التى لم تجر العادة بحدوث أمثالها بلا إرهاص ، ما يظاهر هذا الدليل ؛ ومهما يكن من شىء فإن منزلة الخطابة عند نزول القرآن تتطامن عن أن تبلغ بأصحابها إلى أن يتحدوا إلى القرآن .

ولعل هذه النواحى الضعيفة فى فنون النثر الجاهلى ، هى التى جعلت العرب يرمون الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ، والقرآن الكريم بأنه قول شاعر ، ولم يقولوا مثلا : إنه خطيب أوقاصٌ [1] .

---

(١) ص ١٩ إعجاز القرآن .

القرآن ليس شعراً ، وليس نثراً أيضاً ؛ فقد قال الباقلانى (١) : « من وجوه إعجاز القرآن أن نظمه على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ؛ وذلك : أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا ؛ وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق الخ » .

وإذا كان القرآن ليس نثرا ، كما أنه ليس بشعر ، فلماذا نرى نفى الشاعرية عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، والشعرية عن القرآن الكريم ، يستبد بالعناية ، ويستأثر بالاهتمام ؟ ! وكيف ساغ للعرب أن يسموا النبى صلى الله عليه وسلم شاعرا ، والقرآن شعرا ؟ ولماذا لم يقولوا : خطيب أو قاص مثلا ؟ !

يقول البلاقلانى (٢) : « قد علمنا أن الله تعالى نفى الشعر عن القرآن وعن النبى صلى الله عليه وسلم . . . فقال : وما هو بقول شاعر ؛ وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار من قولهم إنه شاعر وإن هذا شعر ، لا بد من أن يكون محمولا على أنهم نسبوه فى القرآن الى أن الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر الذى يتعارفونه . . . أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم فى وصفهم إياهم بالشعر لدقة نظرهم فى وجوه الكلام ، وطرق لهم فى المنطق الخ » .

ويرى بعض الباحثين أن الشعراء فى الجاهلية كانوا هم « أهل المعرفة » يعنون بذلك أنهم كانوا أعلم أهل زمانهم (٣) .

وتطلع زهير بن أبى سلمى ، وأمية بن أبى الصلت ، وكلاهما شاعر ، الى أن يكون النبى المنتظر ؛ وأسقط فى يد ثانيهما لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقال : كنت أرجو أن أكونه .

وجاء فى سيرة ابن هشام : أن الطفيل الدوسى قدم مكة ورسول الله بها ،

---

(١) وإن قالوا : أساطير الأولين اكتتبها فان مرد ذلك ليس إلى السمو البيانى ، بخلاف الشعر .

(٢) صـ ٢٨ . (٣) فجر الأسلام .

فحذره رجال من قريش من سماع النبى ، حتى لا يتأثر بقوله : قال الطفيل . فمازالوا بى ، حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ، ثم قلت فى نفسى : واثكل أمى ! والله إنى رجل لبيب شاعر ، ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؛ فإن كان الذى يأتى به حسنا ، قبلته ، وإن كان قبيحا ، تركته ؟ ! » .

وفى حديث الوليد بن المغيرة حين قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم إنه شاعر : « لقد عرفت الشعر ورجزه وهزجه وقريضه ، فما هو به » .

* * *

والشعر فى الأدب الجاهلى ، هو الفن الوحيد الذى نقل إلينا الكثير الطيب منه ، على ما كان عليه فى الجاهلية ؛ معناه وأسلوبه فرسا رهان ، فى الاهتمام والعناية ، وفى التميز والجودة ، وفى التنوق والجمال ؛ وفى الفصاحة والبلاغة ؛ وفى كل ما تتسامى إليه الطاقة البشرية من البيان الرفيع .

لهذا عنى المسلمون أول ما عنوا ، فى إثبات الإعجاز ، بالشعر الجاهلى ، ينقدونه نقد الصيرفى الحاذق ، ويجلون محاسنه ، ويكشفون مساويه ، ويوازنون بينه وبين القرآن الكريم فى النظم ، وفى المعانى .

ولهذا ، لجأ ابن عباس إلى الشعر الجاهلى فى الإجابة عن أسئلة نافع بن الأزرق - إن صح هذا الحديث - .

ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« عليكم بديوانكم لا تضلوا » قالوا : وما ديواننا ؟ قال : « شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم » . وذلك أنه قرأ وهو على المنبر ، قوله تعالى : « أفأمن الذين مكروا السيئات ، الى قوله : أو يأخذهم على تخوف » ثم قال للصحابة رضوان الله عليهم : ما تقولون فيها ؟ وغرضه السؤال عن التخوف ؛ فسكتوا ؛ فقام شيخ من هذيل ، فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص . فقال عمر : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، قال شاعرنا أبو كبير ، يصف ناقة :

تَخَوَّفَ الرحل منها تامِكاً قَرِداً[1] كما تخوف عُودَ النبعة السَّفَنُ

ولهذا ، عنى الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » بشرح معلقة امرىء القيس ، ونقدها نقدا مفصلا ، وبيان فضل بيان القرآن عليها ، ووجّه مارمى المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، من أنه شاعر وأن القرآن شعر ، بأن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره ، وإذا قدر على صنعة الشعر ، كان على ما دونه - فى رأيهم وعندهم - أقدر ، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب .

وحسب الشعر شرفا ، أنه كان سلاحا من أسلحة الجهاد فى سبيل الله ، يحمل لواءه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشيخ شعراء الإسلام ، حسان ابن ثابت ، ويحدو فى ظلاله كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة : رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

وبعد ، أفلا يسوِّغ لى كل أولئك أن أقول : إن الشعراء ، هم الذين تحداهم القرآن الى أن يأتوا بمثله ، وإن من سواهم من العرب كانوا لهم تابعين ؟ ؟

الدنيا

غرى الناس بذم الدنيا ، وكان أولى بهم أن يذموا غرورهم ، فإنها وإن كانت محببة بنعيمها ، فهى واعظة بأحداثها ، ولكن الإنسان كثيرا ما يتجاهل الحقائق ، فيقع فى البوائق . وقد أصاب أبو العتاهية فى قوله :

كلنا نكرنا الملامة للدنيا وكل بحبها مفتون
والمقادير لا تنالها الأوهام لطفا ولا تراها العيون
ويمر الفتى وفى كل يوم حركات كأنهن سكون

وقال مبكتا وقد أصاب :

قد أجمع الناس على ذمها وما إن ترى منهم لها تاركا

(١) يصف ناقة أثر الرحل فى سنامها فأكله وتنقصه كما يتنقص السفن أى المبرد أو القدوم عود النبعة الذى يعمل منه القوس .

مفردات فلسفية

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

اللغة ، باعتبارها أداة للخطاب والفهم : كائن حيٌّ له أعضاء من الألفاظ والمفردات والتعابير ، كما لكل كائن حي آخر أعضاؤه المختلفة الخاصة به . وهذه الألفاظ وما إليها ، في دلالة كل منها على معنى خاص أريد منها ، ينالها ما ينال كل حي من تغير وقوة وضعف قد ينتهي أحيانا بالموت .

ومن الخطأ الواضح أن نعتقد أن اللفظ له معنى واحد لا يعدوه ، يراد به ويدل عليه في الأزمان والبيئات المختلفة ، وفي كل نواحي العلم والمعرفة . هذا الثبات وعدم الحركة ، على نحو معين من الأنحاء والأوضاع ، أيا كان طبيعة هذا النحو أو الوضع ، ليس من أمارات الحياة ، بل من أمارات الموت وعلامته ؛ فربما كان أهم خاصة من خصائص الحياة الحركة والتغير من حال إلى حال .

وكان من هذا ، أن نجد اللفظ الواحد تتعدد معانيه وتختلف ، تابعة في ذلك اختلاف البيئة من الزمان والمكان . كما أن اللفظ الواحد ، في البيئة الواحدة زمانا ومكانا ، قد يدل على معان متعددة حسب تعدد فروع المعرفة التي يدخل فيها .

كل هذا واضح لا خفاء فيه ، ولا أراني بحاجة لضرب الأمثال الكثيرة له ؛ وإذاً ، فلنكتف منها بالقليل .

١ — لفظ « خليفة » : يطلق في الأصل على كل من خلف غيره في شيء ما . ولما جاء الإسلام ، ولحق الرسول الكريم بربه ، صار هذا اللفظ لا يطلق إلا على خلفائه دون سواهم .

٢ — لفظ « كاتب » : معروف أن المراد به هو من يكتب شيئا أى شىء ، لنفسه أو لغيره . إلا أنه تغير فى دلالته حتى صار فى فترة من فترات ضعف الدولة الإسلامية بمعنى الوزير . والآن ، صار معناه العالم المنشىء ذا الأسلوب الجيد .

٣ — و « الحاجب » : كان - ولايزال - يدل على من يحجب غيره من السادة أن يصل إليه كل من يريد . إلا أنه فى زمن مّا من الماضى كان له أيضا معنى الوزير .

٤ — و « الحكومة » : معناها فى الجاهلية الفصل فيما يكون من خصومات والقضاء فيها ، وبمثل هذا جاءت فى القرآن فى سورة النساء « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ؛ « فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرجاً مما قضيت » . إلا أن هذا الحرف صار يدل الآن على ما نعرف من الحكومة السياسية التى تدير بلدا من البلاد .

٥ — ولفظ « الخِطة » : معناه فى القاموس : الأرض التى تنزلها لم ينزل بها نازل قبلك . لكنها استعملت فيما بعد ، لعلاقة غير ظاهرة ، بمعنى المنصب ؛ ومن ذلك قول ابن خلدون : « الوزارة أم الخطط الإسلامية والرتب الملوكية » .

* * *

وقد يترتب على عدم معرفة اختلاف اللفظ الواحد فى مدلوله ، بسبب اختلاف الزمان والمكان والكاتب المستعمل له ، من سوء الفهم وانغلاق المعنى شىء كثير يستأهل منا أن نسمع سماع تقدير وإجابة لكونفوشيوس حكيم الصين حين كان يقول فى إلحاح بوجوب تحديد الألفاظ . ولعل أثمن ما خلف لنا سقراط من تراث فلسفى هو محاولاته الناجحة فى تحديد المفاهيم والمعانى الكلية .

وإذا كان تحديد الألفاظ والتعابير ، وبخاصة ما كان منها اصطلاحيا ، واجبا فى أنواع المعارف الذائعة بين الناس المألوفة كثيراً لهم ، فإن هذا التحديد أوجب فيما يتصل بالفلسفة وما إليها بسبيل ؛ ذلك ، بأن كثيراً من الناس ، حتى ممن يرون أنهم بلغوا من الثقافة حظا وافرا ، يمرون بكثير من الألفاظ والمصطلحات

فى الفلسفة والمذاهب الاقتصادية والسياسية التى نقرأ كثيرا عنها هذه الأيام ، دون أن يعرفوها على التحديد ؛ ولهذا يكتفون منها بمعرفة غامضة عدمها خير منها ؛ وقد يزيد فى الأمر أنه يكاد يكون لكل فيلسوف اصطلاحات خاصة به تتطلب معجما لضبطها وتحديدها .

لذلك كله رأيت من الخير أن أقف جانباً من وقتى على تحديد بعض المفردات الفلسفية ، ثم أدعها تنتشر وتذيع بين الناس عن طريق مجلة من المجلات العلمية التى تعنى بالدراسات الجدية . ولعل هذه البحوث تجعل إلى حد ما من مجلة الأزهر إن تفضلت بإذاعتها ، مجلة جامعية بالمعنى الصحيح

وهذا العمل ، على ما به من نصب وما يتطلب من جهد ، أخذت نفسى به ورُضتها عليه ، وعند الله الجزاء . وحسبى أن أذكر أنى قد أقضى أياما فى تحديد طائفة قليلة من تلك المفردات ؛ أقضيها فى بحث وتنقيب ، وتجوال بين المعاجم الفلسفية ، العربية منها والغربية ، حتى يستقيم لى أخيراً الأمر ويظهر وجه الصواب . وسبيلى أو خُطتى ، مقارنة ما قاله الفلاسفة والمفكرون المسلمون فى تحديد المصطلح ، بما كان من ذلك من إخوانهم الغربيين . بذلك ، فيما أعتقد ، يصبح المصطلح واضحاً محدوداً ، وقريب التناول حتى لمن لم يشد شيئاً من الفلسفة ، وإن كان كل إنسان هو — كما يقال — بطبيعته وبما هو إنسان ، فيلسوف .

وعمادنا الأول فى المعاجم الأجنبية معجم لالاند La lande فى طبعته الأخيرة عام ١٩٤٧ ، الذى عاونه فيه كثير من أعلام الفلسفة والفكر من الأمم المختلفة . وفى الناحية العربية نعوّل كثيرا أولا على كتابات فلاسفة الإسلام أنفسهم ، ثم على أصحاب المعاجم المعتبرة ، مثل : التعريفات للجرجانى ، ومفاتيح العلوم للخوارزمى ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى .

والآن نمشى الى ما قصدنا ، فى خُطى بفضل الله ثابتة وإن كانت وئيدة ؛ وبالله العون ، ومنه التيسير والسداد ؟

حول ميراث القاتل

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
قاضى محكمة سمالوط الوطنية

نشرت مجلة الأزهر الغراء بعدد جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ فتوى للجنة الفتوى بالجامع الأزهر ، ذكرت فيها أن الرجل لا يرث زوجته إذا ضربها «بجازية طنبور» متى ترتبت وفاتها على هذه الإصابة ولو كان لم يقصد قتلها ؛ وقد كيفت جريمة الزوج بأنها قتل عمد عدوان « لما نص عليه الفقهاء من أن القتل العمد لا يشترط فيه قصد إزهاق الروح ، بل المناط أن يقصد القاتل ضربه بآلة يقتل بها غالبا ، وفى مجرى العادة ؛ فناطوا الحكم بمظنة قصد الإزهاق المذكور ، فيدور الحكم على هذه المظنة ، ولا ينظر الى تحقق ذلك القصد » .

ونرى ـ قبل التعرض لمناقشة الفتوى ـ أن نبين معنى القصد الجنائى فى القانون المصرى ، وفى الشريعة الإسلامية ، وكيف يثبت هذا القصد :

يفرق القانون المصرى بين ثلاثة أنواع من الجرائم يترتب عليها موت المجنى عليه ، وهذه الجرائم هى : القتل العمد ، والضرب المفضى الى الموت ، والقتل الخطأ . ومعيار التفرقة بين كل جريمة من هذه الجرائم هو قصد الجانى ؛ ففى جريمة القتل العمد لا بد من أن يقصد الجانى قتل المجنى عليه ؛ أما إذا قصد مجرد الاعتداء عليه ونشأ عن ذلك وفاته فإن الجريمة تعد جريمة ضرب أفضى الى موت ؛ وإذا كان لم يقصد الاعتداء عليه إطلاقا ونشأت وفاة المجنى عليه بإهمال أو خطأ من الجانى فإن الجريمة تعتبر قتلا خطأ . ونذكر فيما يلى نصوص قانون العقوبات المصرى فى هذا الموضوع .

م ٢٣٠ — كل من قتل نفسا عمدا مع سبق الإصرار على ذلك أو الترصد يعاقب بالإعدام .

م ٢٣٦ ـ كل من جرح أو ضرب أحدا عمدا أو أعطاه مواد ضارة ولم يقصد من ذلك قتلا ولكنه أفضى الى الموت ، يعاقب بالأشغال الشاقة أو السجن من ثلاث سنوات الى سبع . وأما إذا سبق ذلك سبق إصرار أو ترصد فتكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة أو السجن .

م ٢٣٨ — من قتل نفسا خطأ أو تسبب فى قتلها بغير قصد ولا تعمد بأن كان ذلك ناشئا عن رعونة، أو عن عدم احتياط وتحرز، أو عن إهمال وتفريط، أو عن عدم انتباه وتوقٍّ، أو عن عدم مراعاة واتباع اللوائح، يعاقب بالحبس أو بغرامة لا تتجاوز مائتى جنيه مصرى.

وقد اختلف فقهاء الشريعة فى بيان أقسام جريمة القتل؛ فمذهب أبى حنيفة أن القتل ينقسم الى عمد وشبه عمد، وخطأ وما جرى مجرى الخطأ، وقتل بالتسبب. وفى مذهب أحمد والشافعى ينقسم الى عمد وشبه عمد وخطأ. وفى مذهب مالك وعند أهل الظاهر ينقسم الى عمد وخطأ. ولما كان هذا البحث لا يتسع لبيان المقصود من معنى كل قسم وشرح أحكامه [1] فإننا نكتفى ببيان معنى القصد الجنائى فى القتل العمد لمعرفة هل يشترط لاعتبار القتل عمدا أن يقصد الجانى إزهاق روح المجنى عليه، أم يكفى أن يعتدى عليه عمدا فيموت بسبب هذا الاعتداء؟.

يبدو من الرجوع الى كتاب حجة الله البالغة أن القصد الجنائى فى جريمة القتل هو نفس القصد الجنائى بالمعنى المفهوم فى القانون المصرى؛ فهو يعرِّف القتل العمد بأنه هو الذى يقصد فيه إزهاق الروح بما يقتل غالبا، ولكن المسألة ليست بهذه السهوله، فإن الراجع إلى كتب الفقه يجد أقوالا متضاربة، بل وإن التضارب موجود فى كتب المذهب الواحد.

ففى مذهب أبى حنيفة يعرِّف صاحب الهداية القتل العمد بقوله « العمد ما تعمد ضربه بسلاح أو ما جرى مجرى السلاح ». وفى ابن عابدين « وقال فى المجتبى: إن قصد القتل ليس بشرط لكونه عمدا. وعبارة الجوهرة: العمد ما تعمد قتله بالحديد ». وجاء فى البدائع « يجب أن يكون القاتل متعمدا فى القتل قاصداً إياه، وأن يكون القصد عمدا محضا ليس فيه شبهة العدم، فيخرج العمد بضربة أو ضربتين على قصد القتل أنه لا يوجب القود ».

وإذا رجعنا إلى مذهب مالك وجدنا فى شرح الدردير الكبير: « أن العمد هو أن يقصد الجانى ضرب المجنى عليه بمحدد أو مثقل، وإن بقضيب وسوط ونحوهما مما لا يقتل غالبا، وإن لم يقصد قتلا؛ وهذا إن فعله لعداوة أو غضب بغير تأديب؛

(١) من أراد معرفة معنى كل قسم فليرجع الى كتابنا « القصاص فى الشريعة الاسلامية » من ص ٣٦ الى ص ٧١ والى المراجع التى أشرنا إليها.

وأما إن كان على وجـه اللعب أو التأديب فهـو من الخطأ إن كان بنحو قضيب لا بنحو سيف » . ثم يأتى بعد ذلك فى نفس الكتاب ما يناقض ما تقدم إذ يقول : « وكالضرب فى وجوب القصاص الخنق ومنع الطعام أو الشراب إذا قصد الموت فمات المجنى عليه ، فإن كان القصد مجرد التعذيب فالدية » . وعلق على هذا الدسوقى فى حاشيته فقال : تقدم أن قصد القتل ليس شرطاً فى القصاص ، وحينئذ فيقتص ممن منع الطعام أو الشراب ولو قصد بذلك مجرد التعذيب .

وعند أحمد عُرف القتل العمد فى الشرح الكبير بأنه : قتل الإنسان بمـا يغلب على الظن موته به . ومع ذلك عرف المؤلف نفسه شبه العمد بأنه قصد الجناية بمـا لا يقتل غالبا فيقتل ، إما لقصد العدوان عليه ، أو لقصد التأديب له ، فيسرف فيه ، كالضرب بالسوط والعصا والحجر الصغير أو بلكز اليد .. فهو شبه عمد إذا قتل لأنه قصد الضرب دون القتل . وجاء فى كشاف القناع أنه يشترط فى القتل العمد القصد ، فإن لم يقصد القتل فلا قصاص . وفيه أيضا وفى شرح المنتهى أنه لا قصاص إن لم يقصد القتل أو قصده بمـا لا يقتل غالبا .

وفى مذهب الشافعى : جاء فى كتاب المهذب أن القتل العمد هو قصد الإصابة بمـا يقتل غالباً . وجاء فى متن أبى شجاع أن العمد هو أن يعمد إلى ضربه بمـا يقتل غالباً ويقصد قتله بذلك الشىء . وجاء فى شرح ابن قاسم الغزى وحاشية الباجورى عليه : أن الراجح عدم اشتراط قصد القتل .

وعند أهل الظاهر : العمد هو الضرب بما قد يمات من مثله وقد لا يمات من مثله.

وإذا كانت النصـوص الفقهية متضاربة على النحو السابق بيانه ، فهل من الممكن أن نستخرج قاعدة عامة فى هـذا الموضوع ؟ الذى يلوح لنا هو أن قصد القتل لا بد من توافره لتمام جريمة القتل ، عند أحمد والشافعى وأبى حنيفة . وسبب الاختلاف المـذكور فى كتب الفقه ناتج عن بحث كيفية إثبات القصد الجنائى . وعند مالك وأهـل الظاهر : لا يلزم أن يكون الجانى قد أراد قتل المجنى عليه ، بل يكفى أن يكون هناك اعتداء سبب وفاة المصاب حتى يمكن وصف القتل بأنه عمد . ويستثنى فى مذهب مالك حالة قتل الوالد لولده ؛ ففى هذه الحالة لا بد من توافر نية القتل . والسر فى هـذا الاستثناء هو أن الإمام مالـكا يخالف جمهور الفقهاء فى إيجابه القصاص على الوالد إذا قتل ولده .

بين الشعر البدوى والشعر الحضرى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عونى
المدرس بكلية اللغة العربية

ترى رب الشويهة والبعير لا يطالع من دواوين الشعر غير ما ينظمه الزهر النضر، ولا يتذوق من معانيه سوى ما توحى به الطبيعة السافرة، ولا يسمع من أوزان العروض غير ما ترجّعه الكروان فى أغاريدها، وما تردده الصوادح على أفنانها، وتهيج ربيب الفلا بسمة الربيع، وتغريه خطرة النسيم العليل، فيتغنى بما تمليه عليه القريحة الصافية، ويرسله شعرا كريما.

أجل: إنه لا ينطبع فى مخيلته سوى صفحة الغدير النمير، فتجرى على لسانه شعرا زلالا سائغا للشاربين، ولا يرى غير الأزاهير الغضة فيقطف من قريحته على مثالها، فينظمه شعرا فاتنا؛ ولا ينشق إلا الهواء الطلق، فيرسل معه روحه يسبح فى فضائه، إذ ليس ثم من يدون نفثاته الحارة سوى الأثير. هذا إذا طرب.

فإذا عجب فالسماء والصحراء سفراه البديعان، وحسبه منهما صحيفتين حاويتين كل فن من قريض النجم المتألق، والأفق المترامى الأطراف، فيودعه صدره، ثم يخرجه من أنفاسه شعرا زاهرا فتيا.

وإذا ما غضب، فحسبه الخنجر والحسام أستاذين يبثان فيه روح الشجاعة والحماس، ويودعانه لهيب الحمية، والقوة الإرادية، فيبرز قلبه الصلد الأبى، ويحيله شعرا رهيبا قويا.

ذلك هو شاعر الفطرة، وابن الطبيعة الكريم: فهو لا يقول إلا ما يرى، ولا ينظم إلا ما يحس، لا يعرف سوى الشجر والحجر، ولا يستظل بغير الخيام والوبر، ولا يشهد غير الوحش والإبل، ولا يرى سوى الرمل والطلل،

ولا يعهد من الفراش غير كثبان الرمل ، ولا من المطايا سوى متون العيس ، ولكنه — مع ذلك — يدرك فيما يرى ويلمس ما لا يدركه ابن لندن وباريس .

أين هذا من الحضرى الذى يكب على الأسفار ليل نهار ، باذلا نفسه فى حفظ القصائد - القديم منها والحديث - ويجيد بإتقان فنون البلاغة والأدب ، ويلوك لسانه جاهدا بتفاعيل العروض ، ويتعب قريحته طوال الأيام ينمق الألفاظ متكلفا ، وينظم من غير أن يهيجه منظر بهيج أو يفجعه حادث أليم : بل ينظم لغيره كئيبا كان أو طروبا ؛ فتراه يبسط أسارير وجهه تارة ، ويقطب جبينه أخرى ، فيذيب روحه ، ويلفظ كبده قطعا يصوغها قوافى واهيات !.

تراه يصف لك السماء فى الليلة الليلاء وهو جالس إلى مكتبه فى غرفته لا يرى مشهدها ولا يشهد رواءها ؛ أتراه يوفيها حقها من الوصف ؟

وتراه يتحمس فيمثل القِراع فى حومة الوغى ، وهو لا يعرف عن ذلك سوى ما يرويه الراوون ، أو ما تمليه عليه الأنباء ، وقد يكون جبانا يفرق من صفير الصافر !.

وتراه يتغزل ويشبِّب ، وهوِ بَعْدُ ما شَفَّه وجد ، وما انتابته لوعة ، وما شق الهوى إليه طريقا ، وهكذا . . .

فليت شعرى أيكون مثل هذا شعرا منبعثا من روح كريم ؟ كلا . . . إنها لألفاظ محبرة ترسلها التقاليد ، وهى لعمرى لا تشف عن شعور هاج صاحبه فطرب وأطرب ، أو بكى فأبكى .

وكم يستبكى الدمن والأطلال الدارسة ، ويذكر أيامها الخوالى ، وهو رهن الدور أو القصور ، لم يشجه الربع المحيل . وكم يصف الذلول ويترنم بها حادياً ، وهو بعد لم يتسنم سنامها ، ولم يقد زمامها . فهل شعره إلا نقود مزيفة ، لا تلبث أن ينقدها صيارفة الأدب ، فينبذوها وراءهم ظهريا ؟ !

أما البدوى ، فيقف أمام الربوع الخاوية ، والأطلال العافية ، فيحييها ويناجيها من قلب كليم ، ويتوجع عندها نادباً ، ثم يخيل لمن يعى نشيده أنه يصف روضة غناء زاهية بأنواع الأزاهير ، ذات الطيور الصوادح ، تردد ألحان ذيالك

الشويعر . هـذا موقفه على الدمنة . ويغازل ابن الفطرة محبوبته فيكاد شعره فيها يسيل رقة وعذوبة .

وإلا فماذا يعجبنا مثلا فى المعلقات العربية ، ونحن فى زمن يختلف كثيرا عن زمن الجاهلية ؟ فأى جمال فى وصف امرىء القيس لحادثته مع عنيزة وصواحباتها فى دارة جلجل إذ يقول :

ألا رب يوم لى من البيض صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعـذارى مطيتى فياعجبا من كورها المتحمل

إلى أن قال :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مُرجلى
تقول وقـد مال الغبيط بنامعا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت لهـا سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى من جناك المعلل الخ

وأية روعة فنية فى وصف زهير للهوادج قد ظعنت فيها النسوة ، وأنهن سرن عن يمين القنان والحزن ، وأن بهذه القنان كثيرا من الأصدقاء والأعـداء ، حيث يقول :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم
جعلن القنان عن يمين وحزنه وكم بالقنان من محل ومحرم
علون بأنمـاط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكهة الدم

وأى أناقة ولطف فى منظر واد موحش قفر قد عبرته ناقة موثقة الخلق ، سريعة الجرى ، كما يقول النابغة :

ومهمه نازح تعوى الذئاب به نائى المياه عن الوراد مقفار
جاوزته بعلنداة مناقـلة وعر الطريق على الأحزان مضمار الخ

وأية رشاقة وبراعة فى وصف واقعة عمرو بن كلثوم مع ابن هند الملك ؟ وغيرها وغيرها .

ولمـاذا نهتم بدرس هاتيك القصائد اليوم وقد مات الكثير من ألفاظها ، وسدل الستار على معظم المناظر والاماكن التى قيلت فيها ، وأنشئت من أجلها ؟

هل نعجب لغير تلك العواطف التى تمثل لنا أخلاق الإنسان الفطرية ، والتى يشترك فيها ابن الجاهلية القديمة ، وابن المدنية الحديثة على نسب متفاوتة ؟

أما الحضرى فهو : على ما يرى من الرياحين الفيحاء ، والقصور الشماء ، والأنهار الجارية ، والأشجار الفارعة ، ذات القطوف الدانية ؛ على ما يشاهد من البواخر تمخر عباب البحار ، والقطارات تطوى فسيح البيد ، والطائرات تسبح فى مجارى الأفلاك ، والغائصات تغوص فى مسابح الأسماك ؛ على ما يسمع من تضاعيف الأوتار الناغمة ، والألحان المشجية ؛ على ما يرى ويسمع ، ويلمس ، ويشم ، ويذوق ، لا يستطيع أن يجارى البدوى الساذج فى ميدان الشعر والشعور.

وهل أتاك حديث ابن الجهم إذ خاطب الخليفة مادحا فقال :

أنت كالكلب فى حفاظك للود وكالتيس فى قراع الخطوب
أنت كالدلو لاعدمناك دلوا من كبير الدلى طويل الذنوب

فهزأ به الحاضرون ، واعتذر عنه المتوكل الخليفة العباسى بأنه بدوى لم يشاهد غير ما ذكر ، ثم لما تمدن أنشأ قصيدته التى يقول فى مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

لا جرم أنك ترى على البيتين السابقين مسحة الفهاهة التى تشف عن بلادة ناظمهما ، لاسيما فى تشبيه الخليفة بالكلب أولا ، وبالتيس ثانياً ؛ ولكن ابن الجهم نظر الى الحقيقة عينها ، فترك التكلف جانباً تمشياً مع طبيعته وسذاجته ، ومدح المتوكل بإخلاص من ضمير طاهر ، إذ أنه أحرز الكلب صفات لو اتصف بها الممدوح لكان غاية الغايات .

وكثيرا ما يصف الشعراء ممدوحيهم بالأسد ، وهو غاية الوصف بالشجاعة ، وليت شعرى : أى فرق بين التشبيه بالسبع ، والتشبيه بالكلب ؟ أرأيتك لولا العادة واعتقاد المسلمين بنجاسة هذا الحيوان الوفى الألوف لعد خيرا من ذلك الوحش الضارى الذى يفخرون بالتشبيه به ؟

والبيتان - على ما فيهما من الضعف - لا يبخسان حق ناظمهما ؛ فإن القريحة التى أرسلتهما هى التى أنشأت القصيدة الرائية المذكور مطلعها سابقا .

المعرض والأزهر

للتاريخ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير دار الكتب الأزهرية

أقامت المملكة المصرية فى عام ١٩٤٩ معرضها الزراعى الصناعى العام السادس عشر ، وتفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول بافتتاحه فى أول مارس من هذا العام ، كما تفضل بزيارته مرة ثانية . ودُعى الأزهر للاشتراك فيه بوصفه أقدم جامعة علمية إسلامية ، فلبى الدعوة ، وأنشأ له قسما خاصا ولكنه كان صغيرا نظرا لضيق المكان الذى أقيم عليه المعرض . وقد تفضل

هذا ولم يكن ابن الجهم منفردا بما ذكرنا عنه ، بل ذلك شأن أكثر شعراء البادية ؛ لا ينقلون إلا عن الطبيعة ، ولا ينظمون غير حديث العاطفة .

وهل يؤبه لغير تلك الطبيعة التى لا تنفك تملى علينا من حديثها ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

تانك هما العاطفة الشعرية والطبيعة الإنسانية ، كانتا ولا تزالان مصدرا من مصادر الجمال يحنو بنا إلى الغابر القديم ، حنو المرضعات على الفطيم .

ولهذه العاطفة — كما قلنا — فعلها فى كل الأمم حتى التى سارت شوطا بعيداً فى مضمار الحضارة ؛ ولذلك نرى الغربى الحديث يهتم بشعر الأقدمين، ويترنح لجمال العاطفة فيهم .

وعلى الجملة : إذا نظرت الى الشعر الغنائى أو الوجدانى ، وحللت أسباب الجمال فيه ؛ ذلك الجمال الخالد الذى يمازج النفس ، ويثير العاطفة — وجدته راجعا إلى العواطف الفطرية المشتركة بين الأمم فى مختلف العصور ؛ وإن لنا فى الشعر العربى منه ما نفاخر به على مدى الأعوام والدهور .

جلالة الملك وشرف الأزهر بزيارة هذا القسم ، وكان فى استقباله به فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ووكيل الجامع الأزهر ، وأبدى جلالته اغتباطه بما شاهده فيه ، وتفضل حفظه الله فشمل بعطفه السامى البعوث الاسلامية الوافدة الى الأزهر ، فأمر بتحسين حالتهم المالية فورا . فنفذت المشيخة هذه الإشارة الكريمة .

وقد أشرف على إعداد هذا القسم فضيلة وكيل الجامع الأزهر بالاشتراك مع فضيلة سكرتير الجامع الأزهر ، وكان إعداد هذا القسم على الطريقة الآتية :

١ — ألف فضيلة الأستاذ الشيخ أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر نبذة قيمة ألم فيها بتاريخ الجامع الأزهر ، وأفاض بوجه خاص فى بيان وجوه الإصلاح التى تمت فى الثلاثين سنة السابقة لتاريخ المعرض ، وطبعت تلك النبذة بمطبعة الأزهر ، ووزعت فى المعرض وغيره ، وترجمت الى اللغة الانكليزية لتكون مرآة للأزهر فى نظر العلماء الأجانب .

٢ — اشتركت مكتبة الأزهر فى الإعداد للمعرض ، ورأت أن تعرض بعض المخطوطات النادرة القديمة من المصاحف وغيرها ، وكان الاتجاه أن تعرض بعض المخطوطات فى الفنون التى يظن بعض الناس أنها غريبة عن الثقافة الأزهرية كالطب والفلك والجبر وغيرها من الفنون ، وقد عرض قليل من الكتب فى هذه العلوم نظرا لضيق المكان .

٣ — رئى اشتراك الكليات والمعاهد فى هذا المعرض ، بعرض نشاط العلماء العلمى الممثل فى مؤلفاتهم ، وقد بحثت بعض مؤلفاتهم ، وبخاصة رسائل العلماء الحاصلين على درجة الأستاذية ، واختيرت بعض رسائلهم لعرضها بالمعرض .

٤ — رئى عرض ما يمثل نشاط طلاب الأزهر الرياضى بالمعرض ، وعرضت صور تمثلهم فى ميدان هذا النشاط .

٥ — بعد البحث فيما ينبغى عرضه بالمعرض ، استقر الرأى على عرض الأشياء الآتية :

(١) ديوراما « صورة مجسمة » للمدينة الأزهرية تشمل الجامع الأزهر ، والإدارة العامة ، قاعة المحاضرات ، إحدى الكليات الثلاث .

(٢) خريطة للقارات الخمس والجامع الأزهر تخرج من منارته الكبرى سهوم ملونة بألوان أربعة : (ا) اللون الأخضر للسهم الخارج من المنارة الى البلاد الوافد منها طلاب البعوث للتعلم فى الأزهر . (ب) اللون الأحمر للسهم الخارج من المنارة الى البلاد الوافد اليها علماء من الأزهر للتعلم فيها . (ج) اللون البنفسجى للسهم الخارج من المنارة الى مراكز المبعوثين من علماء الأزهر لنشر الثقافة الإسلامية والعربية فيها . (د) اللون الأصفر للسهم الخارج من المنارة الى مراكز الثقافة والمعاهد التى يشرف عليها الأزهر ويمدها بمعونته .

٣ — صور بعوث الطلاب وهى من :الملايو ، الهند ، إندونيسيا ، القوقاز ، العراق ، الكردستان الشركسى ، سوريا ، تركيا ، الحبشة والصومال والأيرترية ، الجبرت ، أوغندا ، جنوب السودان دارفور ، سنار ، شمال السودان ، طرابلس الغرب ،تشاد ، السنغاليين ، من سيراليون وغيرها .

٤ — رسم بيانى يبين أولا : عدد العلماء بعد تنظيم الامتحانات بأول قانون سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨٧٢ م إلى سنة ١٩٤٨ .

ثانيا : عدد الطلاب من سنة ٩٨٨ م إلى سنة ١٩٤٨ م

ثالثا : ميزانية الجامع الأزهر والمعاهد الدينية من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٤٨

رابعا : المتخرجين فى إجازة التدريس من كلية اللغة العربية ، وفى إجازة القضاء الشرعى من كلية الشريعة ، وفى إجازة الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين ، وفى العالمية من درجة أستاذ .

٥ — بيان بنهضة البحث العلمى والتأليف فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول ، يشتمل على ٥١٧ مؤلفا مخطوطا موضح به اسم الكتاب واسم مؤلفه ، وقد عرض منها خمسة كتب وضع فى وسطها صورة للمغفور له الملك فؤاد .

٦ — بيان بنهضة البحث العلمى والتأليف فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، يشتمل على ١١٦ مؤلفا مخطوطا موضح به اسم المؤلف واسم مؤلفه ، وقد عرض منها أربعة كتب وضع فى وسطها صورة لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول .

٧ — صورة لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق وهو يستمع فى ذكرى جده محمد على بمسجد القلعة .

٨ — صورة بعض شيوخ الأزهر الراحلين وكبار علماء الأزهر ، وصورة حضرة صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الحالى ، وبيانها كالآتى :

صورة للمرحوم الشيخ سليم البشرى ، صورة للمرحوم الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى ، صورة للمرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى ، صورة للمرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، صورة للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، صورة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر الحالى . وأما صور كبار العلماء الأزهر فهى : صورة للمرحوم الشيخ محمد عبده ، وصورة للمرحوم الشيخ حسن الطويل ، صورة للمرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعى .

٩ — مرصد فاكى أهداه المغفور له إسماعيل باشا الفاكى سنة ١٣١٦ ﻫ سنة ١٨٩٨ م إلى الجامع الأزهر ، ويستعمل كوسيلة إيضاح فى دراسة الفلك لطلاب الأزهر .

١٠ — المصاحف :

(ا) مصحف شريف مكتوب بقلم ثلث كتبه على بن أمير حاجب سنة ٧٣٢ﻫ ووقفه الأمير أقبغا الأوحدى على مدرسته بجوار الأزهر سنة ٧٤٠ ، ويمتاز هذا المصحف باشتماله على مباحث علمية تتعلق بالقرآن الكريم ، ففيه بيان بعدد جلالات القرآن العظيم ، وسوره ، وحروفه ، وسجداته ، وبيان اصطلاحات القراء وغير ذلك .

(ب) ربعة قرآن كريم ، مجزأة ثلاثين جزءا ينقصها الجزء الأول والتاسع والعشرون ، وخطها قديم ، وفى أول كل جزء منها صفحتان مذهبتان ، وقفها المقر السيفى أقبغا على مدرسته بالجامع الأزهر « المكتبة الأزهرية الآن » التى انتهى من بنائها سنة ٧٤٠ ﻫ وقد وضعت فى صندوق أثرى باسم السلطان الناصر محمد ابن قلاون .

(ح) مصحف شريف مكتوب بالخط الكوفى من أوائل القرن الرابع الهجرى على رق غزال .

(د) مصحف شريف بالقلم الثلث ، وأسماء السور فيه وفواصل الآى محلاة بالذهب ، وعدد أوراقه ٤٣١ ورقة .

١١ — غريب الحديث لابن سلام ؛ وهو العلامة الفقيه المحدث أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادى المولود فى هراة سنة ١٥٧ هـ - سنة ٧٧٤ م ، والمتوفى بمكة المكرمة سنة ٢٢٤ هـ سنة ٨٣٩ م روى عنه أنه قال : « إنى جمعت كتابى هذا فى أربعين سنة ، وربما كنت أستفيد الفائدة من الأفواه فأضعها فى موضعها ، فكان خلاصة عمرى » كتب سنة ٣١١ هـ .

١٢ — فنون - مجموعة رسائل السيوطى ، وهو الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى الشافعى المولود سنة ٨٤٩ هـ سنة ١٤٤٥ م والمتوفى سنة ٩١١ هـ سنة ١٥٠٥ م كتبها بخط يده فى جملة فنون من أهمها : رسالة فى الطب ، وتصدير ألقاه يوم جلوسه للتدريس لنيل الإجازة العلمية ، بجامع شيخوه بالقاهرة سنة ٨٦٧ هـ وقد كان فى الثامنة عشرة من عمره .

٦ — انتدب اثنان من العلماء بمساعدة بعض الخدم لإرشاد الزائرين الى مايحتاجون اليه من المعلومات فى القسم الخاص بالأزهر طوال مدة المعرض . وقد ذكر المندوبان أن معروضات الأزهر لقيت ارتياحا وقبولا من زائرى المعرض ، وخاصة الطبقات المثقفة منهم .

٧ — نجح القسم الخاص بالأزهر فى المعرض نجاحا باهرا ، حتى قال بعض المسئولين : إن معروضات الأزهر ، وما كان فيها من طرافة ، ولمالها من القيمة التاريخية والعلمية ، كانت من أهم العناصر فى نجاح المعرض العام .

وقد نال الأزهر جائزة من جوائز الشرف الممتازة التى وزعت بالمعرض ، تقديراً لقيم المعروضات وجهود العارضين ؟

باب الأسئلة والفتاوى

نقل الدم وحاسة البصر

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أتشرف بأن أطلب بيان حكم الله تعالى فى هاتين المسألتين ، وذلك لأهمية ذلك جدا عندنا فى تونس :

١ — نقل الدم للمسلم المريض المحتاج له من شخص غير مسلم .

٢ — الانتفاع بجزء من عين شخص متوفى لرد بصر شخص آخر حى .

وبما أنى على نية العودة قريبا الى وطنى تونس ، وبما أنى كلفت بهذا الاستفتاء من كثير من المسلمين هناك أصحاب الرأى ، لذلك أرجو التفضل بإفادتنا فى ذلك ، وأن يكون الجواب قريبا لأحمله معى للأهلين هناك . ولفضيلتكم ولحضرات الأعضاء خالص الإجلال . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

مصطفى بو شوشة

الجواب

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على هذا الاستفتاء ، وتفيد بأن الله تعالى قال فى كتابه الكريم « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، وقال سبحانه فى آية أخرى « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » وفى آية أخرى « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » .

وهذه الآيات الكريمة تفيد أنه إذا توقف شفاء المريض أو الجريح وإنقاذ حياته على نقل الدم اليه من آخر، بألا يوجد من المباح ما يقوم مقامه فى شفائه وإنقاذ حياته - جاز نقل هذا الدم اليه بلا شبهة، ولو من غير مسلم. وكذلك إذا توقفت سلامة عضو وقيام هذا العضو بما خلقه الله له على ذلك، جاز نقل الدم اليه؛ أما إذا لم يتوقف أصل الشفاء على ذلك ولكن يتوقف عليه تعجيل الشفاء فنصوص الشافعية تفيد أنه يجوز نقل الدم لتعجيل الشفاء، وهو وجه عند الحنفية؛ فقد جاء فى الباب الثامن عشر من كتاب الكراهية من الفتاوى الهندية ما نصه: «يجوز للعليل شرب الدم والبول وأكل الميتة للتداوى، إذا أخبره طبيب مسلم أن شفاءه فيه ولم يجد من المباح ما يقوم مقامه، وإن قال الطبيب: يتعجل شفاؤك، فيه وجهان. اهـ.

وخلاصة هذا: أنه إذا تحقق توقف حياة المريض أو الجريح على نقل الدم جاز بنص القرآن، أما إذا توقف تعجيل الشفاء فحسب، فيجوز على أحد الوجهين عند الحنفية، ويجوز على مذهب الشافعية، وهذا مقيد بلا شبهة بما إذا لم يترتب على ذلك ضرر فاحش بمن ينقل منه الدم.

ويبقى الكلام فيمن يعول ويعتمد على خبره من الأطباء، أيجوز الاعتماد فى ذلك على طبيب غير مسلم، أم لا يجوز؟

فظاهر مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أنهم يقيدون الطبيب الذى يعول على خبره فى مثل ذلك بكونه مسلما، والمالكية يرون الاعتماد على غير المسلم حينئذ إذا لم يوجد طبيب مسلم، وبعض العلماء لا يرون وجوب كونه مسلما حتى فى حالة وجود الطبيب المسلم. وهذا ما تختاره اللجنة وتفتى به؛ لأن المدار على مايوجب غلبة الظن، وهذا يتوافر كثيرا فى غير المسلم بالتجربة كما يتوافر فى المسلم.

فقد جاء فى صفحة ٢٠٨ من الجزء الثالث من كتاب بدائع الفوائد، لشيخ الاسلام ابن القيم الحنبلى مانصه: «فى استئجار النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أريقط الديلى هادياً فى وقت الهجرة، وهو كافر، دليل على جواز الرجوع الى الكافر فى الطب والكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها، مالم يكن ولاية تتضمن عدالة، ولا يلزم من مجرد كونه كافرا ألا يوثق به

فى شىء أصلا ، فإنه لا شىء أخطر من الدلالة فى الطريق ، ولا سيما فى مثل طريق الهجرة » .

وقال ابن مفلح الحنبلى فى كتاب الآداب الشرعية صفحة ٤٦٢ من الجزء الثانى نقلا عن شيخ الاسلام ابن تيمية ما نصه : « إذا كان اليهودى أو النصرانى خبيرا بالطب ثقة عند الإنسان جاز له أن يستطب ، كما يجوز له أن يودعه المال وأن يعامله ، كما قال تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك . . الآية » وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر استأجر رجلا مشركا هاديا خريتا (ماهرا) وائتمنه على نفسه وماله . وكانت خزاعة عيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم (العيبة موضع السر) . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يستطب الحارث بن كلدة وكان كافرا ، وإذا أمكنه أن يستطب مسلما فهو كما لو أمكنه أن يودعه أو يعامله فلا ينبغى أن يعدل عنه . وأما إذا احتاج الى ائتمان الكتابى أو استطبابه فله ذلك ، ولم يكن من ولاية اليهود والنصارى المنهى عنها ... الخ » .

وبهذا علم الجواب عن السؤال الأول ، وهو جواز نقل الدم من مسلم أو غير مسلم على حسب ما فصلنا .

وأما الجواب عن السؤال الثانى : فقد أجاز كثير من متأخرى علماء الشافعية جبر المنكسر من عظم إنسان حى بعظم إنسان ميت إذا لم يمكن جبره بغيره . (تراجع حواشى تحفة ابن حجر وتقرير الشيخ الشربينى على ابن قاسم على البهجة) .

وقياسا على هذا ترى اللجنة جواز نقل جزء من عين الميت لإصلاح عين الحى إذا توقف على ذلك إصلاحها وقيامها بما خلقها الله له .

هذا هو ما تفتى به اللجنة . والله الهادى الى سواء السبيل .

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

الرجولة فى الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

ربما دار بخلد بعض الناس أن الرجولة هى الرجولة فى الدين وفى غير الدين ، لأن القيم الأخلاقية ، والمعايير الأدبية ، لاتختلف بالاعتبار ، ولا تتباين فى نظر الدساتير ، خصوصا إذا كانت من الصفات الإنسانية المحمودة ، والعوارض الذاتية التى لا تأباها الطباع ولا تنفر من مصاحبتها النفوس . وفى الحق أن الإسلام هذّب كثيرا من الأوصاف ، وشذب غير قليل من العادات ، وانتقل بسلوك الناس انتقالا يكاد يجعله متباينا كل التباين أو بعضه ، إذا ما قيست حاله القديمة بحاله الجديدة ، وقورنت أنماطه فيما بعد بأنماطه قبل ذلك .

فالرجولة فى نظر الشطار واللصوص ، ليست هى الرجولة فى نظر من يحبون المسالمة ، ويميلون إلى الموادعة ، ويكلفون رغباتهم وجهودهم فوق ما تطيق ، لإيصال السعادة إلى من يجاورهم فى المسكن ، ويعاشرهم فى البيئة ، ويشاطرهم هواء السماء ، ومياه الدأماء . وكذلك كانت الرجولة فى الجاهلية ، والحروب همهم ، والفتك دأبهم ، وإزهاق الأرواح ديدنهم ، يباهون بمناعة الكلأ ، وحماية الوحوش ، فإذا استرعى فى أرضهم دخيل ، أو اصطاد من بَرّيّتهم أجنبى ، عدوا هذا تطاولا على حوزتهم ، واستباحة لذمارهم ؛ والويل لمن تحدثه هواجسه أن ينال منهم ، أو يدخل عليهم ؛ ووقائعهم التى سجلها التاريخ ، وتضمنتها بطون الكتب ، لم تخرج فى جملتها وتفصيلها ، عن كونها انتصار للإباء ، واحتفاظا بالشمم ، ودفاعا عن الجانب ، وغضبة للكرامة ، وصيانة للرجولة التى هى أثمن ما يمتلكون .

وليس معنى هذا أننا نقرهم على ما كانوا يفعلون ، أو نمتدحهم على ما كانوا يأتون ، ولكننا — فقط — نكشف عن ناحية من نواحى تلك الكلمة فى فترة

من فترات الزمن حيث كانت تاجا من تيجان الشرف ، وحلية من حلى الفخار ، وشعارا من شعائر المجد ، بصرف النظر عن الجاهلية والإسلام . وحينما يتجلى لك أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء إلى العرب برجولة من طراز آخر سجدوا له وآمنوا به ، تعلم إلى أى مدى كان هذا الدين يحتضن الرجولة ، فيبذر بذرها ، وينمى غرسها ، ويتعهدها بالرى والصون ؛ ولعل أبرز مظاهر هذه الصفة ، وأجلى نعوت يستطيع الإنسان أن يجدها ، تلك الفضيلة ما يقرؤه القارىء فى آية « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ؛ لأن الرجولة تعتمد الحق أولا وقبل كل شىء ، والله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض بالحق ، وأقامهما على الحق ، وجعل عمارة الدنيا بالحق ، وتكررت فى القرآن كلمة الحق ، وسمى الله نفسه الحق ، ولا فضيلة من الفضائل ، ولا مكرمة من المكارم ، للرجولة فيها مدخل ، ولها إليها انتماء ، إلا وأنت واجدٌ الحق قوامها ، والصدق عمادها .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكد يعلن إسلامه ، ويرى انزواء المسلمين بدينهم ، وإختفاءهم بعقيدتهم ، حتى قال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ ! ولما قال له النبى صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال له : علام نرضى الدنية إذن ؟ ! وكان هذا مبدأ انتفاع المسلمين برجولته ، ومطلعا من مطالع استجابة دعوة صفوة الخلق « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك » . ثم تلا ذلك موقفه فى الهجرة وغيرها من المواقف الخالدة المشهودة . . . . وإذا كان أمير ميزات الرجولة غنى النفس ، وترفعها عن الدنايا ، فقد علمنا أنه كان يقول « إذا رأيتم فى اعوجاجا فقوموه بسيوفكم » . وكذلك كان غيره من الخلفاء يقول مثل هذا القول ؛ وهو مظهر من مظاهر الرجولة فى أحسن صورها ، وأبهج مناظرها ، لأن الثقة بالنفس ، والاعتزاز بها ، مكانة لا يسمو إليها الرجال إلا حين يبلغون من المجد الغاية ، ويشارفون من السؤدد النهاية .

وإذا ما تطرق الخلل إلى هاتين الناحيتين والعياذ بالله ، رأيت « مركّب النقص » يعمل عمله ، فيغرى بالفساد ، ويسوق إلى الملق والرياء ، ويحمل على الكذب ، ويزين للناس الرذيلة ، فى ألوان متعددة ، وأشكال مختلفة ، وهنالك تكون الرجولة عندهم من أبغض الأشياء ، وأحقر الصفات .

وقد تطلق اللغة الفسولة على ما يقابل الرجولة ، وهى كلمة تجمع فى تنايا حروفها صفات اللؤم ، وخصال الشر ، ومعانى الدناءة . فعادم الشرف ، وفاقد المروءة ، وناقص الذوق ، وبليد الحس ـ ليس برجل ، ولا فيه من المزايا والاعتبارات ما يقربه بعض الشيء من حدود هذه التسمية ، قليلا ولا كثيرا .

وإذا كانت كلمة الإنسان ترادف كلمة الرجل ، فذلك لأن الرجولة أنس وألفة ، ومودة ورحمة ، وحنان وعطف ، ورقة ولين ، وتعاون فى الخير ، وتضافر على الإصلاح ، لتصير الحياة فى نظر الأحياء « جنة عرضها السموات والأرض » . ولذلك فإن الناظر فى كتاب الله يجده فى تكاليفه كلها ، ينتهى بالعباد إلى هذه النهاية التى تجعلهم ملائكة تمشى على قدمين ، فلا حقد ولا حسد ، ولا لؤم ولا رياء ، ولا كراهية ولا بغضاء ، ولكن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ويخيل إلىّ أنه ليس طريفا ولا جديدا أن أحاول فى هذا البحث إثبات أن الرجولة اسم لما تضمنته تعاليم الدين وتكاليفه ، وأنها لم تخرج عن كونها امتثال ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإن قوله تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » بمثابة الفيصل فى ذلك كله ، لأنه سبحانه لم يذكر المؤمنين بعنوان الرجولة فى معرض كونهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلا ومقصده الإشعار بعلة التسمية . . . وهى تحديد صحيح للرجولة كما يراها الدين . . . ولولا أننا صرنا إلى زمن متعوس ، وجيل منحوس ، تتبدل فيه الأوضاع ، وتنعكس الحقائق ، وتنحرف المقاييس ، لما رأينا من يسمى اللصوص ، أو يطلق على قطاع الطرق ، ويخلع على الممرورين الحمق ، ألفاظا لا يتناسب شرفها مع وضاعتهم ، ولا يتلاءم سموها مع انحطاطهم ، وسوء انحدارهم ، وقبيح تدليهم . . .

فهل نعيد النظر ، ونحق الحق ، ونبطل الباطل ، ونعلم أن الرجولة أبعد الأشياء منالا ، وأندر المعقولات مثالا ؛ اللهم إلا فى فلسفة الحكماء ، وخيال الشعراء ! ! !

الابتداع

أصله ومضاره

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن عبد الله المشد
المدرس بكلية أصول الدين

دفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع واجب هو من أقدس الواجبات الدينية، وألصقها بوحدة المجتمع الإسلامية. وليس شيء ألصق وأمس بهذا الواجب من المحافظة على الحنيفية البيضاء، من ميكروب البدع والخرافات المحدثة باسم الدين، والتى أتت على العقائد فأضعفتها، والعبادات فأفسدتها، والعادات فصارت الأمة بها شيعا وجماعات. فعمدنا أولا إلى بيان أصل الابتداع والدافع إليه، ومنشئه والحامل عليه، مع ذكر أمثلة من عناصره الهدامة.

أما فروع البدع التى فشا أمرها واستفحل خطبها، فسنوافيك بها تباعا إن شاء الله.

اعتصم المسلمون فى أول أمرهم بحبل الله المتين، واتبعوا هدى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فكانوا أمة واحدة فى عقيدتها، صميمة فى عبادتها، سليمة فى عاداتها. وبذلك هابت جميع الأمم جانبها، ورهبت وحدتها، بفضل اتباعهم هديا واحدا، وطريقا واحدا؛ هو ذلك الكتاب الحكيم، الذى ماترك حلالا إلا بينه، ولا حراما إلا حدده، ولا مصلحة من مصالح الدنيا والآخرة إلا وهو بها كفيل.

وما زال أمر المسلمين كذلك حتى تهاونوا فى أمر دينهم، والسير على سنة نبيهم، فهنالك تسلط الشيطان على أهل الهوى والضلال، فسولت لهم نفوسهم

الخبيثة أن يبتدعو أمورا لبسوها على العامة باسم الدين ، موهمين التيسير على عباد الله وعدم التعسير ؛ وهي أمور لا تمت الى الدين بسبب ، ولا تتصل اليه بدليل ، بل لا هدف لهؤلاء الضالين المضلين إلا أن يعبثوا بدين الله فيحلوا حرامه ويحرموا حلاله . وأنى لهم ذلك والله يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وكيف يسع هؤلاء أن يبتدعوا ويحدثوا لعباد الله ، ورب العباد الواحد الأحد ، الذى هو أعلم بمصالح من خلق ، قد أكمل لهم الأمر ، وأتم عليهم النعمة «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

فألم يأن لهؤلاء الدخلاء على الدين أن يكفوا عن ابتداعاتهم وخرافاتهم ! ! وألم يأن للمسلمين عامة أن يرجعوا فيما اشتبه عليهم الى كتاب الله وسنة رسوله ، فالحلال بين والحرام بين !

وإليك أيها المسلم الغيور المثل الأعلى فى ذلك ، والحد الفاصل بين دين الله القويم ، وبين البدع والخرافات ، كى تكون على بينة من أمر دينك :

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إذ خط خطا مستقيما أمامه على الأرض وقال : هذا سبيل الله ، وخط خطوطا عن يمينه وخطوطا عن شماله وقال : هذه السبل المتفرقة وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو . ثم قرأ عليه الصلاة والسلام قول الله تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

سبحانك ربى ما أجل نعمك وأعظم سلطانك ! خلقت الخلق بقدرتك ، وأنعمت عليهم بدينك القويم وهديك المستقيم ، فضلا منك ونعمة ، لم تتركهم هملا يعملون بغير نظام ، ويسيرون على غير تبيان ، تملى عليهم شهواتهم ، وتوحى إليهم عقولهم وأهواؤهم ، فإن العقول متفاوتة والأهواء متغايرة ، يستحسن الشخص اليوم ما يستقبحه غدا ، ويستهجن هذا ما يهواه الآخر ، كل له غرض يسعى ليدركه . « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » .

فتفضل سبحانه وتعالى على عباده برسل هادين ، وما زالت الرسل عليهم الصلاة والسلام يرسلهم الحق إلى الخلق مبشرين ومنذرين ، حتى ختم رسالة الجميع برسالة

سيد العالمين، وأنزل عليه ذلك الدستور الحكيم الذى حث على الفضيلة بعد مارسمها، ونهى عن الرذيلة بعد أن بين حدودها، بطرق بديعة الأسلوب، واحدة الغاية، ترجع جميعها إلى هدى الله تعالى فى قوله « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ». صراط يدعو إلى العدل فى كل شىء، وينتهى بالعبد إلى سعادته فى دنياه وآخرته؛ يدعو إلى العدل بينك وبين ربك، وبينك وبين نفسك، وبينك وبين عباد الله.

أما عدلك بينك وبين ربك، فسلامة عقيدتك فى أن الله تعالى وحده هو الذى خلقك فسواك فعدلك « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ». كما أن بيده سبحانه وتعالى ملكوت السموات والأرض، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون. وعند ذلك تسلم عقيدتك، ويصح إيمانك، إذ قد علمت أن قلوب الخلق بيد الله يصرفها كما يشاء، وذلك قوله تعالى فى الحديث القدسى « أنا الله ملك الملوك، قلوب العباد بيدى أقلبها كيف أشاء ».

وأما عدلك بينك وبين نفسك، فاستعمالك جميع نعم الله عليك فيما خلقت لأجله.

وأما عدلك بينك وبين عباد الله، فسلامتهم من إيذائك « كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه ».

صراط الله يدعو إلى الرحمة فى كل شىء. فالراحمون يرحمهم الرحمن، متبعا أيها المسلم الكريم فى كل ذلك ما رسمه لك الحق وبينه على لسان رسوله الأمين، غير مجترىء على دين الله بإحداث البدع والخرافات أو اتباعها، وغير متعد حدود الله « تلك حدود الله فلا تعتدوها ». فلا تحدث بدعاً تنسبها إلى الدين بتحريم ما أحل الله أو تحليل ماحرم، فتستوجب بهذا وزرين، وتستحق بذلك عقابين: « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ». وتكون بذلك أيضا قد فتحت الباب لفساد العباد فى عقيدتهم وعبادتهم وعاداتهم، وعددت الطرق باسم الدين، وهنالك تتفرق كلمة المسلمين، وتضعف شوكتهم، وتنحل وحدتهم؛ وذلك قوله تعالى « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ».

وحقا إن تأملت وفكرت فيما عليه حال المسلمين الآن من ضعف فى الإيمان ونقص فى العقيدة واضطراب فى الوحدة، وجدت كل هذا يرجع إلى التمسك والعمل بأمور ابتدعت باسم الدين، وخرافات أحدثت باسم الدين، والدين من كل هذا براء؛

حتى أصبحت عقائد الناس كما ترى، وعبادتهم كما تشاهد، وعاداتهم كما هو واقع؛ كل هـذا بشياطين من الإنس ابتدعوا فى الدين ما ليس منه، ودعوا للعمل به موهمين التيسير وعدم التعسير، أو وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، فأباحوا وأوجبوا، وأحلوا وحرموا، حتى أصبح الكثير منهم يفهم أن هذه الخرافات من الفرائض والواجبات، ونسوا تحذير الحق فى قوله: «ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون».

يأمر الشيطان أهل البدع والضلالة بأن يقولوا على الله تعالى ما لا علم لهم به، من تحليل ما حرم، وتحريم ما أحل، والقول على الله تعالى بغير علم، اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا من أقبح ما يأمر به الشيطان.

أليس من البدع الهدامة والقول على الله تعالى بغير علم، زعم المبتدعين الضالين أن لله تعالى وسطاء بينه وبين خلقه، لا يفعل سبحانه وتعالى شيئا إلا بواسطتهم، فحولوا بذلك وجه عباد الله عنه ووجهوها إلى عبيد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا؛ ويدعون غيره تعالى وهو يقول «فلا تدعوا مع الله أحدا».

نحن لانمس كرامة الأولياء بسوء، فالكرامة شىء، والبدع شىء آخر.

وأليس من القول على الله تعالى بغير علم، ما زادوه فى أنواع العبادة وأحكام الحلال والحرام عما ورد فى الكتاب والسنة، والعلماء يقولون: كل من زاد فى الدين عقيدة أو حكما من غير استناد الى كتاب الله أو كلام المعصوم فهو من الذين يقولون على الله تعالى ما لا يعلمون.

وهذا قليل من كثير من البدع التى فشا أمرها واستفحل خطبها، كزائرات القبور وما يأتينه من الخرافات والبدع باسم الدين. كذلك تشييع الجنائز على الوجه المعروف؛ وأنواع البدع التى يندى لها جبين الإسلام كثيرة، لكنى قصدت بهذا المقال بيان أصـل الابتداع وبعض عناصره الضارة بوجه عام، ليكون كقاعدة تفهم منها فروع البدع التى سنوا فيك بها كما وعدت إن شاء الله، رجاء أن تلتفت الأمة لهذا الوباء المستفحل، والمرض الذى أصابها فى عقيدتها وعبادتها من البدع والخرافات. أذاقنا الله حلاوة الاتباع، ووقانا شر الفضول والابتداع.

المحتسب أيام الدولة الفاطمية

لحضرة الأستاذ الدكتور عطيه مصطفى مشرفه

وكان على المحتسب أن يأمر العجانين أن تكون أوعية الماء نظيفة ذات غطاء ، وكان يراقب غسل المعاجن ونظافتها ، ويجعل العجان ملثما حتى إذا عطس أو تكلم لا ينزل شىء من بصاقه أو مخاطه فى العجين ، ويأمره بشد عصابة بيضاء على جبينه لئلا يعرق فيقطر منه شىء ، ويأمره بحلق شعر ذراعيه حتى لا يسقط منه شىء فى العجين ، وأن يباشر نخل الدقيق جيداً ، ويكلف شخصا وقت عجنه أن يمسك بيده مذبة ليطرد بها الذباب عنه ، وكان عليه أن يأمر الفرانين بإصلاح المداخن وتنظيف بلاط الفرن بالكنس من وقت لآخر وإزالة اللباب المحترق والشرر المتطاير والرماد المتناثر ، لئلا يلصق بالخبز الجديد منه شىء ، وأن يجبرهم على رفع سقائف أفرانهم ، وأن يجعلوا فى سقوفها منافس واسعة لتسرب الدخان ، وأن يكنسوا بيت النار فى كل تعميرة .

وكان عليه أن يأمر الجزارين بعدم شد الحيوانات المعدة للذبح من رجلها جراً عنيفا ، وألا تذبح بسكين غير حادة « ولا يشرع فى السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة وتخرج منها الروح » « وألا تذبح البقر الحوامل ، لأن فى ذلك تعذيباً لها ، وأن يمنع الناس من تحميل الدواب أو السفن أكثر من طاقتها ، كما يفعل رجال قلم المرور اليوم ؛ فقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن ضرب البهائم بدون سبب وأن تحمل فوق طاقتها وقال « رأيت صاحبة الكلب فى الجنة ، وهى امرأة مرت بكلب يتلمظ على بئر فلم تجد ما تستقى له فربطت خفها بخمارها واستقت له فسقته فغفر الله لها بذلك » وقال عليه الصلاة والسلام « رأيت صاحبة الهرة فى النار وهى امرأة ربطت هرة لها وتركتها لا تطعمها ولا تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت فعذبها الله بذلك » وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه ضرب جمالا لأنه حمل جمله مالا يطيق .

وأمر المحتسب فى الدولة الفاطمية الجزارين بوضع ذيول الماعز معلقة فوق لحومها حتى تباع بأكملها ، ليرى المشترى أن ما يشتريه إنما هو لحم معز فلا يقع الغش فى المبيعات ، وأن يذبحوا الحيوانات فى المذبح لا على أبواب دكاكينهم لئلا يتلوث الطريق بالدم والروث .

وكان يأمر من يعدون الطعام بغسل مواعينهم، ويأمرهم بنظافة أوانيهم، وعدم الغش فيما يقدمونه للرعية؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول «من غشنا فليس منا». وكان يأمر الطحانين ألا يخلطوا «ردىء الحنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها، لأن فى ذلك تدليسا على الناس» وغربلة الغلة من التراب وتنقيتها وتنظيفها من الطين ومن الغبار قبل طحنها، وألا يخلطوا دقيق الغلة بدقيق الحمص أو الفول، فمن وجده فعل شيئا من ذلك أنكر عليه فعله وأدَّبه. وكان يأمر الشوائين ألا يشووا إلا «البهائم اللطاف البلدية السمان الجذعان فى السن». وكان يلزم النقانقيين (١) أن يدقوا اللحم على القرم النظيفة، ويكون بجانب من يدقها رجل بيده مذبة يطرد الذباب عنها، ويلاحظ عدم غشها بلحوم المعز أو الإبل أو غيرها. وكان يباشر الكبوديين فلا يجعلهم يخلطون كبود (جمع كبد) المعيز أو البقر بكبود الضأن، وألا يخلطوا البائت مع الطرى (الغض) فإذا بات عند أحد منهم شىء عرضه عليه فى الصباح ليراه ويأذن له ببيعه وحده.

وكان المحتسب يأمر الطباخين «بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب، وألا يخلطوا لحوم المعز بلحوم الضأن، ولا لحوم الإبل بلحوم البقر». وكان يلزم الحلوانيين أن تكون الحلوى تامة النضج، وأن يمنع عنها الذباب بالمذبة، كما يلزم الشرابيين أن يستعملوا الماء النظيف، وأن تكون معهم المذبة دواماً لطرد الذباب، ويلزمهم بغسل مواعينهم فى كل يوم وتغطيتها. كذلك كان يلزم اللبانين بتغطية أوانيهم، وأن لا يغشوا اللبن، وأن يغسلوا القصارى والمواعين جيداً قبل استعمالها.

وكان عليه أن ينهى البياعين عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة «إذا اشترى كل واحدة على انفراد بسعر»، «ويأمرهم بألا يستعملوا لمسح أوعيتهم إلا الخرق الطاهرة النظيفة»، «وأن تكون المذبة فى أيديهم يذبون بها على البضاعة طول النهار»، «وكان يأمرهم بنظافة أثوابهم وغسل أيديهم وآنيتهم، ومسح موازينهم ومكاييلهم».

وكان يأمر الزبالين بألا يمسوا الخبز أو شيئاً من المأكولات بأيديهم وهى قذرة حتى يغسلوها غسلا جيداً. وكان يمنع الخياطين من أخذ بطانة شخص لإعطائها لآخر. وكان عليه أن يمنع بيع النجش (وهو أن يزيد فى السلعة من

---

(١) النقانق: سجق

لا يريد شراءها) وأن يمنع تصرية الدابة اللبون ، ويمنع العقود المحرمة : مثل عقد الربا وعقد الميسر ، كبيع الغرر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الغرر كبيع السمك فى الماء والطير فى السماء . وبالجملة كان عليه منع كل أنواع التدليس . وكان عليه أن يمنع الكيميائيين من غش الجواهر والعطر والطيب وغيرها ، وأن يأخذ على الأطباء والصيادلة عهد « أبقراط » الذى استحلف فيه متعلم صناعة الطب أن يكون ملازماً للفضيلة ، فلا يعطى أحداً سما ، ولا يذكر للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل ، وأن يغض بصره عن المحارم عند دخوله على المرضى ، ولا يُفشى الأسرار .

وكان على المحتسب مراعاة أحكام الشرع ؛ فكان يتفقد المقابر فإذا سمع نائحة أو نادبة منعها وعزرها ، لأن النوح حرام ، إذ يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن النائحة والمستمعة . وكان على المحتسب أن يمنع النساء من زيارة القبور ؛ لأن النبي عليه السلام يقول : « لعن الله زائرات القبور » وكان له أيضا حمل المماطلين فى دفع ديونهم على دفعها ، وأن يأمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ، ويعاقب من لم يصلِّ بالضرب وبالحبس ، لأن من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لمن سواها أضيع . وكان يأمر الناس بصلاة الجمعة وأداء الأمانة وقول الصدق .

وكان يشرف على الجوامع والمساجد ، فيأمر بكنسها يوميا ، وتنظيفها من الأوساخ ، ونفض حصيرها من الغبار ، ومسح حيطانها وغسل قناديلها ، ووقيدها فى كل ليلة . وكان يأمر بغلق أبوابها عقب كل صلاة ، وصيانتها من الصبيان والمجانين ، وممن يأكل أو ينام فيها ، وغير ذلك من الأشياء التى أتت الأحاديث النبوية بتنزيه المساجد عنها . وكان عليه أن ينبه الحكومة الفاطمية إلى الخطر الذى يحصل للمساجد من التصدع والانهيار بسبب عدم ترميمها وحمايتها من غشيان الباعة والمتطفلين .

كذلك عهد إلى المحتسب بأن يأخذ من أهل الذمة الجزية ، وأن يراعوا التزام أحكام المسلمين ، فلا يقاتلوا مسلما ، ولا يسبوا ، ولا يزنوا بمسلمة ، ولا يحاولوا تغيير مسلم ، أو يحولوا دون إسلام نصرانى ، ولا يدلوا أحداً على عورات المسلمين ، ولا يشهروا الخمر والخنزير ، فإذا فعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره ، انتقضت ذمتهم وعزرهم ؟ [يتبع]

(١) المجتمع والسياسة
في الأدب المصرى الحديث

تقدير للمصادر

بحث للمستشرق الانجليزى
الأستاذ ج . هيورث دن
J. Heywarth Dunne
الأستاذ بجامعة لندن

تعريب فضيلة الأستاذ
نور الدين شريبه
خريج كلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

الأستاذ ج . هيورث دن من أعلام المستشرقين الانجليز ، اشتغل بتدريس العربية فى « جامعة لندن » ، منذ سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٤٨ ، وهو الآن أحد أعضاء « معهد الشرق الأوسط Middle East Institute » أصدر كتابه : « مدخل لتاريخ التربية فى مصر الحديثة Introduction to the History Education in Modern Egypte Vol. 1 سنة ١٩٣٩ .

إن الآثار الأدبية الحديثة ، فى الأدب العربى ؛ بل والآثار التاريخية ، قد تجاهلها الباحثون تجاهلا شديدا ، ولم يتخذوها مصدراً من مصادر بحثهم فى التطورات الاجتماعية الحديثة فى مصر .

وذلك راجع إما إلى قلة الاهتمام ، الذى نوليه لترجمة الكتب العربية للغات الأوربية ؛ وإما إلى التقليد الاتباعى ، الذى جرى عليه البحث الغربى ، فى الإنتاج العربى ، من اعتبار الإنتاج المعاصر ، أدباً رخيصا .

والاهتمام بالآداب العربية القديمة له أعظم الأهمية دون ريب . ولكن ينبغى ألا يصرفنا التركز فى هذه الناحية عن أن هناك جديداً ينبثق فى الأدب العربى ؛ مرتكزا إلى حد ما على العامية : التى غدت ولها أكبر قيمة أدبية واجتماعية .

ولهذا الأدب الحديث أهمية فائقة ، عند المعنيين بشئون الشرق الأوسط ؛ إذ هو بمثابة المفتاح للمظهر الحضارى عند العربى الحديث . ولابد للمشاهد الغربى من أن يبقى محايدا عند نظره فيه ، فلا يتعرض لطبيعته ، ولا لما يشتمل عليه بالاستحسان .

والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، ليس به مصادر عربية واسعة لدراسة الأحوال الاجتماعية والسياسية . ولكن هناك أثراً واحدا ، لا يستطيع باحث فى تاريخ مصر الحديثة ، أن يهمله ؛ ألا وهو « حوليات » عبدالرحمن الجبرتى[1]

وهذا الكتاب ، الذى يقع فى أربعة مجلدات ، يحتاج حقا إلى أن يعاد طبعه بالعربية ؛ خاصة وأن هناك أصولا مخطوطة عديدة ، يمكن الحصول عليها ، تشتمل على مباحث أغفلت فى الطبعات السابقة ؛ بسبب ما فيها من تحامل على محمد على . وقد نقلت « الجمعية المصرية » هذا الكتاب الى الفرنسية[2] . وهو جدير كذلك بأن ينقل إلى الانجليزية ؛ لأنه يسرد ، فى تفصيل ، الأحداث التاريخية فى مصر ، منذ سنة ١٦٨٩ حتى وفاة المؤلف سنة ١٨٢٢ . وإذا درس الانسان الجبرتى ، أضحى فى مقدوره أن يجدد بناء الحياة الاجتماعية ، والأدبية ، والثقافية ، والاقتصادية ؛ لعامة المصريين ، وللطبقات الحاكمة ، والعلماء . ولقد استفاد الجبرتى من كتاب عصره ، ومن الشعراء ، ومنهم من كانوا ينتقدون أسلوب الحياة المصرية ، خلال أيام الاضمحلال هذه . وأحد هؤلاء الشعراء ، الذين حظوا بمنزلة سامية عند الجبرتى ، حسن البدوى الحجازى ، المتوفى سنة ١٧١٨ ، الذى يهيىء نقده لعادات الناس الدينية والاجتماعية ـ لو كان فى متناول اليد[3] ـ للباحث

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الأخبار فى التراجم والآثار ، طبع لأول مرة سنة ١٨٧٩ بالقاهرة فى أربعة أجزاء ، وطبع مرة ثانية سنة ١٨٨٤ ، وطبع للمرة الثالثة أيضا على هامش كتاب الكامل لابن الأثير سنة ١٩٠٥ .

(٢) نقله الى الفرنسية الأساتذه : شفيق منصور بك يكن ، وعبد العزيز كحيل بك ، واسكندر عمون ، فى تسع مجلدات ، وطبع بالقاهرة سنة ١٨٨٨ - سنة ١٨٩٦ تحت عنوان :

"Nerveilles Biographiques et Historigues".

(٣) لم يضم ديوان مستقل أشعار حسين البدوى الحجازى . ولكن الجبرتى يستشهد بها فى مواضع عديدة ، فى كتابه . أنظر مثلا ج ١ ص ٣٠ س ١ ، ص ٧٥ - ٨٣ ومن الترجمة الفرنسية ج ١ ص ٧١ ، ١٨١ ، ١٩٥ .

أن يستغنى عما كتبه الرحالة والمشاهدون الأوربيون ، الذين وفدوا إلى مصر ، فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وكانت معلوماتهم قاصرة ؛ ورغم ذلك فقد اتخذت كتاباتهم مصادر أصيلة .

و « حوليات » الجبرتى لايتقدم عليها غيرها فى الأهمية ؛ حتى نصل مع الزمن الى موسوعة[1] على باشا مبارك ، التى طبعت سنة ١٨٨٧ سنة ١٨٨٨ م . وهنا نقع على مؤلَّف دقيق .

وعصر محمد على يقدم لنا أول مطبعة مصرية ، وقد أقيمت فى بولاق ـ أحد أحياء القاهرة — سنة ١٨٢١ م ولا تزال إلى اليوم المطبعة الرسمية . ولسنا بحاجة إلى أن نطيل الوقت عند هذا الحديث ، وحسبنا أن نذكر أنها أخرجت للناس ثلاثة وأربعين ومائتى كتاب ، أكثرها مترجم عن اللغات الأوربية بين سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٤٢ ؛ منها خمس وعشرون ومائة كتاب بالتركية ، وأحد عشر ومائة كتاب بالعربية ، وستة كتب بالفارسية ، وقاموساً إيطالياً واحداً . وليس لهذه المجموعة كلها أهمية أدبية ، وإن كانت التراجم العربية للكتب العلمية لها بعض الفائدة من الناحية اللغوية والفيلولوجية .

والمؤلفات العربية ، التى طبعت بها ، إنما طبعت تلبية لأمر محمد على ؛ لتستعمل فى المدارس التى أنشأها لتكون جزءاً مكملا ، فى أداة الحرب التى أنشأها . فإن يكن بينها شيء ذو قيمة ، فقد تكون اللآلئ فى ركام الحصباء .

ولم يحطم تشابه هذه القائمة المرهقة من المترجمين غير الشيخ رفاعه بدوى رافع الطهطاوى . وهو يتحدر من أسرة عريقة ، فى صعيد مصر . وقد ربى تربية إسلامية صحيحة ، فى داره ، وفى الأزهر . ونشر له ما يقرب من ست وثلاثين كتابا ، ولكن مؤلفه الذى يسترعى انتباهنا ، هو رحلته إلى باريس[2] . وقد

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، نشرت بالقاهرة سنة ١٨٨٨ فى عشرين مجلداً . ولعلى مبارك اثنا عشر مؤلفا آخر مطبوعا .

(٢) رفاعة بدوى رافع الطهطاوى : تخليص الأبريز إلى تلخيص باريس ، طبع بالقاهرة لأول مرة سنة ١٨٣٤ م وللمرة الثانية سنة ١٨٤٨ ، وللمرة الثالثة سنة ١٩٠٥ .

كتبها بعد إقامته هناك إماما لأول بعثة مصرية كبيرة ، نزلت فرنسا سنة ١٨٢٦ وبقيت إلى سنة ١٨٣١ . وإذا صرفنا النظر عن قيمة هذا المؤلف السيكولوجية ، وأنه يبين موقف هذا المسلم تجاه مجتمع ، مختلف أشد الاختلاف عن مجتمعه ؛ فإن له فائدة اجتماعية ، من حيث إنه مجموعة من الملاحظات ، قام بها أول مسلم اتصل بأرقى الأقطار الاوربية حضارة أتم اتصال . ورفاعه يملؤه الإعجاب بفرنسا : بعلومها ، وفنونها ، ومدارسها ، وجامعاتها ، ومكتباتها ، ومتاحفها ، ومستشفياتها ، ويبين الفرق بين مسيحي فرنسا ، ومسيحي مصر ، الذين يرميهم بالغباء والقذارة . وهو يثنى على الصناعة الفرنسية ، ويقابل بينها وبين الخمول المصرى . ويعجب بالصحافة ، والدستور الفرنسى ، ونظام الحكومة . وهو - حين يؤلف كتابه لزملائه الأزهريين - لا ينسى أن يستشهد بين آونة وأخرى بآيات من القرآن وبالأحاديث . وينتقد بعض العادات الاجتماعية الفرنسية الخاصة ، وخاصة ما تعلق منها بسلوك السيدات ، وقد هاله استعباد الفرنسيات لرجالهن وخضوعهم لهن ، كما أن آراءهم فى الدين قد صدمت رفاعة .

والكتاب لا تنقصه الدعايات التى تجتذب البسمة إلى وجه القارىء . فمثلا مما يبعث على ذلك ، سذاجة المؤلف ، عند دعوته حول (نار) المدفأة — وهى مكان تكريم فى البيت الفرنسى — إذ لم يستطع أن ينسى مدلول هذه الكلمة (نار) عند المسلم . وقد اطمأن باله اطمئنانا كبيرا ، حين وجد أن الكتب الفرنسية خالية من الشروح والحواشى . والكتاب جدير أن ينقل إلى الانجليزية لقيمته التاريخية ، ودقته من الناحية الإنسانية . ومنزلة رفاعة فى الأدب العربى الحديث ، كمنزلة (لومونوزوف - Lomonosov [٢]) فى الأدب الروسى وقد ترجم رفاعة مؤلفات عن الروسية ، خدمة لمحمد على ، وإستجابة لطلبه .

وبانحلال بناء محمد على ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، أبطأ أخذ مصر بأساليب الحضارة الغربية ؛ حتى كان عهد إسماعيل باشا (١٨٦٣ — ١٨٧٩) حين حظى التعليم منه بعناية فائقة . فأعيد فتح المدارس وتنظيمها ، تحت إشراف

---

(١) ميشيل فاسيليتش لومونوزوف أديب وشاعر روسى ولد فى (شولموجورى Chomogori) سنة ١٧١١ م وتوفى سنة ١٧٦٥ م . (المعرب)

على باشا مبارك ، قرين رفاعة . وحوالى هذا الوقت ظهر أثر جمال الدين الأفغانى فى حياة مصر ، الأدبية ، والدينية ، والسياسية . وكان الأفغانى قائد حركة (الجامعة الاسلامية Pasl-Islamism) وأبا النهضة الروحية فى العالم الإسلامى . والحق أنه لا يزال أثره ملموسا إلى اليوم . ولمقاومة حركة الأفغانى ، ظهرت حركة أزهرية مناهضة ، يتزعمها أمثال (عليش) و (الباجورى) . وقد تصدر لقيادة جماعة الإصلاح ، الشيخ محمد عبده ، تلميذ الأفغانى المكين ؛ والشيخ العباسى ، شيخ الأزهر وابن الشيخ محمد المهدى ، وهو شيخ ذو أثر واضح فى عهد محمد على ، وقد كان من قبل قبطيا .

ونرى خلال هذا العصر طلائع الصحافة العربية ، ولا تزال بعض الصحف التى كانت تصدر يومئذ ، تظهر ، وهى من خير الصحف . وفى هذا العصر نمت مدرسة متحمسة من المترجمين المصريين والسوريين ، الذين كان لهم وللجهود الصحافية أثر واضح فى تقريب المصريين من التفكير الغربى . وأخيرا ، وليس آخراً ، نمت فى هذا العصر أيضاً طبقة من الساخطين ، تتمثل فى ضباط الجيش ، وعلماء الدين ، والمفكرين الذين لم يرضهم سير الأمور فى مصر ؛ والذين شجعوا الفلاحين المعورين المرهقين بالضرائب ، على أن يجأروا بالشكوى مما يحسون .

وهذا السخط العام - خلال عصر إسماعيل باشا - عبر عنه بطرق مختلفة . وأحد المبرزين ، من أبطال الدفاع عن الفلاح المسكين (جيمس سانوا Gamis Sanua وهو يهودى مصرى ، اشتهر بلقب (الشيخ أبو نضارة زرقاء) . ومن غرائب التاريخ أن يكون يهودى صدر الطليعة ، فى حركة البعث السياسى والاجتماعى فى مصر . وقد بدأ سانوا حياته مؤلفا لمسرحيات المأساة ، وأصدر فعلا اثنتين وثلاثين رواية فى اللغة العربية . فلما اشتغل بالسياسة غطت شهرته فى هذا الميدان على كل ما قام به على المسرح . وكان فى عمله على أتم التعاون مع جمال الدين ، ومحمد عبده ؛ وبمساعدتهما بدأ يصدر سنة ١٨٧٧ صحيفته النقدية ، التى كانت تحمل لقبه[١] . ولما كانت هى الأولى من نوعها ، فقد صارت أنموذجا

---

(١) تغير اسم هذه الصحيفة ، فهى : (أبو نضارة) و (الحاوى) و (الوطنى المصرى . ولأبى نضارة ثلاث مؤلفات أخرى مطبوعة ، اثنان عن رحلته ، والثالث كتاب أدبى .

نسجت على منواله الصحف التى صدرت بالعامية ؛ وكانت مع ذلك خيرها . وكل عدد من أعدادها كان يشمل هجمات عنيفة على الحكومة ؛ فلما بلغ وصفها لحياة الفلاح المريرة حدا لم تتحمله الحكومة ، نفى أبو نضارة . فتابع إصدار صحيفته فى باريس ، حيث نال شهرة فائقة ، وهى بلا ريب ، شهرة ما كان لينالها لو ظل فى مصر . وانتشرت الصحيفة فى العالم الإسلامى ؛ وصارت لسان الحركة الوطنية المصرية ، وحركة الجامعة الإسلامية التى ينضوى تحت لوائها جميع الثائرين من المسلمين . وجمال الدين ، ومحمد عبده ـ وقد نفيا كذلك من مصر ـ وغيرهم من مسلمى تركيا ، وفارس ، وشمال افريقية ، ومن يعطف على قضيتهم من الأوربيين مثل (ولفرد سكَون Wilfrid Lcawen Blunt) كل هؤلاء اتخذوا طريقهم الى باريس ، يشجعون وينصحون ، وقد أنشأ هذا اليهودى جبهة من الطلائع ، نظمت جهود الثائرين من المسلمين ، وأمدتها ؛ إذ كان له يد فى معاونة (الثورة العرابية) فى مصر ، و (الحركة المهدية) فى السودان ، وحركة الشبيبة التركية . ومع ذلك فقد استقبله سلطان تركيا وشاه إيران ، وكرماه على عمله فى سبيل الإسلام . وكان الحصول على نسخ (أبو نضارة) عسيرا جدا ، ولكن قراءتها جديرة بما يبذل فى سبيلها من جهد ومال .

وفى أيام أبى نضارة ، والصحافة المحلية ، بدأت تظهر مدرسة من الكتاب ؛ جعلت همها أن تهىء اللغة العربية ، حتى تستطيع أن تعبر عن الأفكار الجديدة التى نجمت عن الاتصال بالغرب ، وتمدنا كتاباتهم ، صحيفة تلو صحيفة ، بأمثلة من العربية المترجمة كلمة لكلمة ، من لغة أوربية مع رعاية طفيفة لتقاليد العربية . وعلى تتابع السنين ، وبعد أن رقى المصريون الصحافة ؛ ظهر أسلوب فى اللغة العربية أكثر طواعية ومرونة من اللغة القديمة .

وقد جر إفلاس البلاد ، فى عهد اسماعيل باشا ، والإشراف الثنائى ـ الانجليزى الفرنسى ـ على المالية المصرية سنة ١٨٧٩ ، إلى الثورة العرابية ، أنموذج كل الثورات العربية التى أعقبتها ، وإلى الاحتلال الانجليز لمصر سنة ١٨٨٢ . وقد سادت الصلات التى قامت بين مصر وبريطانيا العظمى ، التفكير السياسى المصرى ، منذ ذلك الحين . « يتبع »

مدرسة النقد الادبى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربيـة

مقاييس النقاد :

ابتدع النقاد مقاييس كثيرة جعلوها ميزان المفاضلة بين الشعراء ، وليس هنا موضع تفصيلها ، ولكن لا بأس بذكر بعضها بإيجاز حتى نتبين مدى اختلاف الأذواق الفنية ، ونرى أن كثيراً منها لا علاقة له بالجمال الفنى فى الشعر ، وأن بعض الأغراض العلمية وجهت النقد الأدبى وجهة غير سليمة ، وأن العقيدة الدينية والجو السياسى كان لهما أثر كبير فى بعض الحالات ، كما كان للتعصب جانب عظيم من عدم الإنصاف وسوء التقدير .

فأبو عمرو بن العلاء تعصب للشعر القديم تعصبا أعمى ، وكان يعد أمثال جرير والفرزدق محدثين ، ويقول : لقد كثر هذا المحدث حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته . وحكى الأصمعى أنه جلس إليه عشر حجج (فى بعض الروايات ثمانى حجج) فما سمعه يحتج ببيت إسلامى (ص ٧٣ عمدة ، ص ٢٥٦ بيان ، ص ٢ الشعر والشعراء) . وقد تبعه الأصمعى فى اعتناق هذا المبدأ ، وهو الذى قال فى بشار : هو خاتمة الشعراء ، والله لو لا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (ص ١٤٣ أغانى دار الكتب) ، وكذلك كان ابن الأعرابى ، فكان كل من الثلاثة يقدم القديم عن عصره على المتأخر (راجع حججهم فى ذلك ص ٢٦٢ سر الفصاحة) .

والذى وجههم هذه الوجهة — هو حاجتهم فى الشعر إلى الشواهد ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ، ثم صار ذلك منهم لجاجة (١ ص ٧٣ عمدة) .

وكلام ابن شرف القيروانى يشعر بأن التقدم فى الزمن له أثر كبير فى الحكم النقدى ، حيث قال عن ابن دراج القسطلى : « شاعر ماهر عالم بما يقول ، تشهد له العقول بأنه المؤخر فى العصر ، المقدم فى الشعر » (ص ٢٦ أعلام الكلام) .

وعلى العكس من هذا نرى أبا على الحاتمى والثعالبى وابن خلدون يفضلون شعر المتأخرين على شعر المتقدمين ، ويرون أن الشعر تدرج فى الرقى بحسب أزمانه (٣ ص ١٦ زهر الآداب ، ١ ص ٣ يتيمة الدهر ، ص ٥٧٩ مقدمة ابن خلدون) .

وبعض النقاد جعل القدرة على الإطالة أساس المفاضلة ، ورأى آخرون عكس هذا وعابوا الكميت على الإطالة (ص ١٦٢ ، ١٦٣ عمدة) .

ولقد كان للسياسة والعامل الدينى أثر واضح فى النقد الأدبى ، وطالما تأثر النقاد بهما فانحرفوا عن طريق الفن الصحيح . وسنرى فيما بعد مثلا للنقد المتأثر بالدين والسياسة ، وممن جعل العامل الدينى أساسا فى تقويم الشعر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنه لما سمع قول سحيم عبد بنى الحسحاس :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

قال له : لو كان شعرك مثل هذا لأجزتك . وكان السيد الحميرى من أجود الناس شعرا ، ولكن هجر الناس شعره ، لأنه سب بعض الصحابة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم (٧ ص ٢٢٩ أغانى دار الكتب ، ٢ ص ١٣٥ بيان) .

وقد جعل بعض النقاد شعر الزهد خيرا كله ، وشعر الهجاء شرا كله (١ ص ٩٨ عمدة) وهو بلا شك متأثر بالدين والأخلاق ، وبهذه النظرة قال أبو دلامة للمنصور : أشعر بيت قالته العرب قول الشاعر (٢ ص ١٦ عمدة) :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وقال أبو عمرو الشيبانى : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الأرفات لاحتججنا بشعره (ص ٩٢ نقد النثر) . وانتقد أبو دلف قول الشاعر :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلق بكل بلاد إن حللت بها أهلا بأهل وجيرانا بجيران

بقوله : هذا ألام بيت قالته العرب (١ ص ١٩٢ ديوان المعانى) لأنه ضد حب الوطن ، وهذا مقياس خلقى .

وبعض النقاد يرى أن أساس المفاضلة هو الجمع بين القطع والرجز والقصيد ، ويصف الشاعر الذى يجمع بينها بالكامل كالفرزدق وأبى نواس (١ ص ١٦٤ عمدة) . وقال الحطيئة : لولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، أما الباقون فأنا أشعرهم (١ ص ٧٩ عمدة) .

وقال أيضا : خير الشعر الحولى المنقح (١ ص ١٧٦ بيان) . وأنشد ابن الأعرابى فى هذا المعنى (١ ص ٧٢ بيان) :

وبات يدرس شعرا لا قران له قد كان ثقفه حولا فما زادا

وفضل بشار ضد ذلك إذ يقول :

فهذا بديه لا كتحبير قائل إذا ما أراد القول زوره شهرا

وهناك فريق يرى أن فضيلة الشاعر معرفته بوجوه الإغراق والغلو ، ويرى الحذاق من النقاد أن خير الكلام الحقائق ، فإن لم تكن فما قاربها وناسبها (٢ص٥٧عمدة) والمبرد من هذا الرأى وابن رشيق يؤيد سابقه (٢ص٥٨عمدة) . وابن شبرمة يفضل بعض الأبيات لأنها أبكار (١ ص ٣٨ ديوان المعانى) . وأغرب الآراء قول بعضهم : خير المدح ما كان بتفضيل شخص على آخر (١ ص ٤٣ ديوان المعانى) .

هذه آراء مختلفة ، عرضتها مع طولها بعض الشىء ، لأبين إلى أى حد تفاوتت نظرات النقاد واضطربت وسارت فى نهج ذى عوج ، وأنهم لم يقفوا عند ميزان واحد يقيسون به أقدار الشعر ومنازل الشعراء .

وهناك فريق منهم يحصر الموازنة بين الشعراء أو الأبيات الشعرية فى جانب خاص ؛ فابن رشيق يرى أن طرفة بن العبد أفضل الناس واحدة وهى المعلقة (١ ص ٨٤ عمدة) . وأبو ذكوان يعد بائية النابغة الاعتذارية التى أولها :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب

أفضل من جميع الشعر (١ ص ١٧ ديوان المعانى) . ويقول أبو بكر الصولى فى قصيدة المؤمل ابن أميل التى أولها :

هو المهدى إلا أن فيه مشابه صورة القمر المنير

لو قلت إنه لايعد شاعرا إلا بها ما أبعدت (ص ٨٦ جمع الجواهر) . وقال بعضهم : أشعر الناس فى الرقيق راشد بن إسحاق المعروف بأبى حكيمة الكوفى بقصيدته التى أولها (٣ ص ٧٥ زهر الآداب) :

ومستوحش لم يمس فى دار غربة ولكنه ممن يحب غريب

أما نظرتهم إلى الأبيات الفردية بالنسبة للشعر كله أو لبعض أبوابه ، فعلى غرار نظراتهم السابقة فى خضوعها للأذواق المختلفة والتقديرات الخاصة ؛ ولذا جاءت أحكامهم النقدية كثيرة التباين . والمثل فى ذلك كثيرة منشورة فى كتب الأدب .

ومع هذا التفاوت الشديد نرى أنه من الممكن التماس عذر لهؤلاء النقاد ، ولو كانت أحكامهم خاطئة ، لأن مصدر أكثرها اختلاف الأذواق أو سوء التقدير ، ولكن الذى لا يمكن اغتفاره هو تلك العصبية الجامحة التى جعلت بعض النقاد يستحسنون الشعر لذاته ، فإذا عرفوا أنه لشاعر يبغضونه انقلب الحسن سوءا والجمال قبحا .

ومن هؤلاء ابن الأعرابى ، وكان شديد العصبية على أبى نواس وأبى تمام [١ ص ٢٨٨ زهر الآداب ، ص ٨ ، ١٠ موازنة ، ص ١٧٦ صولى] ، ودعبل عدو الأخير [ص ٨ موازنة] والحاتمى والمهلبى والصاحب بن عباد وابن لنكك خصوم المتنبى (ص ٩٩ ، ١٠٠ يتيمة ، ص ٣١٤ وساطة) وكذلك كان أبو العلاء شديد العصبية على ابن هانىء (ص ٦ وفيات الأعيان) مع أنه وصفه بالإجادة فى الشعر (ص ١٥٤ رسالة الغفران) ، ومثله السرى الرفاء المتحامل بشدة على الخالديين (ص ١٠٣ يتيمة) . ولولا خوف الإطالة لذكرت مثلا كثيرة لهذه النظرات الطائشة .

ومن الأسف أن كثيرا من هؤلاء المتعصبين ممن يشار إليهم بالبنان فى التاريخ

الأدبى ، وممن لهم مكانة عند الأدباء. قال ابن المعتز : وهذا الفعل من العلماء مفرط فى القبح لأنه يجب ألا يدفع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا ، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع (٢ ص ٢٥١ تاريخ بغداد) .

ومما يعزى الأدباء عن هذه الأخطاء ، أن هنـاك رجالا من أساطين النقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولزموا جادة الإنصاف ، واتبعوا سبيل الرشاد ، فبسطوا للحق أرديتهم ، ووطأوا للعدل أكنافهم ، وعنت لسلطان النزاهة وجوههم ، فجعلوها مبتغاهم ، والحكم على أساسها غايتهم ، ورفعوا لمدرسة النقد أعلاما خفاقة ، وأقاموا لها صرحا عاليا تباهى به الأجيال ، وتفاخر بعظمته الآجال .

وفى مقدمة هؤلاء بشار والمبرد والبحترى والجاحظ وابن قتيبـة وقدامة ابن جعفر والحسن بن بشر الآمدى والقاضى الجرجانى وأبو منصـــور الثعالبى وابن سنان الخفاجى وابن رشيق .

واقد اتفقوا تقريبا على مقياس واحـد جعلوه أساس المفاضلة بين الشعراء والأدباء ، ومعيار الموازنة بين القصائد والأبيات الشعرية والآثار النثرية .

ذلك هو قوة الشـاعرية والإجادة فى الشعر أو النثر لفظا ومعنى ، وإن كانت عباراتهم مختلفة فى التعبير عن معنى الجودة الشعرية كما سيأتى .

كذلك أجمعوا على أن الشعر لا يكون جيدا إلا إذا وافق عمود الشعر العربى ، وخلا من العيوب الشعرية ، التى سنتكلم عنها فيما بعد ، إن شاء الله ؟

الفرصة

قال عمرو بن العاص لمعاوية : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين ! أشجاع أنت أم جبان ؟ فقال معاوية :

شجاع إذا ما أمكنتنى فرصة ‏ ‏ ‏ ‏ وإن لم تكن لى فرصة فجبان

وقال الأحنف بن قيس : إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه .

الذكرى الثالثة

لوفاة الامام الدجوى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد يوسف الدجوى

المراقب بمعهد القاهرة

فى مساء الثلاثاء ٤ صفر سنة ١٣٦٥ ﻫ الموافق ٨ يناير ١٩٤٦ م صعدت الى بارئها روح الإمام الربانى المغفور له فضيلة العلامة الشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء، الذى عاش أعواما مباركة قضاها فى الأعمال الصالحة، ونشر العلوم النافعة، والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجهاد فى سبيله بقلمه ولسانه وماله، إذ كان مفسر الأزهر ومحدثه، بل فيلسوفه وكاتبه وخطيبه، كما أنه رحمه الله كان موضع ثقة الجماهير الإسلامية فى شتى الأقطار، تتوارد إليه استفتاءاتهم من جميع الجهات، وتصلهم مقالاته النافعة بمجلة الأزهر وغيرها من المجلات والصحف العربية والأفرنجية؛ كما أن مؤلفاته الممتعة سارت بها الركبان الى سائر أنحاء العالم.

فمنها كتاب سبيل السعادة الذى ألفه عام ١٩١٢ م فى فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية، والرد على الطبيعيين، وقد قرظه إمام اللغة المرحوم الشيخ حمزة فتح الله بكلمة طويلة منها «أحسنت يا شيخ الدين، وأديت فرض الكفاية عن علماء المسلمين، وشفيت السقام، ورويت الأوام».

ومن مؤلفاته رحمه الله الجواب المنيف فى الرد على مدعى التحريف فى الكتاب الشريف، أخرجه عام ١٩١٣ م رد فيه على القس الإنكليزى (كولد ساك) الذى طعن القرآن الكريم ونقص من شأن الإسلام، فأتى الشيخ على مزاعمه فهدمها من أسها، وظل يتابع حملاته على كتاب هذا القس حتى صودر.

ومن مؤلفاته النادرة: رسالة فى تفسير قوله تعالى «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»، لم يتقيد فيها بما قاله المفسرون، بل ذهب فيها كل مذهب، وتصرف فيها

كل متصرف ، ودعا فيها علماء المسلمين شرقا وغربا للاجتماع والتشاور لاستنباط أسرار القرآن قبل أن يتهددهم الخطر .

ومنها المحاضرة السلطانية التى ألقاها بالأزهر الشريف وقت زيارة المغفور له جلالة مولانا الملك أحمد فؤاد الأول ، وقد أعجب بها جلالته رحمه الله .

ومنها رسالة فى علم الوضع ، أخرجها عام ١٩١٧ م وقد نالت الجائزة الأولى من لجنة فحص الكتب العلمية .

ومنها مذكراته فى الرد على كتاب الإسلام وأصول الحكم ، وكلماته فى السلفيات الحاضرة ، وقد طبع هذه الكلمات علماء دمشق ونشرت هناك .

ومنها صواعق من نار فى الرد على صاحب المنار .

ومنها هداية العباد إلى طريق الرشاد ؛ جمع فيه من محاسن الدين الإسلامى الشىء الكثير ، وقد انفرد فيه بأشياء لم يسبقه بها غيره .

ومنها كتاب رسائل السلام ورسل الإسلام ، انتهى من تأليفه عام ١٩٢٢ م على أثر تكليف مشيخة الأزهر له بإخراجه بمناسبة اعتناق الألوف المؤلفة من أهل أوربا وأمريكا ، الدين الإسلامى ، وقد ترجمته مشيخة الأزهر باللغة الانكليزية وطبع بالمطبعة الاميرية ، وأرسل إلى الجهات النائية .

وقد وجهت صحيفة الأهرام الغراء فى نهاية عام ١٩٣٩ م نصحها وإرشادها الى زعيمى دول المحور الهر هتلر والسنيور موسولينى باتباع ما جاء بهذا الكتاب والعمل بالتعاليم الموجودة بين دفتيه ، إذ أنها تدعو للوئام والسلام . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذه العجالة ماكان يقوم به من المحاضرات العلمية فى تفسير آى الذكر الحكيم ، وحديث النبى الكريم ، عقب صلاة الفجر بالرواق العباسى بالأزهر ، وكان جلة العلماء ، ومثقفو الطلبة حريصين على تلقى هذه المحاضرات ، للارتشاف من منهل الإمام الكوثر العذب ، يبادرهم إليها ، سعادة السيد المجددى ، وزير الأفغان المفوض بمصر .

وقد كتب بعض المستشرقين ، عند استماعه هذه المحاضرات ، مقالات ممتعة ، نشرتها صحف فرنسا بعنوان (سبنسر وباكون ، فى الأزهر الشريف) الخ .

أما ناحيته العملية ، فتتمثل فيما قام به من تأليف الجمعيات الإصلاحية الدينية ، التى منها جمعية النهضة الإسلامية لمناهضة المبشرين الذين استشرى فسادهم ،

وعم ضررهم حتى ضجت البلاد من شرهم، فكانت جمعية موفقة أدت واجبها خير أداء، وانتشرت فروعها فى جميع الأنحاء، فوقفت هذا التيار الجارف .

ومنها الجمعية العظمى لمساعدة منكوبى حرب الأناضول، بمناسبة الحرب التركية اليونانية، وأسندت رئاستها إليه أول مرة، وبمناسبة تأسيسه لها أرسل إليه الخليفة عبد المجيد كتاب شكر وثناء وتقدير .

ولم يقتصر نشاط الشيخ على ما تقدم، بل لم يلهه الجهاد العلمى عن الجهاد الوطنى، فكانت له مواقفه المشهودة فى أهداف البلاد الوطنية، ومن تلك المواقف احتجاجه لدى العميد الانكليزى على اعتقال المرحوم الزعيم الخالد سعد زغلول وصحبه المجاهدين المخلصين، إذ قال «عجبا لسياستكم العتيقة كيف يفوتها أن شدة الضغط تولد الانفجار، وأن تقليم الأشجار لا يزيدها إلا تهيجا ونماء، وأن النفوس الإنسانية متى امتلأت بشىء استعذبت الموت فى سبيله، ولا تظنوا ياجناب اللورد أن هذه احتجاجات تفوه بها الألسن، وإنما هى قلوب متأججة وأرواح مشتعلة وأعصاب متنبهة؛ فاعملوا إنا عاملون، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون». وقد نشرته الصحف فى حينه .

ومن مواقفه التى تشهد له بالفخر والأريحية السامية والإقدام والشجاعة؛ ذلك الكتاب الذى رفعه الى جلالة ملك الإنكليز طالبا به تخفيف حكم الإعدام الذى صدر على شاب من شباب الأزهر (وهو الشيخ محمد الشافعى البنا) وقد استجيب طلبه . كما أن الأستاذ الإمام كان محاضرا ممتازا تدعوه الجمعيات الاسلامية لإلقاء محاضرات علمية اجتماعية .

ولو أننا تتبعنا مواقفه المجيدة وأعماله الحميدة لضاق المقام عن ذكرها . فلنكتف الآن بالاشارة إليها، إذ أن الإمام الراحل فى غنى عن التعريف .

له شهد الأنام بكل فضل وما أغنى النهار عن الشهود

وليس بدعا فى الشيخ رحمه الله أن يبلغ هذا الكمال فى العلوم والمعارف والدعوة الى سبيل الله، والوقوف هذه المواقف الوطنية المشرفة، إذ هو من سلالة الحسن بن على رضى الله عنهما، فجده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويا حبذا لو اهتمت الجهات المختصة بتخليد ذكراه فتسمى قاعة المحاضرات الأزهرية باسمه، كذلك ضاحية عزبة النخل التى كان يسكنها إلى أن لقى ربه . فذلك أقل ما يجب له، رحمه الله ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

احاديث الاستاذ الاكبر

مع السفراء والمفوضين السياسيين

العلاقات بين الحبشة ومصر

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بمكتبه بالإدارة العامة قبل ظهر يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ سعادة وزير الحبشة المفوض ، وبعد أن قدم الوزير تحاياه للأستاذ الأكبر، رحب به فضيلته ، متمنيا له طيب الإقامة فى مصر ، فشكر الوزير للأستاذ الأكبر ترحيبه ، وقال إنه سعيد ببقائه فى مصر المضيافة التى رحبت به ووسعته حين كان فى المنفى إبان أزمة بلاده .

فقال الأستاذ الأكبر : إن مصر والحبشة أختان ، تجمعهما روابط تاريخية ، وصلات دينية ، فإخواننا أقباط مصر تربطهم بالحبشة روابط وثيقة .

فقال سعادة الوزير: إنه الى جانب هذه الصلات فإن بيننا صلة خالدة هى صلة البنوة لنهر النيل العظيم ؛ فالنيل يربط أثيوبيا بمصر منذ عهد سحيق ، وقد حرصت الأختان على مر الأيام ، على توثيق هذه الصلات ، وأعتقد أنه بفضل عاهلينا العظيمين : جلالة الملك فاروق، وجلالة هيلا سلاسى أمبراطور الحبشة، ستقوى هذه الروابط الخالدة وتشتد .

فقال الأستاذ الأكبر : إن هذا هو خير ما يرجوه ، فللأحباش فى نفوس المسلمين ذكرى طيبة ، منذ عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ فقد أكرم النجاشى حينذاك وفادة المسلمين ، وأحاطهم بالعناية والرعاية ، ولن ينسى المسلمون للنجاشى العظيم هذه المأثرة ، وهم على ثقة أن جلالة الإمبراطور هيلا سلاسى سيترسم خطى سلفه الكبير ، من حسن الرعاية للمسلمين ، والحرص على مصالحهم ، والتمكين لهم من حرية العبادة ، ومن الوصول الى حقهم فى وظائف الدولة

التى هم شطرها الحيوى . وود الأستاذ الأكبر أن تكون علاقات المسلمين بإخوانهم المسيحيين وغيرهم فى الحبشة، قائمة على أساس العدالة والمساواة فى الحقوق والحريات .

فقال سعادة الوزير : إن حكومة الحبشة الحاضرة تولى المسلمين كل عناية ورعاية، وإنها لا تفرق فى المعاملة بين أحد من رعاياها، بل كلهم لديها متآخون لا فضل لأحد منهم على الآخر، وهى لا تقيم للفروق الدينية وزنا فى تقديرها للمواطنين، بل كلهم لديها سواء، المسيحيون منهم والمسلمون والأقباط .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه يسره أن يكون ذلك هو رائد حكومة جلالة الامبراطور، وإنه عظيم الثقة فى جلالة الأمبراطور، وحسن توجيهه، وحرصه على أن يتمتع شعبه مسلموه وأقباطه ومسيحيوه بالمساواة الكاملة كمواطنين مخلصين لوطنهم وجلالة أمبراطورهم . ثم قال : إنه تلقى أخيرا بضع شكاوى تقول إن المسلمين غير متمتعين بحقوقهم فى ولاية الوظائف العامة، وهم يكوّنون نصف الشعب الأثيوبى، وإنهم لا يعاملون على قدم المساواة مع إخوانهم من أبناء الديانات الأخرى، فوددت أن أنهز هذه الفرصة لألفت نظر سعادة الوزير الى هذه الشكاوى، لأعلم رأيه فيها ومبلغها من الصحة، ولأرجوه أن يبلغ حكومة أثيوبيا أملى فى أن يكون للمسلمين من الرعاية ما يمكن لهم من حقوقهم فى المساواة مع غيرهم .

فقال سعادة الوزير : إنه عظيم الاغتباط أن أطلعه الاستاذ الأكبر على هذه الشكاوى، فقد أتاح ذلك له الفرصة لأن يقرر باسم حكومته أن شيئاً من هذا لا يحدث إطلاقا، وأنها لا تفرق بين أحد بسبب مذهبه الدينى، وأنها تعامل المسلمين على قدم المساواة مع غيرهم، والحكومة جد حريصة على رعاية حقوق المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة، فما بالها بمواطنيها، ويكفى أن يسأل الأستاذ الأكبر الجاليات الإسلامية من الحجاز والشام وغيرها المقيمة فى الحبشة عن مبلغ رعاية الحكومة الأثيوبية لمصالحهم، وأعتقد أنهم سيعطون الأستاذ الأكبر صورة صادقة عن سياسة المساواة وعدم التحيز لأحد بسبب دينه، التى تتبعها حكومة أثيوبيا، ورجا سعادة الوزير لكى يتأكد الأستاذ الأكبر من سياسة

المساواة وعدم التحيز التى تتبعها حكومة أثيوبيا نحو رعاياها المسلمين، أن يرسل وفداً ممن يثق بهم إلى الحبشة ليطلعوا على الأحوال هناك، وليروا بأعينهم مبلغ تجافى هذه التقارير من واقع الأمر.

أما عن الوظائف العامة فإن للمسلمين عددا منها؛ إذ منهم محافظون وقضاة ونواب وشيوخ، وترجع قلتهم نسبياً إلى أن المسلمين مع بعض الطوائف المسيحية يأنفون من الالتحاق بالمدارس المدنية، ولا يقبلون على الدراسات المدنية التى تعتبر ضرورة لمن يلون الوظائف العامة، وهم دائما ينظرون إلى هذه المدارس نظرة الشك والارتياب فى أنها تعمل على تحويل أبنائهم عن دينهم. وأما المتعلمون منهم فكلهم يشغلون وظائف فى الدولة، وبودى أن أعلم حالة واحدة حرم فيها متعلم مسلم من ولاية الوظائف العامة بسبب دينه.

فقال الأستاذ الأكبر: إنه يشكر لسعادة الوزير هذا البيان، ويثق بحسن نيات جلالة أمبراطور الحبشة، ويرجو أن تفسح الحكومة مدارسها المدنية لأبناء المسلمين، وإنه بدوره كشيخ للجامع الأزهر سيوجه نداء لأبنائه المسلمين فى الحبشة ليقبلوا على المدارس المدنية، ليتعلموا مايؤهلهم للحياة العامة والوظائف الكبرى، إذ أن ديننا الحنيف لا يمنعنا إطلاقا من الدراسة والنظر والتعلم ما دام ليس فى مناهج الدراسة ما يمس عقائدنا أو يتعرض لها.

وقال الأستاذ الاكبر: إن الأزهر دائما يرحب بأبناء المسلمين الراغبين فى العلم، وإنه بفضل الرعاية الملكية السامية التى يوليها جلالة الفاروق لأبناء البعوث الإسلامية، على استعداد لقبول الطلاب المسلمين من الأحباش ليعاونوا على رفع مستواهم العلمى.

فقال سعادة الوزير: إن روحا جديدة بدأت تنفذ الى صفوف المسلمين وغيرهم، فبدأوا يعدلون عن تعصبهم ضد المدارس المدنية، وإن نصيحة من الأستاذ الأكبر لا شك سيكون لها أثرها فى زيادة الإقبال على المدارس، ليتحقق بذلك للجميع المعرفة والمساواة.

فشكر له الأستاذ الأكبر هذا الشعور الطيب ، ورجاه أن يرفع تحياته وأطيب أمانيه لجلالة الامبراطور هيلا سلاسى ، مع رغبته الخالصة فى أن يكون المسلمون دائما محل رعايته .

فوعد الوزير بإبلاغ حكومته كل ملاحظات الأستاذ الأكبر ، كما وعد برفع تحاياه الى جلالة الامبراطور المعظم .

واستأذن الوزير فى الانصراف فودعه الأستاذ الأكبر شاكرا .

نصيحة لمسلمى الحبشة

وبهذه المناسبة يوجه الأستاذ الأكبر الى إخوانه وأبنائه المسلمين فى أثيوبيا نصيحة خالصة : أن يقبلوا على تعلم كل ما ينفعهم فى دنياهم ، ويمكن لهم من التقدم العلمى والرقى والحضارة ، ويناشدهم أن يقبلوا على تعليم أولادهم فى المدارس المدنية ما دامت مناهجها ودراساتها لا تمس عقائدهم ولا تتعرض لأصول دينهم ، وليعلموا أن دينهم الحنيف يدعو الى الدرس والتأمل والنظر والتسلح من المعارف بما يمكن لهم أن تكون كلمة الله هى العليا .

فى عيد الجلوس الملكى

نشرنا فى العدد الماضى كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر فى ذكرى المغفور له الملك فؤاد . وننشر هنا نص كلمة فضيلته التى أذاعها فى عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول فى مساء ٦ مايو سنة ١٩٤٩

أيها المستمعون الكرام :

فى إحدى المناسبات السعيدة قال حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق أعزه الله :

« إن الملك لا يستمد سعادته من انتشار ظله على الأرض ، ولكن يستمد هذه السعادة من تمكين محبته فى القلوب . وإنى لأحمد الله أن وجدت فى كل قلب من قلوبكم عرشا أعتز به وأفتديه » .

وإنه من يمن الطالع على الأمة أن تجد فى مليكها كل آمالها ، وأنه الوطنى الأول الذى يعتز بحبها ، ويعمل لرفاهيتها وسعادتها .

والأمة تذكر لجلالته تلك الكلمة الخالدة التى قالها أعزه الله لوفد مصر الذى كان مسافرا لمفاوضة انجلترا فى سنة ١٩٤٦ ، وهى قوله :

« أنتم تعلمون مبلغ حرصى على إسعاد شعبى ، فمتى فرغتم من هذه المهمة السياسية الكبرى فإنى واثق من تعاونكم على تنفيذ برنامج الإصلاح الاجتماعى للنهوض بالشعب ورفع مستواه . فنحن نرغب فى أن نوصل الى العامل والفلاح بأيدينا وبقلوبنا هذا القدر من الهناءة الإنسانية ، فتشعر نفس الشعب بالرضا ، وبقيمتها الوطنية » .

وكان جلالته فى مقدمة العاملين لرفعة شأن الفلاح ورفع مستواه ، حيث أشرف بنفسه على تنفيذ برنامج للإصلاح فى مزارعه تناول أمور الصحة والتعليم ، ورفع مستوى المعيشة .

وأهاب بالقادرين من الأمة أن يعملوا ويعاونوا فى سبيل الإصلاح الاجتماعى ، وشجعهم بما أوتى من حكمة وسداد ، فاستجاب الكثيرون منهم لدعوته وحدانا وجماعات ، وكان لاستجابتهم أثر ملحوظ فى شتى الخدمات الاجتماعية المتعددة النواحى . وأنشئت عدة وحدات صحية واجتماعية ، كما أنشئت ملاجىء ومصحات ومبرات فى جهات متعددة من القطر .

وتنفيذا للإرادة الملكية السامية قام مجلس الوزراء والمجلس الأعلى لشئون العمال والفلاحين بدراسة المشرعات التى تؤدى الى النهوض بالريف وأهله ، ثم وضع برنامج للخدمات الصحية والزراعية والثقافية والاجتماعية لينفذ فى عشر سنوات ، وقد بدىء فى تنفيذه فى إحدى مناطق مديرية المنوفية (مركز منوف) .

وتحقيقا لرغبته السامية أعدت وزارة المالية برنامجا لبيع الأراضى الحكومية الصالحة للزراعة فى مختلف أنحاء القطر لصغار الزراع ، وتخصيص جانب من هذه الأراضى لتوزيعها على المعدمين ، على أساس خمسة أفدنة لكل أسرة ، ومسكن صحى ، وإعانة مالية لشراء الماشية والتقاوى ، لكى يمكن استثمار هذه الأراضى فور توزيعها ، وقد وضعت لهذا التوزيع قواعد تتضمن الرفق فى الثمن وتقسيطه على آجال طويلة يصبح بعدها المنتفع مالكا للأرض .

وقد خصصت المجموعة الأولى للتوزيع على المعدمين ، وسميت منشأة فاروق ، تيمنا باسمه الكريم ، وهى مكونة من ثلاثة آلاف فدان موزعة على أربع قرى تقيم بها خمسمائة وسبع وتسعون أسرة ، وعدد مساكنها ستمائة واثنان وعشرون مسكنا .

وقد تفضل جلالة الملك حفظه الله بافتتاح هذه المنشأة ، وتوزيع الأطيان والمساكن بالقرعة على أهلها فى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٨ .

وفى ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى أشار جلالته بإنشاء مدينة للعمال بإمبابه ، وقد تمت عمارة قسم منها ، والباقى يسير الى التمام .

أما التعليم فقد اتسع نطاقه بما لا يقاس فى جميع مراحله ، لا فرق فى ذلك بين ما يقوم به الأزهر والمعاهد الدينية ، وبين ما تقوم به وزارة المعارف .

وكان للتوجيهات السامية أثر ظاهر فى نشاط الأزهر وقيامه برسالته فى شتى النواحى . فقد عنيت مشيخة الأزهر بنشر الثقافة الدينية والعربية فى كثير من البلاد فى أنحاء العالم .

ففى المملكة العربية السعودية بعوث من العلماء : فى المدينة ومكة والرياض والطائف وعنيزة ، وبعوث أخرى من العلماء فى الكويت والعراق ولبنان والخرطوم وجوبا وملكال بالسودان وأسمرة بأريترية وجزر الفليبين بالمحيط الهادى ، ومبعوث فى المركز الثقافى بلندن ، ومندوب ثقافى بكراتشى بالباكستان ، ولا تزال المشيخة توالى الاتصال ببعض الحكومات لإرسال بعوث أخرى من العلماء .

وللأزهر بعوث من العلماء يتعلمون فى جامعات أوروبا للتزود من العلم واللغات الأجنبية .

وللأزهر عناية خاصة بأبنائه الوافدين إليه من البلاد فى أوروبة وآسيا وإفريقية ، وهم الآن زهاء ألف طالب ، وقد شملتهم الرعاية الكريمة السامية ، فنظمت أمورهم بلائحة ، وأنشئت لهم مراقبة خاصة للإشراف عليهم والعمل على راحتهم ، ورتبت لمن لا يعرفون العربية منهم دروس خاصة تمهيدا لإلحاقهم بالأقسام النظامية ، وأسكن كثير منهم فى مساكن خاصة مؤثثة ومزودة بالماء والنور ، وجعلت لهم رواتب شهرية لتيسير معاشهم فى مصر .

وقد أشار جلالته أعزه الله بتسميتهم البعوث الإسلامية ، وكانوا يسمون الغرباء . وهم على الدوام ملحوظون برعاية جلالته ، وموضع عطفه وبره ، وموضع التكريم من مشيخة الأزهر وإخوانهم الطلاب المصريين .

ونهض قسم الوعظ والإرشاد بأعباء الرسالة الاجتماعية الموكولة إليه فى محاربة الجهل ، وفى نشر الثقافة الدينية بين أفراد الأمة من الرجال والنساء .

وقد خص النساء بدروس عامة دورية فى أماكن أعدت لهن فى كثير من بلاد القطر يبلغ فيها المستمعات أسبوعيا عشرات الألوف . وكان لهذا المجهود أثر طيب فى رفع مستوى المرأة المسلمة ، ليكون البيت الإسلامى قوىّ الدعائم متين الأركان .

وقد تعاون قسم الوعظ مع مصلحة الفلاح فى وزارة الشئون الاجتماعية؛ فقام بنشر الثقافة الدينية فى زيارات دورية للمراكز الاجتماعية وجمعيات الإصلاح الريفى .

وأتصل بمراكز العمال ونظّم لهم محاضرات دينية لتوجيههم الوجهة الصالحة، وعاون وزارة الصحة فى محاربة الأمراض ، كما ساعد رجال الأمن وركز جهده فى المناطق التى كان من صالح الأمن نشر الوعظ فيها .

وتحقيقا للرغبة السامية أنشئت للأزهر وحدة طبية من الطراز الأول لتسهيل سبل العلاج على الطلاب من الأمراض المختلفة، وفيها تصرف لهم الأدوية مجانا. كذلك أنشىء للطلاب فى المعاهد والكليات صندوق للخدمات الاجتماعية ساهمت فيه وزارة الشئون الاجتماعية بمبلغ وفير، وقد أفاد منه الطلاب فوائد جمة، وكان مثلا طيبا ومظهرا حسنا للتضامن الاجتماعى بين الطلاب .

وفى هذا العهد السعيد، عهد الفاروق أعزه الله، أنشىء معهد فى شبين الكوم، ومعهد فاروق الأول بقنا، ومعهد أمير الصعيد بسوهاج، وقسم للقراءات والتجويد بكلية اللغة العربية . وتعد العدة الآن لافتتاح معهدين فى المنية والمنصورة . وقد نظم الأزهر عشرة من المعاهد الحرة، وهو يعمل على دعمها والنهوض بها الى مستوى أرفع .

وفى الأزهر حركة قوية نشطة فى التأليف والبحوث العلمية أساسها الرغبة الصحيحة فى نشر العلم والدين .

وجلالته حفظه الله يتم ما أمر به والده العظيم - طيب الله ثراه - من إقامة منشآت الأزهر العظيمة، حيث حالت وفاته دون إتمامها، وهى تسير قُدما الى الأمام .

وفى عهده السعيد وبإرشاداته السامية تقرر مشروع كهربة خزان أسوان، واتخذت مصر مركزها كشريكة فى المشروعات الكبرى لأعالى النيل، وسيكون لهذه المشروعات بعد تنفيذها أكبر الأثر فى رقى البلاد الاقتصادى .

ولجلالة الملك أعزه الله عناية كبرى بالجيش؛ حيث عمل على تقويته بالسلاح والعَتاد، وكان منه موضع القلب النابض القوى النشط، فسار الى فلسطين وهو

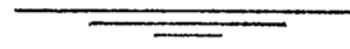
يترسم خطى قائده الأعلى فى رفعة مصر وعظمة مصر فى تاريخها المجيد، فى فتوحات محمد على الكبير، وبطلها ابراهيم باشا.

وقد حقق الله فيه الأمل؛ فأبلى فى ميدان المجد والشرف بلاء حسنا يخلد أعظم الذكرى. وسيكتب التاريخ ما امتاز به من ضروب البسالة والشجاعة والصبر والجلد، بما كان مضرب المثل، وأشاد بذكره الأعداء، بَلْهَ الأصدقاء.

وقد عاد الى الوطن مرفوع الرأس شامخ الذرى، بما قام به نحو وطنه، ونحو مليكه فى ميدان الجهاد لله وللوطن.

أعز الله الملك، وجعله مجدا وعزا للوطن، وذخرا وملاذا للعروبة والإسلام

والسلام عليكم ورحمة الله ؟



الماديون يتخبطون فى فلسفتهم
فهم يؤلهون الأثير

الخالق فى عقيدة المسلمين هو الموجـود الذى لا أول لوجـوده ، ولا آخر لبقائه ، خلق الموجودات ومتعها بمـا تصلح به للبقاء والاستمرار حتى تصل إلى غاية ما قدره لهـا من كمال ، على مقتضى نظام تقصر الأفهام عن إدراك سموه ، وقد تعالى جل وعز عن أن تدركه الأبصار ، أو تقف على مدى حكمته العقول ، أو تصل الى حقيقته البصائر ؛ وأعـلم العارفين به هم الذين يعترفون بالعجز عن إدراك كنهه ، وقد تواضعوا على كلمة حكيمة فى هذا الموضوع منسوبة الى أبى بكر أول المسلمين من الرجال ، وهو قوله : « كل ما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك » ، ولم يقلها الصديق باعتبار أنها فلسفة ، ولـكنه عبر بهـا عن قوله تعـالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

هذه عقيدة المسلمين منذ نزول القرآن ، وهى هى العقيدة العلمية الصحيحة التى لا يعتريها تعديل ولا تحويل حتى تقوم الساعـة ، بل الى أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

ولـكن جماعة المـاديين الذين برّحت بهم الـكبرياء ، وطوّحت بهم النظريات الجوفاء ، وقد شعروا بالحاجـة الى عبارات يسترون بها عجزهم ، ومختلقات يسترجعون بها سلطانهم ، فقـد أتوا بجديد زعموا به أنهم يوفقون بين المثبتين للعقيدة بالله وبين النافين لهـا ، فزعموا أن الأثير يصلح أن يقال عنه إنه الله ، وهذا قول زاد مذهبهم ضعفا ، وماديتهم تضعضعا .

فمـا هو هذا الأثير قبل كل شىء ؟

الأثير عنصر طبيعى فرض وجـوده فرضا للحاجة اليه . وذلك أننـا نرى الـكواكب والشموس ليلا فى السماء ، فعلى أى حامل يأتينا منها ذلك الضوء ؟ إذا

قيل الهواء فقد ثبت أن الهواء محيط بالكرة الأرضية على بعد نحو خمسة وعشرين كيلو مترا ثم ينقطع . فلا بد من افتراض وجود سيال مالىء للكون تسبح فيه جميع الأجرام ، ويجب أن يكون لا وزن له ، لأنه لو كان له وزن لما أطاق تحمله شيء . فالهواء وطبقته لا تتجاوز خمسة وعشرين كيلو مترا يقع منه على كل سنتي مربع من الأرض ما يساوى عمودا من الزئبق طوله ستة وسبعون سنتيمترا ، فما ظنك لو كانت طبقته ملايين الكيلومترات ، بل ما لا حد له منها ، لأن الوجود لا حد له ؟

لما حار العلماء فى هذا الأمر افترضوا أن السيال المالىء للكون ، والذى بسبب وجوده تصل إلينا جميع الأشعة الكوكبية ، يجب أن يكون لا وزن له . فعرفوه بقولهم : الأثير سيال مالىء للوجود كله ، لا يخلو منه مقدار ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، لا وزن له ولا مسام ، وهو غاية فى اللطافة ، ولا يقبل الضغط .

فى عهد القول بوجود الأثير وهو القرن التاسع عشر ، كان العقل البشرى قد برِم بنظرية الجوهر الفرد الذى لا يقبل الانقسام لعدم إساغة العقل لها ، فآنس فى السيال الأثيرى مخرجا له من ذلك ، فتخيل أن الذرة المادية حركة زوبعية فى الأثير ، وبانضمام بعض هذه الزوابع الى بعض آخر منها تتألف المادة ، وإنما تتنوع بتنوع درجات تلك السرعة ، ونظام تآلف وحداتها .

فالأثير بكل هذه الاعتبارات هو فى نظر العلماء الطبيعيين : الموجود المطلق الذى لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، مصدر كل وجود ، ومستقر كل قوة ، ومستودع كل إبداع .

وقد سر أئمة الطبيعيين لهذا التطور العلمى ، وعلقوا عليه الآمال الضخام ؛ فقد ذكره كبير من كبرائهم وهو الأستاذ (هيكيل) الألمانى المدرس بجامعة (يينا) فقال فى كتابه (وحدة الوجود) :

« إن هذا الترقى فى إدراك الأثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة ، ذلك لأن الآراء الضالة التى كانت تقول بوجود الفراغ ، وبتأثير المواد بعضها فى بعض من بعد قد زالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية ، وإن كانت المادة لا تشغلها كلها فإنها برمتها مشغولة بالأثير » ثم قال :

« نعم إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا للدين . ذلك إذا جعلنا إزاء هذه الكتلة الجامدة الثقيلة أى المادة، ذلك الأثير الشامل لجميع الأحياز الوجودية ، المتمتع بالحركة ، الذى هو الإله الخالق . » وقد أيد الأستاذ (هيكيل) رأيه هذا برأى الأستاذ (خليسنجر) الألمانى الذى أبداه فى خطابة ألقاها فى ألتنبورغ من ألمانيا ننقل عنه قوله :

« أن أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية ، وأكبر مجلى من مجالى الحياة الآلية ، يمكن أن يعلل وجودهما على السواء بفعل قوى طبيعية واحدة ، ولما كانا من ناحية أخرى يشتركان فى الصدور من الأصل الأصيل المتوحد الذى يملأ الوجود اللانهائى ، وهو الأثير ، فيمكن اعتبار هذا الأثير (إلها عاماً) ويكون نتيجة ذلك هو الحكم بأن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية » .

نقول : بقى بين المتدينين والعلماء الطبيعيين خلاف كبير فى الصفات التى يصفون بها الأثير ، والتى يصفه بها المتدينون . الفرق أن هؤلاء يعتقدون أن خالق الكون ومدبره عليم حكيم مريد مختار ، ولكن العلماء الطبيعيين الذين يرفعون الأثير لدرجة الألوهية لا يعترفون للأثير بهذه الصفات ، فيكون الخلاف بين المذهبين بعيدا ، ولا أدرى كيف إذا جردوا الأثير من هذه الصفات يستطيعون أن يعللوا وجود المادة بعد أن لم تكن موجودة ، وبلوغ الكائنات من التنوع والتناسب والإبداع الى هذه الدرجة التى لا غاية بعدها ؟ وكيف يعللون وجود العقل البشرى وليس فى الوجود ما يستمد وجوده منه ؟

كل هذه المعضلات لا يمكن أن يحلها افتراض وجود الأثير إلا إذا ألحقوا به كل هذه الصفات المطلقة التى أدركها العقل البشرى لواجب الوجود نفسه .

يتبين مما مر كله أن العلماء الماديين طائفتان طائفة تنكر وجود إله مدبر للكون تدرك كنهه العقول ، يصرف الشؤون العالمية بعلم وحكمة مطلقتين ، وهؤلاء هم الكثرة الساحقة فيهم ؛ وطائفة أخرى وهى قلة من المفكرين يذهبون لتأليه الأثير توفيقا بين العقول المتنافرة بسبب هذه المسألة ، ولكن مسعاهم كما ترى لم يصادف نجاحا ، فمن المحال أن يسلم عاقل بأن موجودا مجردا عن الإدراك والعلم المطلقين يستطيع أن يدبر الوجود على نحو هذا النظام البديع ، وأن يوجد كائنات

تدرك نفسها وتدرك الوجود التى هى فيه ، وتترقى فى معارفها ووسائلها حتى أحدثت تطورا عظيما فى حياة الإنسان كان لا يحلم به الأقدمون .

الخلاصة : أن العقيدة الإسلامية هى العقيدة الوحيدة التى ستثوب إليها الفلسفة الطبيعية ، وهى أن للوجود إلها عليما قادرا ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، يدبر الكائنات ويربها ، ويتولى الموجودات ويكملها ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » فهذه العقيدة على هذا النحو تماشى العلم ، وتتفق والفلسفة الحقة ، وتكفى الناس شرور الانقسام والتخالف ، وتدع للعلم حريته فى البحث فى الموجودات ، وتسخيرها للإنسان أن تصطدم بالدين ، أو أن يحتك بما يسمونه بالمقررات اللاهوتية التى لا تستند إلى شىء غير ما تزينه الأهواء النفسية ؟

محمد فريد وجدى

حلم

اشتهر معاوية بن أبى سفيان بالحلم والعفو ، فكان يقابل بالإحسان والعطف من يبدر منه الطيش والنزق . فمما يروى أنه دخل عليه أبو مسلم الخولانى ، وكان قد أخر الحقوق السنوية لأمثاله ، فقال له : والله ما هذا المال من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك . فدخل معاوية ولبث هنيهة ، ثم خرج فقال : لقد كلمنى أبو مسلم بكلام أغضبنى ، وقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الغضب من الشيطان والشيطان من النار فاستعينوا على النار بالماء » . وقد دخلت فتوضأت ، ولقد صدق أبو مسلم : ليس هذا المال من كدى ولا من كد أبى ولا من كد أمى ، قوموا إلى عطائكم يرحمكم الله .

وقدم عقبة الأزدى على معاوية ودفع اليه رقعة فيها هذه الأبيات :

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعا يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به فقال : ما جرأك علىّ ؟ قال : نصحتك إذ غشّوك ، وصدَقتك إذ كذَبوك . فقال : ما أظنك إلا صادقا ! وقضى حوائجه .

من ذخائر السنة

ليلة القدر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

جاء فى حديث متفق عليه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
« مَن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا ، غُفر له ما تقدّم من ذنبه » .

* * *

تتفاضل الليالى والأيام بما يقع فيها من حوادث جسام ، وآيات عظام ، ويتميز بعضها عن بعض بما يخالطها من جليل الذكريات ، وجميل المناسبات .

وليلة القدر تعدّ فى مقدمة الليالى الفاضلة إن لم تكن أفضلها ، لما خُصّت به من نزول القرآن الكريم ، ووقوع هذا الحادث الإسلامى الخطير ؛ ولذلك كان جديرا بالمسلمين أن يتلقوها بما هى خليقة به من عناية ، وأن يولوها ما هى أهل له من اهتمام وتقدير ، وأن ينشروا عنها من البحوث والدراسات ما يتفق وجلال الذكريات التى وقعت فيها .

والغرض فى الحديث الذى معنا من قيام ليلة القدر ، هو إحياؤها بأىّ نوع من أنواع الطاعات والعبادات ، كالصلاة ، وقراءة القرآن ، والذكر . وأما قوله : «إيمانا واحتسابا» فإن معنى الأول : التصديق بوعد الله بالثواب على ذلك ، ومعنى الثانى : التمحض فى العمل لطلب الأجر ، لا لقصد آخر من رياء ونحوه . وظاهر قوله : « غفر له ما تقدم من ذنبه » يتناول جميع الذنوب من كبائر وصغائر . وقال النووى : المعروف عند الجمهور أنه يختص بالصغائر . وعزاه بعضهم لأهل السنة . وقيل : يجوز أن يخفف من الكبائر إذا لم يصادف صغيرة .

والكلام بعد هذا على ليلة القدر كثير النواحى ، جم المباحث ، ضافى الذيول . وإنا متخيرون هاهنا ما هو أحرى بالمعرفة ، وأولى بالبيان :

١ — ليلة القدر :

الليل : ما يقابل النهار ، ويقال : ليل وليلة ، وجمعها ليال وليائل وليْلات . وقيل : أصل ليلة : ليلاة ، بدليل تصغيرها على لييلة وجمعها على ليال .

والقدر : مصدر قدرت أقدر قدرا ، والمراد به ما يمضيه الله تعالى من الأمور ، والقدْر والقدَر واحد ، إلا أنه بالتسكين مصدر ، وبالفتح اسم ؛ قال الواحدى : القدر فى اللغة بمعنى التقدير ، وهو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان .

واختلفوا فى تسمية هذه الليلة بليلة القدر ، فقيل : لأن الله يظهر فيها للملائكة الموكلين بالحوادث الكونية ما قدره وقضاه فى كل تلك السنة من رزق ومطر ، وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة القابلة . وهذا القول اختيار الجمهور من عامة العلماء ، وذلك بخلاف ما يكون فى ليلة النصف من شعبان ، فإنهم ذكروا أنه يكون فيها تقديرات أخرى .

وقيل : سميت بذلك ، لأن لها عظمة وشرفا بين الليالى ، وهذا نحو قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى منزلة وشرف ؛ وذلك إما أن يكون راجعا إلى نزول القرآن فيها ، أو إلى أن فاعل الطاعات فيها يصير ذا قدر وشرف ، أو إلى أن الطاعات نفسها لها فى تلك الليلة قدر زائد ، وشرف زائد . ويقرب من هذا المعنى ما نقل عن أبى بكر الوراق من أنها سميت ليلة القدر ، لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذى قدر ، على أمة لها قدر .

٢ — وجودها وتحديد زمنها :

اختلف العلماء فى وجود ليلة القدر ، وفى تحديد زمنها ، على أقوال كثيرة ، بلغ بها بعضهم نيفا وأربعين قولا . وإنا ذاكرون منها هنا ما هو بعيد عن مبالغات الرواة وزياداتهم ، فقيل : إنها كانت مرة ثم انقطعت ، وإنها رفعت أصلا ورأسا ، ونُسب هذا القول إلى الروافض والشيعة ؛ أما الجمهور من العلماء ، فتفق على أنها باقية لم ترفع ، ولكنه مختلف بعد ذلك فى أنها هل هى دائرة فى كل السنة ، أو أنها مختصة بشهر رمضان ؟ فالأكثرون على الثانى ، واحتجوا بقوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، فوجب أن تكون هذه الليلة فى شهر رمضان ، لئلا يلزم التناقض .

وقد اختلفوا بعد هذا فى تعيين ليلتها من رمضان ، فالأكثر على أنها فى العشر الأواخر ، لكثرة الأحاديث الصحيحة الواردة فى ذلك ، والجمهور من هذا الأكثر على أنها فى أوتار هذه العشر ؛ وإلى أنها فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ذهب جمع عظيم من أهل العلم ، واستندوا فى ذلك إلى أحاديث وآثار كثيرة ، منها ما صح من رواية أحمد ومسلم وأبى داود والترمذى وغيرهم من أنه قيل لأبى بن كعب : إن عبد الله بن مسعود يقول : من قام السَّنة أصاب ليلة القدر ، فقال أبى : والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان ، يحلف مايستثنى ، ووالله إنى لأعلم أى ليلة هى : هى الليلة التى أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها : هى ليلة سبع وعشرين .

وكما استند أصحاب هذا القول الى هذا الحديث وغيره ، استأنسوا كذلك لقولهم هذا بعدة تعللات وتمحلات ، استنبطوها من أمارات وقرائن مختلفة ، ونسبوها إلى ابن عباس رضى الله عنه ؛ ولكن بعض أهل العلم قد وصفوها بأنها ضعيفة ، وقالوا عنها : إنها من مُلح التفاسير ، وليست من صميم العلم .

٣ — إخفاؤها :

ذكروا أن الحكمة فى إخفاء ليلة القدر وإبهامها ، هى أن يجتهد من يطلبها فى العبادة فى غيرها ، وأن يتوفر العمال فى كل الليالى على الطاعة وكثرة الأدعية ليصادفوها ، كما كان دأب السلف الصالح ، وقالوا : إن الله أخفى رضاه فى الطاعات ليرغبوا فى الكل ، وأخفى غضبه فى المعاصى ليحترزوا عن الكل ، وأخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل ، وأخفى الإجابة فى الدعوات ليبالغوا فى كل الدعوات ، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء ، وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل ، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة ، وأخفى وقت الموت ليخاف الإنسان فى كل الأوقات ، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالى رمضان .

٤ — علاماتها :

جاء فى بعض الأخبار ذكر علامات كثيرة لليلة القدر ؛ فمن ذلك ما روى من حديث عبادة بن الصامت : إنها ليلة بلجة صافية ، كأن فيها قمراً ساطعا ، ساكنة ، لا برد فيها ولا حر ، ولا يتفق لكوكب أن يرمى به فيها حتى يصبح ،

وإن أمارة الشمس فيها أن تخرج وليس لها شعاع ، مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان فى صبيحتها أن يخرج معها يومئذ .

وبعض العلماء يحمل هذه العلامات وغيرها على ليـلة قدر من شهر رمضان مخصوص كالمتعين ، لعدم اطرادها ، وعدم أغلبيتها .

وقال بعضهم : إن هناك علامات تظهر حقاً لمن وفقت له ليلة القدر ، أو وفق لها ، كأن يرى كل شىء ساجدا ، أو يرى أن الأشجار تسقط إلى الأرض ثم تعود إلى منابتها ، أو يذوق المياه المالحة فيجدها عذبة ، أو يرى الأنوار ساطعة فى كل الأمكنة حتى المظلمة ، أو يسمع كلاما ، أو خطاباً من الملائكة ، أو يستجاب دعاؤه .

واختار الطبرى أن ذلك كله غير لازم ، وأنه لا يشترط لحصولها رؤية شىء ولا سماعه ، وأن الإنسان قـد تصادفه ليلة القدر ولا يقع له شىء من هـذه العلامات ، ولا من غيرها .

ومع وجاهة كلام الطبرى ، فيظهر أن المسألة مسألة استعـدادات نفسية ، ومؤثرات دينية ، وأخيلة يولدها فى الإدراك شـدة التأثر بالأحاسيس والمشاعر التى تـكونها فى النفس عوامل خاصـة تصاحبها فى الغالب أثناء النشأة الدينية ، فيصدر الإنسان حكمه على ما يقع له من هذه العلامات بحسب قوة تأثره وضعفه .

● — فضلها وأفضليتها :

فضل هـذه الليلة عظيم ، وشرفها لا ينـكر ؛ وحسبنا دليلا على هـذا نزول القرآن الـكريم فيها ، وقول الله تعالى : « ليلة القـدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائـكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سـلام هى حتى مطلع الفجر » ، وقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

وأما أفضليتها ، فقـد روى عن كعب أن الله تعالى اختار الساعات ، فاختار ساعات أوقات الصـلاة ، واختار الأيام فاختار يوم الجمعة ، واختار الشهور فاختار رمضان ، واختار الليالى فاختار ليلة القدر ، فهى أفضل ليلة فى أفضل شهر .

ونقل عن بعضهم أن أفضل الليالى ليلة مولده صلى الله عليه وسـلم ، ثم ليلة القدر ، ثم ليلة الإسراء والمعراج ، ثم ليلة عرفة ، ثم ليلة جمعة ، ثم ليلة النصف

من شعبان ، ثم ليلة العيد . ولكن الذى عليه الجمهور من العلماء ، والذى تقتضيه أكثر الأحاديث والأخبار الواردة فى ذلك أن أفضل الليالى هى ليلة القدر .

٦ — ما يحدث فيها :

أجمل القرآن الكريم ما يحدث فى ليلة القدر فى قوله : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » . وقيل : إن الملائكة تكون فى الأرض فى تلك الليلة أكثر من عدد الحصى ، وإن الله يقبل التوبة فيها من كل تائب ، وإنه تفتح فيها أبواب السماء ، وإنها من غروب الشمس الى طلوعها .

وقد أكثر الرواة والمفسرون فى هذا الباب إكثارا عظيما ، وأتوا فيه بالعجب العجاب ، ونحن لا نستطيع أن نجاريهم فى إيراد كل ما ذكروه ، بل نكتفى بذكر طرف يسير منه ، ونقول مع صاحب روح المعانى : نسأل الله صحة هذه الأخبار .

فقد روى أن جبريل ينزل إلى الأرض ، ومعه كثير من الملائكة ، فيركزون ألويتهم فى أربعة مواطن : عند الكعبة ، وعند قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وعند مسجد بيت المقدس ، وعند مسجد طور سينا ، ثم يتفرقون ، فلا يبقى دار ، ولا بيت ، ولا سفينة ، فيها مؤمن أو مؤمنة ، إلا دخلته الملائكة ، فيسبحون ويقدسون ويهللون ، ويستغفرون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى أن جبريل يقسم تلك الليلة ما ينزل من رحمة الله ، حتى يستغرق أحياء المؤمنين ، فيقول : يارب بقى من الرحمة كثير ، فما أصنع به ؟ فيقول عز وجل : قسم على أموات أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقسم حتى يستغرقهم ، فيقول : يارب بقى من الرحمة كثير ، فما أصنع به ؟ فيقول سبحانه وتعالى : قسم على الكفار فيقسم عليهم ، فمن أصابه منهم شىء من تلك الرحمة مات على الإيمان .

٧ — دعاؤها :

قال العلماء : يستحب فى هذه الليلة الاجتهاد فى الطاعة ، والإكثار فيها من قراءة القرآن ، وسائر الأذكار ، ويستحب أن يكثر فيها من الدعاء بمهمات المسلمين ، فهو شعار الصالحين ، وعباد الله العارفين . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله ، إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عنى .

آيتـان

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

سألنى سائل عن قوله تعالى : «ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلامٌ و البحرُ يَمُـده من بـعده سبعة أبحر ما نَـفِـدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم . ما خَـلْقكُم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير » فقال : هاتان آيتـان كل منهما ذيلت بوصفين لله تعالى ؛ فذيلت الأولى بقوله : « إن الله عزيز حكيم » وذيلت الثانية بقوله : « إن الله سميع بصير » ، ولو كان الأمر بحسب ما يدرك من الظاهر لـكان التذييل الأول للآية الثانية ، والتذييل الثـانى للآية الأولى ؛ وذلك لأن الآية الأولى تصف لنـا حقيقة تتعلق بعلم الله الواسع ، وكلماته التى لا تنفد ، فالتذييل بالعزة والحـكمة لا يلتقى فى الظاهر مع هذا المعنى ، وإنمـا يأتى فى مجال التحدث عن قوة الله وقدرته ، وماله جل علاه من تصرف فيما خلق على نظام متقن محكم ، لـكل شىء فيه وزنه وقدره ، ويوضح ذلك ما جاء فى غير هـذا الموضع من القرآن الـكريم من مثل قوله تعـالى : « قال فخذ أربعة من الطير ، فصُـرْهن إليك ، ثم اجعل كل على جبل منهن جزأ ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حـكيم » ؛ فالأمر هنا أمر الحديث عن قـوة الله وقـدرته وإتقانه لمـا خلق ، وذلك مظهر من مظاهر العزة والحـكمة ؛ وكذلك الشأن فى قوله تعالى « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لـكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مُردِفين ، وماجعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » ؛ وفى قوله : « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » وفى قوله « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولـكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » ؛ وفى قوله : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف

نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيما ، إلى غير ذلك من المواضع الكثيرة التى ذيل الكلام فيها بهذين الوصفين ، وكلها فى مجال القدرة الإلهية ، والتدبير الموافق للحكمة .

أما لو جاء التذييل فى هذه الآية بقوله : « إن الله سميع بصير » لكان فيما يبدو منطبقا مع المعنى ، لأن صفة السمع وصفة البصر كلاهما صفة كشف ، فالله جل جلاله يسمع كل شىء ، ويبصر كل شىء ، ومن كان كذلك كان واسع العلم لا ينفد علمه ، ولا تنتهى كلماته ؛ وقد جاء التذييل بهذين الوصفين فى القرآن الكريم فى مجال التحدث عن العلم الواسع المحيط ، ومن ذلك قوله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » ، « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا » ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ، إن الله هو السميع البصير » .

ذلك ما يبدو من حيث الظاهر فى الآية الأولى ، وما يدعو الى السؤال عن السر فى تذييلها بقوله : « إن الله عزيز حكيم » ، دون قوله مثلا : « إن الله سميع بصير » .

أما الآية الثانية فالأمر فيها داع الى مثل هذا السؤال أيضا ؛ لأن الحديث فيها عن قدرة الله على الخلق ابتداء ، والبعث بعد الموت ، وأن سائر الخلق بجانب هذه القدرة فى المبدأ والمعاد كنفس واحدة ، فما معنى التذييل هنا بقوله : « إن الله سميع بصير » ؟ وهلا كان التذييل بقوله مثلا : « إن الله عزيز حكيم » . أو « قوى عزيز » أو نحو ذلك ؟

هذا هو السؤال ، وقد أجبت عنه بما خلاصته :

إن التذييل فى كل آية من هاتين الآيتين الكريمتين جاء فى موضعه ، وطابق المعنى تمام المطابقة ؛ أما فى الآية الأولى : فإن الحديث ليس عن سعة العلم وإحاطته بكل شىء ، وإنما هو عن القدرة والتصرف ؛ ذلك بأن

« كلمات الله » هنا ليس المراد بها ما يقوله الله من الكلام ، وإنما المراد بها تصرفاته فى خلقه ، وتدبيراته فى ملكه ؛ وإنما سميت التصرفات كلمات لأنها مسببة عن أمر تكوينى يصدره الله للكائنات ، وهو ما يعبر عنه القرآن بلفظ « كن » فى مثل قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ، وقد سمى الله عيسى « كلمة » بهذا المعنى ، فى مثل قوله : « يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » ؛ ووصف نصره لبنى اسرائيل بقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » ، ووصف قضاءه فى الأزل بقوله : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » ، والمعنى على هذا أيضا فى مثل قوله : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله » ، « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله » ، « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » . فالكلمات فى هذا كله بمعنى السنن ، والتصرفات الإلهية .

وكما جاءت « الكلمة » ، و « الكلمات » ، فى القرآن الكريم بهذا المعنى ، جاء « القول » ، وما تصرف منه كذلك ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « ولكن حق القول منى » ، « فحق عليهم القول » ، « لقد حق القول على أكثرهم » ، « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

فإذا ظهر أن « الكلمات » فى قوله تعالى : « ما نفدت كلمات الله » بمعنى تصرفاته فى خلقه بقدرته وتدبيره على مقتضى الحكمة ، كان التذييل بقوله : « إن الله عزيز حكيم » منطبقا تمام الانطباق ، وكان المعنى على أتم ما يكون من الوضوح .

وأما الآية الثانية ، وهى قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير » ، فإن التذييل فيها منطبق أيضا ؛ وبيان ذلك أن هذه الآية جاءت فى سورة لقمان ، وقد بدئت هذه السورة بقوله تعالى :

« الم، تلك آيات الكتاب الحكيم ، هدى ورحمةً للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » فأشعر هذا البدء أنها ستهتم بالحديث عن الآخرة والساعة ، وقد اهتمت به ، فذكرت أن من الناس « من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين » . وذلك هو استهزاء الكافرين بالآخرة ، وكفرهم بما أعد لهم فيها من الجزاء ، ثم ذكرت المؤمنين فبشرتهم بجنات النعيم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها ، وعد الله حقا » . وفى المقابلة بين مصير هؤلاء وأولئك تحقيق لأمر الساعة عليهم وإن أنكروه ؛ ثم ذكرت خلق الله للسموات والأرض وأن الله خلق الأولى بغير عمد ، وألقى فى الثانية رواسى حتى لا تميد ، وكان الغرض من ذلك بيان قدرة الله ، وأن أمر البعث ليس بشىء فى جانب هذه القدرة التى يشاهدون آثارها ؛ ثم عرضت السورة لوصية لقمان لابنه ، وكان فيها حديث عن قدرة الله أيضا ، حيث يقول : « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ، يأت بها الله » . ثم عادت بعد ذلك الى ذكر تلك الطائفة المجادلة المنكرة ، حيث تقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » لتبين أنهم إنما يجادلون عن جهل واستكبار ، لا عن بصيرة وعلم ، ثم تمضى فى بيان آثار قدرة الله وقوته ، حتى إذا وصلت الى موضع الآية التى نحن بصددها ، ذيلتها بتهديد لهؤلاء الذين يشترون لهو الحديث ، ويجادلون فى الله بغير علم ، ويقابلون الأمر باتباع ما أنزل الله ، بالإصرار على ما وجدوا عليه الآباء ، فكأن الله يقول لهم : تلهوا بالحديث الباطل ما شئتم ، وجادلوا فى الله عن جهل كما تعودتم ، فان الله سميع لما تقولون من إنكار البعث ، والخوض فى شأنه خوض المكذبين المستعظمين .

وبهذا يبدو : أن التذييل ليس لمعنى القدرة على الخلق والبعث ، وإنما هو لمعنى إنكارهم ، وجدالهم وما يفيضون فيه من الأحاديث ردا لعقيدة البعث ، وكفرا بأمر الآخرة ، وهوبهذا منطبق تمام الانطباق ، واضح تمام الوضوح ؟

بين الشريعة والقانون

نظرات فى توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

وسائل التوثيق :

وبالنظر فى الوسائل المؤدية للغاية المنشودة من التوثيق ، نرى بعد الاستيعاب الممكن أن وسائل التوثيق التى عرض لها القرآن الكريم ، أو ورد ذكرها فى السنة ، ودارت على ألسنة الفقهاء ، هى : الكتابة ، الإشهاد ، الرهن ، الضمان ، الكفالة ، الإقرار ، اليمين ، الشاهد واليمين ، القرائن . وإذا تغاضينا عما هنالك من فروق سنعرض لها بعد ، أمكن أن نضيف إلى هذه الوسائل وسائل أخرى ، كالحجر على مال المدين ، والحبس ، والملازمة له .

ومع أن هذه الأمور وردت كلها فى محيط واحد ، هو محيط الحقوق والمداينات ، فهى مختلفة المنزلة من حيث اتصالها بالحق المنشود .

وإذا كان الفقهاء أفاضوا أو أجملوا فى الكلام على كل منها ، فالنظر الصائب يميز بين بعضها والبعض الآخر ، وذلك : أنا نجد بعض هذه الوسائل تؤدى غايتها باعتبارها مثبتة للحق : كالكتابة ، والبينة ، والإقرار ، واليمين ، والقرائن . ونجد بعضها يؤدى غايته باعتباره تأمينا للحق الثابت بإحدى تلك الوسائل : كالرهن ، والضمان ، والكفالة ؛ ونجد بعضا ثالثا يؤدى غايته ، باعتباره تنفيذا لاستيفاء الحق : كالحجر ، والحبس ، والملازمة .

فاذا اجتمعت هاتيك الوسائل فى الغرض العام الذى قصد من تشريعها ، وهو ضبط المعاملات ، وصيانة الحقوق المالية من الضياع ، فالتفريق من حيث

الخصائص التي ميزت بعضها عن بعض يجعل فريقا منها غير داخل في موضوع التوثيق .

وفي ضوء هذا يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الأولى : وسائل تفيد إثبات الحق لصاحبه قضاء ، وتنبني عليها صحة المطالبة ، وإقامة الدعوى ، وهي : الكتابة ، والإقرار ، والبينة ، واليمين ، والشاهد مع اليمين ، والقرائن .

القسم الثاني : وسائل شرعت لتأمين الحق والتمكن من استيفائه ، وهي : الرهن ، والضمان ، والكفالة .

والقسم الثالث : وسائل لتنفيذ استيفاء الحق عند التخلف عن أدائه ، وهي : الحجر على مال المدين ، والحبس ، والملازمة .

وغير خاف أن الحق الذي لاتعززه وسيلة من الوسائل الست الأولى ، لا يرقى إلى الثبوت قضاء من تلقاء نفسه ، ولا ينهض إلى تأمينه برهن ، أو ضمان ، أو كفالة ، ولا يتسنى استيفاؤه بواسطة حجر ، أو حبس ، أو ملازمة .

فلتكن الوسائل الست الأولى مما يشمله البحث التفصيلي فيما يأتي .

وإذا ثبت الحق بمعونة وسيلة من هذه الست صلح لأن يحتاط له ، وأن يؤخذ به الرهن العيني ، أو الضمان الشخصي ، أو الكفالة ؛ فتكون هذه الثلاث لتقوية الإثبات ، ولضمان الحق من الفوات بسبب إفلاس المدين ، أو نكوله ، أو عدم التمكن من لقائه حين الحلول ؛ فلتكن هذه الثلاث مع الست الأولى مما يشمله البحث كذلك .

ومع أن هذه الثلاث لضمان الحق الثابت ، كما قلنا ، فقد أجازه بعض الأئمة كالإمام أحمد ، في الدين قبل ثبوته ، لاعتبارهم أن الضمان إنما هو لذمة المدين في كل أو في بعض ماتحملته أو تتحمله ، فليس حتما أن تكون ذمة المضمون مشغولة فعلا بالدين المضمون ، والضمان توثيق عندهم في المستقبل كما هو توثيق في الحاضر .

أما الحجر ، والحبس ، والملازمة ، فإنما يؤخذ بها في دين فرض ثبوته ، وحان أوان استيفائه ، ولكن حال دون التمكن منه حائل طارىء .

وما دام البحث الذي أخذنا فيه ، وقطعنا من مراحله ذلك الشوط ، هو بحث

التوثيق لإثبات الحقوق وتأمينها ، لا بحث استيفائها ، فموضوعنا سابق بطبعه على أوان الحجر أو الحبس ، والملازمة ؛ إذ بحثنا فى الابتداء ، والثانى فى الانتهاء . والأول أساس ، والثانى مبنى عليه . فلنترك هذه الثلاث لمن يتصدى لبحث استيفاء الحقوق ، فإن الحديث عنها أحرى به ، وألصق بموضوعه .

وقد أوضحت كتب المذاهب أن الثلاث الأخيرة للاستيفاء لا للتوثيق ، فليرجع من شاء إلى كتابىَ البدائع ، وابن عابدين ، ليعرف من الأول الحجر والحبس ، وليعرف من الثانى الملازمة ؛ وليرجع كذلك من شاء إلى مغنى المحتاج للشافعية ، وإلى مغنى الحنابلة ، وإلى بداية المجتهد ، ومنح الجليل ، وتبصرة ابن فرحون للمالكية .

هذه نظرة من نظراتنا إلى وسائل التوثيق عند الفقهاء .

ونظرة أخرى فى وسائل التوثيق عند رجال القانون تكشف عن توافق يكاد يكون تاما بين ما أسلفت وبين ما يقولون . ولدينا شاهداً على ذلك ما يقوله السنهورى باشا فى أول كتابه (الموجز فى النظرية العامة للالتزامات) ، فقد أوضح هذا العالم القانونى فى أول كتابه (ص ٢) : أن الحق فى المعاملات يسمى حقا إذا نظر إليه من جهة الدائن ، ويسمى التزاما إذا نظر إليه من جهة المدين . وذلك توجيه طيب لاغضاضة فيه .

ثم اتجه المؤلف الخطير فى صفحة ٦٥٣ من الكتاب نفسه إلى بيان الطرق المعتد بها فى إثبات الحق من الالتزام ، فذكر : الكتابة ، والإقرار ، واليمين ، والشهادة ، والقرائن ، والمعاينة

ثم أوضح لنا ثانيا أن القانون يعتبر الثلاث الأولى أقوى إثباتا حتى سميت عندهم : ذات القوة المطلقة ، وسميت الثلاث الأخيرة : ذات القوة المقيدة .

والتمييز بين الوسائل من ناحية أيها أقوى من الثانى لا يضيرها من ناحية الغرض العام الذى اشتركت فيه (التوثيق) ؛ وإنما هى مقارنة فنية يتمثل فيها التحليل القانونى للوصول فى تمييز الأمر إلى أقصى ما يمكن .

ولعل فقهاء الإسلام لا يأبون ذلك ، ولا ينافيه منهجهم ، وإن لم يبسطوا

القول فى هذه التفصيلات كما يفعل الآخرون ، فلكل عصر طابعه ، ولكل جماعة نهجها فى التأليف والتنسيق .

والذى يلحظه القارىء فيما استشهدت به من كلام السنهورى باشا (لدعواى أن بين الشريعة والقانون توافقا يكاد يكون تاما) أن هذا العالم الضليع لم يذكر فى تلك الوسائل الشاهد مع اليمين ، على حين أنه ذكر المعاينة بين ما ذكر ، مع أن الفقهاء يذكرون الأولى من هاتين ، ولا يذكرون الثانية ، فكأن الاعتبار القانونى يخالفنا بترك شىء وإثبات آخر ؛ فهل الأمر كذلك ؟ والجواب عن هذا أن الشاهد مع اليمين معتبر فى القانون وسيلة لإثبات الحق ، كما هو معتبر فى الشريعة ، وقد تحدث عنها السنهورى باشا ، كما تحدث عن الوسائل الأخرى (ص ٦٩٤) تحت عنوان : اليمين المتممة ؛ وعرفها بأنها اليمين التى يوجهها القاضى لاستكمال أدلة الخصم حينما يراها القاضى ناقصة فلا يستطيع ردّ الدعوى لاقترانها ببعض الأدلة « كالشاهد الواحد » ، ولا يستطيع إجابة الخصم إلى مدعاه ، لأنه لم يقدم دليلا كافياً . ثم قال : اليمين المتممة لا توجه إلا لخصم قدم دليلا ناقصاً ، وهى توجه لأى واحد من الخصمين . . . الخ .

ذلك شاهدى على اعتبار القانون للشاهد مع اليمين ، إحدى وسائل الإثبات . فالقانون والشريعة هنا سواء .

أما المعاينة التى يعتبرها التشريع المدنى من وسائل الإثبات ، فقد فسرها الأستاذ السنهورى باشا بأنها معاينة تقوم بها المحكمة فى انتقالها إلى محل النزاع ، ومعاينة أخرى فنية يقوم بها الخبراء حينما يقتضى الأمر ذلك .

وظاهر من هذا أن المعاينة بنوعيها يدعو إليها غموض الأدلة المدلى بها من الخصمين أو من أحدهما ، فهى لإزالة اللبس ، والتأكد من صدق هذا أو ذاك فى وثائقه ؛ ونتيجتها ترجيح ما تقدم به أحد الخصمين من الوسائل المذكورة ؛ فليست فى حقيقتها مستقلة ، وإنما هى ذريعة للترجيح فحسب ، ولذلك يعتبرونها من المرافعات . وقد صرح الأستاذ الجليل السنهورى باشا بذلك (ص ٦٥٥) وعدل عن الإسهاب فيها ، لأن موضوعها فى غير الإثبات والالتزامات .

فأنت ترى من هذا أن التشريع الدينى والمدنى على توافق يكاد يكون تاما ، كما أسلفت لك ، فليس فى دعواى هذه موضع لما عسى أن يلحظه القارىء .

ولكن مدخلاً آخر قد ترد علينا الشبهة من قبيله ، هو أن المنقول فى حديثى عن مؤلف السنهورى باشا لم يعرض لأمور أخرى لها وثيق الاتصال بالموضوع وهى : الرهن ، والضمان ، والكفالة ، والحجر ، والحبس ، والملازمة ؛ فما تقديرهم لهذه الوسائل إلى جانب الوسائل الآنفة ؟

والجواب : أن رجال القانون الذين تهيأت لنا مراجعة كتبهم يعنون بتبسيط أبحاثهم التى يتناولونها ، ويميزون كل نوع بعنوان يخصه ، وإن كان مشمولا مع غيره بعنوان عام .

وكذلك فعل الأستاذ السنهورى باشا ، إذ قصر بحثه على مصادر الالتزام ، وعلى طرق الإثبات للحق (الالتزام) أى على الأسباب الأولى التى ينشأ منها الحق ، وهى كما عند الفقهاء : العقد والفعل و النص ؛ وعلى الوسائل التى يأخذ بها القضاء فى إثبات الالتزام ، وهى الكتابة وما إليها من بقية الأمور الست الآنفة .

ولما كانت الوسائل الثلاث : الرهن ، والضمان ، والكفالة ، ليست فى حقيقتها للإثبات ابتداء ، وإنما هى لتقوية الإثبات المستفاد من غيرها ، لم تكن فى صلب موضوعه الذى تصدى له .

وسكوته عنها لا يبعدها عندهم عن موضوع التوثيق ، ولا يدل على بعدها فى نظر بعضهم . لذلك نرى هذه الثلاث موضوع كتاب ضخم ألفه فيها الأستاذ الكبير كامل مرسى باشا ، بعنوان : التأمينات الشخصية والعينية .

ففى صفحة ٥ من مطلع هذا الكتاب يقول مؤلفه الجليل : « جعل القانون للدائن تأمينات تضمن تنفيذ الالتزام الذى هو دائن فيه ، وهى وسائل بها يتقى الدائن خطر الإعسار المحتمل للمدين ، وبها يضمن المدين وجود الثقة التى بها يستطيع الحصول على الدين الذى يحتاج إليه » .

ثم فى صفحة ١٣ تحت عنوان : التأمينات التزامات تابعة ، يقول : « الالتزام الخاص بالتأمينات التزام آخر غير الالتزام الأصلى ، ولكنه تابع للالتزام الأصلى الذى أعد التأمين لضمانه ، وليس له وجود ذاتى مستقل عنه » .

كذلك تحت هـذا العنوان نفسه يبين أن التأمينات هى عقود الضمان ، وأنها تتنوع الى عقود كفالة ، ورهن حيازى ، ورهن تأمينى ، على ما هنالك من تمييز وتفصيل يشبه الى حد ّما ، ما فى الفقه الإسلامى ولا يبعد عنه فى الموضوع ، وسنعرض لتفصيله بعد .

وأما الحجر ، والحبس ، وملازمة المدين ، فلم أر لها ذكرا عندهم فى وسائل الإثبات ، ولا فى التأمينات ، وإنما ذكروا بعضها فى وسائل التنفيذ لاستيفاء الحقوق ، كالحجر على المدين حين تفليسه ، وكالحبس فى دين النفقة على الزوجة ، وأجرة الحضانة والرضاع (ص ١٣ - من كتاب التنفيذ لأحمد قمحة بك ، وعبد الفتاح السيد بك ، مادة ٣٤٣ أهلى وشرعى ، ٢٦٧ جنايات) .

وعلى أى حال فليست هـــذه الثلاث فى وسائل الإثبات ، ولا فى وسائل التأمين .

وتكون النتيجة لهذه المقارنة ، أن وسائل التوثيق فيما انتهينا اليه مع التشريع المدنى ، تسع ، هى : الكتابة ، الإقرار ، البينة ، اليمين ، القرائن ، الرهن ، الضمان ، الكفالة ، الشاهد واليمين . ولنا عود إن وفق الله سبحانه ؟

الحطيئة

قدم الحطيئة الشاعر المشهور بالهجاء إلى عنبسة فقال أعطنى . فانصرف عنه وخرج الحطيئة مغضبا . فلام عنبسة بعض أصحابه وحذروه من مغبة رده . فأرسل وراءه من رده إليه وقال له : لقد كتمتنا نفسك كأنك الحطيئة . قال هو ذلك ، وأجلسه ، ثم أمر وكيله أن يمضى به إلى السوق ويشترى له كل ما يشير إليـه مهما غلا ثمنه . فكان يتخير غليظ الديباج وما إليه حتى استوفى حاجته وأمسك . فقال له وكيله : زد ما شئت فقد أمرنى عنبسة أن أبسط يدى بالنفقة . فقال : لا حاجة لى بغير هذا . ولم تمض أيام حتى بلغ عنبسة أنه قال فيه :

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا فسيان لاذم عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سجية فتعطى وقد يعدى على النائل الوغد

حول ميراث القاتل

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمـــد ابراهيم
قاضى محكمة سمالوط الوطنية

إثبات القصد الجنائى

القصد الجنائى كأى ركن من أركان الجريمة يثبت أمام المحاكم الوطنية بكافة طرق الإثبات، وغالبا ما تستخلص المحاكم نية القتل من كون الآلة المستعملة قاتلة، ومن كون الاعتداء فى مقتل؛ ولكن لا يكفى القول بأن الآلة قاتلة وأن الاعتداء فى مقتل لوصف القتل بأنه عمد، بل لابد من أن يثبت أن قصد الجانى كان قتل المجنى عليه، وهو ما تستطيع المحكمة الوصول إليه من ظروف كل حادثة على حدة.

ونذكر فيما يلى حكمين حديثين لمحكمة النقض المصرية قررت فيهما ذلك صراحة، وقد قالت فى الحكم الأول:

« متى كان الدفاع عن المتهم بشروع فى قتل قد تمسك بأنه لم يقصد بإطلاقه العيارات النارية التى أطلقها قتلا، بل كان قصده فقط فض المشاجرة التى كانت قائمة بإرهاب المتشاجرين، وأن المجنى عليه وهو لم تكن له علاقة بالمتشاجرين، بل كان وجوده عند مكان الحادث مصادفة، وكان واقفا على جزء مرتفع من الأرض فأصيب وحده عفوا دون قصد ولا تعمد بمقذوف إحدى تلك العيارات التى أطلقت فى الهواء، وكانت المحكمة لم تورد فيما أوردته للاستدلال على إدانة هذا المتهم بالشروع فى القتل العمد أى دليل على أنه صوب سلاحه إلى شخص المجنى عليه قصدا وأطلق المقذوف عليه بالذات، بل كان ما قاله فى ذلك هو أنه أطلق المقذوف نحو فريق من المتشاجرين مما لا ينفى قول الدفاع ولا يثبته لعدم تعيين النحوية المذكورة وعدم تحديد مداها بالنسبة الى ذوات أشخاص الفريق المشار إليه،

وكان المجنى عليه أيضا هو وحده الذى أصيب فى الحادث من تلك المقذوفات على الرغم من تعدد العيارات ووفرة عدد أفراد الفريق الذى أطلقت نحوهم ؛ فهذا الذى ذكرته واستدلت به على عدم صحة دفاع المتهم وعلى ثبوت نية القتل فى حقه ، من أنه أطلق العيار على المجنى عليه وأصابه فى مقتل ، لايكون له مايبرره من واقعة الدعوى ، ويكون الحكم بذلك قاصر البيان متعينا نقضه ، نقض ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٦ .

وجاء فى الحكم الثانى : « إذا كانت المحكمة حين تحدثت عن نية القتل لم تقل سوى أنها « ثابتة من استعمال المتهم مسدسا صالحا للاستعمال وهو آلة قاتلة بطبيعتها ومحشو بمقذوف نارى ، ثم تصويب المسدس وهو على هذه الصورة على المجنى عليه وإطلاقه على عضده الأيسر وهو جزء واقع فى منطقة خطيرة من جسم الإنسان يترتب عليه قتل المجنى عليه » فذلك لا يكفى فى إثبات هذه النية ، إذ أن استعمال آلة قاتلة لا يكفى وحده لأن تتخذ دليلا على نية القتل ، إذ يجوز أن يكون القصد منه مجرد الإيذاء ، وإطلاق المسدس على عضد المجنى عليه لا ينهض دليلا على وجود هذه النية ، لأن العضد ليس بمقتل » نقض ١٣ مايو سنة ١٩٤٦ .

وإذا انتقلنا إلى فقه الشريعة لمعرفة طريق ثبوت القصد الجنائى ، وجدنا أنه فى مذهب أبى حنيفة تقوم الآلة مقام القصد ، فمتى كانت الآلة قاتلة (على النحو المبين فى موضعه من كتب الفقه)[1] يعتبر القتل عمداً ، لأن العمد هو القصد ولا يوقف على القصد إلا بدليل ، ودليله استعمال القاتل آلته ، فأقيم الدليل مقام المدلول ؛ لأن الدلائل تقوم مقام المدلولات فى المعارف الظنية . والحال كذلك فى مذهب الشافعى ، فمتى كانت الآلة قاتلة اعتبر القتل عمداً وإلا فهو شبه عمد . ونعتقد أنه فى مذهب أحمد يثبت القصد مستقلا عن الآلة المستعملة ، وإن كان نوع الآلة ومكان الإصابة مما يستعان به على تعرف قصد الجانى . وقد ذكرنا أنه عند مالك يعتبر القتل عمداً متى أدى الاعتداء إلى القتل ، وكانت الآلة قاتلة ؛ واستثنوا من ذلك الأب إذا قتل ابنه فلا بد فى هذه الحالة من أن يظهر بوضوح من أفعال الأب أنه يقصد قتل ابنه ، كأن يضجعه ويذبحه مثلا ، أما إذا كانت الآلة غير قاتلة غالبا فيعتبر القتل خطأ إن كان الاعتداء على وجه اللعب أو التأديب ، فإن كان عداوة فهو عمد .

---

(١) انظر بيان ذلك فى كتابنا « القصاص » ص ٤١ وما بعدها .

والآن وقد بينـّا معنى القصد الجنائى فى جريمة القتل العمد فى الشريعة والقانون ، فما هو المعنى الذى قصده المشرع عندما نص فى المادة الخامسة من قانون المواريث على أنه « من موانع الإرث قتل المورث عمدا ، سواء أكان القاتل فاعلا أصليا ، أم شريكا ، أم كان شاهد زور أدت شهادته إلى الحكم بالإعدام وتنفيذه ، إذا كان القتل بلا حق ولا عذر ، وكان القاتل عاقلا بالغا من العمر خمس عشرة سنة . ويعد من الأعذار تجاوز حد الدفاع الشرعى » ؟ الذى نراه فى هذا الصدد هو أن المشرع قصد القتل العمد بمعناه المعروف فى قانون العقوبات ؛ والذى يدل على ذلك أن المشرع لم يأخذ حكم هذه المـادة من مذهب معين ، بل جمع من كل مذهب حكما ، وأن الاصطلاحات الفنية التى وردت فى هذه المـادة هى اصطلاحات مأخوذة من قانون العقوبات المصرى ؛ فمعنى الفاعل والشريك وبيان الأعذار التى تمنع من تطبيق هـذا الحـكم ، كل هـذا يخضع فى مدلوله لنصـوص قانون العقوبات المصرى ؛ وإن نص المذكرة الإيضاحيه للقانون يؤيد هذا الرأى ، فقد ورد فيها :

ب ـ « خولف مذهب الحنفية وأخذ بمذهب مالك فيما يأتى :

١ ــ فى القتل بالتسبب ، فصار القتل العمد مانعاً سواء أباشر القاتل القتل أم كان شريكا فيه أم تسبب فيه .

٢ ــ فى القتل الخطأ ، فلم يعتبر مانعاً .

ج ـ يدخل فى القتل العمد المباشر من أجهز على شخص بعد أن أنفذ فيه آخر مقتلا من مقاتله فإنهما يمنعان من إرثه . ويدخل فى القتل بالتسبب الآمر والدال والمحرض والمشارك والربيئة (وهو من يراقب المكان أثناء مباشرة القتل) وواضع السم وشاهد الزور الذى بنى على شهادته الحـكم بالإعدام .

د ـ على أن القتل العمد لا يمنع فى كل الأحوال . والأحوال التى لا يكون فيها مانعاً من الإرث هى الأحوال الآتية :

(١) القتل قصاصاً أو حدًّا .

(٢) القتل فى حالة من حالات الدفاع الشرعى عن النفس أو المال مما هو منصوص عليه فى المواد ٢٤٥ و٢٤٩ ، ٢٥٠ من قانون العقوبات .

(٣) قتل الزوج زوجته والزانى بها عند مفاجأتهما حال الزنا — م ٢٢٧ عقوبات.

(٤) تجاوز حد الدفاع الشرعى - مادة ٢٥١ عقوبات.

هـ - قصد باشتراط كون القاتل عاقلا إخراج ما يأتى:

(١) الجنون والعاهة العقلية - مادة ٦٢ عقوبات.

(٢) ارتكاب القاتل القتل وهو فى غيبوبة ناشئة عن عقاقير أيا كان نوعها، إذا أخذها قهرا عنه أو على غير علم بها - مادة ٦٢ عقوبات.

ومما يؤيد وجهة النظر التى نقول بها أنه كان مفهوما لدى المشرع أن القتل بعذر الذى لا يمنع من الميراث هو قتل الزوج زوجته والزانى بها عند مفاجأتهما حال الزنا؛ ولذا فقد رأت أقلية لجنة الشئون التشريعية بمجلس النواب تعميم الحكم الخاص بعدم منع الزوج من الإرث، إذا قتل زوجته عند مفاجأتها متلبسة بالزنا مع بعض محارمها كالأب والابن والأخ، ولكن اللجنة رأت بأغلبية الآراء الموافقة على بقاء المادة كما هى. وإن قصر العذر على الزوج هو من صنع المشرع المصرى بخلاف حكم الشريعة فهى تساوى فى ذلك بين الأب والزوج والأخ [1].

وإن القول بتعرف نية الجانى مستقلة عن الآلة المستعملة فى القتل ليس فيه ما ينافى أحكام الشريعة، فيقول صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » ولا يجوز القول بتعرف النية من الآلة فحسب، فكثيرا ما يرتكب القتل الخطأ بآلة قاتلة، ولا بد لمعرفة هل القتل خطأ أم عمد من معرفة قصد الجانى عندما اعتدى؛ فإذا أطلق شخص عيارا ناريا قتل آخر فمن الواجب معرفة هل كان يقصد قتل المجنى عليه، أم أنه أطلق العيار قاصدا قتل حيوان فأصاب المجنى عليه؛ وإن تعرف المجنى عليه هذه النية أمر مستقل لا علاقة له بنوع الآلة المستعملة؛ وإذا أجزنا معرفة هذه النية من الظروف المحيطة بالحادث فليس هناك ما يمنع إذن من تعرفها بعيدة عن القرينة القاطعة المستمدة من نوع الآلة، فى حالة تعمد الاعتداء، واستظهار ما إذا كان الجانى يقصد القتل أم مجرد الاعتداء.

---

(١) راجع مؤلفنا « القصاص »، والمراجع التى أشرنا إليها.

وإن هذا الرأى الذى نقول به سبق أن قال به صاحب كتاب تـكملة فتح القدير ، واعترض على إقامة الآلة مقام القصد ؛ وهذا نص ما قاله به تعليقاً على ماجاء فى الهداية « لأن العمد هو القصد ولا يوقف على القصد إلا بدليله وهو استعمال الآلة القاتلة فكان متعمدا فيه عند ذلك » : « أقول فيه بحث ، وهو أن هذا القدر من التعليل يشكل بما إذا استعمل الآلة القاتلة فى القتل الخطأ ، كما إذا رمى شخصاً بسهم أو ضربه بسيف يظنه صيدا فإذا هو آدمى ، أو يظنه حربياً فإذا هو مسلم ، وهذا من نوع الخطأ فى القصد ؛ وكما إذا رمى غرضاً بآلة قاتلة فأصاب آدمياً ، وهـذا من نوع الخطأ فى الفعل ؛ فإن استعمال الآلة القاتلة الذى جعل دليلا على القصد قد تحقق هناك أيضاً مع أنه ليس بعمد بل هو خطأ محض على ما نصوا عليه قاطبة . فإن قلت المراد باستعمال الآلة القاتلة فى التعليل المذكور استعمالها لضرب المقتول لا استعمالها مطلقاً ، ففيما إذا رمى غرضاً فأصاب آدمياً لم يكن استعمالها لضرب الآدمى بل كان لغرض آخر - قلت : هذا التأويل إنما يفيد فى نوع الخطأ فى الفعل دون نوع الخطأ فى القصد ، فإن استعمالها فيه أيضاً لضرب المقتول ، لـكن الخطأ فى وصف المقتول . فإن قلت : المراد استعمالها لضرب المقتول من حيث هو آدمى ، لا استعمالها لضربه مطلقاً ، وفى نوع الخطأ فى القصد لم تتحقق الحيثية المذكورة - قلت : كون الاستعمال من هذه الوجهة أمر مضمور راجع إلى النية والقصد ، فلا يوقف عليه كما لا يوقف على العمد ، فلا بد من دليل خارجى يذكر فى التعليل المزبور . كما أنه لو كان مـدار كون القتل عمدا مجرد استعمال الآلة القاتلة كما هو الظاهر من التعليل المزبور ، لما كان لقول صاحب الوقاية وكثير من أصحاب المتون : القتل العمد ضربه قصدا بما يفرق الأجزاء كسلاح ومحدد من خشب أو ليطة أو نار - وجه . إذ يلزم إذ ذاك أن يكون قيـد : قصدا ، زائدا بل لغوا ، لعدم الوقوف عليه بالغرض إلا باستعمال الآلة القاتلة وهو ضربه بما يفرق الأجزاء فيكفى ذكره ، بل لما كان لقيد : تعمد ، فى الـكتاب (يقصد الهداية) أيضاً فى قوله : فالعمد : ما تعمد ضربه - وجه ، بل كان ينبغى أن يقال : فالعمد ما ضربه بسلاح أو ما جرى مجرى السلاح . فتدبر » .[1]

---

(١) جـ ٩ ص ١٣٨ .

ويخلص مما تقدم أننا نخالف لجنة الفتوى فيما ذهبت اليه من إقامة الآلة مقام القصد ؛ فإن هذا كثيرا ما يؤدى الى عقاب الجانى بعقوبة القتل العمد مع أنه لم يتعمد قتل المجنى عليه ، ولا توقع هذه العقوبة إلا لأن الجانى فى ساعة غضبه وثورة نفسه لم يجد أمامه آلة يعتدى بها سوى آلة تعتبر فى ظاهرها قاتلة ، فى حين أنه لم يقصد قتل المجنى عليه ، إذ لم يقصد إلا مجرد الاعتداء فحسب ، بل ولعل الجانى يكون أول نادم على النتيجة التى ترتبت على اعتدائه ، لأنه لم يقصدها .

وإن الشريعة الغراء ترتب الحكم على العمل مقترنا بالنية ، لا على واحد منهما فقط ؛ وعلى ذلك فإذا كانت واقعة الدعوى كما ثبتت لمحكمة الجنايات هى أن الجانى ضرب زوجته ضرباً أفضى الى موتها ولم يقصد من ذلك قتلها ، إذا كان هذا هو الثابت فإن هذه الجريمة لا يترتب عليها حرمان الزوج من ميراث زوجته لأنها ليست قتلا عمدا . ؟

الشعر الفحل

كان جرير علماً من أعلام الشعر فى القرن الإسلامى الأول ، ونريد أن نورد أبياتاً له فى مدح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ليرى القارىء صورة للقول الجزل فى ذلك العهد ؛ قال :

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفى فقد والده ... كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبْلا من الجن أومساً من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا ... لسنا اليكم ولا فى دار منتظر
ما زلت بعدك فى هم يؤرقنى ... قدطال فى الحى إصعادى ومنحدرى
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا باد على حضر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
أتى الخلافة أو كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدَر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

لغـــــويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

اشتريت الخمسة كتب ، وبعت الستمائة قلم ، وأخذت الألف دينار

يكثر هذا فى الكلام فى التحدث بالعدد . ولا يرضى النحويون هذا ولا يجيزونه ، وينكرون الجرى فى هذا السنن . والبصريون يرون رأيا واحدا لا يعدلون عنه ، على هدى ما تم لهم من استقراء كلام العرب ، وما يستوجبه مزاج لسانهم ؛ فيوجبون فى مثله تعريف الجزء الأخير ، فيقال : اشتريت خمسة الكتب ، وأخذت ألف الدينار ، وبعت ستمائة القلم . ويوردون قول الفرزدق فى يزيد بن المهلب :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم ... خُضُع الرقاب نواكس الأبصار
ما زال مذ عقدت يداه إزاره ... فسما ، فأدرك خمسة الأشبار
يدنى كتائب من كتائب تلتقى ... للطعن يوم تجاوُل وغِوار

فهذا هو السماع عن العرب . ومن جهة النظر والقياس يذكرون أن العدد المضاف كغيره ، إنما يعرَّف بتعريف المضاف إليه ؛ فإذا أردت تعريف كتاب رجل قلت : كتاب الرجل ، وإذا أردت تعريف حَب الرمان بنسبته إليك قلت : هذا حب رمَّانى .

ويجيز الكوفيون مع هذا وجها آخر ، وهو تعريف الجزأين ؛ فيقال : الخمسة الكتب ، والألف الدينار ، والست المائة ؛ وقد شبهوه من جهة القياس بالحسن الوجه . ويذكر الكسائى منهم أنه سمع عن العرب الخمسة الأثواب .

ولقد سئل أبو القاسم الزجاجى [1] : كيف الاختيار فى تعريف ثلاثمائة

---

(١) توفى الزجاجى سنة ٣٣٩

درهم ؟ فقال : « لا يجيز أصحابنا البصريون أجمعون فى هـذه إلا إدخال الألف واللام فى الاسم الأخير المخفوض ؛ فيقولون : ما فعلت ثلاثمائة الدرهم ، وأربعمائة الدينار ؟ وكذلك كل عدد فسر بمخفوض مضاف إليه ، فتعرّفه بإدخال الألف واللام فى المضاف إليه ؛ نحو قولك : خمسة الأثواب ، وخمسة الغلمان ، وثلاثمائة الدرهم ، وألف الدينار . هـذا هو القياس فى تعريف كل مضاف : أن يعرّف المضاف إليه ؛ قال ذو الرُّمّة — أنشده سيبويه — :

وهل يرجع التسليمَ أو يكشف العمى ثلاث الأثافى والديار البلاقع

ولم يقل الثلاث الأثافى . وقال الفرزدق — أنشده أبو عمر الجَرْمى — :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار

والكوفيون يجيزون ما فعلت الخمسة الأثواب والعشرة الدراهم والخمسة الجوارى ، والثلاث المائة الدرهم . فيجمعون بين الألف واللام والإضافة . وكان الكسائى يروى عن العرب أنها تقول : هذه الخمسة الأثواب والمائة الدرهم ؛ قال : شبهوه بقولهم : هـذا الحسن الوجه ، والكثير المال ؛ وليس مثله ؛ لأن قولك : هذا حسن الوجه ، مضاف إلى معرفة ، ولم يتعرف ؛ لأن إضافته غـير محضة ، فلما أردت تعريفه أدخلت عليه الألف واللام فعرفته بهما . وإنما عَوَّل الكسائى فى ذلك على السماع ، ولم يكن ليروى — رحمه الله — إلا ما سمع . ولكن ليس هذا من لغة الفصحاء ولا من يؤخذ بلغته . وليس كل شىء يسمع من النوادر والشواذ يجعل أصلا يقاس عليه . أخبرنى أبو العباس المبرد ، قال : أخبرنى أبو عثمان المازنى ، قال : أخبرنى أبو عمر صالح بن إسحق الجرمى ، قال : أخبرنى أبو زيد الأنصارى أن قوما من العرب يقولون : هذه العشرة الدراهم ، والخمسة الأثواب ، فيجمعون بين الألف واللام والإضافة . قال : وليسوا هم فصحاء . وقد حكى أيضا الأخفش سعيد بن مسعدة هذه الحكاية عن بعضهم وردها . قال : وليس بمأخوذ بها (١) » ، وقد جاء على وفق مذهب الكوفيين ما فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة (٢) « وانصرف بالألف الدينار راشدا » ،

(١) من الأشباه والنظائر ج ٣ ص ٤٨ من الطبعة الهندية الثانية .

(٢) ج ٤ ص ٣١٦ على هامش فتح البارى

وجاء فى باب الاستعانة باليد فى الصلاة قوله : فقرأ العشر الآيات خواتيم سورة البقرة .

وأعود بعد هـذا إلى ما اعتاد الناس من قولهم : الخمسة كُتُب ؛ فقد رأيت أن هذا لا يجيزه بصرى ولا كوفى . وهـذا على أنه ورد فى كلام بعض الفصحاء من العلماء . فنى طبقات [1] الشعراء لابن سلام الجمحى : « وجعلنا أصحاب المراثى طبقة بعدالعشرطبقات » . وقد بدا أنه تعبير قديم جرى عليه الكتاب واستساغوه . وإنى أميل إلى القول بجوازه ؛ فقد ورد فى الحـديث فيما رواه البخارى عن أبى هريرة فى « باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغـيرها » من كتاب البيوع فى حديث طويل : [2] « فأتى بالألف دينار » وجاء فيه فى باب الاستعانة باليد فىالصلاة : « ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران » . وذلك فى رواية ابن مالك فى شواهد التوضيح . وصحيح البخارى قد تضافر الناس علىضبط روايته وتحقيقها ، فاليقين يتملكنا أنه قيل هكذا فى عصر البخـارى ، وقد يكون قبله . والرواة له علماء بالعربية لا يسكتون على ما يتجافى عنها فى الحديث . وقد أحس النحاة أمام مثل هـذه النصوص ضيقا مما قرروه فى قواعدهم إذ كان لا يسايرها ولا يقاودها ، فعمدوا إلى التأويل والتخريج ؛ فيقول ابن مالك : « وفى وقوع دينـار بعد الألف ثلاثة أوجه : أحدها — وهو أجودها — أنه أراد : بالألف ألفِ دينار ، على إبدال ألف المضاف من المعرف بالألف واللام ، ثم حذف المضاف — وهو البدل — لدلالة المبدل منه عليه ، وأبقى المضاف إليه على ما كان عليه من الجـر ؛ كما حـذف المعطوف المضاف وترك المضاف إليه على ما كان عليه قبل الحذف فى نحو ما كل سوداء تمرة ، ولا بيضاء شحمة .

وفى باب الاستعانة باليد فىالصلاة : ثم قام فقرأ بالعشر آيات . ويحمل أيضا على البدل على أن المراد : فقرأ العشر عشر آيات ، ثم حذف البدل ، وبقى ما كان مضافا إليه مجرورا . ومن حذف البدل المضاف لدلالة المبدل منه عليه قول الراجز :

الآكل المالِ اليتيم بطـرا يأكل نارا ، وسيصلى سقرا

---

(١) ص ٤٨ من طبعة أوربة . (٢) ج ٤ ص ٣١٦ على هامش فتح البارى

أراد : الآكل المال مال اليتيم . ومثله قول الشاعر :

المالُ ذى كرم تنمِى محامده   ما دام يبذله فى السر والعلن

أراد : المال مال ذى كرم .

الوجه الثانى : أن يكون الأصل : جاء بالألف الدينار ، والمراد بالألف الدنانير ، فأوقع المفرد موقع الجمع ؛ كقوله تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » ، ثم حذف الألف واللام من الخط .

الوجه الثالث : أن يكون أراد الألف مضافا إلى دينار . والألف واللام زائدتان ، فلذلك لم يمنعا من الإضافة . ذكر جواز هذا الوجه أبو على الفارسى ، وحمل عليه قول الشاعر :

تولِى الضجيعَ إذا تنبه موهِنا   كالأقحوان من الرشاش المستقِ

قال أبو على : أراد : من رشاش المستقِ ، فزاد الألف واللام ، ولم يمنعا من الإضافة » [1] .

والذى يعنينا من هذا ورود هذا الأسلوب من قديم ، وأخذ الكتاب به ، فلا علينا أن نجيزه . قال أبو حيان فى الارتشاف : « فأما الثلاثة أثواب بإضافة ذى اللام إلى نكرة فبعض الكتاب يجيز ذلك » . ويقول الشهاب الخفاجى فى حواشيه على درة الغواص : « وهل يصح أن يقال : الألف درهم بتعريف المضاف فقط ؟ حكى ابن عصفور جوازه وهو قبيح ، لإضافة المعرفة إلى النكرة » . وقال ابن سعيد فى حاشيته على الأشمونى : « وإن أجازه (أى نحو الألف دينار) قوم من الكتاب ، على ما نقل ابن عصفور » .

الفِهْرِس والفِهْرِست

وقع السؤال عن جلية الأمر فى هذا اللفظ : هل يقال فهرس أو فهرست ؟ . وقد دعا إلى هذا السؤال أنه يُرى فى الكتب والمصنفات هذان الحرفان . والفهرس يستعمل الآن فى أكثر الحال فى إجمال مافى الكتاب من مسائل وأبواب ، ومكانها

(١) انظر شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ص ٣٨ - وقد طبع فى الهند

من الكتاب . وقد يراد به الكتاب تذكر فيه أسماء الكتب ، كما يقال : فهرس دار الكتب المصرية ، وفهرس المكتبة الصادقية بتونس . واللفظة فارسية دخلت العربية من قديم ؛ فقد تحدث عنها الليث تلميذ الخليل فى كتاب العين ، فهو يقول فيها — على ما جاء فى اللسان ، نقلا عن تهذيب الأزهرى — : « الفهرس : الكتاب الذى تجمع فيه الكتب » . ويقـول العلماء : إنه فى الفارسية فهرست . وكذلك هى فى المعاجم الفارسية الحالية على ما أخبرنى به الثقات فى هـــذا الشأن . وأصحاب المعاجم اللغوية يقتصرون على الفهرس، كما رأيت فى عبارة الليث ، وقـد تابعه فى ذلك صاحب القاموس ، فهو يقول : « الفهرس — بالكسر — الكتاب الذى تجمع فيه الكتب ، وهذا لأن الفهرس على وزان الأبنية العربية ، فهو كزبرج ، فمن ثم كان الفهرس هو المستساغ عندهم المقبول ؛ فقد أدخـل على اللفظة الفارسية تغيير بحذف التاء ليكون فى بناء اعتاده العرب وألفوه . ولكنا نرى الفهرست يستعمل فى اللسان العربى ؛ فهـذا كتاب فهرست ابن النديم محمد ابن إسحق المتوفى سـنة ٣٨٥ ، وترى عالم المشرقيات كراوس ينشر فى باريس سـنة ١٩٣٩ رسالة للبيرونى ، يذكر فيها فهرست كتب محمد بن زكريا الرازى ، ونرى الخوارزمى صاحب مفاتيح العلوم يذكر فى كتابه فى أوله هـذا العنوان : « فهرست أبواب الكتاب وفصوله » ، ونراه فى ص ٣٩ من هذا الكتاب يقول : « الفهرست : ذكر الأعمال والدفاتر تكون فى الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء » .

فنرى من هـذا أن لفظة الفهرست صحيحة قبلها العلماء واستعملوها ، فـلا يسعنـا تخطئتها وإنـكارها ، فإن قال قائل : ولكنها ليست على منهج الأبنية العربية ؟ فالجـواب أن الذى أدخـل العربية قـد يتناوله التغيير فيجعل على منهج الأبنية العربية ، وقد يقر على بنائه الأصلى . وهـذا سيبويه يقول فى كتابه [1] : « وأعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة ؛ فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه » .

ويقول أيضا فى هـذا الموطن : « وربمـا تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم ، كان على بنائهم أو لم يكن ؛ نحو خراسان ، وخُرَّم والكركم » .

---

(١) ج ٢ ص ٣٤٢ .

وقد أورد خراسان لما ليس من بناء كلامهم ؛ إذ ليس من أوزان الأسماء فى العربية ُفعالان .

ويخرج القارىء من هذا العرض الى أن الفهرس والفهرست كلاهما جائز فى الاستعمال ، وإن كان الفهرس أعرب وأجرى على المزاج العربى . وجمع اللفظين كليهما فهارس .

ومما يذكر هنا أنه قد اشتق من الفهرس فعل ، فقالوا : فَهرَس الكتب فهرسة . نص عليه صاحب القاموس .

وقد قلت : إن هذا التعريب قديم ، والظاهر أنه يرجع الى عهد الاحتجاج ؛ فقد كان هذا اللفظ معروفا فى زمن الليث فى العصر العباسى الأول ، وهو إذ أدخلها فى كتابه العين كان يرى أنها من الشهرة بحيث أصبحت فى عداد الألفاظ العربية التى تحتاج الى بيان . والله أعلم ؟

الرأى

أمر الله رسوله بالاستشارة فى الأمور فقال : « وشاورهم فى الأمر » . ولا يخفى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مؤيدا بالوحى ، وإنما أمره بالاستشارة إكبارا لأمرها ، وتقديرا لخطرها .

مما يروى من بركات الاستشارة أن بنى ثقيف لما همت بالارتداد بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمان بن أبى العاص ، وكان مطاعا فيهم . فقال لهم : « لا تكونوا آخر العرب إسلاما وأولهم ارتداداً » فنفعهم الله برأيه .

قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ! . فقال : نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره ، فكأنا ألف حازم .

قال شاعر :

الرأى كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلى إلا بإصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

مفردات فلسفية

فلسفة

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
وعضو خبير فى العلوم الفلسفية بالمجمع اللغوى الملكى

من المعروف أن كلمة « فلسفة » معناها فى الأصل : محبة الحكمة ، ثم صار يراد منها شىء آخر غير هذا الميل والانعطاف لأسمى ضروب المعرفة ، وذلك بعامل اختلاف الزمن أو اختلاف الفيلسوف ، وهذا الشىء الآخر هو ضرب أو ضروب من المعرفة نفسها .

ا — هى عند البعض المعرفة العقلية ، أو العلم ، بأعم معانى الكلمة ، وهكذا استعملها أرسطو فى كتابه : « ما بعد الطبيعة » . وهى بهذا المعنى تقابل التاريخ الذى يعتمد على النقل والرواية ، كما تتميز تماما عن الدين ؛ من جهة أن الفلسفة تعتمد على العقل والتجربة ، بينما الدين أساسه الوحى والإيمان La foi .

وهذا المعنى للفلسفة نجده زمنا طويلا لدى الفلاسفة المحدثين . وبهذا الإطلاق الواسع العام تشمل « الفلسفة الأولى » أو الإلهيات ، و« الطبيعة » التى هى مجموع العلوم الطبيعية ، و« الأخلاق » التى تعالج ما نسميه اليوم العلوم الأخلاقية .

و « ديكارت » الفيلسوف الفرنسى المعروف يصدر عن هذا الفهم حين يذكر فى كتابه : « مبادىء الفلسفة » أن الفلسفة شجرة أصلها الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) ، وجذعها الفيزيقا أو الطبيعة ، وفى القمة منها الأخلاق .

ب — مجموعة الدراسات التى تمثل درجة عالية من التعميم Généralité ، والتى تهدف إلى أن ترد فرعا من فروع المعرفة ، أو المعرفة الإنسانية كلها ،

إلى قليل من المبادىء أو الأصول التى يقوم عليها علم من العلوم . ومن ثم يقال مثلا : فلسفة التاريخ ، فلسفة القانون ، فلسفة الفقه .

وهذا المعنى هو ما لحظه « أوجِسْتْ كونت » ، حين يقول فى كتابه : « دروس الفلسفة الوضعية » : « ومن ثم يكون لنا ثلاثة أنواع من الفلسفة ، أو ثلاثة أنواع من النظم العامة للتصورات أو المفاهيم الكلية لمجموع ظواهر العالم » .

ج — الدراسات الخاصة بالعقل من جهة ما يتميز به عن موضوعاته ، ومن جهة أن المراد به هو ما يقابل الطبيعة La natnre . وبهذا المعنى تطلق الفلسفة بصفة خاصة على :

(١) الدراسة النقدية لما تواجهه العلوم مباشرة من مسائل ومبادئ تضعها وضعا . وذلك مثل أصول معارفنا ، ومبادئ اليقين ، والوقائع التى يرتكز عليها بناء العلوم الوضعية ، ونقد المعانى أو الأفكار idées المنظمة للإدراك الإنسانى . ومن ذلك تكون الفلسفة ، أو هذا الضرب منها ، متميزة تماما عن العلوم فى أنها لا تخضع مطلقا للتجربة ، ولا تطمع أن تصل فى تلك المشاكل ونحوها إلى حلول عامة يعترف بها الجميع . كما أنها تكون قريبة من الفن ، بمعنى أن يكون لكل متفلسف آراؤه الخاصة فى هذه المشاكل .

(٢) دراسة العقل أيضا ، ولكن من ناحية ما يصدره من أحكام قيمية . وإذاً ، تكون بهذا المعنى متركزة فى العلوم الأخلاقية ، أو المعيارية ، الثلاثة ، وهى : الأخلاق ، والمنطق ، والجمال .

وبهذا المعنى (ح) هل تشمل الفلسفة علم النفس ؟ ذلك موضع مناقشة حتى هذه الأيام .

د — استعداد خُلقى يقوم على النظر لأمور هذا العالم من عَل ، وعلى السمو فوق مستوى المنافع الخاصة ، وعلى احتمال أرزاء الحياة بصبر جميل وبشاشة صدر .

هـ — مذهب أو نظام لفهم الكون والحياة ، انتهى إليه فيلسوف بعينه ؛ ومن ثم يقال فلسفة ديكارت ، فلسفة الفارابى ، مثلا .

و — مجموعة التفكير الفلسفى ، أو المذاهب الفلسفية ، لعصر من العصور ، أو لأمة من الأمم : فلسفة العصر الوسيط ، فلسفة اليونان ، مثلا .

ملاحظات

١ — من الناحية التاريخية

كان « سقراط » يصف نفسه بأنه فيلسوف ، يريد أنه محب أو صديق الحكمة بالمعنى الأخلاقى . وبعد سقراط نجد « أفلاطون » تلميذه يستعملها كثيرا . وإن كان يريد منها معنى أوسع بكثير مما كان يريد أستاذه .

وهذا المعنى الواسع الذى رضيه أفلاطون للفلسفة رضيه أيضا اكسينوقراط Xenacrate ، وزينون Zénon ، وسائر المدرسة الرواقية من بعد . وهم جميعا يجعلون الفلسفة أقساما ثلاثة : نظرية المعرفة (المنطق) ، الفلسفة الطبيعية (الفيزيقا) ، والأخلاق .

وهكذا ترى المعنى (د) كان موجودا فى عصر سقراط ، وعاش طوال العصر القديم اليونانى — الرومانى . والمعنى (ح) ، بقسميه : ١ ، ٢ وجد لدى أفلاطون متحدا بالمعنى (د) . والتمييز بين الفلسفة والعلم ، وعلى الأقل الرياضيات ، كان موجودا على الأخص عند فيلسوف الأكاديمية (أفلاطون) ، ومن الممكن التحقق من ذلك من كتابه : « الجمهورية » مثلا .

ونعتقد ، لهذا ، أن أفلاطون حدد على وضع أحسن المعنى آراه لكلمة فلسفة ، أى أحسن مما فعل أرسطو الذى يجعل معناها واسعا حتى يشمل كل نوع المعرفة العقلية (المعنى ا) .

والتمييز بين الفلسفة والتاريخ نجده واضحاً جدا لدى أفلاطون ، كما نجده معروفا بعده أيضا . أما التمييز بين الدين ، كما نعرفه الآن ، وبين الفلسفة ، فلا يرجع فى تاريخه لأكثر من المسيحية وعصر آباء الكنيسة .

والتفرقة التى نعرفها اليوم ، بين الفلسفة والعلوم الطبيعية ، لا ترجع لأبعد من آخر القرن الثامن عشر وفاتحة التاسع عشر . إنه نحو هذا العصر نجد المعنى (ب) يختلف بوضوح عن المعنى (ا) . ومن ثم نجد شاتوبريان (١٧٦٨ — ١٨٤٨ م) يقول : نحن نعنى هنا بالفلسفة دراسة كل نوع من العلم » ، وذلك فى كتابه : « عبقرية المسيحية » .

والتعبير : « فلسفة التاريخ » أحدثه فولتير ، ثم انتقل من فرنسا إلى ألمانيا . ففى رأى الكاتب العبقرى العظيم يراد بكلمة « فلسفة » فى هذا التعبير (المعنى ب) . وعند هيجل يراد بها معنى (ب) و (حـ) معاً .

٢ — من الناحية النقدية

الفكرة الأساسية ، أو المعنى الكبير لكلمة « فلسفة » هو على ما أعتقد ـ هكذا يقول الأستاذ يارودى ـ بذل المجهود للتأليف أو التركيب الكلى Synthère total . أليست الفلسفة تصورا أو فهما للكون فى مجموعه ، أو للأشياء والموجودات فى عمومها ، فيما يختص بالظواهر الخارجية الكونية والعقل معا باعتبار ما بين هذين الطرفين (الظواهر والعقل) من علاقات متبادلة ؟ ذلك حق فى رأيى ، وإذاً يكون معناه أن الفلسفة — فى مقابل العلم البحت الخالص — ليست مطلقاً مجرد معرفة لنوع أو أنواع مختلفة من الأفكار ؛ ولكنها معرفة مصحوبة بعودة بالنقد لنفسها وأصلها وشروطها ومنهجها وحدودها وقيمتها . وهذا ما لا يكون دون محاولة نعرف بها مكانة هذا الضرب المعرفة بالنسبة إلى سائر المعارف الأخرى .

والفلسفة هكذا ، تكون مقصورة — فى رأى يارودى — على نظرية المعرفة وحدها ؟

عن معجم لالاند الفلسفى . « للبحث بقية »

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
مبعوث الأزهر بكلية المقاصد الإسلامية
فى صيدا . لبنان

من خلال هـذا العنوان الذى سبق أن نظرنا به إلى طرائف كثيرة فى هـذا القرآن العجيب ، نريد أن ننظر إلى قصة موسى والعبد الصالح [١] لننظر اليها لا من حيث الشرح لمفرداتها والسرد لحوادثها ، واستنباط العبر والفوائد من وراء سوقها فى القرآن ؛ فذلك نوع من الدراسـة لا يكاد يستعصى على متعلم شب عن الطوق فى التعليم إحرازه وتحصيله .

لننظر اليها إذن من حيث نوع آخر من الدراسة قد يجد القارىء فيه شيئا من المتعة مع الجدة . لننظر اليها من حيث المعانى التى هى واحدة أو كالواحدة لكنها تذكر فى أكثر من موضع بعبارات مختلفة وتراكيب يغاير بعضها بعضا ؛ الأمر الذى راح البعض يعزوه إلى أن قصص القرآن ما هو إلا عمل أدبى وحبك فنى يعتمد على السبك والإخراج أكثر مما يعتمد على الصدق والوقوع فى الخارج ، بينما راح بعض آخر يعزوه إلى ضعف بلاغى أو تلفيق خيالى أو ضلال فى تلمس الحقائق .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان هذا التكرار مع الافتراق لا إلى ذلك ولا إلى ذلك ، وإنما هو لأسرار تتعلق بإعجاز القرآن وبلاغته ، مع عدم المجافاة للحقيقة والواقع الخارجى ، وكنا نريد أن ننزع فى بيان ذلك منزع التفصيل بعد الإجمال [٢]

---

[١] راجع الكهف من الآية ٦٠ الى الآية ٨٣ .

[٢] راجع فى أعداد سابقة من هذه المجلة مقالات « تشابه النظم فى القرآن الكريم » .

فبنا فى سبع مفارقات نتناول بالدرس والتحليل ما عسى أن يسأل عنه من هـذا القبيل فى هذه القصة .

المفارقة الأولى : فى الحـــديث عن الحوت فى الآية ٦١ « فاتخذ سبيله فى البحر سربا » وفى الآية ٦٣ « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » فما الذى أوجب « سربا » تارة ، و « عجبا » أخرى ، وكَـوْن كل حيث كانت ؟

والجواب : أنه اختلاف بغـير تناقض للتفنن والتنويع بإبراز المعنى الواحد بأ كثر من طريقة مع تحصيل أسرار ودقائق تحصل من وراء ذلك . فالسبيل والسرب فى الآية الأولى مفعولا الاتخاذ ، والفعـل مسلط عليهما كـكل مفعولين أول وثان . أما « عجبا » فى الآية الثـانية فالأشبه أنها صفة ، والتقدير فاتخـذ سبيله فى البحر اتخاذا عجبا ، أو سبيلا عجبا . ولمـا كانت « سربا » اسما ، وكانت « عجبا » صفة ، وكان الاسم على ما علـم من العربية بالضرورة مقـدما على الصفة ، كان وقوع المقدم فى المقدم ، والتـالى فى التـالى من الجودة بمكان .

المفارقة الثانية : فى قوله تعالى الآية ٧١ « فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها » مع قوله تعالى فى الآية ٧٤ : « فانطلقا حتى إذا لقيا غـلاما فقتله ، قال أقتلت نفسا زكية بغـير نفس » فالخارق للسفينة والقاتل للغلام هو العبد الصالح ، والمنكر عليه فعله هو موسى ، وكان الثانى قـد قال للأول : « هل أتبعك على أن تعلمن ممـا علمت رشدا » فقال له : « إنك لن تستطيع معى صـــبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » ، فقال موسى « ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . ولمـا كان جواب إذا دائمـا محـط الفائدة المرموق بالذكر أولا وبالذات ، كان الظاهر أن يقع إنـكار موسى على العبد الصالح جوابا لإذا فى الآيتين ، لأن السياق يهدف الى بيان ذلك منه بعد ما كان بينهما من حوار ، فما باله وقع جوابا لهـا فى الآية الثانية دون الأولى . ؟

والجواب : أنه لمـا كان الإنكار الأول فى الآية الأولى فى الجولة الأولى حين خرق السفينة ، اكتفى بإيقاع الخرق جوابا لإذا ، وجعل إنكار موسى بعده على سبيل الاستئناف كأنه ممـا يتسامح فيه لأول مرة ، ولـكن لمـا كان الإنـكار الثانى فى الآية الثانية فى الجولة الثانية حين قتل الغـلام وكان موسى بعد إنـكاره خرق

السفينة قد عاتبه العبد الصالح بقوله « ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا » فقال له موسى « لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » - كان هذا الإنكار الثانى من موسى أشد غرابة لا يكاد يتسامح فيه لثانى مرة ، فاستشراف النفس وتطلعها اليه وترقبها له ، أكثر من سابقه ، فكان وقوعه دونه جوابا لإذا من الفصل بين المقامات وإصابة المحازّ بمكان . . ألا يرى كيف وقع جوابا لإذا فى الآية الثالثة فى الجولة الثالثة فى قوله تعالى : « حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا » ؟ وكيف كان ذلك بعد سابق اعتذاره عن الإنكار الثانى ، وقوله للعبد الصالح « إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » .

المفارقة الثالثة : فى حكاية قول العبد الصالح لموسى الآية ٧٢ « ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا » ، وقوله له مرة أخرى الآية ٧٥ « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا » ، فإن الآية الثانية تزيد على الآية الأولى كلمة لك ، فهل من سر لهذه الزيادة ؟

والجواب : أن المقالة الأولى كانت عند الجولة الأولى عند الاستنكار الأول من موسى بخصوص خرق السفينة ، فكانت موفية بالغرض ؛ أما الثانية فكانت فى الجولة الثانية عند الاستنكار الثانى من موسى بخصوص قتل الغلام بعد سابق اعتذاره عن الاستنكار الأول ، فناسبت فيها هذه الزيادة لتوكيد المعنى وتقوية الخطاب بالعتاب .

المفارقة الرابعة : فى حكاية قول موسى للعبد الصالح فى خرق السفينة : « لقد جئت شيئاً إمراً » ، مع قوله له فى قتل الغلام « لقد جئت شيئاً نكرا » . فالإمر فى الأولى ، والنكر فى الثانية . وإذا علمنا أن قتل الغلام بغير ذنب أشنع وأبشع من مجرد خرق السفينة الذى قد يفضى إلى الغرق وقد لا يفضى ، وأن لفظ النكر أدل على المنكر المستقبح من لفظ الإمر ، أدركنا تناسب كل لفظ بموقعه .

المفارقة الخامسة : فى حكاية قول العبد الصالح لموسى فى خرق السفينة : « فأردت أن أعيبها » ، وفى قتل الغلام « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة

وأقرب رُحماً » ، وفى إقامة الجدار لليتيمين « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » . فالإرادة الأولى مسندة إلى العبد الصالح المتكلم ، والثانية إلى الضمير « نا » ، والثالثة إلى الرب مع أن الجميع من فعل العبد الصالح ، فهل من حكمة لهذه التفرقة » [1] ؟

والجواب : أن إسناد الإرادة الأخيرة إلى الرب لأنها تعلقت بفعل حسن لا يصدر على الأصل والحقيقة إلا من الله المتكفل بصلاح الأبناء لحق الآباء ، مع ما تشعره لفظة الرب من التربية ، ومناسبة التربية لحال اليتيمينْ . أما إسناد الإرادة الأولى للعبد الصالح المتكلم فلأنها تعلقت بفعل الإعابة للسفينة ، والإعابة وإن كانت فى الحقيقة من الله ، وهى أمر حسن باعتبار الغاية منه ، إلا أنه تحوشى إسنادها إلى الله ، وأسندت إلى العبد الصالح المتكلم ، مراعاة للفظها ولظاهر الحال . أما إسناد الإرادة الوسطى إلى ضمير « نا » فلأن القتل أشنع الثلاثة ، فأراد أن يدل على أنه لم يفعله إلا لرسوخ قدمه فى علوم حكمة الله وأسرار قضائه وإرادته ، فعبر بالعبارة المشعرة بهذه المعانى فقال : أردنا ، بإدماج إرادته فى إرادة الله .

المفارقة السادسة : فى حكاية قول الخضر لموسى : « سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » ، ثم قوله له بعد تأويل هذه الأفعال وبيان الحكمة فيها « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » بحذف التاء من فعل الاستطاعة فى الآية الثانية بعد وجوده فى الآية الأولى ؛ فهل من سر لوجود حرف التاء تارة دون أخرى ؟

والجواب من وجهين لا ترى أحدهما إلا أوجه من الآخر .

الأول : أن هذه الأفعال قبل تأويلها ثقيلة على النفس لجهل سرها ، وبعد تأويلها تجد النفس لها خفة ووضوحا ؛ فإذا علمنا أن الحذف أخف من الذكر كما هى القاعدة العربية ، وأن اللفظ الذى لا حذف فيه وقع أولا عند الحديث عن هذه الأفعال قبل تأويلها ، وأن اللفظ الثانى الذى وقع فيه الحذف وقع ثانيا عند الحديث عن هذه الأفعال بعد تأويلها — أدركنا أن ذلك من وضع الأثقل فى الأثقل والأخف فى الأخف .

---

(١) لا تكاد تستقيم لك هذه الدراسة حتى تكون القصة بين يديك تعاين ما نشير إليه من الآيات وتستحضر من المعانى ما يجب أن تكون قد انتهيت منه لتبدأ هذه الدراسة .

الثانى : أن عالم المجهول أصل بالنسبة للإنسان[1] والذكر أصل بالنسبة للحذف ، فوقعت اللفظة التى لاحذف فيها فى الحديث عن الأفعال قبل علم أسرارها ، ووقعت اللفظة ذات الحذف فى الحديث عن الأفعال بعد علم أسرارها ، فكان ذلك من وضع الأصل فى الأصل والفرع فى الفرع[2] .

المفارقة السابعة : فى ذكر بلدة اليتيمين أول الأمر بعنوان القرية الآية ٧٧ مع ذكرها فى ثانى الأمر بعنوان المدينة الآية ٨٣ ، هل من سر لهذه المغايرة ؟

والجواب : أن المدلول واحد فى ذاته ، لكنها عنونت بالقرية أول الأمر فى سياق بيان بخلها ، لأن البخل فى القرى أشنع كما قيل « شر القرى من ضيع القرى » ، وعنونت بالمدينة فى ثانى الأمر فى سياق خوف ضياع اليتيمين ، ولعله فى المدن أكثر منه فى القرى .

تذييل هام :

هذه الدقائق البلاغية التى كانت من أجلها هذه الافتراقات ، كثير منها فى آيات تحكى أقوال أشخاص كموسى والعبد الصالح وغيرهما كثير فى كثير من قصص القرآن ؛ فهل من حكيت عنهم هذه الأقوال كانوا يراعون هذه الدقائق فى كلامهم — عربيا أم غير عربى ؟ أم لم يكونوا يراعونها وإنما ابتدعها القرآن ؟ أما على الأول فيلزم قيام الإعجاز بكلام المحكى عنهم فلا يكون القرآن المعجز ؛ وأما على الثانى فيلزم عدم تحرى الصدق فى القصص وحكاية ما لم يكن بحال . هذا إشكال يلهج به البعض ، وليس يثنينا عن الأخذ فى تفنيده والإجابة عليه إلا إرجاؤه الى مقال تال وقريب ؟

(١) « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) فى مقال سابق شرحنا كيف يشار الى المعانى فى القرآن بوضعية الألفاظ وهيئة تراكيبها .

من نوادر المخطوطات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

من المناهج العلمية التى عرفها العرب ، وعرفها المسلمون قديما : تخصيص الموضوعات العلمية الهامة بكتب خاصة ، أو رسائل خاصة ، تلم أطرافها وتجمع شتاتها ، وتوفر على المطالع والدارس عناء التطلع وتوزيع المجهودات فى غيرها من المراجع ، ويعلم الباحثون مقدار هذا العناء ، والتاريخ العربى والإسلامى حافل بالعلماء الذين خصصوا كثيرا من الموضوعات العلمية برسائل خاصة ، سواء فى ذلك الموضوعات اللغوية والفقهية والفلسفية .

فللأصمعى كتاب فى الخيل ، وكتاب فى الإبل ، وكتاب فى النبات والشجر ؛ ولجلال الدين السيوطى بضع مئات من الرسائل فى موضوعات علمية مختلفة ضمن مؤلفاته التى قدرت بأربعمائة مؤلف ؛ وللعلامة ابن تيمية جملة من الرسائل فى مجلدين ؛ وللعلامة الفقيه ابن عابدين جملة من الرسائل فى مجلدين ، عدا موسوعاته الفقهية المعروفة ؛ وللفيلسوف ابن سينا كثير من الرسائل فى الفلسفة وعلم الكلام .

وقد اصطنع هذا المنهج العلمى بعض الجامعات الأوربية حديثا ، وظن بعض أهل العلم خطأ أنه منهج أجنبى مستحدث ، ولكنه فى الواقع منهج ثقافى إسلامى قديم دعت إليه الأسباب التى أشرنا إليها ، وساعد على انتهاجه سبب آخر هو سعة اطلاع هؤلاء العلماء ومقدرتهم العلمية على ما يعالجون من الموضوعات .

وقد جاء على هذا المنهج العلمى كتابنا الذى نتحدث عنه ، وهو كتاب البعث ، لابن أبى داود السجستانى ، وهو كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث التى رويت فى موضوع البعث وما يتقدمه من مواقف الاحتضار ، والموت ، وعذاب القبر ، وما يتصل به من نتائج هى الجزاء بالجنة لمن أحسن ، والجزاء بالنار لمن أساء وظلم . وعدة أحاديث الكتاب واحد وثمانون حديثا أكثرها ورد فى صحاح السنة ، وبخاصة

صحيحي البخاري ومسلم ، ومؤلفه هو الإمام أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان ابن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني ، اختلف نقدة الحديث في ثقته وصدقه ، وأكثرهم على أنه ثقة صدوق حافظ ، إلا أن أباه أبا داود قال : ابني عبد الله كذاب . وذكر ابن عدي عنه أنه معروف بالطلب ، وعامة ما كتب مع ابنه وهو مقبول عند أصحاب الحديث ؛ وأما كلام أبيه فما أدري إيش تبين له منه ؟ وقال النيسابوري : سمعت ابن أبي داود يقول : « حدثت بأصبهان من حفظي بستة وثلاثين ألف حديث ألزموني الوهم في سبعة أحاديث ، فلما رجعت وجدت في كتابي خمسة منها على ما حدثتهم ؛ وكان يعرف الطب والنجوم ؛ ولد سنة ٢٣٠ هـ ورحل به أبوه ، وتوفي آخر سنة ٣١٦ هـ .

وإنه لمن المفاخر العلمية لعلماء المسلمين ، تلك الأمانة العلمية التي أخذوا بها أنفسهم خشية الله وتقديرا للأمانة وقياما بواجب الدين والعلم ؛ هذه الأمانة التي حملت أبا داود رضي الله عنه ، أن يقول عن ابنه مؤلف هذا الكتاب : « إنه كذاب » ولم تمنعه عاطفة البنوة — ومكانها من قلوب الآباء ومنزلتها كما نعلم — أن يقول في ابنه ما رأى . فلله هؤلاء العلماء ، ولله أمانتهم وإخلاصهم ! .

وبالمكتبة الأزهرية من هذا الكتاب نسختان كلتاهما قديمة ، إلا أن إحداهما أقدم من الأخرى ، ولعلها أقدم نسخ الكتاب في العالم ؛ فعلى هامش بعض صفحاتها كلمة تحتمل أن تقرأ : كتبه مؤلفه أو سمعه مؤلفه . ولا يبعد هذا الاحتمال في الخطوط القديمة كما يعرف ذلك من عاني قراءتها . وإذا صح ذلك كان تاريخ هذا المخطوط أواخر القرن الثالث ؛ فقد توفي المؤلف سنة ٣١٦ هـ كما ذكرنا في ترجمته . وعدد أوراقها ١٨ ورقة من القطع الصغير ، وعليها كثير من السماعات (أعني شهادة الشيوخ بأن تلاميذهم في الحديث قرءوا هذه الأحاديث عليهم ، وسمعها شيوخهم منهم) شغلت أكثر حواشي النسخة ، وشغلت خمس ورقات من آخرها ، وتختلف تواريخ تلك السماعات ، فبعضها كان في القرن الرابع ، وبعضها في القرن الخامس ، وبعضها في السادس ، وبعضها في السابع ، وبعضها في الثامن ، وقد طوفت هذه النسخة في بلاد كثيرة ، حتى استقرت أخيرا بالقاهرة بالمكتبة الأزهرية ، فبعض سماعاتها كان بدمشق بالمدرسة الأمينية والمسجد الجامع ، وبعضها كان بحلب

وبعضها كان بجبل قاسيون ، وبعضها بجامع قلعة الكرك ، وبعضها كان بالقاهرة بمدرسة الملك الصالح وبغيرها من المساجد والمدارس. وهذه صورة لسماع منها:

« قرأ عليّ جميع هذا الجزء معارضا بأصل سماعى من أبى المنجا بن اللتى بسماعه حاضرا من سعيد بن البنا بسنده الفقيه الأجل الفاضل شمس الدين أبو البركات أحمد ابن موسى بن نصر الخولى ، فسمعه مجد الدين عمر بن ابراهيم بن ابراهيم بن عثمان المرصفاوى، وصح ذلك فى يوم الأحد سادس عشرين جمادى الآخر من سنة أربع وستين وستمائة بظاهر القاهرة . وكتبه أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهرى ، عفا الله عنه » .

واحتفاظا بصورة هذه المخطوط ، طلبت من الأستاذ مرسى بك قنديل مدير دار الكتب الملكية أن تأخذ دار الكتب صورتين فوتوغرافيتين تحتفظ منهما بنسخة ، وتحتفظ المكتبة الأزهرية بالثانية ، وقد فعل ذلك مشكورا .

وإنى بسبيل أن أصحح ذلك الكتاب ، وأشرحه شرحا موجزا يكشف عما خفى فيه ، ويغنى بعض الغناء عن الرجوع الى غيره. وعسى أن يمنحنى الله العون والتوفيق ؟

التواضع

قال ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضعك فى شرفك ، أكثر من شرفك .

وقال عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين : أفضل الرجال من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة .

وقال ابن قتيبة : لم يقل فى التواضع بيت أبدع من قول الشاعر فى بعض خلفاء بنى أمية :

يغضِى حياء ويغضَى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

المجاز والكناية فى القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد فؤاد الأول بأسيوط

تحت هذا العنوان كتب فضيلة أستاذنا العلامة الشيخ حامد محيسن ، عدة بحوث ، وهو — وفقه الله — حريص على التوجيه إلى حرية الرأى والتخلص من قيود الجمود ؛ ونحن نحمد له ذلك الاتجاه ، ونسأل الله له التوفيق ، حتى نكون فى حدود ما رسم الدين ، وحتى لا نتورط فى تكلف ، إن الله لا يحب المتكلفين .

لقد أثار بحث فضيلته فى آية الملك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلنا رجوما للشياطين » ؛ أثار ذلك البحث ضجيجا ، وأحدث صخبا كثيرا ، وأجال بعض الأقلام فى المناقشة والجدل ؛ وقد رأيت أن يكون لى شرف المساهمة فى بعض تلك الجولات ، وأن أعرض لأهم ما يعنى الناظر فى الآية الكريمة فى نظر العقل ، ونظر الدين ، ونظر البيان العربى ، مرسلا نفسى على سجيتها ، مع توخى غاية الإيجاز خشية الزلل أو الشطط ، من غير استقصاء فى البحث ، تمشيا مع أدب الإسلام فى المقاولة .

١ — لايظهر وجه التنافى بين استراق الشياطين للسمع ، وكون الله سبحانه متقن الخلق ، محكم الصنع ، فالله سبحانه بديع السموات والأرض ، والله سبحانه خالق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، وهو سبحانه رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم ؛ كل هذه وسواها مظاهر إتقان الخلق وإحكام الصنع ؛ فهل محاولة استراق السمع تنافى شيئا من ذلك ؟

لو كان الأمر كذلك لما اعترف به فضيلته فى تفسير الآيات الأخرى التى وردت فى هذا المعنى كآية الحجر ، وآية الصافات ؛ لكن فضيلته قد اعترف به ، ولم يحاول تأويله ؛ إذاً فمحاولة استراق السمع متمشية مع الإحكام والدقة ، ولكن الله سبحانه دبر أمر الخلق بمقتضى علمه على غاية الحكمة ونهاية الدقة ، وأعطى كل شىء خلقه ، ويسر كلا لما خلقه له ؛ فالملائكة عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، منهم من يدبر الأمر ، ومنهم من يحمل العرش ، ومنهم ومنهم . . .

والشياطين أشرار مفسدون ، ولهم سلطان فى الإغواء إلا على عباد الله المخلصين . والشيطان هو الذى أقسم بين يدى الله لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين . وهو الذى يقول بين يدى الله سبحانه « لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » ، والله سبحانه ماحال دون ذلك ، ولا أوصد الباب فى وجهه ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، ولكنه فسح له مجاله لأنه ـ كما قلت ـ يسر كل كائن لما خلق له ، فخاطبه بقوله : « اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

وإذاً فالاستراق سبيل من سبل الإغواء التى يبتلى بها الله عباده ، ليضل المزعزع فيؤمن بالكاهن ، ويذعن له ، وليهتدى الثابت فيسلم وجهه الى الله وحده . وماذا كان لاستراق السمع من أثر فى إتقان الصنع ، وإحكام النسج ؟ وهل كان بالله سبحانه من حاجة إلى حملة العرش ، و أن يرسى الأرض بالجبال ؟ .

ليس كل مايجول بالذهن أو يتصل بالإدراك يحكمَّ فى نظام الله ، وإلا لكان كثير مما جاءت به الأديان من السماء مثارا للشكوك ، وموضعاً للريب ، ولكننا نؤمن بكل ماجاء من عند ربنا ، ولا نتبع ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . إن كل تأويل لا ينصره الدليل الحق المبصر ، فهو رد ، وإنما التأويل الصحيح مانصبت عليه القرائن وقامت عليه الدلائل . فأما أن شبهة تعرض أو خاطرا يجول فليس منا بسبيل ؛ فإن لله سبحانه مراداً من كلامه يعوزه كثير من الحيطة والحذر .

لقد أنكر بعض العلماء وقوع المجاز فى القرآن ، منهم ابن القيم فى بعض كتبه ،

واشترط فى بعض منها شروطاً تجعله عزيزاً كل العزة ، وكل ذلك ليسدوا باب الضلال ، ويحولوا دون الاحتيال ؛ ولقد غلا بعض الناس فى أمره ، فكانوا أضر على الدين من أولئك ، وكان منهم الباطنية المارقون ، ولكن قوما هداهم الله للحسنى ، فأولوا ما لم يستطيعوا تحقيق ظاهره ، وفسروا الألفاظ بما تدل عليه القرائن دلالة راشدة ، فكانوا وسطا عدولا .

وإذ لم يكن ذلك الاستراق ولا الرمى بالشهب محالا ، وقد اعترف به أستاذنا كما قلت ، فما الحافز إلى صرف اللفظ عن ظاهره ، وإلباس الثوب غير لابسه ؟ .

٢ — ويقول فضيلة الأستاذ : إن المفسرين بنوا مقالهم على خيال باطل هو أن الله سبحانه يجرى تدبيره على نظام الدواوين وما فيها من أخذ ورد .

ونحن نعلم أن المفسرين بنوا مقالهم على ما ورد به النقل الصحيح من الكتاب والسنة عن الاستراق . وكيف يستطيع المفسرون أن يتقولوا فى شئون الله أو يظنوا به حاجة الى الشورى ، وهو بكل شيء عليم ؟ معاذ الله ! .

وهل انحصر أمر الاستراق فيما كان عن شورى وأخذ ورد ؟

جاء فى حديث مسلم بسنده الى ابن عباس ، أن الله سبحانه إذا قضى الأمر فى السماء يقول الذين يلون حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ وهكذا حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا فتخطف الجن السمع .

وهذا الحديث ونحوه وإن لم يصل الى درجة اليقين ، فإننا بسبيل أن ندفع عنه وصمة الرد والتكذيب ، فإنه من الأحاديث الظنية التى يعمل بها فى الأحكام الشرعية ، فلا أقل من أن يؤخذ بما يؤدى اليه ، وهو الظن الراجح ؛ فكيف إذا اعتضد بالكتاب الكريم وجاء بيانا وتفسيرا لبعض آيه ؟ وإنه لا ينهض فى مثل هذا أن تقول إن العقل لا يسوغه ؛ فإن كل ما لم يقم الدليل الصحيح على محاليته فانه جائز ، والجائز إذا أخبر الصادق بوقوعه فهو مقبول .

٣ — يقول فضيلة الأستاذ : إن سورة « الملك » ترمى إلى غاية واحدة هى لفت الأنظار إلى بديع آيات الله ، وما فى السموات والأرض من أدلة وبراهين على قدرته . . . الخ .

والواقع أنك إذا نظرت فى السورة الكريمة فهى أغراض عدة ومقاصد جمة ، فهى كما قال السيد آيات وحجج ؛ وهى أيضا وعيد وتهديد « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها . . . » وهى وعد وتحضيض ، « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » . وهى امتنان وحث على الشكر : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » ، « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » ... وهكذا .

ولعل من باب الاستطراد أن نقول إن هذا الكتاب الكريم ، قد امتاز فى ربط الشىء بالشىء للملابسة ، وذكر المعنى بجوار المعنى لمناسبة ، وإن خرج عن الغرض تمشيا مع تجديد النشاط والاستطراف بتعديد الأغراض ، حتى ربما وقع فى أثناء القصة الواحدة خروج باعتراض أو تذييل « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » ، « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » . « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » .

وكل ذلك وأمثاله من البلاغة التى يتفاوت بها النظم ويعذب بها الموقع ، ولا سيما إذا كان فى مثل أسلوب الكتاب الكريم . فلئن قال قائل : إن السورة الكريمة ترمى الى غاية واحدة لم يمنع ذلك من مزج تلك الغاية ببعض ما يلابسها أو يتصل بها . وهل وصف النجوم بأنها رجوم للشياطين يبعد كل البعد عن وصفها بأنها زينة للسماء ، ونور فى الأجواء ؟ إنها نور مضىء ، وإنها نار محرقة ؛ إن الموصوف شىء واحد هو النجوم ، وإن الصفات لمتآخذة متجاوبة كما ترى .

وهل هناك ما يمنع أن يكون الرجم بها من آيات الله ، والأدلة على عظيم قدرته وواسع تصرفه ونهاية عزته « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » وهل اتسع المجال لربط إعداد عذاب جهنم للكافرين بما قبله ، وضاق عن ربط الرجم بالنجوم بجعلها زينة مضيئة ؟

(٤) يقول فضيلة الأستاذ : إن مما لا يستسيغه العقل أن يفهم فاهم أن النجوم التى هى زينة وبرهان على قدرة الله يرمى بها المستمعون الى السماء ، لأن ذلك مما يخيل السفه ، ومما يجافى الحكمة ويؤذن بالعجز .. الخ ما يدور حول هذا المعنى .

ونحن نرد من جهة العقل والنقل .

أما العقل فإنه لا يفهم السفه فى هذا ، لأنه لا يستطيع أن يقصر تصوره على فهم أنها للزينة خلقت .

لم لا يجوز أن تكون مخلوقة أيضا لغير ذلك ؟ وأى عجز فى أن يستعمل الله بعض مخلوقاته فيما شاء من أمره ؟ ولماذا نصر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبا ، وأهلك عادا بالدبور ، وقد أرسل الرياح لواقح ، وأرسل الرياح مبشرات ؛ بل وربما كان ذلك من آيات القدرة الإلهية ، وبسطة السلطان كما قلنا . إنه ليس لجوءاً فيكون عجزا ؛ إنما هو الى ربط الأسباب بالمسببات أقرب . فالله يهلك بما شاء من شاء : يهلك بالصواعق ، ويفنى بالريح العاتية ، وقد أرسل على أصحاب الفيل حجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . وقد يرفع القرية الى السماء ثم يقلبها « والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ماغشى » . وكل ذلك لحكم يعلمها الله ومن علّمه الله . ومن الحق علينا أن تتسع له عقائدنا ، وأن نؤمن به : كل من عند ربنا .

ولعل هذا الشيطان المفسد يناسبه أن يقتل بهذا الصنف العظيم ، ولا سيما إذا كان منه قريبا . وهذه النجوم كثيرة عدد الحصى لاتفنى ، وذلك من آيات الله .

ثم ما بال هذا القرآن الذى أنزل للهداية والتوجيه الحكيم يصرع الشيطان كما ورد فى بعض الأحاديث الصحيحة ؟ إننا نؤمن بكل ما جاء على الوجه الذى به جاء ، ما دام أنه لم يقم على محاليته دليل ملزم .

وأما النقل : فهو ماجاء فى آيات الاستراق ، كما قدمت . فهل من السفه والعجز ما تفيده الآيات الكريمة إفادة واضحة صريحة « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » ، « وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . . » الخ .

إن فى كلام الشيخ ما يفيد الإيمان بظواهر هذه الآيات ، وهو مافسر به المفسرون هذه الآية ، وهذا أقرب ؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا سيما إذا كان محققا لما يفيده اللفظ بأصل الوضع .

ه — قبل أن أختم ما أردته اليوم ، أستطيع أن أعيد التفاهم فى شأن المجاز الذى عول فضيلته عليه : ذلك أنه ليس من السهل كما قلت آنفا أن يصار إلى المجاز ولو لشبهة تعرض ؛ فالأصل كما يعلم السيد أن يحمل اللفظ على حقيقته وأصل معناه لأنه الذى يسبق إلى الذهن عند العالم بالوضع ، اللهم إنه إذا وجدت قرينة تمنع من صحة إرادة المعنى الأصلى للكلمة فلا محيص من المصير إليه اضطرارا .

وقد بينت أنه ليست هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، بل هناك مايدعو إلى القول به .

على أننا إن صح أن نقبل استعارة الرجوم لمعنى الإفحام والإلزام كقولهم : ألقمه حجرا ، فإننا نعتبر أن من اللحن بالحجة والتمويه بحسن السبك أن يقال : إن الشيطان مجاز فى معنى الإنسان الكافر مهما عاند وجحد ، واتخذ من دون الله الند . فإن من جمال الاستعارة وقوة أثرها أن يلاحظ فى الوصف المشترك ، القوة والدقة التى تصل الى حد الشهرة ، حتى يسبق المعنى الى ذهن البليغ كأنه حقيقة . ولهذا أنكروا على ابن الأحنف استعمال الجمود فى معنى بخل العين بالدمع للسرور ؛ لأنه اشتهر فى معنى البخل حال الحزن . ولذا قالوا إن هناك ألفاظا تستعمل بناء على الشهرة فى معان كالبدر للصبيح لا للجهاد مثلا ، والأسد للشجاع لا للمتوحش ، والصفرد للجبان ، والذئب للمخادع ، وهكذا .

فليس كل مشاركة فى وصف مسوغا للتشبيه فضلا عن الاستعارة التى هى أحق بأن يراعى فيها جهات الامتياز فى الوصف المبرر لنقل اللفظ من المعنى الحقيقى الى المجازى .

وأعتقد أن لفظ الشيطان يدل على معنى أخص خصائصه الإغواء والإفساد والاحتيال لذلك ، لا الكفر والعناد ؛ فهو إنما يستعار لذلك . وفى القرآن الكريم « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » ، ولعله إذا استعير لمؤمن أو مسلم فيه خبث وتمرد ، كان ذلك أقرب من استعارته لكافر مهما عند .

هـذا إذا حمل لفظ الكناية فى كلام الشيخ على الكناية اللغوية الصادقة بالمجاز، وهو الأشبه ببحث الشيخ، والأليق بكلامه، ولاسيما بعد أن صرح مرارا بمنع المعنى الحقيقى؛ والكناية من شأنها ألا تمنع المعنى الحقيقى، فأما إذا حملت الكناية على المعنى الاصطلاحى الذى هو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، فإنه على مشاركته المجاز فى أنه يشبه التعقيد المعنوى، يزداد نبوا من جهة أن اللزوم فيه بعيدا جدا، إذ لا يلزم من المعنى الحقيقى وهو رجم الشياطين، ذلك المعنى المقصود وهو إقامة الحجة على المعاندين، ولا هو مقصود فى الكلام ولا يدل عليه أسلوب الشيخ، حفظه الله. فكيف إذا ضممت إلى ذلك منع جواز المعنى الحقيقى؟

هـذا مجمل ما ينبغى الآن من المناقشة مع أستاذنا الجليل. ولعل لى عودة للتكملة إذا دعا الداعى. وأستغفر الله وأتوب إليه، إنه لا حول ولا قوة إلا به ؟

يريد الظهور

قال مالك بن أنس: خطب أبو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اتقوا الله. فقام إليه رجل من عرض الناس فقال: أذكرك الله الذى ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر: سمعاً لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذنى العزة بالإثم، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين؛ وأما أنت فوالله ما الله ردت بها، ولكن ليقال قال فعوقب فصبر، وأهون بها لوكانت!. وأنا أحذركم أيها الناس أختها فإن الموعظة علينا نزلت، ومنا أخذت!. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

نقول: إن الحلم الذى أظهر أمير المؤمنين المنصور مما لا يؤثر إلا عن شرفاء النفوس، وكبار العقول، فذكر به فى مواطن الكرامة، وتكلف مثل الإمام الجليل مالك بن أنس فرواه عنه.

وقد أعجبنا قول أبى جعفر المنصور: وأنا أحذركم أيها الناس أختها. فإن محبى الشهرة إذا آنسوا عدم المؤاخذة اندفعوا الى الإكثار من هذه المقاطعة، وليس هذا من الأدب المطلوب فى شيء.

في البلاغة العربية

قواعد بلا شواهد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر بالمعهد العلمى بأم درمان

مَبنى دراسة البلاغة على الشاهد العربى الفصيح . هكذا كانت منذ بدأ العلماء يبحثون فى هذه العلوم ، فكان مِساك عملهم أن ينظروا فى مأثور العرب نثرهم ونظمهم ، يحللون ويشرحون ويستنتجون ، فإذا تكاثرت الشواهد ، وتوافرت النصوص ، استطاعوا بعد البسط والموازنة أن يخلصوا الى قاعدة ؛ وكان مقصدهم من دراسة البلاغة فى مبدأ الأمر — كما هو معروف — الوصول الى سر إعجاز القرآن الكريم . ومع أنهم كانوا يحومون حول كلام العرب ، ويستخلصون منه ، كان مرجعهم الأصيل ، وقطب الدائرة عندهم شيئا آخر ، يلجئون اليه ، حين يعيي التعليل ، ويعز الدليل ؛ ذلك المرجع الذى يسع كل رأى ، وينصر كل قول ، و يُلتحَد اليه عند ضيق النفَس ، وحرج الصدر : هو « الذوق » . فهو الحكم فى فصاحة الكلام وبلاغته ، وهو الهادى الى قوة الأسلوب وركته ، بل كان الذوق مرجع الإعجاز نفسه فى رأى بعض علمائهم ؛ ولكن الكاتبين فى علوم البلاغة احتاطوا حين رجعوا ببلاغة الكلام وفصاحته الى هذا الأصل المرن ، فقالوا إن من الذوق الأصيلَ الفطرى وهو ذوق العرب الُخلّص ، ومنه المكتسب ، وهو ذوق المتمرسين بكلام العرب ، المطيلين النظر فيه ، المتفقهين لأساليبه ومعانيه ، حتى تتكون عندهم من إتقان الدراسة وطول الدرْبة ، ملكة يضاهئون بها ملكة العرب الذين خلص لسانهم ، وسلمت ملكاتهم ؛ ولا اعتداد بغير هذين من الأذواق .

ننظر فيما كتب عبد القاهر فنجده يذكر الكلمة فى موضوعين مختلفين ، ويُمَيل بين موقعيها ، ويخلص من ذلك إلى أن الكلمة صالحة فى هذا الموضع ، متناسبة متلائمة مع أخواتها ، وأنها نفسها نابية جاسية فى الموضع الآخر ؛ فإذا طلبتَ اليه الدليل لم تجد عنده الجواب ، وإنما تتلمسه فى الذوق . يقول فى دلائل الإعجاز بعد الحديث عن تفاضل الألفاظ ، وأن الفضيلة إنما تثبت لها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، قال : « ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، ومن أعجب ذلك لفظة الشيء ، فانك تراها مقبولة حسنة فى موضع ، وضعيفة مستكرهة فى موضع ؛ وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة :

وكم مالىء عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبى حية النميرى :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ، ثم انظر اليها فى بيت المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضتَ سعيه لعوّقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم .

نعم هو يحيل هذا التفاضل على ملائمة معنى الكلمة لمعنى التى تليها ؛ ولكن كيف كان هذا التلاؤم فى هذا الموضع ؟ وما هى الفوارق الدقيقة بين وضع الكلمة فى المكانين ؟ ذلك مالا يحدثنا عنه الشيخ العلامة ، وما لا نعرف سبيلا اليه إلا الذوق . على أن الشيخ عبدالقاهر يصرح فى غير موضع من كتبه بضرورة الرجوع إلى الذوق ، وجعله الحكم الأول والأخير ، وما لم يوجد الطبع المساعد ، والملكة المواتية فانك لا تستطيع أن ترجع فى هذا العلم إلى أصل يعتمد عليه . قال فى الدلائل (ص ٢٢٥): « واعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى عنها تارة أخرى ، وحتى إذا عجبته عجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه » . ثم يرى أن من تساوت عنده

الحالات كلها ، قلما يجدى معه كلام ، فهو بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشعر والذوق الذى يعتمد عليه فيه .

وفى موضع آخر يطيل الحديث عن الذوق ، ويرى أنه الأساس فى الأكثر من الكلام ، فترد الشبهة على من عدم الذوق ، ويقول : كيف يصير المعروف مجهولا ، ومن أين يتصور أن يكونَ للشىء فى كلامٍ مزيةٌ عليه فى كلام آخر بعد أن تكون حقيقته فيهما حقيقة واحدة ؟ ثم يقول : ولسنا نستطيع فى كشف الشبهة فى هذا عنهم ما استطعناه فى نفس النظم ، فليس الداء فيه بالهين ، ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفا ، والسعى منجحا ؛ لأن المزية التى تريد أن تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شأنها ، أمور خفية ، ومعان روحانية ، وأنت لا تستطيع أن تحدث للسامع علما بها حتى يكون مهيأ لإدراكها ، ويكون له ذوق وقريحة ، والبلاء والداء العياء أن هذا الإحساس قليل فى الناس . وعنده أن رد خطأ المخطىء فى العلوم التى لها أصول معروفة ، وقوانين مضبوطة ، أمر ميسور ، ولكن رد خطئه فى علوم البلاغة من الصعوبة بمكان ؛ وكيف وأصلك الذى تردهم اليه استشهاد القرائح ، وسبر النفوس وفليها ، وما يعرض فيها من الأريحية عندما تسمع ؟ !

ومن العلماء الذين صرحوا برد إعجاز القرآن إلى الذوق أبو يعقوب يوسف السكاكى ؛ يقول بعد أن يتحدث عن سبب الإعجاز ، وبعد أن يذكر وجوها أربعة : يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين - يعنى المعانى والبيان - بعد فضل إلهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له ؛ ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه مايطلع عليه ، فلكم سحبنا الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره .

غير أنهم كانوا يرون مع ذلك أن الذوق لا بد أن يعلل ، وأنه ليس يكفى أن تقول إن هذا الكلام فصيح بشهادة الذوق ، وتسكت ، فإن الباب حينئذ يتسع ، ولا يعرف الأصيل من الدخيل ، ولا يكون فرق بين العالم والجاهل ؛ وحسب المعانى لهذه العلوم من الشر أن يكون غاية ما لصاحبه منه حين يسأله

عن آية من كتاب الله ، ووجه الحجة فيها ، أن يحيله على نفسه ؛ وليس هؤلاء الذين يزعمون أنه لا سبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف المزية فيه وكثيره بأحسن حالا من أولئك الذين فقدوا الذوق والإحساس الذى يعتمد عليه فى إدراك المزية . يقول عبد القاهر (الدلائل ص ٣٣) : وجملة ماأردت أن أبينه لك أنه لابد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل .

وعلى هذا الأساس وضع كتابيه ، وحلّل وعلّل ، ونفذ إلى أسرار ، واكتنه خفايا ، ثم تراه لا ينى يتحدث عن ضرورة إعادة النظر ، وإعمال القريحة . والحق أن هذا المسلك هو المسلك الصحيح إذا تغاضينا عن تصريحه بإمكان معرفة العلة فى كل شىء ، فما دمنا نبحث فى البلاغة لنصل إلى معرفة سر الإعجاز ، ثم لنصل إلى معرفة السرى من الكلام والوضيع منه ، فخير منهج لذلك أن نضع كلام العرب بين أيدينا ، وندرس هذا الكلام ، ونطيل فيه النظر ، ثم نخلص إلى وضع القاعدة إن أمكن ، وإلا ألقينا السلاح ، وحكمنا الذوق ، كما فعل هذا العالم الجليل .

غير أن الذين جاءوا بعده حاولوا عند تقعيد هذه العلوم أن يلتمسوا لكل شىء علة ، فأسرفوا . أوجب عبد القاهر أن يلتمس لكل كلام تستحسنه علة ، ولكنه كثيرا ما كان يقف مكتوف اليدين ، ويكتفى بأن يقول هذا من أروع ما يقال ، وهو معنى نبيل ، وما أحسن قول الأول . . . الى غير ذلك من هذه التعابير التى لا ضابط فيها ؛ ومع ذلك فقد كان أسلم من كتبوا فى البلاغة ، وأقربهم الى المنهج السليم ، ولو أن كل الباحثين بعد عبد القاهر جعلوا منهجهم هذا لكانت البلاغة الآن من الدراسات الممتعة ، ولكن الذى حدث أن السكاكى أراد أن يستخرج للبلاغة قواعد من كلام علماء البلاغة لا من كلام العرب : وهذا مفتاح المسألة — كما يقولون — فكان يرسم صورة القاعدة ثم يضيف اليها ما يمكن أن يفترضه العقل ، ومالت به الطريق كثيرا فى التعليلات ؛ فإنه استخرجها من منطقه ، ولم يستخرجها من أساليب الكلام ، وجاء العلماء بعده فجعلوا من أكبر همهم شرح هذه التعليلات ، والزيادة عليها ، ولم يكن - كذلك - كلام العرب أكبر

همهم ، وإنما كان النظر المنطق ، والتقسيم العقلى ، هو الموجِّه ، وكان من نتيجة ذلك ما أظن أنه السبب فى ضعف علوم البلاغة ، بل هذا المنهج هو الذى بغّض علوم العربية بصفة عامة الى الدارسين ، أعنى بهذا المنهج الاعتماد على المثال دون الشاهد ، وأشرح ذلك فأقول :

نفرض أن العلماء كلهم حاولوا أن يستخرجوا قواعد البلاغة من كلام العرب ، وأن يبحثوا فى قواعدها على هذا الضوء ، فلا تذكر قاعدة إلا بشاهدها ، ولا يناقش تعليل من التعليلات إلا بين يدى طائفة من الكلام الفصيح ، وأن تستبعد الأمثلة ، فلا يذكر فى كتاب من الكتب مثال إلا حين يراد النص على قياس ، أو يقصد بيان خطأ تركيب من التراكيب ؛ أما القواعد فتبنى كلها على الشواهد الصحيحة ؛ أقول لو كان الأمر كذلك لكانت علوم البلاغة - كما كان يجب - أمتع العلوم ، وأحبها إلى النفوس ، وأسلها تقعيدا ، وألطفها مدخلا . وليس أدل على ذلك من أن هذه العلوم بصورتها الراهنة ثقيلة الظل ، خشنة الملمس ، وعرة المسالك ؛ والسر فى ذلك أن لا رائحة للأدب فيها ، وأنها محشوة بالأمثلة التى تفسد الذوق ، وتسمج على الطبع ؛ فأنت تقرأ فى الفصل الواحد أكثر من خمسين مثالا لا تبعد كثيرا عن ضرب زيد عمرا ، وأكرم خالد بكرا ، فترى نفسك فى جفاف أدبى ، فإذا أخذت فى الأسلوب رأيت المنطق والفلسفة وما شئت من ركة وتعقيد .

وأنا الآن بصدد شىء واحد هو خطر « الأمثلة » على دراسة البلاغة . أقول : إن باب الأمثلة فسيح ، وباب الافتراضات واسع ، وفائدة المتعلم جد قليلة من هذه الدراسة ، وكما كان فى الأمثلة متسع فقد أطالوا التعليلات ، وكان فى كثير منها تعسف . ولنذكر على ذلك مثالا واحدا من أمثلة كثيرة :

رأينا الشيخ عبد القاهر يدعو إلى معرفة العلة فى كل كلام تستحسنه ، وينادى بذلك فى كل موضع ، ولكنه يحتاط لنفسه فيرى أن بعض ما تستحسنه لا يمكن أن يسعفك فيه غير الذوق ، وعلى ذلك نجده فى حذف المبتدأ لم يذكر علة واحدة . ولكنه لجأ إلى الكلام السَّيال ، فإنه ساق أبياتا من الشعر فى هذا الموضع ثم علق عليها قائلا : « فتأمل الآن هذه الأبيات ، واستقرها واحدا

واحداً ، وانظر إلى موقعها فى نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف ، إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجده ، وألطفت النظر فيما تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى لفظك ، وتوقعه فى سمعك ، فإنك تعلم أن الذى قلتُ كما قلت ، وأنْ رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد » .

أما السكاكى فجاء يذكر فى هذا الموضع تعليلات كثيرة لا يثبت للبحث منها غير القليل ، فمما ذكره :

(١) تخييل العدول إلى أقوى الدليلين ، وشرحُ هذا الكلام يطول . ولكن من الحق أن تعلم أن هذا معنى لا ظل له فى نفس السامع ولا فى نفس المتكلم ، وأنه يمكن أن يقال فى كل هراء ينطق به ناطق ، وهو بعد لا برهان على إمكان قصده إلا إذا فرضنا متكلما يحذق المنطق ، وسامعا يحذقه كذلك ، وكلاهما يريد أن يعبث . ولقد أعجبنى كل الإعجاب ما ذكره صاحب الطراز بعد أن أشار إلى توجيه الشيخ عبد القاهر لإفادة كلٍ عموم السلب أو سلب العموم ، قال بعد ذلك : « ولقد وقفت على كلام لغيره من علماء البيان فى تقرير هذه القاعدة بناه على قانون المنطق ، ونزله على منهاج السالبة المهملة والمعدولة ، فأورث فيه دقة وأكسبه حموشة وغموضا من جهة أن مبنى علم البيان وعلم المعانى على معرفة اللغة وعلم الإعراب ، فلا ينبغى أن يمزج بعلم لم يخطر للعرب ولا لأحد من علماء الأدب على بال » .

(٢) صون لسانك عنه (٣) صونه عن لسانك (٤) اختبار تنبه السامع (٥) اختبار مقدار تنبهه . وهذا كله لا يدخل فى حساب البليغ ، وإنما يدخل فى حساب المفترض ، ومن يريد أن يمضغ الكلام .

وقد يبدو فى كلامهم من غير قصد ما يدلنا على أنهم إنما يعللون نطق الناطق ـ الآن ـ فتعليلهم فى هذا الفصل باتباع الاستعمال الوارد على تركه ، أو باتباع الاستعمال الوارد على ترك نظائره كقولك مررت بمحمد المسكين ، إنما هو تعليل لنطقك بهذا المثال وشبهه ، ونحن لا نريد هذا ، وإنما نريد أن نعرف لماذا حذف العرب المسند اليه فى النعت المقطوع للمدح أو للذم أو للترحم ، فأنا بصفتى

بلاغيا ، لا يهمنى أن أصحح لك نطقك ، وإنما يهمنى ، أن أعرف لماذا نطق العرب هكذا .

على أن شغفهم بالأمثلة ، وانسياقهم فى تيارها ، جعلهم فى كثير من الأحايين يقدّمون المثال ويشرحون عليه القاعدة ، ثم يقولون ومنه كذا ، ويذكرون آية من القرآن أو بيتا من الشعر ؛ وكان الأجدر بهم أن يطرحوا المثال ، ويجعلوا معتمدهم الشاهد ؛ وما النفع من ذكر المثال غير أنه يضعف من ذوق الطالب ، ويبعد عن الربط بين القاعدة وشاهدها . ! ولعل الأدهى من ذلك أن المحدَثين من المؤلفين حين يضعون التمرينات يعمدون الى الأمثلة من (إنشائهم) وبطبيعة الحال يصوغونها على حذو الأمثلة التى ذكرها القدامى ، ولو أن هؤلاء المؤلفين حرصوا على أن تكون تمريناتهم ـ على الأقل ـ من الشواهد الفصيحة لكان فى ذلك منفعة للدارسين ، ولكن أنى لهم ، وبعض القواعد بلا شواهد ! .

وقد يقول قائل : إن التعليلات غير معتد بها ، فما ينتج منها ضرر . وأقول : إن ذلك يمكن أن يقال فى غير البلاغة ، أما فى البلاغة فالتعليل هو بيان لسر الحسن فى التعبير ؛ فلو أن السر كان غير مستساغ ولا مقبول ، لفقد الكلام كل حسنه ، فلا عمدة حينئذ إلا الذوق .

ومن تمام القول فى هذا الموضوع أن نقول : إن علماء البلاغة قد سلكوا فى بعض الأحايين مسلك علماء النحو ؛ فهم تارة يستشهدون بشطر بيت ، وتارة ببيت لا ثانى له ، مع أنه لا يتم معناه بالثانى ، وكان المدى أمامهم فسيحا ، ولكنهم حصروا الغاية فى أنفسهم ، وهى أنهم يحررون القواعد ويهملون الشواهد !

وبعد : فهذه دعوة لإصلاح البلاغة ـ ولو مؤقتا ـ وتتلخص فى نبذ الأمثلة جملة وتفصيلا والاستعاضة منها بالشواهد ؛ وبذلك تبعث الحياة فى هذه العلوم من جهة ، ويستغنى عن كثير من كلام القوم من جهة أخرى . ويا حبذا لو سلك علماء النحو ، وعلماء التصريف هذا المسلك ؟

الرقة والجزالة
فى علوم البلاغة

لحضرة الأستاذ السيد العفانى

كانت مجلة الأزهر تفضلت فنشرت لى فى عدد ذى الحجة من سنة ١٣٦٧ ﻫ مقالا عن « السيد القاياتى » لمناسبة ما كتبه عنه الأستاذ الجليل عبد الجواد رمضان فى عدد شعبان من نفس السنة ، ناقشت فيه الأستاذ الحكم الذى أصدره على شعر السيد ، وعرضت فى سياق الحديث الى الرقة والجزالة فى البلاغة العربية ، وقلت : « اللهم إن كانت الجزالة هى المتانة فى اللفظ ، مع عذوبته فى الفم ، وحسن وقعه على السمع ؛ وكانت الرقة هى اللطافة فى التعبير مع بعده عن الإسفاف والضعة ، مع سلاسته وخلوه من التعقيد : فإنه ليس ثمة فرق يذكر بينهما ، سوى ما يدركه السامع الخبير بذوقه ، من حيث وضع الألفاظ فى مواضعها ، وأداء كل منها للمعنى الذى حمله ، وارتباطه بما قبله وما بعده .. » ص ٩١٣ ، ٩١٤ من المجلة .

وانتهيت من ذلك الى القول بأنه ليس ثمة مانع من أن تجمع الرقة والجزالة فى واحد ، وبنيت على ذلك قضية « إن كل جزل رقيق وبالعكس » سوى ما تمليه المناسبات الخاصة من ضرورة استعمال أسلوب الجزالة البحت ، أو أسلوب الرقة البحت . وطلبت الى الأستاذ ، وهو ابن بجدة ذلك الميدان ، أن يبين لنا الحد الفاصل بين كل منهما . . .

هذه خلاصة ما قلته فى المقال المذكور ، الى جانب ما عرضت له من دراسة لشعر « السيد » من حيث مكانته الفنية ، وتحليله بمقدار ما أسعف المجال . وكنت أترقب أن يتفضل الأستاذ فيبدى رأيه فيما طلبت اليه ، وأن يسهم فى إجلاء موضوع دقيق لم يعرض له الأولون — سوى ابن الأثير فيما أذكر — بما هو أهل له من عناية . ولكن مضت شهور قبل أن يتفضل الأستاذ بإبداء رأيه فيما طلبت ، وبعد أن نشرت مجلة الأزهر فى عدد ربيع الثانى من سنة ١٣٦٨ كلمة لعالم

فاضل ذيلها برسالة للمغفور له الأستاذ عبد العزيز البشرى تؤيد ما ذهبت اليه جملة ، وفى شعر السيد القاياتى بالذات ؛ ثم ظهر عدد جمادى الآخرة ، وإذا هو يشمل مقالا للأستاذ عبد الجواد تعقبنى فيه والمرحوم الأستاذ البشرى ، وقد نبهنى الى ذلك كله صديق ، إذ كنت عن ذلك كله فى شواغل عدة لم تدع لى وقتا للمطالعة ؛ فقلت : إذن ظفرت بضالتك ، وأفدت المشتغلين بالدراسات الأدبية شيئا جديدا ، فلا شك أن الأستاذ جلالنا فى ذلك قولة العلم الصراح ؛ فلما وقفت على المقال فرحت به أكثر ، ذلك أنه خصنى بثلاث صفحات ونيف ، حشاها بما شاء له قلمه المطواع من لوم وتهكم ، وتصيد للمغالطات ، ليسوغ لومه وتهكمه ، وليدافع عن حكمه مجرد دفاع ، كذلك المحامى الذى لا يهمه إلا كسب القضية ، وإنى لأهديه على كل قول كثير :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت (ببالكا)

وأما القضية التى كان يجب أن يقصد اليها ، فلم تستغرق منه سوى أربعة أسطر ، أصدر فيها حكمه قاطعا جازما ، بأن الجزالة والرقة لا تجتمعان على موضع ، وأن قضية « كل رقيق جزل وبالعكس » قضية كاذبة ، بعد أن نقل لنا قول ابن الأثير بالحرف .

وإنى لأدع كل ما يتصل بشخصى ، فإن ميدان الأدب مسماح كميدان الرياضة ، منتقلا إلى مناقشة ما أورده ابن الأثير ، وما فهمه منه الأستاذ . وهذه خلاصته : « ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا ، عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى بالجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم ، ولذا ذته فى السمع ؛ وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس . . » وهذا مضمون ما قلته فى مقالى السابق ، واستنتجت بناء على هذين التعريفين ـ عدا احتراز الإسفاف ـ القضية الكلية « كل جزل رقيق وبالعكس » إذ أن المتانة لا تنافى الرقة ولا نعومة الملمس ، مادام اللفظ مستعملا فى موضعه الذى لا محيد عنه لأداء معنى من المعانى ، كما أن العذوبة ، وخفة الوقع على السمع التى اشترطها فى تعريف الجزالة ، هى اللطافة ورقة الحاشية ، التى ذكرها فى تعريف الرقة . أما الاحتراز من الإسفاف ، فإنه ليس شرطا فى الرقة وحدها

بل هو شرط فى الكلام البليغ مطلقا . وما كنت أظن أن هذا موضع خلاف ، ولكن الأستاذ الجليل ـ نفعنا الله بعلمه ـ يخالفنى فى ذلك ، ويتهمنى بسقم الفهم ، وعامية الفكر ، حتى لو فهم مثلى طالب عنده لأسقطه فى الامتحان ! .

وأنا إذ أحمد الله على نعمة البلادة ، أعرض القضية على رجال الفن ، ليحكموا أينا أصح استنتاجا ، وأصدق حكما ؛ وأزيد على ذلك فأذكر أن ابن الأثير ـ وهو فى ذلك سباق ، إذ وضع هذين الحدين ـ زاد على ذلك فيما أذكر ، إذ هو ليس تحت يدى ، فنبه الى أن للجزالة مواضع تحتمها وللرقة مواضع تحتمها ، وساق على ذلك مثلا وصف النار والجنة من آخر سورة الزمر ؛ ومعنى ذلك أن المناسبات هى التى تحتم استعمال ألفاظ معينة فى نظم معين يترتب على ارتباطها الحكم عليها بالجزالة أو الرقة بحسب الصورة التى يكونها استعمال هذا التركيب فى ذهن السامع . وما دام شرط الفصاحة أنها خلوص الكلمة من الغرابة ومن تنافر الحروف ومخالفة القياس ، فإنها تكون جزلة رقيقة معاً ، وبالعكس ؛ إذ أنها إن خرجت عن شرط من هذا بأن كانت متنافرة الحروف أو غريبة أو غير لذيذة على السمع ، فإنها تكون خرجت مطلقاً عن نطاق الفصاحة ، ومن ثم لا تكون جزلة ولا رقيقة بل ولا بليغة وعلى هذا يكون ابن الأثير لم يرد أن يضع حداً فاصلا بين الحالتين ، وإنما أراد أن ينبه الى ضرورة الحاسة الفنية ـ أى الذوق ـ عند الكاتب والشاعر والسامع جميعاً ، وهذا ما أشرت إليه فى مقالى السابق .

وأزيد الأستاذ توضيحاً فأقول : إن بعض الباحثين المحدثين يذهب إلى أن الجزالة والسهولة والعذوبة والرقة والدقة والخفة والقوة والسلاسة والرصانة والنصاعة والوضوح والصدق والطلاوة والحلاوة والرونق والمائية والطبعية والسبك والحبك والشرف والسمو والجمال . . . والجلال إلى آخر هذه النعوت المتداخلة ، لا تعين حدا ولا تبين مزية ، وأنها إذا حققت وعرفت لا تخرج عن صفات ثلاث جامعة هى : الأصالة والوجازة والتلاؤم .

ومعنى الأصالة أن يكون الأسلوب الإنشائى أو النظم الشعرى مختار اللفظ مطابقا لمعناه صادق الدلالة على ما وضع له ، واضحاً لا غموض فيه؛ لكن وضوحاً فنيا يتراءى خلال النقاب الشفاف والعمق الصافى . ومعنى الوجازة : امتلاء اللفظ ،

وقوة الحبك ، وشدة التماسك . ومعنى التلاؤم أو الموسيقية أن تكون الكلمة مؤتلفة الحروف حلوة الجرس . وذلك كله شرط فى فصاحة الكلام مطلقاً نظما ونثراً . ومن ذلك تكون قضية « كل جزل رقيق وبالعكس » صادقة فى ذاتها وليست كاذبة .

والغريب أن الأستاذ بعد أن أصدر حكمه القاطع بكذب القضية ، استدرك فى نفس السطر ، بأن العذوبة التى نلمسها ، ونعترف بها فى شعر السيد ، لا تنافى الجزالة ، بل هى شرط فيها ؛ ولو سلمنا أنها رقة ، فهى من وضع الأشياء فى مواضعها ، الى أن انتهى الى قوله «أنا لا أخالف أبدا فى عذوبة غزل السيد ولذاذته ، ولكن هذه العذوبة كتلك التى نجدها فى قول البدوى :

شبهت مشيتها بمشية ظافر يختال بين أسنة وسيوف
صلف ، تناهت نفسه فى نفسه لما انثنى بسنانه المرعوف

وقول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها برقت كبارق ثغرك المتبسم

مما تحس فرقا ـ وهو فرق السمو والجلال ـ بينه وبين قول الآخر :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه »

يا سبحان الله ! يحكم الأستاذ بكذب القضية فى أول السطر وينقضه فى آخره ، ويحاول أن يطلع علينا بنوع جديد من الرقة ، لسنا ندرى ما هو ، إلا أن يكون مما اجتمعت فيه الرقة والجزالة معا ، وهو ما أنكره فى السطر الذى قبله ، إذ يقرر أنهما لا تجتمعان على موضع ! . وإن لم يكن فمن أى نوع يكون هذا وفى أى معمل أعد ؟! أنا لا أقدم شواهد جديدة ، فحسبى قول ذلك البدوى شاهدا على صدق قضيتى ، فإن الصورة التى أبدعها خياله لمحبوبته ، صورة رائعة حقا ، منتزعة من عقلية فارس معجب بمنظر البطولة ، فجعل محبوبته جليلة مهيبة كذلك الفارس المنتصر ، لا تلك الصورة الشائهة المريضة التى يتغزل بها علماء البلاغة ويتابعهم الأستاذ فى جمالها ، والتى تتمثل فى قول القائل « خطرات النسيم الخ » فإن الصورة التى أراد أن يكون عليها محبوبه من الترف جعلته أولى أن يعالج فى مستشفى

من ذلك المرض ، الذى يتهرى معه الجسم المريض ، الذى يدعو للشفقة والرثاء، لا للحب والغزل .

إنى أعيذ الأستاذ أن يكون متمسكا بتلك الشواهد الوهمية ؛ فإنها تكاد تبلغ حد الإسفاف ، ويجب أن تتخذ أمثلة من شواهد حية نابضة قوية اللفظ والمعنى كشعر ذلك البدوى وشعر عنترة .

أما ما أخذه الأستاذ على من أننى لم أعلم أن القدامى من النقاد قالوا إن الفرزدق ينحت من صخر ، وجريرا يغرف من بحر ، وفسره بأن الفرزدق يمضى بالجزالة والفخامة والروعة ، وجريرا يمضى بالسهولة والرقة ، فإنى أقول للأستاذ : إنى أعلم ذلك والحمد لله ، ولكنى أعلم أيضا أن ذلك كناية عن أن الفرزدق ليس صاحب طبع فى الشعر ، وإنما هو صنع متكلف ؛ ومن ثم جاء كثير من شعره غريباً خشناً وإن لم يقصد إلى ذلك ، وأن جريرا صاحب طبع يغرف من بحر فنه وخياله ، ومن ثم تأتيه المعانى سهلة مطواعة ، والألفاظ عذبة مستساغة فى غالب شعره وإن لم يقصد إلى ذلك . هذا ما أعرفه وأفهمه من قولة أولئك النقاد القدامى ، وفوق كل ذى علم عليم .

وفى هذه المناسبة يحكى أن مغربياً قصد إلى البهاء زهير ليتعلم منه الرقة ، فقال له البهاء : ليس ذلك بالتعلم ، وإنما هو بإدمان المطالعة وإعمال الفكر فى تراكيب كلام البلغاء ، ولكن سألقى عليك صدر بيت واجتهد فى تكميله وهو : يا بان وادى الأجرع .

فجاءه المغربى من الغد وقال : أتممته وهو :

يا بان وادى الأجرع   سقيت غيث الأدمع

إذ اتجه تفكيره إلى أن البان شجر وهو يحتاج للسقى ، وحيث المقام مقام ذكر الغرام المستلزم لكثرة الدموع ناسب أن يقول ما قال ، فقال له البهاء : هلا قلت .

يا بان وادى الأجرع   هل ملت من طرب معى

فصفق المغربى وقال : ذلك لا يتأتى لمثلى .

ومن هذا كله يتبين ما قررناه من ضرورة الذوق الفنى للشاعر والكاتب ، والحاسة الموهوبة ، والبصر بقواعد البلاغة ، لمراعاة مقتضى المقام .

والآن أكتفى بهذا القدر الذى سمحت به الظروف العاجلة ، حتى لا أثقل على القراء ، والله ولى التوفيق ؟

كف الأذى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ العام بالأزهر

قال الله تعالى فى محكم كتابه : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

تحذير حكيم من الله عز شأنه ، وتوجيه سام من رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله جلت قدرته ، وهو من بيده ، وفى سلطانه ، وتحت قهره ، ملكوت السموات والأرض ، يدعو الناس جميعا الى نبذ الشر ، واطراح الأذى ، وإغلاق باب الفتنة ؛ فيخبر فى منطق سليم ، وصراحة قوية ، أن الأذى فى نواحيه كلها غرم لا خير فيه ، وعبء بغيض يثقل كواهل الأشرار ، فلا يحمل عنهم أوزارهم نصير ولا ظهير .

وناهيكم بمن يحتمل إثم الباطل ، فيتخبط به فى غير هدى ولا رشاد ، وبمن يشعل جذوة الشر ، وينفخ فيها حتى تلتهم الأخضر واليابس ، ويشيع فى الناس عوامل الفساد والإفساد - كيف يسوقه أذاه وعنته وبهتانه الى موارد الهلكة فى الدنيا ، وإلى دركات الهوان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

لم يخلق الله هذا العالم ، ولم يسخر له كل ما فى السموات وما فى الأرض ، ولم يسبغ نعمه ظاهرة وباطنة ، ليقوم الناس بالبغى والعدوان ، وليمعنوا فى الكيد والبهتان ، وليقطعوا صلات التوثق وروابط الائتلاف ، وليتحللوا من مسكة العقل وسلطان الضمير ؛ ولكن ليتعاونوا فى هذه الدنيا على نشر مبادىء الخير ، وتخضيد

أشواك العداوة والبغضاء، وليقدموا على مائدة الحياة أشهى ألوان البر والمرحمة، والحب، والإيثار، فتكون سعادة الدنيا فى تذوق حلاوة الفضل والنبل والعدل والإحسان.

إن بسطت يدٌ معروفها صافحتها أيادى العرفان، وإن نطق لسان بمحمدة جاوبته ألسن الشكران؛ وكذلك إن امتدت يد بسوء غلتها البيئة أو قطعتها؛ وإن تسلط لسان بشر عقدته الأمة أو عقلته.

هنالك لا يجمح بالآثم شره، ولا يجنح لمذمة يكسب خبثها، ويتفيأ شررها.

وهنالك يُصَعِّد البررة الأخيار أبصارهم وبصائرهم، فيشارفون مطالع البر فى آفاقها، ويساجلون بالأعمال الطيبة أيامهم وأوطانهم وعشائرهم، فلا تجد إلا بذلا يدفع ألم الجوع، ويمسح ذرف الدموع، ولا تجد إلا دلالة على الهدى تبصر الناس بما يسعدون به وينشطون له، ولا تجد إلا وشائج تترابط، ونفوساً تتحاب، وأيما يؤيد بعضها بعضا، تأييد الولاء والنصرة، ويحمد بعضها لبعض عونَ البر ودفع الشر، وحفاظ الألفة، وجمال المكرمات؛ وذلك مظهر التساند والتضامن والتعارف، لذى أراده الله من هذا العالم، وفى هذه الحياة: «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير».

فطوبى لمن كف أذاه، وبذل خيره، وأعان الناس على حاجاتهم، وفتح أبواب البشر والبر والمسرة يدخل على البائسين منها ما يشبع مسغبتهم، ويُطفىء حرقتهم، ويسد حاجتهم.

روى الطبرانى فى الأوسط عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل؟ قال: إدخالك السرور على مؤمن، أشبعت جوعته، أو كسوت عورته، أو قضيت له حاجة».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح منكم اليوم صائما؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه: أنا، فقال: من منكم أطعم اليوم مسكينا؟ فقال أبو بكر: أنا، فقال: من تبع منكم اليوم جنازة؟ فقال أبو بكر: أنا، فقال: من عاد منكم اليوم مريضاً؟ فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله عليه وسلم: ما اجتمعت هذه الخصال قط فى رجل إلا دخل الجنة».

وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ما يوضح أن المسلم وإن أدى جميع الفرائض ، والواجبات ، والنوافل فى نفسه ، لا يكون كامل الإيمان إلا إذا شاع أثر ذلك الإسلام فيمن حوله ، فسلم الناس من أذى لسانه ، فى الغيبة ، والنميمة ، وشهادة الزور ، وافتراء الكذب والإيقاع .

وإلا إذا شاع أثر ذلك الإسلام فيمن حوله ، فسلم الناس من أذى يده فى الأخذ والإعطاء ، والبيع والشراء ، والغصب ، والسرقة ، والقتل والضرب ، وكل ما يتعلق بذلك من أثر الظلم ، والطغيان ، والعدوان . فإذا كف المسلم أذاه ، وإذا سلم منه الناس ، وإذا هجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وجانب المنكرات ، ونأى عنها ، وحافظ على دماء الناس ، وأعراضهم ، وأموالهم ، فقد استكمل الإيمان ورضى عنه الرحمن ، وسعد بعاجلته ، ونعم فى آخرته .

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » م ؟

العشيرة

قال الأحنف بن قيس سيد بنى حنيفة ، وهو الذى قيل فيه : إذا غضب غضب له مائة ألف سيف ، لا يسألونه مم غضبت . قال ـ من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء فلا مساغ له ، ومن خانه ثقاته فقد أتى فى مأمنه .

قال شاعر :

كنت من كربتى أفر إليهم فهم كربتى فأين الفرار

قال ابن عبد ربه : وأول من سبق إلى هذا المعنى عدى بن زيد فى قوله للنعمان ابن المنذر ملك الحيرة :

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

وقال آخر فى هذا المعنى :

إلى الماء يسعى من يغص بريقه فقل أين يسعى من يغص بماء

من ذكرياتى فى الأزهر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

وساد مسجد المؤيد الصمت ، وارتفعت الجباه ، وشخصت الأبصار إلى شيخ جليل وقور يتبوع فى مشيته ، غير أنه يمسك طرفى جبته حذاء صدره بكلتا يديه . يقف فتطوقه طائفة من الشيوخ وقد فرعهم كأنه بينهم على دابة ، فينادى من مكتوب يطرق فيه رأسه ثم يرفع وجهه مشيراً إلى حلقة من حلقات الطلاب المنتثرة فى المسجد قائلا : تفضل — يذكر اسم الشيخ — هؤلاء أبناؤك . فيدخل الشيخ الحلقة ، ويجلس على مقعد خشبى ظهره الى عمود من عمدا لمسجد ، والطلاب أمامه فى شكل دائرة . قلت لصاحبى : ما قصة هذا الشيخ ؟ فقال : إنه فضيلة الشيخ محمد شاكر شيخ القسم الأولى النظامى للأزهر ، يوزع الأساتذة على الفصول . يقترب منا فيتبين الفتى الجمع ، فيبهره منظر شيخ وضىء متجمل فى لبسه ومشيته ، فيتمنى الفتى فى نفسه . أن يكون هذا الشيخ نصيب فصله ، غير أن أمنيته لم تتحقق ، فيدخل الحلقة شيخ آخر على العكس من ذلك الشيخ الوضىء المتجمل . يجلس الشيخ فيقبل الطلاب عليه يلثمون يديه ، فيباركهم بالدعوات الطيبات ، وتمضى فترة فيها تعارف ونصيحة ، ثم يسمع الفتى من الشيخ أول درس له فى تاريخ حياته العلمية بالأزهر .

ترى ماذا يكون موضوع هذا الدرس ؟ إنه قصة ابراهيم مع أبيه آزر ومناظرته له فى إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد . ثم يأخذه الحديث إلى قول إبراهيم لأبيه : « إنى أراكَ وقوْمَكَ فى ضَلالٍ مُبين » فيتساءل الشيخ : كيف يشافه الولد أباه بهذا الجفاء ؟ ومشافهة الولد أباه بالجفاء لا تجوز ؟ .

ثم يأخذ فى الجواب عن اعتراض قد يقال ، فيقول : إن القول عام يشمل الأب الكافر والمسلم فى قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » ، وقوله : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » ، ثم يأخذ فى تقوية الاعتراض

الظاهر فيقول : أولا ترى أنه تعالى لما بعث موسى عليه السلام الى فرعون أمره بالرفق واللين معه فقال : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وأن الدعوة مع الرفق أكثر تأثيراً فى القلوب من التغليظ ، فإنه يوجب التنفير والبعد عن القبول ؟ . ولهذا يقول الله تعالى لمحمد صلوات الله عليه : « وجادلهم بالتى هى أحسن » ثم يعود الشيخ فيقول ، رابتاً بكلتا يديه على كرسيه ، متحفزا لحركة يغير فيها وضع رجليه ، كاشحا بيسراه كم جبته وقفطانه عن يمناه : فكيف يليق بإبراهيم مثل هذه الخشونة مع أبيه فى الدعوة ؟ ! وكيف يتمشى هذا وقد وصف الله ابراهيم بالحلم فى قوله : « إن ابراهيم لحليم أواه » ؟ وكيف يليق بالرجل الحليم مثل هذا الجفاء مع الأب ؟ ! ! ! وينتهى المطاف بأن يأخذ الشيخ فى الجواب فيقول : إن آزر ما كان والد ابراهيم بل كان عما له . ويؤيد هذا أن العرب قد تسمى العم أبا ؛ ألم تسمعوا قول محمد صلوات الله عليه : « ردوا على أبى » يعنى العم العباس ؟ ثم يقف الشيخ ليجلس على كرسيه قائلا : ويمكن أن يقال : إن آزر كان والد أم إبراهيم . وهذا قد يقال له الأب ؛ ألم تقرءوا قول الله تعالى : « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين » . فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم كان جدا لعيسى من قبل أمه .

وينتهى الدرس بأن يدق باب المسجد من الداخل بمطرقته دقتين .

وتمضى أيام ويجلس الطلاب يذاكرون ماقرره الشيخ لدرس الغد ، ويتلاقون فى جلساتهم وغدوهم ورواحهم يتذاكرون ما قيل ، ويستعيدون ما سمعوا من الشيوخ . ويأتى طالب من طلاب ذلك الشيخ الوسيم الوضىء المتجمل ، فيسأل الفتى فى أوجه إعراب البسملة ، فيستغرب الفتى هذا السؤال ويعتذر بأنه لم يسمع بعد هذه المسألة ، فيضحك الطالب ويستغرق فى الضحك ، ويتلو قول النور الأجهورى :

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا فالجر فى الرحيم قطعاً منعاً
وإن يجر فأجز فى الثانى ثلاثة الأوجه خذ بيانى
فهذه تضمنت تسعاً منع وجهان منها فادر هذا واستمع

ويقول متهكماً كيف لم تسمع بعدُ هذه المسألة وهى فى أول شرح الكفراوى

على الآجرومية المقرر تدريسها ؟ ! فيحزن الفتى ، ويذهب فى اليوم الثانى إلى شيخه غضبان أسفا ، فيحكى له القصة ويطلب منه أن يعرف هذه المسألة ، فيحتد الشيخ كعادته عند السؤال فى أغلب الأحيان ، ويقول قولوا لمن يسألكم : إن شيخنا جاهل بهذه التسعة الأوجه ويقرأ الفاتحة كما درج الناس ؛ أما هذه الأوجه وأن الأول منها يتعين قراءة ويجوز عربية والستة بعده تجوز عربية لا قراءة والوجهان الآخران يمتنعان عربيــة وقراءة ، فهذا كلام إن فهمته ، فلا يجوز أن أشوش أذهانكم به ، ثم يأخذ كعادته ينتقد هذه الطرق التعليمية ، وينتقد هذه الكتب ، مرددا كلمة أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده : « إن عيب الأزهر فى كتبه » ، وينتهى الدرس لا بأن يدق الباب بمطرقته دقتين ، بل بأن يطوى العلم المرفوع على عمود من عمد المسجد ، فقد استبدل هذا العلم بدق الباب . ولعل وزارة الأوقاف هى التى رأت ذلك حرصا على الآثار وحفظا لها من هذا العبث ، ورأى ذلك معها القائمون بالأمر ، تفاديا من فكرة الناقوس ؛ فقد رأوها أخذت تسعى إلى الأزهر ، وينتهى الدرس والشيخ مسترسل فى نقده يمعن فى تجهيله ، فتأتى الطلاب على صوته المرتفع ، ويتحلقون حلقات عدة حول حلقة الدرس ، ولا تزال هذه عادتهم يتوجهون من دروسهم بعد انتهائها الى هذا الشيخ الجرىء حتى ينتهى الأمر بنقل الشيخ بفصله الى قبة المسجد على يسار الداخل من بابه الكبير .

وتعرض للشيخ شبهة فى إعراب آية من آى الكتاب العزيز ، فيرسلها مع الفتى إلى شيخ بجواره يسأله عن إعراب هــذه الآية ، ويساور الطلاب الشك فى قدرة الشيخ ، فيستطرد يؤدبنا بأدب المعلم ، ويستكتبنا تلك الحكمة « لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر » ، وينطلق فى الكلام يقول : ينبغى ألا يستنكف الإنسان من التعلم ممن هو دونه فى سن أو نسب أو شهرة أو دين ، وينبغى ألا يمنعه مانع من استفادة ما لا يعرفه ؛ فقد كان كثيرون من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم ؛ ويفيض فى قول عائشة : « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » ، وكان كثيرا عليه رحمة الله ما يردد علينا هــذه الكلمة : « سأل حكيم تلميذا له ـ وكان قد أعاد عليه المسألة ـ أفهمت ؟ فيقول التلميذ : نعم . فيقول الحكيم : لا أرى آثار الفهم عليك ، فيقال له : وكيف ذلك ؟ فيقول : لا أراك مسرورا والدليل على الفهم السرور ؟

أداء الواجب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

أداء الواجب أمر يفرضه الدين، وتوحى به الفضيلة، ويحض عليه الذوق الرفيع، والإحساس النبيل، والخلق الكريم. ومهما تصف الرجل بالعظائم، وتنعته بالكمالات، فأبلغ أوصافه أن تقول: إنه يعرف الواجب. ومن تخلى عن الواجب واتصف بكل فضيلة فهو من الرجولة خال، ومن الشرف خواء:

ولئن تقل فى المرء: إنه «رجل الواجب» فذلك أرفع ألقابه، وأجمل ما سما به. وذلك أن للمرء حقا، وعليه واجبا، وعلى هذا الأساس تدور الشرائع والأخلاق والقوانين. وحقك على غيرك واجب عليه لك.

على المرء واجب نحو ربه: أن يعبده كأنه يراه، وأن يطيعه فيما أمر، ويتنكب عما نهى.

وعلى المرء واجب نحو نفسه: أن يسمو بها إلى الكمال، ويحلق بها فى سماء المكارم.

وعلى المرء واجب نحو غيره: أن يؤدى للناس كل ما تتطلع إليه نفسه، وأن يعاملهم بما يجب أن يعامل به. وفى ذلك يقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وإنما احتفل الشرع بتأدية الواجب، لتكون الأسرة الإسلامية وطيدة البناء، شديدة التماسك؛ فلا تصفو العلائق إلا بأداء الواجب، ولا تسود المحبة إلا برعايته؛ ومن ثم يصح أن يسمى المؤمنون إخوة كما وصفهم الله بقوله «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم».

وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وأن يراهم - فى حديث آخر - كاليد الواحدة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

ومن حرص الشرع على أداء الواجب حرَّم الغيبة كيلا يتصدع بناء المسلمين ، وجعل من اغتاب أخاه كمن أكل لحمه ميتا ، وقال لأصحابه فيما أخذهم به من التربية العالية والتوجيه الكريم « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

كما حرم النميمة لتظل أخوة المسلمين كاملة ، وقلوبهم متعانقة ، وأفئدتهم متلاقية . فشرع الله فى ذلك شرعه الحكيم ، حيث قال « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

ومن احتفال الشرع بأداء الواجب نهى أيضا عن التقاطع والتدابر ، والتخاذل والتحاسد . وبيّن النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فى قوله « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وسوء الظن لما كان فى كثير منه تفريق للعلائق ، وتمزيق للصلات ، حذر الله منه فقال « إن بعض الظن إثم » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم وسوء الظن » .

ومن بَدَرت له من أخيه بادرة سوء ، أو اعتدى عليه معتد بسب أو شتم أو مجافاة ، كان عليه أن يعتذر من إثمه ، وأن يقلع عن جرمه ، وعلى المُسَاء إليه أن يقابل ذنب أخيه بالصفح ، وأن يسدل على تأثمه ستارا من العفو « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ، « وأن تعفوا أقرب للتقوى » .

ومن أبغض الأمور إلى الله ، أن يدمن المؤمنون التخاصم ، وأن يطيلوا فيما بينهم التقاطع ، ولا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم على مثال من الأخلاق رسمه الله له ، ورباه به بارىء الفضائل والمكارم ، حتى امتدحه الله وأثنى عليه فقال : « وإنك لعلى خُلق عظيم » . وكان من دعائم خلقه ، أن يجرى على ما هو للمحبة سبب ، وللصفو داع ، وللتضامن محقق ؛ فكان يعود المريض ، ويجامل المسلمين باتباع جنائزهم ، والصلاة على موتاهم ، ويصل الأرحام ، ويقرب البعيد ، ويقبل الهدية ولو من الرقيق لما فيها من التوادد والتحابب ، ويقول « تهادوا تحابوا » .

وكلما تحضرت الأمم وارتقت درجات الكمال فيها ، رعت الحقوق ، وقدست الواجبات ، وجعلت المجاملات السياسية شيئا مقررا ، تفرضه السياسة ، ويرعاه العرف ، وكان حتما على كل دولة أن ترعى واجبها مع صاحبتها . فما بالنا بالواجب بين أخوين مسلمين ، وعضوين كريمين من أعضاء الجماعة الإسلامية التى أظلها الله بهداه وزكاها محمد صلى الله عليه وسلم بشرعه . ؟

إن من يفرط فى الواجب ، ويغضى عن المجاملة ، فهو خلو من الإحساس الكريم ، متجرد من النبل ، مظهر نفسه فى صورة الساقط الذى لا تكليف عليه . على الرجل الكامل الرجولة ، أن يهنىء أخاه فيما ينال من رفعة ، أو يصل إليه من مجد ؛ وعلى الرجل الكامل الرجولة ، أن يقاسم أخاه المكروه إن نزل به ، وأن يجاهد معه فى احتمال خطوبه ، فلا يزال يعزيه ويواسيه ، حتى يخف الخطب عن نفسه ، ويشعر مع مجاملته ببرد وسلام .

أما الذين لا يخفون للواجب ، ولا يطيرون للمجاملة فى شتى ألوانها ، فهم عارون من النبالة والفضيلة ، جديرون بأن يطرحوا من المجتمع ظهريا ، وألا يكون لهم عند الناس وزن ، ولا عند الله مقام .

من جاملك فجامله ، ومن هناك فهنئه ، ومن واساك فواسه ، ومن أعانك فأعنه ، ومن سع اليك فاسع إليه ، ومن تقدم إليك رويدا ، فامض اليه مسرعا ، وإذا حييت بتحية فحى بأحسن منها أو مثلها أو ردها ، فإن ذلك من خلق المؤمن ، وشيمة الحر ، وطبع الكريم .

إن أكثر الناس أداء للواجب أكثرهم حظا من احترام الناس ، وأوفاهم قسطا من صفاء الأخوة ، وأوفرهم نصيبا من حب الله ، وفى الحديث المرفوع : « أحب الناس الى الله أكثرهم تحببا إلى الناس » ويقول الشاعر :

وجه عليه من الحياء سكينة ومحبة تجرى مع الأنفاس
وإذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبـــة للناس

وقد قال داود عليه السلام لابنه «يا بنى لا تستقل عدوا واحدا ، ولا تستكثر ألف صديق » وفى الأثر : « المرء كثير بأخيه » وأنشد ابن الأعرابى :

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرة ولكن إخوان الصفاء الذخائر ؟

تفسير القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا يفتأ القرآن الكريم — فى غير ما موضع — يصف نفسه بأنه بلسان عربى مبين ، وأنه آيات بينات ، يسرها الله سبحانه وتعالى للذكر ، وضمنها الموعظة الحسنة ، والهداية الواضحة ، حتى لا يضل معها سار ، ولا يتخبط مسترشد ، ولا يتعثر مدلج .

وإذا كانت فصاحة الأساليب ، وسموها الى المستوى الرفيع ، والأفق البعيد ، رهناً بكونها تجرى على نمط خاص من التأليف ، ولون ما من ألوان التراكيب ، فإنه مع خلوه من التّعمّل ، وبعده عن الصناعة ، وعدم اشتماله على شيء مما يلتزمه أرباب البيان ، ورجالات اللسن ، تَقْرَعُ دون شأوه الأنوف ، وتُفَلُّ قبل أن تصل إليه السُّيوف ، ويبقى هو الذى تتطلع له الأنظار ولا تدركه كما يجب أن يكون ، وتتواثب حوله الأفكار ثم يعتريها من الإعياء السكون .

وربما كانت هذه أغرب نواحى إعجازه ؛ لأن المتأمل فيه يرى أنه لا يتجاوز طوق العامة ، ولا يستعصى عن متناول الأوساط من الناس ؛ فهو أشبه بما يقول البلاغيون عنه : إنه يدخل الآذان بلا استئذان . وكلام هذا شأنه لا يستغلق على الأفهام ، أو يستعجم على الأفئدة ، أو يتأبى على الطالبين ، وإلا لكان تكليف الله إيانا بما احتواه من تكاليف ، فوق ما فى وسعنا أن نلتزمه ، وهو تعالى أكرم من أن يرهقنا من أمرنا عسرا .

ونحن حينما نراه يوصينا بتلاوته ، يرشدنا إلى ترتيله وقراءته على مكث . والترتيل : حُسن الأداء بحيث يستوفى النطق حقه من المد والقصر ، والإدغام

والغَنّ ، والإظهار والإخفاء ؛ وذلك بعض معانى التجويد الذى يأثم القارئ بتركه ، ولا يتأتى للإنسان أن تتفتح له آفاق الكتاب بدونه . وهى فى الواقع موسيقى تعين على الفهم ، وتساعد على تذوق المرمى الذى يهدف إليه اللفظ ؛ ولذلك يجد الواغل فيه برفق أنه كلما سار تكشفت له أسراره ، وتبدّتْ أنواره ، وظهرت دقائقه ، وانجلت حقائقه .

ولم يزد النبى صلى الله عليه وسلم على أن كان خلقه القرآن ، يتعهده بالتلاوة ، ويواليه بالتنغيم ، مع جبريل عليه السلام فى رمضان ، أو وحده فيما عدا ذلك . وهكذا كان أصحابه رضوان الله عليهم ، وما كان يحظر على أحد رأيا ، أو يمنع اجتهادا ، أو يقف فى وجه مشرئب الى معرفة . وتفسيره الذى تناقله المسلمون لم يعد آيات يحل مفرداتها ، ويبين ما يصح أن يعتور بعض ألفاظها من ترخيم أو قلب ؛ وفى هذا دليل على أن المسألة ليست من المشاكل . وقد دعا لابن عباس أن يفقهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، وبلغ من شأنه بعد ذلك أن سماه المعاصرون له « ترجمان القرآن » فماذا كان عنده من ثقافة جعلته بهذه المثابة إلا أنه يتلقى الوافدين على البيت الحرام ، ويستمع إلى الغريب من ألفاظهم ، والنادر من تراكيبهم ، ليكون ذلك معينه الفياض إذا ما جدّ له التأويل .

ولم يعرف المسلمون أن القرآن تسدل بينهم وبينه الحجب ، وتحول بينهم وبينه الأسداف ، إلا حين توزعت كلمتهم ، وتفرقت أهواؤهم ، وتنازعوا أمرهم ، وصاروا يخدمون به المآرب ، ويناصرون على حسابه الشهوات ، وكل يجد ضالته المنشودة ، ورغبته المأمولة ، وسلكوا به فى سبيل ذلك طريقا عوجا ، بعنوان المجاز والكناية ، أو الإجمال والتفصيل ، والعموم والخصوص ، واتخذوا من هذا وهذا ميدانا للمناضلة الممقوتة ، والتعصب المرذول ، وبلغ الحال ببعض من أهل الحرف والصناعات أن يجعلوا من كتاب الله الكريم ميدانا لعلومهم التى يدرسونها ، وفنونهم التى تخصصوا فيها ، وصار لكل جماعة تفسير ، تغلب عليه نزعتها ، وتظهر فيه ميزتها ، وانتهت القحة بفريق سموا أنفسهم المتصوفين إلى أن يقولوا : إن لكلام الله ظاهرا وباطنا . وكان مثل هذا الكلام سببا من أسباب ترتيب بعض الناس أحكاماً وتكاليف على ما يسمى ظاهراً وباطناً ، وجعلهم الأمة

فيما يختص بالتزام الأوامر طبقات وشيعاً وأحزابا ، وهو أشبه بما كنا نسمعه في المسيحية القديمة وغيرها من الأديان التي تطرقت إليها أيدي اللاعبين من القساوسة الذين جعلوا العقائد تجارة واحتكارا ، ليس من حق غيرهم أن يعرفها ، أو يقف على أسرارها ، ليكون لهم وحدهم حق التحريم والتحليل ، والنهي والأمر ، والترغيب والترهيب .

وما كنت أظن أن يبقى لتلك الخرافة ذيول عند بعض المتسمين بسمات أهل العلم من المسلمين ، إذ يزعمون أن في كتاب الله ما لا تصل إلى فهمه القرائح ، أو تستطيع أن تدركه الأفئدة ، أو تهتدي إلى معرفته الفطن ، مستدلين بقوله : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » . ويرون أن الوقوف الى هذا الحد من أوجب الواجبات ، وإلى هنا تكون سدرة المنتهى ، وأن الكلام يستأنف من « والراسخون في العلم يقولون آمنا به » .

ولقد كنت أحسب أن هذه المسألة لا يعرض لها المفسرون إلا من قبيل الرياضة الذهنية فقط ، كما يفترض النحاة للكلمة وجوها من الإعراب ، وكما يقلب علماء المعاجم اللفظة على مصادر من الاشتقاق متنوعة . ولكني دهشت إذ رأيت « الراغب الأصفهاني » في مقدمته يقول : فصل : هل في القرآن ما لا تعلم الأمة تأويله ؟ وعلمت حينئذ أن الله يبتلي الأمم بعلمائها كما يبتليها بجهلائها ، وأن الفتنة تجيء من طريق العلم أكثر من مجيئها من طريق الجهل ، وهكذا يجئ الغلو في الدين ، سواء من ناحية الإفراط أو التفريط ، والزيادة أو النقصان ؛ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم قال لأمته : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا معهما : كتاب الله وسنة رسوله » لم يكن يقصد إلى مبهم ، أو يرمي الى مستغلق ، أو يشير الى مشتبه المعالم ، متحير المسالك . . وإلا لكان ذلك هو الضلال المبين الذي نفاه بـ « لن » ، « الزمخشرية » ، ودينه الحنيفية البيضاء ، والمحجة الواضحة ، ولا يكون الدين هكذا وهو يدعو الى التخبط ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

الجزار

الشاعر المصرى

(٦٠١ — ٦٧٩ هـ)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف البيومى
المدرس بكلية اللغة العربية

« وهكذا عدَت عوادى الزمن على آثار هذا الشاعر المطبوع فى عصر الصنعة ، فلم يعد بأيدينا من شعره إلا هذه المقتطفات المنثورة فى ثنايا كتب التاريخ والتراجم ، وهى قليل لا يناسب مكانة الشاعر ولا يرضى فضول الباحث ، وهأنذا أزيل أتربة الجحود وأزيح غبار الزمن الغاشم عن سيرة (الجزار) ومكانته فى عصره ، فلعلى بهذا أرضى الشاعر فى قبره ، وإن لم أنسه قسوة دهره وأهله ، فى حياته ، وبعد مماته » .

من هو الجزار ؟

هو يحي بن عبدالعظيم بن محمد بن يحي بن محمد بن على ، جمال الدين أبو الحسين الشاعر الماجن ، المصرى الدار والمولد والمنشأ والوفاة ، المعروف بالجزار .

مولده ونشأته الأولى وثقافته :

ذكر ابن كثير فى تاريخه أنه ولد فى حدود ستمائة بعد الهجرة ، بعدها بسنة أو سنتين . وذكر ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة والمنهل الصافى أن مولده سنة ٦٠١ هـ وكذلك ذكر السيوطى بحسن المحاضرة وابن إياس فى تاريخه ، وعلاء الدين البهائى فى مطالع البدور .

وهنا تعجم التراجم فلا تفصح عن نشأته الأولى وثقافته ، وكل ما ذكر فى هذا السبيل ما رواه ابن تغرى بردى من أنه روى عن أحمد بن الحباب ، وأن الدمياطى روى عنه ، وأنه كان عنده فضيلة ومشاركة جيدة ، وأن له تصانيف ذكر منها « فوائد الموائد » الذى عمل عليه بعضهم « علائم الولائم » .

والذى يظهر لى أن ثقافة الجزار كانت عادية ، وأن شاعريته الفطرية ، وروحه المرحة الفكهة ، وسيلان طبعه الشاعر - كل هذا حبب إليه الشعر فانصرف إليه وهجر ما عداه ؛ بل إن ذلك كان السبب فى انصرافه عن حرفته الأولى وحرفة آبائه وهى الجزارة .

يدلك على ذلك أن ابن تغرى بردى يذكر أنه كان يتزيا بزى الكتاب ويكثر من مصاحبتهم ؛ ومعنى هذا أنه لم يصل الى درجة الكتاب وثقافتهم ، وإلا كان قد حظى بمعونة من اتصل بهم من رجال الديوان وكبار الكتاب بإحدى وظائف الدرج على الأقل . أما ما ذكره ابن تغرى بردى من أن له مشاركة جيدة فإنما يعنى به أنه كان ذا ذوق وفهم ، واطلاع على بعض العلوم والفنون . فثقافته إذن ثقافة عادية غير واسعة ولا تامة ؛ أما شاعريته فقوية وفطرية ، وهى موضع دراستنا فيما يأتى هنا قريبا .

هل كان الجزار يحترف الجزارة ؟

للجزار أشعار كثيرة فى هذه الحرفة (الجزارة) ، ويدل ظاهرها على احترافه إياها ، فهو يذكر أنه يعمل فى اللحم للعِشاء ولا ينال منه العَشاء ، وأنه جزار وهم من بقر . ويقول لمن يسأل عن أهله : إنه يسأل عن قوم كرام ترجيهم بنو كلب ، وتخشاهم بنو عجل . إلى غير ذلك مما سنفيض فيه عند الكلام على فقره وبؤسه ؛ فهل نفهم من هذا أنه جزار يحترف الجزارة ؟ قد يكون لنا أن نفهم ذلك ، كما قد يكون لنا أن نفهم أن الجزار لقب أتاه من آبائه أو بعضهم ، وأنه وجد فى لقبه مجالا للتورية — وهو بها مفتون يتلمس لها الألفاظ والمناسبات — فأكثر من ذكر ذلك فى شعره ، وأطال فيه كما فعل غيره من شعراء عصره فى ألقابهم .

ولكن الذى نراه ونستطيع أن نجزم به مطمئنين ، أن الجزارة حرفته وحرفة آبائه من قبله ؛ أما أنها حرفة آبائه فيدلك على ذلك قوله :

ألا قــل للذى يسأ ل عن قومى وعن أهـلى
لقــد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل
يريقون دم الأنعا م فى حزن وفى سهل
وما زالوا لما يبـدو ن من بأس ومن بذل
يرجيهم بنـو كلب ويخشاهم بنـو عجـل

وأما أنها حرفته فلأنه أكثر القول فيها ، وقد عودنا الصـدق فى شعره ، فهو لا يعبر إلا عما يحسه ، ولكنها كانت حرفته مبدأ حياته ثم انصرف عنها (١) وكان انصرافه عنها مبكرا ، لأنه نظم الشعر صغيرا وفطر عليه وليدا ، كما سيأتى نذكر ذلك قريبا وندلل عليه .

فالجزارة إذن حرفة شاعرنا وحرفة آبائه من قبله ، والجزار كان يحترف الجزارة فى مبدأ حياته ، فهو إذن كان بها خبيرا طوال حياته وإن لم يزاولها فيما بقى من هذه الحياة .

حيـاته ومجونه :

الجزار ما جن بفطرته ، حلو النادرة ، لطيف المحاضرة ، سمير أنيس ، متودد الى الناس ، لم يهج أحدا من شعراء عصره ؛ ثم هو شاعر قدير عـذب التركيب منسجمه ، غواص على المعانى ، فصيح الألفاظ ؛ كل هـذه الصفات دفعته الى الحياة التى حببها وسهلتها له ؛ فحياته كانت بين أندية الأدب ، ومجالس الأنس والطرب ؛ حياة للجسم فيها متاع ، وللروح فيها أنس ولذة .

قضى حياته يمدح الملوك والأعيان والأدباء ، ويعيش على جوائزهم ومنحهم ، لا يحمل هم غده إن نال اللذة والمتاع فى يومـه ، فهو مبذر لا تـكاد خلته تسد أبدا ، وهو على ما يؤخذ من ظاهر شعره مسرف على نفسه ، لا يرعوى عن قبيحة ولا يدفع نفسه عن شهوة .

(١) وقد ذهب الى ما ذهبنا اليه صاحب شذرات الذهب فقد ذكر أنه كان جزارا ثم ارتزق بالمدح

وقد عاش الجزار عيشة ماجنة لاهية ينتهب اللذة ، ويختلس الفرصة للمتعة ، لا يفكر فى العواقب ولا يخشاها ، فأسرف وبذر فى صحته وماله، وفى قوته وكرامته .

وقد نجم عن هذا التبذير ذلكم الفقر الذى ناء به وضج منه وسخطه فى مبدأ أمره ، ثم راض عليه نفسه ورضيه متزهدا قانعا فى آخر حياته ،كما نجم عن إسرافه فى الشهوات وانهماكه فى اللذات أيام فتوته وشبابه عزوف عن صغائر الحياة وإقلاع عن لذائذها ، وإقبال على الاستقامة والصلاح والرضى ، والاطمئنان الى القضاء فى مشيبه وقبيل مماته .

عطلة مجلة الأزهر

لمجلة الأزهر عطلة سنوية مدتها شهران تختارهما من الشهور التى تشتد فيها الحر ، وقد اتفق وقوعها هذه السنة كسابقتها فى رمضان وشوال ، ثم تستأنف صدورها ، إن شاء الله .

العصر العظيم

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

ويمكننا أن نتتبع تأثير الحديد على الحياة الروحية تتبعا دقيقا : يظهر هذا التأثير بوضوح فى ميدان السياسة . كان البرونز ، كمعدن ، غير ممكن الحصول عليه لصنع أدوات للاستعمال اليومى ، وإنما كان يستعمل للزينة وصنع الأسلحة . وكان الحصول على سيف برونزى — فى تلك الأيام القديمة — كالحصول على سيف من الفضة أو الذهب فى أيامنا هذه ، لا يحصل عليه إلا الأثرياء الأقوياء . وكان امتلاك سيف برونزى - من ناحية أخرى - هو منبع الثروة والقوة ؛ إذ أن مالكه يكون فريد نوعه . ومن هنا كان البرونز عاملا من عوامل عدم التساوى الاجتماعى والسياسى ، ومن عوامل بناء أرستقراطية بين سكان الولايات المختلفة فى الوطن الواحد ، أو بين الغزاة أو الامبراطوريات الكبرى فى العالم . وعلى عكس البرونز ، انتشر الحديد منذ بدء استعماله وصار الحصول عليه سهلا ، فكان كل فرد يستطيع الحصول على سيف من الحديد ، وتستطيع كل مدينة أن تنشىء لها قوات مسلحة . وعلى ذلك كان تأثير الحديد عكس تأثير البرونز ، إذ كان عاملا من عوامل المساواة والديمقراطية .

وبجانب ذلك ، نجد أن صناعة الحديد والصناعات الجديدة ، والتجارة الجديدة بالآلات والأسلحة الحديدية ، خلقت أسس الثروة والانتعاش الاقتصادى للمدن التى بدأت تظهر فى كل مكان بكثرة . ولم تجد أية مدينة ، بعد أن صارت مركزا لصناعة وتجارة الحديد ، صعوبة فى مد مواطنيها بأحسن الأسلحة . وقد مكنهم ذلك من أن يناضلوا فى سبيل استقلالهم ، حتى ضد الأمبراطوريات الكبيرة . فإن كانت هذه الامبراطوريات قد ظهرت فى عصر البرونز ، فإن عصر الحديد قد بدأ بانحلالها وبقيام عدد كبير من الدويلات ، ويمكننا أن نسميه - بحق - عصر

« الاستقلال السياسى Age of Particularism » . وكان هذا الاستقلال واضحا أشد الوضوح فى اليونان حيث كانت كل مدينة دولة مستقلة كل الاستقلال . وبلغ عدد هذه الدويلات — التى لم تكن مستقرة — ما يزيد على المائة [١] . ولم تكن الأحوال السياسية فى اليونان شاذة ، بل كانت هى القاعدة فى هذا العصر . أما فى الشرق الأدنى الذى كانت قد وحدته — فى عصر البرونز — امبراطوريتا بابل ومصر طوال الألف الثانى قبل الميلاد ، فقد نشأت فيه فى النصف الأول من الألف التالى ، بعد ظهور الحديد مباشرة ، جمهوريات فى مدن فينيقيا ، وجمهوريتان يهوديتان هما اسرائيل ويهوذا ، ثم عدد لا يحصى من الدويلات : لكل مدينة حاكمها ودستورها ونظمها الإدارية ، وثقافتها وعقائدها ، وسياستها الخارجية الخاصة [٢] .

أما فى الهند ، فى أيام الفيدا ، وأيام جوتامو ، فقد كانت البلاد تنقسم الى عدد كبير من الدويلات المستقلة . وكانت توجد بين جبال الهملايا ونهر نبرادا ست عشرة دولة كبيرة ، وليس لنا أن نحصى عدد المدن والجماعات النصف المستقلة [٣] .

---

(١) كان عدد الدويلات الاغريقية القديمة بما فيها مدن آسيا الصغرى وإيطاليا وباقى المستعمرات يزيد على المائة . وأشار أرسطو فى كتابه « بوليطيقا » إلى أكثر من مائة دويلة مستقلة . أما مجموعته من الدساتير فقد احتوت على ١٥٨ دستورا لدول مختلفة .

(٢) جاء فى كتابات دارا على صخور بهيستون Behistun Darius أنه كان مضطرا فى بداية حكمه - لكى يثبت دعائم ملكه - إلى أن يخوض تسع عشرة معركة وأن يأسر تسعة ملوك . وتعطينا هذه الجملة فكرة قوية عن قوة الاستقلال السياسى فى إيران . ويجب أن نشير إلى أن سياسة كسرى - سلف دارا العظيم - كانت هى حماية الأقاليم ذات الحكم الذاتى ، إذ كان يرمى إلى قيام « حكومة أقطاعية » ، وكانت سياسته هذه أقوم من سياسة دارا « المركزية » التى تعتبر مسئولة عما حل بفارس من مصائب فيما بعد .

(٣) اقتبس أريان Arrian فى الانديكا Indica : الفصل السابع من تقرير ميجا سطينس MEGASTHENES أنه كان يوجد بالهند ١١٨ شعبا . ويمكن القول بأن جلها - إن لم تكن كلها - كانت مستقلة . ويتبين ، لأول وهلة ، من مصادر غزو الاسكندر للهند [ديودوراس - بلوتارك - كوينتوس كورتيوس - أريان] أن الاسكندر قابل فى الهند عشرين هيئة سياسية مستقلة على الأقل ، على الرغم من أن حملته قد تجاوزت بالكاد نهر السند ، ولم تصل الى الأقاليم الكبيرة . وكان كل شعب ، بل وكل مدينة ، فى الأقاليم التى دخلها محكومة حكما ذاتيا كاملا ، وكان لكل دستورها ، وكانت تقرر الحرب والسلم بنفسها بحرية تامة . وإذا كان لباقى الهند نفس هذا النظام السياسى فان عدد ولاياتها يقدر - ولا حرج - بالمئات .

أما أروع الأمثلة لهذا الاستقلال السياسى فنجده فى الصين : فعلى الرغم من أن الصين كانت فى الألف الثانى قبل الميلاد ، مثلها مثل جنوب شرق آسيا ، موحدة فى امبراطورية كبيرة تحكمها يد قوية من الأسرتين الاولين ، نرى أن الأسرة الثالثة « تشو Chou » كانت تحكم فيما بين سنة ١٢٢٢ الى سنة ٢٤٩ ق.م حكما اسميا ، فلم تكن هناك سلطة مركزية على الإطلاق ؛ فكان كل إقليم ، بل كانت كل مدينة صغيرة أو كبيرة مستقلة تماما . وتعطينا رحلات كنفشيوس فى سبيل العثور على « حاكم ذكى » أوضح صورة لهذا الاستقلال السياسى ، كانت توجد ست عشرة دولة هامة قوية ، بينما يقدر بعض المؤرخين عدد الدويلات بمائة وخمسين دويلة .

وهكذا انقسم العالم القديم كله ، بعد استخدام الحديد ، من شواطىء الأطلنطى الى شواطىء الباسفيكى ، انقسم الى أقاليم صغيرة تكون مدنا مستقلة . ولم يكن هذا الاستقلال أبدا ، قبل ذلك أو بعد ذلك ، أقوى مما كان عليه فى هذا العصر . فنى تشابه هذا النظام السياسى الذى ساد العالم كله يوجد السبب الثانى لتشابه الحياة الروحية .

ويجب أن نتبين بتأكد ، أن التقسيم والاستقلال السياسى لم يكن بأية حال عقبة عاقت التقدم الروحى ، بل على العكس من ذلك ، كان عاملا فعالا فى تقدم الثقافة بجميع أشكالها . ويكفى أن نشير الى أن عصر الثقافة الأغريقية ، التى كانت فى نفس الوقت خاصة كل التخصص ومبتكرة ، إنما كان بحق ، حقبة مزدهرة فى تاريخ البشرية . وكان تراث المدن الفينيقية الصغيرة أغلى بكثير من تراث الامبراطوريتين الآشورية والميدية معا . وظل تأثير الولايات اليهودية على قـدَر البشرية باقيا الى الآن ، تأثيرا جوهريا يزيد عن تأثير كل امبراطوريات العالم القديم . وقد نشأت كل النظم الفلسفية والعقائد الدينية فى الهند فى عصر الاستقلال . ويمتاز عهد حكم أسرة « تشو » فى الصين بازدهار الفنون وعظمتها ، وتقدم العلوم ، والقيام بالأعمال العظيمة . أما السبب فى هذا التأثير العظيم للاستقلال على التقدم الروحى فيمكن أن نرجعه الى تنافس الدويلات بعضها بعضا ، وإلى الفرصة المتاحة لمقارنة نظم حكومات الولايات المختلفة ، وعلى الأخص الى مقارنة الحريات التى كان يتمتع بها الأفراد داخل ولاياتهم .

محمد رسول الله

لحضرة الأستاذ عبد المنعم الصايغ
المفتش بالأزهر

مترجمة عن : A Brief Sketch of the Life of the Prophet of Islam. By President of the Anjuman.

ولد محمد صلى الله عليه وسلم سنة خمسمائة وإحدى وسبعين ميلادية ، وكانت بلاد العرب وقتئذ لا تمارى فى عبادة الأوثان التى ضاقت الكعبة بها على سعتها ، والكعبة هى المركز الروحى لهذه البلاد ؛ على أن كل أسرة كان لها أصنامها الخاصة بها غير مكتفية بما فى الكعبة منها . ومن بين ما عبده العرب الأحجار وأكوام الرمال والأشجار . وعلى الرغم من تأصل عبادة الأوثان فى نفوسهم فقد أشار « بوزورث سمث » فى كتابته عنهم بأنهم ماديون ، وقد تغنوا بالطعام والشراب فى أشعارهم ؛ وما كانوا يعتقدون فى الحياة بعد الموت ، ولا يحفلون بمسئولية أعمالهم ، وآمنوا بالأرواح الشريرة وعزوا إليها ما ينتابهم من علل وأسقام . وانتشرت الجهالة فى البلاد وأخذ ذو المكانة يتفاخر بجهله بين من هم دونه من الأفراد . وما كانت بلاد العرب لتعرف لها دستورا . وتفشت الرذيلة وانعدمت كل رابطة إنسانية فى هذه البلاد .

أما الأغانى والأشعار ، وهى مليئة بالفحش والاستهتار ، فقد كانت تنشد وتردد فى المجتمعات ليل نهار . وشاعت فى العرب الفاحشة ، وما كان هناك من عقاب رادع لمرتكبيها . وتعددت بيوت الدعارة وغصت بالعاهرات ، وكانت هذه وتلك من المسائل التى لا تلقى من العرب انتقادا . وبلغ مركز المرأة الدرك الأسفل كما يقول « بوزورث سمث » ، وغدت كالمتاع تورث ولا ترث ، ولمن يرثها حق التصرف المطلق فيها ، وكان له أن يبنى بها ولو كانت زوجا لأبيه من قبل .

وظلت بلاد العرب بلا حكومة شرعية وقوانين مرعية ، وقامت القوة بين الناس مقام القانون . وعلى الرغم من أن العرب كانوا ينتمون الى جنس واحد ويتكلمون بلغة واحدة فقد كانوا أكثر أمم الأرض تفرقا . واستمر النضال بين القبائل . ولأتفه الأسباب وأدنى الملابسات نشبت بين الأسر حروب طاحنة .

أما الأرامل واليتامى فلم يلقوا من مواطنيهم عطفا ولا مناصرة ، وعومل الأرقاء معاملة تأباها طبائع الحيوانات ، بله البشر .

بين هذه الظروف جميعها ولد محمد صلوات الله عليه يتيما ، وحرم عطف أمه وهو فى السادسة من عمره . وينتمى عليه الصلاة والسلام إلى أنبل أسرة فى قريش . وكان كبقية مواطنيه أميا لا يعرف الكتابة والقراءة ، واشتغل برعى الأغنام حينا من الدهر ، وتلك مهنة لا يبدى التأفف منها أنبل العرب محتداً ، واشتغل بالتجارة شابا ، وكان فى معاملاته صادقا ، ووصفه جل شأنه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . ولقبه قومه « بالصادق الأمين » لطهارة يده ومتانة خلقه وحبه للحق والأمانة ، ومع أنه نشأ فى بلاد دينها عبادة الأوثان فقد شب كارها لها ، ولم يحدث قط أن سجد لأحدها . قال تعالى : « ولا أنا عابد ما عبدتم » . وعاش محمد صلى الله عليه وسلم فى مدينة كان الخمر فيها شيئا مألوفا ، ومع هذا لم تمس الخمر شفتيه أبدا . ولم يتذوقها أبو بكر الصديق قط ، ورأى أهل مكة فى الميسر ميدانا للمتعة النفسية ، ولم يحدث أن شاطرهم النبى صلى الله عليه وسلم فيما ذهبوا اليه .

وشب عليه الصلاة والسلام فى أمة مولعة بالحروب ولعها بالخمر ، ولكنه كره الحروب وكره الخمر ، وفى هذا يقول « سير ويليام موير » : « ومع أن محمدا يبلغ الآن من العمر عشرين عاما فلم يظهر بعد ميله للحروب » .

ولم يشتغل صلى الله عليه وسلم فى التجارة حبا فى الثراء ، ولكن عونا لعمه أبى طالب ، وفى هذا يقول سير ويليام موير « لم يطمح محمد أن يكون غنيا ولم يبد نشاطا فى حياته يرجو من ورائه أن يكون لمجرد الثراء ثريا » .

وتنفرد حياة النبى بميزة نادرة ، وخاصة فى مثل بلاد العرب ، وفى ذلك الحين ، وقد امتاز بحبه لمساعدة الفقراء والعطف على الأرامل واليتامى ومناصرة الضعفاء والأرقاء وذوى الحاجة ، وإكرام الضيف ، وحب ذوى القربى . قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »

ولم يقاس النبي وحده - عن طيب خاطر - الصعاب الجسام في مكة ثلاثة عشر عاما ، ولكن قاسى أتباعه هم الآخرون نفس العنت بنفوس مطمئنة . وقد امتدحهم لهذا « سير ويليام موير » وهو كاتب تمتلىء نفسه عداوة للمسلمين فقال « لقد صبر المؤمنون على الأذى بروح قوية وآثر مائة رجل وامرأة أن يهاجروا من ديارهم إلى الحبشة عن أن يرتدوا عن دينهم الذى ارتضوه ، كما هاجر عدد غير قليل مع النبي نفسه تاركين مكة الحبيبة إلى نفوسهم وكعبتها المقدسة التى لا يعتزون بغيرها » .

وليس هناك من مصلح كمحمد كان فى مكنته أن يقوم بهذا الإصلاح الشامل فى حياة أمة تقطن مثل هـذه البلاد الفسيحة الأرجاء ، وتبلغ درجة التأخر فيها هذه الدرجة التى كانت عليها هذه الأمة .

لقد كانت عبادة الأصنام متأصلة فى النفوس ، وتجرى من العرب مجرى الدم ، واستولت الخرافات على عقولهم ، وكان لها أثر بالغ فى تصرفاتهم وحياتهم . وقام اليهود والمسيحيون بدعايات واسعة النطاق ، ومجهودات كبيرة مئات السنين ، تساعدهم وتشد أزرهم مواردهم الهائلة ، يريدون إحداث تغيير فى حياة العرب ، ولكنهم باءوا بالفشل وبقيت البلاد — على الرغم من جميع المحاولات — بلادا تجهل أصول الدين ومبادىء الأخلاق .

وجاء محمد صلوات الله عليه فاستطاع أن يتعهد البلاد بإصلاح شامل فى ثلاثة وعشرين عاما . وغدا العـرب يعتبرون عبادة الأوثان وغيرها من الأشياء التى درجوا على تقديسها عارا يسيء إلى الإنسانية ، فأبادوها واختفت الخرافات . وظهر دين الحـق الذى يتفق مع العقل ، وأحس كل عربى بإلهـام ورغبة يجيش بها صدره لعمل كل خير وإصلاح لا لأمته ووطنه فحسب وإنما للإنسانية جمعاء .

وصار الأعرابى الذى كان يفتخر بجهله محبا للمعارف والعلوم . قال « هرشفيلد » : « لم يستطع أحد أن يهدى أمة ويصلح أمرها بالسرعة التى استطاع بها محمد ، أن يوجه قومه إلى اعتناق الإسلام .

وقال « كنت أوف بولينفليير » : « إنه لحق علينا أن نقول : إنه ليس هناك من تاريخ له أن يفخر بما بين طياته من أحداث تفوق حد التصور فى حيويتها ، وفيما تحدثه من الدهشة ، أكثر من تلك تصطدم بها فى حياة المسلمين الأولين ونبيهم العظيم ، تلك الأحداث التى تبدو فيها الشجاعة والفضيلة والشعور الجميل المتبادل بين القواد والجنود » .

ويزعم غير المسلمين أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشر الإسلام بحد السيف والله تعالى يقول « لا إكراه فى الدين » والواقع أن بالقرآن مايدل على أن العقيدة مرجع اختيارها للإنسان نفسه ، وإذا أبى واستكبر وتمسك بأهداب الباطل فقد ضل سواء السبيل . قال تعالى « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » .

وقد أمر الله رسوله بمقاتلة أعداء الدين لاحبا فى إكراههم على اعتناق الإسلام وإنما ليقيم حرية الأديان على أساس متين ، وليضرب على أيدى القائمين بالاضطهاد الدينى ، وليذود عن جميع البيوت التى يذكر فيها اسم الله ، وفى هذا يقول جل علاه « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . وقال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » .

ويبدو من هذا جلياً الحكمة فى الإذن للمؤمنين بمقاتلة أعداء دينهم . فالغرض من القتال هو حفظ الجماعة من الاضطهاد وبطش الظالمين . ونلاحظ أن الأمر بالقتال أتبع بوقفه إن كف الباغى عن عدوانه وبطشه ؛ قال تعالى « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » وقال تعالى « فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » .

وليس هناك من مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمدا أرسل حملة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام . كما أنه ليست هناك من حادثة واحدة سأل النبى فيها إنسانا أن يؤمن به وسامه العذاب بسبب ذلك ضمانا لفوزه بأمنيته . نعم لم يحدث قط شىء من هذا ، بل على النقيض منه عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم ؛ ويبدو ذلك واضحا فى قول الله سبحانه وتعالى « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

ولقد اعترف أشد الناس عداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكذب قط ولم يتطرق اليأس ولا القنوط الى قلبه أبدا . وحدث مرة وكان النبى يومئذ حاكما للمدينة أن جاءه يهودى يطلب دينه ويسبه ، فاغتاظ لذلك عمر رضى الله عنه ، ولكن النبى نهره ، وقال « كنت أنا وهو أحوج الى غير هذا منك : تأمرنى بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى » .

وهكذا يضرب النبى صلوات الله عليه أحسن الأمثال على خلقه العظيم ؟

الجانب الالهى من التفكير الاسلامى

سبق لنا أن عرضنا صورة مصغرة لهذا المؤلف الثمين عند صدور طبعته الأولى منذ نحو سنة ، واليوم نعود إلى الكلام عنه وقد وصلتنا طبعته الثانية ، وحق لنا أن نقابل هذه الطبعة بما قابلنا به الأولى من الحفاوة والإعجاب ، وحق لنا أيضا أن نوجه إلى حضرة الأستاذ الألمعى مؤلفه النابغة الدكتور محمد البهى أستاذ الفلسفة بالأزهر بعض ما يستحقه من الإجلال والإكبار .

قال مؤلفه الفاضل : إن موضوع هذا الكتاب قد لا يكون جديدا على قراء الفلسفة الإسلامية لأنه يتعلق بالله ، ولكن منهج البحث فيه ربما كان جديدا . ونحن نقول : إنه لجديد كل الجدة ، وممتع لطموح الفكر كل الامتاع . لأنه لم يدع موضوعا مما يمت لهذا الموضوع بصلة إلا أتى به ، أو أشار إليه ، ووفاه حقه من التحليل والبيان ، فشكرا له بقدر ما بذل فى وضعه من تمحيص ، وأنفق فى إعداده من وقت .

الأخلاق فى الفلسفة الحديثة

للفيلسوف (اندريه كريسون)

العلامة اندريه كريسون أحد أساطين الفلسفة من رجال الفكر البارزين فى العالم ، له مؤلفات كثيرة ذات قيمة عالية ، منها هذا الكتاب الذى نحن بسبيله اليوم ، أراد بوضعه إعانة محبى الفلسفة على الاستئناس بالجانب العملى منها ، وهو لا ينقص خطرا عن الجانب النظرى ، فجاء كتابه فى الأخلاق بحثاً عظيم القيمة فى تاريخ الأخلاق منذ شرع سقراط يمهد السبيل لجعل فكرة الخير والشر موضع العناية من الفلسفة . فقد اشتمل على تاريخ البحث الأخلاقى فى عهدين طويلين : عهد قدماء الفلاسفة الأخلاقيين ، وعهد الفلسة الحديثة . وقد أفرد الأستاذ أندريه كريسون لكل من هذين العهدين سفرا خاصا ، فجاء عمله هذا متمما للبحث الخلقى على ما يتفق والترقى العلمى الذى وصلنا اليه فى العصر الراهن .

قام بنقل هـــذا العمل العظيم بقسميه الى اللغة العربية المدرسان البارزان فى كلية أصـول الدين : الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ أبو بكر زكرى ؛ وهو عمل يمكن وصفه بأنه من ضروريات نهضتنا الفكرية الحالية ، لأن مسألة الأخلاق والأصل الذى ترتكز عليه ، وقيمتها فى حياة الانسان ، كلها مجالات للبحث والنظر تعرض كل حين للأفكار ، وكثيرا ما يتفق أن المتعرض لها لم يستوعب كل ما يجب استيعابه مما قاله الفلاسفة فى هذا الموضوع ، وما انتهى اليه جهدهم فى إبراز جميع نواحيه ، فيجىء تحليله ناقصا ، ومرماه قريبا ، فلا يستوفى المقام حقه ، ويبقى القارىء متشوقا لما يشفيه من هـذا المطلب الجلل وأين هو ؟

فنحن إزاء هـذه الاعتبارات لا نستطيع توفية مترجميه الفاضلين من الثناء ، ولا القيام بحقيهما من الإعجاب ، وانما لنرجو لهما التوفيق الى أمثال هـذه التحفة القيمة من ثمرات القرائح الناضجة ، والعقول النيرة .

تعليل الأحكام

عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطوراتها

فى عصور الاجتهاد والتقليد

إن هـذا الكتاب الحافل كان طلبة الكثيرين من الذين يبحثون فى أحكام الشريعة الإسلامة من غير علمائها الرسميين ؛ فصدوره يشفى صدور جمهور من باحثينا الاجتماعيين ، ويسد فراغا عظيما فى المطبوعات الشرعية . وللكتاب مزية أخرى وهو أنه يُرِى رأى العين سماحة الشريعة الإسلامية ، وبعـد نظرها ، واستيعابها لجميع الحاجات الأدبية والمادية للإنسان ، ولما تحتاج اليه الجماعات من الأواصر والربط . وقـد عنى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المحترم الشيخ محمـد مصطفى شلبى مؤلفه المـدرس بكلية الشريعة ، بلفت نظر القارىء فى جميع المواطن الى سماحة الشريعة الإسلامية .

والكتاب محرر بعبارة بليغة ، ولهجة مونقة ، فلا يمل القارىء من تلاوته ، مهما طال به الوقت . وهذه خصوصية ثمينة لبعض المؤلفين . فنثنى على همة الأستاذ المؤلف ، ونشكر له عمله القيم ، زاده الله توفيقا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث الديني

الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر فى قصر رأس التين العامر
فى ٤ من رمضان ١٣٦٨

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

قال الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما فلبثنا ساعة ثم سُرِّى عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا

وارض عنا !. ثم قال : أنزل عليَّ عشر آيات مَن أقامهن دخل الجنة . ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون ... » حتى ختم عشر آيات » .

وهذه الآيات العشر جمعت خلال الخير ، وخصال البر ، واشتملت على أمهات الفضائل وجلائل الأعمال ، وهى مناسبة تمام المناسبة لآخر السورة التى قبلها وهى سورة الحج ، إذ يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ؛ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » .

ففى خواتيم سورة الحج كان الرجاء من الله بالفلاح والفوز والرغبة فى توقع الإجابة ، فجاء أول سورة المؤمنين مجيبا رغبتهم ، ومحققا رجاءهم ، ومبشرا لهم بحصول ما كانوا يتوقعون .

وهذا المعنى مستفاد من كلمة « قد » الداخلة على الفعل الماضى ، فإنها فى مثل هذا التركيب تكون جوابا لمستخبر يتوقع الفعل الذى بعدها ويرجوه .

وأفلح : فاز بالمرام ونجا وسعد وظفر ، وقد عبر بالماضى وأكد بقد فقال « قد أفلح » للدلالة على أن فوز هؤلاء المتصفين بهذه الصفات ونجاتهم وسعدهم وظفرهم ، كل ذلك حاصل لا محالة .

والمؤمنون : المتصفون بالإيمان ، والإيمان : هو التصديق الجازم ، المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها ، بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد بينت السنة النبوية ما يجب الإيمان به ؛ قال الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديدُ بياض الثياب ، شديدُ سواد الشعر ، لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت

اليه سبيلا . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

قال تعالى: « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » :

الخشوع : الخوف والتذلل والخضوع . والخاشعون فى الصلاة هم الخاضعون لله الخائفون منه ، الذين يخشونه بقلوبهم . وإن من خواص الصلاة الصبر ، ونفى الجزع ، والنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ فالمصلى الحقيقى هو البار الحقيقى الذى لا يترك الحق لأجل شهوة ، وهذا هو أثر صلاة الخاشعين .

وإن فى تقدم وصف المؤمنين بالخشوع فى الصلاة على سائر ما سيذكر بعد ، تنويها بشأن الخشوع فى الصلاة ؛ قال الله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

قال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » :

اللغو : هو الباطل ، واللهو ، وما لا يحمد من القول والفعل . والإعراض : الترك ، ومن ذلك ألا ينم الشخص على أخيه ولا يغتابه ، ولا يقول فيه ما يؤذيه ، ولا يرضى بشىء من ذلك .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير ، فقلت : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال « لقد سألتنى عن عظيم وإنه يسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » ، ثم قال « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين » ، ثم تلا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا

ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ، ثم قال « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سَنامه » ؟ فقلت بلى يا رسول الله ، قال « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سَنامه الجهاد » ثم قال « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت بلى يا نبى الله . فأخذ بلسانه وقال « كُف عليك هذا » فقلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فأجاب بقوله « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » ! .

وإذا كان كف اللسان لازما فى جميع الأوقات فهو ألزم فى الصيام ؛ يقول النبى صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : كل عمل ابن آدم له إلا الصيامَ فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جُنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم ، والذى نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ! . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

قال تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » :

الزكاة فى الإسلام : نظام مالى اجتماعى حدد العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، فأوجب فى أموال المسلمين التى تحتمل المواساة مقدارا معينا يؤخذ من أغنيائهم فيرد على فقرائهم . والزكاة : نظام اقتصادى يكفل العدالة الفردية والعدالة الاجتماعية ، وهو نظام وسط بين مذهبين متغالبين يمثلان طرفى الإفراط والتفريط : رأسمالية قاسية جامدة ، وشيوعية إباحية ملحدة .

غلت « الرأسمالية » فى تقديس المادة وجمع المال وعبادة الدرهم والدينار ، وغلت « الشيوعية » فيما سمّته العدالة الاجتماعية ، وتظاهرت بالعطف على الفقراء فألغت الملكية الفردية وحرمت المجدّ من كده وتعبه ، وحاربت السنن الكونية فى طبيعة الوجود . فمنذ بدء الخليقة يوجد فى الناس القوى والضعيف ، والكسوب والعاطل ، والعالم والجاهل ، والنابه والخامل ، والصحيح والمريض ؛ وبمقدار تفاوتهم فى الصفات يتفاوتون فى الغنى والفقر ، والرزق والكسب ، وفى المعيشة ومتع الحياة ؛ فمن حاول التسوية بينهم فقد حارب الطبيعة ورام المستحيل ، وخالف

سنة الله فى خلقه . يقول الله تعالى « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ؛ للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شىء عليما » ويقول عز وجل « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » . ويقول سبحانه « أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

لا شك بعد هذا فى أن الشيوعية ما هى إلا إباحية مطلقة ، ولا دينية مغلقة ، بخلاف العدالة الاجتماعية . فليتدبر المسلمون ذلك ، وليعرفوه ، وليحذروا كيد الكائدين ؛ وليعلموا أن نظام الصدقة العامة ، والمواساة المشروعة فى الإسلام نظام يكفل العدالة الاجتماعية بأقصى معانيها متى أحسن العمل به ، وقام كل مسلم بواجبه .

فها هى ذى مظاهر المواساة فى الإسلام واضحة جلية فى الزكوات المفروضة ، والكفارات الواجبة ، والصدقات المتنوعة .

قال الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال عز شأنه : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » وقال جل وعلا « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وقال سبحانه « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » . وقال جل وعلا : « إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » . وقال عز من قائل « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ،

والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وقال تعالى : « ومن يوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وقال صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح الناس فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أطعم جائعا أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه عز وجل يوم القيامة من الرحيق المختوم ، ومن كسا مؤمنا عاريا كساه الله من خضر الجنة » وقال ابن عباس رضى الله عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجودُ ما يكون فى رمضان » .

اللهم وفقنا وإخواننا المسلمين الى صالح الأعمال ، حتى ننال كمال رضاك . اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا .

اللهم اشمل بعونك ورعايتك ، المؤيدَ بكلمتك ، المخلص فى طاعتك ، مولانا صاحب الجلالة الملك الصالح الموفق « فاروقا الأول » .

اللهم كما أحسنَ الى دينك وكنانتك فأحسن إليه ، وانصره نصرا مؤزَّرا ، اللهم أحيه حياة طيبة مباركة تعم بنفعها العباد والبلاد .

اللهم يا واسع الفضل والإحسان نسألك أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاى الملك العظيم صاحب الجلالة المغفور له الملك « فؤاداً الأول » . اللهم اجعله فى أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

اللهم وفق رجال حكومة جلالة الملك الى مافيه الخير العميم ، إنك سميع مجيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الحديث الديني

الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر
فى قصر رأس التين العامر مساء ١٨ رمضان سنة ١٣٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

ما تشتمل عليه الآيات من الأحكام

(١) ناقضو العهد وما يجب نحوهم . (٢) نبذ العهد عند توقع الخيانة . (٣) وجوب إعداد الأمة كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها . (٤) فرق الفرسان وأثرها فى الحرب . (٥) الحرب الإرهابية وأثرها فى حماية المسلمين . (٦) الإنفاق فى سبيل الله ـ أثره فى تكوين الأمة ـ الجزاء عليه . (٧) الإسلام دين السلام ـ طلب السلم خداعا ـ ائتلاف القلوب وأثره فى قوة الأمة ـ تفرق الكلمة وأثره .

معنى المفردات

« تثقفنهم » : أى تغلبهم وتظفر بهم . « فشرد بهم » أى نكل بهم . « يذَّكرون » : أى يحذرون أن ينقضوا العهد . « وأعدوا » الإعداد : اتخاذ الشيء لوقت الحاجة . « رباط الخيل » : يعنى حبسها واقتناؤها ، أو هو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، فهو فِعال بمعنى مفعول . « وإن جنحوا » : الجنوح الميل ، ومنه قيل للأضلاع جوانح لأنها مالت على الحشوة . والسلم والسلام : هو الصلح ، والسلم مؤنث كمقابله « الحرب » . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضّل « للسِّلم » بكسر السين ، والباقون بالفتح . « يخدعوك » : أى يظهرون السلم ويبطنون الغدر والخيانة . « حسبك الله » : حسب تستعمل بمعنى الكفاية التامة أى كافيك أمرهم من كل وجه .

التفسير

فى الآيات السابقة على هذه الآيات ذُكر فريقان ممن كانت بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهود ومواثيق . فمن نكثوا العهد وتكررت خيانتهم أوجب الله ضربهم والتنكيل بهم نكالا يفرق غيرهم ممن خلفهم حتى لا يجرؤ معاهد على الخيانة ونقض العهد ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله « الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنّهم فى الحرب فشرِّد بهم مَن خلفهم لعلهم يذَّكرون » .

وفريق صاروا غير مأمونين ، وخيانتهم متوقعة ؛ وهؤلاء أمر الله بقطع طريق الخيانة عليهم بإعلامهم بفسخ العهد حتى يكونوا على علم بأنهم أصبحوا فى حالة حرب مع المسلمين ، ولكن لا تجوز مفاجأتهم بالحرب قبل إعلامهم بفسخ العهد . وقد ذكرهم الله فى قوله « وإمّا تخافَنَّ من قومٍ خيانةً فانبِذْ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » .

بعد هذا بين الله للمسلمين ما يجب أن يكونوا عليه من القوة والمنعة حتى لا يجرؤ أمثال هؤلاء على الخيانة والاستهتار بعهودهم ، ولا يجرؤ غيرهم على انتهاك حرمات المسلمين ، فقال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، وهو أمر من الله تعالى للمسلمين بأن يستعدوا لأعدائهم من هؤلاء وغيرهم بكل ما يستطيعون

من قوة . وهو أمر عام لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس ؛ لأن الآية محكمة والأمر فيها أبدى دائم .

ولفظ القوة عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للحرب والجهاد ، من الحصون والقلاع ، وأسلحة البر والبحر والهواء ، على اختلاف أنواعها وأشكالها ، بحسب الأزمنة والأمكنة المختلفة ، ومصانع الذخيرة والأسلحة المختلفة ، وكلٌّ ما يفيد فى صلاحية الأمة للحرب كإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب ، والإشراف على الصحة العامة ، وتقوية الأجسام ، وغير ذلك مما يجعل الأمة مخوفة مرهوبة الجانب ، وكل ذلك بحسب استطاعة الأمة والقدرة على القيام به .

والرباط فى الآية : اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، وخُص بالذكر الاستعداد بالخيل مع أن قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » يشمله ، لتوجيه النظر الى أهمية الخيل فى الجهاد ، وأن لها شأنا عظيما فى المرابطة بها فى الثغور وحدود البلاد ، لسرعة حركة الفرسان ، وقدرتهم على الكر والفر إذا دهِم الوطنَ عدو على غرة .

ولا يزال لفرق الفرسان شأن عظيم فى الحروب برغم المخترعات الحديثة من المدرعات وغيرها .

وقوله تعالى : « تُرْهبون به عدْو الله وعدّوكم » إعلام من الله تعالى للمؤمنين بأن الاستعداد للحرب بكل ما تستطيعه الأمة من قوة هو لإرهاب أعداء الله الذين يعملون على تعطيل الدعوة الى دينه ، وإرهاب أعداء المؤمنين الذين يكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر ؛ لأن هؤلاء الأعداءَ إذا علموا أن المسلمين نشيطون فى دعوتهم الى دين الله ، وأنهم فى ديارهم متأهبون للحرب ، ومستكملون آلاتها وعُدَتها ، خافوهم ورهِبوهم ، فلا يُقدمون على مناجزتهم أو قتالهم ؛ فالمقصد الأصلى من التأهب للحرب هو حماية الدعوة الى دين الله ، ودفعُ العدوان عن المسلمين . أما التعدى على الآمنين المسالمين فليس من مقاصد الإسلام ولا مما يجيزه الإسلام . يرشد الى هذا قول الله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » أى لا تبدءوا بالعدوان ولا تعتدوا فى القتال

بقتل غير المحاربين من العجزة والشيوخ والنساء والصبيان ومن إليهم ممن لا يحملون السلاح ولا يمدون الأعداء بالرأى فى الحرب .

اختلف المفسرون فى المراد بالآخرين فى قوله تعالى : « وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم » على أقوال ، ورجح الرازى وابن كثير ما قاله مقاتل وعبد الرحمن بن زيد بن أسلمَ أنهم المنافقون ؛ وقد كانوا موجودين بين المسلمين كما جاء فى قوله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مَرَدُوا على النفاق لا تعلمهُم نحن نعلمهم » ، والمعنى حينئذ : استعدوا أيها المسلمون بكل ما تستطيعون من قوة ليرهبكم أعداؤكم المعروفون لكم ، وأعداؤكم الذين لا تعرفون أنهم أعداء وهم المنافقون .

وذلك لأن المنافقين فى ظاهر حالهم من المسلمين ، وفى الباطن بخلاف ذلك ، ومن عادتهم تلمس الفتنة ليحتالوا على إشاعتها وإلقاء الإفساد فيما بين المسلمين ، فإذا شاهدوا قوة المسلمين وما لهم من كثرة آلات الحرب ، وما أعدوه من العيون والرَّصد لتعرُّف حال الأعداء ، خافوا وأقلعوا عن هذه الأفعال الذميمة حتى لا ينكشف أمرهم ، وقد صاروا لا مطمع لهم فى أن يغلب المسلمون مع وجود هذه القوة .

والمنافقون وإن كانوا فى الحقيقة أعداءً للمسلمين ، بل هم شر على الأمة من أعدائها الظاهرين ، ولكن تفسير الآية بهم وحدهم لا يظهر مع عموم قوله « وآخرين من دونهم » لأن الآخرين من غير هؤلاء الأعداء المعروفين يشمل الأعداء المستخفين ، ومن لم يعرف من أمرهم شىء وقت نزول الآية ، ولهذا فالراجح حمل الآية على العموم . فقد عُرف أنه بعد أن ظهرت قوة المسلمين بعد واقعة تبوكَ أقبلت وفود القبائل من قلب الجزيرة وأطرافها يعلنون إسلامهم إعظاما لهذا الدين الذى تدين به وتحميه أكبرُ قوة فى جزيرة العرب ، ومن غير هؤلاء مَن قبل الدخول تحت سلطان المسلمين مع خراج يؤديه ، وبعض من هؤلاء وهؤلاء لم يكونوا معروفين بأنهم أعداءٌ أو غير أعداء .

ولما كان الإعداد للحرب يحتاج الى البذل والإنفاق ، قال الله تعالى « وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون » ، وهو حضٌّ من الله

للمؤمنين على الإنفاق فى سبيل الله، ووعد منه تعالى بأن ما ينفقونه فى هذا السبيل قل أو كثر يُجزون عليه فى الدنيا والآخرة جزاء وافيا.

أما جزاؤهم فى الدنيا فهو ما يصيبهم من خيراتها مع حفظ أمتهم من العدوان الذى قد يمتد أثره إذا كانت الأمة ضعيفة الى التهلكة. ويشير الى هذا قول الله تعالى «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، والمعنى كما عن ابن عباس رضى الله عنه «لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم بترك الإنفاق فى سبيل الله فيغلبَ عليكم العدو».

وأما جزاؤهم فى الآخرة فقد بينه الله فى قوله «مَثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابلَ فى كل سُنبلةٍ مائة حبةٍ، والله يضاعِف لمن يشاء، والله واسع عليم».

وقال (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نَفَر الجنةَ: صانعَه الذى يحتسب فى صنعته الخيرَ، والذى يجهز به فى سبيل الله، والذى يَرمِى به فى سبيل الله».

وقول الله تعالى «وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله» عام فى الإنفاق فى وجوه الخير التى تفيد الأمة، قلَّت النفقة أو كثرت. فالإنفاق لدفع المرض والفقر والجهل عن الأمة إنفاق فى سبيل الله؛ لأنه يمكِّن الأمة من إعداد جيش قوى يقدر على الدفاع والذود عن حماها. والإنفاقُ لإنشاء مصانع للذخيرة وآلات الحرب إنفاقٌ فى سبيل الله، وكل نفقة تفيد الأمة فى حيويتها وقوتها هى نفقة فى سبيل الله.

ولما بين الله تعالى ما يجب أن يكون عليه المسلمون من القوة التى ترهب أعداءهم، خاطب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «وإن جَنَحوا (٢) للسَّلم فاجنح لها

---

(١) رواه البيهقى عن عقبة بن عامر «ترغيب ج ٢ ص ١٧٠».

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى وعكرمة والحسن وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية براءة «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر»، وقال ابن كثير: لا نسخ لأن الأمر بقتالهم فى سورة براءة إذا أمكن فأما إذا كان العدو كثيفا فانه تجوز مهادنته كما فى آية «وإن جنحوا». ونقل الطبرى عن قتادة أنها منسوخة بقوله «فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»، وعقب على هذا بأن لا نسخ لأن آية التوبة فى بنى قريظة وهم أهل الكتاب وقد أذن الله بمتاركة أهل الكتاب نظير الجزية؛ أما «فاقتلوا المشركين» فقد عنى به مشركى العرب.

والصواب عندى أن آيات سورة التوبة - عدا ما كان منها خاصا بأهل الكتاب - خاصة بالمشركين، وهؤلاء كانوا حربا على العقيدة الاسلامية وهى أساس الدولة. لهذا وجبت محاربتهم بلا مهادنة حتى تزول الوثنية. أما الآية هنا فعامة فيمن عداهم، فلا نسخ.

وتوكل على الله » . واختصه الله بالخطاب فى هـذه الآية لأنه هو القـائدُ الأعلى للمؤمنين ، والمرجعُ الأعظم فى أمورهم فى حالة الحرب والسلم .

والمعنى : إذا كنت فى قتال مع أعدائك أو حالة حرب دون قتال ، ومالوا الى السلم والمصالحة فأجبهم إلى ذلك واقبل منهم ، فالإسلام دين السلام . وتوكل على الله بتفويض أمرك إليه ، والركون إلى أنه عون لك على السلامة .

« إنه هو السميع العليم » المطلع على ظاهرهم وباطنهم ولا يخفى عليه من أمرهم ما يخفى عليك .

والتوكل على الله لا يمنع من الاستعداد وطلب الأمور من أسبابها ؛ لأن الله تعالى نظم هذا الوجودَ ورتب فيه الأسباب والمسببات ، والمؤمن المتوكل على الله هـو الذى يطلب الأمـور من طريق أسبابها الظاهرة ، ويستمد من الله العـون والسداد فى الوصول الى الغاية ، وقد كان ذلك هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر . وإذا لم يعرف المؤمن الأسباب أو لم يهتد الى معرفتها فإنه فيما يقصد إليه يفوض أمره الى الله ، ويطلب منه السلامة ، وأن يهيء له من الأسباب ما يجنبه طريق الزلل .

وإذا طلب الأعداء السلم ولـكن ظهر من حالهم أنهم مخادعون وأنهم إنمـا يقصدون من السلم الاستعدادَ وجمعَ القوى حتى تحين الفرصة فينتهزوها ، فلا يجابون الى ما طلبوا ، لأنه إذا كان ظهور خيـانة المعاهدين يدعو إلى نبذ عهدهم ومحاربتهم كما فى الآية السابقة ، فإنه يكون أولى ألا يقبل من الأعداء عهد ينطوى على الغش والخداع .

أما إذا طلبوا السلم ولم يظهر للمسلمين أنهم مخادعون ، فهذا هو الذى عناه الله بقوله « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبَكَ اللهُ » ، وهو تصريح بما أشير إليه فى قوله « وتوكل على الله » يعنى أنه تعالى كافيك خداعهم إياك ، لأنه متكفل بإظهار دينه على الأديان ، وأن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم » وهى نعمة عظمى لك من الله تعالى جمع لك فيهـا بين النصر الربانى وتسخير المؤمنين لك حيث ألف بين قلوبهم ، وجمعها على الإيمان بك ، وجعلهم أمة واحدة متآلفة متعاونة على طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك ،

بعد أن كانوا أعداء ، وبينهم إحَنٌ وأحقاد متوارثة ، وحروب كادت تأتى عليهم . « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » « ولكن الله » الذى بيده ملكوت كل شىء « ألف بينهم » بهدايتهم الى نور الإيمان ، وبعزته وحكمته جعلهم أمة واحدة قوة لهذا الدين ، إنه عزيز حكيم .

وفى هذه الآية إرشاد من الله تعالى الى أن ائتلاف قلوب المؤمنين واتفاق كلمتهم على خير الجماعة الإسلامية ركن أساسى فى بناء الجماعة الإسلامية وقوتها وعزتها . أما التنازع واختلاف الكلمة وتفرق القلوب فهو مدعاة للفشل والخيبة ، وقد أنذر الله تعالى به المؤمنين فى قوله « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم » أى تذهب قوتكم فيظهر عدوكم عليكم .

اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم .

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا تنزع منا صالح ما أعطيتنا .

اللهم إنا نسألك وأنت العلى القدير أن تحفظ حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك « فاروقا » الأول .

اللهم أنت تعلم أنه قد أوفى على الغاية فى الحدَب على أمته ، وجاهد بنفسه وماله فى سبيل مجدها وعزتها ، وأنار الطريق للعاملين ، فكان للشيوخ قوة ، وللشباب حكمة ورشدا ، يقودهم إلى الخير ، ويوجههم إلى طريق الفلاح .

اللهم إنك تعلم أنه لم يدخر وسعاً فى سبيل مجد العروبة ، وأنه هو نبراسها الذى تستضىء به إذا ادلهمت الأمور ، واضطربت الغايات .

اللهم اجزه على ما عمل ويعمل خير الجزاء ، ووفقه لصالح الأعمال وأنماها بركة ، واجعله للإسلام عزا ، وللعروبة قوة ، وللأمة فخرا ومجدا .

اللهم ألف بين قلوبنا حكومة وشعبا ، واجمع كلمتنا على خير مصر ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

وزير المعارف الرجعى

لكل سؤال يا بثين جواب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون
السكرتير العام للجامع الأزهر

نشرت الأهرام ذات يوم من أغسطس الماضى أن معالى وزير المعارف حذف تعليم الرقص التوقيعى من المدارس ، وعاقب بعض المدرسات بالفصل ، ومنع بعض الطالبات الجامعيات من رحلتهن إلى أسبوع إيطاليا الرياضى مع الطلبة الجامعيين ، وكذلك منع البعثات النسوية إلى أوروبا . ولم يمض يومان حتى تطوعت إحدى السيدات فنقدت هذا القرار نقدا لاذعا ، واتهمت وزير المعارف بالرجعية . وبعد نشر مقالتها بيومين صدر الأهرام وفيه مقال تحت عنوان (وزير المعارف الرجعى) لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر ، لا نستطيع أن نصفه بأقل من أنه أحسن ما يمكن أن يقال فى هذا الباب . فقد امتاز بجمال الديباجة ، وبلاغة العبارة ، والإبداع فى الأداء . هذا فضلا عن أنه يرمى إلى غرض اجتماعى خطير يجب التنويه به ، وتتبع كل ما يقال فيه . ولذلك آثرنا أن ننقله ليبقى ذخراً علمياً وأدبياً مدى الدهر .

وها هو ذا بنصه :

وزير المعارف رجعى وآثم ، لماذا ؟ لأنه ، أولاً - فصل مدرسة بجرة قلم ، وبدون تحقيق ؛ وثانيا - حرم فتيات جامعيات من حقهن فى الاشتراك مع الطلاب فى رحلة الجامعيين إلى أسبوع إيطاليا الرياضى ، وأخرجهن من الركب فى اللحظة الأخيرة ، كما استقر رأيه على منع الرحلات والبعثات النسوية إلى أوربا ، رياضية كانت أم دراسية ؛ وثالثا - لم يكتف معالى وزير التربية بهذا الحرمان يعاقب به

المصريات فى ميدان الثقافة الخارجية ، بل أمر بمنع دروس الرقص التوقيعى الرياضى فى مدارس البنات .

هذه هى الأخطار الجسيمة التى تورط فيها وزير المعارف ، وهذه هى الرجعية القائمة التى ارتكبتها وزارة التربية الوطنية والتعليم ، والوزارة التى يسميها الرجال « وزارة المعارف » كذا قيل ! .

هذه هى الرجعية ، وهذه هى محنة المرأة فى عهد أحمد مرسى بدر وزير المعارف .

هذه هى السابقة الخطيرة التى كان يجب عليه أن يراجع نفسه فيها قبل الإقدام عليها .

واسوءتاه ! فى أى بلد نعيش ؟ وإلى أى دين ننتسب ؟! إننا نعيش فى مصر ، ومصرُ بلد شرقية محافظة ، لها تقاليدها الصالحة ، وعاداتها القديمة المحببة ، ولا يزال فيها حياء موفور ، وخُلق طيب موروث ؛ وننتسب إلى خير دين سماوى ، رسالته تطهير البشرية من أوضار الحياة وشرور المجتمع ، وتربيةُ النفوس ، وتنقية الضمائر على أساس العقل الصحيح .

هذا هو البلد الذى نعيش فيه ، وهذا هو الدين الذى ندين به ونعتنقه ؛ فإذا كان الله قيض لوزارة التربية الإسلامية رجلا يفهم رسالة الدين ، وهى تربية الخُلق ، وصيانة العرض ، وحماية الفضيلة ، ويعمل على تطهير المؤسسات العلمية للناشئة من عوامل الفساد ، ويقضى على عناصر التدهور والانحلال - إذا قيض الله لهذا البلد ، ولهذا الدين مثل هذا الوزير المصلح الغيور ، نقول : إنه رجعى وآثم ... !

أعمد وزير المعارف إلى فصل المُدرِّسة التى رقصت أمام طلبة الهندسة فى القطار المسافر بغير تحقيق من مراقب التعليم ؟ أمنع اشتراك الفتيات الجامعيات مع الطلبة الجامعيين فى الرحلة إلى أسبوع إيطاليا الرياضى ارتجالا ، وبدون رجوع إلى تقارير الوزارة فى مثل هذه الرحلات ، وجنايتها على أخلاق الفتيات الناشئات الغريرات ؟! .

ثم هل حرَّم ذلك الوزير الحازم البعثات النسوية إلى أوربا عبثا ، أو قوة واقتداراً ؟ لا ورب الكعبة ! ولا أريد فى هذا المقال ، ولا ينبغى أن أذكر شيئا مما تضمنته تقارير مكاتب البعثات فى الخارج من بعض الوقائع ، مما يشين ويعرّ .

ولا يصح فى الأذهان أننا نرى فوهات الخطر فاغرة أمامنا ، ثم نقدم عليها طواعية واختيارا لنتردى فى بوائقها ومهلكاتها ؛ لأى شيء ؟ للتقليد الغربى فحسب ! وإذا أحجمنا ، وإذا نصحنا ، وإذا قلنا الحق ، قالوا : رجعيون ، ومحنة للمرأة قاسية ، والرجال يظلمون النساء ، وسمعة المرأة فى الميزان ، وكرامة المرأة فى خطر ، ثم الرقص التوقيعى ، وقصته لا تنتهى ولا تفرغ ..!

فى وزارة صدقى باشا الأولى أنشىء معهد التمثيل الأول ، وكان فى برنامجه الرقص التوقيعى ، فاعترضنا على هذا النوع من الرقص فى جريدة الأهرام الغراء ، فكان بيننا وبين بعض رجال وزارة المعارف حينذاك نضال وكفاح فى عهد وزارة مراد سيد أحمد باشا ، ورئى فى ذلك العهد إحالتنا على مجلس تأديب ، لأننا هيجنا الرأى العام على وزارة المعارف بجريدة الأهرام ؛ وانتهى بتقليد حلمى عيسى باشا وزيرا للمعارف ، فقضى بجرة قلم على معهد التمثيل ، بما فيه الرقص التوقيعى ، فاسترحنا واستراحت ركابنا !.

انتقل الرقص التوقيعى إلى مدارس البنات ، وأقيمت له معارض رياضية سنوية تتخللها الفضائح والمناقص ، وصراخ المتدينين ، واحتجاج ذوى الغيرة على تلك الفضائح والمناقص ، حتى جاء السنهورى باشا ، وصرح لنا بأنه لا يقام فى عهده عرض رياضى للبنات ، ووفى بعهده ، فكان ذلك من محاسن عهده .

وأنواع الرياضة البدنية كثيرة ، فلم نتمسك بالرقص التوقيعى بذاته ، ولمَ يصور وزير المعارف بهذه الصورة الرجعية القاتمة ؟! لأنه ألغاه ؟

علموا البنات ما شئتم من الرياضة داخل المدارس ، ولا تخرجوهن إلى الشارع ، فهناك الخطر كل الخطر .

ونحن لا يسعنا إزاء هذه الخطوة الموفقة من معالى الوزير الفاضل إلا أن نزجى له عظيم شكرنا واغتباطنا ؛ وإلا أن نرجوه مخلصين أن يستمر فى هذه الحملة المطهرة حتى تعود الأمور إلى وضعها الذى يرضاه الدين ، ويقره العقل السليم .

هل فى الالحاد مادة للبقاء

ليس للملحدين دليل يعتمدون عليه

قلبنا مذهب الملحدين على كل وجه فلم نصادف فيه مادة للبقاء ، فهو ليس يعتمد على العقل ولا على الحس ولا على الشعور . فالعقل يأباه لأنه ينفى الموجد ، والعقل المجرد يقرر أن كل موجود لا بد له من موجد . ولأجل أن يتخلص المادى من هذا المأزق الحرج ، يزعم أن الكون لا أول له ، وليس به حاجة لموجد يوجده ، منكرا هنا حصة العقل أيضا من ضرورة تعليل وجود كون متنوع الكائنات والقوى ، ومتباين الموجودات والنواميس ، وآخذ فى الارتقاء والتكمل ، وُجد من الأزل بغير أن يكون له صانع مدبر يوجده ويدبره .

هنا يكر علينا المادى فيشهر علينا سلاحنا نفسه قائلا : وكيف تدركون وجود صانع على ما تصفونه من العظمة والقدرة والإبداع من الأزل ، ألسنا وإياكم سواء فى هذا الأمر ؟

نقول : لا ، والفوارق بيننا لا تقدر ، وإليك البيان :

فما دمتم تشعرون بضرورة وجود شيء بدون موجد من أزل الآزال ، فالعقل لا يستطيع أن يتصوره جمادا ، لأن الجماد ميت ، لا حراك به ، ويبقى على ما هو عليه حتى تجيئه قوة تحركه ، وأين هى وليس فى الوجود غيره ؟

ولكن العقل يستطيع أن يتصور وجود إله أزلى أبدى لا يدرك كنهه العقل ، ولا تحد قدرته بحد ، يوجد المادة ويتصرف فيها على ما يقتضيه علمه وتدبيره وحكمته ، وهو متصف بجميع صفات الكمال ؛ ثم هو إن كان لا يُدرك كنهه بالعقل فذلك لأنه فوق مرتبة الموجودات .

فالإدراك إذا اضطر أن يبحث فى أصل الوجود ، وهو مضطر إلى ذلك كل الاضطرار بحكم تركيبه الأدبى ، فلا معدى له عن إعطاء حق الوجود الأول ،

لموجد لا حدّ لقدرته ، ولا نهاية لسلطانه ، يقدر أن ينشىء كل هذه المخلوقات ، لا لمادة ترابية مجردة من العقل والإرادة والاختيار !

وإذا أضفت إلى هذا أنه لا توجد أدلة تسند الإلحاد إزاء آلاف من الأدلة التى تثبت الإيمان ، أدركت أن الإلحاد نقص خلق فى الإنسان ، أى أن صاحبه يميل إلى النفى بطبعه ويكره أن يعتبر من زمرة المؤمنين . وكما يوجد هذا النوع من المرض الأدبى فى الإنسان ، يوجد نوع آخر أكثر شيوعا وهو عدم الاهتمام . هذا النوع يشاهَد فى أكثر الناس وخاصة فى هذه الأيام التى كثر فيها الاهتمام بالأعمال المعيشية والمزاحمات . وهؤلاء أقل خطراً من سابقيهم وإن كانوا يضرون أنفسهم من حيث لا يدرون : فإن الإنسان مهما ابتسمت له الحياة ، فإنها قد تتجهم له فى بعض الأدوار ، إما لمرض يصيبه أو يصيب بعض ذويه ، أو لنازلة تحيق به فتفقده ماله وجاهه وتضيق فى وجهه المنادح . فهل تظن أن فى العالم شيئاً يمكن أن يسليه فيما أصابه من هذه المكاره غير اللجأ إلى موجده ، والاستئناس بذكره ؟ ولكنك لا تستطيع أن تقوِّم طبيعته بشىء من هذا مهما بالغت له فى الموعظة . وهو على أية حال يكون خيراً من الملحد الذى إن أصابته كارثة لا يرى أيسر لديه من إزهاق نفسه برصاصة تخترق فؤاده ، أو تحرق مخه .

كل ما فى صميم الإنسان من قوى ، وما يحيط به من عوامل خارجية ، وما هو مدفوع إليه من الغايات البعيدة ، وما هو ممنو به من المتاعب الأدبية والمادية ، يدل على أنه خلق ليكون متدينا ، ومتدينا معناه ذا عقيدة يعتصم بها حيال الكوارث التى تصيبه فى حياته الدنيوية القصيرة الأمد ، ولذلك لا يوجد الإنسان حيث يكون إلا متدينا ، ولا يزال فى عصر الشكوك متدينا ، ولن يزال متدينا . أما الذين جانبوا الدين تحت أى عنوان كان فشواذ ، وهم شواذ حتى فى إلحادهم . وقد استنتج العلامة الدكتور (ووتى) فى كتابه (هل الإلحاد ممكن) ؟ L'athéisme est-il possible? من ذلك أن الإلحاد سيزول شيئاً فشيئاً . فقال :

« الإلحاد آخذ فى الزوال شيأ فشيأ على نسبة التطور العقلى للإنسان . لأنه لا يستطيع البقاء بعد أن تبين أن الأصول التى كان يستند إليها أصبحت عديمة القيمة ولا تعتمد على قواعد أدبية . وليس مجرد حكمنا بعدم وجود شىء ،

بدون تقديم الأدلة على ذلك ، يمنع من وجوده . والتفكر فى وجود خالق للكون وحاجة الإنسان للاعتقاد ، هما فطريان فى الإنسان ، ويغمران العقول والقلوب معا ، وإن القادة من الكفرة عبثا يحاولون طمس الدين ، وإبعاده عن المدارس ، وعن الدولة ، ولن يستطيعوا التغلب عليه ؛ بل تراه يعود ويسود رغما عن كل هذه الموانع ؛ لأنه متصل بصميم الطبيعة الإنسانية » .

ثم عقب الدكتور المؤلف على هذه العبارة بقوله :

« كل عقل منطق ، صحيح النظر ، وقويم المحاكمة والحكم ، لا يستطيع أن يجحد وجود قدرة عليا خلقت الوجود ونظمته » .

«والملحدون أنفسهم يعترفون بذلك . وهذا الأستاذ (لودانتك) Le Dantec [1] يعترف بذلك ويصرح علنا بأنه ليس لديه أى دليل فلسفى أو علمى يحمله على الإلحاد . وأنه ملحد بفطرته ، دون أن يعلم لما هو كذلك . ويجوز أن يكون ذلك أمر وراثى .

« ويزيد على ذلك فيعلن على رءوس الأشهاد بأنه ليس له أى دليل على عدم وجود الخالق ، فكتب يقول فى كتابه (الإلحاد) L'atéisme

« أنا ملحد على نحو ما أنا (بروتونى) [2] ، كما قد يكون الإنسان أسمر أو أشقر دون أن يكون له دخل فى أنه كذلك . وليس لدى من دليل أقدمه على أن الإلحاد خير من شىء غيره ، لأنى لم أعرف قيمة ذلك الشىء ولم أتذوقه » .

عقب الدكتور (ووتى) على هذا الاعتراف فى كتابه (هل الإلحاد ممكن) بقوله :

« من المحال إعطاء تصريح أبلغ من هذا على وهى الأساس الذى يقوم عليه الإلحاد . ومما يجعل لهذا الاعتراف قيمة أنه صادر من أشهر خصوم الإيمان الذين نبغوا فى القرن العشرين » .

---

(١) العلامة (لودانتك) من أعلام علم الحياة ومدرسه بجامعة باريس .

(٢) بروتونى أى من أهل بريتانيا وهى مقاطعة فى فرنسا . وفى انجلترة مقاطعة كبيرة بهذا الاسم ، ولذلك سميت الدولة الانجليزية بريتانيا العظمى .

ثم عقب الدكتور (ووثى) على هذا التصريح المكتوب بقوله :

« إننا لا نستطيع أن نحسن خاتمة القسم الأول من كتابنا هذا إلا إذا نقلنا الكلمات التى ألقاها (فيكتور هوجو) فى الجمعية التشريعية التى عقدت فى ١٥ يناير من سنة (١٨٥٠) بباريز ، قال :

« توجد كارثة فى زماننا هذا ، وكنت أريد أن أقول (شبه كارثة) ، ألا وهى الميل إلى حصر كل اعتبار فى هذه الحياة وحدها . والحقيقة أنه بإقناع الإنسان بأن هذه الحياة الأرضية المادية هى الغرض الأسمى من الوجود ، والنهاية التى ليس بعدها مرمى ، تتضخم جميع متاعب العيش ، وتعظم سائر تكاليفه ، وتصبح فكرة العدم غير ممكنة الاحتمال ، وينقلب الألم وهو ناموس إلهى موصل إلى الكمال ، ناموساً من اليأس موصلا إلى النار . وقس على ذلك جميع الشؤون الاجتماعية .

« فالذى يخفف الجهاد ، ويشرف العمل ، والذى يجعل الشخص قوياً متسامحا عاقلا صبوراً شجاعا جريئاً ، وفى الوقت نفسه متواضعاً وعظيما جديرا بالحرية ، هو ما يتراءى له على الدوام من حياة أبدية أكمل ، يتألق نورها خلال غياهب هذه الحياة .

« فواجبنا جميعاً أن نوجه الرءوس نحو السماء ، وأن نلفت جميع الأرواح إلى حياة بعد هذه الحياة ، يتقرر فيها العدل ، ويجازى كل على ما كسبت يداه .

« فلنقل بأصرح العبارات ولنرفع الصوت عالياً ، بأن أحداً لا يتألم ظلما ولا لغير فائدته . فإذا كان مِساك العالم المادى التوازن ، فإن مِساك العالم الأدبى هو العدل ، ثم إلى الله مصير الأمور » .

محمد فريد وجدى

من الأدب العربى

وبعد ، فلو كان المفكر الكبير فيكتور هوجو الفرنسى حيا ، لاستشهد فى هذا الموطن بقول الشاعر العربى :

إذا كان غير الله فى عدة الفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد

خُطبة في حجّة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فـكرى ياسين
مراقب البحوث والثقافة المساعد بالأزهر

أخرج مسلم من حـديث جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس فى حجة الوداع ، فقال : « إن دماءكم وأموالـكم حرام عليـكم ، كحرمة يومكم هـذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هـذا . ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ؛ وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ؛ وربا الجاهلية موضوعة ، وأول ربا أضع ، ربانا : ربا عباس ابن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء ، فإنـكم أخـذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولـكم عليهن ألا يُوطِئن فرشَكم أحـداً تـكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُـبَرِّح ، ولهن عليـكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ، ولن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله ؛ وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قـد بلغت ، وأدّيت ، ونصحت . فقال بأصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ـ ثلاث مرات » .

* * *

لا خلاف بين العلماء فى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحج بعد ما هاجر من مكة إلى المدينة سوى حجة واحدة وهى حجة الوداع ، ولا خـلاف بينهم كـذلك فى أن هـذه الحجة كانت فى السنة العاشرة للهجرة .

فبعد أن مكث النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة تسع سنين لم يحج خلالها، اعتزم فى السنة العاشرة الذهاب إلى مكة لأداء الحج، فأعلم الناس بذلك، وأشاعه بينهم، ليتأهبوا له، ويتعلموا المناسك والأحكام، ولتنتشر دعوة الإسلام، وتبلغ القريب والبعيد.

وفى يوم السبت لست بقين من ذى القعدة - على أصح الأقوال - خرج من المدينة نهارا، بعد أن صلى الظهر بها أربعا، وخطب الناس خطبة علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه، وقد خرج معه خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله مد البصر، وقد قدرهم البعض بتسعين ألفا، وقدرهم آخرون بأربعة عشر ومائة ألف، وساروا حتى بلغوا ذا الحُليفة، فنزلوا بها، وأقاموا فيها ليلتهم، وأحرموا منها.

وفى اليوم الرابع من ذى الحِجة بلغ الحجيج مكة، فدخلها النبي صلى الله عليه وسلم نهارا من أعلاها، من الثَّنية العليا التى تشرف على الحجون، ولما دخل المسجد، عمد إلى البيت فاستلم الحجر الأسود وقبّله، وطاف بالبيت سبعا، فلما كان يوم التَّرْوية - وهو اليوم الثامن من ذى الحجة - توجهوا إلى منى وباتوا بها، وعندما طلعت الشمس، سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عرفة، فوجد القبّة التى أمر بها، قد ضربت له بنمرة (وهى قرية شرقىّ عرفات) فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القَصواء [1]، فوضع عليها الرحل، ثم سار حتى أتى بطن الوادى من أرض عُرنة، فخطب الناس وهو على الراحلة خطبة عظيمة، قرر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، على نحو ما أثبتناه من حديث جابر فى صدر هذه الكلمة.

وقد قال النووى عن هذا الحديث: إنه حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد، وهو من إفراد مسلم، لم يروه البخارى فى صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم.

---

(١) القصواء - بفتح القاف وبالمد: الناقة التى قطع طرف أذنها، وقيل: المقطوعة الأذن عرضا، والقصوى بضم القاف والقصر - كما جاء فى بعض الكتب - تحريف وخطأ.

وقال عنه القاضى عياض : وقد تكلم الناس على مافيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنّف فيه أبو بكر ابن المنذر جزءا كبيرا ، وخرّج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا ، ولو تقصّى لزيد على هذا القدر قريب منه .

وفى الحق أن هذه الخطبة — وخصوصاً النص الذى أخرجه ابن إسحاق — لم تتضمن فروعا من الفقه فحسب ، بل تضمنت كثيرا من أصول التشريع ، وضروب الإصلاح ، وفنون السياسة ، وشئون الاجتماع ، وتعرضت من قريب ومن بعيد لكل ما يتصل بمصالح الناس فى معاشهم وفى معادهم ؛ فهى تقرر - كما جاء فى رواية ابن إسحاق - تحريم المحرمات التى اتفقت الملل كلها على تحريمها ، وهى الدماء والأموال والأعراض ، وتشبهها فى حرمتها بحرمة يومهم وشهرهم وبلدهم ، وكان ذلك أمرا مسلماً به عندهم ؛ وتخبر أنهم سيلقون ربهم ، وأنهم مسئولون عن أعمالهم ، وأنهم مطالبون بأداء الأمانة إلى من ائتمنهم عليها ، وأن أمور الجاهلية كلها موضوعة ، وأن رباها باطل ، ودماءها مهدرة ؛ وتنبىء بيأس الشيطان من عبادته فى أرضهم هذه ، وبطمعه فى محقرات أعمالهم ، ومستصغرات أمورهم ؛ وتحذرهم منه على دينهم ؛ وتتحدث إليهم عن النسىء ، وزيادته فى الكفر ، واستدارة الزمان ، وعدة الشهور ، وبيان الحُرم منها وغير الحرم ؛ وتوصيهم بالنساء خيرا ؛ وتبين لهم الحق الذى لهن وعليهن ، والظروف التى يباح فيها للرجل تأديبهن ؛ كما توصى بالاعتصام بكتاب الله ، وسنة رسوله ؛ وتخبرهم أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين بهما ؛ وأخيرا تطالبهم بالسمع والفهم ، وبمعرفة أن المسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين جميعاً إخوة ، وأنه لا يحل للأخ من أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس منه ، وتأمرهم بالابتعاد عن الظلم .

فأنت ترى من كل هذه المبادىء والتعاليم ، والوصايا والإرشادات ، والحِكم والأحكام التى اشتملت عليها هذه الخطبة ، أنها يصح أن تعتبر بحق وثيقة إسلامية هامة ، وأن تعدّ من أوفى الوثائق ، وأجمعها لأحكام الدنيا والدين .

وإن المتتبع للسنة الصحيحة الواردة فى حجة الوداع ، يجد أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقتصر فى هذه الحجة على هذه الخطبة وحدها ، بل إنه لما رجع إلى منى

خطب النـاس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر ، وتحريمه وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمرهم بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وبأخذ مناسكهم عنه ، وبألا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وبالتبليغ عنه ، وقال لهم : اعبدوا ربـكم ، وصلوا خمسكم ، وصـوموا شهركم ، وأطيعوا صاحب أمركم ، تدخلوا جنة ربكم . وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة ، والأنصار عن يسارها ، وفتح الله له أسمـاع النـاس ، حتى سمعها أهل منى فى منازلهم . وكذلك لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على الخطب وحدها ، بل كانت هناك أيضا الإجابات الـكثيرة على الأسئلة التى كانت توجه إليه ، والبيانات المتعددة التى كان يبين فيها الأعمال والمناسك ، وما يتعلق بها من تقديم وتأخير وتمهل وتعجيل ، وترتيب ، وغيرها . وهكذا لم تنقض هذه الحجة حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرى النـاس مناسكهم ، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من الموقف ، ورمى الجمار ، والطواف بالبيت ، وما أحل لهم من حجهم ، وما حرم عليهم .

وقد سميت « حجةَ الوداع » لأن النبى صلى الله عليه وسلم ودَّع النـاس فيها وبعدها ، ولأنها كانت آخر حجة له . وسميت « حجة الإسلام » لأنه لم يحج من المدينة بعد فرض الحج غيرها . وسميت « حجة البلاغ » لأنه بلغ فيها الشرع فى الحج قولا وفعلا . وسميت « حجة التمـام والـكمال » لأن الله أكمل للناس فيها أمر دينهم ، وأتم عليهم نعمته . ويشهد لهذا أنه صلى الله عليه وسـلم لمـا وقف فى ذيل الجبل عند الصخرات ، ونزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » وأخذ يتلوها ، سمعه أبو بكر فبكى ، لأنه فهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تمت رسالته ، ودنا أجله .

عرض الحديث فيما عرض له ، إلى بيان حرمة سفك الدماء، وأخذ الأموال بالباطل ؛ وشبه ذلك فى التحريم بيوم النحر ، وبذى الحجة ، وبمكة ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنهـا محرمة أشد التحريم ، لا يستباح منها شىء ؛ وفى تشبيه هذا مع بيان حرمة الدماء والأموال تأكيد لحرمة تلك الأشـــياء التى شبه بتحريمها الدماء والأموال ، وهذا من تشبيه ما لم تجر به العادة بمـا جرت به العادة ، كما فى قوله

تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » ، إذ كانوا يستبيحون دماءهم وأموالهم فى الجاهلية فى غير الأشهر الحرم ، ويحرمونها فيها ، فكأنه قال : إن دماءكم وأموالكم محرمة عليكم أبدا كحرمة يومكم وشهركم وبلدكم .

ثم أشار الحديث بقوله : ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، إلى إبطال أفعال الجاهلية وردها ، وعدم تعويل الرسول عليها ، وبدأ من ذلك بإهدار الدماء ، وأولها دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هذا الابن طفلا صغيرا يحبو بين البيوت ، فأصابه حجر فى حرب كانت بين بنى سعد ، وبنى ليث بن بكر ، فقتله ، واختلفوا فى اسم هذا الابن ، والمحققون والجمهور على أن اسمه إياس . ثم ثنى بإبطال الربا ، وأول ما أبطل منه ربا عمه العباس ، والمراد به القدر الزائد على رأس المال ، كما قال تعالى . « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم » . ولقد كان هذا الصنيع من الرسول صلوات الله وسلامه عليه صنيعاً حكيما ، لأن الذى يدعو إلى الإصلاح ، ويتصدى للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ينبغى أن يطالب بذلك نفسه وأهله أولا ، ثم يطالب به غيره بعد ذلك ؛ فإن هذا أقرب إلى قبول دعوته ، والإذعان لفكرته ، خصوصا عند من قرب عهده بالإسلام .

ولم يغفل الحديث فى هذا المقام أمر المرأة ، والتنبيه على كثير من شئونها ، وبيان مالها وما عليها من حقوق وواجبات ، فحثَّ على مراعاة حقها ، وأوصى خيرا بها ، وأمر بمعاشرتها بالمعروف ، وأوجب نفقة الزوجة وكسوتها ، وضمان كل ما فيه كفايتها ومصلحتها ، وأشار الى أنها هى أيضا مطالبة نحو زوجها بالإخلاص له ، والأمانة فى عشرته ، والابتعاد بها عن مواطن الزلل ، وموارد الظِّنة ، وصيانتها عن كل شبهة تدخل على نفسه الوساوس ، وكل ريبة تسبب له الشكوك والأوهام ، فلا يحل لها أن تستخلى بالرجال ، ولا أن تأذن لأحد يكرهه الزوج فى دخول بيته ، والجلوس فى منزله ، سواء كان المأذون له رجلا أجنبيا أو امرأة ، أو أحداً من محارم الزوجة ، ولا يصح لها أن تأذن إلا لمن علمت أو ظنت أن الزوج لا يكرهه ، لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن فى ذلك منه ، أو ممن أذن له فى الإذن فى ذلك ،

أو عرف رضاه باطراد العرف فى ذلك ونحوه ، ومتى حصل الشك فى الرضا ، ولم يترجح شيء ، ولا وجدت قرينة ، لا يحل الدخول ، ولا الإذن .

وقال القاضى عياض : كانت عادة العرب حديث الرجال مع النساء ، ولم يكن ذلك عيبا ، ولا ريبة عندهم ، فلما نزلت آية الحجاب ، نُهوا عن ذلك.

وليس المراد الزنا فى قوله : ولكم عليهن ألاّ يُوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، لأن الزنا يوجب حدّها ، وهو حرام مع من يكرهه الزوج ومن لا يكرهه .

وقد أباح الشارع للزوج تأديب الزوجة بالضرب الغير المبرّح إن فعلت شيئاً من ذلك ، والضرب المبرِّح : هو الشديد الشاق .

والصحيح أن المراد بكلمة الله فى قوله : واستحللتم فروجهن بكلمة الله : إباحة الله ، والكلمة هى قوله تعالى : « فانكحوا ماطاب لكم من النساء » ، وقيل : المراد قوله تعالى : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، وقيل : المراد كلمة التوحيد ، وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإنه لا تحل المسلمة لغير المسلم ، وقيل : المراد بالكلمة الإيجاب والقبول ، ومعناه على هذا الكلمة التى أمر الله تعالى بها .

ثم عقّب الحديث ذلك كله ، ببيان أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد ترك بين المسلمين أمرا عظيما ، لو تمسكوا به ، واهتدوا بهديه ، واعتصموا بحبله ، وساروا على مقتضى أحكامه وحكمه ، لعز شأنهم ، وقوى سلطانهم ، وعلت كلمتهم ، وتحققت هدايتهم ، وظلوا فى مأمن من الفتن والضلالات ؛ وذلك الأمر هو القرآن الكريم ، كتاب الله الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وقد اخْتُتِم الحديث بسؤاله لهم عن موقفهم منه ، ومقالهم فيه ، وشهادتهم بشأنه حين يسألون عن ذلك ، فلما قالوا له : نشهد أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت فى كل ما جئت به قولا وفعلا ، أشار بإصبعه السبابة ، يقلبها ويرددها ، فيرفعها الى السماء تارة ، ويخفضها الى الناس أخرى ، ثم استشهد الله عليهم ثلاث مرات ، وأمرهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب .

الكتاب والميزان

هماسر الحياة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

قال الله تعالى : فى سورة الشورى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » وقال فى سورة الحديد : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقومَ الناسُ بالقسط » .

وهاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن شأن من شئون الله تعالى فى هذا الكون ، لولاه ما استقر نظامه ، ولا تمت عمارته ، ولأدركه الفساد ، وطواه الفناء ؛ ذلك هو سنة الله فى إنزال الكتاب والميزان .

وقد اختلفت أقوال المفسرين فى معنى الميزان ؛ فمنهم من فسره بالحقيقة اللغوية لهذا اللفظ ، فذكر أن المراد به هو تلك الآلة التى تعرف بها مقادير الأشياء ؛ ونسب هذا القول الى الحسن والضحاك وقتادة ، وقد رووا فى تأييد ذلك أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال : مر قومك يزنوا به ؛ كما رووا فى شأن الحديد الذى جاء ذكره فى قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافعُ للناس » ما ورد من أن آدم نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان ، والكلبتان ، والمقمعة ، والمطرقة ، والإبرة .

ولا يخفى أن هذا وقوف عند معانى الألفاظ المفردة ، وإهمال للمعنى التركيبى الذى جاء على المألوف فى كتاب الله عز وجل ، وفيما عرف من كلام العرب .

ومنهم من فسر الميزان بالعدل الذى شرعه الله ، وأمر به ، وجعله سببا فى استقامة الأحوال ، وبقاء الملك ، واطمئنان كل ذى حق على حقه ؛ وفى ذلك

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بالعدل قامت السموات والأرض » . وهذا هو قول الحسين بن الفضل ، ورجحه كثير من المفسرين .

ولا شك أن لكل من الميزان الذى هو آلة التقدير والمعادلة ، والميزان الذى هو العدل والقسطاس المستقيم ، شأنه فى نظام الحياة ، وما تستقر عليه أحوال الناس ؛ ولكن التعبير القرآنى فى هاتين الآيتين اللتين سقناهما يوحى بأن معنى آخر أجل من ذلك وأسمى وأبعد فى نظام الكون أثراً هو المراد ؛ فالآية الأولى تقول « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » . والكتاب كما يقول العلماء : جنس أريد به سائر الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله ليشرع لهم الدين ، ويبين لهم الحق ، ويأخذهم بالمنهج القويم الذى به يسعدون ؛ ولا شك أن البشر ما كانوا يستطيعون أن يستقلوا بإدراك الخير والشر والحق والباطل والصلاح والفساد ؛ لأن العقول تختلف ، والأهواء تتضارب ، والأزمان والبيئات تتفاوت ، وقد يكون الخير فى نظر قوم شراً فى نظر آخرين ، وقد يرى بعض الناس شيئاً من الأشياء حقا أو صلاحا ، ويراه غيرهم باطلا أو فسادا ، فلم يكن بد من هداية إلهية يقف أمامها العالم واثقاً مطمئناً راضياً لا يخالجه فى صحتها شك ، ولا يزلزله عنها تغير زمان أو مكان ، أو تقلب حال بعد حال . فالمنة بإنزال الكتاب ، وإرسال الرسالات الإلهية الى بنى الإنسان ، منة عظمى ؛ لأنها منة بتركيز الحياة على أسس ثابتة ، ومقاييس عادلة ، لولاها لظل بنو آدم فى عماية من أمرهم ، وتخبط فى شئونهم ، وتداول بين المذاهب البشرية التى لا تسلم من الأغراض والأهواء والأخطاء .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان من البعيد أن يذكر مع هذا المعنى الجليل ، والشأن الخطير ، شأن الميزان بمعنى آلة التقدير ، وأن يسلط فعل « أنزل » على الميزان بهذا المعنى كما سلط على الكتاب ؛ ومهما قال القائلون فى فوائد الميزان ونفعه للناس فى معاملاتهم وأخذهم وعطائهم ، وتحقيقه للعدل بينهم ، ونفيه للظلم والحيف ، فإن ذلك لا يكفى لأن يقرنه الله بالكتب والرسالات الإلهية فى الذكر ، ويعبر عنهما جميعا بما يفيد أنهما منه صدرا ، وبتدبيره وعلمه كانا .

أما التفسير الثانى، وهو تفسير الميزان بالعدل، فإن كان المراد بالعدل التسوية بين الناس فى الحقوق والواجبات ومنع الحيف والظلم، فذلك شأن عظيم، وتشريع حكيم، له أثره فى حياة الناس ومعيشتهم آمنين مطمئنين؛ ولكنه على ذلك معنى ضيق بجانب هذا التعبير القرآنى: فالعدل شرعة أمر الله بها، وواجب على الناس اتباعها، كسائر ما تضمنه الكتاب من الشِّرَع والأحكام والمناهج، وليس يكفى أن نقول: عطف الخاص على العام أو نحو ذلك مما يلجأ إليه لتصحيح أصل الكلام، وتكلف الدفاع عن معنى معين، أو أن نقول كما قال أصحاب هذا القول أنفسهم بأن معنى الميزان على هذا التفسير هو القرآن؛ فكأنه قال: أنزل الكتب السماوية وأنزل القرآن، بيانا لعظم شأنه واختصاصاً له بالذكر والتنويه على نحو ما قيل فى عطف جبريل وميكال على الملائكة فى قوله تعالى: «من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين».

وإن كان المراد بالعدل أمرا أبعد من ذلك هو الذى ينبغى أن يفهم من الحديث الذى ساقوه، وهو العدل الإلهى الصادر من الله بمعنى معادلة الأشياء وإعطاء كل شىء خلقه، وتوفية كل مستحق ما استحقه، فذلك هو المعنى الصحيح الذى ينبغى أن تحمل عليه الآيتان ويفسر به الميزان. بيان ذلك أن الميزان الذى أنزله الله هو التقدير المعلوم لكل شىء على حساب موافق للحكمة لا زيادة فيه ولا نقصان، وقد قامت السموات والأرض بهذا الميزان؛ فالسموات قد ضبط أمرها، وقدر شأنها بضابط إلهى من صنع الله الذى أتقن كل شىء، وليس لأحد من الخلق فيه شأن؛ والأرض كذلك أنشأها الله، وهيأ أسباب الحياة فيها، وقدر فيها أقواتها، وأنبت فيها من كل شىء موزون، أى مقدر حسب الحكمة، ووفقا لحاجة سكانها، وكل ذلك بفعل الله وحده، ولو اختل شىء من ذلك واضطرب الميزان فيه، لما بقيت الدنيا طرفة عين. وإنما مثل هذه الدنيا من سمائها وأرضها وهوائها وبحارها وجميع ذراتها، ما علمناه من أمرها وما خفى، كمثل بناء متماسك له قوانين تضبطه، وموازين تحكمه، عليها بقاؤه، وباختلالها أو أحدها يكون اضطرابه ثم فناؤه. ولما كان هذا الميزان من صنع الله وليس لأحد فيه شأن قل أو جل؛ قال الله

تعالى : « أنزل الكتاب بالحق والميزان » ليفهمنا أن الكتاب والرسالات الإلهية أمر تقضى به حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، وهى منه صادرة ، والى الناس نازلة ؛ كذلك الميزان والتقدير الذى دبرت عليه الكائنات ، وقامت به الأرض والسموات هو منه وبه ، ولولاه ما كانت الدنيا .

وكما يقال هذا فى الآية الأولى ، يقال فى الآية الثانية ، وهى قوله تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » فهى تتحدث عن نعمة الله فى اصطفاء فريق من خلقه يعهد إليهم بالرسالة إلى الناس ، ويهيئهم لهذه الرسالة بما يطبعهم عليه من الصفات العالية ، ويؤيدهم بالبينات ، ليعلم الناس صدقهم ، ويؤمنوا بهم ، وهو مع ذلك لم يتركهم لما منحهم من صفات وهيأهم عليه من طبائع شريفة ، ولكنه أنزل مع إرسالهم الكتاب وأنزل الميزان . وقد يفسر الإنزال حين يعدّى إلى الكتاب بمعنى الإيحاء ، وحين يعدّى الى الميزان أو الحديد بمعنى التهيئة والإنشاء كما فى قوله تعالى : « أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » ، ومهما يكن من شىء فقد جمع الله بين إنزال الكتاب ، وإنزال الميزان ، فلا ينبغى أن نفهم الميزان على معنى يضيق عما أسلفنا من التفسير والبيان .

الكتاب والميزان إذن هما أساس الحياة ، وفطرة الله التى فطر عليها هذا الخلق ، وبرأ بها هذا الكون ؛ وبعبارة أخرى : لا قوام للعالم إلا بالرسالات الإلهية التى جاد الله بها على خلقه هداية لهم وتعليما ، وأخذاً بأيديهم إلى السعادة والهناءة ، كما لا قوام له إلا بهذا الميزان المنضبط ، والتقدير السليم المحكم الذى قدر الله به جميع ما خلق ، وصان به الكون من الزوال والخلل والاضطراب ، وقد يلتقى مع هذا المعنى قوله تعالى فى آية أخرى « أعطى كل شىء خلْقه ثم هدى » إذا فسر بأنه منح كل شىء فى هذا الكون خواصه ومزاياه على تقدير حكيم ، ووزن سليم ؛ فللماء خصائصه بميزان وتقدير ، وللهواء خصائصه بميزان وتقدير ، وللجماد فى مختلف أنواعه خصائصه ، وللحيوان خصائصه ، وللشمس وللقمر وللنجوم خصائصها ... إلى غير ذلك مما خلق الله ، ثم هدى الناس إلى الحق والخير والجمال بما بعث فيهم من رسل ، وأنزل عليهم من كتاب .

أما بعد ، فإن الكتاب أمر ونهى ، وتحريم وتحليل ، ووعظ وتذكير ، وتربية للروح ، وإرشاد إلى المثل الطيبة ، والأخلاق الفاضلة ، وتنفير من الرذيلة ، وحث على الفضيلة ؛ والميزان هو مظهر الحكمة الإلهية ، والتدبير الربانى ، فيما نرى من غنى وفقر ، أو صحة وسقم ، أو ذكاء وغباء ، أو جمال وقبح ، أو سعادة وشقاء ؛ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه وزع الحظوظ ، وقسم القسم ، وخالف بين خلقه من الأشياء والأشخاص والأمكنة والأزمنة ، ففضل ماشاء على ماشاء ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، ولن يصلح أمر هذه الحياة إلا «بالكتاب والميزان» فكل نظام من النظم البشرية يقوم على أساس الرضوخ لهما ، والاعتراف بهما ، والوقوف عند حدودهما ، والرضا بحكمهما ، فهو نظام ناجح باق لأنه موافق للطبيعة والفطرة ، غير معاند لسنن الله التى أقام عليها هذا الكون ؛ وكل نظام يرفض هذين أوأحدهما ، ولا يرضى بهما أساساً له ، فيحاول أن يخرج على شرائع الله ، وأن يتعدى حدود الله ، أو يحاول أن يطغى فى الميزان ويعدل بزعمه أمر الله ؛ فهو نظام زائف مزلزل لابقاء له ، ولاحياة ، ولن يستقر معه قرار الناس ، ولو أيدته القوة ، ودعا له الدعاة «فأما الزبد فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» .

آداب عيادة المرضى

اعتل الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يزد على السلام عليه ، والدعاء له ، ويخفف فى الجلوس ، ثم يلقى حاجبه ، فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه ، وكان غيره يطيل عنده الجلوس . فلما أفاق الفضل من علته ، قال : ماعادنى فى علتى هذه إلا إسماعيل بن صبيح .

كان معاوية إذا أراد صرف جلسائه قال لهم : إذا شئتم ... وكان ابنه يزيد يقول : على بركة الله . وكان عبد الملك بن مروان يضع الخيزران من يده .

وعادة الملوك اليوم إذا أراد أحدهم صرف الجالسين عنده ، قام فيودعونه ، وينصرفون .

نظرات فى توثيق المعاملات المالية

بين الشريعة والقانون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

التوثيق الكتابى

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . . » الآية .

تعتبر هذه الآية الكريمة مفتاح الكلام ، على التوثيق فى الدين وحكمه فى نظر الشريعة .

وقديما شحذ العلماء لها أقلامهم ، وأفرغوا فيها جهودهم ، ومع ذلك لاتزال الأفهام فيها بين أخذ ورد ، لعدم استقرار الأولين عند رأى قاطع .

وقد عرضت الآية للدَّين وتوثيقه من نواح عدة ، فذكرتْ كتابة الدَّين ، وعدالة الكاتب ، وعدالة المملى ؛ وذكرت الاستشهاد على الدين ، وعدالة الشهود ، وما يتصل بذلك من الإشهاد على البيع ، وما يستثنى توثيقه . . . الخ .

وقصدى فى هذا الصدد أن أوازن بين آراء العلماء فى حكم الكتابة أولاً ، وأن أركن إلى ما أطمئن اليه من وجوه الرأى ، بعد توجيهه ما استطعت ، تاركا تفصيل الكلام على الشهادات والشهود إلى موضوعه .

قال القرطبى رحمه الله : وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت فى السلَم خاصة ؛ ومعناه : أن سَلَم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هى تتناول جميع المداينات إجماعا .. ثم زاد فقال : وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا والآخر نسيئة ؛ وذكر شواهد من الشعر العربى يزيد بها تفسيره للدين بما ذكر .

فالذى يفيده كلام القرطبى أن أهل المدينة كانوا يتعاملون بالسلم ، وهو كما نعلم

يشتمل حتما على الأجل فى الثمن . والظاهر أن الخلاف كان يقوم بين المتعاملين ويحدث بينهم ما يأباه الإسلام من تنازع . فرفقا بالناس أقرهم الدّين على هذا النوع المعهود بينهم ، ونظمه لهم بما يكفل الغرض المرجو منه ، فأمرهم بكتابته والاستشهاد عليه ، على نحو ما أوضحت الآية .

غير أن الحكمة التى اقتضت كتابة دين السلم تتوفر فى غيره من الديون ؛ لذلك جاء لفظ الدين عاما فى السلم وفى غيره ، ومن هنا عمم العلماء فى مفهوم الدين ، حتى كان إجماعا على ذلك ، كما يحكى القرطبى ؛ وهـذا التعميم مصداق القاعدة المشهورة لدى المفسرين : العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

ثم انتقل القرطبى بعدما سلف الى تفسير قوله تعالى « فاكتبوه » فجعل ضمير المفعول عائدا على المذكور من الدين والأجل معاً ، وجعل الأمر بالكتابة يتناول الإشهاد على الدين فى الكتاب ، وعلل هـذا بأن الكتابة من غير إشهاد لا تكون حجة . وكان القرطبى فى غنى عن هذا ؛ لأن الإشهاد مأمور به صراحة فى قوله سبحانه : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ... » .

ثم قال القرطبى : فى قوله تعالى : « فاكتبوه » إشارة ظاهرة الى أنه يكتبه بجميع صفته المبينة له ، المعربة عنه ، للاختلاف المتوهم بين المتعاملين ، المعرفة للحاكم بما يحكم به عند ارتفاعهما اليه . اهـ .

فحاصل ما ذكره القرطبى : كتابة الدين وأجله مع الإشهاد على الكتاب ، وتضمينه جميع الصفات التى تدفع ما يخشى من خلاف ، وتنير للحاكم طريق الحكم فيه .

وقد عرض القرطبى بعد ذلك لتفسير الأمر بالكتابة ، وبيان حكمها شرعا فى توثيق الديون ، فذكر أن الأمر للوجوب عند بعض العلماء ، وأنه على ظاهره لم يصرفه صارف ، ويكون التوثيق الكتابى عند هـؤلاء واجباً ، كما أن الإشهاد على البيع واجب عندهم . ثم ذكر رأى الجمهور بحمل الأمر على الندب ، وانتصر له بقوله : وهذا هو القول الصحيح (ص ٣٨٣ ج ٣) .

ولم يذكر القرطبى عن أحد الفريقين تفريقا بين الدين الخطير وغيره ،

وهذا يؤذن منه ومنهم بأن الكلام على الدين عامة . ويتفق معه فى كل ذلك كلام الجصاص إذ يقول : « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى » : ينتظم سائر عقود المداينات التى يصح فيها الآجال . وكرر هذا الكلام مرة أخرى ، ومثّل بقوله : فمن اشترى داراً أو عبداً بألف درهم إلى أجل ، كان مأموراً بالكتابة والإشهاد بمقتضى الآية . ثم تناول الجصاص قوله تعالى : « تداينتم بدين » ، فذهب إلى أن لفظ « تداينتم » مشترك لفظى بين معنيين ؛ فهو يحتمل معنى تجازيتم من المجازاة ، ومعنى تعاملتم بالدين ؛ ويرى أن لفظ « بدين » جاء لدفع الاشتراك ، وقصر اللفظ على المعاملة بالدين . ثم عرض الجصاص — كما عرض القرطبى — لبيان حكم الكتابة والإشهاد فى توثيق الدين ، ففرض فى الآية احتمالين :

أحدهما : أن تكون الأوامر الثلاثة فى قوله تعالى : « فاكتبوه ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، وأشهدوا إذا تبايعتم » محمولة على الوجوب ، حتى نسخ ذلك الوجوب بقوله سبحانه : « فإن أمن بعضكم بعضاً ، فليؤد الذى اؤتمن أمانته » ، فإن فى هذا الجزء الأخير تحليلا مما كان واجبا .

الاحتمال الثانى : أن تكون الأوامر الثلاثة نزلت مع الجزء الأخير دفعة واحدة ، فلا نسخ إذن ، لما هو معروف من أن الناسخ لا يجتمع مع منسوخه فى زمن واحد . وعلى تسليم هذا الاحتمال فى نظره لا تكون الأوامر الثلاثة مفيدة للوجوب ، لاقترانها بما يصرفها عنه إلى الندب ، وذلك الصارف هو قوله عز شأنه : « فإن أمن بعضكم بعضاً . . . » الآية .

وخرج الجصاص من هذين الاحتمالين إلى أن تاريخ النزول غير معروف ، حتى نجزم بأحد الوجهين ، ثم رتب على عدم العلم بتاريخ النزول وجوب الحكم بورود الكل دفعة واحدة ، إذ قال : فلم يرد الأمر بالكتابة والإشهاد إلا مقرونا بقوله تعالى : « فإن أمن بعضكم بعضا » الخ .

وانتهى الى نتيجة حتمية فى اعتباره ، وهى أن الأمر بالكتابة والإشهاد ندب غير واجب .

وعندى أن الجصاص فى أسلوبه متهافت على القول بالندب ، وأن منهجه

فى القول لا يصل به إلى نتيجته ، إذ أن الجهل بتاريخ النزول ، لا يستلزم الحكم بنزول الكل دفعة واحدة ، لقيام الاحتمال أن تكون مفرقة فى نزولها ، حتى لو كان الجهل بتاريخ النزول مستلزما لما يقوله ، لما تحتم أن يكون الجزء الأخير « فإن أمن بعضكم » صارفا للأمر عن الوجوب ، بل يظل الأمر فى كل منها على الأصل فيه ، ويكون الجزء الأخير متجها الى ناحية غير ناحية الكتابة والإشهاد ، فلا يكون صارفا ولا ناسخاً لما تفيده الأوامر الثلاثة من الوجوب ، فلا وجه لتحكم الجصاص فيما رآه .

ذلك موقف القرطبي والجصاص ، من التوثيق الكتابى وحكمه ؛ وقد حذا حذوهما كثير من المفسرين : كابن كثير ، والألوسى ، وكذلك جمهور الفقهاء من علماء المذاهب .

وذهب آخرون إلى القول بالوجوب ، ومنهم ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وانتصر لهذا الرأى فى قوة . وعليه من الفقهاء مذهب الظاهرية ، وجنح إليه وارتضاه الأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولكل من الفريقين أدلة يستند إليها .

فأدلة الجمهور ثلاثة : الأول ما تقدم نقله عن القرطبي والجصاص، وموافقيهما من قوله تعالى « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته » فإن معناه عندهم إن توفرت الطمأنينة بينكم وائتمن بعضكم بعضا من غير توثيق ، فعلى المؤتمن أن يؤدى أمانته التى فى عهدته ، ولا يتحتم التوثيق الكتابى ولا غيره ؛ فإن فرضنا الآية نزلت مفرقة كما هو أحد الاحتمالين ، فالوجوب المستفاد من أولها منسوخ بآخرها ، فلا تفيد حينئذ أكثر من الندب . ويؤيد هذا الفهم عندهم ما روى عن أبى سعيد الخدرى ، ووافقه عليه آخرون ، فقد صرح أبو سعيد فى صدد هذا بقوله : صار الأمر إلى الأمانة ، ثم تلا قوله تعالى : « فإن أمن بعضكم بعضا » الآية (ص ٤٨١ ج ١ جصاص ، ص ٣١١ ج ٤ مغنى ابن قدامة) . وإن فرضنا الآية نزلت دفعة واحدة فقد بين آخرها أولها من أول الأمر ، بأنه للندب .

الدليل الثانى للجمهور : أن النبى صلى الله عليه وسلم اشترى من أعرابى فرساً فجحده الأعرابى حتى شهد له خزيمة بن ثابت ، واشترى من رجل سراويل ، ولم ينقل أنه أشهد فى شىء من ذلك .

دليلهم الثالث : أن الصحابة كانوا يتبايعون فى الأسواق ، فلم يأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالإشهاد ، وأن التعامل بالدين مما يكثر ، فلو كان الكتاب والإشهاد واجباً ، لكان فيه أولاً حرج ، والحرج منفى شرعا بنص القرآن ؛ وثانيا : كان ينقل إلينا عمن مضى ، فضلا عن أن فقهاء الأمصار متفقون على أن ما أمرنا به فى آية الدين من الكتاب والإشهاد والرهن ، من قبيل الإرشاد إلى مافيه الحظ والصلاح للدين والدنيا (ص ٤٨٣ جصاص ، ص ٣١١ ج ٤ مغنى) .

وكذلك استدل القائلون بالوجوب بثلاثة أدلة :

الأول : أن الأمر ورد صريحا بكتابة الدين والإشهاد عليه ، والأصل فى الأمر الوجوب ، ما لم يرد ما يصرفه إلى الندب ، وحيث لم يوجد صارف له هنا فالوجوب مقطوع به عندهم .

الثانى : أن السنة وردت بذلك ؛ فقد روى أبو بردة عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سفيها وقد قال تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ، ورجل له على رجل دين لم يشهد عليه » (صفحة ٣٤٤ ج ٨ المحلى) .

ووجه الدلالة فى هذا أن الحرمان من قبول الدعاء نقمة ، والنقمة لا تكون إلا على معصية .

الدليل الثالث : ما روى من الآثار ؛ فقد روى مجاهد أن ابن عمر رضى الله عنهما كان إذا باع بنقد أشهد ، وإذا باع بنسيئة ، كتب وأشهد (ص ٣٤٤ ج ٨ المحلى) .

تلك خلاصة الأدلة للقائلين أولا بالندب فى التوثيق ، ثم للقائلين ثانياً بالوجوب ؛ وكلها لا تسلم من المناقشة فيما بينهم ، وهى مناقشة مع طولها لم تحسم الخلاف ، ولا أرى فى ذكرها إلا تطويلا فى اللجاج ، إذ لم تنته بأحد الفريقين إلى رأى الآخر ، ولم تزل المسألة بحاجة إلى الاجتهاد بين مذهبيهما ، وترجيح ما يتضح صوابه ومعقوليته ، أو الاتجاه إلى رأى ثالث . وهذا يقتضى بحثاً آخر . ولعلنا نوفق إليه إن طال بنا الأجل .

طرف من مقاصد القصص القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

يقص علينا كتاب الله الذى لا ينطق إلا بالحق ، من مواقف موسى عليه السلام فى سبيل دعوته ، وتبليغ رسالته ، وتأييد الله له بالمعجزات الباهرات – الشىءَ الكثير ؛ فمن ذلك حين قال له فرعون : « إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » فأبى فرعون ، وجمح فى غوايته ، وأنكر الواقع ، وأبرز ذلك فى صورة تثير سخط القبط على موسى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ، ونسى ما قدمت يداه » . ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى ، فجمع السحرة وأدواتهم ، وأتى فى الموعد المضروب بينهما ، فأسدى موسى عليه السلام خالص النصح ، وحذرهم عذاب الله وغضبه ، فأحفظهم ذلك ، وأثار غضبهم ، فأخذوا يتشاورون فى كيفية المعارضة ، وأسروا النجوى بقولهم : هذان ، أى موسى وهرون ، ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرض مصر ، ويذهبا بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم وارموا عن قوس واحدة ، ثم ائتوا مصطفين ، ليكون ذلك أدخل فى استجلاب الرهبة ، وأوغل فى إدخال الذعر ، فماذا كان ؟

ألقوا حبالهم وعصيهم ، فى ضحوة النهار ، وحشد من الناس ، بعد أن لطخوها بالزئبق ، فصارت بتساقط ألسنة الشمس عليها ، تهتز وتضطرب ، حتى خيل إلى موسى عليه السلام أنها حية تسعى ، وليس من شك فى أن هذه الحالة المفاجئة ، توقع فى الرعب والخوف ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أيده بروح من عنده ، وطمأنه وأمره أن يلقى عصاه ، فألقاها فإذا هى ثعبان يفغر فاه ، ويلتقم حبالهم ، وعصيهم ، حتى يأتى على آخرها !

أدرك السحرة إذ ذاك أن هذه آية من آيات الله ، وليست من باب السحر لا من قرب ولا من بُعد ، فسجدوا لله ، وآمنوا به عن إخلاص فى العقيدة . قال الأخفش : قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ! فتوعدهم فرعون بالتنكيل والعذاب الأليم ، فما أعاروا لذلك أهمية ، وقالوا : « إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » .

وقد حكى الله ذلك بقوله : « ولقد أريناه آياتنا كلَّها ، فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سُوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشَر الناس ضُحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ، فيُسحتَكم بعذاب ، وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ، ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقفْ ما صنعوا إنما صنعوا كيدُ ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجدا ، قالوا آمنا برب هرون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمُن أينا أشد عذابا وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » .

فأنت ترى كيف صورت هذه القصة باطلهم بصورة أماطت عنه اللثام ، وكشفت ستره ، وجعلته ينادى على نفسه بنفسه : إنه تمويه وتضليل ، ليس له ثوب يحميه ، ولا أصل يعتمد عليه ، وأبرزت الحق فى ثوبه الصحيح ، ومخايله التى تهدى إليه ، وقد توثقت عراه ، واشتدت قواه ، بسلطانه القوى المتين .

أفادت هذه القصة أن الباطل إن وجد له أنصاراً وأعوانا ، فهو أمام الحق لاتثبت له قدم ، ولا يجبر وهيه ، ولا تقوى له شكيمة وعزيمة ؛ فهؤلاء هم السحرة قد أجمعوا كيدهم ، وأحكموا أمرهم ، رجاء أن ينالوا الأجر والحظوة الكبرى لدى فرعون ، ولكنهم لما انبلجت لهم الحقيقة ، وقام الحق على أقدامه ، ثابت الوطائد ، مشيد الأركان ـ ألقوا السلاح ، وخروا لله سجداً ، وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

وأفادت أن العقيدة السليمة ، إذا رسخت فى النفوس ، وحلت فى القلوب ، لاتزحزحها كوارث الأعداء عن مكانها الذى حلت به ، وبسطت رواقها عليه ، ولا يزعجها إبراق ولا إرعاد ، ولا نصل ذى القوة والسلطان : فهؤلاء هم السحرة ، توعدهم فرعون بالقتل والصلب ، وليس عذاب أنكى وأشد وأعنف من ذلك ، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا ، بل استهانوا بكل هذا واستعذبوه ، ولم يتحولوا عما اعتقدوه ؛ وفى ذلك تنبيه وإرشاد إلى وجوب تعرف الأمور على حقيقتها ؛ والتمسك بالحق متى استنار سبيله ؛ والاقتداء بهؤلاء الذين نالوا الدرجات العلى .

أرشدت هذه القصة إلى أن الشعوذة ـ وإن أشبهت المعجزة فى الصورة ـ لكن ما يجريه الله سبحانه وتعالى على أيدى أنبيائه ورسله ، تأييداً لدعوتهم ، وتصديقاً لرسالتهم ، لا سبيل إلى أن يأتى الإنس والجن بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ؛ وإن فى ذلك لبياناً شافيا ، وحدا فاصلا ، بين متشابهات الأمور ، فيأمن من هداه الله للتى هى أقوم ، وبصّره بما هو خير وأنفع ، العثار وزلات الأقدام ، وأن يأتى ربه مجرما .

ولذلك اقتضت حكمة الله البالغة أن تكون المعجزة التى يؤيد بها رسله ، من جنس ماحذق فيه القوم المرسل إليهم ، وبرعوا فيه ، حتى إذا ماتحداهم الرسول وعجزوا ، كان ذلك أدعى إلى الإيمان والتصديق ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

ومن هنا نستطيع أن ندرك الحكمة فى إنزال الله ملكين ببابل ـ هروت وماروت ـ يعلمان الناس السحر ، وهى : من علم السحر وعرفه ، تيسر له أن يفرق بينه وبين المعجزة ، فيأمن من السقوط والوقوع بين براثن المشعوذين ، الذين يزعمون أنهم رسل من عند الله .

وتوضيحاً لذلك نقول: قال الله تعالى: «واتَّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين، ببابل: هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد، حتى يقولا إنما نحن فتنة، فلا تكفر» الآية.

يذكر الله سبحانه وتعالى بذلك نوعا من قبائح اليهود؛ وهو اشتغالهم بالسحر، وتمحضهم فيه، واتباعهم كتب السحرة، التي كان يقرؤها عليهم المتمردون من الشياطين في عهد ملك سليمان. قيل كانت الشياطين تسترق السمع، ويضمون إلى ماسمعوا أكاذيب يلقونها إلى الكهنة، وهم يدونونها ويعلمونها الناس؛ وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام، حتى قيل إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم له ملكه إلا بهذا العلم، وبه سخر الإنس والجن والطير والريح. وقد نزه الله سبحانه وتعالى ساحة سليمان من ذلك، وكذب من افترى ذلك وعزاه إليه، بقوله: «وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا»، باستعمال السحر وتدوينه، وتعليمه للناس، إغواء وإضلالا. ويعلمون الناس كذلك ما أنزل على الملكين ببابل: هاروت وماروت، وهما ملكان أنزلا لتعليم الناس السحر، تمييزاً بينه وبين المعجزة؛ لأن السحرة كثرت في ذلك الزمان، واستنبطت أبواباً غريبة من السحر، وكانوا يدّعون النبوة، فبعث الله هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر، حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين، وإظهارهم أمرهم للناس.

ولما كان هذا يلزمه أن يكون الله سبحانه وتعالى هو المنزل للسحر، وكيف يضاف إليه ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب؟ وهل السحر إلا الباطل المموه، وأن الملائكة تتعاطى تعليمه، وهو كفر، لقوله تعالى «ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» فلا يصح أن تتعاطاه، وأنه كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر، فكذلك في الملائكة بطريق الأولى — لما كان ذلك، رأى بعض العلماء أن (ما) في قوله تعالى: «وما أنزل على الملكين»، نافية، والجملة معطوفة على قوله تعالى: «وما كفر سليمان»، وكذلك «ما» في قوله: «وما يعلمان من أحد» نافية أيضاً، أي لم يكفر سليمان، ولم ينزل

على الملكين سحر ، ولم يعلماه أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة وابتلاء فلا تكفر ، بل ينهيان عنه أشد النهى ، ويحذران منه . (وفى هذا مقال لسنا بصدده الآن).

وإنك لترى من بين ثنايا هذه القصة مع ما اشتملت عليه من جمال التصوير حينما تتلوها أو تتلى عليك ، كيف تنتقش فى الذهن وتنطبع فى النفس مغبة أمر السحر ، وعاقبته التى تنذر بالحسرة والخسران المبين .

وبعد : فالسحر إظهار أمر خارق للعادة من نفس شريرة خبيثة ، بمباشرة أعمال مخصوصة يجرى فيه التعليم والتعلم . وبذلك يفارق المعجزة والكرامة . لذلك كان رأى جمهور العلماء فى شأنه أن له حقيقة ثابتة فى الخارج ، وأن له تأثيراً فى القلوب بالحب والبغض ، وبإلقاء الشرور ، حتى يحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام ، وعظيم الأسقام ، وكل ذلك مدرك بالحس والمشاهدة ، وإنكاره عناد ومكابرة .

وترى المعتزلة أنه لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل ، ومجرد إراءة ما لا حقيقة له ، بدليل قول الله تعالى « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

وغير خاف أنه أمر ممكن فى نفسه ، ومشمول لقدرة الله تعالى ؛ لأنه الخالق لكل شىء ؛ والساحر ما هو إلا كاسب ؛ وأن قول الله تعالى : « ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » - واضح الدلالة فى أنه أمر ثابت ، وأن له حقيقة فى الخارج .

وقد روى ابن عباس وعائشة رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودى وبناته ، وهن النافثات فى العقد ؛ قال أبو عبيدة : النفاثات فى قول الله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » هن بنات لبيد بن أعصم اليهودى ، سحرن النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذا لا يفضى إلى القدح فى نبوته عليه السلام ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما كان ليسلط عليه شيطانا إنسيا ولا جنيا ، يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله ، وأما الإضرار به من حيث بشريته وبدنه فلا بعد فيه ؛ لأنه يعرض له من حيث بشريته ما يعرض لسائر البشر من الصحة والمرض والموت والأكل والشرب .

ألا ترى إلى أن رَباعيته قد كسرت فى غزوة أحد ، ولم يقدح ذلك فيما ضمنه الله سبحانه وتعالى له من العصمة بقوله « والله يعصمك من الناس » : بل فى ذلك دلالة ظاهرة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة معجزاته ، وكذب من نسبه إلى السحر والكهانة لأن سحر الساحر عمل فيه واعتراه نوع من المرض ، ولم يعلم أن ذلك ناجم عن السحر وأثر من آثاره ، حتى دعا ربه ، فنزل جبريل فأخبره بموضع السحر ، وبمن سحره ، ولو كان مايظهره الله من المعجزات الخارقة للعادات من باب السحر - على مازعم أعداؤه - ما اشتبه عليه الأمر ، ولتوصل إلى دفعه من عنده ؛ وهذا دليل من دلائل صدقه ، وآية كبرى من آيات نبوته ، صلى الله عليه وسلم ، وهدانا إلى الحق وسبيله القويم ؟ يتبع

قراء القرآن

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « سيكون فى أمتى قوم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، هم شر الخلق والخليقة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الزبانية لأسرع إلى فساق حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان ، فيشكون إلى ربهم ، فيقول : ليس من علِم كمن لايعلم » .

وقال الحسن : حملة القرآن ثلاثة نفر : رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيع حدوده ، واستدرّ به الولاة ، واستطال به على أهل بلده - وقد كثر هذا الضرب من حملة القرآن - لا كثرهم الله عز وجل ! ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وهملت عيناه ، وتسربل الخشوع ، وارتدى الوقار ، واستشعر الحزن ، ووالله لهذا الضرب من حملة القرآن ، أقل من الكبريت الأحمر ! بهم يسقى الله الغيث ، وينزل النصر ، ويدفع الأعداء .

فلسفة (تتمة)

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

إذا جئنا إلى التراث الإسلامى ، الذى تركه لنا أصحاب المعاجم والمفكرون والفلاسفة المسلمون ، لنعرف معنى كلمة « فلسفة » وما صَدَقَها ، نرى أنهم كثيرا ـ وبخاصة أول عهدهم بالتأليف ـ كانوا يستعملون كلمتى حكمة وحكيم ، فى معنى فلسفة وفيلسوف . ولعل مرجع هذا أن كلمة « حكمة » وردت فى القرآن على معنى أنها أشرف ما يؤتيه الله الإنسان من خير ، وكذلك كانت كلمة فلسفة لدى القدماء من اليونان تدل على أشرف معلوم .

وبعد أن قرأ المسلمون كتب فلاسفة اليونان التى نقلت إليهم ، أيام الخليفة المأمون ، ومن قبله أيضاً أيام الأمويين ، ووقفوا على تراثهم العظيم فى سائر نواحى التفكير ، أخذوا يكتبون فى الفلسفة ، وبدءوا بلا ريب بتعريفها ؛ ومن هذه التعاريف ، فى جملتها ، نستطيع أن نتحقق أن الفلسفة بقيت فى معناها ومدلولها لدى المسلمين على ما كانت عليه لدى اليونان ، وأنه لم يكن من حظ فلاسفة الإسلام أن أعطوا للفلسفة معانى جديدة كالتى نراها لها فى أوروبا ، وبخاصة فى العصر الحديث .

١ ـ فالكندى ، كما نقل ابن نباتة المصرى فى كتابه : « سرح العيون » ، يذكر أن الفلسفة ثلاثة علوم ، لأن المعلومات ثلاثة : علم الحس ، وهو ذوات الهيولى ، وهذا هو العلم الطبيعى ؛ وما يتصل بالهيولى ـ وإن كان ينفرد بذاته ، وهو علم الرياضيات ـ فإن المرء يستطيع أن يتصور بذهنه العدد مجرداً عن

المعـدود ؛ وما لا يتصل ألبتة بالهيولى ، أى لا فى الواقع ، ولا فى التصور ، وهو علم الربوبية .

وفى رسالته الى المعتصم بالله العبـاسى ، فى الفلسفة الاولى ، نشْر صـديقنا الدكتور الأهوانى ، يذكر الـكندى « أن أعلى الصناعات منزلة وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة ، التى حدُّها علم الأشياء بحقائقها بقدر الطاقة الإنسانية . . »

ومن هذا وذاك ، نرى الـكندى يتابع أرسطو فى جعل الفلسفة معرفة كل أنواع العلوم ، وفى تقسيمها الى نظرية وعملية .

٢ — ثم جاء الفـارابى يذكر فى كتابه « الجمع بين رأيى الحكيمين » أن الفلسفة هى العلم بالموجودات بمـا هى موجودة . وفى كتابه « التنبيه على سبيل السعادة » يقسم الفلسفة الى نظرية ، وهى علم التعاليم (أى الرياضيات) ، والعلم الطبيعى ، وما بعد الطبيعيات ؛ وإلى مدنية ، وهى علم الأخلاق ؛ وإلى سياسية ، وهى علم السياسة التى يساس بها أهل المدن .

على أنه فى رسالته : « ما ينبغى أن يُتَقـدّم قبـل تعلّم فلسفة أرسطو » ، نراه يوشـك أن يقصر الفلسفة على ما بعـد الطبيعيات ، أى على الفلسفة الإلهية وحدها . (يراجع ص ١٣ من الرسالة المذكورة طبع المطبعة السلفية بمصر) .

٣ — وإخوان الصفا الذين ظهرت رسائلهم الفلسفية فى القرن الرابع الهجرى ، يقولون (ح ١ : ٢٣ طبعة مصر ١٩٢٨ م) : « الفلسفة أولهـا محبة العلوم ، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية ، وآخرها القول والعمل بمـا يوافق العلم » . وهى عنـدهم أربعة أنواع : الرياضيات ، المنطقيات ، الطبيعيات ، والإلهيات .

ومن هنا نجد أنهم لا يقسمون الفلسفة إلى نظرية وعملية كما صنع الفارابى ، ومن حـذا حذوه من بعده ؛ ثم إنهم ، فى تعداد أنواع الفلسفة الإلهية ، نراهم يجعلون الأخلاق نوعا منها .

٤ — والخُـوارَزمى ـ وإن لم يـكن من الفلاسفة ـ إلا أن كتابه « مفاتيح العلوم » يعتبر مقدمة لابدّ منها لدراسة العلوم الإسلامية . فى هذا الـكتاب يرى

أن معنى الفلسفة علم حقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصلح ؛ وإذن تكون نظرية وعملية .

والجزء النظرى ثلاثة أقسام ؛ وذلك — كما يقول بحروفه ص ١٣٢ من طبعة أوربا — أن منه ما الفحص فيه عن الأشياء التى لها عنصر ومادة ، ويسمى علم الطبيعة ؛ ومنه ما الفحص فيه عما هو خارج عن العنصر والمادة ، ويسمى علم الأمور الإلهية ؛ ومنه ما ليس الفحص فيه عن أشياء لها مادة ، لكن عن أشياء موجودة فى المادة ، مثل المقادير والأشكال والحركات ، وما أشبه ذلك ، ويسمى العلم التعليمى أو الرياضى .

والفلسفة العملية ثلاثة أقسام أيضا : أحدها تدبير الرجل نفسه أو واحداً خاصاً ، وهذا علم الأخلاق ؛ تدبير الخاصة ، ويسمى تدبير المنزل ؛ والثالث تدبير العامة ، وهو سياسة المدينة والأمة والملة . وأقول : إن هذا القسم الثالث هو ما يصح أن نسميه اليوم « فن الحكم » .

٥ — وابن سينا فى هذا السبيل لا يكاد يخرج عن الفارابى ، إلا أنه يزيد عنه بالتوضيح والتمثيل لما يريد بيانه .

ففى رسالة الطبيعيات من مجموع رسائله المعرفة المنشورة بمصر والقسطنطينية يذكر أن الحكمة : استكمال النفس بإدراك الحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة .

والحكمة النظرية هى الطبيعية التى موضوعها الموجود ذو المادة من حيث ما يتغير ويتحرك ، والرياضية ، وموضوعها مخالط للمادة ، وإن كان من شأنه أن يجرده الذهن عنها وعن التغير ؛ ثم الفلسفة الأولى ، وموضوعها ما وجوده مستغن عن المادة والتغير مطلقاً ، والفلسفة الإلهية جزء منها ، وهى معرفة الربوبية .

أما الحكمة العملية ، فهى الحكمة المدنية أو السياسية ، والحكمة المنزلية ، والحكمة الخلقية .

وفى الكلام عن الفن الثانى عشر من كتاب الشفاء فى الإلهيات ، وذلك عشر مقالات ، يذكر فى الفصل الأول من المقالة الأولى أن العلوم الفلسفية

تنقسم الى النظرية والعملية ، ثم يبين أن ما بعد الطبيعة ، التى هى القسم الثالث من أقسام الفلسفة النظرية ، تشمل الإلهيات وغيرها ، وسميت بالإلهية أحيانا باسم أشرف موضوعاتها ، وتسمى أيضاً بالفلسفة الاولى .

بعد ذلك يتبين أن الشيخ الرئيس يرى أن الفلسفة بالحقيقة هى الفلسفة الأولى ، وهى التى تفيد تصحيح مبادىء الفلسفة الطبيعية والفلسفة التعليمية أو الرياضية ، ثم المسائل الإلهية . وبهذا يكون ابن سينا قريبا جداً من شيخه الفارابى ، فى أن الفلسفة بالحقيقة هى الفلسفة الأولى ، أو ما بعد الطبيعة ، التى أهم موضوعاتها المسائل الإلهية .

وفى سبيل توضيح أن الفلسفة الأولى تفيد تصحيح مبادىء الفلسفات الأخرى ، يذكر ابن سينا فى الفصل الثانى من تلك المقالة الأولى : أن موضوع العلم الطبيعى هو الجسم من جهة ما هو موضوع للحركة والسكون ؛ وأما من جهة ما هو موجود ، ومن جهة ما هو جوهر ، ومن جهة ما هو مؤلف من الهيولى والصورة ـ ذلك ونحوه ، من مسائل ما بعد الطبيعة أو الفلسفة الأولى . وكذلك العلم الرياضى موضوعه إما مقدار أو عدد ، مجرد فى الذهن عن المادة ، أو مأخوذ فى الذهن مع مادة ؛ وأما إثبات المقدار والعدد بما هما موجودان ، وكيف وجودهما ، سواء كان كل منهما مجرداً أو فى مادة ـ ذلك ونحوه ، من مباحث علم ما بعد الطبيعة .

* * *

وأخيراً ، بعد استعراض تعاريف الفلسفة فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، فى هذه المقالة والمقالة التى سبقتها ، وبعد استقلال علم النفس وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع ـ نستطيع أن نقرر أن الفلسفة هى التفكير الحر فى الإله والكون ، أو هى معرفة حقائق الموجودات وعللها التى تنتهى لعلة أولى لكل الموجودات ، ما نرى منها ، ومالا نرى ؟

لغويات

الكتّاب للمكتب أو موضع تعليم الصبيان

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

وقع السؤال عن الكُتّاب لموضع تعليم الصبيان . وهو استعمال شائع من قديم ، ويجمع على كتاتيب . والذى دعا الى الشك فى عربيته أنه على صيغة جمع الكاتب ، وليس على صيغة المكان كالمكتب والمدرسة . والرأى أن الكتّاب فى هذا المعنى عربى تقوم عليه الشواهد اللغوية . فقد جاء فى كتاب العين [1] : « والمكتب والكتّاب موضع تعليم الكِتاب » وقوله الكتاب يريد الكتابة . والعين ينسب الى الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، أو الى تلميذه الليث ، وهو أقدم كتاب فى اللغة ، وتراه سجل هذا المعنى للكتّاب ، وفى هذا دليل على أن هذا المعنى كان متعارفا للكلمة فى أيام مؤلفه ، وهو قريب من عصر الاحتجاج ، ويغلب على الظن أنه كان معروفا قبل ذلك . وقد تبع [2] صاحب العين الأزهرى والجوهرى والصاغانى فأثبتوا للكتّاب المعنى المشهور . وخالف عن هذا أبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ فأنكر أن يكون الكتاب لموضع التعليم ، وإنما الكتّاب عنده لا يعدو أن يكون جمع كاتب . والمبرد فى هذا متأثر بمزاجه اللغوى ، ونظره القياسى ؛ فالكتّاب صيغة جمع كالصُّوَّام والقوام ، فلا تكون للمكان . وتراه يقول فى هذا : « [3] والكتاب : للصبيان ، ومن جعل الموضع الكتاب فقد أخطأ » ، وهذا صحيح بحسب الوضع الأصلى ، ولكن الشىء قد يطلق على ماله علاقة به ، وقد يشيع هذا فى اللغة حتى يلتحق بالحقيقة . فالكتاب — وأصله للصبيان يتعلمون فى المكتب — يطلق على المكتب نفسه لعلاقة المحلية أو المجاورة ، كما

---

(١) المخصص لابن سيده ، ج ١٣ ص ٤ . (٢) راجع شرح القاموس . (٣) انظر اللسان .

يقال : حضرت من مشيخة الأزهر ، أى مقر شيوخ الأزهر وديوانهم ، وهذا سائغ مقبول . وإذا صح هذا الإطلاق وثبت السماع به تبين ضعف رأى المبرد ، وكنا فى سعة من الرغبة عنه . وقد تبع المبرد صاحب القاموس فرد على الجوهرى إثباته للمعنى الذى نتحدث عنه للكتّاب ، وجعله مما غلط فيه ، والمجد مولع بتخطئة الجوهرى ، فلا غرابة أن يسارع الى هذا ، وهو يجد فى رأى المبرد دعامة وسندا .

والباحث يجد نصوصا كثيرة ورد فيها الكتّاب لموضع التعليم فى العصر العباسى الأول لا سبيل إلى دفعها . فقد قال الشافعى[1] رضى الله عنه ـ كانت وفاته سنة ٢٠٤ ـ : « كنت ـ وأنا فى الكتاب ـ أسمع المعلم يلقن الصبى الآية فأحفظها أنا » وفى الأغانى[2] عن إسحاق الموصلى « أن أباه إبراهيم الموصلى أسلم إلى الكتاب فكان لا يتعلم شيئا » وفيه[3] أيضاً : « أن على بن جبلة لما نشأ أسلم إلى الكتاب » . وذكر الجاحظ فى البيان[4] والتبيين أن من أمثال العامة « أحمق من معلم كتاب »

فأما ذكر الكتاب بعد العصر العباسى الأول ، فجاء منه قول البسّامى :

تعس الزمان ! لقد أتى بعجاب ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتّاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهمُ إلى الكتّاب

والبسّامى هو أبو الحسن على بن محمد ، روى عنه أبو بكر الصولى ، وكانت وفاته سنة ٣٣٢ ﻫ ، وله ترجمة فى ابن خلّكان .

فأما الكتاب قبل العصر العباسى فتتضافر النقول على أنه كان أيضاً يطلق على موضع التعليم . فقد جاء فى مسند[5] الإمام أحمد بن حنبل فى حديث عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه : « قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة فى الكتّاب » وعن عمر[6] بن عبد العزيز أنه سأله رجل عن الأهواء فقال : عليك بدين الصبى الذى فى الكتاب ودين الأعرابى ، ودع ما سواه . وجاء الكتاب فى حديث فيه مقال ؛ فقد أورد الزمخشرى فى الكشاف فى آخر تفسير سورة الفاتحة ـ وتبعه البيضاوى ـ الحديث

---

[1] معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢٨٤ . [2] ج ٥ ص ٣ . [3] ج ١٨ ص ١٠١
[4] ج ١ ص ٢٠٨ من الطبعة الثانية . [5] ج ١ ص ٤٠٥ .
[6] حاشية الباجورى على كفاية العوام فى علم الكلام ص ٢٣ .

الآتى : « وعن حذيفة بن اليمـان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن القوم ليبعث الله عليهم العـذاب حتما مقضيّاً ، فيقرأ صبىّ من صبيانهم فى الـكتاب الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العـذاب أربعين سنة » وكتب السيد الشريف على هـذا ما يأتى : « (فى الـكتاب) بضم الـكاف وتشديد التاء - يطلق على الـكتبة ، وعلى المـكتب أيضا ، وهو المراد هنا . وخطّأ المبرد إطلاقه على المـكتب ، وردّ بنقل الليث إياه . فإما أن يكون حقيقة بالاشتراك ، وإما أن يـكون مجـازا ؛ لأنه موضع الـكُـتّـاب بمعنى الـكتبة جمع كاتب » ويقول الشهاب فى كتابته على البيضاوى : « وحديث حذيفة أسنده الثعلبى ، وقال العراقىّ : إنه موضوع ، وقيل : إنه ضعيف » وكانت وفاة الثعلبى المفسّر — وهو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم — فى سنة ٤٢٧ كما فى ابن خلـّـكان .

التربية النِّسَوية ، الثقافة النِّسَوية

ينطق الناس فى هذه الأيّام النسوية بفتح السين ، وهو نسبة إلى النِـسْـوة ، فـكان حق النسب أن يقال فيه النسوية بسكون السين كما فى المنسوب إليه . وتراهم يقولون : التعليم المِـهْـنى ، والظن أنهم ينطقون بسكون الهاء على الأصل . وقد جرى حديث فى نطق العامة النسوية بفتح السين ، وبحث فى التماس وجه لتصحيح هذا الاستعمال وتسويغه . وحدث حديث أيضا فيما جاء فى فقه المالـكية من البلد العنوىّ أى الذى فتح عَنْـوة ، فقد ذكر بعض الفضلاء أن الألسنة جرت على أن يقال العنوى بفتح النون على حين أنها ساكنة فى المنسوب إليه . ومما جاء من ذلك ما فى متن الشرح الـكبير فى فصل عقد الجزية : للعنوى أربعة دنانير أو أربعون درهما ، قال فى الحاشية : قوله للعنوى أى على العنوى وهو نسبة إلى الـعَنْـوة وهى القهر والغلبة . وجاء فى الحاشية : « والجزية العنوية ما لزم الكافر من مال لأمنه باستقراره تحت حكم الإسلام وصونه » .

وقد وجدت لذلك مساغا فى مذهب يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ ، وهو شيخ سيبويه . فهو يجيز هذا التغيير فى النسب ويقول فى النسبة إلى عُروة

عُرَوِىّ ، وإلى غَزْوة غَزَوى ، وإلى قِدوة - بالكسر فى إحدى لغاتها - قِدَوِىّ . وهكذا يفعل يونس فى الثلاثىّ المعتل اللام المختوم بتاء التأنيث ، سواء أكان من بنات الياء أم من بنات الواو ، فيقول فى النسبة الى الفِتْية : الفِتَوى ، والى الدُمْية الدُمَوِىّ ، وإلى الظَبْية : الظَبَوِىّ ، ويعتمد فى هذا على ما سمع من العرب ؛ فقد قالوا فى القرية : قَرَوِىّ ، وفى النسب الى بنى زِنْية - حىّ من العرب - زِنَوِىّ ، وفى النسب إلى البَطْية (١) بِطَوِىّ . ويوافق بعض الصرفيين يونس فى بنات الياء لا الواو ، ويحتج لهذا بأن السماع إنما ورد فى بنات الياء كما سبق لك فى هذا المقال . وبأن الفتح يفضى إلى قلب الياء واوا فيقال فى ظبية : ظبوى ، وهذا أخف من ظبيى لما فيه من توالى الأمثال وهذا تستكرهه العرب ، فأما فى بنات الواو فلا يفضى الفتح إلى هذه الثمرة ، لوجود الواو فى المنسوب إليه . وأول من سلك هذا المسلك الخليل ابن أحمد فى تعليقه على رأى يونس ؛ فقد كان يعذره فى بنات الياء خاصة ويجيز قوله ، ويذكر سيبويه عنه احتجاجا لهذا القول على أثر اقتناعه بما سمع عن العرب ، فهو يقول إن العرب لو صاغت فعِلة بكسر العين - من الغزو لقالوا غزِية ، ولو سكنت العين تخفيفا لقيل غَزْية أيضا ولم ترجع الواو . فكانت فعلة - بسكون العين - سواء هى وفعِلة فى هذا ، فيحمل أحدهما على الآخر فى الأحكام اللسانية ، وإذا نسبت إلى غزِية قلت : غَزوى ، فكذلك إذا نسبت إلى غزْية قلت غزوى . وتراه ينزع فى هذا الرأى إلى قياس دقيق فى العربية لا يهتدى إليه إلا مثل الخليل ، وهل للخيل مثيل . فهذا ما يوافق فيه الخليل يونس ، وهى بنات الياء . فأما بنات الواو فلا يجيز الخليل فيها الفتح ، وهو يقول - كما فى الكتاب : « لا أقول فى غَزوة إلا غَزْوى . . ولا تقول فى غُدوة إلا غُدْوى . . ولا تقول فى عُروة إلا عُروى » .

هذا وسيبويه لا يجيز هذا فى كلا النوعين ، ويوجب تسكين العين ، ويقضى بالشذوذ على ما جاء بالتحريك ، كالقَرَوى والزِنوَى والبِطوى ، وتراه يقول

---

(١) يقول الرضى فى شرحه الشافية « البطية لقبيلة من العرب » ويذكر صاحب اللسان عن ابن سيده : إنه لم يقف لها على معنى ، واستظهر أن يكون هيئة من أبطيت لغة فى أبطأت .

فى الكتاب[1] ، وحدثنا يونس أن أبا عمرو كان يقول فى ظَبية : ظَبَيِى ، ولا ينبغى أن يكون القياس إلا هذا ، فتراه لا يذهب إلى ماذهب إليه الخليل من تسويغ رأى يونس فى ذى الياء ، وإن كان يشدد النكير عليه فى ذى الواو ، ويذكر أنه مخالف لما سمع عن العرب ، فقد قالوا فى جِروة ـ وهم حى من العرب ـ جِرْوى بسكون العين ، ولم يقولوا : جِرَوى .

ولنا أن نعتمد رأى يونس فى هذا المقام ، فقد كان يونس نحوياً جليلا يشهد حلقته فصحاء الأعراب وفهماء العلماء . فأما التحريك فى بنات الياء فقد سمعت حجته من القياس والسماع على ما سلف لك . وأما التحريك فى ذى الواو ـ وهو ما يعنينا فى هذا المبحث ـ فبالحمل على النوع السابق ، ولأن فى التحريك من إطلاق اللسان ما ليس فى التسكين . فإن قال قائل : ولكن العرب لم تجر على التحريك فى هذا الضرب كما جرت فى ذى الياء بل جرت على خلافه إذ قالوا فى جِرْوه جِرْوى ، قلت . إن أبا عُبيد[2] حكى عن العرب غَزَوى فى النسب إلى غَزْوة ؛ وقال : هو من نادر المعدول .

وبعد هذا لنا أن نطمئن إلى صحة ما جرى الناس عليه من قولهم النسوية بفتح السين ، والعَنَوى فى النسبة إلى العَنْوة . والله أعلم ؟

حماسة

قال ابن براقة الهمدانى :

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها ... مراغمة بما دام للسيف قائم
متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

وقال عمرو بن معد يكرب يصف صبره وجلده فى الحرب :

أعاذل عدتى بدنى ورمحى ... وكل مقلص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابى ... إجابتى الصريخ الى المنادى
مع الأبطال حتى سل جسمى ... وأقرح عاتقى حمل النجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمى ... ويفنى قبل زاد القوم زادى

---

[1] ج ٢ ص ٧٤ . [2] انظر المخصص ج ١٣ ص ٩١

سياسة المنزل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

إن الزواج وتكوين الأسرة شركة بين الرجل والمرأة طويلة المدى بعيدة الأمد ، ولا تثمر هذه الشركة ثمرتها إلا فى جو من التعاون والتفاهم ، وبروح من الإخلاص والنشاط ، وشعور بتحقيق معنى المشاركة بينهما ، وقد يمهد لهذا كله أن يعلم الرجل أنه بعد الزواج أصبح شخصا آخر ألقيت على كاهله مسئوليات الأسرة وتبعات الحياة الزوجية ، وأصبح مسئولا يحاسب من الله ومن الزوج ومن الجماعة ، وأن المرأة بين يدى الإسلام شريكة الرجل ، لها من الحق ماله ، وعليها من الواجبات ماعليه « ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما لَه من قوة الجلد وبسطة اليد واتساع الحيلة ، فيلى رياستها ، فهو بذلك وليها ، يحوطها بقوته ، ويذود عنها بدمه ، وينفق عليها من كسب يده ؛ فأما فيما سوى ذلك فهما فى السراء والبأساء على السواء ، وأن تعلم المرأة أنها فى بيت زوجها غيرها فى بيت أبيها ، فهى فى بيت أبيها طفلة ـ وإن كبرت ـ مستجابة الرغبة ، يغضَى لها عن القذى ، ولا تُنال بالأذى ، لا تشعر بمسئولية ، وتأخذ قسطا من الحرية ؛ أما بيت زوجها فهى عضو عامل تتعاظم مسئولياتها ، وتحد بحكم الأحوال حرياتها .

ولله در العربية حين أوصت ابنتها ليلة الزفاف ، فقالت : « أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ؛ ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها ، كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال . أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى فيه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تأليفه ، فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشراً ، يكن لك ذخرا :

« أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحسن الطاعة .

« وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

« وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع مَلهَبة مغضبة .

« وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ؛ وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير .

« وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمرا ، ولا تفشين له سرا ؛ فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره . ثم إياك والفرح بين يديه إن كان ترحا ، والترح بين يديه إذا كان فرحا ؛ فإن الخصلة الأول من التقصير ، والثانية من التكدير . وكونى أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أشد ما يكون لك مرافقة .

« واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت ، والله يخير لك » .

بهذه الوصاة الرائعة صَوّرت العربية لابنتها المسئولية التى تستقبلها فى منزلها الجديد ، وواجباتها نحو زوجها . وفى الحق أنه تصوير رائع ، ودستور عملى كفيل أن تسعد به الزوجة والزوج ، وتسعد به الأسرة . وقد أقر الإسلام قواعد هذا الدستور العامة ، وجاءت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأعمال النبى صلى الله عليه وسلم وأعمال الصحابة مؤكدة هذا الدستور مبينة له . وفى القرآن الكريم « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » ، وفيه أيضا : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمراً أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » . وعن على كرم الله وجهه ، أنه قال لأعبد : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت أحب أهله إليه ؟ قال : بلى . قال : إنها جرّت بالرحى حتى أثرت فى يدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم بخدم ، فقلت لها : لو أتيت أباك فسألته خادما ! فأتته فوجدت عنده أحداثا فرجعت ، وأتاها من الغد

فقال : ما كانت حاجتك ؟ فسكتت . فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله : إنها جرّت بالرحى حتى أثّرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فستخدمك خادما يقيها حر ما هى فيه . فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك ، واعملى عمل أهلك ! !

هذه واجبات المرأة ، وهذه حقوق الزوج عليها . أما واجبات الزوج نحو زوجه ، وحقوقها عليه ، فأساسها قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وقوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وقوله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا ، وخياركم خياركم لنسائكم » .

وأساس هذه الحقوق أن يعلم الزوج كما قلنا أن الزوجة شريكة فى كل شىء : شريكة فى إدارة المنزل ، وفى تربية الأولاد ، وفى معرفة طرق إيرادها وإنفاقه ، وأن لها فى ذلك رأيا يجب تقديره والعمل به إن بدا وجه الخير فيه ، لأن نتائج ذلك تتأثر بها المرأة كما يتأثر بها الرجل ، بل إن تأثرها به أشد ، لرقة طبعها ، ودقة إحساسها ؛ وليس أدل على ما نقول مما حدث بين عائشة رضى الله عنها وبين النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقد روى أنه جرى بينهما كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر حكماً فى ذلك ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : تكلمين أو أتكلم ؟ فقالت : بل تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقا ! فلطمها أبو بكر رضى الله عنه حتى دمى فوها وقال : ياعبدة نفسها أوَ يقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لم ندْعك لهذا ، ولا أردنا منك هذا ! .

والعشرة بالمعروف من القواعد العامة الصالحة لكل عصر وفى كل بيئة ؛ والأعصر والبيئات تتغير فتتغير أعرافها معها ، وما عرف فى العصر الماضى غير ما عرف فى هذا العصر ، وما يعرف فى البيئات المدنية غير ما يعرف فى البيئات الريفية ، ومن المتعذر تفصيل مايعرف ، ولا يمكن وضع لائحة للأسرة يطلب الى الزوجين تطبيقها وتنفيذ موادها . وإذا قال الفقهاء فى تحديد واجبات الزوجة على زوجها : عليه أن يطعمها ، وأن يكسوها ، وألا يمنعها من زيارة أهلها ، وأن يغضى عن هفواتها تقديراً لطبيعتها ، وأن يلاطفها ويكف الأذى عنها ، وألا يسىء الظن بها ، وألا يتجاوز فى تأديبها حدود الطرق التى ذكرها الله فى آية التأديب ،

وأن يعينها فى شئون المنزل إن لم يكن لها خدم ، وأن يعدل بينها وبين غيرها من الزوجات إن كان له زوجات - إذا قال الفقهاء ذلك ، واستشهدوا له بما جاء فى القرآن وما ورد فى السنة ، فلا يقصدون تحديد واجبات الزوجة وحقوقها ، وإنما يقصدون بذلك ضرب الأمثال فقط ، لأن ما يجرى بين الزوجين من شئون الأسرة لا يمكن حصر جزئياته ، فكان من إعجاز القرآن إجماله فى قاعدة عامة تلائم كل عصر وكل بيئة . فما تعرفه البيئات الغنية مثلا أن الراديو من ضروريات الحياة ولوازم المنزل ، فإذا طلبته الزوجة من الزوج كان طلبها وجيها لا إعنات فيه ، وكذلك إذا طلبت سيارة أو تليفونا أو أن تصطاف فى مصيف كذا ، أما إذا طلبته زوجة من البيئات المتوسطة أو الدنيا ، كان طلبا ظاهر الإعنات جديراً بالرفض .

فأسس سعادة الأسرة ودوام هنائها أن يقدر كل من الزوجين أحوال الآخر ، وهذا ما يجمعه قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

النابغة

بلغ النابغة الذبيانى الشاعر المشهور أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة قد عرّض به ولامه ؛ فخشى النابغة مغبة هذا اللوم ، فليس وراءه فى حكمهم إلا أن يأمر بضرب عنقه على طريقة أهل الجاهلية ، فأنشأ هذه الأبيات الأربعة ، ولم يقل أحد قبله ولا بعده أحسن منها فى معناها ، وهى :

أتانى أبَيْتَ اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى تصطك منها المسامع
فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرُّقش فى أنيابها السم ناقع
كلفتنى ذنب امرىء وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع
فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

اليد العليا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

من حِكم النبوة الخالدة ، وروائعها الشاردة ، وآياتها البينات ، وعظاتها البالغات ، وفصاحتها العالية ، وبراعتها السامية ، قوله صلى الله عليه وسلم ، فيما يوقظ به القلوب النائمة ، والأفكار الواجمة ، لتسلك السنن السوى ، والصراط المستقيم : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . وكثير من الناس ربما مَرّوا بهذه الجملة فلم يلفتهم منها سوى أنها كلمات تسجد لها جبابرة العقول ، وأساطين البيان ، وهو أسلوب لا يتأبى على من ألهمه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وأدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وتحدى به البشر ، كما تحدى بكتابه القُوى والقُدر ، ولئن كان هنالك بعد الذى نزل به الروح الأمين من آيات ، أو وراء سحره من معجزات ، فهى تلك التى « يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهى وإن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منها دليل فقد كانت هى من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة » وأنماطه فى الحديث ، ومنهجه فى الكلام ، لا يخرج عن كونه بيانا فى الذروة ، وتعبيرا فى أسمى مراتب السمو ، إلا أنه إذا كان ترغيبا أو ترهيبا ، ووعدا أو وعيدا ، وإغراء أو تحذيرا ، كان له طنين ودوى وصَخَبٌ وعجيج ، وروعة تقتاد مجامع القلوب ، وتمتلك أزمة الأفئدة . . .

ولكن هل يلمحون المعنى ، مثلما ينطقون بالمبنى ، وهل يستشفون مغزاه ، ويفهمون مرماه ؟ أكبر الظن أن يقول قائلهم إنه حثٌّ على التصدق على الفقراء وامتداد يد المعونة إلى المحتاجين ، وتفريج كربة المكروبين ، والمسح بأصابع العطف والإحسان على قلوب المكدودين من البائسين والمعوزين . والغنىّ إذا تصور تعاليه بالإعطاء ، وتساميه بالبذل ، وترفعه بكونه صاحب المنة ، دفع عفو ما ينفق عن طيب خاطر ، وراحة ضمير . ولأنه قد أحضرت الأنفس الشح ؛ والناس

ليسوا كلهم سواء فى الإحساس بضرورة المجتمع ، يعيشون فيه ، ويتبادلون وأفراده المصالح ، وكان مما لابد منه أن يخاطبوا هذا الخطاب الذى يُرَقِّقُ من قسوة قلوبهم وغلظة أفئدتهم ، وجفوة طباعهم ، وتحجر عواطفهم ؛ وهكذا يبلغ الحال بالتصوير الطلى ، من رياضته للشامس ، وتذليله للنافر ، وتسكينه من جماح الصعب الأرِن ؛ ولا حرج على فضل الله الذى صنع رسوله على عينه ؛ أن يؤيده بجوامع الكلم ، وروائع الحكم . وإذا كان المؤمنون فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وإذا كان المجتمع هو الفرد الدائر — كما يقولون — وإذا كان العضو من الجسد يضر بالجسد كله حين لا توافيه المقادير بما يقوم به من زاد وشراب وهواء ، فكذلك الفقير المعدم إذا لم تَتَّفِق له ما تمس إليه ضرورة بقائه فى الحياة من مؤن وحاجات .

والتعاون والبذل والتصدق والمعروف بين الناس ضرورة اجتماعية أكثر منها شيئا آخر ؛ ولذا جاء فى الحديث « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى فى امرأتك » . إلا أن بعض المتفلسفين يرى أن الدين الذى يحض على الصدقة ، ويأمر بالإحسان إلى الفقراء ، يغرى بالكسل ، ويشجع على البطالة ، ويسوق أهله إلى التواكل ، وهو إلى جانب هذا يستذل الأفراد بما يريقون من ماء وجوههم فى السؤال ، وسقوط همتهم بالاستجداء ، وهو ما يتنافى مع القضية « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وفى الحق أن الإسلام لا يرضى بالخنوع ، ولا يستسيغ الذلة ، ولا يغرى بإهدار الكرامة ، وسقوط الهمة ، ولا يحب لأهله أن يختاروا الدون من الخطط ، والخسف من الأمور ، والبخس فى القيم والأقدار « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . والبر بالفقراء ، والبذل للبائس الملهوف ، والتصدق على أرباب الحاجات ، أشبه بحلال كالحرام ، ومباح كالمحظور ، وهو صلى الله عليه وسلم لابد أن يكون بكلمة « عليا وسفلى » يلوح الى تنفير هؤلاء الذين تقعد بهم عزائمهم ، وتنوء بهم أقدارهم ، وتسقط بهم قواهم ، فلا يصيرون بالجد والعمل والسعى والاكتساب ، والدأب والتحصيل ، فى مستوى المعطى لا الآخذ ، والباذل

لا المستجدى ، وفى عليا الدرجات لا فى الحضيض من المكانات ، ولأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه . وصح عند الفقهاء أنهم يكرهون أن يأخذ الفقير أكثر من حاجته . . . ويمدح الله سبحانه وتعالى المترفعين عن الطلب ، المتسامين عن مد أيديهم للأخذ ، إذ يقول « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، ويعلم الرسول أمته ـ جزاه الله عنها خير الجزاء ـ العفة والزهد ، وطرح هذا المتاع الزائل فيما يقول « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » وكذلك فيما يقول « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » .

ولا يقولن قائل : إنى أدعو الى مذهب جديد فى التربية الاجتماعية ، والنظم العمرانية ، فهذا هو ما يدعو إليه صميم الدين ، لأنه لم يرشد المتصدق الى الإخفاء بحيث لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ، ولا يقول « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » إلا وهو معترف بما ينال العافى من ذلة ، ويلحقه من خزى :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال

وخير كل الخير للشعب الذى يسمو للنهوض ، ويتطلع للمجد ، أن يوجه المتعطل إلى العمل ، والمعوز إلى طريق الكسب ، والمريض إلى الصحة ، والجاهل إلى العلم ، حتى لا يصبح فيه عضو أشل ، ولا فرد منبوذ . والأخذ بيد المجتمع نحو الرقى أحسن من الأخذ بيد الفرد نحو سد العوز ، ودفع الفاقة .. ولذلك فإننا حين نحارب فى الأمة الأعداء الثلاثة « الجهل والفقر والمرض » نكون قد عالجنا الأدواء من أصولها ، واجتثثنا العلة من جذورها .. وهذا هو الأحرى فيما أعتقد ، خصوصاً وقد اكتشف كثير من الناقدين أن معظم المتسولين يظهرون الفقر وهم أغنياء ، ويطلبون وهم غير محتاجين ، ويتخذون السؤال صناعة .. ونحن أمام هذا الاشتباه الذى صيرنا لا نستطيع التمييز بين المحترف المقترف ، وبين اللهيف الأسيف ، لنا العذر إذا لم نجب الصريخ ، ونلب دعوة الداعى . هدانا الله بهديه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه !!

ايساغوجى

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

---

١ — معنى اللفظ — عنوان الكتاب .

إيسا غوجى : لفظة يونانية Eisagoge ، مركبة من مقطعين : eis ومعناه : الى ، ثم agein يؤدى أو يفضى . والمقصود من يؤدى ، أو يفضى ، أو يقود الى : المدخل . هذا هو المعنى المادى المحسوس ، ثم نقل الى المعنى المعقول أى المقدمة أو الفذلكة .

ولما ترجم العرب الكتب اليونانية أدرجوا كثيراً من ألفاظها بنصها ، وعرفوا معانيها وما تدل عليها . فنحن نجد أرثماطيقا ، وجومطريقا ، وأنالوطيقا ، وموسيقى ، وغير ذلك مما نقرؤه فى كتب المتقدمين . فلما تأخر الزمن عُرِّبت بعض هذه الألفاظ ، وبقى بعضها الآخر كما هو ، ونحت بعضها الثالث . عربوا أرثماطيقا بالحساب ، وجومطريقا بالهندسة ، وأنالوطيقا بالتحليل ، وبقيت موسيقى كما هى مع تغيير النطق بما يلائم طبيعة اللسان العربى ويتفق مع فصاحة العرب ، ويباعد بينهم وبين عجمة الأعاجم . ونحتت ألفاظ أخرى كالفلسفة ؛ فإن أصلها فيلوسوفيا ، كما هو معروف .

إيساغوجى إذاً من هذه الألفاظ اليونانية التى دخلت اللغة العربية واحتفظت بأصلها اليونانى ، مع اختلاف النطق وانقلاب الجيم غينا ، وهما حرفان فى المخرج متقاربان .

ولا ريب فى أن أبا عثمان الدمشقى ، وأبا على عيسى بن إسحاق زرعة ، ويحيى بن عدى ، ممن نقلوا وشرحوا إيساغوجى فى القرن الثالث والرابع الهجرى - كانوا يعرفون هذا الاصطلاح اليونانى وأن معناه المدخل أو المقدمة الى المنطق ؛ لأنهم كانوا يعرفون اليونانية أو السريانية وينقلون عنهما ، وكانوا هم المشتغلين بهذه العلوم ، المشتهرين بها .

فلما انقضى زمن النقل ، وتُرجمت الكتب من اليونانية والسريانية إلى العربية ، لم يسعْ علماء المسلمين الى تعلم لغة الإغريق ومعرفتها ، حتى إذا تقادم العهد بالعلم بها ، أوّلوا معنى هذه اللفظة اليونانية تأويلا يوغل فى الإغراب ويدعو الى العجب ، كلما بعد العهد وتقادم الزمن .

وهذا شىء من طبيعة كل لغة ، لأن اللغات كائنات حية تخضع لما تخضع له الحياة من سنة الكون والفساد والنشأة والممات .

يضطرب أثير الدين الأبهرى من علماء القرن السابع فى معنى إيساغوجى فيقدم لنا أربعة مدلولات ، لم يرجح أحدها على الآخر إلا لو قلنا إنه يختار الأول لأنه ابتدأ به وقدمه . وهذه المعانى بحسب ترتيبها هى :

أولا : معناه الكليات الخمس : الجنس ، والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والعرض العام .

ثانيا : وقيل معناه المدخل ، أى مكان الدخول فى المنطق .

ثالثا : سُمّى ذلك به ، باسم الحكيم الذى استخرجه ودوّنه .

رابعا : وقيل باسم متعلم كان يخاطبه معلمه فى كل مسألة بقوله : يا إيساغوجى الحال كذا وكذا .

وجاء المتأخرون فاشتطوا فى التأويل ، وذهب بهم التخمين كل مذهب ؛ قال : الشيخ الحفناوى من المتأخرين [1] إنّ اسم الحكيم أرسطوطاليس ، ولم يمض قرن من الزمان حتى نهض الشيخ عليش [2] يحقق معنى هذا اللفظ مع جهله باللغة اليونانية ، فجاء بالعجب ، ومايشبه الملح والفكاهات ! قال : « إيساغوجى مركب من ثلاث كلمات فى لغتهم : إيسا ، ومعناه أنت ، وأغو ، ومعناه أنا ، وأكى - بالكاف - ومعناه ثم بفتح المثلثة ، أى اجلس أنت وأنا هناك نبحث فى الكليات الخمس .

---

(١) ألف حاشيته ١١٧١ هجرية . - المطلع على متن إيساغوجى فى المنطق . حاشية الحفناوى - ٦٨ صفحة مطبعة مصطفى الحلبى - ١٣٥١ هـ . [ص ١١] .

(٢) حاشية الشيخ عليش على إيساغوجى - ١٢٤ صفحة - المطبعة الوهبية - ١٢٨٤ هـ . [ص ٢١]

ثم نقله المناطقة بعد الكاف جيما ، وحذف همز الكلمتين الأخيرتين ، للكليات الخمس » .

ثم زاد فى التحقيق فقال : « والمشهور أن إيساغوجى اسم لوردة ذات أوراق خمس ، فنُقِل للكليات للمشابهة فى الحسن » .

ويبدو أن المسلمين فى هذا العصر قد أخذوا فى سبيل النهضة الحقيقية ، وعادوا الى الطريق الصحيح والمنهج السليم ، فنحن نرى الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر يؤلف من أربعين عاماً الإيضاح لمتن إيساغوجى ويقول : « هى كلمة يونانية معناها الكليات الخمس ، ولغرابتها عن اللغة العربية اشتهر هذا الكتاب بها حتى صارت كالعلم عليه ؛ فيقال : إيساغوجى ، ويراد به الكتاب بأجمعه ، لا هذا الفصل وحده »(١) .

ولا ريب فى أن فهم الشيخ شاكر أدنى الى العقل ممن يقول إن إيساغوجى يعنى « وردة » ، أو « أنت وأنا وثم » ، وما الى ذلك من التخبط والتخليط والإغراب .

والصواب ما ذكرناه فى صدر هذا الكلام ، والمقصود : المقدمة أو المدخل ، كما فطن الى ذلك الأبهرى فى أحد معانيه .

وكانت عادة المتقدمين أن يؤلفوا « المداخل » الى العلوم ، مثل المدخل الى الموسيقى المنسوب الى الكندى ، والمدخل الى الرياضة ، وهكذا .

٢ — المؤلف :

ليس مؤلف إيساغوجى كما زعم بعض المتأخرين ـ أرسطو ، وإنما هو : فرفريوس الصورى (٢) .

ولد فى مدينة صور فى ساحل الشام عام ٢٣٣ بعد الميلاد ، واتصل بأفلوطين فى روما عام ٢٦٣ حيث أخذ عنه ، واضطلع بنشر مذهبه ، فكتب « المدخل إلى المعقولات » اعتمد فيه على تاسوعات أفلوطين لبيان طبيعة النفس والعالم المعقول .

---

(١) الايضاح لمتن إيساغوجى ـ الشيخ محمد شاكر ـ الطبعة الثانية ـ ٨٦ صفحة ـ مطبعة النهضة ١٩٢٦ م [ص ٢٣] .

[٢] انظر يوسف كرم . تاريخ الفلسفة اليونانية ـ الطبعة الثانية ص ٢٩٨ ، ١٣١ .
Brehier : Hist de la Phil. Periode Hellenistique P. 471-472.

وقد جنح به ذوقه الشخصى نحو الزهد ، فمال إلى المذهب الفيثاغورى ، وألف كتاب « الامتناع عن أكل اللحم » يدافع فيه عن النباتيين .

وهو مؤرخ كذلك ، له كتاب « حياة فيثاغورس » ، و « تاريخ الفلاسفة » ذكر أخبارهم إلى أفلاطون .

ويعد شارحاً لأرسطو . ذكر القفطى أن له شرحاً على السماع الطبيعى ، وقاطيغوراس ، وبارى أرمنياس ، وكتاب الأخلاق .

وله المدخل إلى مقولات أرسطو ، المعروف باسم إيساغوجى .

وتوفى عام ٣٠٥ بعد الميلاد .

والاجماع منعقد بين سائر المؤرخين على أن شهرة فرفريوس هى فى كتابه إيساغوجى الذى لقى حظاً كبيرا من التأثير فى المنطق عند المسيحيين والمسلمين على السواء ، خلال العصر الوسيط .

إيساغوجى

٣ — التراجم والشروح :

وأول من شرح إيساغوجى من فلاسفة المسيحيين بوتيوس Boetius ولد فى روما حول ٤٧٠ بعد الميلاد ، وتوفى ٥٢٥ . طلب العلم فى روما أولا ثم فى أثينا ، واتصل بملك الغوط تيودريك Theodoric ، واتهم بالمؤامرة على حياته فاعتقل وسجن ، ثم نفى .

وله آثار كثيرة فى الفلسفة ، أشهرها فى المنطق .

نقل إيساغوجى إلى اللاتينية وشرحه :

وشرح من كتب أرسطو المنطقية : المقولات ، والعبارة ، والتحليلات الاولى ، والثانية ، والجدل . وبذلك أصبح بوتيوس رأس المناطقة فى مستهل العصر الوسيط ، وحاول أن يشرح أرسطو بحسب فلسفة أفلاطون ، ذلك لأنه كان يتبع شرح فرفريوس [1] .

---

[1] انظر يوسف كرم • تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ٥٩ - ٦١ . — و
Gilson : La Philosophie au Moyen age, P. 471-472.

كانت المشكلة العظيمة فى المنطق هى الكليات ، التى دار حولها الجدل خلال العصر الوسيط .

ويبدأ هذا الجدل من عبارة وردت فى إيساغوجى ، يقول فيها : إنه بعد أن يدرس الأجناس والأنواع ، فسوف يبحث هل هذه الأجناس والأنواع حقائق تقوم بنفسها خارج العقل ، أو أنها مجرد تصورات فى الذهن . وإن كانت حقائق خارجية فهل هى جسمية أو لا جسمية ؟ وإن كانت لا جسمية فهل هى مفارقة للمحسوسات أولا توجد إلا فى المحسوسات . على أن فرفريوس أبى فى إيساغوجى ، لأنه كتاب وضع للمبتدئين ، أن ينظر فى هذه المشكلة العويصة المتصلة أوثق الاتصال بما بعد الطبيعة .

وإذا كان فر فريوس قد آثر أن يتجنب هذه المشكلة ، فلا يميل ناحية أرسطو أو ناحية أفلاطون ، فإن بوتيوس قد اتجه وجهة أرسطو .

هذا ما كان من شأن إيساغوجى فى الفلسفة المسيحية الغربية ، أومأنا إلى طرف منه لبيان أثر ذلك الكتاب فى الغرب .

ونتحدث عن أثره فى الشرق ، وكيف انتقل إلى المسلمين :

أقدم ما نجده فى كتب التاريخ عن ترجمة عربية لإيساغوجى هو لأبى عبد الله ابن المقفع « أول من اعتنى بترجمة الكتب المنطقية لأبى جعفر المنصور . ترجم كتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة وهى كتاب قاطيغوراس ، وكتاب بارى أرمنياس ، وكتاب أنالوطيقا . وذكر أنه ترجم إيساغوجى تأليف فرفريوس الصورى » [1] .

فإن صح ذلك يكون ابن المقفع قد نقله عن الفارسية ، وتكون كتب أرسطو وغيرها من الكتب اليونانية قد نقلت إلى الفارسية .

والثابت أن كتب الفلسفة اليونانية نقلت إلى السريانية ، وعنها وعن اليونانية نقل إيساغوجى قسطا بن لوقا ، إذ يذكر القفطى أن له « المدخل إلى المنطق » . والكندى له كتاب « المدخل المنطق المستوفى » ، وكتاب « المدخل المختصر » .

---

(١) القفطى ص ١٤٨ :

ويذكر صاحب كشف الظنون أن أبا العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسى المقتول سنة ٢٨٦ له مختصر إيساغوجى .

وتأتى بعد ذلك طبقة أخرى فى القرن الرابع الهجرى قامت بالتعليق على إيساغوجى وشرحه ، منهم أبو نصر الفارابى ، له كتاب « تعليق إيساغوجى على فرفريوس » ومتى بن يونس ، وله « تفسير كتاب إيساغوجى لفرفريوس وهو المدخل إلى المنطق » .

ومن تلامذة هؤلاء يحيى بن عدى « نزيل بغداد ، انتهت إليه رئاسة أهل المنطق فى زمانه ؛ قرأ على أبى بشر متى بن يونس ، وعلى أبى نصر الفارابى .

ثم نجد من تلامذة يحيى بن عدى ، الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار ، بغدادى فاضل منطق ، له كتاب تفسير إيساغوجى مشروح ، وكتاب تفسير إيساغوجى مختصر .

ومن الطبيعى أن يتعرض أبو على بن سينا فى أوائل القرن الخامس لإيساغوجى عند الكلام على المنطق . وله فى صدر الشفاء ، فى الجزء الخاص بالمنطق ، وهو لم يطبع بعد ، شرح طويل ، ولو أنه يعارض فرفريوس فى بعض المواضع (٢) .

وقامت لابن سينا مدرسة على يد شراحه ، منها مدرسة الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ والذى وقف نفسه على فلسفة ابن سينا واختصرها وشرحها وعارض بعض مسائلها .

وتفرعت عن طريق الرازى مدرسة كبيرة ، كما يحدثنا ابن العبرى فى تاريخه إذ يقول « وفى هذا الزمان فى حدود سنة ٦٣٢ ، كان جماعة من تلامذة الإمام فخر الدين الرازى سادات فضلاء ، أصحاب تصانيف جليلة فى المنطق والحكمة ، كزين الدين الكشى ، وقطب الدين المصرى بخراسان ، وأفضل الدين الخونجى بمصر ، وشمس الدين الخسروشاهى بدمشق ، وأثير الدين الأبهرى بالروم .

السلسلة متصلة إذن من الكندى الى الفارابى ، ومن الفارابى الى ابن سينا ، ومن ابن سينا الى الرازى ، ثم الى أثير الدين الأبهرى .

---

(٢) Madkour : L'Organon d'Aritote dans le monde Arabe P. 70-75

وإذا كانت الأرزاق حظوظاً مقسومة ، فالكتب كذلك حظوظ . وكان من حظ الأبهرى أن يشتهر فى القرن السابع بكتابه عن إيساغوجى ، أو كما يقول حاجى خليفة « والمشهور المتداول فى زماننا هو المختصر المنسوب الى الفاضل أثير الدين المفضل بن عمر الأبهرى المتوفى فى حدود سنة ٧٠٠ .

وله شروح وحواشى ، منها :

شرح حسام الدين الكاتى المتوفى سنة ٧٦٠ . ومن الحواشى حاشية البردعى ، وعليها حاشية ليحيى بن نصوح بن إسرائيل . ومن حواشى شرح الحسام حاشية محيى الدين التالجى ، وحاشية الشروانى ، وحاشية لمولانا قرجة أحمد المتوفى ٨٥٤ . وحاشية الفاضل الأبيوردى ، وحاشية لبعض المنطقيين .

ومن شروح إيساغوجى شرح الفاضل العلامة شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى المتوفى ٨٣٤ . وهو شرح دقيق ممزوج لطيف ، وعلى هذا الشرح حواشى أيضا أدقها وألطفها حاشية الفاضل الشهير بقول أحمد بن محمد بن خضر . وعلى هذه الحاشية تعليقات توجد فى الهوامش . ومنها الفرائد السنية ، والفوائد الفنارية لأبى بكر بن عبد الوهاب الحلبى . ومن الحواشى على شرح الفنارى حاشية برهان الدين بن كمال الدين المسماة بالفوائد البرهانية .

ومن الشروح شرح خير الدين التبليسى . وشرح الشيخ شهاب الدين أحمد ابن محمد الشهير بالأبدى . وشرح الشريف نور الدين على بن ابراهيم الشيرازى تلميذ الشريف الجرجانى المتوفى بالمدينة سنة ٨٦٢ هـ . وشرح مصلح الدين مصطفى ابن شعبان السرورى المتوفى ٩٦٩ هـ . وشرح الشيخ زكريا بن محمد الأنصارى القاهرى المتوفى سنة ٩١٠ هـ . وشرح الفاضل عبد اللطيف العجمى ، وأهداه الى السلطان علاء الدين . وشرح أبى العباس أحمد بن محمد الآمدى . وحكيم شاه محمد بن مبارك القزوينى المتوفى ٩٦٦ هـ . وشرح خير الدين خضر بن عمر العطوفى المتوفى سنة ٩٠٠ هـ . وشرح محمد بن إبراهيم بن الحنبلى الحلبى ، وهو على تصوراته ، ومن شروحه مطالع الأفكار .

ونظم إيساغوجى لنور الدين على بن محمد الأشمونى فى حدود ٩٠٠ هـ .

ونظم الشيخ عبد الرحمن بن سيدى محمد ، وسماه السلم المنورق ، ثم شرحه .

ونظم الشيخ إبراهيم الشبشيرى المتوفى سنة ٩٢٠ هـ . وهو تائية ، ثم شرحها .

نقلنا إليك هذه الشروح والحواشي الكثيرة عن كشف الظنون ليتبين لك الحظ الغريب الذى ناله متن إيساغوجى لأثير الدين الأبهرى .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، لأن حاجى خليفة لم يذكر إلا الشراح حتى القرن العاشر ، ثم ظهرت فى مصر على ما نعلم ، حواشى على شرح الأنصارى لمتن إيساغوجى ، منها حاشية يوسف الحفناوى ١١٧١ هـ . وحاشية حسن العطار سنة ١٢٣٦ هـ وحاشية محمد عليش المالكى سنة ١٢٨٣ هـ . وشرح محمد شاكر سنة ١٣٢٥ هـ ؟

الشكر

قال عبد الله بن عباس : لو أن فرعون مصر أسدى الىَّ يداً صالحة لشكرته عليها !.

وقال حكماء المسلمين : إذا قصرت يداك عن المكافأة ، فليطل لسانك بالشكر .

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها تنشد أبيات زهير بن جناب :

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه … يوما فتدركه عواقب ما جنى
يجزيك أو يثنى عليك فإن من … أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ياعائشة ؛ لاشكر الله من لايشكر الناس .

وأنشد الرياشى :

إذا أنا لم أشكر على الخير أهله … ولم أذمم البخس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشكر باسمه … وشق لى الله المسامع والفما

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لفضيلة الأستاذ الشيخ على عبد المنعم عبد الحميد
المدرس بالأزهر

روى مسلم فى صحيحه عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلقَى فى النار فتندلق[١] أقتاب[٢] بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان ، مالك ! ألم تكن تأمر بالمعروف[٣] وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ! قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه[٤] وأنهى عن المنكر وآتيه[٥] » .

* * *

الدار الآخرة أمر لا ريب فيه « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير » . والدنيا تحمل فى حوادثها دلائل فسادها ، وبراهين زوالها . وقد أجمع العقلاء منذ القدم على أنه لابد من حياة تتلو هذه الحياة ، فيها يجد المرء جزاء ما قدم من خير ، وما اكتسب من إثم : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وما أنكر ذلك إلا من كانت أفكاره فجة ، ومعلوماته بدائية ، مارقت فى سلم المعرفة درجة واحدة .

---

(١) اندلق الشىء : خرج من مكانه ، والسيل : اندفع ، والسيف : انسل بلا سل أو شق جفنه فخرج منه . والمراد هنا : أن أمعاءه تخرج بسرعة .

(٢) « الأقتاب » الأمعاء واحدها قتب (بكسر القاف) ويطلق أيضاً على ما استدار من البطن .

(٣) المعروف : كل ما أمر الشارع باتباعه وهو ما ليس بمنكر ، والمنكر كل ما نهى الشارع عنه وحذر منه .

(٤) أى لا أفعله (٥) أى أفعله .

والله سبحانه وتعالى خبير بخلقه كل الخبرة، عالم بالجزئيات والتفصيلات؛ فهو إذا وصف العلة فقد أوفى على القصد، وإذا دل على الدواء فهو العليم الحكيم؛ جعل ذلك الرب البصير، الحياة التى نحياها على ظهر البسيطة مجازاً ومسلكاً إلى الدار الباقية، كما جعلها مزرعة، ووكل إلى كل صنف من الناس نوعا من المزروعات يقومون عليه، ويعملون جاهدين على تنميته، والمحافظة عليه، وأخبر أن لكل عامل أجراً يقل ويجل حسب العمل وكفاءة العامل، واختار قوماً يتولون مراقبة التنفيذ لأوامره، ومعهم موازين دقيقة يعرفون بها المجيد ذا الهمة الوثابة، من المهمل المتكاسل المتوانى، وأمرهم بتوجيه الزراع على اختلافهم، كما أمرهم بمراقبتهم.

هؤلاء الهداة هم الرسل والأنبياء، عليهم صلوات الله وسلامه، وأتباع الرسل والأنبياء. فالأولون يؤدون مهمة التأسيس، مهمة البناة القادة، وأتباعهم المتلاحقون يتولون حراسة الفكرة وهى نبتة صغيرة، ويتعهدونها حتى تنمو وتزدهر وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها؛ فلو أن وارثى مجد الإسلام حافظوا على ميراثهم، وحفظوا وصايا قائدهم الأول صلى الله عليه وسلم، لسموا ونشروا راية هدايتهم خفاقة عالية على ربوع الكون وجميع أصقاعه، وأراحوا العالم من حروبه المتلاحقة، وبغضائه المستمرة، ولأناروا دياجيره، وأضاءوا حنادسه.

وكأنى بالرسول الكريم كان يعرف ماسيصير إليه أتباعه بعد أن يفتح الله عليهم الدنيا، وبعد أن تفرغ لهم الأرض كنوزها، من إهمال وتقصير فى أمر الدعوة، وإخماد الشعلة المضيئة فى أيديهم؛ كأنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف ذلك، فحذر عاقبته وأنذر وكلاءه على خلق الله بالعذاب الشديد والعقاب الأليم إن أهملوا أو توانوا، وأوصى وأطال فى وصاياه بمتابعة العمل للقول، وموافقة فعل الناصح لنصحه، ووضع أسس ذلك فى سيرته بين أصحابه المعاصرين له. فقد كان يقول لهم دائما، اعملوا كما ترونى أعمل، وأخذ عنه ذلك صحابته، فكانوا يحاسبون أمراءهم إذا رأوا منهم حيدة فى عملهم عن قولهم ولو ظاهرا، حتى إن رجلا فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال له: لانسمع لك! وقد وقف يخطبهم؛ فقال عمر: لماذا لا تسمع؟ فقال الرجل: لأنك ميزت نفسك عنا ولبست قميصين، وقد

أعطيت كل واحد منا قميصا واحدا مما أفاء الله عليك من الخراج ، فقال عمر رضوان الله عليه : قم ياعبد الله بن عمر ؛ فقام فسأله : لمن هذا القميص الذى أرتدى ؟ فأجابه عبد الله : هو لى يا أمير المؤمنين وقد سمحت لك بارتدائه لخروق أصابت قميصك !. فقال عمر لصاحبه : أسمعت مقالة عبد الله ؟ قال نعم ؛ الآن قل نسمع لك !

وفى احتكام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، واليهودى إلى القاضى شريح ، مثل أعلى لنزاهة الحاكم وقوة إيمانه بقوانين العدالة ، وشدة يقينه بمراقبة أحكم الحاكمين ، فهو لا يخشى إلا الله ، ويخشى أن يقال له إذا جار : أين أنت يا شريح من قول الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

مضى هؤلاء ، وخلف من بعدهم خَلف أضاعوا النصح القويم ، واتخذوا العلم والتعليم والهداية والإرشاد حرفة يطلبون لها أجرا ، ولا يجمعون بين أقوالهم وأفعالهم ؛ فهم كالمريض بعلة خاصة يصف دواءها لمريض آخر بها ، ولا يداوى نفسه منها ، فغيره سينجو ، وهو سيهلك لا محالة ؛ هذا إن صدّق الآخر قوله ، أما إذا كذبه بشاهد من عمله فقد قضى على نفسه ، وعلى غيره ؛ فهو جان جنايتين ، ومرتكب إثمين ؛ فلا عجب أن يجىء يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه ويطرح فى النار ، وتفعل به الأفاعيل ؛ ولا عجب أن يتساءل أهل النار ويسألونه عن سوء منقلبه وقبح مصيره ، وهو الداعى إلى الخير فى الدنيا والحاث على الفضيلة فى الدار العاجلة ؛ وإذا عرف أهل النار علة قدومه إليهم ، ووفوده عليهم ، ومشاركته لهم فى جحيمهم — وهو إهماله العمل بما علم — حينئذ يزول عجبهم ، وينقطع تساؤلهم ، وينقضى استنكارهم لمآله وسوء منقلبه .

هذا ، ونظرة فيما نحن فيه من إحن ومحن ، وبلاء وعذاب ، وتقهقر وتدهور ، مع كثرة المرشدين إلى طرق الإصلاح ، ووفرة الداعين إلى الرشاد ـ تريك صدق ما كان يخافه النبى العظيم على أمته من ترك العمل والاكتفاء بالقول . . .

فما نراه ونشاهده من تأخر فى أحوال المسلمين خاصة ، والشرق عامة ، ناشىء من أنهم مُنُوا بقوم يقولون ما لا يفعلون ، يرشدون إلى النافع فى خطبهم ، ويطعمون الجائع ويكسون العارى فى أحاديثهم الخاصة والعامة ؛ ولكن إذا

جئت تبحث عن الآثار العملية ، بؤت بالخيبة ، ورجعت خاوى الوفاض حتى من خُفّى حنين ! . وهذا يربى فى أبناء الأمة روح الاستهتار بما يسمعون ، ويجعلهم كلما رأوا ناصحا أو سمعوا وعدا ولم يجدوا تنفيذا قالوا : تلك شنشنة نعرفها من أخزم ! ورددوا قول القائل :

وغير ذى تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى والطبيب مريض

وقالوا مع أبى العتاهية :

وصفت التقى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقد قلنا إن السابقين الأولين كانوا يحافظون على أن تكون أفعالهم طبق أقوالهم ، ويرون فى مخالفة ذلك الفسادَ الظاهر ، والخطر الداهم على كيان الأمة ، خلقيا واجتماعيا وعمرانيا ؛ فأما خلقيا فبانتشار الكذب بين الناس ، وتعودهم النفاق ، ومخالفة ما يفعلون لما يقولون ؛ وهذا يودى بالمجتمع العام ، حيث لا يثق شخص بآخر ، ولا يركن إلى عدته ، بل ويستريب فى كل حديثه ، ولا يصدق مقاله أبدا ؛ وبذلك تتعطل مصالح العباد ، ويعم الفساد . . .

من أجل ذلك شدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير غاية التشديد على الذين تخالف أفعالهم أقوالهم ، وأوعدهم بعذاب الله لهم فى الدار الآخرة ، فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أسرى بى مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون » .

فاللهم اجعلنا ممن إذا قالوا فعلوا ، وإذا علموا عملوا ، وإذا سمعوا القول اتبعوا أحسنه ؛ وألق الهداية فى قلوب ولاة الأمة الإسلامية ، وحب العمل لما يرفع عن المسلمين إصرهم ، ويزيل إحنهم وبلاءهم ، ويوائم بين مختلف طبقاتهم وهيئاتهم ، فقد قلت وقولك الحق « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

سياسة القول

لفضيلة الأستاذ كامل عجلان
المدرس بالأزهر

يظلنا عصر السرعة ، ونحيا معجلين خاضعين لمطالب (الآلة) السابحة فى مدارج الأفلاك ، والماخرة فى مسابح الأسماك ؛ ومصائرنا تصرفها أقدار القوى المسيطرة على جهود العبقريات الخلاقة المتحضرة ، والمفتّنة فى وسائل الخير والشر .

وصاحب البيان وحامل البراعة تأخذه بوارق وخواطف تلك الحياة إذا تصدى للتعبير وتصوير خوالجه ، فيطلق عقال قلمه ، ويجانب القيود ، مؤثرا السهولة العابرة ، حتى لينزلق الى مزلق من القول المهلهل ، والخفه الضحلة التى تعد فى الهشيم والعصف المأكول .

فإذا تلفت الى حصائد القلم وجدها لا تمسك نفسا نابضا ، ولا ريحانا خالدا ، وحظها من البقيا على مجالدة الزمن حظ الدمى الرخيصة التى تلهى الولدان فإذا طاف بها يوم أو يومان تناثرت وانفرط تماسكها وانحلت عقداتها .

ويشق الأسف على القلب الذى أشرب حبا (البلاغه العربية) وتملأ من روائع الكلم الساحر والقول الفصل ، والإيجاز المحشود فى قوة فارعة وإيضاح مشرق وصفاء متنخل قدمن الصدق وأنبط من وجدان صارخ بالألم والأمل ، تترقق فيه خاطرات النفس فى سرائها وضرائها ، فى حبها وبغضها ، فى شدتها ورغائها ، فى حربها وسلمها ، وعند ذلك لا يسعه إلا الندم وإلا عض الأنامل وتقليب الكف أسفا على ما فرط فى جنب فنه ، وإهدار بنات فكره ، باخراجها فى أثواب بالية تمشى على استحياء ، إن كتب لها أن تحيا قليلا ، وإلا وئدت عرائس فكره فى مهدها .

وأحسب أن الرجوع الى بلاغة القول وسياسة التعبير الذى يلخص المعانى فى رفق ، يحذف الفضول ويقرب البعيد ؛ أحسب أن تلك السياسة هى المراد الذى

يجد فيه السياسى مشتهاه ومنفذه ومخلصه ، ويجد المصرح فيه نجاء له ووقاية من الزلل والشطط ، ويجد فيه المحارب مجنأ يخفى بين طباته خططه أو يكشف عما ينصره من وحى الرعب والإخافة للعدو الرابض .

أحسب أننا فى حاجة الى العودة الجميلة ، والركون الى الحق وهو فضيلة .

أحسب أن التعبير الجميل عن مبتكرات الفكر وسوانح الرأى وبوادر الإجابة ، هو الراجح فى يدى من يزن كفتى التساهل فى حق التعبير والتحبير ، والتخير والتنوق والتبصر عندالتأثير والتسطير ، وإلا فما لهذه الحضارة تقر الرمز فى أدبها ، وتحب التجميل والترقيش والتزيين فى تماثيلها وحسناواتها وحللها .

فطرة النفس التى برأها الله عليها ، وهى إطالة الوقوف حول الخفى ، وتتطلب المعرفة وراء الغامض وملء العين من فتن الجمال وطلاوة الخلاب ، والتهافت على الشيق الجذاب .

وحظ اللسان ونصيب الحافظة ، من سائر المثل ، وتعليق الحكمة ، وتزويد المأثور ، وانتقاء الشارد ـ كل ذلك لا ينكر ولا يكابر فيه ؛ وكأنى بالفطرة تلتقى مع حاجات السرعة وعصرها الذى نسينا فى زحمته تراثا خلفه لنا القدامى موائد شهية صرفتنا عنها زيف الطعوم المتكالبة ونظريات مجلوبة .

فهلا رجعنا وتبصرنا ! . لست أدرى ، غير أنى أتمثل قول الشاعر :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

ومالى وشيطان الشعر وأنا فى معرض القول المأثور من التعبير المنثور قد يسعفنى ، وربما يرضيك أن أروى ما قاله « ابن السماك » الضائق بسياسة عصره فى عهد معاوية حين سئل : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف ، وظالم لا ينتهى .

وأدق منه وأولى بساستنا أن يحتذوا أو يتأثروا ، إجابة (شبيب) لما كان عند باب (الرشيد) ، فوجه اليه سائل :

كيف رأيت الناس ؟ قال : « رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضياً » .

ومن الإجابات المصورة فى إيجاز لحياة شعب بأسره ، ومفيد لمستفسر عن أى الخطوات يضرب على أبواب مستقبل غامض وحرب موفية وكفاح مسلم ورغبة حافزة — من الإجابات ما روى عن الفرزدق حين سأله الحسين بن على فى أمر مسيره الى (العراق) وعن أهواء الناس هناك ؛ لقد أوجز وقدم تقريرا دونه أية إطالة وأى إطناب :

« القلوب معك ، والسيوف عليك ، والنصر فى السماء » !

ولست بناس مقام الإيجاز ولا موضع الإطناب ، ولا بغافل عن ضيق الناس بالتمرس لتحصيل وسائل القول البليغ ، والتفوه الفصيح ، والكتابة الخالدة .

ولكنى أجد ريح الأسف من كل حامل قلم إذا رجع وراجع نفسه : كم تذهب نفسه حسرات على أن لم يكن زاد فى حسن الصياغة ، وتريث وإن تأخرت (عجلات الآلة) التى خبت بالوريقات فأرغمته على أن يلاحق دوراتها . وما أعجله عن إتقان فنه إلا حب العيش أوحب الشهرة .

فإذا التمسنا لهذا وذاك وأمثالها عذرا فما لهؤلاء الذين أتخموا من المجد وإن كان زائفا ، مالهم لا يغمسون أقلامهم فى مداد ومدد يمدهم بالخلود ، ويسعفهم بالبقاء ما ترقرقت الآراء واحتربت الأفكار وقلبت الكتب ونشرت الصحف .

ليت ! وهل ينفع شيئا ليت ؟ !

ليتنى كنت مع البلغاء فأفوز فوزا عظيما حين أسدد الرأى وأحدد الهدف ، وأنفذ بسلطان القول الثابت والتعبير الجميل ؟

سمـــو

لما كان عمر بن عبد العزيز بالحجاز ، أعطى رسالة من جرير ، فقال : مالى وللشعر ! فلما قيل له إنها رسالة عن أهل الحجاز ، قال : فهاتها ، فإذا فيها :

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى ... أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت السنة الشهباء ما ملكت ... يمينه فخشاه الجهد والكبر
ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة ... ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة ... قامت تنادى بأعلى الصوت يا عمر

دين الله الاسلام منبع الشرائع

لحضرة الأستاذ نظام الدين عبد الحميد

اقتضت إرادة الخالق — جل وعلا — إيجاد الوجود ، وشاءت مشيئته خلق النوع البشرى مزوداً بأنواع من الملكات والغرائز والهدايات والقوى ، يستعين بها على سلوك مسلك الحياة واجتياز عقبتها على صورته اللازمة ؛ وكان أعظم هداية زود به وأكثرها ضرورة له هو هداية الدين . وكانت حكمته السامية قاضية بأن يصطفى من بنى آدم أنفسهم أناسا غلبت قوتهم الروحية على ماديتهم غلبا يمكنهم من أن يكونوا وسطاء عن طريق الوحى بينه - سبحانه وتعالى - وبين بنى البشر لإبلاغهم أوامره ، ورسلا إلى أقوامهم ومللهم ينهجون لهم ما يوافق مصلحتهم ، ويشرعون ما تقتضيه ظروفهم ، على ضوء دين الله الأوحد الموحى إليهم جميعا ، والمفطور عليه نفوسهم ونفوس البشر جميعا ؛ حيث إن البارى تعالى قد فطر النفوس على الدين الفطرى ، ويسر لها اكتناه حقيقته ، لو رفعت عن بصيرتها ستار العماية ، وأزالت عنها حجاب الضلالة .

وإننا لو دققنا أطوار حياة الملحد المنكر الذى لا يرى لغير المادة سلطانا ، ولا لغير المحسوسات وجودا ، ولا لغير الصدف عللا وأسبابا ؛ وفتشنا عن خبايا نفسه فى شتى الظروف والمناسبات ، للمسنا عنده ما يؤيد هذا القول ، ولعثرنا عنده على جذور لهذا الدين توجهه للقيام ببعض أعمال البر والخير ، وهى السبب المباشر لكل ما يأتيه من عمل إنسانى . وإنى ألتمس مصداق بعض قولى هذا فى هذه الآية الكريمة الآتية التماسا قويا : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون » .

وإننا نرى الملحد المنكر يعزو سبب ما يقوم به من معروف إلى دافع الوجدان أو الضمير أو الإنصاف أو الرحمة ؛ ولكننا لو فاجأنا هذا النوع

من الإنسان المخدج ، وطلبنا منه أن يفسر لنا مدلول هذه الأسماء تفسيراً مادياً يرفع عنه النقاب ، ويبين المصدر المنبعث منه هذا الذى يسميه تارة وجدانا وتارة ضميرا ، ومرة إنصافا وأخرى رحمة ، لَبُهت من حراجة المأزق ، ولشُده شاخصا إليك لا يحير جوابا .

والشيء الذى يكاد يزاحم البديهة عندى : هو أن مدلولات هذه الأسماء هى بعض مدلول كلمة الدين الحقيقى الفطرى ، أو هى فروع متفرعة من دوحة هذا الدين القويم ، أصلها شيء واحد ، وغذاؤها من نبع واحد .

فهذا الدين الفطرى بالرغم من أنه متأصل فى النفوس ، وبالرغم من أن النفوس قد جبلت عليه ، نرى بعض العميان الذين طغت ماديتهم على روحيتهم طغياناً طمس عندهم معالم الاهتداء الى نور اليقين ، وأخفى عنهم سرج الوصول الى الحق المبين ، يحاولون عبثا التحرر من سلطانه ، ويبغون ظلما الانسلال من دائرته .

لذلك كان من آثار عنايته ، تعالى ، أن يرسل الى مختلف الأمم فى مختلف الظروف رسلا موحيا إليهم دينه الأوحد « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، يجدد بهم مع بنى البشر عهد الفطرة ، ويجلو بهم صدأ الأوهام والخرافات عن جوهر الدين فى القلوب ، ويجرد بهم أذهانهم مما تعلق بها من الترهات وأسباب النقص والفساد ، ويطهر بهم نفوسهم مما طرأ عليها من أدران الزيغ والضلال ، ويدعو بهم الى دينه الأقوم : « فأقم وجهك للدين — الحق الخالى مما ابتدعته الأهواء ، وأوجدته الأغراض ، من الشوائب التى لا تمت بصلة الى الدين — حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم — وحده — ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . فهذه الآية الكريمة دليل واضح على أن الدين فطرة ، وأن البارى ، تعالى ، قد فطر الناس على هذه الفطرة ؛ وهذه الفطرة عبارة عن الدين القيم الذى لا يعتريه التغيير والتبديل . وهذا الدين هو دين الإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين ، أى دين استسلام الوجه له سبحانه وتعالى ، والانقياد والخضوع له وحده ، والاستعانة به ، وطلب جميع المآرب منه وحده : « إياك نعبد » وحدك فقط دون أحد سواك ، لكمال ألوهيتك « وإياك نستعين » وحدك فقط أيضاً دون أحد من الكهنة والرؤساء

وشيوخ الطرق والأولياء ، ودون شىء من المقابر والأشجار والأحجار ، لكمال ربوبيتك .

هذا وإن الإنسان المتجرد عما ورث من العقائد والآراء ، الخالى الذهن عن كل ما يحيط بعائلته ومجتمعه وبيئته من الشعائر والطقوس والأوهام ، لو فكر ساعة بذهن ثاقب فى ساعة من ساعات التجلى ، وفى وقت من أوقات يقظة الضمير ، وفى فترة من فترات صفاء الفكر والقلب ، عن السر المحيط بهذا الكون ، وعن الواهب للموجودات الوجود والحركة والنظام ، وعن العلة الأصلية المحركة لدقائق الأمور وجلائلها ، لانجلى أمامه كل غموض ، ولانكشف لديه الحق الواضح الأبلج ، ولاهتدى بعقله وأدرك بأن هذا الارتباط الكلى بين أجزاء الكون الواسع العجيب لا يمكن أن يعزى الى مجرد الصدفة ، وبأن الكون بمجموعه يهيمن عليه صاحب قوة مدبرة جبارة لا نهائية ، أوجد الوجود من العدم ، متصف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص ؛ تقصر عن درك ذاته الكريمة الأفهام ، وتضل عن اكتناه ماهيته العقول ، وهب الخلق وأوجد ما به يكون كمال الوجود ؛ ولاهتدى بتفكيره الى أن هذا الواهب للوجود النظام المتقن لا يعقل أن يترك البشر وشأنهم دون أن يرسل إليهم رسله مع ماتستوجبه عدالته ، وما تستلزمه حكمته ، وما تقتضيه ظروف البشر أنفسهم من الأوامر والنواهى والإرشادات لينتظم سير الحياة ؛ ولاهتدى أيضاً الى أنه لا يمكن للعدالة الإلهية أن تترك المحسن دون ثواب ، وأن تترك المسىء دون عقاب ؛ ولألهم بأن ثواب الصالحين المحسنين الممتثلين أوامر هذا الخالق ، والمتجنبين نواهيه ، وعقاب الطالحين المسيئين المخالفين أوامره والمقدمين على نواهيه ، يتحقق فى يوم لاريب فيه ، يوم تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه ، وذلك هو يوم القيامة ، يوم الحساب والعدالة ، يوم الفزع الأكبر . أليس من واجبه إذن أن يتوجه بقلبه الى هذا الخالق عابداً ، ويسلم وجهه لهذا البارى طائعاً ، ويستمد ويطلب العون والتوفيق من هذا الرب وحده ، ويمتثل أوامره ويتجنب نواهيه ؟ بلى وربى ! .

فكل هذا الذى يتجلى لثاقب الذهن المفكر ساعة إشراق النفس ويقظة القلب وصفاء الروح ، المتجرد عن كل ما يعكر صفو الفطرة ، هو الدين الحقيقى القيم ،

دين الفطرة الذى فطر عليه النفوس جميعا ، دين استسلام الوجه له سبحانه وتعالى استسلاما يثبت له ، تعالى ، كمال الألوهية والربوبية .

نعم : الإسلام دين الفطرة ، هو دين جميع الأنبياء . قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » . فهذه الآية الكريمة نص صريح على أن الدين الحقيقى المقبول عند الله هو الإسلام ، وأن أهل الكتاب ما حادوا عن الحقيقة وما اختلفوا فى الدين إلا من بعد أن أفهموا بالحقيقة ، وأعلموا ماهية الدين ، بغيا بينهم . وقال تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا » وقال « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا - فى دين الله يعادى بعضهم بعضا ، ضالين عن المحجة البيضاء - لستَ منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » وقال تعالى : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه - وهو بيان حقيقة دين الله وروحه الذى لا يقبل التغيير والتبديل والتعدد - وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، وقال جل شأنه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين - الدين المعروف الموحى إليكم جميعا - ولا تتفرقوا فيه - مللا ونحلا يخاصم بعضكم بعضا ، وتفتحوا للتفرق والإحن والبغضاء والعداوات أبوابا - كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » . فهذه الآيات الكريمات ، والحِكم العاليات ، براهين واضحة وحجج ساطعة على أن دين الله واحد لا يقبل التغيير والتبديل والاختلاف ؛ فهو يقرر شيئاً واحداً على لسان كافة الأنبياء والمرسلين ، ويرمى الى غاية واحدة ، ويستهدف هدفا واحداً عند جميعهم .

أما الذى قبِل التغيير والتبديل ، وتغير وتبدل ، فهو الشرائع فقط ؛ إذ كان لكل رسول وكل إليه أمر تجديد هذا الدين ، بين فترات وأخرى ، شريعة خاصة متميزة عن باقى الشرائع تحمل صبغة تتوائم والعصر الذى أتت فيه ، وطبيعة الملة التى جاءت إليها ، والعقلية والظروف والأحوال السائدة آنذاك ، حتى تواجه المشاكل بالحلول المعقولة ، وتتكفل قضاء مصالح الناس المتشابكة بالطرق

المقبولة . وكان العمل بمقتضى تعاليم شريعة من الشرائع قاصراً فى حدود مدة معينة من الزمان ، تنسخ أحكامها أحكام شريعة لاحقة ، حالّة فى محلها من حيث وجوب العمل بمقتضاها .

ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى من الأنبياء والرسل من شاء أن يرسل ، وبدل من الشرائع وغيّر ما شاء أن يبدل ويغير ، إلى أن أرسل خاتم المرسلين محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأكمل سلام ، ليدعو إلى دين الله القويم ، فدعا الى فطرة الإسلام ، ودعا الى الأصول الجوهرية المنزلة على الأنبياء والمرسلين جميعهم بأمره تعالى القائل له « قل يأهل تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، والقائل له « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

نعم أتى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، داعيا الى فطرة الإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين ، بدليل ما استشهدت بها من الآيات ، وبدليل ما سأستشهد بها من الآيات ، وبدليل ما تركت الاستشهاد بها من الآيات ؛ ومعه الشريعة المرنة الخالدة التى تسمى هى أيضا بشريعة الإسلام ، الشريعة التى لم تختص بزمان دون زمان شأن ما سبقتها من الشرائع ، ولم تتعين فى قوم دون قوم ، أو ملة دون أخرى ، أو جنس دون جنس شأن ما سبقتها من الشرائع ؛ لأنها فى كليتها كالدين لا يعتريها النسخ والزوال ، فهى باقيه ببقاء الأرض والسموات ؛ لما فيها من الأصول العامة ما يحقق لها الحياة الأكمل فى كل زمان ومكان . فجزئيات مسائلها وأحكامها فى تطور مستمر حسبما تتطلبه الأحوال وتقتضيه الظروف والمقتضيات ، وممعنة فى السير نحو التجديد سيراً لا ينالها الخور والكلال ؛ ولأنها شريعة غذاؤها من فطرة الإسلام ، واستمدادها هدى الله ؛ ولأنها الجامعة لروح جميع الشرائع ، والمحيطة بأطراف جميع الشرائع ، والمجمع الذى تلتقى عنده كافة الشرائع .

فهذه الشريعة تلزم معتنقيها الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وبكتبهم ، وبما أتوا به من الشرائع ؛ وتحتم عليهم إجلال هؤلاء الرسل والأنبياء واحترامهم ، إجلالا واحتراما يضاهيان ما يحملون فى قلوبهم من الإجلال والاحترام لرسولهم

محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ؛ وتقرر بعدم وجود فرق بين هؤلاء الهداة الذين قادوا البشرية كل فى وقته وزمانه نحو الكمال والسعادة . قال تعالى « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » وقال جل شأنه « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » وقال تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وإن تعدد الشرائع يقتضى لها — للشرائع — تعدد الأسماء ، ويقبل الاختلاف فى التسمية ، فتسمى هذه مثلا بالشريعة النصرانية ، وتلك بالشريعة اليهودية ، وهذه بالشريعة الاسلامية . . الخ .

أما وحدة الدين فلا تقبل التعدد فى التسمية ، فهى تلزم وحدة الاسم ، لذا يلزم أن نسمى الدين باسمه المسمى به فى اصطلاح الوحى الموافق لفطرة الفطرة . أما إذا قلنا الأديان السماوية ، أو قلنا الدين المسيحى أو الدين اليهودى ، فالتسمية فى هذه الحالة لاتكون على حقيقتها ، وإنما تكون على سبيل الاستعارة ، أو تكون من قبيل إطلاق الخاص على العام . وإنى أجيز لنفسى أن ألتمس هذا المعنى من قوله تعالى « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . ولا أرى لدى مانعاً من أن ألتمسه أيضا من قوله عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على الفطرة ، إنما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . الفطرة هى الدين ، والدين هو الدين الحقيق ، دين الله الإسلام .

فكل مولود يولد خالى الذهن والفكر عن كل ما ابتدع من العقائد ، وما التصق بالدين من الآراء . . . فهو بما ركز فيه من القوى والغرائز ، وبما زود به من الهدايات ، مهتد بهداية الدين الفطرى ، ومطبوع عليها ، ولكن البيئة والعائلة ، وفيها الأبوان ، هى التى تطفىء سراج هداية هذا الدين الفطرى

فى نفسه ، وتعكر نبع الإسلام فى قلبه ؛ فتبعده عن الحقيقة أيما إبعاد ، فتنصره موحية إليه أن الدين المقبول هو الدين النصرانى ، وكل ما تقرره النصرانية يقبل من دون مناقشة ؛ أو تهوده موحية إليه أن الدين هو الدين اليهودى ، وكل ما تقرره اليهوية وما يأتى به الكهان من الشعائر والطقوس هو من صلب هذا الدين ؛ أو تمجسه ، تنجسه ، موحية إليه أن المجوسية هى الدين الحق الكامل وأن معتنقيها هم المهتدون الفائزون وغيرهم ضالون خاسرون . فينشأ المولود ، ماقتا كل نحلة غير نحلته ، وكل فرقة لا تنتمى إلى جماعته ، وكل عقيدة تخالف عقيدته ، فيحارب الدين باسم الدين ، ويأتى باسم الدين من المنكرات ما أتى الدين لمحاربتها واجتثاث جذورها فى المجتمع ، ويزيد ويعقد المشاكل والعقبات الحائلة دون السير الإنسانى نحو الهناء والكمال ، ويرتكب من الأعمال المستهجنة ما تستوجب تأصل أسباب العداوة والبغضاء والشقاق والتفرقة بين بنى البشر قرونا وقرونا .

ولو أن رجال الدين فى كل فرقة ونحلة أرادوا وأحبوا أن تدرك الإنسانية المثل الأعلى فى معيشتها ، وتجردوا عن أهوائهم الشخصية ، وعقلوا ماهية الدين وكنهه ؛ لنبذوا كل سبب من أسباب التنكر والعداوة والتفرق ، ولتآلفت نفوسهم وتوحدت قلوبهم : ولتصافوا وتصالحوا واجتمعوا على مائدة واحدة يلتمسون على ضوء دين الله الأوحد ما يتكفل هناء العيش البشرى وسعادته وأخوته على بساط الرحمة والصداقة والكمال .

قلة الكرام

قال أبو تمام :

ولقد يكون ولا كريم تناله ... حتى تخوض إليه ألف لئيم

وقال ابن أبى حازم :

وقالوا لو مدحت فتى كريماً ... فقلت : وكيف لى بفتى كريم
بلوت ومر بى خمسون حولا ... وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يُعَدُّ ليوم هول ... ولا أحد يعود على عديم

الأزهـــــر

وفجر النهضة القومية الحديثة

لحضرة الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله
المدرس بمعهـــد طنطا

لقد سجل التـاريخ للأزهر بحروف من نور ، ولا يزال يسجل له ، الصفحات الذهبية ، فى تاريخ مصر خاصة ، والعالم الإسلامى عامة . ويكفى القول بأنه لا توجد دار علم ، قدمت لبلادها من الخدمات الدينيـة ، والثقافية ، والعلمية ، والاجتماعية وغيرها ، كما فعل الأزهر . وإن تقصى هذه الخدمات ، ومعرفة ما قام به الأزهر فى سبيل حفظ التراث الإسلامى أغنى من أن يعرف ، وأوسـع من أن تسعه صفحات ؛ وسنتجه بالبحث إلى ناحية جديدة قلما طرقها القلم ، وهى مواقف الأزهر المجيدة فى كبح جماح الطغـاة والمستبدين ، وكيف كان علماؤه يقفون كالصخرة فى وجـه هؤلاء ليردوا إليهم صوابهم ، ولو لزم ذلك تضحية كل نفيس وغال ، ولم يكن معهم من سلاح سوى إيمـانهم بأنهم يعملون للصالح العام ، فكان صدقهم سبباً فى نجاحهم فى كثير من مواقفهم الـكريمة .

فى سنة ١٢١٩ هـ كان والى مصر (خورشيد باشا) يعمل ما فى وسعه للتخلص من أقوى شخصية فى مصر فى ذلك الوقت ، وهو (محمد على باشا) ؛ وطلب من الحـكومة العثمانية إرسال جيش لتهدئة الحالة فى البلاد ، فأجابت طلبه .

وبينما كان محمد على باشا يطارد المماليك فى الصعيد ، وصلته الأخبار بأن جيشاً عثمانياً فى طريقه إلى القاهرة ، فلم يفت عليه غرض الوالى الذى كان يتحين الفرص للتخلص منه ؛ لذا نفض يديه من معارك المماليك وقفل راجعاً إلى القاهرة .

ولما سمع الوالى برجوعه جن جنونه إذكان معنى ذلك أن محمد على باشا قد فطن إلى نواياه وهو يحاول أن يستعد للأمر قبل وصول الجيش العثمانى. رأى الوالى أن يلجأ إلى العلماء ليؤلبهم ضد محمد على باشـا ، وكان هؤلاء هم قادة الرأى العام وأى كفة يضمون إليها يجدون الشعب من حولهم . فجمعهم وطلب منهم إما أن يعملوا على إرجاع محمد على باشا إلى الصعيد لقتال المماليك ، أو أن يطلبوا منه مغادرة القطر المصرى ؛ وطلب منهم أن يبقوا عنده فى القلعـة كرهائن حتى ينفذوا ما أراد . اعتذر له العلماء بأنهم لا يستطيعون إعطاءه رأياً حاسمـا ، إذ أن زعماءهم أمثال الشرقاوى والبكرى والمهدى غائبون عن القاهرة ، وأشاروا عليه أن يؤجل ذلك إلى حين حضورهم ، فوافق على ذلك بشرط أن يبيت فى القلعـة كل ليلة اثنان من العلماء فى الضربخانة كرهينة . لم يكن غرض الوالى بخاف على العلماء الذين كانوا يعلقون آمالهم بمحمد على باشـا الذى برهنت الحوادث على أنه الشخصية الوحيدة التى يمكنها إنقاذ البلاد من الخراب المحقق الذى تسرع نحوه نظراً لسوء تصرفات المماليك والولاة ، ولم يكن سكوتهم حتى ذاك الحين عن جبن ، إنما كانوا ينتظرون الفرصـة الملائمة لإعلان رأيهم فى صراحة ؛ ولم تلبث هذه الفرصة أن أتيحت .

فظائع الجيش العثمانى الجديد :

وصل هذا الجيش إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٢١٩ ، وكان عبارة عن ثلاثة آلاف من الجنود الدلاة ، وقد دخلوا القاهرة دخول الظافر المنتصر ، فارتكبوا من الفظائع ما يقشعر لها البدن ؛ إذ أخرجوا الناس من منازلهم ، ونهبوا دورهم ، وحجزوا نساءهم ، وكانت هذه الأعمال سبباً كافيا لإثارة الشعب الذى لجأ إلى العلماء ليضعوا حداً لهذه الحالة السيئة ؛ فتوجه هؤلاء إلى الوالى وأجبروه على إصدار أمر بعدم تعرض الجند لأحد . ولكن الجند لم يطيعوا للوالى أمراً ؛ فعاد العلماء إلى الاجتماع مرة أخرى ، فوعدهم بترحيل الجند عن القاهرة فى مدى ثلاثة أيام .

العلماء يتدخلون لحل الأزمة بين الوالى والشعب :

انتهت الفترة التى حددها الوالى لجلاء الدلاة ، ولم يرحل منهم سوى النصف ،

ورفض النصف الثانى الخروج حتى تدفع رواتبهم، وتمادوا فى فسادهم . استحث الأهالى العلماء لعمل شىء فى سبيل حمايتهم من عبث الجنود، فاتفق هؤلاء على عقد مؤتمر عام فى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) يوم ١٢ صفر سنة ١٢٢٠ ه وما إن ذاع نبأ هذا الاجتماع بين الأهالى حتى يمموا فى صبيحة هذا اليوم إلى ساحة بيت القاضى ليرقبوا الحالة عن كثب، وبين هتافات الجماهير الهائجة انعقد المؤتمر ، وأرسل العلماء إلى الوالى لينتدب وكلاء عنه ليشهدوا قرارات المؤتمر ، فأرسل اليهم سعيد أغا الوكيل وبشير أغا وعثمان أغا والدفتردار، وفى هذه الجلسة التاريخية حرر العلماء بيانا بمطالب الشعب نلخصها فيما يلى :

أولا : لا تفرض ضريبة من اليوم إلا إذا أقرها العلماء والأعيان .

ثانيا : تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة .

ثالثا : لا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه .

رابعا : أن تعاد المواصلات فورا بين القاهرة والوجه القبلى .

وبعد الفراغ من تحرير هذه المطالب أعطوا صورة منها لكل من القاضى ووكلاء الوالى الذين وعدوا بالرد عليها فى اليوم التالى ثم انصرفوا لتبليغها إلى الحاكم .

كان خورشيد باشا رجلا عنيداً ، فبدلا من أن يحاول تهدئة الحالة أرسل يستدعى العلماء ونقيب الأشراف إلى القلعة للتشاور فى الأمر، وكان قد أعد كمينا لاغتيالهم فى الطريق ، ولولا حيطة السيد عمر مكرم لنفذ ما أراد ، ولكن نقيب الأشراف حذر العلماء من استجابة دعوة الوالى، إذ أنه لا يبغى سوى التخلص منهم بدلا من بحث الحوادث والوصول إلى حل ملائم .

انتخاب محمد على باشا واليا :

اعتبر الوالى هذه القرارات بمثابة إعلان للتمرد، كما أن العلماء ووكلاء الشعب اعتبروا أن عدم إجابة الوالى لطلباتهم بمثابة تخليه عن الحكم .

فاجتمع مؤتمر عام فى دار المحكمة الكبرى فى ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ لبحث الموقف، واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا ، وتوجه أعضاء المؤتمر من

العلماء ، والأعيان تتبعهم الجماهير إلى دار محمد على باشا لإخباره بقرارهم ، فلما سمع هذا نبأ عزلهم خورشيد باشا سألهم ، ومن تريدونه والياً ؟ ، فقالوا له ، لا نرضى إلا بك والياً بشروطنا ، لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، .

تردد محمد على باشا فى قبول هذا الانتخاب الفريد من نوعه فى تاريخ مصر ، ثم قبِـل أخيراً . فنهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر وألبساه خلعة الولاية ، وكان ذلك فى عصر يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ ، وأمروا أن ينادى به واليا على مصر فى أنحاء المدينة .

كان هـذا الانقلاب من الحوادث الفريدة فى تاريخ مصر ، فقد قام العلماء والأعيان ورؤساء الطوائف بصفتهم ممثلى الشعب بانتخاب الرجل الذى يصلح للحكم ، وبذا وضعوا حدا لهذه الفوضى التى لم تشهد مصر لها مثيلا ، وقد تم هذا الانتخاب بالرغم من الفرمان السلطانى الصادر بإسناد ولاية جده الى محمد على باشا ، وبالرغم من تأييد الحكومة التركية لخورشيد باشا ، كما جاء دليلا على استقلال مصر نهائيا عن الدولة العثمانية .

الاصطـدام مع خورشيد باشا :

لم يكن خورشيد باشا بالرجل الذى يستسلم بسرعة ، وعند ما قابله وفد من العلماء لإبلاغه قرارات المؤتمر وإقناعه بقبولها حقنا للدماء ، أجابهم بقوله ، إنى مولى [١] من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطنة » .

رأى العلماء أن يتصلوا بمستشارى الوالى ، وهما عمر بك وصالح أغا ، لعلهما يقنعانه بضرورة احترام « ما اجتمع [٢] عليه رأى الجمهور من عزل الباشا ، وأنه لا ينبغى مخالفتهم ، لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم » . فطلب مستشارا الوالى سنداً شرعيا مثبتا لعزله ، فما كان من العلماء إلا أن اجتمعوا يوم الخميس ١٦ صفر بدار المحكمة الكبرى ، وحرروا محضرا فى شكل سؤال

[١ ، ٢] الجبرتى ج ٣ ص ٣٥٠ .

وجواب على نحو الفتاوى ، وقام بتحريره الشيخ محمد المهدى ، ووقعوا عليه جميعا ثم أرسلوه الى الوالى . وفى ٢٥ صفر نزل عمر بك من القلعة فقابله السيد عمر مكرم ودار الحديث بينهما بصدد المحضر ولكنهما لم يتفقا على شىء .

أخذ خورشيد باشا يستعد للحرب ويحصن القلعة ، كما قام محمد على باشا والعلماء بمحاصرته لإجباره على التنازل ، وكانت الأوامر خلال الحرب تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء ، واستمرت الحرب سجالا حتى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ الموافق ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ .

إقرار ولاية محمد على باشا على مصر :

كان عيب الولاة أنهم يخفون الوقائع عن السلطنة خوفا من عزلهم ، وما إن وصلت أخبار مصر الى السلطان حتى أصدر فرمانا بتولية محمد على باشا واليا على مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » . وكان وصول الفرمان مبطلا لحجة خورشيد باشا فى عدم تنازله ، ولكنه بالرغم من ذلك أصر على المقاومة حتى أجبر أخيراً على الخروج من القلعة يوم ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ الموافق ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ . ومن هذا التاريخ بزغت شمس تاريخ مصر القومى ، ناشرة دفء الحرية وضياء النهضة فى ربوع البلاد .

يقول الجبرتى « انتصر محمد على باشا بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا » . ويقول قولا بل « ولا جدال [1] فى أن المطالب التى فرضها الشيوخ على خورشيد باشا تدل على ما كان يجيش بصدورهم من الإحساس بالحرية ، وما يشعرون به من الحاجة الى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة . ولقد كان هذا الشعور الى ذلك العصر مجهولا فى الشرق ، وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت فى تلك الآونة الى محمد على باشا ، وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم ، فما ذاك إلا لأن محمد على باشا قد دعا الى مبادىء الحرية ، وأعلن فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه » ؟

---

[١] الحركة القومية للرافعى بك جـ ٢ ص ٣٨٢ .

عيد الفطر فى الاسلام

لحضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن

جرت عادة المسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاحتفال بعيد الفطر المبارك ، وكانت مظاهر هذا الاحتفال فى عصر صدر الإسلام تبتدىء فى صلاة العيد وتزاور المسلمين وإدخالهم السرور على قلوب الفقراء والمعوزين ، كما كان المسلمون يسارعون إلى أعمال البر فى هذه المناسبة الجليلة ، ويتقربون إلى الله بمختلف أنواع الطاعات والقربات .

لكن لما اتسعت رقعة البلاد التى يرفرف عليها العلم الإسلامى ، وانضوى كثير من الممالك والشعوب تحت لواء هذا الدين الحنيف ، ولما اختلط المسلمون بغيرهم من رعايا البلاد التى فتحوها وتبادلوا وإياهم العلوم والمعارف ، ولما شاع الترف والرخاء فى الدولة الإسلامية وخاصة منذ اعتلى العباسيون أريكة الخلافة ـ بدأت الاحتفالات بعيد الفطر تتخذ مظهرا جديدا وتتم على نحو آخر لم يكن مألوفا من قبل .

ففى العصر العباسى مثلا كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى فى مختلف البلاد الإسلامية ، وخاصة العواصم الكبرى مثل بغداد ودمشق وبيت المقدس ، وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ الذروة من الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون الشعور الإسلامى فيها قويا مثل طرسوس التى كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ، كما ترد إليها تبرعات من لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم ، ولعل سبب حرص المسلمين على إظهار الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها فى الاحتفال بالأعياد فى طرسوس ، رغبتهم فى إبراز قوتهم وتجليتها أمام أعدائهم من الروم فى هذه البلدة الواقعة على حدودهم ، والتى كانت تعتبر من الثغور الإسلامية المهمة .

وكانت المدن الإسلامية الكبرى تسطع فى أرجائها الأنوار فى ليالى العيد ، وتتجاوب فى جنباتها أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل ، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتتلألأ الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخلافة ، وكان الناس يلبسون الطيالسة السود تشبها بخلفائهم العباسيين ، كما كان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها : فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . [حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٢٢] .

وكان الخلفاء يعملون على استرضاء رعاياهم بما يبذلونه لهم فى هذه المناسبات الدينية من العطايا والأرزاق والهبات ، وبما يقيمونه من المآدب والحفلات ، وما يمدونه من الأسمطة التى يدعون اليها الخاص والعام .

وكانت روعة الأعياد وأبهتها تنعكس فى شعر الشعراء المعاصرين ، كما يتضح من هذه القصيدة التى نظمها أبو إسحق الصابى يهنىء فيها عضد الدولة بن بويه أحد سلاطين بنى بويه فى بغداد بعيد الفطر ، ومنها :

يا ماجدا يده بالجود مفطرة	وفوه من كل هجر صائم أبدا
أسعد بصومك إذ قضيت واجبه	نسكا ووفيته من شهره العددا
واسحب بذا العيد أذيالا مجددة	واستقبل العيش فى إفطاره رغدا
وانعم بيومك من ماض قررت به	عينا ومنتظر يفضى إليك غدا
وفز بعمرك ممدودا وملكك مو	طودا ونل منهما الحد الذى بعدا

[يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ٢٥٢ .

على أن الدولة الفاطمية كانت تحتفل بالعيدين احتفالا يفوق الوصف . والسبب فى ذلك راجع الى أنها كانت جد حريصة على أن تطبع الشعب المصرى بطابعها الخاص ، وأن تصوغ عقليته وروحه وتفكيره وحياته العامة والخاصة وفقا لمناهجها ورسومها ، ولهذا اتخذت الحياة الاجتماعية فى هذا العصر مظهرا من البذخ والترف قل أن نجد مثله فى عصر من العصور الإسلامية ، فلقد كانت مواكب الفاطميين وأعيادهم وحفلاتهم الرسمية ومآدبهم الفخمة وبذلهم المأثور - مناسبات مشهورة تثير من حولها الإعجاب والروعة ، كما كانت مثار المرح والبهجة العامة بين الأهالى

ولا زالت آثار من هذه التقاليد الفاطمية تتضح فى عصرنا هذا فى كثير من نواحى حياتنا الاجتماعية .

وقد كان الخليفة الفاطمى يخرج فى صبيحة يوم الفطر من باب خاص فى قصره ، يسمى باب العيد ، إلى المصلى فى موكب فخم وعليه الثياب البيض الموشحة وينتظم القوم له صفين من باب القصر الى المصلى ، فيدخل من شرقيها إلى مكان يستريح فيه قليلا ، ثم يخرج محفوفا بحاشيته إلى المحراب ، والوزير والقاضى وراءه فيصلى بالناس صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، فإذا فرغ منها وسلم صعد المنبر لخطابة العيد ، ووقف أسفل المنبر الوزير وقاضى القضاة ، وصاحب الباب ، وغيرهم من كبار الموظفين ورجالات الدولة ، ثم يصعد هؤلاء إلى المنبر كل حسب درجته ويقفون عن يمين الخليفة وشماله ، ثم يخطب خطبة بليغة مناسبة للمقام ، فإذا فرغ منها نزل أفراد الحاشية من على المنبر حتى إذا خلا منهم نزل الخليفة ودخل المكان الذى خرج منه فيلبث قليلا ثم يعود إلى قصره فى الهيئة التى أتى فيها إلى المصلى . وقد قال المسبحى فى وصف أحد هذه المواكب : « وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب ، والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمظلة الثميلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف » [الخطط ح ٢ ص ٣٢٣] .

ويمتاز عيد الفطر بأنه كان يقام فيه سماطان حافلان فى قصر الخليفة . أما أولهما فينظم أثناء الليل بالإيوان الكبير قبالة مجلس الخليفة ، ويبلغ طوله ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وتنثر عليه أنواع الفطائر وصنوف الحلوى الشهية مما صنع فى دار الفطرة الخلافية ؛ فإذا صلى الخليفة الفجر عاد إلى محله وفتحت أبواب القصر على مصاريعها ، وأخذ الناس يهرعون الى السماط يلتهمون ما عليه من شهى الأطعمة ، ومنهم من يحمل معه ما يستطيع حمله فيأكله فى يومه أو يدخره لغده أو يبيعه إذا لم تكن به إليه حاجة . فإذا بزغت الشمس خرج الخليفة فى موكبه السابق الإشارة إليه لصلاة العيد .

وأما ثانى السماطين فيقام فى قاعة الذهب أثناء خروج الخليفة لصلاة العيد ، فإذا عاد من الصلاة وجد السماط معدا فيجلس فى مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها المدورة ، عليها أوانى الذهب والفضة ، حافلة بكل ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، وقبالة هذه المائدة سماط ضخم يتسع لخمسمائة مدعو ، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصف فوقه الأطباق [١] والصحون الحافلة بصنوف الشواء والطيور ، والمترعة بالألوان الفائقة من الحلواء المائعة والطباهجة المشققة ؛ ويعمل بدار الفطرة الخلافية قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطارا فيوضعان فى طرفى السماط ، ويجلس الى ذلك السماط الهائل رجالات الدولة وعظماؤها وذوو الرأى فيها ، فيتناولون من تلك الأطعمة الشهية ما شاءوا ، ويأخذون بأسباب الفرح والسرور ، وعند الظهر ينفض المجلس وينصرف الناس .

هذا وصف سريع يصور لنا كيف كان سلفنا يتخذون من هذا العيد موسماً للبر والخير والإحسان الى الفقراء ، وإن كان فى بعض أعمالهم كثير من الترف والإسراف المنهى عنه . وفقنا الله لإحياء ليالى هذا العيد وأيامه بما يتناسب وهذه المناسبة الدينية السعيدة ، إنه سميع مجيب الدعوات ؟

مكانة الشعر

قال أبو تمام الطائى :

إن القوافى والمساعى لم تزل ... مثل النظام إذا أصاب فريدا
هى جوهر نثر فإن ألفته ... فى الشعر كان قلائداً وعقودا
من أجل ذلك كانت العرب الأولى ... يدعون هذا سؤدداً مجدودا
وتند عندهم العلى إلا على ... جعلت لها غرر القصيد قيودا

---

[١] يروى المقريزى أن هذا السماط كان يشتمل على واحد وعشرين طبقاً فى كل طبق واحد وعشرون ثنياً سمينا مشويا وفى كل من الدجاج والفراريج والحمام ثلثمائة وخمسون طائراً ، ويسد خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات . . . [خطط ج ٢ ص ٢٢٩]

المجتمع والسياسة
فى الأدب المصرى الحديث

بحث للمستشرق الانجليزى الأستاذ
ج . هيورث I. Heyworth Dunne
الأستاذ بجامعة لندن

نقله إلى العربية
نور الدين شريبة
خريج كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر

اشتمل العهد الذى يقع بين سنة ١٨٨٢ و سنة ١٩١٤ ، على كـتاب عديدين ذوى أهمية ، لا يرجع إلى مؤلفاتهم إلا نادرا ؛ مع أنه يجب أن تدرس دراسة دقيقة إذا أراد المرء أن يعرف معرفة حقة ، كيف كان رد الفعل السياسى والاجتماعى الذى نشأ عن هذا الصدام القوى بالغرب .

ومن بين هؤلاء (سليم النقاش) ، أحد أفراد الجالية السورية ، التى استوطنت مصر ، وحبست مواهبها على خدمة القضية المصرية . وكتابه الضخم (مصر للمصريين) [١] المطبوع سنة ١٨٨٤ لا غنى عنه لمن يكتب عن الناحية السياسية فى هذا العهد . ففيه كثير من المعلومات لا توجد فى غيره ؛ وقليل ممن تصدروا للدفاع عن الفلاح ، فعلوا كما فعل (النقاش) .

ولم يتقدم كاتب كتب عن مشاكل المصريين الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية والثقافية ، على جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده — وقد تحدثنا عنهما عند الكلام على عصر إسماعيل باشا — وكتابتهما فى متناول قارىء (العروة الوثقى) [٢] ، وفى الجزء الثانى من تاريخ الشيخ محمد عبده ، الذى جمعه الشيخ رشيد رضا [٣] أحد تلاميذه . وللعروة الوثقى مكانة ملحوظة ، وقد طبعت عدة مرات .

---

[١] سليم النقاش : مصر للمصريين : الاسكندرية سنة ١٨٨٤ فى تسعة أجزاء .

[٢] جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى . بيروت سنة ١٩١٠ ، القاهرة سنة ١٩٢٨ ، سنة ١٩٣٣ .

[٣] رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الأمام ٣ مجلدات . القاهرة سنة ١٩٠٨ - ١٩٣١ .

وقد جمع الشيخ على يوسف مقالاته عن هذه المشاكل، وطبعها سنة ١٨٩٠، بعنوان (مختارات المؤيد) [١] وكان على يوسف شخصية سياسية هامة فى عصره؛ فهو صديق للخديوى، ورفيق وثيق الصلة بجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده.

وظهر كذلك، خلال العقدين الأخيرين، من القرن التاسع عشر، عدد كبير من الصحف والنشرات؛ قام عليها كتاب انغمسوا فى الحياة السياسية السرية فى مصر. وأحد مشاهير هذه المدرسة عبد الله النديم؛ وقد كان، فى الحقيقة، زعيما سياسيا، ومهيجاً تخشى الحكومة بأسه.

ومن أبرز مؤلفاته (الأستاذ) [٢] وهو وثيقة نادرة عن دراسة مصر. فإذا صرفنا النظر عن عمله السياسى، وجدنا أنه اشتهر بالشعر والخطابة. وكان أحد رءوس الثورة العرابية العاملين، ونفى من مصر مرات عديدة؛ وفى النهاية مات فى القسطنطينية سنة ١٨٩٦.

واجتمع لهذا العصر حشد من الصحف، التى تكشف عن مقدرة المصرى الفائقة، فى تهيئة ذكائه وهجوه لإنشاء الرسائل السياسية. والكثرة الغالبة من هذه الصحف، وهى جديرة أن تقرأ، كان ينشرها رجال وهبوا حياتهم للسياسة الهدامة، وكانوا على استعداد لبذل حياتهم فى ذلك [٣].

وكتاب محمد عمر (حاضر المصريين) [٤] المطبوع سنة ١٩٠٢ هو لون آخر

---

[١] على يوسف: مختارات المؤيد. القاهرة سنة ١٩٠٦. وقد أغفل معجم سركيس للمطبوعات العربية هذا الكتاب.

[٢] عبد الله النديم، الأستاذ، القاهرة سنة ١٨٩٢. وللنديم مؤلفات أخرى، مثل: سلافة النديم، فى مجلدين، القاهرة سنة ١٨٩٧، كان ويكون، القاهرة ١٨٩٢، المسامير، القاهرة، لم يثبت تاريخ طبعه، المقالات، القاهرة سنة ١٩١٠. وهذه المؤلفات ضرورية لدراسة العهد الكرومرى سنة [١٨٨٧ — ١٩٠٧].

[٣] وهذه أمثلة قليلة، ذكر معها تاريخ صدورها: محمد توفيق؛ حمارة منيتى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٨. محمد النجار، الأرغول، أول سبتمبر سنة ١٨٩٤. حسين توفيق؛ الأرنب سنة ١٩٠٦ محمد توفيق؛ الموقوذة، ٢ مايو سنة ١٩٠٥ محمود حمدى ومحمد هلال الابيارى، الزمان، ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨. غزل البنات، لا يعلم صاحبها، فبراير سنة ١٨٩٩ المهدى، لا يعلم صاحبها، ٨ يوليو سنة ١٨٩٨. الفيلسوف، لا يعلم صاحبها، ١٠ مايو سنة ١٩٠٤. عبد الرحمن الهندى، عفريت الحمارة، ١ مايو سنة ١٩٠٦.

[٤] محمد عمر. حاضر المصريين. القاهرة سنة ١٩٠٢.

من الدراسة الاجتماعية . والمؤلف يحلل - فى تفصيل - نظام المصريين السياسى، والاجتماعى، « وأسباب تأخرهم » ، كما يقول المؤلف ، فى تكملة عنوان كتابه . ولا يزال الكتاب يقتبسون الكثير من ملاحظاته ، كما لا تزال الصحف تنشر بعضها . ويبدو أنه واحد من مدرسة المعجبين بأوربا فى مصر . فهناك كتاب فتحى زغلول (سر تقدم الإنجليز السكسونيين) (١) . وكتاب أمين فكرى ، الذى يقع فى ثمانمائة صفحة ، وقد صدر سنة ١٨٩٢ ، بعنوان (إرشاد الألبا الى محاسن أوربا)(٢). وكان من أشد الناس حماسة لهذه المدرسة ، مصطفى فهمى باشا ناظر النظار فى عهد اللورد كرومر . وقد اشتهر بأنه انجليزى النزعة (٣) .

فاذا تخطينا ذلك الى الجانب اللاهى ، فى الوقت السابق ، على سنة ١٩١٤ ، بدا لنا أن الرواج المتزايد ، مضافا اليه إقصاء المصريين عن النشاط السياسى والاقتصادى فى مصر ، قد ساعدا على الانغماس فى التسليات الاجتماعية .

وقد شهد هذا العصر نمو مدرسة الموسيقى المصرية ، التى بدأها عبده الحامولى ، ونماها تنمية علمية كامل الخلعى ، الذى ألف كتابين عن هذا الموضوع (٤) وقد غذى ذلك بدوره مدرسة من مشاهير الشعراء والمغنين ، تجمع حولها تدريجا مجتمع عكف على تسلية نفسه (٥) . وكان الجانب الأكبر من هذه التسلية ،

---

(١) فتحى باشا زغلول : سر تقدم الانجليز السكسونيين ، القاهرة سنة ١٨٩٧ ، طبعة ثانية سنة ١٩٠٨ .

(٢) أمين باشا فكرى : إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا ، القاهرة سنة ١٨٩٧ . ومن مؤلفاته الهامة أيضاً : الآثار الفكرية ، القاهرة سنة ١٨٩٧ .

[٣] اشتهر مصطفى فهمى باشا بأنه انجليزى النزعة ، حتى قيل عنه إنه كان يرسل ملابسه إلى انجلترا كل أسبوع لتكوى فيها ، بواسطة شركة [P. & O. Clteamer] ومما هو جدير بالملاحظة أنه زوج ابنته لسعد زغلول باشا ، أبى الحركة الوطنية فى مصر .

(٤) كامل الخلعى : الموسيقى الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٠٤ . نيل الأمانى فى ضروب الأغانى . القاهرة لم يذكر تاريخ طبعه .

(٥) خير المجاميع التى تضم أغانى هذا العصر هو كتابا محمود حمدى البولاقى : المغنى المصرى . القاهر سنة ١٩٠٤ وطبعات أخرى . مفرح الجنس اللطيف . القاهرة سنة ١٩٠٤ ، وطبعات أخرى . وكتاب عبد المتعال منصور نزهة العاشق الولهان فى الأغانى والأناشيد والألحان ، فى مجلدين ، طبع القاهرة سنة ١٩٠٩ .

يحدث فى (مسرح ألف ليلة وليلة) ، بيد أن التشجيع الذى أولته كثير من الشخصيات البارزة ، لهؤلاء المغنين ، كان له أظهر الأثر فى تقدم الموسيقى والغناء . ولقد اعتاد قادة المجتمع أن يتسابقوا فى إجزال العطاء للموسيقى أو المغنى . وحسبنا أن نذكر حسن الآلاتى ، وذكرياته ـ التى جمعها فى ثلاثة مجلدات ـ عن ملاهى القاهريين ، وحياتهم الليلية ، التى لم يكن يعرفها غير طوائف معينة من المصريين [1] ؛ حسبنا أن نذكره لنعرف مبلغ ما قدمه هؤلاء المكرمون للناحية الأدبية .

كان حسن بوهيمى النزعة ، جمع حوله (الكتاب ، Sitterateurs) و (الشعراء الأدباتية) وأرباب الملح ، وهلم جرا .

وكان لهم ناديهم الخاص ، خلف دار الكتب المصرية (الكتبخانة) الذى كان يسمى ، فى شىء من الدعابة والاستفزاز (المزاج خانة) .

ومن بين أصدقاء حسن المقربين ، محمد البابلى ، أحد مشاهير أرباب الملح فى مصر . وقد طبع أحد أبنائه مجموعه [2] تضم نوادره . كما كان من بين أصدقائه محمد رشاد ؛ ومحمد المويلحى ، والشاعر الشهير حافظ ابراهيم . وهؤلاء جميعا قد ابتدعوا طريقة فى نطق العربية ، طبعها الزعيم الوطنى سعد زغلول باشا .

وهناك نوع آخر من الأدب، كثيرا ما أهمل شأنه ؛ وهو ، من بعض الوجوه ، دراسة خاصة ؛ إذ أنه كتب فى لغة عامية ، ذلك هو الزجل ، الذى يحوى ما هو جدير بالمصريين من عبقرية ، وحب نادرة ، وسحر . وهذه المدرسة هامة من الناحية الاجتماعية ، أهميتها من الناحية اللغوية . فعن طريق هذا الأدب يستطيع المرء أن يعرف فلسفة الشعب معرفة دقيقة ؛ فليس هناك مرآة أصدق من مرآة الزجل . وعزت صقر ، مثلا ، يصور الحياة الاجتماعية والسياسية حتى الحرب العالمية الأولى . ولغته مثيرة ، ولكن الجميع يفهمونها ويحبونها . وصورته

---

(١) حسن الآلاتى : ترويح النفوس ومضحك العبوس ، ثلاث مجلدات ، القاهرة سنة ١٨٨٩ - سنة ١٨٩٢ .

(٢) محمد البابلى : البابلى ، القاهرة سنة ١٩٦٣ .

عن الحياة فى منطقة الأزبكية بالقاهرة صورة صادقة؛ وقد كانت الأزبكية حينئذ مركز المقاهى والحانات وحياة الليل . فلما وقعت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ ، وجه زجلا إلى اللورد كرومر Eord Cromer) يعتبر نموذجا لذلك الضرب من الأدب ، يستطيع الإنسان أن يدرك منها رغبة المصرى فى تعزية نفسه بهذا الضرب من الشعر ؛ ما دام محروما من حريته السياسية . فهذا الشعر ، عنده على الأقل ، يضعه على قدم المساواة مع كرومر العظيم ! وله زجل آخر يوجهه إلى بنى إسرائيل ، وآخر عن الحرب الروسية اليابانية ؛ وآخر عن الطيارين الأتراك ، الذين أسقطهم البريطانيون . وديوانه [١] جدير أن يدرس ، لما يفيضه من لذة ، ولوصفه الحياة المصرية [٢] .

فأما العهد الذى ولى الحرب العظمى الأولى ، فقد حفل بمادة جديدة للدراسة . وكان ظهور مدرسة جديدة ، من مؤلفى الروايات والأقاصيص — وهيكل طليعتهم — ذو أهمية خاصة . وقد ظهرت أولى قصصه (زينب) [٣] سنة ١٩١٤، ولكنه لم يجرؤ - أول الأمر - أن يعلن أنه مؤلفها ، لأن الوسط الجديد كان فى طور التجربة . وعالج هيكل كثيرا من المشكلات المتصلة باستعمال العربية الدارجة للتعبير عن الحوار المكتوب .

والمازنى مؤلف آخر من مؤلفى هذا العصر . وقصته (إبراهيم الكاتب [٤]) ثورة مدعمة على استعمال العامية . وإذا كان هيكل يمدنا بدراسة اجتماعية قيمة ، عن الحياة فى الأوساط الريفية ، فإن المازنى يصف المجامع الأدبية والفكرية ، التى كان يحيا فيها ؟

---

(١) عزت صقر : ديوان ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(٢) وتضم هذه المدرسة مؤلفين آخرين ،ومؤلفات أخرى ، مثل عثمان جلال : الأربع روايات ، القاهرة سنة ١٨٩٠ ، وله غير ذلك تسع مؤلفات فى الأدب ، والمترجمات ، والدواوين الزجلية . محمد النجار ، ولم تجمع أزجاله الشهيرة فى ديوان . حفنى ناصف ، تاريخ الأدب ، القاهرة سنة ١٩١٠ . محمد باشا صدقى ، وأشعاره مبعثرة فى الصحف والمجلات . محمد توفيق (أنظر ما كتب عنه من قبل) . إمام العبد ، الذى لم تجمع مؤلفاته . سيد درويش ، وكثير من أغانيه موجودة فى دواوين مختلفة .

(٣) محمد حسين هيكل ؛ زينب ؛ القاهرة سنة ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٢٩طبعة ثانية ، وله كذلك ؛ فى أوقات الفراغ ، القاهرة سنة ١٩٢٥ .

(٤) ابراهيم عبد القادر المازنى : ابراهيم الكاتب ، القاهرة سنة ١٩٣٠ ، وله كذلك « صندوق الدنيا ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

الوساطة الروحية

بين يدى كتاب يُدعى (الوساطة الروحية) لو ظهر فى أمة تعنى بالبحوث الجديدة ، وتهتم بما يصدر فيها قيما غير ذى عوج ، لنفدت طبعته الأولى فى أيام ، ثم تلاها غيرها متتابعة مرات كثيرة ، لما اشتمل عليه من جديد المباحث ، وطريف المطالب ، وما فتح فيه للعقول من مجالات مجهولة للنظر ، ومواطن خفية للحقائق العليا . فهذا النوع من المؤلفات ، وخاصة إذا لم يكن لواضعيها اتصالات صحفية ، يبقى مجهولا فى بلادنا لا يلتفت إليه أحد ، وإذا نُوه به كان ذلك فى عبارات تشف عن عدم الاطلاع على موضوعه ، فيتلاشى كل ما قيل فيه ولا يعلق منه شيء بالأذهان .

إن الفتوحات الروحية التى ظهرت فى سنة (١٨٤٦) فى أمريكا ثم ما لبثت أن انتقلت منها إلى أوربا ، لا تزال موضع اهتمام العلماء والباحثين إلى اليوم ، بل تضاعف الاهتمام بها إلى حد لم يسبق له مثيل لأى موضوع علمى آخر ، لأنه يتعلق بالشخصية الانسانية وما ينتظر لها بعد موت الجسد ، وللناس الحق فى الاهتمام بها إلى هذا الحد ، بل لأكثر منه ، نظرا لتعلقها بالبقاء بعد الموت بقاء غير محدود .

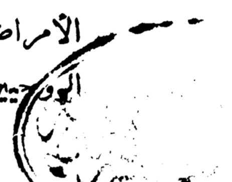
إن أوربا اليوم تدعى أنها كما وصلت إلى كشف مجاهل العالم الأرضى ، فلم يبق فيه موطىء لقدم مجهولا ، أنجحت كذلك بعد محاولات مجهدة فى سنين كثيرة ، فى الاتصال بعالم الروح ، فأمكن التخاطب بين الموتى والأحياء ، أولا بالطَرق والاتفاق على أسلوب التفاهم به ، ثم بواسطة وسيط من البشر تستولى على أداة صوته فتتكلم به بينما يكون هو فى غيبوبة ، وفى هذه الحالة يجىء صوتها كصوته لوحدة الأداة الصوتية ، ثم توصلت لإعطاء صوتها بواسطة حنجرة تصنعها من المادة الكونية للضرورة الوقتية فيجىء صوتها على ما عهده الناس لم يتغير . وجريا على هذا الترقى تأتى أرواح فتكلم الناس فى الراديو مسمعة صوتها للعالم كله فيعرفها من كان يعرفها به . وقد أعلن اليوم فى الأهرام أن جمعية البحوث الروحية المصرية ستقوم بعمل هذه التجربة فى الراديو المصرى فيسمع الناس أصواتا يعرفونها لموتاهم ؛ وفى ذلك ثقة روحية لاتقدر فى جلالة ثمراتها الأدبية .

أعود لحديث الكتاب الذى بين يدى ، فأقول : هو كتاب يقع فى أربعمائة وثلاثين صفحة بالقطع المتوسط وبالحرف الصغير ، تناول موضوع المباحث الروحية من أول نشوئها فوفاها حقها من التفصيل والتمحيص ، ثم أخذ ينتقل من دور الى دور لتلك المباحث حتى أتى عليها جميعا فى بيان رائع ، ودقة علمية ، يحوط ذلك كله رفق بالقارىء ، وشعور بما تتطلبه طبيعته من الدلالات العلمية والتجريبية فيؤتيه بها خلاصات سائغة ، ومصاصات صافية . وقد اضطرنى حسن تبويب هذا الكتاب ، أنا الذى قرأت فى موضوعه عشرات من الكتب غير مئات من الرسائل والمقالات ، الى قراءته كله ، وهى مقدرة كتابية وتأليفية لم نعهدها كثيرا فى مؤلفاتنا العربية . والذى زادنى إعجابا بهذا الكتاب أنه لم يترك وجها من وجوه الدفاع ، ولا لونا من ألوان التدليل ، إلا أتى به فى أحسن قالب وأوجهه ، ثقة من مؤلفه أن العبرة بالبرهان القاطع لا بالثرثرة بالأقوال المعادة .

إن كاتب هذا الكتاب يقول إنه كتبه بهداية بعض الأرواح العليا له ، وإنهم كانوا ينفحونه له ، أما هو نفسه فلا يستطيع أن يكتب فصلا واحدا منه . أما شهادتى أنا للكتاب فى جملته فهى أنه يصح أن يكون مفخرة لعالم عظيم من علماء هذا العصر . أما اسم الذى كتب اسمه عليه فهو حضرة عبد اللطيف أفندى محمد الدمياطى رقم ١٩ بخان الخليلى .

وأكثر ما أعجبنى فى هذا الكتاب تلخيصه سريان الحركة الروحية فى الأوساط العلميـة من لدن الأساتذة (هير) و (ميبس) والمشترع الكبير ادموندس رئيس الكونجرس الأمريكى ، الى أيامنا هذه فى انجلترة وأمريكا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسائر ممالك أوروبا . وقد تتبعت فيه هذه الحركة تتبعا استقرائيا فوجدت الكتاب قد وفاها حقها الى درجة توجب الإعجاب والإكبار .

يلى هذا فى القيمة العلمية للكتاب ما نشره عن الطب الروحانى ، والعلاج النفسانى ، فإنه من خير ما يكشف للقارىء علاقة الروح بالجسم ، وخضوع الأمراض للإشعاعات الروحية . وقد أتى المؤلف على عدد من كبار المعالجين الروحيين ، وما قاموا به لخير البشرية ، واعتراف الحكومة بذلك وتقديرها له .



فهرس

المجلد العشرين

(لسنة ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩ م)

(ب)